مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

رفيق شامي

الجانب المظلم للحب

ترجمة: خالد الجبيلي

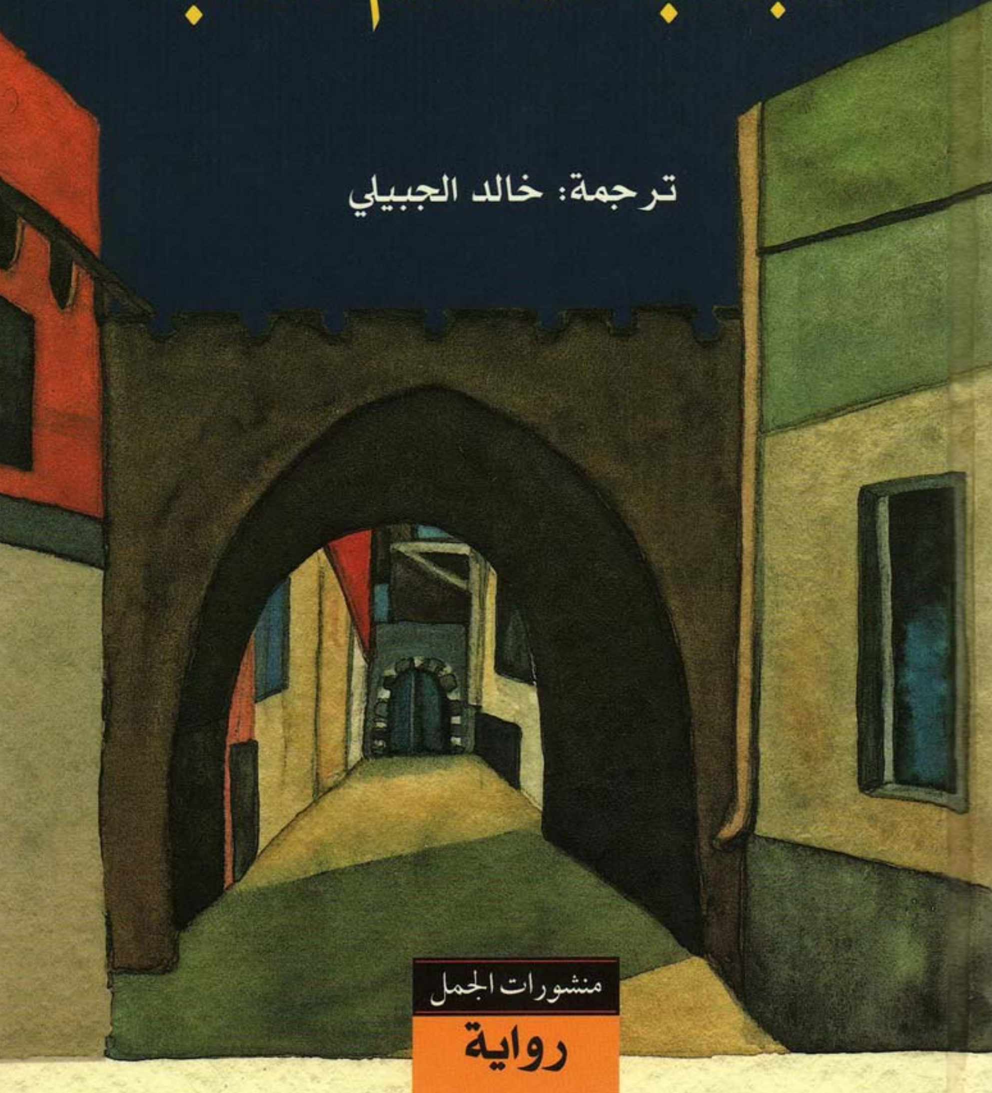

منشورات الجمل

رواية

رفيق شامي

الجانب المظلم للحب

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

twitter @baghdad_library

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع .ح

ولد رفيق شامي (اسمه الحقيقي سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء كي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث أكمل دراسته في الكيمياء وحاز على الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لعدّة سنوات في اختصاصه. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الأدبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها، ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٢٤ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥)؛ **يدٌ ملأى بالنجوم** (٢٠٠٨)؛ **حكواتي الليل** (٢٠١٠)؛ **قرعة جرس لكائن جميل** (٢٠١٢).

رفيق شامي: **الجانب المظلم للحب**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
صورة الغلاف: روت ليب ٢٠٠٤
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٥
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Rafik Schami: *Die dunkle Seite der Liebe*, Roman, 2004
© Rafik Schami 2004

© *Al-Kamel Verlag* 2015
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

GOETHE INSTITUT

ساهم معهد غوته في بعض تكاليف ترجمة هذا الكتاب.

twitter @baghdad_library

إلى امرأتين عظيمتين

حنة يواكيم و روت ليب

twitter @baghdad_library

مقدمة لا بد منها بعد كل هذه السنين

يسرني أيّما سرور أن تصدر روايتي الهامة «الجانب المظلم من الحب» بلغة ثقافتي التي أعشق: العربية. وأن ينقلها إلى العربية أحد أبرع المترجمين: خالد الجبيلي.

صدرت هذه الرواية في عام ٢٠٠٤ بعد عمل شاق دام عشرات السنين، وسيتعرف القراء خلال الرواية وفي نهايتها على الأسباب والطرق التي سلكتها هذه القصة المثيرة حتى رأت النور. لكن هنا، وقبل أن تبدأ الرواية، لي كلمتان، بعد أن أعربت عن سروري.

هناك مفاجآت في الحياة لا يستطيع الخيال حياكتها. فبعد ان أنهيت في خريف ٢٠٠٣ الرواية التي بلغ عدد صفحات نسختها الألمانية أكثر من ألف ومئتي صفحة، قرر الناشر طباعتها على صفحات من القطع الكبير وبورق خفيف من النوعية الرقيقة الممتازة لكي لا يخيف حجم الرواية ووزنها بائعي الكتب والقراء. وبالفعل فقد تراجع عدد الصفحات إلى حوالي ٩٠٠ صفحة وأصبح وزن الكتاب معقولاً. وقد أحبّ ناشري الألماني ميشيل كروجر الكتاب كثيراً، وقرر أن يطبع الرواية، رغم الخسارة الكبيرة التي بدأت تلوح مهددة في الأفق. كنا نتوقع الحصول على ثناء بعض القراء ونقاد الأدب، لكننا لم نكن نتوقع طباعة أكثر من ٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ نسخة. بالطبع، كان الرقم الأكبر هو ابن أمنياتي. وهذه الطبعة، حتى لو بيعت بكاملها، فلن تعادل الكلفة الكبيرة التي تكبدها الناشر. أما بالنسبة لي، فإن المردود، حتى بحده الأعلى الذي كنت أتمناه، لم يكن يكفي لتسديد نفقات فاتورة الهاتف خلال

فترة كتابة الرواية، لكن ناشري كان يأمل في أن تشكل هذه الرواية محطة بارزة في تاريخ داره، كما فعلت أعمال أمبرتو إيكو وميلان كونديرا وإلياس كانيتي وإيتالو كالفينو... كما قال لي مبتسماً. كنت سأكون راضياً حتى لو كانت النتيجة ليست محطة في تاريخ الدار، إنما مجرد موقف باص. فقد تملكني الفرح لأني تحررت من همّ هذه الرواية التي احتلت قسماً كبيراً من تفكيري لسنوات عديدة والتي «طلَّعت روحي» كما نقول بالعامية في دمشق.

لكن خلال فترة قصيرة جداً، تصدرت الرواية قائمة المبيعات، وملأت صفحات النقد الأدبي وخُصِصَت لها صفحات كاملة في كبريات الصحف والمجلات الألمانية. وظلت الرواية تتصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في ألمانيا طوال ٣٥ أسبوعاً. وترجمت هذه الرواية، رغم ضخامتها، إلى أكثر من عشر لغات منها الإنكليزية والإيطالية والهولندية والإسبانية والسلوفينية والتشيكية واليابانية والعبرية والنرويجية والفنلندية والسويدية واليونانية. وتصدرت الرواية أيضاً قائمة المبيعات في إيطاليا وإسبانيا لمدة نصف سنة. كما أشاد بها عدد كبير من النقاد وأثنوا عليها في كبريات الصحف العالمية. لو تنبأ أي صديق بهذه الحقيقة لأشفقت على شفقته علي.

وقد قررت أنا والناشر خالد المعالي أن نبحث وبتأن كبير عن مترجم قدير. كان البعض يريد لكن لا يستطيع، والبعض الآخر يستطيع لكن لا يريد (منهم مترجم سوري ممتاز وخانع ذليل). وتوصلنا بعد بحث طويل، دون أن يؤثر أحدنا على الآخر، إلى قناعة بأن المترجم المناسب هو خالد الجبيلي.

وبدأنا العمل معاً وبشكل ممتاز. وقد ترك لنا خالد المعالي كامل الحرية لنُخرج معاً أفضل ترجمة ومن دون أي رقابة أو حذف، وسررت أيّما سرور بالعينة الأولى التي قام بترجمتها والتي كانت ترجمة رائعة لكنها تحتاج إلى قليل من التعديلات التي لا يستطيع أحد القيام بها سواي، لأن الترجمة لم تأتِ مباشرة من اللغة الألمانية، إنما من الإنكليزية التي قامت بترجمتها

twitter @baghdad_library

المترجمة الشهيرة أنتيا بيل من اللغة الألمانية. إن كل ترجمة هي اختراع جديد للنص، مغامرة غير مضمونة. فخلال النقل من لغة إلى لغة أخرى، يتغير النص قليلاً، وتأخذ بعض الجمل ما أُسَميه «وزناً آخر» غير ذاك الذي صممته أنا، لأن الترجمة كما ذكرت آنفاً هي اختراع جديد للنص، ويرتبط هذا الاختراع بأمرين أساسيين هما: أولاً فهم المترجم للقصة من وجهة نظره ومقدرته اللغوية، وثانياً طبيعة ومقدرة اللغة التي سيُتَرجَم النص إليها. إذ تختفي، على سبيل المثال لا الحصر، نكهة بعض الجمل أو مرحها أو حزنها، لأن المترجم لم يدرك ذلك، بل ترجم بأمانة شديدة فقرة ما ترجمةً حرف بحرف. إن للكلمات جذوراً خفية ومتشعبة، ويمكن ترجمة الجزء الظاهر من الكلمة بدقة وبضمير دون أن تصيب الترجمة الحقيقة لأن للكلمة الإنكليزية أو السويدية مثلاً جذوراً أخرى.

باختصار هذه ليست سوى قمة جبل الجليد الذي ندعوه «صعوبة الترجمة»، وهناك مشاكل أكثر بكثير لن أثقل صبر قرائي بها. فقد قام زميل سويسري لي بتجربة جميلة. فقد أعطى نص قصة قصيرة له بالأصل الألماني لمترجم روسي وأعطى النص الروسي لمترجمة إنكليزية، ثم طلب من مترجم تركي أن يترجمه من الإنكليزية إلى التركية، ومن هناك ترجم النص إلى الفرنسية، ومن الفرنسية تحوّل النص إلى الهولندية، ثم ترجم إلى السويدية ومن السويدية إلى الإسبانية ومنها إلى البرتغالية، ومن البرتغالية تُرجمت القصة إلى الإيطالية ومن هناك ترجمها مترجم قدير إلى الألمانية... وكانت النتيجة، خروج قصة جديدة لا علاقة لها إلا هامشياً بالقصة الأصلية. لقد حدث ذلك في قصة أوروبية وبترجمات من وإلى لغات أوروبية، فما بالك بقصة تدور أحداثها في سوريا، كتبها كاتب يعيش في المنفى بلغة منفاه الألمانية لكي تترجَم القصة إلى الإنكليزية لتعود أخيراً إلى اللغة العربية.

أريد أن أقول الحقيقة بأنني وجدت متعة كبيرة في قراءة نص الرواية كما ترجمه خالد الجبيلي قراءة دقيقة ومقارنته بالأصل وتنقيح ما أخطأ الهدف،

وإعادة ما سقط سهواً أو عبر الانتقال من لغة إلى لغة ثانية فثالثة... وشيئاً فشيئاً، لمست جمال العمل مع خالد الجبيلي. فلا أجمل من عمل مشترك يكنّ فيه كلّ واحد من الطرفين المعنيين الاحترام للطرف الآخر. وهذا ما لمسته يوماً بعد يوم مع خالد الجبيلي وشعرت به تجاهه. فهو رجل دقيق وهادئ ومتواضع إلى أبعد الحدود، ويحب عمله الذي يستمر عشرات الساعات أحياناً لينتج بعدها صفحة.

لذلك سرني العمل بهذه الرواية وأعاد ذكرياتي كلها عن زمن كتابتي لها وأثار فضولي في البحث المجدد عن الحقيقية عندما كانت ترجمة خالد تطرح سؤالاً ما علي.

كل ما أرجوه أن يجد القراء طريقهم عبر هذه الرواية إلى نهايتها المفاجئة التي تتحدث عن حبّ ممنوع بين إنسانين لا لأسباب دينية إنما لأن عائلتيْ بطلة وبطل هذه الرواية في حرب دائمة. وتتحدث الرواية عن أكثر من مئة سنة من تاريخ هاتين العائلتين ومحيطهما الذي تغير في ظاهره لكنه بقي جامداً في جوهره.

ولدي أمَل أودّ أن أعبّر عنه هنا بشكل رسمي: فإذا توقفت المشاعر العدائية التي شُنَّت ضدي منذ عشرات السنين بسبب رفضي كل أنواع الديكتاتورية وجميع مرتزقة الكلمة، وإذا توصلت لجنة شريفة ذات يوم إلى قناعة لمنح هذا الكتاب أي جائزة، فإني اقترح أن تقسم الجائزة مثالثة. الثلث الأول لي يحوّل كاملاً لمساعدة الأطفال والشبان السوريين المنكوبين، والثلث الثاني يُمنح لخالد المعالي لكي يبقى شجاعاً ويطبع كتباً ممتازة حتى لو بخسارة، والقسم الثالث للمترجم الرائع خالد الجبيلي الذي اخترع هذه القصة من جديد تشجيعاً وكمثال يحتذى به لعمل شاق ومثمر حقاً.

رفيق شامي

ألمانيا، ٢٠١٥

twitter @baghdad_library

كتاب الحبّ الأول

أشجار الزيتون والأجوبة كلها بحاجة إلى زمن

*

دمشق، ربيع عام ١٩٦٠

١- السؤال

«أتظنين أن هناك فرصة لكي يصمد حبّنا؟»

سأل فريد رنا هذا السؤال، لا ليذكّرها بالعداء المستحكم بين عائلتيهما، بل لأن شعوراً بالأسى كان يعتريه، ولم يكن يرى أي بصيص أمل.

فمنذ ثلاثة أيام، ألقت المخابرات القبض على صديقه أمين، وهو خارج من بيته، واقتادته إلى مكان ما. ولا يزال رجال المخابرات يطاردون الشيوعيين منذ أن أقيمت الوحدة بين مصر وسوريا في ربيع عام ١٩٥٨. وكان عام ١٩٥٩ عاماً سيئاً بكل معنى الكلمة. فقد ألقى الرئيس سطلان خطابات حماسية نارية شجب فيها الشيوعيين ونظام داميان الدكتاتوري في العراق. ومع أن السنة قد شارفت على نهايتها، لم تخف حدة حملة الاعتقالات، ولم تتوقف سيارات الجيب عن جوب شوارع العاصمة، غادية رائحة بسرعة كبيرة، حتى في الليل، وهي تنقل ضحايا المخابرات، تاركة أسرهم غارقة في البكاء والخوف. تناقل الناس حكايات عن سفك الدماء في عشيّة رأس السنة الجديدة. وكانت الإشاعات تنتقل من فم إلى فم، لتزيد الناس خوفاً من المخابرات التي بدا أن لها مخبرين في كلّ بيت.

في ذلك اليوم، بدا الحبّ لفريد ترفاً. فقد أمضى بضع ساعات مع رنا في بيت المرحومة جدته، دون أن يزعجهما أحد. فهنا في دمشق، كان كلّ لقاء بها، يعتبر واحة في صحراء وحدته ويختلف تمام الاختلاف عن الأسابيع التي أمضاها في بيروت قبل ثماني سنوات حيث كانا مختبئين. ففي بيروت، كان كلّ يوم يبدأ وينتهي وهو بين ذراعي رنا. في بيروت، كان الحبّ أشبه بنهر واسع ينساب برقة في مشهد طبيعي جميل.

لم يكن بيت جدته قد بيع بعد وفاتها بعد. وفي صباح ذلك اليوم، أعطته أمّه، كلير، مفتاح البيت، وقالت له ضاحكة: «لكن من الأفضل أن تحرص على إبقاء سروالك الداخلي في مكانه».

وعلى الرغم من سطوع الشمس، كان يوماً شديد البرودة. عندما دخل البيت، واستقبلته الرطوبة المتعفّنة، أسرع يفتح النوافذ لدخول هواء نقي، ثم أوقد المدفأة في المطبخ وفي غرفة النوم. لم يكن فريد يكره شيئاً أكثر من رائحة الرطوبة والبرد الراكد.

عندما وصلت رنا قبل الساعة الثانية عشرة، ورأت المدفأتين تتوهجان بالحرارة، قالت مازحة: «هل اتفقنا على أن نلتقي في بيت جدتك أم في الحمّام؟»

وكما هي دائماً، كانت رائعة الجمال، لكنّه لم يستطع أن يزيل عنه الإحساس بوجود خطر داهم. وبينما أخذ يقبّلها، تذكّر الهندي الذي رآه في فيلم وثائقي، صعد هذا المسكين إلى سطح البيت هرباً من الفيضان، لكن البيت أخذ يغوص ببطء وغرق أخيراً في المياه الجارفة. هكذا تعلّق فريد، مثل رجل يغرق، بحبيبته التي يخفق قلبها بقوة على صدره.

وبالرغم من الحرارة التي تغمر الغرفة، شعر ببرد شديد، وكانت ضحكتها المجلجلة - الضحكة التي ظلت تنبعث من فمها وتقفز نحوه - تخلّصه من خوفه لثوان معدودة فقط.

«كنتَ نموذجاً للسلوك القويم اليوم»، قالت تستثيره، عندما غادرا البيت بعد بضع ساعات، «فقد يظن الآخرون أن أمّي طلبت منك أن تحرسني

twitter @baghdad_library

وتحيطني برعايتك، حتى أنك لم تخلع...»، وانطلقت من فمها ضحكة مجلجلة.

«لا علاقة لذلك بأمّك»، قال، يريد أن يوضح لها كلّ شيء، لكنّه لم يعثر على الكلمات المناسبة. وسار إلى جانبها في الأزقة الضيّقة باتجاه حديقة الصوفانية بالقرب من باب توما. وكانت كلّ سيارة جيب تمرّ بجانبه تجعله ينتفض مذعوراً.

انطلقت كلمات الرئيس مدوية من المذياع في المقهى، معلنة حرباً شعواء على أعداء الجمهورية. كان لسطلان صوت رجولي حماسي. وعندما يتحدث، كان يسحر العرب بصوته ويخدرهم، وكان جهاز المذياع هو الصندوق الذي يمارس من خلاله ألاعيبه السحرية. ولما كان أكثر من ثمانين في المائة من السكان أمّيين، فلم تكن لدى المعارضة أي فرصة. فمن يسيطر على محطة الإذاعة يكسب الناس إلى جانبه.

أحبّ الناس سطلان. ولم تكن تخشاه سوى معارضة يائسة ضئيلة، وبعد موجة الاعتقالات الشديدة القسوة، غمر المدينة قلق غريب. لكن الدمشقيين سرعان ما تناسوا كلّ ذلك، وواصلوا حياتهم والبسمة البلهاء ترتسم على وجوههم، قال فريد لنفسه عندما وصلا إلى الحديقة.

كان الخوف الذي يتملكه أشبه بحيوان مفترس يلتهم راحة باله. وظل يفكّر بأمين، البلاّط، الذي لا بد أنه يتعرض للتعذيب الآن. ولم يكن أمين صديقه فحسب، بل كذلك حلقة الوصل بين مجموعة الشبان الشيوعيين التي يديرها فريد وبين قيادة الحزب في دمشق، خلال الأشهر القليلة الماضية. وقد طمأن فريد، منذ بضعة أيام فقط، بأنه توارى عن الأنظار، وقطع كلّ الصلات التي قد تفضي إليه. كان أمين مناضلاً سرياً خبيراً.

منذ أسابيع قليلة، قالت أمّ فريد فجأة وهي تحتسي قهوتها في الصباح، إن موت والديها وعمّاتها وأعمامها جعلها تشعر بالحزن والعري، لأنه عندما ينهار الجدار الدفاعي للجيل الأقدم، فإنك تزداد قرباً من الهاوية. لقد أصبح الآن عارياً أيضاً، وهو ينظر إلى الهاوية. لقد مادت الأرض تحت قدميه.

وكان صديقه يوسف، المؤيد بقوة لسطلان، قد شجب «عملاء موسكو» كما كان الرئيس يشتم الشيوعيين؛ وقال يوسف إن فريد يقف في الجانب الخطأ، وأنه الإنسان الحقيقي الوحيد بين مجموعة من الأشخاص القساة الأفظاظ، وأنه آن الأوان ليترك الحزب. كيف يمكن ليوسف أن يقول أموراً كهذه؟

كان فريد محظوظاً برنا التي أحبّها إلى حد أنه كاد يتمنى أن يفترقا كي لا تتعرض لخطر الملاحقة. جلس في الحديقة العامة إلى جانبها، نظر إلى أذنها. يجب أن يحبّها، حتى بسبب هذه الأذن البريئة.

لاذت رنا بالصمت للحظات طويلة. كان يبدو أنها تراقب الأطفال الذين يلعبون في الحديقة، لكن في الحقيقة، لم تجذب انتباهها سوى فتاة واحدة، طفلة تلعب وحدها، منعزلة عن باقي الأطفال. كانت ترقص، تدور في دائرة، ثمّ تتوقّف فجأة لتعود وتسقط على الأرض كأنها أصيبت برصاصة. وبعد لحظات قليلة، تنهض وتواصل رقصها، لتعود وتسقط على الأرض ثانية.

لم تشهد دمشق مثل هذا الطقس منذ أمد بعيد: فكلّ ما درت به الأمطار التي هطلت في الشتاء، قضى عليه برد الربيع هذا. فقد تجمّدت الأزهار والبراعم.

كان هذا أول يوم تشرق فيه الشمس بعد أيام طويلة من هطول الأمطار. فخرج أهالي المدينة القديمة الذين كسا وجوههم الشحوب، ولم يكن السعال يفارقهم، من بيوتهم المشيّدة من القرميد والطين التي لم تشيّد لتلائم الطقس البارد، وتوجهوا إلى الحدائق والبساتين خارج أسوار المدينة القديمة. كان الكبار يتناولون اللحم المشوي ويحتسون الشاي ويلعبون الورق ويحكون القصص أو يدخّنون النرجيلة ويحدّقون ساهمين في الفضاء، بينما يلعب أطفالهم بصخب، الصبية يلعبون بالكرة، والفتيات يلعبن بأطواق «الهيلا هوب» التي وصلت مؤخراً من أمريكا، ودهمت دمشق بسرعة كبيرة. فكانت أرداف الفتيات تتمايل في سعيهن لإبقاء تلك الأطواق البلاستيكية

twitter @baghdad_library

تدور حول خصورهن، على الرغم من أن معظمهن لم يكنّ يُجِدن عمل ذلك، واستطاعت قلة منهن إبقاء تلك الأطواق تدور لبضع دقائق.

لم يكن يبدو أن الفتاة التي تلعب وحيدة تعباً بالبرد، وغلب على حركاتها هدوء صيفي غريب. رمقت رنا رقبة الفتاة وتساءلت ما العلامة التي سيرسمها دمها في الهواء لو أصيبت هذه الطفلة برصاصة حقاً. فعندما ماتت عمّتها ياسمين، شكّلت بقعة الدم التي تناثرت على الجدار بجانبها رقم ثمانية أفقية، رمز اللانهاية. لقد حدث ذلك قبل عشر سنوات. فقد كانت ياسمين، أصغر أخوات والد رنا، قد عادت من بيروت، حيث كانت تختبئ هي وزوجها المسلم لفترة طويلة من الزمن بسبب غضب عائلتها. لكنّها شعرت بالحنين إلى مدينتها دمشق وإلى أمّها. افترّت شفتا رنا عن ابتسامة للحظات عابرة، ثم تلاشت على الفور. وقالت لنفسها لا بد أن هذا يجري في دم العائلة: عندما نعشق نهرب إلى بيروت.

في أحد أيام الصيف، دعتها عمّتها ياسمين إلى محل بوظة بكداش المشهور في سوق الحميدية. عندما جلستا في المحل، قالت العمة بنبرة مرحة وتقريرية، «منذ زمن سحيق وإلى اليوم، الحياة في البلاد العربية تتنقل بين عدوين لدودين هما، الحبّ والموت، وقد قررتُ أن أقف إلى جانب الحبّ». لكن الموت لم يقبل القرار الذي اتخذته.

كان صموئيل، ابن أخت ياسمين، قد أطلق عليها النار خارج السينما. وهرب الشخص الذي يرافقها، والذي لم يصب بأذى. كما أن صموئيل لم يطلق النار عليه، بل وقف فوق خالته التي كانت تنزف، وراح يصرخ في وجوه المارة، بل كاد يصيح فيهم قائلاً: «لقد أنقذتُ شرف عائلتي المسيحية بعد أن مرّغته خالتي بالوحل عندما تزوجت مسلماً»، فصفق له عدد كبير من الأشخاص في الشارع.

كان صموئيل، ابن اختها أميرة، المدلل لا يزال قاصراً، في السادسة عشرة من عمره آنذاك، فأُطلق سراحه بعد أن أمضى سنة واحدة في السجن، وعلت أصوات أقاربه غناء، وحملوه على أكتافهم منتصرين وساروا به إلى

بيت والديه حيث تجمّع أكثر من مائة ضيف للمشاركة في الاحتفال بعمله البطولي، واستمروا في الاحتفال حتى الفجر. وكان باصيل، والد رنا، الشخص الوحيد الذي لم يشارك في هذه الاحتفالات. لأنه اعتبرهم أشخاصاً بدائيين لا يتوافقون مع أهوائه وأفكاره، لكنه على الرغم من ذلك، تفهم سبب قتل أخته، لأنها، حسب رأيه، جلبت العار للعائلة.

كانت سامية، جدة صموئيل، الوحيدة في العائلة التي قالت إنها ستلعن الفتى وأمّه كلّ يوم، في الصباح عندما تستيقظ وفي الليل قبل أن تأوي إلى الفراش. فقد كانت ياسمين أحبّ بناتها، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى إلى انتشار إشاعات تقول، لا يهم من دفع صموئيل إلى قتل خالته، لأن الحافز الذي دفعه إلى قتلها كراهية أمّه لها، لأنها كانت تشعر دائماً بالمهانة.

بعد هذه الحادثة، لم تكلّم رنا ابن خالتها صموئيل قط. وعندما كان يأتي لزيارة أخيها جاك، لم تكن تخرج من غرفتها، كما لم تطأ قدماها بيت خالتها أميرة قط. وعلّقت صورة عمتها ياسمين في غرفتها الصغيرة، إلى جانب صورة مريم العذراء.

لبثت رنا صامتة لفترة طويلة، في ذلك اليوم البارد من شهر آذار، وهي تمسك يدي فريد الدافئتين بقوة.

وقعت الفتاة الصغيرة ثانية على الأرض، لكن هذه المرة بإتقان، وظلت مستلقية برهة قبل أن تعود لترفرف بيديها مثل فراشة، لتثبت أن الحياة قد عادت إلى جسدها المسجى على الأرض.

من بعيد، سُمع أحدهم يغني كلمات مشحونة بالشجى واليأس:

غصبت روحي على الهجران
وأنت هواك يجري في دمي
وفضلت أفكر في النسيان
لما بقى النسيان همي

twitter @baghdad_library

إنها كلمات أحدث أغنية غنتها المطربة المصرية أمّ كلثوم للشاعر أحمد رامي، الشاعر الخجول المرهف الحساسية، الذي كتب أكثر من مئة أغنية لأمّ كلثوم خلال السنوات الأربعين من حبّه لها من جانب واحد.

«إني أحتاج إلى زمن»؛ قالت رنا، «حتى أجد جواباً عن هذا السؤال».

كتاب الموت الأول

الأسئلة هي أطفال الحرية

*

دمشق، خريف ١٩٦٩ - ربيع ١٩٧٠

٢- جثة في السلة

ريح دافئة هبّت على شارع ابن عساكر من الجنوب. لم يكن النهار قد ألقى قناعه الرمادي بعد. واستيقظت دمشق، وراء أسوار المدينة القديمة، من نومها مكرهة، مثل فتاة مدللة.

كانت الحافلات والشاحنات الصغيرة التي انطلقت في الصباح الباكر تصدر ضجيجاً وصخباً في الشارع الطويل، وهي تنقل العمّال من القرى المحيطة إلى مواقع البناء العديدة في حيّ المدينة الجديد. راح عامل بناء، وهو رجل قصير، ضئيل الجسم، يمشي جيئة وذهاباً بجانب الطريق، يبتعد بضع خطوات من باب كيسان، باب كنيسة القديس بولس، صوب الباب الشرقي، ويعود ثانية. كان ينتظر الحافلة التي سيستقلها إلى مكان عمله. ومثل جميع العمّال القادمين من الريف المحيط بمدينة دمشق، كان يحمل بيده اليسرى صرّة طعام ملفوفة في خرقة زرقاء حائلة اللون، ويحرك يده اليمنى بقوة كما لو كان منهمكاً في حديث حماسي مع شريك غير مرئي. وبدأت الدائرة التي كان يتتبعها تزداد طولاً، كأنه يريد أن تظهر الحافلة عندما يعود أدراجه.

عندما بدأت الشمس تنشر أشعتها الذهبية فوق سور المدينة القديمة،

twitter @baghdad_library

استدار ثانية. عندما فعل ذلك، ألقى نظرة سريعة نحو الجنوب، فوقعت على السلة الكبيرة المعلقة على مدخل كنيسة القديس بولس، في المكان الذي تقول الأسطورة إن بولس القديس المؤسس للكنيسة، قد هرب فيه من مطارديه، من فوق السور في سلة بعد أن جاءته الرؤيا على طريق دمشق.

كانت اليد التي تتدلى من السلة، والتي لا تزال في الظلّ، تبدو مثل يد رجل غريق. على الفور، أدرك عامل البناء أنه لا بد أن يكون الرجل صاحب اليد، ميتاً. وبغتة، لم يعد يكترث بأي شيء آخر: الحافلة، أو البلاط الذي سيحمله على ظهره ويصعد به الدرج إلى الطابق الثالث، بل إنه لم يعد يكترث بالشجار الذي سينشب بينه وبين رئيسه الشحيح.

«جثة في السلة! جثة في السلة!» راح يصيح مهتاجاً. وأخيراً، عندما وصل شرطي على دراجته، والنعاس لا يزال يداعب جفنيه، في طريقه إلى مخفر الشرطة القريب من الباب الشرقي، دنا العامل منه وشدّه بعنف إلى درجة أن الشرطي البدين كاد يسقط أرضا لكنه تمكن بصعوبة من الحفاظ على توازنه على الدراجة. وكست وجه الشرطي قسمات تنم عن الخوف عندما أخذ الرجل الضئيل الجسم يهزّ مقود الدراجة مثل رجل مجنون، وهو يصيح، «جثة! جثة في السلة!»

«ماذا تقصد بجثة في السلة؟ هل أنت مجنون؟ اترك دراجتي». فقد رأى الشرطي طوال الثلاثين عاماً من خدمته في سلك الشرطة، جثثاً في جميع الأماكن: على السرير، في القناة، حتى إنه رأى أشخاصاً يتدلون بحبل من السقف في المراحيض، لكنه لم ير قط جثة في سلة مركونة فوق سور المدينة. «هدئ من روعك قليلاً!» حاول أن يقول للرجل، «إنها ليست جثة. فالمسيحيون يحتفلون بإحياء ذكرى بولس الرسول الذي هرب من فوق السور في هذا المكان بالذات. هذا كلّ ما في الأمر»؛ وألقى نظرة أخرى على السلة، القابعة فوق البوّابة منذ عدة أسابيع.

لكن عامل البناء، لم يصعد إلى الحافلة عندما وصلت في نهاية الأمر،

بل ظل يصرخ مهتاجاً، وقد تمسّك بدراجة الشرطي، وجأر بصوت أجش: «وإني أقول لك إنه توجد جثة في تلك السلة».

أطفأ السائق، الذي ثار فضوله، محرّك الحافلة وترجّل منها، ثم تبعه عدد من الركاب وتحلّقوا جميعاً حول الشرطي، وأيدوا شكوك العامل.

استسلم الشرطي أخيراً، ووعدهم بأن يبلغ قسم التحقيق الجنائي، لكنّه أصرّ كذلك على أن يستدعي الرجل الذي أفسد صباحه للإدلاء بشهادته. ودوّن التفاصيل المتعلقة بعامل البناء، وطلب منه أن يكون مستعداً للمثول للإدلاء بشهادته في أي وقت. ثمّ امتطى دراجته، وانطلق ثانية. ثم واصل سائق الحافلة رحلته شمالاً.

٣- مفتش الشرطة البارودي

عثر الخبراء في إدارة التحقيق الجنائي على رجل في السلة لويت رقبته، وحُشرت قصاصة رمادية مطوية في الجيب العلوي لسترة منامته، كتب فيها: «لقد خان بولس جمعيتنا السرية».

ألقى البارودي، المفتش الشاب، نظرة على الورقة. وتبين له أن الخط المكتوب مجرد خربشة، لا يمكن قراءتها إلا إذا بذل المرء جهداً. وكانت القصاصة قد مُزِّقت من صفحة ورق كبيرة كالتي تستخدم في محلات بيع تحف السواح التذكارية في المدينة القديمة في لفّ المزهريات الزجاجية أو علب الموزاييك الخشبية المزركشة والمطعّمة بالصدف. وحاول كاتب الكلمات تزويق الحافات الممزّقة.

حوالي الساعة العاشرة، قاد شرطي البوّاب العجوز الذي بدا القلق على وجهه، من كنيسة القديس بولس إلى البوّابة، والذي قال إن السلة ليست فكرته، بل فكرة الكاهن الشاب ميشيل، الذي أبدى حماسة لتذكير عابري السبيل كيف هرب مؤسس الكنيسة، وأضاف بيأس أنه دأب على تنظيفها بنفسه يومياً طوال الأسبوعين الماضيين من القمامة التي يلقيها فيها الشبان: قناني وجرذان وقطط ميتة.

twitter @baghdad_library

كانت الجثّة لرجل في أواخر الثلاثينيات من عمره، يرتدي منامة غالية الثمن زرقاء باهتة. وأكد الأطباء الشرعيون أن الوفاة وقعت عند منتصف الليل تقريباً، وعثروا على ألياف كيس خيش في شعر رأسه وفي منامته، مما يثير احتمال أن تكون الجثة قد نقلت إلى المكان الذي عثر عليها فيه من مكان آخر.

ولم يتم تحديد هوية الجثّة إلا بعد ثلاثة أيام، مما أثار السؤال التالي: ما دام الرجل هو الرائد مهدي سعيد، فمن هو بولس المدوّن اسمه في قصاصة الورق؟

حقق المفتش البارودي في البداية مع أرملة المغدور الشابة الجميلة، التي تحلّت بالهدوء والاتزان، وكانت تجيب عن أسئلته بإيجاز. وتبين له أنها إمّا لا تعرف شيئاً عن زوجها فعلاً، وإما تعرف أشياء كثيرة. وعندما سئلت هل لاحظت غيابه، ردّت هازئة «لقد اعتاد على أن يغيب أياماً، بل أسابيع طويلة. فقد كان عمله عشيقته، أما أنا فلم أكن سوى زوجته؟»

وأدرك المفتش أن زوجة الرجل المغدور أقامت جداراً دفاعياً من اللامبالاة والبرودة الشديدة لإخفاء ألم أو كراهية مقيتة. ووجد أنها امرأة مثيرة جنسياً، وتمنى أن يتمكن من النظر وراء القشرة الباردة الظاهرية التي غطت وجه المرأة، وأن يتقرب منها، فهو شاب عازب، يعيش في عزلة خانقة.

وطلب من مساعديه في مسرح الجريمة تفتيش الشقة الصغيرة على السطح الواقعة فوق الشقّة، حيث قتل الرائد في سريره. فلا بد أنه تعارك مع قاتله أو قاتليه، لكن يبدو أن الأرملة لم تسمع شيئاً، لأنها كانت نائمة في الطابق السفلي، في الطرف الآخر من الشقّة. في بعض الأحيان، كان زوجها يحدث جلبة عالية في ساعات الصباح الأولى عندما يكون في شقة السطح الكائنة فوق غرفة النوم الزوجية، يستمع إلى الموسيقى، ويجري مكالمات هاتفية، ويدفع الكرسي إلى الأمام وإلى الخلف. شكّل كل ذلك محنة عصيبة لها منذ فترة طويلة، لأن أدنى جلبة كانت توقظها، فاضطرت، منذ

سنة تقريباً، إلى ترك غرفة نومها الجيدة الإضاءة، ذات الشرفة، والانتقال إلى غرفة معتمة، لكنها هادئة في القسم الخلفي من الشقّة.

وكان يوجد مدخل خاص يفضي إلى شقة زوجها العلوية، تؤدي إليها بضع درجات من الشرفة الكبيرة في الطابق العلوي الكائن تحت السطح. وتتكون الشقة التي يشغلها الرائد من غرفتين تتناثر فيهما قطع أثاث قليلة، وحمّام بسيط. كان ينام في غرفة، ويستخدم الغرفة الأخرى، الأصغر مساحة، مكتباً له، توجد فيها طاولة وخزانة أضابير معدنية.

«لا بد أن القاتل قد صعد إلى الغرفة من الشارع»، قال الملازم أول إسماعيل، قائد مجموعة تأمين الأدلة الجنائية، عندما سأله المفتش عن انطباعاته الأولى. كانت تربط المفتش البارودي والملازم إسماعيل علاقة طيبة، وقد أتيا كلاهما مؤخراً إلى دمشق، ودأبا على الخروج معاً لتناول الطعام في فترة متأخرة من المساء.

كانا واقفين على الشرفة أمام فسحة الدرج المفضي إلى الغرفة العلوية. «وجدنا آثاراً واضحة على شجرة اللبلاب القديمة. فقد تسلّق القاتل عليها للوصول إلى الشرفة، ثمّ صعد إلى الطابق العلوي»، قال إسماعيل موضحاً، مشيراً بيده اليمنى، وأضاف بعد أن اتكأ على الدرابزين، «بعد ذلك، لا بدّ أنه نقل الجثة إلى هذه الغرفة ذات الشرفة، ومنها توجه عبر الشقة إلى بابها الرئيسي. فقد وجدنا خيوطاً من كيس خيش على حافة قفل الأمان المعدنية الحادّة. ثم هبط الدرج الرئيسي، وخرج إلى الشارع حيث أقله بسيارة ما لكنيسة القديس بولس».

«لماذا تقول هو؟ أأنت متأكد من أنه رجل؟ وهل أنت متأكد من أنه فعل ذلك وحده؟» سأله البارودي، الذي لاحقت عيناه الطريق من الشارع حتى الشرفة.

«لا بد أن رجلاً هو الذي لوى رقبته وكسرها بعنف، فلا تستطيع امرأة أن تفعل ذلك، لكن طبعاً، ربما كان هناك عدّة رجال»، أجاب إسماعيل.

«ولماذا لا يكون من فعل ذلك رجل وامرأة معاً؟»

twitter @baghdad_library

ابتسم الخبير، وقال: «من المحتمل أن يكون ذلك، لكن إذا كانت الزوجة هي من ساعد القاتل، فهو أحمق. فلماذا يجازف ويتسلّق شجرة اللبلاب ليدخل الشقّة وباستطاعته أن يدخل من باب البيت دون أن يراه أحد». توقّف برهة، ثم أضاف، «لا، لديّ شعور بأنّ القاتل لم يكن يعبأ بشيء، حتى لو قبض عليه بعد أن قُتل الرائد. إني أشمّ في هذه الجريمة رائحة ثأر مريرة، وليست مجرد جريمة وحشية ارتكبها بدم بارد عشيق الزوجة».

فقال البارودي: «لنفترض أن كل شيء قد خطّط له بدقة سلفاً؟ يبدو أن رجلنا يشغل منصباً حسّاساً في المخابرات. إني لا أعرف التفاصيل، لكن يجب أن نتذكر أنه برتبة رائد، وهؤلاء الرجال يعيشون عادة في ظروف محفوفة بالمخاطر خاصة من أعدائهم السياسيين».

«لا يمكننا أن نستبعد ذلك. لأن عملية التسلّق نفسها لا تأخذ من محترف حقيقي أكثر من دقيقتين أو ثلاث دقائق» أجاب إسماعيل، وهو يصعد الدرج إلى الطابق العلوي، مستغرقاً في التفكير، عندما دنت الأرملة لتقول للمفتش إن مساعده منصور يريد أن يكلمه على الهاتف.

عندما غادر شقّة الأرملة كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، لكنه لم يتمالك نفسه عن التفكير بها. فلم تمض ربع ساعة على استجوابها، حتى قالت له بدون تردد «كان لزوجي، الرائد مهدي، أعداء كثيرون». وتكوّن لدى البارودي انطباع بأنها هي أيضاً لم تكن تحبّ زوجها كثيراً. حتى إنها لم تعر أي اهتمام للتظاهر بأنها تحبّه، وكانت تدعوه دائماً الرائد مهدي، كأنها تتحدث عن شخص غريب، ثم أضافت، بهدوء، وبشيء من الخجل، للتوضيح، «زوجي».

ما سرّ هذه المرأة؟ إلى أي مدى كان هذا الرجل ميتاً في قلبها، ظل المفتش يتساءل، هذا الرجل، الذي كان ينام وحده في غرفة علوية مهترئة بدلاً من أن ينام بين ذراعي هذه الحسناء الناعمتين في فراش وثير؟ لكنه لم يجد جواباً.

أحسّ برغبة شديدة في تناول لفافة من الخبز، بعد أن قدّمت له الأرملة القهوة والحلويات خمس مرات. وتوجّه بسيارته الفورد القديمة إلى بقالية إسكندر الكائنة في الشارع المستقيم، بالقرب من حيّ العبارة، وكعادته، طلب رغيف خبز مرقوق محشو بشرائح رقيقة من البصطرما. فقد كان إسكندر يعرف جيداً أنه يحبّ شرائح لحم البقر المقدد اللذيذ المكسوة بطبقة رقيقة من التوابل الحارة اللاذعة. وعلى الرغم من أن إسكندر عرف ذلك، دأب على سؤاله بتهذيب كلما جاء إلى محله «المعتاد؟» وكالمعتاد، يتناول المفتش سندويشة الخبز المرقوق ويشرب كأساً من الماء البارد. كلّ ذلك لقاء ليرة واحدة فقط. وبينما يتناول المفتش سندويشته، يهرع إسكندر لإعداد فنجانين من القهوة، آملاً أن يسمع حكاية عن فساد الطبيعة البشرية. في غالب الأحيان، كانت أمنيته تتحقق. فقد كان المفتش البارودي يحبّ أن يحكي للرجل الضئيل الجسم، شريطة ألاّ يستفسر عن أي اسم أبداً.

أما اليوم، فقد قال المفتش: «شكراً، لا أريد قهوة، فقد احتسيت اليوم خمسة فناجين وأحسّ بدوار».

عندها فهم الرجل أن المفتش لا يريد أن يحكي له شيئاً اليوم، فصمت، وتمنى أن تتمكن شبكة صمته المؤدب من اصطياد سمكة أكبر.

خرج عمر، الكواء، من محله الصغير الكائن قبالة محل إسكندر ليتنشق هواء نقياً. وعندما رآه البارودي، تذكّر أنه يريد أن يجلب له غسيله لكيّه. كم كان عمل عمر شاقاً! فقد كان يبدو جلداً على عظم. وكان محله صغيراً خانقاً، يقف أمام طاولة الكوي طوال النهار، هزيلاً متعرّقاً، يكوي ملابس زبائنه بمكواته الثقيلة الحارة. كان كلّ ذلك لقاء بضعة قروش قليلة.

بعد أن دفع المفتش البارودي ثمن سندويشته، وشرب كوب الماء، عاد مسرعاً إلى شقّته الصغيرة. ففي أيام كهذه كان ينتابه شعور باليأس، ويظن أن كلّ ما يفعله خطأ. إذ أن قدومه إلى العاصمة بدون زوجة خطأ، ولم يكفّ عن تقريع نفسه على ذلك صباح كلّ يوم، لعدم وجود أحد يعتني به هنا. فقد تعين عليه أن يغسل ثيابه بنفسه، وأن يأخذها الآن إلى الكواء بدلاً من أن

twitter @baghdad_library

يجلس في مكتبه ليمعن التفكير في قضية القتل هذه. كان يعدّ قهوته في صباح كلّ يوم، ويحتسيها وحيداً في المطبخ، ويحدق في تقويم قديم معلق من عشرات السنين على الحائط قبالته، حال لونه إلى الأصفر. ماذا عليه أن يفعل؟ فقد فضلت نادية معلّم مدرسة القرية عليه. «إنه لن يرتقي عالياً، لكنّه لن يهوي كثيراً أيضاً»، قالت له، عندما وضع البارودي مستقبله كضابط شرطة برتبة عالية في الميزان مقابل طموحات معلّم المدرسة الابتدائية الفقير. لكن لم تكن تعنيها كثيراً فرصة أن تعيش حياة مرفّهة. لم يكن بوسع البارودي أن يقدم لها أكثر من ذلك. كان المعلّم رجلاً وسيماً ذا صوت آسر.

عند هذه النقطة من الرثاء الصباحي، يتطلع إلى وجهه في المرآة القديمة التي تقشّرت المعلّقة على الحائط فوق الطاولة. ولم تعجبه يوماً ملامح وجهه، فيردد لنفسه كلّ يوم أن خالقه لا بد أنه كان ثملاً أو أنه كان قصير النظر عندما خلقه، ويبتسم.

أمضى أربع سنوات في قسم التحقيق الجنائي في مدينة حلب، عاصمة الشمال الكبيرة، حيث حظي بإعجاب رئيسه، وعندما سمع بوجود شاغر في قسم التحقيق الجنائي في دمشق، انتهز الفرصة وتقدم بطلب لشغله. لقد مضت سنة واحدة على عمل البارودي في هذا القسم، تبين له أن عمله في العاصمة صعب أحياناً على مفتش شاب مثله. لكنه بذل جهداً كبيراً لكي يتعلّم. كان دؤوباً ومجتهداً، يعمل اثنتي عشرة ساعة، بل أربع عشرة ساعة أحياناً، من دون أن يتذمر.

بصورة عامة، كان سعيداً في عمله في الشرطة الجنائية. فقد عرّفته أكداس الملفات على مدينة لا تزال تثير حيرته، هو ابن المزارع القادم من جنوب البلاد. لكن شخصاً تافهاً كان يزعجه في عمله، وهو رئيسه، العقيد خوجا، الدبلوماسي البارد المغرور. وتذكر أن رئيسه اللطيف في حلب قال له قبل أن يغادر: «إن الأمور مختلفة في العاصمة»، وأضاف، «لكنك شخص مجتهد، وستثبت لهم جدارتك بسرعة».

شعر البارودي بأن خوجا كان يتعمد تجاهل كل ما ينجزه من عمل،

ويكنّ في قرارة نفسه احتقاراً لكل الفلاحين، وكان يأمل في أن يُكلَّف بقضية شائكة يتمكن من حلّها ليثبت جدارته.

لم يكن من المعتاد إقفال باب مدخل البناية التي يقيم فيها، لأن أهالي الحيّ المسيحي في دمشق، يشعرون بالأمان كما لو كانت بوابات أزقتهم لا تزال تُقفل في الليل كما كان سائداً في القرن الماضي. أما من وجهة النظر الحديثة في علم الجريمة، فإن عدم إقفال باب البناية يُعتبر إهمالاً خطيراً.

كان المفتش البارودي المستأجر الوحيد عند صاحبة البيت العجوز. لم تكن شقته المكوّنة من غرفتين صغيرتين ومطبخ في الطابق الأول سيئة، أما المرحاض والحمّام فكانا مشتركين. كان يعرف أن باستطاعته أن يعيش هنا حياة عازب، خاصة أن الأرملة العجوز تنظف له شقّته، بدافع من طيبة قلبها، لأنها تعتبره شاباً مهذباً، جيد التربية، قادماً من قرية مسيحية في حوران. لم يكن يزوره أحد، ودأب على تسديد إيجار البيت مقدماً، ولا يدخّن ولا يشرب الكحول. لم يكن يبدي اهتماماً بالنساء، ولم يكن يبدو أن هناك امرأة تبدي اهتماماً به. كان قصيراً، مربوعاً، يضع نظّارات سميكة، وقد بدأ الشيب يخط شعره مبكراً. هذه الأمور الثلاثة مجتمعة تكفي لإبعاد الفتيات الدمشقيات عنه.

لكن صاحبة البيت وجدت فيه عيباً واحداً. فعلى الرغم من أنه عُمّد مثلها، كاثوليكياً، فإنه لم يكن يرتاد الكنيسة. عندما كانت تلومه على ذلك، كان يجيبها بأنه لم يرتكب ذنوباً، ثم يضحك، ويضيف أن ليس لديه وقت يكفي لارتكاب ذنوب.

أما اليوم فقد حيّاها على عجل. رفعت عينيها عن الرداء القديم الذي ترتقه. كان في طريقه للخروج مسرعاً وهو يحمل كيساً كبيراً وضع فيه غسيله. «لكنك عدت للتو إلى البيت»، قالت الأرملة.

«عدت لآخذ أغراضي إلى الكواء. أشياء كثيرة تحدث الآن. لا بد أنك سمعت بجريمة القتل في كنيسة القديس بولس»، أجابها. كان واثقاً من أن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، يمكن أن يحدث ضمن دائرة قطرها

twitter @baghdad_library

كيلومتران، من دون أن تعلم به السيدة العجوز. فلم يكن بيتها في زقاق حنانيا يبعد كثيراً عن مدخل كنيسة القديس بولس!

«لم يعد الناس يخافون الله في أيامنا هذه. جريمة قتل في الكنيسة! من يخطر له أن يفعل شيئاً كهذا؟»

قال المفتش: «ليتني أعرف».

٤- شريعة الغاب

عندما جلس المفتش البارودي إلى طاولة مكتبه، تذكّر قصاصة الورق التي وجدت على الجثة. استلّها من الملف وراح يقرأ الكلمات بعناية شديدة، استوعبها جيداً، ثم أغمض عينيه وأخذ يكرّرها، ثمّ قال بهدوء، «كأنّ القاتل أراد أن يترك وراءه أثراً»، وتذكّر قضية درسها عندما كان طالباً في أكاديمية الشرطة: فقد دأب القاتل على العودة إلى مسرح الجريمة، بل عرض على الشرطة مساعدتهم، لكنهم طردوه لأنه كان يعيق تحقيقاتهم، حتى لاحظ مفتش ذكي ذلك، فقبل عرض الرجل بمساعدتهم، وسرعان ما تباينت إفادات القاتل، فسلّم نفسه. وعندما اعتُقل، لم ينزعج كثيراً لأنه اعتبر أن حياته قد انتهت، ولم يعد يريد شيئاً سوى السلام.

قال الملازم أول إسماعيل، صديق البارودي، مازحاً وهو يودعه،«فتش عن المرأة». شمّ المفتش الورقة بشرود. فاحت منها رائحة خفيفة، لكنها ذكّرته نوعاً ما برائحة ورنيش الأثاث، أم أنها رائحة عطر؟

«قد تضعنا قصاصة الورق هذه على المسار الصحيح»؛ قال لنفسه، لكن بصوت مرتفع يكفي لأن يبدو بأنه يفشي بسرّه إلى المساعد منصور.

زاغت عينا منصور، وقال: «ثمة شيء غريب يكتنف هذه القضية. مسلم، بل الأهم من ذلك، رائد مسلم في جهاز أمن الدولة، أو في أي جهاز آخر، وضع في سلة معلقة فوق سور كنيسة القديس بولس، وقد حشرت في جيبه قصاصة ورق عليها اسم مزيف؟ يقول لي أنفي إن رائحة مؤامرة نتنة تصل إلى عنان السماء. قد يراد منها زرع الفتنة بين المسلمين

والمسيحيين، لا تتسرع كثيراً. تمهل قليلاً، وإلا أحرقت أصابعك في هذه القضية».

بعد سنة من العمل مع منصور، بدأ البارودي يشعر بالملل من الريبة والحذر اللذين يبديهما مساعده. فقد كان يتحيّن اللحظة المناسبة ليتخلص من مصدر الإزعاج المتشائم العجوز في مكتبه، ويأتي بشرطي شاب يفكّر بطريقة أكثر تفاؤلاً. لم يكن منصور يثير حنق البارودي فحسب، بل يثير اشمئزازه أيضاً. كان قلب الرجل متعفّناً مثل أسنانه المنخورة، وكان مهووساً بفكرة التخلص من جميع الفئران في العالم. ففي اليوم الأول الذي بدأ فيه البارودي عمله، حدّثه منصور عن نظرياته المتعلقة باصطياد الفئران، وأراه الأدوات الجهنمية التي ابتدعها طوال هذه السنوات، وكان البارودي يحرص، مساء كلّ يوم، على أن لا يتعثّر بإحدى تلك المصائد الوحشية.

كان يشعر بأنه موجود في مشفى للمجانين، وكان الآخرون جميعاً يبدون متحمسين لمصائد منصور. حتى العقيد خوجا، الذي لم يجذب حلّ جريمة القتل الأخيرة، التي تكاد تكون جريمة كاملة ارتكبتها أرملة غنية، أكثر من ابتسامة واهنة، كان يبتسم ابتسامة عريضة تنم عن البهجة ما إن تقع عينه على فأر ميت.

لم يَدَعْ المفتش البارودي وسيلة للتخلّص من منصور إلا جرّبها. لكن ثلاثين سنة من الخدمة في سلك الشرطة كانت تقبع وراء هذا الصعلوك العجوز، وهو يعرف جميع حيل المهنة ومكائدها. ولم يكن يعرّض نفسه للخطر لأنه كان ينفّذ جميع المهام التي يُكلف بها ببلادة ومن دون أي مشاعر، لكن بدقة شديدة حسب الإجراءات والقواعد المتبعة.

عند الساعة الخامسة بعد الظهر - بعد مضي ثماني ساعات على تحديد هوية الجثة - وقف المفتش وجهاً لوجه أمام العقيد بدران رئيس جهاز المخابرات. فقد ألغى بدران، الشقيق الأصغر لرئيس الجمهورية عمران، مهمة البارودي لمواصلة التحقيق في قضية الرائد مهدي سعيد، وقال إنها جريمة قتل سياسية، ولا تقع ضمن صلاحيات إدارة التحقيق الجنائي. كان

twitter @baghdad_library

يتكلّم بهدوء وببرود شديد، كأن الأمر مجرد رشفة ماء أو أنه يتكلم عن أحوال الطقس. وأضاف أنه يعتبر الرائد مهدي أحد أفضل رجاله، ووعد بتعقب القاتل وإزالته من الوجود. ظل العقيد خوجا يهزّ رأسه مثل دمية ذات نابض. ولم يفاجأ البارودي بصرامة رئيس جهاز المخابرات وزهوه بنفسه فحسب، بل برتبته العالية أيضاً، لأنه تعلّم أن يكون حذراً من الضباط ذوي الرتب العالية ولاسيما الذين يكونون أصغر سناً بكثير من رتبتهم، لأنهم ينتمون عادة إلى الدائرة الداخلية للسلطة، فهم إما رجال قاموا بانقلاب، وإما أبناؤهم. وهم عادة من ذلك النوع من الرجال المستعدين للمراهنة على كلّ شيء برمية نرد واحدة، ويغامرون، وهم لا يزالون في الثلاثين من عمرهم، بحيث ينتهي بهم الأمر إما على المشنقة، وإما في أعلى المناصب الحكومية. فخلال السنوات الخمس الأخيرة، انتفضت وحدات من الجيش، إحدى عشرة مرة، نجحت أربع وفشل سبع منها، وتوالت الانقلابات العسكرية، رجال صعدوا إلى قمة السلطة، ورجال سقطوا منها، كان هناك منتصرون، وضبّاط شباب قُتلوا على عجل مثل الرائد سليم فشلان الذي عاد من منفاه في الأردن عشية حرب حزيران وأعدم بسرعة.

لكن تراتبية السلطة أسكتت المفتش الشاب. فقد كان جهاز المخابرات يحتل ذروة هرم السلطة، مباشرة تحت رئيس الجمهورية، بل يتهامس الكثيرون في جلساتهم الخاصة بأنّ الرئيس نفسه، لا يحكم إلا بموافقة جهاز المخابرات السري. أما إدارة التحقيقات الجنائية، فتحتل موقعاً متواضعاً للغاية في هذه التراتبية، وهي المخوّلة بالتحقيق فقط مع المجرمين الذين لا ينتمون إلى طبقة المجتمع الراقية، ولا إلى الطبقة العسكرية، أو إلى حزب البعث الحاكم.

«الحراس الليليون فقط هم الذين لديهم سلطة أدنى»، قال منصور بتهكم.

لم يُرغم البارودي على صرف رجاله فقط عن مهمة التحقيق في هذه الجريمة، بل أكد كذلك للعقيد بخنوع بأنه، من الآن وصاعداً، لم يعد

للقتيل أي وجود بالنسبة له. وطُلب من البارودي أن يُحضر إلى العقيد بدران، رئيس جهاز المخابرات، جميع نتائج التحقيقات التي أجراها شخصياً، خلال أربع وعشرين ساعة. كان التهديد واضحاً في النبرة التي قيلت بها.

٥- منصور وأغاثا كريستي

«إن المعرفة قفل» قال المساعد أول منصور، «ومفتاحها سؤال، لكن لا يسمح لنا أن نسأل أسئلة في هذا البلد. لذلك، يا عزيزي البارودي»، أضاف بنبرة تحذيرية، «ليس هناك رواية بوليسية جيدة واحدة في سوريا. لأن الروايات البوليسية تنهل من معين الأسئلة». ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وأضاف، «أتذكر حملة مكافحة الفساد التي أعلن عنها الرئيس عمران في ربيع عام ١٩٦٩؟ فقد شكّل لجنة مكونة من كبار الأساتذة والقضاة لطرح السؤال النموذجي على الجميع: من أين لك هذا؟ عندها قال الرئيس لأعضاء اللجنة، وهو لا يزال يضحك أمام كاميرات التلفزيون، «ويا أيها السادة، يمكنكم أن تبدأوا عملكم بي». لكن اللجنة قرّرت أن تبدأ بمساءلة أشد الأشخاص فساداً في تاريخ سوريا، شفطان، شقيق الرئيس. فذهبوا إليه وسألوه بتهذيب شديد، «من أين لك هذا؟» كان شفطان الرجل الثاني من حيث الأهمية في الدولة، ويشغل منصب قائد الوحدات الخاصّة، أشد الوحدات التي تبث الذعر في نفوس سكان البلد. نتيجة لذلك، أُلقي جميع أعضاء اللجنة في السجن على الفور، وظلوا فيه إلى أن أعلنوا بأعلى عقيرتهم: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب». عندها فقط أُطلق سراحهم.

في واقع الحال، كان المفتش البارودي قد سمع عن شقيق الرئيس الفاسد، لكنه لم ير ما علاقة ذلك بجريمة القتل هذه. فانفجر غاضباً في وجه مساعده، وقال:

«كلمة واحدة أخرى وتمثل أمام المحكمة بتهمة الافتراء على الرئيس.

twitter @baghdad_library

ومن الآن فصاعداً، لا تناديني عزيزي البارودي، فأنا الملازم أوّل البارودي. هل فهمت، يا مساعد أول منصور؟»

هزّ المساعد أول رأسه بصمت. فقد كان يعرف جيداً هؤلاء الشباب، الذين يمشون بخيلاء كأنهم أصبحوا جنرالات بعد أن أمضوا بضعة أشهر في أكاديمية الشرطة. وكان يريد أن يقول لهذا الشاب الغرّ، المبتدىء، إن معلوماته عن عدم وجود روايات بوليسية في البلد، والأسئلة التي لم تطرح قط، تعزى إلى أشخاص ليس أقلهم أغاثا كريستي، التي رافقها ذات يوم في رحلة في أرجاء سوريا، عندما كان زوجها، عالم الآثار ماكس مالوان، يجوب المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد في أربعينيات القرن العشرين، للتنقيب عن الآثار.

في ذلك الحين، كاد منصور يموت جوعاً. فقد ساد الجفاف وانتشر وباء الفئران على نحو لم يسبق له مثيل فقرضت حتى أصابع الأطفال، فلم يعد هناك طعام في قريته. كانت أغاثا كريستي قد أحبت الفتى، مع أن زوجها لم يحبه، وطلبت منه أن يعمل لديها. وسرعان ما أصبح مساعدها الرئيسي، وأطلقت أغاثا كريستي عليه اسم «فتانا الأوّل» في مذكراتها المعنونة «تعال حدثني كيف تحيا». وأصبح مسؤولاً عن رعايتهما وترتيب إقامتهما ومأكلهما. كانت شخصيتها لطيفة، وتكبر زوجها بأربع عشرة سنة، وتتفوق عليه بخفة دمها؛ وكانت تسخر من الجميع، حتى من نفسها. وكان منصور، في غالب الأحيان، يضطر إلى ترجمة ملاحظاتها الساخرة. وعندما دعت أخته نجلا الزوجين الإنكليزيين إلى الغداء، قالت لها: «أنصحكِ بالزواج من عالم آثار، لأنه كلما كبرتِ ازداد اهتماماً بك».

وقبل أن يغادر الزوجان الإنكليزيان، السيد والسيدة مالوان، بفترة وجيزة، عثر منصور على وظيفة في سلك الشرطة، الذي أنشئ آنذاك. وعندما ودعاه كان يرتدي البدلة الرسمية.

حدث ذلك منذ إحدى وثلاثين سنة.

ولدواعي سلامته، لم يعد منصور يتحدث عما يعرفه عن الروايات

البوليسية التي أصبحت شغفه الثاني في الحياة منذ أن التقى بأغاثا كريستي. فقد عمل هنا، في هذه الغرفة بالذات، مع ستة عشر ضابطاً مرّوا عليه دون أن يتركوا أثراً أكثر من سحابة صيف. وقد تعلم خلال هذه الفترة، متى يغلق فمه. فلا يزال أمامه ثلاث سنوات حتى يحال على التقاعد، وسيكون نقله إلى قرية سيئة في الجنوب بمثابة كارثة. إن هذا المصير هو العقوبة المعروفة نتيجة التشاجر مع ضابط كبير.

وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة، اعتراه فجأة شعور بالخوف. فعندما كان يحكي نكتة لأحد رؤسائه، لم يهدده أحد منهم ويعتبرها إهانة ضد الرئيس. ومن السهل أن يحكم عليه إذا وشى به هذا الحقير بالسجن بسبب ذلك، وقد يكلّفه ذلك راتبه التقاعدي. منذ البداية، أحسّ أن الملازم أوّل هذا رجل طموح جداً، وهنا تكمن الخطورة.

٦- العقيد بدران وسير الأحداث

كان العقيد بدران يرى أن القضية شديدة الوضوح. إذ تنطوي جريمة قتل الرائد مهدي سعيد على خلفية سياسية، ورأى أن قصاصة الورق ما هي إلا دليل على ضرورة موت الرائد لأنه يعرف أشياء كثيرة عن مؤامرة ما، وأن الجريمة ارتكبتها جمعية سرية، إما أن أعضاءها يخشون أن يشي بهم، وإما أنهم أدانوا مهدي لخيانته لهم. وافترض العقيد أنّ اسم بولس المدوّن على الورقة ما هو إلا للتمويه. لعل ذلك لأن الرائد كان مسيحياً عندما كان شاباً، ويعيش في الحي المسيحي قبل مقتله. وعلم بدران أن اسم المغدور الأصلي هو سعيد بستاني، لكن بسبب سوء معاملة زوج أمّه له في طفولته، لم يكن يرغب في أن يُعرف باسم عائلته القديم في حياته الجديدة كمسلم. لذلك، عندما اعتنق الإسلام، أطلق على نفسه اسم مهدي سعيد.

وبما أن بدران كان الرئيس المباشر للرائد المغدور، كانت أول ردة فعل له عندما سمع بمقتل أفضل ضابط لديه بهذه الطريقة الشنيعة، شعوره بالرعب. فقد كان مهدي سعيد شخصاً طموحاً، يُعتمد عليه، وصلباً

twitter @baghdad_library

كالفولاذ، والصديق الوحيد الذي يلجأ إليه بدران عندما يكون في مأزق.

عندما هدأت حدة الذعر الذي تملكه، شعر العقيد بالقلق. قال لنفسه إن مهدي سعيد الطموح قد يكون خانه، واتصل بمتآمرين من وراء ظهره؟ أبعدت هذه الفكرة النوم عن عيني بدران طوال الليل. لقد تملكته هذه الفكرة إلى درجة الهوس، فأرسل بعد يومين فريقاً من أفضل رجاله لجمع ما يمكنهم من معلومات عن مهدي سعيد. وقاد هو نفسه الوحدة الصغيرة الخاصّة التي فتشت بيت المغدور بدقة شديدة.

ويوماً بعد يوم، أصبح يجلس في غرفة الجلوس في بيت الأرملة الشابة التي تقدم له شراب الليمون والقهوة والحلوى، وتكشف عن مفاتنها أمامه، يحاول اختراق حجاب اللامبالاة الذي يغلف هذه المرأة، بطرح أسئلة ذكية عليها. بينما يفتش رجاله كل شبر في الشقّة العلوية الصغيرة التي كان يقيم فيها الرائد.

وسرعان ما بدا أن شكوك العقيد بدران قد تأكدت: فقد عُثر على دفتر ملاحظات صغير غامض في خزنة المغدور يضم أسماء مدونة في رموز. وأُمكن فكّ هذه الرموز بوسائل تعلمها أفراد جهاز المخابرات في سوريا على يد ضباط ألمان وروس في دورات خاصة. وكانت أسماءُ الأشخاص الستّة التي أُمكن حلّها أسماءَ ضباط كبار في الجيش والمخابرات، وقد أطلق مهدي على نفسه اسم بولس. انتصر بدران، فقد ثبتت صحة شكوكه.

بعد استجواب هؤلاء الضباط وتعذيبهم، اعترف أحدهم، وهو برتبة عميد، بأنه هو وخمسة ضبّاط آخرين أنشأوا جميعة سرية تدعى «جمعية الضبّاط الأحرار»، للنضال من أجل تحرير أرض الوطن.

«تقصد أنكم كنتم تخطّطون للقيام بانقلاب، أيها الوغد!»، صاح العقيد في وجه العميد، الذي همس بيأس ورعب «كما تأمرون يا سيدي! أيّ شيء تقوله يا سيدي».

ولما كان العميد يعرف أنه سيحكم عليه بالإعدام، فقد عوّل على بصيص الأمل المتبقي باستخدام عبارات التبجيل بأمل أن يلين العقيد

ويتغاضى بشهامة عن تعذيبه من أجل الهفوة الصغيرة التي ارتكبها الضحية، والتي لم تؤثر سلباً على الدولة بأي شكل من الأشكال.

لكن التأثير الوحيد الذي أحدثته عبارة «يا سيدي» الخانعة على بدران، الذي كان أدنى رتبة من العميد، اقتناعه بأن هذا الرجل متملق، منافق.

كانوا قد اتصلوا بمهدي سعيد قبل سنة، تابع العميد قائلاً بصوت منخفض، لأنه رأى مع الضباط الآخرين أن هناك عدداً كبيراً من الألمان الشرقيين والروس الشيوعيين على تراب أرضهم سوريا العزيزة. كان هدفهم إنقاذ أرض الوطن. وقد أعجبوا بمهدي سعيد بسبب مقته الشديد للشيوعية، ورجاحة عقله، وصلابة موقفه. في البداية، راقت للرائد مهدي فكرة إنقاذ أرض الوطن، لكنه تراجع فجأة منذ ثلاثة أشهر، ولم يعد يتصل بالضبّاط وبجمعيتهم السرية.

«ألهذا السبب لويتم عنقه؟» سأل العقيد بشيء من الهدوء، لأنه يعرف أنه بدأ يسير على الطريق الصحيح. وفي الوقت نفسه، أحسّ برضاء خبيث عندما تذكّر المغدور. فقد أدرك بدران في هذه اللحظة بالذات، أن الرائد مهدي سعيد قد خانه. فقد كان من واجبه ألاّ يخفي عنه سرّ المؤامرة. وكان لا بد من أنه سيحصل على وسام من المرتبة الذهبية لو كشف عن فصول هذه المؤامرة، لكنه لم يكسب إلا كسر رقبته. ابتسم العقيد عندما خطر له ذلك، لكنه سرعان ما راح يفكّر بركبة الأرملة الصقيلة. ومثل جميع النساء المعاصرات في تلك السنة، كانت الأرملة ترتدي فساتين قصيرة.

بكى العميد بحرقة، وقال متوسلاً إنهم لم يحلموا يوماً بإيذاء شعرة واحدة من رأس الرائد، لأنه سرعان ما أدرك مع رفاقه أنّ فكرة الانقلاب سخيفة، وأن الحكومة الجديدة برئاسة الأخوين عمران وبدران حكومة وطنية بامتياز. وعندما طرد العقيد بدران الروس والألمان الشرقيين، اتفقوا جميعاً على أن مهدي سعيد، بعد انسحابه، فتح أعينهم وحرّرهم من براثن الشيطان. ونتيجة لذلك. . .

استوى العقيد واقفاً وغادر الغرفة. لم يعر أي اهتمام لهذا المديح أو

twitter @baghdad_library

لأي شيء آخر سيقوله العميد. وعندما خرج، أمر الضابط المناوب بتعذيب الضباط الكبار، إلى أن يعترفوا بقتل مهدي والتوقيع على اعترافاتهم.

«إلى أي حد يمكنني أن أمضي في التعذيب؟» سأله الضابط المناوب، وهو لا يزال يمسك باب السيارة مفتوحاً لسيده.

«حتى الموت»، أجاب العقيد، وركب سيارته وانطلق مبتعداً لزيارة أرملة الرائد سعيد.

بعد أسبوع، مثل الضباط الكبار الستّة أمام المحكمة، وأدينوا جميعاً بتهمة التخطيط للقيام بانقلاب ضد الحكومة، وقتل، بحقد، وعن سابق إصرار وتصميم، رفيق سابق لهم مشارك في المؤامرة، دفعه ندمه وحبّه لأرض الوطن إلى الانفصال عنهم. وقد أقيمت المحكمة سرّاً في إحدى الثكنات الخاوية في دمشق. وأُعدم الضباط المدانون رمياً بالرصاص في اليوم ذاته.

اتخذ بدران من هذه المؤامرة ذريعة لتطهير جهاز المخابرات وإعادة تنظيمه. فتتالت موجات الاعتقالات في الجهاز برمته، وبغتة وجد الرجال، الذين كانوا أقوياء قبل يوم واحد فقط، أنفسهم معتقلين مع أعدائهم في السجون ومعسكرات الاعتقال الكئيبة. وجرى التدقيق في ملفات جميع من لهم علاقة بالمخابرات بدقة شديدة. ومنذ ذلك الحين، أصبحت الطاعة العمياء مطلوبة في جهاز المخابرات برمته.

وفي ظل العقيد بدران، أُرغم المستشارون الروس والألمان الشرقيون في الشؤون العسكرية والتعذيب وإدارة المخابرات، على قبول تخفيض قدر كبير من سلطاتهم. وحظر عليهم بقوة استخدام تلك النبرة المتغطرسة التي كانوا يسمحون لأنفسهم باستخدامها أثناء تعاملهم مع الضباط السوريين منذ هزيمة العرب الساحقة في حرب حزيران مع إسرائيل. فقد كان الروس يعاملون ضباط الجيش السوريين كأنهم تلاميذ أغبياء.

ومنعهم العقيد أيضاً من التدخّل مباشرة في شؤون الجيش والمخابرات. كان هدفه المعلن الحفاظ على أسرار الدولة، وكانت الحجج التي ساقها

منطقيّة، فأقنعت القيادة السياسية. فقد قال إن الخبراء أتوا إلى دمشق ليجيبوا عن الأسئلة المتعلقة بالمسائل التقنية، لا ليطرحوا أسئلة، وبالطبع، منعهم من التعبير عن آرائهم السياسية. ولم يكن من السهل مراقبة ولائهم في الأمور السياسية كثيراً خاصة عندما يعودون إلى بلادهم سواء لزيارة أو بشكل دائم، مما يزيد من خطر تسرب المعلومات إلى إسرائيل. عندما طرح العقيد هذه الأمور، كان يقف أمام سبورة في غرفة صغيرة، وقد جلس ثلاثة رجال إلى طاولة ينصتون إليه باهتمام شديد: شقيقه الأكبر، الرئيس عمران؛ وابن خالته العميد سعيدان، وزير الإعلام؛ وصهر سعيدان العقيد حردان، وزير الداخلية. وما إن أنهى بدران حديثه، حتى منحه أقوى ثلاثة رجال في البلد إشارة بالمضي قدماً لاتخاذ الإجراءات التي يراها ضرورية.

أما الخبراء الروس الذين دعموه واعتبروه شخصاً طموحاً يرغب في أن يشق طريقه بحماسة، والذين كان قد طلب منهم بتهذيب، في مذكرة بعثها لهم السنة الماضية، التحدث بنبرة ودّية مع الضبّاط السوريين، فكان عليهم الآن أن ينتظروا بوجل ماذا سيحدث من تغييرات بعد أن اقتيد أحد جنرالاتهم تحت جنح الليل من الفيللا التي يقيم فيها في حيّ أبو رمانة الراقي، ونُقل بالطائرة إلى موسكو بطريقة مهينة وهو لا يزال مرتدياً منامته، لأنه أهان قبل ساعة، وهو في حالة سكر شديد، أحد الضباط السوريين الشباب. عندما أذعن الروس لهذا التصرف واعتذروا رسمياً لوزير الدفاع السوري، زحف الخبراء من ألمانيا الشرقية وبلغاريا ورومانيا صاغرين أمام العقيد الحازم أيضاً. لكنه لم يقابل هذه التنازلات بارتياح، بل بمزيد من الشكوك. لكن ضبّاط الجيش السوري، في ذلك اليوم، وجدوا فيه بطلاً أعاد لهم شرفهم الذي فقدوه في حربهم مع إسرائيل. صاروا يتناقلون قصة طرد الجنرال الروسي السكير وكأنها ملحمة وطنية بطلها العقيد بدران.

من الناحية الأخرى، بدأ الناس في الحي المسيحي يتهامسون في جلساتهم الخاصة بأن الأرملة والعقيد بدران وراء جريمة القتل. وسرت إشاعة مفادها أن مهدي سعيد اكتشف ذات يوم العلاقة بين زوجته والضابط

twitter @baghdad_library

الذي يعلوه في الرتبة. وقال الجيران إنه انفصل عن زوجته، اشمئزازاً، وفضّل أن ينام وحده في الشقة العلوية. لم يغضب ولم تثر ثائرته، ولم يضرب زوجته، كما يفعل معظم الرجال في مثل هذه الحالة، بل خطّط سراً لقتل بدران. وعندها فقط سيثأر لنفسه منها. لكنه، أثناء تخطيطه لذلك، ارتكب خطأً قاتلاً. فقد عثرت زوجته، وفقاً لهذه الرواية عن سير الأحداث، على قصاصة ورق في سلة النفايات، سجل فيها جميع مراحل خطته بالتفصيل، حتى أنه أورد فيها تواريخ محددة. وسرعان ما حذّرت عشيقها، فكمن له العقيد مع الزوجة. وفي تلك الليلة، صعد كلاهما إلى الغرفة العلوية، وخنقا زوجها معاً وهو نائم في السرير. وادّعى أحد الجيران، وهو صائغ ذهب يدعى بطرس عزمي، أنه رأى هيئة شخص قصير، مربوع القامة، يحمل كيساً على كتفه، يهبط على الدرج المؤدي للطابق السفلي. وقال إنه لم يتمكن من تبيّن هوية الرجل، بسبب الظلام، علماً أن بدران نفسه كان قصيراً، له جسم رياضي مفتول العضلات.

وإثباتاً لهذه النظرية الرهيبة، قال الجيران إنه لم يكد ينقضي أسبوع واحد على وفاة الرائد، حتى بدأ العقيد بدران يمضي، وبكل صفاقة، الليل مع الأرملة، حيث يقف حارسه الشخصي عند المدخل، يفتّش كلّ من يدخل البناية التي يقطن فيها عدد من المستأجرين، أو يخرج منها.

وعندما مات الشاهد الوحيد، صائغ الذهب بطرس عزمي، في حادثة سير غريبة، أضحت البناية التي تقيم فيها أرملة الرائد المغدور في شارع مارسيل كرامة، في وسط الحي المسيحي، مجرد جزيرة معزولة عن باقي العالم ببحر من الخوف.

وأُغلقت قضية قتل مهدي سعيد رسمياً في ١٩ آذار ١٩٧٠، ونقلت الملفات السميكة الثلاثة التي تضم سجلات التحقيق والأدلة وإفادات الشهود، بالإضافة إلى لائحة اتّهام كبار الضباط وقرار المحكمة الذي اتخذ بحقهم إلى قسم السجلات في المخابرات، وظلت قصاصة الورق المخربشة بإهمال محفوظة في ملف شفّاف في الإضبارة الأولى.

تعرّف المفتش البارودي على ماضي الرائد المسيحي المغدور من خلال بعض معارفه. وأصبح واثقاً من أن اسم بولس وقصاصة الورق هما البوصلة التي سترشده إلى الوجهة الصحيحة لتقفي الآثار التي تفضي إلى القاتل. وقبل أن يسلّم ملف القضية غير السميك إلى العقيد، نسخ جميع نتائج التحقيقات التي كان قد أجراها، وقصّ شريطاً بطول عشرين سنتيمتراً وعرض أصبع تقريباً من قصاصة الورق التي عُثر عليها على الجثة. ووضع كلّ هذه الأشياء بعناية في مكان سري صنعه في درج طاولة مكتبه في إحدى الليالي.

تكوّنت لدى البارودي قناعة بأن التعرف على طفولة الضحيّة ستقوده إلى معرفة القاتل. وكان على ثقة بأنه سيتمكن من حلّ خيوط هذه الجريمة المتشابكة إذا درسها بعناية.

وشرع في دراسة القضية بعناية. وفي نهاية المطاف، ستثبت له الأيام أن الدرب الذي اقتفاه هو الدرب الصحيح، لكنّه لم يكن يعرف إلى أين سيقوده فضوله بعد ستّة أشهر فقط.

twitter @baghdad_library

كتاب الحبّ الثّاني

الحبّ فقر يُغني

*

دمشق، معلا، ربيع ١٩٥٣

٧- الحريق

أيقظته كلير. ثمة نبرة ذعر في صوتها. عندما انتصب فريد جالساً في السرير، سمع صراخاً في القرية. هرع إلى الشرفة، لحقته أمّه حافية القدمين وهي لا تزال في رداء نومها.

خمّن على الفور أن والده موجود الآن بين الأشخاص المحتشدين بالقرب من نبع القرية. في سريرته كان يعرف سبب ذلك. مندهشاً، نظر إلى شجرة الدردار التي تلتهمها النار على التلة البعيدة.

الريح الشديدة البرودة جعلته يرتعش. رويداً رويداً، بدأ يدرك أنه هو المسؤول عن الحريق. كانت ألسنة اللهب البعيدة تبدو مثل مشعل ضخم يضيء سماء القرية بنور جهنمي.

هرع بعض الفلاحين إلى ساحة القرية، متجاوزين بيت مشتاق. توقّف شابّ قبالة شرفة البيت برهة وراح يرمقه، ثمّ هزّ رأسه بغضب، وبصق على الأرض، وتابع طريقه بسرعة. كان أهالي معلا يُعرفون بتحفظهم وروحهم المتشائمة القاتمة. أيقن فريد أنه هو المقصود بالبصقة.

أجفلته يد أمّه الباردة. كانت كلير امرأة تشعر بالبرد طوال حياتها، مثل صديقته رنا. أعاد أمّه إلى السرير، واستلقى إلى جانبها. غطّت في النوم

على الفور، وسرعان ما بدأ يسمع إيقاع تنفّسها. كانت ملامح وجهها جميلة، شعرها أسود ناعم، وأنفها صغير دقيق، وعيناها لوزيتان تحت هذين الجفنين المغمضين، وبشرتها بيضاء كالثلج. أخذ فريد يداعب وجه أمّه. ابتسمت راضية ثم غطت في نوم عميق.

ظلّ صاحياً، يحدّق في السقف.

٨- غرباء

على الرغم من أن عائلة مشتاق عشيرة قويّة، كان أفرادها لا يزالون غرباء في معلا. فقد لجأ جورج، مؤسس العائلة، إلى هذه القرية المسيحية الجبلية قبل خمس وأربعين سنة. وكان فريد وأبناء عمومته الكثيرين يشكّلون الجيل الثالث. لكن أهل القرية كانوا يؤمنون إيماناً مطلقاً بأنه لا يمكن لأحد أن ينتمي إلى سكان القرية حقاً إلا بعد أن يبلغ الجيل السابع. لأنه يفترض أن يمضي المرء كلّ هذه الفترة ليجيد حفيده السابع التحدث بلغة أهل القرية الآرامية من دون أن تشوب كلماته أي لكنة، وحتى تتملكه نفس مشاعر الافتخار التي تقبع في قلوب حتى أفقر الفقراء في معلا، والتي تجعلهم يشعرون بأنهم يتميزون عن الآخرين.

نشأ فريد وتربى في مدينة دمشق، ولما كانت أمّه من أصول دمشقية، كان يتحدث على الدوام باللغة العربية، لا بالآرامية التي يتحدث بها أبناء معلا، والتي على الرغم من أنه كان يفهمها بسهولة، لم يتمكن من إجادتها والتحدث بها بطلاقة. ولم يشعر للحظة واحدة بالافتخار بالقرية. فما هو الشيء الذي يمكن أن يجعله فخوراً؟ ألمجرد أنه يقال إن أسلاف سكانها المعاصرين يعرفون المسيح ورأوه رأي العين، وأنهم هربوا من الجليل بعد صلبه؟ وراح الفلاحون في معلا يدافعون عن دينهم بأرواحهم كأنهم مهووسون بواجب سري. وقد يخيّل للمرء عندما يستمع إليهم أن مصير المسيحية في العالم يتوقف على مدى استعداد سكان هذه القرية الصغيرة للنضال في سبيلها والتضحية بأنفسهم من أجلها.

twitter @baghdad_library

كان فريد يشعر بأنه غريب بعض الشيء في كنيسة القرية. وكان القرويون الصامتون الأجلاف يبدون غرباء أيضاً بالنسبة له، القرويون الذين يبدو أنهم في حالة حداد متواصلة بثيابهم القروية السوداء، والذين نادراً ما يبتسمون، لكنهم يجدون دائماً العذر لشرب الكحول والتشاجر، وإن لم يجدوا اختلقوا عذراً. لم يكن فريد يفهم سبب الكراهية الشديدة بين عائلتي مشتاق وشاهين، أقوى عائلتين في القرية. ولم يكن يفهم كذلك سبب العداوة المتجذّرة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية في معلا. كان المسلمون يتدخلون في معظم الأحيان للتوسط بين هؤلاء المسيحيين المتشاحنين.

ثمة حادثة معينة هزّت كيان فريد. فقد قام أحد المعلّمين المتقاعدين، بالتعاون مع حوالي اثني عشر شاباً بترميم إسطبل قديم مهدم وتجديده، وركّبوا فيه بعض النوافذ والأبواب وثبّتوا فيه رفوف كتب جديدة، ومددوا أشرطة كهربائية لإنارته. كان الإسطبل من أملاك دير مار تقلا الأرثوذكسي، وقد قدمته رئيسة الدير للرجل من دون مقابل. وكان المعلّم الذي لم يكن عنده أطفال يحبّ الكتب، فأنشأ مكتبة للقرية في الإسطبل الذي أعادوا ترميمه، وتبرّع بجميع كتبه التي يزيد عددها على سبعة آلاف مجلد كأساس للمكتبة، وراح يطوف، طوال أشهر، على ناشرين وبائعي الكتب في دمشق يستجديهم بعض الكتب من أجل المكتبة. وعاد أخيراً بسيارة شحن محمّلة بالكتب. عندما افتتحت المكتبة في صيف عام ١٩٥٠، كان قد جمع زهاء عشرين ألف مجلد.

لكن بعد مضي شهر واحد فقط على افتتاح المكتبة، عادت وأغلقت أبوابها، لأن المعلّم نسي أمرين اثنين هما: أنه كان مرتبطاً من خلال زوجته بصلة قرابة مع عائلة شاهين، وأنه كان أرثوذكسياً أيضاً. فتحركت عائلة مشتاق ومن لفّ لفهم من الكاثوليك بسرعة، وادّعوا أن المعلّم كان شيوعياً في أيام شبابه، وأنه يقدم حلوى للأطفال، ويهمس في آذانهم بأن العمّ ستالين أرسلها لهم. وقيل أيضا إنّه كان يُجلس الأطفال الجميلين في حجره، ويتحرش بهم بطريقة مخلّة للآداب.

لم يكن أياً مما قيل صحيحاً، سوى أن المعلّم كان حقاً عضواً في الحزب الشيوعي لمدة ثلاث سنوات انسحب بعدها مشمئزاً وصار من الد أعداء الشيوعية. أما المزاعم الأخرى فلم تكن سوى أكاذيب كيدية، لكنها سرت سريان النار في الهشيم، لأن نصف القرية كانت تؤيد عائلة مشتاق. وبعد بضع كلمات مع الملازم أوّل مروان، رئيس مخفر الشرطة الجديد، سحبت رئيسة الدير تأييدها للمعلم، واحتفلت عائلة مشتاق، والعديد من السكان الكاثوليك من مناصريهم، بإغلاق المكتبة وأقاموا حلقات الرقص، والموسيقى، وغبوا كميات كبيرة من النبيذ.

في ذلك اليوم، مات في فريد آخر ما تبقى من تعاطف نحو هذه القرية المغبرة ونحو عشيرته التي ظهرت له بوجهها البدائي.

وانكفأ المعلّم العجوز إلى بيته الصغير بعد أن امتلأ بمشاعر المرارة، ولم يخرج منه إلا مرة واحدة فقط، كانت المرة الأولى والأخيرة بعد ستّ سنوات - محملاً في تابوت. لم يمش وراءه إلا زوجته، عملاً بوصية زوجها، الذي لم يشأ أن يخرج في جنازته لا صديق ولا قريب.

كانت عائلة فريد تقصد قرية معلا في الصيف فقط، هرباً من الجو الخانق الذي يطبق على أنفاس مدينة دمشق. فقد كانت العائلة تستمتع بالنوم في القرية الجبلية ذات الليالي الباردة المنعشة. وسنة بعد سنة، أصبح أفراد العائلة يأتون كذلك لقضاء أسبوع كامل خلال عيد الفصح احتفاء بذكرى مؤسس العائلة. كان الأصدقاء والأقارب يشاركونهم في الصلاة على روح مشتاق الأول، لا في الكنيسة يوم أحد عيد الفصح فقط، بل طوال سبعة أيام في عيد الفصح، بأمل أن يجد المرحوم السلام في حضن الله، ذاك السلام الذي لم يعرفه قط في الحياة الدنيا. وكانت العائلة تقدم لجميع المدعوين والأصدقاء والغرباء، شتى ضروب التسلية طوال أسبوع كامل. فتصبح الحياة في القرية أشبه بطقوس عربدة طويلة من تناول الطعام والشراب. وكانت أرتال من الفلاحين تتقاطر إلى معلا من جميع المناطق الريفية المجاورة.

twitter @baghdad_library

وكان المتسولون والمحتالون والغجر والحرفيون يأتون جميعاً للمشاركة في تلك الاحتفالات طوال أسبوع كامل.

كان عيد الفصح هو أسبوع الاحتفالات التي تقيمها عائلة مشتاق. أما عيد الميلاد، فقد كان يقتصر على عشيرة شاهين. وانقسم سكان القرية إلى قسمين: قسم ينتمي إلى طائفة الروم الأرثوذوكس ومنهم عائلة شاهين الغنية، وقسم ينتمي إلى كنيسة الروم الكاثوليك التي تكاد تمولها كلية عائلة مشتاق.

ولما كانت الكنيستان تحتفلان بأعياد كل منهما وفق تقويمين مختلفين، فقد كان عيد الفصح يقدم مشهداً مريعاً في غالب الأحيان. فما إن يقوم المسيح من قبره ويصعد إلى السماء حسب التقويم المسيحي الغريغوري الكاثوليكي الغربي، حتى يقوم المسيحيون الأرثوذوكس بالقبض عليه، ومحاكمته، وصلبه في يوم الجمعة العظيمة حسب التقويم الشرقي اليولياني الذي يعود ليوليوس قيصر. وكانت تتاح للمسلمين فرصة للسخرية والتندر في كلّ سنة.

في عيد الميلاد، كانت نوافذ البيوت والكنيسة في الحي الأرثوذوكسي تضاء وتتلألأ، وكانت عائلة شاهين تحتفل طوال الأسبوع حتى بداية كانون الثاني حتى أن أفراد العائلة كانوا يتجشمون عناء السفر من أمريكا للمشاركة في هذه الاحتفالات، في حين كانت بيوت عائلة مشتاق تبقى مظلمة طوال فترة عيد الميلاد، وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بهذا اليوم بتواضع كأن المسيح لم يكن إلا قديساً من الدرجة الثالثة.

كانت أمّ فريد، وهي امرأة شاميّة نموذجية، تنظر إلى كل ذلك، حتى سلوك زوجها، باعتباره أمراً مسلياً، فولكلوراً فلاحياً متخلفاً. ولم تتمكن طوال هذه السنوات من أن تقترب من روح معلا الحقيقية، فضلاً عن أنها لم تكن ترغب في ذلك. وقد فرضت احترامها على القرويين بسبب كرمها، كما نأت بنفسها عن عائلة مشتاق. وكانت المرأة الوحيدة في العشيرة التي تُعرف باسمها الأول، «مدام كلير».

لم تكن كلير تتذوق الأطباق المحليّة المعروفة في معلا التي تفوح منها عادة رائحة بول الخراف أو الماعز، ولا أنواع الكعك التي تُخبز فيها، فضلاً عن الفواكه المجفّفة التي يقدمها أهالي القرية لضيوفهم. وكانت في أعياد الفصح تجلس على شرفة البيت، تتسلى بمراقبة الغادين والرائحين، وعلى مجموعات الشبان والشابات الذين كانوا يستغلون الفرصة للرقص واحتساء مشروب العرق في شوارع القرية وفي ساحتها، كأنها تتفرج على مسرحية تعرض أمامها، لأن كلير تحبّ المسرح الاستعراضي.

بالإضافة إلى فصل الخريف، كان عيد الفصح أفضل فصل في معلا. كانت أشعة شمس الصيف تغمر القرية، لكن ليس بحدة قيظ الصيف. فقد كانت تهب نسائم عليلة من جبال لبنان التي لا تزال مكسوة بالثلج في ذلك الوقت من السنة، عندما تكتسي الطبيعة أجمل حللها، وتحيط براعم النباتات والحشائش الصغيرة الصخور الرائعة على أطراف القرية.

كان فريد يخجل من تصرفات أبيه الذي يمرّ في مرحلة تحوّل ومسخ في كلّ عيد فصح. ذلك الرجل الذي يمثّل دور الرجل المتمدن الأنيق المحترم، عندما يكون في دمشق، ويطعّم لغته العربية بكلمات فرنسية، والذي سرعان ما يتحوّل إلى مجرد فلاح عندما يصل إلى القرية ويرتدي ثياب الفلاحين ويصبح عدوانياً يشخر وينخر كأنه خنزير، يشرب حتى الثمالة حتى يكاد يصاب، ليلة بعد ليلة، بتسمّم كحولي. كان أبوه الذي لم يكد يضحك في البيت إلا لماماً، يتحول في شوارع القرية إلى مهرّج ورجل مشبوب العاطفة، يجري وراء النساء ويتحرش بهن دون أي خجل أو وازع.

كان فريد يشعر بالحرج عندما يكون جالساً مع القرويين الذين يتحررون من أي قيود، خاصة عندما يسكرون، ويبدون تعليقات ساخرة عن ذات الموضوع على الدوام: علاقات أبيه مع النساء، وذلك الشيء الكبير القابع بين ساقي إلياس. وفي أحيان كثيرة، كان رجال القرية المتحلقين يسخرون من فريد الخجول. وكان الرجل الوحيد الذي لم يكن يضايقه أبداً، صادق،

twitter @baghdad_library

طحان القرية. فقد كان رجال القرية يتحاشون صادق الثقيل السمع ويسمونه سراً «الأطرش»، -لا لأن التحدث إليه كان أمراً بالغ الصعوبة، وأن عليهم أن يصرخوا بأعلى عقيرتهم عندما يتحدثون إليه، بل لأن لسانه أمضى من سكاكينهم، وكان رجلاً قوياً بقوة شمشون الأسطوري، لا يهاب عشرة رجال. كان يبدو مضحكاً عندما يفشي لهم بعض الأسرار. فيتظاهر بأنه يهمس همساً، لكنه كان في حقيقة الأمر، يفشي أخباره السرّية بصوت عال يسمعه حتى الأموات القابعون في المقبرة البعيدة.

«إن الذين يضايقونك ويضحكون بأعلى أصواتهم هم الرجال الذين ضاجع والدك زوجاتهم»، صاح صادق في أذنه في دكان الحلاق في العام الفائت. كان وجه فريد يتضرّج حمرة، ويشعر بالكراهية تجاه القرية التي يبدو أن الحياة فيها تقتصر على العمل في الحقول، والأكل والشراب، وترك أكوام غائطهم وأنهار بولهم حيث يجدون مكاناً في أنحاء القرية. وكان القرويّون ينتفشون فخراً مثل ديك رومي، ويزدهون بأنفسهم لأنهم يزعمون أنهم أنقذوا دين المسيح من التهلكة.

«لو كنتُ المسيح» قال فريد لأمّه عندما كان في العاشرة من عمره، «لظهرتُ فوق المذبح يوم الأحد - ولو لدقيقة واحدة فقط - وصرخت في وجوههم المنافقة: بإمكانكم جميعاً تقبيل مؤخرتي، أنتم ومسيحيتكم المهلهلة».

٩- التقارب

كان بوسع فريد أن يجد فتياناً يلعب معهم في معلا خلال فترة الصيف، فتيان يأتون لقضاء العطلة في القرية مع أهاليهم من سكان المدينة الموسرين. عندما يكون برفقتهم يشعر بأن القرية مكان جيد للمغامرات. فقد حوّل هؤلاء الفتيان طبيعة القرية الصخرية إلى خلفية تشبه مشاهد أفلام رعاة البقر، فكانوا يلعبون لعبة رعاة البقر والهنود الحمر، أو لعبة الشرطة والحرامية طوال اليوم، وغالباً ما كانوا يمتطون خيولاً وحميراً حقيقية.

أما خلال عيد الفصح، فكان يرى معلا مكاناً كئيباً. إذ كانت قرية معلا منتجعاً صيفياً شهيراً يعج بعائلات أغنياء دمشق، أما في الفصول الثلاثة الباقية، فهي تنكمش ولا يبقى في القرية إلا فلاحوها، وكأن الزمان قد تجمد فيها منذ قرن من الزمن. كان فريد في التاسعة من عمره عندما رأته أمّه يذرع أرجاء الشقّة في أحد الأيام، يحصي الساعات حتى يعودوا إلى دمشق. اقترحت عليه أن يخرج في نزهة مع أطفال القرية، وزيارة المناطق الريفية والآثار التي خلّفها أجداده.

في البداية لم يكن يرغب في القيام بذلك، لكنه نفذ ما قالته له أمه، فانضم إلى الأطفال الآخرين، وبدأوا يخرجون كل يوم في رحلة لاستكشاف المناطق الجبلية. لم يكن فتيان القرية يعرفون شيئاً عن أجداده أو عن تاريخ القرية، ولم يكن فريد، الذي يتميّز بسرعته وطاقته الجسدية في دمشق، يستطيع مجاراة فتيان القرية الآخرين أو منافستهم، مهما بذل من جهد. فقد كان هؤلاء الصبية يتسكعون في ساحة القرية، ويتمشون ببطء وبتثاقل، لكن عندما ينتقلون إلى العراء يصبحون فجأة رشيقين وسريعين. فقد كانوا يركضون مثل غزالان فتيّة، ويتسلقون جذوع الأشجار المنتصبة الملساء كالسحالي، ويطاردون الأرانب وطائر الحجل الصخري مثل كلاب الصيد. وكان باستطاعة عبد الله ذي الثلاثة عشر ربيعاً أن يقتل أيّ طريدة، مهما بلغت سرعته، بحجر من مقلاعه. وفي أول رحلة خرج فريد معهم، اصطاد عبد الله طائر حجل، ثم أرنباً برياً، ارتمى الصبية فوقهما، وسرعان ما نتفوا ريش الطائر وسلخوا جلد الأرنب البري، وأفرغوا أحشاءهما وغسلوهما، ثم شووا لحمهما على نار بالقرب من شجرة الدردار القديمة، ونثروا فوق ألسنة النار الزعتر وأعشاباً أخرى، ففاحت في الهواء رائحة شهية. لم يكن فريد قد ذاق مثل هذا اللحم المتبّل اللذيذ من قبل.

كان متّى أكثر الفتيان الذين لفتوا انتباه فريد وأثاروا دهشته، الفتى البسيط القليل الكلام القوي كالثور. وكان يستطيع مصارعة الفتيان الأربعة الآخرين وحده، ويلقي بهم ويثبّتهم على ظهورهم بقوة على الأرض،

twitter @baghdad_library

وبإمكانه أيضاً أن يرفع صخرة يزيد وزنها على خمسين كيلو فوق رأسه دون أن يبذل جهداً كبيراً. لكن المدهش حقاً، السهولة التي يتسلق بها الأشجار مثل دبّ، كأن يديه وقدميه تصبح جزءاً من جذوع الأشجار وأغصانها وفروعها، وتتلاءم مع كلّ شجرة. كان يبدو كأنه ينزلق إلى الأعلى، ثم يتأرجح من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى شجرة مثل قرد.

كان متّى يحترم فريد كثيراً، وسعد كثيراً عندما أصبح الفتى الشاحب البشرة القادم من المدينة صديقه. ولم يكن يتوقع أن يحترمه فريد أيضاً وينظر إليه، كأنه كان مخلوقاً غريباً رائعاً من عالم آخر تماهى فيه الكائن البشري مع الطبيعة.

كانت كلير تغدق على رفاق ابنها هدايا كثيرة. فقد كانوا يتلقون، سنة بعد أخرى، هدايا عيد الفصح: مُدى غالية الثمن، ألعاب صغيرة رائعة، وأدوات تنفعهم في رحلاتهم، وكميات كبيرة من الشوكولاته. وسرعان ما أصبحوا يتطلّعون بلهفة إلى قدوم فريد في عيد الفصح وفي عطلة الصيف؛ وأصبحوا يشعرون بانجذاب غريب نحو ابن المدينة الشاحب البشرة الذي قد لا يكون قادراً على إصابة الجبل بكامله بحجر، لكنه لم يكن يعدم الكلمات. فقد بدت لهم موهبته في رواية الحكايات أمراً عجائبياً. فلم تكن تنبعث من فمه قصص ونكت مسلّية فحسب، وإنما كان يجيد أيضاً استخدام لسانه بحذق، يسرجه وكأنه ذاك الحصان المجنح الأسطوري، ويحلّق به بعيداً بأسلوب يجعلهم يحبسون أنفاسهم. كان فريد يحكي لهم حكاية بطريقة جذابة تجعلهم يشاهدون بأم أعينهم كل أحداثها. كان ذلك هو الجزء العجائبي بالنسبة للصبية الذين لم يعتادوا على سماع مثل هذه الحكايات. فقلما تروى لهم حكايات في البيت، والحكايات التي كانوا يسمعونها مليئة بالمواعظ والمبادىء الأخلاقية التي سرعان ما كانوا يملّونها. أما كلمات فريد فهي زاخرة بالألوان، وتسير برشاقة على نحو آسر يدغدغ قلوبهم.

بتلك الكلمات كان ينقلهم إلى عالم غريب، عالم مليء بالنساء الجميلات، عالم لا توجد فيه هموم الحياة اليومية التي تشغلهم، عالم لا

تقتصر فيه السنة على الزراعة والحصاد، بل تتألف من ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً وليلة، تجري فيها أمور ممتعة ومثيرة على الدوام.

ومن الغرابة أنه مهما كانت الحكايات التي يحكيها لهم تبدو غريبة، كانوا يثقون به في سريرتهم، ويصدّقون كل كلمة يقولها. وكانت أنواع الطعام التي تقدمها لهم مدام كلير في رحلاتهم أشبه بحكاية من حكايات الجنّ؛ وكانوا يستمتعون بالطعام اللذيذ وهم يستمعون إلى حكايات فريد، ولم يكونوا يعرفون ما الذي كان يجذبهم أكثر: الحكايات أم زوادة الرحلة الشهية.

في الواقع، لم يعش هؤلاء الصبية طفولتهم. فلم يكن لدى أي منهم لعبة، ولم يتناولوا الحلويات الزاهية الألوان القادمة من المدينة، ولم يكن بإمكانهم صنع طائرات ورقية وإطلاقها في الهواء، أو مراكب ورقية صغيرة يجعلونها تطفو على سطح الماء، في حين استطاع فريد عمل كلّ ذلك بمهارة سحرية. تعلّم هؤلاء الصبية منذ أن كانوا في الرابعة من أعمارهم كيف يميّزون بين الأعشاب الضارة وأنصال نباتات القمح، وكيف يقتلعونها بأيديهم الصغيرة. كانوا يعرفون أنواع الحيوانات التي تعيش في كلّ عشّ وفي كلّ جحر في الأرض، ويعرفون الكثير من المخابئ السرية القابعة بين الصخور.

في البداية، اعتادوا على تحضير طعامهم للرحلة، ولو بدافع الكبرياء. لكنهم كانوا يصطادون باستمرار أرنباً برياً أو عدة أرانب، ثمّ يجلسون تحت شجرة الدردار القديمة، ويشوون لحمها، ويعدّون الشاي الأسود الثقيل على جمر النار. ثم يستمعون، مسحورين، إلى الحكايات الخلابة عن المدينة.

لكن مع مرور الوقت، تغلّب الصبية على مشاعرهم بالكبرياء، وأصبحو يتركون زوادتهم من الخبز الجاف، والجبن المالح المصنوع من حليب الغنم، وحبات الزيتون السوداء المجعّدة في البيت. وراحوا يصطادون الأرانب البرية وطائر الحجل. كان كل ذلك ليعجلوا في شواء اللحم، واحتساء الشاي، والاستماع إلى حكايات فريد. وفي شهور غيابه عنهم،

twitter @baghdad_library

كانوا يتطلعون بفارغ الصبر إلى قضاء ساعات معه تحت شجرة الدردار القديمة، عندما يعود إلى معلا.

تخللت تلال عديدة الدرب الضيّق الذي يتلوى في أراض جافة، تتناثر فيها أشجار الكرمة. أشجار لوز هنا وأشجار دردار قديمة وعليق برّي هناك، ثم تمتد أراض مليئة بالأحجار والأشواك. ولم تكن قرية معلا تبعد عن الحدود اللبنانية أكثر من ثلاث ساعات سيراً على الأقدام. وكان العديد من المزارعين يجنون أموالاً من التهريب أكثر مما يجنونه من الزراعة. وكانت شجرة الدردار الضخمة التي تدور حولها الأساطير تنتصب فوق قمة أعلى تلة. وعلى مسافة ليست بعيدة عنها، يوجد نبع صغير يُعرف بعذوبة مائه. وبالإضافة إلى النبع المنعش، توجد مكافأة أخرى بانتظار كل من يبلغ الشجرة، إذ يمتد أمامه على مدّ البصر مشهد طبيعي رائع كأنه حلم. مشهد بانورامي أخاذ فوق تلال ذات منحنيات ومنعطفات لطيفة حتى ساحة قرية معلا، في أسفل الوادي. وفي الأيام التي تصفو فيها السماء، كان أفق الناظر يلامس البادية السورية البعيدة. وكنسرٍ، يستطيع المرء أن يرى أدنى حركة في الوادي أسفل تلك التلة. وازداد المشهد جمالاً عندما أهدت كلير فريد منظاراً ألمانياً غالي الثمن، ليتمكن من مراقبة الطيور والحيوانات في بيئتها الطبيعية.

بعد ذلك، بدأ الصبية يستمدون متعة عابثة من رؤية المؤخرات العارية للفلاحات وهن يقرفصن في مكان مستتر عندما لا يستطعن تمالك أنفسهن. وفي إحدى المرات، أداروا منظارهم لمراقبة مزارع متزوج حديثاً توقف عن عمله في الحقل ثلاث مرات لمضاجعة زوجته بسرعة، ثم يعود إلى عمله. كانت زوجته تلبث مستلقية تحت شجرة الجوز ساكنة. وبعد كلّ مرة، كانت تسوّي ثوبها وتغطّ في النوم لتستيقظ مجدداً عندما يعلوها زوجها ثانية.

١٠- نهاية الطفولة

في وقت لاحق، تساءل فريد متى انتهت طفولته، وقال لنفسه لا بدّ أنها انتهت في ربيع عام ١٩٥٣. كان ذلك عندما عرف أن الحبّ في بلاد العرب

ينحصر في ما تقوله بطاقة هويتك أكثر مما تعبّر عنه مشاعر قلبك. ولا يعرف ذلك إلا الكبار.

اكتشف ذلك قبل شهرين من ذهابهم إلى معلا للاحتفال بعيد الفصح، زار صديقه في المدرسة كمال الصابوني، وهو طالب مسلم غني لكنه متواضع. لم تكن عائلة كمال تملك مساحات شاسعة من الأراضي فحسب، وإنما كان لديها كذلك أسهم كثيرة في شركة صناعة المنسوجات العصرية بالقرب من مدينة دمشق. وكان والده أحد كبار المستشارين الاقتصاديين لملك السعودية، وهي وظيفة غير عادية يشوبها الغموض آنذاك، وتمكن عبرها من جني الملايين. وبالرغم من ذلك، لم تكن عائلته مستعدة للاستعاضة عن دمشق برمال الصحراء الحارة، حتى لو مُنحت كلّ أموال العالم. لذلك بقي كمال وأخواته في العاصمة السورية مع أمّهم، بينما عاش والده في السعودية في بيت تقوم على خدمته خادمتان جميلتان يعاملهما والده كأنهما من عبيد السخرة كما دأبت أمّه على القول متهكمة، وكانت تلمح أيضا لصديقاتها أن هاتين الصبيتين تخدمان زوجها في الفراش أيضا في كل ليلة. وفي أحيان كثيرة، كان كمال يسخر من والده، العجوز المتصابي، الذي يرسل له رسائل بليغة تجيش بالمواعظ يطلب منه فيها التمسك بالدين وبالأخلاق العربية الحميدة. وعلى الرغم من أن والده يحبّ دمشق كثيراً ويبدي حماسة لزيارتها، لم يكن يزورها إلا لحضور أعراس ومآتم.

رأى فريد الفتاة التي تدعى رنا لأول مرة في بيت كمال. فقد زار فريد بيت هذه العائلة المسلمة الغنية مرات عديدة. فمنذ عام تقريباً، دعاه صديقه في المدرسة هو وعدد من زملائه للاستماع إلى أسطوانات جديدة وصلته من باريس مؤخراً.

كان فريد متشوقاً للتعرف على عائلة كمال. عندما قرع الجرس، فتحت له الباب خادمة سوداء. سألها عن كمال، أدهشه مقدار الاحترام الذي بدا في صوت هذه المرأة العجوز عندما قالت «السيد الشاب». ثم دخلت بهدوء. بعد لحظات سمع صديقه يقول له: «تفضل - ماذا تفعل واقفاً عند المدخل؟»

twitter @baghdad_library

كمسيحي، تعلّم فريد ألاّ يدخل بيوت أسر المسلمين قبل أن يأذن له مضيفه، وألاّ يتلفت يمنة ويسرة عندما يمرّ من أمام أبواب مفتوحة، بل يثبّت عينيه على محدّثه، وألاّ ينظر إلى داخل الغرف، وأن يطرق بعينيه إلى الأسفل، ويتبع مضيفه، ويجب أن يقول، بين الحين والآخر، بصوت مسموع «يا الله»، لمنح الإناث المستهترات الشاردات فرصة أخيرة للابتعاد عن موقع نظر الرجل الغريب.

لم يكن منزل عائلة الصابوني، الكائن في شارع بغداد، يبعد كثيراً عن الشارع الذي يعيش فيه فريد. لكن ما إن أصبح داخل البيت، حتى وجد نفسه في عالم غريب مختلف كلّياً. فعندما كان في الثامنة من عمره، أدرك أن الحيّ المسيحي الذي يعيش فيه، لم يكن إلا جزءاً صغيراً من مدينة إسلامية كبيرة. وحتى ذلك الحين، كان لا يزال يصدق ما يردده جارهم ناصيف عندما يكون ثملاً: «العالم ليس أمريكا، العالم ليس أفريقيا، بل هو هذا الحيّ، وحتى لو كان يعيش فيه عشرة أشخاص، ثمانية منهم من المسيحيين، وواحد يهودي وآخر مسلم، فإنك ستجد، إذا حالفك الحظ، من بين هؤلاء المسيحيين الثمانية، شخصاً *واحداً* محترماً يمكنك أن تتحدّث إليه».

ولمّا كان اليهود يعيشون في زقاق قريب، كان فريد يقول لنفسه لا بد أن هناك زقاقاً صغيراً آخر يعيش فيه المسلمون في مكان ما من هذه المدينة. لكنه مع مرور الوقت، تبين له أنه لا يمكن الركون إلى ما كان يقوله ناصيف، لأن مشروب العرق كان قد التهم دماغه. مضت سنوات عديدة قبل أن تطأ قدماه بيت عائلة مسلمة. كان ذلك في حفلة أقامها علي، معلّم الفرّان الذي يعمل في مخبز والده منذ عدة سنوات.

بغتة، اعترى فريد إحساس غريب. فقد بدا له أن منزل علي البسيط كان بمثابة عالم مختلف تمام الاختلاف. عالم يتحدث فيه الناس بصوت أعلى، ويرتدون ثياباً بألوان أزهى، ويتناولون طعاماً أدسم وأشهى من الطعام الذي تطهيه أمه عادة، حتى إن الشاي الذي يحتسيه المسلمون أثقل وأحلى من

الشاي الذي يحتسيه أهالي الحيّ المسيحي. وإذا ارتشف أحدهم الشاي في بيت فريد وأصدر صوتاً مسموعاً كما كان يفعل المسلمون في الحفلة التي دعاه إليها علي، فإن كلير سيغمى عليها وتذوب خجلاً.

غمر فريد شعور غريب. مشاعر امتزج فيها الخوف مع حب الفضول، القرب مع البعد. وأحسّ بالانجذاب إلى هذه البيئة المحيطة، كأن جزءاً كبيراً من روحه ينسجم معها. فلم يعرف في حياته مثل هذه الحميمية والقرب في أيّ بيت مسيحي. وجعله افتتانه هذا يقبل أيّ دعوة يوجهها له أي من زملائه المسلمين في المدرسة لاحقاً، بأمل أن يكتشف سرّ تلك الجاذبية الغامضة.

لم يكن كمال الصابوني طالباً متفوقاً في المدرسة، وكان يُنظر إليه بأنه طالب غني كسول غبي. ولهذا السبب بالذات، كانت أمّه وشقيقاته يرحبن بزيارة هذا الفتى الشاحب البشرة، فريد الطالب المتفوق في الصف، كما أخبرهن كمال. وكنّ يطلبن منه أن يعود لزيارة كمال بأمل أن تؤثر صداقة هذا الشاب الطموح على ابنهم الخامل الهمة. ومرة بعد أخرى، بدأ يتعرف على الفروق بين حياة المسيحيين والمسلمين. كانت عائلة الصابوني تعمل في صناعة النسيج منذ العصور الوسطى، وهذا ما جعلها عائلة ثرية. وكان أفراد العائلة يرتدون ثياباً على الطريقة الأوروبية، وعلى الرغم من ذلك، كانوا يَبْدون عرباً أكثر مما كان والداه يبدوان بمائة مرة. وكان يستغرب لأنهم يبدون قريبين وبعيدين منه في الوقت نفسه. لم تكن زيارته لهم تشبه زيارته إلى بيت صديقه يوسف الذي فقد أي اهتمام بزيارة بيته مع مرور الزمن. وأصبح فريد يشعر، كلما وقف أمام باب منزل كمال بغربة، وكأنه يزوره لأول مرة. ومع أن الخادمة أصبحت تعرفه جيداً، كانت تسأله كلما أتى لزيارتهم كأنها نسيته من هو ومن يرغب بزيارته.

هنا، مثل بيوت أصدقائه المسلمين الأخرى، كانت جميع الغرف مفتوحة أمامه، حتى أكثرها خصوصية. ولم يكن يشعر بالحيرة عند زيارته أي عائلة أخرى، كما يشعر هنا بسبب انتقال أفرادها من العادات الإسلامية إلى الأوروبية ثم العودة إليها بسرعة. فالعائلة نفسها التي تمارس الفصل بين

twitter @baghdad_library

الجنسين في الأماكن العامة، تتمتع بتواصل جسدي حسّي داخل جدارنها الأربعة أكثر من أية عائلة مسيحية. ففي إحدى المرات، استثيرت أخت كمال الكبيرة، دلال، عندما غازلها زوجها على مائدة الطعام، مما جعلها تغادر الغرفة برفقة زوجها. وعندما لم يعودا لفترة من الزمن، حدس فريد بما كان يجري. ولكي يتأكد من صحة حدسه، استأذن للذهاب إلى الحمام. وفي الممر تناهي إليه صوت أخت كمال وهي تتأوه من رعشة الجماع. وعندما سمع صوت صرير السرير، ازداد خفقان قلبه. أحسّ بالذنب، مثل طفل سرق شيئاً ائتُمن عليه. فدخل إلى الحمّام وبقي هناك حتى هدأ، ثم عاد إلى الغرفة، راجياً ألا يسمع المزيد من تلك الأصوات، لكن الهدوء خيّم على المكان هذه المرة. أخذ الزوجان وقتهما، ولم ينتبه أحد من الجالسين إلى المائدة لغيابهما أو يعلّق بسخرية عليه. وعادا عندما بدأ تقديم الحلوى، بعد أن مشطا شعرهما، وتعطّرا، وبدا عليهما النعاس.

كان بكر ساهد، الرسّام المشهور، عميد كلية الفنون الجميلة في دمشق، قد أمضى شهوراً في رسم أفراد العائلة. فكان يجلس ساعات في غرفة الجلوس أمام حامل مرسمه، ولا يتوقف عن الرسم. لم يكن يبدو أن عمله هذا سيتوقف. وشعر فريد أن الفنان يتعمد الإبطاء في إنهاء لوحاته ليطيل علاقته الوثيقة بأفراد العائلة وأصدقائهم الأغنياء. لأن عدداً كبيراً منهم، كما قيل، طلبوا منه أن يرسمهم بسبب معرفتهم بعائلة الصابوني.

لم يكن كمال يطيق هذا الرسّام. فقد قال لفريد إن هذا الرجل شاذّ جنسياً متخفٍ، ولم يكن يكفّ عن ملامسته «في الأسفل هناك» كأن الأمر يبدو مصادفة. كان ثمة شيء أنثوي في حركات الفنان، وكان صوته رفيعاً مثل مخصيّ، ونظراته تشي بأنه يشتهي الشبان. فعندما صاغ سؤاله بإتقان - ما رأي الشاب المحترم في أن أرسمه عارياً في مرسمي، كنموذج لتمثال الشاب الذي ينوي نحته؟ - لم يسع كمال إلا أن أطلق ضحكة خبيثة. ومن الغريب أن أمّه لم تعترض على هذه الفكرة على الإطلاق. قال فريد في نفسه، إن لدى المسلمين، بطريقة ما، موقف صحي إيجابي تجاه أجسادهم

أكثر مما لدينا نحن المسيحيين، وهم يستمتعون بها أكثر منا. فهم يغتسلون قبل أن يطهروا أرواحهم، وهذا دليل واضح على التقدير العالي الذي يكنّونه للجسد. بينما نحن الكاثوليك نركع أمام كاهن قد يكون غبياً او أصابه الخرف لنعترف بخطايانا التي ارتكبناها، وعلى الأغلب فإننا نخفي عنه ما نخجل من روايته، وهو صاحب الأمر والنهي، وهو الذي يترفع من مكانته الحقيرة ليصبح واسطة اتصال بيننا وبين الله.

بعد تلك الزيارة الأولى، عندما أسمعه كمال بافتخار آخر الأسطوانات التي وصلته، بدأ فريد يزوره كلّ أسبوع تقريباً، وأبدى أفراد أسرته ارتياحهم على مصادقة ابنهم له. كان ثمة أمر واحد واضح بالنسبة لهم، وهو أن كمال لم يكن يأخذ المدرسة بجدية، وكذلك أساتذته الذين يتقاضون رواتب تقلّ بكثير عن مصروفه الشخصي. وعرفت أمّه أن زميله طموح وأن ابنها يحترمه. كان فريد يستمتع بالمودة والبشاشة التي يلاقيها من أفراد عائلة الصابوني. وبعد فترة قليلة، بدأوا يطلبون منه أن يمكث عندهم وقتاً أطول عندما يزورهم. وإذا نسي كمال أنهما على موعد وذهب إلى مكان آخر في دمشق، كانت إحدى أخواته الثلاث: دلال أو لطيفة أو دنيا، أو أمّهن تصرّ على أن يدخل ليشرب كأساً من عصير الليمون أو الشاي. وكن يجلسن معه إلى حين مغادرته. وكان فريد يشعر أحياناً بأن ذلك يحرجه، لأنه يرى كيف أن أفراد العائلة يضطربون عندما يأتي رجل غريب لزيارتهم. أما خلال وجوده، فكانت أخوات كمال يدخلن بشكل عرضي إلى الغرفة التي يجلس فيها، يرتدين، في معظم الأحيان، أثواباً رقيقة أو أردية منزلية شفافة، ما يجعله يسرع في المغادرة حتى لا يخيّل إليهن أنه لا توجد لديه مشاعر جنسية تجاههن، ولا يحرصن منه.

في أحد الأيام من شهر كانون الثاني ١٩٥٣، ذهب فريد لمساعدة كمال لكتابة موضوع إنشاء. رافقته الخادمة السوداء التي تبدي كالعادة فتوراً وشكاً نحوه يصل إلى حد العدائية الصامتة إلى غرفة الجلوس. في هذه المرة، كانت دنيا، أصغر الأخوات الثلاث، تجلس أمام الرسّام يرسمها، وقد وقف

twitter @baghdad_library

أمامها أربعة أو خمسة فتيان صغار يلوون وجوههم ويحولون عيونهم لإضحاكها. كان الفنان يرجوهم اللعب بعيداً والتزام الصمت، لكن عبثاً. كان كمال يتزعم عصابة هؤلاء الشبان والشابات. فجأة، رأى فريد رنا. وعرف لاحقاً أن هذه كانت أول زيارة لها إلى بيت صديقتها دنيا.

من الغرابة أنه ظنّ في البداية أنها فتاة مسلمة، كما ظنّت هي أيضاً أنه شاب مسلم. وبخلاف الأسماء التي يطلقها المسلمون على أنفسهم مثل محمد وعلي وعائشة وفاطمة، والأسماء الأوروبية النموذجية التي يطلقها المسيحيون على أنفسهم مثل جورج وميشيل وتيريز، لا يمكن تحديد ديانة الأشخاص الذي يحملون أسماء عربية مثل فريد ورنا. إذ تعني فريد «الشخص الذي لا نظير له، الثمين»، وتعني رنا «الحسناء التي تجذب نظرات الآخرين».

وخيّل إليها أنه ينتمي إلى عائلة الصابوني. وقد فتنها صوته ويداه على نحو خاص، لكنها ذعرت فجأة، عندما أدركت على نحو ممض، بأنها ستقع في شيء دفعت عمّتها ياسمين ثمنه مريراً وهو الموت. ففي البدء، أحبّت ياسمين صوت ويدي حبيبها جلال. فعندما كان يتكلّم، كما أخبرت رنا قبل مقتلها بفترة وجيزة، كانت تشعر بضعف وضياع لذيذين عندما تلامسها أصابعه الرقيقة.

حاولت رنا أن تتجاهل فريد. فمنذ وصولها كانت تحاول أن تبعد عنها كمال الذي لم يكن يرفع عينيه عنها، ويغازلها بإبداء ملاحظات موحية. ثم ألمح بجرأة أنه إذا أحبّته فتاة مسيحية مثل رنا، فإنه سيعتنق الدين المسيحي في الحال، حتى لو كلفه ذلك حياته. ثم ضحك بصفاقة وقال إنه سيكون على الأقل شهيداً حقيقياً للحبّ. لم يَرُق لرنا هذا النوع من المزاح. ولم تُلقِ بالاً لكمال، لكنها لم تكن تجيبه بحدّة أيضاً، لعدم رغبتها في المجازفة بصداقتها مع أخته. وقد أسرّت دنيا لرنا بأنها لا توافق على اتباع عائلتها العادات الغربية. وقالت لها إنها معجبة بالتقاليد الإسلامية، وأنها تريد الزواج من رجل مسلم له شخصية قوية، تحترمه وتقدّره. «كلّ شيء يزول –

الحبّ، الرجولة، الجمال والمال. كلّ ما يهمني هو الشعور بالاحترام العميق لرجل ناضج، لطيف»، قالت لرنا وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها بعد. إنها تعرف، منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، ماذا تريد في الحياة، ومن ستكون.

لكن بخلاف كمال، لم تتمكن رنا من تجاهل الفتى الآخر. فعندما انتهيا في ذلك النهار من كتابة موضوع الإنشاء المدرسي، عادا إلى غرفة الجلوس. كانت ضحكة فريد تسبقه، تلك الضحكة المعدية التي كادت أن تفتح جميع النوافذ. وفجأة، بدا لها أن الهواء النقي قد ملأ الغرفة كلها. وظلت رنا تتذكر تلك اللحظة، حتى بعد مضي عدة سنوات، وتتذكر كيف كان يخطر لها، منذ تلك اللحظة، أن حبّها لفريد أشبه بفتح نافذة غمرت الغرفة بالهواء النقي. فقد أحاطها بضحكته، وغمرها باهتمامه، وفتنها بكلماته الساحرة. بدا لها الأمر غريباً، لأن شعوراً بالقلق والارتياح كان يتملكها في وجوده. وبعد أول لقائين معه، وجدت أن وجيب قلبها يعلو كلما قُرع الجرس عندما تكون في زيارة لبيت الصابوني. وإذا كان فريد هو الشخص القادم، كانت تحسّ بالدم يكسو وجهها، ولا تعرف إلى أين تنظر.

إمّا أن الحظ شاء ذلك وإما أن صديقتها دنيا أرادت ذلك، فقد جلس فريد إلى جانب رنا في أحد تلك اللقاءات، عندما ينهمك الجميع في احتساء الشاي.

«من أي منطقة أنتِ؟» سألها فريد بحذر، لأن أي جزء من المدينة ستقوله قد يعطيه فكرة عن دينها. فلقد قال كمال قبل ذلك بقليل شيئاً جعله يتساءل هل رنا مسلمة.

فأجابت «إننا نعيش في حي الصالحية». لم تقدم هذه المعلومة أي وضوح عن انتماء رنا الديني فالصالحية حيّ يعيش فيه مسيحيون ومسلمون من الطبقة الراقية، «وأنتَ؟»

«في باب توما، ليس بعيداً عن البوابة»، قال فريد. لم يكن ردّه دقيقاً، لأن بوابة باب توما كانت تبعد أكثر من ألف وخمسة مائة متر عن بيته. كان

twitter @baghdad_library

عليه أن يقول في الباب الشرقي، الذي يبعد أقل من مائة متر عن مدخل الزقاق الذي يقع فيه بيتهم، لكن مجرد ذكر «الباب الشرقي»، لا يحدد دين المرء بدقة لأن جميع الطوائف الدينية تعيش معاً في ذلك الشطر من المدينة، بينما باب توما هو حي مسيحي محض. أحدثت الإجابة التأثير المطلوب. شنّفت رنا أذنيها.

«أوه، إذاً أنت تعيش بين المسيحيين؟» سألته، بابتسامة.

«ماذا تقصدين بينهم؟ أنا مسيحي»، أجاب. بدأ وجيب قلب رنا يعلو. أخذت تضحك.

«ما المضحك في الأمر؟» سألها، مندهشاً.

«لا شيء. إني أضحك لأني ظننت أنك مسلم. أنا مسيحية أيضاً»، قالت بهدوء، حتى لا يسمعها أحد غيره. احمرّ وجهها خجلاً.

«إني سعيد لسماع ذلك، مع أنني لا أعبأ كثيراً بديانة الشخص»، أجاب فريد. لكن شعوره بالارتياح لم يجعل لامبالاته المفترضة تبدي مصداقية مقنعة.

«لديّ الشعور نفسه، على الرغم من أن هذا يبدو أمراً شديد الأهمية لباقي العالم»، قالت رنا، وقد كست وجهها تعابير الحزن على الفور. نظر فريد إليها، فأحسّ بالضياع في تلك اللحظة. أحسّ بالحاجة إلى أن يأخذ نفساً عميقاً، وإلا فإن قلبه سيتوقّف عن الخفقان.

بحث عن يد رنا تحت الطاولة. عندما وجدها ولمسها، أجفلت للحظة، لكنها سرعان ما أمسكت بيده بإحكام. لبرهة توقفت الأرض عن الدوران، وأصبح العالم مكاناً يخيم عليه سكون لانهائي. في تلك اللحظة، لم يعد يوجد في دمشق كلها إلا شخصان، يجلسان هناك، أيديهما متشابكة. وحام فوق رأسيهما سكون عميق يكاد يصم صوته الآذان. ثمّ، بغتة عاد العالم الطبيعي، بضجيجه، وعاد احتساء الشاي، وضحكة دنيا اللطيفة.

«هيه، نحن هنا أيضاً»، همست دنيا، في عينيها نظرة ذات مغزى، وهي تقدم لهما الشاي. أفاقت رنا وفريد، مصدومين لأنهما وجدا أن العالم

لا يزال في أوج نشاطه وحركته. وقبل أن يغادرا بيت الصابوني، رتّبا لقاء ثانياً في حديقة الصوفانية بالقرب من باب توما.

خلال حديثه مع رنا، تمكن فريد من جمع معلومات تفيد بأن والدها محام وأن اسم عائلتها شاهين. وبما أن اسم شاهين شائع في جميع بلدان الشرق الأوسط، لم يثر ذلك أي شكوك في نفسه في البداية، لكن القلق بدأ يعتريه في تلك الليلة، وتساءل: هل يمكن أن تكون رنا إحدى بنات عشيرة شاهين في معلا، الأعداء الألداء لعائلته؟ فقد عاد العداء المستحكم بينهما إلى الظهور بعد أربعين عاماً. فمنذ كانون الثاني، اندلعت نار جهنم، وكان والده يحتفل منتصراً بنكسة قوية منيت بها عائلة شاهين.

أخذ فريد يتقلّب في السرير مضطرباً. استيقظ في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي. فوجئت أمه بوجهه الكالح، بل ما فاجأها أكثر ملاحظته الأولى لها.

«هل تعرفين أي طرف من عائلة شاهين ليسوا على خلاف مع عائلتنا؟ هل يوجد فيهم محام؟» سألها حتى قبل أن يرشف أول رشفة من الشاي.

مسّدت كلير رأس ابنها، وقالت له: «لو كنت قد عشت مع أحد أفراد عائلة مشتاق لسنوات عديدة مثلي، لعرفت أشياء كثيرة عن أعدائهم، عائلة شاهين بدءاً من حفيد حفيدهم حتى جدّ جدّهم. لماذا؟»

«أوه، لا شيء. إني أسأل فقط. فقد التقيت رجلاً من عائلة شاهين»، قال محاولاً تزييف الحقائق. ابتسمت لمحاولته غير الناجحة للتمويه.

«يوجد أشخاص كثيرون اسم عائلتهم شاهين في كل مكان، لكن عائلة شاهين في معلا هي العائلة الوحيدة التي على عداء مع عائلة مشتاق. دعني أتذكر»، قالت كلير، «نعم، أظن أن واحداً منهم محام أو قاض. لست متأكدة، لكنّي أستطيع أن أتأكد من ذلك قريباً. لديّ صديقة تعرفه. هل تريدني أن أسألها؟»

«لا، لا، انسي الموضوع» أجاب فريد. فقد قرّر أن يسأل رنا بنفسه.

بقي شارد الذهن طوال اليوم. كان أستاذ الكيمياء أول من لاحظ ذلك.

twitter @baghdad_library

«لقد طار خبيرنا الكيميائي الواعد اليوم إلى جزر الواق واق»، قال مازحاً، عندما طرح على طلاب الصف سؤالاً وكان فريد يحدّق في الفضاء كأنه يبحث عن ثقب فيه. لم ينتبه لهذه الملاحظة أيضاً. لم تعده إلى الواقع إلا ضحكات رفاقه في الصف.

«ماذا؟ لماذا؟» قال متلعثماً.

«كنت أسأل ما الفرق بين الأولفين والبارافين»، قال الأستاذ ببطء، دون أن يشوب كلامه أي نبرة تهكّمية.

«كلاهما من فصيلة الهيدروكربونات، البارافين مادة روابطها مشبعة أما الأولفين فروابطها غير مشبعة».

«صحيح»، قال الأستاذ، معجباً بقدرة فريد على الإتيان بالجواب الصحيح حتى لو كان عقله سارحاً في شيء آخر، أما باقي طلاب الصف، فقد كانوا يركّزون كثيراً، ومع ذلك، لا يستطيعون الإجابة. سيكون هذا الفتى كيميائياً هاماً ذات يوم، قال لنفسه، مبتسماً بارتياح.

١١- عَقَبَة

لم تكن لديه شهية لتناول طعام الغداء. كانت كلير قد أعدّت له المائدة وذهبت إلى منزل جارتها لتساعدها في ترتيب البيت قبل وصول مائة مُعَزٍ ومعزية بعد بضع ساعات. فقد تدلى رأس فارس، زوج جارتها الذي يبلغ من العمر تسعاً وخمسين سنة، على صدره فجأة، عندما كان يحتسي قهوته الصباحية. كان في صحة جيدة ولم يكن يعاني من أي مرض. «فارس! يا إلهي، فارس!» صاحت زوجته التي شكت في أن مكروهاً قد أصابه. لكن زوجها أخذ بكاءها معه إلى دار الخلود.

هرعت عدة جارات في البناية إلى بيت جارتهن لمساعدتها. طهت بعضهن الطعام، وأحضرت أخريات كميات كبيرة من القهوة.

انهمكت كلير وصديقتها مادلين في ترتيب الكراسي المستعارة في الباحة الداخلية، ووضعتا أريكة وكرسياً بمسندين للمطران والكاهن. كان فارس

المرحوم رجلاً هاماً في الطائفة الكاثوليكية بدمشق، وعضواً في جميع لجان الكنيسة تقريباً.

ارتدى فريد أجمل ما لديه من ثياب ورشّ على وجهه قليلاً من الكولونيا التي يستخدمها والده، برائحة زهر البرتقال المنعشة اللذيذة. عندما عادت أمّه إلى البيت بعد الظهر اكتشفت أن ابنها لم يتناول شيئاً من الطعام الذي أعدّته له قبل أن تذهب.

كانت حديقة الصوفانية قريبة من باب توما، الحي المسيحي، لذلك تلكأ فريد وراح يسير ببطء لأن الطريق إلى الحديقة لا يستغرق أكثر من عشر دقائق. بدأ العرق يتصبب منه. كان الطقس حاراً كالصيف علماً أنهم كانوا في شهر آذار. لكنه لم ير أي أثر لوجود رنا في أي مكان.

بعد قليل رآها تخطر في الحديقة. رأته جالساً على أحد المقاعد سارحاً في أفكاره. قالت لنفسها إنه يبدو رائعاً في قميصه الأبيض وبنطاله الأبيض وبحذائه الجلد البني الفاتح.

كانت بشرته السمراء تلمع تحت أشعة الشمس. وبقامته الطويلة ونحافته، كان أشبه بشاب إيطالي، بين هؤلاء الرجال الذين يميلون إلى البدانة في الحديقة في هذا الجو الحار.

رفع فريد عينيه فجأة. رآها فضحكا معاً. قبّلها لأول مرة، على الرغم من أنها كانت قبلة على الخدّ فقد لامست شفتاه فمها بسرعة.

«أووه، انظري، لقد قبّلها»، قال صبي صغير لأمّه التي تلعب معه الورق فوق غطاء زاهي الألوان مُدَّ فوق العشب.

«إنهما أخ وأخت. أي شخص يستطيع أن يرى ذلك. هيا، جاء دورك في اللعب»، قالت توبّخه.

شعر فريد بالإحباط عندما قال لرنا إنه لم يذق طعم النوم ليلة البارحة بسبب الأفكار التي راودته، وعندما سمع منها أن الليلة الماضية كانت أفضل ليلة تنام فيها منذ فترة طويلة. لا بد أنها لم تفكّر باسم عائلته، فالدمشقيون لا يبدون اهتماماً كبيراً بأسماء العائلات. سألها عن اسم أبيها.

twitter @baghdad_library

«باصيل. هل يهمك هذا؟»

فأجاب «لأني أريد أن أعرف إلى أيّ فرع من عائلة شاهين تنتمين». وشعر بضيق أشدّ عندما حدّثها عن شكوكه بأنها قد تنتمي إلى عشيرة شاهين في معلا، أعداء عائلته اللدودين.

«إذاً أنتَ من معلا؟ ومن عائلة مشتاق؟» سألته رنا مندهشة.

هزّ رأسه.

«ظننتُ أنكَ تنحدر من نسب أوروبي. هكذا إذاً لم تحملني قدماي بعيداً عن تلة القمامة تلك»، قالت بصوت فيه نبرة إحباط.

«أنتِ من معلا أيضاً؟» سألها فريد، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، لأنه عرف الجواب للتو.

هزت رأسها ولم تنبس بكلمة. تلاشت ضحكتها.

أمسك يدها. وجدها باردة وأحسّ بها ترتعش.

«إنه ليس شقيقها». سمع فريد الصبي الجالس على المفرش يقول لأمّه.

«هيا العب أوراقك»، قالت لابنها بحدّة، «ليس لنا علاقة بذلك! هل تلعب معي الورق أم أنك أصبحت سمسار زواج».

نظرت رنا إلى فريد. رأت في عينيه شوقاً وحزناً. مع أنها كانت خائفة جداً، عرفت في تلك اللحظة بالذات أنها تريد أن تعيش معه. لكن في الدقيقة التالية تذكّرت كلمات أمّها: «إن المسلم يظل على الأقل بشراً أما أفراد عائلة مشتاق فهم جرذان! جرذان! جرذان!» تردّد الصوت في رأسها.

«هل سمعتَ عن آخر كارثة حلّت بعائلتي؟» سألته.

أومأ وأدرك أنها تعرف أن عائلة مشتاق هي المتهمة بالتسبب باعتقال عمّ رنا والدمار المالي الذي لحق بعائلة شاهين كلها.

لم تكن رنا تعرف أشياء كثيرة عن العداوة المستحكمة بين العشيرتين، لكنها كانت تعرف أن والديها لا يفتئان يكرّران اسماً واحداً للدلالة على أمر شنيع حقير خبيث، وكان هذا الاسم هو مشتاق.

«لماذا يجب أن تكون الحياة معقدة بهذا الشكل؟» سألت رنا.

«لأنّي منحوس وأجذب النحس لنفسي كالمغنطيس»، أجاب. طفرت الدموع من عينيه لأنه رأى في تلك اللحظة جداراً ضخماً يرتفع أمامه، وأحسّ باليأس لأنه لم يتمكن من اجتيازه.

قَبَّلته. شعر بالحيرة ولم يعرف ماذا يفعل. كانت شفتاها باردتين. اعتراه إحساس غريب. لم تجرفه مشاعره بعيداً كما توقع، بل رأى نفسه مثل ممثل على الشاشة وحاول أن يضم رنا إليه. ضحكت. قبّلها على فمها.

«الأخ لا يقبّل أخته هكذا»، قال الصبي لأمّه. لم تعره أي انتباه، لأنها كانت منهمكة في توزيع ورق اللعب.

١٢- عاشق

في ربيع ١٩٥٣، لم يشأ فريد أن يذهب إلى معلا لقضاء عطلة عيد الفصح، مهما كلف الأمر، وادّعى أنه متوعك وأنه بحاجة إلى قليل من الراحة، وسأل ألا يمكن أن يعفيه والده من الذهاب إلى معلا ولو مرة واحدة؟

لم يكن إلياس مشتاق يقبل سماع أيّ أعذار ولا استثناءات. وكالعادة كان على جميع أفراد الأسرة أن يذهبوا إلى القرية للاحتفال بذكرى والده وللاحتفال بآخر هزيمة منيت بها عائلة أعدائه، عشيرة شاهين.

«تستطيع أن تلفّ المدينة حول رقبتك كقلادة من المجوهرات طوال السنة، لكننا ننتمي جميعاً إلى معلا هذا الأسبوع»، قال بهدوء، لكن بحزم. وكالعادة لم تكن أيّ مناقشة في هذا الأمر مجدية، لأن كلمات إلياس قانون بحد ذاتها. حتى كلير كانت نادراً ما تبدي أي اعتراض.

أطاع فريد والده وذهب إلى القرية الجبلية مع والديه معكّر المزاج. لاحظ في تلك السنة، ولأول مرة كيف أن والده يقود السيارة بطيش على الطريق المتلوية الصاعدة في الجبل، ويكاد أن يصطدم بالسيارات القادمة من الاتجاه الآخر ثلاث مرات. تخيّل فريد أنه يهوي في الوادي العميق. ومع

twitter @baghdad_library

أن والده كان المخطئ دائماً، كان إلياس مشتاق يكيل الشتائم للسائقين الآخرين بأعلى صوته.

مع تقدم السيارة في طريقها على الطريق الجبلية، كان الفتى يجد أن المشهد الطبيعي يزداد كآبة ولم يعد يراه جذاباً. بدا ذلك على تقاطيع وجهه. عندما لاحظت أمّه مدى الحزن المرتسم على وجهه وهو يحدّق على جانبي الطريق لأول مرة في حياته، قالت لنفسها لا بد أنه عاشق، عاشق حزين. لم تكن كلير مخطئة.

١٣- هواجس

وصل جميع أفراد عائلة مشتاق إلى معلا يوم الجمعة العظيمة على دفعات، وملأت الأضواء والموسيقى بيوتهم التي تظل مهجورة لفترة طويلة.

كما لو كانوا ينتظرون هذه اللحظة المهيبة طوال الشتاء، هرع فتيان القرية الخمسة إلى فيللا مشتاق في صباح اليوم التالي، مرتدين أفضل ثيابهم، محدثين جلبة خجولة ومكبوتة تحت الشرفة الكبيرة حتى سمعهم فريد ودعاهم إلى الدخول لتناول عصير الليمون كما يفعلون كلّ سنة. كانوا يحبّون كثيراً احتساء عصير الليمون المليء بقطع الثلج من الثلاجة الكهربائية الوحيدة الموجودة في القرية آنذاك التي تملكها بالطبع عائلة مشتاق. وكعادتهم في السنوات القليلة الماضية كانوا يشربون عصير الليمون على الشرفة ثم يتوجهون إلى شجرة الدردار القديمة الضخمة المنتصبة فوق التل بعد خروجهم من الكنيسة يوم أحد الفصح. كان بوسع المرء أن يرى القرية الصغيرة من ذلك الموقع الرائع، كما كان الفتيان يحبون رؤيتها من ذلك المكان المرتفع لأن أحداً لا يستطيع أن يراهم وهم يدخّنون فوق التل. كانوا يراقبون من مناظيرهم أيّ شخص وأيّ شيء يتحرّك في السهل والوديان الممتدة عند سفح التل المرتفع. في واقع الأمر لم يكونوا يخشون شيئاً خلال أسبوع عيد الفصح لأن أحداً لا يرغب في مغادرة القرية والصعود إلى

ذلك المكان الذي تنتصب فيه شجرة الدردار البعيدة عندما تكون الاحتفالات على أشدها في ساحة القرية.

في اليوم التالي، بعد خروجهم من الكنيسة انطلق فريد وأصدقاؤه الخمسة وصعدوا التل نحو شجرة الدردار بعد زودتهم أمّه بكميات وفيرة من الطعام كما لو كانوا سيهاجرون إلى أمريكا. كان هذا الطعام بهجة حقيقية لفتيان معلا الذين لم يجلبوا معهم شيئاً إلا شهيتهم لأصناف الطعام اللذيذة الغريبة.

عندما بلغوا شجرة الدردار، أوقدوا ناراً في المكان الذي يتوقّف فيه الرعاة عادة ليستريحوا فوق التلة، ويوقدوا النار منذ عقود عديدة.

لم يكن فريد جائعاً فأعطى الصبية الآخرين حصته من الطعام واحتسى الشاي المدخّن الثقيل، وأخذ يصف لأصدقائه النساء الجميلات في المدينة الكبيرة. كان الصبية القرويون يستمعون بتلذذ إلى الأوصاف المثيرة التي يرويها لهم ويستزيدونه منها.

جلسوا تحت الشجرة لساعات عديدة، يلقمون النار بالأغصان والأشواك الجافة ويتدفأون بأجساد النساء التي لقم فريد بها تخيلاتهم الجامحة.

بغتة قال لهم متّى القليل الكلام إن هذه آخر مرة يرافقهم فيها. تردّد قليلاً ثم حرّك جمرات النار بغُصين وأضاف: «أصبح أحد أبناء عم أبي رئيساً لأحد الأديرة في الشمال وقال إني يجب أن ألتحق بالدير. فهم بحاجة إلى تلاميذ رهبان لأنه لا يوجد عدد كاف من الرهبان لجميع الكنائس في القرى المسيحية، لكني لا أريد أن ألتحق بالدير». ثم صمت.

«هيا قل ما الضير في ذلك؟ إنها أفضل من تلة القمامة التي نعيش فيها. فكلّ ما يمكنك أن تفعله هنا عندما تنهي دراستك هو رعي الماعز وزرع الحنطة وإنجاب الأطفال. أظن أن الأمر يستحق أن يغادر المرء معلا ليعيش حياة جيدة في الدير. سمعت أن هناك سريراً لكلّ شخص»، قال سيمون ابن النحّال اسحاق، في محاولة لتشجيع صديقه على الذهاب.

twitter @baghdad_library

«صحيح، يجب على المرء أن يتطلع إلى ذلك»، قال بطرس، ابن الراعي فضل الله الذي شارك في الحديث ثم أضاف «ويجدر بك أن تذهب إلى الدير فقط لتبتعد عن إخوتك وأخواتك الذين يضرطون طوال الليل».

لم يعلّق متّى بشيء، إنما هزّ رأسه.

«لا، حقاً»، أردف بطرس، «يجب أن تكون سعيداً، لأنك ستحصل على ثياب نظيفة وطعام كاف وستتعلّم أكثر بكثير مما تعلّمه مدرستنا السيئة هنا. ماذا تريد أكثر من ذلك؟»

ظل بطرس يشجعه فقال: «نعم، هذا إلى جانب أن الرهبان يعيشون في أيامنا هذه كالمليونيرات».

«لكن ماذا سيفعل بالقضيب القابع بين ساقيه؟ فهؤلاء الرهبان المتشحون بالسواد لا يسمح لهم بالزواج»، قال غسان، ابن طنوس تاجر الخضراوات.

ابتسم متّى مكفهر الوجه.

«أوه، يمكنه أن يغمره في زيت الزيتون ليحافظ عليه جديداً نضراً»، قال بطرس مازحاً «حتى تأتي واحدة من تلك النساء الشبقات لتعترف بأنها تحتاج إلى ثلاثة رجال في اليوم إلى جانب زوجها، وإلا فلن يغمض لها جفن طوال الليل»، ثم استدار إلى متّى وقال: «ثم تسألك ماذا أفعل؟ فتقول لها بصفتك رجل الدين، يا ابنتي اعتبري زوجك وجبتك الرئيسية، واعتبري الرجال الثلاثة الآخرين الحلوى التي تتناولينها بعد الوجبة».

قهقه بطرس على ما اعتبره نكتة جميلة، وضحك الفتيان الآخرون أيضاً حتى ارتسمت على وجه متّى ابتسامة واهية. ظل فريد الوحيد صامتاً.

«ما اسم الدير؟» سأل.

«دير القديس سيباستيان».

كان فريد يعرف أن الدير يقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. «إنه دير جيد»، قال متظاهراً بإبداء حماسة بدافع التعاطف. لكن وجه متّى ظل هادئاً. بدا كأنه يحاول أن يجد مخرجاً من هذه المتاهة غير المرئية.

عندما مالت الشمس نحو الغروب، نهض الجميع استعداداً للعودة.

وبدلاً من أن يجلبوا ماء من النبع القريب لإطفاء الجمرات المشتعلة، بال الفتيان الخمسة فوق الرماد، ورفض فريد أن يفعل ذلك.

سخر منه الصبية وقالوا إنه لا يجرؤ على التبول على الجمرات لأنه يؤمن بالخرافات. فقد كان يسود اعتقاد في القرية بأنه إذا بال شخص فوق نار موقدة فإن الشيطان الذي يحبّ أن يصطلي في النار المتقدة سيضربه وسيستشيط غضباً ويصيب الرجل بالعنّة ويشعل ناراً لا يمكن إطفاؤها في فرج زوجته، فيدفع ذلك المرأة إلى خيانة زوجها. فقد أصبح حبيب، راعي الماعز، الذي لم يكن يكتفي بمضاجعة زوجته وخادمته كلّ أسبوع فقط، بل حتى أنه ضاجع كذلك عنزاته الأربعين، عنيناً، كما يشاع، لأنه شرب كمية كبيرة من الشاي ذات ليلة ودفعه الكسل إلى التبول على بعد بضع خطوات من النار المشتعلة، فهسهس الشيطان غضباً وأطلق يده المكسوة بالشعر من بين الجمرات وخدش حشفة قضيب حبيب، فوثب الرجل المسكين، وأحسّ ببرودة غريبة تسري في أوصاله كأن عاصفة ثلجية تكتسح عظامه.

في اليوم التالي، كما تقول الحكاية، مرض وذهب لرؤية طبيب في دمشق، لكن لم يُجْدِ معه أي علاج. وبعد أسبوع جفّ عضوه وانكمش وتغضّن وأصبح لونه بنياً داكناً وبدا مثل حبة تين جافة، وبعد عشرة أيام سقط منه. لم يشعر حبيب بأيّ ألم، بل رأى عضوه ملقى على السرير إلى جانبه في الصباح الباكر. في البداية، خيّل إليه أنها حبة زيتون سوداء، لكنه تساءل بعد ذلك من الذي وضع حبة الزيتون على سريره. كان كلّ ما تبقّى له فتحة صغيرة فوق خصيتيه. بعد ذلك، كما تقول الحكاية، كانت زوجته تنطلق مثل جنيّة في كلّ ليلة - تبحث عن رجل.

في فترة لاحقة، حكت إحدى عمّات كلير البعيدات الحكاية الحقيقية لراعي الماعز. كان فريد مستلقياً على الأريكة وتظاهر بأنه نائم، وسمع أن الرجل الماكر قد اختلق قصّة التبوّل على النار لزوجته الساذجة كي لا تكتشف الحقيقة.

«وما هي الحقيقة؟» سألتها كلير، مستمتعة بالاستماع إلى هذه القصة.

twitter @baghdad_library

«الحقيقة هي أن راعي الماعز كان رجلاً شهوانياً نهماً، يرتاد بيوت الدعارة عندما يذهب إلى العاصمة دمشق كلّ شهر، والتقى بناريمان المشهورة التي كان يخشاها جميع الرجال الدمشقيين. لم يكونوا يلقبونها صدفة بالمرأة «التي تمتصّك حتى تجفّ». ومن بين كلّ العاهرات كانت ناريمان هي التي رفض راعي الماعز البخيل أن يدفع لها أجرها في ذلك اليوم، بحجة أنها لم تمنحه وقتاً ممتعاً، ولكي تعاقبه مصّت قضيبه ولم تترك سوى القشرة الخارجية من عضوه»، قالت العمّة وهي تضحك، وأضافت «أما الآن فلم يعد يحمل بين ساقيه سوى خرقة مترهلة - يمكنكِ أن تجفّفي يديك بها - لكنه لم يعد يستطيع أن يحصل منه على أي متعة».

عندما كان فوق التل، تحت شجرة الدردار، لم تكن الخرافة هي التي حدت بفريد أن يرفض التبوّل على الجمرات، بل لأنه كان مضنى بأول حب له في حياته. فلم يكن هيامه قد سلبه شهيته للطعام ونومه في الليل فحسب، بل جعله كذلك غير قادر على التبول في ذلك اليوم لكنه لم يكن يستطيع، ولم يكن يرغب في أن يخبر فتيان القرية عن حبّه، لأن أعمارهم كانت تتراوح بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، ولا بد أنهم سيسخرون منه ويحتقرون رنا ويبدون ملاحظات فظة عنها. فالحبّ لا يحتمل الألسنة الخشنة، وألسنة أولاد القرية أشدّ خشونة من مبرد.

أما السبب الآخر الذي جعل فريد يمتنع عن التفوه بكلمة واحدة عن حبّه، فلأن رنا جعلته يقسم بأن لا يخبر أحداً عن حبّهما لأنها تخشى على حياتها إذا اكتشف سرّ حبّهما. وعرف فريد من عينيها أنها لم تكن تبالغ في إبداء مخاوفها. ففي الصيف الماضي، دفعت عائشة الشابة حياتها ثمناً للحبّ. كانت عائشة ابنة جزّار، وأصبحت القرية كلها تتحدّث عن علاقتها مع سائق الحافلة، بسام، الذي كانت أسرته على خلاف شديد مع أهل عائشة. كانت الأسرتان مسلمتين، أقلية صغيرة تقيم في القرية المسيحية «معلا». كان خلافهما، الذي بدأ بسبب شحنة كبيرة من السجائر المهرّبة، قد أسفر عن ثلاثة قتلى وأكثر من عشرة جرحى من كلا الجانبين، على مدى

خمس سنوات. فقد تراجع سبب النزاع الأصلي، وهو السجائر المهربة، وحلّ محله الدم الذي أريق بين الأسرتين.

وأصرّ والدا عائشة وأقرباؤها وأصدقاؤها على أن تترك بسام، لكنها أصرّت وقالت إنه الرجل الوحيد الذي تريد أن تتزوجه. في النهاية أرسلوا رسالة إلى أخيها الذي يعمل عاملاً في السعودية، فعاد بسرعة. وعلى الفور، قال إنه سيزوجها حسن، صديقه في المدرسة، الذي يعمل حالياً في الشرطة، لكن عائشة لم تتزحزح عن موقفها، والتقت ببسام سرّاً لتخبره بتهديدات أخيها. كانت تأمل في أن تقنع حبيبها بالهرب إلى خارج القرية حتى تهدأ الأمزجة، لكنها لم تكن تتخيّل أن شقيقها كان يراقبها من دكان الحلاق في ساحة القرية في تلك اللحظة. رافق بسام حبيبته بالسيارة إلى خارج القرية. كان الوقت عصراً ولا يزال أمامه ساعة قبل أن ينطلق في رحلة تالية إلى دمشق. لا يعرف أحد إلى أين أخذ عائشة لكنهما عادا بعد ساعة في الحافلة.

كان فريد يقف في الشرفة وهو يحتسي كأساً من الشاي، عندما ترجّلت عائشة من الحافلة في ساحة القرية. خرج شقيقها من دكان الحلاق، قبالة موقف الحافلات وصاح: «أيتها الخائنة، لقد سمحت لأحد أعداء أسرتنا أن يستبيحك ويلوث شرفك». وأطلق عليها ثلاث رصاصات. سقط كأس فريد من يده. وعندما أدرك سائق الحافلة الخطر الذي يحيق به، ضغط على دواسة البنزين ونجا بروحه. أطلقت عائشة صيحة عالية مرعبة: «أمّي، ساعديني»، وبعد لحظات لفظت أنفاسها الأخيرة، في وسط الساحة.

١٤- الكفارة

ظلت النار مشتعلة حتى منتصف النهار. عاد بعدها المصلون من الكنيسة إلى بيوتهم منهكين. راح عدد منهم، من دون ذكر أسماء، يشتمون «الفتيان»، أي فريد ورفاقه.

لم يقل فريد شيئاً طوال ساعتين. استحمّ إلياس، وارتدى ثيابه، ثمّ

twitter @baghdad_library

توجّه إلى المقهى في ساحة القرية حيث راح الرجال يناقشون الأمر حتى بداية المساء. كانت الصدمة هي التي أثارت حنق معظم المزارعين أكثر من أيّ خسارة مادية. سرّ البعض لمجرد التفكير بأن واحداً من سلالة عائلة مشتاق قد أفسد متعة عشيرته بالاحتفال بعيد الفصح، وقال آخرون إن ما حدث لا يستحق الذكر. كانت عائلة شاهين المنتصرة.

عاد إلياس مشتاق من المقهى عند العشاء. كان وجهه كالحاً متجهماً. همس شيئاً لكلير، فقدّرت أنه اتخذ قراراً.

«بعد انتهاء العطلة الصيفية ستلتحق بدير القديس سيباستيان»، صاح في وجه ابنه، «ويمكنك أن تكون سعيداً لأنني لم أقتلك على الفور. إنك أول شخص في عائلة مشتاق يحرق شجرة مقدّسة. لقد مرّغت اسم عائلة مشتاق في الوحل، ويجب أن تكفّر عن فعلتك هذه. عندما تصبح كاهناً، وتصلي، أرجو أن تتذكّر بأنّك تدين بذلك لهذه القرية».

«لكني لا أريد أن ألتحق بالدير»، قال فريد، وهو ينظر مباشرة في عيني والده. صفعه إلياس بقوة على وجهه، فهوى على ظهره، وارتطم رأسه بالأرض.

«توقّف!» صاحت كلير بذعر. راحت تبكي، وجرت نحو ابنها تساعده على النهوض.

«لم أفعل شيئاً» قال لأبيه، واغرورقت عيناه بالدموع. جاءته الصفعة الثانية. فترنّح فريد.

«عندما أقول إنك ستلتحق بالدير، فهذا يعني أنك ستلتحق بالدير. لا تقل كلمة أخرى، ولا حتى نعم، هل تفهم؟»

«حسناً» صاحت كلير وهي تبكي، «سيفعل ما تريد، لكن لا تقتله...».

أراد فريد أن يصيح بأنه لن يغادر دمشق ويترك رنا لثانية واحدة، لكن الخوف من أبيه عقد لسانه.

دفعت الأمّ إلياس بلطف إلى غرفة النوم، وكلّمته طويلاً. لكن فريد لم

يسمع إلا صوت أبيه وهو يكرر أن الدير سيقوّمه ويصلح من أمره. بكت كلير ثانية. لوهلة أحسّ بالغضب، ولأول مرة خطر له أنه سيقتل والده ذات يوم.

١٥- الشكّ

في اليوم التالي رأى رفاقه من الشرفة خارج البيت. كانوا يلعبون لعبة الدحل في ساحة القرية. ارتدى ثيابه بسرعة، لكنه عندما ذهب إليهم، تسمّروا في مكانهم وتحاشوا النظر إليه. ثم ابتعدوا عنه بهدوء دون أن يكلمه أحد. لم يبق إلا متّى، الذي ابتسم له.

«ماذا في الأمر؟»

«إنهم خائفون».

«خائفون؟ لماذا؟»

«لأنهم جبناء. فلا يريدون أن يراهم أحد معك بعد الآن كي لا يقال إنهم هم من أوقدوا النار»، أجاب متّى.

«وماذا عنك؟»

«فلتذهب القرية إلى الجحيم. فأنت أخي»، قال الفتى بهدوء، بلا مبالاة تقريباً.

«أريد أن أذهب إلى المكان الذي أشعلت فيه النار. أتأتي معي؟» سأله فريد.

«طبعاً»، قال متّى، بشيء من البهجة.

بعد ساعتين صعدا إلى قمة التل، حيث كانت مفاجأة عظيمة بانتظارهما. فقد نمت شجرة الدردار في نصفين مختلفين منذ عهد بعيد. كان أحد النصفين طرياً وقوياً، بينما النصف الآخر قديماً ويابساً. واكتشف فريد ومتّى الآن أن جزء الشجرة الجاف هو الذي احترق. أما الجزء الآخر فكان سليماً، لكنه اسودّ قليلاً من السخام، نعم، أما ما تبقى منها فبقي سليماً. والأمر المفاجئ حقاً هو أن جزء الشجرة الذي لم يمس هو الجزء القريب من البقعة التي أوقدوا فيها النار.

twitter @baghdad_library

«هذا غريب، ألا تظن ذلك؟ لا بد أن شرارة تطايرت من هذا الجانب من الشجرة على شكل نصف دائرة وأشعلت النار في النصف الآخر. إنها معجزة حقاً»، قال متّى، وهو يحدّق في الفضاء.

«نعم، إنه أمر غريب حقاً»، قال فريد موافقاً. ثم أعادته أفكاره إلى رنا. أين أنتِ؟ همس في أعماق نفسه. إني بحاجة إليك.

في تلك اللحظة كانت رنا تتحدث مع أعزّ صديقاتها، دنيا الصابوني، لأنها شعرت أن أفكارها ستخنقها إن لم تفعل ذلك. كانت تتحدث مع دنيا عن العداء بين العائلتين، لكن رأي صديقتها الواقعي خيّب أملها.

«قد يحدث كلّ ذلك في الأفلام، لكنّه لا يمكن أن يحدث في الحياة الحقيقية. فالعائلة أقوى، ويمكنها أن تسحقكما كليكما. أتمنى ألاّ يكون مصيركما مشابهاً لقصص مجنون ليلى أو روميو وجوليت. من الأفضل لك أن تبتعدي عن هذا الشاب، وأن تبحثي عن رجل محترم مستقر، شاب يحترمه والداك، عندها سيتركانك وشأنك، ولن يتمكن أحد من أن يمنعك من أن تستدفئي على ذاكرة قصتك الرومانسية هذه»، قالت، وقهقهت فجأة بصوت عال، «لكن في أفكارك فقط»، وأضافت بسرعة، «لأن زوجك سيكون كلّ شيء آخر في حياتك، هل تفهمين؟» وقهقهت ثانية، لكن هذه المرة، بجلجلة أكبر.

في تلك اللحظة، تناهى إلى قلب رنا صوت فريد، فصاحت بسخط، «لكنه بحاجة إليّ، ولا يمكنني أن أهرب وأخيّب أمله».

«من هو الشاعر الذي قال ذلك؟ قولي لي اسمه وسأريك كيف أن الذي يرفع عقيرته منادياً بالحرية المطلقة والتحرر يظل مع زوجته مثل صبي مطيع. لا، يا عزيزتي، إنك فتاة حالمة، ومن واجبي أن أوقظك؟»

سمع فريد صوتاً يتردد صداه داخل رأسه، يقول أنا هنا معك.

«وأين هو العار الذي تحدث عنه غسان؟» أعاده متّى إلى قمّة التل وإلى

شجرة الدردار، عندما قال: «إن نصف الشجرة الجاف هذا يعود إلى عائلة مشتاق. أما النصف الآخر، الجزء الحيّ النضر، فهو يعود إلى كنيسة القديس جاورجيوس. لكن لا يهم، المهم هو أن أحداً لم يصب بأذى، ولم يتضرر أي حقل أيضاً».

بهذه الكلمات البسيطة، وجد فريد نفسه فجأة لا يستطيع أن يفهم لماذا تحدّث والده عن خطيئة. بالتأكيد، ليس من أجل قطعة خشب متعفّنة، قال لنفسه.

عندما انتشر في معلا الخبر بأن النار لم تلتهم نصف الشجرة العائد لكنيسة القديس جاورجيوس، اعتبر الكثيرون أن هذا دليل حاسم من السماء. فقد أرسلت العناية الإلهية أحد سليلي جورج مشتاق، من بين كلّ الناس، ليحرق نصف الشجرة العائد له.

بعد أسبوع من هذه الحادثة، عاد والد فريد يكلم ابنه كأن شيئاً لم يحدث. وعلى مائدة الغداء، قال له بنبرة ودّية فجأة، «هل يمكنك أن تناولني إبريق الماء؟»

أصرّت كلير على مصالحة إلياس وفريد، بعدها أصبحت هي نفسها تدعم فكرة التحاق فريد بالدير، ليحصل على تعليم جيد. ووافقت عندما عرفت أن اليسوعيين هم الذين يديرون كنيسة القديس سيباستيان، لكنها كانت عازمة على ألاّ يصبح ابنها قسيساً.

متشجعاً بلطف والده، أخبره فريد بما رآه في موقع الحريق.

«هذا لا يعني شيئاً. كانت هناك رياح قوية، ومن الممكن أن تكون شرارة قد تطايرت وحطت فوق شوكة جافة فأضرمت النار التي أحرقت كلّ شيء حول الشجرة، أما الخشب الأخضر من الشجرة فلا يمكن أن تطاله النار، بينما الجزء اليابس المنخور أمر مختلف»، أجاب إلياس بهدوء.

«تظن صليحة، بائعة الحليب، أن عائلة شاهين هي التي افتعلت الحريق. تقول إنهم فعلوا ذلك لإفساد احتفالنا بعيد الفصح»، قالت كلير.

رفض إلياس الفكرة وقال: «يجب ألا نتهم عائلة شاهين بكلّ تصرف

twitter @baghdad_library

سخيف. إن ما فعله ابنك ورفاقه...» تردّد إلياس عندما رمقته بنظرة تحذير، وأنهى كلامه بالقول: «كان عملاً طفولياً طائشاً غبياً»، مخفّفاً من حدة ما كان على وشك أن يقوله.

لم يسهم هذا الكلام في إصلاح الأمر. كان من الواضح أن فكرة الدير لا تزال تدور في رأسه منذ فترة طويلة، وأنه كان ينتظر الفرصة المناسبة لينفذها. وعندما أحرقت النار شجرة الدردار، بدا له أن الفرصة قد أسقطت بين يديه.

كتاب الحبّ الثالث

المرأة مثل شجرة الدردار، يصعب تطويعها

*

دمشق، معلا، ١٩٠٧-١٩٢٠

١٦- ضحكة زرقا

في ظهيرة يوم ربيعي بارد صاف، وصل شخصان غريبان مسرعان يمتطيان حصانين يخبان على الدرب المترب إلى معلا. وحتى قبل بلوغهما الطاحونة الواقعة على الطريق المفضي إلى القرية، أدرك معظم القرويين أن الغريبين بحاجة إلى مساعدة.

توقّف الغريبان خارج كنيسة القديس جاورجيوس. هرع الحلاق من دكانه وقدّم لهما ماء عذباً.

«ما اسم هذه الكنيسة؟» سأل أكبرهما.

«كنيسة القديس جاورجيوس»، قال راعٍ شاب تصادف وجوده في الساحة في ذلك الوقت.

قال الحلاق لنفسه لا بد أن الشخص الغريب الذي يمتطي حصاناً جميلاً أبيض، يقارب الخمسين من عمره. وكان الشخص الآخر امرأة ترتدي ملابس رجل تمتطي حصاناً أسود قوياً. عيناها زرقاوان، شديدتا الزرقة إلى حد أنك لا تستطيع أن تمعن النظر فيهما طويلاً دون أن ترتسم على وجهك ابتسامة وتشعر بارتباك. كانت فتاة شابة، وخيّل إلى القرويين أنها ابنة الرجل.

twitter @baghdad_library

طلب الرجل رؤية مختار القرية. لم يكن صوته يشي بنبرة توسل. كان موبات هو المختار الذي يريد رؤيته يقطن في البيت الكبير قبالة الطاحونة على الطريق المفضي إلى معلا. فمنذ أجيال عديدة وشيوخ القرية ينتمون إلى عشيرة موبات لأنهم يجيدون التعامل مع الصديق والعدو على حدّ سواء، ويتقنون أساليب حلّ الخلافات والنزاعات التي تنشب بين العشائر الأخرى التي تريد تحاشي تدخل الدولة العثمانية واستبدادها، وكانوا يتبوأون القمة باستمرار.

كان العجوز داوود موبات قد توفّي في السنة الماضية. وبعد أسبوع من وفاته انتخب رجال القرية من أصحاب النفوذ، ابنه حبيب البالغ من العمر أربعين سنة خلفاً لوالده. كان حبيب أكثر دهاء وأكثر سلاسة من أبيه الذي أُطلق عليه طوال حياته، بسخرية، لقب «سمكة الحنكليس».

في تلك الأوقات كان بإمكان الغريب حسب قانون الضيافة العربية، أن يمكث في ضيافة مختار القرية لمدة ثلاثة أيام دون أن يسأله أحد عن سبب قدومه.

«جورج مشتاق»، أجاب ضيف موبات، عندما سأله أحد المزارعين المسنين بتهذيب عن اسمه، وأضاف، «وهذه زوجتي زرقا». ضحكت المرأة بصوت رقيق وأسندت رأسها إلى ذراع زوجها الجالس بجانبها على البساط مثل جميع الحاضرين الآخرين. كانت فرحة باسمها الجديد، لأنهما كلما التقيا بأحد، اختلق حبيبها اسمين جديدين، اسم له واسم لها. لكنها أحبّت كثيراً الرنين المنبعث من اسم «زرقا».

ألقى يوسف شاهين، أغنى رجل في القرية، نظرة استهجان على المرأة. قال لنفسه إن ضحكتها لا تنم عن حشمة. بعد فترة من الزمن، قال إنه عرف منذ أن وقعت عيناه عليها لأول مرة أن الشيطان يقبع في داخلها. لكنه أعجب بالرجل الذي بدا له أنه رجل ناضج شجاع، قليل الكلام، لكن كلّ ما يقوله يأتي سريعاً مثل سهم ينطلق من فمه ويصيب هدفه.

أخبرهم جورج مشتاق بلا تردد بأنه جاء إلى هذه القرية هرباً بسبب

المرأة الجالسة إلى جانبه. قال إنهما مسيحيان، لكن إقطاعياً مسلماً أراد أن يتزوج زرقا بالقوة، وقال إنه، هو مشتاق، قد اختار المجيء إلى معلا لأنه يسمع، منذ أن كان طفلاً، عن شهامة أهل القرية وكرمهم.

انتصب موبات في جلسته وأصاخ السمع. فقد تذكر أن جدّه وجد نفسه ذات يوم في وضع شديد الصعوبة، عندما منح أحد الهاربين حماية القرية، وسرعان ما طوّق عدد كبير من المهاجمين معلا، وطلبوا تسليم الرجل الذي كانوا يتعقبونه. كان زعيمهم رجلاً مقيتاً لايحترم التقاليد العربية المقدّسة التي تلزم المضيف الدفاع عن ضيفه والتضحية من أجله حتى الموت.

صمدت القرية في وجه المهاجمين عدة أسابيع حتى انسحب زعيمهم والمقاتلون المنهكون معه. بعد تلك الحادثة، طلب الرجال في معلا من مختار قريتهم أن يدرس بعناية وضع الغريب الذي قد يلجأ إلى قريتهم قبل أن يمنحه حمايته كي لا يتورطوا في مصيبة مرة أخرى.

«يمكنك المكوث ثلاثة أيام لكن هل يعرف مطاردوك أنك أتيت إلى معلا؟»

«لا»، أجاب جورج مشتاق متجهّماً، وأضاف «وإلا لما أتيت. فقد قمت بعملية التفاف طويلة ولم يتعقبني أحد خلال رحلتي التي طالت أياماً عديدة. إني أصدقك القول».

«جيد»، قال موبات، «إذاً سأخبرك بعد ثلاثة أيام إن كنت تستطيع المكوث في قريتنا أم لا. أما الآن فلنتناول الطعام ترحيباً بك»، وصفّق بيديه، فأُدخلت على الفور الصواني المليئة بأصناف الطعام، كأن النساء كنّ ينتظرن الإشارة في الطرف الآخر من الباب. ضحكت زرقا.

بينما كان المضيفون يستمتعون بالحكايات التي يرويها الغريب مبدين إعجابهم بجمال زوجته، أرسل المختار ثلاثة شبان موضع ثقة إلى مراكز مراقبة على الجبال تمكّنهم من رؤية الوادي المفضي إلى معلا.

بعد ثلاثة أيام، بعد أن تأكد من أنه لا يوجد أي دليل على وجود أحد يتعقبهما، اطمأن المختار. كان من الواضح أن ضيفه رجل حذر، فمنح حقّ

twitter @baghdad_library

المكوث في معلا. عندها امتطى الرجل حصانه وانطلق ثانية، وهو يقود حصان زوجته وراءه. أقامت زرقا في بيت عائلة موبات.

أحبّت النساء في البيت الفتاة الجميلة الجديدة، لكنهن فوجئن بأنها لا تصلّي. حتى أنها لم تكن تتلو صلاة الشكران قبل تناول وجبة الطعام أو بعدها، بل كانت تجلس هناك ترتسم على شفتيها ابتسامة. سألتها إحدى النساء التي ارتابت في أمرها هل هي مسيحية. فأجابت: «لا، ولست يهودية أيضاً».

«مسلمة؟» سألتها امرأة أخرى. فهزّت زرقا رأسها نافية بمرح.

«إذن ما هو دينك؟» صاحت بادية، شقيقة موبات.

«ألحبّ، الحبّ هو ديني»، أجابت زرقا مطلقة ضحكتها الرائقة. سلبت عقول النساء بخفة دمها، ولم يصدقن أنها تقول الحقيقة.

كان ذلك قبل يوم واحد من عودة جورج مشتاق مُحمِّلاً حصانه خرجين ثقيلين مليئين بالليرات الذهبية.

غمرت موبات السعادة لأن الله أرسل له وللقرية هذا الرجل الغني. وسرعان ما اشترى جورج مشتاق أربعة بيوت قديمة في ساحة القرية، هدّمها وشيّد محلها بيتاً كبيراً جديداً، وأقام حوله حديقة وبنى فيها مراحيض خارجية. وساعده موبات في شراء حقول وحظائر وبيادر، ولم تمض سنتان على قدومه حتى أصبح جورج مشتاق ينافس يوسف شاهين الذي كان أغنى رجل في القرية حتى ذلك الحين. ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الصداقة الأصيلة بين الرجلين إلى عداوة مستحكمة، وأثيرت تخمينات كثيرة عن سبب هذه العداوة.

ابتهج الكاثوليك كثيراً بوجود القادم الجديد بين ظهرانيهم. لا لأنه رمّم الكنيسة الكاثوليكية على نفقته الخاصة فحسب، إنما لأنه دافع أيضاً عن المسيحيين الكاثوليك في وجه المسيحيين الأرثوذوكس الذين كانوا يهيمنون على القرية حتى ذلك الوقت. لكن سعادتهم لم تكتمل.

١٧- قرار ليلى

في السنوات التالية، بدأ الحزن يعتري زرقا كلما وجدت نفسها وحيدة في البيت. وعندما يحل الليل كانت تجوب أنحاء البيت في الظلام تتذكر تلك الأيام عندما كانت فتاة صغيرة تركض في أرجاء البستان وتخوض في الساقية القريبة من بيت والديها. كان اسمها آنذاك ليلى، ولم يكن العالم بالنسبة لها سوى لعبة، ذات قلب حر، نقي، لم يكن قد أُثخن بجراح الحبّ أو قُيِّد بسلاسل الخوف بعد.

كانت ذكرى الحمّام تسعدها أكثر من أي ذكرى أخرى، فقد ظلت تفاصيل زياراتها إلى ذلك الحمّام الرائع الأكثر جلاء وإشراقاً في ذاكرتها من بين جميع حفلات الأعراس والختان والأعياد الدينية التي لم يتبق منها سوى ذكريات باهتة. فقد كان ارتياد الحمّام في دمشق مع أمّها من أجمل المناسبات لديها، وهو أمر لم يكن يحدث إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات في السنة. إذ كانت تأتي أكثر من عشر نساء وعشرين فتاة من الحيّ بعربة كبيرة يقودها رجل عجوز ملتح. وكانت الفرحة والإثارة تغمران ليلى عندما ترى أمّها وهي تعدّ كلّ شيء للذهاب إلى الحمّام: الطعام والحلويات والتنباك الذي تأخذه خلسة من زوجها والأمشاط والصابون ومناشف الحمّام والحنّاء، على الرغم من أنهن لم يكن يستعملن هذه المناشف لوجود مناشف أفضل وأجمل في الحمّام.

كانت ليلى لا تزال ترى كلّ ذلك أمام عينيها: تلك المقصورات الجميلة، القبّة، النوافذ الصغيرة التي يتسلل منها شعاع ملوّن خفيف، ثم كلّ تلك البهجة والمتعة في التزحلق على أرضية الحمّام المبلطة بالرخام التي تعلوها طبقة من رغوة الصابون مع الفتيات الأخريات، وكلّ تلك النسوة الجالسات معاً، حكاياتهن، ضحكاتهن، وجميع أصناف الطعام. وتذكرت ليلى كيف أنها خافت عندما رأت لأول مرة تلك السيدة البدينة التي تضع على الدوام علقات على ثدييها وبطنها وساقيها. خيّل إليها لوهلة أنها ديدان تنبعث من جسد المرأة.

twitter @baghdad_library

في الآونة الأخيرة، لاحظت ليلى بغتة، عندما بدأ نهداها يتكوران، بريق عيون الرجال المنصبة عليها في الشارع، كما ازدادت همسات النساء عنها في الحمّام. كانت أمّها أول من حدثتها عن هذا الأمر بصراحة. ولم يعد حسان، ابن الإقطاعي محمود كشاط، يرفع عينيه عنها، كما أخبرتها القابلة العجوز فاطمة. فقد رأى ليلى وأغرم بها وأراد أن يدلّل نفسه ويتخذها زوجة خامسة له.

«كم قلب في صدر هذا الرجل؟» سألت ليلى، بدافع من الفضول.

«إن إمواله وممتلكاته تمكّنه من إعالة عشر زوجات يا طفلتي، مثل أبيه تماماً. وإذا قدّر لك أن تعيشي معه، فإنك ستتمكنين من ملء بطنك والاستحمام بماء نظيف كلّ أسبوع والاستلقاء في سرير يخلو من البقّ والقمل. كل هذا جدير بتلك المتعة القليلة التي ستمنحينها له. انظري إليّ كيف أنني تحملت كل هذا العبء وحدي وعملت جارية لأبيك في البيت وفي الحقل أيضا. أما أنت فإنك ستتقاسمين حسان كشاط مع أربع نساء أخريات، وستطعمك جواريه ويدلّلنك كأميرة، لقاء أن ينام معك كلّ خامس ليلة»، قالت لها أمّها التي عاشت سنوات طويلة جائعة مع الحشرات التي تمصّ الدماء.

أخذت قدرية، القابلة العجوز التي كانت في زيارتهما في ذلك اليوم، نَفَسَاً عميقاً من النارجيلة التي أعدّتها لها أمّ ليلى. بقبقت الماء في بطن النرجيلة، ثم قالت: «وبما أن شيئه ليس كبيراً جداً، فلا يوجد شيء يمكنك أن تخافي منه. وسيكون لهذا الرجل شأن كبير في هذا العالم، فقد تنبّأت له عرّافة مشهورة بمستقبل عظيم عندما وقعت عيناها عليه»، قالت القابلة التي ازدادت حماستها فجأة «وأخذت العرافة يده وقبّلتها. لكن الشاب المحترم دفع المرأة بعيداً عنه باشمئزاز، لكنها تعلّقت بعباءته وقالت له إنها يجب أن تفعل ذلك لأنها تريد أن تكون أول شخص يقبّل يد ملك العرب القادم. اعترت الشاب المحترم الدهشة؟ فنفحها ليرة وظنّ أنها ستجري بهذا المبلغ فرحة لكن المرأة نظرت في عينيه مباشرة وقالت إنها لا تريد نقوده، إنما

تريده ألاّ ينساها عندما يُتوَّج ملكاً، لأنه سيصبح ذلك ذات يوم. وأمسكته بكلتا يديه وقالت إنه يجب أن يصعد فوق أكثر من ألف جثّة حتى يبلغ عرشه، لكنه سيتزوّج زوجة خامسة، برجها القمر واسمها الليل، وهو أنتِ، يا طفلتي»، ختمت القابلة خطابها البليغ ونبرة رقيقة في صوتها. كانت تعرف أنه توجد فوق قلب ليلى وحمة لها شكل هلال.

كانت ليلى تعرف ابن الإقطاعي كشاط القصير بلحيته الطويلة السوداء وأذنيه الكبيرتين اللتين لا تتناسبان مع حجم وجهه مما جعله يبدو قزماً. كان حاجباه مقوسين على نحو مضحك، وفمه قبيح الشكل، وشفته السفلى الضخمة مشقوقة مثل شفة جمل. كان يحرص على التأنق في ملبسه باستمرار كما لو أنه سيذهب إلى حفلة. لم يضحك قط وكان يمشي دائماً محني الظهر قليلاً كأنه يحمل على كاهله هموم العالم.

هذا القزم يريدني أن أكون زوجته الخامسة، قالت ليلى لنفسها غاضبة ثم قالت: «لكني أريد أن أكون الزوجة الأولى». لكنها لم تفهم سبب خوف أمّها.

«بحق الله يا طفلتي!» أجابت المرأة اللطيفة، المؤمنة.

لم تكن ليلى تعرف والدها جيداً، وكانت تخاطبه بعبارة «يا سيدي»، وتعرف أن اسمه محمد خيري. ونادراً ما كان يمكث في البيت، وعندما يعود في وقت متأخر إلى البيت لم يكن يريد أن يرى أولاده، ويتناول الطعام وحده وينام وحيداً ولا يكلّم أحداً. كانت أمّ ليلى تنام في غرفة صغيرة مع أولادها، تتسلل أحياناً إلى غرفة زوجها في عتمة الليل فيتناهى إلى ليلى صوت صرير هيكل السرير الخشبي وصوت أمّها وهي تئن متألمة. كرهت ليلى والدها لهذا السبب.

عمل والد ليلى في تجارة التوابل والفواكه المجفّفة، وكان يسافر كثيراً لزيارة التجار ويترك مسؤولية رعاية البستان الكبير والأرض المزروعة بالخضراوات على عاتق أمّ ليلى وأولادها. ومع أن ليلى لم تعرف الجوع الحقيقي الذي تعاني منه عائلات كثيرة، كانت تضطر أحياناً لتقتات على كميات ضئيلة من الطعام.

twitter @baghdad_library

عندما قالت لأبيها إنها تريد أن تكون الزوجة الأولى لم يحر جواباً، لكن أمّها قالت لها إنه وعد حسان كشاط بتزويجها له. في تلك الليلة، تملك ليلى الذعر لأنها وجدت صعوبة في التنفّس لأول مرة في حياتها. «ستموتين» همس لها صوت داخلي. يجب أن أهرب، قالت ليلى لنفسها. في تلك اللحظة جاءت أمّها إليها لتبحث عن البقّ الذي يمتص الدم في سريرها. كانت تحمل مصباحاً صغيراً بيد وطاسة ماء باليد الأخرى تضع فيها البقّ المكتنز.

«يا طفلتي، أما زلت مستيقظة»، قالت مندهشة. في الظلام نظرت عينا ليلى إلى غور سحيق.

«قولي لي يا أمّي كم قلب يوجد في صدر كشاط؟»

لم تحر أمّها جواباً.

*

لم تعد ليلى تتذكر متى رأت ناصيف يازجي لأول مرة، لكن الشيء الغريب أنها أحست منذ اليوم الذي كلّمها فيه بأنه الرجل الوحيد الذي يمكنه أن ينقذها. كان ابن مسيحي غني لا يجيد إدارة ثروته كثيراً، ودأب الفلاحون على تبادل النكات عن «الكافر» الذي خدم السلطان لفترة طويلة فمنحه لقاء خدماته مساحات شاسعة من الأراضي، لكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل بها. لم تكن مزرعته تبعد أكثر من مائة خطوة من بيت ليلى، لكن أسرتها كانت تبتعد عن مخالطة المسيحيين «النجسين».

كانت ليلى قد سمعت بأن هؤلاء المسيحيين يصلّون لصليب خشبي ويلتهمون لحم الخنزير ويشربون الخمر وتجلس نساؤهم سافرات غير محتشمات مع الرجال ولا يسمحن لأزواجهن أن يتزوجوا امرأة ثانية.

«ماما» قالت ليلى «إن لدى هؤلاء الرجال الكفار قلباً واحداً فقط مثل النساء المسلمات».

اعترى أمّها خوف شديد. كان زوجها نائماً في الغرفة المجاورة.

أمسكت الفتاة من أذنها وجرّتها خارج الغرفة وقالت لها هامسة، «أيتها الطفلة، لقد جننت. من الأفضل لك أن تتزوّجي بسرعة. إني أموت خوفاً عليك».

عندما قالت ليلى لأبيها للمرّة الثانية، دون أن تهاب شيئاً، إنها تريد أن تكون الزوجة الأولى، صفعها على وجهها ثم ضربها شقيقاها، مصطفى ويونس، على الرغم من أنهما كانا يصغرانها سناً. وبدأ ضربهم لها يزداد قسوة وسرعة مثل البعوض في ليالي الصيف الرطبة في دمشق. وكلما ازداد ضربهم لها، ازدادت أسئلة ليلى أيضاً. كانت أمّها تبكي وتقول: «يا طفلتي، إنك تجازفين بحياتك. لا يمكننا أن نحنث بالوعد الذي أعطاه والدك».

ثم قالت لها القابلة لتغويها «عندما تتزوجينه، كما تعرفين، فإنك ستحصلين على كل ثروته، وستتمكنين من إرسال أشياء كثيرة طيبة إلى أمّك كلّ يوم».

متواطئتين، قالتا لليلى إن الثروة القليلة التي جمعها جدّها مصطفى خيري لأنه التزم بوعده وقدم لوالي دمشق بلقيس، عمّة ليلى الجميلة، كزوجة. كانت زوجة الوالي الثانية عشرة لكن بسحرها وإتقانها فنّ الحبّ تمكنت من فتل رأس الرجل العجوز، وفي أقل من سنة، انتقلت إلى مرتبة زوجته الأولى.

صوت في داخل ليلى، بارد كالليل، قال لها إن هذه القصّة كذبة. فلو كانت بلقيس زوجة الوالي الأولى، فلماذا انتحرت وهي في الخامسة والعشرين من عمرها؟ كما أن ابنة عم ليلى، فاطمة، لم تصدق أن بلقيس المدفونة في مكان قريب، التي كانت أسرة فاطمة تزور قبرها في أحيان كثيرة، كانت في حياتها سعيدة.

أريد أن أكون الزوجة الأولى وأريد أن أكون سعيدة، ما فتئت ليلى تردد لنفسها وأقسمت بأن لا تتزوّج حسان كشاط.

twitter @baghdad_library

١٨- ليلى والمجنون

«ما اسمك، أيتها الجميلة؟» كانت الكلمات الأولى التي سمعت ناصيف يازجي يقولها لها. جاء على صهوة حصانه ووقف بجانب جدول الماء. لم تلحظه لأنها كانت سارحة في أفكارها، ويداها منهمكتان في اقتلاع الأعشاب الضارة من مسكبة الفجل. أجفلت والتفتت. فُتحت نافذة في قلبها. أخذت نفساً عميقاً، وأحسّت بنفحة من الهواء النقي تهبّ عليها.

«ليلى»، أجابت «وأنت؟ ماذا يدعونك؟»

«يدعونني ناصيف، واسمي معناه الرجل المنصف الصالح، لكنني لست صالحاً على الإطلاق»، أجاب مبتسماً.

«وماذا أنت إذاً؟» سألته.

«أنا»، قال الرجل، «أنا مجنون ليلى».

مثل جميع العرب كانت تعرف قصة الحبّ الأسطورية من جانب واحد بين ليلى التي تحمل ذات الاسم، والشاعر الذي هام بها وراح يلقي قصائد يمتدح فيها محبوبته حتى يوم مماته. وقد خلّدت قصائده هذه المرأة، إلا أن الكثيرين لا يعرفون ما هو اسمه الحقيقي، ويعرفونه فقط باسم «مجنون ليلى».

«وهل أنت مجنون حقاً؟» سألته.

«بكِ فقط»، قال الرجل.

«لا يبدو أنك مجنون»، قالت وراحت تتفحّصه من حذائه اللامع حتى قبعته البيضاء النظيفة. تذكرت حمدي، ابن عمها المجنون، وهو يصيح مثل حيوان في غرفته ذات النافذة المغلقة بقضبان حديدية، يرمي أوساخه فوق الجميع، ولا يكفّ عن ضرب رأسه بالحائط.

ما حدث بعد ذلك فتح ثلاث نوافذ أخرى في قلبها. فقد قال ناصيف يازجي الذي يمتطي بمهابة حصاناً عربياً أصيلاً، بهدوء «إني مستعد لأن أجنّ ثلاثمائة مرة لكي أسمع رنين ضحكتك». ثم قفز وترجّل عن حصانه ووقف على رأسه على طرف الساقية، ثم عاد ووثب على قدميه وراح يلوي وجهه

مثل قرد ثم تسلّق الشجرة مثل قطّة وقفز منها إلى حصانه الذي كان يبدو أنه معتاد على تصرفات صاحبه الغريبة، فلم يتحرك من مكانه قيد أنملة.

ضحكت ليلى بصوت عال. عندما وقف ناصيف فوق سرج حصانه، خفق بذراعيه وصاح «انظري، أنا عصفور صغير». لم تعد قدماها تحملانها. بقفزة واحدة هبط إلى جانبها وقرفص على الأرض، وراح يحدق في عينيها. إنه رجل يحب اللعب، على الرغم من أنه يبدو رجلاً ناضجاً.

«وكم من قلب لديك؟» سألته برقة عندما لامس شفتيها.

«قلب واحد فقط وقد ملأته أنت كلّه»، أجاب.

«ناصيف»، قالت ليلى بنبرة تشي بشيء من التوسل وفهم كلّ شيء على الفور.

بعد سنوات، ظلت البهجة العارمة لتلك الأيام ماثلة في ذاكرتها. وحتى عندما ذوى دماغها تقريباً ظلت تتذكّر السعادة التي كانت تغمرها آنذاك، خلود مضى. لكن عندما التقت ليلى بمجنونها، بدا أن العالم بدأ يميد تحت قدميها، لكن الشيء الذي لم تكن تعرفه، فهو أن البهجة خائنة وغدارة.

كان شقيقها مصطفى أول من لاحظ سعادتها مرتسمة على وجهها. وعلى نحو أخرق، مثل جرو طائش، عرف كلّ شيء. واجه ليلى ولمع نصل سكينه. لكن على الرغم من أن الموت كان يحدّق فيها من نصل ذلك السكين، لم تتنازل حتى لأن تلقي نظرة واحدة عليه لأن ناصيف هو الرجل الوحيد الذي أصبح يعيش في عينيها.

«إما أن تتزوّجي حسان وإما أن تموتي»، قال لها مصطفى الذي لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره، لكن بما أنه الابن البكر ويحمل اسم جدّه كان من حقه أن يتصرّف مثل باشا. لقد كلّمت حسان، قال لها مصطفى الضئيل الجسم، المقوّس الساقين الذي يسيل مخاطه من أنفه ويتصرّف كأن كشاط صديقه. تجهّم وجه مصطفى فجأة، عندما قالت ليلى «ذلك القزم الذي تشبه أذناه أذنيْ إبريق الماء»، كما كان يحلو لها أن تصوّر حسان كشاط. كان الصبي قد حفظ الكلمات التي رددها عن ظهر قلب، تماماً كما يفعل عندما

twitter @baghdad_library

يحفظ سور القرآن الكريم، الواحدة تلو الأخرى عن ظهر قلب كالببغاء من دون أن يفهم أو يعي معناها.

«الحبّ أو الموت! أحدهما في يدي والآخر في يدك»، همس بصوت منخفض. في تلك اللحظة عادت أمّهما من زيارتها لإحدى جاراتها، فهرعت وألقت بنفسها فوق ابنها وتوسلت إليه حتى أعطاها السكين.

لم يقل ناصيف شيئاً بل هزّ رأسه عندما أخبرته ليلى بكلّ ذلك.

بعد ثلاثة أيام، هاجم فارس متدثراً بعباءة سميكة حسان كشاط وهو عائد إلى بيته من رحلة لصيد الغزلان، وضرب يدي حسان بعصا طويلة حتى أصيبت إحداهما، اليد اليسرى، بشلل دائم.

لم تجد عملية البحث الواسعة عن الرجل الذي فعل ذلك نفعاً. ولم يعرف أحد من فعل ذلك إلا ليلى التي ابتسمت، لكن سرّاً هذه المرة تحت الغطاء، لأنها خشيت أن تفضحها فرحتها مرة أخرى.

تقرر أن يقام العرس في آذار عندما تزهر أشجار اللوز. لكن في صباح أحد أيام شباط الباردة، تنكّرت ليلى في هيئة رجل وامتطت الحصان الأسود الذي كان ناصيف يمسكه لها في مكان غير بعيد من بيتها. سارا جنوباً طوال أسبوعين، وتعمّد ناصيف أن يترك أثراً يفضي إلى القدس، ثمّ اجتازا الأرض المقدّسة واتجها شمالاً، وواصلا رحلتهما إلى لبنان، لكن هذه المرة من دون أن يتركا أثراً. كانت جزيرة العرب آنئذ ولاية في الإمبراطورية العثمانية التي يحكمها السلطان عبد الحميد بيد من حديد، إلى أن خُلع عن عرشه في عام ١٩٠٩. وبضغط من الفرنسيين لم يقع جبل لبنان في قبضته. عرف ناصيف ذلك جيداً، لكنّه لم يكن يتوقع أن يدرك منافسه فكرته الذكية، فانطلق رجال كشاط في إثر ناصيف يطاردونه في لبنان. أراده سيدهم حيّاً لأنه اكتشف أن الفارس المتدثر بالعباءة لم يكن إلا ذلك الرجل المسيحي الذي يقطن حيّه.

نجا ناصيف وليلى من الوقوع في فخّ نصبه لهما راهب كان كشاط قد رشاه، لكنهما أفلتا منه وسارا في دروب في الجبال حتى وصلا إلى معلا.

لكن بعد سنوات، علم ناصيف في واحدة من تلك الليالي التي كان

يعانق فيها حبيبته في سريرهما الدافئ الذي يكسوه الفراء بأن حسان كشاط قتل جميع أفراد عائلته، إذ قُتل شقيقاه الأصغران، بطرس وفؤاد، بإطلاق النار عليهما، وقُتلت أمّه وأخته مريم بوحشية شديدة، ونُهبت ممتلكات العائلة، وأحرقت مزرعتهم بالكامل. وكان القتلة هم إخوة ليلى ورجال كشاط. وهكذا أنقذت أسرة ليلى شرفها في نظر جيرانها وكفّرت عن ذنبها تجاه كشاط صاحب النفوذ.

عندما حشد كشاط جيشاً كاملاً في محاولة منه لإخضاع أكبر عدد ممكن من القرى، أصبح شقيقا الفتاة، مصطفى ويونس، قائدين وسارا على رأس قواته.

في إحدى الليالي التي أمضتها ليلى وناصيف بأسماء مستعارة في الخانات أو عند البدو أو في الكهوف أو عند شيوخ القرى، أحسّت فجأة بشيء في داخلها بدأ يخفق. ضمت ناصيف بين ذراعيها وقبّلته في عينيه وسألته «ماذا سنسمي ابننا؟» كما لو أنها كانت متيقنة من أنه سيكون صبياً.

«سلمان»، أجاب ناصيف، وقد طفرت الدموع من عينيه، «اسم أبي الذي مات وهو لا يزال شاباً. أريد أن أقهر الموت بولادة ابني؟»

في المسافة المتبقية من رحلتهما، ضحكت ليلى كثيراً مع الرجل الذي كان الموت يتعقبه باستمرار، لكن كانت أعداد لا تحصى من الأفكار المجنونة تنبعث منه ليدخل البهجة والمتعة إلى نفس حبيبته. كان يقول لها إن صوت ضحكتها يشبه خرير ماء في ساقية، وأنه كلما سمعها أكثر ازداد إحساسه بالعطش ليرتوي منها. وفي إحدى المرات قالت إنها استنفدت كلّ مؤنة ضحكاتها لطوال حياتها في الشهور التي سبقت مجيئهما إلى معلا.

١٩- الضباع

حيثما اتجها صادفا البؤس والمجاعة. فقد استنزف محصّلو الضرائب التابعين للسلطان في اسطنبول آخر قرش لدى السكان، لأن السلطان عبد الحميد كان مثقلاً بالديون تجاه الغرب، وضرب جفاف لا يرحم مناطق شتى

twitter @baghdad_library

من السلطنة العثمانية، ولم يعد ثمة شيء يمكن حصاده سوى التراب، وانتشرت الأوبئة وتفشت أمراض السلّ والطاعون والكوليرا، وخلت مناطق كاملة في البلاد من سكانها. ولم تنفع التمائم والتعويذات في منح أيّ أمل لوضع حد لهذا البؤس. كان الناس يموتون ويتساقطون كالذباب.

لم تر ليلى وناصيف في حياتهما تعاسة كالتي رأياها في المناطق الريفية الغنية الوارفة في جنوب دمشق التي كانت أشبه بجنة غناء. وفي أثناء رحلتهما باتجاه الشمال، عجّت الدروب بأناس لا يعرفون إلى أين يذهبون هرباً من الكوليرا بعد أن سلبت الملاريا النور من عيون الأطفال.

كانت مجموعة من الشباب يشقون طريقهم بسرعة صوب دمشق عسى أن يجدوا الخلاص فيها. وعلى الرغم من شدة برودة الطقس في هذا الشتاء، كانوا يسيرون حفاة، وقد ربطوا أحذيتهم بحبل حول أعناقهم حتى لا تهترئ. فقد كانوا يزمعون أن يغسلوا أقدامهم لدى اقترابهم من المدينة وينتعلون أحذيتهم، لأنهم يعتقدون بأنهم سيجذبون اهتماماً أكبر إذا انتعلوا أحذية جيدة.

تحاشت ليلى وناصيف الدروب الرئيسية، واتجها نحو قرية معلا، وراحا يصعدان الجبال الشاهقة ويهبطان الوديان السحيقة، ثم يسيران في دروب ملتوية طويلة صاعدين إلى قمة الجبل التالي. جعل الشتاء الطبيعة قاسية وموحشة، وكان البرد لا يطاق، ولم تر ليلى شيئاً كهذا من قبل.

كلما سارا في الدروب الملتوية صاعدين الجبال، تجمدت ليلى من شدة البرد مع أنهما لم يتجاوزا بعد ارتفاع ألف متر، وكان عليهما تسلق قمة أخرى. كان قلب ليلى يخذلها كلما فكّرت بذلك.

كان ناصيف يمازحها ويقول لها إن الجبال مليئة بالذئاب والدببة، مخلوقات تلتهم البشر في لحظات معدودة. كانت ترجوه أن يتوقف عن التحدث عن ذلك، لكنّه لم يتوقف عن استثارتها حتى ذلك اليوم الذي ظهرت فيه لهما ضباع. كانا على حافة جبل، وتركا الحصانين يسيران ببطء على الدرب الضيق الذي لم يتجاوز عرضه متراً واحداً، والهوة النهمة تفغر

فاها على مصراعيه في الوادي السحيق على يسارهما. سبق ناصيف ليلى ببضع خطوات، يدندن أغنية ويحدّق أمامه.

بدّد نور الصباح ما يكفي من ظلمة الليل ليريا بوضوح عبر الوادي إلى قمة الجبل التالية. بغتة رأت ليلى الضباع في الجانب الآخر من الوادي. رأتها تهاجم امرأة متوجهة إلى القرية القريبة حاملة على رأسها حزمة من الحطب. بالنسبة للعين كانت الأرض المرتفعة قريبة جداً إلى حد أنه لم يكن بمقدرة ليلى أن تحصي عدد الضباع فحسب، وإنما باستطاعتها أيضاً أن ترى وجه المرأة بوضوح شديد.

«ناصيف»، صاحت مذعورة. أجفل ناصيف وأعادته من شروده. أوقف حصانه لكنه لم يستطع أن يستدير به، فترجّل بحذر ومشى نحو ليلى. عندئذ رأى الضباع أيضاً.

كانت المرأة تحاول إبعاد الحيوانات المفترسة عنها بعصا تحملها. تراجعت الضباع بسرعة ثمّ هاجمتها مرة أخرى. من خلال عويلها الجشع الذي بدا أشبه بضحكات، سمع المسافران صوتاً يطلب النجدة.

راح ناصيف يصرخ ويلعن، لكن لم يلتفت إليه سوى ضبع واحد متفاجئاً، بينما راحت الضباع الأخرى تهاجم المرأة بشراسة أشدّ ولم يهبّ أحد لنجدتها. لم يكن بوسع ليلى أن تفعل شيئاً، فانزلقت من على سرجها، وربط ناصيف حصانه بشجيرة وعاد إليها وضمها إليه بقوّة.

«أحبّك يا ليلى»، قال وقبّلها. عندما قبّلته بدأ دمها المتجمّد يتدفق في جسمها ثانية.

«هل تستطيعين أن نواصل سيرنا؟» سألها. أومأت. ساعدها على امتطاء الحصان ثمّ امتطى حصانه، وراح يخبّ ببطء هابطاً الدرب الضيّق الخطير وهي تتبعه. كانت تلك آخر مرة يناديها باسم ليلى.

بعد ثلاث ساعات وصلا إلى معلا. بعد هذه الحادثة بفترة طويلة قالت إن الضباع لم تكن سوى إشارة على أن أيامها في معلا ستبدأ بمصيبة وستنتهي بمصيبة أيضاً، لكنّها تجاهلت الإشارة.

twitter @baghdad_library

٢٠- إصابة زرقا بالحمّى

بعد وفاة زرقا المبكّرة في عام ١٩٢٠، أخذ القرويون يتحدثون عن المرض الذي أصابها. فقد قالوا إنها، قبل موتها بعدة سنوات، خانت جورج مشتاق وقرية معلا بحثّها الحصادين على التمرّد. لكن صوفيا، القابلة، دافعت عنها وقالت إن اللوم يقع على زوجها. فقبل ولادة طفلها الأول بأسبوع، مرضت زرقا وأصيبت بحمّى غريبة طوال يومين، راحت خلالهما تهذي وتهذر. وبعد ولادة طفلها بفترة قصيرة دخلت في غيبوبة لعدة ساعات. لقد حدث ذلك عندما أنجبت سلمان، ثم تكرر ذلك عندما أنجبت طفلها الثاني، حسيب. وقالت صوفيا إنه أثناء ولادتها بحسيب، وبعد أن استفاقت الشابّة من غيبوبتها بعد عدّة ساعات، أطلقت أصواتاً من داخلها تشبه أصوات حيوان جريح طوال نصف يوم.لم يستطع أحد أن يفهم سر ذلك. وأثناء ولادة طفلها الثالث، ابنتها ملكة، أصيبت زرقا باضطراب عقلي مخيف لفترة من الوقت، وراحت تصرخ بأن زوجها سيكره الفتاة وسيقتلها لأن لديها علامة هلال تحت صدرها الأيسر مباشرة، مثل أمّها. ولما كانت صوفيا قابلة محنكة، فقد طلبت من جورج مشتاق إما أن يتوقّف عن تحبيل زوجته، وإما أن يأخذها إلى طبيب في المدينة، فأجابها غاضباً: «غباء النساء» وأضاف أن زرقا مثل القطّة، لديها سبع أرواح، ويمكنها أن تنجب عشرين طفلاً. وخلال ولادة طفلهما الرابع، إلياس، أغمي عليها، وعندما استعادت وعيها لم تتمكن من التعرف على أحد حولها لفترة من الوقت. ثم بدأت تخاف من الطفل وراحت تصيح إنه فيل، وهنا أدركت صوفيا أنّ المرأة قد جنت، لكن جورج مشتاق لم يعبأ بذلك.

«لقد التهمت الحمّى عقلها»، قالت القابلة، وفي رأيها أن هذا ما جعل زوج زرقا يغفر لها كلّ شيء. «فعندما استفاقت كانت قد فقدت عقلها وأصبحت مجرد مخلوق بائس لا يستحق العقاب، بل يستحق الشفقة».

٢١- شجرة الدردار

لشجرة الدردار الضخمة التي احترق نصفها المتعفّن في عيد الفصح في عام ١٩٥٣، قصّة حفرت في الذاكرة الجماعية للقرية كما لم تحفر أي قصّة أخرى.

منذ أن وطأت زرقا أرض قرية معلا، لم تذق طعم الراحة والهناء. فقد كان الطقس قاسياً عليها، والفلاحون أجلاف، وقد خفت حبّ جورج مشتاق لها بعد أن بدأت كراهية منافسه تملأ قلبه، ولم يعد ثمة مكان فيه لزوجته. وبعد أن استحوذت عليه هذه الكراهية لم يعد يحبّ ضحكتها ويفهم كلّ ما يثير عواطفها، بل تبع غريزته التي جعلته لا يميّز بين حبيبته وأيّ امرأة أخرى. كما خلّفت الكراهية أثرها على كبريائه، وأدرك أنه كلما نال عدداً أكبر من النساء، تضخم إحساسه بالرجولة في عيون رجال القرية.

بعد سنة من ولادة سلمان، قادها الحظ أو الشيطان إلى مخزن الحبوب حيث رأت جورج يضاجع صليحة، زوجة الحلاق. وقالت القابلة صوفيا، لكل من كان يستمع إليها إنّها لم تكن تفهم هذا الرجل الذي على الرغم من أنه لم يتوقف عن الزنا، كانت الغيرة تنهشه. وقالت إنه كان يتمنى لو كان مسلماً لأنه سيكون بإمكانه إخفاء زرقا عن عيون الجميع وراء حجاب. فقد كانت التعاسة تبدو جلية عليه عندما ينظر رجل آخر إلى زوجته الجميلة وتبادله ضحكتها الصافية، لكن زرقا لم تكن تحبّ أحداً غيره، وظلت مخلصة له مادامت تتمتع بكامل مداركها. كان قلبها صافياً وشفّافاً كالبلور النقي، لكن عندما خانها حبيبها، حدث شرخ في هذا البلور، بحجم نجمة، ولم تتوقف عن البكاء طوال أربعة أيام. «إنك لا تحبّني، إنك لا تحبّني»، راحت تكرّر، بعد أن بدأ يغادر غرفتها لفترات طويلة، وتلقي برأسها إلى الأمام والوراء، ولم تعد تلاحظ ما يجري حولها.

لكن سرعان ما أدرك جورج مشتاق أنّ حبّه لها قد شلّه، وكانت تشتكي بأنها ليست على ما يرام، ولم تكن تتوقف عن البكاء كما لو أن ليلى قد ماتت، ولم تكن زرقا إلا قشرتها التعيسة. لم يعد يعرف ماذا يفعل. عندما

twitter @baghdad_library

يكون معها، كانت ترجوه ألاّ يخرج ويتركها وحدها، لكن الحياة في الخارج لا تنتظر. فلم يكن بمقدرته الجلوس بجانبها في السرير وتهدئة خاطرها إلى الأبد، ممسكاً بيدها، في الوقت الذي لا يتوقف فيه هذا اللقيط يوسف شاهين عن بذل كل ما بوسعه لتحطيمه.

ولاحظ جورج مشتاق التعيس أن يوسف شاهين قد تزوّج امرأة معروفة بذكائها تدعى سامية من مدينة حلب. وسرعان ما أصبحت مستشارته الوثيقة، والزعيمة السرية لحملته المعادية لعائلة مشتاق. كان جمالها أخاذاً، ومنحت زوجها أجنحة يطير بها، بينما كانت زرقا تشكل ثقلاً من الرصاص معلقاً بقدمي جورج منذ أن وصلا إلى معلا. وعندما بدأ سلمان يبكي في الليل، أُعدِّت لها ولابنها غرفة أخرى في الطابق الأول في الجانب الآخر من البيت، ومنذ ذلك الحين استطاع جورج أن ينام بهدوء.

بعد ليلة من ولادة ابنها الثاني حسيب، شعرت بصعوبة في التنفس، فنهضت من سريرها وخرجت من الغرفة بهدوء. هبت نسائم منعشة على وجهها. أخذت نفساً عميقاً من الهواء الليلي المنعش. كان القمر مضئياً، يكاد المرء أن يسمع الصمت الفضّي. فجأة فُتحت بوابة الفناء، وأحسّت بتيار غريب يشدّها بعيداً. ومثل ريشة لا حول لها ولا قوة، طارت عبر البوابة، مجتازة كنيسة القديس جاورجيوس باتجاه مصاطب الحقول والبيادر. وعندما بلغت البيدر البعيد، أدركت أنها حافية القدمين، فاستدارت وعادت إلى فراشها. وفي اليوم التالي، خيّل إليها أن كلّ ذلك لم يكن إلا حلماً، لكن ماذا عن الأشواك التي كانت لا تزال عالقة في ثوبها.

بعد فترة وجيزة من هذه الحادثة، بدأ الناس يتهامسون بأن طيفاً يرتاد الحقول في الليالي التي يكون القمر فيها بدراً، ينشد أناشيد الأطفال بصوت شجي، وقالوا إن كل من يسمع هذه الأنشودة، يصبح ضحيّة لرقية تعيده طفلاً وتقوده إلى الخراب.

كانت زرقا تخرج كلما أصبح القمر بدراً. وفي إحدى الليالي، بينما راحت تمشي فوق التلة بالقرب من المقبرة، لاحظت رجلاً يتبعها. توقّفت

والتفتت لمواجهته. تسمّر في البقعة التي ينحصر فيها ضوء القمر. كان شاباً نحيفاً، جميلاً. واصلت زرقا الغناء، وأنصت إلى أغنيتها مثل طفل.

سألته، «ماذا تريد؟» ارتجف خوفاً وتلعثم عندما قال لها إنه لم يلمس امرأة في حياته، وأنه يريد أن يسند رأسه إلى حضنها لمرة واحدة فقط. ضحكت زرقا ومدّت يديها إليه، لكنه جرى هارباً.

أصبح يعود كلّ ليلة يكون فيها القمر بدراً، لكنّه لم يجرؤ على لمسها، بل يهمس لها على الدوام، «أيتها العذراء المقدّسة، ساعديني».

بعد ذلك، بدأ القرويون في معلا يتحدثون عن طيفين اثنين. في البداية، سخروا من الطيفين الغريبين، لكن عندما عُثر على الراعي إسماعيل مشنوقاً في مكان قريب من المقبرة في صباح أحد الأيام، بدأ الخوف ينتاب الفلاحين. فقبل ثلاثة أيام، قال إسماعيل إنه سينصت إلى الغناء الليلي وإن الطيف لطيف، وأنهم سيرون بالتأكيد أنه لن يصاب بمكروه.

لكن الراعي مات بعد شهر من ولادة ملكة، طفلة زرقا الثالثة. ومنذ البداية كره جورج مشتاق الطفلة، وكان يعرف أن السبب هو عدوه اللدود يوسف شاهين الذي أسعده أن يخبر الآخرين بما يفكّر به. فقد أشاع أن والد الطفلة الحقيقي لم يكن زوج زرقا، بل الراعي الوسيم إسماعيل الذي شنق نفسه هياماً بها.

واعتقد عدد من القرويين بأن الشبح الذي يجوب الحقول هو الذي سلب عقل الراعي، فدبّ الذعر في نفوسهم لأنهم كانوا يضطرون للخروج في الليل في ذلك الوقت، بعد أن بدأت مياه النبع تشحّ وأخذت العائلات تتقاسمها وفق جدول زمني دقيق. لذلك كان بوسع كلّ مزارع أن يسقي حقله في وقت محدد، وتتناوب هذه الأوقات بين الليل والنهار.

لذلك، بعد موت الراعي المأساوي أصبحوا يسدّون آذانهم بالشمع في الليل، وإذا سمعوا صوتاً كان كل واحد منهم يصيح «أيتها العذراء المقدّسة، ساعديني». ولما لم يعد بوسعهم سماع كم كان صوتهم عالياً، ترددت أصداء صيحاتهم من الحقول ذات المصاطب ووصلت إلى قاع الوادي.

twitter @baghdad_library

بعد ولادتها العسيرة لطفلها الرابع، إلياس، أصبحت زرقا طريحة الفراش لفترة طويلة. وكانت القابلة صوفيا تسهر بجانبها طوال الليل لمساعدتها، وكان جورج مشتاق يعطيها مبلغاً جيداً لقاء خدمتها، لكنّه رفض الاستماع إلى صوفيا التي حذرته بعد فترة وجيزة من أن يترك زوجته وحيدة. لكن عندما وقعت الكارثة، كان الأوان قد فات.

في أحد الأيام من شهر حزيران القائظ من عام ١٩١٦، ظهرت زرقا بغتة في الحقل الفسيح. كان الحصّادون المتجولون يأتون إلى معلا لحصاد القمح في نهاية حزيران، ويجدون الكثير من العمل طوال أسبوعين كاملين. كانوا يتقاضون أجوراً زهيدة، لكن هذه الأجور الزهيدة تظل أفضل من الموت جوعاً. وكانت الحرب العالمية الأولى في أوجها، وانتشر الفقر والبؤس في ولايات السلطنة العثمانية.

كان جورج مشتاق رب عمل قاسياً، متعسفاً. فهو لم يكن يدفع أجوراً زهيدة فقط، بل لم يكن يتردّد كذلك في ضرب الحصّادين بالسوط إذا أبدى أحدهم أي تقاعس - أو ما يعتبره تقاعساً. ومن الناحية الأخرى، كان يشغلّهم من أول يوم حتى آخر يوم في موسم الحصاد، ويدفع لهم أجراً يعتبره الكثير منهم أفضل من الأجر العيني الذي يتقاضونه عادة. كان الحصّادون الجوالون يتنقلون من قرية إلى قرية مع نسائهم ويعرضون خدماتهم. وكانت تدور حكايات كثيرة عن حصّادات يكسبن خمسة قروش لقاء العمل طوال عشر ساعات في اليوم، لكنهن يكسبن ثلاثة أضعاف هذا المبلغ في الليل. كان موسم الحصاد في معلا أيضاً موسم فجور لأنه يتيح لشبان كثيرين فرصتهم الوحيدة طوال السنة لإشباع رغباتهم الجنسية. فقد كانوا يوفرون قروشهم لإنفاقها خلال هذين الأسبوعين الأخيرين من حزيران.

في ذلك اليوم الحار من أيام حزيران، جاءت زرقا إلى الحقل حيث كان العمال منهمكين في الحصاد. راحت تنظر بعينين محمومتين إلى الرجال وهم ينحنون ويحملون مناجلهم بأيديهم ويجزون أنصال سنابل القمح ويضعونها على الأرض. وكان الأطفال والشبان اليافعين يجمعونها في حزم أكبر ثم يحملونها إلى البيدر أخيراً على ظهور الحمير.

فجأة جلست زرقا القرفصاء. ولفزع الحصادين ودهشتهم رفعت طرف ثوبها وكشفت عن ردفيها، وأخذت تقهقه وهي تفرغ مثانتها. أشاح الرجال بعيونهم عنها، ثم قالت لها إحدى النساء المذهولات، «ألا تخجلي من تعرية مؤخرتك أمام الرجال يا سيدتي؟» فضحكت زرقا وصاحت: «أنا لا أخجل أبداً أمام الصراصير. فما الضير إذا رأوا مؤخرتي؟»

«صراصير؟» صاح عدد كبير من الحصادين، «صراصير؟»

«نعم، وهل أنتم غير ذلك؟ فهم يضربونكم بالسياط، وينكحون نساءكم بينما تقفون هنا تفتلون شواربكم فخراً في المساء، لا تفكرون إلا بالنقود التي ستجلبها لكم زوجاتكم»، صاحت زرقا بصوت مبحوح.

عندها هبّ الرجال جميعاً فجأة، بعد أن أحسّوا هم وزوجاتهم بالمهانة. وفي ثورة غضبهم قتلوا رجلين من رجال جورج مشتاق، وأضرموا النار في حقوله وحقول عدد من المزارعين الآخرين. كانت تلك هي الشرارة التي أشعلت أكبر الاضطرابات في تاريخ القرية.

هاجم الحصادون معلا، ونهبوا وسلبوا بيوتها وقتلوا الكثير من أهلها ثم أضرموا النار في البيوت وفي كنيسة القديس جاورجيوس، فالتهمت النيران بسرعة الخشب الجاف الذي شيّدت به المباني. ولم يتمكن القرويّون من السيطرة على النيران وإنقاذ أيّ من البيوت المجاورة. لكن الكنيسة، كما بمعجزة، نجت من ألسنة النيران، ولم يحترق فيها إلا الرواق وجزء من الجناح الشرقي، ثم انطفأت النار من تلقاء نفسها أمام الهيكل.

ونشب القتال في أنحاء القرية، وهبّت حشود أخرى من الحصادين من القرى القريبة لنجدة رفاقهم. وفي اليوم الثالث، تبين أنهم يشكلون الأغلبية عندما أصبحوا في مواجهة رجال معلا، ونجا مشتاق من محاولة لقتله.

جمع مشتاق الذي استشاط غضباً جميع مناصريه، وبدعم من رجال موبات هاجم الحصادين. ثم انضم يوسف شاهين ومزارعون أغنياء آخرون أيضاً إلى المعارك التي استمرت أياماً عديدة، قُتل خلالها أكثر من سبعين من الحصادين.

twitter @baghdad_library

لم يكن هناك مخفر للشرطة في معلا آنذاك، ورفض الوالي العثماني في دمشق إرسال جنود، لأنه خشي أن يتهم بالخيانة إذا دافع جنوده عن قرية مسيحية ضد عمّال مسلمين.

نهب العمال أشياء كثيرة. فقد سلبوا خيولاً ومجوهرات وأموالاً وقطع أثاث وآنية فخارية. كان كلّ ما خلّفوه وراءهم قتلاهم الذين تناثروا في الشوارع جثثاً هامدة مجهولة الهوية.

بكى الكثير من الفلاحين على هلاك محاصليهم بالكامل، بينما فقد آخرون بيوتهم وكلّ ما يملكونه. لكنّ مصيبة مشتاق كانت أكبر بكثير. فقد شكل نبأ اختفاء زرقا ضربة أقسى بكثير من خسارته لممتلكاته. فلم تكن بين الموتى، ولم يُعثر عليها في أي مكان آخر.

ساعدت صوفيا، القابلة، مدبرة منزل زرقا في رعاية الأطفال الأربعة. ولم يكن الابن البكر، سلمان، قد تجاوز الثماني سنوات، ولم يكن إلياس، الابن الأصغر، قد بلغ السنتين من العمر.

أخفقت جميع محاولات البحث عن زرقا. انقضت سنتان، لم يهنأ مشتاق خلالها بالنوم ليلة واحدة. فعندما يغمض عينيه، كان يراها مستلقية عارية فوق كومة تبن. وفي أثناء النهار، كان يحنّ إلى رائحتها. وكانت صوفيا تراه وهو يذرع غرفتها جيئة وذهاباً، وتسمعه يصرخ متألّماً، ثم يخرج ثياب زرقا، يشمّها، ثم يمزّقها، ثم يجمع القطع الممزقة ويعيدها إلى صندوق كبير. وعندما تبدأ لوعة الحبّ تجرحه مثل سكين، يهرع فوراً إلى كنيسة القديس جاورجيوس، ويفتح قميصه أمام الكاهن الكاثوليكي، الأب تيموثاوس، ويريه جرحاً عميقاً في المنطقة المحيطة بقلبه.

كان تيموثاوس ابن عائلة دمشقية غنية هرب من العالم ليجد السلام في معلا، واعتبر القرويون هذا الراهب قدّيساً، وقيل إنه يصعد أحياناً ويحوم في الهواء لأكثر من ساعة أثناء الصلاة. وقبيل عيد الفصح، تظهر على يديه دائماً ندبات المسيح المصلوب، وتنزف دماً. كان تيموثيوس متواضعاً وصارماً مع نفسه. في ذلك اليوم، وضع يده على جرح جورج مشتاق المفجوع.

«لا، ليس هذا الجرح، أيها الأب المحترم، ليس هذا إنما ذاك في قلبي»، قال مشتاق، «بل صلّ من أجل زرقا حتى تعود إليّ، وأنا مستعد لأن أمنح الكنيسة شجرة الدردار التي أملكها والتي يزيد عمرها على ألف سنة».

كان الجميع يعرفون شجرة الدردار المنتصبة فوق ربوة بعيدة التي يمكن رؤيتها بسهولة من ساحة القرية.

«إذا ساعدتني صلواتك لأنعم بدفء زرقا مرة أخرى، فإن خشب تلك الشجرة القديمة سيدفئ الكنيسة وبيتك طوال سنوات»، قال مشتاق للكاهن وهو يهمّ بالمغادرة.

عادت زرقا بعد ثلاثة أيام، كما لو أنها هبطت من سماء زرقاء صافية. كانت ترتدي ثوب فلاحة بسيطة، نظيفة، لكن عقلها أصيب بلوثة، فاستقبلها زوجها بدموع الفرح.

لم يعرف أحد أين كانت طوال تلك الفترة، أو كيف وجدت طريقها إلى البيت. لم تنبس بكلمة أخرى حتى يوم وفاتها. كان كلّ ما تفعله هو أن تجوب أنحاء القرية كأنها تبحث عن شيء. وما إن تسمع صوت طفل، حتى تجري نحوه ثم تنهار محبطة، وتجهش في البكاء.

تراكمت أسطورة فوق أسطورة حول زرقا، لكن الحكايات كلها لم تكن سوى ثرثرة. فقد ادّعى أناس أنهم شاهدوها مع أحد الحصادين الذي أصيب بجروح وهي تساعده في النهب وإضرام النيران، بينما أكد آخرون أن شقيق أحد الحصادين الذي لقي مصرعه في القرية اختطفها بدافع الانتقام ثمّ فقدت رشدها لأنها تجرعت السمّ.

لم تجلب زرقا البهجة إلى جورج مشتاق الذي كان يستلقي في غرفته، يبكي بصمت. وهكذا مرّ الوقت، ولم تحصل الكنيسة على غصن واحد من شجرة الدردار تلك. وعندما نفد صبر الراهب، ذكّر مشتاق بوعده، فصرخ مشتاق ساخطاً بصوت هادر، في ساحة القرية «كلّ ما أعاده إليّ قديسوك امرأة مجنونة بنصف عقل. إنها نصف إنسان، لذلك فإني سأعطيك نصف الشجرة فقط».

twitter @baghdad_library

في تلك الليلة، أبرقت السماء، فأضيئت معلا لدقائق طويلة، كما لو أن ألف شمس قد أشرقت. وأصاب البرق شجرة الدردار وشطرها إلى نصفين. ومع مرور الوقت، يبس أحد طرفيها وظل الطرف الآخر نضراً. ومع السنوات، اتخذ الطرفان شكلاً غريباً. وبدا النصف المتيبس مثل هلال دخل في المحاق، أما النصف الأخضر فكان مثل قمر مضيء. وحفر المطر والشمس وأيدي البشر الشق في منتصف الشجرة، فأصبحت أشبه بكهف، كان العشاق والأطفال يحبّون اللجوء إليه.

كانت زرقا تمضي أياماً عديدة داخل شجرة الدردار، وكان المسافرون والفلاحون الذين يمرون من أمامها، يدهشون عندما يرونها تظهر فجأة من داخل الشجرة.

قبل وفاتها بفترة وجيزة، أشيع بأنها أنجبت صبياً، لكنها أخفته خوفاً من زوجها، ونسيت أين خبأته، لذلك كانت تبحث عنه باستماتة. كان الأطفال يجرون وراءها، يجذبون ثوبها ويصيحون «ها هو ابنك، أيتها المجنونة العمياء». كانوا ينعقون عليها ويضربونها ويرجمونها بالحجارة. عندما تكون قريبة من بيت مشتاق، لم يكن أحد يجرؤ على إيذائها، لكن ما إن تبتعد قليلاً عن جدران البيت حتى تصبح هدفاً لكلّ من أراد أن يلحق الأذى بمؤسس العشيرة. وعندما يصيب صبي المرأة المجنونة بحجر، كان الصبية الآخرون يصفّقون له، فتلعن زرقا في قلبها من قذف الحجر، والكراهية في عينيها، لكنها تظل صامتة، ولا تنبس بكلمة.

قالت صوفيا إن تلك الفترة كانت أشدّ الفترات صعوبة في حياة مشتاق. كان أعداؤه يبتهجون لعذابه ومعاناته، ويشجّعون الجميع على رواية المزيد من الحكايات عن زوجته.

بعد عودة زرقا إلى القرية بسنتين، وجدت فلاحة ذاهبة لتروي عطشها من النبع الصغير القريب من شجرة الدردار، زوجة مشتاق داخل الشجرة. بدا أنها نائمة وابتسامة سعيدة ترتسم على وجهها. لكنّها لم تستيقظ بعد ذلك قط.

كتاب العشيرة الأول

العشائر العربية والأهرامات تتجاهل مرور الزمن

*

دمشق، معلا، بيروت ١٩٠٧-١٩٥٣

٢٢- الهوّة

كانت الهوّة التي تفصل بين عائلتي مشتاق وشاهين عميقة. وبعد مضي فترة طويلة لم يعرف أحد سبب العداوة التي نشأت بينهما، لكن جميع أفراد العائلتين، حتى أطفالهم، كانوا على قناعة بأنه بوسعهم مصادقة الشيطان، لكن لا يمكنهم مصادقة فرد من أفراد العشيرة المعادية.

كان جورج مشتاق قد تعرّف على يوسف شاهين في ليلة وصوله إلى معلا. كان الرجلان متقاربين في العمر، وشربا معاً في بيت موبات، مختار القرية، الذي دعا جميع وجهاء معلا للتعرف على الرجل الغريب الذي طلب اللجوء إلى القرية والإقامة فيها بأمان. وقيل إن علاقة صداقة نشأت بين يوسف وجورج بسرعة في ذلك المساء، لكنهما سرعان ما اختلفا وتشاجرا بعد بضعة أيام لأن شاهين عامل زوجة مشتاق الشابة، زرقا، باحتقار وبفظاظة. لم يكن شاهين يحبّ النساء، وخاصة النساء ذوات العيون الزرق، اللواتي يكمن جوابهن على رأس لسانهن، ويضحكن كثيراً. كانت زرقا تجمع كلّ هذه الصفات في شخصيتها.

استطاع موبات مصالحة الرجلين، وساد السلام بينهما لفترة من الوقت. حتى جاءت حفلة تعميد الابن البكر لمختار القرية. وتقول الرواية إنه لم تكد

twitter @baghdad_library

حفلة العمادة تنتهي حتى ثارت مشكلة بين الرجلين المتنافسين. ويبدو أن يوسف قد ألقى نكتة فظة عن عيني زرقا الزرقاوين، وقيل إنه سألها هل حملت أمّها من رجل إفرنجي، وهي كلمة يقصد بها جميع الأوروبيين، وقيل إن زرقا أجابته، «نعم، في نفس الوقت الذي حملت فيه أمّك من حمار».

«عاهرة» قال وبصق على الشابّة. ثمّ ساد هرج ومرج. كان يوسف على وشك أن يصفع زرقا على وجهها، عندما أوقفه جورج مشتاق. حاول الآخرون الفصل بين الرجلين. وغادر يوسف البيت، علماً أنه كان المسيحي الأرثوذكسي الوحيد الموجود في الحفلة.

أحسّ جورج مشتاق بإهانة شديدة وأقسم على أن ينتقم. وربما كان أصل العداوة التي أعقبت ذلك تكمن في خيبة الأمل التي أصابته لأنه أحبّ شاهين وكان يأمل بالكثير من صداقتهما.

عندما كلّمه الكاهن لتسوية المشكلة بينهما، بصق وقال: «إذا سامحت هذا الكلب في حياتي كلها فإني سألعق بصقتي من على الأرض».

منذ ذلك الحين، سعى جاهداً لإثبات من هو الديك الأقوى فوق مزبلة معلا. ورويت حكايات كثيرة عن خدعه الماكرة لشراء كلّ ما يمكن أن يضع يديه عليه، حتى أصبح يمتلك أخيراً أراض وبيتاً وخيولاً وأبقاراً وأغناماً وبيدراً، أكثر مما كان يملكه عدوه اللدود شاهين.

منذ اليوم الأول، قالت سامية، زوجة يوسف، إن مشتاق يشكل تهديداً كمنافس على النفوذ في القرية، وتأكد ليوسف ذلك في حفل العماد ذاك. وعندما رأت الغريب لأول مرة قالت لزوجها إنها تشعر، عندما تكون معه في مكان واحد بأنه وحش مفترس، وقالت إن في عينيه تلك النظرة الاستحواذية المتعطشة للدماء، وأنها تحسّ بأن جلدها يحترق عندما ينظر إليها، وتجد وجوده مزعجاً.

أحسّ شاهين بأن كبرياءه قد جُرح من الحكم الأولي الإيجابي الخاطئ لمنافسه. ففي البداية أحس باحترام شديد تجاه هذا الخبيث جورج مشتاق

ولم يكن يكره أحداً إلا زرقا. لذلك بدأ يستخدمها الآن لتوجيه ضربته التالية إلى مشتاق. فزعم أنها مسلمة وأن هذا الرجل الغريب قد انتشلها من بيت دعارة، لذلك لم تطأ قدماها الكنيسة قط، بل حتى أنها لا تعرف كيف ترسم شارة الصليب. أصابت هذه التعليقات التهكّمية الهدف في الصميم.

أراد مشتاق أن يثبت عكس ما يشاع عنها في يوم الأحد القادم، لكن زرقا رفضت أن تذهب إلى الكنيسة، وتشاجرا بحدّة، وقيل إنه أهانها في هذا الشجار، لذلك فعلت كلّ ما فعلته لاحقاً، الأمر الذي أدّى إلى موتها المبكّر في نهاية الأمر.

لكن قبل وقوع هذا الحادث المؤسف، استمر العداء وانقسمت القرية إلى معسكرين مميّزين، معسكر يضم مناصري مشتاق، ومعسكر يضم مناصري شاهين. وشيئاً فشيئاً، تأجج الغضب والكراهية في كلا الجانبين.

وفي أحد الأيام، ذهب شابّ ليعمل سائساً عند شاهين، لكنه اختفى ذات ليلة بعد سنة مع خمسة من أغلى خيول عربية يمتلكها سيده. وعندما سمع يوسف أن جورج مشتاق هو الذي أرسل السائس، أُحرقت بعد ليلتين حظيرة مشتاق التي يتكدس فيها محصول تلك السنة كله.

وقد أدت العداوة المتزايدة بين المتنافسين إلى أن تترسخ كراهية الرجلين في نفوس أتباعهما، الكاثوليك من جهة، والأرثوذكس من جهة أخرى. وأصبح المختار موبات، مجرد وسيط مثير للشفقة لا يني يبذل محاولات مستميتة لفصل الحاكمين الحقيقيين في معلا أحدهما عن الآخر. لكنه لم ينجح في تحقيق ذلك لأن العداوة بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الأرثوذكس يزيد عمرها على ألف سنة في الشرق الأوسط. فقد أريقت دماء كثيرة في معلا، ولدى كل عشيرة منهما ذاكرة رائعة لاتنسى شيئاً. فكلّ مصيبة تلحق بأحد الطرفين كانت مدعاة للاحتفال ومناسبة للبهجة بالنسبة للجانب الآخر وترسخ للأبد في ذاكرتهم.

لكن أكبر هزيمة لحقت بجورج، كمؤسس لعشيرة مشتاق، لم تكن نتيجة عمل قام به شاهين بل نتيجة عمل قام به ابنه إلياس، والد فريد. أو

twitter @baghdad_library

ربما كان مشتاق العجوز هو الذي ألحق تلك الهزيمة بنفسه، ولم يكن ابنه سوى وسيلة لا حول لها ولا قوة.

٢٣- وداع إلياس

قد تكون عشيرة مشتاق صغيرة العدد، لكنها كانت تبدو في نظر القرويين في معلا شديدة البأس. ولم تكن تستمد قوّتها من ثروتها فقط، بل كذلك من تصميمها الجريء في وسط فلاحين متردّدين. فقد كانت عائلة مشتاق تتّخذ قراراتها بسرعة ومن دون حساب للخسائر التي قد تتكبدها. وكانت تتصرّف بحذر وتعقل، بخلاف عدوها اللدود، عائلة شاهين التي كان يحلو لها أن تشيع في القرية باستمرار أن وزيراً في الحكومة أو ضابطاً برتبة عالية في الجيش قد أصبح صديقاً لها. كان القرويون متيقنين من حدسهم بوجود ارتباطات سرية لدى عائلة مشتاق مع رجال من أصحاب النفوذ في دمشق.

كانت عائلة مشتاق تمتلك بيوتاً كثيرة في العاصمة، لكن مهما بلغت قيمة البيوت التي تمتلكها هناك، فإن ما يهمّ أهالي معلا هو أنها تمتلك أكبر مزرعة في القرية وأجمل بيوت في ساحة القرية، وكان أجملها على الإطلاق البيت الصيفي الذي يقيم فيه إلياس، والذي شيّده والد فريد في عام ١٩٥٠، بعد مضي ثلاث سنوات على وفاة جورج مشتاق، مؤسس العشيرة، وكأنه أراد أن يثبت لأهالي القرية أنه عاد منتصراً. فقد تبرأ والده منه قبل خمس عشرة سنة وحرمه من الميراث لأن إلياس لم يتزوّج كبرى بنات مختار القرية، سميرة موبات، كما خطط ربّ العائلة، بل تزوج كلير سرور من دمشق. كان هذا هو التفسير الرسمي للحرب الدائرة بينهما، لكن كما في كلّ الحروب، توجد قصّة أخرى وراء نزاعهما المرير.

ساد اعتقاد لفترة طويلة بأنّ التشابه الصارخ بينهما هو الذي أدّى إلى الكراهية المتبادلة. فقد كان إلياس صورة طبق الأصل عن أبيه جورج، نحيلاً قوياً، ضئيل الجسم، مفعماً بالحياة. لكنه كان مختلفاً عنه في شيء واحد فقط.

لقد أحسّ جورج، مؤسس العشيرة، بغيرة تنهشه عندما وقعت عيناه لأول مرة على مولوده الجديد، أصغر أبنائه. فقد قالت القابلة صوفيا إنه حتى عندما ولد إلياس، كان قضيبه منتصباً يبلغ طوله طول إصبعها الوسطى. وعندما كانت تحكي هذه القصّة وتصل إلى هذه النقطة، كانت تبسط يدها الكبيرة وتبرز ذلك الإصبع الضخم.

كان مؤسس العشيرة قد ضاجع نصف نساء القرية، لكن شعوراً بالضيق الشديد لازمه طوال حياته لصغر قضيبه، وأطلقت عليه النساء اسم «زيتونة مشتاق»، وهذا ما يجعلنا نعرف كلّ ما نحتاج إلى معرفته عن شعور زير النساء الشهواني ذاك بالخجل. لذلك، فعندما ولد إلياس، رمق الصبي بامتعاض وغادر الغرفة محتدماً وهو يكيل الشتائم واللعنات، ولم يقل كلمة طيبة واحدة إرضاء لزوجته بمناسبة ولادتها بالسلامة.

كان قضيب الصبي يثير فزع أبيه باستمرار. في ذلك الحين، كان معظم الأطفال في معلا يجوبون أزقة القرية ويجرون فيها عراة، وفي أفضل الحالات لم تسترهم سوى قطعة ثياب خفيفة. أما إلياس فلم يكن يفعل ذلك، لأن جورج مشتاق أمر زرقا أولاً، وبعد وفاتها، مدبرة المنزل بعدم السماح لابنه بالخروج من البيت من دون سروال ووضع ضمادة سميكة تحته.

لم تكن زرقا تحب إلياس كثيراً أيضاً. فقد كانت تشعر بالحزن عليه، لكنها في أحيان كثيرة تخشاه أيضاً، لأنها عندما كانت ترضعه، يبرز ذلك القضيب المنتصب من جسمه الصغير النحيف على نحو مخيف. كان صلباً مثل صخرة، وتفوح منه رائحة قطران نفاذة غريبة، حتّى عندما تحمّم الطفل ثلاث مرات بالصابون وتدلك قضيبه بماء الورد الصافي.

بنفس الغرابة التي كان يبدو فيها قضيبه، أصبح إلياس فتى وسيماً، ذا جسد رشيق، مبدياً موهبة كبيرة في تعلم اللغات، منذ أن كان في الصف الأول. مع أنه كان يذهب إلى المدرسة خائفاً متردداً. ففي تلك الأيام، كان المعلّمون يضربون الأطفال كل يوم، بل كان الآباء يشجّعون مدير المدرسة ويطلبون منه أن يفعل اتباعاً للمثل القائل: «اللحم لك، والعظام لنا».

twitter @baghdad_library

سلّم جورج مشتاق إلياس للأب فيليبوس بعد أن ردد له هذه العبارة، لكن الصبي لم يمنح أحداً الفرصة لمعاقبته فقد كان تلميذاً مجتهداً مطيعاً نظيفاً مهذّباً. ولم تمض ستّة أشهر حتى أصبح التلميذ المدلل لدى معلّمه، مما أثار حفيظة التلاميذ الآخرين الذين استدرجوه إلى وراء أجمة أثناء فترة الاستراحة وأوسعوه ضرباً. بدأ الصبي يرتجف خوفاً منذ ذلك اليوم، وكان يرى الفلاحين وهم يضربون حميرهم الصغيرة بقسوة شديدة وبدون رحمة، فأصبح يتصور نفسه صنواً لتلك الحيوانات. وعندما رأى التلاميذ عضوه راحوا يصيحون «أنت لست صبياً، أنت حمار»، فشعر إلياس بميل كبير تجاه الحمير.

في صيف عام ١٩٢٤، جاء إلى معلا الأب جوليان باستون يبحث عن صبية موهوبين للانضمام إلى الأخوية اليسوعية. كان باستون الفرنسي المولد، طويلاً ذا جسم رياضي، له شعر كث أشيب، وعينان صغيرتان تنمان عن الذكاء. ومع أنه قارب الأربعين من العمر، كان يبدو أكبر من ذلك بكثير.

رأى الأب جوليان الصبي البالغ من العمر عشر سنوات خلال زيارته لمدرسة القديس جاورجيوس الابتدائية التي يدرس فيها جميع أطفال القرية الكاثوليك. كانت رؤية وجه إلياس المشع النظيف متعة لكل من يراه، بين الوجوه الوسخة الأخرى المليئة بالندب. وبعد أن كلّم اليسوعي الصبي الذكي، توجه إلى بيت مشتاق حيث استقبله جورج بوقار شديد، وابتهج عندما وجد الأب جوليان يتحدث اللغة العربية بطلاقة رائعة.

كان جوليان باستون صريحاً، فقد أفضى إلى والد إلياس بأن البلاد بحاجة إلى عدد من القساوسة المدربين المؤهلين أكثر من حفنة القساوسة التعساء الموجودين في السلطنة العثمانية الآيلة للسقوط.

«إنهم ليسوا قساوسة، بل أعداء للمسيح»، قال اليسوعي، «فقد تركوا عقيدتنا المسيحية تنحلّ وتصبح مجرد طقوس عربيدة شرقية من الأكل والشراب مغلفة بأدخنة البخور. إنهم لا يفهمون كلمة واحدة من النصوص المقدّسة

التي يحفظونها عن ظهر قلب كالببغاوات، لذلك فإن أي شخص يسمع كلام الإسلام الفلسفي لا يصمد أمام إغرائه طويلاً».

شرح الأب جوليان أفكاره بإسهاب، وقال إن المنطقة تسبح فوق بحر من البترول وأنها ستصبح ذات يوم مركزاً رئيسياً للاقتصاد العالمي، لكن المسلمين لن يتمكنوا من إدارة هذه الثروة. وقد آن الأوان للبدء في إنشاء مدارس مسيحية للنخبة من التلاميذ، وأن هذه المدارس بحاجة إلى قساوسة أذكياء على درجة عالية من التعليم.

«قمنا بترميم عدّة أديرة متداعية وأعدنا فتحها. وجددنا ديراً جميلاً للدومينيكان في دمشق. إذا وافقت، فإن إلياس سيقيم فيها»، تابع اليسوعي بنبرة ودّية.

«لكن ألا يثير المسلمون أيّ مشاكل لك؟» سأل جورج مشتاق، بارتياب.

«لا، لدينا علاقات جيدة مع عدّة عائلات سنيّة تساعدنا على الوصول إلى صانعي القرار المهمين. بل إن مشاكلنا الوحيدة هي مع المسيحيين الأرثوذوكس، لأنهم يدركون أن الكاثوليكية تحرز تقدّماً».

«آه، إنهم أسوأ من المسلمين. فهنا في معلا، بُلينا بأولئك الشياطين المحتالين من عائلة شاهين الذين يتعين علينا مواجهتهم. وإن شاهين هو يهوذا الذي كان يحكم القرية كلها قبل قدومي إليها، ويتّحد مع المسلمين المحليّين لاستعباد الكاثوليكيين الصالحين. وها هو الآن لا يستطيع التعايش مع الواقع بأنني أنا، الكاثوليكي، قد أصبحت الزعيم هنا. هل رأيت كنيستنا؟»

«نعم، نعم، بالتأكيد، وأعرف أنه بفضل تبرّعاتك وتصميمك، أُجريت كلّ تلك الإصلاحات الممكنة، جميع تلك التصميمات الجصّية الرائعة. لكنّنا نحتاج إلى مساعدتك في دمشق أيضاً، إننا بحاجة إلى كرمك ليحصل طلابنا على التعليم الذي يحتاجون إليه كي يصبحوا قساوسة جيدين، مع كلّ الاحترام الواجب للإسلام».

كان جورج مشتاق يكره الإسلام، وسعد كثيراً عندما سمع أن

twitter @baghdad_library

الأوروبيين المتعلّمين يشاطرونه الرأي، فقاطع ضيفه، وقال: «لا أستطيع أن أحترم عصابة قتلت أمّي وأختي بدوافع انتقامية جبانة! فقط لأن امرأة مسلمة ألقت بقدرها في يدي رجل مسيحي».

«أنا آسف، لم أفهم قصدك»، قال اليسوعي بهدوء.

«لا يستطيع أحد أن يفهمه»، أجاب مشتاق، وطفرت الدموع من عينيه.

أحسّ الزائر، وهو رجل ذكي، بأنّ لدى مضيفه ذاكرة مريرة، وبأنه يحاول أن يحافظ على هدوئه. ساد هدوء مفاجئ في غرفة الجلوس الكبيرة حيث كان الغسق الجميل يقبع وراء الستائر المسدلة. استوى جورج واقفاً، فتح الباب، ونادى مدبرة المنزل وطلب منها أن تعدّ قهوة جيدة منكهة بحب الهيل لزائره الجليل. أغلق الباب ثانية وعاد إلى ضيفه، مرغماً نفسه على الابتسام.

«سامحني على ردة فعلي العنيفة، لكن بعض الذكريات لا تزال تراودني، مثل طعام غير مهضوم».

«في جميع الأحوال يجب أن نتعلّم أن نسامح»، قال الكاهن.

«يمكنني أن أسامح أيّ شيء إلا من قتل أمّي وأختي».

كان اليسوعي قد قرأ أثناء دراسته الكثير عن الثأر والعصبية العربية وعن مشاعر العداء بين العشائر العربية، وكان يعرف أن هناك مواضيع معينة يستحسن عدم مناقشتها مع شخص عربي إذا كنت تريد الحفاظ على صداقته.

«إني أفهمك» أجاب الكاهن المحنك. أحسّ مشتاق بالانتصار. إذ أن إحدى أكبر المعجزات على وجه الأرض، كما كان يرى، هي أن تجعل شخصاً أوروبياً، وهو، بالإضافة إلى ذلك، كهنوتي ورجل كنيسة، يفهم الكراهية المبرّرة بشكل جيد.

بعد قليل جاءت القهوة تسبقها رائحتها العبقة، وقد أضافت مدبرة المنزل طبقاً من الحلويات الشامية.

«إن إلياس وردة لا تستطيع أن تزهر بين أشواك معلا»، قال الكاهن، عائداً إلى طلبه.

«ربما كان وردة»، أجاب مشتاق، «لكنه يحمل شوكة كبيرة. سأعطيك الصبي ومعه مائة ليرة ذهبية».

تحققت أمنية الكاهن وهبطت على جورج كما يهبط المنّ من السماء. إذ سينام خلال سبع سنوات قادمة هانئ البال، لأنه لن يهتم بما سيفعله ابنه وراء أسوار الدير العالية.

كما لم يكن إلياس يعبأ بالابتعاد عن عائلته، ولم يحزن إلا على أخته ملكة التي كانت تذرف دموعاً كثيرة كلما اقترب موعد مغادرته. عندما حان وقت الوداع، مدّ الأب يده للصبي على مضض. قبّلها إلياس وضغطها على جبينه، كما تقتضي العادات، لكن جورج لم يبادله القبلة. لم تكن اليد الممدودة جسراً، بل كانت بمثابة عقبة تبقي مسافة بينه وبين ابنه. ولم يخط الأب أبعد من البوابة لوداع ابنه.

جعل ذلك إلياس يحسّ بالإهانة. وتوجه برفقة أخيه الكبير إلى موقف الحافلة، حيث أعطى حقيبته إلى مساعد سائق الحافلة، وعثر على مقعد قريب من النافذة.

«لا تنزعج من ذلك. فهو ليس في مزاج رائق اليوم»، قال سلمان مؤاسياً شقيقه، لكن إلياس أحس بالغضب من أبيه الذي قدم أسباباً واهية لعدم تمكنه من مرافقته بنفسه إلى الدير في دمشق.

«حسناً»، قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع. نظر من فوق رأس أخيه، فرأى أخته التي تكبره أربع سنوات. كانت تحاول الاقتراب منه لتودّعه، لكن والدها صفعها على وجهها ودفعها وأعادها إلى باحة المنزل وأغلق الباب بسرعة كي لا تخرج ثانية.

«اعتن بملكة. والدنا سيقتلها»، قال إلياس لأخيه بهدوء. نظر سلمان إلى والدهما، الواقف أمام بوابة بيته بعناد، وابتسم.

«والدنا لن يقتل أحداً، لكن ملكة عنزة عنيدة»، أجاب.

لم يكن والدهما يحبّ ملكة أيضاً التي كان يضربها كثيراً. ومنذ يومين فقط ضرب ملكة أثناء الطعام لأنها كالعادة قضمت خلسة قطعة خبز مخصصة

twitter @baghdad_library

له. فقد حظر مشتاق دوماً من القيام بذلك. لا لعدم توفر طعام كاف، فقد كانت تُوزع على كل فرد من أفراد العائلة قطع خبز وفيرة، بل لأن جورج مشتاق يؤمن بخرافة تقول: إذا قضم أحد قطعة خبز تخص شخصاً آخر، فإنه يقضم سنوات من حياته. اعتاد إلياس على أن يسخر من هذه الخرافة السخيفة، لكن ملكة تؤمن بها كأبيها وقالت: «إنها ليست خرافة. وأنا أتعمد تناول قطعة من خبزه سراً لأقصر من عمره. أعرف أنه سيكتشف ذلك ذات يوم، هذا كلّ ما في الأمر».

سائق الحافلة الذي نادى على الركاب قبل خمس دقائق أطفأ المحرّك الذي كان يهدر، وذهب لاحتساء كأس آخر من الشاي مع الحلاق.

«قد يستمرّ هذا إلى الأبد»، قال سلمان.

«لا داعي لأن تنتظر»، أجاب إلياس الذي بدأ يشعر بأن وجود أخيه أصبح مزعجاً، وكما لو أنّ سلمان كان ينتظر قول ذلك، صافحه وهرع عائداً إلى البيت.

عندها رأى إلياس أخته ملكة تجري نحوه من شارع جانبي، أعجب بشجاعتها. كان وجهها متوهجاً عندما وصلت إليه. لكن مشتاق العجوز، الذي وصل إليه سلمان في تلك اللحظة، أجفل عندما رآها تتكلّم مع إلياس. التفت ابنه الأكبر قليلاً، ثمّ أخذ ذراع والده، وقاده إلى البيت.

لاهثة، ألقت ملكة ذراعيها حول رقبة إلياس وراحت تنشج بصوت مسموع، «لم يدعني أودعك كما يليق، لكنك أخي الحبيب». أخذ يبكي هو أيضاً، لا بدافع العاطفة، ولا لأنهما سيفترقان، بل من غضب اليأس لأنه لن يتمكن من حماية أخته. كان إلياس يعرف أنه عندما ستعود ملكة إلى البيت فإن نيران جهنم ستُصب عليها، لأنها عصت أوامر والدها بالبقاء في البيت وتسلقت الجدار هاربة. ولابد أن عدداً من رجال القرية قد رأوها تفعل ذلك، فسيسخرون من مشتاق. فإذا وضعت فتاة والدها في موقف حرج، فإن ذلك كان في تلك الأيام سبب كاف لقتلها او إصابتها بعاهة نتيجة الضرب المبرح.

بدا أن ملكة قد خمّنت ما يجول في رأسه، فقالت له: «أخي العزيز، أنا لا أحسّ بضرباته لأني أصلّي عندما يضربني».

«تصلّين؟» سأل إلياس، مندهشاً.

«نعم، أصلّي، أتضرع إلى مريم العذراء بأن تذوي يده وأن تسقط وهو حيّ يرزق. وعندما يضربني، أفكّر كم سيبدو بائساً وهو جالس هناك يتوسل إليّ لكي أقدم له رشفة ماء».

بدأ صوت محرّك الحافلة يزداد هديراً عندما قبّلته لآخر مرة. فقفزت من الحافلة، ورأى لأول مرة أنّها حافية.

٢٤- حفل استقبال للخانعين

عمّت الاضطرابات أرجاء البلاد وساد الغموض في كل مكان لأن فرنسا وبريطانيا خدعتا العرب. إذ قسّمت اتفاقية سايكس بيكو السرية التي وضعتها حكومتا البلدين في عام ١٩١٦ الشرق الأوسط في ما بينهما، حتى قبل أن يتمكن العرب من الاستمتاع بثمرة ثورتهم على السلطنة العثمانية. فاسُتعمرت البلاد، وقُسِّمت بلاد العرب على طاولة المفاوضات لصالح القوتين العظميين.

وفي أحد أيام تموز المغبرّة من عام ١٩٢٠، زحفت القوّات الفرنسية إلى مدينة دمشق، ومكثت فيها حتى عام ١٩٤٦ -ربع قرن من الثورات والانتفاضات وقطع الطرق والقتال بين العشائر القويّة.

بعد مضي أسبوع على وصول الفرنسيين، وجّه مندوبهم السامي، الجنرال غورو، الدعوة إلى جميع الشيوخ والرؤساء المهمين لحضور حفل استقبال. جاؤوا جميعاً، لأنه بالنسبة لهم لا فرق إن كان الحاكم في دمشق يتحدث اللغة الفرنسية أو العربية أو التركية. بل كان كلّ ما يهمّهم، هو ألاّ تضعف شوكة عشائرهم، وكانوا على استعداد لأن يصعدوا فوق جثث الآخرين لتحقيق مصالحهم. راحوا يتفحصون بدقّة ترتيب مقاعد الجلوس والهدايا التي قدمها لهم الجنرال بريبة وحسد، ولم يفهموا حرفاً واحداً من

twitter @baghdad_library

الكلمة القصيرة جداً التي ألقاها الجنرال المتعجرف، ولم يستوعبوا كذلك السبب الذي جعل جميع الضبّاط الفرنسيين يحضرون زوجاتهم معهم إلى هذا الحفل، كأنهم يريدون منح نسائهم الفرصة لإلقاء نظرة على المواطنين المهزومين. وكانت ابنة غورو معه أيضاً. كانت النساء جميلات صامتات مثل التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف الصيني.

منح الجنرال رئيس كلّ عشيرة بندقية صيد فرنسية جديدة وبوصلة، وكانت سعادة ضيوفه كبيرة مثل الأطفال بهذه الساعات الصغيرة المدهشة التي تشير دائماً إلى الشمال، وأخذ العديد منهم يعبثون بهذه الأدوات السحرية، حتى أثناء الحفل، يديرونها في يدهم ويدورون معها ويضحكون بصوت مرتفع. وكان الفرنسيون يضحكون ملء أشداقهم لهذا المشهد وكأنهم يشاهدون عرض سيرك مع مهرجين.

كان الصيف قائظاً، والمائدة الكبيرة تئن تحت ثقل أطايب الطعام الذي أعدّه طبّاخون عرب. وذعرت النساء الفرنسيات عندما رأين المدعوين العرب يأكلون بأيديهم العارية، ويصدورن أصواتاً أثناء الطعام، ويتلمظون بشفاههم، وبعد قليل، ملأت المكان حبات الرزّ وقطع الخبز وبقع الطعام. لكن أحداً منهم لم يلمس نبيذ البوردو الأحمر الذي قدم مع الطعام.

«لماذا لا تشرب إلا الماء؟» سأل الجنرال غورو الرجل الجالس إلى جانبه، الشيخ ياسين حمدان، كبير أئمة المسجد الأموي، ورفع كأسه، وشرب بتلذذ.

فاجأ السؤال الشيخ ياسين، وتساءل للحظة عما إذا كان الجنرال جاهلاً إلى هذا الحد وقد ظنه حكيماً لا يضاهيه حكيم وهو الذي انتصر على السوريين خلال ساعات.

«لأن القرآن يحرم علينا شرب الخمر»، أجاب بواسطة مترجمه.

ابتسم الجنرال ابتسامة عريضة، وأشار إلى العنب الأحمر الذي يتناوله الشيخ.

«ورأي سعادته»، قال المترجم، «أنك تأكل العنب، على الرغم من أن النبيذ يأتي من العنب».

رمق الشيخ الجنرال الذي كان ينظر إليه بعينين غائمتين بعد كأسه الثامنة.

«صحيح أن النبيذ يأتي من العنب، لكن ابنته أتت من زوجته. فهل ينام مع ابنته أيضاً؟»

وسارت هذه العبارة مثلاً، وانتشرت في مدينة دمشق كما لو كان ردّ الشيخ قد هزم غورو. لكن الجنرال لم يتذكّر شيئاً مما قيل في ذلك المساء لأنه كان في حالة سكر شديد.

كانت مهمّته تكمن في كسب ودّ زعماء العشائر لقبول الحكم الفرنسي، لأنهم إذا قبلوا الاحتلال، فلن يثير رعاياهم وأتباعهم الاضطرابات. لذلك طلب من مساعده أن يرسل برقية إلى باريس قال فيها: «لقد انتهت المهمّة. إن زعماء العشائر متعاطفون مع فرنسا. لم ينبسوا ببنت شفة عن قتلاهم».

٢٥- التلميذ الراهب

وصل إلياس إلى دمشق في وقت متأخر من المساء. فقد توقفت الحافلة كثيراً على الطريق بسبب أعطالها الكثيرة التي لم يستطع السائق العديم الخبرة فعل شيء حيالها سوى كيل الشتائم واللعنات على المحرّك. لكن قبل وصولهم إلى دمشق بحوالي عشرين كيلومتراً، تعطلت الحافلة تماماً. فاستشاط السائق غضباً وراح يرمي الحافلة بالحجارة ويلعن أمّها.

واضطر جميع المسافرين أخيراً إلى الانتقال إلى شاحنة صادف مرورها في الطريق، وشاركوا في رحلتهم عشرين غنمة في الجزء المخصص لتحميل البضائع. شعر إلياس بالقرف لأنه كان يبدو أنّ غنمة مصابة بالإسهال فامتلأت أرضية الشاحنة النتنة بالأوساخ.

كان على سائق الشاحنة أن يسلّم الأغنام إلى أماكن متعددة وفي اتجاهات مختلفة، فكان يختفي في البيت الذي يسلم إليه بضاعته لاحتساء

twitter @baghdad_library

الشاي، بينما يرغم المسافرون على انتظاره في الشاحنة الحارة.

كان إلياس منهكاً يتصبب عرقاً عندما قرع باب الدير أخيراً. رأى عبارة محفورة بأحرف لاتينية عند مدخل الدير تقول: *"Omnia ad maiorem Dei gloriam"* لم يفهم كلمة واحدة منها. خلال انتظاره تذكر أخته ملكة وصلّى من أجلها.

فتح راهب الباب. ابتسم لإلياس. «كنا قلقين عليك، أرجو أن لا يكون قد أصابك مكروه؟» قال بصوت ناعم، وقدم نفسه بأنه الأخ أندرياس.

بهذه الكلمات بدأ الزمن الذي وصفه إلياس لاحقاً بأنه «أسعد أيام حياتي». فقد كان الدير يسوده الهدوء والسلام فضلاً عن الانضباط والنظافة. لم يضربه ولم يشتمه أحد. والأهم من كل ذلك أنه لم يعد أحد ينقل عنه أخباراً إلى الرجل الذي لم يكن يعتبره أباً، إنما مدعياً عاماً وحارس سجن في وقت واحد، وأصبح يتناول قدراً كافياً من الطعام، ويعامل باحترام وبجدية، مع أنه لم يكن سوى طفل. كان إلياس تلميذاً مجتهداً، وهنا أيضاً أخذ يتفوق على أقرانه في الصف في معظم المواد، ولم يستثره أو يضربه أحد من التلاميذ لتفوقه عليهم. وكان يبدي موهبة خاصة في مادة الرياضيات. بعد سنتين، طلب منه الأب صموئيل سيبات، العبقري في الرياضيات، الانضمام إلى المجموعة التي شكلها لدراسة الرياضيات العليا. إذ كان يجمع حوالي عشرة من طلابه كلّ يوم خميس ويحاولون، بمساعدة الأب صموئيل نفسه، حلّ أعقد مسائل الرياضيات التي لا تزال تحيّر العالم. كان إلياس الفتى الوحيد في المجموعة الذي لا يزال في عمر تلاميذ المدرسة.

بعد سنة من وصوله إلى دمشق، اندلعت ثورة كبيرة ضدّ المحتلين الفرنسيين في جنوب سوريا. وقيل آنذاك إن البريطانيين يساعدون الثوّار ضدّ الفرنسيين. إلا أن ذلك كان بعيداً عن أسوار الدير وعن إلياس أيضاً. وتعلّم الصبي العزف على البيانو وأصبح يتحدث الفرنسية بطلاقة وبلكنة مثالية.

لم يكن يرغب في قضاء أي عطلة مع أسرته، مع أنه كان يستطيع أن

يعود إلى البيت بين سنة وأخرى. وابتهج أساتذته لأنه فضّل مواصلة دراسة اللغتين اللاتينية والإسبانية بدأب شديد، حتى قيظ الصيف في المدينة لم يكن يبعده عن كتبه.

لم يأخذ عطلة إلا بعد سبع سنوات من دخوله الدير. كان ذلك في صيف ١٩٣١، عندما أخذ إجازة لمدة أسبوعين لحضور حفل زفاف شقيقه سلمان في معلا. كان معلّموه سعداء بذهاب هذا الراهب المبتدئ، المؤمن، الذكي، في إجازة قصيرة للاستمتاع والاسترخاء.

لم يكن إلياس مهتمّاً بحفل الزفاف بأي شكل من الأشكال، ولم يكن ليذهب لو لم ترسل له ملكة رسالة سراً، قالت له فيها إنها تريد أن تكلمه في أمر ما لأن تغييراً كبيراً على وشك أن يطرأ في حياتها.

بعد أن قضى ثلاثة أسابيع في معلا، عاد ثانية، صامتاً ومكتئباً. فقد طرأ عليه تغير كبير. وبغتة فَقَدَ أي اهتمام بحياة الدير، لكن لم يعرف أحد سبب ذلك.

قبل زفاف سلمان بعدة سنوات، حدثت أشياء كثيرة في معلا، وهذه القصّة يجب أن تحكى الآن.

٢٦- كيف نال مشتاق الشرف

في نهاية تموز ١٩٢٥، وبعد انطلاق الثورة في جنوب البلاد، توقع جورج مشتاق أن تنتشر الثورة وتؤثّر سلباً على معلا. قلق على ابنه الثاني، حسيب، الذي كان ذكياً لكنه لم يكن شجاعاً، فأرسله أولاً إلى مدرسة داخلية يديرها اليسوعيون في بيروت ليكون في مكان آمن. وعندما نال شهادة الثانوية، أراد والده له أن يدرس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت.

عندما تحقق لمشتاق ما أراد، تنفس الصعداء وأحسّ بأنه أكثر حرية. بعد أن غادر إلياس وحسيب البيت لم يبق معه في البيت أحد إلا ابنته ملكة الجريئة ذات الخمسة عشر ربيعاً، وابنه البكر سلمان الذي بلغ السابعة عشر

twitter @baghdad_library

من عمره والذي كان جورج يحبّه كثيراً. فمنذ طفولته، أبدى الفتى اهتماماً كبيراً بالمزرعة، وتكوّنت لديه الآن خبرة جيدة في الزراعة. كانت عيناه زرقاوين مثل عيني أمّه، وقلبه جريئاً مثل قلبها أيضاً. أما من جانب أبيه فقد ورث طباع أبيه في الكتمان وقلة الكلام، والسلوك الأكثر رصانة. وعلّق جورج مشتاق كلّ آماله على ابنه البكر لكي تزداد العشيرة قوة، وتصبح العائلة الأقوى في معلا في المستقبل القريب.

لكن في أعماق قلبه، كان مشتاق يحبّ سلمان أكثر من أبنائه الآخرين لأنه الطفل الوحيد الذي منحته إياه زرقا أيام حبّه اللاهب لها. أما أولاده الآخرون فكانوا يحملون علائم الكراهية التي أظهرتها زرقا لزوجها لاحقاً.

كان حسيب ذكياً، لكنه شديد الغيرة. فقد كان يغضب إذا لمس أحد أمّه، ويشتعل غضباً إذا دُلل طفل آخر أكثر منه. أما ابنته ملكة فقد ورثت داء الصرع من أمّها وطبعها الجامح، كأن الشيطان قد تلبّسها هي أيضاً، الشيطان الذي استحوذ على روح زرقا. كانت ملكة فتاة جامحة وعنيدة. وعندما أعجب بها أحد الغرباء قال إنه مستعد لينتظر حتى يتزوّج سلمان، وافق جورج مع أنه اعتبر أن الشاب أحمق. أما إلياس، فله أير مثل أير حمار يثير غثيان جورج، ولم يكن يهاب شيئاً في العالم. ومثل أمّه كان مزاجياً يفسد كلّ شيء في اللحظة الخاطئة.

لم يرث سلمان، ابن الحبّ البريء، منه، هو جورج مشتاق، قوة شخصيته ومزاجه وطبعه الحازم فحسب، بل امتلك أيضاً أجمل عينين في العالم: عينا زرقا.

في تلك الفترة، أشيع أن بعض قطاع الطرق قد استغلوا الاضطرابات لتحقيق مآربهم الخاصة، وأنهم يتحاشون المدن الكبيرة لتفادي الاشتباك مع الفرنسيين فراحوا يهاجمون القرى المسيحية الغنية، يقتلون رجالها ويغتصبون نساءها.

عندما سمع الأهالي هذه القصص تملكهم الذعر، وانطلق وفد إلى

دمشق من معلا مؤلف من مختار القرية والكاهن وعدد من الرجال المهمين ليطلبوا من الحاكم الفرنسي توفير الحماية للقرية.

انطلقت الحافلة فجراً. لم يكف جورج مشتاق الذي رافق الوفد عن مجادلة الكاهن الكاثوليكي طوال الطريق. إذ كان الكاهن يعتقد بأن الفرنسيين سيرسلون بعض جنودهم لحفظ الأمن إذا سمعوا أن قرية مسيحية، معرضة للخطر.

عندما وصلوا إلى دمشق في حوالي الساعة التاسعة، دفع جورج مشتاق أجر الرحلة عنهم جميعاً. وقال لموبات إنه لن يرافقهم في مسعاهم الفاشل وسيتناول طعام فطوره في أجواء هادئة في مطعم فينيسيا خلال ذهابهم لزيارة الحاكم لعرض قضيتهم عليه، وأضاف متهكماً أنّهم سيكونون على الرحب والسعة في المطعم بعد أن يطردهم الحاكم من مكتبه.

في حوالي الساعة الثانية عشرة، عادوا يجرّون أذيال الخيبة وراءهم. فقد قالوا إن الحاكم سخر منهم وأوصاهم بأن يعتنقوا الإسلام، وقال إنه شخصياً ليس لديه جنود يستطيع إرسالهم لأن الثوّار أصبحوا يهدّدون ضواحي دمشق الجنوبية.

ابتسم مشتاق ودعا أعضاء الوفد إلى الغداء. وبينما كانوا يتناولون الحلوى والفواكه بعد الوجبات الدسمة، دنا رجل في الثلاثين من العمر من مائدتهم. عرّفه جورج عليهم بأنه يدعى أحمد طرابيشي. وقف الشابّ لوهلة متشنجاً ببدلته الأوروبية، وطربوشه الأحمر، وأعطاه جورج طلباً بمائة بندقية من طراز ماوزر. وضع مشتاق يده في جيبه وأخرج كيساً صغيراً من المخمل ووضعه على الطاولة وقال: «هذه خمسون ليرة ذهبية، وستحصل على الخمسين الأخرى عندما تسلّم البنادق. لكنك ستأسف كثيراً إذا كانت بينها بندقية واحدة معطوبة، لأنني سأحطم جمجمتك، أنا بنفسي».

«يمكنك أن تعتمد عليّ يا سيدي، كالعادة»، قال التاجر بهدوء. تناول الكيس وقبّل يد مشتاق الممدودة واستأذن بالانصراف، وأسرع مبتعداً. أخذ رجال معلا يرمقون رفيقهم الغامض جورج صامتين بإعجاب ورهبة.

twitter @baghdad_library

«لقد استقبلتموني عندما كنت محتاجاً، ووعدتكم آنذاك بأن جورج مشتاق لا ينسى شيئاً»، قال بجفاف وبشيء من التجهم.

«هل أنت واثق من أن الرجل لن يهرب بهذا المبلغ الكبير؟» سأله الأب يوحنا.

«لقد تعاملت مع والده في التجارة في الماضي. إن مبلغ خمسين ليرة ذهبية يعتبر مبلغاً زهيداً بالنسبة لعائلة طرابيشي».

«كيف يمكنني مكافأتك على ذلك؟» سأله حبيب موبات. لكن مشتاق لم يحر جواباً، لأنه لم يكن ينتظر شعوراً بالامتنان من رعاياه.

*

كان السوق يقام يوم الجمعة في معلا، حيث يأتي عدد كبير من المزارعين من القرى المحيطة لبيع دجاجاتهم وخيولهم وحملانهم ومحاصيل الزيتون لديهم. ويأتي آخرون من القرى البعيدة في السهول التي تزرع فيها جميع أنواع البطيخ والتوت.

في أحد أيام الجمعة من أواخر صيف ١٩٢٥، توقّف في السوق مزارع يقود عربة يجرّها حصان، محمّلة بكمية كبيرة من البطيخ. سأل المزارع عن منزل مشتاق. ثم اختفى هو وعربته خلف البوّابة الضخمة. عندما خرج بعد عدة ساعات، كانت العربة فارغة. وسرعان ما عرف المختار أن المئة بندقية الألمانية من طراز ماوزر قد وصلت، بالإضافة إلى مئة صندوق من الذخيرة.

كان ذلك الشتاء شديد البرودة، لكن بركاناً كان يعتمل في روح مشتاق. وفي ربيع ١٩٢٦ أحس أن انتظاره قد شارف على نهايته لكن أهالي القرية الآخرين ظنوا أنه أساء تقدير الوضع. وقد زاد من يقينهم إشاعات سرت عن وصول سبعين ألف جندي فرنسي إلى سوريا، مدجّجين بالسلاح، وأنه سيتم فرض القانون وسيستتب النظام قريباً، لم يوافقهم الرأي، وقال لهم إنه عندما ينسحب الثوّار وقطاع الطرق فارين إلى الجهات الأربع، يجب أن تكون معلا على أهبة الاستعداد.

لكن معظم أصدقاء المختار لم يكونوا يفكّرون بالطريقة التي يفكّر بها: فقد كان مشتاق الشخص الوحيد الذي لم يكن مستعداً للاعتراف بأن شراءه للسلاح كان خطأ. وراحوا يتهامسون من وراء ظهره بأن العزلة التي يعاني منها منذ وفاة زوجته جعلته يشعر بالمرارة، وأن كراهيته للمسلمين أعمته. وعندما كانوا يفكّرون بالمبلغ الكبير الذي دفعه ثمناً لتلك الأسلحة، كانوا يضحكون في سريرتهم.

رجل واحد فقط لم يضحك، وهو يوسف شاهين، عدوه اللدود. فهو أيضاً لم يكن يعتقد أنّ قطاع الطرق سيهاجمون معلا، لكنه عندما سمع بوجود بنادق في بيت خصمه، جلب أسلحة عبر جبال لبنان، وبعد الحديث الذي دار بينه وبين رئيسة دير مار تقلا الأرثوذكسي، خزّنها في الكهف هناك.

«لتبارك القديسة تقلا الأسلحة»، قال لرئيسة الدير وهو يهمّ بالمغادرة، ووضع يداً تشي بالود على ذراعها، «ولتوجّه الطلقات المنبعثة إلى قلوب أعداء المسيح»، ثم ابتسم، لأنه كان متيقناً من أنها تظن أنه يقصد المسلمين. أما في رأيه فلا يوجد عدو للمسيح أكثر من مشتاق.

مضى الصيف بطيئاً. كان الهواء حاراً ومغبرّاً. لم يشعر جورج بالرغبة في الخروج إلى ساحة القرية. كان الرجال الآخرون يرمقونه بنظرات خبيثة ساخرة لأنه لم يسبق أن نعمت معلا والمنطقة المحيطة بها بهدوء وسلام كما نعمت به في هذه السنة. حتى في القرية نفسها، فقد أصبح الناس في هذه الأيام يتعاملون بمودّة أكثر من المعتاد.

وتساءل جورج مشتاق أليس من الحكمة معالجة الأمر كما يفعل عدوه اللدود بمنتهى السرية. ولم يكن الكثير من الناس يعرفون شيئاً عن كمية الأسلحة الكبيرة المخزنة في الدير.

في نهاية آب أفاق من كابوس وهو غارق في العرق. كان النهار قد بدأ يطلع، والأطفال لا يزالون يغطون في النوم. ارتدى ملابسه وغادر البيت حاملاً مسدّسه وعلّق منظاره في حزامه. كان الظلام لا يزال مخيماً عندما

twitter @baghdad_library

وصل إلى البوابة. التفت يساراً، كأنه يعرف أن أحداً يراقبه. تنفس خادمه باسل، الصعداء ولوّح من نافذة الكوخ الصغير الذي يقيم فيه في فناء البيت. كان باسل يحرس البيت أفضل مما تحرسه الكلاب الثلاثة التي تجوب أطراف البيت بحرية في الليل. أصبح بإمكان مشتاق الآن أن ينام باطمئنان بعد أن تيقن من أن لا شيء يمكن أن يفلت من عيني باسل الذي أعطاه بندقية ورخصة تسمح له بإطلاق النار على أيّ متطفل، لأن عداءه الدموي لعائلة شاهين لم يدع له أدنى درجة من الإهمال.

بعد فترة وجيزة عرفت القرية بأسرها بالأمر، فعندما حاول شابّان الاحتيال على الحارس ويبدو أنهما تراهنا على عمل ذلك، أطلق باسل النار عليهما من بندقيته من دون إنذار وأصابهما في مؤخرتيهما. وتعين عليهما تحمّل سخرية القرويّين لأسابيع عديدة. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يجرؤ أحد على دخول فناء البيت الكبير دون الإبلاغ عن قدومه مسبقاً. حتّى عندما قُدّمت شكوى للشرطة وجاءت لتفتيش المكان، كان رئيس مخفر الشرطة قد أبلغ مشتاق قبل يوم من عملية التفتيش بأن فرع مكافحة المخدرات سيأتي من دمشق لمداهمة بيته في الصباح الباكر بحثاً عن السلاح مدعياً أنهم يبحثون عن الحشيش.

تقدمت ثلاث سيارات جيب في الشارع الهادئ صوب البيت عند الفجر. جلب رجال الشرطة العشرة معهم أزاميل وفأساً كبيراً ومنشاراً لإزالة أيّ عائق قد يعترضهم. لكن البوابة كانت مشرعة، والكلاب قابعة في أماكنها ومربوطة بجنزير متين. بوجه متجهم للمفاجئة، فتّش الضابط أرجاء البيت مع رجاله، لكنهم بالطبع، لم يجدوا شيئاً.

«إن جورج مشتاق يعمل في تجارة أيّ شيء لجمع المال، لكن لا يمكنه أن يتاجر بالحشيش، لأن ذلك يحطّ من قدره»، قال جورج لضابط الشرطة، وأضاف أنه «يعرف ذلك اللقيط الذي قدّم ضد رجل شريف هذه الدسيسة». كان يتحدث عن نفسه دائماً بصيغة الشخص الثالث عندما يوجّه كلامه إلى شخص يعتبره أدنى منه في المرتبة الاجتماعية.

لم ينبس الضابط الذي انزعج لعدم عثوره على شيء بكلمة. احتسى القهوة التي قدمتها له مدبرة المنزل، وعندما همّ بالمغادرة، وضع في جيبه بكل امتنان الليرات العشر، التي دسّها مشتاق في يده وهو يقول بنبرة تكاد تكون أبوية، «اشترِ بها قليلاً من الحلوى لأطفالك». أمسك الضابط يد سيد البيت القوية وهمس، «يوسف شاهين». فهزّ جورج مشتاق رأسه.

كان ضابط فرع مكافحة المخدرات يعرف أن الإفشاء باسم الدساس قد يفضي إلى وقوع جريمة قتل، لكنه كان يكره الفلاحين والرائحة التي تنبعث منهم. أما في المدينة فكان من المستحيل أن يكشف عن هوية الرجل الذي قدّم الشكوى حتى لو قدمت له أموال العالم كلها.

مضت سنتان على هذه الحادثة. ومنذ ذلك الحين، كان رجال مشتاق يبذلون أقصى ما بوسعهم ليكيلوا ليوسف شاهين الصاع صاعين، لكن سيدهم لم يكن يعجبه كل ما اقترحوه عليه. فلم يكن يريد خيولاً أو حظائر ولا بيت عدوه، بل كان كلّ ما يريد أن يفعله هو أن يوجّه له ضربة في مقتل حتى يصمت هذا الوغد إلى الأبد.

في صباح ذلك اليوم من أواخر عام ١٩٢٦، عندما خرج مشتاق عند الفجر، وأغلق البوابة وراءه وسار باتجاه الفج الضيق الذي يعبر الجدار الصخري المحيط بالقرية كالسوار، كان السكون يخيم على المكان، أما عقله فكان يغلي. راح يغذّ الخطى. كان العرق يتصبّب منه. بعد قليل، بدأ يشعر بصعوبة في التنفس لأن الدرب بدأ يزداد ارتفاعاً ووعورة.

كان ذلك قبل نصف ساعة من بلوغه قمة الجدار الصخري الذي تقبع معلا في ظلّه، ومن موقعه، امتد أمامه مشهد بانورامي مترامي الأطراف. كان لا يزال يتنفس بصعوبة. رفع منظاره واستدار جنوباً. تحرّكت شفتاه الجافتان. وبصوت لا يكاد يكون مسموعاً قال: «أعرف أنك قادم. ها أنا ذا، هيا تعال. ستجد قبرك هنا. أعرف أنك ستأتي!» كان صوته مشوباً بنبرة توسل.

لكن المشهد البعيد خيّب أمله، فقد كنست الشمس المشرقة اللون

twitter @baghdad_library

الرمادي من السماء، وحلّ مكانه لون أزرق خفيف. أما جورج مشتاق فلم يشعر بشيء سوى بفراغ طاغ. أنزل يده التي تحمل المنظار وتطلّع حوله ثم عاد إلى البيت بخطى وئيدة.

بدأت المقاومة في جنوب البلاد تخبو يوماً بعد يوم. هكذا سمع الرجال الذين تجمّعوا في بيت المختار الأخبار في المذياع، فتنفّسوا الصعداء. بعد يومين، عندما أخذت بريطانيا العظمى موقفاً رسمياً معادياً للثوّار الهاربين ووقفت إلى جانب فرنسا، انهارت الثورة برمتها.

انسحب مشتاق إلى بيته وقبع في غرفة نومه المعتمة. قلق ابنه سلمان عليه كثيراً، لكن ملكة طمأنته وقالت إن والدهما العجوز في صحة جيدة، وأنّ قلبه مفعم بالتوق إلى شيء، لكنّ أياً منهما لم يكن يعرف حتى هي، ما هو ذلك الشيء. ولم يكن لهذا الشيء هذه المرة، على الأقل، علاقة بشاهين. فقد كان يريد أن ينتقم من أحد ما، أن يصفّي حساباً قديماً معه، وأنه تعب من هذا التوق لأنه يخشى أن يأخذه معه إلى القبر قبل أن يحققه.

في عصر أحد أيام أيلول خرج من غرفته وجلس على المقعد خارج البيت وأخذ نفساً عميقاً وقال: «سيأتون قريباً».

«من هم الذين سيأتون قريباً؟» سأله سلمان الذي كان يرتق خرقاً في سرج على الشرفة. كان يزمع الذهاب على الحصان لقطف بعض عناقيد العنب الناضج. فقد كان أفضل عنب في معلا هو العنب الذي ينضج في أيلول الذي يشبه طعمه قطرات العسل وتغلفه قشرة رقيقة وتفوح منه رائحة عطرة.

«قطاع الطرق. فقد هاجموا دايسا اليوم وسلبوا القرية ونهبوها وأضرموا النار في دير القديسة مريم. لقد سمعت ذلك في المذياع. لقد قتل هؤلاء الأوغاد خمسين رجلاً وخطفوا أكثر من عشرين امرأة»، أجاب والده بقدر من البهجة.

«من هو؟ وماذا فعل الفرنسيون؟» سألت ملكة، وهي تحرّك ملعقة العسل في شاي النعناع الذي تحتسيه.

«إنه حسن كشاط، ومَنْ غيره؟» أجاب والدها، سارحاً، ثم هزّ رأسه وأضاف «الفرنسيون، آه، تباً للفرنسيين».

«أظن أنك تعرف حسن كشاط، صحيح؟» سأل سلمان. فقد كان يعرف أنّ والده يكره الرجل لكنه لا يعرف السبب.

«صحيح»، أجاب مشتاق، وضيّق عينيه وأضاف «أعرفه جيداً وأرجو أن يخطئ ويأتي إلى معلا. لكنّكما لن تفهما ذلك يا أبنائي»، اضاف لكي ينهي الموضوع.

بعد يومين، في الرابع عشر من أيلول، احتفلت القرية بعيد الصليب المقدّس. وصل مختار القرية إلى المكان الذي أوقدت فيه النار برفقة الإمام يونس القادم من بلدة قريبة، ومحمد عبد الكريم، زعيم عائلة الرفاعي، إحدى أقوى العشائر المسلمة في البلاد التي تقيم في قرية عين الجوزة التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن معلا. كان المختار يريد أن يثبت أن جميع الأديان تعيش بسلام مع بعضها بعضاً.

لم يشارك مشتاق في الاحتفالات، فقد كان منهمكاً في تشحيم البنادق المئة وراء أبواب موصدة مع سلمان وملكة وخادمه المخلص باسل. ثمّ لفّ الأسلحة بعناية بقطع من الكتّان ووضعها في صناديق خشبية، خمس بنادق في كلّ صندوق. كان قد أعطى كل رجل من رجاله العشرة الآخرين عشرين قرشاً، ومنحهم إجازة في هذا اليوم للاحتفال كما يحلو لهم وأمضى المساء كله وهو يلعن شخص مختار القرية المهادن والمرائي، ولم يسمح لسلمان وملكة مشاركة أهالي القرية الصاخبين في ساحة القرية، إلا في ساعة متأخرة من الليل.

لم يبق معه إلا خادمه باسل الذي لم يترك سيده وحده، مع أنه سمح له بالذهاب. كان مشتاق يحبّ خادمه المطيع الذي كان في كثير من الأحيان أقرب من أبنائه إليه ويفهمه أكثر منهم جميعاً. كان باسل يتيماً ونشأ في كنف عائلة مشتاق، وكان يبجّل كبير العشيرة كثيراً.

كان سلمان وملكة سعيدين بوجودهما في صحبة الشباب الآخرين

twitter @baghdad_library

أخيراً. فقد تحلّق الجميع حول النار الموقدة في ساحة القرية. كان الوجيهان المسلمان يشاركان في الاحتفالات أيضاً، ويستمتعان بوجود الفتيات المبتهجات اللاتي بقين في الساحة وكن يختلطن بالرجال حتى ساعة متأخرة من الليل. وكانت إحدى تلك الفتيات تختفي أحياناً في الظلام مع أحد الشبان ثم تعود بعد قليل وهي تضحك. كان معظم الأطفال لا يزالون مستيقظين.

افتقد الجميع حضور مشتاق الذي كان يقدم عادة كميات كبيرة من النبيذ ويشوي ثلاثة حملان على السفود في هذه المناسبة السنوية، لكن حتى عندما قرع المختار البوابة ودعاه للانضمام إليهم في الساحة، أجاب بجفاف بأنه لا يرغب في الاحتفال بشيء، ولم يفتح البوابة.

بعد ثلاثة أيام، وكان يوم أحد، هبّت ريح شمالية باردة على ساحة القرية، وفاحت في الهواء رائحة الثلج. وفجأة، أثناء الصلاة في كنيسة القديس جاورجيوس، دخل راعٍ يجري في ممر الكنيسة.

«إنهم قادمون، إنهم قادمون!» صاح، ملوّحاً بيديه في الهواء. قطع الكاهن صلاته، لكن ليس قبل أن ينهي الابتهال الأخير من ترتيلة «يا رب ارحمنا».

«هدئ من روعك يا بني. من هم القادمون؟»

«قطاع الطرق. فقد اسودّ السهل كله بهم. كنت قد خرجت عند الفجر متجهاً إلى التلّ وراء الطاحونة مع أغنامي. عندما رأيتهم، لم أصدّق عينيّ».

كان الرجل يلهث بصوت صاخب بعد أن خيّم صمت قاتل على الكنيسة المزدحمة. أَسْكَتَ أحدهم طفلاً يبكي، ولم يعد يُسمع شيء سوى نشيج المصلين وراء أيديهم.

«كم عددهم؟» سأله المختار.

«بالآلاف. إنهم يتقدّمون في الوادي كله على امتداد جبهة واسعة»، أجاب الرجل، راسماً خطاً أفقياً في الهواء بيده.

نهض مشتاق من مكانه في المقعد الأمامي الطويل، صعد إلى المذبح،

رسم شارة الصليب واستدار. نظر من فوق رأس مختار القرية، وقال بصوت هادئ، ثابت: «إني أحتاج إلى رجال شجعان على صهوات خمسة خيول جيدة لصدّ هجوم قطاع الطرق هناك بينما نأخذ نسائنا وأطفالنا إلى الكهوف في الصخور العالية».

نهض عشرون رجلاً بخفة وتبعوه إلى البيت، وتُرك مختار القرية منبوذاً. مع أنه بلغ الستين، فقد شعر في تلك اللحظة بأنه أصبح أكبر وأضعف من نسرين، الأرملة البالغة من العمر تسعين عاماً، الجالسة في المقعد الخلفي في الكنيسة.

حتى قبل أن يصل مشتاق إلى بيته، بدأت جميع أجراس الكنيسة تقرع. كانت تلك إشارة قديمة للدلالة على الخطر. خرجت جموع الناس واتجهوا نحو ساحة القرية. كان العديد منهم خائفاً لكن لم يكن هناك إحساس بالرعب في أي مكان.

وقف عند بوابة بيته لاختيار الرجال الذين سيحملون السلاح. كان سلمان يسجل أسماء الرجال الذي أصبحوا مستعدين، حاملين بنادقهم بأيديهم ثم انطلقوا إلى التلال المطلة على القرية من الجنوب.

كانت معلا قرية مسيحية غنية. وأصبحت بتربعها فوق الجبال محمية جيداً من معظم المغامرين الذين جابوا البلاد على مدى أربعمائة سنة من الحكم العثماني، ينهبون ويسلبون ويشعلون النيران. كما نجا سكانها من البدو الذين كانوا يهاجمون القرى في الوادي في موجات متلاحقة، محاولين بغزواتهم النجاة من الموت جوعاً. لذلك أصبحت معلا جوهرة بين القرى. حتى في عشرينيات القرن العشرين، وصلت إليها الكهرباء والماء، وأقيمت فيها أربعة مقاهي، وهاجر العديد من أبنائها إلى أمريكا وكندا وأستراليا وكانوا يرسلون نقوداً إلى القرية. كان دير القديس جاورجيوس ودير مار تقلا مشهورين بمعجزاتهما، وكان المسيحيون الأغنياء من جميع بلدان العرب يأتون ليطلبوا من القديسين شفاء أطفالهم ونجاحهم، وكانوا يقدمون تبرعات سخية، وحوّلوا البيوت الدينية هذه إلى قلاع غنية.

twitter @baghdad_library

كان قطاع الطرق يعرفون ذلك، وكانوا يهبطون كالجراد الذي ينطلق من أماكن غير معروفة ويلتهم كل شيء، قبل أن يعود ويختفي فجأة. كانت قد وقعت أحداث مشابهة في الأعوام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و١٨٦٠ واشتهرت معركة عام ١٨٦٠ في أرجاء البلاد لا لأن القرية الصغيرة صمدت مدة أربعة أسابيع عندما حاصرها أكثر من ثلاثة آلاف رجل من رجال العصابات المدججين بالسلاح فقط، بل لإنها جعلتهم يولون الأدبار. كان نصراً ساحقاً لأن قطاع الطرق كانوا يتحاشون معلا منذ ستّ وستين سنة، حتى الآن.

سرعان ما سُمع صوت الطلقات الأولى التي أطلقها الخيالة القابعون في التلال على قطاع الطرق. أما في القرية، فقد كان صفّ الرجال المنتظرين عند بوابة بيت مشتاق طويلاً، حتى مختار القرية تعين عليه أن ينتظر دوره، فقد أُعطى بندقية، لا بمراسم جدّية ورسمية كما كان يأمل، ولا بطريقة جلفة كما كان يخشى. سلّمه مشتاق البندقية دون أن ينبس كلمة، وكان يتطلع إلى الشخص التالي.

كان المختار حبيب موبات يحسد جورج مشتاق على خدمه ورجاله الذين يبدون له طاعة عمياء كالكلاب. أخيراً، طوى مشتاق القائمة التي قدمها له سلمان بعناية وأعادها إلى ابنه وقال: «جميعهم مدينون لك. يمكنك أن تذكّرهم دائماً بذلك لاحقاً»، وأضاف، «لأن الإنسان حيوان كثير النسيان؟»

خرج مع ابنه إلى ساحة القرية رافع الرأس وهو يحمل على كتفه بندقية ماوزر. قبّل الكثير من الرجال يده بحماسة كما لو كان قدّيساً وشكروه على إعطائهم البنادق. ثم وقف هناك ساكناً، يصيخ السمع لسماع الأصوات البعيدة.

فجأة، رأى صفّاً شكّله الرجال في الحيّ الأرثوذكسي. كانت عائلة شاهين توزّع البنادق على رجالها الذين جثموا بعد قليل فوق الصخور مثل غربان سود، يراقبون جميع الدروب الشمالية والشرقية المؤدية إلى القرية، بينما أخذ الكاثوليك يحرسون الدروب الجنوبية والغربية المفضية إلى القرية.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، لجأ جميع الأطفال والمسنين ومعظم النساء إلى الكهوف المحفورة في الجدران الصخرية الضخمة المحيطة بالقرية. ومكثت حوالي خمسين امرأة مع الرجال لمساعدتهم في إقامة تلال ضخمة من الأحجار لسدّ النقطة الضعيفة في تحصيناتهم، وهي الطريق المؤدية إلى دمشق.

توجّه مشتاق ممتطياً حصانه صوب التلال حاملاً على كتفه بندقية ماوزر ومنظاره معلق على صدره، فبدت عليه هيئة قائد عسكري.

كان المساء قد بدأ يقترب عندما تمكن الرجال من أسر أول رجل من قطاع الطرق، رجل ضئيل يتكلم بلهجة جنوبية، كان يبدو أنه يستطلع المنطقة لتحديد النقاط الدفاعية في القرية. أشبعه الحرّاس الغاضبون ضرباً وركلاً، وأوشك أحدهم أن يطلق عليه النار ويرديه قتيلاً.

لكن مشتاق أمره بأن يترك الرجل وشأنه. ثم التفت إلى الجاسوس الذي كان يرتجف وقال، «لا تخف، سنعيدك إليهم. لكن أخبرني من هو زعيمكم؟»

«حسن كشاط، يا سيدي»، أجاب الرجل خائفاً.

«هل أنت متأكّد، أم أنك سمعت ذلك؟» سأله مشتاق، قبل أن يهز الرجل رأسه، فتابع مشتاق كلامه وسأله «ما هي العلامة الموجودة على يد حسن كشاط اليسرى؟»

«علامة؟» قال الرجل مندهشاً، «لا توجد علامة على يده اليسرى، فهي مشلولة. أقسم بالله أنني رأيتها. إنه يخفيها بأن يسندها إلى خنجره، لكنها مشلولة».

أشرق وجه مشتاق. «إنك لا تكذب. أحضروا للرجل رغيفي خبز وقليلاً من اللبن الطازج» طلب من رجاله، ثم التفت إلى الأسير، وقال: «حسناً، يا بني، ستأكل الآن تحت حمايتي ثم أُريك ماذا يمكن أن يتوقع أصدقاؤك هنا. بعدها يمكنك أن تعود إلى زعيمك حسن باشا كشاط وتقول له: إن الرجل الذي شلّ يدك اليسرى ينتظرك. هل تفهم؟»

twitter @baghdad_library

«الرجل الذي شلّ يدك اليسرى ينتظرك»، كرّر الرجل ليثبت لمشتاق أنه حفظ الرسالة عن ظهر قلب. كان صوته يرتعش من الخوف.

بينما كان يتناول بنهم اللبن الذي أحضروه له، انطلق مشتاق وأمر جميع الرجال الذين سيمرّ بهم الجاسوس إخفاء وجوههم، وتغيير أماكنهم عندما يمرّ بهم والانتقال إلى أماكن أخرى لكي لا يتمكن من تقدير العدد الحقيقي للرجال المقاتلين. وبعد هبوط الليل أطلق سراح الجاسوس الذي أخذ يجري في الظلام هابطاً سفح الوادي.

«هل سينسحب حسن كشاط عندما يعرف أنك هنا؟» سأله سلمان في صباح اليوم التالي.

«لا، سيبقى»، أجاب مشتاق. لم يكد ينهي كلامه حتى فتح المحاصرون النار، فردّ عليهم الرجال المحصنون في معلا، وأخذ رجال حسن كشاط، الذين على الرغم من أنهم تكبدوا خسائر كبيرة، يقتربون أكثر وأكثر. سقط أول قرويّ في حوالي الساعة العاشرة صباحاً. كان توما، أحد جزّاري القرية الثلاثة في معلا، الذي أصيب برصاصة في جبهته عندما كان يحاول الوقوف لإحضار صندوق ذخيرة.

عند حوالي منتصف النهار، انطلقت أول قذيفة مدفع فوق رؤوس الرجال وحطّمت إحدى نوافذ كنيسة القديس جاورجيوس. ثم أصابت قذيفة مدفع أخرى الفناء الخلفي لبيت جورج مشتاق وأحدثت فيه حفرة صغيرة. وتحطم لوحان زجاجيان في إحدى النوافذ في مخزن الحبوب. بث انفجار قذائف المدفع الخوف في نفوس القرويين المحاصرين. بدأ بعض الرجال في الخطّ الأمامي يطلقون النار عشوائياً، فردّ عليهم رجال حسن كشاط بمزيد من نيران مدافعهم، وتقدموا مسافة خمسمائة متر من الطاحونة القديمة عند مدخل القرية.

قاتل كلا الجانبين بضراوة طوال عشرة أيام، لكن لم يتمكن أي منهما من إحراز أي تقدم. لم يتمكن قطاع الطرق من تحقيق أي تقدّم باتجاه القرية وظلت الحلقة الدفاعية راسخة كالصخر. لم يعد الوادي الذي لم يكن شديد

الانحدار والذي كان قريباً من القرية نفسها يوفر غطاء جيداً للعدو.

لم يتمكن المدافعون عن معلا اختراق السور الذي أقامه أعداؤهم من الصخور وجذوع الأشجار، وتحصّن رجال كشاط في مواقعهم. كان وجه مشتاق يزداد تجهماً يوماً بعد آخر، وطلب أخيراً من حبيب موبات أن يستدعي جميع وجهاء القرية.

«ويوسف شاهين أيضاً؟» سأله مختار القرية.

«هو أيضاً»، أجاب مشتاق بجفاف. فشحب وجه المختار.

كلّم مشتاق الرجال المجتمعين بحدّة، ولم ينظر لثانية واحدة إلى منافسه. بل اكتفى بمصافحته. كان ذلك هو الشرط الذي اشترطه الكاهنان، الكاثوليكي والأرثوذوكسي. لكنه شعر بتردّد شاهين في المصالحة، كانت يد الرجل باردة كما لو أن الدم قد جفّ منها.

أخبر مشتاق الوجهاء المجتمعين بأنّ الفرنسيين لن يرسلوا أي مساعدة إلى القرية، وقال إنه يتوقّع أن يبقى المحاصرون حتى يموت سكان معلا جوعاً.

انتظر شاهين حتى أنهى الآخرون كلامهم ثمّ قال، «لن يموت أحد جوعاً»، ووجّه نظراته إلى كاهن طائفته الأرثوذوكسية، كما لو أنه لم يكن يعير أي اهتمام لأي شخص آخر وأضاف، «لقد ملأت ثلاثة كهوف في الصخر بالقمح واللحم المجفّف والزبيب والجوز من لبنان، وكهفين آخرين بالذرة الصفراء والعدس والملح وزيت الزيتون، وهذا يكفينا لفترة من الزمن».

في سريرته، كان مشتاق يحترم عدوه الهادئ. فقد نقل شاهين كلّ تلك الكميات من الطعام إلى الكهوف، دون أن يلحظ أحد في القرية ذلك. كان الجميع يعرفون أنه مهرّب محنك، وقيل إنه غطّى حوافر دوابه بقطع من القماش حتى لا يسمع حرس الحدود وقع حوافرها. «غداً»، واصل شاهين، «يستطيع كلّ شخص أن يأخذ كل ما يحتاجه. وستشرف راهبات دير مار تقلا على عملية التوزيع».

twitter @baghdad_library

تمالك مشتاق نفسه بسرعة وقال للرجال المجتمعين قبل أن يتفرّقوا: «وسأحرص على ألاّ يطول هذا الحصار كثيراً».

نهض يوسف شاهين وخرج من دون استئذان، لكن بهيئة شخص منتصر، وانطلق جورج مشتاق عائداً إلى بيته يتبعه ابنه سلمان الذي كان يسير إلى جانبه كظلّه، طوال فترة الحصار.

كان سلمان يتلفت باستمرار، ينظر بارتياب في جميع الاتجاهات، مستطلعاً الأوضاع. وفي اليوم السادس من الحصار وقع هجوم يزعم أن ثلاثة رجال من رجال العدو قاموا به. وأُطلقت رصاصات من مكان قريب جداً من مشتاق، وعلى الرغم من أن مشتاق لم يصب بأذى، فقد هرب الرجال ولم تُعرف هويتهم. لم يكتشف أحد شيئاً عن الحادثة، أو أن طريقهم يفضي إلى الحي الأرثوذوكسي. لكن سلمان خشي أن يحاول أحد من رجال شاهين مرة أخرى قتل أبيه في هذا المعمعة، فبدأ سلمان يحمل مسدّساً تحت قميصه وازداد صلابة، ولم يعد بالإمكان التحدث إليه كثيراً، وساير مشتاق ابنه المتجهم.

انخفض عدد القذائف التي تسقط على القرية كثيراً، وكان لذلك تأثير أقل تدميراً على عقول الفلاحين.

بعد ثلاثة أيام من الاجتماع الذي عقد في بيت مختار القرية، امتطى مشتاق وابنه حصانيهما وتوجّها إلى أبعد نقطة في نقاط الحراسة عند الفجر، وشاهدا معسكر العدو في السهل الذي كان يبدو أنه ينتظر انطلاق إشارة. جذبت خيمة، خيمة كبيرة منصوبة في الجانب البعيد من المعسكر بالقرب من شجيرات الدفلى البرّية، بصر مشتاق على نحو متزايد. كانت الخيمة بعيدة عن مدى طلقات البندقية، يحميها خندقان، بالإضافة إلى بعض الرجال.

في اليوم الثالث والعشرين من الحصار، وقع رجل آخر في أيدي حرّاس القرية، قبضوا عليه في بستان الزيتون أسفل الطاحونة. لم يكن

مسلحاً، وكان متنكّراً في هيئة فلاح من معلا - شروال أسود، وقميص مخطّط وصدرية وكوفية سوداء. ادّعى الرجل أنه رأى رؤية منذ أسبوع، سمع فيها صوت أخيه الذي يعيش في أمريكا منذ قرابة عشر سنوات، وقال إن شقيقه يناديه، فلم يعد يرغب في القتال، واشترى ثياباً من أحد المحاصرين الذي كان قد استولى عليها من أحد فلاحي معلا.

أخبر الرجل الذي طفرت الدموع من عينيه آسريه كيف أن كشاط يعذّب الرجال الذين يحاولون الهرب. وقال إنه خصص بعض الرجال لإطلاق النار على الهاربين، أو إعادتهم إلى المعسكر وتعذيبهم حتى الموت أمام الآخرين.

«وماذا عن الرجل الذي ترتدي ثيابه؟» سأله أحد القرويّين.

«لقد قُتل. إن كشاط لا يأسر أحداً لأنهم يكلّفون طعاماً وماء»، أجاب الرجل بخجل.

فقد رجال معلا أعصابهم، فسحب أحد الشبان سكيناً، لكن مشتاق رفع يده. جفّت كلمات الأسير في فمه ذعراً وشحب لونه.

«إن كنت صادقاً»، قال جورج، متجاهلاً سخط أتباعه، «فإننا سنأخذك إلى الجبال غداً، ومن هناك، تستغرق الرحلة إلى بيروت والبحر يومين، أما إذا كنت تكذب، فإنك ستتمنّى الموت، لا مرة واحدة، بل عشرين مرة». ثمّ جلس على مقعد في وسط الدائرة التي شكّلها رجاله حول الأسير.

«الآن، قل لي شيئاً. إن كنت تكره كشاط حقاً فإنك لا تهتم بما يمكن أن يحدث له. قل لي إذاً متى يغادر حسن كشاط خيمته عادة؟»

«مرة واحدة فقط. ففي منتصف الليل يقوم بتفتيش الجبهة ليتأكد من وجود الحراس في مواقعهم، يرافقه مساعدان اثنان، لا أكثر».

«ما اسم المساعدين؟» سأل جورج مشتاق.

«أحمد استانبولي وعمر عطار»، أجاب الرجل.

«وماذا عن الأخين خيري؟» سأله مشتاق، على دهشة من رجاله.

twitter @baghdad_library

«قتل مصطفى في الأسبوع الأول، وقتل يونس قبل بضعة أيام»، أجاب الأسير.

في تلك الليلة، سار جورج في دروب مخفيّة ملتوية عبر الحقول ذات المصاطب في الوادي الأخضر باتجاه معسكر قطاع الطرق. كان يعرف الدروب الضيّقة كما يعرف راحة يده لأنه كان يضطر أحياناً إلى الذهاب إلى حقوله في الليل لتحويل مجرى مياه النهر الصغير إلى أرضه.

كان مشتاق يحبّ ساعات الليل. ففي النهار، يترك سقاية المحاصيل لرجاله، أما بعد أن يهبط الظلام فكان يحبّ أن يقوم بأعمال السقاية بنفسه. كان يقفز بخفة، من قناة إلى قناة، ويبتسم عندما يتبعه الماء. ويجري أحياناً على امتداد قاع القناة الجاف، منتظراً تدفق الماء الذي ينطلق عبر القنوات قبل أن يندفع بسرعة مثل قطيع من الخراف الجائعة.

في هذا المساء، رافقه ابنه سلمان ونجيب الجريء أصغر أبناء المختار وطانيوس الخباز من الحي الأرثوذوكسي. لا لأن طانيوس كان من أقوى الرجال في القرية فحسب، بل لأن مشتاق أراد أيضاً استخدامه كشاهد لينقل لرجال عدوه شاهين ما يزمع مشتاق أن يفعله في الساعات القليلة القادمة.

حتى بعد مضي عدة سنوات، ظل سلمان يردد كيف أن والده استعاد شبابه فجأة. فقد كان يمشي وهو متّجه لمواجهة عدوه القاتل كشاط بخطوات سريعة واسعة، حتى أن ابنه والرجلين الآخرين وجدوا صعوبة في اللحاق به. بصمت وكالأشباح، تجاوزوا الحرّاس في الخطين الأماميين في تلك الليلة ثم كمنوا لكشاط، الذي خرج حوالي منتصف الليل، هيئة ضئيلة في طريقها إلى أبعد المراكز الأمامية لحرّاسه. كان يرافقه رجلان طويلان.

عندما وصل حسن كشاط إلى شجرة الجوز القديمة قبل وصول رفيقيه بلحظة، وثب سلمان ووالده عليه وألقيا به أرضاً، وقتل المساعدان من معلا الرجلين الآخرين بصمت. فخاف حسن كشاط حتى الموت، ولم يتمكن من طلب النجدة لأن مشتاق كممه بأن حشا فمه بكوفيته.

«أيها الجرذ القذر، ماذا قلت لك؟ سأقتلك، قلت! لقد استغرق ذلك

عشرون عاماً، لكنّي سأقتلك الآن. كنت أنتظر هذه اللحظة طوال تلك الليالي، وها قد أصبحت بين يدي. ستموت مثل كلب فوق مزبلة». صاح بصوت أجش جهوري، وبمساعدة سلمان جرّ زعيم قطاع الطرق الذي بدا مشلولاً إلى كومة الروث التي جلبها إلى حقله قبل بدء الحصار وراء شجرة الجوز.

كانت ليلة صافية وكان البدر متلألئاً. بدا الآن زعيم قطاع الطرق شاحباً على نحو يثير الشفقة. «هل ترى هذا الأسد يا كلب؟» واصل مشتاق، مربتاً على كتف سلمان، ولم يتوقف عن ركل عدوه في كليتيه. «لقد أخذتُ ليلى رغم أنفك، وضاجعتها وأنجبت لي أربعة أطفال، وهذا الأسد هو ابني البكر. انظر إليه! ألا ترى عينيه؟ ألا تشبهان عيني ليلى؟» سأل كشاط ولم يتوقف عن ركله.

هزّ الأسير رأسه وهو يحاول يائساً تحاشي الركلات وهو ممدّد على الأرض.

«ما ذنب أمّي إذا كنت أنا وليلى قد أغرم أحدنا بالآخر؟ لماذا قتلت أمّي؟ وأختي مريم؟ لماذا عذّبتها هكذا؟ أمام عينيّ أمّي»، صاح مشتاق، ثم طعن أسيره بسكين في بطنه ودفعه إلى المزبلة في الأسفل، وسحب الخرقة التي كمم بها فمه. فتح كشاط عينيه واسعاً، وفغر فمه طالباً الهواء وهمّ بالصراخ، لكن قبضة من الروث حُشيت بين فكيه، واستمر مشتاق يطعنه حتى ارتخى جسم ضحيّته. نهض أخيراً، منهكاً وراح يبكي.

عندما أحسّ بيد سلمان على كتفه قال بهدوء: «هيا بنا»، لكن كان لنجيب، ابن مختار القرية فكرة ذكية أخرى. فبعد نقاش قصير، راح أربعتهم يصيحون باللغة العربية، بلكنة سكان الجنوب، «المسيحيون يهاجموننا! لقد قتل زعيمنا حسن كشاط ومساعداه أحمد وعمر! اسمعوا جميعكم! لقد مات زعيمنا! اهربوا وانجوا بأرواحكم».

ببطء في باديء الأمر، ثم على نحو أسرع، تعالت نداءات رجال كشاط وراحت تتردد في أرجاء المعسكر. دبّ الذعر في نفوسهم وعاد مشتاق

twitter @baghdad_library

ورفاقه الثلاثة بسرعة إلى قريتهم. ما إن بلغوا القرية حتى استدعوا جميع الرجال بسرعة وأشعلوا مشاعلهم وانطلقوا إلى الوادي على خيولهم وبغالهم، أسلحتهم في أيديهم. وساقوا أمامهم قطاع الطرق الهاربين، وقتلوا العديد منهم.

عندما طلع النهار، كان الوادي مليئاً بالجثث حتى الطريق إلى دمشق. نُقلت جميع الخيول والأسلحة التي تركوها وراءهم إلى ساحة قرية معلا، بينما وضعت الجثث في أحد الكهوف البعيدة حيث سدوا المدخل بالتراب والحجارة. وكان أحد القتلى لدهشة الكثيرين رئيس عشيرة الرفاعي، محمد عبد الكريم، الذي دأب على المشاركة في احتفالات عيد الصليب. من الواضح أن كشاط كان قد أقنعه بأنهم سيغنمون غنائم كثيرة في معلا.

بدأ الناس يتوافدون على ساحة القرية عند الفجر وعقدوا حلقات الرقص، وشربوا النبيذ، وأخذوا يهتفون ويغنون فرحين، ونسوا الأسير تماماً، لكن مشتاق وجده أخيراً وهو ملقى، يداه ورجلاه مقيدة تحت شجرة تين.

فكّ قيود الأسير، وأعطاه ثلاث ليرات ذهبية وتمنى له رحلة موفقة إلى أمريكا. ثمّ تهالك على المقعد خارج باب بيته، منهكاً وسعيداً، معتقداً بإيمان راسخ بأن الله وحده هو الذي حقق هذا النصر، وأخذ جورج مشتاق يبكي لسموّ هذه الساعة وجلالتها.

٢٧- الأعراس

شيئاً فشيئاً، تسلّم سلمان مهمة زراعة الأرض. في البداية، نفّذ نصيحة أبيه وزرع جميع أنواع المحاصيل: الكرمة، الذرة الصفراء، الزيتون، التبغ، القمح. وشأن جميع المزارعين، ربى الماشية أيضاً. ثم ذهب لزيارة أخيه الأصغر في الدير ورأى راهباً خبيراً في الزراعة، نصح سلمان باستخدام آليات زراعية والانتقال إلى زراعة المحاصيل القابلة للتصدير. أجرى سلمان هذه التغييرات في نهاية عشرينيات القرن العشرين. لكن مشتاق العجوز لعن

سوق التصدير ونصيحة الراهب الفرنسي، واستغرق سلمان سنوات لإقناعه بمزايا الفكرة الجديدة. «إمّا أن تكون مزارعاً كبيراً أو خاسراً كبيراً في هذه الأيام»، قال موضحاً.

وهكذا حوّل المزرعة الواقعة على الطريق المؤدية إلى دمشق إلى مزرعة حديثة، وتخصّص في زراعة الورد واللوز والتبغ والتفاح، وبدأ يبيع براعم الورد إلى مصانع العطور في فرنسا، واللوز إلى مصانع مارصبان، وهي الحلوى المصنوعة من عجينة اللوز والسكر، في شمال ألمانيا، والتبغ إلى هولندا. وعاش سلمان ليلاً نهاراً ليحقق حلمه بتحديث عمله. وكان أول من جلب شاحنة وتركتوراً إلى القرية في البلاد كلها. وسخر القرويون من سلمان، لكن سرعان ما بدأ مزارعون آخرون يتساءلون هل يمكنهم هم أيضاً أن يأخذوا محاصيلهم إلى العاصمة بسرعة وتصل طازجة كما يفعل سلمان فيوفرون على أنفسهم عناء نقل محاصيلهم المضني على حمار وعربة.

مع مرور الوقت، بدأ مشتاق العجوز يثق بابنه، وبدأ يستمتع بالركوب في سيارة الجيب المكشوفة التي يقودها هذا الشابّ القوي، ذو العينين الزرقاوين، الذي لوّحته الشمس، في شوارع القرية.

كانت الشابّات يحببن عيني سلمان الزرقاوين، وكذلك روحه المرحة اللا مبالية. فعندما كان في العشرين من العمر، حاولت فتاة أن تنتحر من أجله. لم تمت الفتاة لكن أهلها أشاعوا بأن سلمان قد حبّلها. لم يعرف أحد صحة هذه الإشاعة. لكن الحقيقة الوحيدة هي أنّها كانت تنتمي إلى أسرة معدمة، وهذا ما أدى أيضاً إلى انتشار إشاعة تقول إن مشتاق العجوز دفع لابن عمها مبلغاً كبيراً من المال حتى يتزوجها بسرعة.

عندما سُوِّي هذا الأمر، قال جورج لابنه آمراً، «ستتزوّج حنان بعد ستة أشهر». لم يكن سلمان يعرف عن قرب تلك الفتاة الشاحبة، ابنة المهندس الغني، لكنّه كان يعرف والدها، فوافق. وحُدِّد موعد الزفاف في أول يوم أحد من شهر آب ١٩٣١.

قرر جورج مشتاق أن تتزوج ابنته ملكة من عادل، تاجر الماشية

twitter @baghdad_library

اللبناني، بعد ستة أشهر. لكن الشيء الذي لم يعرفه هو أن ابنته كانت على علاقة بذلك الرجل منذ سنوات. فعندما كان جورج يذكره، لم تكن تبدي أي اهتمام أو تظهر حتى مشاعر ازدراء لعادل لأنها تعرف أنها إذا أبدت أنها تحبّه، فإن سلمان ووالدها لن يعدما الأسباب لمنع زواجهما. فلم تكن عائلة مشتاق استثناء في هذا الأمر، فمنذ عهود غابرة، يرفض الآباء الموافقة على زواج أولادهم إذا اكتشفوا وجود علاقة حبّ بينهم. وكانت رسالة أو قصيدة تكفي لفصل الحبيبين إلى الأبد، مع أن نصف كلمات الأغاني العربية تتحدث عن مآسي الحبّ هذه.

كانت ملكة قد تجاوزت العشرين من العمر، وكانت تحبّ عادل منذ أن بلغت الرابعة عشرة من عمرها، لكن تعيّن على تاجر المواشي الانتظار حتى يتزوج ابن مشتاق البكر حسب العادات السائدة في معلا، فراح عادل ينتظر بنفاد صبر لأنه يحبّ ملكة.

تعيّن على الجميع المجيء لحضور زفاف سلمان: حسيب الذي يدرس حالياً الطبّ في الجامعة الأمريكية في بيروت، وإلياس من دمشق، ومن بيروت عادل الذي يعتبره الجميع منذ سنوات صديقاً جيداً للعائلة. كانت حفلات الزفاف تستمر سبعة أيام وسبع ليالي. ودُعي أسقف وستة كهنة من دمشق للاحتفال بقداس الزواج. لكن المفاجأة الكبرى كانت قدوم بطريريك الكنيسة الكاثوليكية. قبّل جورج مشتاق يد البطريرك، وبكى عندما عانقه رأس الكنيسة وقال ضاحكاً: «أعرف أنك طلبت أسقفاً فقط، لكنّي أريد أن أبارك زواج ابنك بنفسي للتعبير عن الامتنان لكلّ ما فعلته من أجل الكنيسة».

لا يتذكّر القرويون أنهم رأوا بطريريكاً كاثوليكياً في معلا طوال حياتهم، لكن بسبب النصر العظيم الذي أحرزه جورج مشتاق على قطاع الطرق الذين هاجموا القرية، ظنّوا أن مشتاق العجوز قادر على فعل أيّ شيء، لكن باغتته في ذلك الحين مفاجأة غير سارة. فقبل يوم من حفل الزفاف، وبالصدفة المحضة، وجد ابنته في السرير مع عادل. استشاط غضباً، لا لأن ابنته الشيطانة أغوت تاجر الماشية البسيط بل لأنها ضربت عرض الحائط مظاهر

الاحتشام واللياقة ولم تلتزم بأوامره وأصرّت على المضي في طريقها كما يحلو لها، تماماً مثل أمّها. لذلك، احتفلت ملكة بزواجها في السرير قبل أخيها وهذا دليل على أنها لم تبد أدنى احترام لأوامر أبيها أو رغباته.

لم يحتدّ مشتاق، ولم يضرب ملكة كعادته عندما يفقد أعصابه، لأنه خشي الفضيحة هذه المرة. فقد كان البيت يعجّ بالناس، وراح رأس الكنيسة الكاثوليكية يحتسي القهوة في الباحة تحت مظلّة اتقاء للشمس، وقد تحلق حوله مئات الأشخاص، يريد كلّ منهم الاقتراب من نيافته، هو بطريرك انطاكية وسائر المشرق بما فيه القدس. فقد كان يأتي في المرتبة الثانية في الكنيسة بعد البابا بيوس الحادي عشر، وشعروا بالامتنان لوالد العريس لأنه أتاح لهم هذه الفرصة.

وها هي ابنته الآن تنام مع تاجر الماشية المغفل. أقسم مشتاق بأنه سيكره ملكة لتصرفها هذا حتى يوم مماته. أما اليوم، فلم يفعل شيئاً سوى أن وقف صامتاً عند مدخل الباب. تسمّرت هي وحبيبها تحت أغطية الفراش عندما رأياه. أسِفَ عادل لغبائه لأنه ترك سترته وفي جيبه المسدّس في مكان بعيد. توقّع أن يموت في تلك اللحظة، لكن لم يحدث له أي مكروه. زحفت الدقائق كئيبة ببطء. لم ينبس مشتاق بأي كلمة، بل ظل يحدّق فيهما.

«سنحتفل بقداس الزواج غداً»، قال بصوته المتهدج بعد دهر دام في الحقيقة ثلاث دقائق «وبعد ذلك، لا أريد أن أرى وجه أي منكما مرة أخرى». كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي قالها لملكة وعادل.

لكنهما هربا في تلك الليلة. فقد خافت ملكة أن يقوم رجال أبيها بخطفها هي وزوجها بعد الحفلة ويقتلوهما ويدفنوهما في واد بعيد. كانت تعرف والدها جيداً.

في صباح اليوم التالي، عندما همس باسل، خادم مشتاق المطيع، بخبر هروبهما بينما كان الجميع يحتسون نخب العروسين، فوجئ بردّ فعل سيده الذي ابتسم وهز رأسه وقال: «إنها كالزئبق مثل أمّها، لا تستطيع أن تقبض عليها مهما أحكمت خطتك ويدك»، كان ذلك كلّ ما قاله والد

twitter @baghdad_library

ملكة، ثم أخذ يد البطريرك ورافقه إلى المكان المخصص له على المائدة العامرة بأطايب الطعام. جلس على المنصة، سلمان إلى يمينه، وحنان إلى يساره.

لم تشهد القرية عرساً كهذا من قبل. فقد احتفل أكثر من ألف مدعو من أهالي القرية وغرباء من القرى المحيطة ومن دمشق وحلب والقدس وبغداد وبيروت سبعة أيام بلياليها.

لم تشهد القرية، منذ أن رأت النور هذا القدر من اللحم والنبيذ، وهذه الكميات الكبيرة من الفستق والحلويات. وقد قيل إنه كان بإمكان المرء، خلال الأيام السبعة تلك، أن يشمّ رائحة اللحم المشوي والزعتر من على بعد عشرة كيلومترات. وعلى مدى سبعة أيام، شرب الناس هذه الكميات الهائلة من النبيذ والعرق وسكروا حتى الثمالة. وأخيراً، في نهاية اليوم السابع، عندما ظن الجميع أن الحلم قد انتهى، أعلن جورج مشتاق أن الرجل لا يجلب ابناً مثل سلمان إلى العالم كلّ يوم وأن الحفلة ستستمرّ أسبوعاً كاملاً آخر.

٢٨- تحوّل إلياس

عندما وصل إلياس مشتاق للمشاركة في احتفالات العرس، تحلّق الشبان حوله وراحوا يبادلونه النكات ويسألونه عما إذا كان قد ضاجع جميع الراهبات وعاملات التنظيف في الدير. لم يجبهم بل تجاهلهم. وفي إحدى المرات تجاسر ورد على أحدهم، «إن هذه الأمور لا تحدث إلا في عقولكم الصغيرة الفاسدة. فالأخوة والأخوات في الدير يتصفون بالعفة والإيمان».

في القرية سمع إلياس عن علاقة أخته الغرامية لأول مرة. إذ أخبرته ملكة نفسها وطلبت منه أن يباركها فقبّلها وابتسم مرتبكاً وقال: «كما تصفين لي فيها عادل، فإنه حبّ يستحقّ مباركة الله نفسه».

كان من الواضح أن ملكة شعرت بالارتياح فهرعت إلى حبيبها ونقلت له هذا الخبر السعيد، واستغلت الفرصة وأبلغت شقيقها بخطتها في الهرب.

وراح إلياس يصلي طوال الليل حتى تتمكن أخته من الهرب من قبضة حرّاس والدهم.

عندما تمكنت ملكة من الهرب في ليلة العرس، كان إلياس سعيداً بالأفراح التي أقيمت من أجل أخيه، لكنه لم يكن مرتاحاً في وسط هذه الضوضاء التي يحدثها المدعوون السكارى. لذلك دأب على الخروج كثيراً ليتمشى وحده في الدروب الضيّقة عبر مصاطب الحقول. وقد فوجئ عندما رأى أن هذه الحقول أجمل مما كان يتذكّر. فراح يمضي ساعات طويلة وهو يجوب التلال والوديان ويستريح تحت أشجار التين والتوت الضخمة ويشرب متأملاً المشهد الطبيعي البديع الممتد أمامه.

في اليوم الرابع من الاحتفالات، شاهد حماراً أسود كبيراً في الحقل يعتلي أتاناً لونها بني شاحب تحت شجرة جوز قديمة. كان الحمار هائماً، ولا زال ما تبقى من رسنه متدلياً من رقبته. لم تتمكن الإتان من مقاومته والدفاع عن نفسها، فراحت تركل الحمار فأصابته مرات عديدة. لا بد أنها آلمته لكنّه كان في حالة نشوة غريبة، ولم يكفّ عن ذلك إلا بعد السفاد الخامس، عندما انهار، وراح يشخر، ولعق رغوة بيضاء من خطمه. في تلك اللحظة، شمّ إلياس رائحة الإثارة الجنسية للأنثى التي لعلها بدأت تستمتع بلعبة الحبّ.

كان للرائحة مذاق حلو، تشبه رائحة الورد الذابل. شعر بإثارة غريبة في داخله، إحساس خارج عن إرادته. تلك اللحظة غيّرت حياة إلياس إلى الأبد. فمنذ تلك اللحظة أصبح بإمكانه أن يشمّ رائحة إثارة امرأة من مسافة تزيد على ثلاثة أمتار، ولم يكن يخطئ تلك الرائحة قط. وكان يعرف ذلك حتى لو خافت المرأة في اللحظة الأخيرة، وأنكرت إحساسها بالشهوة. كان أنفه دليله الذي لا يخطئ، لا يعرف أي اعتبار أو فضيلة ولا يعترف بأي حدود عرقية أو دينية.

في تلك اللحظة الاستثنائية، وهو يراقب الأتان، أحسّ في داخله بإثارة شديدة، فاندفع نحوها وولجها. راحت تنهق تحت لكزات قضيبه المتصلب

twitter @baghdad_library

القوي، وأحسّ إلياس بالعضلات التي تنبض داخل الإتان التي كادت أن تسحق حشفة قضيبه. فجأة هزّت جسمه كله رعشة هائلة كأن صاعقة أصابته. صرخ بصوت عال إلى حد أن الإتان تسمّرت في مكانها رعباً، بينما راح الحمار الذكر ينظر بعينين ناعستين.

أخذ إلياس يسير ببطء عائداً إلى البيت. في الطريق أيقن أن الحياة اليسوعية العفيفة ليست مناسبة له، لكنّه لم يكن يعرف أن صبيتين كانتا تقفان وراء شجيرة رمان خلال تلك الفترة، تراقبانه، وقد أحستا برطوبة بين ساقيهما وراحتا تضحكان، ثم ركضتا إلى البيت، وقبل أن تفترقا وعدت إحداهما الأخرى بأن تحتفظا بهذا السرّ. لكن هذه الوعود تعتبر في معلا تأكيداً على أن القصّة ستنتشر انتشار النار في الهشيم. ولم تمض فترة طويلة من انتشار الخبر عن قضيب إلياس مشتاق المدهش بين نساء القرية حتى أغوته، في تلك الليلة، منيرة، إحدى الفتاتين اللتين كانتا تراقبانه وهو ينيك الإتان.

أمضى إلياس ما تبقى من أيام الاحتفالات بالعرس وهو في حالة عارمة من البهجة. لم يحصل على كفايته من النساء فانطلق يبحث عنهن. وما إن يلتقط أنفه تلك الرائحة الخاصة، حتى يصبح مثل رجل منوّم مغنطيسياً. لم يكن إلياس يعرف ما الذي يجعل النساء يطلقن العنان لأنفسهن هل هو اللحم أم الجوز أم النبيذ، أم المتعة المحرّمة لمغامرة مع تلميذ راهب يتمتع بقوة جنسية كبيرة، لكنّ من المؤكد أنه بدأ يشمّ الرائحة الحلوة أكثر فأكثر.

كانت النساء يتضاحكن ويقرصنه ويمازحنه وكنّ يأخذنه إلى زوايا بعيدة ويباشرن معه على الفور. وكانت سامية، زوجة سائق الحافلة، تحرص كثيراً على صحته، فتطعمه وتغذيه بالفستق والنخاع الشوكي للحملان، والأطعمة المعروف بأنها تقوي الباه. وكان من الأفضل ألاّ يتناول أطعمة تزيد من شهوته، بل أطعمة تخفف من غلواء رغباته. كانت النساء ينجرفن، وعندما يأخذهن، ينسين أنفسهن ويصرخنَ ويشهقن من النشوة. لذلك، ما كان مقدراً له أن يحدث قد حدث أخيراً.

كان جميع أهالي القرية يشاركون في الاحتفالات. وبما أن بيتاً واحداً لم

يكن يتسع لهذا العدد الكبير من المدعووين، وتقديم أصناف الطعام والشراب لهم، فقد تكدّست أصناف الطعام والشراب في كلّ زاوية وناصية في مزرعة وبيت مشتاق، وامتلأت الحظائر بالحملان والعجول، وتكدّست فيها كميات كبيرة من مختلف أنواع الشراب. وفي الساعة السادسة من صباح كلّ يوم، كانت العربات تجلب إمدادات جديدة إلى باحة الكنيسة وإلى بيت المختار وإلى ساحة القرية حيث أقيمت المواقد استعداداً لإضرامها. وباستثناء عائلة شاهين وأنصارها، قدّم أهالي معلا أسرّة للمدعوّين القادمين من خارج القرية بقدر ما تتسع بيوتهم. ونام المئات في العراء لأن الليالي كانت لطيفة، وباستثناء ثلاثة أو أربعة حالات لُدغ فيها بعضهم بالعقارب، لم يصب أحد بأذى ولم يحدث أي مكروه. وظلت الأمزجة في أوجها على الرغم من أعداد المشاركين الكبيرة في الاحتفالات والكميات الضخمة من النبيذ والمشروبات التي جرعوها. ولو لم يقع ذلك الحادث الغريب لجورج مشتاق في الليلة قبل الأخيرة لعاد الجميع إلى بيوتهم حاملين معهم أسعد الذكريات.

ففي ذلك المساء، كان يتجول بين بيته وساحة الكنيسة وبيت المختار وساحة القرية. إذ بدا حينها رجلاً مختلفاً، لطيفاً مع الجميع. وودّع بحرارة جميع الذين بدأوا يغادرون تلك الليلة. وفجأة أدرك أنّ مشروب العرق قد نفد في باحة الكنيسة، فقرّر أن يجلب للمدعوين صندوقين في كلّ منهما خمسة ليترات من العرق. لم يكن بيته بعيداً، وأحسّ أيضاً بضغط قوي في مثانته. ولكي يصيب عصفورين بحجر واحد، أخذ صندوقين من العرق من المخزن، ووضعهما في أحد أطراف الفناء الذي يعجّ بالمدعوين وتوجّه إلى المرحاض المشيد من الطين في الجانب الآخر من الساحة. فقد كان مستودع المعدات يقسم أرضه إلى قسمين، النصف الأمامي مزدان بأنواع الأزهار في الأصص والنافورات، وفي الأروقة مقاعد، أما النصف الخلفي فكان مخصصاً للمزرعة، وكان هناك مرحاض طيني مخصص لعمّال المزرعة ومرحاض أفضل حالاً مخصص لسيّد البيت وأفراد عائلته وإسطبل كبير وحظيرة للأغنام ومخزن للحبوب وبيت للكلاب.

twitter @baghdad_library

ما إن خطا خطوتين حتى تناهت إليه أول صيحة، فظنّ أنه تخيّل ذلك، أو أنها شهقة انبعثت من المدعوين المحتفلين في الباحة. تابع طريقه وأضاء مصباح النفط في المرحاض الطيني الصغير. عندما أرخى سرواله ووجّه مسار بوله إلى الحفرة، سمع فجأة صيحة أخرى. توقّف مشتاق. أصاخ السمع وتملّكه الذعر. فقد كانت صيحة امرأة منبعثة من المستودع الذي يخزّن فيه القمح والشعير في غرف علوية جافّة. للحظة، ظنّ الرجل العجوز أنه صوت ابنته ملكة، فغلى دمه غضباً، لكن سرعان ما تذكّر أنها هربت، فابتسم. أطلقت المرأة صرخة ثانية.

«لا أريد أن أسمع أكثر»، دمدم متذمراً وخرج بسرعة. حاول أن يفتح باب مستودع الحبوب وهو يلهث، لكنّه كان موصداً بالرتاج من الداخل. رفع بصره إلى الأعلى ورأى كوة مفتوحة في الطابق العلوي، كوة حجرة التجفيف التي تُخزَّن فيها أكياس الخيش النظيفة. سمع الآن نشيج امرأة وهي تقول لاهثة «ستقتلني».

تطلع مشتاق حوله فوجد سلّماً، من ذلك النوع الثقيل من السلالم المصنوعة من أنابيب الفولاذ. أسنده إلى الجدار ودون أن يصدر صوتاً، تسلّق السلّم بسرعة. كانت عيناه تقدحان شرراً. اعتراه غيظ شديد ولم يكد يستطيع أن يتنفّس. عندما بلغ النافذة الواقعة على ارتفاع أربعة أمتار، وعندما همّ بالانسلال عبرها، تجمّد في مكانه من هول ما رأى. كانت الغرفة غارقة في الظلام، لكن ضوء المصابيح الكبيرة العالية الثلاثة التي تنير الفناء الداخلي تسلل من النافذة المفتوحة. في ضوء المصباح الخافت، رأى أحداً يلج امرأة. ومع أنه لم ير من الرجل شيئاً سوى ظهره وردفيه العاريين وعضوه الضخم، فقد عرف أنه ابنه إلياس من مجرد رؤية قضيبه. كانت المرأة تضحك وتشهق في وقت واحد.

لاحقاً لم يعرف أحد ما الذي حدث تماماً، حتى مشتاق نفسه، ناهيك عن المرأة والرجل المذعورين في غرفة التجفيف.

«ابن العاهرة اللعين»، صاح. هل سينقض عليهما ويوسع ابنه ضرباً، أم

سيدير ظهره مشمئزاً لكي لا يرى ذلك القضيب الشنيع. لعله حاول أن يفعل الأمرين معاً، لكنه وجد نفسه ملقى على أرض الساحة المسفلتة بساق مكسورة. هبط إلياس بسرعة، وركضت نسيبة، أرملة الجزّار توما، أول رجل قُتل أثناء الحصار، إلى مكان احتشاد الراقصين والمحتفلين وأعلنت بصوت مرتفع الخبر بأنها رأت، بمحض الصدفة، جورج مشتاق ممدداً على الأرض وهي في طريقها إلى المرحاض الطيني.

بغتة انتهت الاحتفالات ولم يعد أحد يريد مواصلة الغناء والرقص. وحلّ صمت ثقيل على القرية، واستأذن الضيوف سلمان في الذهاب، فوقف عند البوابة خارج البيت وراح يودعهم دون أن يسمح لأحد بإزعاج والده. وفي الحال وصل طبيب العائلة الدكتور العجوز طالعاني الذي طمأن أفراد العائلة وقال لهم إن والدهم رجل قوي، وأنه سيعود إلى حياته المعتادة بعد ثلاثة أشهر، لكن أجواء المرح تلاشت.

أمضت العروس، حنان، تلك الليلة إلى جانب سرير الرجل العجوز النكد، وهي ترعاه وظلت ترعاه حتى آخر يوم في حياته، بعد ستة عشرة سنة. فبعد أن تحسنت ساقه، وجد متعة خاصة في رعايتها له. غير أن حنان كانت تنفر منه وترعاه بكراهية صامتة، لكن مشتاق العجوز لم يكن يلاحظ ذلك.

في مساء اليوم الذي حدث فيه ذلك، رفض بشكل قاطع رؤية إلياس. وفي الأيام القليلة التالية، كان يلعن الشيطان كلما دخل ابنه الأصغر الغرفة. لم يفت سلمان اليقظ ملاحظة ذلك فسأل والده، لكن مشتاق رفض إخباره.

عندما أخذ سلمان شقيقه إلياس إلى الإسطبل قبل مغادرته بيوم وراح يضربه بالسوط، أخبره إلياس القصّة كلها، توقّف سلمان عن ضربه وراح يضحك.

لم يرد مشتاق كذلك أن يمنح بركاته لابنه التلميذ الراهب لدى مغادرته، فأشاح بوجهه عنه ونظر إلى الحائط. كان ظهر إلياس يحترق من لسعات سوط أخيه.

twitter @baghdad_library

لم يكره والده كما كرهه في تلك اللحظة. عندما راح ينتظر أمام نافذة الحافلة القديمة حتى ينتهي المسافرون من تحميل أغراضهم التي سيأخذونها معهم إلى دمشق. كانت ساحة القرية تعجّ بأقارب المسافرين لتوديعهم وترديد تمنياتهم الأخيرة.

امتلأت الحافلة بحوالي ثلاثين مسافراً وبأعداد كبيرة من الدجاج. وكان فيه كبشان كبيران وعنزة صغيرة. جلس إلياس في مقعد منفرد، واعترته قشعريرة. لم يأت أحد لوداعه، فقد هربت أخته ملكة، وراحت تلوّح له بعض النساء اللاتي استمتع بأفضالهن أثناء احتفالات العرس، خلسة أو يتسمن له، لكن لم تتجاسر إحداهن على أن تبادله كلمة واحدة.

فجأة ظهر مجنون في الساحة، وشقّ طريقه بصعوبة بين الحشد. احتاج إلياس إلى بعض الوقت حتى يدرك أن الشاب متوجه نحوه مباشرة، ثم استدار.

«هذه لك»، قال المجنون وأعطاه صرة صغيرة وهو يبتسم. رأى إلياس فيها قليلاً من العنب والخبز الطازج، وفاحت منها رائحة جبن غنم قوية. ارتبك ولم يعرف السبب.

«شكراً» قال مرتبكاً وأخذ الصرة. احمرّ وجه الشابّ وظل واقفاً تحت نافذة الحافلة. فقد ظهر بغتة خلال احتفالات العرس. كان فتى وسيماً جداً، وقد أمضى الليلة في نزل المختار، ولم يلفت انتباه أحد من بين مئات الغرباء، لكن سرعان ما أدرك الناس أنه مختل عقلياً وتنتابه نوبات تستمر حوالي عشر دقائق عندما يقع على الأرض يرغي ويزبد، كأن الشيطان قد تلبّسه، لكنه عندما يصحو يبدو لطيفاً وهادئاً. وبصورة عامة كان مسالماً بالرغم من غرابة سلوكه، وكان ينصت إلى الأحاديث باهتمام كبير إلى حد أنه يخيّل إليك أنه رجل عاقل، لكنه فجأة يقاطع المتجادلين ويبدأ الغناء، أو يشرع برمي قشور البطيخ، أو التراب الذي يلتقطه من الشارع عليهم. لكنه عندما يرى جورج مشتاق يتشنّج من الخوف. وبما أن الأسرار لا تدوم طويلاً في معلا، فقد عرفت القرية كلها خلال فترة قصيرة من هو هذا الشابّ

الذي يُعرف باسم شمس. لكن لم يرغب مشتاق العجوز بوجوده هنا، كما أن إلياس لم يسمع عنه شيئاً.

مرة أخرى، شكر الفتى المجهول، لكنه ظل واقفاً تحت نافذة الحافلة والناس ينظرون إليه ويضحكون. عندما تحرّكت الحافلة أخيراً ببطء لتخرج من القرية، راح المجنون يجري وراءها. شعر إلياس بالحرج وأحسّ أن سائق الحافلة يتعمد أن يقود ببطء لأنه يكره عائلة مشتاق، وأراد أن يطيل أمد إحساس إلياس بالمهانة. استغرق الناس في ساحة القرية بالضحك عندما حاول المجنون أن يوقف الحافلة.

«حماك الله يا أخي»، صاح وأجهش في البكاء بصوت مسموع، ولبث واقفاً أخيراً في مكانه. عندها فقط ضغط السائق بشدة على دواسة البنزين، فانطلقت الحافلة بسرعة غامرة الفتى المسكين بضباب دخان كريه الرائحة.

٢٩- العزلة

في وقت مبكّر من ذلك المساء، كان شارع باب توما المفضي إلى دير اليسوعيين يعبق برائحة الياسمين. استغرقت الرحلة بالحافلة دهراً فالسائق توقّف كثيراً على الطريق لأن المحرّك الذي كانت ترتفع حرارته كثيراً يجعل الماء يغلي في المُبرّد.

تساءل إلياس من يكون هذا المجنون؟ اعتراه الخجل لأنه ناداه من بين كلّ الناس «يا أخي»، بينما شقيقه سلمان لم يكتف بأن لم يقبله فحسب، بل إنه لم يأت لوداعه. تساءل لماذا يتصرف سلمان معه بهذه البرودة والقسوة؟

قرع باب الدير، وأحسّ بالسعادة عندما وقعت عيناه على وجه الأخ أندرياس. ابتسم أندرياس له وقال مندهشاً: «لم تتأخر. ظننت أنك ستمكث هناك شهرين». لم يحر إلياس جواباً ولم يقل للراهب سوى «مساء الخير» وتوجّه مباشرة إلى غرفته حيث وضع حقيبته، وهرع لأداء صلاة المغرب عندما بدأ الجرس يقرع.

مع مرور الوقت، لم يعد إلياس يجد سلاماً في الدير. في البداية، خيّل

twitter @baghdad_library

إليه أن ذلك بسبب إحساسه بالذنب تجاه والده. فراح يكتب له رسالة تلو أخرى يقول له فيها إنه يصلّي كل يوم لكي يسترد عافيته، وقال له إنه يأسف كثيراً لأنه سبب له كلّ هذا الألم، لكن والده لم يجبه. وبعد شهرين تلقى رسالة من سلمان. .كانت رسالة مقتضبة إلى درجة مخيّبة وباردة وتقريرية قال فيها: *لا تكتب رسائل، اهتم بكتبك. والدك بصحة جيدة وسعيد. شقيقك سلمان*.

على الأقل، حررت هذه الرسالة القصيرة إلياس من خشيته على صحة والده. لكن القلق لم يفارقه. كان عليه القيام بأمور كثيرة في الدير، فانهمك في عمله، لكنّه لم يعد يشعر بالسعادة كما كان قبل سفره. بذل كل ما بوسعه لئلا يدع أحداً يكتشف أن أفكاره تسرح في مكان آخر. فقد علّمته نساء معلا نوعاً آخر من السعادة، وأصبحت تجتاحه شهوة جامحة، ولاسيما في الليل عندما يكون وحيداً في غرفته. كان يصلّي لمقاومة الإغواء لكن صلاته بدت كأنها تزيد من الإغواء لأن شهوته للنساء بدأت تجتاحه أثناء النهار وتلاحقه في أحلامه في الليل.

بدأت الحياة في الدير تبدو له مثل بداية حياة الشيخوخة الهادئة. ففي هذا المكان يوجد مائة رجل ولا توجد امرأة واحدة جديرة بالنظر إليها. إذ تأتي إلى الدير ثلاث نساء مسنات من الحيّ نفسه للقيام بأعمال التنظيف والطهي وغسيل الصحون ثم يعدن إلى بيوتهن، ولم تكن نوافذ المبنى تطل على أي مكان، وبدا له أن أي مخلوق من جنس حواء لا يعيش بالقرب من الدير. وبدأت أفكاره تسرح في الحياة الصاخبة وراء أسوار الدير، ولم تعد دمشق بالنسبة له مدينة أكثر من كونها امرأة لا يني الدير يبعده عنها.

عندما كان إلياس يتخيّل امرأة، كانت دائماً نسيبة، أرملة الجزّار توما التي يراها في عين عقله. كان مجرد التفكير بطبيعتها اللاهبة يثيره. لم تكن نسيبة من معلا. فقد رآها توما في سوق بيع الأغنام، وكانت تصغره بعشرين سنة. في ذلك الحين اتفق توما بسرعة مع أبيها الذي شعر بالسعادة لأنه تخلص من واحدة من بناته الإحدى عشرة. كان الجزّار غنياً، فقد ورث مالاً

ويعمل طوال النهار. بدا أن كلّ شيء على ما يرام، حتى ذلك اليوم الذي أصيب فيه بطلقة في جبهته أثناء حصار معلا. لم يكن عندها قد تجاوز الأربعين.

بعد موت زوجها، بدأت نسيبة ترتدي ثياباً سوداء بسيطة وتعيش حياة هادئة. وتقدم لها العديد من الرجال للزواج منها لكنّها رفضتهم جميعاً. ولم يعد يتقدم إليها أحد بعد أن بدا أن لا عزاء لهذه الأرملة الحزينة، فتركت وحيدة وصارت النساء يمتدحنها لأنهن لم يعدن يعتبرنها تهديداً ومنافسة لهن. كانت نسيبة تصلّي كثيراً وبدأت تكسب رزقها بتسمين الجداء والحملان التي تبيعها بأسعار أعلى، لا لجزاري القرية، بل لبعض الزبائن الخاصين الذين يريدون إقامة حفلات ويرغبون في تقديم أجود أنواع اللحوم في احتفالاتهم البهيجة. وسرعان ما ذاع صيتها بسبب بضاعتها وجنت أموالاً كثيرة.

في وقت مبكر من صباح اليوم الثامن من الاحتفالات بالعرس طُلب إلى إلياس أن يذهب إلى بيت الأرملة نسيبة ليسألها إن كان بإمكانها أن تزود عائلة مشتاق بخمسة حملان وثلاثة جداء مسمّنة، لأن والده لاحظ أنّ الطبّاخين بدأوا يقتصدون في اللحم ليكفي طوال أيام الاحتفالات.

وهكذا طرق إلياس باب بيت الأرملة، وسلّم لها طلب والده. بهدوء ورقة طلبت منه أن يدخل، وعندما مرّ أمامها في طريقه إلى غرفة الجلوس الصغيرة الجميلة، شمّ فجأة رائحة الشهوة المتقدة المنبعثة منها. لاحقاً قالت له، بعد وصوله إلى القرية بقليل، إنها سمعت امرأتين تتحدثان عنه بصوت منخفض تحت نافذتها، لم تصدق آنذاك الرواية عن فحولته لكن الحديث أثار شهوتها لرجل ثانية.

جلس إلياس على الأريكة، وجثت هي على الأرض بين قدميه، تداعبه وترمقه بنظرات مفعمة بالشهوانية. وببطء خلعت ثوبها الأسود. كانت تلك أعظم مفاجأة في حياته. بدا له أن نسيبة قد شبّت عن الطوق، فلم يبد له قبل لحظات أن جسدها واضح المعالم، وبدا أنه متصلب ومستو، لكنها عندما

twitter @baghdad_library

نزعت قيودها وتحرّرت إلى أنوثتها، رأى إلياس أمامه جسداً متكاملاً لم ير مثله قط. قالت له نسيبة إنها ترتدي مشدات قاسية لإخفاء انحناءات جسدها عن عيون الرجال. كانت في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً، لكن جسدها لم يكن يبدو أنها تتجاوز السابعة عشرة.

ثمّ نزعت ثياب ضيفها وقادته إلى غرفة النوم حيث ينتصب سرير عريض يملأ الغرفة الصغيرة. أسدلت نسيبة الستائر بسرعة ودفعت إلياس فوق السرير، وتمددت فوقه وهي تضحك. في تلك اللحظة خيّل إليه أنها لا تستطيع أن تعيش لحظة واحدة من دون رجل. راحت تلاعبه بلسانها، وذاق لعابها الحلو كالعسل. جاست شفتاها جسمه هابطة إلى الأسفل، تدغدغه كفراشتين. ومن حين لآخر، لم يكن يحتمل دغدغتها، فيرفعها بكلتا ذراعيه ويقبّل هاتين الشفتين بشبق لاهب.

كانت بشرتها سمراء وملساء مثل بشرة طفل. انحنى فوقها. ضحكت واستسلمت له. قبّل قدميها، وترك شفتاه تجوسان فوق ركبتيها الناعمتين، وباطن فخذيها حتى بلغتا نبع رحيقها. فراح يلعق عبق شهوتها النهمة التي لا ترتوي. باعدت نسيبة بين ساقيها ورفعتهما في الهواء، ثم شدّت إلياس إليها.

«تمهل»، توسلت إليه منتشية، كأنها تريد أن تثبّت اللحظة. راحت تضحك بغنج. امتصّ ثديها الأيمن. بدأت نسيبة تتأوه بطريقة غريبة، مصدرة صوتاً يشبه صوت صهيل فرس ناعماً، وعضّ شفتها برقة. «أكثر، أكثر»، راحت تكرر بشبق. دفعه فيها ولعق شحمة أذنها. «لا، عضني، انفخ نَفَسَك في أذني. هيا، افعل ذلك، أرجوك»، راحت تقول له متوسلة.

كاد يغشى عليه من اللذة. طار معها مثل ريشة. ضمته بين ذراعيها بقوة كي تتواءم مع إيقاع لكزاته، ثم اتّحدا، وكادا يصبحان بلا جسد، وحلّقا بعيداً عن الأرض وقوة جاذبيتها.

لم يعرف بعد ذلك، كم مرة ضاجعها في ذلك اليوم، لكنها تعلّقت به. كانت تكبره بثماني سنوات، لكن بأسلوبها الفلاحي الفج، قالت له إنه يجب

أن يترك الدير. «إني مناسبة لك أكثر»، قالت وهي تضحك. لكن إلياس كان يدرك التصميم الجاد الذي بدا عبر ثنايا ضحكتها.

ظلت تلاحقه خلال فترة الاحتفالات بالزفاف، تريد ممارسة الحبّ. في بعض الأحيان، لم يكونا يبديان حذراً كبيراً، وأخيراً اختار للقائهما التالي أكثر الأماكن التي يعرفها أماناً، وهي غرفة تجفيف الحبوب خلف الساحة. وكما شاءت الصدف، كان هذا هو المكان الذي اكتشفهما فيه والده.

عندما فكّر إلياس بنسيبة بعد عودته إلى الدير، كبرت وحدته وطالت حتى أصبحت بعلو جبل، فبكى بصوت مكتوم ودفن وجهه في الوسادة.

٣٠- حريق متعمد

في أحد أيام شباط الباردة من عام ١٩٣٣، عاد إلياس إلى معلا حاملاً حقيبة في يده. لم يبد أحد في عائلة مشتاق اهتماماً بعودته.

ترجّل من الحافلة وسار ببطء صوب البيت. كانت البوابة مغلقة. فتحت حنان زوجة أخيه سلمان، البوابة وأرته بجلافة غرفته في الطابق الأول بالقرب من المدخل الخلفي. الغرفة التي أمضت فيها أمّه أيامها الأخيرة والتي بدأ الخدم ينامون فيها بعد ذلك. كانت في الغرفة قطع أثاث متناثرة، فيها هيكل سرير من الخشب المخروط القديم، وفرشة محشوة بأوراق وقشّ الذرة الصفراء المجفّفة تفوح منها رائحة بول وعرق وكانت الأغطية رمادية مبقعة بالأوساخ. كانت الوسائد والمنشفتان الرثتان هي النظيفة على الأقل.

«سأجلب لك وجبة طعامك إلى هذه الغرفة عند الظهر في كلّ يوم، فأنت تعرف أن سيد البيت لا يريد أن يراك، لكنّك تستطيع أن تمكث هنا حتى تجد مكاناً آخر».

كان ذلك صوت حنان، لكنها كلمات والده، لذلك، لم يلمها على تينك الجملتين اللتين لا يمكن تصديقهما، وتملّكه شعور بالمهانة. فها هي امرأة غريبة تريه الأماكن التي يمكنه ارتيادها في بيت والده، وتطلب منه أن

twitter @baghdad_library

يمكث في هذه الغرفة الكئيبة وأن يتناول وجبة طعام واحدة فقط في اليوم. تعيّن عليه أن يتمالك نفسه حتى لا تدمع عيناه.

«وماذا عن سلمان؟» قال، غير متأكد عن أي شيء يسأل أولاً: عن سبب عدم مجيء شقيقه لاستقباله، أو لماذا يسمح بأن يُعامل إلياس مثل كلب أجرب.

«سلمان مشغول جداً»، أجابت زوجته، وغادرت. إنها امرأة مناسبة تماماً لعائلة مشتاق، قال لنفسه، وهو يرمقها تغادر. كانت تمشي بطريقة غريبة، مثل امرأة عجوز. جلس على حافة السرير وحدّق في حقيبته البنية.

برز الدير المحترق في مخيلته مرة أخرى، وسمع أصوات الصراخ بوضوح شديد. فقد لقي ثلاثة يسوعيين مصرعهم بين ألسنة اللهب، أشجع الآباء الذين أنقذوا جميع التلاميذ قبل أن تلتهمهم النار ويلقوا حتفهم.

بدأ ذلك العمل المروع في صيف ١٩٣٢. عندما بدأت الاضطراب، كان إلياس على وشك مغادرة الدير ليبحث عن عمل مع الفرنسيين لكي يعيش في دمشق، وتتاح له فرصة مضاجعة النساء. كانت المظاهرات تنطلق يومياً ضدّ الفرنسيين. وحتى لو بدأ المتظاهرون مظاهراتهم بالتنديد بانحطاط الأخلاق الحميدة، فقد كانت المظاهرة تنتهي دائماً بأعمال شغب وعنف ضدّ الفرنسيين.

كان حاكم المدينة الفرنسي يردّ بإطلاق أشدّ قواته مراساً وأعتاها على المتظاهرين. وكان السنغاليون معروفين بشراستهم، ولم يتوانوا عن ضرب الناس بقسوة ودون رحمة، فيسقط دائماً قتلى وتقع إصابات شديدة في صفوف المتظاهرين كلّ يوم.

كان الأخ أندرياس أول من أدرك بأن الاضطرابات ستؤدّي إلى إغلاق الإرسالية اليسوعية في دمشق، فسخر منه الجميع. وكما قال له رئيس الدير، رافائيل هيرز، الرجل المتغطرس والجشع، إن فرنسا، باعتبارها قوة عظمى، ستضع كلّ ثقلها وراء الإرسالية.

«فرنسا؟»، قال الأخ أندرياس بدهشة، «إن فرنسا بعيدة جداً والمتظاهرون قريبون جداً». لكن أحداً لم يفهم ماذا يقصد.

في السابع من تشرين الأول، عيد القديس سيرجيوس، وصلت أولى موجات الكارثة إلى باب الدير، وأخذ زهاء مائة رجل يصيحون بعد أن تمكنوا من الإفلات من هراوات وحراب الجنود السنغاليين. «تسقط فرنسا! يسقط المسيحيون عبّاد الصليب، يسقط الخنازير»، وراحو يلقون الحجارة، فأصابت حجرة الصليب المعلّق فوق بوّابة الدير، فهوى على الأرض.

لم تهطل قطرة واحدة من المطر طوال فصل الخريف في جنوب سوريا، وعندما جفت بذور الذرة في الشتاء، هاجر آلاف الأشخاص باتجاه الشمال. عندما شاهد هؤلاء المهاجرون صور المدن الخضر الجميلة أمام عيونهم، راحوا يتضرعون ويصلّون همساً، راجين أن يتمكنوا من النجاة من المجاعة.

منذ ذلك الحين، بدأت الأحوال تزداد سوءاً. حلّ الخراب التام في الأماكن التي اندلعت فيها تلك الاضطرابات وأصبح كلّ شيء على وجه الأرض مثل عاصفة صحراوية. كان الجنود الفرنسيون يردّون بقسوة لا ترحم، وعندما ينسحب المتظاهرون، يسحبون معهم جرحاهم، وهم يشتمون ويلعنون ويقسمون على الانتقام.

كان شهر كانون الثاني شديد البرودة، وظلت السماء تضن بالأمطار على البلاد. ومنع الجنود موجة كبيرة من الفلاحين القادمين من الجنوب من غزو مدينة دمشق عند باب المدينة الجنوبي، «الباب الصغير». واندفع سيل جارف من البشر على امتداد سور المدينة، وتمكنوا من شقّ طريقهم عنوة عبر الباب الشرقي وباب توما، وهاجموا حيّ المسيحيين، فُحطمت المحلات وأحرقت الكنائس والبيوت. لكن في واقع الأمر، لم تتصاعد ألسنة النيران إلا في دير الآباء اليسوعيين، وسدت شاحنتان مليئتان بالجنود جميع منافذ الهرب، وراح الجنود يطلقون النار يمنة ويسرة على الناس

twitter @baghdad_library

المحتشدين، فقُتل ثلاثة جنود وسبعون فلاحاً في ذلك اليوم، واحترق دير الآباء اليسوعيين على بكرة أبيه.

وكما ذكرنا، شعر إلياس منذ أسابيع بأنه يجب أن يغادر الدير، لكنّه أدرك بأنه لم يكن يجرؤ على التحدث عن قراره بمغادرة الدير لإدارة الدير ولأبيه لأن الرهبان يعاملونه بغاية اللطف، ويعتبرونه واحداً من أفضل التلاميذ الرهبان في ديرهم، بينما والده، «أبو الهول» الصامت في قرية معلا، يشعر بالمرارة تجاهه. إن فشله في الدير يعني الحكم بالإعدام على إلياس.

كان يتحين الفرصة المناسبة للهرب، ولم يكن يحتفظ في خزانته الصغيرة إلا بأغراضه الضرورية، ملابس داخلية نظيفة لليوم التالي، ويحتفظ بالأشياء الأخرى في حقيبته تحت السرير. كان الوقت مساء عندما هرع الأخ أندرياس إلى الكنيسة، وهو يصيح، «البيت يحترق».

ساعد الجيران في إطفاء الحريق بدلاء الماء، أو على الأقل، تمكنوا من الحيلولة دون انتشاره إلى البيوت المجاورة المبنية من الخشب والطين. كانت حقاً معجزة بأن دير الآباء اليسوعيين هو الذي احترق فقط.

وجدت إدارة الدير مكان إقامة مؤقتاً للطلاب الذين أُنقذوا من الحريق، في مبنى قريب يعود إلى الإرسالية الفرنسية للآباء اللَّعازاريين، لكن بعد بضعة أيام تقرّر إغلاق الدير وانتقال الكهنة والأساتذة إلى بيروت وعودة الطلاب إلى بيوتهم. وبقي الأخ أندرياس فقط لاتخاذ الترتيبات الضرورية لبيع الموقع.

لم يعد بالإمكان ترميم المكان المتهدم الآن.

لوّح أندرياس مودعاً، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

٣١- نسيبة

اعترى إلياس شعور بالضجر في معلا. فقد أمضى تسع سنوات في دراسة العلوم الطبيعية والفلسفة والأدب والموسيقى، وبغتة، وجد نفسه يعود إلى القرية الجبلية النائية التي لم تتقدم قيد أنملة خلال السنوات التسع تلك،

ولا تعرف شيئاً البتة عن العالم الخارجي. كانت معلا مستنقعاً راكداً من الناحية الفكرية، يبدو أن أهلها يعيشون في كوكب آخر، لا توجد فيه آداب المائدة أو الرياضيات، ولا التواصل الاجتماعي المتحضّر أو موليير. وكانت معرفتهم بأرسطو ضئيلة بقدر معرفتهم بالنباتات الغريبة في أمريكا الجنوبية التي قرأ عنها إلياس في دروسه.

لم يعثر إلياس على كتاب واحد في القرية غير الإنجيل الذي حفظه عن ظهر قلب. وقد يكون أفضل وصف للموسيقى الشعبية التي تُعزف في الأعراس والأعياد الدينية بأنها مجرد نوع صاخب من النشاز والشخير، إذ لا يعرف العازفون شيئاً عن السلم الموسيقي، وعن نظرية الإيقاع والتناغم، ويحتقرون صفاء النغمة في العزف. ولم يكن باستطاعة إلياس الاستماع إليها دون أن ينتابه شعور بأنها تدفعه إلى الجنون، وتذكّر معلّم الموسيقى، الأخ جون الذي يعزف البيانو والناي على نحو رائع، وعلى الرغم من ذلك فلم يكن راضياً قط عن عزفه، ويكاد يصاب بنوبة قلبية إذا التقى بسركيس المتعجرف الذي يقف مباعداً بين ساقيه ويعزف بنشاز، مزهواً بنفسه.

في البداية، كانت نسيبة سلواه الوحيدة. لكن على الرغم من أنه يضاجعها - وهي رائعة في ذلك - فكيف يمكنه أن يفتح معها حديثاً عن أشياء لا تفهمها؟ فهي فلاحة متخلفة أيضاً. لكن باستطاعته على الأقل ممازحتها والضحك معها، مع أن ذلك لم يعد أمراً سهلاً في الآونة الأخيرة لأن نوبات من الجد بدأت تدهم وجهها فجأة وهي في منتصف ضحكتها، وتقترح عليه أن تبيع كلّ أملاكها وأن يذهبا إلى دمشق ويتزوّجا.

لم يكن يرفض اقتراحها لأنه لم يكن يريد أن يفقدها. فقد كان غرامها به كلّ شيء عليه أن يتمسك به في القرية.

في أحد الأيام، سمع عن وظيفة شاغرة في الإدارة الفرنسية بدمشق، فطلب من شقيقه أن يأذن له والده بأن يعود إلى العاصمة. كان عليه أن يتواصل مع والده بواسطة سلمان. فعلى الرغم من مضي ستة أشهر على مجيئه، لم يكلّم جورج مشتاق ابنه إلياس كلمة واحدة.

twitter @baghdad_library

قال له سلمان باقتضاب «يمكنك أن تذهب، وها هي خمس ليرات لتتمكن من قضاء الأسابيع القليلة الأولى وبعدها ستتقاضى راتباً»، وألقى القطع النقدية المعدنية في حضنه.

تسلّم إلياس وظيفته في دمشق في بداية تموز. لم يكن العمل صعباً: فقد انصبت مهمته على إدارة مستودع للإمدادات الغذائية للجيش الفرنسي. وخلال ثلاثة أسابيع تعلّم كيف يعدّ قوائم وجداول بالصادر والوارد إلى المستودع، وبعد فترة وجيزة اكتشف، مثل جميع زملائه هناك، كيف يمكنه أن يكسب شيئاً إضافياً إلى جانب راتبه الرسمي. كان الأمر بسيطاً كما شرحه له أحد زملائه: فبإمكانك أن تضع جانباً خمسة كيلو غرامات من الرزّ وتعطيها للبقال ثمّ تدخل الكيلوغرامات الخمسة ثانية في حساب إمدادات مطعم الجنود، وتتقاسم النقود بإنصاف مع الطاهي. كان الجميع يفعلون ذلك. وإذا جاء ضابط - ضابط برتبة لا تقل عن ملازم أول - وقال إنه بحاجة إلى ثلاثة لترات من النبيذ الأحمر، فلا تقف وتجادله بل ابتسم واعطه كل ما يطلبه، وأضف القناني المفقودة إلى حساب الحفلة التالية. فمن سيدقّق إن كنت قد استهلكت ثلاثمائة قنينة أو ثلاثمائة وخمس عشرة قنينة من النبيذ الأحمر في حفل استقبال أقيم على شرف المندوب السامي الفرنسي أو حاكم دمشق؟

«لا أحد»، قال له الموظف وأعطى إلياس قائمة فيها الكميات المسموح بها بشكل غير رسمي لكلّ رتبة من الضباط. «حتى في الفوضى هناك نظام»، واصل الرجل العجوز كلامه «إذ لا يحق سوى للجنرالات أخذ الكميات التي يريدونها».

استأجر إلياس غرفة في الطابق الأول من بيت قديم في منطقة باب توما صاحبته أرملة عجوز بخيلة يمقتها كما يمقت رئيسه. إذ لا يمكن وصف أحد منهما بأنه إنسان حقيقي. فلو كان رئيسه الملازم أول مورياك إنساناً حقيقياً، لأخذت حياة إلياس منعطفاً مختلفاً تماماً، لكن مورياك كان رجلاً سادياً يستمتع بتعذيب مرؤوسيه، منافقاً متملقاً يمضي طوال اليوم في تنظيف بدلته العسكرية وترتيب طاولة مكتبه، أو تلميع حذائه. وكان قد نُقل إلى هذه

الإدارة عقوبة على الجبن الذي أظهره في إحدى المعارك، ولو لم يكن عمّه من أبطال الحرب العالمية الأولى، لكان قد سُرِّحَ من الجيش بطريقة مشينة. ويعرف جميع مرؤوسيه الخمسة والثلاثون ذلك.

كان رجلاً فاسداً، عديم الضمير، يتلذذ بإذلال المستخدم الجديد صباح كل يوم ويقول له: «حسناً أيها السوري الصغير، كيف ستدافع عن فرنسا، إيه؟ سيضرط الثوّار في وجهك فقط. من الأفضل لك أن تكون سعيداً لأننا أخذنا على عاتقنا فرض النظام في مزبلتك هذه».

لم يكن بإمكانه عمل شيء إزاء ذلك، وكان الردّ عليه يدفع موررياك إلى المزيد من الإهانة. «يجب أن تقول له دائماً نعم يا سيدي، صحيح تماماً يا سيدي». قال الموظف السابق لإلياس بهدوء، «وتمنَّ له في سريرتك أن يُحشر أير فيل في طيزه». ضحك إلياس، وخيّل إليه أن الموظف القديم قد فقد شيئاً من عقله مع تقدمه في العمر، لكنّه سرعان ما اكتشف ماذا حلّ بجميع الذين وقفوا في وجه موررياك. فقد ضربهم وأجبرهم على تنظيف المراحيض.

لذلك راح الطالب اليسوعي السابق يكرر عبارة «نعم يا سيدي، صحيح تماماً يا سيدي»، ما لا يقل عن ثلاث مرات في اليوم. كانت حبّة من العلقم يجرعه إياها موررياك كل يوم.

لم تكن تزعجه الأمور الأخرى في عمله الإداري. كان إلياس ورجل سوري آخر يدعى عدنان يعملان تحت إمرة موررياك مباشرة، يديران مستودعاً ضخماً لا يحتوي على مواد غذائية فقط، بل يحتوي كذلك على كماليات ترد من جميع أنحاء العالم، أشياء لا يمكن لأي سوري عادي أن يراها: حلويات باهظة الثمن، أقمشة، أنواع متعددة من النبيذ، بن، زبدة، كونياك، شمبانيا، حلوى، فستق حلبي، فستق سوداني. وكان يعمل تحت إشرافهما أكثر من ثلاثين عاملاً ينفذون ما يطلبانه منهم. وقبل انقضاء ثلاثة أشهر، خطرت ببال إلياس فكرة جيدة لحلّ بعض مشاكل الإمداد التي تؤخّر عملية توزيع المواد. سرَّ موررياك بها كثيراً، ومدح الحاكم العسكري إلياس، وعمم على جميع

twitter @baghdad_library

المستودعات الأخرى العمل على تنفيذها. إلا أن عدنان عزا منح هذا الثناء للموظف الجديد، وليس له، مع أنه يعمل هنا منذ فترة أطول، إلى انحياز الفرنسيين إلى المسيحيين. كان مسلماً سنياً ولم يثن عليه أحد على أي مجهود قام به خلال السنوات العشر التي عمل فيها هنا.

ساور إلياس الشك في وقت لاحق بأن عدنان خانه بدافع الضغينة وأنه وجد متعة في العقاب القاسي الذي ناله، لكن شيئاً بالغ الأهمية حدث قبل ذلك.

فقد جاءت نسيبة لزيارته. فاجأته زيارتها كثيراً. فقد عاد من العمل حوالي الساعة الخامسة مساء فوجدها واقفة تحت شجرة الكستناء بجانب بيته، تحمل بيدها سلة صغيرة. ارتبك إلياس. فخلال إحدى زياراته القصيرة إلى معلا، قد يكون أخبرها عنوان مسكنه في دمشق لكنه لم يتوقّع قط أن تأتي لزيارته.

لكن ها هي الآن، ابتهجت عندما ابتسم وقال لها إنها محظوظة لأن تلك الحيزبون، صاحبة البيت الذي يسكن فيه، سافرت لقضاء أسبوع مع ابنتها في مدينة اللاذقية الساحلية. وهي لا تسمح لنزلائها باستقبال زوّار، رجالاً كانوا أم نساء، وقال: «إن أحذيتهم تجعل الدرج يهترئ»، مقتبساً كلمات العجوز وهو يصعد الدرج إلى البيت مع نسيبة.

لكن سعادته برؤيتها خبت بعد بضع ساعات، فقد تأكد له في ذلك اليوم بأنه لن يستطيع أن يعيش مع نسيبة. أما هي فكانت كدأبها سعيدة بلهفته الزائفة لها، وأخرج الأشياء التي أحضرتها من معلا من السلة: فواكه مجفّفة وبرغل مجروش وجبن. أمسك يدها وقادها إلى المطبخ وطلب منها أن تطهو له شيئاً بما أحضرته.

لم تشعر نسيبة بأن تغييراً قد طرأ على إلياس لأنه لا يزال يشتهيها في السرير. ربما لم يضاجعها بنفس الجموح والحرارة كما من قبل، بل أبدى لها رقة وحناناً لم يبدهما لها أيّ رجل آخر عرفته. كان يعاملها بلطف شديد، واعتبرت نسيبة أن الرقة إحدى أحجار زاوية الحبّ، بل إنه بدأ

يخرج معها في المساء، يتمشيان في أزقة الحي المسيحي، لكنه بدأ يرفض أن تشبك ذراعها بذراعه.

أقامت معه خمسة أيام، تطهو وتغسل وتكوي له، وتنتظر عودته بلهفة كلّ مساء. ازدادت رقة إلياس في تعامله معها، لسبب واحد وهو أنه لم يعد يشتهيها وكان يشكرها على أي شيء تفعله مهما كان صغيراً، لكنها بدأت تفقد قوة جاذبيتها له. حاول جاهداً أن يعثر فيها على شيء يثيره بطريقة ما، وبدأ يشرب عندما يكونان معاً كي يطلق العنان لغرائزه، لكنه حتى عندما يسكر، لم يعد يستطيع مضاجعتها بنفس الجموح الذي كان يضاجعها به قبل بضعة أشهر.

كانت تفوح منها رائحة ماء ورد قوية ورائحة حليب حامض ورائحة تشبه رائحة التيوس. وعندما كانت تتبرّج وتتزيّن له أصبح يراها امرأة ريفية لأنها تضع على وجهها الكثير من كلّ شيء كأنّ العالم مصاب بقصر نظر وبعمى ألوان، وكلّ ما تقوله أو تفعله يذكّره بمعلا. لم يفارق نسيبة الشعور بأنها فلاحة لأنها عندما كانت تخرج إلى الشارع، تلاحظ أنها أقل شأناً من نساء المدينة.

تنفس الصعداء عندما غادرت. أرادته أن يرافقها إلى موقف الحافلة لكنّه ادّعى بأن عليه إجراء عملية جرد مستعجلة في المستودع. لكنها، كما كان يأمل، لم تشعر ببرودته تجاهها. أحسّ بذلك عندما عانقته وهي تبكي وراء الباب أثناء توديعها، وهمست في أذنه بنبرة تشي بالتوسل «فكّر بي يا فحلي الصغير. إني بانتظار قرارك. إننا مناسبين لبعضنا. هل لاحظت ذلك أيضاً؟ خمسة أيام، ولم يقل أحدنا كلمة فيها نبرة غضب»، وانطلق من عينيها سيل من الدموع.

٣٢- انتقام عدنان

من المفترض أن يكون مورياك في إجازة لمدة ثلاثة أيام، لكنه برز فجأة ببدلته العسكرية بعد ظهر ذلك اليوم. حدث ذلك بعد الخامسة مساء. فلم

twitter @baghdad_library

يكن مورياك يأتي قط إلى المستودع في ذلك الوقت بعد انتهاء الدوام. دعا إلياس في ذلك الحين أحد العاملين لاحتساء كأس من النبيذ في الغرفة الخلفية، وجلسا بين الصناديق، يرشفان النبيذ، ويتناولان الفستق المحمّص من طبق صغير. كان الرجل يدعى برهان، وكان فقيراً جداً يعمل حمالاً ويبذل ما بوسعه لتدبّر معيشته، لكنه رجل ذكي لماح، وكانت ملاحظاته الذكية الحادة تحظى بإعجاب إلياس. أثناء عملية نقل الأكياس في ذلك اليوم تمزق كيس صغير من الفستق، فوزّع إلياس محتوياته على الحمالين وترك هذه الحفنة، وطلب من برهان الجلوس معه قليلاً ليتجاذبا أطراف الحديث بعد انتهاء العمل. ومثل إلياس كان برهان عازباً.

رأى عدنان كلّ ذلك من المدخل لكنه غادر بسرعة. لم يعترض إلياس على مغادرته المستودع قبل انتهاء الدوام لعدم وجود عمل يقوم به. أما الآن فها هو عدنان يقف خلف مورياك الغاضب وابتسامة عريضة حقودة ترتسم على وجهه.

«مسؤول مستودع يسرق!» صاح مورياك، «لقد أمسكتك متلبساً أيها العربي الحقير».

لم يأبه لوجود الحمّال، بل أدار ظهره له، وأمسك يد إلياس المذهول كأنه يخشى أن يهرب. وعندما انسلّ برهان، لم يعره أحد أيّ انتباه. وقف إلياس أمام قنينة النبيذ المفتوحة وطبق الفستق الصغير.

«هل كنت تظن أنني لن ألاحظ أي لصّ أنت. لكنك مخطئ، وستنال العقاب على ذلك». ثمّ ضحك كأن فكرة العقاب المناسبة قد خطرت له.

«أقسم لك ياسيدي. . .» قال إلياس بتوسل، لكن الضابط لم يعره أي إهتمام، التفت إلى عدنان وقال: «اطلب من آمر الحرس أن يأتيني برجلين قويين»، فانطلق عدنان، وعاد بسرعة يرافقه حارسان طويلان سوريان.

«أمسكا اللص جيداً»، قال مورياك بتلذذ، ثم همس شيئاً لعدنان فاختفى بسرعة في غرفة الإمدادات، وعاد بسرعة وهو يحمل قمعاً وخرطوم ماء صغير. ثم قال له: «والآن أحضر دلواً من الـ *pour*». وكلمة *pour* هي

اختصار لعبارة *pour chien* «للكلب»، وهي كلمة السر المستخدمة في مستودع النبيذ الأحمر الرخيص الذي يقدم للجنود العاديين للاحتفال بمناسبة ما. أمسك السوريان يدي إلياس، واحد من كلّ جانب وباعدا ذراعيه، فهوى رأسه بينهما كأنه كان مصلوباً.

ثمّ دسّ عدنان الخرطوم في فمه عنوة، وراح موررياك يصبّ النبيذ في القمع وهو يضحك ويقول: «هيا اشرب». قال إلياس لنفسه إن نهايته قد أزفت. بعد سنوات من هذه الحادثة، كان لا يزال يقول إن تلك اللحظات هي الأسوأ في حياته، وأنه فهم التعاسة التي تعتري العرب. ثلاثة سوريين يساعدون بخنوع شخصاً فاسداً، ضابطاً فرنسياً جباناً يعذّب أحد أبناء جلدتهم.

جرع وجرع، وحاول جاهداً استعادة أنفاسه لكي لا يختنق، لكن موررياك ظل يصبّ النبيذ الذي راح يتدفّق من زاويتي فمه وحنجرته وصدره. دلق موررياك كلّ ما في الدلو من الخرطوم حتى غاب إلياس عن الوعي.

عندما أفاق إلياس وجد نفسه مستلقياً في فراش وسخ في غرفة مظلمة. انتصب في جلسته. كان رأسه ثقيلاً، يسمع صفيراً في جمجمته ويشعر بطعم مرّ في فمه. لم يعرف ما الذي أتى به إلى هذه الغرفة أو منذ متى استلقى فيها.

صحا ببطء. كانت الغرفة في بيت فلاح فقير خلف غرفة الجلوس. كان رجل عجوز يجلس مع زوجته بجانب موقد صغير، يلقمان النار بقطع رقيقة من الخشب. لم يكن إلياس يعرفهما. ارتمى فوق أول مقعد رآه.

«الحمد لله، أنك حيّ»، صاح الرجل، «فقد ظننت زوجتي أنك ستموت قريباً».

«أين عثرتما عليّ؟»

قالت المرأة: «في الخندق على قارعة الطريق، في مكان ليس بعيداً عن دمشق»، وأضاف زوجها، «كنّا عائدين إلى البيت من السوق بعد أن بعنا الجوز والتين المجفّف».

twitter @baghdad_library

تماثل إلياس للشفاء بسرعة وعاد إلى دمشق، ثم أحضر بعض أغراضه من غرفته وانطلق عائداً إلى معلا.

عرفت القرية الآن بأنه يعمل لدى الفرنسيين، وقيل إنه كان مدير مستودع. أحسّ جورج مشتاق بالفخر بابنه اللعين الذي ظل لا يتنازل عن شيء، بل ما زال يقاتل. قرّر أن يدفن كراهيته ويغفر للفتى عندما يعود لزيارته في المرة القادمة.

عاد إلياس إلى معلا رجلاً محطّماً، يحمل حقيبة واحدة، وسعد كثيراً عندما أرسل مشتاق سلمان ليخبره أن باستطاعته أن يأتي لرؤية أبيه والحصول على بركاته. صعد الدرجات إلى الطابق العلوي قفزاً. كان والده جالساً على الأريكة الكبيرة مثل ملك واغرورقت عينا إلياس بالدموع عندما قبّل يد مشتاق وطلب أن يغفر له.

«أغفر لك كلّ شيء! إنك ابني وأمنحك بركاتي»، قال جورج مشتاق، وقد بدا عليه التأثر أيضاً. كان سلمان وزوجته يقفان عند المدخل.

«لماذا تقفان هناك مثل تمثالين من الجص؟ هيا احضرا لنا شيئاً من النبيذ، وبعض الخبز والزيتون والجبن لنحتفل».

لم ترق كلمة «نبيذ» لأذُني إلياس، وبالفعل لم يشرب بعد ذلك قطرة نبيذ أحمر لسنوات.

«أرجو أن تحضرا لي قليلاً من الماء»، قال راجياً.

«لماذا؟ ألست رجلاً؟» سأله والده، في صوته نبرة تشي بالقلق.

«نعم يا أبي، لكن النبيذ الأحمر يسمم دمي»، أجاب إلياس. توقّف للحظة، ثم أدرك أنه لا يتصرف بطريقة لائقة. كان عليه أن يكون صريحاً معه فقال له: «أبي لقد عذّبوني. لقد دلقوا خمسة ليترات من النبيذ في معدتي بواسطة خرطوم». لكنه صمت عندما دخل سلمان وحنان وهما يحملان صينيتين كبيرتين عليهما أطباق من الزيتون والمربى والباذنجان وجبن الغنم. أومأ جورج مشتاق لهما بأن يضعا الصينيتين وأن لا يقولا شيئاً.

«من عذّبك؟ ولماذا؟» سأله ووضع يده على كتف ابنه اليمنى.

حكى إلياس القصّة كلها وألقى باللوم على عدنان ومورياك.

«لنحتفل الآن بعودتك إلى البيت، وأقسم لك بروح أمّي بأنه لن يتمكن أحد منهما من العودة إلى بيته غداً»، قال والده، وشرب نخب ابنه.

في وقت متأخر من تلك الليلة، امتطى ثلاثة رجال خيولهم واتجهوا إلى دمشق خلف إلياس. وصلوا دمشق في الصباح الباكر. ومثل الخدم الذين أرسلهم والده، ارتدى إلياس ثياب فلاح، ونصبوا كميناً لعدنان، الذي يصل عادة إلى المستودع في الساعة الثامنة. عندما ظهر، أمعن الرجال النظر فيه وحفظوا وجهه وهيئته عن ظهر قلب، ثمّ أشار إلياس إلى مورياك الذي وصل في التاسعة بكلّ المراسم الواجبة، مرتدياً بدلته الرسمية.

«يمكنكم أن تناموا حتى منتصف النهار الآن»، قال إلياس للرجال، فاستلقوا بجانب جدول ماء قريب بينما ظل مستيقظاً. راح يفكّر بأبيه الذي أصرّ على الانتقام من الذين عذّبوا ابنه. أيقظ الرجال عند حوالي الساعة الثانية عشرة.

«سيخرجان بعد نصف ساعة»، قال لهم ثم أضاف «ليكن الله معكم»، ومدّ يده إلى مسدّسه. كان على إلياس أن يبقى في كمينه. وتمثلت الخطة في أن يهاجم رجال مشتاق الرجلين وهما خارجان من المستودع ويضربونهما، وإذا تعرض الرجال لأي خطر، فإن إلياس سيوفر لهم الغطاء.

خرج مورياك من المستودع أولاً ثم تبعه عدنان، ظلّه الضئيل. تركهما رجال مشتاق الملثمون يسيران مسافة مائة متر تقريباً حتى أول منعطف في الطريق، ثمّ انقض عليهما وألقوهما أرضاً من دون إصدار أي صوت، وأوسعوهما ضرباً على رأسيهما وركبتيهما بقضبان حديدية، ثم امتطوا الخيول التي أمسكها لهم إلياس وخرجوا من المدينة بسرعة يسابقون الريح.

لكن ترحيب والده كان غريباً. فقد وقف جورج مشتاق، وقد بدا الهدوء على وجهه وهو يستمع إلى رواية خادمه الأثير، باسل. عندما سمع بأن كلّ شيء قد نُفِّذ كما يريد، لم يقل سوى «جيد»، وأومأ إلى إلياس واصطحبه إلى غرفة نومه، ثم توجّه إلى الرفّ تحت صورة القديس

twitter @baghdad_library

جاورجيوس المعلقة على الحائط قبالة السرير الكبير. كانت صورة أصلية تعود إلى القرن السابع عشر أعطاها المطران لجورج مشتاق بعد أن تبرّع بمبلغ كبير للكنيسة.

«ضع يدك على الإنجيل»، طلب منه، «واقسم بأنك لن تنيك امرأة مرة أخرى إلا بعد أن تتزوّج». في البداية، دُهش إلياس لما سمعه، ثمّ كادت نوبة ضحك تتملكه. فقد قال والده كلمة «إنجيل» و«تنيك» في جملة واحدة. وضع يده على الإنجيل. كان غائباً عن الوعي تقريباً من شدة التعب بعد الرحلة التي دامت قرابة ست ساعات.

«أقسم». همس بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

٣٣- الهرب

بدأ تصرّف جورج مشتاق تجاه إلياس يخفّ حدّة وجفاء، بينما اتسم تصرّفه مع سلمان بالود والمحبة. كانا مثل رفيقين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. كانت عينا جورج تبرقان دائماً ببهجة وإعجاب عندما يرى ابنه البكر، لكنه على الأقل تهادن الآن مع ابنه الأصغر. وأقام إلياس في غرفة جميلة في الطابق الأول وعامله الجميع باحترام، حتى والده.

استغرق إلياس فترة من الزمن حتى يتعافى من تجاربه، ثم تساءل ماذا عليه أن يفعل الآن. فلم يكن يريد أن يصبح معلماً في مدرسة معلا، على الرغم من الضغط الذي يمارسه عليه كاهن القرية لقبول هذه الوظيفة. لكن الرطوبة المتعفّنة في قاعات الدروس كانت تخنقه عندما يثير الكاهن هذا الموضوع معه. فلم يعد يرغب في أن يعمل في خدمة أيّ سلطة، حتى الكنيسة الكاثوليكية.

فكّر في أن يفتح مصنعاً صغيراً لإنتاج الفواكه المجفّفة، لكن جورج مشتاق اقترح عليه ذات يوم أن يعمل في تربية الخيول التي تهيمن عليها عائلتان اثنتان فقط في معلا هما عائلة شاهين المكروهة، وعلى نحو أقل، عائلة المختار موبات. ولم يكن مستقبل مزرعة الخيول العائدة لموبات جلياً

لأن أحداً من أبناء مختار القرية الثلاثة لم يبد أي اهتمام بهذا العمل.

«إن سميرة الجميلة مهووسة بالخيول، وهي الوحيدة في العائلة التي تبدي اهتماماً بها، لكنّها امرأة وبحاجة إلى رجل ذكي يوجّهها ويدير أعمالها»، قال والده، بنبرة تآمرية.

لم يكن إلياس يعرف سميرة جيداً. إذ لم تكن جميلة بل ضخمة مهيبة وهو أمر يحبّه الفلاحون في معلا كثيراً ويخلطون بينه وبين الجمال. كانت تضحك كثيراً بصوت مرتفع، وتركب الخيل كعفريتة. كان الجميع يعرفون أنّ موبات يحبّها كثيراً، ونكاية بإخوتها سيوصي لها بربع ثروته الكبيرة، تماماً كما لو كانت ذكراً.

لم يكن إلياس يعرف أن والده ومختار القرية قد اتفقا للتو على كلّ شيء. فقد اتفقا على أن يتزوّج سميرة ويدير معها مزرعة الخيول، واتفقا على أن يقدم موبات الخيول العربية الأصيلة بينما يساهم مشتاق بمبلغ ثلاثمائة ليرة ذهبية لبناء الإسطبلات.

في صيف ١٩٣٥ التقى إلياس بكلير وأحبّها. افتتن بها وأصبح محصناً من أي حبّ آخر. وأصبح أي تلميح من أبيه عن سميرة يسقط على أذن صماء. كان يومئ بلطف، لكنّه لم يكن يسمع شيئاً. وحتى عندما أوقفه المجنون الوسيم الذي يعرفه الجميع باسم شمس في ساحة القرية في ظهر أحد الأيام، لم تثر كلمات الرجل الغريبة فزعه في البداية.

«يا أخي، لا تتزوّج سميرة. إنها تحبّني أنا، لكن والدها يريد أن يبيعها لك. انظر إليّ يا أخي»، قال له المجنون متوسلاً، وأظهرت عيناه العريضتان مدى تشوشه العقلي، «هل آذيتك؟ هل أطلب منك الكثير؟ تستطيع أن تتزوّج كلّ أمريكا، لكن اترك لي سميرة».

وجد إلياس شيئاً من الحرج في هذا الحديث وأجاب، «اصمت لا ترفع صوتك هكذا. ما شأني بسميرة؟ إهدأ يا رجل، يسعدني أن أتركها لك أو لأي شخص آخر».

«لا يا أخي، ليس لأي شخص آخر، لي أنا فقط، حسناً؟ أنا فقط،

twitter @baghdad_library

صحيح؟» صاح شمس، وهو يضحك وفي صوته نبرة توسل. ومع أن اللعاب يسيل من فمه، كان يبدو وسيماً كإله إغريقي، قال إلياس لنفسه.

في مساء ذلك اليوم، لاحظ أن المجنون لم يكن يستخدم، شأن الكثير من العرب، كلمة «يا أخي» لأنها كلمة مهذّبة ولأنها شكل عام من أشكال التخاطب، بل كان يعنيها حرفياً.

«إنه أخوك غير الشقيق»، قال له سلمان بنبرة باردة وهشّة كالمعتاد، «لم تكن أمّك وفيّة لأبي، وقد عاقبها الله لأنه يحبّ جورج مشتاق. لقد جنّت وأصيب ابنها بالجنون».

«أين يعيش؟ ماذا يعمل؟»

«إنه يعمل سائساً عند عائلة موبات منذ أن أتى إلى هنا. يقولون إنه يجيد العمل مع الخيول»، أجاب سلمان.

«وماذا عن سميرة؟ لماذا يتوسل إليّ بأن لا أتزوجها؟ هل توجد لدى والدنا أي خطط؟»

«ماذا تقصد لديه خطط؟ لا توجد لديه أي خطط. يجب ألاّ تدع مجنوناً يلعب بعقلك»، قال سلمان كاذباً، لأنه يعرف حق المعرفة أن موبات ومشتاق قد حددا موعد العرس في ليلة عيد الميلاد. لكن المشكلة الوحيدة هي أن سميرة لم تحبّ إلياس، ودأبت على السخرية من قصر قامته وضعف بنيته، وحبّه للكتب، وكانت تعتبر أن مغامراته الجنسية مع النساء سخيفة وتحلم بحبّ نقي كما يفهمه شمس الذي يصف الحبّ بطريقة رائعة.

ولم يكن إلياس يبدي كذلك أي اهتمام بسميرة. وبينما راح الوالدان يضعان مخططاتهما، التقى إلياس، لأول مرة، امرأة فتنته مع أن رائحة ذاك العطر السحري المميزة لم تكن تتضوع منها، ولم تنبعث منها أية هالة من الشهوة تجاهه. لكن حديثها كان يقطر شهوانية، وعندما قالت له *"cheri"* كاد يغيب عن الوعي من فرط سعادته.

كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة، وهو أمر بدا لأذنيه حضارة، تحرر من رائحة روث الأبقار ورائحة العرق. وأحسّ أن في صوتها شيء لم يصادفه

من قبل. صوت مرتعش، فيه بحة، كما لو أن كلير مصابة بزكام خفيف. وعندما تتحدث عن موليير أو عن موزارت أو لامارتين، كان رنين صوتها يشعره بالدفء ويمنحه إحساساً عظيماً بالشوق.

لكنّ الشك ساوره في أن كلير تبادله الحبّ حقاً، فقد كانت تبدو شديدة التحفظ بغتة وتحافظ على مسافة بينه وبينها وتبدو غامضة، ثم سرعان ما تتحول إلى غيمة باردة من العطر. هذا ما دفعه في أحد الأيام إلى أن يستجمع شجاعته ويسألها هل تحبّه.

كان ردّها مباشراً أكثر مما قرأه في أيّ كتاب عن الحبّ. فقد راحت تكلمه بهدوء وتنظر في عينيه مباشرة. قالت إنها تحبّه كثيراً، وأنها في شوق لأن تلمس يده وتقبّله وتضمه بين ذراعيها، لكنّها لم تكن تعرف ماذا تفعل لكي لا تحدث فضيحة وتضعه، هو إلياس، في خطر قاتل، لأن خطيبها ملاكم غيور خطر.

لم تثر صراحة كلير فزعه كما أثارته عندما أدرك أنه لم يشمّ رائحة أي شهوة فيها، كما حذّرته نسيبة من كلير وقالت إنها «قحبة من دمشق»، وقالت إنها مستعدة لأن تقتلها إذا حاولت أن تسلبها إلياس.

عندما حدّثه والده على انفراد في صباح أحد الأيام وطلب منه أن يغوي سميرة ويجعلها ترضخ له حتى تتعلق به، بدت له معلا مكاناً شديد الحرارة لا يستطيع أن يتحمله. فهناك والده وموبات القوي من جهة، وخطيب كلير الذي سيصاب بجرح نفسي عميق عندما يعلم بحب كلير لإلياس من جهة أخرى، وهناك نسيبة الهائمة به التي تدّعي أنها حامل منه. في تلك اللحظة عرف أنه يجب ألاّ يضيّع لحظة واحدة أخرى.

لم يبق أمامه إلا الهرب. ولكي يتأكد من الفتاة التي يريد الزواج منها، توجّه إلى كلير وأعرب لها عن قوة مشاعره وحبّه لها، واستمتع بملمس بشرتها الناعمة. وعلى الرغم من أن تجربتها الجنسية الأولى هذه آلمتها، فقد ضمته إليها بقوة ولم تتركه إلا بعد أن ولجت الجنة معه مرات عديدة.

هربا في فجر اليوم التالي. لم يخطر ببال إلياس أن هروبه هذا قد أنقذ

twitter @baghdad_library

حياته لأن يوسف شاهين سمع بأن إلياس وسميرة يزمعان إقامة مزرعة لتربية الخيول لمنافسته فأرسل اثنين من رجاله وكمنا لإلياس في الليل. طلب منهما ألا يقتلاه بل يشوّها وجهه فقط حتى تكره سميرة المغرورة شكله ويصبح ابن جورج مشتاق عبئاً على أبيه.

كمن الرجلان له قبالة بيت تمّام، حيث تمضي عائلة سرور فترة الصيف، لأنهما يعرفان أن إلياس يزورهم مساء كلّ يوم. لكنّهما انتظرا هناك حتى بعد انتصاف الليل غير أنه لم يظهر. وانتظر جورج مشتاق أيضاً ابنه الأصغر حتى الفجر. ظن أن إلياس برفقة سميرة وارتسمت على وجهه ابتسامة عندما تخيّل دهشتها وألمها عندما يلجها هذا الرجل الضامر. كاد يشعر بشيء يشبه الحبّ تجاه ابنه المشاكس الذي سيستخدمه لتدمير شاهين العجوز.

لو عرف ما الذي حدث آنذاك لبكى بحرارة لأن أسوأ هزيمة قد لحقت به.

٣٤- هزيمة سيد البيت

حَبَس جورج مشتاق نفسه في غرفة نومه أياماً عديدة. وراح يلعن الجميع ويشتم إلياس بشراسة. كان مشتاق يعرف أن شاهين سيضرب ضربته الآن، وقال لسلمان أن يتأهب رجاله وألاّ يغادروا البيت وهم بلا سلاح. ابتسم عدد منهم من الهواجس التي تنتاب سيد البيت، لكن بعد فترة وجيزة، جرت محاولة اغتيال فأدركوا أن جورج مشتاق لم يكن يبالغ. فقد أطلق أحدهم النار على سلمان.

كان ابن مشتاق البكر هو الوحيد الذي يسمح له برؤية أبيه، ويمضيان عدة ساعات معاً يومياً. وظل سلمان يحثّ والده على الخروج لرؤية رجاله، لأن الريح القارسة بدأت تهبّ ضدّ عائلة مشتاق.

بعد فترة قليلة من عيد الصليب المقدّس في ١٤ أيلول، دخل سلمان غرفة أبيه مرة أخرى. ففي ذلك اليوم نشب شجار مفجع بينه وبين ثلاثة شبان يتسكّعون ولم يبد أحد منهم رغبة في العودة إلى عمله عندما رأوه قادماً.

«أبي، يجب أن تخرج إلى الرجال»، قال وفي صوته نبرة حزن وتصميم، «لم يعد إلياس يهمّ كثيراً. من المحزن أننا فقدنا داعماً لنا بعد أن ذهب، لكن أصبح لديك الآن ابن جديد، هو باسل. إنه أكثر مما كنا نتمنّى. إنّ الرجال ينتظرونك في الخارج. بالطبع، لقد فعلتُ كلّ ما طلبتَه، لكنّي أظن أنهم بحاجة إلى كلمتك، إلى يدك».

انتظر سلمان. لم يخبر والده بأن أحداً من عائلة شاهين قد أطلق عليه النار، أو أنهم يشيعون في القرية بأن مشتاق قد أصيب بجلطة دماغية. مرّر أصابع إحدى يديه فوق نبتة الريحان المزروعة في إص مركون بجانب النافذة، وأدرك مدى قوة والده، عندما تبين له أن مجرّد غيابه جعل أعداءهم يشعرون بأنهم يملكون ثقة متهورة. فقد عرف الشخص الذي أطلق عليه النار، على الرغم من المسافة بينهما. إنه بطرس، أكبر أبناء يوسف شاهين. أقسم سلمان بأنه سينتقم منه لهذا الهجوم الجبان.

«إذاً لنخرج»، قال جورج مشتاق، قاطعاً أفكار ابنه السوداء، وأحسّ أن سلمان بحاجة إليه على الفور.

في نهاية أيلول، توجّه إلى الجبال على صهوة حصانه، يتنفّس بعمق. توقّف فوق هضبة وجالت عيناه من مزرعته وبيته حتى الطريق المؤدي إلى دمشق.

٣٥- سميرة وشمس

لم يحزن موبات كما حزن مشتاق عندما تناهى إليه خبر هرب إلياس، بل ارتاح من قلق شديد على ابنته التي لم تكن تريد أن تسمع شيئاً عن زواجها من ابن مشتاق. فقد هدّدت بالانتحار إذا أجبروها على أن تصبح زوجة قزم لا يجيد حتى لهجة أهل القرية، ويحاول عوضاً عن ذلك، أن يبربر ويرطن بالفرنسية بطريقة تشاوفية كأن أمّه جاءت من باريس.

عندما غادر جورج غرفته، هرع موبات لزيارته وأكد له استمرار صداقته له، وقال إن الزواج قسمة ونصيب. لم يقبل مشتاق ذلك، لكنّه أحس

twitter @baghdad_library

بالارتياح لأن مختار القرية لا يحمل تجاهه أي شعور بالضغينة بسبب هرب ابنه.

عرف موبات أنه سيزداد قوة لو أصبحت سميرة زوجة لابن مشتاق، لكنه سيفقد في الوقت نفسه بعضاً من نفوذه أيضاً لأن ارتباطه بعائلة مشتاق سيجعله أقل قبولاً من قبل الآخرين. فكلما شُرعت أمامه أبواب البيوت أكثر، ازداد قوة باعتباره المختار. بالإضافة إلى العداء الدموي الأبدي المستشري بين عائلة مشتاق وعائلة شاهين. كان هذا الزواج سيورطه في هذا العداء.

لم يعد يقلق على مستقبل ابنته سميرة وكان محقاً في ذلك. فبعد غرامها العاصف القصير بشمس الوسيم، المجنون، قررت أن تبتعد عنه وتتزوج زواجاً يأخذها إلى مياه أكثر هدوءاً واختفى شمس من القرية، ولم يعد يُرى فيها. قال البعض إنهم رأوه يتسول في مدينة دمشق وادّعى آخرون أنهم رأوه يخطب في أحد المساجد.

وتعرفت سميرة على رجل من دمشق يهوى الخيول وأخذت نفسها وثروتها لتنضم إليه. أسس الزوج والزوجة مزرعة للخيول العربية الأصيلة أصبحت إحدى أكثر المزارع نجاحاً في البلد. لكن ذلك حدث في وقت لاحق، وحدثت قبل ذلك أمور كثيرة في القرية.

كما أسلفنا، فبعد أسبوعين من هروب إلياس أطلق أحدهم النار على سلمان لأول مرة، لكنه لم يصب. وفي تشرين الأول، وبعد عيد القديس سرجيوس مباشرة، أطلق مهاجم رصاصة أخرى على سلمان أصابته في الجزء العلوي من ذراعه. كانت طلقة عابرة، لكن مشتاق العجوز سمع بهذا الهجوم هذه المرة، فانتقم انتقاماً شديداً. إذ أُضرمت النار في إسطبل تملكه عائلة شاهين ونفقت ستة خيول بشكل يثير الشفقة، وعُثر على جسد الحارس متفحّماً وفي صدغه ثقب بعرض إصبع. وعرف الجميع أن عائلة مشتاق وراء ذلك لكن العملية نفّذت بمهارة شديدة لم يترك فيها أي أثر يدلّ عليها. حزن يوسف شاهين على خيوله لأشهر عديدة لأنه أحبّها أكثر من أولاده. كان مشتاق العجوز يعرف مواطن ضعف أعدائه.

فشل هجوم مضاد في مطلع صيف ١٩٣٧، بفضل يقظة باسل وحذره.
فقد نصب فخّاً للرجال الثلاثة الذين تسلقوا السور إلى باحة المنزل في عتمة الليل بعد أن دسّوا السم في اللحم الذي تناولته كلاب الحراسة، وألقي القبض على الرجال الثلاثة. وبعد أن تعرضوا للتعذيب الشديد في مخفر الشرطة، اعترفوا بكلّ شيء، ودفع يوسف شاهين مبلغاً كبيراً كرشاوى لكي لا يودع السجن، لأنه هو الذي دفع الرجال الثلاثة إلى عمل ذلك، وأُرغم على توقيع وثيقة مهينة صرّح فيها أنه سيحاكم بالتحريض على ارتكاب جريمة قتل إذا حدث مكروه لجورج مشتاق أو لأحد أبنائه أو حتى لأحد العاملين عنده، ومن المؤكد أن الحكم سيكون الإعدام.

في ذلك المساء احتفلت عائلة مشتاق بالنصر مع أصدقاء العائلة، وأقاموا وليمة في فناء البيت الكبير، ولم يكن موبات، الذي كان جالساً بجانب جورج، يبالغ عندما قال، وهو يشرب نخبه، إنه بعد هذه الحادثة، فإن أحداً لن يتخذ، حتى سلمان أو باسل، الاحتياطات اللازمة للحفاظ على سلامة جورج مشتاق، كما سيفعل عدوه اللدود يوسف شاهين، فضحك الجميع.

وبالفعل، حظر عدوه القديم على أي من أبنائه على الإقدام على محاولة قتل أي من أفراد عائلة مشتاق، والتزموا بذلك حتى وفاة والدهم في صيف عام ١٩٣٨.

twitter @baghdad_library

كتاب العشيرة الثاني

العشيرة أنقذت البدو من الصحراء، وفي الوقت نفسه استعبدتهم.

*

دمشق، معلا، ١٩٠٧-١٩٥٣

٣٦- ياسمين ومريم

عندما مات يوسف شاهين في صيف ١٩٣٨، كانت خصيتاه قد سُحقتا بركلة وجّهها له بدقّة فرسه صباح، وقال عدوه اللدود جورج مشتاق لحلاق القرية العجوز إنه إذا مات ذيل الأفعى فإن الأفعى نفسها تظل حيّة. ففهم الحلاق أن هذه الكلمات تنطوي على إهانة للرجل الميت. حتى العداوة بين العائلتين لم تحترم كرامة الموت. أومأ الحلاق برأسه وابتعد صامتاً.

لكن جورج مشتاق قال الحقيقة. لأنه كان يخشى سامية، الحاكم الحقيقي في بيت شاهين التي هي أشد خطورة من منافسه العجوز يوسف نفسه الذي ربما كان مجرداً من أي مبادئ أخلاقية وحقوداً، لكنه لم يكن يستطيع أن يرى أبعد من أرنبة أنفه، بينما كانت سامية سليلة أسرة ذات نفوذ. فهي من مدينة حلب وقد رأت أشياء كثيرة في هذا العالم قبل أن تقترن أخيراً بمربي الخيول الثري في معلا الذي يكبرها بعشرين سنة.

ولعقود عديدة كان والدها بطرس خوري أكبر صناعيي المنسوجات في مدينة حلب، يزوّد بلاط السلطان عبد الحميد العثماني بالأقمشة، ويحمل لقب «بيك» الفخري الذي كان السلطان قلما يمنحه للمسيحيين. وقد اشترط بطرس بيك على العريس يوسف شاهين أن يتمسك بقوة بالكنيسة

الأرثوذوكسية اليونانية ويكره اليهود والكاثوليك والفرنسيين. وظل يلوم نفسه طوال حياته لأنه أيد الإطاحة بالسلطان الذي أنزل عن عرشه قبل ثلاثين سنة.

كان يوسف شاهين ينتمي إلى الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية، لكنه كان أبعد ما يكون عن الإيمان، لذلك كان منافقاً عندما قدّم نفسه لوالد زوجته عندما طلب يدها للزواج بأنه رجل لن يكف عن شن حملات ضد الكاثوليك ليل نهار. وقد حقق مراده وحصل على ما أراد: زوجة وكمية كبيرة من الذهب لقاء شجاعته هذه.

«بل إن الكاثوليك أسوأ من المسلمين. يجب أن تدق أعناقهم، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمونها»، قال بطرس.

«وهكذا سأفعل»، أجاب يوسف متزلفاً، غير مدرك أنه في صراعه مع منافسه مشتاق، سيصبح حقاً أكبر عدو للكاثوليك.

بعد هذا الحديث الذي دار بينه وبين بطرس بيك، استخدم يوسف جزءاً من المال لترميم داره الكبيرة. وفعل تماماً كما تتمنى سامية، كي لا ينقصها شيء وترفع رأسها عالياً بين أصحاب والديها الأغنياء وأقاربها. فقد كان بيته البيت الوحيد في القرية آنذاك الذي يوجد فيه حوض حمام، وتكسو أرضيات غرفه بلاط الرخام الملوّن. بعد سنة انتقلت سامية إلى البيت.

كان الولاء غريباً على يوسف شاهين في معاملاته وصفقاته التجارية فلم يكن يعرف الوفاء في علاقاته في حياته الخاصة. ولم يكن مخلصاً ووفياً لسامية لأنه يكره جنس النساء. وأشيع في القرية بأنه لم يسمح لها بالاقتراب منه إلا أربع مرات طوال حياته، زرع خلالها بذرته فيها، لكنها مع ذلك أنجبت له ثمانية أطفال، وأشيع أن الأطفال الأربعة الآخرين هم ثمرة علاقاتها الغرامية مع السائسين الشبان. كان ذلك أشد أنواع الثرثرة قساوة. وثرثر القرويون في ليالي شتائهم أن أصغر بناتها ياسمين ثمرة علاقة عاطفية، لكن أحداً في القرية لم يكن يعرف حقيقة الأمر بالتفصيل.

دأبت سامية على الذهاب إلى حلب كلّ سنة لقضاء أسبوع مع أسرتها وأقاربها، ولم يكن يوسف يرافقها، لذلك أتيحت لها فرصة الالتقاء سرّاً

twitter @baghdad_library

بحبيبها الذي أحبته منذ أن كانت شابة صغيرة في حلب. كان ابن خالتها سامر محامياً مرموقاً جمع ثروته الكبيرة من استيراد أنواع مختلفة من الأخشاب. فقد نشأت سامية وسامر وتربيا في البيت الكبير نفسه ولعبا معاً مثل أخ وأخت، وقد أحبّ أحدهما الآخر منذ طفولتهما، لكنهما لم يتمكنا من الزواج ببعضهما لأن أمّ سامية أرضعت سامر عندما كان طفلاً لأسابيع عديدة حتى شفيت أمّه من التهاب في حلمتيها. وحسب العادات السائدة، أصبحت سامية وسامر شقيقين بالرضاعة، وسيعتبر زواجهما سفاحاً.

لم يكن سامر سعيداً في زواجه من ابنة أغنى عائلة من عائلات التجار في حلب التي اختارها له والده.

كانت سامية تعرف تماماً متى وأين حملت بابنتها ياسمين. ففي ربيع عام ١٩١٩، تمكّن سامر من استقبالها في بيته لأول مرة، بعد أن سافرت زوجته مع أطفالهما الثلاثة، وأصبح بوسع سامية زيارته يومياً وأمضيا معاً أسبوعاً في نعيم الجنة.

في أول يوم من لقائهما بعد ذلك الغياب الطويل، كان أحدهما نهماً للآخر، ومارسا الجنس في غرفة الطعام وعلى الدرج وفي الحمّام وفي الرواق. وعندما وصلا إلى غرفة النوم في الطابق الأول كانا منهكين فغطّا في النوم. لكن سامية استيقظت بعد ساعتين مذعورة وجرت عائدة إلى بيت والديها القريب، لأنها لا تستطيع، كامرأة متزوجة، أن تمضي الليل خارج بيت والديها بأي شكل من الأشكال.

وفي صبيحة اليوم التالي، عادت إلى بيت سامر في الصباح الباكر. كان ابن خالتها ينتظرها بلهفة، وقادها إلى غرفة النوم حيث تسمّرت في مكانها دهشة. فقد غطّى السرير بطبقة سميكة من زهور الياسمين البيضاء كالثلج، تلك الأزهار التي قطفها في صباح ذلك اليوم وأفعمت الغرفة بعطرها المسكر. نزع عن سامية ثيابها وحملها برقة إلى السرير وأمضى وقتاً طويلاً وهو يضاجعها فوق بحر الياسمين. نضح جسداهما بعرق غزير أثناء ممارستهما الحبّ وتشبع جسداهما بعبير أزهار الياسمين.

بعد أسابيع من ذلك، ومهما فركت سامية جسدها عندما كانت تستحم، ظل شذى عطرهما يتضوع منها. حتى زوجها الذي تنبعث منه دائماً رائحة خيوله والذي لم يكن أنفه يتملك حاسة شم قوية، كان يتساءل عن سبب انبعاث هذه الرائحة الوردية من جسدها منذ عودتها من حلب.

وهكذا أطلقت سامية اسم ياسمين على الفتاة التي حملت بها في ذلك اليوم والتي أصبحت الطفلة الأثيرة لديها من بين جميع أولادها. كانت الفتاة تشبه أمّها، لكنّها تتحرّك وتتكلّم وتضحك مثل أبيها الحقيقي، مع أنها لم تره قط، لأن سامر، ابن خالة سامية، توفي بعد ذلك في حادث في عام ١٩٢٣ ولم تكن قد تجاوزت السنوات الثلاث من عمرها.

عندما تزوّجت ابنتها الأخرى مريم من أكبر أبناء سامر في صيف عام ١٩٣٨، لم تحضر حفل الزفاف، وأوت إلى فراشها متظاهرة بالمرض.

كان زوجها يوسف يكره حفلات الزفاف، لكنّه كان متيقناً بأن ابنته قد فازت بجائزة عظيمة بزواجها من يعقوب، ابن عائلة سامر الغنية التي تحظى باحترام كبير. ذهب يوسف لحضور الزفاف مع العروس وأخوتها بطرس وبولس وفارس وباصيل وموسى. كان جميع أبنائه قد تزوّجوا الآن، ولم يجلبوا معهم إلى حفلة الزفاف زوجاتهم فقط، بل أحضروا كذلك أقارب زوجاتهم. وجاءت كذلك ابنته أميرة وزوجها لويس من دمشق، وتعين عليهم استئجار حافلة تتسع لجميع أفراد العائلة، واستأجرت عائلة شاهين حافلة أخرى لأتباعها وجيرانها ووجهاء قرية معلا.

كانت ياسمين آنذاك في الثامنة عشرة من عمرها، وأرادت حضور العرس أيضاً لكنها اضطرت للمكوث في البيت بجانب أمّها التي تمارضت ولتساعد مدبرة المنزل سليمة في رعايتها. ومع أنها ذرفت دموعاً كثيرة ولم يجدها ذلك نفعاً.

ولمّا كانت أمّ يعقوب أرملة، فقد تكفّل جدّاه بإعداد حفل الزفاف. إذ أقام بطرس خوري، صاحب صناعة المنسوجات القوي، عرساً أشبه بأعراس ألف ليلة وليلة. وقدمت الراقصات والسحرة عروضاً مسلية للمدعوين وسط

twitter @baghdad_library

شتى أطايب الطعام التي قدمت بإسراف طوال سبعة أيام بلياليها، لأن أفضل الطهاة السوريين يوجدون في مدينة حلب، لا في دمشق.

وبالإضافة إلى المجوهرات الذهبية الكثيرة التي قدمها يوسف لابنته، فكّر بمفاجأة خاصّة. فقد جلب جواداً عربياً أصيلاً إلى حلب قاده فتى نحيل يعمل سائساً لديه يرتدي ثياباً عربية زاهية الألوان في يوم العرس. وقدم السائس بمهابة رسن الحصان المرصّع بالذهب للعريس المشدوه. همست مريم له بما يجب أن يفعل، ولدهشة جدّيه، وتصفيق المدعوين، مشى يعقوب، ابن العائلة المرموقة، بالحصان بشكل دائري، بثقة عالية بالنفس قبل أن يعيد الرسن إلى السائس، ثم ربّت على رقبة الحصان، وعاد ليجلس على المنصة المرتفعة إلى جانب عروسه، وقد بدا في سعادة بالغة.

نظر يوسف إلى الحصان وفي عينيه حزن. وقد سمعه جيرانه يهمس: «اذهب ببركة الله يا شفق. سنشتاق إليك كثيراً». لم يخطر ببال أحد أنّ مربي الحصان سيدفع حياته ثمن فراقهما، فلم تكن «صباح»، أجود فرس عنده، تحبّ إلا فحل الخيل «شفق»، وكانت تركل كل من سواه.

بعد عودته بفترة وجيزة، حاول يوسف أن يخصص حصاناً لفرسه، لكن «صباح» هاجت ولم تهدأ. وعندما عيل صبر يوسف بعد بضعة أيام، وقرّر أن يكسر مقاومتها، ركلته عندما اقترب منها وألقت به في الهواء على مسافة ثلاثة أمتار، فلقي حتفه.

كان يعقوب رجلاً ذكياً، ولم يكن مهتماً بتجارة والده بالأخشاب، بل يهوى تجارة جدّه، ففتح مصنعاً حديثاً للنسيج وهو في الثانية والعشرين من عمره.

عرف عن سامية بأنها امرأة حسودة. فقد كانت مجرد فكرة أن تكون مريم، من بين جميع الناس، التي تشبه والدها تماماً، محظوظة لأنها ستقترن بهذا الرجل الرائع تؤرقها. لأنها تمنت طوال تلك السنوات أن تحظى ياسمين بهذا الحظ، ودأبت على إرسالها لزيارة جدّيها في حلب خلال العطلة. لكن الفتاة الصغيرة، لم تكن في نظر يعقوب سوى ابنة ابنة خالته، وانجذب كثيراً

إلى مريم التي لم تكن على ذلك القدر من الجمال، لكنها فتاة ناضجة ومفعمة بالحيوية. فعندما يكون في صحبتها، يشعر بحاجة قوية إلى أن يحدّثها عن همومه كلّها، ويشعر باستعدادها للإنصات إليه، فيجعل الكلمات تتدفق من فمه كالسيل. ومعها فقط سمح لنفسه بأن يتحدث عن أفكاره التي لم تتشكل بعد، لأنها عندما كانت تصغي إليه، كانت هذه الأفكار تتبلور وتتحول إلى قناعات.

وعندما تعود مريم لزيارة بيت والديها، كان يعقوب يشعر بفراغ كبير في نفسه. هذا هو الحبّ الحقيقي. لم تكن أمّها فقط هي التي تحسد مريم على سعادتها، بل القرية برمتها. وشعرت مريم بالامتنان أيضاً ليعقوب لأنه أخرجها من معلا، ذلك المكان الذي تنهشه النزاعات والعداوات ليريها عالم حلب العظيم وفينيسيا واسطنبول. لقد أحبّت زوجها النحيل الفارع الطول الذي تطارده أعين النساء ويشتهين التقرب منه، لكنه على الرغم من ذلك، ظل مخلصاً لها إخلاص كلب. كان عبقرياً، وشأن معظم العباقرة، كان طفلاً بالغاً بحاجة إلى يد قويّة تدعمه. لكن السعادة رفيق لا يمكن الركون إليه. فقد مات يعقوب بسكتة دماغية بعد سنة واحدة من زواجها. ففي إحدى الليالي، استيقظ وطلب كأساً من الماء. فقفزت مريم من السرير. ثمة شيء أثار قلقها، وحتى عندما كانت واقفة في المطبخ، عرفت أن يعقوب قد مات. عادت إليه بكأس الماء. كان متدلياً من الفراش ولا يزال نصفه مستلقياً على السرير وظهره عارياً وقد مدّ ذراعيه كأنه يريد أن يمنع نفسه من السقوط. صرخت وطارت الكأس من يدها فتهشمت على الجدار. لم ترغب مريم في العودة إلى معلا لأنها تعرف أن القرويّين الغيورين يحقدون عليها لأنها سعيدة وكانت تتهمهم بأنهم هم من قتلوا زوجها بسهام حسدهم.

رحلت إلى دمشق وفتحت محل أزياء في حي الصالحية الراقي بالنقود التي جلبتها معها. ومنذ ذلك الحين، لم تعد ترطن إلا بالفرنسية وأطلقت على نفسها اسم ماري شاه.

twitter @baghdad_library

٣٧- سامية

لم تكن المرأة تعني شيئاً ليوسف الذي يعتبر الزواج وتأسيس أسرة كبيرة واجباً، أمراً مهماً في حسابات القوة. وفي تلك الليالي القليلة التي دأب فيها على زيارة زوجته، كان يأتي إليها لأنها تخبره أنه موعد مناسب لكي تحمل ثم يترك سامية وحيدة في السرير الكبير المريح المصنوع من خشب الأرز وفراشه الناعم المحشو بالصوف.

سرعان ما تلاشى افتتان سامية بيوسف الذي لم يتحوّل إلى حبّ أبداً، وتأكدت أن لا مكان لها في حياة هذا الرجل. فقد كان قلبه مليئاً بالخطط الطموحة التي يسمح لها بمشاركته في مناقشتها، لكن ذلك كلّ شيء. وأشيع في القرية - وشجّعت عائلة مشتاق على نشر هذه الإشاعة - أن سامية غير قادرة على الحبّ لأنها تحمل مضخة من الفولاذ في المكان الذي يوجد فيه قلب ينبض ويشعر لدى الآخرين، ما جعلها الشريك المثالي ليوسف.

كره جورج مشتاق هذه المرأة، لأنه كان يشعر بأنّ حظوظ عائلة شاهين قد تبدّلت منذ قدومها إلى معلا. فقد تغيرت قوة الضربات التي أصبح يوسف يوجهها له. إذ زُعم مثلاً أن توجيه تهم بالمؤامرة ضدّه لدى حاكم دمشق العثماني كانت من بنات أفكار سامية، فاقتيد مشتاق في الليل وتعرّض لخطر أن يحكم عليه شنقاً لولا تدخل بطريرك الكاثوليك في دمشق.

كان جورج على قناعة بأن زوجة شاهين امرأة تحكم بقلب من حديد. كانت تلميحاته عن تأثير سامية صحيحة، لكن فكرة أنّ لها قلباً من حديد كانت بسبب تذمره من ذكائها وفطنتها، لأن قلبها كان محباً حقاً، ومليئاً بالحزن. إذ سرعان ما فهمت أن يوسف قد حقق أهدافه من هذا الزواج. فقد كانت حاملاً بطفلها الأول بطرس قبل شهر من حفل الزفاف. ولم يهملها يوسف لأنه لم يكن يحترمها، بل لأنه لم يكن يهتم بها كامرأة، ولم يعد يناديها باسمها سامية، بل «أمّ أولادي».

في كل ليلة، اعتادت على أن تستلقي وحدها في السرير العريض

تتساءل ماذا يفعل سامر في هذه الساعة. لم تجرؤ على إخبار أحد، حتى سامر نفسه، لأنها تعتقد بأنها كانت تعيش إثماً دائماً، ولم تكف عن الصلاة، وبدأ ضميرها يعذبها من أجل زوجها الذي لم ينظر إلى امرأة أخرى قط، فقررت أن تقف إلى جانبه وأن تمدّه بكل ما تستطيع من دعم معنوي وعملي. فتعلّمت كيف تحبّ الخيول وكيف تكره عائلة مشتاق. كانت هي من جعل عيني يوسف تبرقان عندما حدّثته عن خطتها بإثارة مشاكل لخصمه الحقير. نظر يوسف إليها مفتوناً، وللحظة تمنّت أنّ يضمها إليه ويقبّلها لكنّه ابتسم لها فقط، وامتدحها بالقول الذي ما فتئ يكرّره طوال ثماني وعشرين سنة حتى آخر يوم في حياته. «*لقد حذّر النبي محمد نفسه أتباعه من مكائد النساء، وكان يعرف جيداً عمّ كان يتحدّث*».

كان جورج مشتاق يفرط في كلّ شيء، في الأكل والشراب، وفي الحزن والمرح، لكنه نادراً ما يخطئ في تقدير أعدائه.

٣٨- واحد وخمسون وواحد

كان يوسف شاهين يكنّ احتراماً كبيراً لزوجته، ويشعر بالامتنان الشديد لما تسديه إليه من نصائح، وتركها تختار أسماء أولادهما، وهو أمر لم يكن مألوفاً في ذلك الحين. ولما كان مزارعاً ومربي خيول غنياً، كانت لديه علاقات نسائية عديدة قبل أن يتزوج، أما الآن فقد بدا أنه قطع جميع الخيوط التي تربطه بماضيه. أما حاضر سامية، فكان يبدو متشابكاً بخيوط من الماضي، ألف خيط وخيط.

ومثل طفلة تصيح بصوت مرتفع لكي تتغلّب على خوفها من العتمة، دأبت سامية على القول لنفسها بأنها تستطيع أن تعيش وتضحك حتى من دون سامر، وآلت على نفسها بأن لا تفكّر فيه ثانية، وأن لا تعود إلى حلب إلا بعد أن تحكم قبضتها على معلا.

وطلبت من قلبها أن يكفّ عن البحث عن الحزن، وملأت حياتها بالواجبات العائلية، لكن قلبها كان عنيداً أصمَّ لا يعترف ككل القلوب

twitter @baghdad_library

بالمنطق. فعندما يسود الصمت حولها، كانت تكرّر السؤال نفسه، ساعة بعد ساعة وهو ماذا يفعل سامر الآن؟

منحتها حياة القرية الهادئة وأسلوب مزارعي الجبل الكتومين الوقت والحيّز اللذين ملأهما سامر. وفي بعض الأحيان، كانت تشعر بأن قلبها يخفق بسرعة ويملؤها الخوف والخجل عندما تسأل نفسها: هل يفكّر بي أيضاً؟ كانت هذه الأسئلة تولد من رحم خوفها من الإجابة بلا وخجلها من أنانيتها.

كانت تمتطي حصانها وتتركه يخب أو يجري كما يحلو له بين الجبال وهي تصيح اسم حبيبها بصوت عال في الريح، كما لو أنها لم تكن تريد أن تستمتع بسماع اسمه في أذنيها فقط، بل تطلب من الريح أن يحمل صوتها إليه أيضاً.

لم تذهب إلى حلب طوال ثلاث سنوات. لكن عندما مرض والدها، أخذت ولديها، بطرس وبولس، واتجهت شمالاً، والقلق يعتصرها. لم يرغب يوسف في الذهاب معها. عندما وصلت إلى بيت والديها، كان والدها في استقبالها، ومدّ ذراعيه إليها وهو يبتسم لها ابتسامة ماكرة، لم تكن تبدو عليه أي علائم مرض.

«لو جاء زوجك معك لأويت إلى الفراش»، قال الرجل المحترم العجوز الذي اعترف بأنه اشتاق لرؤيتها لكنه لم يكن يحب أن يذهب إلى معلا. كانت أمّها هي التي اقترحت إرسال رسالة تقول إنه متوعك صحياً. راح يتكلّم مثل طفل وهو يصف هذه الحيلة الناجحة ويصفع فخذه مبتهجاً.

كان ابن مدينة أصيلاً، ولم يكن يهمه بأنه لا يعرف الفرق بين البغل الحقيقي، الحيوان الهجين بين ذكر الحمار وبين الفرس؛ وبين النغل، نسل فحل الحصان والأتان. وأنه لا يستطيع التمييز بين حبوب الجاودار والقمح والشوفان، لكنه يستطيع أن يميّز، بعينين معصوبتين، أنواع الشاي من أول رشفة، وبإمكانه أيضاً أن يكلّم التركي والعربي والفرنسي والإيطالي بلغاتهم الأمّ.

في الأيام القليلة الأولى من زيارتها اعترى سامية إحساس غريب لأنها عادت إلى بيت أبويها، فقد راحت تنساب بخفة في أرجاء الفيللا الكبيرة مثل جنيّة، وقدم لها والداها الجناح الشرقي بكامله المجهز بحمام وغرفة نوم وغرفة جلوس ومطبخ، وخُصص لها خادمتان لرعاية ابنيها بطرس وبولس ليل نهار. لم تلحظ سامية كم شاخ والدها إلا بعد فترة قليلة، وقد أفزعها ذلك. فقد لاحظت ضمور بنيته ونحوله وهزاله وابيضاض شعره الذي أصبح كالثلج. أما أمّها فقد ظلت كما هي، متحفظة صارمة دقيقة في كلّ ما تفعله.

بغتة، وقف حبيبها عند مدخل باب غرفة الجلوس المخصصة لها. كانت تقرأ مجلة فرنسية. كان طويلاً نحيفاً، ترتسم على وجهه ابتسامة ساحرة. ارتبكت وأحست بالدوار.

«يا مريم العذراء»، همست.

«لا، سامر خوري بلحمه ودمه»، أجاب ضاحكاً. تضرّج وجهها، ولم تكد تقوى على النهوض والوقوف على قدميها. أمسك يدها وساعدها على النهوض من على الأريكة. ثمّ لامست شفتا سامية فمه بعطره الفواح. تنشقت رائحة حبيبها وذابت في استطارة من الفرح. عندما استعادت أحاسيسها، وجدت نفسها مستلقية معه على سريرها، يسبحان في عرقهما.

عادت إلى معلا تعذّبها ذكرى تلك الساعات التي أمضتها بين ذراعيه. كانت نهمة له، وفي الليل، عندما كان يخيّم الظلام والصمت على القرية يبدأ قلبها يخفق مثل طير يحاول الهرب من قفصه.

بعد ذلك، أصبحت تذهب لزيارة والديها كلّ سنة. وبعد فترة أصبحت ترى هي ويوسف بأن زيارتها إلى حلب أمر عادي. واحد وخمسون أسبوعاً من الوحدة، وأسبوع واحد فقط من النشوة.

٣٩- الصراع

لسنوات عديدة كان يعتريها شعور بالذنب تجاه يوسف. لم يكن غيوراً، وكان يبدي لها دائماً مشاعر الاحترام، ويسمح لها بزيارة والديها دون

twitter @baghdad_library

أن يسألها شيئاً. بدأت تشعر بأن تصرّفها لم يكن لائقاً. أما يوسف، فكان يبدو لها رجلاً فخوراً عزيز النفس، غامضاً، وهذا ما جعله موضع اهتمام بالنسبة لها، لكنه لم يبد أي تقدير لاهتمامها به.

أحبّ صحبة خيوله الأصيلة أكثر من صحبة أيّ مخلوق آخر. كان مربي خيول ناجحاً، وتعين على أثرياء العرب والفرنسيين الانتظار لشراء حصان من إسطبلات يوسف شاهين. كان يمتلك غريزة صائبة للتهجين لتوليد جيل بعد جيل من أجمل أنواع الخيول.

كان يبدو أنه يعيش من أجل خيوله فقط، وكان يحظى باحترام عشيرته ويثير خشية أعدائه. وبخلاف عدوه اللدود، جورج مشتاق، الذي كانت سمعته كفاسق وزان يعرفها القاصي والداني، والذي أصبح أباً لما لا يقل عن ستين طفلاً لقيطاً، والذي لم يتوقف حتى في أيامه الأخيرة، عن لمس أثداء أو مؤخرات النساء على نحو مخجل حقاً، كان يوسف، كما كان يراه القرويون، يتصرّف بلباقة مع النساء ولم تكن تدور عنه إشاعات همساً.

في إحدى الليالي، استيقظت سامية من كابوس. كان القمر بدراً. انتصبت جالسة في سريرها، مبللة بالعرق. في البداية، خشيت أن يكون أحد أطفالها قد أصيب بمكروه. حلمت أن البيت يحترق وسمعت أصوات ولديها من وراء ألسنة اللهب المنيعة. لكنها عندما هرعت إلى غرفتهما القريبة من غرفتها وقلبها يخفق بقوة، رأت ابنيها نائمين بسلام مثل ملاكين صغيرين، فعادت إلى غرفتها. لكن إحساساً بعدم الارتياح تملكها ثانية. «الخيول»، قفزت من مكانها، ودون أن تصدر صوتاً هبطت الدرج إلى الطابق الأرضي واجتازت الساحة المظلمة نحو الإسطبلات الخافتة الإضاءة. تسمّرت في مكانها. في البداية، لم تسمع سوى همسات وتنهدات زوجها، ثمّ رأته بأمّ عينها.

كان مستلقياً فوق ظهر أحمد، عامل الإسطبل الشاب. كان يوسف يلكز الفتى، يداعبه طوال الوقت، يغدق عليه كلمات مفعمة بالحبّ وقبلات لم يقبّلها بها قط. كان الفتى فظاً ولم يكن يبقى ساكناً، وكان زوجها، حاكم

عشيرة شاهين الكبيرة، يتوسل إلى عامل الإسطبل بأن يمنحه قليلاً من الحبّ والمودّة مثل رجل متيّم.

هكذا إذاً، قالت لنفسها، وهي عائدة إلى غرفتها، فإنه يحبّ الفتيان الضامرين.

لم تأت على ذكر ميوله الجنسية هذه في أي حديث معه، لكن بعد تلك الليلة لم يعد ضميرها يؤنبها، وأضحت علاقتها مع زوجها تتسم بمزيد من الهدوء. من جانبه كان يوسف مستمتعاً بحياته مع سامية التي أنجبت له ثمانية أطفال أصحاء وربّتهم ليصبحوا جميعاً رجالاً ونساء أذكياء. لكنه يلاحظ أحياناً أنه في جميع الشجارات التي تنشب بينه وبين زوجته، كان جميع أبنائه، ماعدا ابنه البكر بطرس، يصطفون إلى جانب أمّهم، وخيّل إليه أن ذلك بسبب تقلبات القدر، فأصبح يتحاشى أيّ جدال مع زوجته في سنواته الأخيرة.

لم يدرك مربي الخيول أن محبة الأطفال ومودتهم لأمّهم ناجمة عن رعايتها لهم منذ طفولتهم. وكانت سامية قد سمعت أمينة، القابلة، تقول أثناء مرورها ذات يوم: «المستقبل بيد الذين يملكون قلوب أطفالهم فقط». وبالرغم من أن أمينة امرأة أميّة، فقد كانت تمتلك حكمة مختزنة منذ آلاف السنين.

٤٠- فارس الطموح الصبور

كان يوسف زعيم العشيرة بدون منازع. لم يخلفه شقيقه طانيوس المصاب بمرض السل، أو شقيقه الأصغر المراوغ سليمان، بل ابنه البكر بطرس الذي استخدم الرشوة والابتزاز لكي يصطف جميع أقاربه إلى جانبه. ففي أثناء حياته، دعا يوسف أهم الرجال في عشيرته لزيارته وطلب منهم أن يضعوا أيديهم على الكتاب المقدس ويقسموا بأن تبلى أذرعهم إذا انقلبوا على ابنه بطرس بعد موته.

كان ذلك أسوأ يوم في حياة سليمان. وبسبب إلحاح أمّه، الأرملة

twitter @baghdad_library

القاسية التي كانت تحت تأثير سحر ابنها البكر، يوسف، بأن يعد بالطاعة بصوت مرتفع واضح عندما يأتي دوره. يوسف لم يثق به وظل مرتاباً، وعندما صدح سليمان ويده على الإنجيل المقدس أنه يقبل بكل رحابة صدر أن يقود بطرس عشيرة شاهين، ضمه يوسف بين ذراعيه وهتف مهللاً للحاضرين: «أنتم شهود: إذ سيتبع أخي العزيز سليمان ابني بطرس، لمصلحته ولمصلحتنا جميعاً. وأي شخص ينقلب عليه فإنه يفرّط بحياته، وعندها لن يساوي قشرة بصلة. هل توافقون على ذلك؟» فوافق الجميع.

كان بطرس شجاعاً كريماً ما دام المرء يطيعه، لكنه بعكس والده، كان عديم الرحمة مثل عقرب إزاء الذين يخذلوه: صامت، مخادع، مهلك.

أما فارس، ابن يوسف الثالث، فاعتبر نفسه رئيس العشيرة القادم، وأدرك أن أكبر عقبة تقف في طريقه لم تكن والده بل شقيقه الأكبر، ولم يكن يعتبر أنه توجد مشكلة مع شقيقه الأكبر الثاني. فقد كان بولس بسيطاً ولم يكن يبالي سواء أأمسك بالسلطة أم أمسك بضرع إحدى بقراته الكثيرات.

لم يخطر في بال فارس أن شقيقيه اللذين يصغرانه، باصيل وموسى، يشكلان خطراً عليه أيضاً. فقد كان باصيل طالباً داخلياً في المدرسة الفرنسية في دمشق، يريد الذهاب إلى باريس لمواصلة دراسته بعد حصوله على شهادة البكالوريا. وكان موسى يريد إنشاء شركة شحن، فقدم له والده شاحنته الأولى وهو في التاسعة عشرة من عمره. كان يوسف شاهين يرى أن ذلك سيجعل طريق النقل بين معلا ودمشق في قبضته. لكن موسى ظل يفكر، حتى نهاية حياته القصيرة في جميع الأحوال، بالنساء أكثر مما كان يفكر بعمله.

كان والده يعرف جيداً علاقات ابنه الغرامية، فمنحه مهلة سنة، ثم زوّجه ريحانة من مدينة اللاذقية. كانت ريحانة امرأة جميلة، لكنها تكره الحياة في القرية. أقيم حفل الزفاف في عام ١٩٣٣. وبعد زواجهما، ظلت ريحانة تلحّ على زوجها للانتقال إلى اللاذقية. وكانت تقول له إن باستطاعته

إنشاء شركة شحن فيها. ولكي تربط موسى بها، أنجبت له طفلين، فتاة تدعى منى، تيمناً باسم أمّ يوسف، رئيس العشيرة، وصبياً دعته سعيد متيمنة بهذا الإسم لعله يجلب لها السعادة. لكن الطفلين لم يروّضا موسى ولم يجعلاه وفياً، إذ قيل إن لديه عشيقة في كلّ قرية من القرى الممتدة على الطريق إلى دمشق. وفي النهاية،لم تكن قيادة شاحنته على الطريق الخطيرة المتعرّجة المليئة بالحفر، بل امرأة أمريكية شقراء جميلة، هي التي استدعت، ربما بدون قصد، ملاك الموت ليحصد حياة موسى. فقد جاءه قابض الأرواح في ٧ نيسان ١٩٤١.

بعد موت موسى بفترة قليلة، تلقت أرملته مبلغاً كبيراً من المال، هو حصة زوجها في ممتلكات العائلة، ووقّعت في بيت مختار القرية وثيقة تتخلى فيها عن أيّ مطالبة بالميراث لها ولطفليها، وانتقلت إلى اللاذقية مع منى وسعيد. بعد فترة وجيزة، تزوّجت مدير معمل تقطيرَ العرق في المدينة، ومنذ ذلك الحين، حملت اسم عائلته، البستاني، ولم تعد ترغب في الاتصال بعشيرة شاهين.

لم تكن أخوات فارس الثلاث يشكلن خطراً على مخططاته الطموحة أيضاً، ولم يكن للنساء ما عدا الأم سامية أي رأي بشأن السلطة في البيت أو العشيرة. لذلك أرسلت سامية بناتها الثلاث إلى المدرسة الداخلية التي تديرها «إرسالية راهبات قلب يسوع الأقدس» في دمشق: في البداية أميرة ثمّ مريم وأخيراً أصغر بناتها ياسمين. لذلك أدرك فارس أن بطرس هو المنافس الجدّي الوحيد له. لكنه كان يدرك أيضاً، أنه إذا أراد، هو فارس، أن يبعده عن طريقه، فلن يتردّد شقيقه، إذا شعر بذلك، للحظة واحدة في أن يقتله. لذلك، بدأ يعمل على ذلك بتؤدة، ووضع فارس خطته لأول مرة في صيف ١٩٣٥، ولما يتجاوز الحادية والعشرين سنةً من العمر، وكان عليه أن ينتظر حوالي عشرين سنة أخرى قبل أن تحين فرصته. لكنه انتهزها حينها بدون تردد.

twitter @baghdad_library

٤١- موسى وحسيب

جرت محاولات كثيرة في معلا لعقد صلح بين العشيرتين، لكن لم تنجح أي منها، وانتهت المحاولة الأخيرة التي قام بها مطرانان بكارثة. فقد كان يؤمل أن تأتي إشارة من السماء توصل النزاع الدموي إلى خاتمة سلمية.

فقد شعر مطران الكنيسة الكاثوليكية ومطران الكنيسة الأرثوذوكسية في دمشق أن العداوة بين العائلتين أمر مخزٍ، لاسيما أن القرية تقع في وسط منطقة يقطنها مسلمون. فقد كانت التقارير المأساوية المتزايدة عن هذا الصراع الدموي تزيدهما حزناً وهماً. وصُم الزوّار القادمون من خارج القرية بأنهم أعداء لإحدى هاتين الكنيستين إذا تبرّع أحدهم بقرش واحد للكنيسة الأخرى. وفي أحيان كثيرة كانت راهبات ورئيسات الأديرة يرفضن السماح للوفود الأجنبية بزيارة أديرتهن إذا زارت أديرة منافساتهن أولاً.

وفي عام ١٩٤١ كان يفصل احتفالات الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذوكسية بيوم الفصح، أسبوع واحد فقط. فقد كانت الكنيسة الأرثوذوكسية تحتفل بقيام المسيح حسب التقويم اليولياني في السابع من نيسان، وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية حسب التقويم الغريغوري في الرابع عشر من نيسان. لذلك اتفق المطرانان على استمرار الأعياد بمناسبة المصالحة طوال الأسبوع حتى تنطبع في ذاكرة الفلاحين إلى الأبد. وكدليل على الإخاء، وافق المطرانان على إقامة القداس معاً في عيد فصح الأحد في بداية الاحتفالات بالقرب من كنيسة القديس جاورجيوس الكاثوليكية، ثم تناول الغداء في دير مار تقلا الأرثوذوكسي. وفي يوم الأحد التالي، يحتفل كهنة القرية بإقامة صلاة في مكان قريب من دير مار تقلا مع العشيرتين، ويتناولون طعام الغداء في الساحة قرب كنيسة القديس جاورجيوس.

في يوم الأحد ذاك، ٧ نيسان ١٩٤١، ذرف الكثير من أهالي معلا دموعاً حارة لأنهم لم يروا في حياتهم في القرية مثل هذه الصلاة الكنسية الرائعة التي أقيمت في العراء، في ساحة القرية.

جاء جميع أفراد عائلة مشتاق وعائلة شاهين إلى معلا، ودعوا جميع أصدقائهم وحلفائهم. لم يكن هناك ألفا شخص في القرية في ذلك اليوم فقط، بل سبعة آلاف. كانت السماء زرقاء صافية، والشمس مشرقة كما في الصيف. بعد الصلاة المهيبة، منح المطرانان المصلين بركاتهما، وافتتحا احتفالات عيد الفصح، فبدأ العازفون يعزفون الناي والعود والطبول لمرافقة الرقصات الجارية. وفي حوالي منتصف النهار، كان من المزمع أن ينطلق موكب مهيب طويل إلى دير مار تقلا العظيم حيث يستعد الطهاة لوصول الجموع منذ أسبوع. لكنّ فجأة بدأ كلّ شيء يسير بشكل خاطئ.

ففي حوالي الساعة الحادية عشرة، سُمعت ثلاث طلقات، قتلت الطلقة الأولى موسى شاهين. وكان قاتله حسيب، الابن الثاني لجورج مشتاق الذي جاء إلى معلا من بيروت خاصة ليكون في صحبة والده في هذا اليوم العصيب.

كان حسيب قد درس الطبّ في الجامعة الأمريكية في بيروت. كان تلميذاً موهوباً في المدرسة، فأرسل مشتاق ابنه ليدرس في بيروت بدلاً من دمشق لأنه دأب على القول: «إذا درست في دمشق فلن تتعلّم شيئاً أكثر من أن تكون جزّاراً». أنهى حسيب دراسته بتفوق في عام ١٩٣٧. وكان ينوي أن يعمل في مستشفى في بيروت لثلاث سنوات أخرى ريثما تنهي زوجته الأمريكية دوروثيا دراستها للغة العربية. كان يأتي إلى معلا كلما أمكنه ذلك، لأنه يحبّ القرية ويحب والده. كان مشتاق مولعاً بابنه الذكي وبزوجته التي تتكلّم العربية أفضل مما يتكلمها الكثير من العرب.

وزعمت الألسنة الخبيثة، مدعومة بافتراءات ساهمت في نشرها عائلة شاهين بذكاء، أنّ كنّة مشتاق العجوز، لم تكن تأخذ لمسات العجوز بجدية، وكان حسيب شديد الغيرة ويستشيط غضباً إذا اقترب أحدهم من زوجته.

بعد القداس الإلهي الذي أقيم في ذلك اليوم من شهر نيسان ١٩٤١، كان من المزمع أن تعقد حلقات الرقص والغناء إلى أن يحين موعد مأدبة المصالحة في دير مار تقلا. كان الفناء الداخلي لكنيسة القديس جاورجيوس

twitter @baghdad_library

أفضل مكان للإحتفال. جلس المطرانان فوق المصطبة وراحا يتفرجان على أهالي القرية وهم يرقصون، ويبتسمان لهم بامتنان. اصطف الناس ودارت كؤوس العرق الذي تبرّعت به العشيرتان المتنافستان، ومزجهما المطرانان بطريقة رمزية في قناني كبيرة لتوحيد المشروب بين الطائفتين. وسرعان ما بدأ مشروب اليانسون الذي كانت تزيد نسبة الكحول فيه على خمسين في المائة، يؤدي مفعوله.

كما ذكرنا، كان موسى، الابن الثالث ليوسف شاهين، زير نساء، مع أنه كان متزوّجاً وأباً لطفلين. ولم يتوقف عن التحرش بالمرأة الأمريكية الفارعة الطول في ذلك اليوم، وشعر بالسعادة لأنه ظن أنها امرأة سهلة المنال.

كان موسى رجلاً وسيماً، جريئاً. ولعل المرأة الشقراء قد أعجبت بملاطفاته الفظة، الذي بدا لها مثل صبي صغير، ووجدت محاولاته للتحدث إليها باللغة الانكليزية أمراً مضحكاً ومسلياً، هنا في نهاية العالم. لكن موسى اعتبر أن ضحكتها تعني أنه رجل لا يقاوم فدسّ يده داخل بلوزة المرأة الأمريكية. لم يكد يلاحظ أحد، لكن دوروثيا تسمّرت في مكانها فجأة متشنجة من هول صدمتها.

قطع حسيب الذي كان ثملاً بعض الشيء حديثه وهمس لموسى بأن يدع زوجته وشأنها. لكن موسى الذي راح يجرع كؤوسه الآن بنهم، ردّ بملاحظة مهينة بأنّ أي امرأة لها علاقة بجورج مشتاق العجوز هي صيد مباح سهل للجميع.

لم ينبس حسيب بأي كلمة، بل ترك زوجته هناك واختفى.

ضحك أنصار شاهين المتحلقين حول موسى بصوت مكتوم لكي لا يلاحظهم المطرانان، لكن حسيب لم يغب طويلاً، بل عاد بسرعة. وجّه فوهة المسدس نحو جبهة خصمه فتجمّدت آخر ضحكة على شفتي موسى.

رددت الصخور صدى تلك الطلقات الثلاث التي رنّت عبر وديان الجبل. ساد الرعب، وقبل أن يتفرق الحشد، كان هناك أكثر من عشرة

أشخاص من كلّ من العشيرتين مستلقين على الأرض بعد أن أصيبوا بجروح بليغة في الفناء الداخلي للكنيسة.

داس الرجال والنساء الهاربون الذين دب الذعر في نفوسهم فوق جثة موسى وراحوا يركضون نحو الباب ينشدون سلامتهم. بعد ذلك، وعلى نحو غريب، لم يتذكّر الكثيرون تفاصيل عملية القتل بنفس الوضوح الذي ذكرته إحدى القابلات التي يبدو أنها أخبرت موسى قبل عدة أسابيع بأنّها رأته في الحلم وقطيع من الأبقار يدوس فوقه.

أمسك حسيب يد زوجته بهدوء. لم يتّجه نحو بوابة الفناء بل اجتاز الكنيسة وغادر من بوابتها الرئيسية، ووصل بسرعة إلى باحة دار والده. قبّل حسيب يد الرجل العجوز، وتلقى قبلتين حارّتين على خدّيه.

«لقد أريتَ هذا اللقيط من هو مشتاق»، قال جورج، «وبعملك هذا أنقذتني من النفاق الذي أعده هذان المطرانان الغبيان. بارك اللّه فيك أينما ذهبت»، ووضع كيساً مليئاً بليرات ذهبية في جيب سترة ابنه وقال له بهدوء: «اترك كلّ شيء هنا واهرب. يمكنك أن تشتري كل ما تحتاج إليه في بيروت. قبّل ابنك عني»، وأشار إلى خادمه المطيع باسل الذي قاد ابن مشتاق وزوجته الشاحبة إلى المكان الذي تنتظر فيه الخيول وراء بوابة المزرعة الكبيرة.

بعد ثلاث ساعات تماماً، وصل الزوج والزوجة إلى الحدود اللبنانية.

وصل حسيب إلى بيروت في صباح اليوم التالي. باع الخيول، وجهّز الأوراق الضرورية له ولزوجته ولابنه جورج البالغ من العمر أربع سنوات وسافر إلى أمريكا. وصلت رسالته الأولى إلى البيت بعد ثلاثة أشهر. وفي السنوات القادمة، عرف أبوه، ولشدة ما كان سعيداً بذلك، أن ابنين آخرين هما، جاك وفيليب، سيحملان اسم مشتاق إلى القرن التالي. لكن عنوان حسيب ظل مجهولاً لأنه يعرف أن لدى يوسف شاهين أبناء عم في أمريكا.

twitter @baghdad_library

٤٢- نهاية أمل

يا إلهي، قال جورج مشتاق لنفسه عندما اختفى حسيب في الوادي الغربي فإن هذين الأخوين، إلياس وحسيب، عالمان منفصلان. فعلى الرغم من أنهما رُبّيا تحت سقف واحد، كانا مختلفين اختلاف الليل والنهار.

فعلى الرغم من أن حسيب كان يعيش بعيداً في بيروت، كان دائماً قريباً من قلب جورج، ولا بدّ أنه كان يشعر بما يرغبه والده.

كان جورج مشتاق في مأزق. فلم يكن بإمكانه أن يبدو غير متعاون أمام المطرانين. لكن حسيب جاء، وساعده على نحو بطولي في الخروج من مأزقه ثم اختفى بهدوء مرة أخرى.

ثلاث طلقات! تدفق دم موسى كما يتدفق دم الكلاب التي كان هذا المتهور يدعسها متلذذاً بسادية غريبة بشاحنته.

وما أشدّ بهجته حين نسي والد حسيب كلّ شيء آخر، حتى الألم الذي كان ينخزه بالقرب من قلبه منذ شهور. في ظهر يوم عيد الفصح ذاك، وقف على شرفته، وراح يراقب الهرج والمرج الذي عمّ ساحة القرية، وراح يضحك هو وابنه سلمان حتى دمعت عيناه عندما رأى مطران دمشق الكاثوليكي الواقف في وسط الفلاحين وهو يبدو ضائعاً يبحث بيأس عن سائقه. عندما رأى سيارته الفاخرة السوداء، وكيف استخدم عصاه المعقوفة كهراوة فوق رؤوس الفلاحين ليشق طريقه عبر حشدهم المتلاطم. حتى أنه تجاهل منافسه الأرثوذوكسي الذي ما فتئ يناديه طالباً منه أن ينتظره. لم يحسّ بالأمان حتى استقر به المقام في مقعد سيارته الخلفي وهو يلعن الهمج في هذه القرية. عندما قرع أحدهم على النافذة وصاح، «مطران الأرثوذوكس يطلب منك أن تتوقّف. أرجوك توقّف»، لكنه لم يلتفت إليه وانطلقت سيارته مبتعدة.

جاء إلياس إلى معلا في عيد الفصح ذاك مع كلير وطفلهما الرضيع فريد، واستأجر شقّة صغيرة، راجياً أن يتمكن من مصالحة والده لأنه ظن أن المصالحة المزمعة بين هذين العدوين اللدودين، عشيرتي مشتاق وشاهين،

فرصة ملائمة. وفي لقاء قصير، نصح سلمان إلياس أن يكون ودوداً مع عائلة شاهين.

عندما لعلع صوت الطلقات وهرب المطران مذعوراً، انتظر إلياس قليلاً. فرغت ساحة القرية. لم تشأ كلير أن يذهب لزيارة أبيه خشية أن يقتله قناص قبل أن يصل إلى بيت مشتاق، لكن إلياس حسم أمره، وقال: «الآن أو لا»، وتركها مع فريد الصغير، معرضاً حياته للخطر، راح يغذ الخطى عبر الساحة، وبآخر قطرة من شجاعته قرع باب والده. فتح سلمان شق البوابة. كان يقف وراءه خادمان مسلّحان، وكان سلمان نفسه يحمل مسدساً في يده.

«ماذا تريد؟» سأله باقتضاب، وظلّ واقفاً في مكمنه وراء البوابة.

«أريد أن أرى أبي. أريد أن يمنح ابني فريد بركاته»، أجاب إلياس وهو على وشك أن يبكي.

«انتظر هنا». أمره سلمان، وأغلق الباب. لم تمض فترة طويلة حتى ظهر سلمان في شقّ البوّابة مرة أخرى.

«إنه لا يريد أن يراك». كان ثمة انتصار في نبرة صوت سلمان.

٤٣- بطرس وصموئيل

عندما انتهت حياة ياسمين شاهين، بعد عدة سنوات، عند مدخل سينما دمشق، كان تسعة من بين عشرة أشخاص من أهالي معلا يظنون أن القاتل هو مشتاق، لكنّهم كانوا مخطئين، لأن القاتل هو صموئيل ذو الستّة عشر ربيعاً من عائلة شاهين. وأقرّ أصدقاء العشيرة وأعداؤها بأنّ قصّة ياسمين لم تحك حتى نهايتها. فقد أشيع منذ زمن بعيد في القرية بأنها أحبّت مسلماً، وهو رجل متزوج، وهربت معه. ثم عادا بعد خمس سنوات إلى دمشق.

في تلك الفترة اتصلت ياسمين بابنة أخيها رنا البالغة من العمر عشر سنوات، وابن أختها صموئيل اللذين كانت تحبهما كثيراً، وكانت تأمل أن تصالح، بواسطتهما، شقيقها باصيل، والد رنا، وأختها أميرة، أمّ صموئيل.

twitter @baghdad_library

فهما الوحيدان اللذان انتقلا ليعيشا بعيداً عن القرية وعن تعصّب أهلها. كان باصيل محامياً ناجحاً، درس الحقوق في باريس، وكان يكره العادات البالية، ويزدري الكنيسة والمسجد على حدّ سواء. كانت ابنته رنا فتاة حسّاسة، ثاقبة البصر، شجاعة، ترغب في قطع أي صلة لها بالقرية.

أحبّت ياسمين ابن أختها صموئيل كأنه ابنها. فهو أول أبناء أختها أميرة التي أنجبت بعده ستّ بنات. وأحبّت أميرة الحفلات والرقص، وارتادت هي وزوجها جميع النوادي التي يرتادها الفرنسيون أو العرب الأغنياء. ومع أنها أنجبت هذا العدد من الأطفال، ظلت ممشوقة القوام كما كانت في ليلة زفافها في عام ١٩٣٤. ولعدم وجود وقت كاف لديها، جلبت مدبرتي منزل للاعتناء بالفتيات الصغيرات على الأقل. كره صموئيل مدبرتي المنزل وأمضى معظم لياليه في بيت خالته ياسمين، يدرس ويتناول وجبات طعامه.

أما رنا فلم تحبّ صموئيل الذي اعتبرته فتى مدّعياً، متباهياً بنفسه، مهووساً بالمسدسات. وقد انتسب لنادي الرماية في سن مبكرة وأصبح وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره عضواً في الفريق الوطني، وقد زيّن والداه غرفته بصوره وكؤوسه، كما لو أنه لا وجود للفتيات الستّ على الإطلاق.

تمنت ياسمين شيئين اثنين: فقد خيّل إليها أن كلّ ما يحتاج إليه صموئيل هو الرعاية والحب حتى يصبح فتى حنوناً، رقيق القلب لكن كل عنايتها به لم تكلل بالنجاح، وتمنت عند عودتها أن يقنع أمّه بأن تتوسط لها لدى جدته سامية شاهين التي تتحكم بحياتهم كلها لتنجو من غضب إخوتها الثلاثة، بطرس وبولس وفارس. فإذا منحت سامية، أرملة يوسف شاهين، مباركتها لابنتها، فلن يجرؤ أحد، حتى بطرس، على رفع يده على ياسمين. بالطبع لن يرحب بها أحد، لكنّهم لن يسلبوها حياتها هي وزوجها.

حدّثت ياسمين رنا كثيراً عن حبها لزوجها وقالت إن لا أهمية كبيرة للدين في القرارات التي يتخذها القلب، وكانت تكرر دائماً أبيات شيخ الصوفية ابن عربي الذي يقع ضريحه في مدينة دمشق ويبجّله السوريون

كثيراً، حتى أنهم أطلقوا اسمه على الحي الذي يقع فيه مسجده، والذي قال قبل سبعمائة سنة:

لقدْ صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورة فمَرْعَى لغِزْلاَنٍ وديرٌ لرُهْبانِ
وبَيْتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ، وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجَّهتْ رَكائِبُهُ فالحُبُّ ديني وإيماني

لكن والد رنا ووالدتها رفضا رؤية عمتها. إنها خائنة، صاحت أمّ رنا، امرأة تخلت عن دينها من أجل مسلم. لم ينبس والدها بكلمة، وتصرّف كأنه لم يسمع ابنته تطلب منه أن يتوسط لعمتها ياسمين لدى الجدة. لكن بعد عدة سنوات اكتشفت رنا أن باصيل على الرغم من أنه لم يردّ عليها آنذاك تقديراً لزوجته، فقد ذهب سرّاً إلى معلا وأمضى ليلة كاملة محاولاً أن تغيّر سامية رأيها.

كانت سامية عنيدة، فقد جرحتها ابنتها جرحاً شخصياً لأنها أخفت عنها هذه العلاقة لسنوات عديدة، لكنّها كبحت جماح ابنيها ذوي المزاج الحادّ، بطرس وبولس، اللذين هاجا وماجا واتهما شقيقهما باصيل عندما حاول تهدئة امه، بأنه عديم الأخلاق. بل إن بطرس أراد أن يطرد باصيل من البيت، لو لم تمنعه أمّه من ذلك.

«اجلس يا ولد. ما دمت لا أزال على قيد الحياة لا أسمح لأحد أن يطرد أحداً من هذا البيت إلا أنا، وعلى الأخص أن يطرد ابن لي».

تنحى بطرس وبولس جانباً مفسحين له الطريق لكي ينصرف. حافظ فارس على هدوئه وراقب كلّ ما يدور حوله.

بعد أسبوعين جاءت أميرة ومريم تطلبان ذات الشيء وتؤكدان لأمّهما أن أحداً لم يعد يكترث بمسألة الدين في دمشق، بل أصبح كل ما يهم الناس هو شخصية الرجل وأن المسلمين أناس طيبون أيضاً، وضربا لها مثالاً بالسياسي المسيحي فارس الخوري الذي أصبح رئيس وزراء ورئيس برلمان دولة سوريا والذي انتخبه الشعب بكل طوائفه.

twitter @baghdad_library

لم ترد أمّهم، لكنها لم ترفض ما سمعته رفضاً قاطعاً. وقال بولس، ابنها الثاني، أموراً سخيفة، وصمت بعد أن أنبته مرتين، كان يتذمر أحياناً، فبدون قيادة بطرس فهو ليس إلا راعي أبقار بسيطاً.

جلس بطرس قبالة أمّه إلى الطاولة الضخمة، آخذاً مكان أبيه بزهو. كان كالح الوجه ولم يفه بكلمة واحدة. في تلك اللحظة، أدرك فارس أن شقيقه الأكبر شعر أن أمّهم ستقبل بمصالحة ابنتها الأثيرة لديها.

لم يخطأ حدس فارس في أن بطرس سيفعل أيّ شيء لمنع هذه المصالحة. فأخذ يراقب كلّ حركة يقدم عليها شقيقه. بهذه الطريقة فقط اكتشف ما قاله بطرس لصموئيل الشاب عندما عادت أميرة لتحاول أن تغير رأي أمّها. في هذه المرة أحضرت زوجها وابنهما المدلل الذي لم يحبه فارس إطلاقاً. عندما غادر بطرس الغرفة تبعه، صامتاً كظلّه، وسمع حديثه مع ابن أختهم.

اختبأ فارس وراء كومة من التبن عندما خطرت له خطة شيطانية فجأة. سمع بطرس يقول لصموئيل إن المسلمين هم المسؤولون عن تأخر بلاد العرب. لم يفهم الصبي شيئاً مما قاله له. ثمّ بدأ بطرس يتحدّث عن الأبطال الذين أنقذوا شرف وسمعة أسرهم وفازوا بالخلود، ثم وعد الصبي بجائزة كبيرة: أجود حصان في إسطبلات شاهين، وأحدث مسدّس في العالم مع علبة طلقات. ربما كان ثلاثة رجال على سطح الكرة الأرضية يحملون مثل هذا السلاح، وقد يكون المسدّس الرابع من نصيب صموئيل، وشيئاً فشيئاً، وقع الفتى في الفخ، وسأل عن عقوبة القيام بذلك، فأخبره بطرس أن الحكم هو السجن لمدة ستّة أشهر كأقصى حد لأن ذلك يعتبر انتقاماً لشرف عائلته، فضلاً عن أنه لا يزال قاصراً.

في تلك اللحظة بالذات، عرف فارس أن الموت كُتب على أخته ياسمين. أخيراً، قبّل بطرس ابن أخته ووعده بأن يجلب له شخصياً الحصان إلى دمشق، فصرخ صموئيل قائلاً: «سأقتلها على خيانتها».

تساءل فارس هل يمكنه إنقاذ حياة أخته. جاءه الجواب بسرعة. لا، لا

أحد يستطيع إنقاذها. لقد أصبحت صيداً سهلاً، وقرّرت هي نفسها أن تتحدّى الموت. فلو هربت إلى أمريكا لعاشت بقية حياتها هناك ولم يمسها أحد، لكنّها تريد أن تتباهى كالطاووس. ففي شخصية ياسمين قدر من التهور وهي تستمتع بأن تكون تحت الأضواء. لكن باتخاذها هذا الموقف، حكمت بنفسها على نفسها بالموت.

وهكذا لم يرح صموئيل بطرس وبولس فقط، بل كذلك فارس من عبء واجب متعب، فحتى إذا منع الفتى من أن يُقدم على قتل ياسمين، فإن بطرس سيدفع شخصاً آخر لقتلها. أما إذا صمت، فقد يثبت، على الأقل، من هو الذي يقف وراء القاتل الشاب المتحمس. عرف تماماً من سينتقم من الرجل الذي دفع صموئيل بطريقة شرّيرة: سامية، سيدة العشيرة.

أحس بالسلام في سريرته.

٤٤- رثاء الأمّ

لم تقبل سامية أن تدفن ابنتها في معلا، بل في دمشق، واختارت الكاتدرائية المريمية الواقعة في الشارع المستقيم التاريخي، التي تعد أكبر كنيسة أرثوذوكسية في البلاد، وأدى صلاة الجنازة مطران وستّة قساوسة.

كانت الكنيسة كبيرة جداً ولم يأت إلا عدد قليل من المعزين. ومع أن سامية استأجرت خمس حافلات لنقل المعزين، فإن عددهم لم يكن يتجاوز المائة شخص جاؤوا من معلا ومن حلب. حتى الأقارب والأصدقاء الذين جاؤوا، فقد حضروا الجنازة على مضض، لأن السيدة سامية أشاعت بين الجميع أن ابنتها ماتت كما عاشت، مسيحية مؤمنة حقيقية تنتمي إلى الكنيسة الأرثوذوكسية.

في الواقع لا يرغم القانون السوري المرأة التي تتزوّج مسلماً على اعتناق الدين الإسلامي. وبالطبع يصبح جميع أطفال هذا الزواج مسلمين، لكن ياسمين لم تنجب أي طفل.

جلس أفراد أسرة أميرة، أمّ صموئيل وجميع أبناء وبنات سامية مع

twitter @baghdad_library

أسرهم في الصف الأمامي، أو على الأقل جلسوا هناك حتى ألقت سامية كلمة مرتجلة تحدثت فيها عن ياسمين، كانت جزءاً من الصلاة.

التصق فارس بأمّه في ذلك اليوم. أمسك ذراعها حتى وصلت المراسم إلى الكلمة الفاترة التي ألقاها المطران الشاب، والتي ركز نصفها على إدانة المرأة المقتولة وقاتلها صموئيل، ونصفها الآخر على طلب المغفرة والرحمة لهما. في تلك اللحظة، نزعت سامية العجوز ذراعها من قبضة ابنها وتوجّهت إلى التابوت أمام المصلين وقبّلت جبين القتيلة.

«يا مريم العذراء، يا أمّ يسوع، اسمعي صلاتي! ها أنا أضع بين يديك روحاً رقيقة، ماتت بريئة، بريئة»، قالت سامية، رافعة صوتها مرة أخرى، «لأنها اتبعت ما أملاه عليها الحبّ. فإن قلبها يخفق للمسيح الذي علّمنا أن نحبّ أعداءنا. والآن جاء القتلة وقتلوها لأنها أحبّت رجلاً غريباً، والآن يطلب مني هذا الكاهن أن نصلّي من أجل الذين قتلوا امرأة تحبّ، باسم الشرف. أيّ شرف هذا؟ أيّ شرف؟» صاحت سامية بصوت منكسر، وهي ترمق المطران الذي وقف مسمّراً في مكانه مثل تمثال شاحب عند المذبح، ثم واصلت كلامها، «أيّ شرف هو ذاك الذي ينشده الرجال، لا في ساحة المعركة، بل في امرأة يكنّون لها كلّ الاحتقار والكراهية؟ أي شرف يملكه هؤلاء القتلة الذين حرموني من ابنتي التي سلبوها مني إلى الأبد؟ من أعطاهم الحقّ في إنهاء حياتها؟ الدين؟ لا! فالدين الذي يفصل بين مخلوقات الله هو من عمل الشيطان...»

تلعثمت سامية قليلاً عندما نهضت مجموعتان مؤلفتان من ثلاثة أو أربعة أشخاص وغادروا الكنيسة مزهوين، محدثين جلبة كثيرة. كان ابنها بطرس أول من اندفع خارجاً، ثم لحقت به زوجته وأطفاله الأربعة، ثمّ غادر بولس تتبعه زوجته.

«اذهبي يا ابنتي»، قالت سامية لياسمين المسجاة في تابوتها، هذه المرة بصوت حزين وحنون، «اذهبي إلى خالقك بسلام، وأنت لا تحملين أي إثم، اذهبي بقلبك النقي، وسيستقبلك فردوسك، فهناك مكان أرحب للأحبّة

أكثر مما يوجد على هذه الأرض البائسة. اذهبي يا ابنتي، اذهبي بسلام. سأحبّك دائماً، مادام قلبي ينبض. اذهبي، يا ملاكي الصغير، وليكن الله معك»، واختتمت كلمتها، والدموع تنهمر من عينيها، وعادت ببطء إلى مقعدها.

بكى عدد كبير من المعزين، من بينهم رنا، مع أنّها لم تفهم لماذا تحدثت جدتها عن القتلة بصيغة الجمع. في وقت لاحق، لم تتذكّر رنا الكلمات كما تذكرت ردّة فعل الحاضرين الذين تملكهم الرعب، حتى والدها اعتراه الخجل لأن أمّه كانت تتكلم بهذه النبرة الغاضبة في بيت الله.

تابع المطران صلاته بشجاعة. وبالرغم من كل شيء، فقد كان الموكب الجنائزي مهيباً. عندما استهجنت مدبرة منزل المطران العجوز ما قالته سامية عند العشاء، بقولها إنّها امرأة عجوز مجنونة، فاجأها المطران أكثر مما فاجأتها الأرملة العجوز، بقوله: «لقد علّمتني سامية شاهين اليوم بما قالته أكثر مما تعلّمته خلال السنوات الخمس من دراسة اللاهوت».

٤٥- أميرة

بلغت أميرة الرابعة والثلاثين من العمر. عرفت ذلك صدفة عندما ألقت نظرة على بطاقة هويتها بينما كانت تضعها في حقيبة يدها. دأبت على زيارة ابنها صموئيل مرّتين في الأسبوع، وفي كل مرة، كان حرّاس السجن يطلبون رؤية بطاقة هويتها.

دهشت عندما فكّرت بأنها كبرت في السن. في الواقع، لم يكن أحد يظن أن عمر أميرة يزيد على الخامسة والعشرين. كانت تشبه أمّها كثيراً. كان شَبَهُ أفراد الأسرة يسير في خطين اثنين: فهي واختها ياسمين وأخواها فارس وموسى يشبهون أمّهم، بينما يشبه بطرس وبولس ومريم وباصيل والدهم كثيراً.

كانت عينا أميرة الكبيرتين ووجهها المستدير تؤكد شباب مظهرها. كانت أنثى رقيقة جداً، على الرغم مع أنها تعطي الانطباع بأنها امرأة قوية.

twitter @baghdad_library

عندما اجتازت بناية بيضاء في شارع الروضة، توقّفت للحظة عند المدخل ذي الأعمدة المبنية بالأسلوب الإغريقي. سيفتح هنا مطعم قريباً. كان اسمه في السابق «نادي نوماد دي لا نوي» (بدوي الليل)، ورأت الدهانون يعملون على إزالة الاسم السابق، يغطّونه بطلاء أزرق سماوي. في الأربعينات من القرن العشرين، اعتاد أثرياء دمشق وكبار ضبّاط الجيش الفرنسي على ارتياد هذا النادي. لكن عندما غادر الفرنسيون البلاد، وبثت الانقلابات العسكرية العديدة الرعب في نفوس الدمشقيين الأغنياء، أُغلق النادي.

تذكّرت كيف أنها شعرت بالخجل عندما ارتادت النادي لأول مرة لأن زوجها دأب على تلقينها آداب السلوك وآداب المائدة وأصول الرقص والأمور التي يجب تفاديها أثناء الحديث إذا أرادت أن تذهب إلى النادي مرة أخرى. ولكثرة ما حذرها زوجها اعتراها الفزع لأنها ظنت أنّ أيّ شيء ما عدا التنفّس بصوت منخفض قد يسبّب فضيحة. كان لويس جباناً، لكن الخوف لم يكن قط معلماً حكيماً لأي شخص يريد أن يكتشف العالم.

بعد ثلاث أو أربع زيارات، تعلّمت أميرة قواعد اللعبة وحظيت بمحبة الجميع وتقديرهم. لكنهم كانوا يملّون من زوجها بسبب رضوخه وموافقته ودبلوماسيته المقيتة حتى قبل أن ينهي محدّثه كلامه. لكنّه كان أحد أكثر الأطباء احتراماً في المدينة، وكان زوجاً مناسباً جداً لها. كانت تشعر أحياناً بالامتنان له عندما تنظر مثلاً إلى نفسها في المرآة الكبيرة في غرفة نومها في الشتاء، لا يسترها شيء سوى فرو المنك الروسي الذي يلامس جلدها العاري، أو عندما تجلس إلى جانبه في سيارة المرسيدس المكشوفة وهو يقودها في شوارع دمشق. لم يكن يملك حينذاك مثل هذه السيارة الفخمة سوى ثلاثة دمشقيين. كان لويس صفران ضخماً بديناً، لكن حظاً كهذا لا يمكن أن يصادف امرأة إلا مرة واحدة في حياتها، وتعيّن عليها أن تغتنم هذه الفرصة في الحال.

كانت أميرة سعيدة بالذهاب إلى المدرسة الداخلية التي تديرها راهبات

دير قلب يسوع المقدّس في دمشق حيث تعرفت على لويس. كانت تكره عائلتها التي كان لديها وقت لعدائها الدموي مع عائلة مشتاق أكثر مما أتيح لديها وقت لتعيش الحياة الحقيقية. لم يكن والدها يأبه لأيّ من أولاده إلا بطرس الذي أحبه إلى درجة العبادة، وإذا صادف أن تذكّر بأن لديه أولاداً آخرين أيضاً، كانت مريم هي الفتاة الأثيرة لديه من بين البنات. وكان يعامل بولس كشخص غريب وخادم وضيع، ويتجاهل أميرة تماماً. أما أمّها، فكانت تحبّ فارس وياسمين فقط. وهي؟ سقطت في هوة اللامبالاة.

عندما جاء الدكتور لويس صفران إلى المدرسة لإعطاء دروس في النظافة الشخصية للفتيات مرة في الأسبوع، أعجبته. قالت الفتيات الأخريات إنه رجل مسنّ وبدين، لكنّه ابدى اهتماماً بها، ولهذا السبب أيضاً، قبلت الزواج منه بسعادة.

لم تشعر للحظة واحدة بالحبّ نحوه، ولم يكن الحبّ هو الشيء الذي يحتاج إليه لويس صفران، بل كان يحتاج إلى أطفال للتفاخر بهم وزوجة جميلة تقف إلى جانبه. وما عدا ذلك، فإنه يفضّل أن يشغل نفسه بمرضاه الأغنياء وسياراته الباهظة الثمن التي يصعب على أي شخص آخر اقتناؤها.

لم يشتكِ لويس قط الذي لم تفارق الابتسامة شفتيه، لكنّه لم يستطع أن يمنحها هي أو أولاده أيّ عاطفة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وقد قال لها ذات مرة إن عائلة صفران تعتبر أن التقبيل دلالة على طبيعة بدائية.

لكنّه كان يُسرُّ دائماً عندما تتجاوز توقعاته، كما في النادي مثلاً. فلم تمض فترة طويلة حتى ازداد احترام جميع أعضاء النادي لزوجته أميرة، وراحوا يسألونه عنها إذا تغيبت مرة من المرات، لذلك، حرص على أن ترافقه على الدوام لأن الأعضاء كانوا من أبرز خمسين رجلاً في دمشق.

كانت مفاجأة حقاً عندما اختيرت ذات مساء في عام ١٩٤٣، ملكة جمال النادي. فقد تقدمت إلى المسابقة أكثر من ثلاثين زوجة، أربع منهن باريسيات. عندها أصبح زوجها مزهواً مثل طاووس. في ذلك المساء وقعت في غرام جان بيير، الفرنسي الجريء، الوسيم، الأنيق، ضابط سلاح الجو

twitter @baghdad_library

الذي بدأ يحدثها عن مغامراته حتى انتهيا بأن أخذ يضمها إليه في غرفة المخزن. كانت رائحة الفحولة تعبق منه وهو في بدلته الصيفية. فمنذ صغرها كانت تفتتن بالرجال الرياضيين الذين يرتدون بدلات عسكرية نظيفة.

كان جان بيير رياضياً، وقد خلب لبّها بلسانه الطلق الحاضر على الدوام. ودأبت على القول إن كلمة ممارسة الحبّ بالفرنسية أفضل منها بالعربية. فعندما كان حبيبها يقول *"cherie"* أو *"mon amour"* سرت في جسدها رعشة خفيفة من أذنيها حتى ساقيها وأطراف أصابع قدميها.

كان عاشقاً مشبوب العاطفة، لكنه كان وغداً أيضاً. فلديه عشيقة في كلّ مدينة. ومن الغريب أنها استطاعت أن تغفر له ذلك، فقد قال لها: «لا يمكنك أن تلومي ثعلباً لأنه يطارد الدجاجات، *mon amour*»، وضحك مثل صبي صغير شقي.

لم يلاحظ زوجها أنها تعشق الرجل الفرنسي، لا في الأمسية الأولى تلك ولا في الأمسيات التي أعقبتها. كانت مغامرة مثيرة.

كان جان بيير جريئاً. ففي أحد الأيام، اتصل بها عندما كان أولادها في المدرسة، وزوجها في عيادته، وسألها هل تحبّ مرافقته في رحلة بالطائرة؟ كانت تلك هي المرّة الأولى التي عرفت فيها كيف تبدو المدينة وسكانها من الأعلى، واعتراها بغتة إحساس بالخفّة في قلبها، نوع من السموّ والمهابة. كادت تشعر بأنها إلهة.

استمرت علاقة حبّها اللاهبة مع عشيقها الضابط في سلاح الجو مدة ثلاث سنوات، ثمّ غادر البلد في عام ١٩٤٦ عندما غادرت القوات الفرنسية، ولم يعدها بشيء.

عندما ذهبت إلى السجن في صباح ذلك اليوم، أغلق قلب أميرة بابه أمام الحزن، فأحسّت بدموعها تتبخّر وهي في طريقها إلى عينيها لأنها أحست أن عشيقها وابنها قد خذلاها. إذ لم يقل لها جان بيير قط متى سيغادر دمشق، وأخذ ابنها بنصيحة خاله بطرس دون أن يخبرها.

لم تعرف قط ماذا حدث. كان زوجها، عندما تشتكي له من تصميم

إخوتها على قتل ياسمين، يكرّر دائماً مثل ببغاء: إن أخذ الثأر هذا دفاعاً عن الشرف ليس من عمل النساء. والآن؟ صار لويس الجبان يعنفها ويكرر وكأن صموئيل أصبح فجأة «ابنها» هي فقط، وأنه كان من الأفضل لها أن تحسن تربيته، بدلاً من أن تلقي به بين يدي أخيها الريفي الأحمق الذي حشا رأس الفتى ببراز الثأر البدوي. هكذا مرة واحدة!

لم يكن لويس يذهب معها إلى السجن لزيارة ابنهما لخجله وجبنه. وكان يتستر وراء المواعيد ويختبئ وراء غطاء محرك سيارته متشاغلا، لكن أميرة كانت تعرف جيداً أن أمّه، الأرملة المتعجرفة، السيدة صفران، هي التي حرصت على منعه من زيارة ابنه. لأن فعلة صموئيل لا تليق بعائلة صفران.

سُمِحَ لأميرة بزيارة ابنها مرّتين في الأسبوع، في يومي الثلاثاء والجمعة. كانت تمشي من بيتها في حيّ أبو رمانة الغني إلى السجن الواقع في القلعة القديمة بالقرب من سوق الحميدية، لأنها بحاجة إلى قضاء وقت مع نفسها، بعد أن بدأت تساورها مشاعر قلق غريب منذ سجن إبنها.

أيّ نوع من العائلات تلك التي ضحّى فيها صموئيل بنفسه من أجل شرفها؟ فقد نفذ هذا الصبي الجريء ما جبنوا عن القيام به جميعاً. وتوارى الآخرون وراء أعذار جبانة. فقد أصبح بطرس، شقيقها الأكبر، الذي كان يحتقر أسلوب حياتها، فجأة ودوداً تجاه صموئيل، بل راح يمتدحها بأنها ربت «أسداً كهذا». لكنه لم يكن يجرؤ على قول هذه الأشياء علناً، خوفاً من أمّه. هل هذا هو عدل الحياة؟ تحمّل ابنها وحده تبعات هذا العمل ودفع ثمن كل شيء، بينما عاد باقي أفراد العائلة إلى حياتهم الخاصة بسرعة، كأن صموئيل قد أقدم على عمل ذلك لمصلحته هو. وقد باح لأميرة إنه يرى دائماً ياسمين ترقص في أحلامه المخيفة، وأن نظرة الدهشة التي رآها في عينيها عندما انطلقت الرصاصات لا تزال تعذّبه.

لم يتدخل شقيقها المحامي باصيل في القضية التي قال إنها قضية حسّاسة. فقد رفعت أمّه قضية على حفيدها بدعوى القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، وطلبت مساعدته القانونية، وكذلك فعلت أخته أميرة،

twitter @baghdad_library

فقال للطرفين إنه يجب أن يفهما بأن يديه مكبلتان ولا يستطيع أن يفعل شيئاً حقاً.

لم يكن بطرس يعرف أحداً في دمشق لمساعدة صموئيل. ولم تتوخ مساعدة من أخيها بولس الغبي وأما فارس الثعلب المراوغ فقد وقف إلى جانب أمّها، وتسترت مريم، أخت أميرة، خلف جدار ملاحظاتها الساخرة، وايقنت أميرة أن أمّها سبب كلّ هذه التعاسة لتربيتها السيئة لياسمين، لكن مع ذلك، فهي الآن تلعب دور المفجوعة. لم تكن سامية أماً عادلة، فقد تعامت طوال السنين بقلب قاس عن كلّ ما تقوم به أميرة أو أختها الأصغر مريم.

وبالرغم من أن ياسمين تصغر أميرة بأربع سنوات، فلم تخجل في أحيان كثيرة من أن تدوس على مشاعر أختها وتتجاوز دون رادع حدودها. حتى في عرس أميرة، فقد دأبت على جذب الانتباه لنفسها، وهي التي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها آنذاك، بجسدها الإنثوي الناضج ورقصت عدة رقصات شرقية خلاعية، ولم يتردد الرجال الدمشقيون عن مدّ أيديهم لملامستها، وحثها على إبداء مزيد من السوقيّة. وأصيب أفراد عائلة زوج أميرة وأغلبهم من الأطباء والمهندسين بالقرف من سلوك الفتاة، وأشاح جورج صفران، والد زوجها الذي كان لا يزال على قيد الحياة، بوجهه كي لا يرى ياسمين، وصارت حماتها تنفث سمّاً.

اضطرت أميرة إلى أن تطلب من والدها أن يزجر هذه المراهقة الفلتانة ويطلب منها أن تتوقف، وعندما هدر يوسف شاهين شيئاً لزوجته، توقفت ياسمين، وغادرت غاضبة الحفل بسرعة مع أمّها. وبدلاً من أن تفرك أذن الفتاة وتؤنبها، دافعت أمّها عنها وقالت إنها أصيبت بدوار، وأن عليهما العودة إلى البيت. بعد عدة أيام، قالت إن رؤية تلك المرأة التي تنفث سماً، فكتوريا صفران، حماة أميرة، تسبب لها صداعاً.

حاولت أن تتستر على خيانة ياسمين وجرأتها بوقاحة مرة أخرى، لكن صموئيل تدخّل هذه المرة. فقد قال شقيقها بطرس لأميرة إن الفتى سينال

شرف العائلة لأنه نسف خطة جدته الشرّيرة لإلحاق العار بالعائلة إلى الأبد، وقال لها إن صموئيل تصرّف لإنقاذ شرف العشيرة، وأزال عبء العار عن اسم العائلة.

وصلت أميرة وهي لا تزال تائهة في متاهة أفكارها المضطربة، إلى بوابة قلعة دمشق القديمة الصدئة التي شهدت أياماً أفضل بكثير منذ عهد صلاح الدين، والتي تنتصب بجانب رافد من روافد نهر بردى الشهير الذي استحال الآن إلى مجرد مجرى تجري فيه مياه آسنة. وكانت الجرذان تتقافز مذعورة على ضفتي هذا النهر وسرعان ما تختفي في جحورها، لتعود وتخرج من جحور أخرى، ترمق البشر بريبة. أفاقت أميرة من أحلام يقظتها مذعورة عندما اجتاز واحد من تلك الجرذان الشارع، وكاد يجري فوق قدمها. لا بدّ أنها أطلقت صيحة صغيرة مليئة بالخوف.

ابتسم لها شكري، الضابط الشاب ذو العينين البراقتين، الذي لوّحته الشمس. كان يقف عند البوابة يراقب المارة. ظل يبتسم وهو يتساءل بصوته العميق ما الذي جلب هذه الأميرة الجميلة إلى هذا المكان القذر.

«القدر أيها الملازم أول»، أجابت أميرة بشيء من الخجل. صافحها. كانت يده قوية.

«وما اسم هذا القدر؟» سألها.

«صموئيل صفران» أجابت.

«آه، ذلك الفتى الشجاع. حسناً، تعالي معي»، قال، وقرع برفق على الفتحة الصغيرة على الجانب الأيمن من البوابة.

فتح جندي البوابة، وسارت أميرة في الممرات إلى جانب الملازم الأول الذي كان الجميع يحيّونه باحترام. فُتحت الأبواب، ولم يطلب أحد رؤية بطاقة هويتها. قادها الضابط في دهليز يفضي إلى بضع درجات، ثم دخل غرفة كبيرة مشرقة فيها زهور ومنضدة كبيرة وأريكة جديدة وكرسيان.

«تفضلي واجلسي حتى يجلب جندي ابنك»، قال بتهذيب، ورفع سماعة الهاتف وأصدر أمراً. جالت عيناه فوق جسدها، وأحسّت بشعاع حار

twitter @baghdad_library

من الضوء يلسع بشرتها تحت فستانها، لم يكن قوياً، بل أحست بقشعريرة تسري في جسدها. تذكّرت أستاذ الفيزياء العجوز الذي دأب على القول إن العيون لا تبث ضوءاً. ذلك الأحمق العجوز المسكين، قالت لنفسها، وبلّلت شفتيها ليزداد أحمر شفاهها لمعاناً، وابتسمت.

٤٦- الفرصة

بعد مضي أسبوع على الجنازة، قال فارس لأمّه إن لديه دليل بأن شقيقه بطرس هو الذي حرّض ذلك الأحمق صموئيل على قتل ياسمين. لم تصدّق سامية ذلك، ولم تصدّق كذلك الأسباب التي ساقها بأن بطرس هو الذي رتّب لقتل أخته بهذه السرعة. وحسب ما قاله فارس، فقد كان يرمي إلى أن يجرح أمّه في الصميم، لأنها إذا تصالحت مع ياسمين، فسيكون ذلك بمثابة حَبَّة مُرّة يجب على بطرس أن يتجرعها، وهذا لن يجعله يتزعم العشيرة من دون منازع، يتّخذ القرارات المتعلقة بالموت والحياة، بل إن ذلك سيمكّنها من الاحتفاظ باليد العليا في العائلة. لذلك أصدر بطرس حكم الإعدام على أخته وحرص على تنفيذ ذلك ليس حباً بالشرف بل لينهي سلطتها.

أنصتت سامية باهتمام. كانت تخشى دائماً الغيرة التي تنهش أبناءها، لذلك كانت ترتاب في أيّ ملاحظة سلبية يبديها أحد الإخوة عن الأخ الآخر.

«هذا هراء يا فارس! بطرس رجل محترم. لم أجادل قط في مكانته كرئيس للعشيرة لكن ليست مسؤوليته أو حتى مسؤولية رئيس الدولة أن يتخذ قرارات تتعلق بحياة ابنتي، بل هذه المسؤولية تقع على عاتق ياسمين نفسها وعلى الله. لهذا السبب تشاجرنا، وأي شيء آخر فهو مجرد تلميح شرّير»، قالت موبّخة إياه.

تمالك فارس نفسه، ثم أجاب بهدوء لكن بحزم، «لقد وعد بأن يقدم لصموئيل الحصان الأسود، ومسدّساً خاصاً، ووعده أيضاً بأنه سيأخذ الحصان بنفسه إلى دمشق ليهديه إياه يوم خروجه من السجن. انتظري يا أمّي وسترين أن ابنك فارس لا يكذب عليك».

لم يفتح فارس الموضوع مرة أخرى. حاولت سامية أن تحافظ على هدوئها في تعاملها مع بطرس، الذي كان رقيقاً للغاية معها. لكن بذور الشكّ التي زرعها فارس في رأسها كانت تنمو وتشق برأسها المدبب أرض النسيان باستمرار. ماذا لو أن ابنها بطرس هو الذي أمر حقاً بقتل ابنتها؟ بدأت تشعر بأنها تمقته كلما هبط الليل: فلاح مستعد للتضحية بحياة شخص آخر خوفاً على سيادته فوق مزبلة. فقد اكتشفت حتى بعد مرور عقود من حياتها في معلا أنها لا تزال في جوهرها ابنة المدينة.

ذات يوم بارد في أواخر شباط ١٩٥١، ذهبت أميرة إلى معلا مع زوجها والملازم أول الشاب شكري لزيارة بطرس. تمكّن فارس من التنصت على حديثهم من غرفة المؤنة الواقعة فوق غرفة الجلوس في شقّة أخيه اكتشف أن صموئيل سيخرج من السجن في ١٠ نيسان، وأنه ستقام له حفلة بهذه المناسبة. وأن أميرة ستدعو شقيقيها بطرس وبولس، دامت الزيارة ساعات وكانت قهقهات الضيوف والمضيف تصل كموجات إلى غرفة سامية، لكن أمّهم رفضت استقبالهم، لا بل حتى رؤية أميرة وزوجها.

أثنت أميرة على الملازم أول شكري الذي، قالت، إنه بذل الكثير لكي يخفف من وطأة الوقت الذي يمضيه صموئيل في السجن، وقدم له بطرس هدايا سخية من النبيذ والعسل والفستق الحلبي. ومن المكان الذي يتوارى فيه رأى فارس أيضاً أميرة تخرج إلى الشرفة مع الضابط عدّة مرات لتريه المشهد المطل على القرية، بينما كان زوجها منهمكاً في الحديث مع بطرس وزوجته.

عندما عاد الزوّار إلى دمشق، أسرع فارس لزيارة أمّه، وقال لها بصوته الهادئ «إن بطرس سيأخذ أجود حصان لديه إلى دمشق في ١٠ نيسان لإهدائه إلى صموئيل بمناسبة خروجه من السجن».

تظاهرت سامية بتقبّل ذلك بهدوء، وقالت ضاحكة «لا أظن يا عزيزي، حتى أنه ليس مستعداً لإهداء زوجته هذا الحصان». لكن ضحكتها كانت مفعمة بالشك، وقد أتت الأمور بأسوأ مما كانت تتوقّع. فقد أخرج بطرس

twitter @baghdad_library

الحصان من حظيرته وأخذه إلى دمشق في ٩ نيسان. كان يخطط لأن يكون عند بوابة السجن مع الحصان في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي. من نافذتها، راقبته سامية وهو يغادر. جلست زوجته وطفلاه في سيارة الشفروليه التي يملكها بطرس بالإضافة إلى بولس وزوجته.

حتى أن الأخوين لم يودعا أمّهما، بل تسللا مثل لصين في الليل ليحتفلا بإطلاق سراح مجرم قاتل، قالت سامية لنفسها، بتشجيع من فارس. كانت ترى أن بولس أغبى بكثير من أن يتحمل أيّ مسؤولية عما حدث، وأن اندفاعه نابع من حزنه لأنه عقيم لا ينجب أطفالاً. في البداية، ظنّ أن زوجته عقيمة، لكن الأطباء اكتشفوا لاحقاً أنه هو الذي لا ينجب، ومنذ ذلك الحين، أخذت زوجته تذلّه ليلَ نهارَ انتقاماً من الظلم الذي ألحقه بها.

«إن بطرس ولا أحد غيره هو الذي فضح ياسمين بأنها ضلّت طريقها وأذلنا، نحن عائلة شاهين، أمام الناس»، قال فارس بعد العشاء، «كان يجب أن نصغي إلى باصيل وندفن الفضيحة، كما تفعل عائلة مشتاق اللعينة دائماً».

لأول مرة انتاب سامية إحساس بالكراهية تجاه ابنها بطرس.

«أنت على حقّ»، قالت موافقة. وأحست بأنّها مسؤولة بقدر ما عن موت ابنتها المحبوبة، لأنها تردّدت في أن تصفح عنها لفترة طويلة. كرهت بطرس وصموئيل لأن جريمة القتل أذلّتها أيضاً، وظلّت صاحية طوال الليل، تحتدم الأفكار في رأسها. تخيّلت الاحتفال الصاخب في دمشق. عندما غطت في النوم أخيراً، كان المحتفلون في حلمها لا يزالون يحتفلون، لكنّهم كانوا يجلسون حول مائدة كبيرة، يقطعون ياسمين إلى قطع ويلتهمون لحمها بنهم.

في صباح اليوم الثالث، استدعت فهمي، أكثر خدمها إخلاصاً الذي كان قد انضم إلى عائلة شاهين وهو في العاشرة من عمره بعد أن توفي والداه. دأب فهمي على خدمة يوسف بطاعة عمياء، لكنّه كان يقدّر سامية كثيراً. كان الخادم الوحيد الذي ارتدى ملابس سوداء منذ أن قتلت ياسمين.

«أريدك أن تذهب إلى ذلك اللقيط سلمان مشتاق وتخبره بأن بطرس

سيستلم بعد أربعة أيام شحنة كبيرة من الأسلحة وحمولة تزيد على ستين بغلاً من الحشيش من لبنان».

«أوه، مدام»، صاح فهمي مذعوراً، وأخذ يدها وقبّلها بتواضع خادم يستجدي إعفاءه من أداء مهمّة لا يريد أن ينفذها.

«فهمي، لقد أمر بطرس بقتل ابنتي. عندما فعل ذلك أصابني في صميم قلبي. كان يهدف إلى قتلي أنا أيضاً، وهل تعرف ماذا يقول الله في ذلك؟»

لم يحر فهمي جواباً لأنه كان يعرف أيضاً أنّ بطرس هو الذي شجّع صموئيل الشاب، لكنه كان يتمنّى ألاّ تعرف سيدته ذلك. وأصيب بالذعر بعد أن عرف أنها اكتشفت ذلك.

«مدام، لا أستطيع أن أنقلب على اليد التي تطعمني...»

«فهمي، افعل كما قلت لك. وإذا سألك ابن العاهرة سلمان لماذا أتيت إليه من دون كلّ الناس، فقل له إنك تريد الانتقام لأن بطرس يرغم زوجتك سلمى على النوم معه مرة في الأسبوع، وأنك لم تكتشف ذلك إلا اليوم».

تضرّج وجه فهمي غضباً لأنه أيقن الآن أن ظنه كان صائباً وأن غيرته ليست بدون مسبب كما حاولت هذه الأفعى زوجته ان تقنعه، وخرج محتدماً من غرفة سيدته. بعد قليل، تناهت إلى سامية أصوات لكمات وضربات وتوسلات سلمى، ثم ساد الصمت. امتطى فهمي دابة بنية، ونزل إلى ساحة القرية.

كان سلمان يكره الخونة والمخادعين، لكن نزولاً عند طلب خادمه المطيع باسل، استمع لفهمي وسأله نفس السؤال الذي توقعت سامية أن يسأله إياه. عندما رفض فهمي النقود التي قدمها له مشتاق لقاء المعلومات التي نقلها له، وقال إنّه يريد الانتقام لشرفه، صدّق سلمان ما قاله له أخيراً.

عاد بطرس من دمشق في ذلك المساء. بشيء من النفاق زار أمّه، لكنّها لعنته ووسمته بيهوذا وتمنّت له ولزوجته الموت. لم يشأ بطرس أن يدع ذلك يمرّ، فردّ الصاع صاعين وأنحى عليها باللوم لأن أخته أصبحت قحبة، وأنه فخور بأنه شجّع صموئيل على القيام بهذا العمل البطولي، وقال لها إن من

twitter @baghdad_library

الأفضل لها أن تحتجب عن المشهد العام، وأنه يمكنها أن تعيش على الصدقة التي يقدمها لها، لكنها إذا استمرت في أهانته، فإنه، باعتباره رئيس العشيرة، سيلقي بها إلى الخارج ويعيدها إلى أهلها في حلب.

لم تجبه أمّه، بل دخلت غرفتها، وبكت طوال الليل.

لعنت يوسف لأنه مات مبكراً وتركها وحدها.

بعد أسبوع أجرى سلمان مشتاق مكالمة هاتفية إلى دمشق.

كان ذلك بعد أن أكّد خادمه المطيع باسل أن أرتالاً من البغال أوصلت ما تحمله إلى عائلة شاهين لعدة ليال، ثم عادت باتّجاه لبنان مع بزوغ الفجر.

في صباح اليوم التالي، لم تكن الشرطة والعربات المصفحة قد حاصرت جميع أراضي ودار عدوه اللدود فقط، بل حاصرت القرية كلها أيضاً. كان من الواضح أنهم يتوقعون حدوث مقاومة مسلّحة. سدّوا جميع المنافذ إلى القرية وحوصر بطرس من جميع الجهات.

لم يذهب حضور قوّة الشرطة هباء. فقد عُثر على مستودع كبير مليء بالسلع في بيت عائلة شاهين. لم يصدّق ضباط الجمارك عيونهم عندما وجدوا هنا، في قرية جبلية صغيرة، أسلحة حديثة تكفي لتجهيز فرقة عسكرية كاملة، فتطلب ذلك جلب عدّة شاحنات لنقل الرشاشات والمسدّسات والقنابل اليدوية، بالإضافة إلى المتفجرات والذخيرة، وحُمِّلت شاحنتان كبيرتان بالحشيش.

انهار بطرس الذي أحس بمهانة شديدة، هو زعيم عشيرته، الذي قبض عليه واقتيد مقيداً بالأصفاد في ساحة القرية مثل أي مجرم عادي. وعلى الرغم من أنه استدعى شقيقه باصيل، والد رنا، هاتفياً، لكن هذا لم يستطع أن يفعل شيئاً، فلم يسمح له بدخول بيت العائلة، فوقف المحامي في الجانب الآخر من حاجز الشرطة شأن أهالي القرية الآخرين.

عندما رأى شقيقه يخرج من البيت حافياً، مرتدياً منامته، يدفعه أحد الجنود عنوة، استشاط غضباً. التفت إلى الضابط قائد الجنود وقال: «أيها

النقيب، أهكذا يعامل أكابر القوم؟» سأله، مرغماً نفسه على أن يبدو مهذّباً، ويكاد يتوسل إليه.

نظر الضابط إليه بعينين لا حياة فيهما، وقال له: «لا، لكن هذا ليس مواطناً. إنه مجرم يخطّط لإسقاط الحكومة بقوة السلاح».

«لا أصدق ذلك. لا بدّ أن هناك خطأ. إني أعرف الرجل، فهو رجل وطني»، قال باصيل، محاولاً بذر الشكّ في عقل الضابط، لكن البذرة سقطت على أرض صخرية.

«أتدعو ابن القحبة ذاك وطني؟» أجاب الضابط ساخطاً، «لو كنت في مكانك لما جاهرت بصداقتي له، فالذين يخالطون الخنازير سرعان ما تفوح منهم رائحة زريبة الخنازير».

ثمّ صعد إلى سيارته الجيب وترك باصيل واقفاً مذهولاً، أنيقاً بياقته وربطة عنقه.

كان سلمان يراقب المشهد من شرفته، مستمتعاً برؤية ما يحدث في ساحة القرية، يرشف كأساً من الشاي بصوت مسموع، ويهمس بين الحين والآخر «من المؤسف أنك لست هنا لترى ما يجري الآن يا أبي».

في صباح ذلك اليوم، أصبح فارس رئيس عشيرة شاهين الجديد، مجهّزاً بحدة ذكائه ومباركة أمّه، يهدف إلى جعل عشيرته الحاكم المطلق في معلا. أما فارس فكان يكره سفك الدماء، لذلك لم تكن لديه مخططات تطال حياة سلمان، بل كان يريد أن يدمره تماماً، ثم يتمنى له حياة مديدة.

٤٧- حفلة عيد ميلاد شكلان

لم تتوقف الأمطار الغزيرة عن الهطول طوال كانون الأول وكانون الثاني ولم يتشكل صقيع في فصل الشتاء ذاك، ولم تهبّ عواصف شديدة. شكر الناس الله، لأن هطول الأمطار في هذا البلد الجاف يعني محاصيل وفيرة، وأن تكتسي البادية بالعشب الأخضر فترعاه قطعان الأغنام. وقد عزي ذلك إلى مباركة الله لرئيس الدولة السوري الجديد، العقيد المؤمن شكلان، الذي

twitter @baghdad_library

استولى على السلطة للمرّة الثانية في أواخر تشرين الثاني. لكنه هذه المرّة لم يكن ينوي العودة إلى ثكنته، لأنه قاد قبل سنة انقلاباً ناجحاً، ومنح المدنيين فرصة، لكنّهم غيّروا الحكومة خمس مرات خلال أحد عشر شهراً، ولم يتمكنوا من إنقاذ البلد من الفوضى.

كان شكلان ينوي أن يحكم سوريا بانضباط عسكري صارم، كأنها كتيبة عسكرية، ويرغم السوريين على تنفيذ القانون والنظام بمنح جوائز سخية وفرض عقوبات زاجرة. كان يحب أن يحيط نفسه بعدد من الضبّاط الشباب. وفي خطاب قصير ألقاه في أواخر كانون الأول ١٩٥١، قال إنه إذا مُنح ستّ سنوات لحكم سوريا، فإنه لن يبقى فيها لص أو مهرّب أو متمرد أو ظلم. وكرّر وعده هذا في أول خطاب وجهه إلى الشعب عبر الإذاعة في مطلع كانون الثاني ١٩٥٢، وأنهى كلمته بعبارة: «ستكون سوريا بروسيا الألمانية».

كان العقيد شكلان مفتوناً ببروسيا، وبالجيش الألماني، والأهم من كل ذلك بهتلر. وكان شديد الإعجاب بفيلم «انتصار الإرادة» للمخرجة ليني ريفينشتال الذي حرص على مشاهدته مرّة في الأسبوع في السينما الخاصة في قصر الرئاسة، وكان يقلّد الألمان حتى في زيّه الرسمي وطريقه ظهوره.

بلغ شكلان ذروة قوّته في ربيع ١٩٥٢، لكن لم يخطر بباله أن المتمردين سينتشرون في كل مكان بعد ستة أشهر من توليه الحكم. وأحسّت أميرة أنه لا يمكن أن تكون هناك لحظة أفضل من هذه اللحظة لمساعدة شقيقها بطرس الذي لحق به العار. فقد تقلص في السجن حتى أصبح صورة مجسدة للتعاسة.

كان الملازم أول شكري، عشيق أميرة، قد نصحها بأن تتوجه مباشرة إلى العقيد شكلان لحلّ هذه القضية الحسّاسة التي تقع خارج نطاق صلاحياته. إذ كان يستطيع مساعدتها في قضية ابنها، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في قضية تهريب أسلحة للمتمردين دون أن يحرق أصابعه.

«يجب أن تستجمعي شجاعتك وتتوجهي إلى أعلى سلطة. تقرّبي من العقيد شكلان من خلال النقيب تللو، يده اليمنى، وادعي حاكم سوريا

لزيارة معلا، وأقيمي على شرفه مأدبة فخمة، ثم أرسلي زوجة بطرس وأطفالهما وهم يذرفون الدموع ويقبلون يده ويطلبون منه الرأفة. فقد يتمكنون بذلك من تليين قلبه، لأنه بقدر ما هو فظ الفؤاد، يصبح العقيد رقيقاً عاطفياً، خاصة إذا رأى دموع الأطفال»، قال الملازم أوّل شكري، الذي أخذ نفساً عميقاً قصيراً من سيجارته، وأضاف «ويمكنك أن تليّني قلب النقيب تللو بإهدائه حصاناً. فلدى شقيقك الكثير من الخيول»، أثناء مرافقته لأميرة إلى باب شقّته الصغيرة في حيّ الميدان، وهو يودعها ضمّها إليه بذراعية القويتين وقبّل شفتيها ورفعها في الهواء. كدأبه، كان مفتوناً بأنوثتها. أحست أميرة بدوار من الشهوة، لكنّ كان عليها أن تذهب. «لا تلتهمني بقبلاتك! يجب أن أعود إلى البيت قبل وصول لويس لأن المطران سيأتي هذا المساء لتناول العشاء». ربتت على مؤخرته. عندما بدا مكتئباً، داعبت وجهه وقالت: «مرة أخرى يا فحلي الرائع»، وهي تضحك، وغادرت.

شكرها النقيب تللو على الحصان الرائع، وراقت له فكرة الدعوة. ألقى نظرة سريعة على مفكرة مواعيد الرئيس وقال: «يمكنك أن تقيمي حفلة عيد ميلاده في ١٢ تموز لثلاثمائة شخص. مائة يأتون معه، ومئتان من القرية. لا يستطيع أحد أن يصدر عفواً عن بطرس إلا العقيد شكلان نفسه، لأن العقوبة التي تفرض على تهريب الأسلحة هي السجن المؤبّد». ودون أن ينهض واقفاً، مدّ لها يده المرخية. دُهشت أميرة بأن يكون هذا الرجل الضعيف جسدياً قوياً سياسياً.

عندما غادرت قالت أميرة لنفسها إن نصيحة شكري من الذهب الخالص. فإذا تمكنت من إخراج شقيقها من السجن، فإن القرويين سيعبدونها كقدّيسة. وعلى الفور مضت سوزان، زوجة بطرس، في تنفيذ اقتراحها بحماسة شديدة. كانت سوزان التي تنتمي إلى عائلة دمشقية تعيش حتى ذلك الحين في ظلّ زوجها، وتكاد تكون مخفية. وها قد جاء حظها الآن. فإذا أقيمت حفلة عيد الميلاد هذه، فإنها لن تساعد زوجها على هزيمة

twitter @baghdad_library

حماتها فقط، بل سيعرف الجميع بأن ارتباطاتها وعلاقاتها تصل مباشرة إلى الرئيس نفسه.

كان ١٢ تموز ١٩٥٢ يوم سبت حار. كانت ساحة دير مار تقلا قد رشّت بالماء في الصباح الباكر ثم زيّنت بعناية فائقة، وأضفت الأزهار في الأصص والبسط والأعلام والأكاليل أجواء مرحة. وأنجز الطهاة الثلاثة والعدد الكبير من الخادمات في المطبخ العجائب في مطبخ الدير العظيم في تحضير كميات وفيرة من كلّ شيء للمدعوين. كان من المزمع أن تبدأ الوليمة في الساعة السادسة مساء، عندما تهبط درجة الحرارة قليلاً. وحرصوا على وقاية كرسي الشرف الذي سيجلس عليه الرئيس من الحرارة القائظة طوال اليوم بوضع مظلّة شمسية فوقه، وتمركز القناصة فوق جميع الأسطحة المطلة على الساحة المزدانة.

قام حوالي خمسين موظفاً يرتدون ثياباً مدنية بتفتيش الضيوف بطريقة فظة تخلو من اللباقة، وأعرب عدد كبير من أهالي القرية عن سخطهم من هذه المعاملة السيئة، لكن أميرة هدأت من روعهم، وقالت لهم إن وضع يد بين سيقان الرجال ممارسة معتادة للتأكد من أن أحداً لا يخفي مسدّساً أو سكيناً حادّة في تلك المنطقة. كما كان هؤلاء الرجال يعتبرون أن أيّ أداة كبيرة أخرى قد تشكّل تهديداً على حياة الرئيس. «يمكنك أن تقتل ثوراً بهذه الهراوة»، قال واحد من هؤلاء الرجال بفظاظة واضحة لعجوز، ووضع عكازه الخشبية الثقيلة جانباً. إذ كانت تعلوه قطعة معدنية كبيرة في شكل وتد، فبدت خطيرة فعلاً، لكنها لم تكن سوى مفتاح عادي لها أسنان مصنوعة لتلائم فتحات قفل باب بيته.

بعد عصر ذلك اليوم، لاحت أول سيارة ليموزين سوداء من بعيد. أعلن أحد الفلاحين النبأ، فعمّت الحماسة، ثمّ ظهرت السيارة الثانية فالثالثة، وفي النهاية وصل عدد السيارات إلى ستّين سيارة، تتلوى جميعها عند المنعطفات الأخيرة من الطريق المتصاعد مثل أفعى سوداء.

وقف المعلمون وتلاميذ المدرسة عند مدخل القرية، وراحوا يلوّحون

بأعلام صغيرة. كانت لجنة استقبال متناثرة، ووجد موبات، مختار القرية، صعوبة في جمع عدد كبير من أهالي القرية، لأنه لم يكن أي كاثوليكي في القرية يرغب في أن يلوّح لرئيس الدولة لاستقباله، فمكث الكثير منهم في البيت بدافع الولاء لعائلة مشتاق.

أثار رتل السيارات غباراً كثيفاً حاراً في وجوه الأطفال والمعلمين، وتوجّهت مباشرة عبر ساحة القرية التي كانت خاوية على نحو مخيف، ثم اتّجهت إلى الساحة العليا قرب دير القديسة تقلا التي سيقام فيها الاحتفال، والتي كان من الممكن رؤيتها من مسافة بعيدة من الزينة والأعلام والرايات الملوّنة المعلقة فيها. كان المدعوون جميعاً سعداء لمجرد التفكير بأن أقوى رجل في سوريا سيحتفل معهم بعيد ميلاده. وخاصة أنه لم يكن من المعتاد الاحتفال بأعياد ميلاد الأشخاص في معلا.

كان ترتيب موبات رابعاً في صف الواقفين وراء رئيسة دير مار تقلا، وأفراد عائلة شاهين، وأعيان القرية الأرثوذكس مباشرة.

«سيادة العقيد، إن هذا أسعد يوم في حياتي. أرجوك اعتبرني خادمك المخلص»، قال، مردداً بالعربية الفصحى الترحيب الذي حفظه بعد جهد كبير، وصافح الرئيس بحرارة. ضحك الرئيس ونظر إلى الرجل التالي الواقف في الصف، وهو شيخ مسجد القرية الصغير البدين الذي كان مرعوباً ودمدم تحت لحيته آية قرآنية لم يفهمها حتى هو. ابتسم الرئيس.

ما عدا سوزان، زوجة بطرس التي غابت عن حفل الاستقبال لأنها كانت تريد أن تدخل بمفردها عندما يحين الوقت، كان جميع وجهاء القرية ونسائها هناك. لم يغب أحد إلا سامية شاهين، وبطبيعة الحال، جميع أتباع عائلة مشتاق في الحي الكاثوليكي.

كالعادة جاءت مريم، أخت بطرس، وحدها من دمشق وأحاطتها نظرات الآخرين بأسئلة لم تطرح عن سبب حياتها دون رجل. أما بولس وباصيل وفارس، فقد جاؤوا مع زوجاتهم بناء على دعوة أختهم أميرة، لأنهم أرادوا جميعاً انتهاز هذه الفرصة للقاء أقوى رجل في الدولة شخصياً.

twitter @baghdad_library

لكسب ودهم، راح العقيد شكلان يحكي نكاتاً لمجموعة مضيفيه الصغيرة، وقال لهم إنه سمع كثيراً عن معلا، لكن الظروف لم تمكّنه من زيارة هذه القرية الجميلة. وعندما همس النقيب تللو شيئاً في أذنه، شكر أميرة على دعوتها الكريمة، وعلى حسن ضيافتها وترحيبها الحارّ. أمسكت أميرة اليد التي امتدت إليها، وانحنت مثنية ركبتيها كما كانت قد تعلّمت في المدرسة، على الرغم من أنه لم تمر أي مناسبة جعلتها تفعل ذلك، وقالت بصوت متلعثم، «كلنا جنودك يا بطل الجمهورية».

خصصت المقاعد إلى جانب رئيس الدولة بعناية، فقد جلست رئيسة الدير إلى يمينه، وجلس صديقه النقيب تللو إلى يساره، ووقف حارسان يرتديان بدلات داكنة حاملين رشاشيهما وراء كرسيه العالي. ولم يكن يسمح لأحد بأن يتحرك وراء الرئيس.

جلس المدعوون الثلاثمائة إلى حفلة عيد ميلاد الرئيس محشورين معاً حول الطاولة الدائرية الضخمة التي أعدت لهم، إلا أنه تركت مسافة بعرض خمسة أمتار تقريباً قبالة الرئيس لكي لا يحجب أحد الرؤية عنه. وتركت أيضاً فجوة في الدائرة الضخمة قبالة المطبخ. ولم يسمح إلا للندل الذين اختيروا مسبقاً بدقة بالاقتراب من الرئيس والقيام بخدمته. وعلى مسافة قليلة في أحد الجانبين، لكن ضمن مجال رؤية المائدة الكبيرة، كان قرابة خمسين من جنود وحدته الخاصّة يأكلون دون أن يرفع أحدهم رشاشه عن كتفه.

كان هناك شخص واحد ينسّق كلّ هذه المناسبة وهو أميرة التي أبدت موهبة مدهشة في وضع الخطط وتنفيذها في الأيام القليلة التي سبقت الحفلة. وأصبحت الآن تعرف جميع ضباط المخابرات والجنود الذين فتشوا أرجاء وأركان المنطقة قبل ثلاثة أيام لإبطال مفعول أيّ قنبلة يحتمل أن تكون مزروعة، وأصبحت أميرة على وفاق معهم جميعاً ما عدا ضابط واحد برتبة ملازم يدعى حمد، لكنها لم تعرف اسم عائلته. كان عمره أكبر من رتبته المتدنية بكثير، يرتدي بدلة رسمية فضفاضة، ويحمل وشماً على أنفه البشع. كان الملازم حمد بدوياً، ولم تكن أميرة تحبّ البدو الذين تعتبرهم أجلافاً.

لكنّه راح يتعقبها أينما ذهبت، يمسك ذراعها بقوة، ويكرر عليها نفس الأسئلة الغبية. كان شكوكاً ويكره اليهود والمسيحيين والنساء، ولم يكف عن سؤالها: إلى أين أنت يا حُرَيمة؟ هل الطاهي يهودي؟ قد يكون قد تزوّج يهودية؟ إنك لا تبدين امرأة وطنية كثيراً، أليس كذلك؟ هل رئيسة الدير عربية؟ لماذا تتكلّم بتلك اللهجة؟ ومئات الأسئلة المشابهة. وكان يمسكها من أعلى ذراعها العارية حتى تكاد أصابعه الخشنة تثقب لحمها وتترك مكانها بقعاً حمراء.

«إنه أحد أعاجيب الطبيعة»، قال لها ضابط شاب، «فهو يستطيع أن يشمّ رائحة الكمأة والبارود على بعد ثلاثة أمتار. كان يكسب رزقه من بيع الكمأة، لكن الرئيس اكتشفه واكتشف قدرة أنفه المدهشة على الشم»، ثم أضاف، «لقد أنقذ حمد الرئيس من ثلاث محاولات اغتيال، لذلك لا يمكن لأحد أن يمسّ شعرة في رأسه».

بدأت الحفلة. رقصت مجموعة صغيرة من الفتيات يرتدين ثياباً شعبية، وبذل مطرب ما بوسعه لغناء شعر كُتب على عجل بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد البطل شكلان، وأصرّ موبات على إلقاء كلمة قصيرة لم يقل فيها شيئاً على الإطلاق، ثمّ أدى سائسان يعملان لدى عائلة شاهين، يمتطيان أجود حصانين، ألعاباً فروسية وسط الدائرة الكبيرة المحاطة بالطاولات. طفرت دموع الفرح من عيني تللو.

أخيراً جُلب الطعام: أطباق كبيرة مرتّبة من المازوات اللذيذة، والخبز الساخن الذي تفوح منه رائحة عطرة، ومشروبات مبرّدة بألواح الجليد. فقد أُحضرت سيارة شحن مليئة بالثلج من دمشق في اليوم السابق.

وأعقبت ذلك الوجبة الرئيسية: حمل محشو بالرزّ والفستق والزبيب مشوي حتى درجة الاحمرار، بالإضافة إلى أنواع السلطة الممتازة. وكأنّ كلّ ذلك لم يكن كافياً، فقد رافقت ذلك جبال من التبولة والكبة وورق العنب المحشوة والتي تدعى في سوريا بإسمها التركي «يبرق».

وباتفاق مع ضباط المخابرات، خطّطت أميرة لأن تظهر سوزان، زوجة

twitter @baghdad_library

بطرس، في حوالي الساعة التاسعة مع أطفالها الأربعة: يوسف وبولس وتوفيق وبربارة، ثمّ تطلب رئيسة الدير من سيادته أن يستمع إليها، عندها تجثو سوزان وأطفالها أمام المائدة طالبين من الرئيس إبداء الرحمة لبطرس، ربّ عائلتهم ومعيلهم، ثم ينتظرون ما سيحدث بعد ذلك.

كان حرّاس الرئيس وأصدقاؤه المقرّبون يعرفون أنه مدمن على المشروبات الكحولية. وكان يلقي مواعظ دينية حماسية يؤيد فيها الإسلام، وكان صديقاً جيداً للعائلة الملكية في السعودية. كان يحجّ ويصلّي علناً، لكنه في الوقت نفسه يحبّ الويسكي الإيرلندي. كانت أميرة قد اشترت قنينة كاملة من أفضل أنواع الويسكي من أحد المحلات في دمشق خصيصاً له.

في ذلك المساء، راح الرئيس شكلان يجرّب مشروب العرق بنسبة كحول مقطّر ستين في المائة في معلا، المبرّد بقطع الجليد، فأحبّه وراح يحتسيه بنهم غريب، ثم قُدِّم نبيذ أحمر ثقيل، جُلب بطلب من رئيسة الدير من قبو النبيذ الخاص بالدير. كان نبيذاً حلواً لزجاً نسبة الكحول فيه سبعة عشرة بالمائة، يُشرب عادة في أقداح صغيرة كفاتح شهية. إستذوق الرئيس ايضاً نبيذ معلا المعتق.

قبل الساعة الثامنة مساء، حكى العقيد شكلان نكتة عرف من خلالها صديقه تللو أنها دليل على أن الضوء في دماغ سيده سينطفئ بعد ثانيتين. وفي العتمة التي بدأت تخيّم فوقه الآن، رفع الرئيس عينيه إلى رئيسة الدير، وقال: «إنك غزالة رائعة مثل ليني ريفينشتال». ثمّ هوى وجهه على الطاولة. فسارع إليه تللو ورفعه عن الطاولة.

أفاق الرئيس للحظة وبدا مذعوراً، «ماذا حدث؟ لا تدعوا أحداً يغادر المكان»، صاح في أرجاء الساحة. تردّد صدى كلماته بين الصخور في الصمت الذي أعقب صوت ارتطام وجهه عندما تهاوى، «لا تدعوا أحداً يغادر المكان»، كرر الرئيس بصوت مذعور ثمّ غطّ في النوم جالساً على كرسيه بشكل مزرٍ ورأسه الذي سقطت طاقيته عنه يتكئ مائلاً على كتفه. كأنهم تلقوا أمراً، أزال جنود وحدته الخاصّة الذين كانوا يضحكون ويأكلون،

صمام الأمان في بنادقهم واقتربوا من المدعوين حوالي مترين أو ثلاثة أمتار بوجه صارم. جلست رئيسة الدير وقد ابيضّ لون وجهها من الخوف، متشنجة مثل تمثال من الجص غير المطلي بأي لون.

كان الظلام قد بدأ يهبط، وأصبح السطوع الأخير في السماء على وشك أن يختفي في أيّ لحظة، فأضيئت أضواء كبيرة وتلألأت الطاولة كلها على نحو زاه مثل فيلم، لكنه كان فيلماً صامتاً.

قبل الساعة التاسعة تماماً، جاءت سوزان التي لم تكن تعرف ماذا جرى، تتعثر في مشيتها فوق الدرب المنحدر من بيت شاهين إلى الساحة التي يقام فيها الاحتفال. ذكّرت أطفالها مرة أخرى بأن لا ينسوا كيف يتصرّفون الآن لإنقاذ أبيهم المسكين. كان يوسف، الأكبر سناً، في السابعة عشرة، وبولس في الخامسة عشرة، وتوفيق في الرابعة عشرة، وبربارة في الثانية عشرة.

لكن عندما وصلت سوزان والأطفال إلى الساحة، توقّفوا مذعورين عندما رأوا الجنود يبعدون المدعوين المتحلقين حول شخص الرئيس الذي تهاوى في زاوية غريبة في كرسيه. لوهلة، خيّل إلى سوزان أن أحداً أطلق عليه النار وأرداه قتيلاً، وقد عزز لديها هذا الانطباع الحرّاس الذين يرتدون بدلات داكنة المتصلبين في وقفتهم وراء كرسي الرئيس.

«لقد مات الرئيس»، همس يوسف في أذن شقيقه بولس.

«إخرس» هسهست أمّه. قهقهت بربارة، ونظر توفيق، المنبهر، إلى الجنود ببدلاتهم المموّهة.

رأت أميرة كنّتها فهرعت إليها. لم يسمح ضباط المخابرات لأي شخص آخر بالتحرك في المكان بحرية، وكانت تحاول طمأنة الجميع بأن الحفلة ستستمر بعد قليل، وأن تلالاً من الفاكهة والثلج والفستق جاهزة في المطبخ. ركضت أميرة إلى هنا وهناك تطمئن هذا وتواسي ذاك وشعرها الأسود الطويل الذي رفعته إلى الوراء وربطته كذنب حصان يطير خلفا. خفف النسيم البارد على الجمهور جلوسه منتظراً الفرج.

twitter @baghdad_library

«ارجعي مع الأطفال»، قالت لسوزان لاهثة، «الرئيس سكران. إنه يغطّ في النوم. يجب أن ننتظر. سأخبرك عندما يفيق ثانية». كانت ثمة نبرة توسل في صوتها، لأنها رأت الإحباط المرير البادي على وجه كنّتها.

«حسناً، سنعود»، قالت سوزان، زامّة شفتيها، وأضافت «نرجو أن لا نكون قد فعلنا ذلك من دون مقابل. ذلك الحصان الأصيل، وكلّ تلك النقود».

«لكني أريد أن أنتظر هنا»، أصرّ توفيق الذي أحبّ أن يبقى مع الجنود. لم تقل أمّه أي كلمة وأمسكته من أذنه، فصرخ، مع أنّها لم تؤلمه. ربما كان يأمل في أن يهبّ الجنود لنجدته، لكن أحداً لم يعبأ به، وعندما ركله يوسف في مؤخرته أخذ يجري في الدرب الصاعد نحو البيت وهو يجأر.

سمعت جدته سامية الصياح في غرفتها، وفجأة تلاشى الحقد من قلبها. ابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت بغبطة خبيثة، «سيفشل ذلك مثل أي شيء تلمسه أميرة».

في الساحة، كان الرئيس لا يزال نائماً. سرعان ما حذا النقيب تللو الذي يبدو أنه يعرف الفترة التي سينام فيها سيده، حذوه. لكن لم يكن بإمكان المدعوين أن ينبسوا ببنت شفة، وعندما فرغت دوارق النبيذ وأباريق الماء لم يقدم لهم المزيد، إنما جلسوا هناك صامتين كأن على رؤوسهم الطير، يحدقون في الفضاء.

قبل بدء الحفلة استولى الحرس الخاص على غرفة في الجناح الأيسر من الدير، فيها نافذة تطلّ على الساحة، لاستخدامها كمركز قيادة مؤقت. جلس ضباط المخابرات وراحوا يناقشون بحماسة كلّ خطوة يجب اتخاذها. كان أمراً جديداً، حتى بالنسبة لهم، أن يروا إلههم وسيدهم يغطّ في النوم فجأة أمام الناس، لكنّهم كانوا يعرفون كيف سيكون سيدهم معكّر المزاج لو أنه أوقظ عنوة من قيلولته. هبط رسل إلى الساحة ليهمسوا بالأوامر في آذان الضباط، يصعدون بعدها بسرعة إلى الطابق العلوي حاملين أخباراً عن آخر التطورات.

في حوالي الساعة الواحدة صباحاً، عندما أصبح الجو بارداً، جلبت

الراهبات بطانيات خفيفة من الدير وقام جنديان بتغطية الرئيس بعناية، وتركا رأسه فقط خارج الغطاء.

قبالة مركز القيادة، في الجناح الأيمن من مبنى الدير، جلس الملازم ذو الأنف الموشوم وحده في الغرفة المصادرة التي اتخذت مكتباً له. ومن هناك، كان يراقب الغادين والرائحين في الساحة. كان يجب أن يُطلب منه إذن أيضاً لجلب البطانيات لكي لا تساوره أيّ شكوك.

كانت أميرة تغدو جيئة وذهاباً راكضة، وعندما ازدادت البرودة في الليل، سألت الضباط هل يستطيع المدعوون الأكبر سنّاً على الأقل، الذين لا يزالون جالسين على كراسيهم غير المريحة، العودة إلى بيوتهم. فأرسل الضباط جندياً ليسأل مركز القيادة، وسرعان ما عاد بالجواب الصارم: لا. أحسّت أميرة بالاحتقار في عيون الفلاحين المرهقة.

كان زوجها لويس قد غطّ في النوم. لم يكن يستيقظ أبداً بعد منتصف الليل، حتى في النادي. ابتسم لها أخوها فارس ابتسامة عريضة. توجّهت نحوه وسألته متوسلة، «ماذا أفعل؟ أرجوك ساعدني».

أجابها، «من يصعد بالحمار إلى أعلى المئذنة يجب أن ينزله بنفسه». كانت تكره هذا المثل الذي تستشهد به أمّها كثيراً: قلب بارد مغلف في شكل حكمة. كان شقيقاها باصيل وبولس جالسين هناك أيضاً، لكنهما أبديا على الأقل شيئاً من التعاطف. مرت الساعات ببطء.

كانت أميرة تقف في وسط دائرة الطاولات. غارقة في التفكير، رفعت بصرها إلى الأعلى، وفجأة خيّل إليها أن رئيسة الدير ابتسمت لها وأشارت إليها بأن تقترب منها. بعد قليل أدركت أنها تخيّلت ذلك من التعب الذي نال منها، لأن حتى رئيسة الدير كانت نائمة، وعيناها نصف مغمضتين. عندما خطت أميرة نحوها، أحسّت فجأة بيد قوية تشدّها إلى الخلف من كتفها. كان جندي شاب يبتسم لها بطريقة غير لائقة، وأشار إليها إلى المكان الذي يجب أن تذهب إليه. رفعت عينيها، ورأت الملازم ذا الأنف الموشوم واقفاً عند نافذته. أشار إليها بأن تصعد إليه.

twitter @baghdad_library

مرتاباً كدأبه، لعله كان يخشى أن تغتال الرئيس، قالت لنفسها، وضحكت وهي تصعد الدرج الرخامي المؤدي إلى غرفته. ربما كان عليها أن تتظاهر قليلاً بالخوف، ثم تطلب نصيحته. إذ يشعر العديد من الأشخاص البدائيين، الضيّقي الأفق، بأن عليهم إبداء قدر من الشهامة عندما تتملقهم وتتودد إليهم إمرأة.

قرعت الباب. فُتح في الحال، وامتدت يد غليظة إلى ذراعها البضة. شدّها إلى داخل الغرفة بقسوة ففقدت توازنها، وترنحت. ضربة على رقبتها جعلتها تطير إلى الأمام وتحط على طاولة مكتب فارغة.

«أيتها القحبة المسيحية! لماذا تثيرين المشاكل دائماً؟ لماذا لا تدعين سيادته ينام بسلام؟»

لم تفهم شظايا الجمل هذه، ولم تتمكن من الوقوف على قدميها أيضاً، لأنه أمسكها من شعرها الطويل، وراح يفتله بسرعة في شكل ذنب حصان، وترك الجزء العلوي من جسمها مضغوطاً على طاولة المكتب بيده الطليقة، وصاح فيها، «لا تتحرّكي وإلا قتلتك»، ثم بصق. لم تعرف لماذا يفعل كلّ ذلك. لكنها في اللحظة التالية، شعرت بأن البدوي ينزل كيلوتها ويلجها. تألمت. كان كلّ شيء في داخلها جافاً. لم تتمكن من البكاء، لأن صفعة ثانية خنقت صيحتها. «يجب أن تكوني سعيدة لأنني سأضيّع وقتي عليك. المفروض أن أطلق عليك النار وأقتلك. لقد أغويتِ رئيسنا لكي توقعينه في الفخّ. ستكونين في حال أسوأ لو عرف أعداؤه أن سيدنا قد شرب خمراً قوياً في هذه المزبلة المسيحية. سأذبحك بيدي هاتين»، جأر بصوت همجي، وراح يضربها على مؤخرة رأسها.

بدأ يعتريها خوف شديد. فجأة، فهمت لماذا لم يشأ عشيقها شكري حضور حفلة عيد ميلاد الرئيس. فقد شرح لها أسبابه، لكنّها ردّت بسخط، وقالت إنه يريد أن يخذلها. لكن شكري كرّر بنفاد صبر، «إني أحبّك، لكنّي لا أحبّ أن أحضر مثل هذه المناسبات. إن الحكّام وحوش مفترسة، وعندما يأكلون ويشربون كثيراً، يمكنهم أن يخبطوا خبط عشواء ويكسروا رقبتك،

حتى دون أن يعوا ذلك. لن أشارك في أمر كهذا حتى أصبح برتبة عقيد، عندها سأصبح وحشاً مفترساً بنفسي».

«هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها أمثالك»، قال الملازم ذو الأنف الموشوم، فأعادها من الأفكار التي سرحت فيها إلى هذه الغرفة المظلمة حيث تتمدد على بطنها فوق الطاولة، بينما كان هذا الوحش يلجها بسرعة أكبر من الخلف. وبغتة راح ينخر مثل خنزير.

عندما أفلت الرجل ذو الأنف الموشوم شعرها، تهاوت على كرسي ذي مسندين، رفعت كيلوتها الممزّقة وجرت خارج الغرفة. لم يحاول منعها. هبطت إلى الطابق السفلي بسرعة وجرت في الدهليز إلى الحمّام وتقيأت. أمضت وقتاً طويلاً تغتسل، وغسلت فمها بالماء وتمضمضت، وأخيراً، مررت في شعرها مشطاً مكسور الأسنان كان ملقى بجانب المرآة، ثم غادرت.

عند حوالي الرابعة صباحاً، أفاق العقيد شكلان مجفلاً. كانت أميرة جالسة محدودبة على كرسي إلى جانب زوجها. لم يغمض لها جفن طوال الوقت، خوفاً من أن يعود الملازم ذو الأنف الموشوم لمهاجمتها، واختارت زاوية لا يراها منها الوحش هذا من نافذته.

«من أعطى القاتل عنواني؟» صاح الرئيس بعينيه الحمراوين الذاهلتين. قال ذلك بصوت عال أيقظ جميع من كانوا يغطّون في النوم على الفور.

هرع النقيب تللو وأخذ الرئيس على الفور إلى سيارته. أثناء الطريق حكى له شكلان كيف أنه حلم، مرة أخرى، بشاب درزي من جنوب البلاد يطلق عليه النار عند باب فيللا في البرازيل. كان لا يزال مذهولاً من هذا الكابوس المتكرّر. لذلك، لم يلحظ أحداً، حتى رئيسة الدير التي وقفت هناك في ضوء الفجر تمدّ له يدها. لم يودّع مضيفيه، بل تجاهلهم جميعاً، كأنهم حشرات أو أحجار.

شعر النقيب تللو بالارتياح لانتهاء الحفلة، وحدّث شكلان، وهو يضحك، بالتفصيل عن كتاب أنهى قراءته للتو، بعنوان «أحلام الحكّام». وقال تللو: «كان نابليون يرى حلماً متكرّراً بأنه يسبح ذهاباً وإياباً بين

twitter @baghdad_library

كورسيكا وساردينيا. وكان هولاكو الذي غزا بغداد عام ١٢٥٨، والذي ألقى أضخم مكتبة في العالم آنذاك في نهر دجلة، يحلم على الدوام بأنّه يتحول إلى حجر ويصبح تمثالاً ينتصب عند سفح جبل، قبالة البحر. كان الشوق لبلوغ تلك الشواطئ التي يستحيل عليه بلوغها، يطعنه في صميم قلبه، وتزعجه النوارس التي لا تني تحطّ على رأسه وتلقي ذرقها عليه، لكن هوِّن عليك يا رجل مالك ومال البرازيل؟».

ضحك الرجلان وركبا السيارة المصفحة، وتبعهما المسؤولون الآخرون الذين يمثّلون السلطة الذين جاؤوا إلى معلا برفقة الرئيس في سيارات الليموزين السوداء الأخرى. أما في القرية، فقد لعن مئتا صوت الرئيس وعشيرة شاهين.

شاهد باسل، خادم عائلة مشتاق المطيع، كل ما حدث من مكان يتوارى فيه. عندما غادر الرئيس ورجاله، انتظر فترة أطول قليلاً، ثم سار بهدوء في الأزقة المفضية إلى ساحة القرية. كان النهار قد بدأ يطلع عندما فتح بوابة بيت مشتاق الكبير. لم يقو على الانتظار لنقل أخباره، فأيقظ سيده وحكى له ما حدث، وابتسامة واسعة تعلو وجهه، عن المهانة التي تعرضت لها عائلة شاهين ومناصروها.

قبّل سلمان الممتن وجه خادمه المرهق، وشعر بأنه أصبح أقوى من أي وقت في حياته. وقرّر أن يتبرّع بمبلغ كبير لكنيسة القديس جاورجيوس يوم الأحد التالي، الثالث عشر من تموز، للإعراب عن شكره لنعمة الله.

عادت أميرة إلى دمشق مع زوجها دون أن تودع سوزان التي كانت لا تزال تنتظر. قصّت شعرها قصيراً جداً، فأصبح يناسبها أكثر، ولم تخبر عشيقها شكري عن الرجل ذي الأنف الموشوم.

أما شكري، ولكي ننتهي من هذا الجزء من القصّة بسرعة، فقد أحبّ أميرة حقاً ولم يتزوج من أجلها. لكن أميرة لم تشأ أن تترك زوجها. وواصل شكري الخدمة في الجيش، ورُقِّي إلى رتبة عميد في عام ١٩٦٦. وبعد سنة، أُعدم مع حفنة من الضبّاط الآخرين رمياً بالرصاص، بعد محاولة

انقلابَ قام بها بتمويل من بريطانيا جماعة من المغامرين، وفشل فشلاً ذريعاً.

في نهاية عام ١٩٥٢، بعد مضي أسبوعين على حفلة عيد الميلاد الكارثية، عُثر على بطرس شاهين مطعوناً حتى الموت في زنزانته في السجن. لم يعرف أحد الجاني. غادرت أرملته معلا، وذهبت للإقامة في دمشق مع أبنائها الثلاثة وابنتيها. ولم تعد ترغب في رؤية أحد من عائلة زوجها ثانية.

في كانون الأول ١٩٥٢، عندما تخيّل العقيد شكلان خطأً أنه بلغ ذروة قوّته، فرتّب لإجراء استعراض عسكري لعرض آخر أنواع الدبابات التي اشتراها من فرنسا بأموال سعودية. قدّم الضبّاط الذين كانوا يمرون أمامه التحية برسمية غير معهودة، مزهوين بأسلحتهم الجديدة اللمّاعة.

وفجأة فقد سائق إحدى الدبابات السيطرة على دبابته الحديثة، فانحرفت الدبابة الضخمة عن طريقها واتجهت مباشرة نحو صفوف الجماهير المصطفة على طول الطريق وهي تصفق. سمع العقيد الصيحات المفجعة، هزّته بقوة، وارتفعت إلى سماء دمشق. طارت طيور السنونو بعيداً فزعة، ولم تعد إلى المدينة إلا بعد أيام عديدة. سحقت جنازير الدبابة أكثر من خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً قبل أن ترتطم بعمود خرساني، توقّفت أخيراً. خرج سائق الدبابة من برجه، ورأى الكارثة، وعلى الفور أطلق النار على نفسه.

ردد الناس نبؤة المشعوذين، إن هذه الحادثة كانت نذيراً إلهياً تنذر بسقوطه الوشيك. وفكر العقيد شكلان بصورة مشابهة وقد تملكه اليأس وشعور مرير بالعزلة. كان جالساً وحده في القصر الرئاسي في ذلك المساء، يتناول طعام العشاء ويجرع الويسكي المبرّد.

٤٨- سقوط رنا وصعود جاك

لم تشعر رنا بالراحة قط في عائلتها. كان والدها محامياً، وتدرّس أمّها اللغة الفرنسية في مدرسة للبنات. وبما أنهما يعملان لم يرغب الوالدان في إنجاب أكثر من طفلين.

twitter @baghdad_library

كانت رنا جميلة، لها قسمات رقيقة تشبه فتاة هندية. تعلّمت بسرعة، وأصبحت تعتمد على نفسها وهي لا تزال في الثالثة من عمرها.

كانت مربيتها، المرأة المدّعية التي ملأ الشعر أنفها أول تجربة سيئة في حياة رنا الصغيرة، وتكرهها، ولم تكن تطيق البقاء معها.

ثمّ أنجبت أمها شقيقها جاك الذي حاز على كلّ شيء. على اهتمام والديها وعلى كلّ شيء يقع تحت يديه. كان أبيض البشرة، أقرب إلى الشقرة، يميل إلى الامتلاء، وله رئتان قويتان مكناه من الصراخ بصوت يطغي على صوت المؤذن في الجامع القريب. ولم يحبّ رنا منذ البداية، وبادلته المشاعر نفسها. فكانت تقرصه كلما تمكنت من ذلك، وكان يصرخ عالياً كلما رآها، مما جعل والديهما ينحازان إلى صف الصبي الصغير. عندما أنجبت الأمّ رنا، عادت إلى عملها في التدريس بعد ستّة أشهر، وسلّمتها إلى تلك المربية الفظيعة، أما عندما أنجبت جاك فقد أرادت أن تترك العمل على الفور لتمضي اليوم كله في البيت من أجل رعايته. لكنّ بالرغم من ذلك، ظلت ترسل رنا إلى المربية حتى تمردت عليها. فبعد سنة من ولادة جاك بدأت تنتاب الفتاة الصغيرة المرهفة حمّى غريبة كلما ذهبت إلى تلك المرأة ذات الأنف المشعر، لكن هذه الحمّى كانت تزول فور عودتها إلى البيت.

حصلت رنا على ما تريد. ومنذ ذلك الحين، مكث الطفلان في البيت، لكن لم يكن لدى أمّهما وقت إلا لجاك. جاك فعل كذا، جاك تناول ذاك، جاك قال ذلك، جاك، جاك، دائماً جاك. أما رنا فتعين عليها أن تتدبر أمورها بنفسها بقدر ما أمكنها. وبقدر ما كان بوسعها أن تتذكّر، لم تسألها أمّها يوماً «هل تريدين أن أشرح لك شيئاً استعصى عليك فهمه؟» أو «هل تحتاجين إلى مساعدة؟» أبداً.

أما عندما يتعلق الأمر بفرس النهر الضخم ذاك، جاك، يصبح كل شيء حدثاً عائلياً كبيراً، منذ أول يوم دخل فيه إلى المدرسة، وكان كلّ ما ينقصهما هو أن يتلقيا برقية تهنئة من رئيس الدولة نفسه تبارك لهم بجاك. ومنذ ذلك

الحين، أصبحت أمّ رنا تمضي وقتها مع ابنها طوال اليوم، تتابع تقدّمه في المدرسة خطوة فخطوة، وويل لكلّ من يدوس على إصبع قدم الفتى الصغير المكتنز. كانت أمّه، مجهّزة بكلّ سلاح تعلمته في دار المعلّمات، وتنطلق إلى مدرسته، وتناقش المعلمين هناك حتى تنهكهم، لخبرتها في مثل هذه الأمور.

لم يكن جاك غبياً كما بدأ يعتقد معلموه لاحقاً. بل حادّ الذكاء، لكنه وجّه كل طاقاته إلى الطريق الخطأ. فعندما كان في العاشرة من العمر، دأب على أن يثبت لرنا أن أمّه تحت تصرفه. فبإمكانه أن يجعل أمّه تصفع أخته كلما أراد، وبوسعه أن يحرمها من مصروفها، وكان واثقاً من أنه يستطيع أن يحرمها من الخروج من البيت أو الاستماع إلى الموسيقى - كلّ ذلك بواسطة أمّه. لم يتوانَ على استخدام أمّه التي أصبحت عبدة له لتحقيق مآربه. لهذا فشل جاك في الحياة خارج البيت فشلاً ذريعاً، فالعالم لم يكترث له.

كانت رنا قد بدأت دراستها في المدرسة الثانوية عندما أصبحت متيقنة من أن جاك ليس شقيقها أبداً بل عدوها. ففي ذلك اليوم كانت جالسة بهدوء في غرفتها تلعب عندما دخل إلى غرفتها وهاجمها من دون أي سبب. وبعد أن أوسعها ضرباً، مزّق دميتها الأثيرة لديها وخرج هارباً. أخذت رنا تبكي، وحاولت أن تجمع شتات خرق دميتها. وفجأة ظهرت أمّها وراحت تصرخ فيها وتشتمها كالمجنونة. فقد اتهمتها أمّها إنها جدّفت على مريم العذراء، وأن شقيقها جالس في المطبخ يبكي بحرقة لشعوره بالعار من ذلك. لم تعرف رنا ماذا تفعل. فقد انقلب العالم رأساً على عقب. فهي لم تنبس بكلمة واحدة في حياتها فيها تجديف على مريم العذراء، لا سمح الله، ومنذ صغرها، كانت تبجّل أمّ المسيح.

عاد أبوها إلى البيت في وقت متأخر. دخل إلى غرفتها لرؤيتها، جلس على الكرسي ونظر إليها بحزن وقال مؤنباً «أيتها الفتاة، أيتها الفتاة، ما الذي اصابك حتى تفعلين ذلك؟» لم تحر رنا جواباً.

في ذلك المساء، تأكد لها أن شقيقها أصبح ميتاً بالنسبة لها، وأضحى

twitter @baghdad_library

العيش في بيت الأسرة الآن أسهل. حتى أن جاك كان يعاملها بلطف عندما يشعر بعدم مبالاتها له، لكنّها لم تعر أي اهتمام لذلك.

بكثير من التذمر والأنين، ومساعدة ثلاثة معلمين خاصّين، نجح جاك في امتحان الشهادة الإعدادية ثم ترك المدرسة. وحصلت رنا على الشهادة الثانوية في السنة نفسها بامتياز، لكن أمّها لم تبد أي اهتمام بذلك، بل انهمكت في إبلاغ جميع الزائرين كيف كان جميع معلمي جاك يثنون على ذكاء ابنها، وأنها على الرغم من ذلك قرّرت إخراجه من المدرسة لأنه حرفيّ موهوب، ويتطلع للعمل في مهنة صياغة الذهب.

لكنه لم يصبح صائغ ذهب. فقد توقف عن تعلّم هذه الحرفة عند صائغ شهير قبل أقل من سنة ثم أصبح ممرضاً. عندها وصفته أمّه بأنه اليد اليمنى للجرّاح. وعندما بلغ العشرين من العمر كان قد فشل في أكثر من خمس مهن، ولإحباط والده، تطوع جاك في الجيش، ولما كان حاصلاً على شهادة الدراسة الإعدادية، وطوله متران، فقد أصبح برتبة عريف في وحدة الحرس الجمهوري الخاصّة، وهو ما كان يصبو إليه. لكن ذلك سيحدث لاحقاً، ولنعد إذن لرواية ما حدث تدريجياً.

ظل والدا رنا يهملانها، لكن جنت عدة فوائد من تصرفهما ذاك تجاهها. فقد كان ذلك يعني أنها تستطيع أن تتّخذ قراراتها بنفسها، ولم يكن يتعين عليها أن تأخذ إذنهما، ولم تكن مسؤولة أمام أي منهما. وأقسمت لنفسها بأنها ستتولى المسؤولية عن حياتها.

عندما أحبّت فريد في ربيع ١٩٥٣، كان العداء بين عائلتي شاهين ومشتاق في ذروته. وعلى الرغم من ذلك، فقد تجرأت رنا وألمحت لأمّها بأنّها تعرفت على فتى لطيف اسم عائلته مشتاق.

استشاطت أمّها غضباً، «لا يمكن أن يكون أحد لطيفاً في عائلة تدعى مشتاق»، وصرخت، كما لو أن رنا أصابها صمم، «فقد دمروا عمّك وكلّفوا والدك مليون ليرة، وتقولين إن أحد أفراد عائلة مشتاق لطيف؟»

رفضت أمّها أن تسمع منها كلمة أخرى عن الفتى. كان ذلك أمراً حزيناً، لكن الأسوأ سيأتي في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم. فقد فتح

جاك باب غرفتها عنوة، وصاح: «اسمعيني أيتها البقرة الغبية»، ووقف أمامها مباشرة، وأضاف، «لو رأيتك مع شخص حتى لو كان يمتّ بقرابة بعيدة لعائلة مشتاق، فإني سأقتلك. هل تسمعينني؟ سأقتلك. أنا مثل صديقي صموئيل وسأقتلك بيدي هاتين، هل تفهمين؟» صرخ في وجهها بصوت عال، فهرعت أمّه ورجته ألاّ يزعج نفسه كثيراً.

أفلتت كلمة «خائنة» من فم رنا، لكن لم يسمعها أحد، لأن شقيقها ظل يصرخ بصوت يبعث على الصمم. عندما أخبرت فريد ذلك لاحقاً، وقالت إن عليها أن تكون حذرة، غضب بشدة وراح يصرخ. وصاح أي نوع من الحياة يعيشها في هذا البلد القذر، فما إن تحبّين شخصاً حتى يهددوك بالعنف والقتل! بعد ذلك، اكتشفت رنا أنّه تشاجر مع أبيه في ذلك اليوم، وكان لا يزال غاضباً. سألها بصفاقة هل لديها عشيق يعجبها أكثر، لذلك فإنها تبحث عن وسيلة للتخلّص منه، فريد. كان ذلك كثيراً. نهضت رنا وهربت تاركة فريد وحده. حدث ذلك قبل عيد الفصح بأسبوع.

٤٩- سلمان

لم يعرف أحد شيئاً عن خوفه. فقد ظلّ صاحياً لليال عديدة، يحدّق في السقف، وزوجته حنان تغط في نوم عميق بجانبه. كان يستعرض حياته، باحثاً عن شيء يستطيع أن يتشبث به. فمنذ وفاة أبيه في عام ١٩٤٧، أصبح وحده على رأس العشيرة. حدث ذلك قبل ست سنوات، لكنّه لم يبرأ من فقدان الرجل الذي كان أغلى وأعزّ شخص في حياته. فقد عاش تسعة وثلاثين عاماً في كنف مشتاق العظيم، هبّت خلالها في طريقهما رياح عاتية شديدة البرودة، وتعين عليه الآن أن يواجه الحياة بمفرده.

منذ المداهمة الرائعة التي شنتها الشرطة على عدوه بطرس وألقت القبض عليه، كانت عائلة شاهين تتحين الفرصة للانتقام. فقد كان زعيم العائلة الجديد، فارس، أفعى ناعمة وخطيرة مثل أمّه.

إن الزمن يتغيّر. فبعد سلسلة من عمليات القتل بدافع الانتقام حاولت

twitter @baghdad_library

الحكومة في دمشق السيطرة على الوضع وأصدرت عدّة أحكام بالإعدام على الأشخاص الذين يحثون على ارتكاب جرائم قتل كهذه. واستند القانون الجديد إلى القانون الفرنسي الذي لا يعتبر الدافع إلى الانتقام ظرفاً مخفّفاً، إنما تحريضاً على القتل، ويعاقب عليه بشدّة. وجّهت هذه القوانين الجديدة ضربة قوية للقانون الأخلاقي للعشائر العربية، لكن صرامتها كانت مجدية، وأصبحت العائلات المتناحرة تحاول توجيه ضربات شديدة إلى خصومها بوسائل أخرى.

كان سلمان على يقين بأن سامية الأرملة وابنها فارس لا يشغل بالهما إلاّ فكرة القضاء عليه قضاء مبرماً.

«من المؤسف أنك لست هنا الآن»، همس في الظلام، تمنى لو أن والده يسمعه. لأن جورج مشتاق علّمه أنّ الأشياء الهامة لا تقال بصوت مسموع، بل تُهمس همساً.

ولم يقف الزمن في معلا أيضاً، فخلال ست سنوات، دأب سلمان على أن يبرهن لسكان القرية - العدو منهم والصديق - أنه هو وريث جورج مشتاق الحقيقي، لكن معلا لم تأبه له. حتى أنه لم يُدعَ للمشاركة في المناقشات التي تدور في القرية. فعندما كان أبوه على رأس العائلة، لم يكن في القرية أحد يجرؤ على اتّخاذ قرار دون استشارة الرجل العجوز.

اعتقد سلمان أن هناك أشخاصاً في القرية يحيكون مؤامرة له، كلاب كالرجل الذي يدعى إسماعيل الذين لم يكونوا يجرؤون حتى على سؤال مشتاق العجوز هل يريد أن يبيع مزرعته، لكنهم ظنوا الآن أنه بعد ثلاث أو خمس سنوات فإن سلمان لن يوقفه شيء، وأنه سيصبح أغنى مزارع في المنطقة كلها. لذلك بذلوا كل ما بوسعهم للقضاء عليه قبل أن يتمكن من تحقيق غايته.

لم يكن إسماعيل إلا أداة طيعة في يد الأرملة وابنها، الشيطان فارس. ألم ينزل به الله عقاباً كافياً؟ فقد تزوّج فارس ابنة ضابط حقير في المخابرات، كي تزداد أسرته هيبة، ولم تلد له سوى أطفال مشوهين. كان يهمس سراً في

القرية بأنهم مجرد صور حيّة عن الضحايا الذين عُذبوا في أقبية المخابرات على يد ابيها، ويزعم أن فارس وزوجته كانا يخبئان أطفالهما في غرف مظلمة ويعاملانهم كالحيوانات، وقد مات اثنان منهم ولم يبلغا الخامسة من عمرهما، أما الابن الثالث، كما يردد أهالي القرية، فقد كان يجأر بصوت عال في الليل فيستيقظ الكثيرون في الحي الأرثوذوكسي فزعين. لكن من الواضح أن فارس لم يفهم غضب الله، بل ازداد قلبه صلابة.

أما سلمان فكم كان محظوظاً بأبنائه، وتذكّر ابنه البكر، ناصيف الذي يعمل بنجاح ميكانيكي سيارات في دمشق مع إخوته الثلاثة.

عادت أفكار سلمان إلى أعماق الزمن، إلى اليوم الذي لاحظ فيه جورج مشتاق انتفاخ بطن حنان وهي في شهرها الرابع. فاستدعى ابنه وهنّأه، ثم أخذه في نزهة على الهضاب حيث كانت السماء صافية واسعة، والهواء نقياً، ولم يكن بإمكان أحد أن يسمعهما، وأخيراً أفضى له والده بسرّ حياته.

إذ لم يكن اسمه الحقيقي جورج مشتاق، بل ناصيف يازجي. وقال إنه أطلق على نفسه اسم جورج بعد وصوله إلى معلا بعد أن هرب مع حبيبته زرقا، واكتشف أن القديس الشفيع لهذه القرية هو القديس جاورجيوس، وخطر له اسم مشتاق لأنه كان آنذاك مهووساً بالموت، وعنى بذلك «مشتاق للموت» لكنّه وفّر على الفلاحين الأغبياء ذكر كلمة «الموت»، وقال لهم إن اسمه جورج مشتاق فقط. عندها سُجّل الاسم أخيراً بعد استقلال سوريا في عام ١٩٤٦.

هنا صمت والد سلمان طويلاً، كما لو كان يحاول أن يكبح ذكرياته.

«إذاً كان اسمي ناصيف يازجي»، كرّر أخيراً. «وكانت عائلتي تنتمي إلى طبقة الأعيان. كان أبي والياً في جبل لبنان، موالياً للسلطان. كان اسمه الأول سلمان مثل اسمك. لكن بعد انتفاضة الفلاحين ضد السلطان، هرب ولجأ إلى دمشق. وبعد ثلاث سنوات تم القضاء على انتفاضة الفلاحين بعد أن سفكت دماء كثيرة، لكن أبي لم يتمكن من العودة إلى الجبل، فمنحه السلطان مساحات شاسعة من الأراضي في غوطة دمشق. لكن بعد عمله في

twitter @baghdad_library

خدمة السلطنة طوال حياته، لم يعرف شيئاً عن الزراعة. فأدرك الفلاحون الذين يعملون في أراضيه ذلك، وراحوا يخدعونه ويغشونه كلما أمكنهم ذلك. مات الرجل ممتلئاً بالمرارة لأسباب كثيرة أخرى، لأن السلطان لم يمنحه منصباً آخر في الدولة. وقد تعلّمت من ذلك درساً في حياتي: وهو أن لا أعمل في خدمة أحد. ولم يعمل أحد من أخوتي في خدمة الدولة أيضاً، لأنها سيد جاحد لنا نحن المسيحيين».

مرة أخرى، استغرق جورج مشتاق في الصمت لفترة طويلة، وصمت سلمان. «كان على إخوتي الثلاثة وأنا وأختي مريم أن نخرج في وقت مبكر إلى الحقول والإسطبلات ونكدح مثل الفلاحين الفقراء لتسديد الديون التي خلّفها والدنا بعد وفاته. ثم طردت أمّي الفلاحين الذين يعملون في أرضنا، وأخذت الأمر على عاتقها. كانت امرأة شجاعة لا تهاب شيئاً، وورّثت شجاعتها إلى أبنائها. إن أحببت الموت، سيهابك أعداؤك -كان هذا شعارها.

كدحنا طوال عشر سنوات، حتى لم تعد هناك أي ديون على المزرعة، وأصبحت في حالة رائعة. أصبحنا المنتجين المحليّين الرئيسيين للحرير والمشمش. كانت التربة خصبة وأقمنا نظام ريّ لكي لا نكون تحت رحمة تقلبات الطقس. وهكذا أصبحنا أغنياء، أغنياء جداً، وعشنا حياة رغيدة، حتى جاء ذلك الرجل الذي يدعى كشاط وهدم كلّ شيء».

لم يخبره والده بعدها شيئاً آخر.

بعد ذلك، أطلق سلمان اسم ناصيف على ابنه البكر. كان الصبي يشبه حنان في قسماتها وبنيتها، ويشبه والدها في شخصيته. ومنذ طفولته، كان يجيد العمل بيديه، وكان يريد أن يصبح ميكانيكياً، وكان يكره الزراعة. ابتسم سلمان عندما تذكّر أن ناصيف قرر التطوع في الجيش وهو في الثامنة عشرة من العمر.

«لا مكان للمسيحيين في الجيش»، قال سلمان لابنه معارضاً تطوع ابنه في الجيش آنذاك، لا بدافع الخوف، بل بدافع الكراهية التي ورثها من أبيه.

«إن الجيش زبالة بلدنا، والفاشلون فقط هم الذين يتطوعون في الجيش. ويبذل أعيان المسلمين وأبناؤهم ما بوسعهم للاستيلاء على النفوذ في المدن ويسعون إلى تبوّؤ مناصب عالية في الدولة. أما المسيحيون واليهود، فيمكنهم أن يعيشوا على التجارة فقط، وأن يعتمدوا على معرفتهم وذكائهم».

في البداية لم يفهمه ناصيف، لكنه اكتشف بعد ذلك العالم الفني للسيارات، وانهمك في شغفه الجديد بهذه المهنة. شعر سلمان بالسعادة لأنه عمل بنصيحة أبيه وتمكّن من تغيير رأي الفتى. فمنذ عام ١٩٤٩ لم يتوقف ضبّاط الجيش عن القيام بانقلابات عسكرية، ترفعهم إلى قمّة سلطة الدولة، ثم تلقي بهم في أتون البؤس والتعاسة.

من كان يخطر بباله أن أول من قاد انقلاباً ناجحاً، العقيد هبلان، سيلقى حتفه على نحو بائس بعد مائة وسبعة وثلاثين يوماً فقط؟ ومن كان يخطر بباله أن العقيد ضرطان الذي أطاح به هرب مثل جرذ إلى بيروت حيث قُتل بعد سنة، بعد أن أطاح به العقيد شكلان؟ ومن كان يخطر بباله أن يجد شكلان الذي ظل يدوس الناس تحت قدميه في نهاية عام ١٩٥٢، نفسه معزولاً بهذه السرعة، وأن يفقد مزيداً من السلطة يوماً بعد يوم، ونحن الآن في نهاية عام ١٩٥٣؟ تذكّر سلمان حفلة عيد الميلاد التي أقامتها عائلة شاهين للعقيد في تموز، والإهانة التي لحقت بهم. ابتسم في ظلام غرفة نومه، ممتناً للعناية الإلهية.

كان أبناؤه الآخرون، لطيف وشادي وفادي، يبدون اهتماماً بالمحرّكات أيضاً ووضعوا خططاً طموحة مع أخيهم الأكبر. فقد قالوا إن المستقبل أصبح مُمكنناً، وإن فتح مرآب وورشة في دمشق بمثابة منجم ذهب. وبما أنه لا توجد في بلاد العرب منشآت لصناعة السيارات أو مصانع لقطع الغيار، فقد كانوا يعتمدون على تصليح سياراتهم، وعلى العقول المبدعة التي تصلحها كي تواصل سيرها على الطريق.

كان سابا وناصر لا يزالان صغيرين لاختيار مهنة. أما ابتهال، ابنة سلمان الوحيدة، فقد أحبت الزراعة ورغبت دائماً في الذهاب إلى الحقول

twitter @baghdad_library

مع الرجال. ومن دواعي السخرية، أنها الابنة الوحيدة التي تشبه مشتاق. من يعرف، قال سلمان لنفسه، بعد أن هدأت مخاوفه، فربما كانت تحمل روح جدّها، وستصبح أول امرأة مزارعة ناجحة ذات يوم.

لكن لكي يروا إن كان ذلك سيحدث أم لا، كان عليه أن يدافع عن المزرعة وحده في وجه أعدائه في السنوات القليلة المقبلة، وكان يجب عليه قبل كل شيء أن يتخلّص من إسماعيل المزعج.

ماذا سيفعل إسماعيل؟ سأل نفسه، هل سيهاجم البيت؟ لن يجرؤ على القيام بذلك. هل سيصطف إلى جانب عائلة شاهين اللعينة ضدّي؟ كان أحد الجيران قد أخبر سلمان عند الحلاق أن فارس يريد أن يحصل على مساعدة رجل غني لإنشاء مزرعة أكبر مرّتين من أراضي مشتاق، ويزرع المحاصيل التي يزرعها سلمان: تفاح ولوز وورد وخضراوات.

ابتسم سلمان في الظلام. لأن ثرياً سيكون أحمق إذا استثمر أمواله في هذه المناطق الجبلية الكئيبة. وسرعان ما غطّ في النوم. رأى والده يبتسم له، وقدم له غصناً من شجرة الرمان مكسواً بالبراعم الحمراء.

٥٠- إسماعيل

كانت تلك حقيقة راسخة في معلا وهي أن شراء أرض من عائلة مشتاق، حتى مجرد حفنة من التراب، أمر من ضرب المستحيل. أما المزارعون الآخرون، فكانوا يبيعون أراضيهم بسبب الجفاف، وإغراء طفرة النفط. وأصبحوا يفضّلون أن يعملوا عمّالاً في دول الخليج حيث يجنون أموالاً كثيرة. وبين ليلة وضحاها، أصبح عدد منهم مليونيرات من العمل في دول الخليج، لكن معظمهم خسروا أموالهم مرة أخرى. إذ أقنعهم بعض النصابين باستثمار أموالهم في تشييد أبنية غالية الثمن في دمشق، ثم هربوا بالأموال. فلم يتمكن ضحاياهم من العودة إلى معلا لأن أسعار الأراضي فيها ارتفعت ارتفاعاً جنونياً خلال فترة قصيرة من الزمن. فقد أصبحت معلا منطقة مرغوبة، إذ تقبع في منطقة جبلية مرتفعة، وتشتهر بهوائها المنعش، وبليالي

الصيف الباردة. في البداية، اكتشفها أغنياء دمشق، ثمّ بدأ يرتادها عرب من دول أخرى جيوبهم مليئة بالمال، فارتفعت أسعار الأراضي المعدة للبناء بسرعة كما كان الحال في العاصمة. وأثرى المزارعون الذين باعوا أراضيهم، وعاد المهاجرون الذين لم يتعرضوا لأعمال النصب ولم يفقدوا كل ما يملكونه في دمشق إلى معلا في الوقت المناسب ليستثمروا أموالهم فيها في خمسينات القرن العشرين، وأصبحوا أغنى القرويين بعد عشر سنوات.

لم يشأ مشتاق العجوز قط أن يقسّم أولاده أراضيه لأن تفتيت الأراضي يتعارض مع مبدأ العشيرة القوية، فسيطر سلمان على المزرعة من دون منازع بعد وفاته. حدث ذلك في عام ١٩٤٧. كان حسيب في أمريكا، ولم يتلق شيئاً، وحرم إلياس وملكة من الإرث. أما سلمان فقد أصبح رجل أعمال ناجحاً يغدق الهدايا على أشقائه، فيرسل كيساً من بتلات الورد والتفاح والزبيب والتين المجفّف واللوز، حتى إلى أخيه وأخته المحرومين من الإرث. كان يكسب أموالاً كثيرة، وقرر إنشاء مصنع للعطور في معلا. لكن كارثة وقعت على حين غرة.

كان إسماعيل رفاعي ابن محمد عبد الكريم الذي دأب على حضور الاحتفالات بأعياد الصليب والفصح والميلاد في معلا منذ زمن بعيد، ثم اصطف هو ونسيبه وصهره إلى جانب المعتدي حسن كشاط عندما هاجم القرية. لكن جورج مشتاق قتل عدوه اللدود كشاط، وتمكن نسيب محمد عبد الكريم وصهره من الهرب، أما هو، فقد أصيب بطلقة ارتدادية وقتل.

أصبح إسماعيل الآن، ابن القتيل، يرغب في شراء مزرعة مشتاق بأراضيها الشاسعة لجعلها جنة يقضي فيها السواح إجازاتهم وذلك بدعم مالي من وكالة سياحية فرنسية. لم يكن يريد شراء قطعة أرض صغيرة من أراضي مشتاق بسبب إطلالتها الرائعة ووفرة مياهها الجوفية فحسب، بل أراد شراءها لسبب آخر لا يعرفه أحد إلا إسماعيل نفسه وجورج مشتاق في قبره. كان إسماعيل يريد تصفية حسابه مع أهالي القرية التي قتلت طلقاتهم والده.

كان إسماعيل قد أصبح الآن رجلاً قوياً، وتمكن بعد نيل البلد

twitter @baghdad_library

الاستقلال من ترويج الفكرة بأن والده كان شهيد أول حكومة سورية، ولم يكن بإمكان الحكومة أن تدّعي رسمياً بأنها شنّت أيّ معركة بطولية لنيل هذا الاستقلال، بل خاضت معارك دبلوماسية شاقة وحصلت في الواقع على الاستقلال بعد تنازلات كثيرة لفرنسا، وكانت بحاجة ماسة إلى شهداء، إلى أكبر عدد ممكن من الشهداء لكي يعتبر تبوأها السلطة الجائزة الطبيعية للتضحيات الكثيرة التي قدّمتها في النضال من أجل تحرير الوطن.

انتهز إسماعيل، ابن الشهيد العظيم المزعوم محمد عبد الكريم، الفرصة، وتبوأ منصب وزير في الحكومة. وتقول السجلات الرسمية وشاهدة قبر والده أن هذا سقط شهيداً في القتال ضد الاستعمار الفرنسي، لكنه، كما كان إسماعيل يعرف حق المعرفة، أصيب في صدغه الأيسر بتلك الطلقة الارتدادية وسقط في وسط بركة موحلة صغيرة محاطة بنباتات القراص اللاسعة تحت طاحونة معلا، وهي بقعة من الأرض لم تطأها قدما أي فرنسي.

كانت خطة إسماعيل لشراء مزرعة مشتاق بمثابة قنبلة سقطت فوق معلا، خاصة في الحي الكاثوليكي. إذ أن الأرض تقع على هضبة مرتفعة تمتد من شجرة الدردار القديمة حتى جبال لبنان. هل ستؤول الآن إلى شخص غريب بدلاً من أن تظل ملك شخص من أهالي القرية، إلى رجل خان والده معلا بعد ان أكل خبزها وملحها كضيف؟

طمأن سلمان أصدقاءه القلقين الموجودين في دكان الحلاق. «إن مشتاق لا يبيع أرضه أبداً، ولا ينحني لأحد»، قال بنبرة تكاد تكون لا مبالية، محاولاً تقليد والده.

«لو كان والدك هنا لقطع خصيتي الوسيط»، قال راعٍ عجوز بلا أسنان، وهو يعدّل كوفيته على رأسه. كان سلمان يحتقر هذا الراعي الذي يدّعي بأنه يعرف كل شيء، فتجاهله.

استقبل سلمان وسيط إسماعيل، وزير الحكومة الذي يريد تشجيع السياحة، بتهذيب، لكن ببرود وقال له: «قل لسيدك إسماعيل رفاعي إن هذه قرية مسيحية، ولم يكبر حجمها ولم يصغر خلال آلاف السنين. نحن لا نبيع

مهما كان الثمن. إن سوريا بلد كبير، وفيها أماكن أخرى كثيرة تصلح للسياحة».

بعد يومين عاد الوسيط، وبتلميحات وتهديدات مبطنة، عرض ضعفي المبلغ، لكن سلمان، هذه المرة، لم يرفع عينيه عن الجرّار الذي كان يصلحه، هدر في الوسيط قائلاً: «ألم أتحدث بالعربي الفصيح، أم أن رئيسك لا يفهم بسرعة مثل أبيه؟ لن نبيع». وعندما عاد الوسيط إلى سيارته السوداء، تساءل سلمان بسرعة ألم يكن اقتراح الراعي جيداً. حدث ذلك في أحد أيام تشرين الأول الذي أصبح فيه لون أوراق الأشجار بنياً.

قبل عيد الميلاد بأسبوع، أتلف أشخاص مجهولون جميع الأشجار في أرض مشتاق البعيدة عن القرية. لم يسمع أحد شيئاً، لكن مربي حمام قال لاحقاً إن طيوره ظلت تصفق بأجنحتها هائجة طوال ثلاث ليالي. لكنها كانت تهدأ في ساعات الصباح الأولى، وهي لا تفعل ذلك إلا قبل وقوع زلزال، قد نامت طوال النهار تقريباً، ثم راحت تضرب نفسها بقوة على جدران بيوتها العلوية الخشبية في الليل.

اعتقدت الشرطة أن الأمر كله مدبر جيداً، ثم نُفِّذ وفقاً لخطة في الأيام التي ساد فيها طقس جليدي في كانون الأول. إذ سدّ رجال يدّعون أنهم من الشرطة العسكرية جميع الطرق المؤدية إلى أراضي مزرعة مشتاق، وعندما يسأل أحد المارة القلائل عن السبب، قالوا له إن مناورات عسكرية تجري في التلة العالية.

لم يصبح الأمر مريباً إلا في اليوم الثالث، عندما أراد سلمان وعدد من المزارعين الآخرين في القرية الذهاب إلى حقولهم. سألوا مخفر شرطة معلا هل تجري حقاً مناورة عسكرية هناك. فركب الشرطيان المحليّان، يتبعهما عدّة مزارعين، شاحنة سلمان، وتوجهوا إلى المزارع التي تبعد حوالي خمسة كيلومترات حيث وقعت عيونهم على مشهد فظيع.

غلّف الصقيع الأشجار العارية المقطوعة. جمّد هذا المشهد الدم في عروق سلمان. فقد كانت كلّ أشجاره وشجيرات الورد ملقاة على الأرض

twitter @baghdad_library

على مدّ البصر. عشرون هكتاراً من البساتين التالفة، ومعظم الأشجار مقتلعة من جذورها، وقد قطعت بعض الأشجار القديمة بمناشير، ودمر نظام الريّ بالبلدوزرات، واقتُلعت الأنابيب والخراطيم من تحت التربة وقُلبت مثل هياكل عظمية. لا بد أن عدّة بلدوزرات وشاحنات وحفارات وجرّارات قد استخُدمت في هذه العملية التخريبية.

لم يبق فيها جدار، ولم يبق فيها خزان ماء. وانهار بيت الحارس ووجد الرجل المسكين تحت أنقاضه. كانت في جثته فتحتان في الصدر. فقد مزّقه قاتلوه إرباً برصاص الدمدم.

شحب وجه سلمان ولأول مرة منذ موت أبيه بكى. وقف هناك غير قادر على أن ينبس بكلمة. لم يُرحه تعاطف الناس حوله.

في شباط ١٩٥٤، أي بعد شهرين، مات بنوبة قلبية. كان أول قروي في معلا يصاب بنوبة قلبية لأن النوبات القلبية لم تكد تكون معروفة عند العرب.

في ذلك الوقت، في شتاء ١٩٥٣، كانت جميع الدلائل تشير إلى إسماعيل رفاعي، لكن القضية لم تهم الشرطة ولا القضاء. كان إسماعيل قوياً، ولم تكن لدى أبناء سلمان القوة الكافية لمتابعة الأمر. كانت أمّهم حنان تعرف ذلك، فاتشحت بالسواد طوال خمس عشرة سنة، وظلت تذكّر أطفالها باسم المجرم. واتخذ أبناؤها أسلوبها الهادئ، وبدأوا يضعون الخطط أيضاً.

كانت حنان التي لم تبتسم قط طوال السنوات الخمس عشرة تلك، امرأة شاحبة تتمتع بطاقة حديدية. فلم تعد ترغب هي وأبناؤها في العمل بالزراعة بعد الكارثة التي أودت بحياة زوجها، فأجّرت الأرض البور إلى عدد من المزارعين في معلا، وقسّمت الإيجار بالتساوي بين أشقاء زوجها. اختفى حسيب دون أن يترك أثراً في أمريكا، فتبرّعت بحصته إلى دير مار سركيس وكنيسة القديس جاورجيوس الكاثوليكيين في معلا إحياء لذكراه. وبالمقابل تركوها تحافظ على بيت مشتاق العجوز الذي حوّله أبناؤها لاحقاً إلى واحد من أجمل البيوت في القرية، يجري في أرجائه جدول اصطناعي

يتلوى عبر مساحات واسعة ثم يتساقط في شلال من صخرة عالية إلى حوض مسبح. لم يفارق لطيف وناصيف وشادي وفادي بعضهم بعضاً. كانوا يحبّون الذهاب معاً إلى معلا حيث يحتفلون طوال الليل ثم يعودون إلى دمشق في سياراتهم الليموزين الأمريكية الفاخرة الكبيرة.

ولإنهاء قصّة إسماعيل: ففي خريف عام ١٩٦٨، تمكّن أصغر أبناء سلمان، ناصر وسابا، بواسطة وسطاء، من التحايل على إسماعيل رفاعي وسلبه ثروته كلها. لم يكفهم تحطيم إسماعيل مادياً، فقبض عليه فجأة بتهمة خطيرة هزت كيانه وهي أنه يهرب أسلحة وأموال إلى البلد من العراق للقيام بثورة ضدّ الحكومة. كان التعاون مع العراق مذموماً في دمشق أكثر من التعاون مع إسرائيل، وظل منذ الخليفة الأموي معاوية كذلك على الدوام.

أنكر إسماعيل كلّ الاتهامات التي وجهت إليه، لكن الدليل كان دامغاً. فقد عُثر على أسلحة وذخيرة وصناديق من الأموال في حظيرة خيوله. رتّب كلّ ذلك أحد رجال المخابرات الذي منحه ناصيف، ابن سلمان الأكبر، سيارة أوبل موديل ١٩٦٧. وحُكم على إسماعيل بالسجن المؤبّد.

في ذلك اليوم، ضحكت أرملة سلمان حنان ثانية، لأول مرة وارتدت ثياباً ملوّنة، وقالت إن أبناءها أبطال، وأقامت لهم بهذه المناسبة حفلة باذخة في مطعم علي بابا الراقي الذي افُتتح مؤخراً في دمشق. ودعي إلياس وكلير إلى الحفلة أيضاً. لم يحضر فريد لأنه كان في السجن آنذاك.

«لقد استغرق ذلك خمس عشرة سنة»، قال ناصر، رافعاً كأس العرق نخب أمّه وقال: «لكننا انتقمنا لوالدنا».

«خمس عشرة سنة؟» سأل إلياس مندهشاً. كان جالساً بين كلير وابتهال.

«نعم، يا عمّ»، أجاب سابا، الابن الأصغر الثاني، «إن إيقاع شخص كهذا في فخّ يستغرق وقتاً طويلاً. كان رجلاً مريباً».

«البدوي»، قال ناصر مازحاً، «يقول في هذه الحالات: أحسنتم يا أولاد، لكن لمَ العجلة؟»

twitter @baghdad_library

كتاب العشيرة الثالث

الحبّ قطة برية بسبع أرواح

*

فينيسيا، دمشق، معلا، ١٨٥٠-١٩٣٥

٥١- لوسيا ونجيب

لم تكن ذاكرة كلير قوية، لكن ما حدث في صيف عام ١٩٣٥ لم يفارق ذاكرتها. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما أحبّت موسى صليبي من كلّ قلبها في السنتين الأخيرتين. لكنها التقت بعد ذلك بشابّ شاحب البشرة، يملك أجمل يدين في العالم، في قرية معلا التي هجرها الله، ويكلّمها بالفرنسية.

كانت من أهالي المدينة، ولادة ونشأة، وترى منذ صغرها أن الحياة في القرية مملة، وتشاطر والدها كراهيته لكل ما هو ريفي، والدها الذي لم يكن يخفي أنه يفضّل أن يقرأ صحيفته ويحتسي قهوته في دمشق على أن يفعل ذلك في هواء الجبل العليل. لكن بخلاف كلير، كان يتهرب باستمرار من زيارة معلا، ويدّعي، متأسفاً، أنه لا يستطيع أن يأخذ إجازة من عمله.

أما أمّها فبدا أنها لم تكن تكترث إن ذهب والدها أم لم يذهب. فقد كانت تحبّ حياة الريف الخشنة والقرويين البدائيين الذين يطيعونها بخنوع، وينفّذون كل ما تطلبه، وكانوا ينادونها بـ«سنيورا»، الكلمة التي تحبّ سماعها كثيراً.

لم يكن شقيق كلير مارسيل الذي يكبرها بسنتين يتخيّل وجود رفاهية

أفضل من قضاء فصل الصيف في معلا. ولهذا السبب بالذات، لم تكن كلير تحب القرية. لكنها كانت تجد فيها شيئاً جيداً، وهو أن النوم في المنطقة الجبلية أفضل من النوم في جو دمشق الحار الدبق.

كانت أمّها لوسيا نصف فينيسية. فقد جاء والدها، أنطونيو شاميكو، إلى دمشق عام ١٨٥٠ مع وفد تجاري، فأحبّ المدينة ومكث فيها. قيل إنه ينتمي إلى طبقة النبلاء. وكانت لوسيا ابنته تحدث كل من له أذن، أن عائلته تملك أجزاء كبيرة من مدينة فينيسيا الإيطالية. لكنه كان في حقيقة الأمر متسكعاً، كسولاً، مستهتراً، منغمساً في الملذات.

تعلّم أنطونيو شاميكو التحدث بالعربية بسرعة، وغيّر اسمه فأصبح أنطون شامي، لأن هذا الاسم يشبه صوتياً اسمه الإيطالي إلى حدّ ما، وقد ساعده ذلك على الاختلاط والاندماج بسهولة أكبر. علماً أن كنية «شامي» شائعة في دمشق، وتحمل هذا الاسم عائلات عديدة من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

بعد فترة وجيزة، تزوج جوزفين، ابنة زكريا أصفر، أحد أكبر منتجي الحرير في سوريا. وقد أصبح شامي نفسه تاجراً مرموقاً في سوق البزورية، سوق بيع التوابل القريب من المسجد الأموي، وجمع ثروة كبيرة من تجارة التوابل والحرير والأخشاب المرصّعة بالصدف. لكن مصدر فخره الأكبر كان في عام ١٨٧١، عندما تناول طعام العشاء مع الموسيقار الأثير لديه جوزيبي فيردي في القاهرة، حين كان هذا العبقري الإيطالي يشارك في ليلة افتتاح أوبرا عايدة بمناسبة افتتاح قناة السويس. وكبّر أنطون شامي صورة يجلس فيها إلى طاولة مع فيردي وهو يضحك، وعلّقها على الجدار في غرفة الجلوس في بيته الجميل الذي مزج في أسلوبه المعماري بين الأسلوبين الإيطالي والسوري على نحو رائع. وحتى يومنا هذا، يحمل هذا المبنى اسمه، وهو أجمل مبنى في الحي كلّه. وعندما زار قيصر ألمانيا الأخير، فيلهيلم الثاني، الشرق في عام ١٨٩٨، مكث فيه خلال زيارته إلى دمشق. في ذلك الوقت، كانت لوسيا مخطوبة لنجيب سُرور، ابن عائلة غنية تعمل

twitter @baghdad_library

في تجارة القماش، لكن أنطون شامي كرّر حفل الخطوبة والتقط لها صوراً بحضور القيصر. وعلّقت هذه الصور في غرفة نوم لوسيا إلى جانب صور أجدادها من فينيسيا.

كان يمكنها أن تحكي قصصاً رائعة عن عين جدها، قاضي القضاة، باولو شاميكو، الزجاجية، ويد آخر قيصر ألماني الذاوية. وكانت كلما طعنت في السن، تحكي مزيداً من الحكايات، بل ازداد رصيدها من الحكايات بعد وفاة زوجها. فبدأت تحلّق في مخيلتها بمجموعة من العيون الزجاجية التي تملكها عائلتها في فينيسيا. إذ كان الفنانون قد صنعوا عدداً لا يحصى من العيون الزجاجية، حتى تمكنوا من صنع عين تلائم قاضي القضاة. وقد جمعها جدها على حد قولها في خزانة زجاجية كتحفة ثمينة، وراحت تبعث رسائل إلى السلطات الإيطالية في روما وفينيسيا، تطالبهم فيها باستعادة هذه المجموعة الثمينة. لقد حدث كل ذلك قبل وفاتها في عام ١٩٥٩.

وفي عام ١٩٠٠، تزوّجت لوسيا نجيب. أحبّ أنطون شامي الشابّ الأنيق الذي كانت له صلات وعلاقات جيدة، وكان يأمل بأن يساعده في توسيع أعماله. لكن نجيب لم يكن يرغب في أن يعمل مع حميه، أو حتى مع أبيه. في البداية، عمل مع صرّاف نقود. وبعد سنتين من التدريب في باريس، أصبح مديراً فنياً في قسم مراقبة الجودة في بنك سوريا ولبنان الذي كان يسمح له، شأن المصرف المركزي، بطباعة ليرات ورقية. كانت الأوراق المالية تصدر وقد كتب عليها أن الحكومة الفرنسية تضمن أن تساوي قيمة الليرة السورية واللبنانية عشرين فرنكاً فرنسياً كحد أقصى.

وفي عام ١٩١٠، قضت الكوليرا على أنطون شامي وزوجته، ونجت لوسيا لأنه صادف أنها كانت هي وزوجها في زيارة لعائلتها في فينيسيا في ذلك الصيف. فورثت ثروة كبيرة استثمرها نجيب بأمان في المصرف.

كانت زوجته عازمة على أن تكوّن أسرة كبيرة، فأنجبت عشرة أطفال، مات منهم ثمانية فور ولادتهم، ولم يبق على قيد الحياة إلا مارسيل، ثم أنجبت كلير بعد سنتين.

ظلت لوسيا تقيم علاقات مع شبان حتى بعد أن بلغت منتصف الخمسينيات من عمرها. بعد تلك السنوات، كانت ابنتها تضحك في غالب الأحيان لأنها تظن، عندما كانت فتاة غرّة، أن جميع عشاق أمّها الذين يزورونها هم من أقارب العائلة، وكانت تناديهم «عمو»، حتى جاء يوم أوضحت لها إحدى صديقاتها حقيقة ما يجري. كانت كلير في السابعة عشرة من عمرها آنذاك، وقد توقفت أمّها عن استقبال شبان منذ أمد بعيد.

عندما أخبرتها صديقتها في ربيع عام ١٩٣٥ ذلك، غضبت كلير كثيراً، لا بسبب علاقات أمّها الطائشة فحسب، بل للأكاذيب والسخرية التي تعرّضت لها، هي ابنتها كلير. لكنّها أحست بالإهانة والعزلة عندما فاتحت شقيقها بالموضوع. كان في التاسعة عشرة من عمره، وقد بدأ دراسة الحقوق منذ بداية السنة. فقال لها بطريقة تخلو من أية مشاعر وبصفاقة شديدة بأنه يعرف ذلك، وأنه سعيد لأن أمّه تبحث عن الحبّ الذي لم يستطع والدهما أن يمنحها إياه.

«لكن ماذا عني؟ لماذا لم يخبرني أي منكما؟» سألته كلير واغرورقت عيناها بالدموع.

«إنك تشبيهن والدك، فأنت عاطفية مثله. لا تستطيعين تقبل الحقائق الصعبة» أجابها.

منذ تلك اللحظة، مات حبّها لأمّها ولأخيها. لكنها لم تُفْشِ سرهما أيضاً. وعندما ذهبت إلى دمشق مع أبيها بعد أسبوع لتناول البوظة، طرحت مواضيع عن الحبّ والإخلاص والغيرة، وقالت إنها تريد أن تسمع رأيه لكي تعرف كيف يمكنها أن تتصرّف مع خطيبها موسى.

نظر نجيب إلى ابنته بارتياب وابتسم وسألها وهو يهزّ رأسه «لماذا يعني الحبّ دائماً التملك؟» ثمّ صمت قليلاً، كما لو كان يتساءل عمَّ يريد قوله لها. منحته كلير وقتاً ثم قال: «يجب أن تحبّي بصفاء وراحة نفسية»، وأضاف، «يجب أن يمنح الحبّ السموّ. إنه يجعلك تعطين كلّ شيء دون أن تخسري شيئاً. وهذا هو سحره. أما هنا، فإن الناس يريدون إبرام عقود

twitter @baghdad_library

الزواج بحضور شهود. تخيّلي، شهود، كما لو كان ذلك نوعاً من أنواع الجريمة»، كرّر ببطء، تاركاً لها المجال أن تقدر الجانب السخيف، «كما تشرف الدولة والكنيسة على العقد. إن هذا ليس حبّاً، بل أوامر من سلطة أعلى بهدف التكاثر والتناسل».

ابتسم لكلماته وأضاف، «وأيّ غبي لا يعرف أن واحداً زائداً واحداً يساوي اثنين يعرف أنه عندما يحبّ أحداً، فإنه يريد أن يمتلك جسد ذلك الشخص وروحه أيضاً، ويحرس ملكيته بغيرة شديدة لكي يضمن أن لا القلب ولا الدماغ، ولا الكبد ولا المعدة، ولا...»، تردّد نجيب لحظة ثم قال، «حسناً، تعرفين ماذا أقصد»، وأضاف، «تلمسه أيّ فكرة أو يد أو مشاعر أخرى. إن الغيرة والحزن مبرمجان في ترتيب الزواج سلفاً».

جلسا بهدوء. نظرت كلير إلى أبيها وهو يغمر ملعقته في البوظة، مبتسماً. يا له من رجل حكيم، قالت لنفسها. بدا لها مثل زائر قادم من عالم غريب يعيش في سلام الآن.

لم تعجبها هذه الأفكار. فقد كانت تشعر بانزعاج شديد عندما تنظر امرأة أخرى إلى خطيبها بإعجاب أو تتصرف بطريقة مبتذلة معه.

بعد أسبوع من هذه المحادثة في محل البوظة، ألقي القبض على والدها. ووجهت إليه تهمة اختلاس مبالغ كبيرة من المصرف الذي يعمل فيه منذ خمس سنوات. أمضى ثلاث سنوات في السجن حتى تدخّل البطريرك الكاثوليكي لصالحه، لكنّ أحداً لم يبرئ ساحة نجيب قط، حتى زوجته، لكنه لم يعبأ بذلك.

٥٢- تمّام وسركيس

كان البيت الضخم ينتصب في ساحة القرية قبالة بوابة باحة كنيسة القديس جاورجيوس. رممت لوسيا الطابق الثاني كليّاً، وجهّزته بأحدث الأدوات التقنية، وأثّثته بأحدث طرز الأثاث. كان الإيجار رخيصاً فسددت إيجار سنة كاملة سلفاً، حتى تتمكن من زيارة معلا في أي وقت تشاء.

أما تمّام، صاحبة البيت، فقد كانت تحبّ المستأجرين القادمين من دمشق، وتجد متعة كبيرة في التحدث إلى لوسيا التي لم تكن تتبادل كلمة واحدة مع القرويين الآخرين. كانت لدى تمّام مزرعة كبيرة تزرع فيها الخضراوات وكروم عنب، وتشتري ما تبقى من احتياجاتها من قرية عين الجوزة المجاورة، وتجلبها إلى البيت على ظهر الحمار الذي تملكه. وكلما أتت لوسيا إلى معلا، جلبت معها حقيبة إضافية مليئة بأطيب أنواع الأطعمة، بما فيها الشوكولاتة واللحوم المعلّبة. فلم يكن ثمة شيء يدخل البهجة إلى نفس تمام أكثر من ذلك.

في ذلك الوقت، كانت كلير، مثل جميع البنات العاشقات، تقرأ قصص الحبّ بلا ملل، ولاسيما الروايات الفرنسية، لكن قصّة حبّ صاحبة البيت وضعت جميع تلك القصص في الظلّ.

كانت تمّام التي تعيش وحدها مع ابنها جميل، امرأة غريبة. ظنّ القرويون أنها امرأة غريبة الأطوار، وراحوا يتهامسون بأنّها هي السبب في موت زوجها المبكّر، الذي أحبّته منذ طفولتها. فقد كان يعيش مع والديه في بيت صغير بالقرب من بيت أسرتها. كان أبوها مزارعاً غنياً. وعلى الرغم من أنها لم تكن جميلة، فقد تقدم لخطبتها عدد كبير من الرجال، لكنها رفضتهم جميعاً، وكان أبوها سعيداً لبقائها معه بعد وفاة زوجته لأنه لم يكن يرغب في أن يشاركه فيها رجل آخر. لكنه عندما اكتشف أنها تحبّ ابن جيرانهم، حال بينها وبين الشابّ الذي يعمل في مقلع للحجارة ويكسب أجراً ضئيلاً. كانت تمّام تحبّ والدها، وأصبحت ممزّقة بين مشاعرها تجاهه ومشاعرها تجاه حبيبها. فراحت تبكي بحرقة ليلة بعد ليلة من أجل سركيس الذي أقسم بأنه لن يلمس امرأة غيرها. اقترح عليها الهرب، لكن تمّام لم ترغب في أن تجعل من والدها موضع سخرية القرويين. كانت تأمل في أن يجلب لها موته الفرج، لكن الموت، ذاك الملاك الذي لا يأبه بمواعيد البشر، أخذ وقته.

انتظرا عشرين سنة. عندما مات والد تمّام، كان سركيس قد بلغ الأربعين من عمره، وأصبحت هي في أواخر الثلاثينات من العمر. انتظرا

twitter @baghdad_library

سنة أخرى حتى تخلع تمّام ثياب الحداد السوداء. حتى ذلك اليوم، لم تعرف معلا حكاية عاشقين يضحيّان بنفسيهما ثم تنتهي نهاية سعيدة، لأن مثل هذه القصص تنتهي دائما بمأساة. إذ لا يمكنك أن توفق بين حياة الفلاح القاسية وبين رقة قصص الحبّ العظيمة الخارجة من حكايا الحوريات والجنيات التي تدور أحداثها في حدائق غناء يرتدي الناس فيها عباءات حريرية فضفاضة، ربما لأن تلك الحكايات تجعل الحياة في المناطق الجبلية الكئيبة في أعين مستمعيها أكثر قساوة.

كانت تمّام تخاف من ليلة العرس، فقد حكت لها جارتها، القابلة الخبيرة، قصص رعب عما يجري في الليلة الأولى عندما تكون العروس قد تخطت مرحلة شبابها المبكر فيصبح غشاء بكارتها أصلب من قطعة مطاط. وقالت إن العروسين يحتاجان إليها في أحيان كثيرة، لأنها قابلة، لمساعدتهما في إيلاج سبّابتها لفضّ بكارة العروس.

متلذذة بمخاوف العروس، حدثتها المرأة عن أحد رجال القرية الذي كُسر قضيبه عندما فضّ بكارة عروسه. وأصبح بعد ذلك مقوساً بشكل زاوية قائمة، وحكت لها إن زوجاً آخر أولجه بكلّ ما أوتي من قوة، لكن بما أن عروسه كانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها، فقد تحول غشاء بكارتها إلى جدار مطاطي قوي، قاوم بشدة الضغط عليه فارتدّ الرجل كما لو أنه كان يثب فوق منصة بهلوان، وسقط من فوق السرير وارتطمت مؤخرة رأسه بالأرض. أدت هذه الضربة إلى تشويش عقل الرجل. وأصبح لا يتكلّم إلا اللغة الإسبانية، ويتحاشى جميع النساء.

أحسّت تمّام بمخالب الخوف الحديدية تعصر قلبها، وتمنّت لو أن القابلة قد روت لها هذه الحكايات الرهيبة بدافع التباهي فحسب. لكن ليلة زفافها كانت أسوأ من جميع القصص الأخرى التي حكتها لها. فقد احتسى سركيس كمية كبيرة من الخمرة ليزداد شجاعة. انتاب تمّام التي لم تذق المشروب في حياتها الخوف من الرائحة النتنة التي تفوح من زوجها الذي كان العرق يرشح منه بشدّة، ومن يديه القاسيتين عندما حاول أن ينزل

سروالها الداخلي من تحت ثوبها. فتوسلت إليه بأن يتذكّر بأنها لم تعد فتاة شابة، فاهتاج غضباً، وصاح كما لو أنه سمع قصص الجارة أيضاً، «أنا لست بحاجة إلى قابلة. فقد أمضيت ثلاثين سنة وأنا أصلّب وأشحذ إزميلي».

لم يفه بكلمة واحدة تنمّ عن الحبّ، ولم يداعبها برقة. لطالما كانت أصابعه، على الرغم من أنها مليئة بالخدوش والبثور من عمله في مقلع الحجارة، أرقّ من بتلة الورد عندما يلمس بشرتها، أما الآن، فلم تكن تفوح من وجه سركيس رائحة عطر، ولم يعد ذلك الحبيب الحيي الخجول، بل أصبح شخصاً غريباً يستلقي فوقها بكلّ ثقله، يسدّ عليها الهواء.

وراح يلكز روحها الجافة. صرخت تمّام عالياً فتوقف الموسيقيون والمطربون والراقصون للحظة، لكنهم سرعان ما رفعوا كؤوسهم بهجة. كرهتهم تمام. فقد كانوا يأكلون خبزها ويصفّقون ويهزجون لألمها.

بدا أن لا نهاية لتلك الليلة. فقد أحسّت بأنها أشرفت على الموت، فأجهشت في البكاء، لكن ذلك شجّع سركيس على ولوجها بعنف أكبر مرات ومرات. وفي وقت متأخر من الليل، قرعت عمّته العجوز الباب وقالت باقتضاب، «دليل الشرف»، فسحب سركيس الخرقة البيضاء المبقعة بالدم التي تثبت عذرية تمّام، من تحتها وأعطاها للمرأة العجوز. ومرة أخرى انطلقت الأفراح والبهجة بين المدعوين الذين واصلوا أهازيجهم ورقصهم تحت نافذة غرفة النوم حتى طلع النهار.

لم يدم الزواج أكثر من شهرين. فقد استجمعت تمّام شجاعتها وطردت زوجها. لم يبد سركيس أي احتجاج، بل عاد إلى بيته القديم، خائباً بمرارة من المرأة التي طالما انتظرها. كانت تحدّثه دائماً عن ألعاب الحبّ والشهوة تملأ صوتها. أما الآن، فقد بدأت تتصرّف معه مثل راهبة، وأي راهبة! ففي ليلة العرس أخذت تصرخ منذ أن لمسها، ثم نامت قبل أن ينهي واجبه الزوجي.

بعد أسبوع، طلبت منه أن ينام وحده في غرفة صغيرة، وقالت له إنها عندما تنام بجانبه فإنها ترى كوابيس بأنه يغتصبها على الدوام. هل أنام

twitter @baghdad_library

وحدي في غرفة صغيرة بائسة؟ إذن لماذا تزوجت؟ سأل سركيس هذا السؤال بصوت عال عند الحلاق، وهز الرجال رؤوسهم بمزيج من العطف والسخرية.

لكن سركيس لم يخبر الرجال بأنه لم يعد إليها قط لأنه أصبح يكره نفسه. لماذا رفض كلّ تلك النساء الجميلات؟ فقد قدمت له ابنة الجيران سعيدة، ذات الزندين الناعمين التي ظلت تزوره بعد وفاة والديه، جميلة وغضّة كأنها عرق نبات الريحان، وقالت له إن رجلاً مثله يحتاج إلى امرأة صالحة تدفئه في السرير وتنجب له أطفالاً جميلين. وقالت له: «انظر إلى نهديّ، تحسّس بطني. ألم يخلق كلّ ذلك من أجلك؟» فلمسها. كان لها نهدان صلبان مكوران، وسرّة خلابة. لكنه في النهاية ردها على أعقابها. كيف يمكن أن يكون هناك أيّ رجل بهذه الدرجة من الغباء؟

حاولت سعيدة طوال سنتين، ثم استسلمت وتزوّجت حداد القرية. في ذلك الوقت، كان الحداد رجلاً وسخاً، خشناً لا يطاق. أما الآن؟ فقد أصبح يبدو نظيفاً، مهندماً، وأصبح عنده ثلاثة أبناء، كل واحد منهم أكثر وسامة من الآخر، وربتهم أمّهم كمسيحيين صالحين. راحت القرية كلها تتحدث عن سعيدة التي حوّلت كلباً بائساً إلى رجل وكأنه سيّد من عائلة رفيعة.

وهناك الأرملة الشابة وليدة التي أمضت ليالي طوالاً في البكاء بجانب سريره، تتوسل إليه أن تشاركه فراشه، لكنّه كان مخلصاً لتمّام، ورفض كلّ إغراءاتها. «أنا وأنت أرملان»، قالت الشابّة البعيدة النظر، بحكمة، «والفرق الوحيد هو أن شريكتك لا تزال مدفونة فوق الأرض»، كم هي محقّة، قال سركيس لنفسه. إن تمّام جثة حيّة تتنفّس.

اختفى سركيس من القرية فجأة. وبعد أربعة أسابيع، عثر أطفال يلعبون على جثته في حفرة عميقة، طويلة، مهجورة، في مقلع الحجارة.

٥٣- الانشقاق والالتقاء

كان هناك مدخل خاص وراء البيت يفضي إلى الطابق الأول له درجات خشبية. وكانت تمّام صاحبة البيت الذي تنزل فيه أسرة سُرور، تقيم في الطابق الأرضي. كانوا يأتون إلى بيتهم لقضاء الصيف بعد بدء العطلة الصيفية الطويلة بيومين، ويمكثون فيه حتى قبل افتتاح المدرسة في بداية تشرين الأول بيوم واحد. وكان مارسيل قد وجد في جميل، ابن تمّام، صديقاً سَعِدَ كثيراً برفقته.

في صيف عام ١٩٣٥، بلغ مارسيل التاسعة عشرة من عمره، وبدأ يدرس الحقوق. وبما أن نجيب سُرور دخل السجن في أيار، فقد ذهبت كلير برفقة أمّها إلى معلا. لذلك أصبحت ترى خطيبها كثيراً في الأسابيع التي سبقت ذهابها.

لكن قبل آخر يوم من بدء عطلة المدرسة الصيفية، صدمها. فعندما كانت في أمسّ الحاجة إليه، بدا لها غريباً وخيّل لها أنها ستفقد رشدها.

تعرفت على موسى صليبي بالصدفة في عام ١٩٣٣، عندما كانت تتناول البوظة مع أبيها. اقترب منهما شاب طويل القامة، قوي، حسن الهندام. توقّف بتهذيب وقال لنجيب «طاب يومك». دعاه نجيب لمشاركتهما. عندما نظر موسى إلى كلير أحسّت بالأرض تميد من تحتها. كان يكبرها بخمس سنوات، ويبدو أنيقاً مثل أيّ ممثل. أُعجب والدها بموسى الذي كان ملاكماً جيداً يتمتع بشخصية رائعة. بهاتين الصفتين، وجد عملاً كحارس شخصي لحاكم دمشق الفرنسي.

بعد ذلك اللقاء الأول في محل البوظة، دأب موسى على زيارة العائلة بذريعة أو بأخرى. لكنه لم ينل إعجاب أمّ كلير التي قالت عنه ببساطة إنه مجرد قشرة، أنيق لكنه فارغ. وعندما كان يأتي لزيارتهم، كانت تغادر غرفة الجلوس وهي تطلق تنهيدة بأسى. لكن نجيب، لا لوسيا، هو من يمتلك القول الفصل في خطبة كلير فوافق على الفور، عندما طلب موسى يد ابنته للزواج، وتجاهل زوجته تماماً عندما قالت إن موسى ليست لديه مهنة

twitter @baghdad_library

حقيقية، وأن من مهام الحرّاس الشخصيين الدفاع عن الحاكم والموت من أجله إذا دعت الضرورة.

أحبّت كلير خطيبها القوي، الوسيم، وتصورت نفسها تجوب العالم في حمايته. ما إن عقدا خطبتهما رسمياً في شتاء ١٩٣٤، حتى أصبح بإمكانه أن يأخذها في جولة بسيارة حاكم دمشق السوداء، ماركة رينو، موديل ١٩٣٣، ذات المقاعد المصنوعة من الجلد والخشب الجميل التي تحجب نافذتها الخلفية ستارة سميكة.

أحست بأنها أميرة، ترتدي أجمل الفساتين، وتغوص في المقعد الخلفي الوثير، بينما يقود موسى سيارته في شوارع المدينة الجديدة.

أصبحت كلير ترافقه لحضور مباريات الملاكمة أيضاً. فعندما يكون في الحلبة، ويعرّي صدره الرياضي، كان يبدو أروع مما يبدو وهو في بدلته الرسمية. كان موسى ملاكماً ماهراً، يتراقص ويدور حول منافسه. كانت النساء مغرمات به، وكان يستمتع بالنظرات التي يرمقنه بها بعيونهن الندية لشدة إعجابهن به.

بعد خطوبتهما بقليل، نازل البطل السوري الأسطوري علي داكو من حلب وهزمه في الجولة الثالثة، وسرى حديث في نادي الملاكمة بوجود فرصة جيدة لإرسال موسى إلى باريس للمشاركة في المباريات الفرنسية في السنة القادمة. كانت كلير ترى في أحلام يقظتها أنها تعيش في تلك العاصمة العالمية، وكان والدها الذي زار باريس ثلاث مرات، معجباً بهذه المدينة.

تقرر كل شيء في شهر آذار: فقد تقرر ذهاب موسى إلى باريس إذا فاز على منافسه الملاكم الشاب الذي لم يكن يتمتع برشاقة موسى وسرعة حركته، لكن قبضتيه كانتا كالفولاذ. ففي إحدى المرات، في رهان مع أحدهم، قتل ثوراً كبيراً بلكمة واحدة بين أذنيه. كان هذا الملاكم الشاب يدعى ريمون راسمالو، ويعمل نحات أحجار.

«سيكون ذلك مجرد تمرين صغير لموسى قبل أن يذهب إلى باريس»، طمأن نجيب ابنته. كان واقفاً عند النافذة في الطابق الثاني، يراقب زوجته

وهي تقلّم الورود في الحديقة في هذا اليوم البارد لكن المشمس. قال لها: «لقد وضعت نقوداً في محفظة تحت فراشك. إنها لك. ربما أعجبتكما باريس وأردتما البقاء فيها، لأن الحياة ستكون قاسية علينا نحن المسيحيين في السنوات القليلة القادمة. إن المسلمين سيذبحوننا». كانت في صوته نبرة تشي بالحزن واليأس. لم تفهم ابنته ما قاله لها.

في ١٤ أيار، وكان يوم ثلاثاء، بعد أسبوع واحد من عيد ميلادها، ألقي القبض عليه. فقد توجّه إسماعيل بلوط، وهو شابٌ في منتصف العشرينات من عمره، إلى مخفر الشرطة في حي المهاجرين قبل منتصف ليلة يوم الإثنين ١٣ أيار. كان متأنقاً في ملبسه، وعرّف على نفسه بأنه موظف في مصرف سوريا ولبنان في دمشق. كان يحمل حقيبة كبيرة، وقال إنه لم يعد يغمض له جفن منذ ليالي عديدة. سأله الشرطي لماذا؟ وضحك آخر وأضاف، «أبسبب الغرام أم بسبب الشجار مع زوجتك؟»

«لا، بسبب النقود»، أجاب، وفتح الحقيبة التي تبين أن فيها اثنين وخمسين مليون ليرة سورية. حدّق رجال الشرطة في النقود. كانوا متيقنين من أن الرجل الواقف أمامهم معتوه، لا ريب في ذلك. «إن نجيب سُرور الشيطان بعينه. لقد تلاعب بالآلة التي تختم الأوراق النقدية القديمة المهترئة لكي يجعلها عديمة الفائدة قبل حرقها في أفران خاصة، عندها يصدر المصرف أوراقاً نقدية جديدة تحمل نفس أرقام الأوراق القديمة ويضعها في التداول». أوضح الرجل بصعوبة شديدة، وهم يأخذون إفادته. ورداً على سؤال قال إنه توجد أوراق نقدية مزدوجة للعملة التي لم يتلفها نجيب، وهي ليست أوراقاً مزيفة لأن الأرقام التسلسلية لكل من الأوراق النقدية المتلفة والجديدة صحيحة وتحمل الأرقام نفسها. لم يقل الرجل كيف تمكّن ذلك الشيطان نجيب من التلاعب بالآلة، وقال إن كل ما كان عليه هو أن يلزم الصمت، ويوقّع على أوراق تقول إن الإجراءات التي تجري في غرفة إتلاف الأوراق النقدية القديمة، صحيحة. «ولا يُسمح للمفتش الذي يدقّق الرماد بالدخول إلى الغرفة، لذلك لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الأمر. كان نجيب

twitter @baghdad_library

يقدم له رماد ورق صحف بدلاً من رماد حرق النقود، بنفس الوزن تماماً حتى آخر مليغرام. ولا يعرف أحد غيره كيف يفعل كلّ ذلك. لقد خدعني أنا أيضاً».

«في غاية السهولة، مع غبي كهذا»، همس شرطي يكسو وجهه نمش، لزميله بينما كان ضابط الصف يستجوب الرجل، ويدوّن إفادته شخصياً. راح يكتب ببطء، وظل يطلب منه أن يكرر ما قاله آخر مرة.

قال إسماعيل بلوط إنه كان عليه أن يحتفظ بالمال في مكان آمن لبضعة أسابيع، ثم يترك له نجيب ثلث المبلغ، وقال إنه يريد أن يستخدم ثلثي المبلغ المتبقي لتحسين مستوى الملاكمة السورية ورفعها إلى المستوى العالمي. نظر رجال الشرطة إلى بعضهم بريبة.

«أما أنت أيها اللقيط، فإني أظن أنك تخطّط لإسعاد حفنة من الأطفال الأيتام بحصتك من النقود»، صاح ضابط الصف الذي لم يكن يعرف أنه يستطيع قراءة الأفكار. لأن إسماعيل بلوط كان يرغب حقاً في إقامة دار للأيتام وإدارتها. فقال بهدوء، لأنّه رُبّي تربية دينية صارمة، ولأن والده هو الشيخ المعروف حسن بلوط. لكن الشيطان، متنكّراً في هيئة ذلك المسيحي نجيب أغراه، وها هو الآن، إسماعيل، نادم على جريمته.

لم يكن رجال الشرطة يعرفون من هو حسن بلوط، ولم يفهموا تماماً الحيلة التي زعم فيها أن المجرم قد استخدمها للتحايل على جميع الأنظمة الأمنية التي يتبعها المصرف الفرنسي، فوضعوا الرجل في زنزانة، وسجّلوا المبلغ في محضر واتصلوا برئيسهم، الملازم فخري. كبداية، قام الملازم فخري بتعذيب موظف المصرف إسماعيل بلوط هذا، بزعم أنه يريد أن يعرف إمكانية وجود أموال أخرى مخبأة في مكان آخر. كان التعذيب إجراء روتينياً تمارسه الشرطة آنذاك.

لكنهم لم يحصلوا على معلومات أخرى حتى الصباح الباكر من يوم ١٤ أيار. إذ قبضت الشرطة على نجيب بعد ثلاث ساعات. وبعكس بلوط الثرثار، لم ينبس والد كلير بكلمة واحدة، لكن جميع المكالمات الهاتفية

التي تلقاها الملازم فخري، كانت تقول إنه يجب عليه أن يعامل هذا المسيحي بحذر.

ولما كان المبلغ لا يزال سليماً، فقد كان قرار المحكمة الذي صدر لاحقاً مخففاً. وحُكم على بلوط بالسجن لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ، وعلى نجيب بالسجن لمدة خمس سنوات. وأطلق سراحه بعد ثلاث سنوات من فترة حكمه. رحّبت كلير بأبيها كما لو كان عائداً إلى البيت من رحلة طويلة. لكن أشياء كثيرة حدثت قبل ذلك.

فبعد أن ألقي القبض على والدها، حزنت كلير كثيراً. وبدأت بعض التلميذات في المدرسة يضايقنها، وكان عليها أن تبتلع الملاحظات القاسية التي كنّ يوجهنها إليها. فكانت تبكي في المغاسل لأن بعض الفتيات كنّ يهاجمنها مثل سرب من الزنابير الهستيرية. وكانت راهبات مدرسة البيزانسون يتصرّفن كأنهن لا يسمعن ولا يرين. ولم تقف إلى جانبها بقوة إلا صديقتها مادلين التي لم تنس كلير وقفتها تلك حتى آخر يوم في حياتها.

حكت لمادلين عن كابوس الأحلام السيئة التي كانت تعذّبها في الليل. وذلك لأنها عرفت أن والدها قد وضع في زنزانة انفرادية لعدة شهور لإرغامه على الاعتراف، ولم يُسمح لها أو لأي شخص آخر بزيارته. وفي أحد الأيام، أشيع بأن نجيب سُرور مات تحت التعذيب ودفن في الصحراء. والسبب الآخر، أن المباراة بين موسى وريمون راسمالو، الملاكم ذي القبضة الفولاذية، كانت ستقام في شهر حزيران.

«يا له من جنون»، قالت مادلين ذات صباح، «فها نحن أعزّ صديقتين، ويريد خطيبانا أن يحطم أحدهما رأس الآخر»، في البدء لم تفهم كلير ما قصدته مادلين. فقد كانت كلير حدّثت صديقتها كلّ شيء عن موسى وأنهما قد يذهبان إلى باريس. وبطبيعة الحال، كانت كلير تعرف أن مادلين مخطوبة أيضاً، لكن صديقتها لم تحدّثها كثيراً عن خطيبها، وعندما ذكرت لها ماذا يعمل، قالت إنه نحات. وإذا كان نجيب أو موسى قد ذكرا أمام كلير اسم منافس موسى، فقد كانا يطمئنانها بالقول بأنه قوي البنية، لكنه ملاكم ضعيف

twitter @baghdad_library

فنياً، لذلك كانت تسجّل ذلك بصورة عابرة فقط، ولم تكن تدرك أنّ موسى سينازل خطيب صديقتها مادلين. الآن فقط انقشعت الغشاوة عن عينيها. فاعتراها الفزع.

ضحكت مادلين، وقالت: «أشعر كأني شخصية في رواية تافهة»، وأضافت مازحة، «وأن علينا كما في الأفلام التافهة أن نجلس أنا وأنت في الصف الأول، وما إن تحتدم المعركة بين رجلينا حتى ننقض على بعضنا وننتف شعر بعضنا ثم نتلاكم، لكن للأسف فإننا في حياة حقيقية ولسنا في رواية. فأنا لا أقاتل أحداً. وإني أعتبر هذه الرياضة سخيفة. فهي ليست سوى صورة لمشاجرة بين زعران. وأستغرب لماذا يرغب الناس في مشاهدة هذا النوع من القتال؟ ولم أرافق خطيبي إلى أي مباراة ملاكمة».

«كم أتمنّى لو كنت قوية مثلك»، أجابتها كلير، «إذ يتعين عليّ أن أذهب لحضور هذه المباريات دائماً، لا لأنني شجاعة، بل لأنني جبانة. أحسّ أنه بوسعي أن أقدم مساعدة ما، إذا لم تكن الأمور تسير على ما يرام، وإذا فاز فإنه سيكون أكثر سعادة لأنه يستطيع عندئذ أن يحتفل بنصره أمامي».

حُدِّد موعد المباراة يوم الأحد ١٦ حزيران. كان نادي الملاكمة يقع في الحي الإسلامي، وأصرّ البطل المدافع عن اللقب ومنافسه المسيحيين على إجراء المباراة يوم الأحد. وضعت كلير بعض المساحيق على وجهها وارتدت فستانها الأصفر الذي يحبّه موسى. لكنها لم تشعر بالسعادة عندما ذهبت إلى النادي، بل حتّى عندما استقبلها أعضاء اللجنة بحفاوة، وأبدوا لها تعاطفهم مع أبيها، الرجل البريء الذي زُجَّ به في السجن ظلماً.

تشنجت معدة كلير عندما دخل خطيبها الصالة الكبيرة التي تتوسطها حلبة الملاكمة. وقبل أن يختفي هو وحاشيته الكبيرة في غرف تبديل الملابس، طمأنها موسى بابتسامة، وقال لها: «سأكون فراشة، فقط انتظري لتري»، لكن الأمر لم يبدو لها كذلك.

كان دخول خطيبها مهيباً بالمقارنة مع دخول منافسه. تقدم موسى بضع خطوات إلى الحلبة مثل نجم سينمائي، تصحبه موسيقى وفريق كامل من

المساعدين. صعد الدرجات برشاقة وانسلّ من بين الحبال التي باعد بينها له مرافقوه. أجرى دورة استعراضية حول الحلبة، وهدرت الصالة برمتها، وبعث إلى كلير قبلة في الهواء وابتسم لها.

عندما هدأ الجمهور، ظهر ريمون راسمالو. كان قصيراً قوياً. اضطرت كلير لأن تقف حتى تراه. لم يكن يرافقه أحد إلا مدرّبه الذي يحمل دلواً قديماً مهترئاً. اسُتقبل ريمون بضحكات سخرية وصيحات استهجان. مشى منحنياً قليلاً إلى الأمام وبدت ذراعاه طويلتين. «هيه، هل جاء هذا القرد إلى هنا ليجعله موسى موضع سخرية أم ماذا؟» صرخ رجل بدين يرشح عرقاً يجلس وراءها بثلاثة مقاعد. فردّ عليه رجل آخر، «لا، إنه مجرد طبق مقبلات بالنسبة لموسى، لكن أين هو الطبق الرئيسي؟»

صعد ريمون إلى الحلبة متجهماً، ورفع يده بتردّد بتحيّة قصيرة قوبلت من الجمهور بصفير ساخر وعبارات سوقية، وتوجّه مباشرة إلى الركن المخصص له. كان جسمه مكوناً من مجموعة من الكتل والنتوءات العضلية. رقبته، ذراعاه، ساقاه - إذ لم تكن توجد في جسم هذا الرجل خطوط مستقيمة. حدق منافسه بعينين حادتين عندما همس له مدرّبه بنصيحته الأخيرة.

لم تتسلل كلمات وتحيات عريف الحفل التي سبقت المباراة إلى عقل كلير. بل ما أثار انتباهها هو الجرس الذي قرع مرة أخرى.

منذ البداية، لم تتح لموسى أي فرصة.

كان ريمون يتحرك حوله مثل نحلة طنّانة غاضبة. ظل الحكم يحاول الفصل بين الملاكمين، لكن كلما تشابكت أيديهما ببعض، وجّه ريمون اللكمات إلى موسى بلا رحمة. بذل موسى ما بوسعه لإبقاء منافسه بعيداً عنه، وعندما يتمكن من ذلك، كان يبدي أيضاً براعة برشاقته وسلسلة اللكمات التي يوجهها بدقة إلى رأس منافسه، عندها يهتاج الجمهور ويعلو صياحه. لكن ريمون كان يتلقى اللكمات ثم ينسلّ وينطلق ثانية مثل سهم من بين قبضات منافسه ليمسك به بقوة مرة أخرى، محيِّداً تميّز موسى بذراعيه

twitter @baghdad_library

الطويلتين. فعندما كان ريمون يقترب منه كثيراً، تُشلّ حركة موسى ويصبح عاجزاً. لم تكن حركات خصمه تمتاز بتلك الرقصة الجميلة التي يرى أنها أساسية في الملاكمة. فقد كان ريمون قاسياً مربوعاً، وقد حذره حكم الحلبة ثلاث مرات في الجولة الأولى لأنه نطح برأسه رأس منافسه.

جلس موسى في الزاوية المخصصة له خلال فترة الاستراحة القصيرة بين الجولتين الأوليتين، وقد بدا عليه الذهول. حثّه المدرّب على الابتعاد عن خصمه، بينما كان المساعد يبلل وجهه بالماء. لكن ما إن قرع الجرس حتى انطلق ريمون مثل لعبة من الصفيح تعمل بدقة. فراح يدفع ويوجه اللكمات ويجأر في وجه خصمه ويتقدّم نحوه مثل مدحلة. توقّف موسى عن التراقص. كان يحاول جاهداً أن يحافظ على سلامته بالحفاظ على مسافة بينه وبين خصمه، محاولاً كسب بضع ثوان ليستجمع قوته ويفكّر بالأسلوب الذي سيواجهه به، لكنه سرعان ما تلقى ضربة مثل مطرقة من ذلك الغوريلا ريمون حطّمت كلّ الأساليب التي يتقنها. فقد راح ريمون يوجّه لكمات على رأسه، بينما أخذ يحفر بمرفقيه في بطن موسى.

دامت هذه الجولات الأولى إلى الأبد، وفي نهاية الجولة الثالثة، وجّه ريمون ضربة إلى صدغ موسى صليبي الأيسر. كانت لكمة قوية كأنها حجرة صوان ألقت موسى بعيداً عن منافسه. ترنحّ على جانبيه، ثم سقط على الأرض. أبعد الحكم ريمون الذي كان يحاول الاندفاع إلى منافسه مثل وحش مفترس ضارباً عرض الحائط بكلّ قواعد المباراة. بذل موسى جهداً كبيراً لكي يتمكن من الوقوف على قدميه ثانية، وسمح الحكم بمواصلة المباراة، لكن لم يكن لدى الملاكمين وقت للإتيان بأيّ حركة أخرى قبل أن يدق الجرس.

«انتظري»، قال رجل مسن يجلس بالقرب من كلير لزوجته، «لا بد أن موسى يتظاهر بأنه هاو. لكنه سيريه الآن ماذا سيفعل به حقاً».

جرّ موسى نفسه بصعوبة إلى الركن المخصص له، وصاحت كلير تطلب منه أن يوقف المباراة. سمعها، ونظر إليها بعينين خاويتين. أمسك

رجل ذراعها بفظاظة، وقال لها: «يا حريمة، هذه المباريات ليست للحريم والأطفال. إما أن تجلسي وإما أن تخرجي وتتنشقي هواء نقياً»، ودفعها بطريقة غير لائقة حتى تجلس على مقعدها. حتى أنه لم ينظر إليها، بل تركزت نظرته على بطله المعبود، الجالس في الزاوية اليمنى من الحلبة، وقد تورمت عيناه.

استمرت الجولة الرابعة سبع ثوان فقط. هي الفترة التي استغرقها ريمون في الانتقال من الركن المخصص له إلى وسط الحلبة لينسلّ كالنمس تحت قبضتي خصمه الممدودتين. ثمّ، في جزء من الثانية، وجّه لكمة بكامل قوته إلى ذقن موسى، وبعد ثانية وجّه بقبضته اليمنى ضربة مدوّية إلى الصدغ الأيسر لمنافسه المترنح. لم يفقد موسى توازنه فقط، بل أبحر في الهواء إلى يمينه، وسقط كحجرة، وانزلق نصف متر عبر الحلبة، فاقداً الوعي، ثم استقرّ على ظهره على نحو يثير الشفقة. عرف ريمون أنه لم يعد بإمكان هذا الرجل الوسيم الملقى على الأرض أن يفعل شيئاً الآن. ماداً ذراعيه، وثب في الهواء وأطلق صرخة حطّمت مصباحين، وأصابت طبلة أذن الحكم اليمنى بضرر دائم. غيّر الجمهور وجهة تأييده فراحوا يهتفون الآن تأييداً لخصم موسى الهمجي.

لم تعرف كلير ماذا تفعل. قفز عدد من الرجال إلى الحلبة لمساعدة البطل السابق الممدّد على الأرض. حاولت أن تتسلق إلى الحلبة أيضاً لتكون مع موسى، لكن جارها الفظ قبض على ذراعها بعنف وأوقفها وقال لها: «لا يسمح بصعود النساء إلى الحلبة إلا القحبات». شمّت رائحة عرقه المقزّزة، وتمكنت من السيطرة على محتويات معدتها، ثمّ أفلتت ذراعها منه، وقالت: «لا تلمسني»، محاولة أن تحافظ على رباطة جأشها، «إلا إذا أردت أن تثير مشكلة». كشف الرجل عن أسنانه المنخورة في ابتسامة عريضة، وابتعد عنها.

وقفت هناك وحدها. لم يعرض عليها أحد المساعدة، حتى رئيس اللجنة. حمل الرجال خطيبها موسى أمامها، ودعا أحدهم الطبيب. لكن عندما حاولت كلير اللحاق بهم إلى غرف تغيير الملابس، وقف البواب

twitter @baghdad_library

الضامر الذي كان يتذلل دوماً لوالدها وسدّ باب المدخل وقال: «لا يسمح بدخول الحريم، فنحن هنا لسنا في فرنسا»، قالها وهو يحدق في الفراغ كأنها غير موجودة. لم تقبل ذلك. كانت تدعو الرجل دائماً «عمّو شريف»، لأنها كانت تعرفه منذ طفولتها. كم مرة ربّت على رأسها، وكم مرة دسّ والدها خمس ليرات في يده، وطلب منه أن يذهب ويتناول وجبة طعام جيدة مع زوجته؟ في ذلك الحين لم يكن العامل يكسب أكثر من خمس ليرات لقاء عمل يومين. أما الآن، فلم يناداها البواب باسمها، بل كان يتحدث عن «الحريم».

«لكن عمّ شريف، ألم تعرفني؟ أنا خطيبة موسى»، قالت بهدوء وبحزن لأنها كانت تعرف في أعماقها بأنّه عرفها تماماً.

«لا يسمح بدخول النساء. يجب أن تنتظري موسى هنا. لدينا أخلاق محتشمة هنا، وليس مثلكم أيها المسيحيون».

ارتبكت. بالطبع كانت تعرف أن نادي الملاكمة في الحيّ الإسلامي المحافظ، لكنه يقبع في قلب مدينتها دمشق. إلى أين جلبها موسى؟ من الواضح أن أمّها لم تكن مخطئة عندما قالت لها عندما غادرت بأنّها لا تريدها أن تذهب إلى ذلك الشطر القاسي من المدينة، غير أنها ظنت أن ابنتها ستكون في حماية موسى طوال الوقت. لكن ها هو ممدّد الآن على الأرض عاجز عن القيام بأي شيء.

فرغ المكان، تدفق سيل الناس عبر المدخل الرئيسي البعيد. وجدت كلير نفسها في الجانب الآخر من الصالة، بالقرب من باب الخروج الخلفي الصغير بجانب غرف تبديل الملابس والحمامات والمراحيض. أثار الصمت المطبق فزعها.

زحفت الدقائق ببطء، ثقيلة كالرصاص. بدا أنها انتظرت ساعات. حتى وقت لاحق، لم تصدق أنها انتظرت أقل من ثلاثين دقيقة. سمعت ضحكات وأصوات أخرى وراء الباب الثقيل. جاءت إليها كما لو كانت قادمة من كهف عميق سُدَّ باب مدخله.

اقترب منها رجلان كانا خارجين من الصالة. رجل مربوع قصير، ورجل طويل قوي يضع سيجارة في زاوية فمه.

«هيه، ما رأيك بقضاء وقت ممتع معنا؟»سألها الرجل الطويل وهو يحرّك حاجبيه إلى الأعلى والأسفل، حركة خيّل إليه أنه يغويها بها.

«اذهب إلى الجحيم»، قالت كلير بصعوبة. كان صوتها يرتعش. تجمّد قلبها مثل شظية حادّة من الثلج.

«لا حاجة لأن تتصرفي بهذه الطريقة، سندفع لك»، أجاب الرجل القصير وهو يدفع سبابته اليمنى إلى الأمام والوراء في الدائرة التي رسمها بإبهام وسبّابة يده اليسرى.

«أرجوكما اذهبا»، قالت متوسلة، لكن ذلك شجّع الرجلين أكثر. مدّ الرجل الطويل يده إلى صدرها. ركلت ساقه وضربت بحقيبتها الرجل الأقصر الذي أمسك ردفيها. صرخت لأن ضربهما لم يجد نفعاً. أمسكاها من ذراعيها بسرعة، كل واحد منهما بذراع ودفعاها نحو الحمامات. لكن بعد ذلك، حدث شيء لن تنساه طوال عمرها، وكانت تحكي القصّة في أحيان كثيرة. فقد خرج رجل بسرعة من غرف تغيير الملابس.

«ماذا تظنان أنكما تفعلان بحق الجحيم؟» صاح، ومن دون أن ينتظر جواباً منهما التقط خرطوماً قصيراً ملقى تحت حوض المغسلة وراح يضرب الرجلين به.

«اترك الفتاة وشأنها أيها البندوق». كان الخرطوم يصفر في الهواء ويسقط فوق رأسي وكتفي المعتديين البغيضين. تركا كلير وراحا يجريان وهما يتعثران، وقبل أن يصلا إلى باب المخرج استدار الرجل القصير وصاح، «قحبة».

وقف منقذها وقد بدا خجولاً، يتنفّس بصعوبة. كان الرجل الذي يدعى برقوش ضابطاً في الشرطة برتبة نقيب وملاكماً متحمساً، لكنه ملاكم عاثر الحظ. وقف بعيداً عنها ريثما تستعيد أنفاسها.

«شكراً»، قالت كلير، وأجهشت في البكاء.

twitter @baghdad_library

«ماذا تفعلين هنا؟»

«أنا. . . أنا أنتظر خطيبي. لقد أغمي عليه».

«من؟ موسى؟ أأنت خطيبة موسى؟ لقد صحا منذ قليل. إنه يُغرق حزنه بشرب العرق المبرّد مع أصدقائه. يمكنك أن تذهبي إلى البيت، لا تقلقي».

أرادت أن تسأله أن يبحث لها عن موسى، لكن فجأة لم يطعها لسانها. فقد فُتح في داخلها صدع بحجم الوادي الصخري في معلا، وصدع قلبها. كان عليها أن تبذل جهداً لتحافظ على هدوئها أمام الرجل، وخرجت تجرُّ قدميها.

في ذلك الوقت، كانت أمّها تعيش في فيلا في جادة عرنوس، وهي منطقة يسكنها علية القوم. كانت تبعد حوالي كيلومترين، لكنّها قرّرت أن تستقل عربة. كانت هناك عدّة عربات يجرها حصان واقفة بالقرب من محطة الحجاز للقطارات. اختارت أفضل عربة ولم تساوم على الأجر. عندما تساءل العربجي بصوت مرتفع ماذا تفعل امرأة وحدها خارج البيت في الليل، قالت له أن يهتم بأموره الخاصة وأن يوصلها إلى جادة عرنوس، بالقرب من الجندرمة الفرنسية.

ابتهج العربجي العجوز عندما سمع العنوان، لأن سكان هذه المنطقة هم من الأغنياء وأصحاب النفوذ فقط، ويمنحون إكراميات سخية.

«كما تقولين يا آنسة، لن أتدخّل، لكنني أب وأشعر بالقلق على شابّة جميلة مثلك. عندي ثلاثة أطفال، كما ترين، ابنتي حياة، بعمرك تقريباً، واسمحي لي أن أقول بأنها جميلة مثلك، ولا أقصد بذلك أي إساءة».

يُعرف العربجية عادة بأنهم ثرثارون، لكن باستطاعة هذا العربجي منافسة مذياعنا الجديد، قالت كلير لنفسها. كان يدعى سليم، وكان يعمل على الطريق بين بيروت ودمشق، لكن السفر في ذلك الطريق لم يعد مربحاً هذه الأيام لأن أحداً لم يعد يسلك ذلك الطريق تقريباً، فانتقل للعمل في المدينة، وهو أمر لم يكن سهلاً، لأن العربجية الآخرين في المدينة لم يكونوا يريدون رؤية عربجي آخر يسرق اللقمة من أفواههم. كان العربجية

في الريف يتعرضون لهجمات قطاع الطرق الذين يسرقونهم ويسلبون كل ما يكسبونه في يومهم. قال لها إنه لم يكن لديه خيار، فعليه علف هذين الحصانين، وتوفير الطعام لزوجة وثلاثة أطفال. وقد جعله ذلك يتحلى بشجاعة تفوق شجاعة أسد، فأحسّ عربجية المدينة بذلك، هؤلاء الرعاع، فتركوه وشأنه.

راح يتحدث ويتحدث، وفجأة صار حديثه وذكريات مغامراته ممتعاً. كانت العربة تعبر شوارع المدينة في تلك الليلة الصيفية المعتدلة. كانت نسائم غربية عليلة تهبّ على العربة، وكانت حوافر الخيل تصدر إيقاعاً جميلاً فوق بلاط الشوارع.

أطلقت كلير تنهيدة ارتياح عندما رأت نوافذ منزلها مضاءة، وأعطت العربجي مبلغاً سخياً. وقبل أن تبلغ الباب، تناهى إليها صوت الأغاني الإيطالية التي تحب أمّها الاستماع إليها من المذياع ليلة بعد ليلة.

بعد أسبوعين، كانت تجلس بجانب أمّها في الحافلة المتوجّهة إلى معلا، وتملكها شعور باليأس.

كانت تحبّ موسى، لكن ثمة شيء انكسر إلى الأبد في تلك الليلة في نادي الملاكمة. جاء ليراها، وأبدى نحوها لطفاً شديداً، وحاول أن يقول لها إنه كان يخجل من النظر إلى وجهها في تلك الليلة. لكنها، للمرة الأولى، أحسّت بفراغ في قلبها، لا عندما غادر فقط، بل عندما كان جالساً معها أيضاً.

في ذلك الصيف، بدت القرية في عيني كلير أكثر كآبة من أي وقت مضى. كانت الروايات الفرنسية ودواوين الشعر التي أحضرتها معها بمثابة قوارب نجاة. وتابعت لأيام طويلة مصير جوليان سوريل في رواية «الأحمر والأسود»، ووجدت عزاء في قصائد الحبّ لفيرلين. ووجدت ملاذاً أيضا في رواية أندريه جيد «مزيفو النقود»، ورواية جورج بيرنانوس «تحت شمس الشيطان»، وروايات غي دي موباسان «الصديقة الجميلة، وعزيزتي كوليت، والمتشردة».

تركتها أمّها وشأنها، وانهمكت بالقيام في زيارات لصديقاتها أو

twitter @baghdad_library

استقبالهن أو المكوث بالقرب من مذياعها. ولأول مرة شعرت كلير بوحدتها، بنوع من القرابة مع لوسيا. وللمرة الأولى، بدأت تشعر بالقرب منها، عندما كانتا تتناولان الطعام أو تتمشيان في نزهة قصيرة.

ذات يوم مشمس في أوائل شهر تموز، التقت إلياس. كانت تضحك كلما تذكرت ذلك، لأن المكان الذي التقيا به لا يمكن أن يطلق عليه مكاناً رومانسياً. فقد التقيا في محل طانيوس، بائع الخضراوات في ساحة القرية. كانت كلير تحب طانيوس لأنه يعاملها بلطف. وكلما ذهبت إلى محله، يحكي لها نكتة بلغته العربية الفصحى الركيكة، لأن طانيوس، شأن جميع القرويين، كان يتكلّم باللغة الآرامية المحليّة.

في ذلك اليوم، كانت قد أنهت للتو قراءة رواية «الأحمر والأسود»، وللغرابة، أنها تأثرت بمصير ماتيلد أكثر من تأثرها بموت حبيبها المأساوي، جوليان سوريل.

في المحل، وضعت على الميزان بضع حبات صغيرة من الخيار ناولها طانيوس إياها من وراء النضد. سقطت خيارة صغيرة على الأرض، وفجأة، كانت هناك يد تعيدها إليها. لم تكن كلير قد رأت الشابّ من قبل، وها هو الآن ينظر إليها بعيني طفل تحملان جميع أحزان العالم.

"Merci bien, monsieur".

"Avec plaisir, mademoiselle"، قال الرجل. لم يكن أطول من كلير بكثير. غادر الرجل المحل دون أن تشعر بذلك. ابتسم طانيوس عندما استدارت، متوقّعة أن تجد الرجل الغريب لا يزال واقفاً وراءها. «إنه إلياس، إنه شابّ لطيف. من الغريب أن شوكة مثل جورج مشتاق يمكن أن تنجب مثل هذه الزهرة إلى هذا العالم».

عندما غادرت المحل برفقة أجير المحل الذي حمل لها سلة الخضراوات الثقيلة، رأت إلياس يسير في الشارع وحده. كان قد وصل بالقرب من بيتها، وتمنّت أنّ يتوقّف كي تتمكن من اللحاق به.

كما تمنت، التفت لينظر إليها. خفق قلبها بهجة كأنها فازت بجائزة. لم

تنس كلير قط تلك اللحظة والإحساس بالبهجة الذي تملكها والذي لم تعرفه في حياتها قط. بهجة ذات قوّة سحرية أحست بأنها كانت في تلك اللحظة تحت سيطرتها.

«هل ناديتني؟» سألها بلغة فرنسية رائعة. أحست بأنها يجب أن تقول الصدق.

«نعم مسيو، أردت أن أسأل ماذا يفعل رجل مثقف مثلك في هذه القرية المعفرة بالتراب؟» وأرسلت الأجير بطرس يسبقها بسلة الخضراوات وطلبت منه أن يضعها عند الباب وأعطته عشرة قروش. كست وجه بطرس ابتسامة عريضة، لأن ذلك يساوي ما يكسبه في أسبوع كامل من عمله في محل الخضراوات.

تبادلت كلير وإلياس الحديث طويلاً بجانب بيت سُرور الصيفي. كان إلياس يعرف الكثير من الكتب التي تحبّها، وبوسعه أن يردد على مسامعها أبياتاً من أشعار «زهور الشر» لبودلير عن ظهر قلب. عندما قالت له إنها تذهب إلى مدرسة البيزانسون، ابتسم ثم قال: «إن بيزانسون بلدة صغيرة، لكنها منحت البشرية هدية عظيمة: فيكتور هوغو».

أحسّت كلير بأنها منوّمة. اجتاحتها رغبة في أن تمدّ يدها وتلمس إلياس لأنها لم تصدق أن ما يجري كان حقيقياً. هنا في وسط قرية تقبع في نهاية العالم، تُصادف شاباً يقول لها أشياء في فترة وجيزة منذ أن التقيا أجمل مما قاله لها أي شخص آخر طوال السنوات السبع عشرة من حياتها. أحسّت بالرغبة في الجلوس والاستماع إلى هذا الرجل الجذاب، وتبوح له بكلّ مكنونات قلبها. كان عليها أن تقرّر بسرعة.

«هل تأتي بعد ساعة لاحتساء قهوة؟» سألته، فرد إلياس ببساطة، *"Avec plaisir"*.

في الساعة القصيرة التي سبقت قدومه، عرفت في صميم قلبها بأنّها وقعت في سحر هذا الرجل. فنزعت خاتم خطوبتها ووضعته في علبة صغيرة.

twitter @baghdad_library

٥٤- المطهر والفردوس

كان شيئاً لم تتوقعه كلير قط: فمن زيارة إلى زيارة، أدركت بأنّها تعدّ الساعات لكي يعود إلياس لزيارتها. خانها قلبها كلما قررت أن تنتظر لقاءاتهما بهدوء واتزان. عندما لمسها بيديه اللطيفتين، أحست بإثارة تسري في كلّ عرق من عروقها. لكن مجرّد وجوده كان يثيرها أيضاً. كان ذكياً، يضحك لأدنى استفزاز، لكنه قد يكون شديد الغيرة أيضاً، مع أن ذلك كان مجرد وسيلة ليعرب لها عن مشاعره.

قرآ كثيراً معاً، وتحدّثا عن الحبّ والحزن، وعن إشباع الرغبات والعفة، وعن الإخلاص والشوق. كانت كلير تشعر بأنها نصف موجودة حتى اليوم الذي رأت فيه إلياس، ووجدت الآن نصفها الآخر. لم يفت ذلك ملاحظة أمّها.

«إن هذا الشابّ من طينتك - انسي صديق والدك المتخلف، وأعيدي له خاتم خطوبته»، نصحتها لوسيا وهما تتناولان طعام الفطور بعد أسبوعين. فغرت كلير فاها من المفاجأة، فقالت أمّها بجفاف: «يجب أن تمضغي الطعام جيداً، فالطعام لا يُهضم من تلقاء نفسه. إن إلياس ينتمي إلى عائلة عريقة»، وأضافت، «إن رجال عائلة مشتاق أصيلون، كرماء، أغنياء، قُدُّوا من الصوان، لا مثل ذلك السائق الضعيف الذي هزمه قزم بالضربة القاضية على الحلبة»، ثم هزّت لوسيا رأسها وأضافت، «لكن صحبة نجيب سيئة جداً».

للمرة الأولى خلال سنوات، أحسّت كلير برغبة شديدة في أن تضم أمّها إليها. نهضت وعانقتها وقبّلتها. مسّدت لوسيا رأسها، وقالت: «يجب أن تكوني سخية بما تقدمينه لإلياس. إن رجال عائلة مشتاق يتمتعون بالشهامة في كلّ ما يفعلون، وإني متيقنة من أن ابنهم الأخير إلياس هذا لا يحبّ ضعاف القلوب أيضاً».

كانت تعرف جورج مشتاق منذ سنوات وتكنّ له كل احترام، وكان جورج يبادل السنيورا الاحترام أيضاً، مع أنه دأب على تحاشي إقامة أيّ

صداقة وثيقة معها. فقد أبعدته عنها الإشاعات عن موقفها إزاء الرجال. فقد أصرّت على أن يغتسل عشاقها جيداً، وأن يحلقوا شعر عانتهم، ويقال إنها دأبت على معاملتهم كالخيول: تمتطيهم بل حتى أنها تضربهم بالسوط.

في إحدى المرات، عندما لم يزرها إلياس لأيام عديدة، أحسّت كلير بشوق شديد له. نادت بطرس، أجير بائع الخضراوات ونفحته خمسين قرشاً وطلبت منه أن يبحث عن إلياس وأن يطلب منه أن يأتي لزيارتها في الحال.

«إنه يصعد إلى الجبل عند الفجر ويعود بعد الظلام»، قال الصبي اللمّاح على الفور.

«ماذا يفعل في الجبل؟»

«لا أعرف يا سيدتي. يقول معلّمي إن شجاراً نشب بين الأب والابن، وقد سمع ذلك كل من كان في الشارع».

«حسناً، أريدك أن تنتظره غداً وأن تقول له إني أريد أن أراه قبل شروق الشمس. لا تخبر أحداً بما قلته لك. أقسم على ذلك».

«أقسم لك يا سيدتي، فأنا أكره القيل والقال»، قال الفتى الذي لم يبلغ الثانية عشرة من عمره، ووضع النقود في جيبه بامتنان.

لم يغمض لها جفن طوال الليل، وأدركت في ساعات الظلام تلك بأن المطهر الذي يتحدّثون عنه في الكنيسة ما هو إلا الانتظار والشوق للنعيم.

عندما صاح ديكان الواحد تلو الآخر من مسافة بعيدة، نهضت وتوجّهت إلى النافذة. كان لون السماء قد بدأ يصبح شاحباً في الشرق. أطلّت كلير على ساحة القرية، ورأته يغذّ الخطا في الشارع، هيئة صغيرة غير واضحة المعالم.

أخذ قلبها يخفق بسرعة. راحت تبحث عن فستانها في العتمة، لم تجده، فلعنت نفسها لأنها لا ترتب أغراضها جيداً. بغتة أحسّت بيديه. لم تفزع، بل فوجئت بالسرعة والصمت اللذين تسلل فيهما إليها.

«أحبّك»، قال لها ويكي، ثم ضمّها إليه بقوة، وشعرت برأسه مثل رأس طفل يروم الحماية.

twitter @baghdad_library

«أحبّك أنا أيضاً، يا قلبي الغالي»، همست، وقد شابت صوتها عاطفة جياشة. ثمّ قبّلت جبهته وراحت تضغط صدرها على صدره. بعد قليل، هدأ وبدأ يحكي لها قصّته.

حكى لها كلّ شيء. أحسّت كلير برغبة شديدة في أن تحيط برعايتها هذا الفتى الذي ينتقل من مصيبة إلى أخرى. حدّثها بصراحة عن شهوته للنساء، وعن حظّه العاثر عندما أمسكه والده متلبساً مع نسيبة. ووصف حالته التعيسة عندما ثار الفلاحون المسلمون بسبب القحط والمجاعة في عام ١٩٣٣، وأضرموا النار في دير اليسوعيين في دمشق، فعاد إلى معلا مثل كلب ذليل. لكن والده رفض أن يحدثه، ودأب على أن يسخر منه كلما أتيحت له الفرصة. كما لو أنه إلياس هو، لا الغوغاء، الذي هاجم دير اليسوعيين في دمشق، واتّهمه والده بالفشل. وعندما طلب أن يُرسل للدراسة مع اليسوعيين في بيروت، كان الرفض هو الرد.

حدّثها عن سوء حظّه عندما عمل في مستودع التموين الفرنسي. لكن والده أبدى له مشاعر ودّ فجأة في أوائل هذا الصيف، بل إنه غفر له جميع أخطائه أمام أفراد العائلة الذين اجتمعوا، ومنع شقيقه سلمان من ضربه. لأنه كان يريده أن يعمل، هو إلياس، في تربية الخيول، لأنها منجم ذهب، كما قال مشتاق العجوز. لأنك تستطيع أن تشتري خيولاً عربية أصيلة بأسعار مناسبة من البدو، ثم تربيها وتبيعها بأسعار باهظة.

قال لها إنه كان يريد أن يبدأ هذا المشروع لأنه يحبّ الخيول لكنه سرعان ما اكتشف أنّ ما غيّر رأي والده به فجأة هو الصفقة السرية التي أبرمها مع مختار القرية، حبيب موبات، وهي أن يتزوج إلياس ابنة موبات.

«إنهم حفنة بائسة من المحتالين، هذه العائلة، لكنّهم يعرفون كيف يخدعون الفلاحين. وعليّ أن أهدر سنين حياتي بينهم»، قال إلياس متنهداً، وأخبرها أن حبيب موبات جمع أمواله من تسجيل الأراضي سرّاً عند الفرنسيين بأنه يملك جميع أراضي المنطقة التي كانت أرضاً مشاعاً في فترة السلطنة العثمانية، وهي تضم حقولاً وجبالاً وودياناً لا يمكن تقدير قيمتها.

لم يلاحظ المزارعون ذلك، لأن موبات تركهم يستخدمون الأراضي لرعي مواشيهم، لكن عندما يحاول أحدهم أن يزرع قطعة أرض، يستدعي المختار الجندرمة لطرده منها، وهكذا مرّ عقدان قبل أن تكتشف القرية أنّ التلال والأراضي الشاسعة المخصصة للرعي صارت قانونياً ملك لعشيرة موبات.

في صباح ذلك اليوم من شهر تموز ١٩٣٥، تملّك إلياس خوّف شديد. كان عليه أن يقرّر: فإذا تزوّج سميرة فإنه سيقدّم لأبيه معروفاً كبيراً، كما قال له مشتاق العجوز بنبرة ودّية، وأضاف أنه لا يتعين عليه أن يحبّ سميرة، بل كل ما عليه أن يفعله هو أن ينجب منها أطفالاً حتى تزداد عشيرة مشتاق قوة وبأساً. فبفحولته المعهودة، يمكنه أن يضاجع النساء كما يشتهي قلبه. كان إلياس يعرف أنه سيكون أغنى أبناء جورج مشتاق إذا فعل ذلك، لأن سميرة سترث أموالاً وأراضي تعادل كلّ ما تملكه عائلة مشتاق.

لم يكن أمامه الكثير من الوقت. فقبل يومين، وشى به الخادم باسل الذي رآه خارجاً من بيت كلير في الليل، كما أخبرها إلياس. فهاج مشتاق وماج، وصفعه على وجهه، وصاح قائلاً إن جميع فتيات المدينة عاهرات للفرنسيين، وهدده بأنه سيطلق عليه النار إذا زارها ثانية.

«فرحتُ أجوبُ الجبال لأيام عديدة. إني أعرف أبي. قد لا يقتلني، لكنه بالتأكيد سيحرمني من الميراث، وسيتبرأ مني إذا قرّرت أن أتزوجك أنتِ ولم أتزوج سميرة»، قال بهدوء.

ضمته كلير إليها. كانا يستلقيان الآن عاريين في سريرها، يدا إلياس تجوسان تضاريس جسدها ومنحنياته بخفة مثل جناحي فراشة. عندما حكى لها القصّة كاملة، أحسّت بأنه اختارها منذ زمن بعيد، وشعرت باشتياق جامح له.

غمر النور الغرفة، لكن الستائر المسدلة حجبت أشعة الشمس. ولجها، توقع أن تصرخ فزعاً، لكنّها رحّبت به، وشبكت ذراعيها وساقيها حول ظهره.

twitter @baghdad_library

٥٥- بيروت أو الخلاص

بعد يومين هرب إلياس وكلير إلى بيروت وتزوّجا في كنيسة صغيرة. كانت أخت إلياس ملكة وزوجها اللذان يعيشان في بيروت منذ هروبهما من معلا في عام ١٩٣١ هما الشاهدان على زواجهما.

في البداية، اختبأ إلياس وكلير في فندق صغير بالقرب من الميناء. فلم يرغبا في أن يمكثا في بيت ملكة، لشعورهما بالحرج من إظهار حبّهما وشوقهما المحموم في بيتها. كانا يمارسان الحبّ، ويتمشيان على الكورنيش، ويتناولان السمك المشوي في مطاعم صغيرة. وكما لو كان ذلك أحد طقوسهما، كانا يستلقيان على رمل الشاطئ الدافئ ويحدقان في السماء طويلاً.

«ماذا كان خطيبك يعمل لكسب رزقه؟» سألها إلياس.

«كان يعمل حارساً شخصياً لحاكم دمشق العسكري الفرنسي»، قالت كلير، بشيء من الدهشة لأنها كانت قد أخبرته بذلك عندما التقيا في أول يوم.

«الحمد لله أنه لم يكن حارساً جيداً، وإلا لما أتيحت لي الفرصة»، قال إلياس ضاحكاً.

اختبآ في بيروت ثلاث سنوات، المدينة التي كانت آنذاك تأوي آلاف اللاجئين والباحثين عن الثروة والمغامرين. كانت بيروت تشكّل للكثيرين منهم المحطة النهائية في رحلتهم، آخر بلد من بلاد العرب قبل أن يغادروا إلى أمريكا.

شكر إلياس أخته على المساعدة التي قدمتها له، لكنّه كان يحرص على ألا يمضي وقتاً طويلاً في بيتها، لأنه يخشى أن يتعقبه والده. كان لدى كلير نقود تكفيهما في الشهور القليلة الأولى. وبعد أن تركا مخبأهما الأول، الفندق، عاشا في غرفتين بسيطتين في حي الدورة. كانا لا يزالان يستلقيان على الشاطئ كلّ مساء، يستمتعان برؤية السماء الواسعة المرصعة بالنجوم.

كانت لوسيا الوحيدة التي تعرف سرّ خطتهما في الهرب، ولم تقع في حبائل الخدع الساحرة التي استخدمها جورج مشتاق عندما حاول، بكبريائه

الجريح، معرفة مكان اختباء الزوجين، فتظاهرت بطريقة مقنعة بأنها الأمّ الساخطة، وكانت تسخر في سريرتها من الفلاح العجوز.

وجدت كلير عملاً كمترجمة في شركة شحن، وعمل إلياس في محل حلواني يدعى «غندور»، والد أحد أصدقائه القدامى في المدرسة في دير اليسوعيين. في البداية، كان إلياس مجرد مساعد، لكنه سرعان ما بدأ يجد متعة كبيرة في هذه المهنة، فتعلّم الحرفة وأتقن جميع أسرارها. ولم تمض سنتان حتى أصبح معلماً في هذه المهنة.

كان غندور الحلواني رجل أعمال ذكياً. فقد أدرك مواهب العامل الشاب. لكن طموح إلياس لم يمكّنه من قبول إدارة فرع يزمع غندور أن يفتحه لأنه يريد أن يعود إلى دمشق.

عندما أسقطت كلير وليدها الأول، حثّتهما لوسيا أيضا على أن يعودا. وبعد أن أسقطت للمرة الثانية، جاءت لوسيا نفسها إلى بيروت وهالتها حالة ابنتها. لم يعجبها العلاج الذي يعطى لكلير في المستشفى فألحت على إلياس بأن يعودا إلى دمشق فوعدها بأن يفعل ذلك في أقرب وقت ممكن كرمى لصحة زوجته.

«لكن ماذا سيفعل أبي؟» سأل قلقاً.

«سنخبره بكل ما جرى. لقد جرحتَ مشاعره قليلاً، هذا كلّ ما في الأمر»، قالت، «وما عدا ذلك، فهو لا يستطيع أن يؤذي ذبابة».

لكنها كانت مخطئة في ذلك.

٥٦- عواطف خريفية

كانا مستلقيين على الشاطئ يغلفهما دفء الليلة الربيعية. وحمل النسيم الشرقي عطر الزهور من الجبال إلى البحر. أخذ إلياس وجه كلير بين يديه وقبّلها بين عينيها. في تلك اللحظة، أحسّت أنّ قلباً صغيراً ثانياً بدأ يخفق في داخلها.

twitter @baghdad_library

«أظن أنني حامل مرة أخرى»، همست. كان باستطاعة إلياس أن يعانق السماء كلها، لكن يداً خفية أمسكت قلبها. كانت قلقة وكأن يداً خفية عصرت قلبها. فقد أسقطت جنينها مرتين في فترة قريبة: الألم والخوف والشعور بالفراغ، عندما ينتهي كل شيء. أبدى إلياس تعاطفه معها، فقد كان حنوناً جداً.

تذكّرت كلير تلك الفترة عندما أسقطت جنينها. فقد كان إلياس يهرع إلى المستشفى بعد أن ينهي عمله مجهداً في محل الحلواني مساء كلّ يوم وينام أحياناً على الأرض بجانب سريرها. يلامس يدها في الليل، يهمس كلمات دافئة تعبّر عن حبّه لها، حتى لا يستيقظ المرضى الآخرون في الجناح الذي توجد فيه عشرة أسرة.

ثمّ يعود وينسلّ من المستشفى في الخامسة من صباح اليوم التالي دون أن يستحمّ أو يتناول طعام الفطور ويعود إلى عمله. كانت رؤيته وهو يغادر الجناح بخفة مفعمة بالشباب تثير الإعجاب. يوماً بعد يوم، ازدادت كلير هياماً بهذا الرجل الضامر الذي يستطيع أن يستشهد بأيّ شاعر فرنسي عن ظهر قلب، والذي يعمل حالياً في محل حلواني، ولا يزال مفعماً بالبهجة.

كانت النساء الأخريات يحسدنها على زوجها إلياس الذي يجلب لهن جميعاً أيضاً قطع شوكولاتة مساء كل يوم. وكنّ يحببن ضحكته الرائعة.

جاء حمل كلير الثالث في وقت غير مناسب على الإطلاق. فقد عزما على العودة إلى دمشق في بداية شهر حزيران. فجأة خافت من العودة إلى دمشق، لكن فرحة إلياس بدّدت كلّ الأفكار الكئيبة، وسهّلت الطريق الجبلية الوعرة الممتدة بين بيروت ودمشق حتى التلال والسهول المنبسطة.

وردت أخبار من دمشق بأن والدها أصيب بالتهاب رئوي منذ شهر نيسان. بكت كثيراً، وتخيّلته جالساً في زنزانته وهو لا يتوقف عن السعال. مضت ثلاث سنوات على سجنه، ولم يكن يريد أن تزوره زوجته. وكانت الصلة الوحيدة بينهما هي أبناء عمه الذين يأخذون له النقود والثياب النظيفة

من لوسيا، وينقلون لها الأخبار عن أوضاعه وحالته الصحية. قالوا لها إنه ينزل في زنزانة تتخللها أشعة الشمس وأن مدير السجن يلعب معه طاولة النرد طوال اليوم. وبالنقود التي ترسلها له لوسيا كان نجيب يستطيع أن يدفع مبالغ لجيش من الخدم والحرّاس حتى يضمن سلامته ويجعل حياته في السجن سهلة. لكن بدافع الكبرياء لم يسمح لزوجته بأن تراه قابعاً وراء القضبان. كانت لوسيا أكثر من سعيدة بهذا الترتيب.

كانت العودة إلى دمشق بداية سلسلة من ضربات الحظ بالنسبة لإلياس. فقد أمضى ثلاث ساعات في شرح خطته لأمّ كلير عندما كانا جالسين إلى طاولة مطبخ بيتها، وكشف لها عن حساباته، وطلب منها أن تقرضه مائة ألف ليرة سورية. قالت لوسيا إنها تريد أن تحصل على فائدة عشرة في المائة على المبلغ الذي ستقرضه له، لكن بعد مفاوضات عسيرة، قبلت نسبة خمسة في المائة. لم يكن لدى إلياس ضمانة يقدمها لها سوى مصافحته لها.

«لكن إذا مددت لك يدي فإنها تساوي أكثر من ضمانة بنك فرنسا الوطني»، قال بهدوء وبتهذيب جم.

«إن أفراد عائلة مشتاق يحافظون على كلمتهم»، قالت لوسيا موافقة، وهي تنهض، وبعد عشر دقائق عادت تحمل بيدها رزمة. «يمكنك أن تعدّها. فيها مائة وعشرة آلاف ليرة. العشرة آلاف الإضافية هدية لك. فإذا استأجرت بيتاً لتقيما فيه، يجب أن تؤثّثه على آخر طراز، لأن الحلواني يعيش بسمعته حتى يحقق النجاح. ستجلب لي خمسمائة ليرة فائدة في بداية كلّ شهر».

تأثر إلياس وامتلأ أيضاً إعجاباً بحماته التي تثق به كثيراً والتي كانت سخية للغاية معه، وفي الوقت نفسه رفعت الفائدة سراً بنسبة نصف في المائة. ابتسمت وفهمت من دون كلمات أنّ صهرها قد حسب كل شيء بدقة شديدة. ربتت لوسيا على كتفه وقالت وهو يغادر «كلانا يعلم أنه لا يوجد بنك يقبل حبّك لابنتي كضمان لقرض عقاري كما تعرف».

twitter @baghdad_library

لم يحر إلياس جواباً. في طريقهما إلى البيت، أخبر كلير بما حدث في مطبخ أمّها بينما كانت تقرأ في غرفة جلوس بيت أهلها.

«وهل أعطتك المائة الألف؟»

«مائة وعشرة آلاف، والآن سأشرع في تنفيذ خطتي»، أجاب إلياس.

كان خريف عام ١٩٣٨ معتدلاً وطويلاً. ففي هذا الفصل تكتسي دمشق بأبهى حللها. لم يكن الطقس شديد الحرارة، وكانت طيور السنونو تملأ السماء منشدة أغنية الوداع قبل أن تتوجّه إلى أفريقيا. كانت دمشق مزدانة بالألوان للمرة الأخيرة، كأنّ المدينة تريد أن تبدي جمالها قبل أن تغطّ في سبات رمادي عميق. كانت كلير تعرف هذا الطقس منذ طفولتها. لكن خيّل إليها أن هذا الخريف سيقبع في ذاكرتها بأنه أفضل فصل في حياتها. فقد أُطلق سراح والدها من السجن بعد أن أمضى فيه ثلاث سنوات.

٥٧- تحالف غير مقدس

حتى يوم مماته، لم يكن موسى صليبي يعتقد أنّ ذلك كان ذنبه. وبعد فترة طويلة من معاناته من مرض باركنسون مات، رجلاً عجوزاً ممتلئاً بالمرارة، في دار للمسنّين المسيحيين الفقراء.

عندما هزمه ريمون راسمالو في الحلبة، أمضى أسبوعين وهو يحاول مصالحة خطيبته، لكنّه بدأ يشعر أن كلير تحبّ شخصاً آخر.

عندما توجّه إلى معلا بسيارة الجنرال لكي يراها، كان يفكّر طوال الطريق بما سيقوله لها بأسلوب منطقي. لكن عندما وصل إلى القرية لم يكلّمه أحد وتغيّرت كلير تماماً وردّته على أعقابه عندما وصل. يجب أن يتحلى بالصبر مع النساء، قال لنفسه وحافظ على هدوئه. عندما ألحّ على رؤيتها وتوسل إليها، رمت له عبر الباب العلبة الصغيرة التي فيها خاتم الخطوبة. ارتبك. تصرّفت بغضب شديد مع أن إنساناً يحمل ذرة من الحبّ والاحترام لا يتصرّف بهذه الطريقة. ولم تعد في نظر موسى إلا فتاة عاهرة.

كما وجد سلوك أمّها معه بارداً كالثلج. فعندما حاول أن يوضح لها الأمر، قالت له بلا تردد إنها لم ترغب به زوجاً لابنتها مطلقاً، وأضافت أن بوسعه أن يزور صديقه في السجن ويبثّه شكواه. تناول موسى خاتم خطوبته، وعاد إلى دمشق خائباً في ذلك المساء.

لقد خدعتاه. الأمّ وابنتها، العاهرتان! وذلك الحقد في صوت هذه الأفعى الحيزبون عندما قالت له إن كلير في أيد أمينة، ومن الأفضل له أن يبحث عن فتاة أخرى من طبقته الاجتماعية. لكن من هي تلك الأيدي الأمينة التي تحيط بكلير؟ لم تقل له تلك المرأة التي خيّل إليه أنها ستكون حماته، بل أغلقت الباب في وجهه بوقاحة كأنه متسول.

لفترة طويلة لم يعرف لماذا عاملته المرأتان بهذه الخسّة، حتى سمع بعد ستّة أشهر أن كلير هربت مع ابن مزارع غني من معلا. استشاط موسى غضباً. هربت - هذا هراء! القوّادة العجوز هي التي دبرت كلّ شيء. يمكنه أن ينسى أشياء كثيرة، لكنه لا يستطيع أن ينسى النفاق. كانت كلير تقول دائماً إنها تقرف من الفلاحين البدائيين في القرية. كلّ ذلك أكاذيب! تمويه! استخدمتاه لإلهاب شهوات الرجال الأغنياء الآخرين الذين يجدون متعة خاصة لإغراء خطيبات وزوجات الرجال الفقراء مثله. أقسم موسى على الانتقام، لكن حتى اليوم الذي جاء فيه رجل إلى نادي الملاكمة في صيف ١٩٣٨ وسأل عنه، لم يعرف كيف يعالج الأمر.

اشترى إلياس مستودع زيتون قديم في الحي المسيحي، في شارع باب توما، عند ناصية زقاق بكري، وفي فترة قياسية، وهي ثلاثة أسابيع، حوّله إلى محل حلواني حديث له واجهة من الرخام والزجاج. كان يقيم في الحي عدد كبير من الأغنياء المسيحيين، وكان أقرب محل جيد لبيع الحلويات هو محل صغير يملكه شخص أرمني في الباب الشرقي.

أمل إلياس في مصالحة والده قريباً. كانت كلير في حملها الثالث. هذه المرة، اعترى إلياس شعور أكيد من أن وجودها في مدينتها، بيئتها الآمنة، سيمكنها من إنجاب طفل ينعم بالصحة. وأن هذا الطفل سيليّن قلب جدّه،

twitter @baghdad_library

جورج مشتاق العجوز المتحجّر القلب. فلا شيء في العالم يمكن أن يليّن قلب رجل كهل كما يفعل الحفيد، قال لنفسه.

كان افتتاح محله في مطلع أيلول يبشّر بالخير. فقد احتشد الناس لتذوق أصناف الحلويات الجديدة. باع إلياس كلّ كمية الحلويات لديه في ذلك اليوم، وخرج كلّ زبون من المحل يحمل هدية: صحناً خزفياً طُبعت عليه صورة ملوّنة للمحل. لقد جعل هذا الصحن الرخيص، الذي لم يكلّف سوى قرشين، الحلواني الجديد مشهوراً في يوم واحد. كانت أول حملة دعايات في دمشق. فقد حذا إلياس حذو معلّمه غندور الذي كان يأتي دائماً بآخر الأفكار والصرعات من باريس.

بدأت بطن كلير تتكور، وكان إلياس سعيداً بأن شهر آب مرّ من دون وقوع أيّ مشكلة، على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة. فقد أسقطت جنينها في حملها الأول بعد شهرين، وأسقطت جنينها الثاني بعد ثلاثة أشهر.

في مساء أحد الأيام، دخل نوري بائع الزهور إلى محل الحلواني. كان سكراناً كعادته، لكن بدا أن لديه شيئاً يريد أن يقوله. وقف عند النضد، وانتظر حتى انصرف آخر زبون.

«احزر من جاء يسأل عنك! يا له من عالم صغير»، قال ضاحكاً، ثم تابع، «صديقي القديم في المدرسة موسى»، وهو متكئ على حافة النضد. جالت عيناه للحظة في حيرة، كأنه لا يعرف عمّا كان يبحث. ثمّ هبطتا على إلياس الذي لم يكن مهتماً حقاً بثرثرة جاره، لكن مثل أي شخص آخر، كان عليه أن يتحمّل حضوره.

«من؟ أي موسى؟» سأله إلياس بدافع التهذيب.

«أي موسى؟ أعرف موسى واحد فقط -موسى صليبي».

توقّف إلياس عما كان يفعله. كان يحسب إيرادات اليوم. تجمّدت يده الآن وفيها ورقات من فئة الليرة.

لم يلاحظ نوري تأثير ما قاله، فمضى يقول: «قلت له لماذا تسألني أين

يقيم؟ اسأله بنفسك. إنه رجل لطيف، وإني واثق من أنه سيجيب عن أسئلتك، لكنّ موسى لم يرغب في ذلك. أين تسكن على أي حال؟ لم أعرف ماذا أقول له. أراد أن يعرف متى تأتي ومتى تعود إلى البيت. قلت له إن إلياس يعمل من الساعة السادسة إلى الساعة السادسة. أليس كذلك؟»

«نعم، هذا صحيح»، أجاب إلياس. جفّت حنجرته. راقب نوري بائع الزهور وهو يسير عائداً إلى محله مترنحاً. وبطريقة تكاد تكون آلية، أفرغ إلياس الخزنة، وسجل حسابات اليوم في الدفتر، وسجل قائمة بمهام وطلبات اليوم التالي في قصاصة ورق لكي يبقي ذاكرته خالية للأمور الأكثر أهميّة. لقد تعلّم هذه الطريقة من اليسوعيين. أقفل الخزنة، ودسّ مفاتيحه في جيبه.

لنفترض أن هذا الملاكم الذي لم يلتق به قط من قبل والذي كان كما قالت كلير مفتول العضلات، ويكاد يبلغ طوله مترين، يريد إهانته هنا في وسط الحي المسيحي؟ بفرض أنه جاء إلى المحل وافتعل شجاراً، وحطّم الأثاث الغالي الثمن؟ فقد كلّفت ثريات الكريستال الثلاث وحدها مبلغاً كبيراً. وماذا عن زبائنه؟ ماذا سيكون رأي زبائنه الخائفين بالحلواني الجديد؟

كان لا يزال يمعن التفكير عندما خرج عليٌّ، العامل الشاب الذي يقوم بإيصال الطلبات، من المخزن وقال له مودعاً ومازحاً كالمعتاد: «تصبح على خير، معلمي».

«انتظر لحظة»، قال إلياس. فقد خطرت له فكرة عندما رأى علياً الضخم، القوي البنية.

كان علي مزارعاً شاباً، لم تعد قطعة الأرض الصغيرة التي يملكها تنتج شيئاً له ولأسرته سوى الغبار والأشواك في هذا الجفاف الطويل، وجاء إلى دمشق يبحث عن عمل. كان عازباً، وله ذراعان قويتان. لذلك شغّله إلياس في محله، ووجد له غرفة صغيرة رخيصة بالقرب من المحل. كان إلياس يرعى هذا الشاب مثل أب.

«أريدك أن تساعدني»، قال إلياس، «هناك رجل يكرهني ويريد أن

twitter @baghdad_library

يهاجمني، لا أعرف لماذا. لكنّ طوله مترين، وكان ملاكماً. هل يمكنك إيقافه عند حده إذا أراد الإعتداء علي؟» وقدم للشابّ سيجارة من نوع «بافرا» الرفيعة.

«لا أجيد الملاكمة يا سيدي، لكنّي كنت أقاتل بمهارة بالهراوة في القرية. أعطني عصا غليظة ولن يجرؤ أحد على أن يمسّ شعرة منك. رجال كثيرون يحملون عكازات هذه الأيام. وأرجو أن تكون عصا من خشب البلوط»، قال الشابّ، عيناه تبرقان.

«لكن ماذا سنفعل إذا دخل إلى المحل؟» سأله إلياس.

لم يكن لدى علي جواب عن هذا السؤال.

«حسناً»، قال إلياس، «اعتباراً من يوم غد يجب أن ترتدي معطفاً أبيض نظيفاً وقبعة بيضاء، وتقف أمام المدخل لمساعدتي. سترحب بالزبائن وتساعد المسنين. والعصا مستندة إلى الجدار بقربك عندها سيبدو الأمر بأنك تقف لاستقبال الزبائن، وإذا حاول أحد إثارة مشكلة، فما عليك إلا أن تخرجه بسرعة وبهدوء، وعندما تصبح خارج المحل، تستطيع أن تكسر عظامه كلها».

«جيد»، قال علي، «لكن من سيقوم بعملي في غرفة المخزن؟»

«لا تقلق. فمن الآن وصاعداً ستكون حارسي الشخصي. يمكنني أن استخدم شخصاً آخر للعمل في المخزن حتى تنجلي هذه الغيمة».

«لكن ماذا بعد ذلك؟ هل سأستعيد عملي القديم، أم سترسلني إلى البيت؟» سأل علي محتاراً.

«إذا قمت بعملك على أكمل وجه، فإنك ستبقى معي إلى الأبد».

«إذاً لن أدع ذبابة تلمسك»، قال علي.

منذ ذلك الحين، أصبح علي يقف خارج البناية التي يقيم فيها إلياس وكلير، منذ السادسة صباحاً. كان للمنزل باب خشبي كبير، ومقرعة باب جميلة، يد امرأة مصنوعة من البرونز. فقد استأجر إلياس هذا البيت المؤلف

من ثلاث غرف في الطابق الثاني. كان المبنى قريباً من مستشفى القديس لويس، وأصبح علي يرافق ربّ عمله إلى محل الحلواني في الصباح، ويوصله بأمان إلى البيت في المساء.

كان علي رجلاً يُعتمد عليه ولم يكن يترك سيده بعيداً عن عينيه. لم يتذمّر قط، وكان يقوم بعمله أمام باب المحل بنفس المهارة كأنه أجرى ما لا يقل عن ثلاث دورات في آداب السلوك في المدرسة التأهيلية التي تديرها أخوات قلب يسوع المقدّس. كان الزبائن يشكرونه على مساعدته ولطف اهتمامه، عندها بدأ إلياس يتساءل بجدية هل يتعين عليه أن يضع بواباً بشكل دائم. ليس علياً، بل صبياً صغيراً جذّاباً، يرتدي زياً مثل عمال الفنادق. حتى إنه لا يتعين عليه أن يدفع له أجراً لأنه لاحظ أن الزبائن الأغنياء يدسّون قرشين في يد علي بين الحين والآخر. كانت الإكرامية التي يحصل عليها عندما يحلّ المساء، يزيد على الأجر الذي يتقاضاه.

ذات مساء، وهو في طريقه إلى البيت، خطر ببال إلياس أن يدعو حارسه الأمين إلى وجبة طعام. وقرر أن يجلس مع علي ويقرأ الصحيفة ويحتسي القهوة بهدوء بينما يتلذذ حارسه بتناول وجبة فخمة قبل أن يكملا طريقهما إلى البيت. خطرت له هذه الفكرة فجأة وهما يمران أمام مدخل مطعم «قصر البلور» الكبير، الذي يقع في منتصف الطريق بين محل الحلواني وشقّته. توقّف إلياس فجأة وأمسك ذراع علي.

«تعال إلى هنا»، قال له. في تلك اللحظة، انطلقت رصاصة حطّمت زجاج النافذة وأصابت نادلاً داخل المطعم في كتفه. صاح المارة والضيوف بهلع، وبسرعة قفز إلياس بخفة إلى المدخل المفتوح المفضي إلى المطعم، وجرّ علي وراءه لأن الرصاصة أُطلقت من المبنى المقابل.

أصابت رصاصة ثانية امرأة تسير في الشارع في ساقها. فتهاوت على الأرض. أعقبت ذلك فوضى. هرع شرطي شاب من المطعم شاهراً مسدّسه وتمكّن من تحديد مكان الشخص الذي أطلق النار.

«إنه في فندق *بلدي*»، صاح. تعقّبه ثلاثة رجال، بينما أخذ المارة

twitter @baghdad_library

يعالجون المرأة المصابة والنادل. وكان بالقرب من المكان مخفر شرطة كبير، فطُوِّق الفندق بسرعة.

اقتيد مطلق النار من المبنى، مقيّداً بالأصفاد والدم ينزف من رأسه. تعرّف عليه عدّة أشخاص. انتقلت الكلمة من فم إلى فم بسرعة «موسى صليبي، إنه موسى صليبي».

«لقد أنقذت حياتي»، قال علي لسيده.

«لقد حمتنا يد الله. لنتناول شيئاً الآن»، أضاف إلياس، دافعاً مستخدمه الشاحب إلى طاولة شاغرة، «يمكنك أن تنام حتى وقت متأخر في الغد وأن تأخذ يوم عطلة كاملاً. وبعد غد يمكنك أن تعود إلى عملك القديم»، قال له.

«لماذا؟» سأل علي الساذج.

«لأنهم قبضوا على الرجل الذي يلاحقني»، أجاب إلياس.

عندما سمعت كلير بما حدث، أحسّت على الفور بوخز حادّ في بطنها. أعدّ لها إلياس كوباً من شاي النعناع، لكن الآلام أصبحت لا تطاق أثناء الليل. هرع إلياس مرتدياً منامته، وأيقظ العربجي، وعاد معه إلى باب البناية، حيث كانت زوجته الحامل تقف مع جارة تساعدها الآن. لم يكن المستشفى يبعد كثيراً عن البيت، لكن إلياس لم يكن يرغب في أن تجهد كلير نفسها.

بذل الأطباء كلّ ما بوسعهم، لكن سرعان ما تبين لهم أنهم لا يستطيعون في أحسن الأحوال سوى إنقاذ الأمّ لأن الجنين كان ميتاً، وأنهم سيخرجون الجنين الميت.

جلس إلياس على درجات المستشفى لفترة طويلة بمنامته، يبكي، حتى سأله العربجي بتهذيب إن كان يريده أن ينتظر فترة أطول. طلب منه إلياس أن يذهب وأن يأتي غداً إلى محل الحلواني ليسدد له أجرته. كان العربجي يعرف الحلواني، فضغط على يده وقال: «لقد فقدت زوجتي ستّة أطفال

أيضاً، لا يعلم سبب ذلك إلا الله». كان في غاية التأثر، وسار إلى عربته وهو يترنح.

بعد ثلاثة أيام جاء ضابط من إدارة التحقيق الجنائي إلى دكان الحلواني، وطلب من إلياس أن يرافقه إلى مخفر الشرطة حيث استقبله ضابط فرنسي شاب، واستجوبه بتهذيب. أُعجب الضابط لأن الحلواني يجيد التحدث بلغته، وقال إن إلياس يتحدث الفرنسية أفضل من الكثير من الفرنسيين الأصليين.

سأله عن الحادثة، وعمَّ إذا كان سيدلي بإفادته كشاهد. حكى إلياس للضابط ما سمعه من بائع الزهور، وقال إنه بدأ يخرج بعد ذلك بمرافقة مستخدمه لحمايته.

«هذا يؤكّد تماماً ما قاله المجرم»، قال له الضابط، «كان يخطّط لاختطافك يا مسيو، وتعذيبك ثم قتلك، لكنّه رأى أنه لن يتمكن من التغلب على مرافقك بسهولة. فقرّر أن يطلق عليك النار، وأصاب شخصين آخرين بجروح ولم يتمكن من إصابتك».

«وتسبب في موت طفل بريء» أضاف إلياس.

«هل يمكنك أن تخبرني لماذا فعل ذلك؟» سأله الضابط، الذي لم يفهم ملاحظة إلياس عن الطفل الميت.

«أظن إنها الغيرة، لأن خطيبته السابقة تركته لأنه عدم المؤاخذة مخنث ولوطي، إذا كنت تفهم ما أقصده. وهي زوجتي الآن»، أجاب إلياس بشيء من الكبرياء.

«نعم، مسيو، لكن يوجد شيء آخر أيضاً. فقد قال إن رجلاً يتكلم بلكنة ثقيلة كلّفه بهذه المهمة، وزوّده ببندقيته الألمانية، ودفع له خمس ليرات ذهبية. وقال إنه سيعطيه عشرين ليرة ذهبية أخرى بعد أن يقتلك. هل يمكنك أن تعرف من يمكن أن يكون هذا الرجل؟ والأهم من ذلك، لماذا يريد أحد أن يقتل حلوانياً محترماً مثلك؟ لكن قد يكون القاتل كاذباً، وقد

twitter @baghdad_library

يكون هناك أمر آخر وراء ذلك. لم نتوصل إلى معرفة ذلك بأساليبنا التقليدية في الاستجواب. هل تريد أن تسأله أنت؟»

«نعم»، أجاب إلياس. كانت حنجرته جافة.

عندما أحضر الشرطي موسى صليبي، ارتعب إلياس. فقد حوّلت «أساليب» الشرطة الفرنسية رجلاً متعالياً طويلاً في السابق إلى مخلوق ذليل محطّم. كانت علامات التعذيب بادية عليه.

«سيدي، لا أعرف من هو الرجل»، قال السجين متلعثماً، «لكني قلت ذلك مائة مرة: لقد التقيت به مرّتين فقط، بعدها لم أره قط بعد ذلك. كان رجلاً طويلاً يضع نظارات شمسية. عندما انزلقت نظاراته قليلاً، رأيت أن له عينين زرقاوين كالفرنسيين، ربما كان فرنسياً... هذا كلّ ما أعرفه. إنه، إنه... لكنّي قلت كلّ ذلك في إفادتي. لقد تملكني الشيطان، والآن بقيت وحدي أدفع ثمن ذلك».

«كيف كان الرجل يتكلّم؟» سأله إلياس.

«كيف يتكلّم... حسناً، لم يكن يتكلم بلهجة الدمشقيين. كان يتكلّم بلكنة ... أهل الجبل. مثل لكنة أهالي قرية معلا، عندما يتكلمون العربية».

لبث موسى صليبي صامتاً. أخذ جسمه كله يرتعش.

«هل يمكن أن يكون أحداً من قريتك؟» سأل الضابط إلياس، «هل تعرف أحداً يريد أن يقتلك لسبب ما؟»

«لا»، قال، وهو يرمق كومة الجسد البائسة أمامه الذي كان يوماً معشوق النساء. استوى إلياس واقفاً، وسأل الضابط، «هل تحتاج مني إلى شيء آخر؟»

«لا، مسيو، شكراً جزيلاً»، أجاب الرجل، ورافق إلياس إلى الباب بينما أعاد الشرطي موسى إلى زنزانته.

«الحلواني يكذب»، قال الفرنسي الشاب بعد ذلك للرجل الذي يدوّن الإفادة، «هل رأيت رفة عينيه عندما قال الرجل الذي أطلق النار أن من كلّفه بالقيام بالمهمة يتحدث بلهجة قريته؟»

هزّ الشرطي الآخر رأسه وقال: «ماذا أضيف؟»

«لا شيء. يبدو أن للأمر علاقة بالثأر، نوع من ثأر العشائر، وهذا ليس من اختصاصنا. لدينا المجرم، وسينال أقصى عقوبة».

بعد أسبوع، أرسل إلياس كاهناً يسوعياً صديقاً له إلى معلا، وأوكل إليه المهمّة الحسّاسة بأن يلتقي بأبيه ويعلمه مباشرة بأن إلياس نجا من محاولة القتل، وأن لديه دليلاً بأن شقيقه سلمان هو الذي أعطى المجرم موسى صليبي البندقية، وكلّفه بتنفيذ مهمّة والده. وأنه هو، إلياس، يطلب اعتذاراً ووعداً من أبيه بأنه لن يتآمر على حياته مرة أخرى، وإلا فإنّه سيتوجّه إلى إدارة التحقيق الجنائي، ويقدم لهم الأدلة التي بحوزته ضدّ سلمان. إذ إن الإعدام هي عقوبة التحريض على القتل ونزع جميع ممتلكات المدان، بموجب قانون القوات الفرنسية المحتلة. وتقول الرسالة إنه إذا أصيب إلياس بأي مكروه، فإن الشخص المؤتمن سيأخذ المغلف الذي يحتوي على الأدلة إلى إدارة التحقيقات الجنائية.

كان الأب فرانسوا ساليري رجلاً شجاعاً، فقد بقي في دمشق بعد حريق الدير، وهو يدرّس الآن الرياضيات في مدارس المسيحيين الراقية. كان يحبّ إلياس كأخ، وأصيب بالفزع عندما سمع القصّة.

غادر في الحال في عربة فاخرة قدمها له صديقه، وعاد إلى دمشق في اليوم التالي يحمل اعتذاراً من شقيق إلياس، ووعداً من أبيه الذي أقسم بعد أن وضع يده على الإنجيل.

«لم أر أيّ تعبير بالندم على وجه مشتاق العجوز، لكن شقيقك اغرورقت عيناه بالدموع، وشعر بالخجل وهذا ما جعل والدك يقدم وعده. أعرف أنه يخشى الله، فلم أطلب منه توقيعاً، بل طلبت منه فقط أن يضع يده على الإنجيل ويقسم. إن رجلاً قوياً مثل جورج مشتاق لا يهمه أي توقيع، لكنّ كلمة الله تعني له الكثير. يمكنك أن تثق بما يقوله صديقك فرانسوا وتعيش في سلام»، قال الكاهن، واستأذنه للذهاب.

في منتصف الليل عاد إلياس، شاحب الوجه، إلى كلير. كانت لا تزال

twitter @baghdad_library

راقدة في السرير. تهالك على الأريكة بجانبها وراح ينشج بطريقة تدعو إلى الرثاء.

«سأنتصر عليهم جميعاً»، قال أخيراً. لم تفهم كلير، لكنها دأبت على القول بعد ذلك إن إلياس فَقَدَ ضحكته وكلّ بهجته في تلك الليلة.

«لماذا»، تساءلت بصوت عال، «لماذا يشكّل أعداؤنا شخصيتنا أكثر مما يشكّلها أصدقاؤنا؟»

لكن إلياس غطّ في النوم، ولم تستطع كلير أن تجيب عن سؤالها.

٥٨- خفّة الحبّ

عندما كانت كلير تفكّر بالحبّ، لم تكن ترى في عين عقلها لحظة لقائها بإلياس في معلا لأول مرة، بل كانت ترى كذلك وجه معلّمتها السابقة بربارة المتألق.

كان حبّها لإلياس ناراً ملتهبة اتقدت في قلبها، عاطفة لم تتمكن من كبحها. وفي الليلة التي عزم فيها إلياس أن يتفوق على أبيه، بدا لها أن ذلك الحبّ قد انتهى. لكن الحبّ قطّة برّية بسبع أرواح. لذلك، تحوّلت رغبتها تجاه إلياس في تلك الليلة إلى قلق لا نهاية له على صحته وخوفها الدائم على حياته. وقد ربط هذا النوع الجديد من الحبّ كلير به بشدة أكثر من أي وقت مضى. كانت تعرف أنه ضحيّة أبيه، لكن معركته مع أبيه كانت، في نهاية الأمر، معركة من أجل حبّهما.

لكن الأمر مع معلّمتها بربارة وفضلو، زوج بربارة، كان مختلفاً تماماً. فقد أظهرا لها جوهر الحبّ الخفيف القلب، اللطيف الرائع، الذي على الرغم من أنه حبّ يبدو طبيعياً للغاية، فقد كان جنّة على وجه الأرض. فقد أحبّت كلير معلّمتها منذ اليوم الذي التقتها فيه. كانت في الصف الثامن، عندما بدأت الفتيات يتساءلن عن بديل للأخت هيلينا التي شاء سوء الحظ أن تقع على الأرض وتمضي شهوراً في الجص. لم يفتقدها أحد، بل إن مديرة مدرسة البيزانسون شعرت بالامتنان سرّاً لليد الإلهية أو اليد الإنسانية التي

أدت إلى وقوع هذه الحادثة. وعلى الرغم من أن الأخت هيلينا كانت قد بلغت الثامنة والستين من العمر، فإنها لم تتقاعد. كانت تجيد الرياضيات، لكنها لم تكن قادرة على إيصال معرفتها إلى الطالبات اللواتي كن يخفنها بالقدر الذي كانت تحتقرهن به، وكانت جميع البنات اللاتي تعلّمهن يحصلن على درجات متدنية في المادة التي تدرسها، لكن ذلك تغيّر مع قدوم بربارة.

كانت جوزفين، ابنة صاحب محل المجوهرات تمزح قبل يوم من حدوث ذلك وتقول إنّها لا تتخيّل معلّمة رياضيات بدون شارب. كانت التلميذات الأخريات متيقنات من أن معلّمتهن الجديدة ستدخل قاعة الصف مرتدية بدلة رجال، واضعة نظارات سميكة، وحاملة كتاب اللوغاريتم بيدها. ضحكت مادلين، أقرب صديقة لكلير وقالت: «واسمها رياضة من عائلة الجبر، وعندها ثلاثة أطفال، ولدان باسم مخروط ومكعب، وابنة باسم مَسّلِة»، فضحكت الفتيات.

وصلت أخيراً. كانت بربارة ممشوقة القوام مثل تلميذة مدرسة، لكن ذلك كان مجرد مظهر خارجي، لأنها تستطيع أن تحارب مثل لبؤة دفاعاً عن قناعاتها. دخلت قاعة الصف بخطوات رشيقة، وعندما وقفت الفتيات لها باستعداد ورحن يرددن «صباح الخير» بصوت واحد، كما كنّ يفعلن مع الأخت هيلينا، ضحكت وقالت بابتسامة على وجهها: «لا أريد أن تقفن عندما أدخل إلى قاعة الصف. لأنكنّ تخفنني إن فعلتنّ ذلك. إن ما يهمني هو أن تستيقظ عقولكن ولا أريد أن تقلن أشياء لا تستطعن إثباتها».

بعد ذلك، حدثتهن عن نفسها، وعن سبب حبّها للرياضيات. وخلال نصف ساعة، كسبت الشابّة ذات الشعر الأسود القصير، التي ترتدي بلوزة فاتحة اللون، وتنورة بلون أوراق شجر خريفية، قلوب الفتيات. وفي كلّ درس، كانت بربارة تحدّثهن عن أمر غريب ومثير للاهتمام عن تاريخ الرياضيات: لا ما يجلبه ذلك الصفر الغامض عديم القيمة وما الذي يغيّره ذلك الصفر فقط، لكن كذلك - وبقي ذلك مطبوعاً في ذاكرة كلير إلى الأبد - قصصاً تحكي عن أنه كيف يمكن أن تجعل الرياضيات حتى الملوك

twitter @baghdad_library

يشعرون بالخزي. كما في حكاية مخترع لعبة الشطرنج الذي سأله ملكه ماذا يريد أن يقدم له مكافأة، وعرض أن يمنحه ذهباً خالصاً يعادل وزنه، فقال مخترع الشطرنج: «لا، يا صاحب الجلالة. سأكون سعيداً إذا منحتني حبة قمح واحدة في المربع الأول على رقعة الشطرنج، وحبتين في المربع الثاني، وأربع حبات في المربع الثالث، وستّ عشرة حبّة في المربع الرابع، وهكذا دواليك».

ضحك الملك وحاشيته من مخترع الشطرنج الساذج الذي لم يطلب شيئاً سوى بضع حبات من القمح. لكن عالم الرياضيات في البلاط كان أول من توقّف عن الضحك، لأنه بعد بضعة مربعات، وصل العدد إلى كمية خيالية، وأدرك أنّ المملكة كلها لن تتمكّن من توفير كمية القمح التي طلبها المخترع.

كانت بربارة تمزج بين الغرائبي والعملي بطريقة سحرية تجذب الفتيات إلى عالم الرياضيات. ودهشت إدارة المدرسة من التقدم الذي أحرزته التلميذات بعد ستة أشهر، والأجواء التي أشاعتها في قاعة الصف. وكانت بربارة المعلّمة الوحيدة التي تدعو الفتيات إلى بيتها أحياناً لاحتساء كوب من الشاي.

لن تنسى كلير المرة الأولى التي ذهبت فيها لزيارتها في بيتها. كان قلبها يخفق بسرعة عندما دخلت ذلك البيت الصغير في باب توما الذي له واجهة ضيّقة بعلو عدّة طوابق.

في الزيارة الأولى تلك، ما سحر لبّ كلير هو بربارة وزوجها. فعلى الرغم من أنه مضى على زواجهما عشرين عاماً، يقبّلان بعضهما كلما تصادفا، بسعادة ومحبة، كما لو أن أحدهما قد أغرم بالآخر حديثاً. فلم تر في حياتها مثل هذه المحبة بين رجل وامرأة. إذ لم يقبّل نجيب ولوسيا بعضهما قط، ولم يمسك أحدهما بيد الآخر، وإذا ما داعب نجيب زوجته لوسيا ذات مرة كانت تسأله بريبة على الفور، «أظن أنّك تريدني أن أفعل شيئاً. لم لا تقول ماذا تريد من دون لفّ أو دوران؟» كانت كلير تشعر أحياناً

بغضب من أمّها لبرودتها، لكن لوسيا كانت محقّة في أحيان كثيرة، وكان نجيب يفصح عن السبب الحقيقي وراء إبدائه مشاعر المودّة. أما اللحظات الرقيقة بين بربارة وفضلو، فلم يكن لها دوافع سوى حبهما.

حاولت كلير أن تزور معلّمتها الأثيرة لديها كلما سنحت لها الفرصة، لكن لوسيا لم تسمح لها بزيارتها إلا مرة في الشهر. كانت بربارة نفسها تحبّ رؤية هذه الفتاة الذكية الودودة. ولما لم يكن لديها وزوجها أطفال، فقد كانت تتشوق لزيارة فتاة شابة تستطيع أن تمنحها شيئاً خاصاً، وقد وجدت في تلميذتها الرقيقة الجميلة الوجه، الفتاة الملائمة. فقد وجدت كلير معها الدفء الذي تفتقده في بيتها ما تبحث عنه عند بربارة. كان الأفضل لوالدها نجيب أن يكون عازباً، وقد بذل كل بوسعه لكي يكون لطيفاً وحنوناً، لكنه كان، في معظم الأوقات، يعيش في عالمه الخاص. وعندما تقدم به السن، أبدى مشاعر حبّ حقيقية لابنته.

كانت صداقة كلير مع بربارة متوهجة حتى اليوم الذي سبق نهاية العام الدراسي ١٩٣٥، بداية العطلة الصيفية، عندما التقت كلير بإلياس وأغرمت به. فبعد خلاف نشأ بين مديرة المدرسة الجديدة ومعلّمة الرياضيات، فقدت بربارة عملها وانتقلت إلى شمال البلاد حيث وجدت وظيفة في مدرسة أمريكية خاصة. عندما ودّعت الفتيات الباكيات، حدثتهن عن أمور كثيرة، لكنهن لم يسمعن ما كانت تقوله من وراء غشاوة حزنهن، ولم يفهمن شيئاً، وسرعان ما تلاشى كل شيء وأصبح في طي النسيان.

كانت المديرة الجديدة راهبة حقودة، وكانت عازمة على ألا تكون لها منافسة في إدارة المدرسة. أشفقت مادلين على المسيح لأن عليه أن يتحمّل هذه الراهبة بالذات بين حريمه. إن جميع الراهبات يضعن خاتم زواج بسيط في بنصر أيديهن اليمنى للدلالة على بكارتهن وعفتهن وتوقهن لعلاقتهن مع ابن الرب لأنهن مخطوبات للسيد المسيح كما يدعين، وكأن صلبه لمرة واحدة لم يكفِ. أما في دمشق فإن المرء يشعر دائماً بلمسة حريم في خواتم الراهبات مما يجعل يسوع المسيح يبدو في ضوء مريب بعض الشيء.

twitter @baghdad_library

٥٩- السراب والواحة

تشبه الصداقات المدرسية عادة السراب الذي يتلاشى مع انتهاء السنة الدراسية. وإذا استمرت هذه الصداقة حتى الصف السابع، فإنها تصبح واحة أبدية.

فوجئت كلير لهذه الاتصالات الهاتفية المتكررة من زميلاتها اللاتي كنّ في صفها في مدرستها القديمة، ولم يتوقفن عن إبداء سعادتهن بعودة صديقتهن من بيروت. حتى أن الكثيرات منهن لم يعرفن أنها سافرت.

خلال السنوات الثلاث من سفري، تغيّرت دمشق كثيراً، قالت لنفسها عندما خرجت تتمشى أول مرة بعد أن أسقطت جنينها الأخير. فقد أصبحت ترى الآن حرّاساً يقفون في كل مكان -أفريقيين طوال القامة في بدلات عسكرية فرنسية تبدو ضيقة عليهم كثيراً. وأصبحت الشوارع التي كانت تبدو حيوية ومألوفة في طفولتها، غريبة الآن.

بعد عودتها ببضعة أيام، التقت بمادلين. عندما كانت كلير في بيروت أخبرتها أمها أن صديقتها تزوجت النحات ريمون راسمالو، وأنهما اشتريا بيتاً ضخماً. «عمارة سكنية ضخمة لها مدخلان على شارعين مختلفين»، قالت لوسيا، وأنها ذهبت لزيارة مادلين لتهنئتها بولادة طفليها الأول والثاني، لكنها توقفت عن زيارتها بعد ذلك. «فالبيت في حالة فوضى شديدة، وتفوح منه رائحة نتنة»، قالت باشمئزاز.

«ألا يزال ريمون يلعب الملاكمة؟» سألتها كلير.

ضحكت أمّها، وقالت: «لا، تعرفين كيف هي مادلين. إن ريمون أصبح الآن مقاول بناء ناجح، وآخر ما سمعته أنهما أنجبا طفلة أخرى».

كانت اللحظات الأولى من لقائهما مخيّبة. فقد بدت مادلين هادئة كدأبها، رزينة. وكانت أمّها وحماتها وأختا زوجها العانستان، يقمن على رعاية بناتها الصغيرات الثلاث. لم تكن تبدي أي اهتمام بما يجري في البيت، فقد كان فيه أناس كثر يدخلون ويخرجون باستمرار، وكأن البيت موقف باص.

«إنه يريد أن أنجب له ابناً، لكني لم أنجب سوى بنات. أني حامل مرة أخرى، وأعرف أني سأنجب بنتاً أخرى»، قالت بلا مبالاة.

لم تستوعب مادلين ما قالته لها كلير بأنها أسقطت ثلاث مرات. فقد كانت مولعة بمذياعها الجديد، وكانت تستمع دائماً إلى الموسيقى المنبعثة منه، تدندن الألحان، وتدخّن بشراهة، لذلك، لم يكن يبدو أنها تلاحظ ما يجري حولها أو تسمعه كثيراً.

كانت تحبّ حياتها مع ريمون، لكنّها كانت تستطيع أن تتخيّل، بنفس السهولة، حياتها من دونه. «ما يهمني هو أن استمع إلى الموسيقى كلّ يوم»، قالت، وصمتت عندما أعلن المذيع عن أوبرا «الناي السحري» لموزارت. لم تفهم كلير كلمة واحدة مما قاله المذيع، لكن الأوبرا سحرت مادلين إلى حد أنه عندما بدأت الموسيقى، بدا من الواضح أن ضيفتها أصبحت مصدر إزعاج. ودّعتها كلير وغادرت.

كان الأمر مصادفة أكثر منه متعمداً بأن تنتقل هي وإلياس إلى حارة الزيتون بعد ستّة أشهر، في بداية عام ١٩٣٩. وكان بإمكان كلير أن ترى داخل بيت راسمالو من درج بيتها المفضي إلى الطابق الأول. لم يكن يفصل بين البيتين سوى مبنى منخفض، مستودع يانسون.

منذ ذلك الحين، بدأت صداقتهما القديمة تنتعش ببطء -لكنها أصبحت الآن أكثر نضوجاً وسهولة. كانت مادلين تحبّ الموسيقى، وكانت المرأة الوحيدة في دائرة صديقات كلير المباشرة التي اقتنت حاكياً حديثاً. كانت كلير تستمتع بزيارتها، لكنّها كانت تشعر بسعادة أكثر عندما تأتي مادلين لزيارتها، لأن بيت راسمالو لم يكن مرتباً، وكان يعجّ بالأطفال وبالجدّات وبالعوانس. وكانت صديقتها تعيش بينهن كأنها ملكتهن، توزع عليهن الأعمال التي يجب القيام بها في المنزل منذ الصباح الباكر، ثم تنطلق إلى السوق. فبالإضافة إلى الموسيقى، كان التسوّق هوايتها المفضّلة.

أما بيت كلير الجديد فكان جوهرة. بيت جميل صغير يتّسع لشابّ وشابّة يعيشان وحدهما بدون أطفال، ولا يقيم فيه أحد آخر، وهو أمر غير

twitter @baghdad_library

مألوف في هذا الشطر من المدينة التي يضم كلّ بيت من بيوتها عادة عدّة أجيال من العائلة نفسها، أو على الأقل، بضعة جيران. وكان معظم الناس يعيشون محشورين معاً في الأحياء القريبة. لكن إلياس اشترى بيتاً كاملاً بسعر جيد بفضل ارتباطاته مع الأوساط الدبلوماسية. ولكي يفعل ذلك، اقترض مجدداً مبلغاً كبيراً لشراء البيت وارتفعت ديونه لحماته إلى مئتي ألف ليرة، معتمداً على نجاحه في عمله، ولم يخذله ذلك في الواقع. فقد كان يزوّد بالحلويات أغنى المسيحيين في المدينة، وسرعان ما أصبح الناس في الحي المسيحي يتباهون بأنهم يقدّمون لضيوفهم أصناف الكاتو والكعك والحلويات الأخرى من محل إلياس مشتاق. كان ثمن حلويات إلياس ضعف ثمن الحلويات التي تباع في المحلات الأخرى، لكن إلياس كان سخياً في المكونات التي يصنع فيها حلوياته من حيث الكم والنوع.

لم تمضِ ثلاث سنوات حتى بدأ يزوّد القصر الرئاسي. وكعادته، كان كريماً، وكان يقدم للعاملين في القصر هدايا صغيرة. وأخبر كلير ذات مرة، كيف تمكن من أن يظل حلواني القصر على الرغم من تغيير الحكومة. فقد كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة من الحلويات هناك، وكانت أرباحه عالية جداً، لأن المسؤولين في الحكومة لا يبالون كثيراً بالسعر، لأن الطغاة المتغطرسين يشعرون بالسعادة عندما يسمعون ضيوفهم الدبلوماسيين يثنون على هذه الأصناف اللذيذة التي تتخصص بها سوريا.

«رؤساء يأتون ورؤساء يذهبون، أما المسؤول عن القصر، أو رئيس التشريفات في القصر، أو طاهي القصر فيبقون، وإني أضعهم جميعاً في قبضتي»، قال إلياس ضاحكاً، ثمّ أضاف بهدوء، «لكن يجب ألا تخبري أحداً بما قلته لك، حتى لو كنتِ تحت التعذيب».

بعد ثلاث سنوات، ودون أن تسأله لوسيا عن الدَّين، وضع إلياس مشتاق، بحضور زوجته، مئتي ألف ليرة على طاولة غرفة الجلوس في بيتها، مع لفافة صغيرة أخرى من الأوراق النقدية، وقال لها بطريقة رسمية: «ها أنا

ذا أعيد إليك نقودك مع شكري الجزيل»، وأضاف، «وهذه آخر فائدة لشهر أيار».

«إنك مشتاق أصيل»، قالت لوسيا، متيقنة من أن ابنتها قد أحسنت صنعاً بزواجها من هذا الرجل القادر، وعصرت يده بدفء.

لكن ذلك لم يحدث إلا حتى حزيران ١٩٤١، وقد حدثت بضعة أشياء قبل ذلك، يجب أن نسردها باقتضاب هنا.

كان إسقاط كلير عدة مرات يعني أن عليها أن تمضي عدة أسابيع في المستشفى. ولما كان الوقت يبعث على الملل هناك، فقد تطلعت إلى زيارات مادلين اليومية التي كانت تأتي محمّلة بالمجلات وبأصناف الحلوى، وتمضي نصف اليوم معها. واكتشفت كلير أنها كانت تستمتع بخفة روح صديقتها كعادتها.

«ريمون يبكي كلّ ليلة لأنه يريد صبياً. إن الرجال يشبهون هؤلاء الأطفال، فهم يريدون صبياناً دائماً لأنهم لا يعرفون كيف يلعبون مع البنات»، قالت مادلين.

«لا يهتمّ زوجي بما سألد حتى ولو أنجبت له معزاة، طالما أنني أحمل الطفل تسعة أشهر، وإلى الآن لم أتمكن من أن أحقق له هذه الرغبة».

«أوه، سيسير كل شيء على ما يرام، وأرى أنك ستنجبين اثني عشر طفلاً جميلاً يتمتعون بالصحة. إن جميع أولادي يشبهون ريمون. لكن لا بأس فأنا واثقة من أنه يوجد رجال قصيرو النظر سيرغبون في الزواج من بناتي»، قالت مادلين وهي تضحك.

كان حمل كلير صعباً مرة أخرى، وراح إلياس يصلي كلّ ليلة من أجل سلامتها. وأخيراً أنجبت فريد. كان صبياً مفعماً بالصحة. وبعد بضعة أيام من ولادته، بدا كأنه نسخة مصغّرة من والد كلير، وهذا ما لم يعجب إلياس مشتاق كثيراً.

في هذه الأثناء، شجع نجيب لوسيا على بيع الفيلا الغالية الثمن الكائنة في جادة عرنوس والانتقال إلى الحي المسيحي القديم لكي يقيما بالقرب من

twitter @baghdad_library

ابنتهما الوحيدة. استجابت لوسيا، وبمساعدة إلياس وجدا بيتاً جميلاً في شارع المسك الهادئ. كان نجيب سعيداً، فلم يعد يفصله عن ابنته أو بالأحرى عن حفيده فريد سوى مسافة خمس دقائق مشياً على القدمين، لكن حتى آخر يوم في حياتها، كانت لوسيا ترثي لحالها لأنها فقدت المحيط الذي يؤكد مكانتها بسبب انتقالها إلى شطر متواضع جداً من المدينة، كما كانت تردد.

٦٠- مثل الماء في الغربال

«من تأمن الرجال»، قالت مادلين، وقد غمرت وجهها رعشة مؤلمة، «كمن تأمن الماء في الغربال»، ابتسمت، لكن الدموع التي حاولت حبسها كانت تترقرق في عينيها.

جلست كلير بهدوء على الأريكة في غرفة جلوس مادلين، مستغرقة في التفكير. أحست بأنها مشلولة. ألا يكفي ألم إسقاطها ثلاث مرات؟ وأخيراً، بعد مضي ستة أشهر على ولادة طفلها، بدأت تستمتع بشيء من السعادة ثانية. كانت تحبّ أن يطلق عليها لقب «أمّ فريد»، كما جرت العادة في دمشق، إذ تفقد أسماء الآباء والأمهات أهميتها عندما ينجبان ابنهما البكر، فيصبحان «أبو» أو «أمّ» ويليه اسم الابن البكر. لم يكن إلياس يحبّ ذلك، وكان يفضّل أن يناديه الناس «المسيو إلياس»، كما يناديه الفرنسيون، لكن العرب لا يعتمدون الأسلوب الأوروبي في التخاطب. وظل الناس يدعونه أبو فريد مع أن إلياس ظل طوال السنة يلحّ عليهم بألاّ ينادوه بهذا اللقب، لكنه استسلم بعد ذلك.

أسعدت كلير أيضاً فرحة والدها الذي أخذ يزورها يومياً، ويعتني بحفيده طالما أحبّت ذلك. وبعد فترة قصيرة، تعلّم الرجل العجوز كيف يغيّر حفاضة الطفل، وكيف يطعمه ويغسله، فأصبح بوسعها الخروج من البيت - غالباً برفقة مادلين -للاستمتاع بالمدينة النابضة بالحياة لبضع ساعات. فكرت طويلاً، متسائلة هل تريد أن تنجب أطفالاً آخرين، ثم قرّرت أنها تريد ذلك.

فقد فتح لها فريد الباب، قال إلياس، وسيتبعه عشرة آخرون. لكنها فجأة، اكتشفت أن زوجها يخونها، وأحست بعزلة مريرة.

«حبيبتي»، قالت لها أمّها لوسيا، «إن الرجال يحتاجون إلى تبريد دمهم، وإلاّ فإن حيواناتهم المنوية تصعد إلى رؤوسهم وعندها يشنون الحروب»، وأشعلت لنفسها سيكارة من نوع «خانم»، ذلك النوع الفاخر من السجائر المخصصة للنساء.

لأول مرة في حياتها، صاحت كلير في وجه لوسيا. حاولت أن تقول لها إن الحياة لا تعاش بين ساقين فقط، وأن الحبّ كائن يجب تقديره والاهتمام به. لبثت لوسيا هادئة. داعبت وجه ابنتها، ثم أجابت، «إن الحبّ الأبدي يا صغيرتي لا يعيش إلا في الروايات والأشعار، وكلما أمعنت التفكير بذلك، ازددت قناعة بأنّ الذين يكتبون عن هذه الأمور هم محتالون حقيقيون، وليس نحن الرجال والنساء الحقيقيين بكلّ ضعفنا. تلك هي الحياة، وما عدا ذلك يظل حبراً على ورق. إن إلياس أفضل رجل في دمشق، وإن كنت ذكية فإنك تستطيعين أن تعيديه إليك. يجب أن تفتحي ذراعيك أوسع مما تفعلين، تجمّلي أكثر، اجعلي بيته أكثر جاذبية وأكثر إمتاعاً، عندها سيرجع إليك».

لأول مرة، أحست كلير بعدم الارتياح على نحو غريب في بيت والديها. ضاق نفسها فيه، فخرجت بسرعة، فاستعادت أنفاسها في الشارع. لم تجب عندما نادتها أمّها. لم تفهم لوسيا مطلقاً. حتى أن أمّي لا تمتلك الشجاعة لتنظر في أعماق جرحي، قالت لنفسها وهي في طريقها إلى البيت. كانت يائسة. رفع والدها الجالس بجانب مهد فريد في غرفة النوم، عينيه ورأى حزنها.

«هل يمكنني أن أساعدك؟» سألها بهدوء.

هزّت كلير رأسها، وقالت كاذبة: «عندي صداع». لم يكن رأسها مليئاً بالحزن هكذا من قبل.

عاد نجيب إلى البيت، وبدأت تعدّ وجبة العشاء، كان اليأس يصارع

twitter @baghdad_library

الغضب في رأسها. جابت أرجاء بيتها. لا يوجد أحد يمكنها أن تعتمد عليه. لا أمّها، ولا والدها كذلك.

كان إلياس يخونها مع ألكساندرا، إحدى أغبى النساء في العالم. كانت هي وكلير في المدرسة نفسها، لكن كلير لم تكلمها خلال تلك السنوات العشر أكثر من ثلاث مرات، وحتى في تلك المرات، كان حديثهما تافهاً وإهداراً للوقت. كانت قد سمعت من مادلين بأن المرأة قد تزوجت عضواً في البرلمان يكبرها بخمس وعشرين سنة. وبعد زواجها، أصرّت ألكساندرا على أن تُدعى «مدام مكرم بك»، حتى من قبل أقربائها وصديقاتها، لأن زوجها كان آخر سليل عائلة غنية من أصحاب الأراضي الكبار، وكان يأمل في أن ينجب ابناً يحمل اسم مكرم في المستقبل. حتى لو لم تكن على علاقة غرامية مع إلياس، فلم يكن بوسع مادلين تحمّل هذه المرأة.

«ألكساندرا، من بين كلّ النساء».

أمكنها بعد تفكير هادئ أن تتخيّل كيف تمكنت ألكساندرا من اقتحام إلياس. فقد جلبت مؤخرة تلك المرأة لها كلّ شيء تريده. حتى إلياس المغرور.

اقترحت مادلين على صديقتها الذهاب إلى حمّام السوق. فلم تكن كلير قد ذهبت إلى الحمّام منذ زفافها. فصديقتها تعرف أحد حمّامات السوق الجميلة في دمشق. حمّام رائع يكسو أرضيته بلاط ملوّن فيه دوش وحوض غسيل ضخم مصنوع من الرخام الأبيض. وفي صباح يوم الأربعاء التالي، ذهبت إلى حمّام السوق مع صديقتها. مشت شابكة ذراعها بذراع مادلين، صامتة ساهمة.

كان والدها سعيداً برعاية حفيده فريد لبضع ساعات. حتى أنه لم ينظر إليها عندما غادرت بل أدام النظر ولهاً في الطفل النائم.

توجهتا إلى حمّام البكري في باب توما، الذي لا يبعد كثيراً عن محل حلويات إلياس.

«كنت قد وثقت برجل ذات مرة لكنّه سافر إلى أمريكا مع امرأة غنية

وأخذ معه قلبي وتركني وحدي مع خاتم خطوبتنا»، قالت مادلين فجأة بهدوء، كما لو أنها كانت تريد أن تفتح قلبها قليلاً فقط.

«هل كنت مخطوبة قبل ريمون؟ لم أكن أعرف ذلك»، سألتها كلير مندهشة.

«تعيّن عليّ أن أحتفظ بذلك سراً. كنت أخلع خاتم الخطوبة صباح كلّ يوم وأعيده في المساء، لأن حبيبي كان يأتي لزيارتنا. وقد أحبّته أمّي. أظن أنها أحبّته كثيراً. فقد كان شاباً ذكياً جذاباً»، أضافت مادلين، لكنها لوّحت بيدها بعد ذلك لطي الموضوع.

«لماذا تركك وذهب إلى امرأة أخرى؟»

«لأنها وعدته بأن تمنحه كلّ ثروتها ولم يكن عندي شيء أقدمه له. كان أبي يقول إن منح المرأة مهراً لجذب الرجل أمر غير مسيحي، فهو إما أن يحبّ المرأة وإما أن يحبّ مالها. لكنّه كان يذهب شأواً بعيدا أحياناً. فقد كان يمازح سعيد - اسم خطيبي - ويقول له إنه خسر كلّ شيء. عندها أدركت أنّ سعيد صدق واضطرب، وطلبت من أبي أن يكفّ عن قول هذا الهراء. كان أبي قد جمع أموالاً كثيرة من تجارة الجلود، لكنّي شعرت آنذاك أنّ الحبّ قد بدأ يتسرب من قلب سعيد، ومهما كنت أحاول أن أعيد ملء الخزان، كان يفرغ بسرعة مرة أخرى.

بعدها جاءت هذه الأرملة الشابة بكلّ الأموال التي ورثتها، وهرب معها إلى أمريكا من دون أن يقول لي أي كلمة. كذبتُ على الجميع، وقلت إن ذلك حدث فجأة، لكني كنت أعرف منذ شهور بأنه بدأ يبتعد عنّي. الحبّ مثل الطفولة. عندما يذهب فإنه يذهب إلى الأبد. انتصر أبي الذي كان سعيداً بأنه اكتشف حقيقة الرجل منذ البداية، وأنه يعرف بأنه يسعى وراء المال لا الحبّ. لكني تحطّمت. بعد أسبوعين مرضت، وانقطعت عن المدرسة لمدة ستّة أشهر، هل تذكرين؟»

«حسبنا أنك كنت مصابة بذات الرئة، ربما بالسلّ أيضاً»، تذكرت كلير.

ضحكت مادلين وقالت: «كان هذا هو التفسير الرسمي لكي لا يعرف

twitter @baghdad_library

أحد في المدرسة. حاولت الانتحار مرّتين، لكنّي كنت أجبن وأتراجع في كل مرة. أخذتني أمّي إلى بيروت، وأمضينا ثلاثة أشهر مع خال لنا هناك. أشعر اليوم بأنه لم يكن خالاً فقط، بل كان رجلاً ساحراً يعرف كلّ شيء عن الحبّ وعن الروح. حدّثني بتفهم شديد، وكنا نتحدث ليلة بعد ليلة، فأحببته، لكنّي كبحت نفسي في الوقت المناسب. فقد كان سعيداً في زواجه وكان يكبرني كثيراً. لم يكن لطيفاً معي، بل صادقاً، وقاسياً أحياناً. وجاء وقت أدركت فيه أنّني يجب أن أكون سعيدة لأني تخلّصت من خطيبي في مرحلة مبكّرة، لأنه سيتركني في ما بعد.

منذ ذلك الحين بدأت أعيش بعقلانية مع ريمون الذي اعتبر نفسه محظوظاً بزواجه من فتاة تاجر جلود معروف، أنطوان عشّي. كان يريد أطفالاً، فأنجبت له ما يريد، وفي ما تبقى من الوقت، فإنه يدعني وشأني».

وصلتا في هذه اللحظة إلى الحمّام العام. كانت مادلين تتردد على الحمّام كثيراً، ولم تكن تعرف صاحبة الحمّام والمدلّكة القوية البنية والمرأة العجوز التي تحمّم الزبونات وجميع المساعدات فقط، بل كانت تعرف أيضاً الكثير من النساء المستحمّات الأخريات اللاتي أتين الآن للترحيب بها. دهشت كلير كيف تغيرت مادلين عندما خلعت ثيابها. إذ كانت تخلع تحفظها أيضاً عندما تخلع ثيابها، تلاعب النساء وتمازحهن. كانت ضحكتها تنطلق في موجات يتردّد صداها من جدران الحمّام وتصيب نساء أخريات جالسات بعيداً بالعدوى.

بغتة وجدت كلير نفسها في وسط نساء غريبات يبتسمن لها، وشاركنها على الفور في أحاديثهن، كما لو كانت واحدة منهن. وسرعان ما بدأت تدلي بدلوها أيضاً عن أحد الأزواج الذي أخذن يشرّحنه قطعة قطعة في غيابه. بعد ساعة أحست بشيء من التعب اللذيذ، ونامت على الأرضية الدافئة. عندما استيقظت، دهشت لإحساسها بالسكينة. كانت قاعة «البراني» تكاد تكون فارغة، لأن النساء اللاتي كنّ معها، انتقلن إلى «الجواني» الأكثر حرارة. استلقت في مكانها، وراحت تحدّق في القبة ذات النوافذ الصغيرة

المكسوة بالزجاج الملون التي حجبت أشعة الشمس. شعرت بالأمان كما لم تشعر منذ وقت طويل. كان العالم بعيداً جداً، وكان إلياس وألكساندرا بعيدين عنها. كان فريد فقط ينظر إليها بعينيه الجميلتين اللتين تشبهان عيني أبيها شبهاً غريباً.

لو كان بوسعها أن تحسّ بالأمان كما تحسّ به هنا، وتعيش مع ابنها فقط، لأصبحت الحياة على ما يرام، قالت لنفسها بعد قليل وانتصبت في جلستها ببطء. سمعت رنين ضحكة مادلين. ثم ظهرت المكيّسة -امرأة داكنة البشرة لها وجه بشوش، وأسنان منخورة، بقايا جذوع فقط - فجأة، كما لو أنها كانت تنتظر كلير حتى تستيقظ. قدمت لها مناشف جافة بيضاء كالثلج، ونزعت عنها المناشف المبللة المليئة بالعرق. رويداً رويداً، دخلت كلير إلى «الجواني».

لساعات راحت تتحدث مع ظريفة وبركة، وهما امرأتان لهما تجارب واسعة. فقد تزوّجت ظريفة للمرة الثانية، وهي في غاية السعادة مع زوجها الجديد، كما يمكن للمرء مشاهدته في الأفلام فقط، وكانت الأكثر صراحة من بين المرأتين، ونصحت كلير بأن تهجر زوجها وأن تلقي كلّ شيء في حضن القدر.

أما بركة التي قاربت الستين من عمرها، فكانت أكثر هدوءاً، بل أكثر غموضاً أيضاً. كانت النساء الأخريات يلقين نكات عنها، وقد أطلقن عليها اسم «مشنقة الأزواج». فقد مات زوجها الرابع منذ سنة من مرض معوي غريب، واتّهمت عائلته بركة بأنها سممته. نصحتها بركة بأن تحارب منافستها ألكساندرا، وقالت إنها يجب ألا تترك المرأة الأخرى تعيش بسلام ولا للحظة واحدة.

ضحكت كلير كثيراً، وأحسّت بخفة شديدة وبسعادة في صحبة مادلين والنساء الأخريات، كما لو أنها لم تغسل أدرانها فقط، بل غسلت حزنها أيضاً. فقد أحبّت صحبة ظريفة وبركة، لكن حبّها لإلياس كان شيئاً مختلفاً، لذلك لم تستطع الأخذ بنصيحتهما. لكنّها أخذت شيئاً معها إلى البيت في

twitter @baghdad_library

عصر ذلك اليوم: فقد عرفت أنها لم تعد وحدها. فقد فهمتها كلتا المرأتين، وقالت لها ظريفة، وهي تودعها بأنها ستكون سعيدة لرؤية كلير في الحمّام ثانية يوم الأربعاء القادم. لم تذهب كلير إلى الحمّام برفقة مادلين في الأسبوع التالي فقط، بل ظلت تداوم على ذلك كلّ يوم أربعاء لسنوات عديدة.

بعد أن تعود من الحمّام إلى البيت، كانت كلير تشعر بالارتياح، وتشعر بأنها تمشي بخفة ورشاقة. لكن ما إن تعود، وتحمل فريد، وتودّع والدها، حتى تعاودها أفكارها الكئيبة، فتتلاشى خفّة القلب التي تشعر بها عندما تكون في صحبة النساء.

كيف يمكن لإلياس أن يفعل ذلك معها؟ لماذا يجب أن يحدث ذلك لها؟ ألا تكفي المعاناة التي كابدتها خلال إسقاطاتها الثلاثة؟ لماذا اختار تلك الإوزة الثرثارة التي تدعى ألكساندرا والتي كانت تهز مؤخرتها مثل عاهرة وهي في الثالثة عشرة من عمرها، ودأبت على القول إنها تعرف أن عقل الرجل يقبع في بيضتيه، وأن المني عصير عقله، لذلك فإنه يبدو في شكل حليب؟ كيف يستطيع إلياس أن يجد السعادة بين ساقي امرأة غريبة، امرأة غبية كهذه؟ ألم تكن تشبع رغباته؟ ماهي اعتراضاته على الإخلاص؟ ربما تكمن المشكلة في تلك الفترات الطويلة التي توقف فيها عن مضاجعتها بعد أن أسقطت جنينها. فقد رغب إلياس في ممارسة الجنس يومياً. كان يقول ذلك مازحاً أحياناً، ملمحاً إلى شهوتها الفائرة. فبعد أن أنجبت الصبي، أصبحت تشعر بالتعب في المساء لأنه تعين عليها أن تستيقظ في الليل لإرضاعه ثلاث أو أربع مرات. كان إلياس يجلس وحيداً يحتسي العرق بصمت. هل هذا ما قاده إلى تلك المرأة، إلى ذراعي ألكساندرا؟ راح رأسها يعجّ بالأسئلة طوال فترة بعد الظهر. لم تستطع أن تجيب عن أيّ منها.

استحمّت وتجمّلت، لكن عندما عاد إلياس إلى البيت، نظرت إليه والحزن يغشى عينيها. حتى إنه لم يحاول أن يكذب عليها عندما سألته، «هل صحيح ما يشاع عن ألكساندرا؟»

فقال: «نعم. توجد علاقة بيني وبين مدام مكرم بك».

على الرغم من إحساسه بالحرج، شعر إلياس بالارتياح. كان يريد أن يخبر كلير في الأشهر القليلة الماضية بذلك، لكن صمتها أربكه. كان مثل بحيرة عميقة تهدّد بإغراقه شيئاً فشيئاً. حاول أن يذكر اسم ألكساندرا ثلاث مرات، لكن كلير خنقت أيّ كلمات أخرى بإبداء احتقارها الصريح للمرأة.

كان صمته أكذوبة. كم مرّة كذب عليها؟ استعاد الماضي، متذكّراً كيف كان يشعر أحياناً بأنه رجل منفصم الشخصية، منقسم إلى رجلين. أحدهما إلياس الذي يتكلم لإرضاء الناس وإدخال السرور إلى نفوسهم، والآخر إلياس الذي لا يقول شيئاً، بل يسجّل الأكاذيب. هل حدث ذلك مرة أم مائة مرة؟ كم مرّة وافق كلير على أنّ النساء العربيات يحتجن إلى الحرية وإلى التمتع بحقوق متساوية؟ لاحظ أنّها كانت تحبّ أن تسمعه يقول ذلك. لقد خلطت الحبّ بالمواقف التي يؤمن بها.

أحسّ الآن بالارتياح. قال لها: «إن الأمر ليس كما تظنين». كانت كلير قد وعدت نفسها طوال فترة بعد الظهر بأن تلتزم الهدوء، لكنه عندما قال لها ذلك، ومدّ يده لاسترضائها، أفرغت كل ما يعتمل في صدرها، وبكت. «لقد خدعتني يا إلياس. لم أحبّ أحداً في حياتي كما أحببتك، وها أنت الآن تكافئني بخداعك لي. آه، يا إلياس». وراحت تبكي بصوت يكاد يكون غير مسموع، كما لو أنها تريد أن تقول: ساعدني، أرجوك، إني أموت. لكن مضى وقت طويل قبل أن تتمكن من أن تتفوه بأي كلمة أخرى.

«إلياس»، همست أخيراً، وبكت أخيراً، كما لو أنها كانت تبكي على موت شخص تحبّه كثيراً.

جلس إلى جانبها، ممعناً في التفكير، ولم يجرؤ على لمسها ثانية. وللحظة تمنّت أن يقول لها إن ذلك كان مجرد خطأ ويضع ذراعه حول كتفيها، وعندها لن تبعدها. أحسّت بأنّه كان على وشك أن يفعل ذلك، لكنه، نهض وتوجّه نحو النافذة، عندها عرفت أنّه مهووس بعشق ألكساندرا.

twitter @baghdad_library

اعتراها الخوف، ولم تنبس بكلمة أخرى. لم تتعاف من الصدمة إلا بعد أكثر من عشر سنوات.

٦١- وخز الضمير

لم يكن أحد مقتنعاً بأن إلياس رجل ورع جداً منذ أن ترك المدرسة اليسوعية، فقد اعتبره كثيرون منافقاً. فقد كان عضواً في جميع الجمعيات الكاثوليكية في مدينة دمشق وفي قرية معلا، ودأب على ارتياد الكنيسة بإخلاص أيام الأحد، ويغيب عنها بقيّة أيام الأسبوع.

قال لنفسه إن أول علاقة غرامية له خلال فترة زواجه كانت سخيفة في بدايتها ونهايتها، أما ألكساندرا - أو مدام مكرم بك، كما كان يحلو لها أن تدعى - فكانت امرأة شبقة ملتهبة مثل دبور في ضوء الشمس الساطعة، تنبعث رائحة شبق نهمة من حولها على مسافة عدة أمتار. ولما لم يكن يستطيع مضاجعة كلير دائماً، فقد كان يقع فريسة الإغراء بسهولة.

كان ذلك في حفلة أقامها زوجها للنوّاب الذين انتخبوه رئيساً لهم في البرلمان. كان على إلياس وثلاثة من مستخدميه الذين ارتدوا جميعاً معاطف ويعتمرون قبعات بيضاء كالثلج، تقديم الحلويات اللذيذة. فجأة دنت منه ألكساندرا برهافة، وقالت له إنها هي التي أقنعت زوجها بأن يختار محل إلياس لتقديم الحلويات. في ذلك المساء، كان الرجل يحتفل بمناسبة تبوّئه منصب رئيس البرلمان، يدخّن سيجاره الكوبي، ويشرب الشمبانيا الفرنسية، ويتحدث إلى أعضاء البرلمان الآخرين، بينما كانت ألكساندرا تستمتع بأول مداعبة غرامية مع إلياس في غرفة نوم صغيرة في الطابق الثاني من البيت الكبير.

لم تصدق كلير أن إلياس كان يعاني كلما ذهب لإرضاء نفسه مع امرأة أخرى، لكنّ الأمر كان كذلك. وفي أحيان كثيرة، عندما كان يغادر إحدى تلك النساء، كان يتوجّه إلى أقرب كنيسة، ويجثو أمام يسوع، طالباً منه

المغفرة. حدث له ذلك مع ألكساندرا. ففي صباح اليوم التالي بعد أن أمضى معها ليلة مليئة بالمتعة، شعر بوخز الضمير، وتوسل إلى قاضي القضاة بأن يغمره بعدله ورحمته لأنه هو، خالق كلّ الخلق والعوالم، الذي منح إلياس قضيبه وشهوته الأبدية للنساء. لذلك، لا بد أن يكون منفتح القلب ويتفهم آثام عبده المعذّب. كان إلياس يشعر بأنّه قريب جداً من السلطة والأهمية عبر عشيقته ألكساندرا، وهذا بدوره يمكنه أن يثبت نفسه أمام أبيه من خلال قوته وأهميته. وأيقن إلياس عبر عشرته أن مكرم بك عبد لزوجته، ومستعد لأن ينفذ لها كل ما تريده، وها هي ألكساندرا تقع في غرام إلياس.

بسبل ملتوية، أبلغ والده بعد الحفلة مباشرة بأنه على صداقة مع رئيس البرلمان. بعد ذلك بفترة وجيزة، أتيحت لسلمان وزوجته الفرصة للوقوف على حقيقة الأمر بنفسيهما عندما زارا محل الحلواني. قدّم لهما إلياس القهوة، وبينما كانا يحتسيان قهوتهما، وقفت سيارة ليموزين كبيرة، وترجّلت منها زوجة رئيس البرلمان، ودخلت إلى المحل، وحيّت الحلواني نفسه بحرارة، ثم قالت له إن زوجها يرغب في أن يقوم إلياس بزيارته في ذلك المساء ليلعب معه الشطرنج. ثمّ أخذت علب الحلويات المغلّفة بأناقة التي أعدّها لها إلياس بنفسه، وغادرت المحل. أثناء ذلك، كانت السيارة تسدّ الشارع خارج المحل، ولم يجرؤ أحد من السائقين الذين راحوا ينتظرون خلفها على أن يطلق زموراً أو يصرخ غاضباً، كما يفعل السائقون في دمشق عادة، ولم تكن السيارة تحمل لوحة، وهو أمر لا يجرؤ على فعله إلا قلة من الناس.

دُهش سلمان وحنان. عندما عادا إلى معلا في مساء ذلك اليوم، أخبرا مشتاق العجوز بأن إلياس يدخل ويخرج من بيت مكرم بك حقاً. ثم اعترت جورج مشتاق حمّى غريبة طوال أسبوع. لم يعرف أحد أنّ إلياس قد رتّب كلّ هذا المشهد وطلب من ألكساندرا أن تأتي إلى المحل وتفعل ذلك.

كانت رغبته في النفوذ هي الدافع الرئيسي الذي جعله يتحمّل

twitter @baghdad_library

ألكساندر. وفي بعض الأحيان، كان إلياس يمسك قضيبه بيده ويخاطبه قائلاً: «يا صديقي، لديك تأثير أقوى مما لدى بعض المزارعين الأقوياء».

لم يفترقا، كما قالت ألكساندرا، لأن زوجها ترك البرلمان ليتفرغ تماماً لإدارة أراضيه الشاسعة وخيوله الأصيلة العديدة، بل لأنها كانت تخبر إلياس ببلادة بما يقوله زوجها عنه.

فقد كان المخبر الخاصّ لمكرم بيك يطلعه باستمرار على المغامرات العاطفية لزوجته. كان يعرف جميع عشاقها بالاسم، بل كذلك أين وعدد المرات التي يلتقون فيها بزوجته. ظل سبب رغبته بمعرفة ذلك سراً. فلم يقم بأي تصرف عدائي تجاهها أو تجاه عشاقها، بل كان يبدي احترامه لها أمام الناس، حتى إنه أهدى الكتاب المرجعي الذي ألّفه عن الخيول العربية إلى «زوجتي المخلصة ألكساندرا».

وعندما كان مكرم بك يسكر فقط يشتمها بأقذع الصفات. فقد حدّثت ألكساندرا إلياس عن كلّ ذلك في أحد الأيام، ووصفت له بالتفصيل كيف أنه، في ذلك اليوم المحدد، أرسل جميع الخدم إلى بيوتهم، ثم مدّ خمس قطع من الورق على طاولة غرفة المعيشة أمامها، كتب عليها أسماء الرجال. «هؤلاء هم عشاقك»، قال لها زوجها السكران، بصوت شديد الوضوح. وأضاف، «المصور أفعى سامة، ومصفّف الشعر قرد، ووزير الداخلية حرباء، ومنقذ المسبح تمساح». ثمّ قالت، سكت، والتقط قطعة الورق التي عليها اسم إلياس، ودخل في نوبة ضحك فارتبكت كثيرا ثم تابع «أما هذا فهو حمار من معلا. إني أمتطي خيولاً عربية أصيلة، وحمار يمتطي زوجتي»، وراح يصهل، ثم تركها واقفة هناك، وعاد إلى غرفة نومه. عندما لحقت به كان يشخر. في صباح اليوم التالي، أصبح رقيقاً ومتذلّلاً لها كدأبه.

غضب إلياس، لكنه سرعان ما استعاد هدوءه. لم يفهم لماذا يدعوه هذا الرجل العجوز الحقير حماراً. لكن بعد ذلك، قالت ألكساندرا له إنها تنتظره يوم الخميس القادم، لأن زوجها سيمضي الليلة في مزرعته. «هذا الأحمق

العجوز مهووس بالخيول وهو في توق لاستيلاد فرسين أصيلين مهرة»، قالت وأطلقت ضحكة مجلجلة، «وأنا أريد أن أركب حماري.»

جُرح إلياس في الصميم، وأحسّ بإهانة شديدة. قال لها إنه لا يريد أن يرى وجهها ثانية، وطلب منها أن تغادر محله على الفور. صمتت ألكساندرا، وانحرفت ابتسامتها إلى جانب وجهها، مثل قناع. «فلاح قذر»، سمعها إلياس تهمهم بغضب، وخرجت محتدمة.

بعد ذلك، لم يلمس امرأة دمشقية أخرى، بل راح يضاجع الفلاحات في معلا اللاتي كنّ يعبرن له عن بالغ امتنانهن للهدايا والنقود التي يقدمها لهن. لم يكن إلياس يعطيهن مبالغ كبيرة، لكن الأمر المهم بالنسبة له هو أنه كان يعرف أنه يدفع لهن ثمن مضاجعته لهن، لأنه يريد أن يجعل طبيعة الصفقة واضحة. فقد كان هو السيد، ولم يكن يضاجع إلا النساء الوحيدات اللاتي هجرهن أزواجهن وذهبوا إلى دول الخليج في أواخر الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، أو الذين يسافرون ويعملون سائقي شاحنات لمسافات طويلة بين دمشق والكويت أو الرياض.

كان عنده أكثر من عشر عشيقات في القرية، يذهب إليهن سرّاً عندما يشاء. ولم يكن يشتري احتياجاته من الزيت والزيتون والعسل والنبيذ والبرغل والزبيب واللوز وجبن الغنم إلا من معلا، مزدرياً كلّ المنتجات المعروضة للبيع في المدينة، وكان يفعل الشيء نفسه مع النساء. وقد أشيع في القرية بأن العديد من أطفال المهاجرين هم أبناؤه وبناته، لكن الإشاعة ازدهرت وتضخمت في خيال القرويّين.

لكن لم يكن أحد في معلا يعرف بأنّ إلياس مشتاق يكره النساء اللاتي يضاجعهن، لأنه كان، بعد أن ينهي فعلته، ويعود ثانية، يعاني من وخز ضميره المعذّب. فيلعن النساء اللاتي لديهن هذه القوّة عليه، ويقول غالباً، حتى قبل أن يرتدي بنطلونه ثانية، «إنكنّ تكلّفنني نقوداً الآن، وعذاب الجحيم لاحقاً».

twitter @baghdad_library

٦٢- التدريب

كان فريد في السادسة من عمره عندما دنا من سرير كلير ذات ليلة، وهمس لها: «ماما إن أبي يتحدّث مع الخزانة»، وأشار إلى غرفة الجلوس. استيقظ فريد ليذهب إلى المرحاض فسمع صوت أبيه.

انتصبت أمّه جالسة، ومسّدت رأس ابنها وقالت له هامسة «لا تقلق»، وجلست على حافة السرير، ووضعت فريد في حضنها.

ثمّ راحت تنصت وسمعت صوت زوجها بجلاء. كان جالساً قبالة الخزانة. رأت ظهره من سريرها. كانت الخزانة، مثل الكراسي الموجودة في الغرفة وسقفها، مصنوعة من خشب الجوز ومرصعة بموزاييك ملوّنة.

كان إلياس يتحدث مع زائر غير مرئي. يتكلّم بصوتين، صوتِه، ومن الواضح أن الصوت الآخر والأعمق هو صوت والده.

«يمكنني أن أرى أنك شققت طريقك في الحياة، يا بني العزيز»، قال الصوت العميق.

«نعم، يا أبي. بفضل تربيتك، والأهمّ من ذلك كله بفضل بركاتك. لأنّي أعرف، على الرغم من أنك طردتني من البيت، أنك تحبني من أعماق قلبك».

«تهانيّ يا بني، لكن ألم تنفق الكثير على هذا البيت - ألم أسمع بأنه كان يملكه قنصل أو سفير؟ هل ادّخرت مالاً؟»

«أبي، لقد خُلقتُ من ذات القالب الذي خُلقتَ منه. فإني أنفق بسخاء فقط ذلك الذي يمكنني الاستغناء عنه. لقد ادّخرت لكلّ شيء»، قال إلياس، معدّلاً ظهره، ثمّ قال بهدوء، «انظر في الدرج الكبير بجانبك؟» وجلس على الكرسي الذي كان من المفترض أن والده يجلس عليه.

«أي درج يا بني؟»

«أقرب درج إليك»، أجاب إلياس.

«آه، هذا»، قال الصوت العميق، وسحب إلياس نصف الدرج. كان ثقيلاً، لأنه يطفح بالليرات الإنكليزية الذهبية.

«أنا عاجز عن الكلام! كم كنت أحمق!» قال الصوت العميق نادماً، «كنت مخطئاً تماماً».

أجهش إلياس بالبكاء، ربما كان يتخيّل هزيمة والده.

استوى واقفاً ببطء. عاد إلى الأريكة، حيث جلس وراح يحتسي مشروب العرق بصمت.

«حسناً، كل شيء على ما يرام الآن. يمكنك أن تعود إلى الفراش»، همست كلير لابنها. عاد فريد إلى فراشه حافياً يمشي على رؤوس أصابعه.

لكنّ كلير ظلّت مستيقظة لفترة طويلة.

twitter @baghdad_library

كتاب الحبّ الرابع

في لحظة الحبّ لا تجد الغربة لها مكاناً

*

دمشق، تموز ١٩٤٠

٦٣- اضطرابات

بدأت اليمامات الشامية البرونزية اللون تهدل أغانيها الحزينة ثانية، فاستيقظ أهالي دمشق من سباتهم. عندما ترتفع الحرارة إلى درجة لا تطاق تخلد الطيور إلى الصمت. رشت كلير بالماء أرضية الفناء الداخلي الصغير المكسوة بالرخام الملتهبة بالحرارة، وفتحت جميع نوافذ غرفة الجلوس على مصاريعها. فقد أطبقت الحرارة على أنفاس المدينة.

كان فريد يغطّ في نوم عميق. أزاحت أمّه الستارة التي تقي مهده الصغير من الذباب. ابتسم الطفل في نومه.

كانت كلمات القابلة وضحكتها الرائقة لا تزال ترنّ في أذنيها. «يا له من طفل رائع! لكن لا عجب، بعد كل تلك الإسقاطات. حسناً، يا عزيزتي، كان كل هذا العناء جديراً بهذه النتيجة. انتظري لتري». لم تكن نهلة مخطئة على الإطلاق. ففريد يملك أجمل عينين رأتهما في حياتها، وسيحرق قلوب النساء. كانت كلير تعرف أنّ نهلة قابلة ممتازة، لكنها كذلك متملقة بارعة. فالأطفال يتغيّرون باستمرار، ولم يكن فريد يتجاوز خمسة أسابيع من عمره بعد.

ابتسمت لأنها تساءلت فجأة لماذا تقحم نهلة قلوب النساء في مستقبل

الطفل. هل تشير إلى مغامرات زوجها العديدة؟ إن بعض الرجال في عشيرة مشتاق مهووسون بالنساء: جورج مشتاق وابنه سلمان - وفي الحقيقة، ألم يكن الصدع الذي وقع بين زوجها ووالده من أجل امرأة أيضاً - هي نفسها؟

بينما كانت تراودها هذه الأفكار، دنت من أصيص الريحان المركون عند النافذة. كانت تحبّ أريج الريحان المنعش. مسّدت أوراق النبتة برقة، ثم شمّت رائحتها العبقة من راحتي يديها. استدارت ثم أزاحت الستارة من مهد طفلها ونظرت إلى ابنها. «لن تكون من عائلة مشتاق، ولن تغزو قلب أحد. بل ستنتمي إلى عائلة سُرور». كان في صوتها نبرة تصميم مرّة.

كانت أخت زوجها ملكة وابنة خالتها وعدد من صديقاتها الأخريات سيأتين لزيارتها في الساعة الثالثة. سمعت كلير صوت طلقات نارية، لكن من مسافة بعيدة. ربما كان مصدرها المدينة الجديدة. فقد اندلعت الاضطرابات منذ بضعة أسابيع. إذ دفع القحط والمجاعة الفلاحين الفقراء إلى النزوح إلى مدينة دمشق، فاقتحموا المحلات وخرجوا في مظاهرات. أخذ الجنود الفرنسيون يطلقون النار عشوائياً على الناس، فقُتل أكثر من مائة شخص في الشوارع في الأسابيع الثلاثة الأخيرة. ولهذا السبب ركّب زوجها إلياس باباً حديدياً متيناً لمحله.

سُمع دوي طلقات مرة أخرى في وسط الصمت. همست كلير، «أيتها العذراء المقدّسة، إني أضع فريد بين يديك. إنك تعرفين كم عانيت حتى أنجبت طفلاً مفعماً بالصحة. أيتها العذراء المقدّسة، ساعدينا. إننا نمرّ بأوقات عصيبة».

كان الموقف الدولي شديد الغموض. كان الفرنسيون لا يزالون يحتلون سوريا، لكن الألمان احتلوا فرنسا في شهر حزيران. وأُشيع عن وجود أعداد متزايدة من عملاء الألمان ممن تسللوا إلى دمشق للتحضير لطرد الفرنسيين. يوجد أكثر من مائة رجل من القوميين السوريين، بمن فيهم ذلك اللقيط فوزي قاوقجي الذي يعيش حالياً في برلين في كنف هتلر، وسيزحف معه.

twitter @baghdad_library

«فإذا جاء»، قال إلياس قبل أيام، «فإني سأحمل بندقية. من الأفضل أن أموت بشرف على أن أموت مثل كلب في ظل القاوقجي».

«هل هو سيء إلى هذه الدرجة؟» سألته كلير.

«إنه عبد الأسياد فقد صلى للسلطان العثماني حتى هزمه الأوروربيون وخدم هنا ضابطاً مع الفرنسيين وفي العراق مع البريطانيين. إن هؤلاء الأشخاص المتملقين العديمي الضمير هم الأسوأ. كما أنه هاجم معلا بالمدفعية وكأن قريتنا عاصمة أعداء الأمة».

«أيتها العذراء المقدّسة، لنأمل ألا يأتي الألمان»، همست.

جالت نظرتها من نافذة غرفة الجلوس فوق الفناء الداخلي إلى الغرفة الأصغر قليلاً قبالتها والتي تشكّل مع غرفة الطعام الكبيرة الجناح الشمالي للبيت. عندما نظرت من النافذة، وقعت عينها على الحقيبة الجلدية البنية الموجودة هناك الممتلئة والجاهزة منذ السنة الماضية في حال وصلت المعارك إلى دمشق. كان فيها ثياب لإلياس ولها ومائة جنيه إسترليني ذهب.

«ستمكننا هذه الجنيهات الإسترلينية من العيش بضعة أشهر»، همس إلياس لكلير.

«سنكون بحاجة إلى حقيبة أخرى من أجل فريد»، همست كلير لنفسها. فقد تمكنت قوّة الاحتلال الفرنسي، بشكل أو بآخر، من الحفاظ على الهدوء منذ اندلاع الثورة السورية الكبرى في عام ١٩٢٥. كان إلياس معجباً بالمندوب السامي الفرنسي الذي فرض النظام بيده الحازمة منذ منتصف ثلاثينات القرن العشرين. فقد كان يعاقب على أصغر جنحة بالموت الفوري، فأذعن له المواطنون. أما الآن، فقد بدأت الأمور تتغير.

فقد استدعي الجنرال لويس ويغان الذي حكم سوريا بقبضة حديدية حتى أيار إلى باريس لقيادة الجيش الفرنسي لمواجهة قوات هتلر. وكان الفرنسيون في دمشق يتبجحون بالقول بأنّ خطّ ماجينو منيع، وأن هتلر سيمنى بهزيمة ساحقة إذا هاجم ذلك الخطّ، لكن بعد أسبوعين، أصبح الألمان داخل العاصمة الفرنسية.

كانت آراء قواد القوّات المستعمرة منقسمة. فقد أراد عدد كبير منهم التعاون مع الألمان، وأعلنوا ولاءهم لحكومة المارشال بيتان التي أقيمت في فيشي بالاتفاق مع النازيين. وأراد آخرون التحالف مع اللجنة الوطنية الفرنسية الحرة بقيادة ضابط شاب يدعى شارل ديغول من المنفى في لندن، لتنظيم المقاومة ضد الألمان. وحدثت مواجهات عنيفة بين الطرفين في جميع الأماكن. ووقعت قيادة القوّات الفرنسية في دمشق بيد مؤيدي الألمان وأعلنوا الحرب على بريطانيا العظمى وعلى ديغول. عمّت المدينة فوضى شديدة ساهم في إذكائها عملاء ألمان مدربون.

وقيل إن قوات بريطانية كبيرة كانت تتجمّع في فلسطين على حدود سوريا الجنوبية لاحتلال البلاد ثانية وتحريرها من أتباع النازيين. لم تَدُم الإدارة السورية التي كانت تحكم في ظل الاحتلال الفرنسي أسبوعين. فسقطت ثم شُكّلت ثانية، لكنها سقطت مرة أخرى. وجلبت فوضى الحرب والمحصول السيء أول مجاعة إلى البلد منذ عام ١٩١٨.

بدأت الجماهير التي امتلأت قلوبها بالمرارة تحمل موتاها إلى المقابر وتصرخ بألم شديد، وبدأوا ينظرون إلى الفرنسيين والمسيحيين الآخرين على أنهم كفار وأن واجب المسلمين قتلهم. وحصّن الكثير من الشوام المسيحيين بيوتهم، وأعدّوا كميات كبيرة من الدلاء المليئة بالماء لأن الحرائق كانت السلاح المفضّل لمثيري الشغب.

٦٤- الشيخ نابليون

كلما التقت كلير بجيرانها، شعرت بأنّهم يؤيدون هتلر لأنهم يكرهون الفرنسيين. كانت مادلين نفسها تعتقد أن الفرنسيين همج، وحكت قصصاً مرعبة عن الإذلال والإهانة التي يمارسها جنودهم.

كانت هناك محطتان إذاعيتان أجنبيتان تبثان أخبار العرب. واحدة في قبرص ولها علاقات وثيقة مع البريطانيين تبثّ أشدّ الحوادث ترويعاً بأسلوب

twitter @baghdad_library

واقعي وهادئ، وبلغة عربية رتيبة، كما لو أنها تنقل أنباء عن محصول القمح في الأرجنتين. كان إلياس يحبّ الاستماع إليها لأنها تقدم معلومات مفصّلة. أما المحطة الأخرى فكانت تبث من برلين التي دأبت كلير على الاستماع إليها أثناء غياب إلياس عن البيت. كان المذيع يدعى يونس البحري الذي أخبرتها مادلين عنه. كان الناس يستمعون إلى هذه الإذاعة في الحيّ المسيحي في الخفاء، خوفاً من المخبرين الفرنسيين، أما في الحيّ المسلم، فقد رأت كلير مجموعة كبيرة من الرجال، يزيد عددهم على أربعين رجلاً يتحلقون حول المذياع ويستمعون إلى صوت يونس الرفيع وهو ينفث النار والبارود ضدّ البريطانيين. وكان أسوأ ما ينعت به الفرنسيين أنهم أولاد زنى. وفي خطاباته المفعمة بالكراهية كان يوجّه كلامه إلى البريطانيين بشكل رئيسي. فقد كان يصيح بصوت أجش مفعم بالحماسة أنهم جنس من الكذابين المتمرسين. كان أستاذاً في الخطابات الحماسية، يردد أشعاراً، ويتلو آيات قرآنية، وينقل الأخبار ويطلق سيلاً من الشتائم بحرية أكثر مما سمعت كلير أي شخص يطلق هذا السيل من الشتائم في حياتها. ولم يكن يونس يتردد من الصراخ، بعد انتهاء عزف مقطوعة موسيقية عسكرية، «أيها الإنكليز، سأزف لكم أخباراً جيدة الآن، إن هتلر سينيك أمهاتكم. نعم، هذا صحيح، سينيك أمهاتكم»، كان يعيد ويكرّر، في حال أن مستمعيه لم يصدّقوا آذانهم.

وفي مناسبة أخرى، أعلن يونس أن هتلر قال في مقابلة سرّية بأنه سيعتنق الإسلام بعد أن يحقق النصر، تماماً كما فعل نابليون وغوته وجميع الرجال العظماء الآخرين قبله.

كانت كلير تعرف أن حكاية اعتناق غوته الإسلام ليست سوى أسطورة، أما نابليون فقد قال حقاً إنه اعتنق الإسلام واعتمر عمامة عندما كان في مصر ليخدع المصريين. فوجئت عندما سمعت بأن هتلر سيصبح مسلماً، لكن هذه الأخبار أدخلت البهجة إلى قلوب ملايين العرب.

٦٥- ليلى

كانت الساعة تقارب الرابعة عندما وصلت النساء إلى الباب وهن يثرثرن بفيض من الكلام. بعد أن قادتهن كلير إلى غرفة الجلوس، واجتازت الفناء لتحضر لهن شراب الليمون، سمعت دوياً من مسافة بعيدة مرة أخرى. لبثت واقفة في مكانها برهة ثمّ دخلت المطبخ. أخذت كتلة من الثلج من الصندوق الكبير واستخدمت مطرقة لتقسيمها ثمّ لفّتها بقطعة قماش بيضاء، وهشمت قطعة الثلج إلى قطع صغيرة.

للمرة الثانية سمعت دوياً، أعقبته أصوات ارتطام مكتومة. نظرت إلى غرفة الجلوس من الفناء. كانت ملكة، أخت زوجها، واقفة عند النافذة، وصاحت بقلق «عادوا إلى إطلاق النار»، وتراجعت إلى عتمة الغرفة. حملت كلير صينية كؤوس شراب الليمون وعادت عبر الفناء.

لعل إلياس سيدعو عربة الأجرة بعد قليل لتقلّنا إلى معلا، قالت لنفسها. فقد قال إن «الذهاب بسيارتنا سيكون انتحاراً». لأن الطريق يمر عبر قرى يقطنها قرويون مسلمون. وفي هذه الأيام لا يمكن إلا لعربجي مسلم موثوق به أن يوصلهم بأمان وسلام.

«تعال إليّ»، قالت ليلى البالغة من العمر ست سنوات، وانحنت فوق الطفل الراقد في مهده الأبيض الصغير المحاط بستارة بيضاء. نقلت أمّها ملكة نظرتها إلى زوجة أخيها عندما دخلت هذه إلى غرفة الجلوس حاملة صينية الكؤوس متأففة من ابنتها وكأنها تستجدي تدخل المضيفة.

كانت قطع الثلج في الكؤوس تصدر همساً ناعماً مثل صوت أشخاص يدردشون من بعيد.

«دعيها تلعب معه»، طمأنت كلير ملكة، «ليلى فتاة عاقلة وهي تعرف كيف تتعامل مع الأطفال الصغار». وقدمت لضيفاتها شراب الليمون البارد وبعض الحلوى.

جلست عشر نساء وثلاثة أطفال على الأرائك الثقيلة المكسوة بالساتان في غرفة الجلوس الواسعة. أما ابنة ملكة الصغيرة، فقد جلست على مقعد

twitter @baghdad_library

صغير بجانب المهد، مأخوذة بالطفل. أضفت الثريا الكبيرة المدلاّة من السقف المزخرف بالموزائيك بدقة هندسية كبيرة، والمنضدة الخشبية الكبيرة المحفورة بنفس النمط في وسط الغرفة، أجواء دينية على المكان. وجلست النساء والأطفال متشنجين كما لو كانوا يجلسون في كنيسة. وبدا أن ليلى والمهد الأبيض الجميل فقط هما اللذان لا يمتان بصلة إلى هذا المكان بكلّ هذه الجدية الثقيلة الجاثمة عليه.

منذ أن أنجبت كلير فريد، بدأت تشغل نفسها في فترات بعد الظهر بصحبة النساء. لم تكن مهيأة بعد لاستقبال عدد كبير من الزائرات، وكانت تشعر بالفخر والحرج في آن معاً. ولم تكن تتوقع أن يكون لها ولإلياس هذا العدد من الأشخاص الذين يتمنون لهما الخير بين أصدقائهما وأقاربهما، أو ذلك العدد ممن تجشموا عناء السفر من مسافات بعيدة وجاؤوا من حلب أو من بيروت لزيارتها، على الرغم من حرارة تموز اللاهبة والاضطرابات المشتعلة في الريف. وأسفت لأنها حجزت للذين جاؤوا من تلك المسافات البعيدة في الفنادق. وفي تلك الفترة لاحظت وللمرة الأولى، أن البيت رائع التصميم لكن فيه غرفة واحدة يمكن أن ينام فيها ضيف. فخلال الشهرين الأخيرين، اضطرت إلى حجز سبع وعشرين غرفة في الفندق. اشتكى إلياس قليلاً من النفقات الكبيرة، لكنّه كان سعيداً لمولد ابن موفور الصحة بعد تلك الإسقاطات الثلاثة التي لم تجعله يخاف على صحة زوجته فقط، بل جعلته يصبح قلقاً بصورة عامة. كان إلياس يؤمن بالخرافات وظلت لعنة أبيه تطارده حتى في نومه.

وضعت ليلى الطفل في حضنها وراحت تحدّق فيه، وقد تزين وجهها بشرود عاشق. «لتحمه سيدتنا مريم العذراء من عين الحسد! إنه ينظر إليّ بعيون ذكية كما لو كان يفهم كلّ شيء».

«سيقع الطفل من يدك. أعيديه إلى مهده كما تفعل الفتاة المهذبة، واجلسي معنا ومع الأطفال الآخرين». حاولت أمّها أن تظهر تأدباً، فقد عكّرت ليلى مزاجها بعنادها في ذلك اليوم منذ الصباح.

«ألا يمكنني أن أمكث هذه الليلة مع فريد؟ أرجوك يا زوجة عمي. دعيني أغيّر حفاضته وأحمّمه، ثم يمكنني أن أنام الليلة على الأرض بجانب مهده. فهنا أجمل من الفندق».

ضحكت النساء. «الفندق رائع! حتى إن كلير لم تنس أن تجلب لنا أزهاراً. يقول جرسون الفندق صباح كل يوم إن ضيوفها يعاملون بطريقة ملكية لأن كلير كريمة كرم الملوك»، قالت ملكة، أمّ ليلى، لإنقاذ الوضع بسرعة.

ابتسمت كلير، لأن عمال الفندق كانوا يأتون ثلاث مرات في اليوم ويسألون هل يحتاج الضيوف في الفندق إلى شيء آخر. وكلما جاؤوا فإن ذلك يعني منحهم بضعة قروش أخرى كإكرامية.

لكن كان هذا هو البيت بالذات الذي أراد إلياس أن يشتريه، قصر صغير رائع يُعتبر مثالياً بالنسبة له. فقد كان يسعى طوال حياته لأن يبدو بمظهر فخم، والأهم من كل ذلك أنه كان يرغب في أن يدعو والده إلى هذا البيت إذا نجحت جهود المطران في مصالحتهما. لأن مصالحتهما ستتم هنا، وسيرى والده أن لعنته لم تُجدِ نفعاً.

لم تكن كلير سعيدة كثيراً بضيق هذا البيت بسبب أخت زوجها ملكة التي تكنّ لها كلير معزّة خاصة، والتي كانت تود أن تستضيفها. فقد كانت الرحلة من بيروت إلى دمشق صعبة وخطرة في بعض الأحيان. وعلى الرغم من أن قطاع الطرق والمتمردين كانوا يهاجمون السيارات والعربات، ويسلبونها ويقتلون ركابها، فقد أصرّت ملكة على أن تأتي لتهنئ كلير شخصياً.

ظلت ملكة توبخ ابنتها، لكن ليلى لم تأبه بها. فقد كانت مستغرقة في أول حديث لها مع صديقها الصغير، وكانت متيقنة من أنه يفهم ما تقوله له. استمرت الزيارة ساعتين، كانت تهمس خلالها أسراراً للطفل الرضيع وفريد ينظر إليها بدهشة. يضحك أحياناً ثمّ يعبس وتبدو عيناه مليئتين بالحزن.

عندما حملت كلير ابنها لتودّع ضيفاتها، بدأ يبكي ويمدّ ذراعيه

twitter @baghdad_library

الصغيرتين نحو ليلى. التفتت إليه مرة أخرى، وهمست برقة «سأعود وأراك قريبا».

لم يهدأ فريد إلا بعد ساعة تقريباً. عندها تمكّنت كلير من جمع الكؤوس وفناجين القهوة والأطباق التي فرغت الآن من الحلوى وأخذتها إلى المطبخ. عندما نظرت إلى الطاولة الصغيرة المنتصبة أمام ليلى، دُهشت. لم تكن ليلى قد لمست شراب الليمون واللوز الملبّس بالسكر وأقراص عش البلبل بالفستق الحلبي، الحلوى المفضّلة لديها.

عاد إلياس إلى البيت في وقت متأخر من ذلك المساء. بدا مرهقاً وبائساً. «لقد أطلقوا النار على الشهبندر وقتلوه»، قال بهدوء وأخذ رشفة ماء. كانت هذه هي المرّة الأولى التي سمعت فيها كلير عن هذا الاسم. «أحد زعماء ثورة عام ١٩٢٥. قتله سوري يعمل لصالح الألمان لأن الشهبندر كان، على ما يقال، يريد أن يعقد صفقة مع البريطانيين. إنهم على وشك الدخول إلى دمشق».

«هل هذا خبر سيء بالنسبة لنا؟» سألته بقلق.

«الجزء السيء في الأمر هو أنه ما إن يسمع الناس رصاصة تطلق حتى يبدأ كل واحد منهم بذبح الآخر. فبعد اغتيال شهبندر سنسمع إطلاق نار في كل مكان. لقد وجّه ضابط فرنسي مدفعه إلى قرية قريبة من دمشق وأطلق قذائفه بوحشية ضد السكان باطفالهم وشيوخهم. يبدو أنّ أحد رفاقه قد قُتل هناك قبل سنة، وقد سقط فيها أكثر من عشرين قتيلاً ومائة جريح، وتحوّل جزء كامل من القرية إلى رماد»، قال إلياس. كان صوته خافتاً، ضعيفاً، ولم يتناول سوى القليل من الطعام في ذلك المساء.

كتاب النمو الأول

الطيران، حلم اليرقات في شرنقتها

*

دمشق، ١٩٤٠-١٩٥٣

٦٦- الطفولة

كان شارع حارة الزيتون حيث يقطن فريد قصيراً بالمقارنة مع شوارع الحارات الأخرى في المدينة القديمة. فقد كان عريضاً وينتهي قبل أن يبدأ، فلا يبدو مثيراً للاهتمام. كانت الحارة مفتوحة مثل صدفة خاوية لا تحتضن أي أسرار، إلا أن هذا الشارع آوى ثلاثة مراكز هامة لسائر المسيحيين الكاثوليكيين في الشرق: مقر البطريرك الكاثوليكي لسائر المشرق وأكبر كنيسة كاثوليكية في سوريا ومدرسة الكليّة البطريركية الكاثوليكية، وهي إحدى المدارس الثلاث الراقية في دمشق. وبالقرب من المقر والكنيسة توجد مدرسة ابتدائية صغيرة متواضعة للأطفال المسيحيين الفقراء، تحمل اسم القديس نقولا عن جدارة. وكما تقول الأسطورة، فقد أنقذ القديس نقولا عدداً من الأطفال من رجل شرّير كان سيذبحهم وينقعهم في الخلّ، وتنتصب عند مدخل المدرسة منحوتة عنه مع الأطفال الثلاثة في حوض التخليل. لكن بخلاف التلاميذ في المدرسة الراقية الواقعة إلى جانبها، يقوم جيش من المعلمين الساديين الذين لا ترجى فائدة منهم بتعليم الأطفال هنا، وكان الأطفال يتساءلون غالباً أليس من الأفضل أن يُخلّلوا على أن يُضربوا يومياً.

كان الشارع يتفرّع في نهايته إلى ثلاثة أزقة ضيّقة مسدودة، ينتهي أحدها

twitter @baghdad_library

عند بوابة المدرسة الكاثوليكية الكبيرة الراقية، ويفضي الشارعان الآخران إلى مداخل البيوت الخاصة. لم يكن فريد يعرف أناساً كثيرين في حارة الزيتون. فقد كان الصبية في البيوت المجاورة إما يكبرونه أو يصغرونه كثيراً. وبدت له أنطوانيت مثل واحة في هذه الصحراء القاحلة لفترة من الزمن، لكن سرعان ما تبين له أنها كانت مجرد سراب لأنها عندما أصبحت في الحادية عشرة من عمرها وهو في التاسعة، لم تعد ترغب في اللعب معه. حتى بعد سنوات عديدة، تذكّر وحدته في تلك الأيام الصيفية الطويلة عندما كان يجري صاعداً إلى موقف الحافلات في مدخل حارته ثم يعود راكضاً إلى الكنيسة مرات عديدة في الظلّ الخفيف الذي تتيحه واجهات البنايات بعد الظهر، كأنه حيوان أسير في قفص. كان كلّ شيء هادئاً، وكلّ شيء يبدو نائماً. في وقت لاحق، قالت له ابنة عمته ليلى إنها كانت تسمعه من بعيد في بيروت حيث تعيش وهو يناديها كلّ يوم عند فترة القيلولة.

لم يُسمح لفريد بمغادرة حارة الزيتون. فقد كانت تنتشر ألف إشاعة وإشاعة عن عصابات تجوب الشوارع وتخطف الأطفال المسيحيين وتبيعهم إلى شيوخ النفط الأغنياء الذين حرموا لسبب ما من الأطفال. لذلك، كان فريد سجيناً في الزقاق وسجيناً لقلق أمّه.

حادثة واحدة فقط علقت في ذاكرته منذ ذلك الوقت. فقد كان واقفاً في ظلّ بناية، وأراد ملاعبة كلب يغفو بجانب جدار قبالة البيت. سمع فجأة تنهيدة شهوانية منبعثة من امرأة في الطابق الأعلى. ولما كان الوقت وقت قيلولة، خيّل إليه في البدء أنها تصدر أنيناً في نومها، لكن سرعان ما تناهى له، وبوضوح شديد، صوت رجل يهمس بلذة، ثم أطلقت المرأة صيحة مرعبة. لم يدرك فريد حقيقة ما يجري وراء ستارة تلك النافذة فوق رأسه إلا بعد زمن طويل.

أعجب فريد بيوسف، الصبي النحيف الكئيب في مدرسته، مع أن الكثيرين كانوا يتحاشونه لقباحته، ولأنه كان طويل اللسان لا ينجو أحد من انتقاده، ولما لم يكن يعرف كيف يدافع عن نفسه، فقد كان يخسر في العراك

الناتج باستمرار. وفي أحد الأيام، رأى فريد صبيين آخرين يضربانه. فالتقط غصناً غليظاً وهاجم الصبيين فهربا وراحا يجأران. انتصب يوسف في جلسته وقال: «إنك لست سيئاً، يا ابن الحلواني. كنت أظن أنّك دمية صغيرة مصنوعة من السكّر، لكن لماذا خلصتني؟ كان بإمكاني أن أطرح هذين الطيزين أرضاً وحدي».

لا بد أنه صبي متبجّح! قال فريد لنفسه. لكن الصبي دعاه إلى بيته في عصر ذلك اليوم، وهو أمر شديد الخصوصية، لأن يوسف لم يكن يثق بأشخاص كثيرين. وللمرة الأولى في حياته، رأى فريد بيتاً له بابان مفتوحان على شارعين مختلفين. كان ذلك ملائماً ليوسف. همس، «إنه بيت مثالي لهروب عملاء سريين». كانت البناية ضخمة تقيم فيها أكثر من عشر عائلات تتقاسم الفناء الداخلي وكلّ تلك الضوضاء.

كانت غرفة يوسف في الطابق الأول، تفوح منها رائحة يانسون لطيفة. كانت النافذة تقع تماماً فوق سطح مخزن يانسون عريض مؤلف من الطابق الأرضي فقط. عندما أطلّ فريد من النافذة أدرك لأول مرة أنّ هذا السطح المستوي يتصل ببيته، ولم يكن عليه إلا أن يتسلق في بيته الدرابزين المحيط بالدرج المؤدي للطابق الأول ويهبط من هناك على سطح مخزن اليانسون ليذهب لزيارة صديقه مباشرة.

عندما تعجب فريد لهذا القرب بين البيتين لم يهتم يوسف بذلك حتى إنه لم يرفع بصره عن لعبة سيارة الإطفاء التي كان يتفحصها عندما قال: «أنا أعرف ذلك منذ فترة طويلة. لقد تسللت إلى بيتك مرّتين»، قالها وكأن ذلك شيئاً طبيعياً.

«الرائحة جيدة هنا»، قال فريد مرتبكاً لإخفاء دهشته. «الرائحة فظيعة. رائحة اليانسون طوال اليوم، كما لو كنت تعيش في برميل مليء بمشروب العرق»، قال يوسف متذمّراً.

«ومن يعيش في البيت هناك؟» سأل فريد مشيراً إلى مبنى صغير يقع وسط حديقة يبدو أنها تعود لمخزن اليانسون.

twitter @baghdad_library

«رجلان عجوزان، أخوان بخيلان يعيشان بعزلة»، أجاب يوسف، «يبكيان طوال الليل ويناديان زوجتيهما اللتين هجرتاهما. أحياناً أحزن عليهما عندما يكون الطقس بارداً وهما يقفان عند النافذة بجانب بعضهما مرتدين منامتيهما». دهش فريد لأن يوسف كان يعرف كل ذلك عن هذين الرجلين.

كانت غرفة يوسف كبيرة ومضيئة، فيها رفوف مليئة بلعب أجنبية. لا بد أنه الصبي الأثير لدى أبيه: فهو الابن الذي ولد بعد أربع بنات. في السنوات القليلة الأولى من حياته، كانت أمّه تخاف من حسد الجيران لها، فراحت تطيل شعر يوسف، لكي يظن الجميع، حتى الشيطان، أنه فتاة ولا يؤذيه. كان قد استحوذ على كلّ أفكارها ومشاعرها إلى حد أنها عندما أنجبت طفلاً آخر، فتاة أخرى هذه المرة، لم يخطر ببالها إسم آخر فما بقي لها إلا أن تسميها جوزفين.

عندما كان شاباً، كان ريمون، والد يوسف، ملاكماً مشهوراً ونقاش أحجار ماهراً، لكن زوجته عرضت عليه خيارين اثنين لا ثالث لهما: «إما أنا وإما حلبة الملاكمة». وبينما كان يفكّر في الأمر، قبّلته، فاتخذ قراره على الفور.

سُمح لريمون أن يعلّق على جدار غرفة المعيشة صورته كملاكم عاري الصدر يضع قفّازات الملاكمة. شابّ مغرور يرتسم على وجهه تعبير حزين، لطيف على نحو غريب، تليق بشاعر أكثر مما تليق برجل مفتول العضلات.

ذات يوم اقترح المطران الذي كان معجباً بمهارة ريمون بنحت الحجارة بأن يعمل مقاول بناء، وقال المطران إن بإمكانه أن يجلب له عدداً كبيراً من العقود لأن معظم متعهدي البناء من المسلمين. راقت الفكرة لريمون لما لديه من أفكار كثيرة عن تشييد بيوت جميلة ومتينة البنيان. وبرّ المطران بوعده، فانهالت أعمال كثيرة على ريمون، أبي يوسف كما يناديه جيرانه. وفي بداية الأربعينات، أصبح أحد أنجح مقاولي البناء في المدينة، وتزوّج مادلين عشي، ابنة مصدّر الجلود.

لم تعترض كلير على صداقة فريد لابن مادلين. لكن بعد تلك الزيارة

الأولى، لم يدعه يوسف إلى زيارته مرة أخرى إلا بعد سنتين، ثم اكتشف فريد أنّ صديقه أصبح شكوكاً عندما هنأه والداه بإفراط في ذلك المساء على الصديق الجديد الذي اتخذه.

«ظننت»، قال فيما بعد بنبرة تشي بالاعتذار، «إنك ولد مدلل - حسن التربية وما إلى ذلك - الذي يتسلل بلطفه ليصبح صديقاً ليشي بكل شيء ويشيع حكايات عني. كان أهلي يمتدحونك كثيراً، بعد زيارتك الأولى حتى ظننت أنك مرائي كبير وقد عرفت الآن أنك فتى طيب».

في زيارته الأولى، التقى فريد جميع أفراد عائلة يوسف الكبيرة الذين يعيشون معاً في البيت. كانت عمّتاه، عفيفة ولطيفة، ترتديان ثياباً تشبه ثياب الخادمات، وكان يبدو أنهما كرستا حياتيهما لرعاية أمّ يوسف وأولادها فقط.

قال له: «إنهما أختا أبي»، وأضاف، «كان لهما صديقان، شقيقان. لكن عفيفة ولطيفة ظلتا تطهوان لهذين الأخوين معكرونة، حتى هربا إلى أمريكا لشدة كرههما للمعكرونة».

كان يوسف يكره المعكرونة أيضاً. وقد نقل بغباء هذه الكذبة التي نشرها ابوه عن عفيفة ولطيفة، ولم يفهم يوسف حقيقة قصّة عمّتيه المأساوية إلا بعد عشر سنوات. فقد ورثتا مبلغاً كبيراً من المال، لكن والدهما اشترط في وصيته بأن عليهما أن تعيشا في كنف أخيهما الأكبر ريمون حتى تتزوّجا. وكان ريمون يطرد على الفور أي رجل يتقدم إلى إحدى الأختين حتى كبرتا في السن، ولم يعد أحد يرغب في الزواج منهما. وهكذا احتفظ ريمون بميراث شقيقتيه، وفي الوقت نفسه، أصبح في البيت خادمتان تعملان من دون أن تتقاضيا أجراً وتكدحان لأكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً في خدمة أفراد أسرته.

جلست امرأتان أخريان أيضاً في غرفة الجلوس، طاعنتان في السن، تحبكان بصمت شيئاً بالصنارة. لم ير ذلك خلال زيارته تلك فقط، بل في الزيارات التالية أيضاً، وشعر فريد وكأنه يدخل إلى دير للراهبات.

«من هما هاتان المرأتان؟» سأله.

twitter @baghdad_library

«إنهما جدّتاي وهما لا تسمعان وتكره إحداهما الأخرى». ابتسم يوسف ابتسامة عريضة خبيثة، ثم، أضاف، بعد أن ألقى التحية على السيدتين الهرمتين بتهذيب، «وظلتا تطهيان المعكرونة حتى مات زوجاهما اختناقاً».

«كيف صادف أن لديك جدّتين؟» سأله فريد. سخر يوسف منه لسنوات لهذا السؤال.

٦٧- الجدّان

بعد ذلك بدأ فريد يبتسم لخطئه، لكنه عندما اكتشف ذلك صُعق. فحتى ذلك الحين، كان يعتقد أن لديه جدّاً وجدّة أنجبا أمه وأباه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان بطريقة ما، مثل الأرانب والقطط التي تتزاوج معاً حتى لو كانت أشقاء. لم تكن السذاجة الطفولية هي السبب الرئيسي في أنه لم يكن يعرف إلا جدّه نجيب وجدّته لوسيا. فلم ير أو يسمع عن أي جدّين آخرين، حتى أمّه لم تكن تذكر ذلك الجانب من أسرته.

كلما جاءت ليلى من بيروت لزيارتهم، أمضيا وقتاً رائعاً معاً. كان فريد يشعر وهو إلى جانبها كأنه في الجنة. كان يتحدّث مع ليلى عن كلّ شيء، إلا عن أقاربهما. هؤلاء الأقارب «العقارب» كما كانت ليلى تسميهم كانوا منفيين من جنة ليلى وفريد وخارج سورها المنيع.

عندما شرح له صديقه يوسف عن الأجداد، وسأل فريد أمه عند عودته: «أين ضاع الزوج الثاني من أجدادي؟»اضطرت كلير أن تخبر ابنها أن جدته لأبيه زرقا كانت امرأة رائعة وقد ماتت وهي لا تزال شابة. «أما جدّك جورج مشتاق فهو رجل فظ القلب يكره والدك. ولم يكلمه منذ عشر سنوات لأن إبنه إلياس لم يطعه ويتزوج ابنة أحد أصدقائه، بل تزوّجني أنا، فلعن جدك والدك وحرمه من الميراث. والآن يبذل مطران دمشق بذاته، الذي كان في المدرسة زميل إلياس، وهو اليوم صديق جدّك، ما بوسعه حتى يعود الرجل العجوز ويصالح ابنه ويباركه»، واختتمت كلير كلامها بالقول: «لذلك، أرجو أن تتمكن من أن تراه قريباً». كان ذلك في شهر نيسان من عام ١٩٤٧ .

كان من المزمع أن يعقد الاجتماع بين الأب والابن يوم الأحد ١٥ حزيران. ودعا المطران جميع أفراد عائلة مشتاق إلى الصلاة في الكنيسة في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، ثم يتناول الجميع الطعام معاً في بيت إلياس الكائن قبالة الكنيسة، وتعقد المصالحة.

توفي جورج مشتاق في يوم الجمعة ١٣ حزيران، فراح ابنه يلعنه طوال اليوم، وعندما قال له أحدهم أن أبيه لبى نداء ربه صرخ إلياس في وجهه: «كان هذا نداء الشيطان الذي أخذ روحه» وظل يكرر طيلة أيام، «لم يحقد عليّ في حياته فقط، إنما في مماته أيضاً». وارتسمت المرارة على وجهه طوال أسابيع عديدة.

أصرّ فريد على الذهاب إلى معلا لحضور الجنازة مع والديه. كان يريد أن يرى جدّه الآخر ولو مرة واحدة في حياته. لكن كلّ ما رآه كان تابوتاً مغلقاً، وكانت تفوح رائحة لوز مرّ قوية من جانب التابوت كادت تدفعه للتقيؤ.

أصبح لديه الآن حقاً جدّ واحد فقط هو نجيب سُرور.

٦٨- الحبّ

يشبه بعض الأطفال آباءهم أو أمهاتهم، في حين يكون بعضهم الآخر مزيجاً محظوظاً أو أقل حظاً من كلا الأبوين. أما فريد فلم يكن يشبه أمّه ولا والده، إنما كان يشبه جدّه، وكأنه تحدر منه مباشرة دون تدخّل من أبويه. فمن قمة شعره حتى أخمص قدميه، كان نسخة طبق الأصل عن نجيب سُرور العجوز مما أثار قلق الكثير من أقاربهما في بداية الأمر.

ورثت كلير قسماتها من أمّها إلى حد كبير: عيناها الخضراوان الواسعتان وشعرها الأسود الناعم ووجهها العريض بعض الشيء الجميل وأنفها الصغير وبشرتها الناصعة البياض كالثلج. أمّها التي كما أسلفنا تتحدّر من أسرة فينيسية، حتى قيل إن دماً نمساوياً أرستقراطياً يجري في عروقها.

أما نجيب فكان شاميَّ المولد والنشأة. كان أجداده تجار منسوجات

twitter @baghdad_library

قدموا من اليمن في القرن الثاني عشر واستقرّوا في دمشق. كان لجميع أحفادهم تلك العيون الغامقة الكبيرة، والقسمات المنحوتة برهافة، والبشرة الداكنة التي يمتاز بها اليمنيون.

كان نجيب رجلاً ضامراً، فارع الطول، داكن البشرة. تشي هيئته العامة بالفحولة، مع أن عينيه الجذّابتين تشيان بالأنوثة عن قرب، لأن حاجبيه يرتسمان بشكل طبيعي مثل خطين مرهفين فوقهما. واعتاد الناس على تشبيه نجيب ببعض الممثلين المصريين، لكن ذلك لم يرق له لأنه يفضّل الرياضة على الفن. وفي شبابه، كان ملاكما متحمساً، رجلاً محترماً لبقاً يحترم القانون وخصمه، ولم يكن لمثل هذا الرياضي أن ينتصر آنذاك، فقد كان منافسوه فظين أنصاف مجرمين وأصحاب سوابق، وكان يخسر جميع المباريات معهم، فتخلى عن رياضة الملاكمة لكنّه ظل شغوفاً بها وحتى عندما بلغ سن الشيخوخة ظل عضواً في نادي ملاكمة، وظل يذهب لمشاهدة جميع المباريات التي تقام.

كانت شدة حماسته للملاكمة تؤدي إلى مشاحنات دائمة مع زوجته التي تكره كلّ أنواع الرياضة وتفضّل ارتياد حفلات الاستقبال الفخمة. وكانت تتفق مع صهرها إلياس في ذلك، وكذلك في مسألة تورط نجيب في قضية المصرف في عام ١٩٣٥. لم يفهم فريد سبب مكوث جدّه في السجن لمدة ثلاث سنوات ولم يكن نجيب يريد التحدّث عن هذا الأمر.

كانت كلير تحبّ والدها وتقدّر طبيعته اللطيفة وكرمه، وعلى نحو ما مرونته وانصياعه، وهي الصفات التي تفتقدها أمّها. فقد كانت لوسيا صارمة وقاسية على الدوام مع نفسها ومع الآخرين. وكان زوجها يقول مازحاً «من العجب أنها لا تزال متصالحة مع نفسها».

اعتاد على زيارة كلير لاحتساء القهوة يومياً بعد أن أصبح لديه مزيد من الوقت منذ أن طرد من المصرف، ولم تكن زوجته تحب مكوثه في البيت. بعد احتساء القهوة، كان نجيب يجلس ساعات طويلة بجانب مهد حفيده، يحدّق فيه ببالغ السعادة.

«لقد منحني أفضل نصر يمكنني أن أحصل عليه»، قال لكلير، «النصر على الموت. سأظل أعيش فيه، والموت نفسه سيشعر بأنه أصيب بجرح عميق».

عندما بدأ فريد يمشي، كان جدّه يمسكه بيده ويريه العالم. يمشي بتؤدة في شوارع دمشق، يحكي للصبي الصغير عن بنايات المدينة ومحلاتها وكنائسها ومساجدها. حدّثه عن المشروبات وعن التوابل وعن الحلويات وعن المكسرات ويترك حفيده يلمس كلّ شيء ويتذوق معظمها.

ظل يزور أصدقاءه ويحتسي القهوة معهم وكان حفيده يجلس على ركبته، ينظر إلى العالم حوله مندهشاً. كان أصدقاؤه يبتسمون لهذا المشهد: نسختان من الشخص نفسه، لم يقسمهما إلا الزمن.

٦٩- الضربة القاضية

طوال حياته، عندما كان فريد يتذكّر دمشق، كان يربط المدينة بيد جدّه الدافئة وصوته العميق. بعد سنوات عديدة، تذكّر أول مرة ذهبا فيها لمشاهدة مباراة ملاكمة معاً. كان الفصل ربيعاً، وقد بدأ فريد يذهب إلى المدرسة. كدأبه في عصر كلّ يوم، جاء جدّه وركض فريد للقائه.

«هل تريد أن تذهب معي إلى المدينة؟» سأله نجيب. وطبيعي أن تغمر البهجة الصبي.

«لكن لا تتأخّرا. سيعود إلياس إلى البيت حوالي الساعة السابعة»، قالت لهما كلير.

أمسك الجدّ نجيب يد فريد وراحا يتجوّلان في الأسواق والمقاهي. ثمّ سأله فجأة «هل تريد أن تشاهد مباراة ملاكمة؟»

تحمّس فريد لهذه الفكرة فصاح بحماسة: «أوه نعم».

في ذلك اليوم أقيمت أربع مباريات. خصصت المباريات الثلاث الأولى منها لتسلية الجمهور ولتأخير المباراة الرئيسية بين البطلين السوري والمصري حتى امتلأت المقاعد كلها. حكى الجدّ نجيب لفريد كل شيء عن

twitter @baghdad_library

مبادئ الملاكمة، حتى أسوأ الخدع وأقذرها. لم يتعلم قط هذا القدر عن أي رياضة في حياته كما تعلّمه في يوم واحد. عندما انتهت المباراة الرئيسية، كان قد حلّ الظلام في الخارج. «من الأفضل لنا أن نعود بسرعة إلى البيت»، قال الجدّ، واستقلا عربة أجرة. كان نادي الملاكمة يقع في البلدة الجديدة. وظل سائق العربة السكران يغفو أثناء الرحلة. كان الحصانان يتوقفان عندما يشعران بذلك، فيهزّ نجيب الرجل حتى يفيق.

نشب شجار في البيت بين إلياس ونجيب، وأُرسل فريد إلى السرير وحرم من تناول العشاء. وأُسكتت كلير التي حاولت تهدئة حدة غضب زوجها. ظلّ الجدّ يعتذر، وأقرّ بأنه مخطئ ولا علاقة لفريد بذلك، لكن إلياس ظل غاضباً، وراح يصرخ في وجه الرجل العجوز، ومنعه من أن يأخذ ابنه إلى أي مكان مرة أخرى. هذا الطلب أسكت نجيب الذي انتابه اكتئاب شديد، وبكى فريد في غرفة نومه لأن إلياس لم يتوقف عن الصراخ على نحو مخيف. هرع جاران وحاولا التدخّل لكن بلا جدوى.

بعد ذلك اليوم، ظل الجدّ يأتي لزيارتهم، لكنّه لم يعد يرافق حفيده في مشاوير طويلة. كان يأخذه إلى محل البوظة القريب، لكن لمدة لا تتجاوز نصف ساعة. قبل وصولهما إلى البيت بقليل، كانا يفترقان بدافع الحذر. يمشي فريد بسرعة، ويمشي الجدّ ببطء ليدعي أنه أتى صدفة لرؤية ابنته. لم يشك إلياس بشيء وكانت كلير تتستر عليهما باستمرار، وتكذب عندما يتطلب الأمر حماية ابنها من غضب أبيه.

في الليلة التي أعقبت تلك المشاجرة، حلم فريد بأن والده يوجه لكمة إلى جدّه، لكمة على الذقن، فيترنح نجيب ويتمدّد على الأرض مغمياً عليه. ورأى أن الجدة لِوسيا هي الحكم، وقد رفعت ذراع نسيبها إلى الأعلى وصاحت «ضربة قاضية». استيقظ فريد مذعوراً. كانت الغرفة مظلمة وشعر بالجوع. عندما أشعل الضوء، وجد تفاحة كبيرة وكأس ماء على المنضدة بجانب سريره فهمس: «كلير».

٧٠- إغواء

في أحد أيام الصيف، خرج فريد مع أمّه عندما بلغ الثامنة من العمر. ارادت شراء بعض الحاجيات من سوق الحميدية ثم زيارة إحدى صديقاتها في حي القيمرية، وهو حيّ يقع في قلب المدينة القديمة بالقرب من الجامع الأموي، أغلب سكانه من المسلمين، بعكس صديقة كلير المسيحية. لذا فضلت أن تقيم في حيّ آخر، لكن زوجها اشترى شقّة بسعر رخيص بواسطة رئيسه في العمل، الأمر الذي جعلها تتحمّل كراهيتها لهذه المنطقة.

كان منزل المرأة يخلو من الأطفال فأحسّ فريد بالملل. سأل أمّه هل تسمح له بالخروج واللعب في الشارع حتى تنهي زيارتها واحتساء قهوتها. وافقت المرأتان وخرج فريد. لم يلق أحد في الشارع. فجأة رأى فتاة صغيرة جميلة تقف عند مدخل أحد البيوت. لوّحت له وسألته هل يريد أن يلعب معها. تردّد فريد للحظة، ثم أومأ موافقاً.

من الخارج، بدا البيت متواضعاً مثل جميع البيوت العربية القديمة، مشيّداً من آجر الطين وبناؤه أوطأ من مباني الحيّ الأخرى المؤلفة من طابقين، لكن الباحة الداخلية تعتبر تحفة فنية تدل على رغبة الدمشقيين تذوق الحياة. ممر ضيّق يُدخل إليه من باب البيت، ومع كلّ خطوة تتلاشى ضوضاء الشارع ويختفي غبارها، أشجار الليمون والبرتقال تحمي الباحة من الشمس اللاهبة. وبالإضافة إلى العبير الذي يفوح من براعمها، فإنها تلقي سحراً من الضوء والظل على البلاط الملوّن يتبدل مع كلّ نسمة. وتتوسط الباحة بحرة رخامية صغيرة، توفّر قليلاً من الرطوبة، وتصدر صوتاً يطرب العرب عند سماعه: خرير الماء. كل نافذة تحفة فنية من الخشب والمعدن والزجاج المعشّق لا تشبه نافذة أخرى.

وقف فريد مأخوذاً بجمال الباحة. فجأة فتحت الفتاة الصغيرة صنبور البحرة وقهقهت عندما انطلق دفق من الماء نحو السماء. بلّلها. التصق ثوبها الرقيق بجسمها العاري تحت الثوب. أغلقت الصنبور ثانية وأخذته من يده

twitter @baghdad_library

وقادته عبر الأروقة إلى الجزء الخلفي من الباحة، حيث مدد على الأرض بساط ملوّن.

«هنا!» قالت، وهي تستلقي. لم يعرف فريد ماذا يمكن أن تكون هذه اللعبة.

«استلقِ بجانبي لنلعب لعبة العروس والعريس»، قالت متوسلة. ارتبك من صراحتها وسألها «أليس والداك في البيت؟» وجلس عند الطرف الآخر من البساط.

«لا»، قالت وحكّت ساقها بذراعه. «ألا تريد أن تقبّلني؟» أضافت وأغمضت عينيها وضحكت. كان ثمة خبل في ضحكتها أخاف فريد.

«لا»، قال باستحياء، ونهض واقفاً. «ألا يوجد لديك كرة؟ أو دحل أو ورق لعب؟»

في تلك اللحظة قفز فوقهما صبيان قويان ترتسم على وجهيهما ابتسامة عريضة خبيثة. صرخت الفتاة مذعورة وصاحت فيهما «هيا اخرجا أيها الشيطانان!» لكن قبل أن يدرك فريد حقيقة ما يجري، أمسكه الفتى البدين من ذراعه.

«لقد قبضت عليك متلبساً! هيا دعنا نرى عضوك! إن كنت مسلماً فيجب أن تتزوّج هذا الطفلة المجنونة، وإن كنت مسيحياً فإننا سنختنك أولاً».

صاحت الفتاة طالبة النجدة، لكن الصبي الثاني استلّ مدية من جيبه وهدّد بقتل فريد إن لم تصمت. زحفت الفتاة إلى زاوية ونظرت إليه، فاغرة الفم، عيناها مفتوحتان على وسعيهما وبجنون.

لم يعتره الخوف إلا بعد أن استلّ الصبي مديته، رؤية النصل الحادّ شلّته، ولم يعد قادراً على الإفلات منه. دنا منه الفتى الأصغر الذي كانت إحدى عينيه نصف مخاطة وضغط رأس مديته على سرة فريد وسأله، مغلّفاً إياه بهبات من رائحة بخره الكريهة، «هل أنت مسيحي؟»

«نعم»، قال فريد، وقد جفّت حنجرته وراح يرتعش.

«أنزل بناطلك»، صاح الصبي البدين، وراح يضحك كمهووس. ثبّت

رأس فريد بقوة بين ساقيه، وما هي إلا بضع ثوان حتى كان بنطاله على الأرض.

«الآن سروالك الداخلي»، صاح. فجأة هجمت الفتاة على الفتى الأصغر. ضربها، لكنّها عاركته بقوة حتى تمكن فريد من الإفلات من بين يديه. ظلت كلماتها تتردد في أذنيه بعد سنوات، «أخصِ أصدقاءك أنت، لكن ليس صديقي الوحيد».

بعد قليل تمكن الصبي الأصغر من إنزال سروال فريد الداخلي أيضاً. بدّد الشعور بالمهانة آخر شلل أصاب فريد. فحرّر ذراعه اليمنى ولكم الفتى البدين في خصيتيه بكلّ ما أوتي من قوّة. صاح الفتى عالياً مثل عجل يُساق للذبح وصار يتلوى ألماً. ثمّ جرى فريد نحو الفتى الأصغر الذي كان يصفع الفتاة الجميلة الغاضبة وأمسك كرسياً وهوى به على ظهر الفتى فسقط على الأرض.

بغتة دخل رجل الباحة وحدّق بعينين واسعتين في الصبيين المتشاجرين المنهكين. «ماذا يجري هنا بحق الشيطان؟» صاح مذعوراً وألقى بنفسه فوق الفتى البدين والفتى الأصغر. طارا في الهواء. سقط الفتى الأخف وزناً بجانب البحرة، وسقط الفتى الأخر بقوة إلى جانب البساط.

«كانا سيختنانني»، قال فريد، بكى وغطى عضوه بكلتا يديه.

«بحق الله! هذه آخر مرة أحذركما أيها الكلبان»، صاح الرجل. وجرى إلى المطبخ وعاد حاملاً خيزرانة طويلة. راح الفتى البدين يبكي، لكن الرجل أخذ يهوي عليهما بخيزرانته غير عابئ أين تقع الضربات. «كم مرة قلت لكما ألاّ تلمسا تلك السكين، كم مرة؟» صاح غاضباً.

ارتدى فريد ثيابه وكان على وشك أن ينسلّ خارجاً. توقّف الرجل للحظة ونظر إليه مبتسماً وقال له: «أرجو أن لا تخبر والديك بما حدث. إنهما مجرد صبيين غبيين وفتاة بلهاء».

ضحكت الفتاة ورفعت ثوبها فوق رأسها، كاشفة عن ردفيها. كانت ترتعش من الضحك.

twitter @baghdad_library

وعد فريد بأن لا يخبر والديه. في البداية لم يقبل أن يأخذ خمسة القروش التي مُدَّت له، لكن الرجل حثّه بنبرة ودّية ليأخذها. وضعها أخيراً في جيبه وجرى خارجاً. اشترى لنفسه علبة علكة وعاد إلى أمّه التي كانت تودّع صديقتها.

«حسناً، هل استمتعت بوقتك؟» سألته.

«يا لطيف، وأي متعة!» تمتم. كان أسفل بطنه يؤلمه.

في الطريق إلى البيت، توقّفت كلير فجأة عند دكان حلاق يتحلّق فيه بعض الرجال حول المذياع. كان الحلاق قد رفع صوت المذياع. «حرب». سمع فريد. لم يفهم.

«هيا يجب أن نعود إلى البيت بسرعة»، قالت كلير، وقد تجهّم وجهها.

بعد بضعة أيام رأى أول طلائع اللاجئين يصلون إلى دمشق. قال أحدهم إنهم فلسطينيون وأن اليهود طردوهم من ديارهم. قالوا إنّهم سيعودون إلى بيوتهم بعد أيام قليلة. لكن إلياس هزّ رأسه.

٧١- واحة تدعى أنطوانيت

كانت أنطوانيت فرح فتاة داكنة البشرة تتضوع منها رائحة لوز. ومنذ أول وعيه كطفل صغير بدأ فريد يلعب معها. لم يكن بيتها بعيداً عن بيته في الزقاق المسدود المفضي إلى بيت يوسف.

أحبّت أمّ أنطوانيت فريد كثيراً. كانت تقبّله، أكثر مما تقبّل ابنها. لكن زوجها لم يرغب في أن يرى فريد يلعب مع ابنته، بل يريد أن يلعب مع ابنه البليد جميل الذي يكبر أخته بسنتين والذي كان يهتم بسندويتشات المربّى أكثر من اهتمامه باللعب. وسرعان ما وجد فريد وأنطوانيت وسيلة للتخلّص منه. فقد كانا يدلاّنه على بيت الجيران الذين يطهون طعاماً شهياً في ذلك اليوم، فينطلق بسرعة شديدة ليقف عند باب هؤلاء الجيران ونظرة توسل تملأ عينيه. أحبّ الجميع والديه السخيين وكانوا يعلفون جميل النهم كرمى لهما.

مثل فريد كانت أنطوانيت ترى أن الحيّ الذي يقطنون فيه حيّ مملّ

للغاية. لم تعرف أيّ فتاة أخرى من عمرها في الحيّ. مضت فترة طويلة حتى صادقت جوزفين، أخت يوسف، التي لم تكن تتحمّل شقيقها أيضاً.

كان فريد يزورها كلما أمكنه ذلك. فما أن يحصل جميل على سندويشة في يده، أو يتعقب وجبة طعام شهية، حتى يختفيان في غرفة الأطفال. كانت أكثر الألعاب التي يحبّ فريد أن يلعبها مع أنطوانيت هي أن يستلقي فوقها خاصة على ظهرها فيسري شعور لطيف بين ساقيه. لكنها لم تحبّ ذلك. أخبره جميل ذات يوم أن أنطوانيت تحبّ الشوكولاته وأنها يمكن أن تفعل أيّ شيء لقاء الحصول عليها. في زيارته التالية لها، أحضر فريد لوح شوكولاتة وأراه لها. بطبيعة الحال أرادت أن تأخذه منه على الفور، لكنه ردد متلعثماً ما قاله له جميل: «يمكنك أن تأخذيه إذا تركتني أفعل بك ما أريد».

رمقت أنطوانيت بغضب شقيقها الذي راح يمضغ شيئاً من الطعام، لكنها وافقت واستلقت على السجادة تستمتع بتناول لوح الشوكولاته بينما أخذ فريد يهتزّ فوق ظهرها إلى الأمام والوراء.

كانت عينا جميل مثبتتين على لوح الشوكولاته، متجاهلاً فريد تماماً. عندما انتهت أنطوانيت من تناوله ولعقت أصابعها بتلذذ، أبعدت فريد عنها وقالت: «هذا يكفي لليوم. أحضر لي لوحاً آخر حتى أدعك تصعد فوق ظهري مرة أخرى» وسوّت ثيابها.

«لكن ذلك لم يدم طويلاً»، قال محتجّاً.

«التهمت انطوانيت اللوح في خمس دقائق. يمكنك أن تركبني لمدة ساعة كاملة لقاء كلّ لوح شوكولاتة تعطيني إياه» قال جميل. ابتعد فريد مشمئزاً عنه.

«قد لا يبدو وقتاً طويلاً بالنسبة لك وأنت فوقي، لكنه يبدو دهراً بالنسبة لي وأنا تحتك. هل تريد أن تجرّب؟» سألته أنطوانيت في يوم آخر.

تمدد فوق السجادة وصعدت أنطوانيت فوقه. في البداية خيّل إليه أن الأمر مسلّ، لكن ثقلها وهي تهتزّ فوقه جعله يشعر بعدم الارتياح، فبدت الدقائق دهراً.

twitter @baghdad_library

ذات ليلة صيف، زارت عائلة مشتاق أسرة فرح، وبعد وجبة طعام لذيذة بدأ الكبار يلعبون الورق. سأل فريد متوسلاً هل بإمكانه قضاء الليلة مع أولاد أسرة فرح، وافق الأهل، وذهبوا ثلاثتهم إلى غرفة الأطفال الكائنة بجانب غرفة نوم والديهما في الطابق الأول، وراحوا يلعبون بعض الألعاب وينظرون من النافذة بين الحين والآخر إلى الكبار وهم يستمتعون بنسيم الليل العليل في باحة المنزل.

سرعان ما غطّ جميل في النوم، وأطلعت أنطوانيت فريد على اكتشافها الأخير. فقد زحفت تحت البطانية التي تغطيها معه ورفعت ساقيها لتصنع خيمة. في البقعة التي يكون فيها الصوف سميكاً، يصبح سقف الخيمة مظلماً، وفي الأماكن الأخرى، كانت ضوء المصباح المضيء في الغرفة يتسلل إلى داخلها.

«انظر إلى السماء وإلى تلك الغيوم»، قالت في الضوء الخافت، ثم أشارت إلى ثقب صغير في البطانية تسلل منه الضوء، وقالت: «وهذا نجمي. إنه يزورني كلّ يوم قبل أن أنام».

لم يعرف فريد كم دام لعبهما تحت البطانية. في لحظة غط في النوم وكان والداه قد عادا إلى البيت منذ فترة طويلة عندما استيقظ فجأة، تناهت إليه أصوات تنهدات وضحكات. عندما انتصب جالساً في السرير رأى أنطوانيت مستيقظة أيضاً. رأى وجهها في الضوء المتسلل إلى الغرفة من المصباح في الباحة الداخلية. وضعت سبابتها على شفتيها بأن يصمت.

«ماذا يجري؟ أين أنا؟» سألها هامساً.

«في بيتنا. ربما...»، قالت، وتردّدت عندما انطلقت تأوهة عالية من الغرفة المجاورة. كانت أمّها تطلب المزيد بنبرة توسل وكان والدها يصيح لاهثاً «نعم، نعم»، مراراً وتكراراً.

«إنهما يمارسان الحب»، قالت أنطوانيت بابتسامة، «إنهما يفعلان ذلك كلّ ليلة تقريباً».

«هل أبوك يؤلم أمّك؟»

«لا، لا، إنه يداعبها، وهي تريد المزيد».

طمأن صوت ضحكة المرأة فريد. أسندت أنطوانيت رأسها إلى صدره ومسّدت يده. أخيراً زحفت نحوه وقبّلته على شفتيه. كان لفمها طعم نعناع، ربما لأنها دأبت على تنظيف أسنانها بمعجون الأسنان مساء كل يوم. كان ذلك لطيفاً وقبّل فريد خدّها. كان وجهها حاراً وقبّلته على شفتيه مرة أخرى وأمسكت يده بيدها بقوّة كما لو كانت تصلّي. ضمّها إلى صدره وأحسّ بالعرق ينضح منها. لأول مرة شمّ رائحة عرقها. في تلك الليلة تضوّعت منها رائحة لوز وقهوة.

فتحت صدرها. «إذا قبّلتني هنا فإنهما سيكبران» قالت في العتمة. رفعت نفسها قليلاً وألقمت حلمتها الصغيرة في فم فريد. امتصّها. ضحكت لأنها أحست بدغدغة. «ليس بقوة هكذا، وإلا فإنهما سيكبران كثيراً»، همست وألقمته حلمتها الأخرى.

٧٢- الحمّام

في ما بعد، أصبحت كلمة «جنة» تستدعي إلى ذاكرة فريد فترة طفولته، عندما كان لا يزال يستطيع مرافقة أمّه إلى الحمّام. اعتادا على ارتياد حمّام البكري، القريب من باب توما، يوم الأربعاء وهو اليوم المخصص للنساء. ودأبت أنطوانيت وأمّها على زيارة الحمّام.

كان الحمّام عالماً في حد ذاته. بعد سنوات عديدة، عندما رأى فريد لوحات الرسامين الرومانسيين الفرنسيين الذين مجّدوا النساء في الحمّام أو الحريم في الشرق، قال لنفسه إن لوحاتهم لا تساوي شيئاً بالمقارنة مع ما يتذكّره.

كانت جانيت وأنطوانيت أجمل فتاتين في الحمّام، مع أن إحداهما تختلف اختلافاً تاماً عن الأخرى. فقد كانت جانيت بيضاء البشرة ذات عينين خضراوين. في حين كانت بشرة أنطوانيت سمراء، تميل إلى السواد. وقد بدأت كلتاهما تنضجان في وقت مبكر بعض الشيء، وعلى الرغم من أنهما

twitter @baghdad_library

لم تتجاوزا العاشرة من عمرهما، نبت لهما نهدان صغيران وتكونت لديهما مؤخرة صغيرة مكورة.

أحبّت جانيت اللعب في الحمّام مع صبي أشقر من حارة حنانيا، بينما أبدت أنطوانيت اهتماماً بفريد فقط، وهي من شرح له الفرق بين الرجل والمرأة في إحدى المقصورات الفارغة. فقد باعدت بين ساقيها، وأرته شيئها، فظنّ فريد أنه جرح.

«هل قطعوا حمامتك الصغيرة؟» سألها. اعتاد الأطفال في دمشق على أن يطلقوا اسم «حمامة» على عضو الفتى لأنه يرقد فوق بيضتين.

أطلقت أنطوانيت ضحكة مجلجلة وقالت: «لا يا غبي. فالمرأة تخبئ حمامتها الصغيرة وبيضتيها في عشّ في داخلها».

لم يفهم، ضحكت ثانية، لكنها وعدته بأن تشرح له كلّ شيء عن ذلك في ما بعد، لكنها لم تفعل ذلك قط، لأنه فُصل عن حلمه بالجنة بعد ذلك مباشرة. وبين ليلة وضحاها، لم يعد يسمح له بالدخول إلى الحمّام مع النساء. بعد سنوات، أخبرته كلير كيف أن النساء يُلمِّحن برقة للأمّ بأن الوقت قد حان لكي تتوقف عن إحضار ابنها معها إلى الحمّام. فقد بلغ وعياً ذكورياً خطيراً. والمدهش في الأمر أن النساء لا ينتظرن حتى تبدو على الفتى أول مظاهر الهياج الجنسي بل قبل ذلك بكثير... عندما يصاب نظره بنوع من الذهول الشهواني ويصبح خالياً من لا مبالاة الطفولة. كان فريد آنذاك في التاسعة من عمره وأصبح يحظر عليه المجيء إلى الحمّام. بكى في الباحة طوال ساعة كاملة.

«سيحتاج ابنك إلى عروس قريباً» هذه هي العبارة المبطنة. وإذا لم تفهم الأمّ ذلك، فإن النساء يقلن لها بعبارة أوضح «في المرة القادمة، من الأفضل أن تحضري والده أيضاً».

فهمت كلير التلميح وقالت لفريد يوم الأربعاء التالي، وكأنه شعر بالكارثة القادمة يومها حزم سلفاً أغراضه للحمام ووقف ينتظر أمه: «يمكنك أن تذهب مع أبيك من الآن فصاعداً» وذهبت وحدها مع أغراضها. بكى بمرارة وفهم ألم آدم عند طرده من الجنة.

هكذا راح يتبع والده إلى الحمّام يوم سبت بعد سبت. اعتاد إلياس على الذهاب وحده، وإذا التقى بأيّ صديق فكان ذلك يتم بالصدفة. لم يكترث إلياس بالموجودين لأنه يعتبر الأحاديث التي تدور بين الرجال مملّة تدور كلها عن العمل والحرب وعن الحكومة والطقس وكيف أن النساء مبذرات وغير مخلصات.

كان يعمل في الحمّام مدّلك شنيع لم تتوقف عيناه عن تعقبه كلما أتى إلى الحمّام أيام السبت. يدلك ويفرك أجسام الرجال لقاء بضعة قروش. تحدّث إلى إلياس طويلاً حتى أقنعه بأن يدفع ثمن التدليك هذه المرة مع ابنه. لا يستلقي الزبون هناك عارياً إنما توجد دائماً منشفة حوله، ويضع المدلك مئزراً رقيقاً أيضاً حول وسطه، وعلى صدره العاري القليل الشعر وشم.

لم يحبّ فريد الرجل الجسيم ولم يرغب في أن يدخل المقصورة معه وقال إنه يفضّل البقاء في الصالة العامة الكبيرة. دمدم المدلك لكنه وافق. أخذ يدلك ظهر فريد لفترة. فجأة استلقى فوق الصبي بقضيبه المتصلب وراح يدلكه بقفاز من الليف الأبيض السميك.

حاول فريد أن ينهض، لكن الرجل دفعه بقوة إلى الأرضية الحجرية المبللة. غفا إلياس فوق مقعد فوق موقد الحمّام في الجانب الآخر من القاعة. غبّش كلّ شيء أمام عيني فريد وفجأة بدا محيطه باهتاً وضبابياً. بدا له أن والده بعيد عنه. ثمّ أحسّ بالرجل يزيل المنشفة التي تغطّي وسطه. «لا» صاح ودفع الجزء العلوي من جسمه إلى الأعلى. لم يفصل قضيب الرجل المنتعظ عن الفتحة التي يستهدفها سوى مئزر الرجل.

فتح إلياس عينيه قليلاً. «ماذا؟» تمتم، وغفا ثانية. لكن رجلاً آخر لاحظ المحنة التي يعاني منها فريد، وخرج من الضباب.

«ماذا تفعل للصبي؟» سأله بهدوء. لم يكن متيقناً مما يفعله، لأنه لم يستطع أن يرى بوضوح من كثافة البخار.

ابتسم المدلك المحرج وقال: «إنه لا يريد أن أدلكه بالليفة الخشنة. إن بشرة الصبي تشبه بشرة البنات، لكنّه سيتعوّد عليها قريباً».

twitter @baghdad_library

«لا! لن أتعود»، قال فريد محتجّاً.

تبين الرجل الآن ما يجري. «وما هذا إذاً؟» سأله، بصوت خفيض، وأمسك قضيبه المنتصب من خلال المنشفة. أجفل المدلك وتراجع، عندها وثب فريد.

ظل والده غافياً.

لم يسمح فريد لنفسه أن يُفرض عليه شيء كهذا مرة أخرى. ولم يعد يرغب في أن يدلكه أو يحممه أحد، وبعد فترة قليلة، لم يعد يذهب إلى الحمّام.

بعد طرده من تلك الجنة النسائية، لم تعد أنطوانيت تريد اللعب معه. فقد قالت له: «لقد أصبحت رجلاً الآن» وأضافت «وليس من الجيد أن تلعب فتاة مع رجل». منذ ذلك الحين، أصبحت تحدّثه بحدّة، كما تفعل أخت يوسف. بدون أنطوانيت، أصبحت طفولة فريد مملّة ولم يبق منها في ذاكرته سوى غمامة بيضاء تشبه القطن الطبي الأبيض، حتى ذلك اليوم الذي سمح فيه له يوسف بالانضمام إلى العصابة.

٧٣- العصابة

تعيّن عليه أن يذهب إلى الغرفة العلوية في منتصف الليل. ظل فريد مستيقظاً في سريره طوال تلك الليلة الربيعية الدافئة. راح قلبه يخفق بقوة من شدة الحماسة مثل أرنب مرعوب. عندما دقت الساعة الثانية عشرة قفز من السرير وانسلّ من غرفته حافي القدمين. سمع سعالاً قصيراً فتسمّر بجانب البحرة. ثمّ توجّه نحو الدرج بين الحمّام وغرفة المعيشة. عند صحن درج الطابق الأول، هبّت على وجهه نسمة باردة لطيفة، تعبق منها رائحة الياسمين واليانسون.

توقّف فريد عند الدرج الخشبي للحظة وراح يراقب باحات البيوت الداخلية والحدائق وسطح مخزن اليانسون تحته. عندما رأى ظلاً ينطلق إلى الغرفة العلوية في بيت يوسف، تسلق الدرابزين الواطئ وقفز.

بدأ ضوء شموع يومض. انسلّ فريد إلى الغرفة الكبيرة مثل شبح، رأى الباب موارباً. تحلّق يوسف وثلاثة فتيان آخرون حول منضدة خشبية كبيرة عليها شمعتان تحترقان، وقد غطيت النافذة الوحيدة في الغرفة العلوية بقماشة سميكة كيلا يفضحهم الضوء إلى الخارج. وقد فاحت رائحة عطن في الغرفة.

بالإضافة إلى يوسف، لم يكن فريد يعرف إلا فتى واحداً في العصابة: عازر النحيف الذي يسبقه بصف واحد في المدرسة. كانوا جميعاً حفاة يرتدون مناماتهم. جلس على كرسي إلى الطاولة مولياً ظهره إلى الباب. هذا ما جعلهم جميعاً يضحكون ما عدا يوسف. لم يعرف سبب ضحكهم إلا لاحقاً. لم يكن سوى مبتدئ. فقط طفل غرّ يجلس مولياً ظهره للباب.

«هذا فريد»، قال يوسف الذي رعاه بصوته الجاف. «لقد جسست نبضه. لا بأس به. اقترحه كمرشّح». هزّ الآخرون رؤوسهم موافقين.

«ما دام لا يوجد أي اعتراض من أحد، يجب أن يقسم الآن بأنه لن يخون أحداً من أفراد عصابتنا ويلتزم بذلك إلى الأبد»، واصل يوسف، «وإذا وفى بوعده، فإنه سيصبح عضواً كاملاً بعد ستّة أشهر».

حرفياً وكالببغاء، ردد فريد الجمل الطنانة التي طلب منه يوسف ترديدها. حتى بعد سنوات عديدة، ظل يتذكّر ذلك الاجتماع. فقد أعجبه كثيراً، ومنحه تجربة للدخول في مناقشة سياسية لأول مرة في حياته. فمنذ بضعة أيام، في نهاية آذار، قاد العقيد هبلان انقلاباً ضدّ الحكومة المدنية. كان أول انقلاب يحدث في بلاد العرب. حدثهم رزوق، أحد أفراد العصابة أن هبلان توجّه مزهواً إلى بيت فارس خوري، السياسي الذكي المعروف، أيقظه وسأله، «حسناً ما رأيك في انقلابي؟ فقد نجح دون إطلاق رصاصة واحدة. أليس هذا رائعاً؟» فأجابه السياسي المحنك، «لا أستطيع أن أحكم على ذلك. لكنك فتحت باباً لن تستطيع إغلاقه وسيدخل شخص آخر بعد فترة وجيزة من الباب الذي فتحته وسيطيح بك». ضحك العقيد وغادر. بعد بضعة أشهر، أخبرهم رزوق كيف أن رجلاً آخر قام بانقلاب جديد وأطلق النار على العقيد هبلان ورئيس وزرائه فأرداهما في حقل على طريق المزة.

twitter @baghdad_library

كان أفراد العصابة يجتمعون كلّ يوم تقريباً لمناقشة عملياتهم التي اقتصرت على شتائم كتبت بالطباشير على جدران المنازل تندد بهذا التاجر الغشاش أو ذاك وتلعن هذا الشرطي أو ذاك المحتال. وقد قوّت الاجتماعات الليلية من عزيمتهم وشدّت من أزرهم وجعلتهم يصبحون أكثر شجاعة. ثم بدأوا يتبادلون كتباً ممنوعة وخططاً وأفكاراً سرية. لقد فتحت العصابة باب الحياة أمام فريد الذي أحسّ فجأة بأنه أمضى سنواته السابقة ملفوفاً في شاش طبي بعيدا عن مجريات الحياة مثل يرقة في شرنقتها.

٧٤- الملاكمة

اعتبرت ليلى الملاكمة أشدّ الألعاب الرياضية سخافة، وقالت: «في هذه الرياضة يرفع الرجال قدر رغبتهم البدائية في العراك والضرب إلى مصاف الفن»، قالتها ساخرة عندما حكى لها فريد بحماسة أنه شاهد مباراة ملاكمة مع جدّه، وأنه جلس في الصف الأمامي ليشاهدا المباراة بشكل أفضل.

كان إلياس قد ذهب لحضور جنازة صديق له في بيروت، وصادف أن جدّ فريد، نجيب، أتى لزيارتهم في عصر ذلك اليوم، أو هكذا ادّعى. عندما قالت له كلير إن زوجها سافر في ذلك الصباح لمدة يومين، ابتسم لها ابتسامة ماكرة.

«عندئذ يمكنني أن آخذ صديقي الشاب في مشوار طويل في المدينة، ومن الممكن أن يمضي الليلة معنا. بهذه الطريقة ستنعمين بالهدوء والسلام ويمكنك أن تفعلي ما يحلو لك هذين اليومين».

ضحكت كلير وقالت: «عندما يغيب القط تلعب الفئران».

لكنّها وافقت بشرط أن يعود ابنها إلى البيت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي لأن ابنة عمته ليلى ستأتي إلى دمشق لتزورهم.

اصطحب نجيب فريد لمشاهدة مباراة في الملاكمة في قاعة النادي الرئيسية. دأبت إدارة النادي على تخصيص أفضل مقعد منجّد في الصالة

للجد. كانت المباراة الأولى مملّة. «إنهما مبتدئان» قال أحد الجالسين إلى يمينه.

اختفى الجدّ أثناء الاستراحة ولم يعد حتى بعد أن دقّ الجرس معلناً المباراة التالية. اعترى فريد شعور بالقلق، وترك مكانه وراح يبحث عن جده نجيب. تملّكه الخوف فجأة من أن يكون قد أغمي على الرجل الكهل في مرحاض الرجال، فركض في ذلك الاتجاه. انتصبت أربع أو خمس مقصورات في قاعة كبيرة. كانت المقصورة الأولى والثانية فارغتين، لكن عندما أوشك أن يفتح الباب الثالث، رأى جدّه يخرج من غرفة صغيرة في نهاية الممر برفقة شابّ. رأى جدّه يعدّل سترته ويتأكد من إغلاق فتحة بنطاله، ثمّ أخرج محفظته وأعطى الغريب بعض النقود. من الواضح أنه أكرم الشاب الذي قبّل يد نجيب. أخذ جده وجه الشاب بين يديه وقبّله على شفتيه. تسمّر فريد في مكانه، وظل مختبئاً في ظلّ الباب.

عندما غادر نجيب، تبعه فريد متوارياً حتى عادا إلى مقعديهما. «إني أبحث عنك»، قال عندما جلسا بارتياح بجانب بعضهما. تحاشى الجدّ نظراته المتسائلة. في وقت لاحق، عندما كاد فريد أن ينسى هذه الحادثة، سمع مصادفة مشاجرة عنيفة بين أمّه وجدته. دافعت كلير عن أبيها، بينما تحدثت جدّته بغضب عن ميول جدّه نحو الشباب، وصاحت إن لديها أدلة كثيرة وأن الأمر فضيحة. لم تشأ كلير أن تخبر ابنها شيئاً عن هذا الأمر. قالت له إن جدّته تتخيّل أشباحاً على الدوام، ولا تتيح لأبيها المسكين الحصول على أدنى المتع.

«كان على جدّتي أن تتزوّج أبي وأن تتزوّجي أنت أباك، عندها سيصبح الجميع سعداء في زواجهم». فكّر الصبي بصوت عال ليهدئ من غضب أمه.

نظرت كلير إليه بعينين واسعتين وقالت: «ربما تكون صائباً، لكن الزمن لم يشأ ذلك. علينا، أنا وأمّي، أن نحبّ زوجينا».

شرح له يوسف الأمر فقال له: «إن كان ما تقوله جدّتك صحيحاً، فهذا يعني أن جدّك ينيك فتيان».

twitter @baghdad_library

لم يفهم فريد. «كيف؟» سأله، مرتبكاً.

«يا إلهي، ألا تعرف شيئاً؟ هل أنت من هذا العالم؟ أم أن الله أرسلك ملاكاً بريئاً؟ كيف؟ كيف؟ كم فتحة يمتلك الرجل؟ فلا تنفع الأذنان وفتحات الأنف، صحيح؟ إذن ماذا بقي؟ فمك ومؤخرتك، يا أبله».

٧٥- عند الحلاق

كان ميشيل أفضل حلاق في الحيّ المسيحي، وهو ابن عم بعيد لكلير. وشأن جميع رجال الطبقة الراقية، اعتاد والد فريد ووالد يوسف على الحلاقة عنده. ومن زبائنه أيضاً البطريرك والمطران الكاثوليكيان. كما اعتاد الجدّ نجيب على الحلاقة عند ميشيل أيضاً الذي لم يتوقف عن امتداحه على أناقته ووسامته. وقال نجيب إن صالون ميشيل في غاية الأناقة، وهو من الحلاقين القلائل الذي يلفّ منشفة رطبة دافئة حول وجه زبونه بعد أن يحلق ذقنه ليمنح البشرة تلك اللمسة الناعمة الطرية الخاصة.

كان في صالون ميشيل مرايا كبيرة، و والأرض مبلطة بالرخام، والسقف والجدران مزدانة بأشكال من الجصّ والزخارف العربية، وللأحواض الرخامية البيضاء حنفيات برونزية تلمع كالذهب. كان الحلاق يحبّ أن يُري زبائنه شفرات الحلاقة والمقصّات الغالية الثمن في دمشق التي يستخدمها المصنوعة في سولينغن، البلدة الألمانية الشهيرة بفولاذها، وكان كذلك صانع عطور ممتازاً يمتلك كما يُقال كتاباً سرّياً فيه ألف تركيبة وتركيبة لأنواع العطور. كان الرجال يقسمون بجودة تركيباته العطرية، لكن كلير سخرت منهم ودأبت على القول: «كلّ ما يفعله مجرد خداع! فهو يضيف بضع قطرات من مستخلص القرفة أو الورد أو القرنفل إلى المواد العادية المقطّرة من أزهار الياسمين والليمون، فيجعل الرجال يفقدون عقولهم بها».

لم يحبّ فريد الذهاب إلى صالون حلاقة ميشيل كثيراً. ففي مرّتين متتاليتين طلب ميشيل من أجيره، الفتى اللطيف لكن عديم الخبرة، أن يحلق لفريد ولم يتوقف هذا عن شدّ ونتف شعره ونقر جلدة رأسه بطرف المقصّ

المدبب. «لن أدع هذه الدجاجة تنقر رأسي مرّة ثالثة»، دمدم فريد وهو في طريقه إلى البيت.

تمرد يوسف أيضاً على أبيه وذهب إلى حلاق مسلم يقع محله في مكان بعيد عن حارتهم بالقرب من الجامع الأموي، يحكي لزبائنه قصصاً كثيرة لكنه لم يكن يركز كثيراً على عمله، لذلك بدت قصات شعر يوسف في أشكال غريبة. وكان الرجل يقلع أيضاً أسنان الزبائن. وفي أحيان كثيرة، يترك الحلاق الرجل الذي يحلق له جالساً على كرسي الحلاقة ورغوة الصابون لا تزال تملأ وجهه ليقلع ضرساً مؤلماً لزبون يهرع إلى محله صارخاً من الألم طالباً مساعدته. وكان كذلك يعمل في تجارة البيوت والطيور المغردة والسلع المهربة. وبذلك اعتبر الحلاق المناسب ليوسف.

«كما لو كنتَ في السينما هناك»، قال صديق فريد بحماسة، «إنك تحصل على قصّة شعر مجنونة، وتسمع قصتين أو ثلاث قصص مثيرة، وترى ضرساً يُقلع، أو صفقة تُعقد بشكل غير قانوني وتسمع طيور الكناري وهي تغرد ثمّ تتناول كأساً من الشاي، وكلّ ذلك لقاء نصف ليرة»، في حين تكلف حلاقة الشعر في صالون ميشيل ضعفي هذا المبلغ على الأقل إضافة للملل القاتل عند هذا المتعجرف.

بدأ فريد يبحث عن حلاق جديد في الحيّ المسيحي، ووجد صالون حلاقة خافت الإضاءة بالقرب من حارته. لم يكن قد رآه من قبل، مع أنه مرّ مرات لا تعد ولا تحصى من أمام الباب الخشبي الوسخ ذي اللوح الزجاجي الصغير المبقّع. في ذلك اليوم بالذات، انهمك الحلاق في تنظيف الصالون، فألقى فريد نظرة على داخل الغرفة المظلمة التي تشبه النفق. رأى لمبة عارية معلّقة فوق مرآة عتيقة تظل مضاءة طوال اليوم.

«هل يمكنني. . . هل يمكنني أن أقصّ شعري هنا؟» سأل فريد بتردد.

رفع الحلاق العجوز عينيه عن مكنسته وقال: «طبعاً يمكنكي. لم لا، بابا؟ عندما أنهي تنظيف هذه المكان الوسخة، بابا». تكلم الرجل لغة عربية ركيكة شأن جميع الأرمن من الجيل الأول الذين هربوا من مذبحة ١٩١٥ ولجأوا إلى سوريا.

twitter @baghdad_library

دخل فريد إلى المحل الذي يوجد فيه كرسيان متخلخلان بجانب الحائط، وبدا المكان فقيراً لكن نظيفاً للغاية. وتكدست كومة من المجلات القديمة بين الكرسيين، التي نزعت صفحات الغلاف عنها جميعاً، وقد عُلِّقت على الحائط ملصقات ذات مناظر طبيعية خضراء وفي الخلفية تلال مكسوة بالثلج، وفي منتصف الحائط عُلِّقت صورة مريم العذراء.

كان هناك إناءان زجاجيان كبيران مليئان بالماء بالقرب من كرسي الحلاق. بدا أن قعر الإناءين يحوي مادة مترسبة سوداء. عندما اعتادت عينا فريد على ظلام الغرفة، اكتشف أنها علقات تعتقد جدّته أنها مفيدة لمعالجة ساقها الملتهبة، وقالت: «إنها تمتص الدم وتزيل الضغط من الأماكن التي يوجد فيها ألم». أما الجدّ نجيب فتحدث عن العلقات باشمئزاز، وكان يطلق على أي شخص يكرهه هذا الاسم. ها هي إذاً تسبح في الإناءين وهي معلقة على الجدران الداخلية بمصاصتها الأمامية أو الخلفية. سرت قشعريرة في عمود فريد الفقري.

كان الأرمني منهمكاً في حديث طويل مع جاره، ولم يبدُ أنه على عجلة من أمره. لإزجاء الوقت تناول فريد مجلة وراح يتصفحها. رأى فيها صور الملك فاروق، عاهل مصر، يبدو فيها جدّياً، بديناً، قصير النظر، محاطاً بنساء جميلات. كانت جميع الصور ملونة بألوان مبهرجة. ثم التقط مجلة أخرى فيها كلّ ما هو غريب، عجائبي ورائع، وبدا أنها تحتوي على حقائق غريبة على هذه الأرض، ومجلة ثالثة مليئة بالنكات والرسوم، ومجلة رابعة عن الأزياء.

«هل تريدي أن تقصّ شعركي أم تريدي أن تقرأي المزيد؟» سأله الأرمني باستحياء. رفع فريد نظره إلى الأعلى وأعاد المجلة إلى مكانها. مرّ الوقت بسرعة، لأن الحلاق حكواتي رائع. ومع أنه لم يكن يجيد القواعد، ولم يميّز بين المؤنث والمذكر لغوياً، كان ذكياً ولديه تجارب وخبرات كثيرة.

كانت الزيارة الأولى تلك بداية صداقة دامت ثلاث سنوات، حتى اليوم الذي وجد فيه فريد الصالون مغلقاً، وسمع من الإسكافي صاحب المحل

المجاور بأن كرابيد الذي يدعوه جيرانه قره بيت، الحلاق، قد صدمته شاحنة في الليل بعد خروجه من حفلة، ومات في المستشفى بعد الحادث مباشرة.

لكن حتى ذلك الحين، ظل فريد يزوره كلّ أسبوعين، ولم يتقاضَ الأرمني منه أكثر من ربع ليرة لقاء الحلاقة. كان فريد يدفع له نصف ليرة ويحتفظ بنصف ليرة لنفسه.

كانت كلير تسخر من قصّة شعره، لكنّها دعته يفعل ما يشاء، واستمرت تعطيه ليرة رغم علمها بأن الحلاق الأرمني أرخص بكثير من قريبها، ولم يلاحظ والده ذلك.

بدا كرابيد، ومعناه بالأرمني المرشد أو الدليل، حزيناً أو غاضباً عندما حكى له قصّته. فقد فقد أمّه ووالده وهرب من أرمينيا سيراً على الأقدام، وهو يتضور جوعاً. عندما بدأ يصف طفولته، لمعت عيناه، ثمّ توقّف عن قصّ الشعر للحظة، وراح يتحدّث عن فترات بعد الظهر المشمسة عندما يزور جدته التي تعطيه دائماً لفافة من الخبز محشوة بالبسطرمة، لحم العجل الرقيق المجفّف المكسو بطبقة من التوابل الحارة. كان يقف مولياً ظهره للمرآة، مغمضاً عينيه يقلّد طريقة مضغه باستمتاع للفّة البسطرمة الضخمة.

كان كرابيد يكسب من العلقات التي يربيها في بركة بالقرب من المدينة أكثر مما يكسب من قصّ الشعر. كان رجلاً نظيفاً للغاية ويعتني كثيراً «بحيواناته الصغيرة»، هدي هيوان زيغيرة، كما يطلق عليها، وكان الأطباء والجيران، حتى أساتذة الجامعة، يشترونها منه بكميات كبيرة، ويدفعون ليرة واحدة لقاء عشر علقات.

في صالون كرابيد تعلّم فريد عن طباع ملك مصر، وفي المجلات المهترئة، قرأ عن طرده من مصر وعن حياته المريحة في المنفى في روما وسانت موريس. كان فريد يذهب إلى صالون الحلاقة فقط لقراءة المجلات التي يقدمها له بائع الصحف مجاناً بعد مضي عدّة أسابيع عليها، وكان كرابيد يسأله أحياناً بفضول ماذا يوجد فيها، لأنه لا يستطيع قراءتها، . وعندما تصله مجموعة جديدة من الصحف والمجلات، لم يكن كرابيد يلقي بالمجلات القديمة، بل يعطيها إلى بقال فيطوي أوراقها بعناية ليصنع منها أكياس ورق.

twitter @baghdad_library

كان فريد يشعر بالأمان في الصالون المعتم، كأنه في كهف عميق. كان يرتاد الصالون الكثير من الزبائن الأرمن المسنين الذين ينهمكون في مناقشات حامية مع كرابيد. هنا في هذا الدكان المعزول، تعلّم الفتى أن يتعرف على العالم من خلال الصور. حتى الآن، لم تكن الحياة خارج خبرته سوى صوت وكلمات بالنسبة له. لم يقرأ إلياس شيئاً سوى صحيفته، وقلما قرأ كتاباً، بينما كانت كلير قارئة نهمة للروايات. ولم تكتشف عالم المجلات المصوّرة أيضاً إلا بعد سنوات.

في صالون كرابيد، رأى فريد صوراً عن أراض بعيدة: شواطئ رائعة الجمال، جبال، صحارى، موائد طافحة بأطايب المأكولات، فواكه غريبة ومن جميع الألوان. وفجأة أصبح للممثلين والسياسيين والعلماء والمغامرين الجريئين وجوه، يمعن النظر فيها إلى درجة أصبح يشعر فيها بأنها مألوفة لديه.

٧٦- القطط وقطاع الطرق

يبعد الدرابزين الذي يحيط بصحن الدرج متراً واحداً عن سطح مخزن اليانسون، ويبلغ عمق الهوة بين منزل فريد ومخزن اليانسون أربعة أمتار. كان فريد يقفز بسهولة إلى سطح المخزن، ومن هناك يتوجّه إلى المكان الذي يجتمع فيه أفراد العصابة دون أن يراه أحد. أما الأولاد الأربعة الآخرون، فكانوا يمشون أيضاً فوق أسطحة عدة بيوت بخفة شديدة دون أن يصدروا صوتاً كالقطط، ويلتقون في الغرفة العلوية المهجورة في بيت يوسف والتي لم تعد تستخدم منذ عدة سنوات. انتصبت في الغرفة طاولة خشبية كبيرة وبضعة كراسي قديمة مخزّنة فيها منذ زمن بعيد. لم يعد أصحاب المبنى يصعدون إليها مطلقاً، وقد اقتلعت عدّة درجات من الدرج المفضي من باحة المبنى إلى السطح.

في الاجتماع الثاني الذي حضره فريد، أخرج يوسف كتاباً سميكاً بغلاف أسود، فيه وصف لجميع الجمعيات السرية في العالم. لم يذكر قط

كيف حصل على هذا الكتاب. وفي بعض الأمسيات، يقرأ فصلاً بعد فصل بصوت عال، بينما يجلس الآخرون في الكراسي الكبيرة حاشرين سيقانهم تحتهم، يصغون باهتمام. لم يصادف فريد شخصاً يقرأ بصوت عال أفضل من يوسف، قبل تلك الفترة أو بعدها. كان صوته الأجشّ يزيد من الإحساس بالغموض والرهبة ويجعل مستمعيه يرتعشون. وعندما يتوقّف عن القراءة لاسترداد أنفاسه، يجيش الهواء برغبة الفتيان لسماع ما سيلي.

في تلك اللحظات، يشعر فريد بالسهولة التي يستطيع فيها أن ينطلق من الأرض ويطير، خفيفاً كالريشة، إلى الأزمنة والأماكن التي يعيدها يوسف إلى الحياة بصوته. كان يشعر بصلة وثيقة مع الفتى في تلك الليالي، صلة لم يشعر بها مع الأصدقاء الآخرين، حتى أولئك الذين سيشاركهم مخابئه في العمل السري في السنين القادمة.

كانت مهامهم في العصابة توزع عليهم بعناية. فقد كان عازر مسؤولاً عن الاختراعات، وأطلق يوسف عليه اسم «جابر» تيمناً بالعبقري جابر بن حيان؛ وأسندت إلى سليمان مهمة رصد الإشاعات، ولقّب باسم «الخفاش» لأنه ينصت إلى كلّ شيء. أما يوسف فأوكلت إليه مسؤولية البحث في المؤامرات والجمعيات السرية، وأطلق عليه سليمان اسم «الماسوني»؛ وأُطلق على فريد لقب «الانتحاري» الذي رأى أن هذا اللقب أكبر منه، أما يوسف والآخرون فكانوا يعتبرونه شجاعاً متهوراً، وأوكلت إليه مهمة الدفاع عن العصابة، . وتعين على رزوق نقل الأخبار وأطلق عليه اسم «الصحفي». وقد التصقت بهم هذه الأسماء حتى بعد أن انفرط عقد العصابة.

في بعض الأحيان استمرت الاجتماعات حتى ساعات الفجر، وعند انتهائها ينسلّ الصبية فوق الأسطحة كالقطط، ويعودون إلى أسرّتهم.

٧٧- سلسلة انقلابات

عندما طلع النهار على دمشق في ٣١ آذار ١٩٤٩، وصلت عربتان مدرعتان تتبعهما سيارتا جيب وأربع شاحنات عسكرية قادمة من جنوب البلاد

twitter @baghdad_library

إلى المدينة القديمة، وانقسمت إلى مجموعتين. فاتجهت عربة مدرعة وسيارة جيب وشاحنتان إلى بيت رئيس الوزراء، واتجهت العربات الأخرى إلى محطة الإذاعة.

عندما توقفت العربة المدرعة بقوة خارج بيت رئيس الوزراء، استيقظ الجندي المكلف بالحراسة فجأة من إغفاءة متقطعة. ترجّل عقيد ممتلئ الجسم من السيارة. حيّاه الحارس.

«هذا انقلاب»، قال العقيد. لم يعرف الجندي قصد العقيد، فهذه أول مرة في التاريخ العربي يذكر فيها أحد هذه العبارة.

«هل أوقظ سعادته؟» سأل الجندي مرتبكاً.

«لا داعي لذلك»، أجاب العقيد، والتفت إلى جنوده الواقفين باستعداد، ثم صاح باهتياج «هيا أخرجوه».

جرى رجلان وتجاوزا الحارس إلى القصر وصعدا الدرج. ثم سُمع صوت رئيس الوزراء وهو يشتم. مصحوباً بالجنديين، خرج من البيت وحدّق في العقيد من دون أن ينبس بكلمة. لقد عرف الرجل. إنه حسني هبلان الذي عمل خادماً للفرنسيين والذي لم يحمل أي مبادئ، كما كان على اتصال مع النازيين الألمان سراً. إنه شخص تافه، لاعب قمار عديم الأخلاق.

كان رئيس الوزراء سليل عائلة دمشقية أرستقراطية عريقة، وقد أصرّ على ارتداء ثياب لائقة قبل أن يخرج مع الجنود.

«ستحاكم على هذه الإهانة، وهذه المرة لن تخرج من السجن طوال حياتك»، قال أخيراً بنبرة غاضبة. مذكراً العقيد الذي سجن سابقاً لاختلاسه أموالاً خسرها على طاولة القمار، ومثل الحارس المناوب، لم يفهم رئيس الوزراء حقيقة ما يجري.

ضحك حسني هبلان وقال: «أنتَ ومحاكمك - يمكنك أن تلحس طيزي! فأنا القانون الآن وستدخل أنت السجن لأني أقول ذلك».

أحسّ رئيس الوزراء بإهانة شديدة من كلمات العقيد. «خذوه»، أمر قائد الانقلاب. اقتاد الجنود الذين ظلوا مترددين الرجل الذي كان رئيس

وزرائهم. مذهولاً، سار إلى سيارة الجيب وجلس ببدلته السوداء بين جنديين لم يستحمّا منذ فترة من الزمن.

«والآن لنذهب إلى المعتوه الآخر»، صاح الضابط في جنوده للذهاب إلى المستشفى حيث كان رئيس الجمهورية المريض ينتظر إجراء عملية في معدته.

وسرعان ما وجد الرجال العشرة الذين كانوا أهم أشخاص في الدولة أنفسهم في السجن. في ذلك الصباح بثت الإذاعة بعض المارشات العسكرية النمساوية، أعقبها تلاوة البيان رقم واحد من حسني هبلان، زعيم الانقلاب. ابتهج الدمشقيون الذين يكرهون حكوماتهم منذ سقوط حكم الأمويين وعقدوا حلقات الرقص.

انتقل العقيد هبلان إلى القصر مع زوجته. وبعد أسبوعين رقّى نفسه إلى رتبة مشير. عندما اكتشف من إحدى المجلات المصوّرة بأنّ الضباط برتبة مشير يحملون «عصا الماريشالية»، طلب من صائغ أن يصنع له عصا من الذهب الخالص. وأمر هبلان أن تكون العصا كبيرة ومميزة الشكل. لكن الصائغ، رغم شعوره بالسعادة لأنه طُلب منه هذا الطلب، لم ير عصا مارشالية في حياته، فصنعها على شكل شوبك، مِرقاق العجين، صادف أن اشتراه في اليوم السابق لزوجته لأنه أحبّ شكله.

قال السوريون الذين يتمتعون بموهبة السخرية من جميع حكامهم إن الدكتاتور يخضع لزوجته التي تنتظره على الدوام والشوبك في يدها عندما يعود إلى البيت سكراناً بعد ارتياده بيوت العاهرات، وأندية القمار وكأن حسني هبلان أراد أن يقنع زوجته أنه من الآن فصاعدا هو من يحمل الشوبك في يده.

امتُدح صعود حسني هبلان إلى السلطة بحماسة شديدة ولاسيما في السفارتين الأمريكية والفرنسية. لكن سرعان ما أحسّ المشير بأن الفرنسيين والأمريكان يريدون السيطرة عليه، فابتعد عن هذين الحليفين، وبدأ يرتاب بهما. ثمّ التقى بأنطون سعادة، المغامر الشاب الطموح، الشديد الإعجاب

twitter @baghdad_library

بهتلر، الذي يحاول تقليده. وأطلق أتباعه على أنفسهم اسم القوميين السوريين ويرتدون قمصاناً سوداً، ونسخوا الصليب المعقوف رمزاً لهم، لكنهم دوّروا زواياه لكي يبدو مثل دولاب هواء أو زوبعة. كان سعادة الطموح يصبو إلى توحيد لبنان وسوريا وأجزاء من فلسطين والعراق والأردن بقيادة سوريا. وكدكتاتور دمشق، أعجب هبلان بأفكار القومي السوري الشاب، يأمل معاملة أكثر احتراماً من الفرنسيين والأمريكان عندما تصبح تلك الأفكار أمراً واقعاً.

كان سعادة ذكياً متعّصباً، مثقّفاً ذا خطط سياسية طموحة وإرادة حديدية، لكنه لم يمتلك خبرة في الصراعات المسلّحة ولا في دهاليز السياسة. فقد فشلت أول محاولة له لاحتلال مخفر شرطة في جبل لبنان فشلاً ذريعاً، وقُتل رجاله، فهرب إلى دمشق، ولجأ إلى راعيه ومناصره هبلان لحمايته.

بعد فترة وجيزة، زار السفير الأمريكي هبلان وقال له بفظاظة إنه، بوصفه الحاكم الجديد لسوريا، فقد دخل في مغامرة خطيرة غير محمودة العواقب، لأن لبنان ينضوي تحت الحماية الفرنسية، وإذا لم يسلّم الإرهابي أنطون سعادة إلى السلطات اللبنانية على الفور، فلن تتمكن الولايات المتحدة من حمايته.

خاف هبلان فخان وسلّم حليفه سعادة إلى السلطات اللبنانية التي أعدمته خلال أربع وعشرين ساعة، بسرعة قبل أن يكشف الرجل الذي يشكل تهديداً كبيراً لهم عن أسماء الحكومات والأشخاص الذين كان على اتصال بهم والذين يدعمونه. وحوّل موت أنطون سعادة في سبيل أفكاره المثالية إلى شهيد في نظر أتباعه. وأصبح للقوميين السوريين الذين لم يكن يعتد بهم سياسياً، لكنهم شديدي التنظيم، عدو جديد الآن، وهو الخائن حسني هبلان الجبان.

في ١٤ آب ١٩٤٩، بعد مائة وسبعة وثلاثين يوماً على انقلابه، أطيح بالدكتاتور. كان ذلك أشبه بفيلم. فقد زحفت قوات إلى العاصمة، وبغية

تجنّب إراقة الدماء، اتصل رئيس المخابرات، أحد المشاركين في الانقلاب الجديد، بالضابط القائد في الحرس الجمهوري، وتلقى هذا الضابط مبلغاً كبيراً من المال لكي يتوارى عن الأنظار في صباح ذلك اليوم، وأن يطلب من رجاله المحافظة على الهدوء حتى يعود.

كان المشير لا يزال نائماً عندما وصل الجنود إلى القصر. أرسل العقيد ضرطان، قائد الانقلاب، ضابطاً شاباً برتبة ملازم أول إلى هبلان. كان هذا الضابط الرياضي، واسمه منصور، من الأتباع الموالين لأنطون سعادة الذي أُعدم، متعطشاً للانتقام. استلّ منصور مسدّسه وصعد الدرج الرخام الواسع. كان العقيد هبلان خارجاً لتوه من غرفة نومه غاضباً لهذا الضجيج عندما وصل الضابط الشاب القوي في بدلته العسكرية المموهة إلى صحن الدرج. وقبل أن يكتشف العقيد سبب كلّ هذه الضوضاء، هوت يد الضابط الكبيرة، يد ابن المزارع، على خدّه، ففقد الدكتاتور القصير الممتلئ الجسم توازنه وسقط على الأرض. «هذا ما تحصل عليه لقاء خيانة الشهيد أنطون يا ابن القحبة».

صرخ الدكتاتور طالباً المساعدة، مشبّعاً كلماته بكلّ الأهمية الثقيلة للدولة ليكتشف أن الدولة لم يعد لها الآن أي قيمة. لم يهرع أحد لمساعدته إلا زوجته، لكنهم أعادوها إلى غرفتها. أطاعت صاغرة وقد أصبحت شاحبة كالأموات.

ركل الملازم أول منصور هبلان ليشرعا هبوط الدرج. راح الدكتاتور الذي بدأ يتعثّر، يلعن ويتوسل، وعندما وصل إلى أسفل الدرج، أصبح وجهه مليئاً بالدم.

«أيها الكلب القذر»، صاح منصور. كان العقيد ضرطان يقف بعيداً، متخفياً بنظارات شمسية، غير متأثّر وهو يراقب الرجل الذي كان حتى الآن قائده الأعلى. قيّد جنديان الدكتاتور بحبل قديم تفوح منه رائحة نتنة. «إربطه فوق غطاء موتور السيارة»، أمر الملازم أول منصور، مقلداً بذلك فيلماً أمريكياً شاهده في طفولته عن صيادي الأدغال الذين ربطوا خنزيراً برياً فوق موتور السيارة، لذلك لم يفهم أحد من جنوده لماذا قال لهبلان «أنت الآن

twitter @baghdad_library

خنزير بري». وصعد إلى السيارة، بينما ركب ضرطان عربته، وتوجّه إلى الإذاعة ليلقي بيانه الأول شخصياً.

قاد منصور عربته المدرعة مع الدكتاتور الذي لم يتوقف عن الصراخ وهو جاثم فوق غطاء العربة التي سارت عبر شوارع دمشق، ثم اتجهت نحو المزة. عندما أصبحت العربة على الطريق الريفي الضيّق، توقّف في مكان متّفق عليه، وانتظر وصول السيارة الثانية التي تقلّ رئيس الوزراء المطاح به، محسن البرازي. كانوا قد تدربوا على هذا المشهد جيداً وحدث كما خططوا له تماماً. فقد استخدم أربعة جنود أخمص بنادقهم لقيادة الدكتاتور ورئيس وزرائه الموالي، وهما يرتديان منامتيهما، إلى الحقول حافيين وأيديهما مقيّدة. توجّه منصور إليهما وصاح فيهما بأنه سينفذ فيهما حكم الإعدام باعتبارهما عميلين من عملاء المخابرات الأميركية وقد خانا الشعب السوري، ثمّ أطلق عليهما النار. لم ينبس البرازي بكلمة واحدة. بدا مذهولاً طوال الوقت. أصابته الطلقة الأولى فأردته قتيلاً. أما هبلان الذي جُرح فقط، فراح يصرخ ويلعن الجبناء الذين تخلوا عنه الآن. وجّه منصور مسدّسه إلى جبهة الدكتاتور للمرّة الأخيرة بينما استلقى هبلان على ظهره وصاح الملازم أول بصوت عال حتى يسمع الجنود: «أنطون سعادة، قائدي الشهيد المفدى، يرسل لك هذه الرصاصة أيها الحقير». ثمّ سمع أزيز رصاصة أخيرة.

فضّل العقيد ضرطان الذي قاد الانقلاب الجديد أن يقود الحكومة من وراء الستار، وشكّل حكومة مدنية موالية له، لكنّها لم تعمّر طويلاً. وفي ١٩ كانون الأول ١٩٤٩، نفذّ العقيد أديب شكلان، أحد أول الداعمين للقومي أنطون سعادة، انقلاباً. كان أديب شكلان، الحذر والمتصلب، عدواً للبريطانيين وصديقاً للألمان والفرنسيين. وحكم سوريا بيد من حديد حتى نهاية شباط ١٩٥٤، عندما نفّذ العقيد بطلان انقلابه وأطاح به.

٧٨- الحارة

أصبحت حارة العبّارة المكان المفضّل لفريد. فبعد الظهر، عندما كان ينهي فروضه المدرسية، يُسمح له بالخروج مع يوسف. أصبح الآن يلتقي

بعدد أكبر من الأطفال والشبان. لم يكن يوجد في حارة أخرى هذا العدد الكبير من الفتيات اللاتي يلتقين كلّ يوم ليلعبن الألعاب ويتهامسن الأسرار بينهن. بالطبع انتشر هذا الخبر، وجذبت سمعة حارة العبّارة فتياناً من الحارات الأخرى.

كان بعض سكان هذه الحارة من أغرب البشر، من ذلك النوع الذي لا تجده في أي مكان آخر في دمشق. كان العربجي سليم أكبر كذاب في التاريخ، وكان باستطاعة رياض التكلّم مع الطيور، ولدى باصيل، الأرمل الوحيد، كلب يشرب مشروباً كحولياً قوياً مع سيده كلّ يوم، وكانت سعدية المجنونة ترتدي سبعة أثواب أحدها فوق الآخر، وما إن تقع عيناها على رجل حتى تصيح «هيه، ألا تريد أن تتزوجني؟ انظر كم ثوباً أرتدي». ثمّ تبدأ برفع تنوراتها الواحدة تلو الأخرى. وباستطاعة بسام أن يذرف الدموع عندما يريد، ويستطيع النجار يوسف أن يمشي على يديه صعوداً وهبوطاً على الدرج.

أما أهالي الحارة التي يقطن فيها فريد فكانوا مملين يتبادلون التحيّات بتهذيب، لكنهم سرعان ما ينكفئون على أنفسهم. ولم يعرفوا أحداً غير جيرانهم الذين يقطنون في أقرب بيتين أو ثلاثة بيوت من بيتهم. أما هنا في حارة العبّارة، يعيش الناس بتقارب شديد ويتعاملون كإخوة وأخوات وينادون الكبار في السن «يا عم» و «يا خالة». ولم توصد أبواب البيوت قط، وكان بوسع أي جار الدخول إلى باحة أي دار عندما يشاء.

تنقسم الحارة في نهايتها إلى قسمين: فإلى اليمين تتجه إلى حارة اليهود، وإلى اليسار إلى كنيسة القديس بولس الصغيرة المشهورة على سور المدينة القديمة والتي تتوافد إليها أعداد كبيرة من السيّاح كلّ يوم، حيث تسمع الأطفال يصيحون، «مستر، مستر، هذا الصبي هو ابن القديس بولس»، ويشيرون إلى الصبي الوحيد بينهم ذي الشعر الأشقر، طوني، ابن بائع العطور ديميتري، الواقف هناك، يمضغ رغيفاً من الخبز المرقوق المحشو بالجبن الهولندي، وكالعادة لا يفهم شيئاً مما يجري حوله.

افتُتن فريد بحارة العبّارة منذ أن وطأتها قدماه. فقد كانت موضع أحلامه

twitter @baghdad_library

تماماً كما تخيّلها خلال وحدته في حيه الممل. كانت حارة العبارة تنبض بالحياة حيث يمضي الصبية في غالب الأحيان ساعتين وهم يلعبون كرة القدم أو الدحل أو لعبة الشرطة والحرامية في الشارع أو في باحاته الخلفية العديدة، ثم يتوجّه أربعة أو خمسة منهم لزيارة العمّ سليم للاستماع إلى قصصه وحكايات المغامرات.

أما إذا أرادوا شيئاً من الخصوصية فيذهبون إلى بيت رزوق الذي تمكن من أن يحوّل، بمساعدة أبيه، خرابة قديمة في الحديقة إلى غرفة يجلس فيها هو وأصدقاؤه دون أن يزعجهم أحد، يدخلون إليها ويخرجون منها كما يحلو لهم وقتما يشاؤون دون ان يزعجون أهله في الطابق الأول.

كان إلياس، الشقيق الأكبر لرزوق، الذي يعمل بلاّطاً، شخصاً مرحاً لطيفاً إذا لم تُقْرِضه نقوداً. كان يجيد الرقص والغناء، ويبدو مبتذلاً قليلاً بشعره المزيّت وقميصه المفتوح. وقد غرَّر فريد به وسقط في حبائله عندما قال له إلياس إن ساق قطّة صغيرة قد كسرت، وأن الطبيب البيطري طلب خمس ليرات لمعالجتها، ولديه أربع ليرات فقط، وهل يمكن أن يساعده فريد ويعطيه الليرة الأخرى؟ كان ذلك مؤثراً. فقد فوجئ البلاّط الفقير الذي يكسب ليرتين في اليوم كحد أقصى، عندما وجد أن فريد يحبّ القطط أكثر من أي حيوان آخر، وقال يمتدحه: «أرى أنّك فتى شجاع ونبيل. فالشجعان والنبلاء فقط هم الذين يحبون القطط».

ركض فريد إلى البيت كما لو أنّ هذه الكلمات قد ركّبت له أجنحة، وهجم على حصالة نقوده، وعاد إلى إلياس لاهثاً وأعطاه الليرة. عندما حكى ليوسف فيما بعد، بحماسة وانفعال شديدين، عن معالجة القطّة، ضحك يوسف مشفقاً وقال له: «هذا المحتال! إنه يكره القطط. وكلما رأى قطّة ضالة في الشارع يرميها بحجر. لقد خدعك وسلب منك الليرة التي بذلت الكثير لتوفيرها». وعندما رأى تعابير وجه صديقه المذعورة، قال له مواسياً: «لقد خَدَعنا إلياس جميعاً في وقت ما. فقد احتال عليّ وأخذ مني ليرة أيضاً»، وهزّ رأسه على نحو كئيب. بعد قصّة القطّة، أصبح فريد يتحاشى شقيق رزوق.

اعتاد طوني على جلب أفضل أنواع السجائر، بالإضافة إلى الشوكولاته والجبن الهولندي إلى مخبأ رزوق الصغير. أحبّوا جميعاً السجائر ماعدا فريد الذي لم يدخّن قط، بل كان يفضّل الشوكولاته، أما عازر فكان جائعاً على الدوام ولم يتوقف عن التهام الجبن. كان فقيراً جداً لكنه شعلة من الذكاء. عمل أبوه بائعاً متجولاً يبيع الخضراوات والفواكه، أو أدوات منزلية أحياناً على عربة اليد الخشبية التي يجرها. وحسب الموسم، يدفع العربة في الشوارع منذ شروق الشمس حتى غروبها، ينادي بأعلى صوته عن بضاعته، لإعالة تسعة أطفال من الربح الذي يحققه.

وعملت أمّ عازر ما بوسعها لمساعدة الأسرة على كسب مبلغ قليل من النقود. فقد عملت في تطريز عباءات وألبسة عربية لأحد تجار المنسوجات، وحياكة كنزات وقبّعات وأوشحة صوفية. كان أولادها يرتدون كنزات متعددة الألوان لأنها تحيكها من بقايا الصوف الذي يتبقى لديها. ومن أكثر الأعمال التي تبعث على الضجر هو صرّ حبات الكراميل والحلوى الأخرى في ورق ملوّن لصالح مصنع حلوى كبير. كان العمل بحد ذاته سهلاً، لكن أمّ عازر عانت الأمرّين في منع أطفالها الجياع من تناول تلك الحلوى اللذيذة. فقد كانت تُرسل إليها الكمية لتجهيزها بعد وزنها وعدّها بدقة، وتعين عليها أن تسدد ثمن كلّ قطعة ناقصة. ذات مرة، عندما غابت عن الأطفال، التهموا حوالي أربعين قطعة، فاضطرت المرأة المسكينة إلى أن تلفّ أربعمائة قطعة حلوى أخرى لتسدد ثمن القطع التي التهموها. وفي النهاية، تركت هذا العمل وبدأت تعمل في صرّ الجوارب.

تمكّن عازر الذي كان يحبّ والديه ويكرّمهما من الذهاب إلى مدرسة البطريركية لأبناء الطبقة الراقية على الرغم من فقر أسرته، لأنه كان فتى موهوباً، وسددت الكنيسة الكاثوليكية رسوم دراسته.

أما زاكي، الصبي اليهودي، فكان مختلفاً. فلم يصادف فريد أحداً من قبل يسخر من والديه كما يفعل زاكي الذي دأب على تسمية والده «البخيل العجوز» وعلى أمّه اسم «دجاجة نقاقة» لأنها تندب باستمرار بأنها مصابة باضطراب في الكبد.

twitter @baghdad_library

حدث ذلك قبل سنة من زيارة فريد الأولى لبيت زاكي. فقد كانت الأسرة تعيش في حارة اليهود القريبة، في بيت جميل كسيت جدرانه الداخلية بألواح من الرخام والخشب. كان زاكي مجحفاً في حق والده، الرجل الهادئ المهذّب الكئيب الوجه. أما أمّه فقد كانت أسوأ بكثير مما وصفها زاكي، تدّعي أنها تعاني دائماً من مرض أو آخر، وتتوقع أن يبدي كلّ من يراها الشفقة عليها. واعتاد زوجها على القيام بالأعمال المنزلية عنها، ويعاني بصمت من مرض السكري الذي قتله أخيراً، وهو في الستين من عمره.

أما أعظم مفاجأة بالنسبة لفريد، فكانت سارة، أخت زاكي، الفتاة الجميلة التي لها عينا أمّها الزرقاوان، ووجه والدها اللطيف الكئيب، والتي تكبر زاكي بسنتين أو ثلاث سنوات، وقد نضجت في وقت مبكر. وأصبحت ترتدي ثياباً فاضحة وتبدو أشبه بمغنية أو ممثلة أجنبية ولمّا تبلغ الثانية عشرة من عمرها. في أحد الأيام، عندما حدّق فريد طويلا في ظهرها وردفيها، التفتت إليه وابتسمت له ابتسامة عريضة، وقالت: «لكي لا تفكّر في الأمر وتتوهم، فأنا لن أتزوّجك. إنك لا تزال فتى صغيراً».

شعر بأنها قبضت عليه متلبساً، لأنه في حقيقة الأمر كان يقول لنفسه في تلك اللحظة بالذات، إن مؤخرة سارة أجمل من مؤخرة أنطوانيت، وأنه يرغب في أن يتزوّجها وأن يستلقي فوق ظهرها. ضحك زاكي الذي يعرف أخته، وقال لها: «لا يمكنه أن يتزوجكِ في جميع الأحوال. فهو يهودي ضال، يؤمن بأن المسيح العظيم الذي نتتظره جاء إلى الأرض ليسمح لحفنة رجال تافهين أن يصلبوه».

لم يفهم فريد شيئاً مما قاله. وعندما حكى ليوسف ذلك، قال له صديقه إن الفرق الوحيد بين اليهود والمسيحيين هو أن المسيحيين يؤمنون بأن المسيح جاء إلى هذا العالم، واليهود لا يؤمنون بذلك. ففهم فريد اللعبة التي يلعبها رزوق وزاكي عندما أمسك كلّ منها بتلابيب الآخر بدافع المزاح، وراحا يصرخان العبارات نفسها.

يجأر رزوق قائلا: «جاء المسيح إلى الأرض - هيا قل أتى، قلها»،

فيجيب زاكي بصوت أعلى: «لا لم يأت إلى الأرض - هيا قلها لكهنتك أنه لم يأت بعد»، حتى يبدأ الصبيّان بلكز أحدهما الآخر على صدره، بابتسامة عريضة على وجهيهما.

«وماذا عن سارة؟» سأل فريد.

«أوه، لا تهتم بها» أجاب يوسف، «إنها بقرة بلهاء، مهووسة بالزواج، هذا كلّ ما يدور في رأسها. فهي تريد أن تتزوّج قبل أن تذوي وردتها لأنه لن يتبقى منها شيء سوى غبائها».

لم يتحمّل زاكي أخته سارة أيضاً، ودأب على القول ساخراً: «إنها لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، ومع ذلك تعرف تماماً نوع الوجبات التي ستطهيها عندما تبلغ الخمسين».

لكن سارة أبدت لطفاً لطوني، لطوني فقط، وتغاضت عن جميع عيوبه. ربما لأنه كان يشبه فتاة شقراء، وربما لأنه يقدم لها العطور باستمرار. في أحد الأيام اكتشف والده أنه أعطى سارة قنينتي عطر غاليتين فضربه، واضطر طوني إلى الذهاب لرؤيتها خاوي الوفاض، فتجاهلته ولم تعره أي اهتمام. سخر زاكي منه. «إنك لا تساوي شيئاً في عيني سارة من دون عطر»، قال له في غرفة رزوق، وكعادته لم يفهم طوني.

٧٩- نقطة ضعف الملاك

كان عازر شاحباً شديد النحول لا يصلح لأداء هذا الدور، الأمر الذي فاجأ الجميع عندما اختير لأداء دور الملاك في مسرحية تلك السنة.

أخذ الأب ميشيل الذي يدرّس التربية الدينية يتلو أسماء التلاميذ الذين سيشاركون في احتفالات نهاية السنة. وقد أدرجت مسرحية «البخيل» لموليير في البرنامج هذه المرة. وأخذ تلاميذ الصف الثاني عشر يتدرّبون مرّتين في الأسبوع على المسرحية بدءاً من كانون الثاني. وتعين على فريد الذي تلا قصيدة طويلة في السنة الماضية أن يفعل ذلك هذه السنة أيضاً، لأنه يُعرف بقوة ذاكرته وقدرته وشجاعته على القراءة وإلقاء القصائد دون أن تعتريه رهبة

twitter @baghdad_library

المسرح. كان يجري يانصيب كبير أثناء الحفل توزع فيه العديد من الجوائز التي يتبرّع بها المسيحيون الأغنياء لزيادة دخل المدرسة من الأموال. ودُعي وزير الثقافة وبطريرك جميع الكنائس في دمشق وسفير الفاتيكان إلى هذا الاحتفال الذي يقام سنوياً كدعاية للمدرسة الراقية، ودُعيت أيضاً أربعون أو خمسون عائلة غنية.

سار كلّ شيء بسلاسة، وأُعفي التلاميذ الذين يشاركون في الاحتفال من واجباتهم المدرسية أثناء التدريبات. تملك فريد السرور لأنه لم يحتج إلى قراءة قصيدته أكثر من مرّتين لكي يحفظها عن ظهر قلب، لكنّه لم يقل ذلك لأحد حتى يحصل على مزيد من الوقت والإعجاب.

لم يتوقف عازر عن التدرّب على كيفية التحرّك جيداً في ثوبه الأبيض الطويل ويحرك جناحيه الكبيرين الأبيضين كالثلج اللذين كانا يعيقانه فيترنح ويقع على أحد الجانبين. كان يبدو أخرق على نحو يثير الشفقة. في النهاية أدرك الكاهن أنه يجب أن يبحث له عن جناحين أصغر حجماً، عندها أدّى عازر دوره بشكل ممتاز.

جاء اليوم العظيم. امتلأ أكثر من خمسمائة مقعد في باحة المدرسة، وإضطر أكثر من ثلاثمائة تلميذ وخادم يعملون في المدرسة مشاهدة الحفل وقوفاً.

عند افتتاح الاحتفال، ألقى الأستاذ منصور، معلّم اللغة العربية، قصيدة وطنية طويلة عن فلسطين وحبّ الوطن. لو كان نصف حزنه على فلسطين صادقا لضعف الأستاذ ومرض، لكن الجميع يشهدون أن أداء الأستاذ منصور، المتورد الوجه، الطافح بالصحة، الجسيم، ليس مقنعاً. لم يفهم التلاميذ القصيدة، لكن تعيّن عليهم أن يصفّقوا عندما يصدر معلّمهم إشارة سرية متفق عليها لإثارة إعجاب وزير الثقافة.

ثمّ جاء دور المسرحية. ونجحت نجاحاً عظيماً، لأن لا شيء يضحك العرب أكثر من تصوير البخيل. أخيراً تلا فريد قصيدته بمشاعر جياشة حتى بكت نساء كثيرات بين الحضور. لكن شيئاً لم يكن في الحسبان حدث في

دور عازر. فقد تعيّن عليه أن يرفرف حول المدعوين البارزين الجالسين في الصف الأمامي أثناء الاستراحة القصيرة، ويقدم لهم قطع شوكولاتة من صينية يحملها أمامه على شكل غيمة، لكن الإغواء بدا شديداً.

عندما انضم فريد إلى الآخرين الذين تجمهروا خلف خشبة المسرح بمعزل عن الجمهور، رأى الأستاذ منصور الذي حمل جرح فلسطين في قلبه، على الأقل كما عبّر في القصيدة، ومعلّمة الفنون السيدة ماري روز ينهالان بالضرب على عازر الذي راح يبكي وفمه محشو بقطع الشوكولاته، بينما لم يبق فوق غيمته سوى لفافات الورق الفضي التي تغلف الشوكولاته.

«ماذا بوسعنا أن نفعل»، صاحت مدام ماري روز الساخطة، «لقد إلتهم الشوكولاته كلها! لم يترك منها أي شيء». ذرف عازر المزيد من الدموع، وتدلى أحد جناحيه بشكل يائس إلى أحد الجانبين.

٨٠- رسالة

افتتن فريد بسارة التي لم تعره أي اهتمام. فلم تلتفت إليه مرّة عندما تمرّ من أمامه وهو برفقة الصبية الآخرين أثناء زيارتهم لشقيقها، كأن لا وجود له.

لعل المرء يظن أنها كفيفة، لأنه حتى عندما كانت تفتح الباب لفريد ويسأل عن زاكي وهو يرتدي أفضل ملابسه، كانت تكتفي بالقول إن أخيها غير موجود في البيت. كان فريد يعرف ذلك لأنه رأى صديقه مع أبيه في محل بيع الأقمشة الذي تملكه الأسرة، ثمّ تستدير وتدخل. بالرغم من ذلك، كلما قالت له شيئاً مرة كلّ عشر مرات، لا يغمض له جفن لليالي طويلة، وهو يفكّر بما قالته له.

«اللون الرمادي لا يناسبك. لو كنت مكانك لارتديت الأسود والأبيض وبذلت كلّ ما بوسعي لارتداء هذين اللونين المتعاكسين»، نصحته ذات مرة. إذاً هذا يعني أنها توليه اهتماماً.

في اليوم التالي، بينما كان زاكي يعمل مع أبيه في المحل، لم يلبس

twitter @baghdad_library

فريد ألواناً متناقضة، بل ارتدى بنطالاً أبيض وقميصاً أبيض. لكن سارة نظرت إليه نظرة عابرة، وقالت له: «زاكي غير موجود في البيت». لم تلاحظ أنه لم يأخذ بنصيحتها، ولم يسألها كيف يبدو. لا شيء، لم تبدِ أدنى إشارة على الاهتمام به، وكان ذلك أسوأ مما لو شتمته هو وجميع أسلافه. لكن قبل أن يستدير ويعود أدراجه، تفحصته باحتقار مرة أخرى وقالت بصوت يكاد يكون مسموعاً، «الأسود يليق بك أكثر»، وأغلقت الباب.

«هناك رسالة سرية تبعثها لك في جميع تلك الملاحظات»، قال يوسف عندما حدّثه فريد عن هذا الأمر. أحسّ فريد الشعور نفسه، لكنّه لم يفهم الرسالة.

في ليلة من الليالي رأى سارة في حلمه. رآها مستلقية بجانبه على أرضية حمّام رخامية، والبخار يعلوهما. كانا يتفصدان عرقاً. تتضوع من سارة رائحة ياسمين، عطرها المفضّل. رمقته بعينيها الزرقاوين، وكان من الممكن أن يموت في حبّها.

«الآن يجب أن تصبح شجاعاً وإلا فلن أتزوجك»، قالت ودنت منه، وقبّلته على شفتيه، ثم استلقت على ظهرها إلى جانبه مرة أخرى، وأمسكت يده اليمنى. فجأة سمع صوت ميشيل الحلاق، ابن عم كلير.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله.

«عنده أفضل السكاكين. إنها مصنوعة في سولينغن»، أجابت سارة. وبغتة أحسّ بثقل على فخذيه الممدودتين. جلس ميشيل مرتدياً معطف الحلاقة على فخذيه، ممسكاً قضيبه بقوة بين إبهام وسبّابة يده اليسرى، وشفرة موسى الحلاقة تومض في يده اليمنى. أراد فريد أن يقفز، لكنه أحسّ أن جسمه ثقيل كالرصاص. سمع قهقهة الحلاق، «ستصبح يهودياً في دقيقة»، صاح، وأحسّ فريد بألم حادّ في حشفته.

استوى جالساً وهو يلهث ويتصبب عرقاً. غرقت غرفته في العتمة. كانت هناك قطّتان تتعاركان على السطح، تموءان مواء عالياً، ثم ساد

الصمت. أحسّ بألم في قضيبه. نهض وأشعل الضوء. وجد أن قلفته سليمة، لكن الحشفة ملتهبة قليلاً.

٨١- الذهاب إلى السينما

«يجب أن نشاهد الفيلم»، قال يوسف في الغرفة العلوية. إنه فيلم «الصبي» لشارلي شابلن. كان يوسف يحب الأفلام. لكن بما أن جميع دور السينما تقع في الشطر الجديد من المدينة، ويقلق والداه عليه كثيراً، تعيّن عليه أن يتكتم على ذهابه إلى السينما.

بالرغم من أنه لم يتجاوز التاسعة من العمر، شاهد يوسف جميع أفلام فلاش غوردن «رائد الفضاء»، ويعرف أسماء جميع ممثلي السينما الأمريكية، لكنه لم يكن يحبّ نجوم السينما العرب. «إنهم لا يسعون إلا إلى إبكاء النساء، وهو ما لا أحب مشاهدته»، كان هذا قراره النهائي.

«يجب أن يشاهد المرء شارلي شابلن ولو مرة قبل أن يموت»، أعلن هامساً متوعداً، كأنه يحيك مؤامرة. أبدى رزوق الذي يرى شابلن عبقرياً حماسة للذهاب إلى السينما على الفور، ثم انضم إليهما زاكي وصبيان آخران. في اللحظة الأخيرة، قال طوني إنه سيأتي، لكن يوسف لم يشأ أن يأتي معهم. «لأنه سيجذب جميع المهووسين الجنسيين بالشورت الذي يرتديه».

ذهب طوني لتغيير ثيابه ووصل في الوقت المناسب إلى موقف الحافلة وهو يلهث. لم يتسن له الوقت لتزرير بنطلونه الطويل، وكان لا يزال يعبث بأزرار بنطاله.

«هناك شخصان فيهما خطأ منذ ولادتهما في هذا الشارع»، قال يوسف، «فمن المفروض أن تكون عايدة صبياً، وطوني بنتاً». فقد كان باستطاعة أخت سليمان القوية الصغيرة أن تنافس أيّ فتى لأن جميع الفتيان يخشون أن ترميهم بالحجارة لأنها تصيب الهدف دائماً. حتى النساء كن ينادينها ليس بإسمها عايدة بل «حسن صبي»، وهو لقب كل فتاة مسترجلة.

twitter @baghdad_library

كانت تلك أول مرة يذهب فيها فريد إلى السينما. أخذ الرجل الواقف على الباب تذاكرهم، وقال ضاحكاً: «ها قد جاء علي بابا وحراميته». من الواضح أنه يعرف يوسف جيداً.

عندما أُطفئت الأضواء، أخذ قلب فريد يخفق بقوة. وعلى الرغم من أنه شاهد أفلاماً كثيرة بعد ذلك، فقد ظل فيلم «الصبي»، الفيلم المفضّل لديه، إنه سحر الفيلم الأول كسحر العشق الأول، وسرعان ما نسي فريد كلّ شيء حوله، وغاص في عالم الصبي اليتيم الصغير المتشرد ذي العينين الواسعتين الذي أعجب به كثيراً. لسوء الحظ انتهى الفيلم، وكانت عودة الأضواء إلى الصالة أشبه بدش بارد يسقط عليه.

انتهى العرض بعد نصف ساعة من الوقت المحدّد، وأخذوا يجرون للحاق بالحافلة. لم يكن السائق مستعجلاً، وراح يتوقف عند كل محل تقريباً في طريقه في السوق حتى يصعد الأشخاص الذين لوحوا له وبالإضافة لهذه التعاسة توقف السائق طويلا عند بعض المحلات ليستلم ما طلبه من مؤونة لبيته سابقاً. كان من الواضح أن هذه الرحلة هي رحلته الأخيرة في هذا اليوم، لذلك لم يكن في عجلة من أمره.

تجاوزت الساعة السابعة عندما دخل فريد إلى البيت. تناهى إليه صوت أبيه الغاضب في غرفة الجلوس.

«مرحبا»، قال ثم توقف. قبل أن تقول كلير شيئاً، قفز إلياس وصفعه بشدة على وجهه. هوى فريد إلى الخلف وارتطم بباب الغرفة. بدأ أنفه ينزف دماً.

توسلت كلير لزوجها بأن يكفّ عن ضربه، لكنّه بدا مثل ثور هائج. فأمسك بتلابيب الصبي، وركله في ظهره وضربه على رأسه، ثمّ دفعه إلى باحة البيت ومنها إلى غرفة المؤونة بجانب المطبخ. دفعه إلى داخلها وأقفل عليه الباب. استلقى فريد قليلاً، ثم انتصب في جلسته أخيراً. وجد هناك مفتاح ضوء، لكن لم يجد شيئاً يمكنه أن يجلس عليه. اصطفت على الرفوف مطربانات من مختلف الأطعمة والمعلبات والرزّ والطحين والملح

والسكّر. أقعى على الأرض وحاول أن يوقف نزيف أنفه، فرفع ذراعه اليمنى، وأمال رأسه إلى الوراء. بدأ النزيف يتوقف، لكنه كان لا يزال يشعر بألم شديد في مؤخرة رأسه وأذنيه وظهره. سمع كلير تبكي وإلياس يصرخ، يقول لها إنه يحمّلها المسؤولية إذا حدث أيّ شيء لابنها في الشارع في المساء مع الزعران.

عندما تذكّر فريد حركات شابلن الهزلية ابتسم. ساد الصمت في الخارج. وبعد فترة طويلة، سمع وقع خطوات خفيفة.

«كيف حالك؟» همست كلير.

«أنا بخير، لا تقلقي»، قال فريد.

«لا أستطيع أن أخرجك من هنا لأن المفتاح مع إلياس، لكني أستطيع أن أزلق شيئاً من تحت الباب...».

«نعم أرجوك، أريد قليلاً من الخبز ودفتر تمارين الجغرافيا وقلم رصاص. يجب أن أرسم النظام الشمسي. كما أني أحتاج إلى ممحاة».

«سأعود في الحال»، قالت كلير.

بعد قليل دفعت له دفتر التمارين ومسطرة وفرجاراً وقلم رصاص وممحاة من تحت الباب، بالإضافة إلى رغيفي خبز مرقوقين ولوح شوكولاتة في كيس ورق مسطّح.

بعد قليل اكتشف قصاصة ورق بين الرغيفين كُتب عليها «أحبّك. أريدك أن تحكي لي كلّ شيء عن الفيلم غداً».

لم يستطع أن يرسم النظام الشمسي بشكل جيد، لكن ما رسمه كان أفضل من لا شيء. كان معلّم الجغرافيا صارماً، تبدو يده كأنها ملتصقة بخيزرانته، فيضرب ظهر أيدي التلاميذ لأدنى سبب. كان الأطفال يخشونه كثيراً، وحفظوا أسماء الأنهار وطولها وأسماء الجبال وارتفاعاتها عن ظهر قلب كالببغاوات وهذا ما جعلهم مستقبلاً لا يطيقون سماع كلمة جغرافيا.

في صباح اليوم التالي، عوقب عدد من التلاميذ، ومنهم يوسف وسليمان. ونجا فريد من العقاب بسبب رسمته، وتذكّر كلير بامتنان. للمرة الأولى، فهم ماذا يعني حبّ الأمّ حقاً.

twitter @baghdad_library

«كيف تمكّنت من رسمها؟» سأله يوسف بفضول أثناء الاستراحة، بشيء من الحسد.

«الليالي طويلة في سجن أبي»، أجاب، محاولاً أن يجعل نبرته في شكل درامي مسرحي.

٨٢- ذاكرة الدجاج القصيرة

لم تكن العمّة سليمة تمت بأي صلة قرابة. كانت كلير وإلياس يشتريان منها البيض والدجاج عندما يذهبان إلى معلا، وحرصت كلير على أن تدعوها «العمّة» من باب اللطف والاحترام.

اتسمت بالشجاعة طوال حياتها، لم تتوقف عن رواية حكايات رائعة عن حوادث لها فيها دور بارز وأبدت فيها شجاعة أكبر من الشجاعة التي يبديها رجال القرية مجتمعين. ولعل هذا هو السبب في عدم زواجها قط.

وإذا سأل أحدهم لماذا يتحاشاها الرجال، قالت: «لأنهم يتناولون كميات كبيرة من اللحم المشبع بالخوف، فيُهضم اللحم في الجسم ويذهب كلّ شيء في طريقه، فتذهب العناصر المغذّية إلى الدم وتخرج النفايات من الجسم، ويذهب الخوف إلى القلب فيقطن هناك».

وهي نفسها لا تعرف الخوف ولا تأكل أي نوع من اللحوم، سواء أكان لحم بقر أم لحم غنم أم لحم ماعز، لأنها تعتقد أنه لا يمكن لجميع التوابل في العالم أن تزيل الخوف الذي يتملك الحيوان في اللحظات الأخيرة قبل سوقه إلى الذبح.

كانت العمّة سليمة تربي الدجاج وتكسب رزقها من بيع البيض الذي عليه طلب كبير، لأنها دأبت على تغذية دجاجاتها بأجود أنواع الحبوب. وفي وقت فراغها، تجلس مع دجاجاتها وتنشد لها أغاني أطفال بصوت ناعم. بدا أن الدجاجات تحبّ غناءها، فتقوقئ بهدوء وبصوت رخيم، كما لو أنها صدى لصوت العمّة سليمة.

كانت تحكي لطيورها حكايات عن الحبّ وعن الوفاء وعن الخيانة.

وكانت كلير تتسلى بسماعها، وتقول إن عقل العمّة سليمة ليس أكبر من عقل دجاجاتها، لذلك فإنها تفهمها جيّداً. وقال فريد إن قصصها مثيرة.

ذات يوم حدّثته عن دجاجة كابدت جميع أخطار ومهانات الحبّ. فقد رفضت غزل الديك الرائع الذي يحكم ساحة دواجن العمّة سليمة، وخرجت من الخمّ عبر فتحة في السياج إلى باحة البيت المجاور حيث يعيش ديك أبيض نحيف، وسافدته حتى سقط مغشياً عليه من الإنهاك، ثم عادت الدجاجة إلى خمّها. أخذ ديك العمّة سليمة الغيور ينقرها ويصفق بجناحيه، وبعد ذلك نالت الدجاجة عقابها كل مرّة، لكنها تعود يوماً بعد يوم إلى مغامراتها الغرامية. عندما رأى فريد ديك العمّة سليمة الرائع، شكّ في قصّتها. فقد كان من تلك الأنواع الجميلة من الديكة، له ذيل مزدان بكلّ ألوان قوس القزح.

«هناك، انظر إلى ذلك! ألم أقل لك؟» قالت فجأة. كانت الدجاجة تجتاز السياج. نهض فريد ورأى العاشقين يتراقصان حول بعضهما. ثمّ اعتلى الديك الأبيض دجاجة العمّة سليمة، التي قرفصت من تلقاء نفسها ورفعت له مؤخرتها. في هذه الأثناء، استشاط ديك العمّة سليمة غضباً محترقاً بالغيرة، وراح يصيح بصوت أجش. لكن العاشقين لم يأبها له. لم يتمكن من اجتياز الفتحة الصغيرة في السياج. كانت العمّة سليمة واثقة من ذلك. عندما ينهي الديك الأبيض جولته، تحثّه الدجاجة مرة أخرى بأن ترقص له حتى يعتليها مرة أخرى. وكما قالت العمّة سليمة، لا تعود إلى قنّها إلا بعد أن يستلقي الديك الأبيض تحت الشمس شبه ميت، حتى أنه لا يستطيع أن يبقي عينيه مفتوحتين.

أبعد فريد الديك الغيور، ولم يدعه يقترب من الدجاجة العاشقة.

عندما تتقدم الدجاجة في العمر ولا تعود تقوى على السفاد وتكف عن وضع البيض، فإن العمّة سليمة تذبحها وتبيعها لأحد أفراد أسرتها أو لأحد الجيران. كانت طريقة ذبح الدجاجات ليظل لحمها خالياً من الخوف، مشهداً رائعاً. فعندما تختار دجاجة مسنّة، تأخذ سكيناً حادّة طويلة وتخرج. تطعم الدجاجات، وتغوي الدجاجة التي أزفت حياتها على نهايتها

twitter @baghdad_library

وتستدرجها إلى منصة خشبية تنصبها وسط حقلها، وتبعد الدجاجات الأخرى جميعاً عن هذه المنصة العالية، وتدلل الدجاجة، فتطعمها قليلاً من الفستق والحبوب. فتنقرها الدجاجة وهي سعيدة، لا يعتريها أي شك. وتغني لها العمّة سليمة بعض الأغاني.

ثمّ، وبسرعة البرق، تستلّ السكين التي تخفيها وراء ظهرها من غمدها وتطعنها، لكن ليس كما يفعل الجزّار، بل كراقصة. وبعد ثوان قليلة، تختفي السكين ثانية. وتعود يدها التي أصبحت طليقة الآن إلى طاسة الذرة برفق. يدبّ الذعر في نفوس الدجاجات الأخرى لجزء من الثانية، لكنها في اللحظة التالية تعود تنقر بنهم الحبوب التي تنثرها لها العمّة سليمة حول المنصة، بينما تولي نجمة اليوم الأدبار بلا رأس. كان يبدو كأنها ستدور وتدور في الهواء للوداع، لكن قبل أن تنهي دورتها الأخيرة، تقع على الأرض على مسافة بضعة أمتار، وتختفي العمّة سليمة بسرعة في المطبخ حاملة الدجاجة المذبوحة.

«حسناً، هكذا إذاً تغادر الدجاجة هذه الحياة من دون خوف، لكن ماذا عن الأخريات؟» سألها فريد، «فقد رأتها رفيقاتها تموت. كيف يمكنها أن تصعد إلى تلك المنصة ولا تخاف؟»

«نعم، إن الدجاجات تراها»، أجابته العمّة سليمة، «لكن لديها ذاكرة قصيرة جداً - ولولا ذلك لما وضعت ولا رقدت فوق البيض منذ زمن بعيد».

٨٣- بنات الشيطان

لم يكن المسكن الصيفي الذي تقيم فيه أسرته يقع في مكان جيد. فخلال الفصل الحار، عندما تشتد الحرارة في دمشق وتصبح لا تطاق يهرع والداه إلى معلا في الجبال، حيث يستيقظ فريد صباح كلّ يوم على أصوات مزعجة: ثغاء الخراف وهي في رحلتها الأخيرة في شوارع القرية.

لم يتغيّر شيء في معلا على الإطلاق. فعلى الرغم من أن طعم العنب والتين والذرة الصفراء والبندورة فيها أطيب وألذّ من أي مكان آخر، ظلّ

الجزّارون يذبحون حيواناتهم على أبواب دكاكينهم قبالة البيوت وفي جوارها. فقد كان في معلا ثلاثة جزّارين فقط، يقع محل أحدهم قبالة بيت فريد. كان الجزّار أعور لكنه ذكي، يستهوي صوته الجميل نساء القرية.

ففي صباح كلّ يوم، يقود الجزار خروفاً من حظائره البعيدة عن محلّه. يفعل ذلك بهدوء ورباطة جأش شخص غازٍ. يمشي بتؤدة وراء الخروف، ويتوقّف عندما يتوقّف الخروف ويثغو على نحو يثير الشفقة، لأنه يشعر بأن شيئاً كريهاً سيحدث قريباً لأنه يثغو مرعوباً. يتطلع الخروف حوله بعينيه الواسعتين، بينما يغني الجزّار أغاني شعبية رقيقة عن الشوق والوحدة، ويدفع الحيوان إلى الأمام بترو. ويبدو أن إحساس الخروف يبدأ يستيقظ بأنه ذاهب إلى التهلكة، فيمشي بطريقة آلية قليلاً، ثم يتوقّف. ومن المثير للانتباه أنه يمشي متردداً ويرتفع صوت ثغائه كلما اقترب من محل الجزار. وقبل بلوغه المحل بأمتار قليلة يتوقف ويرفض التقدم أكثر، فتتصلب قوائمه، لكن بسهولة الممارسة الطويلة الأمد، يدفع الجزّار الحيوان المسكين نحو الباب ويربطه بحلقة معدنية هناك ويفتح باب المحل. هنا يزداد صراخ الخروف كأنه يأمل أن تحلّ أعجوبة تنقذه ويوقظ بثغائه كل من في الجوار. في ذلك الوقت من الصباح، يجلس فريد عادة على الشرفة.

وسرعان ما يعود الجزّار من المحل حاملاً سكيناً ووعاء من الصفيح لكي يسيل الدم فيه. يمسك الخروف بمهارة من حافريه الأماميين والخلفيين، ويلقي به مثل مصارع جودو، ويضغط بركبته على رأس الحيوان، ويأخذ الخروف على حين غرة، فلا يحدث أي جلبة. تومض السكين بسرعة، ويبدأ الدم يسيل من الخروف حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. كانت انتفاضات الخروف الأخيرة تلاحق فريد حتى في أحلامه.

مرة في الأسبوع كان الجزّار يبيع لحم الماعز الذي هو عادة لحم جدي، لكنه يذبح بين الحين والآخر لحم تيس متقدم في السن. عندما يبيع الجزّار لحم الماعز، لا تقترب كلير من محله. لأنها تحبّ الماعز كثيراً، ولا تريد أن تراها وهي تُذبح. كانت تفوح رائحة قوية من لحم التيوس العجوزة

twitter @baghdad_library

لا تستطيع أن تتحملها، حتى لو غُسلت قبل ذبحها، ولم تكن زنخة لحمها تزول حتى لو استخدم كبير من التوابل الممتازة.

لم تكن العنزات تتقدم نحو دكان الجزّار من تلقاء نفسها، بل يجرّها الجزّار بحبل، لكنها تقاوم بكلّ ما أوتيت من قوّة، ولم تكن تثغو على نحو يثير الشفقة فحسب إنما بشكل ساخط. وفي نهاية الأمر، يضطر إلى حملها، ولم يكن يغني للعنزات قط.

«إن المقاومة جديرة حتى في المسلخ»، قالت كلير التي تواسي فريد أحياناً في هذه الساعة المبكرة والحزينة على الشرفة وهي تجلب له القهوة.

بعد الظهر - عندما تباع كمية اللحم كلها - يستيقظ الجزّار من قيلولة قصيرة ويتمشّى في دروب القرية ويمر من أمام دكانه مع عنزاته وخرافه، حوالي عشرة منها، ويقودها إلى الحقول القريبة لترعى نباتات الزعتر والأشواك والريحان والبقدونس والعنب والورد وأي شيء آخر تجده في طريقها. لذلك كان اللحم الذي يبيعه مرغوباً كثيراً. وكانت نساء القرية على قناعة بأن هذه الأعشاب والرياحين تزيد من جودة لحوم هذا اللحام ونكهتها، لكن الأمر المدهش في الأمر، أنه عندما تمرّ العنزات من أمام دكانه، ترمقه بعينيها ثم تتوقّف وتثغو مهتاجة للحظة، ثم تذعن لصيحة الجزّار المتجبّر وتكمل طريقها.

«تعرف العنزات الإناث كلّ شيء عن ذلك، فهي لا تنوح مثل الخراف، بل تحكي للعنزات الأخريات بدقة وتصف المكان الذي ستذهب إليه في مشوارها الأخير»، قالت كلير التي أطلقت على الحيوانات بتعاطف اسم «بنات الشيطان» لذكائهن.

٨٤- أسرار

لم تكن العطلة المدرسية قد بدأت عندما أدرك فريد، مذعوراً، أن والده قد خطّط له كيف يمكنه قضاء عطلة الصيف القادم بتفصيل دقيق. فعندما لا يريد إلياس الذهاب إلى معلا يختلق عذراً لتبقى أسرته في دمشق

أيضاً. وكان العذر هذه المرة أنه يجب أن يجري بعض الإصلاحات في البيت وأن على كلير أن تشرف عليها لأنه سيكون مشغولاً كثيراً في محل الحلواني. فعليه أن يزوّد عشر حفلات أعراس ستقام في الحي المسيحي وحده بكميات كبيرة من الحلويات.

«وقد وجدتُ لكَ عملين اثنين»، قال لفريد عرضاً، كما لو أنه خطر في باله فجأة، وأضاف، «ستمضي فترة الصباح مع عبد الله الخطاط، وبعد الظهر مع بائع العطور الشيخ العطار. فهو أفضل من يركّب العطور في المدينة. إني واثق من أنك ستحب العمل معهما».

«لماذا عملان؟» سألته كلير، «ألا يكفي عمل واحد؟»

تجاهلها إلياس وواصل كلامه بقوله: «ستبدأ مع عبد الله في الساعة التاسعة من صباح يوم الإثنين». كان فريد يعرف مكان ورشة الخطاط عبد الله صديق والده. فعندما كان يذهب لزيارته برفقة فريد، كانا يمضيان بعض الوقت معاً، ويشعر إلياس بشيء من الحرج أحياناً فيشتري بعض اللوحات المخططة بخطّه الجميل التي تكون عادة آيات قرآنية، فيقدمها إلياس في مناسبات أخرى لزبائنه المسلمين لأنه لا يعلّق لوحات فيها آيات قرآنية في البيت. ويرى إلياس أن الخط الجميل يهذّب أخلاق الناس ويعلمهم الصبر والإتقان وتقدير الجمال.

«إذن أين يقع دكان العطار؟» سأله فريد الذي يعرف أن والده لا يطيق سماع أيّ اعتراض على كلامه.

«لا يبعد أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام من هنا، على الطريق إلى البزورية. ستتعلّم أشياء كثيرة من الشيخ العجوز العطار، إنه ساحر حقيقي، ومهنته منجم ذهب».

كان الخطاط رجلاً محترماً مسنّاً، متشنجاً، خجولاً. وطلب من فريد أن ينظف الورشة حتى تشعّ، ثم أمضى عدّة أيام في تعلّم كيف ينظّف ويشحذ ويشذّب أقلام الرصاص والأقلام والريشات والقصبات ويجهّزها لمعلّمه. مرّت أسابيع قبل أن يحدّثه عبد الله شيئاً عن أصول التخطيط.

twitter @baghdad_library

«الخط ظلّ الصوت على الورق»، قال بهدوء، ويجب أن تكتب الخطوط بوضوح شديد مثل الظلال تحت الشمس العربية.

تعلّم فريد ما قاله له الخطاط. وكان أيضاً يعدّ الشاي له ولزبائنه ويقدم لهم الماء ويؤدي له بعض الأعمال. كان عملاً شاقاً. لكنه بالرغم من ذلك، شعر بسعادة تفوق سعادة العمل في محل العطار الذي يذهب إليه بعد فترة القيلولة. في البداية، أحبّ فريد ابتسامة الشيخ العطار، لكنه سرعان ما اكتشف أنها مجرد قناع. كان الرجل بارداً كالثلج، يريد أن يستخدم فريد كأجير رخيص. كان يضع له كرسياً خارج الدكان، ويطلب من الصبي أن يحثّ السابلة على دخول المحل لرؤية العطار البارع، ولا يسمح لفريد نفسه بالدخول إلى المحل.

عندما أخبر كلير ذلك في المساء، لم تصدّقه، فذهبت في اليوم التالي لتتأكد بنفسها وراحت تراقب من بعيد، ورأت ابنها يجلس على كرسي خارج المحل، يائساً يتسول بلطف المارة. أزال هذا المشهد أي شكوك كانت تساورها.

«لم نرسله إليك لهذا السبب. إنه لا يتعلّم شيئاً على الإطلاق»، قالت للعطار بنبرة هادئة، لكن حازمة.

«لا يوجد عندي عمل آخر له»، أجاب المعلّم، بابتسامته المقنعة، «فأنا لا أدع أحداً يطلّع على أسرار عطوري ولا أن يمس زجاجات العطر الثمينة».

«إذن فليذهب كل واحد في سبيله، وشكراً لاستضافتك»، قالت كلير، وربتت على كتف فريد، وقالت له: «هيا بنا نذهب».

ذهبا لتناول البوظة في محل بكداش في سوق الحميدية، ثم عادا مبتهجين إلى البيت. قالت كلير إنها ستخبر إلياس عن توقف فريد عن هذا العمل في المساء.

وجد فريد متعة كبيرة بالذهاب إلى الخطاط، وقد أحبّ عبد الله نفسه أجيره الصغير والأسئلة المثيرة التي يطرحها عليه، حتى أنه بدأ يبتسم له قليلاً. عندما انتهت العطلة الصيفية، كان على الأقل قد علّم الصبي الأخطاء

التي يجب ألا يرتكبها الخطاط، ووافق على أن يظل الصبي يأتي لمساعدته في أي وقت يشاء.

لذلك واصل فريد في السنة الدراسية التالية تدريبه عند الخطاط. وعندما كان يريد، يستقل الحافلة ويذهب إلى ورشة عبد الله الذي يعطيه دائماً شيئاً يشغله به. وتمثّل ذلك العمل عادة في ملء الأحرف في ملصقات الإعلانات الكبيرة، بينما يقوم المعلّم بتلوين الخطوط العامة للأحرف بفرشاة رقيقة. وما تبقى كان عملاً شاقاً يستغرق وقتاً طويلاً، لكنّه علّم فريد الصبر.

أمضى فريد ستة أسابيع في العمل مع عبد الله في الصيف التالي أيضاً قبل أن يرافق كلير وإلياس إلى معلا لقضاء العطلة. منذ ذلك الحين، بدأ عبد الله يعطيه تمارين يأخذها معه إلى البيت. كان يخطط بعض الأقوال المأثورة بأحد أنواع الخطوط السبعة المختلفة التي أصبح يجيدها الآن.

ثم علّمه معلّمه تقنية انعكاس الخطّ. كان ذلك متعة حقيقية بالنسبة لفريد، جعله في كثير من الأحيان ينسى الوقت تماماً. فقد فتنه كثيراً اللعب بالانعكاسات إلى حد أنه كان يسهر في البيت حتى ساعة متأخرة من الليل وهو يشتغل على لوحة ينعكس فيها خط الثلث ستّ مرات حول مركز دائرة، منتجاً لعبة هندسية ومتاهة لتتبعها العين كأنها موسيقى بصرية.

تأثر والده كثيراً عندما قدم له فريد، بمناسبة عيد الميلاد، لوحة كتب عليها اسم «إلياس مشتاق» في شكل حلية دائرية. كان الخطّ بلون ذهبي على خلفية خضراء زيتونية، وهما لونان يحبهما والده. لم يستطع إلياس أن يرفع عينيه عن اللوحة.

«هل فعلت كلّ ذلك وحدك؟ ألم يساعدك المعلّم عبد الله؟»

«لا، لا، لقد صنعتها وحدي هنا في البيت. إني واثق من أن المعلّم الماهر عبد الله سيكشف كلّ الأخطاء فيها. إني أفضّل أن لا تريها له»، قال فريد، مبتسماً.

منح إلياس ابنه عشر ليرات في ذلك اليوم. لم يمنحه مثل هذا المبلغ الكبير من قبل قط، وقال له: «اذهب واشتر لنفسك أفضل أنواع الألوان

twitter @baghdad_library

والفراشي والأقلام. وإذا لم يكفك المبلغ فعد إليّ». بعد يومين كان اسمه الذي كتبه فريد بخط جميل معلّقاً في إطار رائع على الحائط خلفه في دكان الحلواني وراح يفاخر أمام زبائنه أن ابنه هو من خطط هذه اللوحة.

كان فريد يتدرب على كلّ قطعة ورق تقع تحت يده. قبل انقضاء سنتين، أصبح فريد يُعرف بين أصدقائه وزملائه باسم «الفتى ذو الخطّ الجميل». ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره.

لم يكن يخمّن ماذا يمكن أن تجلب عليه شهرته هذه. فلم تبد الفتيات اهتماماً كبيراً بقطع الورق التي يكتب عليها أسماءهن بخطوط منحنية، لكن أمهاتهن اكتشفن فجأة مواهبه تلك، فبدأن يدعينه إلى بيوتهن، ويستملنه، ثم يقلن له بصراحة «ألا يتفضّل ويكتب رسالة من أجلهن؟» كانت تلك الجلسات غريبة، تجري في غرف يتسلل إليها نور شمس باهت لأن النساء يكنّ قد أسدلن ستائرهن لدرء عيون الجيران المتطفلة، بعد أن يخُرجن أطفالهن من البيت ليلعبوا في الشارع عندما يردن أن يحكين لفريد ماذا يدور في خلدهن. إذ كنّ يرغبن في إرسال رسائل غرامية إلى أزواجهن وأبنائهن وأشقائهن الغائبين وأصدقائهن في المهجر او القرى النائية.

في البداية، كان يكتب كلّ ما تقوله له تلك النساء، لكن مع مرور الوقت، أصبح يعيد صياغة النصوص التي يملينها عليه حتى تبدو حقاً رسائل غرامية. ثم انتقل إلى مرحلة ثالثة بدأ فيها يستمع إلى النقاط الرئيسية فقط، ثم يستخدم حدسه لكتابة الرسالة الغرامية. في إحدى المرات وجد الطريقة الصحيحة لقول شيء أصبح يعيده ويكرره حرفياً لجميع الأزواج. وكانت الزوجات يكافئن فريد بإعطائه لوح شوكولاتة أو سندويشة لذيذة أو سكاكر، وإذا سررن كثيراً برسائلهن فكنّ يضممنه إلى صدورهن ويعانقنه ويقبّلنه.

كانت أجمل رسالة كتبها للنساء تلك الرسالة التي كتبها للشابة شفيقة التي تقيم في بيت عبدو الإسكافي في حارة العبّارة على بعد بنايتين من بيت يوسف.

في أحد الأيام، أشارت إليه بيدها وسألته بذلك الأسلوب الجاف الذي

يميّز أهل شمال سوريا كم تكلّف كتابة رسالة كهذه إلى زوجها. فقال لها إنه لا يطلب نقوداً لقاء ذلك. وعندما طلبت منه الدخول تبعها.

لم يكن فريد يعرف شفيقة إلا من خلال الأقاويل المتناقلة. ففي إحدى المرات قال يوسف إن لها جسداً جميلاً يخجل الرخام من رؤيته. بعد أن قدمت له كرسياً، جلست هي أيضاً وطلبت منه أن يكتب. بدأ يكتب بنوع من الذهول، لأن الشابّة تتكلّم بحزن، بلغة مقتضبة مركّزة، دون أن تذكر أيّ عبارة مبتذلة ودون أن تكرر نفسها. أملت عليه رسالة غرامية رائعة، وما عليه إلا أن يدوّن كلماتها على الورق. تحدثت الرسالة عن وحدتها وعن اشتياقها لزوجها الذي يعمل في ورشة بناء في السعودية حتى يتمكن من تسديد الديون المتراكمة عليه في دمشق عندما أشهرت شركة الحافلات الصغيرة التي يملكها إفلاسها.

بعد ساعة صمتت المرأة، كانت رسالتها قد بلغت ستّ صفحات. نهض فريد واقفاً بعد أن دوّن العنوان على المغلف.

«هل ترغب في تناول شيء؟» سألته دون أن تنظر إليه.

«لا، شكراً»، أجاب، «لست جائعاً. يسعدني أن أكتب لك رسائل في أي وقت تشائين». بهذه الكلمات غادر بسرعة. أسف لأن الفرصة لم تتح له لاكتشاف صحة ما قاله يوسف بأن لها جسداً رائعاً، وهل حقاً تتضوع منها، كما يقول الكثيرون، رائحة الزعتر.

عندما حدّث أصدقاءه بما حدث، سخروا منه. «لا عجب أن النساء يدعونه إلى بيوتهن ليكتب لهن رسائل، فصديقنا فريد مجرد طفل بريء كبير»، قال يوسف.

نظر سليمان بتمعن إلى فريد وهمهم، «أظن أنه خبيث وان خدعته للنساء تكمن هنا في شبكة براءة وجهه».

لم تطلب منه شفيقة الجميلة أن يكتب لها رسالة أخرى بعد ذلك. فقد قالت لفريد عندما عرض عليها ذلك إن زوجها غضب كثيراً وقال لها إنه

twitter @baghdad_library

يموت مائة مرّة كلّ يوم فوق الرمال الحارة مع السعوديين، بينما هي جالسة في دمشق الخضراء المظلّلة بالفيء، تملأ رأسها بكلّ ذلك الهراء عن الحبّ كما لو أن الحياة فيلم مصري تافه.

٨٥- الموت

كانت البناية المجاورة للبناية التي يقطن فيها فريد جميلة جداً. ولم يكن بإمكان المرء تبيّن ذلك من الخارج لأن الواجهة متواضعة، مشيّدة من الآجر الطيني والخشب مثل معظم بيوت المدينة القديمة، فقد آثر الناس إخفاء ثرواتهم عن أعين الحسّاد. وحرص أبناء الأقلّيات الدينية على إخفائها أضعاف مما يحرص المسلمون، لأنهم يتذكّرون دائماً أنّ إبراز ثروتهم يمسّ كبرياء والي المدينة، فيمارس سلطاته ويصادر أحد بيوتهم لأتفه الأسباب. فقد حدث ذلك مع اليهودي يوسف عنبر، التاجر الغني الذي شيّد بيتاً رائعاً في دمشق، ودعا جيرانه بسذاجة ليريهم ما يزمع أن يشيّده داخل جدرانه الأربعة. فتوجّهت الأرواح الحسودة بين هؤلاء إلى الوالي مباشرة وادّعوا أن اليهودي قال إن بيته سيضاهي جمال بيت السلطان العثماني بعد أن ينتهي. وفي اليوم التالي، اعُتقل يوسف عنبر وصودر البيت. وهو، منزل عنبر الذي لا يزال قائماً حتى يومنا هذا بجماله الأخاذ.

لذلك فإن الرجل الحكيم لا يدعو إلى بيته إلا أخلص أصدقائه وأقاربه. كانت هندسة البيت المجاور لبيت فريد رائعة ومتجانسة على نحو أخاذ في تداخل الشكل واللون. وقد جعلت الأقواسَ المحيطة بالباحة الداخلية وأحجار الأعمدة والجدران في الطابق الأول الممزوجة باللونين الوردي والأبيض تبدو أضخم، وكانت أشكالها وخطوطها الدائرية تسرُّ الناظرين إليها وقد انتصبت بحرة مثمنة الأضلاع من الرخام الملوّن في وسط الباحة.

كان جميل خوري هو من شيّد هذا البيت. فقد ورث ثروة كبيرة من والده الذي كان صاحب شركة شحن بحري، والذي أتى من مصر. فعندما

اندلعت اضطرابات في مصر في القرن التاسع عشر وتعرّض المسيحيون للخطر، باع شركة الشحن وجاء إلى دمشق، وازداد غنى بعد أن عمل في الصرافة، وتزوّج ابنة أسرة دمشقية عريقة، لكنها لم تكن موسرة. أنجبت له زوجته ابناً، هو جميل خوري هذا. لكن أمّه انتحرت قبل أن يبلغ الطفل شهراً واحداً من العمر. لم يعرف أحد سبب انتحارها لأنها كانت تبدو سعيدة باستمرار. ولم يعرف أحد إلا بعد موتها أنها أُرغمت على الزواج من ذلك المصري الغني وأن أسرتها كانت مدينة له بأموال كثيرة.

جرح الانتحار والإشاعات التي أشيعت عنه مشاعر زوجها الذي خُيّل إليه أنه يوفّر لزوجته الجنة على الأرض. بعد موتها بدأ يشرب كثيراً ومات بعد سنة.

ربت الجدة ابنه جميل ورعته لكن أحداً لم يتمكن من تخليصه من العبء الذي أثقل كاهله. في مطلع شبابه أقسم بأن لا يتزوّج لكي لا يجني على أطفاله كما جنى والداه عليه، فترك البيت وجميع أمواله للكنيسة الكاثوليكية بشرط أن تقدم الكنيسة الغرف للمسيحيين الفقراء المحتاجين فقط مجاناً.

منذ وفاة جميل أقامت أكثر من عشر أسر في المبنى الذي سرعان ما أصبح متهالكاً وفي حالة يرثى لها. فقد أصبح المكان الذي تطلق النافورة ماءها منه مخزناً للحطب وبراميل زيت الوقود واتسخت جدرانه واستعيض عن الكثير من ألواح زجاج النوافذ بالورق المقوّى أو الخشب.

«إنهم ليسوا فقراء، إنهم حقراء»، قال يوسف، عندما قال فريد إنه يظن أن تدهور حالة البيت تعزى إلى فقر المستأجرين. وأضاف، «إنهم لا يدفعون قرشاً واحداً لإصلاحه. إنهم أناس بخلاء مخادعون - فهم يعيشون مجاناً ويدعون للكنيسة بأنهم فقراء، وكما يقول المثل يكسرون يدهم ليشحدوا عليها».

لكن يوسف كان حقوداً. وكانت سلمى الأرملة الشابة التي تقيم في الطابق الأرضي بالقرب من باب ومدخل البناية، فقيرة مثل فأر الكنيسة، ودأبت كلير وحنان، أمّ أنطوانيت، على إعطائها ملابس وأحياناً طعاماً أو

twitter @baghdad_library

نقوداً. وعندما كان زوج سلمى على قيد الحياة، كانا معدمين إلى حد أنهما لم يكن باستطاعتهما إطعام أطفالهما الستة.

في أحد الأيام، مات زوجها فجأة، هكذا دون أي سابق إنذار بمرض وصادف أن أمّ سلمى وأختها كانتا تزورانها في ذلك الوقت، وعندما أُبلغ أحد إخوة سلمى بوفاة صهره هُرع هو وزوجته، ومكثا عند سلمى بعد أن تناولا عشاء خفيفاً قدمته لهما بالرغم من صغر البيت. فرشت سلمى لضيفيها ليناما محشورين في الغرفة الرئيسية مع الأطفال ومع أمها ونامت هي وأختها في الغرفة المجاورة حيث رقد زوجها الميت رقدته الأخيرة. كان صيفاً لاهباً، وفي الليل بدأت تنبعث من الجثمان رائحة تفسخ. وبالرغم من أن الرائحة خفيفة، شمّتها سلمى. فإذا عاش المرء في ظروف مكتظة ضيقة، فإنه سيلاحظ بسرعة انبعاث أيّ رائحة كريهة. لعنت الموت الذي سلبها زوجها وتركها وحدها مع الأطفال، وقبيل بزوغ الفجر أغمضت عينيها من شدة الإعياء.

٨٦- على الأسطحة

من غرفة يوسف يمكن للمرء أن يصل إلى سطح بيته المستوي بواسطة الدرج، ومن هناك يمكنه أن يرى بوضوح المبنى المجاور ومعظم غرفه.

«تظل جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة، والجدران رقيقة إلى حد أن الجيران يستطيعون سماعك عندما تسعل أو تضرط أو تشخر. وهم يعرفون ماذا تأكل وماذا تقول وماذا تريد أن يظل طيّ الكتمان»، قال يوسف ضاحكاً. كان سطحه محاطاً بسور حديدي مزخرف يطلق عليه الدمشقيون إسم درابزين، لذلك كانوا ينامون على السطح بأمان في الليالي الحارة. «لم تر في حياتك أشياء كهذه. فيلم من دون شاشة. قصّة جديدة في كلّ نافذة»، قال صديقه مؤكداً.

كان والد فريد يكره العادة التي درج عليها الدمشقيون وهي النوم على أسطحة البيوت في الصيف، ويقول إن الذين يفعلون ذلك هم مجرد بدو غير

متحضّرين ويريدون أن يظلوا يشعرون بأنهم يعيشون في الصحراء، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، كأن أحداً لم يخترع البيوت ولا الفراش الوثير ولا الأغطية الجميلة. لم تكن كلير تشاطره هذا الرأي، لكنّها لم تجرؤ على معارضة زوجها. غير أنها قالت لفريد إنها، على الرغم من انزعاج أمّها، كانت تمضي بعض ليالي الصيف أحياناً مع أبيها على سطح بيتهم أثناء طفولتها، وكانت تجد النوم على السطح ممتعاً، وتشعر بأنها شديدة القرب من القمر والسماء.

كان إلياس مشتاق يحترم أسرة راسمالو كثيراً، فلم يعترض على أن يمضي ابنه الليل مع يوسف أحياناً. وبخلاف كلير، لم يعرف قط أن الصبيين ينامان على السطح معاً.

شعر فريد بأنه يجلس في صالة سحرية تطل على عدة مسارح عندما أمضى الليلة لأول مرة على السطح مع يوسف. كانت كل النوافذ في الطابق الأول والأرضي من البناية المواجهة تحت ناظره هنا في الظلمة على السطح العالي. ففي إحدى نوافذ البناية المقابلة تبدأ مسرحية ما، تتصاعد أحداثها حتى تبلغ الذروة ثم تتوقّف فجأة أو تتواصل بعد استراحة قصيرة، بينما تنطلق مسرحية ثانية ثم ثالثة بالتوازي مع مسرحية أخرى تجري في نوافذ فوق أو أسفل المسرحية الأولى. تنقلت عينا فريد المدهوشتين من خشبة مسرح إلى أخرى. كانت الشخصيات في تلك المسرحيات تتشاجر وتلعب وتبكي وتحبّ وتضحك. كان يوسف يعرف برنامج المسرحيات عن ظهر قلب، يعرف متى وأين يضاجع الرجال النساء، وكيف يتضاجعون، وكم تدوم المضاجعة. كان كل ذلك أمراً جديداً كليّاً بالنسبة لفريد.

«إنه يضاجعها سبع مرات في الأسبوع»، علّق يوسف عندما رأيا شرطي المرور «معروف» في الطابق الأرضي من خلال إحدى النوافذ نصف الدائرية فوق الأبواب. يولجه في زوجته بقوة وهي جاثية أمامه. كانت تتوسل إليه وتتلوى ألماً، بأن يتوقّف، لكن الرجل راح يلكزها بقوة أكبر ويصفع ردفيها براحة يده. بدأت المرأة تبكي.

twitter @baghdad_library

«هذا الأمر يتكرر كلّ ليلة. صيحاتها تزيده شبقاً. إنها لا تحبّه إنما تحبّ سعيد الذي يقيم في الطابق الأول بجانب غرف فهيمة»، قال يوسف، مشيراً إلى الغرفة الكبيرة عند الزاوية التي كان المستأجر يذرعها جيئة وذهاباً، مرتدياً بنطالاً قصيراً. قال يوسف متنبئاً: «ستوافيه بعد نصف ساعة».

كان الرجل الجذّاب الذي يرتدي الشورت أعزب من شمال سوريا، وقد حباه الله بجسم رياضي، وله شعر أشقر تقريباً وعينان زرقاوان سماويتان، لكنّه لم يكن على قدر كبير من الذكاء، ويُشتبه في أنه يعمل مخبراً لصالح جهاز المخابرات في أدنى مستوياته، لذلك تحاشاه الناس. لكن بالرغم من ذلك، لاحقته النساء بعيون شبقة.

«إنك تمزح!» قال فريد محتجّاً، «فلا بد أنها ستكون نصف ميتة الآن من الألم، ولا تريد أن تفعل شيئاً سوى أن تخلد إلى الراحة».

نظر إليه يوسف بتعابير تشي بالزهو، وقال: «إنك لا تعرف شيئاً عن النساء. فلديهن ثمانية أرواح، بينما للشيطان سبعة أرواح فقط، لذلك لا يستطيع أن يقهر المرأة التي تلجأ إلى روحها الثامنة التي لا يستطيع الشيطان أن يبلغها». همس يوسف عندما أشعلت الجارة فهيمة الضوء وبدأت تسقي أزهارها، «انظر، إنها تنتظر دائماً حتى يبرد الطقس لأنه أفضل للنباتات».

كانت فهيمة تقيم في شقّة مع زوجها وأطفالها الثلاثة. وشأن الكثير من الدمشقيين، كانت تجيد فنّ تحويل العلب والاسطوانات وحاويات الصفيح والدلاء القديمة إلى أصص رائعة ملوّنة لزراعة الأزهار التي تزيّن بها حواف نوافذها والدرج والشرفة الصغيرة. وقد زرعت فيها نبات الصبّار وأزهار الدفلى وأوراق الريحان الصغيرة والأفوكادو والياسمين والخبازة والقرنفل.

بينما راحت عينا فريد تطوفان فوق جميع النباتات، نشب شجار بين فتاتين في إحدى غرف النوم الواقعة إلى يسار الدرج في الطابق الثاني. كان مسعود الشحيح يقيم في تلك الشقة مع زوجته التي تصغره عشرين سنة مع ابنتيهما اللتين تشبهان أمّهما وفي عينيهما حَوَلٌ مثل عيني أمّهما. راحتا تتعاركان بالوسادات، وفي غمرة ذلك، اندفع مسعود إلى الغرفة وصفعهما

على وجهيهما بقوة وأطفأ الضوء. راحت الفتاتان تنشجان، لكن فريد رآهما بعد ذلك تستلقيان بجانب بعضهما في ضوء اللمبة الصغيرة الباهت، تضحكان بصوت منخفض لكن بحرارة على غضب أبيهما.

في الوقت نفسه، إلى يسارهما، بدأ الممرض بطرس يتشاجر مع زوجته بسبب مزهرية مكسورة التي حاول جاهداً لصقها ولملمة أطرافها. ضحك يوسف وقال: «ربما وضع قضيبه في تلك المزهرية». لأنه يقال إن الممرض يولج قضيبه في أيّ فتحة يصادفها. أما زوجته فهي امرأة تقية جداً، تُلبس بناتهما الثلاث ثياباً قديمة الطراز تظهر فيها الفتيات مثل نساء عجائز كبرن قبل أوانهن. كان الجيران يحكون حكايات عن نشوب شجارات غاضبة في غرفة النوم الزوجية لأن بطرس أراد مضاجعة زوجته كلّ ليلة لكنها لم تكن تسمح له بذلك.

دهليز ضيّق يربط شقّة الممرض بغرفة البحّار العجوز جبران. غمر الظلام الغرفة.

«ألم أقل لك؟» همس يوسف عندما مرق شيء فجأة في الطابق الأرضي المظلم في البيت المجاور.

«ماذا؟ لم أر شيئاً»، قال فريد.

«إنها تنتظر في الطابق الأرضي أسفل الدرج هناك حتى تسدل فهيمة ستائر الغرفة وتنام»، قال يوسف.

كانت فهيمة المستأجرة الوحيدة في البناية التي تمتلك ستائر سميكة في غرفتها، بينما لم تكن لدى الآخرين أي ستائر أو لديهم ستائر رثّة مهترئة تُظهر أكثر مما تخفي.

بعد عشر دقائق أطفأت فهيمة ضوء غرفتها، وبعد دقيقة راحت سميرة، زوجة شرطي المرور، تصعد الدرج حافية إلى الطابق الأول. صامتة كظلّ، انسلّت إلى غرفة سعيد.

«لم تر في حياتك رقصة حبّ كهذه»، همس يوسف مستثاراً. كان صوته يشي بوعد بأن أموراً كثيرة ستحدث. أُطفئ نور الكهرباء في غرفة

twitter @baghdad_library

سعيد ثمّ انبعث ضوء عود ثقاب مرتعش ثم أُشعلت شمعة. كان نورها خافتاً لكن فريد تمكن من رؤية طيف جسدي العشيقين وكأنه يتفرج على مسرح ظل. ظلاً هادئين تماماً لأن النافذة كانت مفتوحة والستارة رقيقة.

أخيراً، بدأت لعبة الحبّ. فقد حمل الرجل حبيبته وراح يدور بها حول الغرفة، وقد لفّت ذراعيها وساقيها حوله. رقص معها، ثم ضغط جسدها إلى الحائط، ثم وضعها برقة على السرير ورقد فوقها ليحملها ثانية كأن وزنها لا يزيد على وزن ريشة. دار بها في غرفته، ثم جلس على كرسي وامتطته المرأة وجثمت فوق حضنه، وراحت تحرّك جسمها إلى الأعلى والأسفل على نحو إيقاعي كما لو أنها تمتطي حصاناً يخب. بعد قليل، حملها الرجل وراح يدور بها ثانية ثم أنزلها ببطء لتنهض وتقف على قدميها ثانية، ثمّ ضمها مثل راقص من الخلف. كان فريد متيقناً من أن سميرة تبتسم. كان يعرف وجهها. شاحبة، ذات بشرة بيضاء، وشعر أسود غامق.

لم يعرف الفترة التي أمضياها في رقصتهما ومضاجعتهما بعد ذلك، لأن نافذة جبران العجوز لفتت انتباهه فجأة، فقد قيل إن هذا الرجل العجوز شاهد وجهي العالم الأنسي والجني. كان رجلاً محطّماً لا هدف له، لكن الكنيسة الكاثوليكية أنقذته من قاع بؤسه ووجدت له غرفة في البناية الكبيرة. فقد رفض أن يمضي ليلة واحدة في بيت القديس أناستاسيوس للمسنين. كان جبران قبطاناً بحرياً في الماضي، هكذا يحكى، وقد جمع مالاً كثيراً، لاسيما من تهريب الأسلحة، لكنه خسر كل شيء في الحانات ودور الدعارة في الموانئ التي ترسو سفينته فيها، وعاد أخيراً إلى دمشق صفر اليدين، كما كان عندما غادر المدينة قبل خمس وأربعين سنة بحّاراً شاباً.

اعتاد جبران على رواية قصص كثيرة، معظمها أكاذيب، وفي غالب الأحيان مروعة أيضاً. لكن شباب الحي المسيحي أحبّوه. وكان مستعداً لحكاية قصّة لقاء سيجارة واحدة، وفي حال وجود نساء في القصّة يطلب خمسة قروش إضافية لشراء جرعة من العرق. وإذا سكر، يحكي قصصاً من دون مقابل، لكنّه يطلب نصف ليتر من العرق حتى يسكر.

في تلك الليلة من ليالي آب راح جبران يذرع غرفته جيئة وذهاباً، يرمق

صورة على الحائط ثم يبكي ويضحك ويتكلّم مع أشخاص غير مرئيين يبدو أنهم يشاركونه الغرفة.

«بماذا تراهن بأنه يتحدّث عن الحملات الصليبية أو عن علاقاته الغرامية في هاواي أو هونولولو؟» قال يوسف الذي يعرف الصورة المعلقة على الحائط، «كلّ ما فيها سفينة شحن قديمة قبيحة الشكل عليها قبطان ضامر يلوّح من مكان بعيد فوقها، يدّعي جبران بأنه هو هذا القبطان».

لم يسبق لفريد أن زار البحّار العجوز مع أنه يقيم في مكان قريب منه. لم تكن كلير تسمح له، فلم تكن تحبّ الرجل العجوز الوسخ، حتى إنها لم تكن تصدق أنه ركب البحر قط، وكانت تقول إن جبران حشر في رؤوس الشباب الكثير من القصص السخيفة عن حياة البحارة، وهذا ما قد يغري الشبان بمغامرات وهجرة تدمر حياتهم.

٨٧- القراءة المحرمة

«إنه لا يلائمك»، قال إلياس عندما رآه فريد ذات يوم جالساً يقرأ كتاباً سميكاً وسأله ماذا يقرأ. أثار ردّ والده الفج شكوكه فراح يبحث عن الكتاب ذي الغلاف البني في اليوم التالي. لم يعثر عليه في المكتبة البسيطة القائمة في غرفة الجلوس، أو ملقى على أيّ طاولة. لم يجده أيضاً في الأيام التالية. قال يوسف إنه عندما يخفي الآباء كتاباً فلا بد أنه يتناول موضوع الجنس. كان عليه أن يواصل البحث عن ذلك الكتاب، أضاف يوسف، وأن يحضره إلى الغرفة العلوية.

ظل فريد يحاول التهرب من تنفيذ هذا الطلب، لكن يوسف لم ينسه. عندما ذكّر صديقه للمرّة الثالثة، قرّر فريد أن يبحث عنه في الخزانة في غرفة نوم والديه، مع أنه لم يفعل شيئاً كهذا من قبل. بطريقة ما، كانت غرفة النوم تلك محرّمة عليه، فلم يكن إلياس يحبّ أن يراه فيها، وكانت كلير تأتي بنفسها إلى غرفة فريد وهو طفل لتراه قبل أن يخطر بباله أن يدخل غرفة نوم والديه.

twitter @baghdad_library

كان قلبه يخفق بقوة عندما فتح باب الخزانة الخشبية الثقيل. شكّ فريد في وجود مخبأ سري توضع فيه الكتب المحرمة. لكنه رأى الكتاب ملقى في مكان ظاهر داخل الخزانة ملفوفاً في قماشة حمراء. لم يكن كتاباً عن الجنس بل عن جرائم القتل المشهورة في التاريخ، وكُتبت تحت العنوان الطويل بخط واضح عبارة «غير مناسب للنساء والشبان».

«هذا لأن المؤلفين لا يعرفون عادة شيئاً عن النساء»، قال يوسف، «يجب أن يعيشوا هنا في بيت مليء بالإناث مثلي ليكتشفوا أن النساء يمتلكن أعصاباً قوية. نحن الرجال ضعفاء بالمقارنة معهن».

ثمّ قرأ بصوت مرتفع. ضم الكتاب روايات عن أكثر من خمسين جريمة قتل والعقوبات التي أنزلت بالمجرمين أو الملوك الذين أطاحت بهم ثورة مثل الملك لويس السادس عشر وزوجته الشهيرة ماري أنطوانيت. كانت الروايات دقيقة وثائقية وبعضها قاسياً للغاية. وقد انطبعت في مخيلة فريد إحدى تلك الإعدامات. وهي العقاب الذي أنزل بحق قاتل الجنرال كليبر، ممثل نابليون في مصر. فقد كان القاتل طالباً فقيراً لا يتجاوز عمره الثالثة والعشرين، يدعى سليمان الحلبي، وهو شاب متدين من مدينة حلب، ذهب إلى القاهرة ليقتل ذلك الكافر المنتصر نابوليون. لكن هذا رحل عن مصر وترك كل شيء تحت قيادة جنرال مغامر يدعى كليبر. وتمكّن سليمان الحلبي بشجاعة وتصميم لا يتصورهما العقل من التسلل إلى مقر القيادة الفرنسية رغم الحراسة المشددة وطعن كليبر فأرداه قتيلاً.

قدم الفرنسيون عملية إعدامه في عرض مسرحي بربري مريع. فقد صعد سليمان الحلبي إلى خشبة المسرح الضخمة، وشاهده آلاف المشاهدين. أصبح في حالة يرثى لها بعد عدة ليال من التعذيب. لكن المظاهر خادعة. فقد تحلى سليمان كما وصفه حتى أعداؤه برباطة الجأش وبالصبر.

عُزفت الموسيقى الفرنسية وأُطلقت طلقة مدفع معلنة افتتاح المسرحية. تُلي القرار على الملأ، وقطعت رؤوس أربعة مشايخ متّهمين بالضلوع في

المؤامرة. كانت تلك مجرد المقدمة. ثم تقدم ضابط وقال إن اليد التي تُرفع ضد فرنسا مصيرها الحرق، وكرر الضابط تحذيره من أن تثير صيحات الرجل أيّ إحساس بالشفقة بين المشاهدين، لأن الرجل المدان لا يستحق أي شفقة في نظره ونظر فرنسا.

وضع جنديان يد الرجل اليمنى في مجمرة تلتهب بالنار حتى تفحّمت وسقطت من مكانها. لكن سليمان الحلبي لم يصرخ ولم يبك، إنما وقف هناك كما لو أنه كان في عالم آخر، يحدق سارحاً في الأشخاص الذين يعذّبونه.

لم يصدر الشاب أي صوت آخر حتى لحظة موته على الخازوق الذي اخترقه، حتى وهو تحت أشد وأقسى أنواع التعذيب.

ثم انتقمت القوّة الفرنسية المحتلة فصبت جام غضبها على المدينة التي وفرت الحماية لرجل مثل سليمان الحلبي وأمطرت الحي القديم في القاهرة بقذائف المدفعية. وعُثر على أكثر من ثمانمائة قتيل تحت الأنقاض.

«بالمقارنة مع قصص هذا الكتاب»، قال يوسف عندما وصل إلى الصفحة الأخيرة بعد أربع ليال، «فإن ما يسميه أساتذتنا دروس تاريخ ما هي إلا خراء مصفّى».

٨٨- الصورة

لو حاول أن يتذكر المرة الأولى في حياته التي ثار فيها بحدّة على أحد، فإنه سيتذكر دائماً صورة صغيرة التقطت له عندما كان صبياً في الثانية عشرة من عمره. بدا فريد في الصورة وديعاً وهو يحدّق بعيداً، أُخذت من زاوية طفيفة حسب الأسلوب المعتاد في جميع الصور الفوتوغرافية التي كانت تؤخذ في ذلك الحين. بدت في عينيه مسحة من الكآبة، وبدا في نظرته تصميم يكاد يشي بالتحدي. وقد بذل فمه محاولة خفيفة لرسم ابتسامة ودّية طلبها منه المصوّر.

في ذلك اليوم ارتدى فريد قميصاً بنياً غامقاً بياقة واسعة فوق سترة. في

twitter @baghdad_library

الصورة بدا قميصه أسود وسترته رمادية اللون. وقد مشّط شعره المموّج إلى الوراء.

كانت سارة، أخت زاكي، قد قالت له قبل أسبوع إن شعره جميل، لكنه سيبدو أجمل بكثير لو أنه دهن شعره بزيت شعر ثم مشّطه وسيصبح سواده أكثر لمعاناً من لونه الكامد الطبيعي القريب من الأسود.

لم يجد أيّ نوع من زيت شعر في البيت. أخرج ليرة من حصالته وانطلق إلى الحلاق الأرمني. ابتسمت كلير له عندما عاد إلى البيت واتّجه إلى المطبخ مباشرة ليرى إن كانت ستلاحظ ذلك.

«يا لك من فتى وسيم»، قالت له وعانقته. ثمّ نظرت إليه ثانية وقبّلته على جبينه وقالت له: «لو كنتُ فتاة شابة لأغرمتُ بك على الفور. لكن للأسف يجب أن أتيح المجال للأخريات».

فوجئ قليلاً عندما رأى في المطبخ فطائر ورقائق محشوة باللحم المخبوزة وأكداس من الخضراوات المعدّة للطهي. كانت المائدة مليئة أيضاً بالأطباق الطافحة بالسلطة والرزّ المزدانة بحبات الصنوبر. لكن لم يكن لدى فريد وقت للتسكع وطرح الأسئلة. انطلق مباشرة لزيارة يوسف، وفوجئ بأن صديقه لم يلحظ أيّ تغيير عليه، ثمّ التقى برزوق وسليمان وعايدة وأنطوانيت في حارة العبّارة، ولم يبد أيضاً أحد منهم إعجابه بجمال شعر فريد الجديد. لم يتمكن من التوجّه إلى بيت سارة لأن شقيقها في تلك اللحظة، كان في الشارع مع الفتيان الآخرين، يشرح لهم لماذا لا يستطع أن يدعو أحداً إلى البيت. فقد قال: «يمكننا أن نذهب غداً، لأنهم ينظفون البيت اليوم كالمجانين لاقتراب العيد الكبير لليهود، وعندما يرون أحداً جالساً فإنهم يجدون له عملاً في الحال».

عاد فريد يجرّ أذيال الخيبة إلى البيت، لاعناً حظّه العاثر، ولم يكن يعرف أن والده كان قد دعا عشرين حلوانياً في السوق إلى العشاء. عندما دخل صالة البيت الأمامية، سمع جلبة مرحة من غرفة المعيشة. لبث واقفاً لوهلة وراح ينظر إلى الفناء الداخلي. لم ير أحداً. أسرع إلى جهة اليمين،

متجاوزاً غرفة المؤنة ثم إلى المطبخ. كانت كلير في المطبخ تتناول الطعام وحدها إلى مائدة صغيرة.

«ما الخبر؟» سألها لاهثاً.

«لقد دعا والدك زملاءه إلى العشاء ليشكرهم على انتخابهم له».

«من أجل أي منصب انتخبوه؟» سأل فريد، وألقى نظرة عبر نافذة المطبخ على غرفة المعيشة حيث انطلق الرجال المنتشين في عاصفة من الضحك.

«لقد أصبح والدك الآن رئيس الحلوانيين في دمشق. إنه شرف عظيم له. فلم يشغل هذا المنصب مسيحي قط من قبل».

هزّ فريد رأسه إقراراً بذلك. ولما كان جائعاً فقد التهم بسرعة فطيرة محشوة باللحم، ثمّ تناول فطيرة ثانية محشوة بالجبن المصنوع من حليب الغنم.

«يجب أن تجلس وتأكل بهدوء»، قالت كلير، «أو من الأفضل أن تذهب وترحب بأبيك وبضيوفه أولاً ثم تعود لتتناول طعامك».

«هل يتعين عليّ أن أفعل ذلك؟» سأل فريد تلقائياً، وأضاف، «لماذا لا تجلسين معهم؟»

«لا يجد ضيوفنا ذلك لائقاً. إنهم مسلمون، وليس من عادات المسلمين أن يتناولوا الطعام مع نساء غريبات. هيّا اذهب الآن. يجب أن ترحب بهم ثم عد إلى هنا».

إرضاء لها ذهب مع أنه لم يرغب ذلك. عندما دخل غرفة الجلوس، غمرته سحابة من الدخان ورائحة اليانسون اللتي يفوح بها العرق. كان الرجال يضحكون.

«آه، لقد جاء ولي العهد»، صاح حلواني بدين، له حاجبان كثيفان. أعقبت كلماته لحظات من الصمت.

«نهاركم سعيد وأهلاً وسهلاً بكم»، حيّاهم فريد بصوت يكاد يكون غير مسموع.

twitter @baghdad_library

«ماذا بحق السماء تظن أنك فاعل؟» صاح والده الجالس على العرش، على رأس المائدة، وأشار إلى شعر فريد المدهون بالزيت. «رحّب جيداً بالسادة المحترمين ثم تعال إليّ هنا».

كان إلياس سكراناً. تملك فريد شعور بالغضب والخجل الشديدين. صافح جميع الضيوف واحداً واحداً، وحاول أن يتجاهل ملاحظاتهم الساخرة عن شعره، مع أنه سمع بعضهم يمتدحونه أيضاً، ثم عاد إلى المكان الذي يجلس فيه والده، وتجاوزه ليتوجّه إلى النصف الآخر من الحلوانيين، ورحّب بجميع الرجال هناك أيضاً. بدأ شعوره بالانزعاج يخفت، لأن الرجال لم يعودوا يلاحظونه. وعادوا يتكلّمون مع بعضهم البعض وصافحوه بأيد مرتخية غير مبالية. لكن الرجل الأخير الجالس بجانب الباب، أمسك يد فريد بإحكام ومسّد خدّه باليد الأخرى.

«ألن تمنحني قبلة صغيرة؟ العمّ حميد يحبّ الصبية الجيدين»، قال وشفتاه الرطبتان تبتسمان لتكشفا عن أسنان مصفرّة.

«لا»، دمدم فريد، وسحب يده بعيداً بقوة ثمّ عاد إلى أبيه.

«هل تأمر بشيء، يا أبي»، قال فريد بطريقته المعهودة، كما يرغب أبوه منه منذ أن كان فريد طفلاً، قبل أن يغادر غرفة الضيوف، لكي يتفاخر بأن ابنه حسن التربية. أدار إلياس نظرته الساهمة نحوه، وتناول منديلاً من القماش بيده اليسرى، وأمسك ياقة ابنه بيده اليمنى وشدّه إليه.

«إن ابني ليس مخنثاً أمريكياً». كانت أنفاسه المشبعة برائحة اليانسون مروّعة، جعلت فريد يشعر بالرغبة في التقيؤ. لكن والده قرّبه منه أكثر وراح يفرك رأسه بالمنديل الكبير كأنه يجففه. ضحك الرجال.

«يجب تربية الشباب تربية عربية جيدة»، قال أحدهم.

«نعم، يقول المثل: بارك الله في الرجل الذي يضربني، لا في الرجل الذي يدلّلني».

أعقب ذلك ثرثرة لأصوات متداخلة، وأحكم إلياس قبضته عليه. شعر فريد بأن فروة رأسه تحترق. ظلت يد والده تمسك بياقة قميصه بقوة حتى

بدأ يتنفّس بصعوبة. أحسّ بأنه يختنق. بحركة عنيفة حرّر نفسه وسقط إلى الخلف. ارتعب إلياس عندما سمع صوت ارتطام رأس ابنه على الأرض.

«أيها الأحمق!» تلعثم مذعوراً، «كان من الممكن أن تكسر شيئاً او ان تجرح رأسك».

استوى فريد واقفاً واندفع خارج غرفة الطعام يلفه صوت ضحكات الرجال. رأى كلير تخرج من المطبخ وهرع مسرعاً متجاوزاً إياها إلى غرفته وأقفل على نفسه الباب.

تبعته كلير ونقرت بهدوء على باب غرفته، لكنّه لم يرغب في رؤيتها. في هذه الهزيمة المذلّة، شعر بالخجل لرؤية عينيها المتعاطفتين. كان غاضباً منها لأنها طلبت منه الذهاب لرؤية أبيه. بدا فريد وحيداً ومستميتاً. لقد أدار له العالم ظهره.

بعد قليل، تمالك نفسه ورأى شعره في المرآة منكوشاً مثل حقل قمح بعد ليلة عاصفة. فجأة، لم يتمالك نفسه عن الضحك. ظلت تلك اللحظة الحاسمة ماثلة في ذاكرته إلى الأبد. قرّر أن يتحدى والده، وقال لنفسه: «سأترك شعري على حاله حتى لو متَّ غيظاً».

فوجئت كلير عندما رأته يندفع خارج غرفته، وعندما سمعت باب البيت يخبط بعد قليل أدركت أن زوجها عامله بطريقة غير لائقة مرة أخرى امام الغرباء.

لم يكن على فريد أن يذهب بعيداً. كان «استوديو النجوم» للتصوير الفوتوغرافي يقع قبل تقاطع موقف القشلة. تفاجأ المصوّر باسل عندما دفع له الفتى المبلغ الذي طلبه مقدماً، ودون أن يساومه، أخرج كومة من القروش التي كانت، كما ظن المصور، هي كلّ مدّخراته. عدّ الفتى النقود بعناية، وأعاد باقي القروش إلى جيبه، نظر بكبرياء إلى المصور وقال: «لهذا السبب، أريدها أن تكون أفضل صورة تلتقطها في حياتك. سأحتفظ بها طوال حياتي».

لم تكن لدى المصوّر أدنى فكرة عما يريد الفتى من هذه الصورة، لكنه

twitter @baghdad_library

بدا شديد الرغبة في أن يلتقط صورة جيدة، وشعر بالارتباك قليلاً. اقترح على الفتى أن يمشّط شعره لأن الكاميرا تسجّل كلّ شيء. أخذ رشفة من الماء ثم أخذ يدقق النظر فيه. دهش قليلاً عندما رأى فريد يرتّب شعره المزيّت بعناية أمام المرآة، مصففاً كلّ خصلة فيه.

«إنك تشبه ذلك الممثل الشاب المشهور، لقد نسيت اسمه الآن»، قال يجامله.

بعد ثلاثة أيام، كانت الصورة جاهزة. كان فريد أكثر من راض، ومنذ ذلك الحين، صار يأخذها معه حيثما ذهب.

٨٩- المخترع

بينما كانوا جالسين على الأرض خارج بيت يوسف، ينصتون بأنفاس خافتة إلى القصّة التي يحكيها سليمان، نادت إحدى الجارات عازر وسألته هل يستطيع أن يأتي ويصلح لها المكواة المعطلة؟ لأن عازر، رغم أنه لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ماهر كما لو كان ميكانيكياً وكهربائياً ونجاراً في آن معاً.

شاهد سليمان مؤخراً فيلماً لإرول فلين، وحكى لأصدقائه عن «مغامرات دون جوان». وبما أنه لم يسمح للأطفال بدخول السينما لمشاهدة هذا الفيلم، فقد أعطى سليمان البوّاب سجائر إسبانية كرشوة سرقها من جيب أبيه الذي يعمل سائقا لدى السفارة الإسبانية.

كان فريد متيقناً من أن الفيلم لم يكن مثيراً مثل رواية صديقه، لأنه عندما يبدأ سليمان حكاية القصة، يبدأ بعرض الفكرة الأساسية للفيلم وبسرعة يبدأ باختلاق قصّة من بنات أفكاره تدور أحداثها الرئيسية حول القصة. وكثيراً ما تحيد القصّة عن مسارها عندما يقاطعه أحد مستمعيه.

ردّ عازر الذي لم يكن يملّ سماع قصص سليمان على الجارة وقال لها: «سيكلّفك ذلك عشرين قرشاً».

«يا إلهي إنك ترفع سعرك باستمرار. انظر، تعال هنا، إني متأكّدة من أننا سنتفق».

«لا، عشرون قرشاً أو لن أصلحها»، أجاب عازر، «آخر مرّة»، تمتم بصوت منخفض، «لقد ضحكت عليّ، فقد غشّتني ببرتقالة وقبلة مليئة بالبصاق على خدّي. كانت قبلتها كابوساً! لا أستطيع أن أتحمّل رائحة السمك والبرتقال النتنة التي تفوح منها».

«حسناً» قالت المرأة، «لكني لن أعطيك أكثر من خمسة عشر قرشاً، هذا كلّ ما لديّ».

استوى عازر واقفاً والتفت إلى سليمان وقال: «لا تواصل رواية القصّة حتى أعود». كان دون جوان يضم حبيبته بين ذراعيه في تلك اللحظة. وتصور فريد وقوف المنظر على الشاشة الخيالية عند هذه اللقطة.

«اطلب منها أن تدفع العشرين قرشاً لك وأنا الذي سأضاجعها»، قال يوسف بابتسامة متكلّفة.

«بحق السماوات العلى ستمتصّك وتلتهمك وتبصق عظامك، عندها ماذا سأقول لأمّك، يا مدلل؟» قال عازر.

عاد بعد ربع ساعة لاعناً المرأة التي لم تدفع له سوى عشرة قروش وبرتقالتين.

٩٠- بيت ليلى الجديد

لم يلتق فريد بزوج عمته عادل إلا في زيارتين أو ثلاث زيارات إلى بيروت. عندما ذهب مع والديه لزيارة العمّة ملكة، لم تكن عيناه وأذناه تتركز إلا على ليلى. كان يعرف أنه رأى العمّ عادل ذات مرة جالساً عند طرف المائدة عند الغداء، لكن بالرغم من ذلك، لم يترك والد ليلى أيّ انطباع لديه، بل هيمن إلياس وملكة على أجواء المائدة بأحاديثهما. عندما عاد إلى دمشق، لم يعد فريد يتذكّر وجه الرجل بسهولة.

كانت ليلى تعتني بابن خالها الصغير بمحبة كبيرة فتمكنت كلير من أن

twitter @baghdad_library

تتفرغ لنفسها خلال تلك الأيام التي أمضوها في بيروت، وأمضت وقت فراغها في التسوق مع أخت زوجها. كانت بيروت في أربعينات القرن العشرين نافذة على الغرب، مدينة البضائع والعادات الغريبة المستوردة من جميع أنحاء العالم. أما دمشق، على النقيض من ذلك، فكانت لا تزال مدينة ناعسة تقبع في وسط مناطق زراعية.

في يوم من أيام شتاء ١٩٥١، نقلت مكالمة هاتفية الخبر المفجع بوفاة العمّ عادل نتيجة نوبة قلبية مفاجئة. كان قد استيقظ في الليل وشعر بالعطش، لكن يبدو أنه لم يتمكن من بلوغ الثلاجة، فسقط ميتاً في الدهليز.

بعث إلياس رسائل بالتلكس إلى شقيقيه سلمان في معلا وحسيب في أمريكا. ظل سلمان يحقد على أخته فرفض حضور جنازة زوجها، وكتب حسيب بضع كلمات تافهة، ولم يأت أيضاً. أما إلياس فقد انطلق في ذلك المساء برفقة كلير وفريد ووصلوا إلى بيروت في ساعة متأخرة من الليل. أبدت ملكة لهم مشاعر الامتنان، لأنها لم تكن على وفاق مع أسرة زوجها أيضاً. لذلك لم يكن هناك أحد يساندها هي وبناتها.

كانت ابنتها بربارة في التاسعة عشرة من عمرها. بمزاجها الحاد وشخصيتها القوية، كما أدرك إلياس بدهشة، أنها صورة عن جورج مشتاق العجوز. وكانت ليلى في السابعة عشرة من عمرها آنذاك، وفوجئ فريد بشحوب وجهها. انتابه شعور بالقلق لرؤيتها هكذا. وعندما رآها مستلقية باسترخاء على الأريكة مغمضة عينيها، ظنّ أنها ميتة. أما إيزابيل، أصغرهن، فلم تكن تتجاوز التاسعة من العمر، وتجاهلها فريد لأنه يعتبرها فتاة صغيرة سخيفة. وأمضى معظم وقته جالساً مع ليلى يهدئ من روعها ويمسّد يدها.

كانت ملكة تنتحب وتقول إن عادل وعدها بأن يسافرا في رحلة شهر عسل لم يقضيانه قط في الربيع القادم. فقد أزمع على أن يأخذها إلى روما وفينيسيا وباريس وفيينا ولندن. شجّعتهما بربارة على الذهاب، وقالت إنه يمكنها هي وليلى الاعتناء بإيزابيل الصغيرة.

بعد سنة بدأ إلياس يبحث لأخته ملكة عن بيت تقيم فيه في حي

الصالحية بدمشق، فباعت المصنع والفيلا اللذين يملكونهما في بيروت بسعر جيد. وفي صيف عام ١٩٥٣ عادت مع بناتها إلى العاصمة السورية، لكنها رفضت أن تطأ قدمها معلا مرة أخرى.

أقاموا في بيت ضخم جميل شيّده أحد أقارب السلطان العثماني في القرن الثامن عشر، وتمكّن فريد الذي تعلّم أسرار الخط العربي، أن يفكّ لعمّته وبناتها رموز الجمل التي تزدان بها الأسقف والجدران. فقد ازدانت الجدران والأعمدة والأسقف في غرف الفيلا بأقوال وأمثولات صوفية وشاعرية ودينية تتطابق مع الوظائف التي خصصت هذه الغرف من أجلها. دوّنت بربارة كلّ شيء بعناية، أما ليلى فراحت تراقب الفتى بعينين حالمتين. كان كلّ ما يفعله يلامس قلبها، وقالت لنفسها إنه فتى وسيم ونبيل يشبه أبناء الأمراء وهو واقف هناك يحلّ رموز مخطوطات النصوص العربية كلمة كلمة وكأنه ساحر، وعندما حلّ المتاهة الخطّية لإحدى المقولات التي بدت لها كغابة، اتضحت لها وصارت تقرأها كلما مرت بها. فقد كان في الحمّام وحده ثلاثون مخطوطة منها، تتحدث جميعها عن الماء والجنة.

كانت ملكة امرأة قديرة. فقد اشترت، بمساعدة أخيها، بعض الحقول الواسعة المغبرة غير المزروعة في شمال شرق المدينة القديمة بسعر جيد. ثم أصبحت هذه المنطقة بعد سنوات منطقة سكنية جميلة تقطنها الطبقة المتوسطة. وبعد عشر سنوات ارتفعت أسعار الأراضي في هذه المنطقة حوالي مائة مرة على المبلغ الذي اشترتها به.

من المفترض أن يكون فريد سعيداً بعودة ابنة عمته الأثيرة لديه إلى دمشق، لكنه ندب حظّه السيء لأنه كان مضطراً لمغادرة المدينة إلى دير القديس سباستيان في الشمال.

«إذا حضرت الملائكة بيتاً»، قالت ليلى مازحة، «هربت الشياطين». نظرت إليه وضحكت لإخفاء أسفها وحزنها، لكن لم يكن بوسعها أن تخدع فريد.

twitter @baghdad_library

٩١- وفاة الجدّ

كان يوماً مشمساً من أيام شباط، راحت جدّته لوسيا تحكي القصّة، عندما وجد نجيب أحد أرانبه مريضاً في ذلك الصباح. كان الجدّ يحبّ الأرانب وأقام لها قناً جميلاً. لم يكن لديه عدد كبير منها، على الأغلب ستّة أو سبعة أرانب. لم يكن فريد يحبّ الأرانب ولم يذهب عادةً إلى الشرفة المتجهة شرقاً في بيت جدّيه حيث يوجد القنّ، مع أن كلمة قنّ لم تكن الكلمة المناسبة له. فقد أقام الجدّ بقعة صغيرة مسيجة من الطبيعة، فيها جدول ماء وكهوف ومصاطب مشمسة، تحيط بها أسلاك مشبكة. وكان قبالة القنّ مقعد يجلس عليه لساعات طويلة، يراقب أرانبه وهي تجري وتتقافز أمامه تغمره سعادة كبيرة مثل طفل، أما الجدّة لوسيا فكانت تكرهها.

كدأبه كان الجدّ جالساً على مقعده في صباح ذلك اليوم في حضنه أرنب أسود كبير. شعر بالقلق لأن الأرنب لم يكن على ما يرام. نظرت الجدة من المطبخ ورأت نجيب يجلس هناك من دون لفاع. فتحت نافذة المطبخ ونادته لتطلب منه أن يرتدي شيئاً أكثر دفئاً، فقال لها إنه سيدخل بعد قليل. أعدّت لوسيا قهوة. عندما التفتت لتنظر إليه ثانية، كان يجلس هناك مكوراً على نفسه بينما الأرنب الأسود يقفز مرحاً حول الشرفة.

«نجيب»، صاحت الجدّة، وقد اعتراها إحساس بالشؤم، لكن الجدّ لم يعد يسمعها.

ما إن وصل فريد إلى البيت عائداً من المدرسة حتى رنّ جرس الهاتف. «أوه، لا، بحق الله! إني قادمة على الفور»، صاحت كلير في سماعة الهاتف، واندفعت خارجة من الغرفة بسرعة.

«ما الذي حدث؟» سأل.

«مات أبي».

كان الجدّ مسجّى على السرير. تدفق الجيران والأقارب إلى البيت وراحت كلير تبكي مثل فتاة صغيرة. لم يرها فريد قط وهي تذرف دموعاً غزيرة بهذا الشكل. لم تكن تنصت لصديقاتها أو أفراد أسرتها بأن تهدأ

وتكف عن البكاء، وأحسّ أنها لم تعد تعرفه. أجشهت في البكاء ولم تتوقف عن تقبيل يدي أبيها وجبهته وقالت له: «لماذا تركتني بهذه السرعة. لماذا لم تودعني؟» لم يكن هناك شيء يستطيع أن يهدئ من روعها.

لم تكن كلير تسمع شيئاً ولا أحداً، حتى عندما جاء إلياس وضمها إليه بمحبة لم تلحظ وجوده، لأنها كانت جالسة سارحة في أفكارها إلى جانب جثمان الجدّ.

«يجب أن أذهب الآن. هناك أمور كثيرة يجب تنظيمها»، همس إلياس لابنه، «ابق مع الماما وساعدها».

حتّى عندما أوت لوسيا إلى الفراش، بقيت كلير وفريد إلى جانب الجثمان. لم يشعر فريد بالتعب.

«هل تعرف لماذا يبتسم؟» سألته كلير بصوت خفيض حوالي منتصف الليل. وبالفعل كان الجدّ يبتسم بمسرة كبيرة كما لو أن موته مجرد نكتة. لاحظ فريد حذاء جدّه الجديد، وتذكر جثامين أخرى تنتعل أحذية جديدة وهم مسجين في توابيتهم. لا بد أن الله قد وضع مخزناً ضخماً لها.

«هل تعرف لماذا يبتسم؟» سألته كلير وطيف ابتسامة يرتسم حول فمها، «إنه يسخر من إيمان جدّتك بالخرافات ومن خوفنا».

«أيّ خرافات؟» سألها فريد.

«إنها تعتقد أن الأرنب مصاب بمرض مميت، وقد عزت موت الجدّ له، فقد اعطى الجد حياته للأرنب وأخذ مرضه المميت بدلا عنه، وقد أراحها ذلك كثيراً. إنها تخبر الجميع بذلك، وفي المساء أعطت الجزّار كلّ الأرانب مجاناً».

قال: «لكن هذا غباء. فلا علاقة لهذه المخلوقات المسكينة بموته».

«اخرج معي دقيقة، لكن ضع عليك شيئاً لتقي نفسك من البرد»، قالت كلير فجأة.

ارتدى فريد سترته وتبعها. غادرت غرفة الجلوس في الطابق الأول،

twitter @baghdad_library

وسارت عبر الأروقة حول الباحة الداخلية باتجاه الشرفة شرق البيت. وضعت عليها شالاً خفيفاً وجلست على المقعد. جلس فريد إلى جانبها وهو يرتعش برداً. كان البدر يتربع السماء.

«في هذا المكان كان يجلس والأرنب في حضنه، ثم أمال رأسه قليلاً كأنه غطّ في النوم. عرفت جدّتك في الحال أنّه مات، لأنه لم ينم قط وهو يلاعب أرانبه. فقد كان على الدوام فضولياً وشديد الاهتمام بكلّ شيء».

كان القنّ خاوياً. حتى جدول الماء الصغير لم يعد يتدفق. أحسّ فريد بوحدة غريبة. اقترب من أمّه، ولفّت كلير الدثار حوله.

٩٢- الذهاب إلى الكنيسة

كانت تعتري فريد مشاعر غريبة عندما يرتاد الكنيسة. لم يكن يبدي اهتماماً كبيراً بالقداس على الرغم من روائح البخور والثياب الأنيقة الملونة للكهنة، بل تعتريه قشعريرة تدغدغ قلبه. كان ينقّل نظراته في أرجاء الكنيسة، وعندما تثبت عيناه على إحدى الصور المعلقة على الجدار، يعود بالزمن إلى الأحداث المثيرة التي سجّلتها يد الرسام بهذه الألوان الزيتية.

قبل الدخول إلى الكنيسة كان يتعيّن على التلاميذ في هذه المدرسة الكاثوليكية الراقية الإنتظار في باحة المدرسة القريبة لتفتيشهم والتأكد من أنهم استحمّوا ويرتدون ثياباً نظيفة أنيقة في يوم الأحد، ثم يتقدم هؤلاء الطلاب المصطفون في رتلين باتجاه الكنيسة. كان يحب الذهاب إلى الكنيسة لكنه لم يحب أن يدقق أحد عليه أو يفتشه للدخول إليها يوم الأحد. وكان التلاميذ الذين لا يأتون للصلاة يعاقبون صباح يوم الإثنين، قبل أي شيء آخر، أمام جميع تلاميذ المدرسة. ويستثنى التلاميذ المسلمون واليهود من حضور القداس الذين كان فريد يحسدهم.

لسنوات عديدة حوّل فريد الصلاة في الكنيسة إلى لعبة للذاكرة. فقد عمل على تقسيم القداس لكي يتطابق مع الكيلومترات الخمسين وهي المسافة التي تفصل بين دمشق ومعلا. إذ يستغرق القداس والرحلة إلى معلا

قرابة الساعة. وتمثّلت فكرة اللعبة في أن يطابق كلّ جملة تقال أو حركة تؤدى أثناء الصلاة إلى مكان مختلف تمر به الحافلة في الطريق إلى معلا. فقد قرن فريد كلّ قرية أو مصنع أو موقع أثري أو شجرة بكلّ عبارة «يا ربّ ارحم» وبكلّ ترتيلة.

كما أحبّ أن يتخيّل الحافلة وهي تفقد قطعة منها شيئاً فشيئاً كلما انعطفت بحدة عند المنعطفات فيعلو صراخ النساء والأطفال، وتصفق الدجاجات المقيدة الأرجل المحشورة تحت مقاعد الركاب بأجنحتها. وعندما تصل الحافلة إلى معلا أخيراً، ينفث الدخان وراءه، ويطلق زموره، ويخلّف وراءه سحابة من الغبار، عندها تنتابه السعادة لأن صلاة الكنيسة تكون قد انتهت.

لكنه ومع تقدمه في السن صار سرعان ما يشعر بالملل من رحلته الخيالية بالحافلة ويجد نفسه يطوف بنظرته بين الصور والتماثيل في الكنيسة على نحو مثير أكثر. فقد دأب على الجلوس في ذات المكان لمدة ثلاث سنوات تقريباً، وهو مقعد طويل يرى منه جميع اللوحات المعلّقة بالقرب من المذبح.

كان أكثر ما يحبّ الملائكة. لم تكن لطيفة، بل تبدو عنيفة في غالب الأحيان، ومسلّحة بالسيوف والرماح والنار. كائنات غريبة، وجوهها تشعّ سحراً أنثوياً، بينما أجسامها ووضعياتها تنم عن أجسام ذكورية لمحاربين. لم يكن سحرها الأعظم بالنسبة لفريد يكمن في هذا التناقض بل في تخيّل كيف يمكن أن يكون شعوره لو كان هو نفسه مخلوقاً مثلها، مجبولاً من الأثير ومن التراب، يستطيع أن يسير على قدميه أو يحلق في الهواء بجناحين قويين، محرّراً من جميع القيود الدنيوية.

كانت لديه بعض اللوحات التي يفضّلها على الأخرى، لكن شدة النور هي التي تحدد اللوحة أو التمثال الذي يجذب انتباهه في يوم أحد معين. لكن الصليب الضخم القابع وراء المذبح الذي مات عليه المسيح والذي ارتسمت على وجهه تعابير حزن لانهائية يقبع في الوسط على الدوام.

twitter @baghdad_library

وكانت عبارة INRI تعلو رأس المخلّص، وبذل فريد جهداً ليفهم معنى هذه العبارة INRI، كرسالة سرية.

كلما رأى المسيح المصلوب، تذكر صديقه كمال الصابوني، الطالب في المدرسة المسيحية الراقية شأن الكثيرين من أبناء العائلات المسلمة الغنية. كان كمال يقول إن المسيحية دين مثير للاهتمام لكنّه لا يفهم فكرة صلب إلهٍ قادر، بمجرد حركة من خنصره، على تحويل الإمبراطورية الرومانية برمتها إلى مستنقع وتحوّل القياصرة وجنودهم إلى مجرد نمل. وقال الشاب المسلم إن فكرة الثالوث المؤلف من الأب والابن وروح القدس، فكرة غريبة للغاية.

«إن المسلمين بدائيون ولا يمكنهم فهم ذلك»، قال والد فريد، لكنه لم يستطع أن يشرح له معنى روح القدس مع أنه متضلع في أمور دينية كثيرة.

ما الرسالة الكامنة وراء عبارة INRI؟ شرح أستاذ الديانة معنى هذه الحروف بالعربية: يسوع الناصري، ملك اليهود. لكن الشيء الغامض بالنسبة لفريد هو لماذا لكلمة INRI هذا التأثير عليه؟

«إن صلب المسيح جزءاً من عرض مسرحي كبير»، قال يوسف، «فقد وجب أن يُقتل بالطريقة الرومانية. الرومان كانوا الحكّام في فلسطين لذلك كتبت هذه الملاحظة بلغتهم اللاتينية وهذه الحروف هي مطلع عبارة *Iesus Nazarenus Rex Iudaeorum* التي تعني ما يعرفه كل مسيحي».

في عين عقله، بينما كان يوسف يتكلّم، رأى فريد بيلاطس، الحاكم الروماني، واقفاً، شاحباً، دقيق العظم والوجه، أنيقاً ومثقفاً ممتلئاً بالنفور أمام هؤلاء الرعاع في منطقة، كانت بالنسبة له، غريبة ومتربة وبدائية وهو إبن العائلة الراقية.

«فقد وجد بيلاطس نفسه على خشبة مسرح من نوع ما»، تابع يوسف كلامه، «يواجه شاباً يرتعش، أحبّه كثيراً، وهو الروماني: شاب شرقي حُكم عليه بالموت وتخلّت عنه عشيرته كلها. وهكذا وقف بيلاطس المرهف الحسّ، الرجل الذي لم يحب عقوبة الإعدام، أمام شاب ثوري يريد حقاً أن

يموت، حتى إنه لم يأبه بما عُرض عليه من منافذ للخلاص، يجيب أجوبة غريبة على أسئلة يطرحها بيلاطس لينقذه. والحقيقة أنه لولا الرومان ولولا الـ INRI أو الرمز الهائل للصليب لما احتفظت المسيحية بهذا الرمز، فالصليب رمز الجهات الأربعة ويربط السماء شاقولياً بالأرض الأفقية، ويربط الإرادة الإلهية الآتية من السماء بالبشر على سطح الأرض. لولا الرومان لمات المسيح ميتة بائسة بالرجم بالحجارة، الوسيلة المتبعة في الإعدام في الشرق آنذاك ولا تزال في بعض المناطق التعيسة حتى يومنا هذا، ولن تدوم كومة من الحجارة كرمز لدين ما لقرن واحد من الزمن، لكن هناك سر آخر»، قال يوسف مخفضاً صوته كما يفعل دائماً عندما يريد أن يتحدث عن موضوع فيه مؤامرات، «فلم تكن INRI تعني Iesus Nazarenus Rex Iudaeorum (يسوع الناصري، ملك اليهود) فقط، بل إنها رسالة مشفّرة موجهة إلى الرومان تقول: Iustum Necare Reges Italiae؛ وتعني إنه من العدل ومن حق الشعب الإيطالي أن يقتل ملوك إيطاليا. هذا ما يرد في هذا الكتاب»، أنهى يوسف كلامه، وعرض على فريد كتاباً عن الجمعيات الإيطالية السرية.

٩٣- الوداع

«إن الآباء غريبو الأطوار»، قال يوسف، «فهم لا يسألونك أبداً رأيك إن كنت تريد أن تولد أم لا، بل يمضيان في سبيلهما وينجبانك. وفي أغلب الأحيان، لا يسألان أي طفل لديهم عمَّ إذا كان يريد أن ينضم طفل جديد إلى الأسرة، بل يلهثان وراء لذة في مضاجعة سريعة ويتوقعان أن يكون باقي أفراد الأسرة مسرورين. أما بالنسبة للنتائج الفعلية، فقد تسبب تكلفة تلك الدقائق الخمس من المتعة القشعريرة لمعلّم رياضيات.

أقصد، ما الضرر الذي فعلته انا لريمون ومادلين او الإساءة التي ارتكبتها بحقهما حتى يلقيا بي في هذا البيت المليء بالإناث؟ هل طلبت منهما أن يفعلا ذلك؟ كنت أحبّ أن أكون طفلاً وحيداً لوالدين عاديين، أمّ وأب، عندها كنتُ سأشعر بشيء من السلام الآن.«انتبه إلى ما تفعله يا

twitter @baghdad_library

يوسف! هذا شيء لا يقال لفتاة! يوسف، عزيزي، إننا لا نقول شيئاً كهذا عندما توجد نساء في الغرفة! يوسف، لا يمكنك أن تتكلم مع أختك بهذه الطريقة! يوسف! يوسف! يوسف! ليذهب ابنهما يوسف إلى الجحيم! إنه ليس أنا. وأنا لست هو. إني أطلق على نفسي سراً اسم يعقوب منذ فترة من الزمن، لذلك عندما ينادون اسم يوسف فإني لا أشعر بأنني أنا المقصود.

وماذا عن والدك المحترم؟ هل سأل أحداً منا رأيه إن كنا نسمح له بأن يرسلك إلى الدير؟ كان سيصاب بصدمة لو فعل ذلك. إلياس مشتاق، سيدي، كنّا سنقول له، إننا لا نعير أي اهتمام لرهبانك. اترك فريد هنا معنا. إنه يكره فكرة الدير. لا يهمنا حتى لو صلينا لشجرة الدردار التي احترقت، لكن اترك ابنك هنا. لقد بدأتُ أحبّه. لكن ماذا يفعل أبوك الطيب؟

لقد سمعت أمي وأمك بالصدفة تتحدثان البارحة، وهما تعارضان ذلك أيضا بشدة، لكن لا يُسمح لهما بأن تفتحا فميهما».

نظر يوسف إلى الأعلى، ولأول مرة رأى فريد دموعاً في عيني صديقه الصارم. حدث ذلك في مطلع حزيران ١٩٥٣، قبل أسبوع واحد من مغادرته إلى الدير.

كتاب الضحك الأول

عالم الخيال يرحّب بالأطفال
بلطف أكثر مما يرحّب بهم بيت والديهم

*

دمشق، ١٩٤٠- ١٩٥٣

٩٤- دمشق

ليست دمشق مدينة، مكاناً موسوماً في أطلس الخرائط، بقدر ما هي حكايا ترتدي بيوتاً وشوارعَ وقصصاً وشائعاتٍ، وتعبق منها روائح وعطراً.

لقد عصفت بالمدينة القديمة الأوبئة والحروب والحرائق مرات لا حصر لها عبر تاريخها الذي يمتد على مدى ثمانية آلاف سنة. وبما أنه لم يكن هناك موقع أفضل من موقعها لإعادة بنائها، فقد كانت تبنى دائماً في الموقع نفسه فالمدينة تقبع بين جبل وأرض خصبة لا غنى عنها. لكن اليد التي أثرت كثيراً على دمشق وشكلها حتى يومنا هذا، هي يد مخطط المدن الإغريقي، هيبوداموس المليتي (من ميلة Milet أو ميليتوس وتقع اليوم في تركيا) الذي قسّم المدينة إلى مربعات هندسية ذات شوارع طويلة ومستقيمة تتقاطع مع بعضها بعضاً بزوايا قائمة. كان الإغريق يحبون الخطوط المستقيمة، بينما فضّل العرب المنحنيات والمنعطفات. ويعزو البعض ذلك إلى سقمهم من كل شيء مستقيم لرحلاتهم المستقيمة المنهكة عبر الصحراء، ولأن المنحنيات تقصّر المسافة، على الأقل بالنسبة للعين. ويدّعي آخرون بأن الحياة تتبدى في منحنيات: فشجرة الزيتون تنحني تحت

twitter @baghdad_library

وطأة ثمارها، وبطن المرأة الحامل تتكور، وتشكّل أغصان شجرة النخيل شكلاً شبه مستديرً. في حين يوجد لدى الدمشقيين القدامى تفسير مبسط أكثر وهو أنه كلما ازدادت المنحنيات في شوارع مدينة ما، سهل الدفاع عنها.

عندما تبدأ بالتحدّث عن دمشق، يجب أن تحذر لئلا تغرق، لأن دمشق بحر من القصص. والمدينة تعرف ذلك جيداً، لذلك، على الرغم من حبّ العرب للشوارع والأزقة الملتوية فإنها تحتفظ بشارع مستقيم واحد، يطلق عليه هذا الاسم منذ آلاف السنين أيضاً. وهو نقطة التوجيه، بوصلة لكلّ مشوار سيراً على الأقدام ولكلّ قصّة. وإذا أربكت المتاهات والمنعطفات الكثيرة في القصص والأزقة والحارات المتعرجة والممرات الملتوية، يمكن للمرء عندئذ أن يعود دائماً إلى الشارع المستقيم، فهو بوصلة ضخمة تري الناس منذ أكثر من ثلاثة ألف سنة الطريق المتجهة من الشرق إلى الغرب.

كان يا ما كان في قديم الزمان، يقولون إن عرض الشارع المستقيم كان يزيد على عشرين متراً. جادة رائعة تحفّها الأعمدة والأروقة. لكن التجّار أخذوا يلتهمون بأكشاكهم ومحلاتهم الشارع أكثر وأكثر على كلا الجانبين، واليوم لا يتجاوز عرض أجزاء منه عشرة أمتار. إن تجّار دمشق ماهرون في حيل وضع اليد على الأراضي، فهم يتمددون على نحو خفي في المنطقة التي توجد فيها محلاتهم، منها مثلاً أن يضعوا صندوقاً من الخضراوات للفت انظار المشاة، أو هرماً صغيراً من الصناديق المرصّعة، أو صينية من الفستق الحلبي على الرصيف لبضع ساعات ليجفّ في الشمس. ثمّ ما أن يغض الشرطي النظر حتى ينصبون مكانها كشكاً خشبياً خفيف الوزن ويغطّونه بقطعة من القماش الرقيق مدعين أنه مؤقت وفقط لحماية بضاعتهم عندما تشتد حرارة الشمس، ويتمهلون بالخطوة التالية حتى تعتاد عيون المارة ورجال الشرطة على رؤيتها. وبعد فترة يهوي الكشك الخشبي، فيجد التاجر نفسه مرغماً على استبدال الكشك المهلهل بشيء أشد صلابة، ثمّ فجأة يتحول الكشك المفتوح عندما يصبح له باب لكوخ صغير ويدّعي التاجر

للشرطي بعد أن يدعوه إلى احتساء فنجان قهوة أن ما فعله هو كي يتمكن من الاستمتاع بقيلولته دون أن يخشى اللصوص، وسرعان ما تصبح لهذا الكوخ نافذة صغيرة تغطيها ستارة. وبعد أسبوع، يقوى خشب الكوخ الرقيق بطريقة سحرية بطبقة من الطين، وبعد عملية في الخفاء في الليل، يطلى الهيكل الصغير فجأة بطلاء أبيض يناسب لون المحل الأساسي، وتطلى أبوابه وإطارات نافذته باللون الأزرق فيصبح توسع دكان التاجر فوق الرصيف أمراً واقعا. بعد فترة قصيرة، تجد صندوق خضروات آخر خارجه لجذب انتباه الزبائن، فيتذمر الشرطي المسؤول، لكن يتم استرضاؤه بالكثير من الأحاديث الطلية وفنجان قهوة - حتى يأتي الوقت الذي يُنقل فيه هذا الشرطي إلى مكان آخر. ويمكن أن يقسم الشرطي الجديد بأن هذا الكوخ كان قائماً من البداية وأن الرصيف ضيق منذ البداية في هذا المكان.

مرّ على دمشق حكم المصريين القدامى والرومان والإغريق والآراميين والسلوقيون والفرس والعرب والعثمانيين والفرنسيين وغيرهم، وشهدت ستة وثلاثين شعباً من شتى الثقافات والطوائف. وحكم هؤلاء المدينة بالتعاقب، وفي بعض الأحيان حكموها معاً، ولم يذهب محتل أو شعب إلا وترك أثره على دمشق، لذلك أصبحت ثوباً تاريخياً مرقعاً، أو بعبارة أفضل: مكتباً للأمتعة المفقودة من الثقافات، ويقارنها الكثيرون بقطعة فسيفساء ركّبها المسافرون على مدى ثمانية آلاف سنة.

لقد منح العابرون في دمشق الدمشقيين جميع أنواع الهدايا. فهنا ترى عموداً يونانياً، وهناك جسراً أو حماماً رومانياً وحتى ولو رأى المرء جداراً متواضعاً فسيجد بنظرة دقيقة ان هذا الجدار مشيد بأحجار من قصور تعود إلى الألفيات الماضية. وهناك ترى نباتات جلبها الرقيق من أفريقيا. وهنا نسي بعضهم كلمة في المتاهات قبل مغادرتهم المدينة، وترك بعضهم الآخر لحناً غنائياً، وحتى يومنا هذا، يمكن للمرء أن يسمع في الشارع كلمات كان يتحدث بها أجانب منذ مئات السنين، وتلتقي بأناس، سواء أكانوا باعة خضروات أم أطباء، يتحدّر أجدادهم من إسبانيا أو من اليمن أو من إيطاليا،

twitter @baghdad_library

لكنهم يعتبرون أنفسهم دمشقيين أصيلين، والغريب في الأمر أنهم محقّون في ذلك.

تُعد دمشق واحة مليئة بالثمار في الصحراء العربية. وفي نهاية الأربعينات من القرن العشرين، أقيمت شركات كبيرة عديدة لصناعة النسيج بالقرب من المدينة، وافتتحت مدارس عديدة، وتوسعت الجامعة، وامتلأت الأكشاك بالصحف والمجلات، شاهدة على ثراء دمشق الثقافي. وأصبحت دور السينما عصرية، وخصصت فيها أيام خاصة للنساء، وكنت ترى أحياناً رجلاً عاشقاً ينتظر في الشارع طوال ثلاث ساعات لكي يرى محبوبته عند خروجها من السينما. وكان عليه أن يكون شديد الحرص لكي لا يلحظه أحد وهو يبتسم لها. وإذا بادلته الابتسامة فكان يشعر أنه ذاق طعم الجنة.

٩٥- صديق القطط

مرّ فريد بسوق القيمرية القريب من الجامع الأموي فتذكر جده نجيب وتذكر يوماً خاصاً كان يسير فيه معه في هذا الحي. أمسك الجدّ يومها بإحكام بيد حفيده فريد الصغير خشية ألاّ يفقده في زحمة السوق. توقّف عند مدخل الخان وأخذ يتحدث إلى بائع توابل. في غضون ذلك، راح فريد يحدّق بفضول داخل المبنى الضخم. كانت الخيول والبغال مربوطة في الساحة، ورأى عدداً من الحمالين يدخلون بسرعة إلى مخازن كبيرة مليئة بالأكياس ثم يخرجون منها حاملين أكياساً على أكتافهم كأنها عديمة الوزن، ويحمّلونها على عربات تنتظر في الساحة. رأى رجلاً شاحب الوجه يرتدي بدلة داكنة يدوّن ما يكدّسه الحمالون فوق العربات. ضرب عربجي بسوطه الخيول التي بدأ ينتابها النعاس وأخذت تحني رؤوسها، فأفاقت وأخذت تخب إلى خارج الساحة. وبدأ العربجي ينادي الناس طالباً منهم أن يفسحوا الطريق كي لا تتسخ ملابسهم، فتم له ذلك، وشقوا درباً حتى تمرّ عربته، لكنهم سرعان ما عادوا لإغلاق الطريق ومواصلة أحاديثهم.

بغتة رأى فريد جزّار جمال في إحدى زاويا الخان. وبما أن أحداً في

الحي المسيحي لم يكن يتناول لحم الجمال، فإن فريد لم ير مشهداً كهذا من قبل، ولم ينس هوله طوال حياته.

كان الجمل الضخم واقفاً عند باب محل الجزّار، ينظر إلى فريد بعينيه الكبيرتين المليئتين بالخوف. كان الجزّار الذي لم يزد طوله على طول قزم يشحذ سكينه الكبيرة ويتحدث إلى رجل آخر يرتق أكياس الخيش في مكان قريب.

تمكّن رجلان أخيراً من إركاع الجمل بعد جهد جهيد. ظل الجمل ينظر إلى فريد كأنه يلتمس نجدته. مرّر الجزّار سكينه الكبيرة على رقبة الجمل كأنه يرسم قوساً على أوتار الكمان وبربر بصوت: «بسم الله» ليصبح اللحم حلالاً. تدفّق الدم في وعاء ضخم. حدّقت عينا الجمل الخاويتين الآن في السرمدية، حتى إن الرجل المنهمك في رتق الأكياس لم يلق نظرة واحدة على المشهد كله. بل قلب داخل كيس الخيش الذي أنهى خياطته للتو إلى الخارج وأضافه إلى كومة الأكياس الأخرى الكبيرة.

ابتعد فريد وجدّه عن الخان عبر حيّ القيمرية الذي كان ذات يوم مركز دمشق التجاري، وتحوّل إلى منطقة سكنية يتناثر فيه عدد قليل من ورشات تصليح السيارات. في الطريق رأى مشهداً غريباً. فقد رأى رجلاً جالساً على الأرض وسط مخزنه، يقرأ القرآن بصوت عال، تحيط به قرابة ثلاثين قطّة. كانت تجلس على حضنه وعلى الرفوف وعلى الأرض وفي واجهة المحل.

«هل يبيع قططاً؟» سأل فريد.

«لا، لا»، قال الجدّ، «إنه رجل تقي يعتني بجميع القطط».

كانت القطط تتسلق على الرجل الجالس، تثب من كتفه إلى الرفوف ثم تعود إليه. أما هو فقد واصل قراءته بهدوء كما لو أن شيئاً لا يزعجه. استلّ الجدّ ورقة من فئة الليرة من محفظته ووضعها في صحن نحاسي بالقرب من المدخل.

«أشكرك على قلبك الرحيم»، قال الرجل وعاد إلى تلاوة القرآن.

twitter @baghdad_library

عبرت الشارع ثلاث قطط، واتجهت مباشرة إلى المخزن، ووضعت صيدها المكون من ثلاثة فئران خارج الباب ودخلت. «آه، هذا تعبير عن حبها لي»، قال وابتسم. فجأة قفز الفأر في الوسط الذي بدا حتى ذلك الوقت كأنه ميت كالآخرين، واختفى بسرعة خاطفة عبر نافذة قبو على الجانب الآخر من الطريق. «هذا ممثل بارع»، قال الجد ضاحكا ومعجباً.

كم يفتقد فريد جده كلما مر ببعض النواحي في المدينة القديمة.

٩٦- الكراجة

كان فريد في العاشرة من عمره تقريباً عندما أصبحت الكراجات آخر صرعة في البلد. وكان طوني، ابن بائع العطور ديميتري، أول من أخرج إلى الشارع كراجة بعد يوم عيد الفصح. كانت أحدث طراز مطلية باللون الأحمر، وتحلّق الأطفال حولها وراحوا يحدّقون فيها كأن طوني رائد فضاء.

كان والد طوني الذي يجوب أرجاء العالم بحثاً عن أنواع العطور الجديدة يهدي ابنه ألعاباً أجنبية، لكن الكراجة التي أحضرها له كانت أفضل هدية يجلبها له على الإطلاق. فقد خلبت عقول الفتيات، خاصة جانيت وأنطوانيت، ورغبت جميع الفتيات في أن يسمح لهن بامتطاء الكراجة وأخذهن في جولة. كان يمرّ من أمام الصبية في الحارة وقد صعدت على كراجته فتاة، فيرمقونه بعيون مليئة بالحسد.

قبل انتهاء الأسبوع، خرج عازر إلى الشارع على كراجة خشبية تصدر قرقعة. كانت القاعدة الخشبية تتصل بمقبض عمودي مثبّتة بمفصلات حديدية بسيطة، لكنها بالرغم من ذلك، كانت تقليداً ناجحاً لكراجة طوني، عجلاتها الصغيرة من الفولاذ. كانت تحدث ضوضاء تثير دموع البهجة في عيون الأولاد. ومثل أي شيء يخترعه عازر، كانت الكراجة متينة وبسيطة وعملية.

«كراجتي ليست للبنات»، قال عندما طلبت منه أخته أن يأخذها في جولة عليها. وبالفعل، كان توجيه المقود والحفاظ على توازنها أصعب بكثير

من كراجة طوني بعجلاتها المطاطية وتركيبها الدقيق، لكنّ كراجة عازر كانت من صنع يديه برمتها.

لم يكد يغمض جفن لفريد لليالي عديدة لأنه حلم أنه يتسابق على كراجة. حتى أنه وضع ذات مرة الببغاء كوكو على كتفه. ربما رأى الببغاء في حلمه لأنه لم يعد يتكلم منذ اليوم الذي بدأ عازر يقود كراجته في الشارع، وراح يزعق بصوت عال يقلد الدواليب التي تصدر ضجيجاً عالياً. بعد ذلك بأسبوع لم تعد صاحبة الببغاء تعلّق قفص الببغاء على النافذة المطلة على الشارع، بل علقته على نافذة مطبخها المطلة على الباحة الداخلية.

وفجأة ازداد الطلب على تلك الدواليب المعدنية التي كانت حتى يومها نفايات في ورشات تصليح السيارات. وبعد بحث طويل، عثر فريد على عجلتين معدنيتين أكبر من عجلتي كراجة عازر، فكلما كبرت عجلات الكراجة أصبح بإمكان المرء أن ينطلق بها بسرعة أكبر.

«يمكنك أن تحصل على ثلاث عجلات إذا قمت بتنظيف الورشة لمدة ثلاثة أيام بعد الظهر، وإعداد الشاي للرجال وجلب أرغفة الخبز والفلافل لهم من المطعم»، قال له صاحب الورشة، «اتفقنا؟»

وهكذا عقدت الصفقة. فقد أمضى فريد فترات بعد الظهر لمدة ثلاثة أيام متواصلة في كنس وتنظيف وتلميع الورشة لتصبح نظيفة ومرتبة، وتقديم الشاي والحلويات والماء. كان يعدّ شاياً جيداً بالنسبة لصبي في العاشرة من عمره. كان العمّال ومعلّمهم في غاية السعادة لأن فريد لم يعد يقدم لهم الشاي في كؤوس متسخة اعتادوا على الشرب فيها. فقد غسل الكؤوس جيداً بالماء الساخن، وبعد أن ينتهوا من احتساء الشاي، يغسل الكؤوس بالماء الساخن بسرعة حتى تلمع. لقد تعلّم ذلك من أبيه.

في نهاية الأيام الثلاثة، لم يحصل فريد على العجلات المعدنية فحسب، بل أعطاه صاحب الورشة كذلك المفصلات والبراغي لتثبيتها، وكانت النصائح التي أسداها له هؤلاء الرجال أفضل بكثير من كلّ الهدايا.

twitter @baghdad_library

وأعطاه صاحب الورشة أيضاً دعامة بسيطة مصنوعة من قضيب معدني صغير محني في شكل U.

وقال له: «ركّب هذه وسيصبح بإمكان كراجتك أن تقف عمودياً في أي مكان مثل فيسبا فخورة، ولن تحتاج إلى أن تسندها إلى الحائط كأنها كراجة قديمة مهترئة». بدا صاحب الورشة أشبه برجل شرير في فيلم كاوبوي أمريكي رخيص، لكنّه كان لطيفاً للغاية وبقلب فتاة في العاشرة.

وأعطى أصغر مساعديه سناً، وهو شابّ يبدو من هيئته أنه شرّير أيضاً بشعره المشعّث، فريد أهم شيء وهو مكبح. فلم تكن كراجتا طوني وعازر تحويان مكابح. وهي قطعة مطاطية من دولاب سيارة قديم، ثبّتها فريد على العجلة الخلفية كرفراف لدرء الطين وما إن يدوس عليها حتى تقف كراجته ببطء ودون إزعاج.

انطلق فريد أخيراً وهو يحمل كيساً مليئاً بالقطع معدنية واتجه مباشرة إلى ابن عمه جورج الذي يعمل عند نجار بخيل. انتظر فريد حتى ذهب النجار ليستريح في بيته في منتصف النهار، ثم انسلّ إلى الورشة. في البداية، لم يذكر لجورج شيئاً عن الكراجة، بل راح يستفسر عن صحته وصحة أسرته. أثناء ذلك، ظل فريد ينقّل الكيس من يد إلى يد إلى أن سأله ابن عمه عن صوت القرقعة داخل الكيس، فأخبره فريد أنها قطع معدنية ليركّب كراجة، وأن كلّ ما ينقصه الآن هو قطعتين خشبيتين.

«لماذا لم تقل ذلك منذ البداية أيها الأحمق؟» ضحك جورج، وسأل فريد عن شكل الكراجة، فشرح له فريد بسرعة. ترك جورج العمل الذي يقوم به، وجهّز له خلال نصف ساعة كلّ القطع الخشبية بشكل دقيق وحزمها ووضعها على كتف فريد.

«اذهب بسرعة قبل أن يأتي ذلك البخيل العجوز. أظن أنك تستطيع أن تركّبها بنفسك، لكن يجب أن تلصق تلك القطع بالغراء أولاً»، قال له وأعطاه قليلاً من الغراء أيضاً. عاد فريد إلى البيت وهو يركض. يركض؟ لا، فقد كان سعيداً إلى درجة أنه كاد يحلّق في الهواء. عمل ساعتين

كاملتين، ثم شعر بالارتياح، ورجع بضع خطوات إلى الوراء لإلقاء نظرة على الكراجة الرائعة التي صنعها بيديه.

أخيراً أخذ مرآة خلفية صغيرة من دراجة أبيه القديمة البالية وثبّتها على الجانب الأيسر من مقبض القيادة، وأعطاه جدّه بضع نجوم وأقمار صغيرة ملوّنة لتزيين الكراجة.

في النهاية خطط فريد على بطاقة صغيرة تعويذة لدرء العيون الحاسدة رأى مثلها معلقة على مرآة في صالون ابن عم أمّه ميشيل، رُسمت عليها راحة يد في وسطها عين زرقاء وسهم يخترق العين، وكُتب تحتها بخط جميل «عين الحسود تبلى بالعمى». ولمّا كان ميشيل حلاقاً، فقد كان مولعاً بالمرايا الزجاجية الصقيلة. ويؤمن بالغيبيات ويقسم بصدقها ضارباً مثالاً على موضوع الحسد عندما كُسرت إحدى المرايا في محله، كما حكى، عندما قال أحد زبائنه والحسد يملأ صوته وقد شفط لعابه الذي سال من الجشع بصوت مسموع، «يا لها من مرآة رائعة». كان الرجل معروفاً بنظراته الحسودة، ويقول الناس إنه إذا حسد حمامة فبإمكانه أن يقتلها بنظرة منه وهي تحلّق في السماء.

استخدم فريد مسامير نحاسية براقة لتثبيت البطاقة البيضوية ذات التعويذة التي خطها بشكل جميل في مقدمة مقود كراجته العريض بعض الشيء، ورسم كذلك نبتة عبّاد شمس وطائر كناري على الكراجة. في يوم الأحد التالي، أخرج كراجته إلى حارة العبّارة، بعد أن مشّط شعره وتعطّر وارتدى قميصاً أبيض وبنطالاً أزرق وحذاء رياضياً.

«رائعة»، صاح عازر، بعد أن أخذ جولة على كراجة فريد. وبعد أن ضغط على الكابح، أوقفها باتزان لدقيقة ثم ثنى اللوح الأمامي إلى الأسفل وانتصبت الكراجة ذات الدواسة عمودياً في الحيّ بكلّ أبهتها. وإذا وصف عازر شيئاً بأنه «رائع»، فإن الأولاد الآخرين سيلاحظون ذلك، لأنه ليس من السهل إرضاء هذه الفتى الحرفيّ الموهوب.

twitter @baghdad_library

بعد أقل من ثلاثة أسابيع، كانت عشر كراجات خشبية ذات دواسات وعجلات معدنية تجري في الشارع، وراحت أمهات الصبية يلعنّ ورشات تصليح السيارات التي سببت كلّ هذه الضوضاء. وبدت كلّ كراجة جديدة أفضل من سابقتها، ولم تمض فترة حتى صارت كراجة فريد «الرائعة» عادية وبدت متواضعة بين الكراجات الأخرى المزدانة بريش نعام وأجراس وزمامير وتعاويذ وإعلانات دعاية لا حصر لها وصلت إلى تحرير فلسطين، وكان لبعضها مقاعد مبطّنة يجلس عليها الإخوة والأخوات الصغيرات أو بنات الحيّ. وصنع فريد سلة لتوتو، كلب الأرملة كريمة الصغير، الذي يستمتع بالركوب عليها أيضاً.

كان خليل أول من أتقن فنّ شرب عصير الليمون وهو يمتطي الكراجة. فقد ثبّت القنينة بإحكام في حامل في وسط المقود، وتمكن هذا المخترع الذكي من شرب العصير بواسطة قشّة (مصاصة) دون أن يرفع يديه عن المقبض أو يبعد عينيه عن الطريق.

بعد فترة وجيزة،لم تعد حارة العبّارة تتسع لهذا العدد الكبير من الكراجات فامتثل جميع الفتيان لاقتراح يوسف بالانتقال إلى حارة الزيتون الموازية التي يقيم فيها فريد. فباركت النساء في حارة العبّارة القديس يوسف في ذلك اليوم.

منذ ذلك الحين، بدأ الناس يرون مشهداً رائعاً في الحيّ الذي يقيم فيه فريد بعد ظهر كلّ يوم أحد. عشرة أولاد بكامل أناقتهم يركبون كراجاتهم ويسيرون بشكل ثنائي في خط مستقيم بمحاذاة باحة الكنيسة الكاثوليكية، يؤدون استعراضاً ببطء أمام عيون الفتيات الجميلات المتأنقات في ملبسهن اللاتي كن ينتظرن وصول الكراجات. وكان الفتيان يترجّلون من كراجاتهم بأبهة، بأسلوب يكاد يكون مهيباً، ويثنون الدعامة على الكراجة بحركة بطيئة، ويجلسون على المقاعد الحجرية قبالتهن، واضعين رجلاً على رجل منهمكين في الحديث عن كراجاتهم.

«هل يمكنني أن آخذ جولة على كراجتك؟ حتى كشك بائع السجائر

وأعود»، سأل طوني مستجدياً بتواضع في أحد الأيام، طوني الذي لم يكن يسمح لفريد أن يلمس لعبة من ألعابه العديدة.

«نعم، لكن كن حذراً»، قال فريد.

«هذا صحيح، انتبه»، صاح خليل، «فكراجته تعضّ الأطفال. . .».

«. . . الذين يأكلون الجبن الهولندي»، أضاف عازر ضاحكاً. ابتسم يوسف ابتسامة عريضة أيضاً، وأصابت ضحكته الآخرين بالعدوى. لأول مرة تركت كراجة طوني ملقاة على الأرض ولم يتنازل أحد حتى بإلقاء نظرة عليها.

٩٧- الحشيش

يحتفل العرب بجميع الأعياد والاحتفالات، لكنّهم لا يحتفلون بأعياد ميلادهم لأنهم يعتقدون على مايبدو أن ذلك يجعل المرء يكبر في السنّ ويهرم بسرعة.

لكن في مطلع خمسينات القرن العشرين، بدأ المسيحيون من أبناء الطبقة الراقية اتباع العادة الأوروبية بالاحتفال بعيد ميلادهم. وفي أحد الأيام طرأت ببال إلياس، والد فريد، الذي كان عضواً في جميع لجان الكنيسة الكاثوليكية، فكرة تجارية جيدة: فلمَ لا يشجّع المسيحيين الأغنياء على تقديم تبرّعات أكبر لبيوت اليتامى والعجزة من خلال الاحتفال بأعياد ميلادهم علانية؟ لذلك حصل على تواريخ ميلاد أغنى الأشخاص في الطائفة الكاثوليكية، وأفضى للمطران ولستّة قساوسة بهذا السر. كان سكرتير المليونير بردوني وزوجته ومدبرة منزله يعرفون أنه سيستيقظ في الصباح الباكر على أنغام الفرقة النحاسية للكشافة الكاثوليكية، وأن الاحتفالات التي ستستمر طوال اليوم ستفتتح برقصة شعبية تؤديها فرقة رقص أمام بيته، وأُبلغت كذلك صحيفتان وإذاعة دمشق بهذا الحدث.

كانت الخطة تتمثل في أن يسير المحُتفل بعيد ميلاده في موكب مهيب،

twitter @baghdad_library

وسط الأهازيج والرقصات حتى بلوغ ساحة الكنيسة حيث تنتظر المدعوين مائدة عامرة بأشهى وأطيب أنواع الطعام.

وبعد انتهاء الطعام، سيواصل مطرب الاحتفالات من العصر حتى المساء، وسيتخلل الحفل أغاني تؤديها جوقة ملجأ الأيتام، ثم يقوم تلاميذ مدرسة القديس نقولا للأطفال المسيحيين الفقراء بتقديم مسرحيّة صغيرة مسلّية، ويلقي شخص متقاعد مربوع القامة من دار المسنين تحية مقفّاة.

خلال تنظيم كل ذلك، كان إلياس في غاية الحماسة قبل عدة أيام من عيد الميلاد، وحدّث كلير عن صعوبة تعليم السكان المحليين أصول اللباقة. «حتى إنهم لا يستطيعون إنشاد أغنية صغيرة بانتظام»، قال متذمراً يوم الثلاثاء، «فكل واحد يغني على ليلاه، ويغنون اللحن بنشاز، ولا يعرفون شيئاً عن الإيقاع، كما لو كانوا يهيمون على وجوههم في الصحراء ولا يدركون أننا نعيش الآن في مدن حضرية».

في يوم الأربعاء، تذمر مشتكياً من مدبرة منزل البردوني القويّة. فقد قال: «إن زوجته لا تبدي أي اعتراض، لكن تلك العجوز الشمطاء لا تريد أن يستيقظ على صوت قرع الطبول والصنج والأبواق. تصوري أن تطلبي من قائد الفرقة أن يلغي ثلث فرقته الموسيقية. لكن ليس بيدنا حيلة ولا نستطيع مخالفة إرادة هذه المرأة، لأن السيد أنطوان البردوني عبد لها. فمن الممكن أن يصرخ في وجه زوجته، لكنه لا يستطيع أن يصرخ في وجه مدبرة منزله».

لم يغمض لإلياس جفن يوم الجمعة. «هناك مشكلة لا يمكن حلّها»، قال لكلير، «فقد اتفقنا مع المطرب الذي يحبّه السيد أنطوان كثيراً. فقد أعلمنا سكرتيره أن السيد البردوني المحترم يحب في خلوته الاستماع إلى أسطوانات المطرب المصري محمد عبد المطلب. إنه لشيء غريب أن يكون ابن أحد أغنى الأسر المسيحية معجباً بمطرب حشاش من مصر! لكن الحظ حالفنا: فقد صادف وجود عبد المطلب في دمشق، وكان يحيي حفلات في نادي شهرزاد الليلي الرخيص. لذلك شعر بسعادة كبيرة لأنه سيكسب مبلغاً

إضافياً. لكن كارثة حلّت بنا: فقد أخبرنا عصر اليوم أنه لن يستطيع أن يغني لعدم وجود حشيش لديه. وقال إن رأسه فارغ، هل تصدقين ذلك؟ فلم يعد يتذكر الألحان التي اختفت من ذاكرته، أو هكذا ادّعى - يا له من عذر لا يتذرع به إلا الأطفال - إنه بحاجة إلى قطعة حشيش حتى يتمكن من انتزاع الألحان من مقصورات ذاكرته. يخيّل إليّ أنني سأجنّ. مطرب لا يستطيع أن يتذكر ألحانه! هل تصدقين ذلك، وقال إنه يريد أن يعود إلى مصر لأنه لا يعرف الشوارع في دمشق، ويرفض صاحب النادي الليلي الذي يعمل فيه أن يعطيه أيّ كمية من الحشيش؟ إني أفهم ذلك لأن عقوبة حيازة كمية ضئيلة لا تتجاوز خمسة غرامات السجن المؤبد. لكنه إذا عاد بالطائرة إلى مصر غداً، فإن مفاجأة عيد الميلاد التي نعدّها له ستتلاشى».

«لماذا لا تجلب له كمية تكفيه ليوم واحد؟» أجابت كلير برصانة، «ويمكنه أن يسافر إلى أي مكان يريد بعد الحفلة. فالأمر الرئيسي بالنسبة لك ولأصدقائك هو أن يغني».

«من أين نأتي بالحشيش؟ فأنا أحاول أن أنظّم حفلة عيد ميلاد، هذا كلّ ما في الأمر! هل تريدين أن تريني نزيل السجن في السنوات المتبقية من عمري؟» ضحك إلياس بمرارة.

«يمكنك أن تسأل ابن عمي بطرس»، قالت كلير بعد قليل، «فهو يعمل مستشاراً قانونياً لإدارة التحقيقات الجنائية. وقد قال لي إن لديهم أطناناً من الحشيش المصادر بانتظار إتلافه. لماذا لا نأخذ كمية قليلة منه من مكاتب إدارة التحقيقات الجنائية ونعطيها للمطرب؟ إن بطرس على علاقة جيدة مع رئيس قسم مكافحة المخدرات، وقد ربح له قضيتين».

نظر إلياس في عيني زوجته العميقتين بحيرة ثم قال متلعثماً: «إذاً. . . إذاً، اتصلي به واسأليه هل يستطيع مساعدتنا».

في اليوم التالي عادت كلير من مقر إدارة التحقيقات الجنائية ومعها قطعة من أفضل أنواع الحشيش اللبناني، بحجم كرة تنس. أعطت إلياس المنديل

twitter @baghdad_library

الذي يحتوي على هذه الغنيمة الثمينة وقالت: «يمكن لهذه الكمية أن تجعل فيلاً يغنّي».

شحب وجه إلياس. ففي دمشق، يمكن أن يصدر بحق المرء ثلاثة أحكام بالسجن المؤبد لحيازة هذه الكمية الكبيرة من الحشيش. لكن في ذلك المساء، قال المطرب إنه لم يدخّن في حياته حشيشاً بهذه الجودة، وشعر بسعادة كبيرة.

بعد انتظار طويل حلّ يوم الأحد وبدأت الحفلة. بعد ذلك قال إلياس إن النتيجة المؤسفة التي آلت إليها الحفلة هي لأن أول شخص صادفه في ذلك اليوم هو الأرملة العوراء الحدباء ماتيلدا التي ابتسمت ابتسامة عريضة في وجهه وصاحت، «سيفشل كل شيء». كان إلياس يكره هذه الأرملة.

«وهكذا لم تعزف الفرقة ألحاناً بهيجة، بل عزفت مارشات عسكرية نمساوية كالتي يذيعونها عادة في الإذاعة عند الإعلان عن وقوع انقلاب. فانتاب المليونير ذعر شديد وهبط إلى القبو مرتدياً منامته. كان من الصعب إقناعه بأنّ كلّ شيء قد رتّب خصيصاً للاحتفال بعيد ميلاده» قال إلياس، وتناول رشفة ماء ليبلل حنجرته الجافة. «ثم تبع الموكب بامتعاض إلى الكنيسة الكاثوليكية، ولم يشعر بالبهجة إلا بعد أن رحّب به بطريرك سائر المشرق ومطران دمشق عند باب الكنيسة، ثمّ غمرته السعادة عندما وجد أن الشراب والطعام المتوفرين بكثرة كانت من أجود الأنواع وأطيبها. فقد زودتهم بأطيب وألذ أنواع الكعك والحلويات المصنوعة من أجود أنواع السمن كما جرت العادة. لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الفشل. فقد حلّق المطرب المصري بعيداً حتى قبل أن يبدأ في الغناء».

«لماذا فعل ذلك بحق السماء؟» سألته كلير المرتابة.

«لأنه عندما بدأ يدخّن سيجارة الحشيش الثالثة، سأله أحدهم مازحاً خلف ستارة المسرح هل يعرف مصدر هذا الحشيش. عندما هزّ المطرب رأسه نافياً - فلم تكن لديه أي فكرة - همس له ابن القحبة ذاك، «إنها من إدارة التحقيقات الجنائية». فتهاوى المطرب، ربما لأنه دخّن كمية كبيرة من

الحشيش، أو لأن الخوف ملأ رأسه، فراح يصرخ ويقول إنهم نصبوا له فخّاً وأنهم سيزجّون به في السجن، ثم ذهب وقال إنه لن يمكث دقيقة واحدة في دمشق».

٩٨- المصور

لم يكن ثمة شيء يفتن فريد في طفولته أكثر من الصور. ففي السنوات القليلة الأولى بعد ولادته، كانت معظم الصور التي رآها صور قديسين. فقد عُلِّقت على جدران غرف البيت سبع صور لمريم العذراء، وصليبان مصنوعان من خشب شجر الزيتون من القدس، تلك الصلبان التي كان عليها طلب كبير آنذاك، وانتصب تمثال صغير للقديس أنطونيوس البادَوي (الذي ولد في ليشبونة وتوفي في مدينة بادوا الإيطالية عام ١١٩٥) مع المسيح الطفل في كوّة في جدار غرفة الطعام. كان التمثال نسخة من عمل خوان دي جيوني الشهير، الذي كان الفرنسيسكان يوزعونه في أنحاء العالم. وقد أهداه رئيس دير الفرنسيسكان لإلياس قبل ولادة فريد بفترة قليلة، لا للتعبير عن امتنانه وشكره للمبالغ السخية التي دأب إلياس على التبرع بها، بل كذلك لأن القديس أنطونيوس هو شفيع الخبازين، وهو الذي يحمي النساء أثناء ولادتهن، ويساعد الناس على إيجاد الأشياء التي أضاعوها. وقد عدّد رئيس الدير أكثر من عشرة أمثلة تمكّن فيها القدّيس من حماية أشخاص آخرين، وكان إلياس يأمل في أن يعثر له أنطونيوس البادَوي على المفاتيح التي أضاعها وأن يساعد كلير في ولادتها بعد كلّ تلك الإسقاطات.

أما في غرفة الجلوس، فقد عُلِّقت ثلاث صور فقط: صورة لكلير أمّ فريد وهي في السادسة عشرة من عمرها، وصورة لوالديه، والده مرتدياً بدلة داكنة وأمّه ترتدي ثوب زفاف أبيض. كانت البدلة وثوب الزفاف مستعارين في بيروت يوم تزوجا هناك سراً وهربا من جد فريد لأبيه، أما الصورة الثالثة فهي لفريد وهو في الثانية من عمره، مرتدياً بدلة بحّار. كان غافياً في حضن أمّه التي تبتسم للمصور، ووالده يقف باستقامة متشنجاً بجانبها، ينظر

twitter @baghdad_library

متجهماً إلى نقطة وراء الكاميرا. ووراء والدي فريد يقف جدّه نجيب وجدّته لوسيا. كانت لوسيا متجّهمة ومتشنجة مثل صهرها، أما الجدّ فكان يضحك رافعاً بصره إلى الأعلى مائلاً رأسه إلى أحد الجانبين.

في أواخر أربعينات القرن العشرين، فتح باسل أول استوديو تصوير حديث في المدينة القديمة، وأطلق عليه اسم «استوديو النجوم». وكان يحاول أن يمنح زبائنه لمسة بريق هوليودية عندما يقفون أمام كاميرته.

شعر فريد أن ثمة شيئاً غامضاً يكتنف الصورة. فقد كان الأشخاص فيها لا يزالون أحياء، على الرغم من أنهم كانوا مجمّدين في قطعة من الورق، لكنّه لم يفهم البعد العميق لهذا السحر إلا عندما رأى مصوراً يعمل في الشارع. كان فريد في السابعة من عمره في ذلك الصيف، ولسبب ما كان جدّه نجيب بحاجة ماسة إلى صورة.

«هيا لنذهب إلى المصور»، قال لفريد.

بالقرب من باب توما يوجد ثلاثة مصورين يقفون أمام كاميراتهم الرائعة. كانت الكاميرا عبارة عن صندوق خشبي كبير مثبّت على منصب خشبي أيضاً ثلاثي القوائم يمكن تعديله، ويجلس الزبون على كرسي قابل للطيّ في العراء أمام جدار تكسوه قماشة سوداء.

اضطر فريد وجدّه إلى الانتظار لوجود فلاحين اثنين وشابّ ينتظرون قبلهما. غضب أحد الفلاحين لأنه لم يكن يريد أن يكوّر خدّيه بنفخهما كما طلب منه المصور الذي أصرّ على أن يفعل كما طلب منه، وإلا فإن وجهه سيبدو في الصورة متهدلاً مثل سروال داخلي مجعد. أما الفلاح الآخر فكان يخشى أن تسرق الصورة روحه.

«لا تقلق، إنها مثل لوحة رسم»، قال له المصور يطمئنه.

«لكن النبي حرّمها»، قال الرجل.

بدأ المصور يفقد أعصابه، وقال: «لم يكن النبي يحتاج إلى هوية شخصية حتى يطالب بإرث. أما أنت فإنك تحتاج إليها. خذ نفساً عميقاً وابق ثابتاً هكذا». لاذ الرجل بالصمت ونفخ خدّيه حتى تكوّرا.

«لكن من الذي يرسم اللوحة داخل صندوقك؟» سأل الفلاح عندما انتهى المصور.

«الضوء»، أجاب المصوّر.

«آه»، قال الفلاح وهو يفكّر في الأمر. رجع بضع خطوات إلى الوراء مرتبكاً وهو يتمتم لنفسه: «الضوء، الضوء».

جاء دور الشابّ الذي أراد أن يأخذ صورة لزوجته للحصول على جواز سفر لتسافر لأداء مناسك الحجّ في مكة المكرمة. لكن شجاراً عنيفاً نشب بينها وبين زوجها عندما رفض السماح لها أن ترفع حجابها أمام الرجال الآخرين. حاول جدّ فريد تلطيف الأجواء، لكنّه لم يفلح.

«لا أستطيع أن ألتقط لها صورة والحجاب الأسود مسدل على وجهها، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الأفضل لك أن تلتقط صورة لباذنجانة»، قال المصور بمرارة شديدة.

أخذ الرجل زوجته من يدها ومضى غاضباً. سمعها الناس توبّخه وتقول متذمرة إنه وأمّه لا يتوقفان عن اختلاق مشاكل لها لأنهما لا يريدانها أن تذهب إلى الحجّ.

فوجئ فريد عندما اختفى المصور تحت قماشة سوداء مثبّتة خلف الكاميرا، ثم خرج بعد قليل وفتح درجاً فيه نوع من سائل في أسفل صندوق الكاميرا واستلّ منه صورة داكنة صغيرة عليها بقع قليلة أَفتَح لوناً، قال له جدّه إنها تدعى «نيغاتيف». وأخيراً ثبّت الرجل الصورة الصغيرة على لوح وضعه للحظات أمام العدسة واختفى رأسه داخل نفق القماشه السوداء مرة أخرى. ثم ظهر بعد قليل والعرق يتصبب منه كأنه يحارب أحد الشياطين، ثم فتح الدرج الصغير الغريب الشكل على الجانب والتقط الصورة الثانية التي كانت تشبه تماماً الرجل الذي لم يرغب في أن ينفخ خدّيه في البداية. من المؤكد أنه بدا في الصورة أوفر صحة مما هو في الواقع.

عاد الجدّ إلى البيت في ذلك اليوم ومعه أربع صور، كلها سيئة، لأنه ظل يبتسم في آخر لحظة. كان المصور منزعجاً منه مع أنه دفع ثمن جميع

twitter @baghdad_library

الصور. كانت الصورة مضحكة، وأخذها فريد هدية واحتفظ بها في صندوق كأنها كنز ثمين.

«سأعود مرة أخرى غداً»، قال الجدّ.

«لكن لماذا تقول إن الصور ليست جيدة؟» سأله فريد، «إنها رائعة».

فقال له: «لأني أحتاجها لإصدار هوية، والمسؤولون لا يحبّون الصور التي تبتسم فيها لأنها تجعلهم يظنون بأنك لا تأخذهم على محمل الجد».

٩٩- سليمان والدجاجات

كان عبد الله، والد سليمان، يعمل سائقاً لدى القنصل الإسباني. أنيق المظهر محدود الذكاء، وبما أنه لم يكن يتكلم كثيراً فقد أعطى انطباعاً بأنه رجل حكيم، وكان سعيداً في عمله الذي يؤديه بجد وبإخلاص.

وكانت زوجته سلمى تنتمي إلى أسرة من الفلاحين من جنوب البلاد، ماكرة الطبع لا تثق بأحد، تبدو في قمة أناقتها وتتفوق على كل النساء في حي العبّارة لأنها ترتدي ثياب زوجة القنصل التي سرعان ما تتخلى عنها بعد استخدامها لفترة قصيرة. كانت السيدة الإسبانية مكتنزة الجسم، تماماً مثل سلمى، لذلك كانت الثياب تناسب مقاس سلمى على الدوام.

كان لدى عبد الله وسلمى طفلان، سليمان وعايدة، يشبهان أمّهما. كانا قصيرين وممتلئين ومكارين بالفطرة. في أحد الأيام، قرر السائق زيارة حميه وحماته، وسُمح له باستخدام سيارة القنصل الليموزين، لأن القنصل كان في إجازة في إسبانيا. أحسّت أمّ سليمان بأنها في السماء السابعة، فارتدت أفضل ثياب لديها، وبعد رحلة بالسيارة استمرت ساعة، ترجّلت في ساحة القرية المتربة بمهابة مثل ملكة. أبدى الفلاحون إعجابهم بالتحول الكبير الذي طرأ عليها، وأمطروا سلمى بعبارات المديح، وتذكّروا مرائين فجأة أنّهم كانوا يعرفون دائماً بأن هذه المرأة الجريئة ستصبح شيئاً هاماً.

لكن لم يُبد جميع أقاربها إعجابهم بها ولم يمتدحوها. فلم يتمكن ابن عم سلمى، أكبر مقاول بناء في القرية، من أن ينسى بأنها لم تتزوجه بل

فضّلت عليه شخصاً عديم الفائدة من أهالي المدينة، ودأب على وصف عبد الله بأنه رجل ضعيف وأنه «شقفة شوفير». وعلى الرغم من أنه متزوّج وعنده ثلاثة أطفال، لا زال قلبه يهفو إلى سلمى. لذلك، انتهت كلّ الزيارات تقريباً بشجار بينه وبين عبد الله. في هذه المرة، نشب الشجار عندما قال متبجحاً مزهواً إن أطفاله يفوقون أطفال سلمى شجاعة وينعمون بصحة أوفر من صحة أولادها، ولإثبات ذلك، أراد أن يقوم الأطفال بقطع رؤوس الدجاجات الخمس التي سيتناولونها على وجبة الغداء.

أخذ كل صبي من صبيانه الثلاثة دجاجة، وقطعوا رؤوسها بأيديهم العارية وألقوا بها وهي تصفق بأجنحتها على الأرض. عندها نهضت عايدة واقفة، ومن دون أن يطلب منها أحد، توجّهت إلى الدجاجتين الأخريين بجانب جذع شجرة قُيدت أطرافهما بها. التقطت بيدها اليمنى الفأس الملقى بجانب الدجاجتين، وبيدها اليسرى أمسكت دجاجة خمرية اللون وقطعت رأسها بسرعة كبيرة، وعادت إلى مكانها إلى الطاولة الكبيرة القابعة تحت ظلّ شجرة الجوز دون أن تظهر على وجهها أي تعابير.

«عايدة تشبه أمّها»، قال ابن عمها الحقود، «لكن ابن المدينة ذاك لا علاقة له بالأمر. لنر الآن كيف هو ابنه».

كان سليمان صبياً ماكراً وشجاعاً عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن صديق له في حارته ضدّ شخص غريب، لكن لم يكن يقدر على رؤية الدم.

«أرِ هذا الرجل المتبجّح حقيقة من أنت»، قال له والده. لكن سليمان لم يستطع أن يفعل ذلك دون أن يخذل والده.

تركزت جميع العيون عليه الآن. وقف وبدأ قلبه يخفق بقوة. تناول الفأس وأمسك الدجاجة من جناحها ووضعها على جذع الشجرة. رفعت الدجاجة عينيها ونظرت إليه بذعر وقأقأت.

«أيتها العذراء المقدّسة، ساعديني»، دمدم سليمان وأهوى بالفأس في المكان الذي كان يظن أن رقبة الدجاجة فيه. ولجزء من الثانية، أغمض

twitter @baghdad_library

عينيه. عندما فتحهما ثانية، كان رأس الدجاجة يطير في الهواء وعيناها لا تزالان مثبتتين عليه، ثم هوت الجثة مقطوعة الرأس على الأرض ميّتة.

«ضربة معلّم» قال والد سليمان بانتصار. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وقبل أن يأويا إلى الفراش، طمأنت عايدة شقيقها بأن أحداً لم يلاحظ مدى خوفه.

١٠٠- دمى السكّر

كان من عادة سكان الحيّ المسيحي أن يزاول أولادهم عملاً خلال العطلة الصيفية الطويلة التي تدوم ثلاثة أشهر ليكسبوا مصروف جيبهم ويتذوقوا طعم العمل ويسمحوا لوالديهم أن ينعموا بقدر من الهدوء والسلام، لأن عدد الأولاد في أسر كثيرة يصل إلى عشرة أطفال.

وكان هؤلاء الأولاد يعملون عادة أجراء عند حلاقين أو بائعي خضراوات أو بائعي بوظة أو عند خيّاطين. وكان الأولاد يحبون العمل عند النجار ميشيل وينفرون من العمل عند الجزّار محمود، على الرغم من أن ميشيل كان رجلاً حاد الطبع وجشعاً، بينما محمود يتمتع بروح كريمة، لكن الأولاد كانوا يفضّلون أن يعملوا في النجارة على أن يخوضوا في الدم ورائحة الدهن واللحم.

وإذا توفر لدى فتى قليل من النقود فإنه يبدأ عملاً على حسابه الخاص، فيشتري دمى من السكّر وأنواعاً رخيصة من الكعك والعلكة والمصاصات من سوق البزورية ويطوف في الشوارع لبيعها بضعف الثمن الذي اشتراها به. وقد يربح الفتى ليرة في نهاية الأسبوع، وهو مبلغ جيد. وبرأس المال هذا يمكنه أن يشتري كمية أكبر ويعرض تنويعة أكبر من السلع على صينية يبيع عليها.

أما الأولاد الذين يرون أن جوب الشوارع لبيع سلعهم يقلل من قدرهم، فقد كانوا يجلسون أمام باب بيتهم، ويعرضون سلعهم لأولاد حارتهم والمارين الآخرين. وقد يصادف الصبي حظاً سيئاً فتجد عشرة أولاد جالسين

أمام أبواب بيوتهم في وقت واحد، يحاولون جميعاً جذب كلّ من يمر في الشارع بنفس المواد المعروضة، أما الأولاد الغرباء فلم تتوفر لديهم فرصة للبيع في هذه الأحياء، لأن إخوة وأخوات الأولاد الذين يبيعون سلعهم في هذا الشارع كانوا يشتمونهم ويجرون وراءهم فيهربون.

بكثير من التوسل تمكن فريد من إقناع كلير بالسماح له بأن يبيع دمى السكّر والعلكةِ والمصاصات في صينيته. وبصبر شديد، تمكن من صنع مذبّة من شرائط ورقية وعود خشبي صغير لإبعاد الذباب والحشرات وأيدي الأطفال الطمّاعين عن صينيته.

لم يطق إلياس أن يرى فريد يبيع حلوى رخيصة في الحارة. كان ذلك بدافع كبريائه كحلواني لا بدافع أفكار تربوية كما تبين لفريد لاحقاً.

قبل ليلة من خروجه إلى الشارع بصينيته لأول مرة، كان متحمساً للغاية ولم يكد يغمض له جفن. ورأى نفسه في أحلام يقظته تاجراً ناجحاً يتحلّق الأطفال حول صينيته.

في صباح اليوم التالي هرع إلى سوق البزورية برفقة يوسف واشترى مواد بأسعار رخيصة. ظل يوسف يرمق العلكة التي اشتراها وهما عائدان، حتى أعطى فريد صديقه قطعة منها. بعد ساعة بلغا البيت، وسرعان ما جلس فريد في ظلّ بيته واضعاً أمامه صينية مليئة بأنواع حلوى لذيذة بألوان زاهية. أثبت يوسف، بقسماته النكدة، أنه مطارد ممتاز للمنافسين الغرباء الذي ولوا يومها الأدبار ليتخلصوا منه.

أحس فريد بالزهو وبالسعادة عندما لم ير منافسين له من أولاد جيرانه في حارته. كانت كلير أول زبائنه، فاشترت منه ثلاث دمى من السكّر ومصاصة ولم تساومه على السعر. لوهلة خجل فريد لأنه أخذ منها نقوداً لأنها هي التي أعطته رأسماله ليبدأ، لكنها أصرّت على ذلك.

ثمّ جاءت انطوانيت. في البداية وقفت هناك، معجبة به، بل معجبة بالعلكة أكثر منه، وبعد لحظات سألته عن سعرها وضحكت بحياء ولعقت

twitter @baghdad_library

شفتيها فلمعتا، وبدت في ثوبها الأحمر أحلى من دمى السكّر التي يبيعها فريد.

أعطاها فريد قطعتي علكة هدية لها، فربتت على وجهه وقالت: «إنك فتى ظريف جداً» وجرت مبتعدة. بعد خمس دقائق جاء أخوها البدين جميل يتدحرج، يلهث كالعادة. «إما أن تعطيني دمية من السكّر أو أنني سأشي بك وبأنطوانيت وأقول ما تفعلانه معاً»، قال ولعابه يسيل. تطلّع فريد حوله، ثمّ عاد ونظر بقلق إلى الصبي البدين الذي يلوّح بذراعيه حوله بعصبية وكاد أن يفقد توازنه، متوقعاً أن يهوي هذا الفيل في اللحظة التالية بكتلته المليئة بالدهن فوق دمى السكّر. لذلك تناول قطعة لم تكن جميلة وأعطاها لجميل، وقال له: «هيا ابتعد من هنا أيها الواشي، وإلا طلبت من يوسف أن يضربك، أتفهم؟»

نظر جميل إلى يوسف الواقف في مكان قريب يصنع صافرة من غصن شجرة سميك وأخذ يلوّح به في الهواء. تناول الفتى البدين دمية السكّر واختفى.

لم يأت أطفال لشراء شيء في صباح أول يوم. وكأن حارة الزيتون قد خلت من سكانها. عند منتصف النهار أعاد فريد صينيته إلى حجرة المؤنة لكي لا يراها والده، وأمل في أن يكون اليوم التالي أفضل لأن الحرارة كانت لاهبة بعد الظهر.

«يجب أن تجد عبارات مقفّاة لجذب الأطفال، فالإعلانات تصنع العجائب». نصحته كلير.

تذكّر فريد نداءات الباعة الجوالين في دمشق التي كانت تشعره دائماً بالبهجة. لذلك اختلق ثلاثة نداءات، واحد عن دمى السكّر، وواحد عن العلكة، وواحد عن المصاصات، وانطلق للعمل بشجاعة جديدة في اليوم التالي. وظل يوسف يراقب مدخل الحارة، وقد ارتدى اليوم ثياب كاوبوي بقبعة ومسدّسين كان والده قد أهداه إياها بمناسبة عيد ميلاده، كما لو أنه يتوقّع وقوع عملية سطو في أيّ لحظة.

دهش فريد كثيراً عندما وجد في انتظاره عدداً من الأطفال الذين جاؤوا جميعاً من البناية الكبيرة المجاورة التي يقيم فيها مستأجرون مسيحيون فقراء، وسرعان ما أدرك أنهم يلعقون شفاههم وينظرون إلى بضاعته، وهم لا يملكون قرشاً في جيوبهم.

بعد قليل جاءت أنطوانيت مع جوزفين، أصغر أخوات يوسف. شقّت أنطوانيت طريقها بين الأولاد المتجمّعين، ساحبة جوزفين خلفها، وإذا اعترض أحد طريقها، كانت تقول ساخطة: «إنه صديقي، فافسح لي الطريق ودعني أمرّ». عندما وصلت إلى مكان الصينية التي يتحلق حولها الأولاد، ذُهل فريد مرة أخرى بقسمات وجهها الجميل. كانت ترتدي ثوباً صيفياً أزرق وقلادة من الخرز الملوّن وتعقد شعرها بحبستي شعر.

«إن جوزفين لا تصدق بأنك أعطيتني قطعة من العلكة البارحة، لذلك قل لها هل أعطيتني أم لا؟» سألت بنبرة تشي بالتحدي.

«نعم، نعم، أعطيتك»، قال فريد.

«لكنه لن يعطيك شيئاً اليوم»، قالت جوزفين بنبرة متحدية أيضاً. نظرت أنطوانيت التي لم تتوقّع ذلك إلى فريد تنشد مساعدته، لكنه لم يعرف ماذا يفعل لأن جميل كان يستمع إلى ما يقولونه.

«انظري، هل رأيت؟ لن يعطيك شيئاً»، كرّرت جوزفين بصوت مرتفع. فجأة اغرورقت عينا أنطوانيت بالدموع.

«لا بل سأعطيها»، تلعثم فريد بصوت منخفض، «سأعطيها اليوم أيضاً»، وقدم لأنطوانيت علكة أخرى.

«وماذا عني؟ أقصد، إنك صديق أخي»، قالت جوزفين الساخطة، «هل تريدني أن أقول له إنك تهدي حلوياتك للجميع إلاّي؟» وخبطت بقدمها غاضبة حتى لاحظ يوسف ذلك واقترب. في هذه الأثناء، كانت أنطوانيت تعلك علكتها بتلذذ وجفّت دموعها فجأة كأنها ابتلعتها.

«حسناً، سأعطيكِ شيئاً»، قال فريد متنهداً، وقدم لجوزفين بامتعاض علكة أيضاً، فأخذتها وهي تضحك، وشقّت طريقها خارج حشد الأولاد،

twitter @baghdad_library

وسمعها تنادي، «إنه يوزع دمى السكّر والعلكة، إنه يوزعها مجاناً». أما ما حدث بعد ذلك، فلن ينساه طوال حياته. فكأن قائد أوركسترا غير مرئي كان يقود الأولاد معاً في جوقة متناغمة فراحوا يتكلمون ويبكون معاً.

«لماذا لا يعطينا أحد دمى سكّر؟ لماذا؟» وكانت العبارة الأخيرة، «لماذا لا يعطينا؟» صيحة طويلة مسرحية ممطوطة من الألم على نحو مبالغ فيه. كانت أغنية الأطفال أكثر إقناعاً من جوقة الكنيسة الكاثوليكية في يوم الجمعة العظيمة، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت كلير عند الباب.

«انتظروا لحظة يا أولاد»، صاحت، «انتظروا لحظة، أرجوكم»، ومدّت ذراعيها لكي تهدئهم، فصمت الأطفال في الحال كجوقة محترفة.

«فليأخذ كل منكم دمية سكّر، وسأدفع أنا ثمنها».

«لكني لا أريد دمية. أريد علكة»، صاحت فتاة صغيرة يسيل المخاط من أنفها. طفرت الدموع من عيني فريد. شعر بالرغبة في أن يقذف الأولاد بصينيته. هزّ يوسف رأسه متعاطفاً ومشفقاً بآن وذهب إلى البيت.

وزّعت كلير حلوى ابنها على الأطفال ولم تقل شيئاً عندما عاد جميل ثلاث مرات أخرى ليأخذ دمى السكّر.

«إنك لست من عائلة مشتاق، بل من عائلة سُرور»، قالت لفريد وأعطته ليرة، وهي مبلغ يزيد على المبلغ الذي قد يكسبه من بيع جميع دمى السكّر والمصاصات والعلكة، وأضافت ضاحكة، «لم يكن أحد في عائلتنا يجيد المساومة ولديهم كلهم قلب كبير بمساحة ملعب كرة القدم، لذلك لم ينجح تاجر واحد في عائلتنا».

١٠١- إلى أين أنت ذاهب؟
(Quo Vadis?)

احتلّ مائة واثنان وثلاثون تلميذاً عدّة صفوف من مقاعد أكبر دار سينما في دمشق، لأن إدارة المدرسة أخذتهم لمشاهدة الفيلم الشهير بسعر مخفّض، لذلك لم يكن مفاجئاً أن يسمح، حتى والد رزوق الذي احتقر الفنّ

السينمائي طوال حياته والذي لم تطأ قدماه دار سينما قط، له بالذهاب. وأكد المعلّم للجميع بأن الفيلم يدعم الديانة المسيحية.

وسمح والد رزوق لابنه الذهاب لمشاهدة الفيلم بشرط واحد وهو أن يروي له قصته في ذلك المساء لأنه سمع الكثير عنه. وكان والد رزوق يعتبر سماع قصص مع شرب كأس من الشاي هو نزهة على بوابة الجنة.

«لكني أضطررت لأن أكذب عليه»، قال رزوق لأصدقائه في تلك الليلة في الغرفة العلوية، «لا لأنني كنت خائفاً بل لكي لا يفقد أعصابه. فقد حذفت كلّ شيء كما يفعل الكبار عندما يدخل طفل الغرفة فجأة. «حدّثني من الألف إلى الياء»، قال لي أبي، وهذا ما اعتاد على قوله عندما يريد أن يسمع عن أمر ما من بدايته حتى نهايته، لكني لم أستطع أن أحدّثه عن المشاهد التي عرضت قبل عرض الفيلم الرئيسي. فقد كانت عن فيلم كاوبوي يظهر فيه الهنود الحمر أوغاداً وهذا سيثير حنق أبي كثيراً، لأنه يقول دائماً إن ثقافة سكان أمريكا الأصليين رائعة، وعندما يذكر أحدهم اسم كولومبوس، يرسم شارة الصليب ويبصق ثلاث مرات. فكيف يمكنني أن أحدّثه عن مشاهد الفيلم القصير الثاني الذي يؤدي فيه همفري بوغارت أحد أدواره الإجرامية؟

لذلك أخبرته كيف أنه تعيّن على المسيحيين الأوائل أن يعملوا سراً في "Quo Vadis?" حدّثته عن لقاءات المسيحيين المضطهدين في سراديب المقابر حول روما تحت الأرض، وعن بيتر أوستينوف الذي يقوم بدور نيرون بإبداع شديد، وعن حريق مدينة روما الكبير، ثم حدّثته عن اضطهاد المسيحيين ورميهم للوحوش الكاسرة فبلغ التأثر بأبي مبلغاً جعله ينسى أن يحتسي شايه. اغرورقت عيناه بالدموع، لكنّي لم أقل له إننا بعد انتهاء الفيلم تشاجرنا مع بعض الأولاد المسلمين وتبادلنا اللكمات. من المؤسف أنكم لم تكونوا معنا هناك.

جاء الأولاد المسلمون الجالسون في الصفّين أمامنا، برفقة معلّمهم ليتعرفوا على الديانة المسيحية. لكن عندما أضيئت الأنوار في الصالة ثانية

twitter @baghdad_library

بعد انتهاء الفيلم، التفت أحدهم إلى رفاقه وقال: «لنر إن كانت هذه الحفنة من المسيحيين صالحة»، وأشار إلينا، ثم صفع صديقي غابرييل على وجهه وصاح وهو يمثّل دور الشخص الساذج البريء، «حسناً، هيا أدر خدك الآخر، كما يقول سيدك المسيح، أليس كذلك؟»

بوغت غابرييل لوهلة، لكنه سرعان ما أمسك بالصبي الذي لم يكن ضخم الجثة، فرفعه في الهواء وألقى به فوق رؤوس المشاهدين فسقط بعد ثلاثة صفوف، ثمّ اشتعلت نار جهنم. لم يعرف المعلّمون ماذا يفعلون، وقالوا إنهم يشعرون بالخجل من تلاميذيهم. بالطبع لم أنبس بكلمة واحدة عن هذه المشاجرة لأبي.

وفي يوم السبت اضطررت إلى الذهاب للاعتراف. «لقد كذبت» اعترفت وأنا جاثٍ على ركبتي.

«لماذا فعلت ذلك، يا بني؟ أبدافع الجشع أم بدافع الخوف أو العقاب أو لكي تجني فائدة خاصة لك؟»

«لا، لقد فعلت ذلك لدوافع إنسانية»، قلت، «فساد صمت تام وأنا على كرسي الاعتراف. أخيراً طلب الأب أثناسيوس مني أن أتلو مرة صلاة «فعل الندامة» وثلاث مرات «أبانا الذي في السموات» لكي أطهّر روحي من إثم الكذب. لم يفهم شيئاً، لذلك لم أتلُ أيّاً من هذه الصلوات».

١٠٢- الجوكر

لكلّ فصل من الفصول لعبة يمتاز بها. أما من يقرّر متى تبدأ فترة الألعاب ومتى تنتهي، فهذا لا يزال لغزاً من ألغاز الطفولة. كانت الدحل فقط هي التي يمكن اللعب بها على مدار السنة.

في الشتاء اعتاد الأطفال على اللعب بالجوز ونواة الزيتون والبلح، فكان الفائز يأكل الجوز ويأخذ نوى الزيتون والبلح إلى مصنع الفحم لأنها جيدة الاحتراق، ويتمكن الأولاد من كسب بضعة قروش. وكانوا يلعبون الورق في الشتاء أكثر مما يلعبون في الربيع.

قبيل عيد الفصح يلعب الأولاد بالبيض المسلوق. لم يكن إلياس وكلير يسمحان لفريد باللعب مع أولاد الحارة بهذه اللعبة لأنهما يعتقدان أن لعبة كسر البيض لعبة قمار بدائية تعتمد على الحظّ لا يلعبها إلا أولاد الطبقات الدنيا. وعلى الرغم من أنهما كانا يكسران البيض في البيت بشكل تقليدي لا يؤلم أحداً بخسارة، وهذا ما يفعله جميع المسيحيين باعتباره عادة من عادات عيد الفصح، لكنهما لم يتقبلا فكرة كسر البيض في لعبة يمكنك أن تربح أو تخسر البيض الذي تراهن عليه. لكن فريد كان يتسلل إلى تقاطع الشارع المستقيم مع حارة اليهود ليتفرج على الأولاد الآخرين، على الأقل، وهم يلعبون.

كانت اللعبة تنطوي على جميع أنواع الغشّ والخداع، ولم يكن اليوم ينتهي بسلام أبداً. فعلى الدوام، كان يُكتشف أحدهم وهو يغشّ، فيعلو الصياح وينشب عراك في بعض الأحيان. كان سليمان شيطاناً ماكراً، ينطلق بحثاً عن أطفال أبرياء يجلبون بيضة أو بيضتين مسلوقتين من البيت ليجرّبوا حظّهم، ويتحدّاهم. في إحدى المرات، أعطاه عازر بيضة فصح لا يمكن كسرها بعد أن اكتشف هذا المخترع الشاب طريقة ذكية لا يمكن أن تخطر ببال أحد غيره. ففي البداية، ثَقَب فتحة صغيرة في قشرة بيضة نيئة وامتصّ محتوياتها ثمّ ملأها بجبس سائل وانتظرها حتى جفّ السائل وأصبح صلباً مثل حجر ثم موّه الفتحة في أسفل البيضة. لكن لم يكن عازر نفسه يتمتع بنفس القدر من الشجاعة ليخدع الأولاد الآخرين، فكان يعطي البيضة لسليمان الذي يربح من خلالها ما لا يقل عن خمسين بيضة في كلّ عيد فصح يتقاسمها مع عازر. وإذا شكّ أحد الكبار وطلب منه أن يتفحص البيضة يختفي بسرعة البرق بين الحشد.

بعد انتهاء عيد الفصح بقليل، يبدأ الأولاد باللعب بنوى المشمش الذي يشتد عليه الطلب لأنه يدرّ مبلغاً جيداً. وكان هناك النوى الحلو الغالي الثمن الذي يُطحن ويُصنع منه نوع من حلوى المرزيبانية، ويعصر زيت اللوز من النوى الصغيرة المرّة.

twitter @baghdad_library

ثمّ يأتي الموسم الذي تتطاير فيه الكرات من البيوت ويجري الأولاد خلفها لتفريغ طاقاتهم التي كبتت طوال أشهر الشتاء. كانت كرة القدم وكرة السلة اللعبتين المفضّلتين لدى الأولاد. وكنت ترى الجوكر باستمرار يلعبون كرة القدم. والجوكر - الذين يطلق عليهم تيمنناً بالجوكر في ورق اللعب، ويُعرفون في بعض الأحياء باسم «عصفور طيار» - هم أطفال صغار جداً، وصغار جداً على فهم الخسارة والربح أو النصر والهزيمة، لكنهم، على الرغم من ذلك، يصرون على اللعب مهما كلف الأمر. فينطلقون إلى ساحة الملعب مع الآخرين، يركضون معهم ويأخذون جانب أحد الفريقين، ويركلون الكرة في أرجاء الملعب، ويلعبون بحماسة شديدة، ويعاملهم الآخرون دائماً بلطف لأنهم لا ينتمون إلى أي من الفريقين. ولم تكن تُحسب الأهداف التي يحققونها لكنّهم كانوا يلعبون ويغيّرون الفريق، ويشعرون بالسعادة لأنهم يعتقدون بأنهم جزء من اللعبة.

عندما تغلق المدرسة أبوابها في نهاية حزيران وتصبح الشوارع قاسية كالحجارة في هذا الجفاف، يلعب الأطفال بالحصى. كانت هناك أنواع مختلفة من الألعاب بالحصى والدحل التي تحتاج جميعها إلى طاقة كبيرة، وقدرة على تصويب الهدف بشكل دقيق وتحديد الارتفاع والسرعة بحس سليم.

كان الأولاد يغشّون باستمرار، وككل اللعب التي تعتمد على المنافسة تثير الأطراف المشتركة على الغش، حتى كانت تروى نكتة بأن المسيح، الذي لم يفعل معجزات لإنقاذ نفسه حتى وهو على الصليب، وقع في هذا الإغواء عندما كان يلعب في الجنة. ففي أحد الأيام، كما يقول الأولاد في حارة فريد، كان المسيح والنبي محمد يلعبان لعبة طاولة النرد في السماء. وعندما كاد المسيح أن يخسر ووصل إلى النقطة التي لم يعد بإمكانه أن يربح فيها حتى لو جاءت رميته الأخيرة «ستة وستة»، فقال له النبي محمد ساخراً: «هيا استسلم يا فتى، فلا شيء يمكن أن ينقذك من هذا المأزق». لكن ابتسامته الواسعة تجمّدت عندما رمى المسيح قطعتي النرد مبتسماً، فسقطتا

على طاولة اللعب «سبعة وسبعة»، فغضب النبي محمد وقال: «اسمع، هذه ليست معجزة، إنها غشّ».

١٠٣- خرافة

أنجبت حليمة، جارة يوسف، أخيراً طفلاً مفعماً بالصحة بعد ثلاثة إسقاطات. لم تكن تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها، وقال يوسف إنها تؤمن بالخرافات. وقد طبقت خلال فترة حملها كلّ النصائح التي أسدتها لها القابلة. ومع أنها كانت مسيحية فقد ذهبت مع أمّها إلى أحد المشايخ الذي يقيم في مكان قريب لإعطائها بعض التعويذات.

كادت حماتها تسبب لها الجنون لأنها تعارض زواجها من ابنها بشدة، وما فتئت تؤلبه عليها. فبعد كل زيارة يقوم بها إلى بيت أمّه يعود إلى بيته معكّر المزاج ويصرخ في وجه حليمة لأتفه سبب.

كانت أمّها امرأة جذّابة في الأربعين من عمرها، تبدو أصغر سناً وأكثر أنوثة من ابنتها الوحيدة. كانت قلقة جداً على حليمة، ومستعدّة لعمل أيّ شيء من أجلها، فأضاءت شموعاً لمريم العذراء، وأشعلت بخوراً للقديس أنطونيوس، وقدمت للقديسة بربارة قلباً فضّياً. وتصدّقت ثلاث مرات متتالية، لأن الشيخ قال لها إنه ربما كانت هناك روح من أرواح أسلافها بحاجة إلى هذه الرحمة. وفي هذه الحالات، يتبرع أهالي دمشق عادة بالطعام أو الشراب للمارين في الشارع. وعادة ما تكون هذه الصدقة التي تُقدم في الصيف شراب عرق السوس المبرد، وهو شراب مرّ وحلو أسود اللون، فيروي ظمأهم وينعشهم ويتضرعون إلى الله بأن يتغمد المتوفى برحمته.

عندما كانت حليمة في شهرها السادس، تبرعت ببرميل ضخم من شراب عرق السوس كلّ أسبوع. كان بائعو شراب عرق السوس يقفون في حارة العبّارة ويقدمونه بسخاء إلى المارة. لكن ذات يوم، ذهب أحد الجيران لزيارة حليمة وأخبرها بأنه حلم عدة مرات بأبيه المتوفى الذي رأى أسلاف حليمة الذين هم في الجنة أيضاً، لكنّهم يطلبون النجدة لأن أمواجاً ضخمة

twitter @baghdad_library

من طوفان شراب عرق السوس قد أغرقت المكان، مما اضطر عدة قديسين إلى الصعود إلى أعالي الأشجار والصخور للنجاة من سيول شراب عرق السوس وراحوا يتوسلون بأن تتوقف عن تقديم هذه الصدقات. عندما أنصتت حليمة إلى هذا الطلب وتوقفت عن توزيع أي مشروب للمارة. في النهاية أنجبت طفلاً جميلاً مفعماً بالصحة.

لكن أمّها أرادت أن تتخذ اجراءات وقائية خوفاً من حسد الحاسدين فهرعت لزيارة الشيخ مرة أخرى. لكنه كان قد مات وحلّ ابنه مكانه في عمله. قال لها إنها يجب أن تكون شديدة الحذر لدرء عيون الحاسدين عن حفيدها، وباعها كميات كبيرة من التعويذات لكي تعلّقها حول الصغير. عندما همّت المرأة الجذّابة بالمغادرة أمسك بيدها الطرية لفترة طويلة وراح يحدق في أعماق عينيها. «يجب أن نتعرّف على بعضنا عن قرب أكثر لمصلحة الطفل»، قال بنبرة تشي بالتآمر. خفقت دقات قلبها بسرعة، لكنها كبحت انفعالاتها وأسرعت إلى ابنتها. لكنها عندما استلقت في تلك الليلة بجانب زوجها، بدأت تراودها أفكار عن الشيخ الشاب.

علّقت حليمة التعويذات حول الطفل. سيأتي الحسد من امرأة ذات عينين زرقاوين، هكذا أخبرت النجوم الشيخ، وراحت أمّها تراقب بدقة شديدة كلّ امرأة تزورها، وإذا رمقت إحداهن الطفل طويلاً، أو إذا أسرفت إحداهن في امتداح صحته، كانت تلكز حليمة وتدفعها إلى القول: «الله يحمي الصبي ويصيب عيون الحاسدين بالعمى»، وعندما تغادر الزائرة، تسرع أمّ حليمة، وهي المسيحية، إلى تلاوة سورتين من القرآن الكريم لدرء عيون الحاسدين عنه.

ظل الطفل ينعم بصحة جيدة. وأرضعته أمّه من ثديين يدرّان حليباً وفيراً، لكن بعد ذلك، وقع المحتوم. فقد استغلت حماة حليمة فرصتها عندما كانت جدّة الطفل الأخرى منهمكة في صنع القهوة في المطبخ. نظرت إلى الطفل الذي ظل الحليب يقطر من زاويتي فمه، وهسهست كالأفعى. كان ذلك عندما أحسّت حليمة بوخز حادّ في حلمتها.

في اليوم التالي، تهدل ثدياها، وأصبحا مسطحين رخوين مثل قربتين فارغتين، ولم يعد يخرج منهما نقطة حليب واحدة. قرعت أمّها ناقوس الخطر، فجاء الشيخ على الفور واستمع إلى القصّة وقد تجهّم وجهه. عرف في الحال المرأة التي هسهست بذلك السحر المصمّم خصيصاً لإفراغ الحليب من صدر الأمّ. طلب ثوباً من أثواب الحماة الذي لا تزال رائحتها عليه، بل الأفضل ثلاث قطع من ثيابها، وقال إنه سيتكفل بالباقي.

عندما وجدت أمّ حليمة جارة مرضعة يمكنها إرضاع طفل ابنتها لفترة من الوقت، أسرعت لزيارة الحماة واختلقت عذراً للذهاب إلى الحمّام، فاستلّت سروالين داخليين ورداء لها من سلة الغسيل. أحرق الشيخ تلك القطع في قدر نحاسي، وراح يدمدم أشياء غير مفهومة، بينما كانت أمّ حليمة تتلو آيات قرآنية يفترض أنها تدرأ عين الحسد عن المرأة.

أخيراً، جلس الشيخ الشاب على الأريكة مع أمّ حليمة وهو لا يزال يدمدم رقية غير مفهومة، ثم نظر إليها بعينيه الداكنتين الكبيرتين بطريقة جعلتها تشعر بأن ركبتيها تنحلاّن. أخذ يدها ووضعها فوق قلبه. تسمّرت نظرته اللاهبة على حلمتيها، فأحسّت كأن ثيابها تحترق وودت لو أنها استطاعت أن تمزق ثيابها. كلّمها الشيخ الشاب برقة وبسرعة أخذت الغرفة تمتلئ بدخان البخور الكثيف.

«يجب أن تكوني الآن امرأة قوية. فلن يستطيع أحد إلا أنت وقلبك المحبّ مساعدتي على الوصول إلى ابنتك. يجب أن تجتازي اللولب، وسأجتازه عبرك، ومعاً سنحرّر الفتاة من كل سحر». عندما قال ذلك، حرّك يد المرأة إلى أسفل قلبه ووضعها على حضنه. لم تعرف ماذا يقصد باللولب، لكنّها أحسّت بقضيبه تحت الثياب ووجدت نفسها تلهث طلباً للهواء.

«بحق السماء، حماه الله لك من عين الحاسدين، لكنّه سيمزّقني إرباً إرباً» قالت وراحت تمسّد القضيب من دون أن تنظر إلى الأسفل. كان ضخماً وصلباً مثل وتد. أدركت المرأة أن الشيخ لم يكن يرتدي سروالاً داخلياً.

twitter @baghdad_library

«إذاً لنعلّق كعكات السمسم بيننا»، قال الشيخ، ونهض واقفاً. جعل قضيبه عباءته تبرز مثل خيمة بدو. أحضر خمس كعكات مستديرة من السمسم بحجم كف اليد كالتي تؤكل مع الشاي بعد الظهر في دمشق. كان سمك كلّ كعكة ثلاثة سنتيمترات تقريباً. نظرت المرأة إلى الكعكات المستديرة وقالت لنفسها إنها تستطيع أن تتدبر الطول الذي سيبقى.

«جيد»، قالت، شاعرة بالارتياح، «ماذا يجب أن أفعل؟»

أحضر الشيخ ورقة كبيرة بحجم جريدة غير مطوية، ورأت المرأة عبارة بالحبر الأسود كتبت عليها بشكل لولبي. فرش الشيخ الورقة على البساط وطلب من أم حليمة أن تستلقي على بطنها وأن تضع فمها فوق الكلمة الموجودة في مركز اللولب، ثمّ تبدأ تقرأ ببطء دون أن تحرّك الورقة. كان ذلك هو الجزء البالغ الأهمية، قال لها، وأنها يجب أن تركّز على الكلمات. كان عليه أن يعمل من خلالها للوصول إلى ابنتها، وأنها يجب ألاّ تتوقّف عن قراءة العبارة بصوت مسموع مهما حدث.

«لا تنسَ كعكعات السمسم»، قالت مستجدية.

كانت الكلمات اللولبية مكتوبة بأحرف عربية، وما عدا اسم ابنتها المكتوب في الوسط لم تفهم كلمة واحدة منها، لكنها حاولت جاهدة أن تحلّ سلسلة الكلمات المكتوبة لأنها كانت في غاية الحماسة لمساعدة حليمة. فجأة أحسّت به. انطلقت صيحة من فمها لكنّها واصلت القراءة. وسرعان ما أحسّت بالنار تضطرم في داخلها، وبدأت تستجيب للكزاته. بعد لحظات نهضت وجثت على ركبتيها متكئة بيديها على الورقة الكبيرة.

«إكسر إحدى كعكات السمسم» قالت متوسلة لأن النار كانت تزداد اشتعالاً. ازداد شوقها، وراح الشيخ يقطع الكعك حلقة إثر حلقة. وصلت أمّ حليمة إلى نهاية اللولب ودخلت سماءً لم تعرفها من قبل. بغتة أحسّت بأنها خفيفة كريشة، وراحت تحلّق عالياً، مذهولة من شدّة المتعة ومن رائحة البخور.

بعد ثلاثة أيام، عاد الحليب إلى صدر حليمة، وأصبحت أمّها تزور

الشيخ الشاب كلّ أسبوع، ولم تنسَ مرة أن تأخذ معها كعكات السمسم الخمس.

١٠٤- نظارات الجدّ

لم يتوقف جدّ سليمان عن قراءة كتاب واحد طوال حياته وهذا الكتاب هو الإنجيل الذي يقرأه ببطء، ببطء شديد. كانت صورته مطبوعة باستمرار في ذاكرة كلّ من يراه: محنياً فوق الكتاب الكبير، يسرق قدراً أكبر من الضوء من آخر إشعاعات الشمس الغاربة ليتمكن من القراءة. لم يكن يقبل أن يقرأ على ضوء اصطناعي.

عندما يسأله أحد ما هو أكثر شيء يريد الحصول عليه في حياته، يجيب «نسخة جيدة من الكتاب المقدس في الجنة»، حيث يجلس تحت شجرة وارفة يقرأ ليلاً نهاراً لأن الشمس في الجنة لا تغرب أبداً.

مع مرور السنوات وهنت عيناه، فاشترى نظارات. لم يكن هناك طبيب عيون اختصاصي حينئذ، بل كلّ ما على المرء أن يفعله هو أن يتوجّه إلى السوق حيث توجد جميع أنواع النظّارات معلقة في واجهات المحلات، ويمكنه أن يجرّب واحدة تلو أخرى حتى يعثر على النظارة التي تلائمه.

غيّرت النظّارات وجه الجدّ، فلم يعد يبدو لطيفاً وحكيماً، إنما أصبح يبدو شخصاً خائفاً متوتراً مذهولاً باستمرار. لأنه لم يصب بقصر البنظر بل بمد البصر مما جعله يحتاج إلى نظارة تظهر عينيه بشكل أكبر من حجميهما. عندما قال سليمان ذلك لجدّته، ضحكت وقالت: «نعم، إنه دائم التوتر خوفاً عندما يفاجئه أحد منذ أن كان صغيراً».

ذات يوم مات الجدّ. كان سليمان مسافراً برفقة أمّه لمدة ثلاثة أيام. عندما عادا رأياه راقداً في غرفة الجلوس، متيبّساً من الموت. حزن الصبي لفترة طويلة. فقد كان العجوز أفضل جدّ في العالم، حرفيّ ممتاز صبور، وصديق جيد لحفيده.

بعد أسبوعين وجد سليمان نظارات جدّه ملقاة على الرفّ وراء

twitter @baghdad_library

الإنجيل. هرع إلى جدّته وصاح لاهثاً «جدتي، لن يتمكن جدّي من القراءة في الجنة».

نظرت إليه جدّته للحظة، ثم ابتسمت وقالت: «سيجد فسحة ليتعرف على الجنة الآن، وعندما أذهب وأنضم إليه سآخذ معي النظارات وأعطيها له فيقرأ لأبد الآبدين».

بعد ستّة أشهر، مرضت الجدّة مرضاً شديداً. وعندما سمع سليمان أمّه تقول لخاله عند الغداء إنّها تخشى أن تلحق الجدّة بالجدّ قريباً، أطلق الصبي تنهيدة ارتياح وجرى إلى غرفته وأحضر النظارات ووضعها على سرير جدّته.

«لا تنسي النظارات» همس. أغرقت في الضحك حتى اعترتها نوبة سعال، ثمّ مسّدت رأسه وأخذت النظارات.

ماتت الجدة بعد ثلاثة أيام. تفاجأ الجيران عندما رأوا الجدة المسجاة في التابوت. فعادة ما يضع الناس مسبحة صلاة في يد المرأة الميتة، أما يد الجدة فكانت تمسك بنظارة الجدّ.

«إنها رغبتها الأخيرة»، قالت أمّ سليمان للكاهن الذي لم يرض بذلك لكنه بلع غضبه وأسرع في صلاته على مضض.

سليمان لم يهتم بأي صلاة، كان مرتاحا نفسياً، لأنه تأكد من أنّ جدّه سيتمكن من القراءة في الجنة ذلك اليوم.

١٠٥- جبران

جلس الرجل الذي يدعى جبران على الدرجات المفضية إلى بيت صغير. كان ثملاً وقد تحلّق حوله أكثر من عشرة أطفال يريدون سماع القصص التي يحكيها. أثناء النهار يجوب جبران شوارع دمشق بحثاً عن أناس يقدمون له شيئاً من الطعام والسجائر ومشروب العرق مقابل أن يحكي لهم بعض القصص.

«واحدة أخرى»، طلب منه سليمان عندما كان فريد ويوسف يتمشيان

في الحيّ. رأيا صديقهما يقدم للرجل سيجارة إسبانية لا بد أن يكون قد سرقها من أبيه.

«أرجو ألاّ تكون مخلوطة بأيّ شيء»، قال بارتيباب، «فالحشيش لا يوافقني». كان سكراناً لكن حديثه متماسك، مع أن عينيه بدتا غير قادرتين على الثبات على أيّ شيء، وتطوفان بقلق في المكان والزمان.

«لا، لا، إنه تبغ معطّر فقط يدخّنه كبار الدبلوماسيين. الآن احك لنا قصة الإفرنجي وزوجته مرة أخرى. فهذا النوع من القصص يعجب يوسف».

«آه، هذه حكاية قديمة، حكاية قرأتها عندما كنت مسافراً على متن سفينة في البحر الكاريبي. تعيّن علينا أن ننتظر انتهاء بعض التصليحات. توفر لدينا وقت طويل ورحنا نقتل الجرذان. وجدت كتاباً قديماً مهترئاً لا غلاف له، مليئاً بالقصص، ذكرت إحداها حيّنا هنا في دمشق وذكرت حمّام البكري القريب من باب توما. إن ما أقوله حقيقة تماماً كحقيقة أنكم تروونني جالساً أمامكم هنا»، قال مؤكداً لهم، وأخذ نَفَساً من سيجارته.

«حسناً، كان يا ما كان في قديم الزمان. لا بدّ أن إفرنجياً كان هنا. كان الفرنجة محاربين شجعان، جاؤوا من بلدانهم التي تبعد ثلاثة آلاف كيلومتر لإنقاذ المسيحيين. لكن عندما جاؤوا إلى بلادنا لم يميزوا بين المسيحيين واليهود والمسلمين فراحوا يقتلون أي شخص يصادفونه في طريقهم ثمّ غزوا مدناً عديدة، بما فيها القدس، لكنّهم لم يتمكنوا من غزو دمشق قط.

«وفي حرب طويلة كهذه، دامت أكثر من مئتي سنة، سادت فيها فترات عديدة من السلم. في تلك الفترات، كان بوسع العرب الدخول إلى قلاع الصليبيين، وكان بإمكان الفرنجة التجوّل في البلدات والمدن التي لم يتمكنوا من احتلالها لشراء حاجياتهم. وفي أحد الأيام، جاء أحد الفرنجة إلى دمشق. لم يكن قد مضى على وصوله إلى الشرق فترة طويلة مع جيوش الصليبيين، ولم يكن يعرف شيئاً عن الناس هنا. انتهى به المطاف حارساً عند البوابة الجنوبية لقلعة لا تبعد كثيراً عن دمشق، وعملت زوجته طاهية لقائد القلعة.

«كانت أبواب المدينة مشرّعة. راح الفرنجي يتجوّل في أرجاء المكان.

twitter @baghdad_library

في تلك الأيام، كانت دمشق جوهرة المدن ولم يكن المغول قد قدموا وهدموها بعد. لم يتمكن الجندي الصليبي من التغلب على دهشته. انطلق من الباب الجنوبي، «الباب الصغير»، وسار عبر سوق التوابل، وظل يسير حتى وصل إلى حارتنا. فجأة، رأى مدخل الحمّام. لم يفهم لماذا يدخل هذا العدد الكبير من الرجال إلى هذا المكان ويخرجون منه. نظر بحذر شديد من وراء الستارة، فدعاه صاحب الحمّام الذي يجيد لغة الفرنجة بعبارات منمّقة وإيماءات ودّية، لكن الصليبي خاف لأنه لم يكن يعرف العادات المحلية. كان محارباً شرساً شجاعاً، لكن الاستحمام عارياً مع رجال آخرين بدا له عملاً من أعمال الشيطان، مغامرة خطرة على حياته. لكن صاحب الحمّام ظل واقفاً بالقرب منه يسترضيه، محاولاً إقناعه بسلمية الحمام، إلى أن دفع الفرنجي الأجر المطلوب ووافق على دخول الحمّام. أرسل صاحب الحمّام فتى ليساعد الرجل في نزع ثيابه. وقف هناك خائفاً لا يستره شيء، أبيض كالثلج تفوح منه رائحة نتنة مثل خنزير. «انظروا إلى هذا»، نادى صاحب الحمّام الزبائن من سكان المدينة الذين كانوا يجلسون باسترخاء في القاعة يحتسون شاي النعناع وقال: «إنهم متوحشون وعنيفون كالأسود في الميدان، لكن صابونة صغيرة تثير فزعهم». ضحك الرجال ونظروا إلى الفرنجي وهو يتبع الفتى متردداً إلى قاعة الحمّام الداخلية المعتمة، حيث حُمِّمَ بالماء والصابون ودُلِّك وفُرِك جسمه وحُلقت له ذقنه. كان هناك شابّ يزيل شعر عانته. استرخى الإفرنجي وغفا. عندما استيقظ رأى شبّاناً وسيمين يتجوّلون في العتمة فظنّ أنه مات وذهب إلى الجنّة. عندما دنا منه الرجل الذي كان قد دلّكه بالصابون وأشار إليه بإيماءات بأنه سيغسله للمرة الأخيرة، أدرك أنّه لا يزال على الأرض. احتسى شاي النعناع الحار بسعادة واستمع إلى خرير الماء في البحرة. عندما انتهى، ارتدى ثيابه وشكر صاحب الحمّام، وانطلق مبتهجاً.

بعد يومين، رجع شابكاً يد زوجته. خاف صاحب الحمّام حتى الموت، وحاول أن يشرح للإفرنجي إنه لا يُسمح بدخول النساء والاستحمام

مع الرجال، لكن الإفرنجي قال إنه يريد أن يستمتع بالحمّام كما في المرة السابقة، لكن هذه المرة مع زوجته. حدث هرج ومرج عند مدخل الحمّام. هرب الرجال الذين أنهوا حمّامهم وكانوا يسترخون في القاعة القريبة من المدخل خوفاً من السيدة التي راحت عيناها الزرقاوان تتفحصهم باهتمام شديد، وعادوا إلى داخل الحمّام.

هرعت نساء الحيّ إلى الحمّام وراح بعضهن يشتمن المرأة الإفرنجية العديمة الحياء، في حين أرادت نساء أخريات أن يستحممن أيضاً. توسّل صاحب الحمّام إلى الرجل الفرنجي بأن يأخذ زوجته وينطلق بسرعة قبل أن تقع مذبحة. غادر الإفرنجي وزوجته مندهشين خائبين. في آخر المساء قال صاحب الحمّام إنه سمع الصليبي يقول لزوجته: «إنه أمر غريب حقاً، فهم محاربون أشدّاء لا يهابون الموت، لكنهم يركضون مذعورين عندما يرون امرأة».

١٠٦- سلمى والقدّيس يوحنا

كانت سلمى، أمّ سليمان، تحبّ القدّيس يوحنا المعمدان من كلّ قلبها. ولم تكن الوحيدة في حبّها هذا لأن الدمشقيين يحتفظون في قلوبهم بمكانة كبيرة للقدّيس المقطوع الرأس. إذ تقول الأسطورة إنه بعد رقصة سالومي الشهيرة جُلب رأسه إلى دمشق من فلسطين، وضريحه لا يزال قائماً في الجامع الأموي، ويبجّله المسلمون كذلك.

كانت سلمى كثيراً ما تذهب إلى الكنيسة لإلقاء نظرة على اللوحة الزيتية للقدّيس يوحنا في الكنيسة الكاثوليكية وتشعل شمعة وتصلّي بورع شديد وتخبره عن كلّ مشاكلها وهمومها. وقد أقسمت لأمّ يوسف أن القدّيس يوحنا المعمدان قد حقق لها كلّ أمانيها إلا أمنية واحدة لم تتحقق بعد. ظلّت سلمى تعيد وتكرّر طلبها لكن من دون فائدة. وعلى الرغم من أنها أشعلت له عدداً كبيراً من الشموع فإنه لم يحقق لها أمنيتها. في البداية، ذكّرت سلمى القدّيس بلطف، ثمّ بمزيد من الحدّة وكانت قد أشعلت حوالي سبعين شمعة

twitter @baghdad_library

لتحقيق هذه الأمنية بالذات، لكنه لم يكن يسمعها. وكان كاهن الكنيسة يضطر أحياناً لأن ينتظر طويلاً إلى أن تنهي حديثها مع القدّيس يوحنا. كان ينزعج منها كثيراً لأنه عندما يكون متعباً أو جائعاً أو في عجلة من أمره، لا يستطيع مغادرة الكنيسة وإقفال بابها.

في أحد الأيام، خطرت له فكرة. فقد كانت اللوحة الضخمة معلّقة فوق منضدة رخامية ويوجد خلفها مكان فسيح. عندما غادر جميع المصلين صلاة القداس، راحت سلمى تتبادل بضع كلمات مع إحدى جاراتها، ورأى الكاهن الشاب أن فرصته قد حانت، فاختبأ وراء اللوحة وراح ينتظر من دون أن يأتي بحركة. بعد قليل اقتربت سلمى من اللوحة وراحت تشرح بلسان ذرب أنه خاب أملها لأن القدّيس يوحنا خذلها مع أنها أشعلت له ثماني وسبعين شمعة.

«هذه آخر شمعة لديّ»، قالت.

«لماذا أنتِ حزينة هكذا يا ابنتي؟ لم تصلني طلباتك بعد. ماذا تريدين بالتحديد؟»

خافت سلمى، لكنّها تمالكت نفسها وشرحت له أمنيتها باستفاضة، ووعدت بأنه إذا حقق لها القدّيس يوحنا هذه الأمنية، فإنها ستمنح الكنيسة مئة ليرة.

«لماذا للكنيسة؟ هناك ألف قدّيس وقدّيس هنا، وجميعهم يريدون شيئاً من هديتك أيضاً».

«حسناً»، قالت سلمى، «إذاً المئة الليرة كلها ستكون لك».

«لكني لا أريد نقوداً لا قيمة للنقود في الجنة»، أجاب الكاهن الواقف وراء لوحة القدّيس يوحنا، «ماذا يمكنك أن تقدمي أكثر؟» بذل جهداً كبيراً حتى يتمالك نفسه عن الضحك بصوت مرتفع لأنه يستطيع أن يحدس كيف كان وجه المرأة في تلك اللحظة.

«ماذا تريد؟ شموعاً؟ يمكنني أن أشعل لك مئة شمعة»، قالت سلمى.

«أوه، كم أكره الشموع»، همهم الكاهن.

«هل تريدني أن أذبح خروفاً وأوزّعه على الفقراء؟»

«تلك الخراف المسكينة، لا يمكنني تحمّل رؤية الدم. ألا تعرفين أنني نباتي؟»

«صليب فضّي؟»

«إنك تخلطين بيني وبين المسيح».

«أ. . .أ. . .»، لكن لم يخطر ببال سلمى أي شيء آخر، «رحلة لجميع الأطفال في ملجأ الأيتام الكاثوليكي، أو. . .».

«لا يمكنك أن تسددي تكاليف ذلك»، قال الكاهن مقاطعاً، ناطقاً باسم القدّيس.

«اترك ذلك لي. سأساوم وأحصل على سعر جيد، لأن مدير شركة الحافلات ابن عم زوجي البعيد، وهناك مطاعم رخيصة كثيرة يمكن للأرواح الصغيرة المسكينة أن تملأ بطونها فيها».

«وما الذي سأحصل عليه من كلّ هذا؟»

«حسناً، ماذا تريد إذن؟» سألت سلمى، وقد أصبحت أعصابها شديدة التوتر، «قل ماذا أفعل حتى تحقق لي أمنيتي».

«أريدك أن تنظفي الكنيسة بالفرشاة والمكنسة ثلاث مرات في الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر».

«ماذا؟ أنظف الكنيسة بالفرشاة والمكنسة؟»، قالت سلمى بغضب، «لا يا سيدي، أستغني عن هذه الأمنية ولن أنظف لك الكنيسة، شكراً جزيلاً، لكنّي سأقول لك شيئاً واحداً: لا أستغرب منذ اليوم أنهم قطعوا رأسك أيها البخيل النقاق»، صاحت، وخرجت مسرعة من الكنيسة. ومنذ ذلك اليوم، بدأت تتحاشى الاقتراب من لوحة يوحنا المعمدان.

١٠٧- عندما توقّف الترام

كان فريد يحبّ ركوب الترام. وبخلاف الحافلة، لم يكن الترام شديد الازدحام وتهبّ عليه نسائم عليلة. في الصيف كان يسير ببطء ونوافذه

twitter @baghdad_library

مفتوحة، تخلبه الثياب الرسمية الأنيقة: فقد كان سائق الترام يرتدي بدلة رمادية اللون، ويعتمر قبعة جميلة، ويرتدي كل من الجابي الذي يحمل علبة التذاكر ومفتش التذاكر بدلة زرقاء داكنة. كانت أجمل بدلة هي بدلة مفتش التذاكر الذي لا يفعل شيئاً سوى تدقيق التذاكر، وقلما احتاج المفتش أن يعمل فكلّ الركاب حملوا تذكرة، لأن الجابي يراقب الركاب بدقة. كان الترام يتوجّه من باب توما حتى نهاية الخط في المدينة الجديدة ثم يعود ثانية. كان سليمان يركب مجّاناً مقابل مساعدة الجابي، وكان فريد يرافقه أحياناً. فبينما كان الجابي والسائق يجلسان لاحتساء الشاي عند محطة نهاية الخط، يقوم سليمان بتنظيف عربة الترام ثم يدير ذراع العربة. كانت تلك مهمة حسّاسة لأن الجابي لم يكن يوكلها إلى أشخاص كثر. فقد كان لذراع العربة - وهو قضيب معدني طوله ثلاثة أمتار - عجلة نحاسية في نهايته ولهذه العجلة شق من أجل الكابل، ويوجد نابض فولاذي كبير فوق سطح الترام يضغط القضيب والعجلة على الكابل الكهربائي. وقد ثُبِّت حبل على الذراع المعدني. وعندما يصل الترام إلى نهاية الخط، يُستخدم الحبل لإدارة ذراع عربة الترام. ويتعين على سليمان أن يشد الحبل بكل قوته ووزنه ليقاوم النابض القوي ويفلت العجلة النحاسية من الكابل ثم يسير حول عربة الترام ويثبّت العجلة في الكابل الكهربائي بشكل صحيح حتى يشير ذراع العربة إلى عكس الجهة التي سيمضي فيها الترام. وأخيراً، بينما لا يزال السائق والجابي يرشفان شايهما، يخُرج سليمان مقبض المقود ويأخذه إلى الطرف الآخر من الترام ليثبّته فوق كتلة المحرّك. كان يفعل كل ذلك بشكل محترف وتلقائي كأنه أفنى عمره في العمل في الترام. وكان الجابي والسائق يبديان إعجابهما بهذا الشاب الصغير الذي يمتلك قوّة رجل كبير. وكان سليمان الفتى الوحيد الذي يصافح جميع الجباة والمفتشين ولا يحتاج إلى شراء تذكرة عندما يركب الترام. وفي أحيان كثيرة، يجلب لهم أشياء من بيته: سندويشات وتفاح وفي بعض الأحيان سجائر إسبانية التي يجلب منها والده كميات كبيرة من السفارة.

أما فريد فكان بطبيعة الحال يدفع الأجرة عندما يركب الترام. وكانت

كلير تؤكد له ذلك وتقول: «يجب أن تظل عفيف النفس وألاّ تكلّف الآخرين نقوداً».

ذات يوم أراد أن يركب الترام في جولة في أنحاء المدينة ليتفرج على المدينة ويراقب الناس. جلس بجانب النافذة ومعه كيس كبير من الفستق وراح يراقب المشاة في الشوارع. من مزايا الترام الهامة أنه كان يسير ببطء وبهدوء، وبخلاف سائقي الحافلات، لم يكن سائقو الترام يتوقّفون عندما يشاؤون ويتبادلون الأحاديث مع أصدقائهم كما يفعل سائقوا الباصات. وبشكل عام، لم يكن سائقو الترام يرتدون بدلة رسمية فقط، بل كانوا أيضاً يبدون أكثر جديّة من سائقي الحافلات.

في الجولة إلى خارج المدينة القديمة، كان بإمكان فريد أن يقطف أزهار الياسمين وأزهار الدفلى من النافذة المفتوحة من الشجيرات البرية التي تنمو بالقرب من سكة الحديد. في إحدى المرات، رأى فجأة المجنون الذي يبحث عن حصانه منذ سنوات. فعلى ما يبدو أن البدوي كان يمتلك أجود حصان في العالم، وذات يوم رآه الرئيس شكلان وأراد أن يشتريه منه بأي ثمن، لكن البدوي الأنوف نظر شزراً إلى المال، ولم يبال بالتهديدات. لكن رجال المخابرات ألقوا القبض عليه وأخذوا حصانه. فجنّ الرجل من شدة الحزن بعد أن زجّوا به في السجن، لا من حزن الرجل على نفسه ولا من ألم التعذيب الذي تلقاه وهو البريء، بل من شدة حزنه على فراق حصانه. ثم أطلقوا سراحه فأخذ يهيم على وجهه في الشوارع منذ ذلك الحين، ويقرع أبواب البيوت ويصيح، «ها أنا ذا يا صباح» ثمّ يصيخ السمع ليسمع جواباً بصهيل الحصان. في بعض الأحيان، ينفجر في البكاء على نحو يثير الرثاء. حزن الناس عليه وكانوا يقدمون له شيئاً من الطعام والثياب القديمة والماء بل حتى بعض النقود. وكان يمشي حافياً في الصيف والشتاء.

في طريق عودته لم يتمالك فريد نفسه عن الضحك. فقد رأى المحتال الذي خدع عدّة نساء في حيّه، واقفاً عند موقف يحتشد عنده عدد من الأشخاص بانتظار الترام، يبيع ماء محلّى ملوّناً كعلاج معجزة للتخلص من

twitter @baghdad_library

الديدان المعوية. فقد كان معظم سكان المدينة مصابين بالديدان المعوية.

«انظروا إلى هذا، انظروا إلى هذا»، كان يصيح وهو يعرض جرّة فيها ديدان صغيرة وتشكيلة من الديدان المنقوعة في الكحول. «حتى البارحة كانت هذه الديدان تعيث فساداً في معدة أحد زبائني، آه نعم، كانت تنعم بحياة الملوك في معدته وتقيم حفل زفاف كل يوم حتى تناول ثلاث قطرات فقط من هذا المشروب المعجزة على معدة فارغة فاندفعت الديدان إلى الخارج بسرعة كأنها أولاد صغار يهبطون على الزحليقة».

نظر الناس بقلق إلى الجرّة الزجاجية الكبيرة التي كانت محتوياتها يمكن أن تملأ معدة بقرة. تأثر سائق الترام بما سمع فنهض واقفاً على قدميه وراح يتابع كلمات صانع المعجزة المزعوم من باب الترام فاغر الفم.

«طيب، وكيف نعرف أن في بطننا ديداناً؟» صاح أحد المارة.

«هل تعاني من بخر في فمك؟ إنها رائحة ضراط الديدان. وإن كنت تريد أن تتأكّد أكثر، مرر أظفرك أو قطعة ملساء من الخشب على أسنانك أوّل ما تنهض في الصباح. فإذا رأيت بقعة كريهة الرائحة تميل إلى اللون الأصفر على الخشبة، فهذا يعني أن لديك ديداناً. إنها خراء الديدان»، أجاب المحتال.

خدش سائق الترام شيئاً من أسنانه بأحد أظافره وشمّها، ثم هزّ رأسه مذعوراً وأسرع عائداً إلى مقعده عندما اقترب الترام التالي وهو يدقّ جرسه بصوت مرتفع.

١٠٨- ألعاب الأولاد

اختلق عازر طريقة جيدة لكي ينتقم سليمان من الشرطي الذي شتمه وصفعه على وجهه. فقد ربح سليمان عشر علب علكة من ابن الشرطي في لعبة بسيطة للغاية: فقد كان يتعين على كلّ شخص أن يرمي علبة العلكة إلى الحائط، ويفوز من تكون علبته الأقرب إلى الجدار. لم تكن هناك إمكانية للغش، وكانت اللعبة تعتمد على التدريب والممارسة فقط. لكن سليمان لم

يكن منصفاً لأنه رامي علكة محترف، وتمكن من إقناع الولد الجاهل بأنه بشيء ضئيل من الحظّ يمكنه أن يربح. أنفق ابن الشرطي كلّ ما يملكه من نقود لشراء عشر قطع من العلكة انتهت جميعها إلى مأواها في جيب سليمان، فأخذ الولد يبكي بحرقة، وما هي إلا لحظات قليلة حتى جاء والده، وهو شرطي ضخم الجثة ذو كرش كبير، مسرعاً وأمسك بتلابيب سليمان وراح يهزّه ويصفعه على وجهه بقوة، وأخذ منه كلّ قطع العلكة، بما فيها علب علكة اللاعبين الآخرين التي خسروها في ذلك اليوم. كان يوسف لا يني يقول إن آلهة الحظ ذاتها تتجنّب اللعب مع سليمان لأنها تعرف أن لا حظ لديها معه ومع يده التي تمرست.

«لقد أخذ كلّ ما لديّ من علكة! وهذا الأمر أسوأ من ضربه لي لأنه لم يتبق لي أيّ رأسمال. كيف سأواصل اللعب؟» قال سليمان نادباً. كان وجهه محمراً متورماً من صفع الشرطي له، لكن سليمان كان متمرساً أيضا على تحمل الضربات. في جميع الأحوال، غضب من أولاد الشرطي الواقفين عند نافذة بيتهم في الطابق الأول، يعلكون العلكة ويضحكون. بينما راح والدهم العاري الصدر المكسو بشعر كثيف، ينظر بانتصار من فوق رؤوس أطفاله إلى سليمان والأولاد الآخرين في الحارة.

في تلك الليلة، اجتمعت العصابة في الغرفة العلوية وقرّر أفرادها الانتقام من الشرطي. كانت الفكرة من بنات أفكار عازر، لكنه احتاج إلى أسبوع لتنفيذها. كانت ليلة معتدلة من ليالي الصيف. وكان الشرطي يغط في النوم في الطابق الأول بجانب نافذة مشرّعة تطل على الحارة، وكانت وسادته تلامس حافة النافذة عندما انفجر فجأة شيء إلى جانب رأسه. انتصب الشرطي جالساً ومذعوراً وقد صم هدير الانفجار أذنيه، وقع انفجار ثان. هذه المرة رأى كرة نارية بلون مائل للزرقة. لم يدر من أين أتت ولا إلى أين ذهبت.

«حرب، إنها الحرب»، صاح، ودفع زوجته من السرير إلى الأرض وألقى بنفسه فوقها. خافت المرأة حتى الموت وصاحت غاضبة إنه سحق

twitter @baghdad_library

أضلاعها، وقالت إن من الأفضل له أن ينزل عنها فوراً وأن يذهب ويرى الأولاد. لكنهم كانوا يغطّون في النوم بهدوء وسلام في الغرفة الخلفية التي تطلّ على الباحة الداخلية، ومثل جميع الجيران لم يسمعوا شيئاً.

كانت فكرة عازر الشيطانية تتمثل في صنع غاز الهيدروجين وذلك بوضع مادة الزنك وحامض الهيدروكلوريك، او ما يسمى عادة بحمض كلور الماء، في قنينة لصنع الهيدروجين، ثم نفخ بالونين بالهيدروجين بتثبيتها على عنق القنينة حتى ينتفخان، ثم ربطهمها بشدة حتى لا يتسرب الهيدروجين. ارتفع البالونان في الهواء الليلي دون أن يحدثا صوتاً، بينما أمسك عازر وسليمان، الواقفين في الشارع، الخيطين الطويلين الرفيعين ليتحكما بهما، وعُلقت مفرقعات ضخمة تحت البالونين. وفي الوقت المحدد، أشعل عازر عود ثقاب بالخيطين اللذين كانا قد نُقعا بالكيروسين، فانتشر اللهب صاعدا إلى الأعلى بسرعة وأشعل المفرقعة وانفجرت. حرّرت القوة البالون فارتفع نحو السماء. كانت المفرقعة الثانية قريبة جداً من البالون الهيدروجين الذي لم يتحرر كالأول بل انفجر بلهب أزرق محدثاً صوت انفجار ضخم ثان أعقب انفجار المفرقعة. في تلك اللحظة كان عازر وسليمان قد ابتعدا عن المكان.

١٠٩- عيد الأضحى

كان فريد في الثانية عشرة من عمره عندما غامر وذهب إلى حي المسلمين وحده لأول مرة. فقد عرف في المدرسة أن المسلمين يحتفلون في هذا اليوم بعيد الأضحى. لم يشأ يوسف مرافقته وقال إنه سيكون هناك الكثير من الضجيج والأوساخ وأنه لا يستطيع تحمّل ذلك.

على الرغم من أنّهم كانوا يقيمون بالقرب من حيّ المسلمين، فقد كان أسلوب حياتهم واحتفالاتهم تختلف اختلافاً تاماً عن عادات المسيحيين. فقد بدا المسلمون لفريد جنساً غريباً من البشر وكأنهم سكان بلد آخر، نوعاً أكثر تعبيراً بجسدهم وأكثر ضجيجاً، يرتدون ثياباً زاهية الألوان أكثر مما يرتديه

المسيحيون، وكانوا أكثر انفتاحاً وصراحة من المسيحيين. بعد فترة، اكتشف كلمة أخرى للتعبير عن ذلك، هي أنهم أناس «طبيعيون» أكثر من المسيحيين.

كانت نداءات الباعة الجوالين في الأكشاك المقامة في ساحة الألعاب أكثر بهجة من المعتاد. وازدانت جميع البيوت، وتدلت أقمشة وبسط ملوّنة من شرفاتهم مثل رايات. وتحلّقت مجموعات من الناس حول رجلين أو أكثر يؤدّيان معارك وهمية، ورأى فريد شابين يرتديان أثواباً تقليدية، يحمل كل منهما سيفاً مقوّساً صغيراً وترساً مدوراً من الفولاذ. راحا يتقافزان ويرقصان ويضربان بلاط الرصيف بسيفيهما اللذين يتطاير الشرر منهما. ثمّ اقترب أحدهما من الآخر. كانا مدربين على ذلك جيداً، لأن الضربات راحت تسقط على سيفيهما وترسيهما في إيقاع مرتّب مسبقاً.

وعلى مسافة بضعة أمتار، رأى رجلاً يرقّص حصانه. كان الحصان مزداناً أيضاً، وأكد الرجل للمتفرجين أنه حصان عربي أصيل، مع أن عدداً منهم أبدوا شكوكهم صراحة في هذا الادعاء، لأنهم يعرفون أن للحصان العربي كبرياء وهو يجري كالريح لكنه لا يرقص أبداً. في جميع الأحوال، كان جسم الحيوان ممتلئاً وضخم الأعضاء ولا يمكن أن يكون حصاناً عربياً أصيلاً.

وفي مكان آخر دارت مبارزة بعصي من الخيزران، بدت لفريد أخطر بكثير من المبارزة بالسيف. فقد حمل كل من المتبارزين عصا طويلة ورفيعة من الخيزران، وترساً مدوراً من الجلد محشواً بالقطن، يلتقيان في منتصف الدائرة التي شكّلها المتفرجون، يقبّل أحدهما أطراف أصابع الآخر، ويعود إلى الوراء ثلاث خطوات مبدياً حذره من خصمه واحترامه له، ثم تبدأ المبارزة، فيرقص كلّ منهما وحده بشكل دائري، ويضرب بالخيزرانة الأرض أو الترس الذي يحمله، ويلوّح بها في الهواء فتصدر صفيراً يجعل القشعريرة تسري في جسد المتفرجين. وأخيراً يقترب الشابان أحدهما من الآخر ويبدآن المبارزة. كانت الضربات التي يوجهانها حقيقية وليست لمجرد الاستعراض

twitter @baghdad_library

كما هو الحال في المبارزة بالسيوف. وكان هناك حَكَمٌ يشرف على المبارزة ويعطي إشارة انتهائها.

عندما شكر الشابان المشاهدين الذين أخذوا يصفقون لهما، وهما يلهثان، رأى فريد الآثار الحمراء التي خلفتها الضربات على ذراعيهما ورقبتيهما ووجهيهما.

ثم انتقل فريد إلى مكان آخر، وشاهد لأول مرة مسرح خيال الظلّ التي اشتهرت دمشق به آنذاك. لم يوجد أي منها في الحي المسيحي، أما الأولاد المسلمين في المدرسة فكانوا يتحدثون دائماً بمتعة كبيرة عن مسرح خيال الظلّ. كان المكان ممتلئاً، وكان الكبار والأولاد يجلسون معاً، يستمتعون بمسرحيّة عن شخصية خيال الظلّ المشهورة كراكوز و رفيقه عيواظ الذي يتحايل باستمرار لكنه يخسر طوال الوقت. فوجئ فريد عندما وجد أن الراوي وراء الستار الذي تتحرّك فيه الخيالات لم يكن يبالي بلغته أو بحساسية المتفرجين إزاءها، فقد كانت قصّته مليئة بعبارات مثل «ابن قحبة» و«قواد»، وبين جملة وثانية في الحوار ترد كلمة «يا عرص» كأنها مناداة لبقة، وكانت للشخصيات الرئيسية في القصّة أطيازٌ وليس ظهوراً أو أردافاً، لا يفسون بل يضرطون بصوت مسموع. حتى أنه كان بوسع إحدى تلك الشخصيات حسب الرواية أن تشغّل طاحونة بواسطة ضراطه ويعيل أسرته من الإيرادات التي يكسبها. لم يتوقف المتفرجون عن الضحك بملء أشداقهم وصفع أفخاذهم، وتراهم وقد أصبحوا جميعاً كالأطفال ونسوا كل ما تعلموه من آداب التربية. لم يفهم فريد تماماً عمَّ تتحدث المسرحيّة، لكنّه لم يتمالك نفسه عن الضحك أيضاً لأن كراكوز ظل يرتكب خطأ وراء خطأ، فيحصد أسوأ النتائج.

كان الحيّ يحتفل بالعيد في الشارع، وبدت البيوت خاوية. أما أعياد المسيحيين فالاحتفال بها على عكس ذلك: إذ تفرغ الشوارع وتعجّ البيوت بالزوار الذين ينتقلون من بيت إلى بيت، لمواصلة احتفالاتهم في بيت آخر.

جاب فريد الشوارع والسعادة تغمره، يتناول شيئاً بين الحين والآخر

ويشرب العصير أو العيران وهو شراب اللبن المبرّد، ويشتري لنفسه كيساً من بذر القرع المحمص وحلويات يقطر منها السمن والقطر. لم يدرك أنه يُفسِد بهذا الخلط بالتأكيد معدته. بيد أنه، على الرغم من أنه أصيب بإسهال شديد في ذلك المساء، قال لنفسه إنه لم يمض في حياته وقتاً أروع من يوم عيد الأضحى.

١١٠- ركوب الدراجة الهوائية

كانت الدراجات الهوائية باهظة الثمن في دمشق في بداية خمسينات القرن العشرين لأنها تُستورد عادة من إنكلترا أو من هولندا. وكنت ترى رجلين أو ثلاثة رجال على الأكثر في أحد الأحياء يملكون وسيلة النقل الفاخرة هذه. لكن كان هناك محل لتأجير الدراجات الهوائية عند ناصية كل شارع، ويقع محل لتأجير الدراجات الهوائية في حي الباب الشرقي في الشارع المستقيم، بين حارة الزيتون وحارة العبّارة، صاحبه رجل متجهم، وتراه منذ ساعات الصباح ملوثاً بالزيت وبقع الشحم الأسود، ومحله في حالة فوضى، مشغولاً دائماً في إصلاح دراجاته. لا يتذكّر فريد أنه رأى الرجل مرة واحدة يحتسي الشاي أو يدخّن سجائر أو جالساً على الكرسي، بل محني دائماً فوق إحدى دراجاته، أو ينفخ إحدى العجلات التي لا تعد ولا تحصى. لم يكن فظاً، إنما قليل الكلام، وفي دمشق، كان ذلك يعتبر تصرّفاً غير ودّي. لكن الناس دأبوا على شراء واستئجار الدراجات منه لأن أسعاره أرخص من أسعار منافسه في باب توما، كما أن دراجاته تتصف بالمتانة.

كان فريد مفتوناً بالدراجات الهوائية، لكنّه لم يكن يستطيع ركوبها، ولم يكن يجرؤ على استئجار درّاجة هوائية وتعلّم قيادتها. أما عازر وسليمان فقد تعلّما قيادتها بسرعة كبيرة، لا يعرف أحد كيف، كأنهما يركبان دراجات هوائية وهما لا يزالان في بطنَي أمّيهما. كان سليمان يستطيع ركوب الدراجة الهوائية ويداه طليقتان، أو يقف على السرج وينشر ذراعيه كصليب. أما عازر

twitter @baghdad_library

فكان يستطيع أن يرفع العجلة الأمامية في الهواء ويقود الدراجة بالعجلة الخلفية وحدها. بدا كلّ ذلك للناظر - لرشاقة عازر وسليمان - أمراً في غاية السهولة. أما فريد، فما إن كان يلمس مقود درّاجة هوائية، حتى يبدو أن الدراجة ستقع على الأرض، أو على الأقل، أنها ستذهب في اتجاه آخر غير الذي أراده، حتى إنها لم تكن تدعه يدفعها إلى الأمام بشكل مستقيم.

ولم يكن يوسف أفضل حالاً، لكن كان ذلك بمثابة تحدٍ حقيقي له، فدفع ليرة لاستئجار درّاجة هوائية لمدة ساعتين.

«إذا لم أتمكن من قيادة هذه الآلة اللعينة بعد الآن، فباستطاعتكم أن تلقوا بي في المجاري»، قال هادراً بعزم شديد.

ضحك فريد وقال: «أو أننا سنطلب سيارة الإسعاف».

«أبداً، انتظر لترس، سأعود وأنا أصيح انظروا إني أقود دون أن أستخدم يدي».

لكن خططهما باءت بالفشل. فقد أخذ الرجل الليرة إجرة ساعتين ولم يسأل هل يعرف يوسف قيادة الدراجة الهوائية أم لا، بل أشار إلى دراجة حمراء وغمغم عابساً، «من الأفضل أن تعود في الساعة الخامسة وإلا فإنك ستدفع أجرة ساعة أخرى»، وأضاف، كما يفعل مع جميع الأطفال، «فأنا أعرف والدك».

كانت الساعة الثالثة إلا ربع، لذلك أعطاهم خمس عشرة دقيقة إضافية مجاناً. أشرق وجه يوسف ودفع الدراجة باتّجاه حارة الزيتون، متشنجاً من شدة الإثارة.

«ستكون قيادتها أسهل في حيّك لأنه معبّد جيداً»، قال له. كان يريد التهرب من سخرية الفتيان والفتيات في حارة العبّارة. أما حارة الزيتون فكانت أهدأ من مقبرة في هذا الوقت من النهار، ولم تتواجد روح بشرية على مرأى البصر عندما انعطف يوسف وفريد إليه، لكن بغتة ظهر رجل.

قال لهما: «مرحباً، يا لها من درّاجة جميلة! يبدو أنكما مبتدئان - هل اختبرَ لكما أحدٌ الفرامل؟ فلدي صديق ضغط على الفرامل بقوة فطار من

فوق المقود وسقط على رأسه. ومنذ ذلك الحين، لم يعد يتكلّم إلاّ الإنكليزية. إنها ظاهرة طبيّة. لنر كيف تعمل هذه الفرامل». وقبل أن يفهم يوسف حقيقة ما يجري، كان الرجل قد وضع يديه على مقود الدراجة، وقفز فوق السرج وقادها نحو الكنيسة الكاثوليكية، وعندما وصل استدار وعاد بسرعة نحوهما. وقف يوسف في منتصف الشارع يلوّح للرجل بأن يتوقّف لكن الرجل صاح، «الكوابح لا تعمل»، وتجاوزه بسرعة مثل سهم وانعطف يميناً نحو الشارع المستقيم باتجاه الباب الشرقي. ركض يوسف وفريد خلفه، لكن الرجل وصل إلى البوابة الشرقية، ثم غاب عن الأنظار.

«أنا غبي. كان يجب أن أركله بين بيضتيه. إنه حرامي والآن راحت الدرّاجة»، قال يوسف مكتئباً.

وقفا هناك صامتين، يفكران ويراقبان كنّاسي الشوارع الذين يرشّون أرض الشارع بالماء بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي الحار ويكنسون القمامة.

«هيا بنا، لنذهب إلى بيتي»، قال فريد أخيراً، لكن يوسف لم يتزحزح من مكانه. فلم يعرف كيف سينقل خبر السرقة لصاحب محل تأجير الدراجات من دون أن يمسك بتلابيبه ويشبعه ضرباً أو يطلب مبلغاً كبيراً من أمّه.

«سأساعدك»، تابع فريد كلامه، «لقد وفّرت أكثر من خمس عشرة ليرة وأراهن أن جدّي نجيب سيعطينا خمسين ليرة، وواثق من أن كلير ستعطينا عشر ليرات فيصبح المبلغ خمساً وسبعين ليرة. وهذا هو ثمن الدراجة تقريباً».

أشرق وجه يوسف بالبهجة وارتسمت على وجهه ابتسامة، لكنها كانت مغلّفة بالحزن والامتنان. وضع يداً على كتف فريد وقال له بصوت يرتعش: «شكراً. إنك صديقي حقاً».

«طبعاً أنا صديقك. وبعد أن ندفع ثمن الدراجة سنذهب ونبحث عن ذلك البندوق (اللقيط) ونهرس بيضتيه ونصنع منهما طبقاً من البيض المقلي المخفوق»، قال فريد بصوت خشن ليزيد من رجولة موقفه.

لم يعرفا كم مضى على وقوفهما هناك، لكن بغتة تسمّر يوسف في

twitter @baghdad_library

مكانه. فقد ظهر الرجل ثانية وهو يصيح بمرح. تجاوزهما ومضى باتجاه الكنيسة الكاثوليكية.

«لن يفلت مني هذه المرة، سألحق به»، هدر يوسف. عزم فريد على أن يمسك الدراجة من الخلف عندما يمر الرجل من جانبه، لكنه لم يستطع ذلك. فقد انعطف الرجل في منحنى رائع أمام رواق الكنيسة، ثم ترجّل عن الدراجة وأسندها إلى الحائط، وعدّل قميصه وبنطاله، ثمّ دخل الكنيسة. لسبب ما، كانت أبواب الكنيسة مشرّعة على مصراعيها.

«ماذا يزمع أن يفعل؟» سأل فريد.

«إنه يحاول أن يستميلنا لأن ندخل».

«اركض واجلب الدرّاجة وأنا سأنتظرك هنا، وإذا وقف في طريقك، اصرخ واطلب النجدة»، قال يوسف، والتقط حجراً كبيراً من جانب الحائط.

كان قلب فريد يخفق بقوة، لكنّه ركض. اشتدت حرارة الشمس فجأة وصبّت حممها على رأسه. بدأ يتفصّد عرقاً، وتملكه الخوف إلى درجة أن الهواء بدأ يترجرج أمام عينيه، لكنه أحسّ بعيني يوسف على ظهره، لذلك لم يعد بإمكانه التراجع الآن. عندما وصل إلى الدرّاجة، أمسك بالمقود بسرعة وراح يدفعها. ولأول مرة، وعلى نحو غريب، أطاعته الدراجة وسارت إلى جانبه مثل كلب. ألقى يوسف الحجر الذي يحمله ودنا من صديقه وأخذ الدرّاجة، وشعر بالارتياح.

«الساعة الخامسة»، قال.

نظر صاحب المحل إلى الأعلى بسرعة من العمل الذي كان منهمكاً به، وأشار إلى الحائط حيث أراد أن يسند يوسف الدرّاجة، ولم يعد يبدي اهتماماً بالصبيين.

عاد يوسف وفريد بسرعة إلى الكنيسة بحثاً عن الرجل، لكن الكنيسة كانت خاوية، ولم ير القندلفت العجوز عبد الله أحداً يدخل أو يخرج منها.

في طريق عودته إلى البيت، أقسم يوسف بأنه لن يلمس دراجة هوائية ثانية. وبالفعل لم يلمس واحدة طوال حياته.

١١١- معروف يوجّه حركة المرور

كان معروف يعيش مع زوجته سميرة وأطفالهما الأربعة في غرفتين في البناية الكبيرة الواقعة بجانب منزل فريد. كانت سميرة امرأة فارعة الطول، بيضاء البشرة، سوداء الشعر. لم تكن جميلة، لكن بشرتها البيضاء تفتل رؤوس الرجال. وكان زوجها طويلاً وضخماً. وخيّل إلى فريد بأن معروف لم يستحمّ قط لأنه ينضح عرقاً حتى في الصباح الباكر. كان معظم شرطة المرور في دمشق أنيقي المظهر، أما معروف فلم يكن منظره يشي بأي قدر من الترتيب، بل يوحي بأنه سجين هارب سرق بدلة شرطي مرور.

كان يكسب مبلغاً ضئيلاً يمكن أن يكفيه لو كان يعيش وحيداً، أما مع زوجة لا تستطيع في رأيه أن تتدبر أمور البيت وأربعة أطفال لا يمكن لأحد إشباع شهيتهم إلى الطعام، فلن يكفيه مبلغ حتى لو تقاضى ما يعادل راتبين، كما تعين عليه إعالة والديه العجوزين.

لم تكن كلير تحبّ سميرة ومعروف، ومنذ الحادثة التي حدثت مع أخيها مارسيل، لم تعد تزورهما. فقد أوقف معروف مارسيل في شارع بالقرب من باب توما. ابتسم مارسيل للشرطي وحيّاه بمودة وقال له عرضاً إنه يعرفه ويعرف زوجته المحبوبة، لأنهما جاران لأخته كلير في حارة الزيتون. «لا أعرف أحداً باسم كلير»، ادّعى معروف وأنكر أيضاً أنه يقيم في حارة الزيتون، وقال: «لقد أطلقتَ الزمور وهذا يكلّف عشر ليرات، والدخان ينبعث من عادم سيارتك وهذا يكلّف عشرين ليرة، وأنت تقود من دون إشعال الضوء وهذا يكلّف ثلاثين ليرة. إختر مخالفتك، فلا أريد أن أكون مجحفاً بحقك».

أحسّ مارسيل أنه وقع في فخ، وقرّر قبول أرخص مخالفة عرضها عليه، لكنّه لم يجد إلاّ ورقة من فئة عشرين ليرة في محفظته. أعطاها للشرطي وقال: «سآخذ مخالفة الزمور».

ابتسم الشرطي ابتسامة عريضة وقال، «إنك رجل عاقل»، واستدار ومضى بعيداً.

twitter @baghdad_library

«لكني أريد الليرات العشر المتبقية»، قال مارسيل محتجاً.

دسّ معروف الليرات العشرين في جيب قميصه، وقال: «بالنسبة لليرات العشر الأخرى، يمكنك أن تُزَمِّر مرة ثانية».

١١٢- إنها تمطر بذور شمّر ملبّسة بالسكر

في صباح أحد أيام صيف عام ١٩٥٢ ظنّ سكان الحي المسيحي أن معجزة قد وقعت. ففي هذه الأوقات أصبحت الانقلابات العسكرية والمعجزات حوادث يومية بالنسبة للدمشقيين، على الرغم من أن المعجزات كانت تحدث لأفراد فقط، وليس لأجزاء المدينة كلها.

فقد امتلأت كلّ باحات الدور والشرفات والأسطحة تقريباً بأشياء صغيرة ملوّنة بدت أشبه بحبوب. وبحذر شديد تذوّق الناس طعمها وامتلأوا بهجة عندما اكتشفوا أن السماء تمطر بذور شمّر. في دمشق، تُلبّس بذور الشمّر بالسكّر الملوّن وتستخدم لتزيين أطباق الحلوى، أو توضع في الفم وتمضغ بعد تناول طبق أضيفت إليه توابل كثيرة. والمعروف أن الشمّر جيد للهضم ويعطّر أنفاس المرء.

التقط الجيران البذور اللذيذة وتناولوها بتلذذ، وقال كثيرون منهم إنهم لم يتذوقوا شيئاً أطيب منها في حياتهم، وادّعى آخرون بأنهم برئوا من أمراض مزمنة أصيبوا بها في المعدة بعد تناولها بيوم.

إذن هذا هو زمن البركات. فبعد أن تبوأ العقيد شكلان السلطة في دمشق بدا أن السماء راضية عن ذلك. فقد هطلت أمطار غزيرة في الشتاء الماضي بشّرت بخير وفير من المحاصيل في الصيف. وها هي ذي بذور الشمّر الملبّسة بالسكر تهطل من السماء، وتذكّر بعض الجيران المنّ الذي أرسله الله لإطعام بني إسرائيل عندما تاهوا في الصحراء. هل هذه إشارة من السماء بأن ربّ الكون سعيد بتسلم شكلان رئاسة البلاد؟ شكّ يوسف المرتاب دائماً بأن طائرات الحكومة هي التي أسقطت البذور الملبّسة بالسكر، لكن أحداً لم يسمع أو ير أيّ طائرات.

جلس أفراد العصابة في الغرفة العلوية فوق مخزن اليانسون يفكّرون في الأمر. انضم إليهم عازر في وقت متأخر من ذلك المساء، وجلب معه تفسير هذا اللغز.

فقال: «لقد فعلنا ذلك أنا وبرهان لنعبّر عن شكرنا للجيران».

لم يكن برهان رجلاً يحب الكلام، بل يعتبر أن التكلم عمل شاق، لكنه عندما يتمكن من قول جملة كاملة، فإنه يثبت ذكاء خارقاً، ويعتبره الجميع عادة ساذجاً لأنه يلوذ على الأغلب بالصمت وقد يدوم صمته بين جملتين وقتاً طويلاً ساعات، أيام، بل حتى أسابيع.

كان برهان ضئيل البنية لكنه قوي، ولديه عمل يليق به تماماً: فقد كان نحاتاً، والحجّارون عموماً والنحاتون خصوصاً أناس صامتون.

كان عاملاً عند والد يوسف وكان عزباً ويعيش على بعد بيتين فقط، وقد ورث البيت هو وأخته. كان يقيم في الطابق الأول، بينما تقيم أخته في الطابق الأرضي مع زوجها وأطفالها الأربعة. لم يرغب برهان أن يتزوج لأن الزواج يعني التحدث كثيراً وهذا سيسبب له إجهاداً كبيراً، بل يفضّل أن يمضي وقته مع طيوره التي يزيد عددها على مائة طير والتي يعرف كلّ واحد منها أكثر مما يعرف بعض جيرانه.

كان يدفع لأخته ثلث ما يتقاضاه من أجر لقاء مشاركته لها الطعام مع أسرتها، وينفق ثلثاً آخر مما يكسبه على طيوره، وبالمبلغ المتبقي يسمح لنفسه الحصول على بعض المتع الصغيرة. كان برهان متصالحاً مع نفسه ومع العالم، يأكل ما يوضع أمامه، ولم ينتقد أي شيء، لكنّه في الوقت نفسه لم يمتدح أي شيء.

كان والد يوسف يحبّ برهان لكن لم يكن يروق له حبّه لحماماته لأن ذلك يعني أنّ الرجل يترك مطرقته دائماً في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر ليذهب لرعاية طيوره ولم يبد يوما الإستعداد لعمل ساعة واحدة إضافية كباقي العاملين «طيوري لها أرواح ايضاً وتنتظرني ولا أريد أن أخلف وعدي لها».

كانت سمعة مربي الحمام (الحميماتية) سيئة بين سكان المدينة الذين

twitter @baghdad_library

يعتبرونهم مهووسين وكسالى، ولم تُقبل شهادتهم في المحاكم لأنهم يُعدون كذابين محترفين ذوي سمعة سيئة. بالإضافة إلى ذلك، كنتَ تجدهم دائماً على أسطحة المنازل حيث يمكنهم التلصص والتجسس على بيوت الآخرين، ويزعج صراخهم وصفيرهم جيرانهم وغالباً ما تسقط القمامة من حصى وقشر برتقال التي يلقون بها لكي تبتعد القطط والطيور الجارحة عن طيورهم في باحات البيوت، بل تسقط كذلك على الموائد التي يتناول الجيران طعامهم عليها، كما كانت الطيور نفسها تلقي كميات كبيرة من الذرق.

كان كلّ ما يقال عن مربي الحمام صحيحاً بصورة عامة، أما برهان فكان مختلفاً. فقد أحبّ طيوره، ويقودها كما يقود قائد الأوركسترا فرقته، ويبذل ما بوسعه لكي لا يزعج أحداً، . كان أقل الناس فضولاً لأن الفضول يسبب له، كالكلام، قدراً كبيراً من التعب.

لم يكن يوسف وفريد والأولاد الآخرون من أفراد العصابة يحبّون الطيور، وكان عازر هو الوحيد الذي يحبّها، ولما لم يملك نقوداً كافية ليشتري طيراً واحداً، فقد كان يزور برهان كلّ يوم ويبدي إعجابه بطيوره التي يُحسد عليها برهان بين مربي الحمام لجمالها. وعلى مرّ السنوات، كاد عازر يعمل مساعداً لبرهان. وفي أيام الأحد يرافقه إلى مقهى الحمام في سوق السنانية، حيث يلتقي الحميماتية ويعرضون طيورهم للبيع.

ومثل برهان، كان عازر يميل إلى الصمت ويسرح كثيراً بأفكاره، لذلك كانا على وفاق. وفي أحد الأيام سأل برهان عازر كيف يمكنه أن يعبّر عن شكره للجيران على صبرهم عليه وعلى طيوره، فخطرت لعازر فكرة على الفور، فصنع علباً صغيرة من الورق المقوى الخفيف الوزن وربطها بالطيور بأربطة مطاطية قصيرة تم قصّها من إطار داخلي لعجلة دراجة قديمة. وأحدث فتحات صغيرة في أسفل العلب، وقبل أن تطير الطيور مباشرة مُلئت العلب ببذور الشمّر الملبّسة بالسكر.

وفي وقت مبكر من صباح ذلك اليوم الصيفي وعند بزوغ أول خيط من خيوط الفجر، أطلق برهان خمسين حمامة في الهواء وجّهها دون أن يصدر

صوتاً في رحلة ذهاب وإياب، وقبل أن يستيقظ أحد في ذلك الصباح، كان الحمام قد عاد من فوق الحي المسيحي في المدينة.

١١٣- ملح الجدّ

كان فريد يكره فكرة مغادرة دمشق إلى الدير لكنّه كان يواسي نفسه أحياناً بفكرة أنه سيكون أقرب إلى البحر. ولم يكن يوسف وسليمان وعازر قد غادروا المدينة منذ أمد بعيد. ومن بين هؤلاء الأصدقاء، كان رزوق الوحيد الذي أمضى سنتين خارج البلد، في دير المخلّص في لبنان.

ذات ليلة، قبل أسبوعين من مغادرة فريد، جاء رزوق إلى الغرفة العلوية حيث كانوا جميعاً جالسين متجهمين. ولم يفه أحدهم بكلمة واحدة عن فيلم «فلاش غوردون» الذي شاهدوه معاً في عصر ذلك اليوم.

«ستحبّ البحر يا فريد، إني واثق من ذلك»، قال، «فقد رأيته أول مرة عندما كنت في الثامنة من عمري. كنت أمضي ساعات مفتوناً به وأنا جالس على صخرة خارج الدير بعد يوم من وصولي. كنت أرى الموجات من مكاني على القمة وهي تداعب الشاطئ، وبعد أسبوع وجدت في مكتبة الدير كتاباً ضخماً عن البحر الأبيض المتوسط يضم رسوماً إيضاحية، وصوراً من تحت الماء، مخلوقات بحرية وقوارير مختلفة الحجم والشكل وسفناً محطمة، كلها هناك في صور كبيرة ملوّنة باليد. كنت أحبّ لون البحر الأزرق الغامض، وكنت ألعب بالقرب من الماء عندما كان ذلك في استطاعتي. ثم تعلّمت السباحة، وفوجئت بطعم ماء البحر المالح.

ثمّ عدت إلى دمشق في العطلة الصيفية، وهرباً من الحرارة أخذنا والداي، كما يفعلان كلّ سنة، إلى قريتنا الزبداني التي تقع على ارتفاع الف ومئتين متراً فوق مستوى سطح البحر حيث كنا نمضي دائماً العطلة مع جدّينا.

في عصر أحد الأيام كنت جالساً على الشرفة مع جدّي الذي يحتسي القهوة قبل غروب الشمس. كانت القهوة متبّلة بالهيل وتفوح منها رائحة لذيذة. كنت أحبّ جدّي كثيراً لأنه يحكي لي قصصاً جميلة.

twitter @baghdad_library

«حدثني عن البحر يا جدّي»، قلت له.

ابتسم قليلاً وقال: «لا يمكنني أن أحدثك كثيراً عن البحر. اسأل جدتك فهي من مدينة اللاذقية الساحلية». لكن جدتي كانت مسافرة لتزور أسرتها لمدة ثلاثة أسابيع في ذلك الحين، وعندما تعود تكون عطلتي قد انتهت ويتعين عليّ العودة إلى الدير، فقلت إن حظي سيء، فهزّ الرجل العجوز رأسه ورشف جرعة كبيرة من القهوة، وقال هامساً «البحر»، وصمت، ثم أضاف، «البحر - حسناً، البحر شيء عظيم»، منهياً تفكيره بصوت مسموع أخيراً. استوى واقفاً، وقال: «يقع البحر إلى الغرب، وراء الجبال، ويمكنني أن أحكي لك قصّة صغيرة عنه. فقبل ثلاثين سنة، كنت أزمع الهرب من الحرب العالمية الأولى والهجرة إلى أمريكا، لكني عندما رأيت البحر واكتشفت محيطاً أضخم من البحر يقبع وراء ذلك الامتداد العظيم من الماء الذي يجب عليّ اجتيازه، قرّرت أن أتوقف وأبقى في الميناء. فاستأجرت غرفة في نزل، وأمسية بعد أمسية، رحت استمع إلى الحكايات التي يتبجّح بها البحّارة والمهرّبون والمغامرون. وفي أحد الأيام، أعطاني رجل إنكليزي نقوداً كثيرة لمرافقته إلى قبرص لتهريب الذهب والأسلحة إلى بيروت لصالح لورانس العرب، فركبت مركبه المتداعي، لكني لم أكن أجيد السباحة، وكان البحر صاخباً...».

وحكى لي جدّي هذه الحكاية الطويلة عن الأسلحة والذهب والمهرّبين التي لا يمكنني أن أعيدها عليكم الآن، لكنّه كان شديد الحماسة إلى حد أن صوته أخذ يتهدج بين الحين والآخر، كأنه يعيش اللحظة ثانية عندما كان على وشك الغرق، لكن أحد الدلافين أنقذه وأوصله بسلامة إلى الشاطئ.

«ومنذ ذلك الحين»، قال منهياً كلامه، «ينضح الملح من جلدي عندما أحكي قصصاً عن البحر، ومدّ يده السمراء المجعدة إليّ وقال: «تذوقها»، مبتسماً، لعقتها بعناية، وبالفعل كانت يده مالحة كالبحر الواقع أسفل دير المخلّص».

كتاب العزلة الأول

العزلة هي الأخ التوأم للموت

*

ساحل البحر الأبيض المتوسط، ١٩٥٣- ١٩٥٦

١١٤- الرحلة

مثل عاصفة صيفية، ظهرت في الطريق المتعرّجِ فجأة شاحنة صغيرة لا تحمل لوحة معدنية، اجتازت الحافلة وتوقّفت في عرض الطريق. بدأ الركاب يتهامسون فيما بينهم كلمة «مخابرات». ضغط سائق الحافلة بقوة على المكابح وراح يلعن بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. راكب ذو لحية وامرأة بدينة كانا يجلسان في المقعدين الأماميين بجانب باب الحافلة، ضغطا على كوابح غير مرئية بالتوازي مع السائق، وتنشقا الهواء بصوت مسموع من خلال أسنانهما. تمايلت الحافلة إلى جانب الطريق، ولم تتوقف إلا بعد أن وصلت إلى الجزء المكسو بالتراب والحصى على جانب الطريق، فسقطت عدة أحجار في الهاوية.

بعد عدة ثوان، أحاط بالحافلة أربعة رجال مسلّحين في ثياب مدنية، وراح رجلان آخران يفتّشان الركاب. خنجر كبير مرصّع بشكل جميل أكسب صاحبه صفعة مدوية على الوجه. وبعد أن نال عقابه، راح الفلاح ذو المظهر الذكوري المهيب يحدّق مكتئباً من النافذة إلى جانبه. لم تُجْدِ التعازي التي قدمها له جاره نفعاً لأن الخنجر كان كلّ ما ورثه عن أبيه.

كان رجال المخابرات ينظرون باحتقار وشك أيضاً إلى آلات التصوير

twitter @baghdad_library

في جبال الشمال السوري التي يسيطر عليها المتمردون. واضطر سائح مصري إلى أن يسلّمهم آلة التصوير مع كلّ الأفلام بحوزته. أما السلع المهرّبة فلم تثر اهتمامهم، لأنهم كانوا يبحثون عن كتب وصحف وأسلحة.

لم يكد يبقى للعقيد شكلان أي حلفاء في دمشق في هذه السنة الرابعة من حكمه الدكتاتوري. بدأ التذمر يزداد ويتعالى في صفوف الجيش وبين أفراد الشعب. فقد اندلعت الاضطرابات في جميع الأماكن، ولم يبق لديه من سلاح فعال سوى المخابرات. وعندما تظهر المخابرات، لا يتسكع الموت بعيداً جداً.

أُلقي بمعلّم شاب خارج الحافلة لأنه كان يخفي صحيفة فرنسية. ومن الشتائم والإساءات الغاضبة والعنيفة التي تلقاها، شعر الركاب الآخرون بأن الصحيفة تحتوي على مقالة عن حكومة المنفى السورية التي شُكلت في بغداد. تلقى الشابّ ركلات ودُفع إلى الشاحنة الصغيرة. سمع الجميع بوضوح توسلاته.

بعد هذا المشهد المخيف كمقدمة صعد الملازم الأول المسؤول عن المجموعة إلى الحافلة. كان الحر لاهباً تحت شمس تموز. وبشيء من التهذيب وبصوت منخفض، طلب رؤية بطاقات هوية الركاب. افتتن الأطفال به. وتنقلت نظراته بين بطاقات هوية الركاب وبين القوائم التي يحملها.

عندما اقترب من طبيب ملتحٍ، سأله أثناء مروره بماذا يمكن معالجة داء الشقيقة التي يعاني منها. تردّد الطبيب في الإجابة لأنه خشي أن يكون السؤال فخّاً. انتظر الجميع جوابه وقد انقطعت أنفاسهم.

«الأسبيرين»، قال أخيراً بصوت متهدج، وابتلع ريقه بصعوبة. «لا تدخّن كثيراً، لا تشرب الكحول واحصل على قسط وافر من النوم فهذا أهم من كل الأدوية».

ضحك الضابط وهزّ رأسه. منحت ضحكته شيئاً من الارتياح، وأطلق بعضهم تنهيدة تنم عن الشعور بالانفراج، وألقى بعضهم الآخر نظرة سريعة

على الصور المثبتة على بطاقات هوياتهم، كأنهم يخشون أن يجدوا في جيوبهم أوراقاً مزوّرة بصور غرباء.

لم يَخَفْ فريد، بل وجد متعة في رؤية وجه أبيه الشاحب. ظل إلياس يتمتم لنفسه، «كان يجب أن نذهب من الطريق الساحلي لأنه أكثر أماناً». عندما لم تكن الأمور تسير على ما يرام أو عندما يحدث أي خطأ، يحب إلياس استخدام صيغة المتكلم بالجمع، لتحاشي إلقاء اللوم على نفسه. آثرت كلير الذهاب من الطريق الساحلي، وقد نصحته بذلك، لكنّ ذلك يعني إطالة فترة الرحلة. وكالعادة، كان أبوه يريد الوصول بسرعة. فقد تعين على فريد أن يستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً حتى يتمكن والده من العودة إلى دمشق في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم لحضور اجتماع تعقده جمعية الحلوانيين.

بتشجيع من الركاب الأشاوس، أخذ سائق الحافلة يتجاوز كلّ الشاحنات والحافلات الأخرى التي تمر على الطريق المعبّد المتجه شمالاً من دمشق. بعد أربع ساعات، انعطف بالحافلة التي تئن تحت وطئة الطريق الصعبة، وقادها في الطريق الريفي المتعرّج الصاعد الذي كانت الحفر والأتربة فيه أكثر من الإسفلت.

لكن نقاط التفتيش الكثيرة كانت أسوأ من الحفر بكثير، فقد أحصى فريد أربعة حواجز يقف عندها جنود على امتداد مسافة عشرين كيلومتراً.

حدّاد عجوز كان جالساً على الجانب الآخر من الممر قال لوالد فريد إن المنطقة تقع تحت سيطرة متمرد يدعى طانيوس. كانت عشيرة واحدة تملك جميع القرى والغابات في هذه المنطقة. لم يكفّ الفلاحون عن مهاجمتها، لكنّهم كانوا يُذبحون جميعاً وبمساعدة رجال الدرك، حتى جاء هذا الرجل الذي يدعى طانيوس. كان مسيحياً، مع أن الألسنة المعادية تشيع أنه متحالف مع الشيطان. وبتأثير منه، أصبح الفلاحون الشباب فجأة شجعاناً كالأسود.

ثم انضم إلى صفوفه عدد كبير من المسلمين. ورجال الجبال شجعان

twitter @baghdad_library

إلى حد التهور وأصبحوا الآن يحملون أسلحة أيضاً. وماذا بوسع جندي مسكين يخدم مجبراً أن يصمد أمام المتمردين هنا لقاء راتب شهري ضئيل لا يزيد على أربع عشرة ليرة؟

١١٥- طانيوس وأسماء

عرف فريد فيما بعد أنه حتى قيام تمرد طانيوس، لم يكن يُسمح للفلاحين في هذه المنطقة الجبلية أن ينيروا بيوتهم في الليل. وتعيّن على كلّ عذراء أن تمضي ليلة زفافها مع الإقطاعي - لم يكن بوسع عريسها أن يأخذها إلى بيته إلا في صباح اليوم التالي. كانت هذا العادة المتبعة تعرف باسم «حق *السيد*» التي تجيز للإقطاعي قضاء الليلة الأولى مع العروس.

كان طانيوس رجلاً ذا كبرياء يحبّ أسماء. أثناء خطوبتهما أقسم لها أمام الأصدقاء بأن الشيخ مصطفى، الإقطاعي القدير مالك المنطقة برمتها، لن يلمسها. كان من المزمع أن يتزوّجا في عيد الفصح.

اشترى طانيوس حذاء أسود من الجلد الأصلي من مدينة اللاذقية القريبة، ونزولاً عند رغبة أسماء كان سينتعله أثناء العرس. أنفق كلّ مدّخراته لأنه لم يحبّ شيئاً في هذا العالم أكثر من رؤية دموع الفرح في عيني عروسته.

في يوم العرس لم تتوقف أسماء عن التحديق بذهول في حذائه المصنوع من الجلد الطبيعي. فقد نفذّ عريسها ما وعدها به. وبغتة، في منتصف صلاة «يا رب ارحم»، شعرت بالاشتياق لأن يلمس بشرتها العارية بيديه فرتلت مع الآخرين بصوتها الجميل: «يا رب إرحم» وشعرت انها الوحيدة التي تطلب من الله أن يرحمها من شبقها لطانيوس هذا النمر الرائع بجانبها.

كان رجلان اثنان يحملان فألاً سيئاً «كغراب البين» كما تسميهم العامة ينتظران خارج الكنيسة، حارسا الشيخ مصطفى المتشحين بالسواد، قالا إنهما جاءا لأخذ العروس والحذاء المصنوع من الجلد الأصلي لأن الأعيان فقط هم الذين ينتعلون حذاء كهذا.

هدر طانيوس وقال: «طاب الموت وأصبح الآن أحلى من العسل»، وتردد صدى هديره هذا عبر الجبال لأسابيع قادمة، وألقى بنفسه فوق رسولي الإقطاعي مثل أسد هصور وقتلهما. عقب ذلك اقتحم مئات الفلاحين والأقنان الغاضبين قصر مصطفى الفخم كما لو كانوا قد ثملوا من الدم، وقتلوه وقتلوا أبناءه الثلاثة. واختطفوا زوجاته الثلاث وبناته العشر. وعندما رأى الفلاحون مدى سهولة قتل إقطاعي احتلوا سهلين آخرين.

في وادي «الأنهار الثلاثة» توقف زحف الفلاحين الثائرين لأنهم التقوا برجال متمرد آخر يدعى سلمان صوفي الذي كان يحكم السلسلة الجبلية هبوطاً إلى البحر الأبيض المتوسط. كانت الحكومة لا تزال تسيطر جزئياً على الطريق المؤدي إلى البحر من المنطقة الجبلية، لا أكثر من ذلك.

اقتسم الفلاحون أتباع طانيوس الأرض والمال في ما بينهم، واشتروا جميعاً أحذية من الجلد الأصلي لكي ينتعلوها كلّ يوم أحد، وبدأوا يضيئون المصابيح في بيوتهم. وكانت أسماء أول زوجة فلاح فقير تُفتض بكارتها في ليلة يغمرها الحبّ ونشوة الإنتصار.

عندما نفّذ العقيد شكلان، وهو نفسه ابن مزارع صغير، انقلابه ونصّب نفسه رئيساً للدولة، شعر بالتعاطف مع طانيوس الذي انتشرت قصّته البطولية في أنحاء البلد انتشار النار في الهشيم، وكتب له رسالة قال له فيها إن فترة الإقطاع قد ولّت، ولذلك يستطيع الفلاحون أن يضعوا بأمان قضيتهم في يدي أب بلدهم وأن يسلّموا أسلحتهم. وهو، رئيس الجمهورية، وأب الأسرة السورية العظيمة، يعد طانيوس بأن الحكومة تريد أن تقيم معه السلم، وأن كلّ ما يريده، أي شكلان، هو رأس سلمان صوفي.

رداً على ذلك، تلقى العقيد رسالة لا تكاد تكون مقروءة كُتبت بقلم رصاص تقول:

من عبد الله طانيوس، إلى العقيد شكلان،
الذي يطلق على نفسه اسم «سيد» دمشق.
فالله وحده هو سيد البلاد والمدن وجميع المخلوقات.

twitter @baghdad_library

إننا لا نثق بأهل المدينة. وافق على طلباتنا أولاً،
واسمح أن تتلى في جميع الكنائس والمساجد،
وانشرها في جميع الصحف.

الأرض، مثل الشمس، هي للبشر أجمعين.
ويحق لكلّ مزارع أن يزرع وأن يأكل ما يحتاج.
ويحق لكلّ إنسان أن يضيء مصباحاً عندما يريد.
ويجب إلغاء الحقّ في الليلة الأولى.
ويحق لجميع الفلاحين أن ينتعلوا حذاء من الجلد الأصلي.

ابتسم العقيد شكلان لسذاجة الفلاح وبساطته، لكن مستشاريه حذّروه بأنّ ما يطلبه طانيوس هو الخطوة الأولى نحو شيوعية جذرية يخشاها حتى شيوعيو موسكو، وقالوا له إن من الأفضل له أن يرسل قوّاته لقتل الفلاح زعيم المتمردين.

انتشر ثلاثة آلاف جندي من جنود المشاة في الجبال في شباط ١٩٥٣. وبعد أسبوع، فقدت دمشق أي اتصال بالحملة. فاختفوا مع المدافع والشاحنات العسكرية، بالإضافة إلى خمس عشرة شاحنة محمّلة بالذخيرة بين النباتات الخضراء والغابات المنيعة في الجبال. بعد أسبوعين، وصلت شاحنة إلى العاصمة تحمل جثامين ثلاثة وعشرين ضابطاً، وانتشرت شائعات تقول إن طانيوس سحر الجنود فأطلقوا النار على جميع الضباط وانتقلوا إلى جانب الثائرين.

كانت هزيمة ساحقة. أقسم العقيد شكلان على الانتقام. لكن في أيار ١٩٥٣ انطلقت ثورة كبيرة في صفوف الدروز في السويداء، فاضطر العقيد إلى إرسال قوّاته لإخمادها، لكنّه عزّز مراقبة الطرق في الشمال بوضع نقاط تفتيش ووحدات متنقلة من الجنود. ووصف العقيد خصومه بأنهم ثعبان يمتد من الشمال إلى الجنوب.

بدا أن لسائق الحافلة خبرة واسعة فهو يجيب عند كلّ حاجز عن الأسئلة التي يطرحها ضباط الصف، التي كانت ذاتها دائماً ويرددونها بنبرة عادية تشي بالضجر. تصرّف السائق وكأنه يمتلك دائماً كلّ الوقت المتاح في هذا الكون، فتراه يمازح هذا الضابط على حاجز ويلقي بنكتة على حاجز آخر، وظل يتوقف في طريقه عند أكشاك متداعية جلس فيها بعض الجنود فوق صناديق خشبية قديمة يحتسون الشاي. بدا أنهم جميعاً يعرفون السائق تمام المعرفة.

عندما أوقفه هؤلاء المدنيون المسلّحون الآن لاذ بالصمت وتقوقع خائفاً على نفسه فجأة. بدا أن الضابط لم يكن يثق به، ولوّح بهوية السائق أمام وجهه وقال: «أظن أن رجلاً يقود حافلته أكثر من ثلاث مرات في منطقة يقيم فيها أناس كافرون مثل طانيوس وسلمان ولم يطلق عليه أحد النار فهو واحد منهم»، وأضاف وعلى وجهه ابتسامة عريضة بغيضة، «لكن لسوء الحظ، فإن الحكومة في دمشق لا تنصت إليّ، لذلك يمكنك أن تستمتع بحياتك مدة أطول قليلاً»، وأعاد إلى سائق الحافلة بطاقة هويته. لم يتكلّم بغضب أو بنبرة عالية أو بلهجة تهديدية، بل بتأكيد هادئ، ولهذا السبب بالذات، كان في كلماته صدى الموت.

عندما سأل الضابط والد فريد عن اسمه أجاب بصوت متردد غير واضح، «إلياس. . . إلياس مشتاق، يا سيدي».

«هل أنت من أقارب مصطفى مشتاق؟» سأله الضابط.

«لا يا سيدي، بالتأكيد لا»، أجاب إلياس، وأحسّ بألم حادّ في حنجرته.

«ما الذي يجعلك واثقاً إلى هذه الدرجة؟»

«إننا مسيحيون، ومصطفى اسم مسلم»، قال إلياس، وكان يعرف أن الضابط يتظاهر بالغباء ليوقعه في فخّ.

«ما مهنتك؟» سمع الضابط يسأله.

«حلواني»، أجاب إلياس بهدوء.

twitter @baghdad_library

«وماذا يفعل حلواني من دمشق هنا؟»

«أرافق ابني إلى دير القديس سيباستيان بالقرب من اللاذقية. إنه يريد أن يصبح كاهناً».

«كاهن؟» كرّر الضابط مرتاباً، وراح يتفحص فريد بإمعان، ثم قال: «لا يبدو لي أن هذا الفتى سيصبح كاهناً»، وسكت، ثمّ سأل عرضاً، «إن الدير يقع في المنطقة التي يسيطر عليها سلمان صوفي الكافر، أليس كذلك؟»

«لم نكن نعرف ذلك في دمشق. لم نسمع عن وجود اضطرابات. لقد سمعت بهذا الاسم لأول مرة في الحافلة هذا الصباح».

بدأ صوت إلياس يزداد قوة من استيائه عندما أدرك أن السلطات تمنع نشر أي خبر عن انتشار أوبئة أو ثورات.

«هل تتوقّع أن تنشر الحكومة دعاية للمجرمين؟ إننا سنسحقهم قريباً، لكن بحق النبي محمد، فإن ابنك لن يصبح كاهناً. لماذا يريد ذلك؟ ما اسمك أيها الفتى؟»

أحسّ إلياس مشتاق بنبرة سخرية في كلمات الرجل مثل سكين يطعنه. من يعطي هذا الحقير الحقّ لأن يقول إن كان فريد سيصبح كاهناً أم لا؟

«فريد مشتاق»، سمع ردّ ابنه بجرأة. دوّن الضابط الاسم في قائمته كما كان يفعل مع الركاب الآخرين. ظنّ فريد أنه يفعل كلّ ذلك بدافع المباهاة، مسرحية رخيصة لإرهاب الناس البسطاء، فلماذا يحرص على كتابة أسماء مئات الأشخاص الذين صادف أنهم يسافرون في منطقة ينتشر فيها متمردون؟

استدار الضابط إلى الركاب الآخرين. أخرج إلياس منديله ببطء وهدوء لأنه سمع عن مساكين قتلوا حين ارادوا إخراج اي شيء من جيبهم فظن الجنود أنهم سيشهرون سلاحاً عليهم. جفف العرق من وجهه. بعد قليل، نزل الضابط من الحافلة واختفى الرجال المسلّحون بالسرعة التي ظهروا بها. وبدأ صف السيارات والعربات والشاحنات المنتظرة وراء الحافلة يتحرك بصمت رويداً رويداً على الدرب الجبلي الضيّق.

عندما وصل سائق الحافلة إلى المحطّة التالية، توقف عند شجرة دردار

ضخمة وقديمة وانضمّ إلى الزبائن في ظلّ الشجرة قرب الكشك القائم هناك. «استراحة خمس عشرة دقيقة»، قال منادياً ركابه. بدا صوته ودّياً، لكنه منهك. شعر الركاب بالامتنان له.

حاول فريد ألاّ ينظر إلى شجرة الدردار. لم يرغب في النزول من الحافلة. انضم أبوه إلى الرجال الآخرين في الكشك. أغمض فريد عينيه ورأى فجأة شجرة الدردار محاطة بألسنة لهب طويلة.

خلال عطلة عيد الفصح في تلك السنة في معلا، كانت ألسنة النيران تشتعل طوال الليل. لم تخمد النيران إلا في الساعة الرابعة صباحاً، عندما لم يتبق منها إلا الجزء الأيمن الأخضر. لم يكن أحد إلا والده يتهم فريد بجرم أضرام النار فيها. لكن في ذلك النهار، في بيت مختار القرية، قرر إلياس مشتاق بقساوة قاض بأن يكفّر ابنه عن الذنب الذي اقترفته يداه بالدخول دير القديس سيباستيان.

كان فريد وحيداً في الحافلة الآن، مع ثلاث دجاجات يقوقئن بصوت منخفض تحت أحد المقاعد الأمامية. كانت أصواتها تبدو مثل إذاعة بعيدة تبث بلغة أجنبية.

بعد قليل هدر المحرّك ثانية وعاد الركاب بسرعة إلى الحافلة. نظر السائق في المرآة الخلفية، ورأى أحد المقاعد لا يزال فارغاً. أطلق زموره ثلاث مرات، فصعدت فلاحة شابة جميلة إلى الحافلة. قال فريد لنفسه إن لها أجمل أذنين وعينين وشفتين رآها في حياته.

ثم راح يفكر بما سيأتي من قادم الأيام. فقد سمع قبل أن يغادر أن الدير اليسوعي يشتهر بانضباطه الصارم، وأن أهم الكهنة وكبار المطارنة في سوريا ولبنان قد درسوا فيه.

كان إلياس مشتاق يعتبر أن المهم هو أن دير القديس سيباستيان، على الرغم من أنه في أيد عربية رسمياً، لا يزال يدرّس طلابه على الطريقة اليسوعية الحديثة، لكن على نحو صارم. فقد كان ابنه بحاجة إلى هذا

twitter @baghdad_library

الانضباط الصارم، لأنه يحصل على كلّ شيء بسهولة شديدة، قال إلياس دفاعاً عن قراره لكلير. وأن فريد قد بدأ يبدد ذكاءه شيئاً فشيئاً. ولم يكن يريد أن ينتهي به الحال كاهناً مقملاً في قرية صغيرة وضيعة، إنما لاهوتياً عظيماً.

لم تُهدّئ أي من هذه الأفكار من غلواء فريد ورفضه لفكرة أبيه. فقد رأى أن دخوله الدير هو عقاب له. لماذا؟ من أجل النصف المتعفّن من شجرة دردار بائسة تنتصب في مكان بائس منعزل.

أحسّ بطعم مرّ في فمه، لاذع كالدخان، وطفرت الدموع من عينيه في الحافلة. غطّ والده في النوم. للحظة داعبت فريد فكرة النهوض والقفز من النافذة الكبيرة المفتوحة ثم الاختباء تحت الأشجار المتشابكة. فأي وغد وقاطع طريق قد يصادفه سيتفهم حالته أكثر مما يتفهمها هذا الرجل الجالس بجواره الذي يسمي نفسه «أب». كانت الحافلة تسير ببطء شديد لوجود أحجار صغيرة وأغصان كبيرة على الطريق. تعيّن على السائق أن يتجاوز هذه العوائق بسرعة حلزون.

نام معظم الركاب المنهكين في النسيم العليل الذي يهبّ عليهم في هذه الغابة معطراً برائحة صمغ أشجار الصنوبر والزعتر البري ورائحة التربة الندية. راح فريد يحدّق في عمق النباتات الخضر الكثيفة. لم ير أثراً لأي كائن بشري، لكنه كان متيقناً من أن عيوناً ثاقبة تراقب الحافلة. بعد قليل ازدادت الغابة كثافة إلى درجة أن فريد استطاع أن يمدّ يده من النافذة ويلمس أوراق الأشجار وأغصانها.

توقّف السائق وترجّل من الحافلة. رآه فريد يأخذ كيساً من الخيش من مكان تحت غطاء المحرك ويضعه تحت شجرة على قارعة الطريق، ثم عاد وتابع قيادة الحافلة. رأى فريد رجلين ينسلّان من وراء الشجيرات ثم يختفيان ثانية مع الكيس بسرعة البرق.

١١٦- فرار عشاق

جلست رنا مع فريد على مقعد في حديقة عامة، تحدّق في الفضاء، بعد أن سمعت أنه سيلتحق بالدير. سالت الدموع على خديها، وسألته: «لماذا يريدون أن يبعدوك عني؟ ماذا سأفعل بدونك؟»

لم تكن رنا كثيرة الكلام، لكن كلماتها تنمّ دائماً عمّا تريد أن تفعله. وكالعادة، لم تقل الكثير في هذا اللقاء، لكنّها قالت لفريد إنها قرّرت الهرب معه. رأى للتو حقيبتها الصغيرة بجانب المقعد.

أثّرت كلماتها في فريد، وجعلته رؤية تلك الحقيبة يشعر باضطراب شديد وغضب عنيف نحو والده. عندما تلاقت هاتان العاطفتان المشبوبتان، لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله سوى شيء واحد: وهو الموافقة على الفرار معها.

إذا كانت هذه الفتاة الرهيفة تمتلك هذا القدر من الشجاعة، فلماذا يكون جباناً وينفذ كل ما يُطلب منه باستمرار؟ هرع إلى البيت. وضع في الحقيبة منامته وبنطالين وقميصين وعدة غيارات وجميع رسائل رنا الغرامية وكلّ مدّخراته وهي مئة ليرة سورية. وكتب أخيراً جملة واحدة على قصاصة من الورق ووضعها في حقيبة مستحضرات تجميل أمّه: ماما، إني أحبّك.

اتفق فريد ورنا بسرعة على المكان الذي سيتوجهان إليه وهو مدينة بيروت، العاصمة اللبنانية. وخططا بأن يعملا عندما يصلان إلى بيروت ويجمعا مبلغاً من المال ثم يسافران إلى أمريكا بجوازي سفر مزوّرين.

وجدا سيارة أجرة. بعد حوالي عشرة كيلومترات، عرف السائق، وهو شابّ يتمتع بعين خبيرة، بأنهما هاربان. ابتسم لأنه كان هو نفسه قد فعل شيئاً من هذا القبيل. قال لهما إن قصّة حبّه انتهت بمصالحة وليس بشق في الرأس. وأخبرهما أنه اختبأ أيضاً في بيروت مع زوجته مدة خمس سنوات، حتى هدأت العاصفة في بيت أهل زوجته بعد أن أنجبت طفلها الأول، وبدأ حماه الذي أرسل وراءه شخصاً ليقتله، يحبّه ويجلّه كثيراً. فاعترى فريد ورنا شعور بالتفاؤل. أبدى سائق التاكسي رغبة في مساعدتهما، وقال إنه

twitter @baghdad_library

يعرف امرأة عجوزاً في بيروت، كتومة، وأنه واثق من أنها ستؤجرهما غرفة لديها.

قبل عشرين كيلومتراً من بلوغهم الحدود، تجمّدت ابتسامة السائق وهو جالس وراء المقود، عندما اكتشف مدى سذاجتهما. فقد توقع فريد ورنا أن يدخلا لبنان من دون أوراق رسمية. لكن بالرغم من تخوفه في البداية، واصل مساعدته لهما، فقاد سيارته مسافة طويلة عبر قرى عديدة، وأنزلهما عند طاحِونة مهجورة، وأراهما حاجز سكة حديد قديم مهدم، ودلّهما على درب سري يؤدي إلى لبنان، ووعدهما بأن ينتظرهما على الطرف اللبناني من الحدود.

غاص الحبيبان بين الأعشاب الطويلة وانتظرا حتى أنهى حرس الحدود دوريتهم كلّ ساعة، ثم بلغا الحاجز وصعدا بسهولة فوق سياج الأسلاك الشائكة الصدئة المتهالكة. ثم تعين عليهما عبور حقل منبسط. هربا للنجاة بحياتهما، وخُيّل إلى فريد أنه سمع مرّتين أحداً يناديه، «توقّف، نحن الشرطة»، لكن لا شيء سيوقفه الآن.

وصلا أخيراً إلى طريق يمرّ عبر بساتين يفضي إلى إحدى القرى. انتظرهما التاكسي في ظلّ أحد البيوت حيث يقبع ملاكهما الحارس.

«أهلاً بكما في لبنان»، قال، تشع ابتسامته، وترجّل من السيارة ليحييهما، وأضاف، «لقد نجحتما. لن يزعجكما أحد هنا»، وانطلق بهما بسرعة. عندها أدرك فريد أنّ حقيبته التي يوجد فيها كلّ ما يملكه من نقود كانت طوال الوقت في صندوق السيارة ولو فر السائق لما بقي مع فريد قرش واحد.

«أين نقودك؟» سأل رنا بهدوء. ابتسمت له وربتت على بطنها وقالت: «هنا، في كيس جلدي رقيق».

إنهما أخ وأخت، قال سائق التاكسي، وقد هربا بسبب ثأر عائلي ويجب أن يختبآ لبضعة أشهر. كانت هذه القصّة ضرورية، وإلا لما قبل أحد

تأجير العاشقين الشابين. نظرت الأرملة العجوز إليهما بعينين ضيقتين مليئتين بالشك والعروق الحمراء.

«ثأر عائلي»، كرّرت، وهزت رأسها.

كانت الليلة الأولى تلك مع رنا مثيرة للغاية لم ينم فريد خلالها. قبّل أحدهما الآخر، وقد غمرهما إحساس بإثارة شديدة. لم يسبق لفريد أن رأى رنا عارية. جثا أسفل السرير وراح يتعبّد جسدها الذي أخذ يرتعش من الإثارة، وسرت رعدة في كل بقعة من جسدها لمسها فيها. واكتشف فريد أخيراً أكثر الأماكن حساسية فيها، وهي حلمتاها. عندما امتصّهما برفق شديد انسلّت شياطين الكبت إلى خارج الغرفة، وراحا يلعقان ويقبّلان بعضهما بنهم شديد وتوق إلى المزيد. وفجأة تحوّل جسد رنا وأصبح مثل موجة من أمواج البحر تعلو وتهبط، ثم انبعثت منها صيحة رقيقة بدت مثل صيحة طائر النورس، جعلت فريد يشعر بالسعادة حتى أعماق قلبه، ولم يناما إلا بعد بزوغ الفجر.

لم يخطر ببالهما أن صاحبة البيت التي حُرمت من هذا النعيم منذ وفاة زوجها المبكّرة قبل خمسين سنة، كانت تتنصت عليهما من وراء الباب. استيقظ فريد فجأة على قرع شديد على الباب. لوهلة لم يعرف أين هو ولماذا ترقد رنا عارية بجانبه.

طلب من الأرملة أن تنتظر قليلاً وارتدى ثيابه. راحت المرأة تتحدث عن الفسق والفجور وعن ضميرها الذي صار يؤنبها، وقالت إنها مستعدة لإبقائهما في البيت إذا ضاعفا مبلغ إيجار الغرفة.

عندما اتفق فريد مع الأرملة على ذلك، أقاما هو ورنا أياماً هانئة في بيروت، وشعرا بأن أحدهما قد خلق للآخر. كان كلّ حديث، كلّ خطة، كلّ لمسة، تزيد أحدهما قرباً من الآخر. وسرعان ما اكتشفا أن السفر إلى أمريكا بجوازات سفر مزوّرة بإتقان شديد ليس أمراً مستحيلاً على الإطلاق.

احتضنتهما مدينة بيروت بمرفئها الرائع. وصار رنا وفريد يتمشيان على

twitter @baghdad_library

الشاطئ كلما أمكنهما ذلك. كان الربيع في تلك السنة بارداً وقد خلت الشواطئ من الناس. فلم يجدا أي حرج ان يتنافسا بأغانيهما عن الحب بصوت عال مع هدير الموجات المتكسرة، يسيران جنبا إلى جنب ويتحدّثان عن حياتهما في أمريكا، ولا يتناولان إلا القليل من الطعام، لكن فريد لم يستمتع في كل ماسبق وما لحق من حياته بالطعام كما استمتع به في تلك الأيام، وهو جالس على مقعد في حديقة بجانب رنا يتقاسمان سندويشة فلافل.

ما إن يغلقا باب الغرفة وراءهما حتى يسقط أحدهما بين ذراعي الآخر. في البداية، راحت رنا تنقر حبه مثل طائر صغير مرح، وأخذ فريد يلتهم حبّها مثل ذئب جائع، لكن مع مرور الأيام هدأ نهمه، لكن نهم رنا له ازداد.

بعد أسبوع وجد فريد عملاً كبائع صحف، واشترى لرنا ساعة يد من أول مبلغ كسبه. في ذلك اليوم بالذات، ظهرت المرأة العجوز الشمطاء ثانية وراحت تتحدّث عن كلفة البيت الهائلة والخسارة التي تتكبدها من مبلغ الإيجار الزهيد الذي يدفعانه لها، وقالت إنها تريد أن تضاعف أجر الغرفة المرتفع أصلاً. ذعر فريد عندما وجد أن المبلغ الاحتياطي الذي يحمله قد بدأ يتضاءل، فرفض وقرّر الانتقال إلى بيت آخر، لكن ذلك لم يحدث أبداً. لأن العجوز كانت أسرع منه.

بعد منتصف الليل، اقتيدا إلى مخفر الشرطة. كانت ليلة باردة. هدّأ الشرطي من روع رنا وقدّم لها كأساً من الشاي لكنّها لم تتوقف عن البكاء.

«أرجوكم دعونا نذهب»، توسلت للشرطي، «إننا نريد الذهاب إلى أمريكا».

«لا يمكنكما الذهاب يا صغيرتي، فأنت لا تزالين فتاة قاصرة»، قال الشرطي اللبناني، المربوع القامة، ذو الانتفاخات الكبيرة تحت عينيه. ضرب فريد واتّهمه بإغواء الفتيات الصغيرات. رافقت امرأة رنا إلى الغرفة المجاورة، دثرتها ببطانية وضمتها إليها مثل أمّ قلقة وقالت لها: «يجب أن تقولي إنه هو الذي اختطفك وبالتالي فهو مسؤول عن هذا الخطأ... حتى

يفرجوا عنك». أفلتت رنا نفسها بسخط من بين ذراعي المرأة وصاحت غاضبة: «إنه لم يفعل شيئاً من ذلك. أنا التي اختطفته».

بعد ثلاث ساعات اقتيدا إلى الحدود وسُلّما إلى الشرطة السورية. «سأنتظرك إلى الأبد» صاحت رنا.

كان الضابطان اللبنانيان يستمتعان بذلك. «هل يصوّر أحدهم فيلماً هنا؟» سأل أحدهما.

«لا، لا بد أن الطفلة قد شاهدت أفلاماً مصرية كثيرة تستدر الدموع»، أجاب الآخر.

كلّم رجال الشرطة السوريون بغضب الشابين عند الحدود. اقتادت امرأة بدينة رنا إلى زنزانة، ومرة أخرى حاولت إقناعها بأن تقول إن فريد قد خطفها. صرخت رنا بأعلى صوتها لأنها سمعت أصوات لكمات تنهال على فريد في الغرفة المجاورة، حيث ظل الشرطي يصرخ «قواد».

بعد نصف ساعة، ساد الهدوء أخيراً.

عندما استرد فريد أنفاسه ثانية، اقترب المساء. قاده الشرطي المتوسط العمر إلى خارج الزنزانة وقال: «إن والد خطيبتك لن يوجّه إليك أي تهمة لتفادي الفضيحة. أقول لك أيها الفتى، إنك محظوظ! فلو كانت ابنتي لقتلتك». انتظر إلياس مشتاق، المتجهّم الوجه، في مكتب مخفر الشرطة لمرافقة فريد. عند موقف السيارات المترب، راح إلياس الغاضب يكيل لابنه الضربات. ترنّح فريد وأخذ يلهث. بصعوبة رأى وجوه المسافرين القلقة في الحافلات المنتظرة عند الحدود لتدقيق أوراق ركابها. بكى طفل وأشار بيده من النافذة نحو فريد. على الرغم من كلّ الألم الذي ألمّ به، شعر فريد بالخجل.

دنا سائق الحافلة من إلياس وحاول تهدئته، فازداد غضباً وقال: «يا للعار. في البداية يشعل حريقاً، والآن يخطف فتاة قاصرة».

عندما قال ذلك، بدأ يوسع فريد ضرباً في أنحاء جسمه. فقد فريد

twitter @baghdad_library

توازنه وحاول أن يجلس القرفصاء لكن إلياس رفسه بشدة فاصاب أضلاع صدره فسقط فريد مغشياً عليه على الأرض.

في تلك اللحظة، خرجت رنا من المبنى. رأت فريد ملقى على الأرض فأرادت أن تجري نحوه على الفور، لكن والدها - المرتدي بدلته الصيفية الرقيقة ويحمل حقيبتها - دفعها بأدب لكن بحزم نحو سيارته السيتروين السوداء.

راقب إلياس مشتاق السيارة وهي تبتعد، ثمّ التفت إلى الوراء نحو فريد الذي عاد إلى رشده وحاول النهوض بصعوبة وتوجّه إلى سيارته الفيات، محنياً من الإعياء. ألقى الحقيبة الصغيرة على المقعد الخلفي. ركب السيارة وشغّل المحرّك. بصعوبة جرّ فريد قدميه وصعد وجلس في المقعد الأمامي.

بعد ساعة وصلا إلى البيت. تألم فريد كثيراً وتنفس بصعوبة، وبجهد كبير تمكّن من الترجّل من السيارة. سحجت ركبتاه، وتورم وجهه، وازدادت حدة الألم بين أضلاعه. ظل يتنفس بصعوبة. أحس بالعجز وأجهش في البكاء.

دأبت كلير على القول مازحة - لكنها أصابت كبد الحقيقة - إن لعائلة مشتاق لحظاتها من الجنون. فعندما يفقد إلياس أعصابه فإنه يغضب كالمجنون، لكن غضبه لا يدوم أكثر من خمس دقائق، ثم يخجل من نفسه لعدم تمكنه من تمالك نفسه. كان جدّ فريد لأبيه أيضاً هكذا.

خرجت كلير من الباب. عندما رأت ابنها في هذه الحالة تسمّرت في مكانها من هول الصدمة. عندما دخلوا إلى البيت وأغلقت الباب وراءها بحرص، انفجرت في وجه إلياس، «ماذا فعلت بابني؟ ابني الوحيد». لأول مرة في حياتها أحسّت بأنها تكره هذا الحلواني المضطرب عقلياً، الضيّق الأفق، الذي جلس الآن صامتاً، يحدّق خجلاً في البحرة في باحة المنزل.

«إنه أمر مخزٍ. في البداية أشعل النار في الشجرة ثمّ هرب مع ابنة عدونا اللدود. أصبحنا الآن تحت رحمتهم. لديهم محاضر الشرطة وبوسعهم زج ابنك في السجن في أي وقت يريدون»، أجاب. كان صوته حزيناً ومرهقاً،

لكن كلير لم تهدأ فصاحت، «إني أسألك مرة أخرى، هل أنت أب؟ تستقبل ابنك بهذا العنف الوحشي - أيّ نوع من الآباء أنت؟ إنك رجل مجنون عنيف، ومكانك وراء القضبان. إن أعداءك الألداء، عائلة شاهين أناس محترمون، حتى إنهم لم يرفعوا يدهم على ابننا ولا على ابنتهم وتأتي أنت لتوسعه ضرباً هكذا؟ إن فريد طفل، طفل، وجميعكم تسيؤون معاملته».

لم تتكلم كلير مع إلياس في ذلك المساء، بل وجّهت كلّ رعايتها واهتمامها لفريد ونامت على أريكة بجانب سريره. وتصرفت مع زوجها بلا مبالاة. بعد ذلك، شخّص الطبيب وجود ضلعين مكسورين للصبي وكدمات حادّة.

لم تعرف كلير بالعنف الذي مارسه عليه الجنود السوريون على الحدود إلا بعد ان اخبرها فريد في اليوم الثالث. أجرت اتصالات حتى عرفت اسم الضابط المسؤول، ثم هدّدته بأن توجّه إليه تهمة الاعتداء على طفل.

ضحك الضابط في الجانب الآخر من الهاتف، وقال: «افعلي ما تشائين يا مدام لأنني سأحصل على ترقية على ما فعلته»، مدّعياً بأنه يدافع عن المبادئ الأخلاقية العربية.

لكن كلير حافظت على كلمتها. فبواسطة ابن عم بعيد لها يتبوأ منصباً كبيراً في وزارة الداخلية، رفعت دعوى على الضابط الذي داس ببسطاره العسكري على صدر طفلها، فنقل الضابط إلى منطقة الجزيرة على نهر الفرات لأسباب تأديبية، وأخذ يتذمر بمرارة شديدة حتى يوم تقاعده بأنه لا يمكن إنقاذ سوريا لأن قحبة تستطيع أن تنقل ضابطاً برتبة ملازم أول إلى الصحراء لأنه قام بواجبه وصفع ورفس فتى قليل التربية.

١١٧- البوابة

اتّجه سائق الحافلة نحو قمّة هضبة أخرى في الجبل قبل بلوغ الساحل. من بعيد، بدا الدير الضخم الجاثم فوق قمة الجبل مثل عش نسر، جدرانه البيض تتلألأ تحت شمس الأصيل.

twitter @baghdad_library

كأنه تحرّر، ضغط السائق على دواسة البنزين مرة أخرى وأسرع في الأمتار القليلة الأخيرة حتى بلغ حائط الدير، وضغط أخيراً على الفرامل بقوة حتى كاد راكبان، لم ينتظرا حتى الوصول إلى نهاية الرحلة فوقفا في الممر بين المقاعد، أن يسقطا إلى الأمام. هذا الأمر لم يزعج سائق الحافلة. أطفأ المحرّك وأخرج مشطه من جيب قميصه، ومشّط شعره المزيّت وفرقه إلى قسمين بمهارة، ونظر في المرآة الخلفية. للحظة تفحّص شاربه الرفيع المشذّب، ثمّ ابتسم لنفسه بارتياح وترجّل من الحافلة، وهو يصفّر.

نظر إلى الساعة في برج الكنيسة، وقارن الوقت مع ساعته، وضبطها.

«أكثر من اثنتي عشرة ساعة من السواقة»، قال إلياس مشتاق مندهشاً، وهو ينزل من الباب الخلفي وألقى نظرة على ساعته. أدرك أنه لن يتمكن من العودة حتى صباح اليوم التالي.

نظر إلياس إلى سائق الحافلة. كان الرجال الذين يطلون شعرهم بالزيت يثيرون اشمئزازه، وحسب أعمارهم، فهم إما لوطيون يؤجّرون أنفسهم أو قوادون. وزع السائق بضع سجائر أجنبية على عمّال المزرعة الفقراء الواقفين هناك وشكروه. شمّ كلب ضالّ شيئاً يملأ به بطنه الجائعة فاقترب بحذر وهو يهزّ ذيله، لكن سائق الحافلة ركله بقوة في خاصرته فأخذ يجري مبتعداً وهو يعوي وينبح من ألمه.

«لا يجوز عمل ذلك، أليس كذلك؟» قال إلياس ساخطاً، «فالكلب أحد مخلوقات الله أيضا - ألم تر أنه كلب جائع مسكين، وماذا فعل له ذلك القواد؟ لقد ركله في أضلاعه»، قال بغضب لكن بهدوء لفلاح من ركاب الحافلة.

«كلّ أهل المدينة أولاد زنى»، أجابه الرجل، وهبّت من فمه رائحة كريهة في وجه إلياس. أحسّ والد فريد برغبة في أن يركله في أضلاعه.

راح سائق الحافلة يتهادى دائراً حول حافلته، ثم أسند سلّماً إلى الحافلة وتسلقه إلى السطح المحمل بكميات كبيرة من الصناديق والأكياس والحقائب. راح يلتقط قطعة إثر قطعة، ويصيح، «لمن هذه؟» وما إن يجيب

صاحبها بكلمة حتى يكون قد ألقاها من فوق الركاب المتجمعين في الأسفل ينتظرون أمتعتهم وحقائبهم. هزّ إلياس مشتاق رأسه بانزعاج شديد عندما ارتطمت حقيبته بقوة بالأرض، فدمدم قائلاً «ابن زنى» ثم تلتها حقيبة أصغر وضعت فيها كلير غيارات وجوارب ومناشف. وكتبت الأحرف الأولى من اسمه «ف. م» وتاريخ ميلاده: ٢٣/٦/ ٤٠ على جميع الأشياء المطلوبة للدير، أما الحقيبة الكبيرة فكانت تحتوي على معاطف وبلوزات ومِلابس شتوية أخرى. لم يكن فريد بحاجة إلى سراويل وقمصان لأنّ الجميع يرتدون ثوب الرهبان الأسود.

ابتعد فريد عن الأشخاص الصاخبين المتجمهرين حول الحافلة وصعد باتجاه البوابة الكبيرة وحده. بدا له أن البوابة أكثر مناعة من جدار الدير الحجري المرتفع الأشبه بقلعة. «أمّي»، سمع نفسه يهمس، «أمّي، أين أنت؟ أمّي». اعتراه شعور لم يعتره من قبل قط وهو الشعور بأنه منبوذ، وشعر أن دموعه راحت تسيل دون إرادته على خديه.

«ما خطبك؟» أعاده صوت والده إلى الواقع.

«أريد أن أعود إلى البيت»، قال ونظر إلى والده من وراء غشاوة دموعه.

«تمالك نفسك. لم تعد طفلاً الآن»، أجاب والده بهدوء.

حمل فريد الحقيبة الأصغر وتبعه.

على الرغم من حرارة الصيف القائظة، هبّ عليهم هواء بارد له رائحة متعفّنة عندما فتح البوابة رجل طويل بثياب الرهبان. ابتسم مثل أبله. كانت جمجمته الحليقة الكبيرة مليئة بالندوب، ويداه تشبهان مجرفتين تبرزان من ثوبه الصغير والضيق عليه كثيراً. كان القماش الأسود مهترئاً وقد حال لونه وأصبح رمادياً عند الكتفين والمرفقين.

«نريد أن نرى رئيس الدير مكسيموس حداد. كانت الحافلة...»

«إنه ينتظرك»، قاطع الرجل إلياس بفظاظة ومضى. مشى إلياس مشتاق

twitter @baghdad_library

وراءه حاملاً الحقيبة الثقيلة، لاهثاً. ساروا في دهاليز لانهائية، حتى توقّف الرجل خارج باب في الطابق الأول. عندما لحق به فريد، قرع الراهب الباب ودفع المقبض من دون أن ينتظر جواباً، ثمّ تنحّى جانباً ليسمح للقادمين الجديدين بالدخول.

«ضعا الحقائب وادخلا. الأخ يوحنا سيعتني بها»، قال رئيس الدير، وخرج من وراء طاولة مكتبه الكبيرة. «مسيو إلياس، يا لها من سعادة كبيرة أن أرحّب بابن ذلك البطل العظيم جورج مشتاق».

ذُهل إلياس. كان يتوقّع أي شيء لكنه لم يكن يتوقع أن يجد أن سمعة والده قد قطعت كل تلك المسافة لتصل إلى هذا الدير. فوجئ فريد بأن رئيس الدير شاب، لا يمكن أن يكون قد تجاوز الأربعين. فقد كان يتخيّل رؤساء الأديرة رجالاً طاعنين في السن بلحى بيضاء كالثلج وظهور محنية. أما هذا الرجل فقد كان رياضياً، موفور الصحة، له لحية سوداء كثة، ودود الوجه، وصوته رخيم، يتحدث بلغة عربية فصحى لكن فريد اكتشف فيها مسحة من لهجة لبنانية.

«اغفر لنا تأخرنا في الوصول، فالحافلة. . . .»، بدأ إلياس، محاولاً الاعتذار.

«أوه عزيزي، نعم»، قاطعه رئيس الدير، «فنحن نعرف أن الطرق خطيرة. إننا سعداء لأنكما تمكنتما من الوصول إلى هنا في جميع الأحوال اليوم. فقد أجّل آباء سبعة تلاميذ جدد آخرين رحلتهم بسبب هذا الوضع. اليوم خميس، ويستطيع ابنك أن يرتاح حتى مساء يوم الأحد، لأن دورة اللغة الفرنسية المكثفة ستبدأ يوم الاثنين. يمكنه أن يحضرها منذ بدايتها، ولن تبدأ الدروس النظامية إلا في تشرين الأول، وستكون باللغة الفرنسية».

«أنا وزوجتي سعيدان لقبولكم فريد ونقدّر لكم ذلك كثيراً. عندما كنت فتى درست في دير في دمشق، أمضيت فيه أجمل أيام حياتي لكنها بُترت على نحو محزن. إني واثق من أنكم تتذكّرون النهاية المأساوية التي حلّت بالدير اليسوعي»، أضاف إلياس بهدوء.

«كيف يمكنني أن أنسى؟ كان يوماً أسود على المسيحية والحضارة برمتها، فقد مات عمي في الحريق. كان أمين المكتبة فيه».

«ماذا؟ الأب أنطونيوس حداد. . .عمّك؟» سأل إلياس بدهشة.

هزّ رئيس الدير رأسه، وقال: «يا له من عالم صغير! كنت تعرف عمّي، بينما كنت أصلّي عندما كنت تلميذاً في الدير هنا من أجل بطل يدعى جورج مشتاق أنقذ قرية مسيحية. وهذا الرجل هو والدك. رحم اللّه روحه».

«شكراً لك»، همس إلياس بنبرات هادئة. لاحظ فريد قناع التصاغر الذي يرتديه والده دائماً عندما يتكلّم مع رجال الكنيسة.

في تلك اللحظة، التفت رئيس الدير إلى فريد وقال له: «مرحباً بك يا بني»، وصافحه بقبضته القويّة، ثمّ طلب منهما أن يجلسا، وجلس هو مولياً ظهره للنوافذ الكبيرة. من خلال النافذة إلى الجهة اليسرى، رأى فريد الباحات والأشجار الباسقة الضخمة بأغصانها المرتفعة المتشابكة والممتدة حتى جدران الدير. كانت الشمس لا تزال تتلألأ لكنها بدأت تغوص نحو خطّ الأفق البعيد.

توجّه رئيس الدير مكسيموس بحديثه إلى إلياس مرة أخرى وقال: «إننا نحاول أن نقدم لتلاميذنا والرهبان المبتدئين تعليماً جيداً لكي يتمكنوا من مواصلة دراستهم لاحقاً في روما وفي باريس وخدمة الكنيسة الأمّ. كما تعرف توجد لدينا ارتباطات ممتازة مع اليسوعيين في هاتين المدينتين ونشكر نعمة الله أننا نستطيع حتى الآن عدّ اثني عشر مطراناً وبطريركين وثلاثة كرادلة وأربعة عشر لاهوتياً وطبيباً مشهوراً على مستوى العالم من بين التلاميذ الذي درسوا في هذا الدير. لكل موهوب مسيحي واجب تجاه طائفته، بعون الله ونعمته، سيضع ابنك فريد موهبته في خدمة العقيدة المسيحية كما فعل جدّه».

فُتح الباب بهدوء، فرفع رئيس الدير بصره قليلاً وواصل حديثه عن الموهبة والواجب. أحضر رجل نحيف صينية عليها كأسين من الماء. بهر

twitter @baghdad_library

إلياس بما قاله رئيس الدير فوثب بتهذيب عندما قدم له الرجل الواهي كشبح الماء.

ابتسم فريد للراهب الضامر. كان في حوالي الأربعين من عمره، ودعاه رئيس الدير باسم الأخ غابرييل. تناول فريد الكأس ووضعها على المنضدة الصغيرة بين الكرسيين ذوي المسندين اللذين يجلس عليهما هو ووالده.

ظل الراهب واقفاً عند الباب، لم يبد نحوه أحد أي اهتمام. قال فريد لنفسه إن لهذا الرجل هالة من الرقة والهدوء. فجأة سمع صوت مكسيموس حداد يرتفع قليلاً وقال بجدية: «ابنك فريد»، ومن نبرته فهم أن اللقاء انتهى، «سيصبح الآن ابننا وأخاً لنا وسيعُرف من الآن وصاعداً باسم برنابا». نهض رئيس الدير واقفاً للحظة كأنه خمّن المفاجأة التي تملكت إلياس وابنه في هذه اللحظة. ابتسم وألقى نظرة على صفحة كتاب سميك مفتوح أمامه، وتابع كلامه بصوت أخفض قليلاً، «ففي الدير، يحمل جميع التلاميذ أسماء قديسين. إن فريد اسم عربي جميل، لكن لسوء الحظ لا يوجد قدّيس بهذا الاسم». ألقى نظرة سريعة على فريد، وأضاف، «ليس بعد على أي حال»، وابتسم ابتسامة تشي بسعادته لهذه الفكرة، «والاسم الجديد هو رمز حياة جديدة. سيبقى فريد كذاكرة في بيت أهله، وقد جاء برنابا إلى هذا العالم هنا. برنابا لأن اليوم هو ١١ حزيران، وهو كما نعرف من هذا الكتاب عن القديسين إنه يوم القديس برنابا. إنه أحد أوائل الشهداء المسيحيين، صديق ورفيق لبولس مؤسس الكنيسة، ويعني اسمه بالآرامية «ابن الوعظ والعزاء». وهو القديس الوطني لجزيرة قبرص. كم أنت محظوظ يا عزيزي برنابا»، أنهى كلامه وابتسم لتلميذه الجديد. لم يشعر فريد بأنه محظوظ أو مرتاح. وقال لنفسه يا له من اسم غريب.

بعد بضعة أسابيع اكتشف فريد أن برنابا هو أحد المسيحيين الأوائل، وأول من دافع عن بولس الرسول، الذي عرفه المسيحيون الأوائل باسم شاؤول والذين عرفوا فيه عدواً لدوداً للمسيحيين الأوائل، لذلك لم تكن لديهم ثقة ببولس هذا في البدء وظنوه جاسوساً. لكن برنابا أقنعهم بأن

اليهودي شاؤول تحول قلبا وقالبا إلى المسيحي بولس ثم بدأ وبولس بالتبشير معاً لفترة من الزمن، لكنهما اختلفا في نهاية الأمر وذهب كلّ منهما في طريقه.

«والآن»، سمع رئيس الدير يقول بجدية، «سيتركك ابنك فريد، ويصبح كإبننا برنابا، تلميذ في هذا الدير، سيدخل حقول المسيح، وسيصبح تحت رعايته خادمه المكرّس».

أحسّ فريد بالشلل من شدة الخوف لأنه لم يكن يتوقّع أن ينفصل عن أبيه بهذه السرعة.

«لقد حجزتُ لك غرفة في النزل المخصص للضيوف» قال رئيس الدير لإلياس، ماداً يده اليمنى مودعاً، «نرحب بك هنا هذه الليلة، وغداً ستغادر الحافلة إلى دمشق في الصباح الباكر».

خرج رئيس الدير من وراء طاولة مكتبه ووضع يده على رأس فريد. لبث فريد واقفاً لا يأتي بحركة، لكن قلبه أخذ يخفق بقوة. جفف إلياس مشتاق دموعه بمنديله المبلل بالعرق للتو بعد هذه الرحلة الطويلة.

«فليباركك الرب في طريقك»، قال رئيس الدير، «وليمدّك بالشجاعة، ويزيل عنك الشعور بالأنانية، ويجعلك مطيعاً ومستعداً للقيام بأي عمل يساعد على نشر تعاليم المسيح. حماك الله في كلّ ما تقوم به».

١١٨- جزّ التَّرَهُّب

«حسناً يا برنابا الصغير لنذهب»، قال الأخ غابرييل النحيف. فاجأ صوته العميق الدافئ فريد. عندما غادرا المكتب كانت الحقائب قد اختفت. لاحظ غابرييل نظرة الفتى المتسائلة فابتسم وقال: «لقد أخذها الأخ يوحنا إلى مكانك في صالة النوم. لديك هناك خزانة لتضع فيها ثيابك وأغراضك الصغيرة. لكن تعال معي الآن - إنه ينتظرك من أجل جزّ التَّرَهُّب».

«ما هو جزّ التَّرَهُّب؟» سأل فريد مضطرباً.

twitter @baghdad_library

ابتسم غابرييل وقال: «حلاقة شعر الرأس، بعدها ستحصل على الثوب. عندها فقط تصبح واحداً منا حقاً».

دخل فريد الغرفة المعروفة بورشة الأخ يوحنا. كان يوحنا يعمل كل شيء، فهو سبّاك وساعي بريد وحمّال وحلاق، وينزل كذلك العقاب الجسدي بالتلاميذ عندما ترى سلطات الدير ضرورة لذلك. وقد تألفت الورشة مؤلفة من غرفتين، الواحدة قبالة الأخرى يصل بينهما باب. توجد في الغرفة الأمامية دراجات وأسرّة معدنية وصناديق فيها أدراج وطاولة للعمل. وقد فاحت من الورشة رائحة زيت محرّك قوية، لكنها مرتّبة بدقة متناهية. جلس يوحنا في الغرفة الخلفية على حشية يحاول إصلاح مقبض سلة مكسور من الخيزران بيدين قاسيتين.

عندما دخل فريد برفقة غابرييل، رفع يوحنا عينيه وابتسم ابتسامة عريضة. كانت تفوح منه رائحة عرق قوية ورائحة جوارب قديمة نتنة. لم يكن في الغرفة شيء يدل على أنها صالون حلاقة. كانت اللمسة المبهجة الوحيدة فيها هي شعاع شمس يتسلل عبر نافذة مستديرة في الجدار الغربي للغرفة.

وضع يوحنا السلة جانباً ونهض على قدميه. سحب مقعداً صغيراً بدون مساند إلى وسط الغرفة وأومأ إلى فريد بأن يجلس عليه. ما إن جلس فريد حتى دفع يوحنا بيده الخشنة رأسه إلى الأسفل وبدأ يحلق شعره بمقص قديم. اقتلع المقصّ خصلات كاملة من شعر فريد في وقت واحد. كانت عملية مؤلمة.

«ما اسم فتانا الجديد؟» سمع فريد يوحنا يسأل.

«برنابا»، قال غابرييل.

كرّر يوحنا الاسم بصوت متصنع للطفولة، وشيئاً فشيئاً حوّل الإسم إلى نسخته اليونانية برناباس ومن برناباس تحول شيئاً فشيئاً إلى بارأباس، اسم المجرم الذي اختار اليهود تحريره بدلاً من المسيح في عيد الفصح عند اليهود عندما عرض بيلاطس عليهم تحرير واحد من إثنين المسيح أم برأباس. استمرّ

يوحنا يردد هذا الاسم الجديد بحماسة: «بارأباس! بارأباس!». فعلى الرغم من أن رغبة اليهود في تحرير برأباس ليست ذنب هذا المجرم التعيس، فقد كره المسيحيّون الأوائل هذا الاسم باعتباره رمز حياة أُنقذت على حساب حياة المسيح نفسه. ويبدو أن بارأباس لم يعد يحتمل هذه الفكرة، فشنق نفسه بعد أن أطلق سراحه مباشرة، كما تقول الخرافات.

«إذاً أصبحتَ الآن واحداً منا»، صاح يوحنا بصوت أغنيته، ثمّ هوت يده القاسية فجأة على وجه فريد. أراد في الواقع أن يربّت على مؤخرة الرأس الحليق للتلميذ الجديد، لكن فريد استدار في تلك اللحظة بالذات، فأصابت الضربة بقوة وجهه. فَقَد فريد توازنه وسقط من على المقعد. حاول النهوض على قدميه عندما أحسّ فجأة بيد نحيفة على كتفه، استدار ونظر مباشرة في وجه غابرييل.

«هيا لنذهب يا برنابا. إن يوحنا رجل أخرق»، قال الراهب وساعد فريد على النهوض وقاده خارج الورشة.

«هيه، لم أقصد أن أفعل ذلك»، صاح يوحنا ومدّ يده نحو الفتى يريد الإعتذار، لكن فريد كان قد وصل إلى الباب وصفقه خلفه شاتماً في قرارة نفسه أم يوحنا الخرقاء. ظل يوحنا واقفاً وتسمر مرتعباً في مكانه.

١١٩- الليلة الأولى

بدا ثوب الراهب الأسود الذي ارتداه فريد غريباً. فقد كان فضفاضاً منتفخاً بين ساقيه العاريتين فجعله يترنح في مشيته. كان يجفل من رؤية نفسه عندما يمرّ من أمام إحدى المرايا المثبّتة عند صحن كل درج. غريب برأس حليق حتى الجلد وكأنه مجند، طفل هزيل يرتدي كيساً أسود يحدّق فيه عبر المرآة بعينين واسعتين من الصدمة. لا بد أن يوسف سيصاب بنوبة قلبية لو رأى صديقه في هذا الثوب.

بدأ الظلام يهبط على الباحة الداخلية الهادئة. توقّف فريد للحظة ثم تبع غابرييل هابطاً إلى القبو، حيث سمع همهمة أصوات. كان سقف القبو

twitter @baghdad_library

جميلاً، مرتفعاً مقنطراً مشيداً من الحجر الأبيض المصقول، والأبواب المفضية إلى قاعة الطعام مشرّعة. عندما وقف فريد على الدرجات المفضية إلى الأسفل، رأى مئات تلاميذ الدير، جميعاً برؤوس حليقة يرتدون أثواباً سوداء، جالسين في ثلاثة صفوف طويلة من الطاولات. وفي رأس القاعة عند مدخلها منصة حجرية مواجهة لكل الطاولات، مرتفعة بعض الشيء، انتصبت عليها طاولة كبيرة يجلس إليها الآباء، وفي وسط القاعة تقريباً يوجد شيء أشبه بالمنبر بجانب الجدار وقف عليه أحد التلاميذ الأكبر سناً، يقلّب كتاباً سميكاً، عرف فريد من حزامه الجلدي الرفيع أنه راهب مبتدئ، لأن الإخوة والآباء يضعون عادة أحزمة أعرض.

انتظر فريد مرتبكاً بالقرب من الباب بينما هرع غابرييل إلى الطاولة التي يجلس إليها الآباء، وهمس شيئاً إلى كاهن مكتنز قليلاً. نظر الكاهن إلى فريد ثم وقف على قدميه. ساد صمت على الفور، وشعر فريد بأعين التلاميذ والرهبان المبتدئين تحرق جلدة رأسه العارية. أطرق برأسه إلى الأسفل.

«باسم الأب والابن والروح القدس»، قال الكاهن ورسم شارة الصليب. فعل جميع التلاميذ الشيء نفسه، وكرّروا الكلمات وراءه. أسرع فريد ورسم شارة الصليب أيضاً. «باسم رئيس الدير مكسيموس الذي لم يتمكن من أن يكون معنا هذا المساء»، قال الكاهن، «يسعدني أن أرحب بتلميذنا الجديد برنابا. إنه في الصف السابع وواحد من عشرة تلاميذ جدد جاؤوا ليملأوا صفوفنا. أهلاً بك يا بني. اجلس الآن حتى نبدأ القراءة».

حرّك غابرييل رأسه ردّاً على نظرة فريد له يطلب فيها المساعدة، ثمّ رأى المكان الشاغر المخصص له الذي وضع عليه فوطة وسكين وشوكة وملعقة.

عاد التلاميذ يتحدثون، وأمطره رفاقه العشرون الجالسون إلى الطاولة بالأسئلة. كانوا جميعاً يتكلمون بالفرنسية. فهم فريد جزءاً كبيراً مما كانوا يقولونه، لكنّه اكتفى بأجوبة بسيطة لكي يتحاشى ارتكاب أي خطأ. بدا التلاميذ متلهّفين لسماع أخبار العالم الخارجي. لم يكتشف إلا لاحقاً أنه لم

يكن يسمح للتلاميذ والرهبان المبتدئين مغادرة جدران الدير. وبخلاف المدارس الداخلية العادية والعديد من الأديرة المتحررة، لم يكن النظام في دير القديس سيباستيان يسمح للتلاميذ حتى بالذهاب إلى بيوتهم لقضاء العطل.

كانت القراءة بالفرنسية أيضاً. كلّ ما فهمه فريد منها أنها قصّة القديس برنابا، قال له رفاقه إنه تقرأ عليهم قصّة قدّيس معين كلّ يوم قبل تناول العشاء.

«بعضها مثير مثل القصص البوليسية، وبعضها ملوّن كالأفلام، لكن بعضها الآخر ممل وجاف»، قال فتى يطلق عليه الآخرون اسم مارسيل، جلس قبالة فريد يبتسم. كلّ ما عرفه فريد عن مارسيل البدين قليلاً، أنه من الإسكندرية بمصر.

كان مارسيل أيضاً هو الذي أخبره بسرعة واقتضاب عن التراتبية في الدير في أول مساء له. «تلاميذ الدير هم حملة الدروع، والرهبان المبتدئون هم الفرسان، والرهبان هم الأمراء، والآباء هم الملوك، أما رئيس الدير - حسناً، فهو الرب بشخصه».

«لماذا لا يزال بعضهم إخوة مع أنهم يبدون في عمر يجعلهم كهنة مرسّمين الآن؟»

«لا يعلم ذلك إلا اللّه. ربما يوجد لديهم برغي مرخي في مكان ما»، قال مارسيل.

«وماذا عن الأخ غابرييل؟» سأل فريد.

«إن غابرييل، هو الراهب العادي الوحيد الذي يسمح له بالجلوس إلى الطاولة العليا مع الآباء ورئيس الدير»، قال له مارسيل، «فهو أذكى منهم جميعاً، لكنّه مع ذلك لا يستطيع أن يصبح كاهناً».

«لم لا؟» همس فريد، متكئاً إلى الطاولة.

«إنه مريض في رأسه»، أجاب تلميذ صغير يجلس بجانب مارسيل، يطلق عليه الآخرون اسم تيموثاوس. لكزه مارسيل بمرفقه على أضلاعه، فمن الواضح أنه لم يكن موافقاً على هذا التفسير.

twitter @baghdad_library

«عقله ترالالي»، قال آخر وضحك.

«أوه، اخرس»، قال مارسيل، «فالبابا نفسه يخاف من غابرييل لأنه يعرف أسراراً كثيرة»، همس بنبرات تآمرية. صمت الآخرون وتبادلوا نظرات ذات معنى ثم نظروا خلسة إلى غابرييل.

«ربما جعلته كلّ تلك الأسرار مجنوناً»، قال تيموثاوس.

قرع جرس فبدأ التلاميذ يطوون فوطهم ويضعونها في أدراج صغيرة تحت سطح الطاولة.

«ماذا يحدث الآن؟» سأل فريد بالعربية.

ابتسم مارسيل ابتسامة خفيفة وقال: «حسناً، لدينا في العطلة الصيفية وقت فراغ، فنلعب الورق أو الشطرنج أو نتمشى في الباحة ونغتاب الآخرين. ثم نصلي في الساعة العاشرة ثم ننام».

عندما قرع الجرس للمرّة الثانية نهضوا واقفين. أعقب ذلك صلاة قصيرة. ظل فريد صامتاً ونظر إلى غابرييل عاجزاً عن عمل شيء لكنّ غابرييل كان واحداً من القلائل المستغرقين تماماً في الصلاة. عندما رسموا جميعاً شارة الصليب في نهاية الصلاة، عاد غابرييل ليتعرف على بيئته المحيطة ثانية بمن فيهم فريد وأشار إليه لكي يظل في القاعة.

«لنبدأ هنا»، قال غابرييل عندما خرج الآخرون، «لقد أصبحتَ تعرف قاعة الطعام الآن. إننا نتناول جميعاً الطعام نفسه، حتى رئيس الدير مكسيموس، فلا يملك أحد في أخويتنا أيّ امتيازات، ويتم تحضير الطعام هنا في المطبخ». عندما اقتربا من المطبخ، رأى امرأتين مسنتين ترتديان معطفين أبيضين تدفعان عربة عبر باب المطبخ ثم بدأتا ترفعان الصحون الوسخة من على الطاولات.

كان المطبخ واسعاً، وانهمك عدد من الرجال والنساء في تنظيف الأرض وفركها بالفرشاة. كان بعضهم يصقلون المواقد والطاولة الكبيرة ذات السطح الرخامي الأبيض. واكتست أرضية المطبخ، مثل أرضية غرفة الطعام،

ببلاطات مصقولة من الحجارة الممتزجة باللون الأحمر. يعمل هنا حوالي عشرين شخصاً. لفتت إحدى الطاهيات انتباه فريد، اسمها جوزفين، بدت غريبة في هذا المكان بين الآخرين. فلم يكن يليق بها أن ترتدي هذه الثياب البيض وتعمل هنا في المطبخ. كان لون عينيها مزيجاً من اللون الأزرق والأخضر وشعرها أشقر. بدت مثل إلهة الجمال من الرخام الزهري اللون. ابتسمت لفريد، لكنه سرعان ما اكتشف أنها تتكلّم بلهجة غير جذابة، تنطق الكلمات دون أن تكون فيها نغمة، كأنها مصابة بنوبة سعال.

«إذاً هذا هو فتانا الجديد - إنه وسيم، أليس كذلك؟» ابتسمت، وأسندت يديها إلى وركيها.

«مساء الخير»، قال غابرييل.

«مساء الخير يا أخ غابرييل. هل سيأتي هذا الفتى الوسيم ليساعدنا هنا؟»

رفض غابرييل الفكرة بابتسامة وقال: «حسناً، إذاً كيف تسير الأمور مع مسرحية جان دارك؟»

«أوه، يا إلهي، لو كنت أعرف أن الشغل هنا كثير هكذا لرفضت الإشتراك بالمسرحية، فالعمل لا يتوقف طوال اليوم هنا، ثم القراءة وحفظ النص في المساء».

«أنا واثق من أنك محقة. إنه عمل كثير حتى على كتلة من الطاقة مثلك»، وافق الأخ غابرييل متعاطفاً، ومضى في طريقه مع فريد. عندما وصلا إلى الممر همس، «إنها امرأة موهوبة جداً. كانت إحدى التلميذات الذكيات في دير القديسة مريم، وهي تتقن الفرنسية واللاتينية، لكن البواب في ذلك الدير أغواها وحملت منه وهي لا تزال في السادسة عشرة من عمرها. لذلك تعين عليهما أن يتزوّجا بسرعة، وبطبيعة الحال طُرد من الدير، وبصعوبة وجد عملاً آخر بواسطة رئيس الدير مكسيموس الذي شغّله في إسطبلات مربي خيول، لكن الرجل كان عديم الفائدة وكسولاً، فطرد من العمل بعد أسبوع».

twitter @baghdad_library

لم يفاجأ فريد بالصراحة التي تحدّث بها غابرييل إليه فحسب، بل فوجئ كذلك بالنبرة الحازمة في حكمه.

«وها هو كنزنا، المكتبة»، قطع غابرييل سلسلة أفكاره، وأضاف «إنها إحدى أفضل المكتبات في الشرق الأوسط». فتح الباب الخشبي الثقيل. برقت عينا فريد دهشة، فلم يكن قد رأى مكتبة كهذه قط. فقد كانت على الأقل كبيرة بحجم قاعة الطعام، فيها رفوف طويلة لا نهاية لها، ورتبت عليها جميع الكتب بمهارة، معظمها مغلف بأغلفة جلدية. وتناثرت بين الرفوف والأعمدة الحجرية الطويلة بضع طاولات أمام كلّ منها كرسي وعليها مصباح قراءة. وفي وسط الغرفة، انتصبت طاولة كبيرة حولها أكثر من عشرين كرسياً، جلس إليها عدد من تلاميذ وآباء الدير كانوا مستغرقين في القراءة.

وانتصبت على الحائط قبالة الباب خزائن ذات واجهات زجاجية يُحتفظ فيها بلفائف ومخطوطات قديمة.

«هذه هي كلمات القديس يوحنا الدمشقي أو القديس يوحنا فم الذهب»، قال غابرييل. عرف فريد الكثير عن القديس يوحنا، الكاتب والخطيب الذي يعتبر فخر جميع المسيحيين الدمشقيين.

أراد أن يمضي وقتاً أطول في المكتبة، لكن غابرييل دفعه بلطف إلى خارجها مرة أخرى. كان لا يزال هناك الكثير لرؤيته وتعين على غابرييل الذهاب إلى دورة المياه.

انتظره فريد في الممر. كان القبو ضخماً، يبدو أنه يمتد تحت الدير كله والباحة الداخلية. وشغلت قاعة الطعام والمكتبة المتجاورتين ثلثا مساحة القبو، وأحيطت تلك المساحة بالمستودعات بالإضافة إلى دورات المياه وغرفة فيها آلة طباعة صغيرة وغرفة لتجليد الكتب. كان لجميع الغرف أبواب ثقيلة سميكة.

هبت نسمة منعشة على الباحة الداخلية التي يضيئها فانوس باهت عند مدخل البوابة لكن الضوء كان يتسلل من الغرف ويسقط على الأروقة المحيطة بالباحة من الطرف الغربي والجنوبي.

في الجانب الشمالي توجد الكنيسة العظيمة ومدخل البوابة وورشة الأخ يوحنا وغرفة الزوّار، وأوضح الأخ غابرييل أن بوسع عائلات التلاميذ والرهبان المبتدئين زيارتهم في الدير لكن تحت الإشراف، ويوجد لغرفة الزوّار باب ضيق خاص بها يؤدي إلى موقف السيارات.

«هناك»، قال غابرييل، مشيراً إلى الشمال، «كنيسة القديس سيباستيان، قدّيسنا شفيع الدير. أنا متأكد من أنك قرأت قصّته وتاريخ الدير في الكتيب الذي يوزع على جميع التلاميذ الذين يأتون إلى هنا».

هزّ فريد رأسه، راجياً ألا يسأله الراهب عن التفاصيل، لأن كلّ ما علق في ذاكرته صورة سيباستيان وتعابير ألم ترتسم على وجهه، مقيّداً بجذع شجرة وقد ثقبته ثلاثة أسهم. وخلال قراءته، تخيّل فريد سيباستيان وهو يحتضر بين عدد من سكان أمريكا الأصليين، وقد ترسخت تلك الفكرة في مخيلته بأنها أسطورة شهيد مع أنه عاش وقُتل في إيطاليا.

لحسن الحظ كان أحد تلاميذ الدير قادماً باتجاههما نادى لغابرييل بالفرنسية، «جيد! أخيراً يمكنني أن أمرر «العلامة» إليك (signal)».

«ليس هذا منصفاً الآن»، قال غابرييل محتجاً، ضاحكاً، «إني أطلع برنابا على المكان ومجبر على الكلام بالعربية».

«عفواً، عفواً»، أجاب الفتى وهو يضحك أيضاً.

«إن التحدث باللغة العربية ممنوع»، أوضح غابرييل، واستدار نحو فريد، «وهذا يسري على الجميع، وأيّ تلميذ يتبين أنه فعل ذلك، يُعطى قرصاً خشبياً مستديراً رقيقاً طبع عليه حرف S، أول حرف من كلمة "signal" ويجب أن يحمل القرص الصغير إلى أن يجد تلميذاً آخر ينطق كلمة عربية فيمرره إليه ويتخلّص منه».

«لكن لنفترض أنه أنكر أنه تكلم بالعربية؟ أو لنفترض أنه كان أكبر وأقوى من الشخص الذي يحمل القرص؟»

«ضخم أم ضئيل، كبير أم صغير، لا فرق. يجب أن يكون لدى ناقل القرص شهود، لأنه لا يتحدث أحد لنفسه بصوت مرتفع. من الأفضل

twitter @baghdad_library

للطرف المذنب أن يأخذ القرص بصمت، أو أن الجميع سيعرفون أنه يبحث عن شخص يتكلّم العربية، وسيتحاشونه كما يتحاشون وباء الطاعون».

«لكن لنفترض أنّه لم يجد شخصاً آخر؟»

«عندها يتناول عشاءه جاثياً ويؤخذ منه القرص ويعطى في صباح اليوم التالي سرّاً إلى أحد الطلاب الشجعان، يعرف باسم «البادئ»، ويطوف أرجاء المكان للعثور على تلميذ آخر يتكلم بالعربية؟»

«لكن هذا تجسس. هل توافق على ذلك؟»

تسمّر غابرييل في مكانه. يبدو أن السؤال أصابه في الصميم وقال: «شخصياً لا، لكن إدارة الدير تستخدم هذه الوسيلة حرصاً على التزام التلاميذ بالنظام وتعلم التحدث بالفرنسية بسرعة. أوه، انظر، لقد حان وقت الصلاة الليلية! يجب أن نسرع»، أضاف وهو ينظر إلى ساعته.

شُيِّدت كنيسة القديس سيباستيان في القرن السابع عشر وفق مخططات صُمّمت في روما. لم تكن ضخمة، لكنّها كانت مشيدة على نحو رائع. لم تُبنَ أعمدة في صحن الكنيسة، لذلك يستطيع المرء أن يرى المذبح العالي بوضوح أينما جلس. وكان أسلوب عمارة الجزء الداخلي مزيجاً من الروعة اليسوعية الباروكية والثراء الشرقي. وقد عُلِّقت على الجدران لوحات ضخمة تصوّر بفخامة ملكية نصوصاً توراتية وإنجيلية وملائكة والمسيح ومريم العذراء. قال فريد لنفسه إن الكنيسة تعجّ بالصور والتماثيل بالمقارنة بالكنيسة الكاثوليكية الموجودة في حارته.

عُلّقت على يمين المذبح لوحة ضخمة للقديس سيباستيان، نسخة من اللوحة الإيطالية الأصلية للرسام جيدو ريني، كما اكتشف فريد لاحقاً. وانتصب في المذبح نفسه تمثال رائع للمسيح، واصطفت نوافذ مقنطرة طويلة حول صحن الكنيسة.

أشار غابرييل إلى تلميذه بأن يمضي، بينما وجد لنفسه مكاناً مع التلاميذ الآخرين بالقرب من الباب. نظر فريد بحيرة حواليه إلى بحر الرؤوس الحليقة والأثواب السوداء باحثاً عن شخص يعرفه. هبت لإنقاذه إيماءة طفيفة من

الرأس وابتسامة خجولة. إنه مارسيل. شقّ فريد طريقه على طول المقعد الطويل وجثا على ركبتيه إلى جانب مارسيل وهمس قائلاً: «شكراً».

لم تدم الصلاة الليلية طويلاً. بعد ذلك، بدأ تلاميذ الدير والرهبان والآباء يخرجون بصمت وبانضباط في صف منظّم. تبع فريد مارسيل. في الباحة المظلمة تفرّق التلاميذ إلى مجموعات صغيرة وراحوا يصعدون الدرج صامتين إلى مهاجعهم. انتاب فريد شعور بقلق غريب. فقد بدأ قلبه ينقبض بشيء من الألم وشعر بأنه غريب ومنبوذ. ساد صمت مطبق في المهجع أيضاً. فتح فريد حقيبته وأخرج ثيابه الداخلية ووضعها في خزانته الصغيرة ثم اغتسل وأوى إلى الفراش.

كان قرابة مائة وعشرين من تلاميذ الدير الأصغر سناً ينامون في الجناح الغربي، وحوالي مائة من التلاميذ الأكبر سناً والرهبان المبتدئين ينامون في الجناح الشرقي، أما غرف الرهبان والآباء فهي تقع في الوسط بينها.

كانت ليلة معتدلة الحرارة، وبدا البحر أقرب في الصمت والظلام. لم يُغمض لفريد جفن لفترة طويلة. لم يكن المهجع مظلماً تماماً، لأن مصابيح صغيرة عديدة مثبّتة إلى الحائط ألقت ضوءاً كامداً.

بالقرب من مدخل كلّ مهجع، ينام راهب في غرفة صغيرة مؤثّثة بتقشّف على الطراز الإسبارطي، فيها سرير ومنضدة وخزانة للأدوية. كانت الزينة الوحيدة في الغرفة هي صورة لمريم العذراء منارة بضوء يومض، ويشرف على التلاميذ كلّ أسبوع راهب مختلف، ولم يُعفَ من أداء هذا الواجب إلا الأخ يوحنا.

وقف الراهب المشرف في أول ليلة يمضيها فريد هنا عند النافذة الكبيرة في الظلام مدة طويلة وراح يراقب المهجع. ثمّ بدأ جولته، ويتوقّف قليلاً بجانب كلّ سرير. أغمض فريد عينيه ولم يعد بإمكانه أن يتنفس جيداً.

«حاول أن تنام»، همس الراهب، ومضى. قال شيئاً بصوت منخفض لفتى في نهاية الممر بالقرب من دورة المياه أيضاً عندما فتح فريد عينيه ببطء قليلاً، لكنه سرعان ما اختفى.

twitter @baghdad_library

كم كانت الأوقات التي قضاها مع رنا جميلة، قال فريد لنفسه، «فما أروع طعم الحبّ ورائحته»، قالت له ذات ليلة. ضحك آنذاك. هل يا ترى تفكّر به الآن؟ لقد وعدته بأن لا تمر ساعة واحدة في حياتها من دون أن تفكّر به. كانت رنا تفي بكل وعودها باستمرار. أحسّ بالخجل عندما أدرك أنه ينساها لساعات كاملة.

بدأ الآن يفكّر بنهديها. لم ير شيئاً أروع منهما. فهما لا يشبهان تفاحتين أو رمانتين كما يرد كثيراً في وصفهما في الشعر العربي، بل كان نهدا رنا مشرئبين إلى الأعلى ومندفعين إلى الأمام قليلاً تتوجهما حلمتان تشبهان أطراف ليمونة. إن مجرّد رؤيتهما يثيره كثيراً.

استدار إلى جانبه، ودسّ اللحاف الرقيق بين ساقيه.

انسلّ البحر مبتعداً فوق نعال مخملية.

١٢٠- أيام الصيف

في صباح اليوم التالي أطلع مارسيل فريد على قصاصة معلقة على الباب فيها جدول مواعيد اليوم أثناء العطلة: «الساعة السادسة والنصف صباحاً استيقاظ. استحمام. ترتيب الأسرّة. ترك الخزائن مفتوحة. الأخ سيغلقها بعد تفتيشها. صلاة صباح قصيرة. تناول طعام الفطور. العمل. تناول طعام الغداء في مكان العمل. نهاية العمل الساعة الثالثة بعد الظهر. استحمام. دراسة صيفية بدءاً من الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. صلاة المغرب. العشاء. ألعاب. صلوات ليلية. موعد النوم. يوم الأحد حر».

أصبحت الأيام التي أعقبت ذلك تشبه بعضها بعضاً. ولولا أيام الأحد لفَقَد فريد إحساسه بالزمن.

خلال الأسبوع الأول، أُرسل فريد إلى العمل مع البنائين الذين يقومون بإصلاح أيّ ضرر في جدران الدير خلال أشهر الصيف. كان ينقل هو وتلميذان آخران في المدرسة مواد البناء. كان عملاً شاقّاً وهو يتسلّق سلالم

مرتدياً الثوب، حاملاً الأحجار والملاط، وكان عمال البناء الآخرون يسخرون من قلة مهارة الفتيان.

بعد أسبوع، نُقل فريد إلى ورشة الحدادة والأعمال المعدنية. كان المعلّم المسؤول عن هذه الورشة رجلاً صامتاً متواضعاً. أحس فريد بأن هذا العمل شاقاً أيضاً لكنه مثير للاهتمام. أحبّ الحداد ريمون الفتى مذ رآه أول مرة. أخبره بأنه هو نفسه كان كاهناً، لكنه أُغرم بأرملة شابة. وقد اعترف بذلك في الحال لرئيس الدير فسمح له مواصلة العمل في ورشة الأعمال المعدنية في الدير. بعد سنتين من زفافهما، ماتت زوجته أثناء ولادتها فربّى الصبي وحده. لكن عندما بلغ ابنه العشرين من عمره هاجر إلى أميركا، وأصبح ريمون يعيش وحده في القرية الواقعة عند سفح الجبل الذي يقع عليه الدير.

كان بإمكان فريد أن يمضي عطلة الصيف كلها بسعادة مع ريمون لكن ذلك لم يكن مسموحاً به. فقد تعيّن على كلّ تلميذ في الدير أن يأخذ دوره في العمل في مختلف الأعمال. بعد الحدادة جاء دور الزراعة. كان العمل مع الحصادين جحيماً حقيقياً لا يطاق، يسير وراءهم في الحقول يوماً بعد يوم تحت لهيب الشمس الحارقة التي استنفدت كلّ قوّته. انتابته نوبات هلوسة. كان الحصادون أقوياء عادة، وهم التلاميذ والرهبان الأكبر سناً ممن لديهم الخبرة في جزّ أنصال القمح بالمناجل، تسير وراءهم مجموعة من التلاميذ الأصغر سناً، يمتدون على جبهة واسعة، يجمعون أنصال القمح في حزم ويكدسونها فوق عربات لنقلها إلى البيادر، فيملأ الغبار الحار فمهم وأنفهم وتعلق القشور والقشّ المجزوز في ياقة قميصهم، ويتقرّح جلدهم من التبن الذي كان يحك رقابهم. كان يبدو أن تلك الأيام لانهاية لها.

ومرة تلو الأخرى، شعر فريد بعزلة خانقة، فلم يأبه تلاميذ الدير الأكبر سناً به، أما الفتيان الأصغر سناً فسرعان ما كانوا يبعثون الضجر في نفسه. ولم يستطع رؤية مارسيل وبعض الوجوه المألوفة الأخرى إلا عند العشاء، ولتعاسة حظه، لم يكن يُفرز للعمل في مجموعتهم. كان ذلك متعمّداً حتى

twitter @baghdad_library

يتعرّف كلّ تلميذ على التلاميذ الآخرين كما تقول إدارة الدير. «كي لا نتجمّع كعصبة ونرفض العمل»، فسر مارسيل ذلك.

في بعض الأحيان، خيّل إلى فريد أنه سيجنّ. فلم يشعر أن معظم الرهبان غرباء عليه فحسب، بل أن برنابا الذي يتجوّل في هذا الثوب، يحدّق فيه في المرآة بوجهه الذي لفحته الشمس وفروة رأسه المتقشرة، غريب عليه. امتلأت يداه بالبثور المؤلمة.

عندما نُقل فريد من الحصاد إلى العمل في ورشة النجارة، أحسّ كأنه فاز بجائزة لأنه يحبّ العمل في الخشب. كان معلّم ورشة النجارة رجلاً كئيباً لا ينبس بكلمة واحدة طوال اليوم، لكنّ صانعه الماهر يفهم كلّ إيماءاته وينقل فحواها إلى القادم الجديد.

في كلّ أمسية، يعتري فريد شعور بالفزع لرؤية تلاميذ الدير وهم يتناولون طعام العشاء راكعين في الممر الأوسط من قاعة الطعام لأنهم نبسوا بكلمة عربية ولم يستطيعوا حتى المساء من التخلص من هذا القرص اللعين المسمى «علامة» والذي يحمل حرف (S) باللاتينية. يبدو أن هناك ثلاثة أقراص صغيرة متداولة مع أن أحداً لم يكن واثقاً من ذلك.

«ماذا؟ حتى في العطلة؟» صاح فريد ساخطاً عندما رأى أحد التلاميذ يكاد يغفو من التعب، ولم يستطيع حتى أن يتناول طعامه. تدلت يداه المرخيتان المقرحتان كأنهما بلا حياة.

«إن العلامة لا تأخذ أي عطلة ولا تنام أبداً»، قال مارسيل الذي تلقاها في أحيان كثيرة، لكنه استطاع بذكائه أن يمررها بسرعة إلى تلميذ آخر. مرة واحدة فقط أخفق وتعين عليه أن يتناول طعام العشاء وهو جاث. اعترى فريد الفزع عندما سمع التلاميذ الجالسين بجانبه إلى نفس الطاولة يسخرون بغتة من مرسيل بصفاقة وبرود كأنه عدوهم. صاح بهم أن يسكتوا، لكنّهم واصلوا السخرية من صديقه.

كتلميذ جديد، لم يحق لهم تمرير القرص إلى فريد، لذلك لم يضطر

إلى الركوع إذا تحدث بالعربية، لكنه عندما يفعل ذلك، ينظر إليه الآخرون مذعورين كأنه جاء من كوكب آخر، أو كأنهم يشككون به بأنه يفعل ذلك للإيقاع بهم، لذلك لم يتكلم كثيراً، وسرعان ما أصبحوا يدعونه «الفتى الصامت». وقد أثبت له ذلك بوضوح أكبر الدرجة التي أصبح فيها هذا الفتى الخجول برنابا غريباً عنه، لأن فريد كان معروفاً بثرثرته في دمشق.

جعل الأب باسيليوس، معلّم اللغة الجيد، الدروس الفرنسية حيوية ومسلّية. في الواقع كان يبدو بوجهه الدقيق وأنفه الكبير المقوس مثل صقر، ما يمنح لمسة من الكوميديا على كلّ ما يقوله. وجد فريد سهولة في تعلم اللغة، وعندما بدأ يحلم باللغة الفرنسية أدرك أنه بدأ يحرز تقدّماً جيداً. أما دروس الموسيقى فهي أمر مختلف. فلم يكترث بالأب قسطنطين العصبي المزاج الذي تحيط به هالة من القلق الشديد، ولم يتمكن من التعامل جيداً مع الآلات الموسيقية. لا ريب أن الأب الشاب موسيقي عبقري، ويقال إنه ألّف عدّة تراتيل بالإضافة إلى المعزوفات الموسيقية التي تصاحب جميع المسرحيّات التي تؤدى سنوياً للاحتفال بعيد القديس أغناطيوس شفيع اليسوعيين ومؤسس رهبانيتهم. لكن شأن الكثير من العباقرة الآخرين، لم يتمكن من توضيح أي شيء للآخرين. وقال مارسيل لفريد إن هذا الموسيقار الذي لا يزال شاباً، يحبّ الطاهية جوزفين، وقد رشحها لأداء دور جان دارك.

في أحد الأيام، خطرت للأخ غابرييل الذي لا يزال يشرف على فريد، فكرة رائعة. ففي حالة اليأس من عدم تمكّنه من تحقيق أي تقدم في دروس الموسيقى، حدّثه فريد بمتعة عن تعلّمه فن الخطّ في دمشق، وأقنع غابرييل إدارة الدير بأن يتوقف عن أخذ دروس الموسيقى بعد الظهر، وأن يلتحق بدلاً عنها في دورة تعليم الخطّ العربي المتقدّمة لأنه يتقن القواعد الأساسية. كان فنّ الخطّ يحظى بتقدير كبير في الدير، لأنه على الرغم من أن اللغة الفرنسية هي اللغة المحكية يومياً والتي تلقى بها الدروس، كان القدّاس يُرتَّل باللغة العربية ويُرتَّل الكتاب المقدس بها. ودأب الرهبان على كتابة

twitter @baghdad_library

المنشورات التي يطبعونها في مطبعتهم بأحرف جميلة، وكانوا يبحثون دائماً عن موهبة شابة جديدة، لأن الدير كان يُكلف بأعمال طباعة هامة من جهات خارجية لسمعته الممتازة.

شكلت فكرة غابرييل الخلاص لفريد. فبعد نهاية آب، بدأت الحياة في الدير تصبح أكثر احتمالاً. كانت لدى الخطاط الأب ماكاريوس الذي يدير المطبعة أيضاً، واقعياً مثل آلات الطباعة، وخيالياً مثل الخطوط العربية، يد واثقة لا تتردد قط لجزء من الثانية عندما يخطط كلمات بالخط العربي الجميل كأنه يرى الكلمات التي سيكتبها على صفحة الورق الفارغة أمامه. بعد فترة وجيزة، أصبح فريد أبرز تلاميذه.

تبددت سحب الإحباط والرفض، وبدأ فريد يولي اهتماماً أكبر ببيئته المحيطة. ولمفاجأته، اكتشف الآن في نهاية شهر آب التلميذ بطرس الذي يجلس قبالته في قاعة الطعام والذي يتناول طعامه دائماً بصمت، وقلما كان يضحك. كان خجولاً وشكوكاً، لكن في بداية أيلول بدأ يحدّث فريد عن نفسه.

كان الأخان ماركوس ولوقا يجلسان إلى جانبي فريد. وهما توأمان مملّان مضى على وجودهما في الدير ثلاث سنوات، يقبلان باستمرار كلّ شيء ويوافقان كصبيين مطيعين.

كان مارسيل يعرف سبب ذلك. «عليهما أن يكونا مطيعين تماماً لأنهما جاءا إلى الدير بفضل المطران. فقد هرب والدهما إلى أمريكا ولا تستطيع أمّهما أن توفر لهما الطعام وهما هنا لأنها ابنة عم بعيدة للمطران. وخارج الدير فإن كلّ ما يتوقعانه هو أن يعملا في مصنع تعليب السمك وأن يتلقيا الضربات من عشاق أمّهما وهما يعرفان ذلك».

على الرغم من قصّتهما الحزينة، كان فريد يرى أنهما شقيقان مملان، وذات يوم أسرّ لمارسيل ما خطر له: أنه لو اضطر المسيح للجلوس بين هذين الصبيين في قاعة الطعام لما مات على الصليب بل لمات من الضجر.

١٢١- جان دارك

كان كلّ شيء متلألئاً ومشرقاً في عيد القديس أغناطيوس دي لويولا. فقد فُركت أرضية وأعمدة وجدران الباحة الداخلية بالفرشاة، وطلي موقف السيارات خارج الدير بطلاء أبيض، ونظّفت جميع النوافذ.

ثمّ أقيمت خشبة مسرح كبيرة للمسرحيّة التي تعرض عادة في ٣١ تموز تكريماً لمؤسس الرهبانية. وقد شكل هذا الإحتفال حدثاً عظيماً هنا في هذا الجزء المقفر من البلاد. فقد جهز أكثر من خمسمئة كرسي في الساحة لاستقبال المشاهدين، وصُفَّت مقاعد منجّدة في الصف الأمامي.

بعد الظهر تدفق جميع الموظفين والفلاحين والعمّال العاملين في الدير. ظل الجميع يتحدّثون عن مسرحيّة السنة الماضية *"Pietas victrix"*. كان عنوان المسرحية المترجم الذي علّق آنذاك فوق خشبة المسرح باللغة العربية «انتصار التقوى».

كان الأب صموئيل مدرّس اللغة هو الذي كتب المسرحيّة في العام الماضي، وألّف الأب قسطنطين الموسيقى، لكن أفضل جزء هو من ورشة الأب المبدع أنطونيوس الذي يدرّس مادة الفيزياء وحوّلت أفكاره الرائعة المسرحيّة إلى عرض جميل سحري أدخل البهجة إلى نفوس الجميع كأنها العاب نارية. فقد استخدم أسلاكاً فولاذية وأضواء ومؤثرات مسرحية لإنزال الرعد والبرق من السماء إلى خشبة المسرح، وحامت سيوف وملائكة وأطياف جنية بخفة في الهواء، فانقطعت أنفاس الجمهور. ووقف كذلك تلميذان من تلامذة الدير وراء خشبة المسرح ليجأرا ويعويا كالذئاب أو لينعقا كالبوم كما تطلبه موقف ما في المسرحية. كان مشهداً مرعباً حقاً جعل أبدان أكثر الأشخاص جرأة بين الجمهور تقشعر في العام الماضي. لذلك أتوا هذا العام أفواجاً ضخمة وهم يتوقعون مسرحية مثيرة.

أما مسرحيّة هذه السنة فهي «جان دارك». توقّع الجميع أن تكون مسرحية رائعة، لكنّ الرياح لم تجر كما تشتهي السفن. همس مارسيل في أذن فريد في منتصف النهار وقال: «يريد ثيودور أن ينتقم من معلّمه -إنه

twitter @baghdad_library

يكره الأب صموئيل». في نهاية تموز كانت العطلة لا تزال جارية، لذلك لم يتعرف فريد بعد على المعلّم أو عرف سبب حقد تلميذه.

«لماذا؟» سأل.

«لماذا؟ لأن صموئيل شنيع، لكن ثيودور مراوغ وسينفذ خدعته بذكاء شديد بحيث لا يتمكن أحد من معاقبته».

«كيف؟»

«لا أعرف تماماً، كل ما أعرفه هو أن الأب صموئيل يعذّب ثيودور المسكين منذ أربع سنين. وقد جعله يعيد سنة دراسية مرّتين، في الصفين التاسع والعاشر. فلا يمكنك أن تتقدم هنا إذا لم تحصل على درجات جيدة في مادة اللغة، وصموئيل مسؤول عن تعليم اللغتين الفرنسية والعربية. لقد بلغ ثيودور العشرين من العمر وهو لا يزال في الصف الحادي عشر».

في ذلك المساء، كان يبدو أن القديس أغناطيوس نفسه يريد أن يحتفل، فخفّف من شدة حرارة تموز اللاهبة. وسرعان ما أضاءت مشاعل القرون الوسطى خشبة المسرح، وعزفت آلتا كمان ألحاناً ناعمة، ثم بدأت المسرحيّة.

خيّم صمت مطبق على الجمهور. ارتفعت الستارة. اندفع جنود وفلاحون إلى الأمام وهم يصيحون «عاش البلد الكاثوليكي المؤمن، فرنسا، عاشت فرنسا كاثوليكية حرة!»، لكن الجنود الإنكليز دخلوا من جهة اليسار وهاجموهم، وقُدِّم مشهد مهيب لمعركة ضم أكثر من أربعين تلميذاً وراهباً.

انتصر الجنود الإنكليز، وسحب الجنود الفرنسيون قتلاهم وجرحاهم إلى إحدى الزاويا. تحولت الموسيقى إلى الحان بطيئة وثقيلة، وقلّد صوت غيتار قرع أجراس رتيبة من أجل الجنازة. تلا الجرحى صلواتهم الأخيرة، ومنحهم كاهن، أدى دوره طالب من الصف الثاني عشر، المغفرة.

ثمّ صعدت جان دارك إلى خشبة المسرح وأحبّ الجمهور كلّ ما قامت به وما قالته. كانت جوزفين تمثّل بطريقة رائعة. عندما قالت إنها تريد أن

تموت شهيدة في سبيل المسيح ومريم العذراء وفرنسا، جفف العديد من الآباء القساة القلوب دمعة طفرت من عيونهم ومخّطوا بصوت عال، بينما راحت النساء الجالسات بين الجمهور يجهشن في البكاء.

أعجب فريد بالطاهية التي رددت دورها المعقّد بلغة فرنسية ممتازة ففهم كلّ ما قالته. أحسّ بالانجذاب إليها.

عندما حان تتويج شارل السابع في كاتدرائية ريمس، جثت أمام الملك حاملة بيدها راية النصر وقالت: «يا صاحب الجلالة، لقد تحققت إرادة الله الآن». صفّق الجمهور عالياً وطويلاً فلم يسمع أحد ما قاله الملك رداً عليها.

بدأ فريد يشكّ في ما قاله مارسيل لأن كان قد مضى ثلاثة أرباع المسرحيّة ولم يحدث شيء. نظر إلى صديقه الجالس بعيداً عنه ببضع كراسي. رآه مارسيل وأومأ إليه بأن ينتظر، وألمحت ابتسامته العريضة إلى أن الضربة آتية لا محال.

بعد ذلك بقليل، هكذا تحكي الرواية، سُلمت جان دارك عبر خيانة للإنكليز. صاح الجمهور شاتماً كل الخونة، وبكى كثيرون عندما اقتيدت جان دارك وذُلت كسجينة، وأمر القاضي، وهو في المسرحية كما في التاريخ المطران بيير كوشون عميل الإنكليز بأن تُعذّب حتى تعترف بأنها ساحرة وملحدة، وقال إنها يجب أن تطلب من أتباعها الاستسلام للإنكليز، لكن جان دارك رفضت ذلك بشجاعة.

دخل المعذّب إلى المسرح، وعرف فريد من هو الشخص الذي يضع قناعاً على وجهه. أمسك ثيودور الطاهية من شعرها الأشقر الطويل ومدّدها على طاولة اتخذت أداة للتعذيب، ثمّ قيّد يدي جوزفين بحلقة معدنية كبيرة.

أحدثت التأثيرات الضوئية تقليداً رائعاً لنارٍ تشتعل في إحدى زوايا المسرح. كان هناك تلميذ ينفخ بمنفاخ لتصعد النار إلى الأعلى. التقط الجلاد أداة سوداء بشكل مثلث من هذه النار الوهمية: قطعة خشبية بحجم الجزء الأعلى من جسم جوزفين. كانت في زواياها الثلاث نتوءات حمراء غريبة الشكل. أخذ الجلاد المثلث إلى مقدمة المسرح وقال مخاطباً الجمهور

twitter @baghdad_library

«ستحرق هذه الكرات المعدنية المتوهّجة أعماق جسم الساحرة التي ستتمنّى لو أنها لم تولد قط».

ثمّ عاد إلى الطاهية ووقف بين ساقيها ووضع اللوح الخشبي في شكل مثلث على جسمها. استلقت زوايا المثلث على ثدييها وفوق هضبة فينوس لديها وراح يحرّكها إلى الأمام والوراء.

ساد الهدوء في القاعة بحيث أنه كان بوسع المرء سماع خفقات قلوب المشاهدين. حرّك المعذّب المثلث الخشبي مرة أخرى، وراح يضغطه بقوة فوق جسم جوزفين، ويصيح فيها «هيا اعترفي بأنك متحالفة مع الشيطان أيتها الساحرة! هيا اعترفي». بدأت الطاهية تئن. وبما أن فريد يعرف ويراقب بدقة عن قرب، فقد رأى أن ثيودور لم يعد يضغط باللوح على فرجها فقط، بل أخذ يحركه بحركات متذبذبة قليلاً في كلّ مرّة.

حاولت جوزفين أن تقاوم لتزيد من مصداقية المشهد. فتحت عينيها وتوسلت هامسة، «لا تفعل ذلك، أرجوك لا تفعل ذلك». لكن ذلك شجع ثيودور على المزيد.

«اعترفي أيتها الساحرة».

كانت الطاهية تردّ بتأوهات أعلى وأكثر جموحاً. أخذت تتلوى وتستدير للتملص من اليد التي تحرك المثلث على نحو رجراج، لكن ثيودور زاد من وتيرة حركته، فازدادت صيحاتها حماسة وتوقداً تردد صداها في أرجاء الباحة وشقّت طريقها مباشرة إلى أجساد الجمهور. نظر الآباء الجالسين في الصفين الأماميين حولهم محرجين.

وعلى ما يبدو أنها كانت على وشك أن تبلغ الرعشة. لم تعد الطاهية تطلب النجدة بل أخذت تتأوه وتئن «نعم، نعم، نعم». كان صوتها يكاد يستثير أحجار المبنى لترتعش مع الجمهور. نهض بعض الآباء والرهبان غاضبين وغادروا الباحة.

فجأة سمع الجميع صرخة عالية، هذه المرة لم تصدر من المسرح، إنما من نافذة إحدى الغرف العلوية. رفع الجمهور المنبهر أبصارهم إلى

الأعلى. كان يقف هناك طيف يتشح بالبياض ينيره إشعاع شيطاني. لجزء من الثانية خيّل إلى فريد أن ذلك جزءاً من المسرحية.

«أخرجوا كلّ هذا الزنا اللعين من المسرح! إن هذا من عمل الشيطان»، صاح المحتجّ العجوز.

نهض رئيس الدير مكسيموس بغتة من على مقعده وصاح باتجاه المنصة، «أسدلوا الستارة! انتهت المسرحيّة».

أُسدلت الستارة، وجلس الأب صموئيل، الخاسر الرئيسي في كل ذلك، محدودباً وحده في الصف الأمامي، بينما غادر الجمهور الباحة الداخلية. بعد ذلك لم يكتب مسرحيّة أخرى قط. وقرّر رئيس الدير مكسيموس إنهاء تقليد تقديم عرض مسرحي في عيد القديس أغناطيوس. في واقع الأمر جرت محاولة أخرى لعرض مسرحية أخرى بعد سنتين، بناء على طلب الجميع، لكن عندما فشلت أيضاً، انتهى عهد عرض مسرحيات تكريماً لمؤسس الرهبانية في عيده.

في ١ آب ١٩٥٣، بعد يوم من عرض مسرحية جان دارك، أزال تلاميذ الدير خشبة المسرح، وقدم فريد ومارسيل مساعدة للكهربائي.

«إنك تعرف أكثر مما تُظهِر»، قال فريد بهدوء، لكن بنبرة تأنيبية.

«نعم»، قال مارسيل، «كنت أعرف أن ثيودور اكتشف أن جوزفين تأتيها الرعشة بسرعة إذا ضغط قليلاً على هضبة فينوس لديها».

«هضبة ماذا؟» سأل فريد، كانت هذه أول مرة يسمع فيها هذا التعبير.

«هضبة فينوس»، أوضح مارسيل بتباهٍ، «هي ذلك المثلث المكسو بالشعر فوق فرج المرأة، هل فهمت؟» هزّ فريد رأسه، «وإذا فركت تلك البقعة قليلاً ولمست ثدييها، فإنها ستفقد صوابها بسرعة»، أضاف مارسيل، «هذا ما اكتشفه ثيودور عبر تجسسه على الطاهية جوزفين».

«ومن هو ذلك الرجل العجوز الغريب الأطوار الذي كان يصرخ من نافذة الغرفة العلوية؟» سأل فريد.

«سأخبرك في ما بعد»، همهم مارسيل.

twitter @baghdad_library

١٢٢- ليال في الخريف

أيلول شهر جني الثمار. انتهت حرارة الصيف القائظ، لكن كانت هناك أعمال كثيرة. فلم ينضج العنب فقط، بل أصبح التين والفواكه الأخرى جاهزة للتجفيف أيضاً. بدأ فريد يشعر برغبة متزايدة للخروج وتنشق هواء نقي وبات يكره البقاء داخل الورشة.

في بداية أيلول كُلِّفَ فريد بمهمة تجفيف التين. وعمل لمدة أسبوع في بيدر واسع مرصوف بحجارة بيضاء، رُصفت فيها حبات التين بلصق بعضها في شكل مستطيلات وتُركت ممرات ضيّقة بينها لتقليب الثمار مرة في اليوم حتى لا يطأها أحد.

نضج العنب في الوقت نفسه وجذب عدداً كبيراً من الحشرات مع أن الفراشات تحبّ التين. راح فريد الذي لم يجد صعوبة في العمل هنا يتتبع مسار طيرانها باهتمام. شعر بشيء من السعادة وهو يراقب الفراشات وهو قابع في ظلّ ملاذٍ بسيط من حرارة الشمس اللاذعة على شكل خيمة مصنوع من أغصان شجرة حور.

إلا أن شيئاً حدث بعد ذلك بات يطارده في أحلامه لسنوات طويلة. حدث ذلك في عصر يوم الثلاثاء. كان فريد جالساً في ظلّ ملاذه يتطلع إلى أسفل الوادي. كانت هناك حركة دائبة ذهاباً وإياباً في البيدر. كان هناك صف من ثلاثة بغال تنتقل المحاصيل منذ عدة أيام من البيادر، تجلب أكياساً ضخمة من التبن من البيادر إلى مخازنها في الدير. في الرحلة إلى خارج البيدر سار راهب على قدميه يقود البغال إلى أسفل التلة، وفي طريق عودته يمتطي أحد البغال ويقود البغلين الآخرين وراءه بواسطة حبل.

أما الآن فقد أخذت البغال تتسابق عند المنحنى وتجري بسرعة كبيرة، فلقد اشتعل التبن على ظهورها.

ملأت السماء صيحات فظيعة. اختفت البغال في الوادي المؤدي إلى البحر التي بدا أنها جرت لتصل إلى الماء لتطفئ نفسها، فلم تتجه نحو الدير بل جرت إلى القرية. اشتعل كوخان من أكواخ الفلاحين وداست البغال امرأة

عجوزاً حاولت أن توقفها فماتت. لم تتوقف البغال عن الجري حتى وصلت إلى البحر في أسفل الوادي. هربت الدابة التي اشتعل عُرفها لأنها ألقت حملها المشتعل وأنقذت نفسها في اللحظة الأخيرة، ونفقت الدابتان الأخريتان بطريقة مروّعة من الحروق التي أصابتها. ذكرت الإشاعة التي انتشرت في الدير في ذلك المساء أن الحريق متعمد وأن التبن منقوع بالبنزين. لم ينم فريد جيداً في تلك الليلة، واعترته كآبة لأيام عديدة. لم يعرف أحد قط من يقف وراء الحادثة.

«أتريدين أن تعرفي كيف هو حالي؟» همس فريد في إحدى ليالي أيلول، مفعماً بالشوق لرنا. «ليس الأمر في غاية السوء. لديّ ثلاث ركائز تساندني هنا. ماذا؟ نعم، تساندني، مثل السيقان. غابرييل ومارسيل وبطرس، وإذا أصبحت لي ساق رابعة فإني سأتحول إلى حمار. لا، ليس إلى طاولة، بل إلى حمار، إني أحبّ الحمير»، همس في هاتفه المتخيّل، ثمّ ابتسم لهذه الفكرة التي طرأت له، ولم يدرك قط أنه تفوه بنبؤة للتو.

كانت الساق الرابعة هي بولس.

١٢٣- المحقّق

استمرت العطلة حتى مطلع تشرين الأول. بعد أسبوع من عيد الصليب المقدّس في ١٤ أيلول، عاد فريد للعمل مع البنائين الذين يصلحون الآن صدعاً واسعاً في جدار الدير. كره المشرف السادي إلى حدّ أنه انتابته تشنجات في معدته عندما اتّجه إلى موقع العمل. كان يعمل معه في فريق العمل أربعة تلاميذ من الصف الثامن والتاسع، لكن لم تمض ساعة حتى تحالف الأربعة مع المشرف ورجاله ضد فريد. بعد قليل كانوا جميعاً يقفون معاً فوق السقالة ويسخرون منه.

كان فريد يعرف أن رفض العمل سيجلب له عقاباً شديداً، ويُسجّل في سجلات الدير ولن يُحذف مطلقاً. هل الأمر جدير بكل ذلك؟ هل ينهار تجاه ذلك المشرف القبيح الرديء الواقف على السقالة؟ صرّ على أسنانه

twitter @baghdad_library

وقال لزملائه التلاميذ بصوت منخفض، «أيها الخونة الجبناء، سيأتي اليوم الذي أحاسبكم فيه». قالها دون أن يدري كيف يمكنه محاسبتهم. كان كل ما فعلوه هو أنهم ضحكوا بصوت أعلى. عندما سمع المشرف ما قاله فريد ألقى سلة الحجارة من على كتفه وصاح به «لا أحبّ أن أسمع وقاحة ضد الصبية الطيبين الذين يعملون معي. هيا اجلب أحجاراً أكبر».

عندما جرّ فريد السلة الفارغة وراءه وسخرية الطلبة والمشرف تنهال على ظهرة كالسياط، بدأت الدموع تنهمر من عينيه. فجأة رأى تلميذاً يكبره بأربع أو خمس سنوات واقفاً وراء شجرة رمان.

«تعال»، ناداه.

«هل تقصدني أنا؟» سأله فريد غير متأكد.

«طبعاً»، أجاب التلميذ وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وأضاف «أعطني تلك السلة وراقبني».

لوهلة خيّل إلى فريد أنّ الفتى الذي يكبره لم يكن إلا ملاكه الحارس في ثوب راهب.

«اسمي بولس»، قال التلميذ وأخذ منه السلة. ملأها بالتراب وحملها على كتفه فأخفت وجهه. كان تلاميذ الدير المتكئين إلى السقالة يضحكون فلم يروه. اتجه بولس نحوهم بسرعة وأفرغ محتويات السلة فوق رؤوسهم. فوجئ التلاميذ بذلك وراحوا يسعلون ويبصقون وينفضون التراب عن أثوابهم. صاح أحدهم بأنّه سيقدم شكوى ضد بولس. بدا أن هذا ما ينتظره بولس فوثب على الفتى ولوى ذراعه وراء ظهره.

«تعال إذاً لنذهب إلى رئيس الدير مكسيموس ويمكنك أن تخبره بأنكم شكلتم عصابة تنابل ضد أخوكم برنابا وتحالفتم مع عمّال البناء القذرين هؤلاء، وأنكم كنتم تتفرجون وتضحكون عندما كانوا يعذّبونه. ماذا تظن سيكون ردّ رئيس الدير مكسيموس على ذلك؟» سأل بولس الفتى وضربه على رقبته. أخذ التلميذ يتوسل له بأن لا يأخذه إلى رئيس الدير.

«إذاً عليك أنت ورفاقك الأغبياء الاعتذار من برنابا»، قال له بولس

وأفلته. «وكل ما أريد أن أقوله لك»، أضاف ملتفتاً إلى المشرف على العمال «هو أنك إذا عاملت أحد الصبية معاملة سيئة مرة أخرى فثق بأنني سأجعل رئيس الدير يطردك، أعدك بأنني سأفعل ذلك وتخسر يا غبي لقمة عيشك. من أنت ياقذر حتى تعذّب أبناء العائلات؟».

شحب وجه الرجل وأصبح رمادياً مثل لون الإسمنت الذي يعمل به، ولم يفه بكلمة واحدة بل هز بذل رأسه فقط.

«حسناً، يمكنك أن تمضي الآن بضعة أيام بسلام مع هؤلاء الجرذان»، همس بولس لفريد وذهب.

في ذلك المساء، بحث فريد عن ملاكه الحارس في قاعة الطعام، ورآه جالساً إلى طاولة في الصف الحادي عشر منهمكاً في الحديث مع رفيق له. توجّه فريد إليه وربّت على كتفه من الخلف وقال له: «شكراً جزيلاً». التفت بولس إليه وابتسم له.

«آه، هذا أنت! هل كلّ شيء على ما يرام؟»

«نعم شكراً لمساعدتك»، أجاب فريد.

«لم أفعل شيئاً. لم يكن بإمكاني أن أقف مكتوف الأيدي وأتفرج على الطريقة التي يعاملونك بها».

قرع الجرس وعاد فريد مسرعاً إلى مكانه، ثمّ قرع الجرس مرة أخرى فنهض جميع التلاميذ لتلاوة صلاة المائدة.

منذ ذلك اليوم أصبح يلتقي بمنقذه كل يوم وفي كلّ لحظة فراغ لديه. كان بولس ذكياً وماكراً لكنه شديد الريبة. قال إنه فخور بأصوله السورية لكنه يكره العرب لأنهم مجرد بدو دمروا حضارة أجداده الفينيقيين والآشوريين العظماء بسيوفهم. لم يفهم فريد شيئاً مما قاله.

لم يكن بولس كثير الكلام، ولم يسع أحد أن يعرف بماذا يفكر، لكنّه بدا دائماً أنه يعرف ماذا يفكر الآخرون. وعندما ترى عينيه البراقتين فإنك تتأكد من أنه لا يخشى شيئاً.

twitter @baghdad_library

«إذاً لماذا أنت هنا؟» سأل فريد في إحدى أولى جولاتهما معاً في حدائق الدير.

لم يشأ فريد أن يتحدّث عن احتراق شجرة الدردار في معلا، وقال: «أراد أبي أن آتي إلى هنا»، وأضاف، «لم يستطع هو أن يصبح عالم لاهوت لذلك أراد أن أحقق له أحلامه. أخشى أن أخيب أمله، فأنا لم أخلق لمثل هذه الحياة هنا»، هزّ كتفيه بلا مبالاة.

«ولا أنا» قال بولس، «لكن يجب أن أتحمّل ذلك لأن زوج أمّي لن يسمح لي بأن أعود إلى بيته. فقد أدخلني إلى هذا الدير لينفرد بأمّي، لأني كنت أقف عائقاً في طريق هذا السادي الحقير. يجب عليّ أن أبقى هنا حتى أحصل على الشهادة الثانوية وبعد ذلك أريد أن أدرس الحقوق».

«لماذا الحقوق؟»

«إذا حصلت على شهادة الحقوق فسيكون بإمكاني أن أصبح ضابطاً برتبة عالية في الشرطة أو قاضياً، وسأكون سعيداً بأي منهما»، أجاب بولس زاماً شفتيه، شارداً في مكان بعيد، كان بوسع فريد أن يتخيّل أن بولس يعذّب زوج أمّه في هذه اللحظة.

في نهاية أيلول كتب فريد لأمّه أول رسالة طويلة. كانت رسائله إلى والديه حتى الآن تتألف من خمسة أسطر من العبارات المعروفة المهذبة التي يؤكد لهما فيها إنه بخير، أما الآن فقد أراد أن يحكي القصة كلها.

عزيزتي كلير، يا أغلى أمّ،

أنا في صحة جيدة. يتعلم المرء أشياء كثيرة هنا، ولاسيما اللغة الفرنسية. وقد أصبح لدي أصدقاء هنا، أحدهم يدعى مارسيل يتمتع بروح مرحة، وآخر يدعى بطرس وهو صديق جيد، والثالث يدعى غابرييل وهو رجل ذكي، والرابع هو ملاكي الحارس وإسمه بولس. أنا آسف، لا يمكنني أن أخبرك بأسماء عائلاتهم لأنها لا تُستخدم في الدير هنا. يبدو لأنها أسماء

غير دينية، لذلك فأنا برنابا بالنسبة للجميع إلا لي، ولا يمنح الدير الاسم نفسه مرّتين قط لكي لا يختلط الأمر على أحد.

إن مارسيل أكثر أصدقائي تسلية وهو يتمتع بخفة دم، وبولس أكثرهم إثارة للاهتمام. ولبولس علاقة طيبة وحميمة مع أمّه، لكن علاقته سيئة للغاية مع زوج أمّه. لقد قُتل والده عندما كان صغيراً. أليس هذا أمراً مخيفاً وفظيعاً؟ ولايسمح زوج أمّه لها بزيارة ابنها في معظم الأحيان. إنه يشتاق إليها، لكنّه ملاكي الحارس.

لقد أردتُ أن أكتب إليكِ لأعلمكِ بأنني لم أختنق بعد حتى الموت في هذا الدير الكئيب، وبأنني أحبّك وأشتاق إليك كثيراً. أشتاق يومياً إلى طبخاتك أيضاً، مقارنة بالطعام الذي يقدمونه لنا هنا. يبدو أنهم يعتبرون أن التمتّع بالطعام الجيد خطيئة مميتة. إني أصلّي من أجلك في كلّ يوم يا أمّي، وأسأل الله أن يغفر لك خطايا تمتّعك بالحياة. تحياتي إلى أبي.

ابنك في المنفى

فريد

في اليوم التالي، استدُعي فريد لمقابلة أحد الآباء الذي لم يكن قد رآه من قبل، وهو الأب إسطفان. عندما أخبر بولس بذلك، تجهّم وجهه وسأله «هل كتبتَ رسالة لأحد؟» فانتاب فريد الفزع.

«إنهم يسمّونه إسطفان المحقّق»، قال بولس موضحاً، «فهو يراقب جميع الرسائل. لا تقلق، لكنهم سيعيدون لك رسالتك. فقد حدث ذلك مع جميع التلاميذ - إنها معمودية النار. لكن الأغبياء فقط هم الذين يقعون بين يدي المحقّق مرة أخرى، لأن رائحة فمه تكفي لعلاج الحماقة من تلقاء نفسها».

كان الأب إسطفان يطابق كثيراً سمعته، فقد كانت تعابير وجهه متجهّمة على نحو مخيف، وتنبعث من فمه رائحة كريهة جداً تجتاز المسافة الفاصلة بينه وبين فريد والتي تجاوزت في ذلك النهار المتر. ظن فريد أن جثة متفسخة تقبع في أعماقه.

twitter @baghdad_library

بدأ حديثه قائلاً «يجب أن تسلّم رسائلك»، وأخرج صفحة مطوية من مغلف مفتوح، تعرّف منه فريد على خط يده، «يجب أن تقدم رسائلك لنا في مغلفات غير مغلقة في المستقبل، وسنكون سعداء بأن ننصحك كيف تكتبها، للتأكد من أنه لا يوجد فيها شيء يثير قلق والديك، ويمكننا أن نشير إلى الأخطاء الإملائية التي ترتكبها. وهنا يوجد عدد من الأباطيل»، قال ببطء، نافثاً هواء من المقبرة في داخله، «فأولاً: إن غابرييل هو أخ وليس رفيقك في اللعب؛ وثانياً، إن اسمك برنابا وليس فريد؛ وثالثاً، إن المبالغات لن تؤدي إلا إلى تشويش عقل والديك. إن بولس تلميذ هنا وليس الملاك الحارس لأحد؛ ورابعاً، إنك تقول إن الحياة كئيبة هنا، وهذا غير صحيح. إن كنت تشعر بالملل فهناك أشياء كثيرة يمكنك القيام بها للصالح العام. يا بني، لا أريدك أن تجعل والديك يقلقان لمثل هذه المبالغات؛ وخامساً، أرى أنك في أحسن أحوالك الصحية، لذلك لماذا تقول إن الطعام سيء. يجب أن تصف الحياة هنا بصدق وبإيجابية».

خنق الغضب الكلمات في حنجرة فريد. أخذ رسالته من يد المحقّق واندفع خارجاً، وطفرت الدموع من عينيه.

«إنهم يفتشون كلّ شيء، لكنّ يجب أن تكتب لأهلك ستّ مرات في السنة على الأقل»، قال بولس الذي كان ينتظره في الخارج. «هذا الأمر إلزامي، والذي لا يكتب يلفت انتباههم ويشكّون بأنه يهرّب رسائل».

«حسناً، لن أكتب إذا كان ذلك الغول سيقرأ كلّ ما سأقوله لأمّي بصورة شخصية. هذا ليس. . .».

«يجب أن تكتب»، أجاب بولس، «حاربهم بأسلحتهم. اكتب رسائل لا تقول فيها أموراً كثيرة، وإن أردت أن ترسل رسالة حقيقية سرّاً فاعطني إياها، وستكون في دمشق في اليوم التالي»، ابتسم بولس.

«حقا؟» سأل فريد مرتاباً.

هز ملاكه الحارس رأسه.

بعد يومين استدعاه ثانية الأب إسطفان الذي تملأ غرفته رائحة نتنة، «يا

بني، وصلت اليوم رسالة موجّهة إليك من شخص يدعى رنا شاهين»، قال لفريد، «ولمصلحتك ولمصلحتها فقد أتلفنا الرسالة. ولا يُسمح بأن تتلقى رسائل إلا من أفراد أسرتك المباشرين».

أراد فريد أن يوجّه ضربة للأب إسطفان يحطم فيها أسنانه الصفراء، لكنه ابتلع الأمر ولم يقل شيئاً. لقد ساعده دعم بولس له كثيراً. فقد كتب لرنا رسالة عاطفية قال لها فيها إنه يحبّها ويفكّر فيها في كل لحظة في اليوم، وأضاف أن الرسالة التي أرسلتها احتجزتها إدارة الدير، ومن الأفضل ألاّ تكتب له حتى يجد وسيلة لحلّ هذه المشكلة. لكنه طلب منها أن تكتب له في الليل، فعلى الرغم من المسافة التي تفصل بينهما، فإنه سيسمع صوتها.

ثمّ طوى الرسالة ووضعها في مغلف وكتب عليه كلمة واحدة «رنا». وضع هذه الرسالة في رسالة ثانية معنونة إلى ليلى، نفّس فيها عن شدة غضبه على الرقابة في الدير، وطلب منها أن تمرر رسالته إلى رنا وأن تؤكّد، في رد يعطي الانطباع بأنه من عمّته ملكة، بأن صديقته استلمتها حقاً، وأن تكتب الجملة التالية: «لقد أكرمتني مريم العذراء، ونجحت عمليتي الجراحية». أعطى الرسالة لبولس ووعده بأن يعيد له الليرة التي دفعها لسائق الحافلة لقاء إيصالها بأسرع ما يمكن.

كان قادراً على عمل ذلك عندما زارته أمّه بعد أسبوعين. همس لها بأنه على الرغم من أنه لا يسمح بذلك في الدير، فإنه بحاجة إلى نقود. كان الراهب المشرف على الزيارات رجلاً دمثاً يقف في الجانب البعيد من الغرفة مولياً ظهره لهما طوال الوقت، ينظر من النافذة.

بسرعة البرق أعطته كلير مائة ليرة.

«كلّ هذا المبلغ؟» قال فريد مندهشاً.

«لا شيء كثير عليك إذا كان سيساعدك. كن كريماً لأن ذلك سيفتح أمامك الأبواب».

علم أيضاً من كلير في هذه الزيارة أن ابنة عمته ليلى تزوجت عازف

twitter @baghdad_library

كمان، لكنها أصرّت على الرغم من حزن أسرتها على عدم رغبتها في إقامة حفل زفاف.

«كيف يبدو زوجها؟» سأل فريد.

«حسناً، إنه لعالم غريب. مائة رجل على استعداد لتقديم أيّ شيء مقابل الزواج من ليلى، لكنّها لم تُلق بالاً لأيّ منهم ومنحت قلبها لعازف الكمان هذا».

«نعم، لكن كيف يبدو؟»

«لا يعجبني إطلاقاً. لديه نظرة ماكرة وهو مرائي يطري الناس كثيراً. إنه كسول لكن ليلى ستحصل على ميراث جيد يكفي ثلاث عائلات».

أحسّ فريد بخيبة أمل على نحو غريب. لماذا لم تخبره ليلى بذلك؟

ابتسمت كلير بشجاعة عندما ودعته، على الرغم من معرفتها بتعليمات الدير، التي لا تسمح لها بزيارة إبنها مرة أخرى إلا بعد سنة. تكدّر فريد أياماً عديدة بعد زيارتها.

١٢٤- بحّار في سفينة غارقة

بدت الحياة في الدير أكثر صعوبة وخطورة كلما ازداد فهم فريد لها. وبدأ يستغرب على نحو متزايد كيف تعامى عن العواطف المتأججة حوله خلال الشهور القليلة الأولى. كان فريد يشعر كأنه بحّار نجا من سفينة غارقة وقد جرفته أمواج عاتية في بحر عاصف.

خيّل إليه أن الدير مكان يعمّه الهدوء وتسوده الطمأنينة. لكن الأمر لم يكن كذلك في دير القديس سيباستيان. وكأن الآباء وتلامذتهم، بانسحابهم من العالم، قد فتحوا الأبواب لتلك العواطف التي يريدون حماية أنفسهم منها داخل جدران الدير. وكلما أمعن النظر فيها ازدادت الحدود بين الحب والكراهية غموضاً وضبابية.

وقد دُهش فريد نفسه للسرعة التي دخل فيها غابرييل ومارسيل وبطرس وبولس إلى قلبه بحرارة. وعرف أن روحه يمكن أن ترتكز على تلك الأسس

الأربعة. وبخلاف ذلك، كانت علائم المودّة التي يغدقها عليه ماركوس، أحد التوأمين، تثير فزعه. فقد كان الفتى يتحدث عن وحدته بعينين متقدتين محمومتين. وقد أخبره مارسيل في ذلك المساء أن ماركوس يفضّل لو أنه وُلد فتاة.

لكن الكراهية الشديدة التي لاحظها فريد في الدير أثارت فزعه أكثر مما أزعجته مودة أشخاص له لا يشعر تجاهم بأي شعور. انتشرت الكراهية كالهواء في كل مكان، فوجد على الدوام تلاميذ يتعرضون للضرب المبرح في دورات المياه. وشيئاً فشيئاً، وبمساعدة مارسيل وبولس، اكتشف أن دورات المياه هي أفضل مكان لتصفية الحسابات القديمة. لم تكن كل المراحيض خطيرة بنفس المقدار، فعلى الرغم من أنّهم جميعاً ليسوا معرضين للمراقبة، ازداد الخطر كلما كانت المراحيض معزولة، وكلما قل عدد روادها. أما المراحيض الموجودة في الطابق الثاني فإن معظمها عرضة للخطر أثناء النهار لأنه لا يرتاد أحد الطابق الثاني كله في ساعات النهار، أما في الليل فإن المراحيض الموجودة في القبو هي الأكثر خطراً، حيث تجري فيها تصفية الحسابات الثقيلة. ودورات المياه القائمة في الطابق الأرضي هي الأمكنة التي يجري فيها حلّ الخلافات البسيطة، أما أكثر دورات المياه أماناً فهي التي تقع في الطابق الأول القريبة من مكاتب الإدارة وغرفة رئيس الدير، ويطلق التلاميذ الآخرون على التلاميذ الذين يرتادون دورات المياه تلك باستفزاز «القطط المذعورة»، وكان مارسيل أحد تلك القطط المذعورة، لكنه لم يعبأ بذلك.

«أريد، في هذا الدير الخرائي، على الأقل أن أستلذ بسلام بخراء»، قال وهو يضحك من نفسه.

مضى وقت طويل قبل أن يدرك فريد أن التلاميذ الآخرين يعتبرونه جباناً أيضاً. في البداية، طلب بولس من فريد ألا يبدو خائفاً لأن ذلك سيشجّع، حتى التلاميذ الأكثر جبناً، على التعدّي عليه، وطمأنه بأنه يستطيع استخدام دورات المياه الكائنة في الطابق الأرضي، لكن قلبه يزداد خفقاناً كلما رأى

twitter @baghdad_library

ثلاثة أو أربعة تلاميذ يضربون تلميذاً آخر، لذلك يسرع إلى الطابق الأول. كما حذّره بولس بألاّ يتدخّل، والأكثر من ذلك، ألاّ يشتكي لأحد المشرفين.

لم يتدخل فريد إلا مرة واحدة فقط فلقد وجد نفسه متورطاً في ذلك. ففي أحد أيام السبت، جرّ ثلاثة تلاميذ من الصف التاسع مارسيل إلى دورات المياه في القبو. كان فريد يقرأ حتى وقت متأخر في المكتبة الواقعة أيضا في القبو، وكان يُسمح بذلك أيام السبت فقط. أحسّ بالحاجة إلى الذهاب إلى دورات المياه وسمع فجأة ما يحدث لمارسيل. وعلى الفور، ألقى بنفسه فوق الفتيان الثلاثة وراح يضربهم ويصيح. في البداية، حاولوا مهاجمته أيضاً، لكن عندما علا صراخه، هربوا قبل أن يلاحظ الرهبان والتلاميذ الموجودين في المكتبة ما يحدث.

«لماذا ضربوك؟» سأل فريد مارسيل عندما أصبحا وحدهما.

«لقد ضربت وأهنت الصغير فيهم، فهو نمّام شنيع»، أجابه مارسيل «في البداية كمنت له حتى رأيته أخيراً جالساً في دورة المياه في الطابق الأول. ثمّ ألقيت صفيحة مليئة بالبول على رأسه من الأعلى، فذهب وأحضر ابن عمه وأحد أصدقائه للانتقام مني»، قال مارسيل مبتهجاً.

لم يفهم فريد شيئاً من ذلك، وفجأة بدا له مارسيل غريباً. مارسيل ابن عائلة أرستقراطية غنية، محاطاً بالخدم في بيت أهله، لم يحتج في طفولته إلى التشاجر مع أحد أو إهانة أحد وعلى عكس ما يتوقعه المرء ملك هذا الفتى لساناً لاذعاً يستفز الآخرين بكلمات بذيئة سوقية لكنه لم يكن بإمكانه أن يدافع عن نفسه بعد ذلك في أي عراك. في تلك اللحظات كان فريد يمتلأ شعوراً بالفخر بأصدقائه في حي العبارة الذين ربوه ودربوه على العراك. أثناء الطعام كان الصبية الآخرون الذين يحبون الاستماع إلى قصص مارسيل، يسرقون من صحنه أفضل قطع اللحم، أو يضعون خلسة قطع الدهن التي يقرفون منها في صحنه فيتناولها وهو شارد الذهن. ظل فريد يراقب هذه اللعبة المقرفة بضعة أسابيع قبل أن ينفد صبره. ألقى الشوكة من

يد تلميذ كان قد التقط فيها قطعة جيدة من اللحم من صحن مارسيل وضربه بشدة على يده حتى أعاد القطعة للصحن. صرخ الطالب.

«ما هذا الصراخ؟ ماذا يجري هناك؟» تساءل الأب باسيليوس المشرف على المنصّة في ذلك اليوم.

لم يجب أحد.

كان على فريد أن يقبل أنه لم يعد لدى غابرييل المزيد من الوقت يمضيه معه، فلم يعد مشغولاً بالتعليم فقط، بل أصبح أيضاً يرأس مجموعة دراسية منتقاة في القاعة الكبيرة يتناولون فيها موضوعاً عن عهد المسيحية المبكّرة والمسيحيين الأوائل عصر كلّ يوم سبت. كان مارسيل وبولس يسخران من الذين يشاركون في هذه المجموعات الذين يبدو أنهم يمضون وقتهم في الرقص ويشبكون أيديهم بأيدي بعضهم ويتناولون كميات كبيرة من الخبز والنبيذ. لم يكن بولس يحبّ غابريل وكان يقول: «إنه أفعى تتسلل بين الأعشاب، ملساء من الخارج، سامّة من الداخل». وكان ينتابه الشك في أن غابرييل يرأس جمعية سرية، ويدير الدير كله تحت ستار أنه راهب بسيط.

«سأوقظك في الليل وسأريك شيئاً»، قال مارسيل بصوت منخفض وهما يهمّان بمغادرة قاعة الطعام، بعد ثلاثة أيام من المشاجرة التي جرت في دورة المياه.

«لماذا في الليل؟» سأله فريد.

تطلع مارسيل حوله بحذر ليتأكّد من عدم وجود وشاة يترصّدونه «لا يمكن عمل ذلك أثناء النهار لأنهم سيكتشفون ذلك».

«هل أظل مرتدياً ثوبي؟»

«لا، يمكنك أن ترتدي منامتك وتتظاهر بأنك تنام وسأحضرك عندما ينام الراهب المشرف».

بعد منتصف الليل لكزه مارسيل من دون أن يصدر صوتاً. قفز فريد ولحق بصديقه بصمت. اجتازا غرفة الغسيل ثم دخلا من باب لم يلحظه

twitter @baghdad_library

فريد من قبل يفضي إلى درج. شمّ فريد رائحة هواء رطب. كان قلبه يخفق بقوة.

«سنصعد إلى الطابق العلوي»، همس مارسيل. قبل أن يسأل فريد المزيد من الأسئلة بدأ مارسيل يصعد بسرعة الدرج الصغير الملتوي. أصدرت الدرجات الخشبية صريراً تحت قدميه. أسدلت وراء الباب في الأعلى ستارة ثقيلة تعزل الطابق العلوي عن صحن الدرج. عندما أزاح مارسيل الستارة، رأى فريد أن الطابق في الجانب الآخر لم يكن مظلماً تماماً. كان ضوء الشموع يومض في أربع مقصورات صغيرة. تسمّر فريد في مكانه، عندما رأى أشخاصاً قابعين في مقصورات أبوابها شبك من قضبان حديدية تذكر بزنزانة سجن يمكن كل من يريد رؤية كل ما بداخل المقصورة، رهبان طاعنون في السن جفّت أجسامهم ويبدون كأنهم خرجوا للتو من إحدى لوحات القرون الوسطى. كان أحدهم جاثياً أمام صورة، عرف فريد على الفور أنه الرجل الذي كال الشتائم من نافذة الغرفة العلوية خلال عرض مسرحية جان دارك. كلّ ما استطاع فريد أن يتبيّنه في الصورة هو المسيح على الصليب. في المقصورة الثانية تمدد راهب أصغر سناً، منبطح على بطنه، وقد بسط ذراعيه كأنه مصلوب على صليب وهمي. رجل عجوز يصل شعره حتى كتفيه يجثم في المقصورة الثالثة مقيّداً بسلاسل إلى عامود. وفي المقصورة الرابعة يقبع راهب مستغرق في قراءة كتاب مفتوح على حامل أمامه عليه شمعة ضخمة. كانت هناك مقصورتان أخريان فارغتان مظلمتان، باباهما مفتوحان، بينما كانت أبواب المقصورات الأخرى مغلقة، لكنها لم تكن مقفلة.

«من هم هؤلاء؟»

«مجانين. هيا بنا نذهب لأن الآخرين بانتظارنا»، قال مارسيل وقاد فريد في دهليز ضيّق واجتازا بضع قطع من الأثاث وبعض الأدوات والقدور والمقالي الكبيرة المهملة.

«مجانين غير خطرين جاؤوا إلى هذا العالم متأخرين بضعة قرون. فقد

كان الشخص المستلقي علي الأرض وكأنه مصلوب لاهوتياً مشهوراً، لكن عندما بدأ يتحدث مع الله أُلقي به هنا مع الآخرين كما ترمى قطع الأثاث المهملة هذه»، قال مارسيل مشيراً إلى خزانة قديمة.

عندما غادرا الجناح الغربي ووصلا إلى الممر الأساسي، همس مارسيل إنهما يسيران الآن فوق غرف النوم التي ينام فيها الرهبان والآباء.

«لكن لاتقلق، فهم لا يسمعون صوت قطيع فيلة هناك، لأن السقف معزول جيداً، عندما لم يتمكنوا من تدفئة غرف النوم في الطابق الثاني في الشتاء، عزوا ذلك إلى ارتفاع الغرف، فأقاموا سقوفاً مصطنعة أوطأ ومعزولة جيداً أيضاً يفصل بينها في الطابق الثاني وبين أرض هذا الطابق الثالث أكثر من متر»، قال مطمئناً صديقه، «وكلّ ما يسمعونه في غرفهم هو صوت الفئران والجرذان التي تتساقط من شقوق في أرضية هذا الطابق وتعلق فوق السقوف الاصطناعية حتى تموت لأنه لا توجد لديها وسيلة للخروج من الفخّ. تموت موتاً بطيئاً مريعاً من الجوع».

تناهى إلى سمع فريد همس خفيض وراء كومة كبيرة من قطع الأثاث القديمة. توقّف متسمّراً في مكانه، لكن مارسيل شدّه من كمّه وقال: «تعال، هؤلاء هم أصدقائي».

كان خمسة فتيان أكبر سنّاً يجلسون في كوّة وراء خزانات على أرائك قديمة وكراسي ذات مساند. يدخنون ويشربون نبيذاً من كوب كبير يمرّرونه بينهم في دائرة. وعلى الطاولة التي تتوسط المجموعة، كانت هناك شمعة تحترق فوق صحن كبير من القصدير، وإلى جانبها وضعت صور نساء عاريات تعود إلى عشرينات القرن العشرين. ورأى فريد بطاقة مهترئة أخرى كتب عليها «نادي ليلي».

«هذا صديقي برنابا، إنه مجنون آخر، يجب أن يكون عضواً في نادينا الليلي»، قال مارسيل. اضطر فريد لأن يبتسم.

«هل يمكن الوثوق به؟» سأل فتى نحيف، وراح يتفحص فريد بارتياب.

twitter @baghdad_library

«إنه صديق موثوق وشجاع»، أجاب مارسيل وجلس على أريكة كبيرة، ثم أشار لفريد بالانضمام إليه.

كان مارسيل يحظى بتقدير في هذه الدائرة، فلم يستفزه أحد أو يسخر منه. نفث فريد السيجارة التي تدور بينهم، لكنه أخذ يسعل من نكهتها الحادة الغريبة. أما النبيذ فكان حلواً لزجاً.

أمضوا زهاء ساعة هناك يلقون نكاتاً عن الآباء والراهبات. كان الطابق العلوي تحت السقف بارداً، لكن بدا أن الفتيان لم يأبهوا بذلك. لم يكن فريد مرتاحاً لأنه لم يكن يحب هذا النوع من الرفقة، وأحسّ بالارتياح عندما انفض الاجتماع.

عندما دعاه مارسيل في المرة التالية للانضمام إلى النادي الليلي شكره واعتذر وقال إنه يفضّل أن ينام. بعد تلك الليلة، كان يبقى مستلقياً صاحياً في معظم الأوقات لفترة طويلة، يحدّق في الظلام ويفكّر بالعصابة في دمشق، بيوسف وبالغرفة العلوية فوق مخزن اليانسون. ترى ماذا يفعل أصدقاؤه الآن؟

١٢٥- الصمت

في أربعاء الرماد في ٣ آذار ١٩٥٤، وهو أول يوم الصيام لدى المسيحيين خيّم الصمت على عالم الدير. كانت الفكرة تتمثل في أن يمضي كل سكان الدير بصغيرهم وكبيرهم سبعة أيام بصمت مطبق لتطهير أرواحهم. كانت تلك محنة بالنسبة لفريد لأنه كان يحبّ صوت الكلمات وموسيقى اللغة، ويعتبر الصمت بمثابة إقليم الموت لا الحياة.

أما رئيس الدير مكسيموس فكان يرى عكس ذلك. فقد قدّست كلماته هذا السكون الرهيب التي أعلن فيها عن حلول فترة الصمت. «عندما تكون شفتاك مطبقتان فإنك تسمع صوت قلبك»، قال مبتسماً وهو يتطلع حوله «إننا نتعلّم التأمل والصبر في الصمت على نحو أفضل. وفي السكون فقط،

إخوتي الأعزاء في المسيح، عبر التوبة وهدوء الروح يعلو صوت ضميرنا ونجد طريقنا إلى النور».

نُفذّت وصية الصمت بصرامة. «كلمة واحدة تنطقها تجعلك تجثو على ركبتيك في الحال»، قال مارسيل «ويجب أن تبقى كذلك حتى يقرع الجرس معلناً وجبة الطعام التالية». وكان على كلّ من يخالف ذلك أن يجثو على الأرضية المرصوفة بالحجارة الباردة في هذه المنطقة الجبلية كالثلج لمدة قد تتجاوز الثلاث ساعات.

خيّم صمت مطبق على كل شيء. حتى العصافير التي كانت تزقزق بدأت تتحاشى التحليق فوق الساحة لأن الصمت الثقيل أثار فزعها، وأصبح الدير داراً للصم والبكم، وأغلقت المدرسة وتوقف العمل مؤقتاً. كان هذا الصمت جيداً لذوي السريرة البسيطة، فرصة للتأمل ومراجعة النفس، أما بالنسبة لفريد ومرسيل وبولس فقد كان الصمت عقاباً. وقد لجأ فريد إلى الكنيسة التي فتحت كالمكتبة أبوابها طوال الليل والنهار... وقال لنفسه إن اللوحات بقصصها قد تقدم له العزاء.

كاد فريد يفقد صوابه في هذا الصمت، لكن رؤية شخص جاث كانت رادعاً له من أيّ رغبة في التكلم. كان الهدوء الخارجي يثير الاضطراب في عقله. وبدل أن يندم وتهدأ نفسه صار يثرثر شاتما في سره كل الدنيا. لم يرغب ابداً أن يصبح كاهناً. لماذا هو هنا أصلاً؟ لماذا يجبن عن الصراخ بهذه الأفكار؟ كان يحلم باستكشاف العالم وسبر أسراره وبوسعه أن يصبح طياراً أو قبطاناً بحرياً. إذاً ماذا يفعل هنا كسجين وراء هذه الجدران الرطبة؟

كان تلاميذ الدير والآباء الذين يتمشون في ساحة الدير دون أن يصدروا صوتاً يبدون مثل أشباح في غسق المساء. كان فريد يجلس على مقعد لفترة طويلة يراقب طوافهم الصامت بفراغ متثائب داخل رأسه. دلف إلى الكنيسة وغمر نفسه في تفاصيل اللوحات الضخمة. ما إن وصل إلى لوحة القديس جيورجيوس حتى قرُع الجرس معلناً العشاء، فتنفس الصعداء. ألقى فريد نظرة طويلة أخيرة على التنين. بدا له هذا المخلوق بائساً وأشفق عليه. كان

twitter @baghdad_library

الحصان مفتول العضلات لكن بتناسب جيد، قوائمه الخلفية تحتل ربع اللوحة تقريباً، وبدا القديس جيورجيوس يغرز رمحه في التنين بلا مبالاة وبشيء من البلادة والخمول.

بعد العشاء هرب فريد إلى المكتبة حيث وجد بولس مستغرقاً في قراءة كتاب. رفع بولس بصره، محاولاً أن يرسم ابتسامة على شفتيه لكنّه كتمها وواصل القراءة. كان العنوان المدون على غلاف الكتاب «ارتقاء الأمم».

في ذلك المساء اكتشف فريد أول رواية لجول فيرن «خمسة أسابيع في منطاد»، وفجأة لم يعد أسبوع الصمت يشكل تهديداً له. فأصبح يمضي اثنتي عشر ساعة يوميا في القراءة، يفوّت أحياناً وجبة طعام وهو يتابع حادثة مثيرة أو معركة تاريخية حتى نهايتها. في ذلك الأسبوع، أدرك أن الكتب قد تكون بمثابة قارب نجاة في هذا المحيط من الصمت والحزن، وعندما يستلقي في السرير في الليل يعاني من ألم في ظهره بسبب الجلوس والقراءة لفترات طويلة، يحسّ بيد رنا في الظلام تتلمسه ويسافر معها عبر عالم القصص التي قرأها.

كان جول فيرن الكاتب الأول الذي فتح له الباب، الساحر الذي كشف له عالم الكتب. بعد ذلك بقليل، راح فريد يتجوّل في أرجاء فرنسا في القرن التاسع عشر مع بلزاك، وفي الهند مع كيبلنغ، وفي روسيا مع تولستوي، وفي أمريكا مع جاك لندن.

لكن في منتصف أسبوع الصمت ذاك، وصلته رسالة من ليلى. فقد وزّع الأخ يوحنا الرسائل من دون أن ينبس بكلمة. أجفل فريد عندما رمى الراهب - بطريقته الفظة المألوفة - الرسالة فوق كتابه ومضى.

كانت رنا تتفهمه وتحبّه إلى الأبد. تمكنت ليلى الذكية بمهارة من تهريب الرسالة التي كان متشوقاً لسماع ما تقوله له بين سطور رسالتها. كان التمويه رائعاً، فقد كتبت ليلى أن ابنتها رنا البالغة من العمر سبع سنوات، تحبّه كثيراً ولم تتحدث عن شيء إلا عن عمّها العزيز فريد الموجود في

الدير، وقالت إنها تريد أن تلتحق هي نفسها بدير للراهبات عندما تكبر لتصبح راهبة في أفريقيا. ابتسم فريد ابتسامة عريضة عندما تخيّل الشعور بالرضى على وجه الرقيب.

اعتباراً من أيلول بدأ فريد يكتب رسالة لرنا كلّ شهر وأصبح يرسلها بواسطة بولس تحت ستار رسالة أخرى إلى ليلى. كان سائق الحافلة سعيداً جداً بالليرة التي يدفعها له فريد في كل مرة يسلّمه رسالة.

كانت ليلى تجيبه مرة كلّ شهر لكي لا تجذب الانتباه، وكانت توقّع رسائلها أحياناً باسم أمّها ملكة.

جلجلة أجراس أعلنت عن انتهاء أسبوع الصمت فاعترت فريد السعادة للعودة إلى استخدام اللغة أكثر من وجبة الطعام البهيجة التي قدمت لهم في ذلك اليوم.

خصص اليوم للاستراحة والاستجمام وفتحت جميع البوابات، وأصبح بوسع الجميع الخروج والتنزه حول الدير. ولأول مرة شعر فريد وهو يقفز فرحاً خارج الدير بشعور سجين ساعة إطلاق سراحه، ولوهلة بدت أبعاد العالم أكثر رحابة.

١٢٦- المتمردون

أمضى فريد وقتاً طويلاً أمام الخزائن الزجاجية في المكتبة التي تضم اللفائف الثمينة والتي تحتوي على قصائد يوحنا الدمشقي من القرن السابع.

كان القدّيس يُعرف كذلك باسم «القدّيس يوحنا فم الذهب» لفصاحة لسانه. وبجانب إحدى اللفائف يوجد عرض قصير عن حياته. فقد بترت يده اليمنى بضربة سيف أثناء مذبحة مدبرة لكن القصّة تقول إنه التقطها وأعادها إلى ذراعه وأنهى كتابة قصيدته.

سخر الأخ غابرييل من هذه الأسطورة البطولية. لكن عندما سأله فريد عن البقع الدهنية الكبيرة الموجودة على اللفائف اكفهرّ وجهه. فهي بقع الزيت التي خلفتها علب السردين التي كان يتناولها الفلاحون المتمردون

twitter @baghdad_library

الذين احتلوا الدير في ثلاثينات القرن العشرين وأخرجوا منه الرهبان واستخدموا المبنى معقلاً لهم.

«لم يعرفوا أهمية هذه اللفائف فاستخدموها كمفرش للطاولة»، قال غابرييل «وعاثوا فساداً في الدير طوال سنتين حتى طردهم منه جيش الاحتلال الفرنسي. عندما عاد الرهبان اكتشفوا مشهد الدمار الحزين. استغرقت أعمال ترميم الدير أربع سنوات وكلفت ثلاثة ملايين دولار، ولهذا السبب يدفع رئيس الدير مبالغ لقاء حماية الدير كي لا يتعرض لمثل هذا الدمار مرة أخرى».

«أيّ نوع من أموال الحماية؟»

«إننا في المنطقة التي يسيطر عليها المتمرد سلمان الذي يصدّ جميع الهجمات التي تشنّها الحكومة. ويقع مقره المحصن في «جبال النسر» وهو الحاكم المطلق هنا. إنه يطلب خمسين ألف ليرة كل سنة وندفع له هذا المبلغ. ولقاء ذلك لا يسمح لأفراد عصابته أخذ حبة قمح واحدة من حقولنا».

«خمسون ألف - لماذا، فهذا مبلغ كبير»، قال فريد مندهشاً.

«نعم بالفعل، لكن كلّ لوحة موجودة في الكنيسة والمذبح المصنوع من الرخام والمكتبة، كنوز لا تقدّر بثمن. وماذا تهم النقود لقاء حمايتها؟ نستطيع أن نعيش بسلام الآن»، أجاب غابرييل.

«وهل يلتزم قطاع الطرق باتفاقكم؟»

«في الحقيقة إن سلمان رجل محترم، ومن المؤسف أنه مسلم. إنه صوفي عظيم وهو معجب بالمسيح أكثر من كثير من المسيحيين»، تردّد غابرييل كما لو أنه وجد صعوبة في مواصلة كلامه «لكن لسوء الحظ فإنه معجب به وهو يحمل سلاحاً في يده».

«ومن أين يحصل على المال؟ هل يأتي لصوصه إلى الدير؟» سأل فريد بفضول لأن القصة أثارت فضوله أكثر مما أثارته الأفكار السامية لمتمرد صوفي.

«لا، لا»، قال غابرييل، «فأنا آخذها له إلى قلعته. إنه يصرّ على ذلك حتى يثبت أنه هو الحاكم هنا لا الدير».

«ماذا؟ هل تختلط باللصوص؟»

«ليس الأمر مثيراً إلى هذه الدرجة كما تظن. فالدير يرسل خبراً إلى سلمان بأنني سآتي، وأذهب إليهم وأسلّمهم النقود وآخذ منهم إيصالاً ممهوراً وأعود».

اعترى فريد قلق شديد. في تلك الليلة انتظر حتى نام الراهب المشرف، ثم نهض وجلس على عتبة النافذة الواسعة. كانت ليلة من ليالي نيسان الدافئة شرعت فيها النوافذ، وحوّل البدرُ البحرَ إلى طبقٍ من الفضّة ينزلق فوقه قارب صيد ببطء. سكن البحر كأن القمر هدّأ روح الأمواج.

سرحت أفكاره متسلقة طرقاً جبلية وعرة. في مكان ما على جبال النسر، متمرد منيع يحظى بشعبية كبيرة لدى الفقراء، يقال إنه قصير القامة إلى حد أنه إذا سقطت من جيب بنطاله بيضة فلن تنكسر عندما ترتطم بالأرض.

كيف يمكن لشخص كهذا أن يقود لصوصاً، تساءل فريد؟ لعله يسحرهم بقوّة لسانه فينمو في عيونهم لمارد جبار.

أحسّ فريد بأن غابرييل معجب بسلمان في سريرته حتى لو كان هذا المتمرد يبتز مبالغ كبيرة من الدير.

كان البحر يتلألأ على نحو غريب كأن النجوم قد سقطت فيه. بغتة رأى رنا هناك. «هل تسمعينني؟» همس بصوت ناعس.

وجدت بضعة أخبار طريقها إلى الدير في صيف ١٩٥٤، فسمعوا أنه أُطيح بشكلان، لكن الدير لم يشعر بالنتائج الأولى لسقوطه إلا بعد سنة. فقد كان المتمرد طانيوس صاحب الحذاء المصنوع من الجلد الأصلي سعيداً بحكومة بطلان الجديدة لأن الرئيس عيّن أحد أبنائه وزيراً للزراعة. ألقى طانيوس سلاحه وسمح للقوات الحكومية عبور منطقته وحصار المتمرد الثاني الأكثر خطراً، سلمان. استمر القتال طوال أسابيع، وقيل إن المتمردين كانوا يحاربون بشراسة، وعندما أُلقي القبض على زعيمهم سلمان وقُتِل في أحد بساتين الزيتون، بناءً على امر مباشر من بطلان، استسلموا. لكن النساء

twitter @baghdad_library

فقط لم يستسلمن، ودافعن عن معقلهن الأخير، وهي قلعة صغيرة مهدمة. لم يجرؤ الجنود على الهجوم عليهن لفترة طويلة لأن قصصاً مرعبة انتشرت عن تلك النساء المتمردات. لكن عندما اقتحم الجنود الذين فاق عددهم بكثير أعداد المدافعات عن القلعة، وجدوا أن النساء جميعهن قد انتحرن.

كانت هزيمة المتمردين خلاصاً للدير لأنه لم يعد يتعين عليه أن يدفع خُوّة لقاء حمايته.

١٢٧- نزهة

كان شهر تشرين الأول حاراً مثل شهر آب في تلك السنة. لأول مرة، سُمح لتلاميذ الدير بالخروج في نزهة إلى البحر بمرافقة الأب قسطنطين، معلّم الموسيقى. تعيّن عليهم السير في رتل واحد، كل اثنين بجانب بعضهما، وكان بوسع كل تلميذ اختيار التلميذ الذي يريد أن يسير بجانبه. سار فريد مع بولس الذي تلقى رسالة من أمّه بواسطة سائق الحافلة. لم يتوقف طول الطريق عن شتم زوج أمّه الذي كان يضربها.

«سأقتله. امرأة ضعيفة مثلها يجلس على صدرها ويكسر ثلاثة أضلاع في صدرها، وماذا بوسعها أن تفعل؟ هل تصدق؟ قالت للطبيب إنها وقعت من فوق السلّم وهي تقوم بعملها في المنزل».

ارتعش جسد بولس كله وهو يصف بإسهاب تلك الحادثة التي قيّد فيها زوج أمّه أمَّه بالكرسي وعذّب بولس أمام عينيها. حكى ذلك بحيادية تامة كما لو أنه رآها في أحد الأفلام. لم يكد فريد يصدق هذه القصة، لكن بولس كان صريحاً في كلّ ما يقوله. اعترت فريد رجفة من فكرة الانتقام الفظيع الذي أقسم بولس بأنه سينتقم من زوج أمّه ذات يوم.

أحس الجميع بالارتياح عندما وصلوا إلى الشاطئ وانفرط عقد الرتل وتفرّق التلاميذ. كان الخليج الصغير مقفراً، فخلع التلاميذ ثيابهم. ولما لم تكن لديهم ثياب للسباحة اضطروا إلى السباحة في سروايلهم الداخلية القصيرة، وتعين عليهم الاحتفاظ بسروال آخر جاف لارتدائه بعد السباحة.

كان مارسيل أول من جرى بين الأمواج، لكن في تلك اللحظة أمرهم الأب قسطنطين بنبرة تشي بالإنذار، بالمغادرة. بينما راح الأولاد يضحكون على وثبة مارسيل في الماء، ظهر على الشاطئ عاشقان. فقد اختار رجل مفتول العضلات وامرأة سائحة شقراء منطقة الخليج في أسفل الدير مكاناً لنزهتهما. تجاهلا طلب الأب قسطنطين بالانتقال إلى منطقة أخرى وخلعا ثيابهما. غادر تلاميذ الدير بامتعاض، غاضبين. وقالوا جميعاً بأنه لا يوجد شيء أسخف من طلب الأب قسطنطين بأن يصلّوا جميعاً وهم في طريق عودتهم إلى الدير من أجل روح العاشقين لكي يظلا عفيفين.

«كيف يستطيع هذا الأحمق أن يلحن مثل هذه الموسيقى الرائعة لا يزال لغزاً بالنسبة لي»، همس بولس.

١٢٨- عصبة الأخوة السوريون

كان فريد يشتاق في أحيان كثيرة لسماع نغمة اللغة العربية. وفي بعض الأحيان، كان يمضي وقتاً لتذوق بضع كلمات عربية يلفظها ببطء حتى تذوب الواحدة تلو الأخرى على لسانه. بلغت به النشوة مرتين فنسي نفسه وراح يتلو بعض القصائد العربية بصوت مسموع. أجفل عندما أحسّ أن أحدهم يدسّ القرص الصغير بحرف S في جيبه. وبما أنه بدأ يمتعض من نقل القرص إلى شخص آخر، تعين عليه أن يتناول عشاءه مرتين وهو جاث.

«إني معجب بموقفك النبيل. سأفكّر بك»، همس بولس عندما مرّ بجانبه وضغط على كتفه. لوّح له مارسيل وبطرس بيديهما بتعاطف أيضاً، بينما تصرّف التوأم لوقا وماركوس كأنهما لا يعرفانه. رفض فريد أيضا أن يأكل احتجاجاً على هذه المذلة، لكن الراهب المشرف كان في كلا الأمسيتين من أبله الرهبان وفهم هذه البادرة كصيام يقوم به فريد ليعتذر ويكفر عن خطيئته وكان الكاهن الأبله سعيدا بهذا الصيام وهنأ التلميذ السوري عليه، مما أغاظ فريد.

بعد فترة قليلة، بينما كانا يتمشيان في ساحة الدير، حدّثه بولس عن

twitter @baghdad_library

جمعية سرية تضم في عضويتها فتياناً جيدين وقال إنهم يرغبون في التعرّف عليه، أي فريد.

شارك فريد وحضر اجتماع هذه الجمعية السرية التي تسمي نفسها «الأخوة السوريون» برئاسة بولس في منتصف تشرين الثاني. كان عدد الأعضاء عشرة تلاميذ من صفوف دراسية مختلفة. فوجئ فريد بأنهم ضمّوا مارسيل الذي كان يتعين عليه أن يترك النادي الليلي لكي ينضمّ إليهم. فقد أصرّ بولس على ذلك.

لم يفهم فريد ما هي أهداف الجمعية، لكنّه اعتبرها تغييراً هاماً عن الروتين المعتاد. عندما أقسموا الولاء في عتمة الطابق تحت السطح التي يعقدون فيها اجتماعهم، وتحدّث بولس عن قوّة جمعيتهم، تذكّر فريد الغرفة العلوية الأخرى في دمشق وصديقه يوسف. بدا أن بولس مقتنعاً بأن الأخوة السوريين سيستولون على السلطة في الدير ذات يوم.

في البداية خيّل إلى فريد بأن بولس يمزح لكنه عندما أصرّ على أداء قسم بعدم الخيانة والوشاية، أدرك أنّ صديقه كان جاداً في ذلك. كان أعداء الأخوة السوريون يُهاجمون في دورات المياه بعد أن يهبط الظلام ويُضربون دون التحدث إليهم. كانت فرقة إنزال العقاب تضم بولس وثلاثة فتيان أقوياء من الصف العاشر. لم يكن بإمكان الضحايا التعرف على الذين عذبوهم والذين كانوا يتنكرون بشكل جيد، لكنهم كانوا سرعان ما يعرفون الجهة التي أرسلت الملثمين: إنهم السوريون. وبعد فترة قلّ تهديد تمرير «العلامة» للأخوة السوريين. فإذا تلقى عضو في الجمعية السرية القرص الخشبي المكروه، كان الآخرون ينطلقون بحثاً عن تلميذ آخر يتفوه بكلمة عربية.

ذات يوم أوضح بولس أنه يجب يتعلموا لغة سرية خاصة بهم لا يفهمها أحد غيرهم. وبدأ منذ ذلك الحين، يعلّم أصدقاءه كلّ أسبوع من عشر إلى عشرين كلمة وعبارة جديدة استنبطها بنفسه. كان يأمل في أن يتمكنوا من التحدث بهذه اللغة السرية خلال سنة. فوجئ فريد بالحماسة التي أبداها الجميع لتعلّمها، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبح بإمكانهم تحية أحدهم

الآخر في اجتماعاتهم أو في باحة المدرسة، وتبادل رسائل سرية قصيرة لم يكن باستطاعة أحد غيرهم أن يفهمها.

١٢٩- شقاق

كان كانون الثاني من عام ١٩٥٥ شديد البرودة، وفي الليل كسا الثلج الدنيا وبدا كأن العالم قد تجمّد تحت غطاء من السكّر. بدأت تظهر الآن عيوب مبنى الدير، وتبين أن نوافذ الدير الكبيرة لم تكن في حالة جيدة، فالتوى خشب إطاراتها من شدة الحرارة والجفاف خلال شهور الصيف الطويلة ولم يعد يغلق بإحكام. و وكاد فريد يتجمّد في الليل وهو راقد في سريره على الرغم من أن شقوق النافذة القريبة منه سُدَّت بخرق قديمة.

في الخارج، صارت الأرض زلقة كالزجاج، ولم يجازف أي سائق سيارة بالصعود في الدرب الترابي الضيّق المفضي إلى الدير، وتحولت الباحة الداخلية ساحة للتزحلق على الجليد، وراح التلاميذ والطهاة والآباء يمارسون التزحلق بحرية أو مجبرين ولم ينجُ إلا قلة منهم من السقوط على مؤخرته.

كان فريد واقفاً بالقرب من صحن الدرج يراقب أنفاسه وهي تخرج من فمه كالبخار مثل دخان سيجارة، عندما لوّح له مارسيل وقال: «إن بولس يبحث عنك»، وأضاف بلغتهم السرية «سيُعقد اجتماع هذا المساء».

كان بولس غاضباً. فقد قال إن ماركوس، التلميذ في الصف التاسع وأحد أعضاء الأخوة السوريين، قد ارتدّ وأضاف أنه لن يشي بالجمعية لكنّه لن يعود إلى حضور الاجتماعات لأنه بدأ يرتاح أكثر مع مجموعة المسيحيين الأوائل التي أسسها غابرييل واتهم خصمه غابرييل بأنه يغسل أدمغة الفتيان.

هذه الملاحظات ذكّرت فريد كيف كان بطرس يحذّره من بولس وينصحه بتحاشيه وحضور مجموعة يوم السبت مع الأخ غابرييل. أصبح بولس ساخطاً على غابرييل وقال إنه يهودي شيوعي، وبوغت فريد بهذه الكراهية المتزايدة في نبرة صوته. لم يفه الآخرون بشيء سوى أنهم راحوا يهزون رؤوسهم، لكن عندما بدأ بولس يفكّر بعملية تأديبية ضد غابريل

twitter @baghdad_library

بصوت مسموع، تحوّل رعب فريد إلى غضب بارد. ازداد قلق الآخرين أيضاً الآن، لكنهم لم يوافقوا على فكرة بولس لأن غابرييل كان ضعيفاً ومريضاً، على حد قول مارسيل.

أحسّ فريد بشيء ينكسر في داخله. «لن انضم إليك في مثل هذه العملية. أظن أن علينا أن ندع غابرييل وشأنه»، قال بصوت متهدج وهو يرمق بولس بحزم. هزّ بولس كتفيه بانزعاج.

«إني أقول لك إنه كالأفعى ينسلّ بين الأعشاب، لكن إذا لم ترغبوا في اتخاذ أي إجراء ضده، فإنني أوافق على أن نتركه وشأنه الآن».

١٣٠- الصرع

لم يتمكن فريد من الاستيقاظ على الرغم من سماعه الجرس. عندما هزّه مارسيل أفاق ببطء وانتصب جالساً في السرير. أحسّ بخلجات مؤلمة في صدغه الأيمن. كان يفضّل البقاء في السرير لكنّه خشي سخرية التلاميذ الآخرين منه واحتقارهم له لأن التكاسل يعتبر خيانة: في حال غياب أحد سيتعين على الآخرين أداء عمله بالإضافة إلى عملهم. إنه نظام شرير، وهذا يعني أنه يتعين حتى على الآباء والرهبان أن يخرجوا للعمل حتى لو لم يكونوا راغبين في أداء ذلك العمل أو قادرين صحياً عليه للحفاظ على ماء وجههم. تعين على فريد أن يعمل في بستان البرتقال مع خمسة تلاميذ آخرين بعد انتهاء الدروس.

حاول النهوض، وكاد يغمى عليه. تمسك بهيكل السرير حتى أحسّ بشيء من التحسن، وتوجّه أخيراً وهو يسير مترنحاً إلى المغسلة ووضع رأسه تحت الماء البارد المتدفق.

أحس بشيء من الانتعاش أثناء الدروس. لكن بعد انتهاء صلاة العصر، في الساعة الثالثة، حدث ذلك. بدأ فريد برسم دائرة حول شجرة برتقال صغيرة بمجرفته كما طلب منه الأخ يعقوب الذي يعمل بهمّة ثلاثة أشخاص في اقتلاع الأعشاب الضارة من البقعة داخل الدائرة. فجأة اسودّ كلّ شيء

أمام عينيه وأغمي عليه فتهاوى. عندما استعاد وعيه كان صوت غابرييل أول شيء يسمعه. فتح عينيه ورأى وجه الأخ يعقوب القلق. في تلك اللحظة، رأى بولس يسير بالقرب منه لكنه لم يعره أي اهتمام. «أين كلير؟»سأل فريد بصوت خفيض، لكنه سرعان ما أدرك أنه رآها في الحلم. آلمته مؤخرة رأسه في البقعة التي ارتطم فيها بالأرض. فقد قال له الأخ يعقوب إنه سقط إلى الوراء متشنجاً مثل عامود. مسح فريد لعابه من طرفي فمه. إنه غثيان السقطة، قال لنفسه مرعوباً، وتذكّر البائع المتجول حسن الذي كان يبيع البوظة في حارة الزيتون في الصيف ويبيع الحلويات في الشتاء. كان حسن يقع مغمياً عليه على الأقل مرة في السنة، وكان الناس يقولون إن الجان كانوا يحبّونه ويسرقونه أحياناً ويأخذونه إلى مكان بعيد ليغني لهم.

رافق غابرييل الفتى المريض إلى المهجع ومكث قليلاً بينما جلس فريد على سريره مرهقاً. «أرى أنك أخي في محنتك الصحية، فأنا مصاب بنفس المرض»، قال وهو يمسد جبين فريد، ثم غادر.

١٣١- رعاية روحية

كان على أي تلميذ يواجه مشكلة، سواء أكانت مشكلة خطيرة أم ذات طابع حميمي، أن يتوجّه إلى معلّم صفه. فإذا عجز معلمه عن مساعدته يرسله إلى راهب آخر له خبرة بعلم النفس والتربية لاستشارته في هذه المشكلة، أما كرسي الاعتراف فكان مخصصاً للآثام والخطايا الكبيرة.

لكن فريد لم ينتهز أي فرصة من تلك الفرص. في نهاية آذار، بعد انتهاء أسبوع الصمت، قال له راهب يدعى كريستيان أن عليه الإعتراف قبل أن يتناول جسد المسيح. عندما أجاب فريد بأنه لم يرتكب أيّ ذنب في الدير، ضحك الراهب الملتحي وقال: «وهذا هو ذنبك الأول: الغرور. اسعوا تجدوا، أوه، نعم»، أضاف ومضى. في اليوم التالي، بدأ فريد يبحث عن ذنب صغير لا يحتاج إلى تلاوة صلوات كثيرة للتكفير عنه. قال له مارسيل محذّراً: «فكّر بساقي جوزفين. فإن ذلك سيكلّفك صلاة «فعل

twitter @baghdad_library

الندامة»، اثنتان «أبانا الذي في السموات» وثلاثة «السلام عليك يا مريم». والضرطة أثناء الصلاة القدسية تكلّف تلاوة «فعل الندامة» واحدة و«أبانا الذي في السنوات». أما الذنوب الأرخص فهي الرغبات الصغيرة والرغبة في الحصول على طعام أفضل».

وهكذا اختلق فريد أكذوبته الأولى بسرعة لكي يذهب للاعتراف وينتهي منه دون أن يثير شك الرهبان، وحدث تماماً كما توقّع مارسيل. كان فريد راضياً عن النتائج. لكنه ذات مرة، بدافع من الفضول التام، أراد أن يعرف ردة فعل الآباء إزاء إثم الرغبة الجنسية، فاعترف للكاهن بأنه عندما يرى جوزفين تتملكه الرغبة في أن يضمها إليه ويقبّل شفتيها. عندها أمطره الكاهن بمجموعة كاملة من الصلوات. لم يتل فريد أياً منها لأنه لم يشعر بالذنب ولأنه لم يشعر بأي رغبة في تقبيل شفتي جوزفين، ولم يعرف الكاهن الذي يعترف له شيئاً عن رنا وعن تقبيله لها يوميا في سريرته.

كان فريد يحلّ مشاكله اليومية بمساعدة غابرييل أو مارسيل أو بولس، لكن إدارة الدير لم تكن على ما يبدو راضية عن ذلك. ففي شهر أيار، طلب الراهب المسؤول عن صفّه رؤيته فنصحه بولس بأن يتصرّف بسذاجة وأن يختلق بعض المشاكل الصغيرة من نوع ما، وقال له: «عندها سيكون الأخ مسروراً لأنه تمكّن من مساعدة أحد، وفي المرة القادمة تقول له إنك عملت بنصيحته وقد ساعدتك كثيراً ثم تحكي له قصّة أسخف من سابقتها، وفي المرّة الخامسة لن يرغب في رؤية وجهك».

«وإذا لم أخبره شيئاً؟» سأله فريد.

«عندها سيستمر في طرح الأسئلة عليك ويرسل أشخاصاً للتجسس عليك. إن هذا الرجل يعمل يداً بيد مع إدارة الدير، ولديهم رغبة شديدة في التقاط مثيري المشاكل المحتملين».

لهذا السبب ذهب فريد لحضور جلسة السعادة الروحية، وقدّم نفسه على أنه فتى تجتاحه مشاعر قلق طفيفة. ومرة أخرى، حدث تماماً كما تنبأ بولس.

*

في بداية عام ١٩٥٥، كان عدد أعضاء الأخوة السوريين خمسة عشر عضواً. وكان بولس يشعر بأنه حاكم صغير. وخطرت له فكرة بأنه اذا اكتشف واش مرّتين فإنه سيُضرب في المرة القادمة ثم تقوم فرقة إنزال العقاب بالتبوّل عليه. بعد أسبوع من إنزال عقوبة كهذه انتشر الخبر كانتشار النار في الهشيم، وفقدت سلطة الدير معظم مخبريها. ودار الرهبان في حلقات فارغة، فلم يعرفوا شيئاً عن «الأخوة السوريين» الأمر الذي منح المجموعة القوّة التي حلم بها بولس دائماً. كان عبقرياً في كل ما يتعلق باختيار مؤيديه. ازداد عدد أفراد المجموعة ببطء، لكنّهم ظلوا متآزرين وملتحمين صلبين كالصخر.

خلال الأسابيع والشهور القليلة القادمة، لم يعد بولس يتكلم كثيراً عن غابرييل. وخيّل إلى فريد بأن صديقه أدرك أخيراً أنه كان مخطئاً في حق الراهب. ومضى وقت طويل قبل أن يدرك أنه هو نفسه أخطأ في تقدير بولس.

١٣٢- النار والماء

بعد توسلات عديدة وافق رئيس الدير الأب مكسيموس على السماح بعمل مسرحية بمناسبة عيد شفيع الدير أغناطيوس على أن يقرأ هو بنفسه النص وأن يرافق كاهن مراقب كل التدريبات المسرحية ليطمئن أنه لن يحدث أي أمر مشين على خشبة المسرح. هلل الطلبة والآباء بعد استماعهم لخطبة رأس السنة الذي أعلن فيها مكسيموس عن سماحه للمسرح. أجريت مسابقة لكتابة مسرحية لطلاب الصفين الحادي عشر والثاني عشر في كانون الثاني، فاز بها بولس عن مسرحية بعنوان «آلام المسيحيين في الصين». كان الأخ غابرييل هو العضو الوحيد في اللجنة الذي صوّت ضدّ فوزه.

بدأت التدريبات في أوائل آذار، وشارك فريد ومارسيل بدافع الصداقة لبولس، ورفض الأعضاء الآخرون في الأخوة السوريين المشاركة لعدم اهتمامهم بالمسرح. ابتلع بولس هذا الرفض لكن كان من الواضح أنه أصيب بخيبة أمل، مع أن عدد الراغبين في المشاركة في المسرحية كان أكبر من المطلوب.

twitter @baghdad_library

تدرب فريد على دور مؤمن كاثوليكي يُزجّ به في السجن في نهاية المسرحيّة. رزخت البلاد تحت حكم الشيوعيين وكانوا جميعاً ضئيلي البنية يرتدون زياً رسمياً موحداً زينت نجوم حمراء كبيرة قبعاتهم وكانوا يحتسون نبيذ الرزّ ويسيؤون معاملة المبشّرين وتلاميذهم. اختار بولس فتياناً طوال القامة من الصفوف الثانوية للقيام بدور المبشّرين، بينما اختار تلاميذ الدير الأصغر سناً لأداء دور الصينيين القصار القامة.

سبّب أداء مسرحيّته إجهاداً كبيراً لبولس، خاصة أن الجمعية السرية كانت تمر في أول أزمة جدّية. ففي أيار، اكتشف فريد والأعضاء الآخرون أن بولس قد شكّل سرّاً مجموعة ثانية تعمل في الدير من دون علم المجموعة الأولى. وأوضح بولس أن سرّيته تهدف إلى حماية جميع الأعضاء، لكن صوت الصدع الذي سمعه فريد في داخله هذه المرة كان صاخباً. فقد اهتزت ثقته ببولس كثيراً، لكنه لاذ بالصمت ولم يترك الجمعية إلا أندرياس، طالب الصف الحادي عشر، من تلقاء نفسه. وقال إنه لم يعد يرغب في العمل مع أعضاء المجموعة، لكنّهم يستطيعون الوثوق بأنه لن يشي بأحد. كان أندرياس عضواً شجاعاً.

لم يتمكن بولس من كبح جماح غضبه بيسر وواجه الانشقاق بازدراء. فقد كان على ثقة بأن التهديد بإنزال عقوبة قاسية هي التي تمنع حدوث خيانة، لا نزاهة شخص مثل أندرياس.

بخلاف غابرييل الذي كان يشقّ طريقه بهدوء كالماء، ويختار الطريق الأطول عندما تلزمه الضرورة بذلك أمام عائق ما، أما بولس فكان يشتعل ناراً تحرق كلّ الشكوك والعقبات التي تعترض طريقه على الفور. كان يحشد هو وغابرييل، كلّ بطريقته، أنصاراً لهما. وشيئاً فشيئاً، بدأ فريد يدرك أن أهدافهما متناقضة، وتساءل كيف أن صداقته لشخصين مختلفين تجعله يشعر شخصياً بالعذاب والنفاق.

لكن رسالة وردت من أبيه في نهاية أيار جعلت عقله يتوقف عن التفكير بهذه الأمور. فقد ذكرت الرسالة أن كلير أدخلت إلى المستشفى في آذار

لإجراء عملية. صعقه الخبر ولم يتنفّس الصعداء إلا بعد أن وصلته رسالة أخرى تقول إن صحتها ممتازة وأنها ستزوره في نهاية تموز.

اختتمت الرسالة بخبر يقول إن متّى بلوطا، الفتى القوي من قرية معلا الذي كان واحداً من الفتيان الذين رافقوا فريد يوم احترقت شجرة الدردار، والذي هرب قبل أكثر من سنتين، ولم يدر أحد في القرية آنذاك إلى أين، قد قبض عليه الآن ونال عقابه، وأنه سيُرسَل إلى دير القديس سيباستيان قريباً.

ابتسم فريد لذكرياته مع الفتى الذي سيلتحق بالدير كتلميذ في صيف ١٩٥٣، وتذكّر قدرة متّى على التأرجح مثل قرد والانتقال من غصن إلى غصن على الأشجار مثل طرزان وتذكر أيضا قوة ذراعية الجبارة. بعد يومين أكّد غابرييل الخبر الذي سمعه فريد من دمشق.

خلال شهر حزيران في المرحلة الأخيرة من التدريبات أصبح بولس شديد التوتر، نزقاً، وأصبح يرتاب في كلّ شيء، ولم يعد يرضى عن أي شيء. كان غضبه يتّجه أكثر وأكثر نحو غابرييل الذي كان يشكّ بأنه وراء كلّ الأمور التي لم تعد تسير على ما يرام في تحضير المسرحية. وفي منتصف حزيران وقع أول نزاع علني بينهما عندما انتقده غابرييل أثناء إحدى تدريبات المسرحية، فقد اختير هو بالذات مراقباً لهذه المسرحية كما أراد رئيس الدير مكسيموس، رفض بولس الانتقاد الموجّه إليه بحدّة، قبل غابرييل ممتعضاً عدم تنفيذ نقده ولم يش ببولس لرئيس الدير، بينما صبّ بولس في اجتماع «الإخوة السوريين» جام غضبه على الراهب عندما اجتمعوا في الغرفة العلوية في تلك الليلة. لم ينبس الأخوة السوريون بكلمة. فَقَد بولس صوابه وقال إن غابرييل شيوعي، وأن السبب الوحيد الذي جعله لا يحبّ المسرحيّة هو لأنها تنتقد بدون رحمة الشيوعيين وتضعهم موضع المساءلة، وقال بولس أيضاً إنه لوطي وأنه يحتاج إلى شابين اثنين من الصفوف الأعلى كلّ ليلة لإرضائه.

انفجر فريد وصاح في وجه بولس بصوت متهدج «ومن يجبرنا على أن نهتمّ بطيز غابرييل؟ هيا قل لي. ما شأننا بمن ينيك ومن يناك؟ غابرييل،

twitter @baghdad_library

غابرييل، غابرييل. صدّعت رأسنا بغابرييل ألا تستطيع أن تفكّر بشيء إلا بكراهيتك له؟»

تسمّر بولس في مكانه. شحب وجهه وارتعشت شفتاه. لم يبدو قبيحاً هكذا من قبل. حبس أنفاسه وراح يتبادل النظرات الحادة مع فريد.

ساد صمت قاتل.

«إنك محقّ»، قال بهدوء، وبصوت بارد كالجليد، «يجب أن أتمالك نفسي. يجب أن نفكر بأمور أهم من غابرييل».

عاد الهدوء إلى المجموعة لبضعة أيام، ولم يعد اسم غابرييل يُذكر ثانية.

وصل متّى في نهاية حزيران. وفي ليالي حزيران تلك، تذكّر فريد اليوم الذي وصل هو فيه قبل سنتين، وقد بدت له السنة الأولى تلك بأن لا نهاية لها، أما السنة الثانية فظلّت باهتة في ذاكرته وكانت تجري بسرعة. بدا له أن الزمن يمر لا كسلسلة خطيّة من الساعات والأيام، وإنما مثل الضغط على آلة أكورديون.

١٣٣- زيارة كلير الثانية

قبل قرابة عشرة أيام من حلول عيد القديس إغناطيوس، قال الأخ يوحنا لفريد، بأسلوبه الفظ المعهود، إن أمّه وصلت. فوجئ فريد الذي انهمك يومها بلعبة شطرنج مع بولس الذي لم يُهزم قبلها من أي طالب والذي ضحك وقال: «لا بد أن الأمهات هن الملائكة الحارسات، فلقد أنقذتك بوصولها قبل حركتين اثنتين فقط من هزيمتك المحققة! حسناً، هيّا اذهب إليها»، ثم أضاف، «بلّغها تحياتي».

جرى فريد خارجاً من قاعة الألعاب وكان يودّ أن يفعل ثلاثة أشياء في آن معاً وهي: أن يغسل وجهه، وأن يقطف بعض الأزهار من الحديقة، وأن يصيح من البهجة. في الساحة تردّد لحظة، تخلى عن كل خططه ثم سار ببطء نحو قاعة الزوّار القريبة من المدخل الأمامي.

عندما فتح فريد الباب، ابتسمت له كلير ابتسامة متألقة وفتحت ذراعيها واسعاً. كانت أمامها على الطاولة علبة حلويات كبيرة.

«كاهني الصغير»، صاحت.

«ماما»، قال فريد، لكن صوته خانه، «ماما»، همس ثانية وعانقها. عندما مررت يدها بمحبة فوق شعره الحليق، أجهشت في البكاء.

التفتت كلير إلى الراهب الجالس صامتاً على مقعد في ركن الغرفة. «هل يمكنك أن تسأل رئيس الدير إن كان بإمكاني أن أخرج وأتمشى مع ابني؟ فالطقس جميل ومن الغباء أن نجلس داخل هذه الغرفة المظلمة»، قالت بلغة فرنسية أنيقة.

«لا يُسمح بذلك يا سيدتي»، قال الراهب باقتضاب.

«إني أطلب موافقة رئيس الدير مكسيموس، لا موافقتك أنت. أرجو أن تتفضل وتنقل لي جوابه هو، أم هل يتعين عليّ أن أذهب أنا وأبحث عنه؟» أجابت كلير بحزم.

استوى الراهب واقفاً واتّجه نحو الباب بتؤدة.

«أنت رائعة، كالعادة»، قال فريد لأمّه وضمها إليه ثانية.

«أعطاني والدك خمسة آلاف ليرة للتبرّع للدير. وإذا لم يسمحوا لنا بأن نخرج ونتمشى، فسيكون ذلك بؤساً لهم، لأنهم لن يروا ليرة واحدة منها».

عاد الراهب إلى قاعة الزوّار محنيَّ الرأس، وقال: «يمكنك أن تتمشي مع الأخ برنابا كما تشائين، وسيكون رئيس الدير مكسيموس سعيداً لو تفضلت بزيارته لفترة قليلة بعد عودتك، فلديه رسالة يريد أن يعطيها لك لكي تسلميها إلى زوجك المحترم». ثم ابتعد.

«رسالة؟» سأل فريد.

ضحكت كلير وقالت: «أظن أنني أحضرت الجواب سلفاً».

غادرا الدير، يدها في يده وسارا في الدرب صامتين نحو البحر. عندما بلغا الشاطئ خلعت كلير حذاءها، وجرت على طول حافة الماء، وراحت ترقص بسعادة. خلع فريد صندله وجرى خلفها.

twitter @baghdad_library

«كيف تسير أمورك يا قلبي الغالي؟» سألته كلير، وجلست على مقعد مهترئ.

«ليست جيدة كثيراً. فالحياة في الدير لا تلائمني»، قال فريد.

«ما الذي لا يعجبك هنا؟»

«كلّ شيء. فهم صارمون للغاية، و...»، تردّد فريد لوهلة، ثم أخذ وجه أمّه بين يديه وقبّلها بلهفة شديدة، «ولا توجد قبلات كهذه هنا».

«لقد اشتقت إليك كثيراً»، قالت، «وليس من المفترض أن أقول ذلك لأن الأمهات الصالحات لا يقلن هذه الكلمات لأطفالهن الموجودين في الدير، لكن كما تعرف فأنا لم أكن أمّاً صالحة قط». ابتسمت، لكن عينيها كانتا تلمعان بدموع لم تذرفها.

عادا بعد ساعتين. أعطت كلير فريد خلسة ألف ليرة لأيّ نفقات تلزمه وقرّرت ألاّ تعطي رئيس الدير شيئاً سوى علبة الحلويات التي جلبتها من محل زوجها.

في اليوم التالي، بدأت رحلة عودتها وهي تحمل رسالة يتوسل فيها رئيس الدير إلى إلياس مشتاق، وفي أول استراحة توقف فيها الحافلة، مزّقتها ورمتها في صندوق قمامة.

لكنها أعطت المغلف السميك الذي يضم رسالة موجهة إلى رنا، كما طلب منها فريد، إلى ابنة عمته ليلى.

١٣٤- معاناة المسيحيين

لم يحضر الأخ غابرييل المسرحية التي عرضت في تموز. فقد كانت في رأيه مسرحية سخيفة، لكنه كان الوحيد في اللجنة الذي رأى ذلك، بينما أبدى أعضاء اللجنة الآخرون حماسة لها. فقد هدف النص إلى إظهار مدى التضحيات التي يقدمها إخوتهم وأخواتهم للدفاع عن المسيحية في بلد دكتاتوري للمتفرجين من البلاد التي تسودها الحرية.

لكن المسرحية تحولت إلى كارثة حقيقية. فقد كان بولس يكره الشيوعيين بشدة مما أدى إلى انحراف مسرحيّته إلى صور كاريكاتور أثارت الضحك في القاعة بدلاً من إثارة مشاعر الشفقة والرعب. وتبين لفريد أن المرح ينتقل كمرض الرشح بالعدوى، ففي نهاية المسرحيّة، أخذ الممثلون على المسرح يضحكون أيضاً رغم أنهم حسب نص المسرحية كان عليهم أن يتأوهوا ألماً وحزناً. وبلغ الأمر ذروته عندما أغرق أحد «المبشرين» على خشبة المسرح وهو عملاق ضخم بالضحك بينما لهث «صيني» صغير منهكاً بجلده.

لم يبق لرئيس الدير مكسيموس من خيار سوى أن ينهض واقفاً ويأمر بوقف عرض المسرحية فوراً. ليس هذا فقط بل أعلن كذلك في خطبة القداس في اليوم التالي عن منع إقامة أي عروض مسرحية أخرى مهما كان نصها في الدير. وقال إنه سيجري في المستقبل الاحتفال بعيد القديس إغناطيوس بصلاة كنسية مهيبة وقراءة طويلة من كتاب إغناطيوس المشهور *Exercitia spiritualia* «تمارين روحية».

لم ينبس بولس بأي كلمة لأيام عديدة. والكلمات الأولى التي نطقها في اجتماع الأخوة السوريين كانت تشجب غابرييل بعنف وتتهمه بجرم فشل المسرحية.

١٣٥- متّى

وصل متّى بعد أسبوع. قال لفريد: «لقد أوسعوني ضرباً كما لو كنتُ كلباً أجرب».

لم يرغب متّى إطلاقاً في دخول الدير، لكن المطران كان قلقاً من تدني عدد التلاميذ الذين يلتحقون بالأديرة منذ سنوات، فلم يعد أبناء المدينة في الخمسينيات يرغبون في الالتحاق بالدير، فأرسل تعميماً إلى جميع الكهنة يطلب فيه منهم البحث عن فتيان في جميع القرى المسيحية حتى يصبحوا رهباناً في مختلف الأديرة، وأنهم سيخضعون لدورة دراسية مكثفة لمدة

twitter @baghdad_library

ثلاث سنوات. اغتنم والد متّى هذه الفرصة لكي يتخلّص من ابنه، لكن عندما رفض متّى الذهاب أوسعه والده ضرباً، فلم ير متّى بداً من الهرب.

اختبأ المسكين عند أحد الرعاة في الجبال، لكن فلاحاً رآه بعد أيام قليلة وأخبر والده الذي قيّده في الإسطبل إلى أن جُهِّزت أوراقه المطلوبة لدخول الدير.

«ما لي ولهذه الحياة في الدير؟ لا أريد أن أصبح كاهناً، فما الذي أفتش عنه هنا؟» سأل متّى، «ولن أمضي حياتي كلها في ثوب راهب وكرسي الاعتراف! أريد أن أكون حراً، أريد أن أتنفّس هواء نقياً وأسير وراء الخراف والعنزات مع عايدة، أريد أن أجري وأضحك معها وأن أعارك الخراف وأقبّل صغارها». توقّف ثم أطلق تنهيدة، ونظر إلى ثوبه ثم أضاف «هل تفهمني؟ أقصد، انظر إليّ»، ورفع أطراف ثوبه ليظهر قدميه الكبيرتين وساقيه المقوستين، «أسألك، بحياة أمك، هل شكلي شكل كاهن؟»

لم يتمالك فريد نفسه عن الضحك. بالفعل، كان شكل متّى غريباً، وبدت الندب التي لم يلحظها فريد من قبل في رأسه قبيحة بعد أن حلقوا له شعره، وغدا وجهه برأسه الحليق أكثر غباءً وسذاجة. كانت يدا متّى كبيرتين مكسوتين بجلد خشنن مثل يدي أيّ مزارع.

عرف فريد من أمه يعرف قصة الحبّ بين متّى وابنة عمه عايدة، لكنّه كان حبّاً محرّماً لأن عايدة رضعت كطفلة من صدر أمّه فأصبحت هي ومتّى شقيقين بالرضاعة.

أصبحت عايدة، الفلاحة القوية التي نضجت مبكراً، تدير رؤوس الشباب في معلا منذ أن بلغت الثالثة عشرة، لكن لم يعجبها أيّ من الرجال الذين تقدموا للزواج منها، ولم تعشق إلا هذا الفتى الذي يشبه الغوريلا والذي لم يتمكّن من بلوغ الصف الرابع إلا بعد أن أصبح في الرابعة عشرة من عمره.

*

شعر فريد بالأسف على متّى الذي بدا له مثل طفل ضائع في هذا

الدير، وساعده في الأيام الأولى من دخوله سلك الرهبنة. وقد سمح له المدير بأن يحتفظ باسمه لعدم وجود تلميذ آخر يدعى متّى، تيمناً باسم أحد الإنجيليين الأربعة.

«إنك الحظ الوحيد لي في هذا المكان التعيس»، ظل متّى يردد. كان يجد صعوبة كبيرة في التحدث باللغة الفرنسية، بل في قراءة الكتب بشكل عام.

عندما قابل بولس متّى لأول مرة راق له على الفور. فقد مثل متى في عينيه قوة الطبيعة، جامحاً قوياً طيب القلب بفطرة. ولم تمض فترة وجيزة على وصوله، حتى قُبل عضواً في الجمعية السرية «الإخوة السوريون».

ساعد العمل الزراعي في الحقول طوال الصيف متّى على الاستقرار، فقد كان يتفوق على الجميع في عمل الحقول في حصاد وجني المحاصيل وحلب الماشية. فعندما كان متّى يتنشق هواء نقياً كان يشعر بأنه يعيش في مكانه الطبيعي، وأُعجب بولس بقوّته عندما يعمل ويتسلّق الأشجار بخفة ورشاقة مثل قرد ثم يؤدي ألعاباً بين الأغصان مثل فنان سيرك.

كيس خيش مليء بالقمح يزن أكثر من ستين كيلوغراماً. لم يكن ذلك مشكلة بالنسبة لمتّى. فقد كان يرقص والكيس على ظهره، و يُحَمِس حتى الأخ يعقوب أن ينسى عمله ويصفّق له ويضحك حتى تطفر الدموع من عينيه.

لكن ما إن يعود متّى إلى الدير حتى يصبح فتى شارد الذهن عديم الفائدة. حتى إنه لم يستطيع كتابة وصف قصير ليومه الذي أمضاه في الحقول. راح فريد يدرّبه كل يوم، و لكن يأس متّى ازداد مع اقتراب بدء الفصل الدراسي.

كان عقل متّى في مكان آخر تماماً، ليس أثناء الدروس فحسب، إنما كذلك خلال التدريب الذي صار فريد يقدمه له يومياً. ولم يستوعب أسهل العمليات الحسابية، وكان يقول لفريد في كلّ فرصة بأنه سيهرب، ويردد بغموض: «سيأتي الوقت».

twitter @baghdad_library

أما في اجتماعات جمعية الإخوة السوريين السرية فقد كان يقظاً ومفعماً بالطاقة، وكان يفعل كلّ ما يطلبه منه بولس.

١٣٦- الأخ نقولا

رقصت رنا عارية وجسدها يتوهّج بلون وردي في ضوء نار شجرة الدردار المشتعلة. جلس فريد عارياً أيضاً على العشب الرطب. كان كلّ شيء معتماً ماعدا رنا، لكنه أحس بدفء في ظهره. بغتة جلست رنا مقرفصة في حضنه مباعدة بين ساقيها. توهج وجهها كأنه يحترق. رشّ أحدهم ماء بارداً من سماء مظلمة على فخذي فريد فسرت رعشة في أنحاء جسمه.

استيقظ. كان الظلام لا يزال مخيّماً. أحس فريد بأن قد بلّل تحته. خلع سرواله الداخلي بسرعة وجفف به خصيتيه الرطبتين وارتدى سروالاً نظيفاً، ثم ارتدى فوقه سروال منامته، ووضع السروال الداخلي المبلل بين الفراش وهيكل السرير الحديدي. لم يكن من الممكن إعطاؤه للغسيل.

كان الأخ نقولا، مسؤول الغسيل، رجلاً ضئيلاً أسمر البشرة. قيل إنه، كان تلميذاً متفوقاً اصاب شيئاً من الشهرة في الدير بمقالاته الجريئة الذكية حول المسائل اللاهوتية الصعبة، لكن قبل ترسيمه كاهناً بفترة وجيزة، سقط من فوق شجرة أثناء جني الثمار، فدخل في غيبوبة لفترة طويلة، وعندما صحا، استحال إلى شخص بسيط، ضعيف العقل، ومع أنه كان يريد الاستمرار في خدمة الدير،لم يكن قادراً على أداء المهام التربوية الصعبة، فأصبح يعمل في المغسلة الكبيرة.

كان على التلاميذ تسليم ثيابهم الوسخة في كيس للغسيل كل أسبوع، ولكي لا يحدث أي خطأ، كانت تُعلَّم كلّ قطعة بتاريخ ميلاد صاحبها والحروف الأولى من اسمه. حدّثه مارسيل إن نقولا يوم سقط من الشجرة تحوّل إلى إنسان آخر، فقد نقص عقله وصارت حاسة الشم لديه مرهفة

كالكلاب. يشمّ الملابس قطعة قطعة، وما إن يكتشف رائحة سائل منوي في أيّ قطعة منها حتى يسلّمها إلى الأب إسطفان، فيعطي الأب إسطفان التلميذ صاحب السروال مشروباً من عصير عدة نباتات من بينها الكافور، «يمكن أن يجعل قضيبه عاجزاً إلى الأبد، صدقني»، أنهى مارسيل كلامه. ظنّ فريد أن صديقه يمزح.

في أحد الأيام رأى الأخ نقولا وهو يشمّ سروالاً داخلياً وعيناه مغضمتان، ثم ألقى به في عربة غسيل كبيرة مليئة بالقمصان. أخذ سروالا آخراً فجأة، شمّه مرة أخرى ثم أطلق صيحة «نعم!» بدت مثل صهيل ثمّ بحث عن الحروف الأولى لاسم صاحبها وتاريخ ميلاده ودوّنها. إذن لم يبالغ مارسيل أبداً، قال فريد لنفسه.

بدأت أحلام فريد الجنسية تتكرر أكثر فأكثر في هذه الأيام، وأحسّ بأن رنا أصبحت أقرب إليه أكثر من أي وقت مضى، وعندما كان ينتهي كان يدسّ سرواله الداخلي الدبق تحت الفراش.

كان بعض التلاميذ يغسلون سراويلهم الداخلية سراً إذا احتلموا ويعلّقونها في الغرفة العلوية لتجفّ. كان فريد يشمئز من رؤية الثياب المجفّفة هناك المتصلبة كألواح خشبية، وعرف من مارسيل أن ذلك لا يجدي نفعاً. فقد قال له: «إن كل غسيل يدوي لا ينفع مع الأخ نقولا أيضاً» وأضاف «عنده عمّ يجلب له باستمرار سراويل داخلية جديدة ويلقي بالسراويل الملوّثة، بعد أن يلفها جيداً، في صندوق القمامة الكبير، ويقصّ الحروف الأولى من اسمه حتى يصبح في مأمن».

عندما دفن فريد أربعة عشر سروالاً داخلياً تحت فراشه، كتب لأمّه رسالة وأرسلها سراً بواسطة سائق الحافلة، طلب منها أن ترسل له دزينة من السراويل الداخلية عليها العلامة المعتادة (FM230640).

بعد ثلاثة أسابيع أحضر له بولس الرزمة.

twitter @baghdad_library

قلبي الغالي،

ها هي السراويل الداخلية. إنه دير مضحك. بحق السماء ماذا تفعل بكل هذا العدد من السراويل؟ كانت ليلى هنا وساعدتني في خياطة الحروف الأولى من الاسم. ضحكنا كثيراً، وقالت إنه لو سمع والدك بأنك تحصل على سراويل داخلية أكثر من مسبحات الصلاة فإنه سيكفر بكل الأديرة ويشهر إسلامه.

ليلى تشكّ في كلامي بأن الدير قد تحوّل إلى مرقص ليلي، وتظن أنك لا بد أن تكون جائعاً إلى درجة أنك أصبحت تقرض سراويلك الداخلية.

مع الحبّ،

المخلصة لك بائعة السراويل الداخلية.

كلير

وضع فريد السراويل الداخلية الجديدة بسعادة في خزانته ثم أخذ يجري في الباحة حيث يمضي باقي تلاميذ الدير ما تبقى من الوقت قبل أن يقرع الجرس إيذاناً ببدء العشاء.

«بإمكانك أن تزوريني أكثر الآن»، همس لرنا برقة في مخيلته وهو يهبط إلى الطابق السفلي، وقفز الدرجات الأربع الأخيرة قفزة كبيرة واحدة.

١٣٧- أشباح الليل

كان متّى وبولس مختلفين في كلّ شيء، لكن كلاهما كمّل الآخر إلى درجة مذهلة. وكلّ منهما أُعجِبَ بقدرات الآخر. فمتّى أعجب بذكاء بولس وهذا بشجاعة متّى وذراعيه القويين. ، وصار متّى موضع ثقة بولس وصريحاً طيب السريرة يصدّق كل ما يقوله بولس ويطيع كل أمر منه.

وبدا أشبه بمعجزة أن متّى الذي كان لسانه يصاب بألف عقدة ويصبح ثقيلاً بوزن الرصاص وهو يحاول إنهاء جملة واحدة باللغة الفرنسية، قد تعلّم لغة بولس السرية أفضل من أي شخص آخر، مما زاد من تعلق بولس به،

فما إن كان متّى يسمع كلمة جديدة بتلك اللغة السرية حتى تنطبع في ذاكرته على الفور ويرددها من دون أيّ نبرة، ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح بإمكانه أن يتحدّث بها بسهولة مع بولس.

في نهاية آب، دار حديث عنيف بين بولس والأب أثاناسيوس، وهو لاهوتي فظ عصبي المزاج يتحاشاه معظم تلاميذ الدير. بعد ذلك، ذهب أثاناسيوس إلى رئيس الدير واتهم بولس بأنه قال إن المسيح كان أيضاً زعيم عصابة قطاع طرق.

لم يكن ذلك صحيحاً. فقد قال بولس إن المسيح أعظم ثوري في جميع الأزمنة، لكن اللاهوتي البليد الذهن لم يكن يفرّق بين الثوريين وبين قطاع الطرق.

لم يظهر مكسيموس أي رحمة، فلم يترك بولس ينهي تفسيره للأمر حتى نطق على الفور عبارة: إمّا أن يغادر الدير وإما يعلن التوبة. قبل بولس التوبة، وشعر بإهانة كبيرة. كان عليه أن يجثو في الساحة ويطلب مغفرة الكاهن المنافق أثاناسيوس أمام جميع التلاميذ وجميع الآباء.

كرّر بولس طلبه للمغفرة مرّتين كببغاء دون أن تظهر أي تعابير بالتأثر على وجهه لأن أثاناسيوس ادّعى أنه في المرة الأولى لم يسمع الكلمات جيداً. طفرت الدموع من عيني متّى عندما رأى صديقه ولعن فريد الكاهن الغبي من أعماق قلبه.

في ١٤ أيلول، احتفل الدير بالعيد السنوي للصليب المقدّس. بدأ الاحتفال بعد الظهر بإشعال نار ضخمة عند موقف السيارات. وكما تقول الأسطورة فقد عثرت الإمبراطورة هيلانة، والدة قسطنطين، أول إمبراطور مسيحي لروما، على الصليب الحقيقي الذي مات عليه المسيح في القدس في ١٤ أيلول ٣٢٦. في ذلك الزمن، تقول الرواية، تم العثور على ثلاثة صلبان، ولكي تكتشف أي واحد منها الذي صُلب عليه المسيح، وضعت الصلبان الثلاثة فوق ثلاثة رجال في حالة مرض شديد وهم يحتضرون.

twitter @baghdad_library

صليبان أعادا صحة رجلين فتأكدت هيلانة أن الصليب الثالث هو صليب اللصّ السيء الذي صُلب على يسار المسيح والذي سخر منه حتى اللحظة الأخيرة.

أصبح الآن عليها معرفة أي من الصليبين الآخرين هو الصليب الذي صُلب عليه السيد المسيح وأيها الصليب الذي يعود إلى اللصّ الجيد الذي صُلب على يمينه. عرفت القديسة هيلانة، ابنة صاحب الحانة الذكية التي ساعدها جمالها ورجاحة عقلها على أن تصبح إمبراطورة، والتي غيّر تأثيرها على ابنها قسطنطين مسار تاريخ العالم، ماذا تفعل. فقد وضعت الصليبين فوق جثّتين، فعادت إحداهما إلى الحياة كما لو أن صاحبها قد استيقظ من سبات عميق، فعرفت أن الصليب الملقى على ذلك الجسد هو صليب المسيح. أمرت هيلينا بإيقاد مشاعل لنقل رسالة من فلسطين عبر لبنان وسورية إلى القسطنطينية بأنه تم العثور على الصليب الحقيقي. وحتى يومنا هذا، تحتفل الكثير من القرى الجبلية المسيحية بوصول هذا الخبر بإيقاد نار كبيرة في ١٤ أيلول، تماماً كما فعل دير القديس سيباستيان.

ويحتفل التلاميذ والرهبان المبتدئون والرهبان والآباء معاً بهذه المناسبة حتى منتصف الليل تقريباً.

في تلك الليلة، بدا أن الأب أثاناسيوس قد فقد صوابه. فقبل بزوغ الفجر بقليل، سُمع صوته فجأة يطلب النجدة. استيقظ بعض الآباء وركضوا إليه، لكن غرفته كانت موصدة. عندما فتحوا الباب أخيراً بنسخة مفتاح أخرى، كانت تفوح رائحة قوية من مشروب العرق، وكان الأب جالساً على سريره ذاهلاً، سكران تماماً، وكما قيل لاحقاً، كان غارقاً في البول.

دخلت أشباح سوداء من نافذته، دمدم اللاهوتي متلعثماً، وهاجمته في نومه وأفرغت نصف قنينة من مشروب العرق في حنجرته، ثم بالوا عليه أخيراً.

لم تقنع قصّته المتناقضة احداً. لم يقل مكسيموس الذي كسا وجهه لون رمادي شيئاً. عندما تكرر الأمر نفسه بعد أسبوع، أصدر أمره بنقل الكاهن

إلى مستشفى قريب، بعد ثلاثة أسابيع عاد الراهب أثاناسيوس إلى الدير وكان لكثرة الأدوية التي تناولها شبه مصروع.

كان أثاناسيوس لا يزال في حالة توتر شديد، فمنحه مكسيموس غرفة نوم بمشاركة كاهن عجوز أصمّ، وتسلم الأب إسطفان مهمة التعليم الديني.

منذ ذلك الحين اعُتبر أثاناسيوس مجنوناً، وأصبح موضع سخرية تلاميذ الدير جميعاً. لكن تلميذاً واحداً فقط شعر بنشوة المنتصر بصمت، ورفض أن يسخر منه. بولس.

في وقت لاحق، علم فريد من متّى أنه هو وبولس مَنْ أوديا بعقل أثاناسيوس. كانت فكرة بولس لكنه لم يفعل شيئاً لتنفيذها، لأنه اراد ان يبقى إبان العملية بين شهود لكي لا تشير أصابع الإتهام إليه، لذلك قام متّى بتنفيذ هذا العمل الخطر وحده. ولم يشكك أحد ببولس فلقد بقي جالساً يغني الأغاني الدينية إلى جانب رئيس الدير مكسيموس ومع الآخرين الذين تحلقوا إلى ساعات الصباح الأولى حول النار.

لم يشعر فريد فقط بإعجاب كبير بذكاء بولس وشجاعة متى بل هيمن عليه إحساس بالبعد والعزلة وأيضاً بشيء من الحسد لأنه بدا أن متّى وبولس يثق أحدهما بالآخر ثقة مطلقة.

١٣٨- الفراق

كان الأب دانيال، عالم رياضيات الدير، رجلاً نحيفاً طويلاً، يطلق عليه التلاميذ اسم «مسيو إنتغرال» ويعني ذلك سيد التكامل، الأمر الذي سرّه أيّما سرور، وكلما سمع ذلك ضحك من كلّ قلبه. أحبه التلاميذ لتواضعه ورهافة حسه، وكان يتمتع بحس فكاهة، ويقدّر ويحترم الطلاب الأذكياء ومنهم بولس، وعبّر وحده بين كل الكهنة علناً عن استيائه للتوبة التي أُرغم بولس على ترديدها. لكن اللجنة التأديبية صممت على أن تجعل من أحد التلاميذ عبرة للآخرين.

وفي أحد أيام شهر أيلول طلب بولس من فريد مرافقته لزيارة الأب

twitter @baghdad_library

دانيال. احتسيا الشاي وتناولا بعض السندويشات اللذيذة. أخذ بولس يجادل الكاهن بانفتاح شديد كما لو كانا أخوين، ثم لعبا الشطرنج. كان دانيال يجيد اللعبة أكثر مما يجيدها بولس، لكنه لم يكن يتباهى بذلك. «لم أدعك تربح حتى أشجّعك على أن تلعب بشكل أفضل في المرة القادمة»، قال مواسياً.

وأخيراً تطرق الحديث إلى غابرييل، وفوجئ فريد عندما سمع الأب دانيال وهو يتحدث بصراحة عن ضعف الراهب.

فقد قال: «لن يرتقي غابرييل إلى مرتبة أعلى لأنه ينتقد الكنيسة الكاثوليكية كثيراً. إنه أذكى من لويولا ولوثر، لكنه لا يملك شجاعة أي منهما»، ولمرة واحدة تحوّل بولس إلى دبلوماسي ولم يتحدث بالسوء عن عدوه، لكنه استمتع بلذة ظاهرة بحديث الأب دانيال الذي صرح به دون أية شماتة.

وفي أوائل تشرين الأول، بعد سنوات من العمل الدؤوب والصبور، تمكن غابرييل من إلغاء عادة تمرير القرص «العلامة» ولم يعد يُرى ذلك المشهد القبيح لتلميذ جاث في قاعة الطعام.

هلل الطلبة وكثير من الكهنة لهذا القرار الذي أعلنه الأب مكسيموس مادحاً جهود الأخ غابرييل في خطبة قصيرة قبل العشاء. وصرح مكسيموس عن أمله بأن يظل الطلبة والرهبان منضبطين بالتكلم بالفرنسية دون قهر وإجبار بل بمتعة كما تستحقه هذه اللغة الجميلة. عمَّ الفرح ولم ينزعج أحد لهذا الحدث الجميل إلا بولس لأنه مع توقف هذه الممارسة، لم يعد الكثير من التلاميذ يرون ضرورة لوجود جمعية سرية، فانفضوا عنه.

١٣٩- اللقاءات

كان يوم الأحد ذاك جميلاً دافئاً عندما طلب الأخ غابرييل أن يحدّثه ثانية. بينما كان فريد على وشك أن يجلس، نظر غابرييل من النافذة وقال: «لا، لنخرج ونستمتع بشمس كانون الأول».

كانت إدارة الدير قلقة لارتفاع عدد حالات الإصابة بالإنفلونزا و

والرشح والسعال بين التلاميذ، فسمحت للجميع بالخروج. فُتحت البوابة، وبدأ عدد من التلاميذ يخرجون بعد الغداء يتمشّون أو يجلسون على المقاعد في الحديقة ويستمتعون بدفء الشمس. تبع فريد غابرييل على طول الدرب وراء بيارات البرتقال باتجاه البحر.

كانت الأمواج عاتية، تهدر وتتكسر على الشاطئ، فيتناثر الرذاذ من مصدات الأمواج. أخذ فريد نفساً عميقاً ثمّ خلع صندله ومشى حافياً.

«عندما كنت صغيراً» قال غابرييل، «كنت أعيش مع جدتي. فقد ماتت أمّي في مصنع تعليب سمك السردين الذي كانت تعمل فيه. كان حادثاً مأساوياً، فقد دهستها شاحنة ترجع إلى الوراء عندما كانت تكنس الساحة. وجّه أبي اللوم إلى سائق الشاحنة وقال إنه تعمّد قتلها لأنها لم تستجب له».

«هل تصدق ذلك؟» سأله فريد.

«لا، لكن موت أمّي أفقد أبي صوابه. وعندما لم يكن بوسع شيء أن يهدئ من روعه، طُرد من المصنع. فعاد إلى البحر لصيد السمك. كان صيّاد سمك قبل أن يتزوج أمي، يحبّ البحر ووحدته. لكنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الأطفال، فأعطانا - أنا وأختي وأخي الأصغر - إلى والديه. كانا فلاحين. كان جدّي رجلاً قوياً بسيطاً، أما جدتي فكانت مجنونة ولديها القدرة على استبصار المستقبل. لم نكن نفهم الكثير عن هذا الأمر. وفي أحد الأيام ذهبت معها لصلاة القداس. لم تطأ قدما جدّي الكنيسة قط. توقّفت جدتي فجأة خارج الكنيسة وسألتني، «هل تسمع صوت العوارض الخشبية وهي تصرّ وتئنّ؟» أصخت السمع لكنّي لم أسمع شيئاً.

فقالت بحزم: «لن ندخل الكنيسة. فهي على وشك أن تتهاوى» وأمسكتني بيدي وعدنا إلى البيت بخطوات ثابتة. سخر جدّي من أفكارها المجنونة.

«كنا جالسين على الشرفة وكان باستطاعتنا رؤية ساحة القرية والكنيسة من أعلى التلّ. كانت الأجراس تدقّ معلنة بداية القداس. أغمضت جدتي عينيها ولبثت ساكنة. وبغتة ومن دون سابق إنذار، انهارت الكنيسة برمتها.

twitter @baghdad_library

لم يقرع الجرس في البرج إلا مرة أخرى فقط ثم صمت وتصاعد الغبار. في البداية انهار السقف ثم انهارت الجدران ودفنت سبعين شخصاً تحت أحجارها. لم ينج من هذه الكارثة إلا خمسة أشخاص وثلاثة أطفال، أصيبوا إصابات بالغة. وحتى الآن لا أعرف لماذا لم تحذّر جدتي المصلين».

صمت غابريل، وراح يضغط بقدميه في الرمل بقوة، ثمّ قال دون أن يرفع بصره إلى فريد «ابتعد عن بولس فقلبه مفعم بالكراهية، وهذا ليس من شيم المسيحي». ثبّت نظره في البعيد، وسار فريد إلى جانبه صامتاً، وتوقع أن يدعوه غابرييل للانضمام إلى اجتماعات جماعة المسيحيّين الأوائل، لكن الراهب لم يقل شيئاً آخر، بل ابتسم بارتياح كما لو أنه أزاح عن كاهله عبء تحذيره.

كانا على وشك العودة عندما ظهر بولس مع حفنة من التلاميذ العائدين إلى الدير. حيّا بولس غابرييل، ونظر إليه فقط كما لو كان يتقصد تجاهل فريد.

في ذلك المساء قال متّى إن بولس تلقى رسالة من أمّه تقول فيها إنها تريد أن تأتي لزيارته قريباً. ثمّ غيّر متّى الموضوع. كان يبدو كأنه يريد أن يُفرغ ما في صدره، تردد قليلاً، ألحّ عليه فريد أن يفضي له بما يثقل صدره، فقال إنه فوجئ من نظرة بولس المشدوهة عندما صادف في مسار حكاية رواها متّى عن طفولته أن ذكر اسم فريد مشتاق. فسأله بولس مرّتين إن كان متأكّداً من أنه يقصد بفريد برنابا بالذات وإن كان يعني بجد أن كنية فريد هي مشتاق وأنه من معلا حقاً. وقال متّى إنه لم يفهم إطلاقا سبب دهشة بولس تلك.

عندما رأى فريد بولس في اليوم التالي، قابله بجفاء.

«كيف حال أمّك؟» سأله فريد. لم يجب بولس على الفور، بل رمقه بنظرة متجهمة.

«وماذا يهمك أنت من أمي؟» أجاب، «ولماذا علي أن اقول لك شيئا عن أمي وانت لم تخبرني لماذا تصاحب غابرييل هذه الأيام؟»

اعترى فريد شعور بالحيرة للحظة، فلم يتوقع منه هذا الجفاء.

«إنك مخطئ تماماً بشكوكك فالأخ غابرييل شخص ودود كالعادة وقد ساعدني كثيراً».

قالها فريد بكل صدق وحميمية لكنه شعر كما لو كان يتحدث إلى جدار من آجر.

١٤٠- هروب متّى

كان المعلمون يبدون تساهلاً كبيراً مع التلاميذ الذين يأخذون الدورة السريعة ليصبحوا كهنة في القرى، أما بالنسبة لمتّى، فلم ينفع معه أي تساهل أو صبر. واقترح الأخ غابرييل إعادة الفتى إلى بيته في أقرب وقت ممكن، لكن إدارة الدير لم توافق، واعتبرت أن إخضاعه للنظام وتأديبه هي التربية الوحيدة المناسبة.

أطاع المعلمون. وهكذا بدأت محنة متّى في كانون الأول ذاك. فقد كان يُرغم على الركوع لأدنى خطأ يرتكبه، وإذا لم يُجْدِ ذلك نفعاً، كان يطلب منه الوقوف في مواجهة الحائط خلال فترة الدرس. تحمّل متّى كلّ ذلك بصبر جمل. لكن العقاب التالي كان أشدّ إيلاماً: فلم يُسمح له بالخروج إلى الباحة لتنشق هواء نقي خلال الاستراحة بين الدروس، وأرغم على البقاء في قاعة الدرس ليكتب صفحات كاملة لا معنى لها. في تلك الفترة نسي فريد وبولس الجفاء بينهما بغية مساعدة متّى، وعرضا أن يقوما بتدريبه، لكن رئيس الدير مكسيموس رفض الفكرة وقال إن المشكلة لا تكمن في جهل متّى، بل في انعدام الانضباط الذاتي لديه وعناده وتمرده البدائي الذي يحاولون كسره بالعقوبات لكي يصبح متمدناً.

كان باستطاعة فريد رؤية معاناة صديقه، فقد تلاشت ضحكته، ومع أنه كان يبذل كل ما بوسعه حتى يحرز تقدماً في دراسته، كان يزداد فشلاً.

خلال كانون الثاني الشديد البرودة ذاك جاءت أمّ بولس لزيارته، عندما علم فريد بالزيارة تمنى لبولس أن يجد الزيارة ممتعة وعرض عليه بعض النقود يقدمها هدية لأمّه. آملاً بذلك أن تدخل البهجة إلى نفسه ومصالحته.

twitter @baghdad_library

رمقه بولس بحدة ولم يجب ثم تركه وحيدا وذهب دون أن ينبس بكلمة. ساور فريد القلق. حاول أن يعرف من متّى ما الذي جعل بولس يشعر هكذا فجأة بالعداء نحوه، لكن متّى لم يعرف بدوره أي تفسير لذلك أيضاً.

في مكان بعيد جداً عن الدير، اكتشف فريد الجواب من بولس نفسه بعد أربعة عشر عاماً.

في الليلة التالية، قفز متّى من نافذة غرفة الغسيل في الطابق الأول إلى شجرة وهرب تحت جنح الظلام. عندما أطلق الراهب المناوب الإنذار في صباح اليوم التالي، طلب رئيس الدير مكسيموس مارسيل وبولس وبرنابا.

كان بولس شاحباً من شدة الغضب واشتمّ رائحة خيانة، لكنه لم يستطع أن يقول الكثير، لأن مكسيموس بادر فريد بالجفاء أيضاً، مؤدياً دور المحقق الجنائي الفظ.

«أعرف أنكم جميعاً تشكّلون عصبة»، قال مكسيموس بحدّة، ونظر إلى بولس وقال: «أما أنت، فكان يجب عليك أن تخبرنا أن ابننا متّى بحاجة إلى مساعدة».

أطرق بولس رأسه إلى الأرض.

«برنابا، هل كنت تعرف أن متّى كان يخطّط للهرب؟» سأل رئيس الدير.

خاف فريد فكذب وقال: «لا».

كان مارسيل العضو الوحيد في الثلاثي الذي لم يكن يعرف حقاً أي شيء عن هروب متّى. لكنّ الواقع أن متّى كان يائساً وطلب من بولس وفريد أن يساعداه، وأخبرهما إما أنه سيهرب أو أنه سيختنق هنا. وبعد أن رفض رئيس الدير عرضهما بإعطائه دورساً إضافية، أعطى فريد متّى مائة ليرة وقدم له بولس عنوانين في مدينة اللاذقية يمكنه الاختباء فيهما.

عندما نفى مارسيل أيضاً بأنه يعرف شيئاً عن هروب متّى، غضب رئيس

الدير وأمر أن يتناول ثلاثتهم الطعام وهم جاثون على ركبهم لمدّة أسبوع. كانت تلك إحدى أشدّ العقوبات التي يمكن فرضها إذلالاً.

بعد ذلك لم يعد بطرس يكلّم فريد ومارسيل وبولس، وغيّر مقعده مع تلميذ آخر في قاعة الدرس، وبدأ يتحاشى النظر إلى الطلبة الثلاثة وهم راكعون. لم يتأثر فريد كمارسيل كثيراً الذي كان يحب بطرس. ولم يهتم فريد وبولس إطلاقاً بمقاطعة عدة تلاميذ لهما. كان ضمير فريد يعذبه من أجل مارسيل أكثر من حزنه على نفسه، مارسيل الذي أُقحم في هذا الأمر مع أنه كان الطرف البريء، ولم يكن يؤلم فريد الركوع على الأرضية المتجمّدة كما كانت تؤلمه معرفته بأنه خطط مع بولس لهرب متّى بطريقة خرقاء مما مكّن مكسيموس من اكتشاف أنهما من ساعداه على ذلك. وبما أن أحداً من تلاميذ الدير الآخرين لم يبد أيّ تعاطف معهما، بدأ فريد يشعر بأنه تم اختراق «الأخوة السوريون».

لكن بولس لم يقبل وكما شعر فريد لم يتحمل أن يسمع رأياً كهذا، وقال إن غابرييل يتجسّس عليهم وينقل أخبارهم إلى مكسيموس. لم يتمالك فريد عن التفكير بأن بولس يتهمه هو أيضاً وإن بشكل غير مباشر عندما قال «غابرييل».

بالمقابل بدأ غابرييل ينأى بنفسه عن أي حديث مع فريد وصار فجأة يهزّ رأسه مستنكراً كلما التقت عيناه بعيني فريد. حملت نظرته شيئاً من الأسف وكثيراً من الانتقاد. وكان يأكل ويتكلّم ويضحك مع زملائه كأنه لا يرى تلاميذ الدير الثلاثة وهم يُعذّبون أمام عينيه في تلك اللحظة، هو، الروح الحسّاسة الذي لم يعاقب تلميذاً قط، أصبح فجأة بارداً غير مبالٍ بما يجري. آلم ذلك فريد، لكنه تذكر كلمات متّى الأخيرة له «سأشتاق إليك كثيراً. فهذا أسوأ شيء في الهرب».

كان فريد يتمنى أن يهرب أيضاً.

في اليوم الحادي والعشرين من هروبه، عُثر على متّى في قرية غير بعيدة عن الدير وأعيد إلى الدير. خلال الاحتفال بالقداس، شكر رئيس

twitter @baghdad_library

الدير مكسيموس الله لأنه قال إن متّى قد عاد بمحض إرادته، وقال للتلاميذ إن الابن الضال عاد وأنه بحاجة إلى فترة راحة وتفكير إلى أن يعود إلى طبيعته المسالمة ثانية.

لم يصدّق فريد أن مكسيموس الورع يمكن أن يتفوه بمثل هذه الأكاذيب الشائنة. وقد نقل متّى إلى «بيت أيوب» وهو مبنى بعيد عن الطريق يقع وراء الإسطبلات. «إنه سجن للتلاميذ الذين يرتكبون إثماً كبيراً. إنه الجحيم بعينه»، قال بولس «سيجنّ هناك. يجب أن نخبره أننا سنخرجه من سجنه قريباً، وبعدها عليه أن يذهب إلى دمشق مباشرة ويختبئ هناك».

بعد يومين، عندما توقّفت الدروس لاستراحة الظهيرة، تسلل فريد إلى غرفة الزوّار التي يفضي بابها إلى موقف السيارات. اجتازه وتابع طريقه نحو الإسطبل بخطوات ثابتة، وكما طلب منه بولس أن يفعل فقد تصرف كأنه أُرسل إلى هناك لإلقاء نظرة على الحيوانات.

كان الجو بارداً وهطلت ندف الثلج الرطب، وخوت الساحة الباردة من أي كائن على مرمى البصر. عندما وصل إلى الإسطبل انعطف حول الناصية بسرعة ووصل إلى الباب الصغير. كان المفتاح الذي أعطاه بولس إياه مطابقاً. انسلّ إلى الكوخ المعتم وأغلق الباب وراءه بسرعة.

غمره ظلام حالك. أصاخ السمع قليلاً حتى سمع نشيجاً من الطابق الأعلى. بحذر راح يتلمّس طريقه وهو يرتقي الدرج.

من النافذتين الصغيرتين اللتين تكسوهما الطحالب والثلج الموحل حدد نور باهت معالم الغرفة الوحيدة في الطابق الأول هذا. كان متّى قابعاً في إحدى الزاويا، مقيّداً بسلسلة إلى الحائط.

«متّى»، همس فريد.

بكى الفتى عندما عانقه فريد وقبّل جبهته ثم قال: «لقد ضربوني حتى كدت أموت».

«لكنهم لن يستطيعوا قتلك، فأنت من صخور معلا. من ضربك؟ من

هو؟» سأل فريد الذي تملكه غضب مفاجئ عندما رأى وجه صديقه المتورم. كان الدم الجاف يكسو عدة أماكن في رأسه، وكانت يداه وقدماه قانية.

«الأخ يوحنا»، غمغم متّى. فجأة نظر إلى فريد وسأله، «لقد أتيت لتخرجني من هنا، أليس كذلك؟»

«نعم، لكن يجب أن تبقى هنا بضعة أيام أخرى حتى نتمكن من الاتصال مع سائق الحافلة الذي سيأخذك معه. وعندما تصل إلى دمشق لا يمكن لأحد إعادتك إلى هذا الدير اللعين».

«بضعة أيام أخرى؟ تقول بضعة أيام؟» سأل متّى. كان فمه جافاً، «فكّ هذه السلاسل عني وسأشقّ طريقي إلى دمشق. بضعة أيام أخرى؟» كرّر، كاد ينهار، «انظر ماذا فعلوا بي، انظر إليّ».

شعر فريد بتعاسة تغمر كيانه بمرارة. «يجب أن تتحلى بالصبر. سأخرجك من هنا. ثق بي. فأنت لا تزال ضعيفاً جداً. سيلحقون بك ويعيدونك قبل أن تبتعد. ثق بي».

«إني اثق بك، إني أثق بك أكثر من أي شخص آخر في العالم، لكن يوحنا يضربني كلّ يوم ويركلني في رأسي بحذائه. إنه يريد أن أصبح مجنوناً والآن تقول لي يجب أن أبقى هنا؟» قال وهو يبكي كطفل صغير. كاد حزن فريد يفجر رأسه.

كانت المفاتيح لفك السلاسل معلّقة على الحائط، لكن فريد كان يعرف أنّ متّى لن ينجو من محاولة هرب أخرى. نهض وقال: «سأعود حالما أستطيع. لاتقلق. سنتدبر أمر يوحنا»، قال فريد وابتعد. أحسّ كما لو كان قد قيّد هو أيضاً.

«آه يا أمّي ساعديني»، سمع فريد متّى ينوح قبل أن يغلق باب المبنى الصغير وراءه.

بدأت ندف ثلج كبيرة تنزل الآن. من حسن الحظ أن باب غرفة الزوّار لم يكن مقفلاً، وكان عمال النظافة منهمكين في كنسها. لوّح فريد لهم وسار بخطى ثابتة. في الباحة الداخلية بدأ يركض. توجه مباشرة إلى بولس.

twitter @baghdad_library

«سأذهب إلى غابرييل مباشرة. يجب أن يطلب من يوحنا أن يكفّ عن تعذيب متى»، أنهى فريد كلامه.

نظر بولس إليه مرعوباً. «هل جننت؟ غابرييل؟ سيعرف غابربيل على الفور بأنك رأيت متّى، وهذا يعني أنك ستكشف أمرنا. ولماذا؟ لإقناع هذا السادي التعيس أن يبدي شيئاً من الرحمة؟ ألا تتذكّر عندما ركعنا على الأرضية المتجمّدة لأسبوع كامل أمام أنفه تماماً؟ لا، سنتدبر أمر يوحنا بأنفسنا».

«ماذا تقصد، سنتدبر أمره؟» سأل فريد، لكن عندها قرع الجرس معلناً بدء دروس بعد الظهر.

١٤١- العقاب

اكتست الطبيعة حلة بيضاء من الثلج. ومن شدّة البرد تحوّلت ندف الثلج إلى مسحوق جاف يهبّ ويتسلل عبر أي شقّ يصادفه، وتدثر الطلاب بأوشحة واعتمروا قبعات ليتمكنوا من قطع تلك المسافة القصيرة التي تفصل مهاجعهم عن قاعات الدروس.

اتخذت إدارة الدير قراراً بتمديد فترة استراحة الظهيرة من ساعتين إلى ثلاث ساعات، وسمحت للتلاميذ باللعب في الثلج خارج أسوار الدير، وظلت الباحة الداخلية خاوية تقريباً.

راقب بولس المشهد بسرعة ثم أشار إلى فريد الذي خفض قبعته الدافئة على وجهه وتلثم بوشاحه الشتوي وسار وراءه. سار بولس باتجاه ورشة يوحنا، وانسلّ بعد أن تلثم بسرعة وفريد وراءه.

كان يوحنا مستلقياً على سريره الخشبي في الغرفة الخلفية، ماداً ذراعيه ورجليه، يشخر بصوت عال. التقط بولس إنبوباً معدنياً، وحرص على ألاّ يصدر أي صوت. في اللحظة التالية، كان يقف فوق العملاق، وراح يضغط بطرف الأنبوب على حنجرته. استيقظ يوحنا مجفلاً. انتصب في جلسته، محدثاً صوت غرغرة عالية كأنه يقول: «ماذا يجري؟»

حاول أن يقف وهو يحدّق بفريد الملثم بعينين حمراوين تملؤهما الحيرة، لكن ضربة انهالت على جبينه. أصابت فريد رعشة رعب وأغمض عينيه قليلاً. سمع صوت ارتطام جسم يوحنا بالسرير. عندما فتح عينيه ثانية رأى الدم يسيل من جبين الرجل. كان بولس واقفاً أمام يوحنا بلا مبالاة، متكئاً على الأنبوب مثل مبارز بالسيف.

فجأة لوّح به إلى الخلف.

«ماذا تفعل؟» همس فريد مذعوراً.

«سأكسر اليد التي عذّبت متّى»، أجاب بولس، وقبل أن يستوعب فريد ما سمعه تهشمت يد الأخ يوحنا اليمنى تحت الضربة، وسُمع صوت يشبه صوت خشب يتصدع.

«هيا بسرعة، لنخرج من هنا»، صاح بولس ملقياً الأنبوبة جانباً وانسلّ من الباب ثانية.

عندما صحا فريد من هول الصدمة، كان بولس قد خرج واختفى. أحسّ فريد بحنجرته تنقبض من الخوف. لم يتمكن من العودة للانضمام إلى التلاميذ الآخرين الذين كانوا يلعبون في الثلج. أحسّ بالرغبة في البقاء وحده. قبل أن يبلغ البوّابة بقليل استدار ومشى بتثاقل فوق الثلج حتى صحن الدرج بجانب الكنيسة. كانت بطنه توجعه وكان صدغاه ينبضان بقوة.

جلس في المكتبة تحت النافذة نصف الدائرية الصغيرة وتناول كتاب «الغابة» لكيبلنغ من أحد الرفوف وراح يقرأ فيه. لكنّه لم يفهم شيئاً، فلم يعد للجمل التي يقرأها أي معنى. ظل يسمع صوتاً يتردد في داخله: يوحنا يحتضر.

شعر بارتياح عندما سمع صراخ يوحنا فجأة الذي أخذ يتردد صداه عبر الباحة. توقّف تلاميذ الدير عن اللعب ولبثوا واقفين في أماكنهم بلا حركة. كان التعيس يطلب النجدة. أطلق فريد نفساً عميقاً وبدأ يحاول القراءة مرة أخرى عندما أحسّ بكفّ يلامس كتفه.

«ماذا تقرأ؟» سأله غابرييل، مبتسماً.

twitter @baghdad_library

«كيبلنغ، لتزجية الوقت»، أجاب فريد ونظر إلى الطاولة أمامه. عندما رفع عينيه رأى رأس بولس ينظر من باب المكتبة للحظة ثمّ اختفى ثانية.

«الأخ غابرييل»، دعا تلميذ آخر من الباب في الدقيقة التالية. كان وجهه شاحباً. التفت غابرييل بانزعاج وكان على وشك أن يضع سبابته على شفتيه لمراعاة السكون. «لقد هاجم أحدهم الأخ يوحنا. رئيس الدير مكسيموس يريد أن تأتي لعنده بسرعة»، تابع الفتى متحمساً.

توقّفت يد غابرييل وهي ممتدة في نصف طريقها إلى فمه. «بحق الله» صاح وهرع إلى الخارج في الحال. دخل بولس كما لو أنه كان ينتظر خارج الباب طوال الوقت.

«ما الذي يريده منك يهوذا ذاك؟» سأله بارتياب شديد، «لا شيء»، قال فريد.

«هل أنت متأكد؟»

«متأكد»، أجاب فريد.

استدار بولس ليغادر لكن نظرة الإزدراء التي رمقه بها لسعت جلد فريد. عندما استجوب بولس بعد أسبوع لم يعرف فريد لماذا همس مارسيل لفريد أن أحد الآباء الذي كان ينظر من النافذة رأى بولس يغادر الورشة.

«آه، لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً»، أجاب فريد تلقائياً، لأنه لو كان ذلك صحيحاً لكان شاهد العيان المزعوم لا بد أن يراني أنا أيضا، قال لنفسه.

«ما الذي يجعلك متيقناً إلى هذه الدرجة؟» سأل مارسيل بارتياب. عض فريد شفته ولم يقل شيئاً.

«لا أظن أن بولس قادر على فعل شيء كهذا»، أجاب أخيراً، باذلاً ما بوسعه لكي يبدو ساذجاً.

«إنك لا تعرف بولس ولا الأشياء التي يمكنه أن يفعلها»، قال مارسيل بازدراء واستدار.

١٤٢- مارسيل

كان ذلك قبل أن يجلب سائق الحافلة ملابس سميكة وحذاء طويلاً لمتّى بأسبوعين. ولما كان الأخ توما الذي حلّ محل يوحنا، لطيف الطبع، فقد تحسنت صحة الفتى في سجنه قليلاً، وكان فريد وبولس يهرّبان له شيئاً من الطعام يومياً، وكان الأخ توما يغضّ الطرف عن ذلك.

عاد الأخ يوحنا في بداية شباط. كان رأسه لا يزال مضمّداً وذراعه اليمنى في الجص حتى الكتف. لم يكن يتكلم كثيراً، وكان يذرع الساحة جيئة وذهاباً طوال اليوم.

هرب متّى للمرة الثانية في منتصف شهر شباط. لكن لسبب ما اكتُشف هروبه هذه المرة بسرعة، فأوقفت الشرطة التي أُبلغت مسبقاً الحافلة قبل أن تصل إلى الطريق الرئيسي. لم يرغب مكسيموس في أن يعود متّى إلى الدير، وطلب من الشرطة إبلاغ والدي الفتى.

وقد سرت إشاعة مفادها أن والده توجّه إلى مخفر الشرطة وضرب ابنه ضرباً مبرحاً حتى أغمي عليه وسقط على رأسه. عندما استعاد وعيه أصبح فتى مختلفاً وبدأ يتكلّم بطريقة غريبة ومضطربة، فأوصت الشرطة والده بنقله إلى مستشفى المجانين في العصفورية القريبة من دمشق.

اسُتجوب بولس عدة مرات، من نهاية شباط حتى منتصف آذار، لكن عبثاً. انهمرت أسوأ الأسئلة من غابرييل الذي بدا أنه كان يعرف أشياء كثيرة عن الأخوة السوريين، مما جعل بولس يشكّ في ولاء جميع أعضاء الجمعية وعلى رأسهم فريد. لم يصرّح بذلك بوضوح لكن فريد كان يشعر بارتيابه به في كلّ ملاحظة يبديها. أخيراً انفرط عقد المجموعة. اقترب موعد امتحانات الشهادة الثانوية، فأصبح لدى بولس أهداف أخرى الآن.

«بدأ يتصرّف كشخص ورع لأنه يريد الحصول على معونة مالية بعد انتهاء الامتحانات»، قال مارسيل «ليتمكن من الذهاب إلى روما أو باريس والدراسة فيها».

كان الطقس شديد التقلب في بداية نيسان. اعترى فريد شعور باليأس

twitter @baghdad_library

وبضعف شديد وأصيب بالإغماء مرات عديدة فاضطر إلى المكوث في السرير. كان جميع أصدقائه يزورنه، وظل غابرييل يزوره أيضاً.

كان بولس الوحيد الذي لم يزره قط.

كان مارسيل يزور فريد عدة مرات في اليوم وينقل له ما كان يدور من أحاديث وإشاعات ويجلب له باستمرار ما لذ وطاب من الطعام. في أحد الأيام أفضى لفريد بأنه سيغادر الدير في نهاية العام الدراسي، ولن يسمح بعد الآن لأيّ من الآباء أن يلمسوه أو يعاقبوه بعد الآن.

«كيف استطعت أن تفعل ذلك بحق السماء؟» سأله فريد مندهشاً.

«الأمر بسيط. فقد اكتشفتُ عدم وجود أحد من العاملين في مكتب السكرتير في فترة القيلولة، ولم يكن هناك أحد يرد على الهاتف. كانت المشكلة الوحيدة تكمن في رئيس الدير مكسيموس الذي يمضي تلك الفترة في مكتبه. انتظرت حتى سافر لأسبوع إلى حلب وفتحت باب المكتب بقطعة سلك، واتصلت بالبيت وقلت لأبي إنه إذا لم يأت ويخرجني من هنا فإني سأنتحر، وعندما سألني من أين أتصل معه فحدّثته عن السلك وعن المكتب الفارغ فصاح أبي كالمجنون. لقد فقد صوابه لأنه خشي أن أتعلّم في الدير أشياء تجعل مني مجرماً. كان هذا هو الحل الوحيد، ولفرحتي ألقى والدي بعد أيام باللوم على رئيس الدير مكسيموس لأنه دفعني إلى تعلم وممارسة أشياء سيئة، بدل أن يسهر على تربيتي تربية مسيحية، وصرخ على الهاتف وهو يطلب منه أن يدعني وشأني خلال الفترة المتبقية من السنة الدراسية وإلا فسيرفع دعوى ضد الدير ويخرب صيته».

«وأنا أيضاً لا أريد البقاء هنا»، قال فريد، «هل يمكنك أن تتصل بأمّي وتطلب منها أن تأتي إلى هنا على الفور؟ وإذا أجاب أبي على الهاتف أغلقه فوراً، فمن العبث محاولة التكلم معه».

بعد يومين نقل له مارسيل خبراً يفيد بأن كلير ستأتي بأقصى سرعة عندما تستطيع ذلك، وأخبر فريد أيضاً بأن رجلاً من إدارة التحقيقات الجنائية

استجوب بولس مرة أخرى، وقال له إن بولس حدّثه بالسوء عن الأخ غابرييل وعن فريد.

مرّ المشهد في المكتبة في ذاكرة فريد عندما رآه بولس مع غابرييل في اليوم الذي ارتكبا فيه فعلتهما. في تلك اللحظة، عرف أنّ بولس يتّهمه بالخيانة.

١٤٣- الوداع

زاره غابرييل مرة أخرى. كانت ابتسامته اللطيفة ترتسم على وجهه مزيفة كقناع، وحدّثه باستفاضة كيف أن بولس أصبح صعب المراس في الآونة الأخيرة، وقال إنه خيّره بأن يغادر الدير بمحض إرادته أو أن يُطرد منه، فانهار بولس و توسل أن يبقى حتى ينهي امتحاناته، لكن إدارة الدير رفضت ذلك. كان المحقق الجنائي متيقناً من أنه شارك في الهجوم على الأخ يوحنا، مع أن مصلحة الدير كانت تكمن في إسقاط هذه القضية لكي لا تحدث فضيحة في الصحافة. وأضاف أنه تمكن من الحصول على مهلة لإرجاء العقوبة على بولس، وقال غابرييل إنه يجب أن يغادر الدير، لكنه يستطيع البقاء حتى بدء الامتحانات التي ستجري في أوائل حزيران في مدرسة داخلية قريبة يملكها الدير، لأنه لا يريد أن يرى هذا التعيس بولس محطماً ويعود إلى بيته من دون حصوله على أيّ شهادة.

سمع فريد في صوت غابرييل نبرة التشفي والكراهية تجاه بولس. تملكه خوف غريب من إمكانية أن يسمع بولس بزيارة غابرييل له، لأنه عند ذلك ستتأكد شكوك صديقه السوداء، لذلك اعتذر فريد من غابرييل بحجة أنه منهك واستلقى في السرير، فأدرك غابرييل أن وجوده لم يعد مرغوباً فيه، وتوقّف في منتصف كلامه وغادر الغرفة.

في تلك الليلة ارتفعت درجة حرارة فريد، وفي طريقه إلى دورة المياه سقط وارتطم رأسه بالأرض وأغمي عليه. عندما أفاق أحسّ بالتعاسة، ورأى

twitter @baghdad_library

أكثر من عشرة وجوه قلقة ترمقه. كان رأسه مضمّداً، وصدغه مجروحاً. كان مارسيل يبتسم له وظل يربت على يده.

في اليوم التالي، جاء الأب سيمون، طبيب الدير، ليفحصه. دخل الغرفة دون أن يلقي تحية وراح يخرج معداته من حقيبة جلدية قديمة، ثم قال متأففاً: «هيا، هل تحتاج إلى دعوة خطية حتى تكشف عن صدرك؟»

مرّر سماعة باردة كالثلج على ظهر فريد وصدره، ثمّ وضع أدواته جانباً. في تلك اللحظة دخل الأب إسطفان، المحقّق، وهمس في أذن الطبيب. للمرة الأولى في حياته سمع فريد كلمة «متمارض».

هز المحقّق رأسه ورمق فريد الذي ارتدى سترة منامته.

«يا بني»، قال المحقّق، وقد غلّف كلماته بسحابة كثيفة من رائحة فمه الكريهة، «يجب أن تثق بي. فأنا أريد أن أساعدك. ما الذي يزعجك؟ ومما تخاف؟ ما الذي يجعلك تنسحب من المدرسة وتنكفئ عن رفاقك؟ ما الذي يجعلك تجرح رأسك هكذا؟ هل لكل ذلك علاقة بما فعله صديقك بولس؟ يمكنك أن تخبرني بكلّ شيء».

شعر فريد بكراهية للضعف الذي اعترى جسده الذي أبقاه مستلقياً في السرير، وأحسّ بأنه أصبح محاصراً. لماذا لا يستطيع أن يطير من النافذة مثل طير؟

«احذر يا بني لأنك إذا لم تدعنا نساعدك فإن الأب سيمون سيخبر رئيس الدير بأنك متمارض وستعاقب على ذلك لأن ما فعلته يعتبر خداعاً».

هكذا إذن، قال فريد لنفسه، يريد هذا المحقّق الحقير إلقاء الأمر كله عليّ لأنهم ليسوا متأكّدين بعد من بولس. إنهم بالحقيقة لا يعرفون شيئاً عنه ولا يزالون يتهمونه بدون أي دليل. إنه انتقام غابرييل الرخيص. هذا الثعبان! إنهم لا يشعرون بالشفقة على بولس، على الإطلاق! وهم يعذّبونه بالتأكيد.

«ماما»، صاح فريد بأعلى صوته. انتاب الأب إسطفان ذعر شديد فألقى بنفسه على الصبي، لكن فريد انسلّ من الجانب الآخر من السرير وجرى نحو

النافذة المفتوحة ولم يكفّ عن الصياح «ماما». تعثّر إسطفان وهو يجري وراءه، لكنه تردّد فجأة فتوقّف ومدّ له يديه بشيء من التوسل دون أن يخطو خطوة ثانية بإتجاه التلميذ برنابا الذي أوشك ان يقفز من النافذة، تراجع على مهل وكأنه في حقل ألغام ثمّ جرى خارجاً من المهجع.

في الخارج، كان الربيع مشرقاً بألوان براقة نضرة، لكن الجو كان لا يزال بارداً كالصقيع في المهجع. بدأت أعداد متزايدة من الأشخاص تتجمع في الساحة عند موقف السيارات وتنظر بهلع للنافذة في الطابق الأول. عرف فريد سائق الحافلة والميكانيكي والأخ نقولا من غرفة الغسيل وآخرين. راح يصرخ بكل ما أوتي من قوة ولم يتوقّف عن الصراخ حتّى عندما أمسكت به أيد قويّة من كتفيه. عندما استدار رأى الأخ يوحنا ينظر إليه مشفقاً، ووقف رهبان آخرون وراء يوحنا. كان بينهم غابرييل، شاحب الوجه. تملّص فريد من يوحنا وصاح «دعني أذهب أيها المجرم»، وابتعد حتى أصبح سريران يفصلان بينه وبين يوحنا الذي لم يكن في الحقيقة يحاول أن يمسك فريد، لكنه ظل ينظر إليه فاغر الفم.

«هدّئ من روعك يا برنابا»، توسل غابرييل بهدوء متجهاً نحوه. تراجع فريد وصاح مرة أخرى «ماما»، كان صراخه يجلجل وكأنه فقد صوابه.

في تلك اللحظة، بعيداً في حارة الزيتون الدمشقية، سمعت كلير صوتاً يناديها. نظرت من نافذة مطبخها ثم عادت إلى حوض المغسلة.

«يا أمّ يسوع، يا مريم العذراء، أرجو ألاّ يكون قد حدث مكروه لفريد»، همست.

١٤٤- لبؤة

عندما أفاق فريد كان فمه جافاً من الظمأ، وغشاوة رمادية تغشى عينيه. كان المهجع الذي ينام فيه فارغاً. أحس رأسه ثقيلاً كالرصاص، وحاول أن ينتصب في جلسته لكنه اكتشف أنه لا يستطيع تحريك ذراعيه وساقيه. استغرق وقتاً حتى أدرك أنه مقيّد في السرير. شيئاً فشيئاً، تذكّر أن أحداً كان

twitter @baghdad_library

قد أمسك به من الخلف عندما كان يحدّث غابرييل ثمّ ألقي به على سرير وحقنوه في أعلى ذراعه. لا يعرف كم ساعة أو يوماً ظل مستغرقاً في النوم.

جاء مارسيل لزيارته في حوالي منتصف النهار. همس له «أمّك هنا. لقد أقامت الأرض ولم تقعدها»، ثم استدار وهرع خارجاً.

بعد قليل جاء غابرييل برفقة راهب مربوع القامة لم يره فريد من قبل. كان التوتر بادياً على وجه غابرييل، ثم قال له: «لقد وصلت أمّك. هل كتبتَ لها رسالة أو أيّ شيء؟»

«لا»، قال فريد، بينما أخذ الراهب الذي يرافق غابرييل يفك قيود فريد.

«إنها قلقة لكنّنا لا نريدها أن تراك مريضاً في السرير. هل تستطيع أن تنهض؟» سأله غابرييل، كما لو أنه كان قلقاً حقاً من أجل أمّ فريد. اعتدل فريد في جلسته. كان لا يزال مذهولاً ويشعر بوهن كبير، لكن كان عليه أن يصل إلى كلير. ساعده الراهب في ارتداء ثوبه وربط له إبزيم صندله. لم يدعه فريد يزيل الضمادة من على رأسه.

«إنها في غرفة الزوّار»، قال غابرييل الذي وقف عند النافذة يحدّق في البحر دون أن يلتفت كما لو أنه كان يريد تجنب النظر إلى فريد، حاول الراهب الثاني مساعدته لكن فريد لم يسمح له. راح يمشي مترنحاً لكنّه كان يريد أن يذهب إلى أمّه وحده.

عندما فتح باب غرفة الزوّار، كان قلبه يخفق بقوة. كانت كلير تقف هناك مرتدية ثوباً صيفياً أصفر اللون. «ياعذراء»، صاحت ووضعت كلتا يديها على فمها كأنها خجلت من فزعها. نظرة واحدة في المرآة الكبيرة المنتصبة قبالة الباب التي عكست صورة فريد تثبت سبب هلع أمّه هكذا. برأسه المضمد ووجهه الهزيل الشاحب، بدا كأنه قد خرج للتو من غرفة العمليات.

«قلبي الغالي ماذا فعلوا بك؟» صاحت وضمت فريد إليها. قبّلت عينيه وجبينه وخديه. «فريد، حبيبي فريد»، ظلت تردد ودموعها تنهمر من عينيها.

«آه يا أمّي، هذا المكان هو الجحيم. لن أبقى لحظة أخرى. إنهم يسيؤون معاملتنا. كنت مريضاً جداً لكن الطبيب قال إنني متمارض، وعندما أغمي عليّ ووقعت على الأرض وشجّ رأسي لم يصدقوني ولم يأخذوني إلى طبيب بل قيّدوني إلى السرير»، قال ذلك بسرعة كما لو كان خائفاً من أن يقترب منه أحد ويمنعه من قول الحقيقة لأمّه، «وحقنوني لتخديري يا أمي».

«يا إلهي، يا لكم من مجرمين! يا لكم من أفاعٍ!»

«هدئي من روعك يا مدام»، قاطعها الراهب المشرف عليهما بقلق. كانت هذه أول مرة يلاحظه فيها فريد جالساً في الظل في نهاية الغرفة.

«أهدئ من روعي؟» صاحت كلير، «اسكت وخذني إلى رئيس الدير حالاً وإلا ذهبت إليه مباشرة بنفسي؟»

تسمّر الراهب في مكانه، لكنه تحرّك بعد ذلك ببطء وخرج من الغرفة، وخرجت كلير تسند فريد بعناية باتجاه الدرج مع الراهب.

قيل إن رئيس الدير قد غادر للتو، فهرع عدد من الآباء والإخوة لإيجاد شخص آخر في إدارة الدير. عندما وصلت كلير وفريد إلى المكتب وجدا نفسيهما في مواجهة جدار صلب من سبعة أو ثمانية رجال يرتدون أثواباً سوداً.

«ماذا فعلتم بابني؟ هل هذا هو فريد الذي جاء إليكم؟»

«مدام، اهدئي من فضلك»، قال الأب إسطفان، «إنه مجرد حادث وقع وقد شجّ رأسه بشكل طفيف».

«حادث؟ أيها المنافق البائس! لقد سمعت ثلاث روايات مختلفة خلال ساعة عن مرض فريد. ماذا تفعلون بهؤلاء الأولاد المساكين؟ إنهم أطفال لكنكم تحوّلونهم إلى عجائز برتهم الهموم، لذلك قيّدتم ابني إلى السرير بدلاً من أن تنقلوه إلى المستشفى؟ سأرفع عليكم قضية على ما جنته أيديكم».

خيّم صمت مطبق. أصبح وجه غابرييل رمادي اللون.

twitter @baghdad_library

«سيأتي ابني معي، الآن وفي الحال. سيذهب إلى المستشفى وستعطونه تقريراً جيداً وبعلامات ممتازة عن عمله هذه السنة».

«لكن مدام لا نستطيع أن نفعل ذلك لأن السنة الدراسية لم تنته بعد»، قال غابرييل.

«في هذه الحالة سأتّصل بابن عمي في الشرطة لتوجيه تهمة ضدكم بأنكم تسيئون معاملة الأطفال. بعدها سيكون من الأفضل لكم أن تغلقوا هذا الدير. لا يوجد عندي مزيد من الوقت. سأحزم حقيبة ابني الآن وإذا لم تجلبوا لي التقرير قبل أن نغادر فيجب أن تتحمّلوا المسؤولية عن العواقب التي ستحلّ بكم. لا تقولوا إني لم أحذّركم»، صاحت وغادرت المكتب وهي تضم فريد إليها.

حزمت الحقيبة بسرعة. رمى فريد ثوبه على سريره، متنفساً الصعداء، وعاد وارتدى ثيابه المدنية، لكنه كان لا يزال يبدو في حالة سيئة للغاية، فقد جعله المرض هزيلاً، ولم يعد سرواله وقميصه وسترته القديمة على مقاسه، مع أنها كانت قصيرة عند الذراعين والرجلين وجعلته يبدو مثل فزّاعة.

كان غابرييل واقفاً عند باب الدير وبيده مغلف. «أرجو أن تعيدي النظر في الأمر. كان برنابا طالباً ممتازاً. كان لبعض التلاميذ الآخرين تأثير سيء عليه، لكن من الآن فصاعداً فإني متأكّد من أن الحياة هنا ستطيب له».

لم تنبس كلير بكلمة، بل مزّقت طرف المغلف بسرعة وأخرجت التقرير وقرأته. شعرت بالرضا، ثم التفتت إلى فريد وقالت: «حسناً، هيا بنا»، وتجاهلت غابرييل.

«إلى اللقاء يا برنابا»، قال الراهب بصوت خفيض ثم استدار ومضى.

كانت سيارة أجرة تنتظرهما عند مدخل الدير.

١٤٥- العودة

كانت بلدة المنارة الصغيرة ميناء صيد تتناثر فيها بضعة بيوت، وبالإضافة إلى الشارع الرئيسي توجد فيها مدرسة ومخفر للشرطة. أما الفندق

الوحيد في البلدة فهو عبارة عن مبنى أصفر اللون بطابق واحد له شرفات صغيرة تطلّ على الشاطئ. وقد عُلِقَ على بابه لافتة مائلة كتب عليها «فندق بانوراما».

«تستطيعان أن تريا قبرص من هنا في نهار صافي الطقس»، قال مدير الفندق متباهياً.

احتوت الغرفة سريرين، وقطع أثاث بسيطة ونظيفة، ولها شرفة صغيرة تطل على البحر، ويعزى انخفاض أجر الفندق إلى عدم اكتشاف السّواح لهذه المنطقة. لم تملك البلدة الصغيرة أية جاذبية، وبدا كلّ شيء فيها يصدأ، ولم تعد للميناء الصغير الذي أقامه الإغريق قبل ألفي سنة أيّ أهمية في العصر الحديث فأخذ مع مرور القرون يتهدم شيئاً فشيئاً. كان الخليج حجرياً، والشاطئ صخرياً وعراً رمادياً داكناً وكئيباً. كانت بلدة المنارة عبارة عن شاطئ صغير لعله كان يصلح في عشرينات القرن العشرين، أما الآن فقد أصبحت مجرد صفّ من البيوت المشيّدة على امتداد الشارع الرئيسي. ويعيش أهالي البلدة من التهريب والتجارة العابرة أكثر مما يعيشون من تجارة السمك الصغير الذي يصطادونه.

تقول القصّة إن سفينة غرقت في البحر قبل خمسمائة سنة وتمكن البحّار الذي نجا من بلوغ هذا الشاطئ المهجور وبنى منارة وأقام فيها. وكان يبقي المصباح مضاء ليلة بعد ليلة لكي يرسل نوراً كافياً إلى البحر، وقيل إنه أنقذ أرواحاً كثيرة. وفي أحد الأيام أنقذ امرأة قفزت من فوق سفينة هرباً من زوجها. أُعجبت المرأة بمراقب المنارة وعاشا معاً بسعادة. مرت السنوات، وفي ليلة عاصفة أنقذا معاً قبطاناً غرقت سفينته في البحر قبالة الشاطئ. كان ذلك القبطان هو زوج المرأة السابق، لكنه كان قد تغيّر كثيراً خلال تلك الفترة فعادت المرأة وأحبّته، لكنّها لم تشأ أن تهجر مراقب المنارة.

فتح القبطان مطعماً في الخليج، بالقرب من الميناء، وبدأت المرأة تقيم ثلاثة أيام في المنارة وثلاثة أيام في المطعم، وكانت تمضي اليوم السابع وحدها.

twitter @baghdad_library

ادّعى صاحب الفندق الحالي بأنه سليل القبطان. وفي المساء، كان يعدّ لكلير وفريد طبقاً لذيذاً من السمك، مطعّماً بالزيتون الأسود والثوم والنبيذ الأبيض والأعشاب وزيت الزيتون، وكان يسلّي ضيفيه بالقصص التي يحكيها لهما.

لكن شيئاً كان يثقل بال كلير جعلها لا تعود إلى دمشق فوراً. في اليوم الثالث سألها فريد الذي أحسّ بعدم الارتياح، ما المشكلة.

نظرت إليه وقالت: «أريدً أن تنعم بالسلام والهدوء حتى تصبح جاهزاً لرؤية والدك مرة أخرى. فأنا في غاية السعادة لأنك خرجت من ذلك السجن لكن إلياس لا يفكّر هكذا، فقد خاب أمله لأنه كان يريد أن تصبح مطراناً»، قالت وابتسامة ترفرف على شفتيها.

«أستطيع أن أطمئن بالك»، قال فريد، «فلا يهمني أخاب أمله بي أم لا، فقد كاد يدمّر حياتي بأفكاره المجنونة وبذلك الدير. لماذا لا يلتحق هو نفسه بالدير؟» وضحك من الفكرة التي خطرت له منظر والده وهو يرتدي ثوباً أسود، حليق الرأس.

«لا، إنه ليس سيئاً إلى هذه الدرجة، وهذا ما يزيد الأمر صعوبة عليّ. صحيح إني أقف إلى جانبك دائماً، لكنّي أحبّه وأعرف أنه رجل طيب. فقد جرحه والده جرحاً عميقاً ولا أريد أن ترث هذه الجروح. حاول أن تفهمني. لا أريدك أن ترث مزاج وأخلاق مشتاق ذاك تجاهه وأن تضيّع حياتك الثمينة في محاربته، كما فقد هو نفسه سعادته ومرحه وخفّة دمه من مواجهة أبيه».

تفهّم فريد كلير، لكنّه لم يهدأ بسرعة لأنه كان يرى أن والده جبان يتظاهر بأنه محبط بدلاً من أن يعترف بخطئه. فليذهب إلى الجحيم، قال لنفسه.

«قد يكون زوجاً صالحاً بالنسبة لك يا أمّي، لكن لو كان على الرجال إجراء اختبار لإثبات إنهم آباء صالحون فإن إلياس مشتاق لن ينجح في هذا

الاختبار». ابتسم فريد ابتسامة عريضة لهذه الفكرة التي خطرت له. ابتسمت كلير أيضاً، لكنها هزّت رأسها.

«لا، لا»، قالت، «لا أقبل هذا الكلام. يجب ألاّ تحقد عليه حتى لو أخطأ في حقك. فهو والدك وهو قلق عليك. محبط، نعم، لكن عندما ودعته لأسافر إلى الدير طلب مني أن أدللك قليلاً خلال عودتنا إلى البيت. ربما أصبح مختلفاً عن الشكل الذي تعرفه فيه».

لم يفض هذا الحديث إلى أي شيء، ولكي يغيّر الحديث سأل فريد أمّه عن متّى.

«أوه، يا له من فتى مسكين»، أجابت كلير، «فقد أوصلوه إلى حالة سيئة للغاية. أمضى وقتاً فظيعاً في مستشفى الأمراض العقلية حيث عالجوه بالصدمات الكهربائية ثم عاد إلى دمشق قبل شهرين. لكن على الرغم من الجنون الذي حلّ به، فإنه يعرف شيئاً واحداً أكيداً وهو أنه لن يعود إلى معلا أبداً، وهو يعيش الآن مع عمّته في حي المسبك القريب جداً من بيتنا. إنه محطّم نفسياً لكنه نشيط جسدياً. وهو يساعد عدة محلات لبيع التذكارات وعلب الموزاييك للسواح كما ويساعد بعمله كأجير عدداً من العائلات».

«كيف حال عمّته؟ وكيف تعامله» سألها فريد.

«إنها امرأة لطيفة، لطيفة للغاية. ليس لديها أطفال وهي سعيدة لأن شاباً هادئاً أصبح يقيم في بيتها. من يعرف، لعل الجنون أنقذه. إنها تعامله بمحبة كبيرة كأنه ابنها. ففي معلا كان متّى سيعيش في الإسطبلات والكهوف ويعشعش فيه القمل، أما الآن فقد أصبح مفيداً للآخرين، وعندما يفعل شيئاً فإنه يفعله من كل قلبه. ففي صباح كل يوم تراه واقفاً عند الباب في الموعد المحدد تماماً يسأل عن الخدمات التي يمكن أن يؤديها بضمير حيّ».

«أيّ نوع من الخدمات؟»

«جميع المهام المنزلية عندما لا يتوفر الوقت لربة البيت لتقوم بها من شراء حاجيات ضرورية إلى أعمال تنظيف».

«وهل تكرمينه عندما يؤدي لك مثل هذه الخدمات؟»

twitter @baghdad_library

«هذه قصّة أخرى، فهو لا يأخذ مني نقوداً. يقول إنه يدين لك بحياته وأنه لن ينسى تصرفك الطيب معه قط، ويقول إنك شقيقه الوحيد على هذه الأرض، لذلك فإني أزور عمّته سرّاً وأعطيها ضعف ما يأخذه من الآخرين، وهو مبلغ صغير، يعلم الله. قل ما الذي فعلته له حتى أصبح يكنّ لك كلّ هذه المشاعر الطيبة؟»

فقال: «لم أفعل شيئاً. كنت أعامله بلطف، هذا كل ما في الأمر».

في اليوم الرابع من إقامتهما، وصلت كلير وفريد إلى الفندق في وقت متأخر، منهكين. كانت كلير تتطلّع إلى عشاء السمك في ذلك المساء. وانبعثت روائح شهية من المطبخ.

وقف فريد على الشرفة قليلاً وراح ينظر إلى البحر الذي قدم منه الكثير من الغزاة. همدت الريح وبدت قوارب الصيد والسفن الشراعية ملتصقة بسطح الماء المتلألئة.

كانت رؤية طبق السمك في تلك الليلة تبهج العين، موسيقى جميلة، باختصار، كان قطعة فنية شارك في إعدادها إيطاليون ويونانيون وأتراك وعرب على مدى قرون عديدة.

«هل بدأت تشعر بالرغبة في العودة إلى البيت؟» سألته كلير لاحقاً في العتمة. كان باب الشرفة مفتوحاً، وكانت الأمواج تبعث بعد تفتتها على المصدات نسيماً بارداً رطباً من البحر إلى الغرفة.

«نعم»، قال فريد، «فقد أصبحت في حال أفضل الآن وأريد أن أرى رنا في أقرب وقت ممكن».

«نعم»، ابتسمت كلير، «فلم نتحدّث كثيراً عن رنا، ألا تزال تحبّها؟»

«نعم. إني أحبّها»، أجاب.

«هي أيضاً تحبّك. فقد التقت بها ابنة عمتك في محل البوظة في سوق الحميدية. لقد طوّقت ليلى بذراعيها وقبّلتها بحرارة. انزعجت ليلى من

ذلك. كانت تلك المعانقة مخصصة لك، قالت رنا، وأن على ليلى أن توصلها لك».

ابتسم فريد وقال: «إنه الجنون بعينه. إن ما يبعث على الجنون هو أن تحبّ شخصاً ولا يمكنك أن تظهر حبك له. أشعر أنني مثل كلب يريد أن يهزّ ذيله الذي قُطِع».

«أني أعرفك جيداً، فإنك ستعوي حبّك بأعلى صوتك حتى يسمعه الجميع، هيا نم الآن، يا كلبي الصغير الرائع».

استدار، وسرعان ما سمع صوت أنفاس كلير المنتظمة.

twitter @baghdad_library

كتاب النمو الثاني

فقط من يقرأ الكتب رغماً عن المدرسة يصبح مثقفاً

*

دمشق، ١٩٥٦-١٩٦٠

١٤٦- العودة إلى البيت

عندما ترجّل فريد من التاكسي مع كلير في عصر ذلك اليوم، أخذ نَفَساً عميقاً، متلذذاً بجميع الروائح التي تفغم حارته. فقد كانت أشجار الكبّاد والليمون تملأ باحات البيوت الداخلية، بالإضافة إلى الورود وأزهار الدفلى والياسمين. كان يعرف أنه لن يتمكن من رؤية رنا مباشرة لكنّه قرّر أن يستيقظ مبكراً في صباح اليوم التالي وينتظرها وهي ذاهبة إلى المدرسة.

أراد أن يزور صديقه يوسف، لكن كلير أصرّت على أن يذهب لرؤية أبيه في محل الحلويات أولاً. كان فريد يتوجس خيفة من هذا اللقاء، لكن عدم ذهابه كان سيعني المزيد من المشاكل.

«سترى، سيكون سعيداً برؤيتك»، قالت كلير عندما استدار فريد نحوها عند باب البيت. راح يسير ببطء باتجاه باب توما. لم يتغيّر شيء هنا. فقد كانت ملصقات المرشحين في الانتخابات الماضية لا تزال ملصقة على الجدران، وكانت تُظهر مجموعة من الرجال الذين ترتسم على وجوههم النحيلة ابتسامات مصطنعة لا تعني شيئاً.

بدا دكان الحلواني لفريد مهيباً، لكن خيّل إليه أن والده أصغر حجماً مما يتذكّره. كان إلياس منهمكاً في وضع اللمسات الأخيرة على طلب كبير،

وكان يملأ الحلويات في علب تحمل شعار المحل الأنيق.

«مرحباً يا أبي»، قال فريد، باذلاً جهداً حتى يبدو مبتهجاً. رفع إلياس مشتاق بصره، غمغم تحية، وعاد إلى عمله في تعبئة حلوياته في العلب. وقف فريد ينتظر، لكن والده الذي كان يتكلّم مع أشخاص آخرين لم يتنازل لإلقاء نظرة ثانية عليه.

«هل يمكنني أن أقدم أي مساعدة، يا أبي؟» سأله فريد أخيراً، وهو في حيرة لا يعرف ماذا يفعل.

«اذهب إلى سلمان واطوِ معه علب الكرتون»، أجاب إلياس دون أن يرفع عينيه عن الميزان الذي وضع عليه كمية من الفطائر المحشوة بالفستق الحلبي.

محبطاً، توجّه فريد إلى العامل الشاب في المخزن وساعده في طي عشرين علبة أخرى تحمل شعار المحل. عندما انتهى عاد إلى المحل حيث كان إلياس لا يزال يعمل وراء الميزان. وقف فريد ينتظر حتى يقول له والده شيئاً، لكنه كان يبدو أنه أصيب بالخرس.

«قل لأمّك إنني سأتأخر في العودة إلى البيت حتى الساعة التاسعة»، هدر أخيراً، «لأنني سأذهب لحضور اجتماع نقابة الحلوانيين. لا تنتظراني على العشاء».

عاد فريد يملؤه الغضب. عندما قال ذلك لكلير طفرت الدموع من عينيه، وكره نفسه. استحمَّ بسرعة وذهب لزيارة يوسف.

عندما قرع باب بيت يوسف، تبين له أن الباب قد فتح آلياً بطريقة مبتكرة. فقد شدّ يوسف حبلاً وهو لا يزال في الطابق الأول وفتح قفل باب مدخل البناية. دخل فريد وتوقّف عند أسفل صحن الدرج الشديد الانحدار. ظهر يوسف في أعلى الدرج وأطلق صيحة تشي بالبهجة. «عاد فريد! عاد فريد!» وراح يقفز هابطاً الدرج كل ثلاث درجات معاً.

«يا إلهي! إنك لا تزال حياً! يا للروعة»، صاح وراح يعانق صديقه مربتاً

twitter @baghdad_library

على رأسه محدثاً ضوضاء غير مفهومة مثل مجنون. ظهر أفراد الأسرة الآن على صحن الدرج. تأثر فريد كثيراً. فقد قابله والده ببرود، بينما ابتهجت أسرة صديقه كثيراً لعودته كأنه ابنها. جميع أفراد الأسرة: والد يوسف وأمّه وعمّاته وجدته وشقيقاته اللواتي ما زلن يُقمن في البيت، رحّبوا به في بيتهم بمحبة ومودة. حتى جوزفين المتمردة التي لم تكن تحبّ يوسف وأصدقاءه جاءت وقبّلته على خدّه وقالت: «أحسنت صنعاً. كنت أخشى أن تكون بتلك الدرجة من الغباء تعود معها مرتدياً ثوباً أسود وتطلق لحية طويلة» ابتسمت ابتسامة عريضة وأضافت، «يجب أن أعترف أنه يوجد لدى عدد قليل من أصدقاء أخي شيئاً من الذكاء»، ثمّ تنحّت جانباً بسرعة، متحاشية لكزة من أخيها.

حرّر يوسف صديقه من براثن أفراد أسرته وقاده إلى غرفته حيث أبدى فريد إعجابه بالرفوف الجديدة الممتلئة بالكتب التي تكاد تصل إلى السقف.

«ماذا يفعل الآخرون هذه الأيام؟»

«لقد تغيّرت أشياء كثيرة، فلم يعد أعضاء عصابتنا يلتقون. فقد كبرنا ونضجنا. هيه، إني سعيد حقاً بعودتك. لا أحد أستطيع أن أناقشه في مواضيع هامة مثلك. والآن حدّثني ماذا فعلت في الدير».

عندما عاد فريد إلى البيت بعد حديث طويل مع صديقه، فوجىء ما إن فتح باب البيت بسماع صوت أمّه حاداً ومرتفعاً. لم يسمع كلير قط تتحدث بهذه الحدّة من الغضب. «يجب أن تقرّر، إمّا أنا وإما عاهراتك»، صاحت أخيراً، ثمّ ساد صمت مطبق.

أبدى إلياس لطفاً شديداً إزاء كلير عند العشاء مع أنه ظل يتجاهل فريد. عندما تمنى فريد لهما ليلة سعيدة ونهض ليأوي إلى الفراش، لحقت به كلير إلى الحمّام.

«ما الذي حدث؟» سألها بقلق.

«لا تسأل. سأحكي لك القصّة كلها ذات يوم. لكن لا تقلق، كلّ شيء على ما يرام. حسناً؟» ومدّت يدها له. قبّل فريد خدّ أمّه وعصر يدها، وهمس بنبرة تآمرية، «حسناً، انتبهي إلى نفسك يا أميرة، وإذا هدر التنين بغضب أوقظيني حتى أواجهه بدلاً منك».

بعد ثلاث عشرة سنة، قالت له كلير إن عودته من الدير أحدثت تغيراً كبيراً فيها. ففي ذلك الوقت، كان إلياس يقيم علاقات نسائية لا تعد ولا تحصى، وكانت تخشى دائماً أن تفقده، لكنه ارتكب خطأين كبيرين بتعاقب سريع، فقد عرّض حياة فريد للخطر بسبب نزوة عقيمة. وعندما خاب أمله بأن ابنه لن يصبح عالماً لاهوتياً أو مطراناً، توجّه إلى بيت للدعارة في ذات الليلة التي عادت فيها زوجته وابنه إلى البيت. أثار هذا الأمر القرف في نفس كلير وجعلها تشعر بالإهانة إلى حدّ أنها لم تعد تشعر بالخوف. وعندما كان فريد يزور صديقه يوسف، بدّلت ثيابها وتوجّهت إلى بيت الأرملة التي كانت تستقبل في شقّتها الرجال الأغنياء وتعرض عليهم مومسات شابات. كانت كلير تعرف أن إلياس يمضي بعض الوقت هناك بين أمسية وأخرى. كانت السيدة البدينة المنتفخة متغطرسة وسوقية وحاولت أن تطردها، لكن بعد أن صفعتها كلير صفعتين قويتين على وجهها بدأت تنوح وتتوسل لكلير أن تتفهمها، فلديها أربعة أطفال وعليها أن توفر لهم الطعام. ظلت كلير واقفة عند الباب وصاحت «نادي زوجي وإلا أثرت مشكلة لن يطأ بعدها أحد من زبائنك هذا البيت ثانية». لم يكن بوسع الأرملة أن تفعل شيئاً سوى أن تدخل وتنادي إلياس الذي تقزم فيه كل شيء حتى لسانه فلم يفه بكلمة.

إذن كان ذلك هو اجتماعه مع نقابة الحلوانيين. لم تعد كلير مستعدة للسكوت لحظة أخرى، فأنذرت إلياس للمرة الأخيرة، وقالت له إنه إذا لمس امرأة أخرى بعد الآن فإنها ستترك البيت ذات ليلة مع فريد دون أيّ تحذير آخر. أذعن إلياس لأن الصدمة أثارت خوفه، ومنذ ذلك اليوم أصبح مخلصاً كالكلب.

twitter @baghdad_library

١٤٧- جوزفين

«ظننا أنك كنت في الجنة. كنا ننتظر عودتك حتى تأتي وتباركنا في كل يوم، مطران شاب وما إلى ذلك»، قال يوسف بعد بضعة أيام، «هذا ما سمعه أبي من والدك في اجتماع الجمعية الكاثوليكية. وقال والدك إنك تحبّ الحياة في الدير وأصبحت في غاية الذكاء والتهذيب، وكان متأكداً من أنك ستصبح كاردينالاً بعد خمس عشرة سنة. فجأة شعر أبي بالحسد وتطلع حوله ووقعت عينه على جوزفين؟ حسناً، قال لنفسه، من الأفضل أن تصبح راهبة أو رئيسة دير على أن تظل امرأة زائدة عن اللزوم في البيت».

«وماذا قالت؟»

«عندما قال أبي لها إنها بذكائها تصلح لأن تكون راهبة عظيمة وأن حياة الراهبة تناسبها كثيراً وأنه سأل في الدير الكرملي، وأن بإمكانها أن تجرّب ذلك لمدة سنتين لأن الراهبات يعشن كالأميرات، وما إلى ذلك. كانت جوزفين تحدّق فيه بصمت ولم تنبس بكلمة واحدة. في اليوم التالي، كرّر أبي أمنيته بتهذيب وهو أمر ليس معتاداً بالنسبة له. إنك تعرفه، فهو فظ وقاس مع الجميع ماعدا مع أمّي. كانت جوزفين تحدّق فيه وهي تتناول السلطة بهدوء. عندما انتهت قالت له بصوت بالغ الرقة: بابا، إذا فتحت هذا الموضوع ثانية فإني سأعتنق الإسلام. فقد بحثت في الأمر بنفسي ووجدت أن الأمر في غاية السهولة. المسلمون عمليون جدا. جملتان تكفيات وتصبح المرأة مسلمة. طاخ، بم، جاءت الضربة القاضية في الجولة الثانية. أصابت الهدف مباشرة، وواصلت جوزفين تناول الرزّ والفاصوليا بملعقتها، وجلس أبي القوي، الملاكم الجبار السابق، مرتبكاً حائراً، وأعادت أمّي فكّه الأسفل إلى موضعه لكي تمنع الذباب من أن يخرا في فمه».

كان يوسف لا يزال يضحك عندما رنّ جرس الباب. «آه، ها أنت هنا يا متّى»، صاحت عمّته عفيفة. كان فريد قد حاول أن يزور متّى لكن الحظ لم يحالفه.

«ظننت أنك لن تأتي اليوم. هل أحضرت كلّ شيء؟ سلم الله يدك» سمع الشابان عفيفة تصرخ في الدهليز.

«لم أنس شيئاً، جميعها هنا»، أجاب متّى. جرى فريد من الغرفة على الفور ورأى صديقه يصعد الدرج إلى الطابق الأعلى مثقلاً بعلب الكرتون والأكياس. وضع الأغراض بعناية على الأرض.

«فلتحمك مريم العذراء»، صاحت عفيفة المعجبة بقوّة متّى. عندما حاولت رفع كيس الرزّ الكبير، أخذه متّى من يدها وقال: «أنا سأفعل ذلك»، وحمل الكيس الكبير واتّجه إلى المطبخ وراء عمّة يوسف. لاحظ فريد أن رأسه يكسوه شعر قصير خشن فيه بضع ندوب ورأى علامتي حرق تلمعان على صدغيه.

عندما غادر متّى المطبخ، توجّه فريد نحوه. فغر متّى فمه في ابتسامة عريضة مندهشة.

«أخي»، همس، مشيراً نحو فريد. لم يقل شيئاً، على الرغم من شدة تأثره. رافقته عفيفة بحنان وشفقة إلى الطابق السفلي.

«لماذا يناديك هذا الولد المجنون يا أخي؟» سأله يوسف عندما أصبحا وحدهما مرة أخرى.

«لماذا؟ إنه يطلق على الجميع يا أخي»، أجاب فريد بشيء من الانزعاج لأن العرب يستخدمون عبارة يا أخي على الدوام بدلاً من قول «هيه أنت» أو يا «عزيزي».

«لكنه يشدد عليها»، قال يوسف بشيء من الاستهجان.

١٤٨- محنة متّى

لم يكد متّى يتذكّر شيئاً سوى أن فريد كان قد أعطاه ملابس دافئة وحذاء طويلاً متيناً ونقوداً وطعاماً. فقد انتهى هروبه من الدير على نحو مفاجئ وباضطراب شديد. كانت الشرطة تنتظره عند نقطة تفتيش على الطريق الرئيسي. عندما رأى رجال الشرطة قفز من نافذة الحافلة فتعثّر وسقط. قُبض

twitter @baghdad_library

عليه واقتيد مكبلاً. كان أبوه ينفث غضباً، ينتظره في مخفر الشرطة. ما أن وصل متّى إلى قربه حتى هجم عليه والده كوحش مفترس وصار يركله في ساقه ثم على بطنه، وعندما هوى متّى على ركبتيه وهو مكبل رفسه والده فأصاب رأسه. بعد ذلك لم يعد يتذكر شيئاً.

استيقظ ليجد نفسه في سرير رثّ. كان رأسه يؤلمه لكنه لم يستطع أن يستوي في جلسته. كانت جدران الغرفة ملطّخة بالرسومات والأوساخ. كان هناك باب أبيض ونافذة ضيّقة عليها قضبان. كان كلّ شيء هنا غريباً، فعرف أنه لم يكن محتجزاً في زنزانة في الدير. وقف بحذر على الكرسي الوحيد الموجود في الزنزانة، ووجد نفسه ينظر إلى حديقة في الأسفل يتجوّل فيها عدد من الرجال يضحكون أو يكلّمون أنفسهم. كان أحدهم يضرب رأسه في جذع شجرة سنديانة كبيرة.

ما هذا المكان؟ تساءل. سمع قرعاً على الباب، ثم دخل ممرض شاب يرتدي معطفاً أبيض وسخاً ووضع زبدية من حساء الخضار وقطعة خبز على المنضدة الصغيرة. لم تتحرك عين الرجل اليمنى، جامدة مثل عين خروف مذبوح ثم سأله «هل تشعر بتحسّن الآن؟» ثم خرج قبل أن يجيب متى.

أحسّ متّى بإرهاق شديد. رأى نفسه يعزف الناي في وسط قطيع من الخراف والحملان البيضاء بلون الثلج. رفعت الحملان نظرها إلى الأعلى بفضول بينما أبقت الخراف رؤوسها محنية وواصلت رعيها. ظهرت عايدة من بعيد وهي تحمل صرة زرقاء مليئة بالطعام. عندما دنت منه توقّفت وتجهمت تعابير وجهها، تكاد تكون حزينة. «لماذا ترعى الخنازير؟ من المؤكد أنك كنت تريد أن تكون راعياً، لماذا لا ترعى الخراف والحملان بدل هذه الخنازير البشعة؟»

«أيّ خنازير؟» سأل متّى ثم نظر ورأى بفزع أن قطيعه قد تحوّل إلى قطيع خنازير حقاً، تبتسم جميعها ابتسامة عريضة له. استيقظ وهو يشعر بطعم سيء في فمه. لم يستطع أن يبتلع لأن حنجرته كانت جافة جداً.

دخلت ممرضة شابة حمراء الشعر إلى الغرفة. دون أن تنبس بكلمة

أعطته حبتين ورشفة ماء. كان طعم الدواء مراً. عندما خرجت، كانت تسير مثل جندي.

لم يكلّمه أحد. أين عايدة؟ ناداها مراراً بصوت عالٍ لكن الممرض ذا العين الثابتة دخل. على الأقل، كان لطيفاً ولم يضربه كما فعل الأخ يوحنا، بل ابتسم له. أمسك متّى بإحكام وقال له إن عايدة موجودة في مكان بعيد ولا تستطيع أن تسمعه. لم يعد متّى يأكل. ترسخ لديه الاقتناع بأن عايدة قد قُتلت. حاول الممرض أن يهدئ من روعه، لكن عبثاً. «أحضرها إذن إلى هنا إذا كانت حيّة»، صاح به متّى. لم يجبه الممرض، بل نظر إليه ثانية بثبات. بعد ذلك أدرك متّى أن للرجل عيناً زجاجية.

سأل متّى الممرضة الحمراء الشعر عن سبب جلبه إلى هذا المكان، لكنها لم تجبه، بل استدارت ومشت بعيداً. لعلها خرساء، قال متّى لنفسه.

كان يُسمح له بأن يمضي ساعة في الحديقة لاستنشاق هواء نقي حيث التقى بعدد من الأشخاص الغريبي الأطوار. دنا منه شابٌ بعينين واسعتين يرتدي منامة وقال له: «أنا من كتبت الكتاب المقدس، أنا من كتبت الكتاب المقدس». رجل آخر أمسك متّى من كمّه وسحبه إلى وراء شجرة بتولا قديمة وهمس له: «اسمع جيداً. فأنا أعرف سرّ المصنع». كانت أسنانه تشبه أعقاب سجائر سوداء.

«أيّ مصنع؟» سأل متّى.

«المصنع السري الذي يصنعون فيه كائنات بشرية. آه نعم، إني أعرف كل شيء عنه، وإذا اكتشفته الأمم المتحدة فإن العالم كله سينفجر. سيتحطّم! بانغ! لكن لا تخبر أحداً». بينما كان يتحدث كان يتطلع حوله بقلق. كان اللعاب يسيل من فمه. ثمّ وقف باستعداد وأخذ تحية وصاح «خطوة إلى الأمام سر».

في تلك الأثناء، تقدم منهما رجل يرتدي بدلة عسكرية يدسّ غُصين شجرة تحت ذراعه. «كيف تسير الأمور على الجبهة؟» سأل الرجل المرتدي بدلة عسكرية، راسماً شارة النصر بيده.

twitter @baghdad_library

«صباح الخير سير تشرشل»، قال الرجل الذي يعرف سرّ المصنع الهام.

لاحقاً عرف متّى أن الرجل الذي يدعي «تشرشل» كان ضابطاً في الجيش لكن انفجاراً حدث بقربه أفقده عقله.

بعد يومين، جاء الممرض لمرافقته إلى غرفة كبيرة فيها طاولة مكتب ضخمة داكنة، كتب على اللوحة المعلقة على الباب عبارة «دكتور سلام».

كان يجلس وراء طاولة المكتب قزم تتوسط رأسه صلعة كبيرة ويضع ربطة عنق حمراء. عندما رآه متّى قال لنفسه إن شكل الرجل يبدو مضحكاً. لم يستطع كتم ضحكته، راح يضحك بصوت أعلى وأعلى وأخذ يهزّ سبّابته أمام الممرض ليريه أن من الأفضل له أن يراقب القزم الذي كان على وشك أن يقف على يديه على طاولة المكتب. بيد أن الرجل ذا العين الزجاجية لم يعجبه ذلك، ولبثت الممرضة الحمراء الشعر واقفة عند الباب صامتة.

أحسّ متّى بضغط مؤلم في مثانته. لم يكن ذلك ذنبه، فقد نسوا أن يدعوه يذهب إلى الحمّام في ذلك اليوم. رأى نبتة نخيل في أصيص مركون في زاوية الغرفة، فتوجّه إليه ليبول فيه، لكنّه لم يكد ينتهي حتى تلقى صفعة على وجهه فأوقعته على الأرض. بينما كان ملقى على الأرض رأى الممرض واقفاً فوقه يصيح شيئاً. لم يفهمه ولم يتوقف متّى عن التبوّل. طار دفق البول في شكل قوس صغير ليمطر على ساقيه. أنهضه الممرض ودسّ قضيبه داخل فتحة بنطاله.

لم يقف القزم على يديه ببهلوانية كما توقع متّى بل احمرّ وجهه وصاح كلاماً غير مفهوم. أحضرت الممرضة الحمراء الشعر الصامتة دلواً وممسحة من قماش. هدأ الجميع ثانية، ثمّ وضعوا متّى على سرير في الطرف الآخر من الغرفة. تملكه الفزع. ثبّت الممرض أشرطة جلدية عريضة على كتفيه وذراعيه وفوق بطنه وحول ساقيه وكاحليه وأحكم وثاقها. ازداد خوف متّى. كان يتنفّس بصعوبة، وخيّل إليه أنهم لفوه وكأنهم بنوا شرنقة حوله. فعندما

كان طفلاً كان يشاهد العناكب تخدّر الذبابة التي تمسكها بلدغها ثم تلفّ حولها خيوطاً حريرية.

«أنا لست ذبابة»، قال للممرض بجدية.

ابتسم الرجل وقال: «ولا أنا». بطريقة ما كان ذلك مطمئناً.

«أريد أن أعود إلى البيت»، قال متّى. تذكر عندها لحظة استثنائية في فجر أحد الأيام عندما كان وحيداً مع خراف عمّه. بزغت الشمس وبدأت تنشر أشعتها فوق الجبال لتغمر الهضاب بنورها. كانت الخراف ترعى في الوادي، ومتّى جالس تحت شجرة خوخ قديمة. في تلك اللحظة حاولت فراشة الخروج من شرنقتها المبللة بالندى. شقّت الفراشة طريقها ببطء إلى الخارج. ظلت لفترة معلّقة رأساً على عقب. بعد لحظات نشرت جناحيها الملونين بألوان زاهية وظلت معلقة هناك تتأرجح في نسيم الصباح، كما لو أنها رغبت في أن تجفف جناحيها، ثم انسلّت وطارت في الهواء بخفة وكأنها لا تهبأ بالجاذبية الأرضية. متّى تمنى أن يصبح فراشة.

ظل القزم واقفاً بالقرب من رأس متّى. وضعت الممرضة الصامتة ملقطاً على صدغيه. ألقى الصمت السائد في الغرفة يداً باردة فوق قلبه. ومض برق في دماغه وأحسّ برأسه يرتطم بصخور قاسية والتمعت نجوم وشرارات أمام عينيه. كان ذلك يشبه تلك المرة التي انزلق فيها عندما كان يتسلّق الجبل وسقطت صخور صغيرة عليه. تشبّث بالسرير وراح يصرخ.

عندما أبعدت الممرضة الملقط، كان صدغاه يحترقان وأحسّ بسائل دافئ سميك يتدفق على فمه.

«إنه ينزف»، قالت الممرضة. كانت تلك أولى الكلمات تنطق بها.

«قل لي ما اسمك»، قال الرجل ذو العين الزجاجية بنبرة ودّية. «انا اسمي عدنان. وأنت؟ ما اسمك؟»

أراد أن يجيب «متّى»، لكن لسانه لم يطاوعه.

تحدث القزم مع الممرضة التي خاطبها باسم قديرة، فوضعت الملقط على صدغيه مرة أخرى.

twitter @baghdad_library

لمعت ومضة برق أخرى. هذه المرّة أحسّ كأنها لدغة العقرب الذي لدغ سبّابته عندما قلب مرة صخرة كبيرة دون أن يأخذ حذره ممن يتربص تحتها. سائل ناري جرى في عروقه مثل حمم تبحث عن منفذ. راح يخفق ويرتعش مثل دجاجة مذبوحة وصرخ، لكن من دون صوت. وضع الرجل ذو العين الزجاجية قطعة مطاطية بين أسنانه. بدأ متّى يتهاوى، ولم يعد يشعر بشيء.

أفاق في غرفته الصغيرة، وأحس بحنجرته وصدغيه تحترق. ترك له الرجل الودود ذو العين الزجاجية إبريق ماء على المنضدة بجانب السرير.

بعد ساعتين عاد عدنان الذي ساعده في ارتداء ثيابه وقاده إلى بوابة المستشفى حيث سلّمه مغلفاً، وقال له إن فيه الوثائق التي تخصّه، ثمّ ضغط على يد متّى وقال له: «يمكنك أن تعود الآن إلى البيت، وسيتعافى صوتك قريباً»، وجرى في الوقت نفسه وراء أحد المرضى الذي حاول أن يخرج إلى الشارع في منامته.

أخذ متّى يجري حتى وصل إلى منزل عمّته في حي المسبك بعد ساعات. رؤيته هكذا أثارت فزعها. بكت وضمته إليها وقالت له: «لا بأس عليك يا مسكين، لا يستطيع أحد أن يؤذيك هنا يا بني العزيز». على الرغم من أن متّى أحسّ براحة كبيرة، فإنه لم يفه بحرف واحد. لم يكن لسانه يطيعه، وكانت الأصوات التي تنبعث من حنجرته تشبه هسيس أفعى.

عندما وصل والداه بعد يومين إلى دمشق ليصطحباه إلى معلا هرب متّى. راح يجوب أسطح بيوت البلدة القديمة، يتناول أي شيء يجده، ينام في حظائر وأكواخ مهجورة، ولم يعد إلا بعد ثلاثة أيام، بعد أن غادر والداه بساعة واحدة. ضمته عمّته إليها وقالت له إنها خشيت أن يكون قد أغمي عليه، أو يكون أحد قد أمسك به على سطح أحد البيوت وأخبر الشرطة. قالت إنها طلبت من أختها نسيبة وزوجها ألاّ يعودا لفترة من الزمن وألا يزورانها إلا بعد ان يخبروها بذلك قبل أسبوع وإلا فهي لن تفتح لهما الباب.

لأول مرة في حياته، أدرك متّى أن هناك شخصاً آخر في هذا العالم، بالإضافة إلى فريد وعايدة، يحميه ويحيطه برعايته.

١٤٩- رنا

أيقظه صوت الأذان. لم يعد فريد معتاداً على صوت أذان أكثر من مئتي مؤذن في وقت واحد، يدعون المؤمنين إلى الصلاة من مآذنهم في ساعات الصباح الأولى، يحاول كلّ منهم إطالة عبارة الله أكبر بقدر ما يستطيع لكي يصل صوته أكبر عدد ممكن من سكان دمشق وإن أمكن إلى سكان حلب.

كان يعرف أنّ والده يستيقظ في تلك الساعة، يمضي نصف ساعة في قراءة الإنجيل المفتوح أبداً على منضدة بجانب سريره، ثم ينهض ويتوجّه إلى الحمّام، وبعد ربع ساعة يتوجّه إلى غرفة الجلوس لاحتساء الشاي الثقيل الممزوج بالحليب لكن بدون سكّر، ويتجاذب أطراف الحديث مع كلير قليلاً، ثم يغادر البيت وهو يدندن أغنية.

كان ذلك يحدث دائماً في الساعة السادسة والنصف. يسير إلياس بخطوات سريعة بعد أن يحلق ذقنه ويتعطّر ويرتدي قميصاً أبيض نظيفاً وبنطالاً أزرق غامقاً يمتلك عدداً كبيراً منها.

منذ مدّة كان كلّ ما يفعله في المحل هو أن يزن المكونات بدقة، ويترك الأعمال الأخرى لمستخدميه الذين يقدّرونه كثيراً. فقد كان متبسطاً معهم ومرحاً. كانت كلير تردد كثيراً أن الحياة مع زوجها ستكون مثل الجنة لو أنه كان في البيت منشرحاً ومرحاً كما هو في عمله.

طوال تلك السنوات، لم يكن إلياس يمرّ من حارة الزيتون إلى محله الواقع في باب توما إلا بعد أن يلقي نكتة ويتبادل آخر الأخبار أو يحتسي قهوة مع أحد التجار على طريقه. لقد أصبح ذلك ديدينه اليومي. وفي الساعة السابعة تماماً، تراه يرفع الشبك الحديدي أمام باب محله وهو يعدّ عدد دقات جرس كنيسة اللاتين التي تعلو جميع الأبنية المحيطة.

في تمام الساعة السابعة من ذلك اليوم، خرج فريد من البيت، مرتدياً

twitter @baghdad_library

ثياباً صيفيه بيضاء، واستقل الحافلة رقم ٥ المتّجهة إلى حيّ الصالحية حيث سينتظر رنا خارج مدرستها.

لم يكن قد رأى هذا العدد الكبير من الجنود في المدينة من قبل. فقد رأى جنوداً مسلحين منتشرين في كل مكان: أمام البنوك وأمام مكتب البريد والإذاعة وعند جميع تقاطع الطرق الرئيسية.

فجأة وصلت رنا. جاءت تجري عند ناصية الشارع فارتطمت به. عندما أفاقت من الصدمة لرؤيته، تلعثمت وقالت وعيناها مشرقتان، «أنت؟ ماذا تفعل هنا؟»

«أبحثُ عنك»، قال وأمسك بيدها بقوّة.

«لم أحمل ساعتي اليوم لذلك ظننت أنني تأخرت»، أجابت رنا لاهثة. بدا لها أن فريد ازداد طولاً ورجولة.

«متى يمكننا أن نلتقي؟» سألها وطبع قبلة سريعة على وجنتها. فأجابت «هنا بعد نصف ساعة»، وتطلعت حولها باستحياء.

«سأصاب بتوعك صحي عندما أدخل المدرسة لذلك سأطلب إذناً بالعودة إلى البيت»، قالت وعصرت يده، ولامس خدها.

«سأراك بعد قليل»، وسارت بخطى وئيدة وهي تتلفت بين الحين والآخر.

بعد أكثر من ساعة عادت رنا. قالت له منتصرة، «لقد استغرق ذلك أطول مما كنت أتوقّع لأن معلمة الرياضيات التي لديها دروس في الحصتين الأوليتين لم تأت، فاختلط الحابل بالنابل، أما الآن فقد أصبح الوقت كلّه ملكنا»، قالت بانتصار.

كانت رنا قد أصبحت بطوله الآن، وقد عقصت شعرها إلى الوراء في شكل ذنب حصان. بدت له عيناها أكثر اتساعاً، وأصبحت انعطافات جسدها مثل انعطافات امرأة رشيقة.

«إلى أين سنذهب؟» سألها فريد.

«إلى شقّة خالتي مريم. أبي وأمي في بيروت معها ومع جميع أفراد أسرة أميرة يحتفلون بخطوبة صموئيل، ابن خالتي أميرة».

«هل سافر والداك أيضاً؟»

«نعم، والحمد لله أنهما أخذا أخي جاك معهما لأنه هو وصموئيل صديقان. إن الطيور على أشكالها تقع، لذلك أخذت أمي لجاك إذناً بالتغيب عن المدرسة لمدّة أسبوع».

«صموئيل؟ أيّ صموئيل؟ الشخص الذي قتل خالتك؟» استفسر فريد.

«نعم، إنه هو». تردّدت رنا للحظة ثم قالت: «أيّ أسرة سعيدة هذه التي سيكون لديها صهر قاتل مدلل وفاسد مثل صموئيل. لا أستطيع أن أتخيّل ذلك. فقد طُرد من جميع المدارس التي ذهب إليها، لكن بفضل علاقات والده حصل على وظيفة مندوب مبيعات في شركة أدوية».

اصطحبته رنا إلى بيتها القريب. بينما جلس فريد في صالون البيت يحتسي شراب الليمون البارد، ذهبت رنا لتغيّر ملابسها. عندما عادت بدت مختلفة تماماً. فقد غيّرت الثوب المدرسي الموحد القبيح وارتدت رداء صيفياً وأسدلت شعرها الآن على كتفيها، كثيفاً، أسود داكناً. ووضعت رنا نظارتها الشمسية بغنج فوق أرنبة أنفها.

صفّر لها وضحك. «ربما تكونين قد خرجتِ للتو من أحد الأفلام».

جلست في حضنه وطوقت عنقه بذراعيها وقالت: «حسناً، أريد الآن أن أقبّلك وأعود إلى داخل الفيلم. إنه يدعى *ألف ليلة وليلة من الأحلام التي تحققت*. أم هل كنت بعيداً عني أطول من ذلك؟»

«نعم، بالتأكيد أطول»، قال وقبّل أنفها ثم شفتيها. نزع عنها نظارتها الشمسية ثانية. لبثت ساكنة في مكانها. تورّد خدّاها.

لون الحبّ، قال لنفسه، وقبّلها في فمها.

«لنذهب إلى بيت الخالة مريم. يجب أن أسقي أزهارها كلّ يوم، ويمكنني البقاء هناك طوال الليل إذا أردت. فأنا لا أشعر بالراحة هنا لأن روائح أسرتي تملأ المكان هنا وهي ليست جديرة بك. أحسّ كأن قطع

twitter @baghdad_library

الأثاث والمذياع ورفوف الكتب والكتب جميعاً تراقبنا. هيا بنا»، قالت وقبّلته على جبينه، ووثبت واقفة.

١٥٠- ثلاثة أيام من الأحلام المتحقّقة

عندما عاد والدا رنا فوجئا برؤية ابنتهما في قمة سعادتها، ولما كانا لا يزالان في نشوة حفلة الخطوبة الضخمة التي حضراها لم يرتابا بأي شيء. أما جاك، وبدافع النكاية المطلقة، فقد اقترب كثيراً مما حدث بما يشبه قراءة الغيب عندما أبدى ملاحظته الخطيرة حين قال: «لا يتورّد خداها إلا عندما تلتقي بذلك الجرذ مشتاق».

«هيا، لا محل هنا لهذه التهمة، فابن التيس إلياس مشتاق تلميذ راهب في دير في شمال سوريا الآن»، قالت أمّه.

لم يكن على رنا أن تشنّف أذنيها لتسمع حديثهما في المطبخ لأن جاك كان يتحدث بصوت مرتفع، وكانت أمّها أيضاً تتكلم بصوت عال لتسمع نفسها لأن موقد الكاز الذي يسميه الدمشقيون: «بابور»، والذي كان يستخدم بكثرة للطهي في دمشق كان يحدث ضجة فظيعة. دخلت رنا الحمّام. كانت وجنتاها حمراوين.

ثلاثة أيام مع حبيبها فريد. أحسّت بأنفاسه تدفئ بشرتها من الصباح حتى هبوط الليل. شقّ صوته طريقه إلى أعماق قلبها. كانت يداه في غاية الرقة والنعومة وهما تتلمسان طرقاً سحرية لا تراها العين تغطي جسدها.

كان قد عانى الأمرين، وظل حبّه لها عظيماً يجعله يصرخ منادياً اسمها في أحيان كثيرة! حدّثته عن الليالي التي أمضتها والتي لم يغمض لها جفن فيها ولم يكن من أحد يشاطرها مشاعرها.

أمضيا اليوم كله في شقّة خالتها، يطهيان ويأكلان بالشوكة والسكين كأنهما تعلما اللياقة في لندن، لكن المضحك أنهما كانا يجلسان إلى الطاولة الكبيرة عاريين، وكانا يعودان إلى السرير، يلعبان تحت الشرشف مثل طفلين صغيرين. وعندما كان فريد يعانق رنا كانت تضيع فيه.

«بالنسبة لفتاة غابت عن المدرسة بسبب المرض»، قال فريد لاهثاً، «فأنتِ في صحة رائعة!» وظلا يتعاركان ويتجادلان.

«كان لدي وقت كثير لأفكّر بحبّنا»، قالت رنا، وهي مستلقية على عرض السرير مسندة رأسها إلى بطن فريد، «ولم أكن أجد نفسي إلا عندما أكون معك أو عندما أكون وحدي تماماً. إن الآخرين يشتكون من العزلة إذا بقوا وحدهم لمدة خمس دقائق فقط. أما أنا فأحبّ أن أكون وحدي وأشتاق إليك وإلى حبّك الذي أدمنت عليه». توقّفت رنا للحظة ثم انقلبت على بطنها، ودنت من وجه فريد وقبّلته حتى أحسّت بالدوار.

«كنتُ أفكّر فيك كلّ يوم»، قال لها فريد، «كنتُ يائساً لأنه خيّل إليّ أنني لن أخرج من هذا الدير مرة أخرى إلا ميتاً أو مجنوناً. أما الآن فإني سأفعل كل شيء بوسعي كي أبقى قريباً منك». صمت لوهلة ثم أضاف، «ولا أريد أن تطأ قدمي تلك القرية الفظيعة معلا ثانية».

«دعني أمسك يدك»، قالت رنا لأنها تذكرت شيئاً أفزعها. فمنذ سنة تقريباً، بدأ الشقيق الأكبر لأحد أصدقاء جاك يتردد على بيتهم كثيراً، كان في الثلاثين من عمره وكان يتظاهر دائماً بأن زياراته مجرد صدفة، وكانت أمّها تتظاهر بأنها لا ترى حقيقة ما يحدث، وفي أحيان كثيرة كانت تترك رنا وحدها مع هذا الشاب. كان دمثاً لطيفاً، لكنها صدمت عندما قال لها ذات يوم إنه يعشقها ويريد أن ينام معها، فأجابته بأنها لا تزال في الخامسة عشرة وأنها تريد أن تكمل دراستها، فأجابها «إن الدراسة تجعل النساء قبيحات ومن المحزن أن تفقدي أنوثتك».

تركته رنا جالساً هناك وذهبت إلى المطبخ لتجد أمّها وجاك.

«هذا الرجل شبق جنسياً. لا أستطيع أن أتحمّل الجلوس معه. كيف تسمحان له بأن يقول لي ما يجب عليّ فعله وما لا يجب فعله؟ لا أريد أن ألتقي برجل يبحث عن زوجة وسأخبر أبي هذا المساء».

«أيتها البقرة السخيفة! ألا تعرفين كيف تتصرفين بتهذيب مع ضيف

twitter @baghdad_library

هام؟» قال شقيقها بغضب وهرع ليأخذ فنجان قهوة إلى صديقه ليهدئ خاطره.

حدثت مشادة في ذلك المساء، ووقف والدها إلى جانبها هذه المرة. فقد قال لجاك إنه إذا استطاع أن يحرز في المدرسة نصف ما تحرزه أخته رنا فإنه سيسمح له بأن يكون قاضياً يقرر هل على الفتيات أن يدرسن أم لا. وأضاف إنه يدفع مبالغ كبيرة حتى يأخذ جاك دروساً خصوصية، وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يتقدم في الدراسة.

عندما تذكّرت رنا كلّ ذلك اعتراها شعور بالخوف. فماذا لو ضعف والدها عندما يأتيها الرجل التالي؟ وكيف سيكون موقف فريد حينها؟وماذا سيفعل إذا أرغموه على الزواج من امرأة أخرى؟

«دعني أمسك يدك»، قالت ثانية بصوت مرتعش «عدني أن لا تشكّ بحبّي لك للحظة واحدة مهما حدث».

«أعدك»، أجاب فريد دون أن يعرف لماذا تهدج صوت رنا فجأة. كان متيقناً من أن لا قوّة على وجه الأرض يمكنها أن تفصل أحدهما عن الآخر، وأمسك يدها بقوة كأنه يريد أن يسحق مخاوفها، ثمّ قبّل رنا، وذاق الآن فقط طعم دموعها.

«هل تبكين؟»

«أحياناً أحلم أن يمنحك حبنا القوة لتقف إلى جانبي، لكنك تمنحني دوماً أكثر مما كنت أحلم به. إني أبكي من السعادة، هذا كل ما في الأمر».

١٥١- ليلى

كان الطقس حاراً إلى درجة لا تطاق. لم ينم فريد جيداً في تلك الليلة، ولم يكن يرغب في تناول شيء على الغداء. عادت كلير إلى غرفة النوم لتأخذ قيلولة. استلقى هو أيضاً لكنّه لم يغمض له جفن.

أمسك المجلة الأسبوعية التي دأب والده على قراءتها: «فضائح جرائم ستالين في روسيا... اعتقال الأسقف ماكاريوس، زعيم حركة الاستقلال

في قبرص، بتهمة تهريب أسلحة ونفيه إلى جزر سيشيل. . . بطل العالم في الوزن الثقيل روكي مارسيانو يتقاعد من دون أن يُهزم. . . الممثلة الأمريكية غرايس كيلي تتزوّج أمير موناكو رينيه. . . امتداح الممثلة الإيطالية صوفيا لورين على دورها في فيلم «امرأة النهر». دهش فريد للتشابه الشديد الذي يجمع بين النجمة الإيطالية وليلى.

«ليلى»، همس. أحسّ برغبة عارمة في رؤيتها لكن كان عليه أن ينتظر حتى تستيقظ كلير لتعطيه عنوان ابنة عمته الجديد. لم يشعر أن ساعة القيلولة طويلة كما شعر اليوم. عندما بدأت اليمامات تهدل ثانية، تنفّس الصعداء ونظر إلى الساعة. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بقليل.

بعد ساعتين كان يستقل الحافلة. قبل أن يصل إلى الباب الشرقي رأى متّى يجرّ عربة مليئة بالأغراض. كانت عربة كبيرة بعجلتين ثقيلتين ذات شريط جلدي في المقدمة ثبّته متّى على كتفه، ورُبطت رزم وأكياس وعلب وقدور ومقالي بحبال بالعربة.

خفف سائق الحافلة من سرعته حتى يفسح له المارة درباً. تنحّى متّى جانباً مفسحاً المجال لكي تمر الحافلة، ولوّح مبتهجاً للسائق وتوقّف لحظة ليلتقط أنفاسه.

عندما قرع فريد باب بيت ليلى، فتحته وتسمّرت في مكانها من شدة دهشتها وهمست، «فريد، من أين جئت؟» كانت ترتدي ثوباً بيتياً بنياً فاتحاً بدون أردان، وتدلى من ذراعها رداء أحمر اللون ربما كانت تخيطه في تلك اللحظة. كان وجهها أجمل من وجه صوفيا لورين، وقد فاجأ قوامها الرشيق فريد، فقد كانت في ذاكرته أضخم حجماً.

«تفضل»، قالت له ليلى وعانقته «يا إلهي، كم كبرت! بعد قليل سأحتاج إلى سلّم حتى أتمكن من تقبيلك». أغلقت الباب ولبثت واقفة للحظة في المدخل الظليل تراقب فريد الذي دخل وراح ينتظرها الآن في باحة البيت الصغيرة.

كان البيت يقع في شارع جانبي خلف سينما الأمير. كانت ورشة

twitter @baghdad_library

الخياطة في الطابق الأرضي، وكانت امرأتان أخريان منهمكتين في العمل، واحدة تخيط رداء طويلاً، والأخرى تكوي بلوزة بيضاء.

«لديّ طلبات كثيرة حالياً»، قالت ليلى وقادت فريد إلى غرفة استقبال صغيرة ومنها إلى غرفة طعام صغيرة تستخدم أيضاً كمطبخ.

كانت غرفة زوجها الواسعة الجيدة الإضاءة التي يعزف فيها الموسيقى تقع في الطابق الأول. اصطف عدد من آلات الكمان في مقدمة الخزانة الزجاجية وعُلِّقت على جدران الغرفة آلات وترية قديمة جُمعت من جميع قارات العالم فأصبح المكان أشبه بمتحف.

من غرفة الموسيقى أطل فريد على الباحة وغرفة النوم وهي في حالة فوضى شديدة. كانت الغرفة رحبة ذات نافذة تطل على الشارع الرئيسي، وفيها سرير عريض وأريكة وخزانة ضخمة. لم يكن السرير مرتباً، وكانت ثياب وسخة تتناثر في أرجاء الغرفة. ولم يُنظّف الحمّام منذ فترة طويلة. في الطابق الثاني، توجد غرفة ضيوف فيها حمّام، وغرفة خشبية لكل ما لفظه البيت من أثاث عتيق وللطابق شرفة رائعة فيها منضدة وكراسي تحت مظلة واقية من الشمس ونبتة ياسمين تنمو على جدارها.

فوجئ فريد عندما وجد أن سؤاله الغاضب عن السبب الذي لم يجعل ليلى تخبره عن زفافها لم يعد مهماً. وأحسّ بسعادة على نحو غريب لمجرد أنه قريب منها، وقد أزالت هذه السعادة كل مشاعر الاستياء من قلبه، مثل اسفنجة.

«حدثني عن غربان الدير. تستطيع أن تحكي لي أيّ شيء هنا من دون رقابة»، قالت له.

حكى لها عن حياته في الدير بالتفصيل، وظلت تطلب منه المزيد من التفاصيل حتى أنه لم يلحظ الفتاتين اللتين تعملان عندها تغادران، أو الظلام الذي حلّ في الخارج، فقد ملأت ليلى عالمه بالفضول والضحكات.

«آه، انظروا من هنا؟ دعوني أحزر. لا بد أنك فريد حبيب زوجتي». قال سيمون، زوج ليلى. لم يسمع فريد صوت وقع خطوات أحد يدخل.

«يا إلهي كيف دخلت؟» سألته ليلى التي أبدت دهشتها أيضاً.

«كما يفعل معظم الناس المهذبين»، قال سيمون مبتسماً. أسند كمانه إلى منضدة في الزاوية واتّجه نحو فريد. «من باب البيت»، قال ومدّ يده.

«من عبارات مديح ابنة عمتك تخيّلتك أكثر وسامة»، قال وهو يتفحص فريد من رأسه حتى قدميه. «لو كان الأنف أصغر قليلاً، والفم والعينان أكبر قليلاً، ولو كانت تكسو عظامك كمية أكبر من اللحم لتحسّن شكلك كثيراً»، أضاف وضحك وكأنه يلقي نكته لم يفهمها أحد غيره.

«إن زوجي»، قاطعته ليلى بعد أن التفتت إلى فريد لمواساته «جزّار، فهو يحبّ اللحم الممتلئ بالدهن، لكن لا تدعه يضايقك، فأنت أكثر الرجال وسامة في دمشق كلّها».

«يا إلهي، وأنت؟ ماذا تعرفين عن الرجال الوسيمين؟» سأل سيمون. أحسّ فريد بشيء من الجفاء من هذا الرجل وصافح اليد الممدودة بحرارة أكثر مما كان يتمنّى حقاً.

«ومن أجلك فإن ليلى مستعدة لعمل كلّ شيء، حتى عملها وطعام عشائي، ألست محقّاً؟» وضحك مرة ثانية لنكته المستعصية على الآخرين.

«سأفعل أيّ شيء من أجل فريد، لكن يوجد طعام كثير في الثلاجة».

بعد قليل، كان ثلاثتهم يأكلون ويتحدثون معاً. لم يكن سيمون يحبّ الأديرة أو الكنيسة. عندما كان طفلاً أمضى ثلاث سنوات في مدرسة داخلية، أطلق عليها اسم مستشفى مجانين.

بعد العشاء بدّل ثيابه وأخذ كمانه وغادر البيت ليعزف في حفلة موسيقية.

«كيف يعاملكِ؟» سألها فريد.

«بشكل رائع» قالت ليلى، «عندما تتعود على سخريته فإنك ستجد أنه رجل رائع».

انتاب فريد شعور بالارتياب من سيمون مع أنه لم يعرف سبب ذلك.

twitter @baghdad_library

عندما همّ بالمغادرة، وقفت ليلى أمامه تسدّ طريقه وقالت: «هل ستغادر من دون أن أضمك بين ذراعي؟ من دون قبلة الوداع يا نيافة الكاردينال؟»

«أبداً يا سيدتي رئيسة الدير»، أجابها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وأضاف، «لو سمعنا أبي لتبرأ مني وحرمني من الميراث»، وقبّل ليلى على وجنتها.

أخذت ليلى وجهه بين يديها، أغمضت عينيها، وطبعت قبلة طويلة على شفتيه وقالت: «هذا ما أسمّيه قبلة يا نيافة الكاردينال».

١٥٢- زيارة نسائية

أحسّ فريد بالسعادة خلال الشهور التي أمضاها إثر عودته من الدير. ولم يكن يتعين عليه العودة إلى المدرسة حتى الخريف، عند انتهاء العطلة الصيفية التي تستمر ثلاثة أشهر، حيث سيُسجل مباشرة في الصف التاسع. فقد كانت تقاريره الدراسية ممتازة، وأبدت مدرسة البطريركية الشهيرة في حي الزيتون التي يداوم فيها جميع أصدقائه سرورها لاستقبال تلميذها السابق. فقد كان والده عضواً في اللجنة المالية في الكنيسة الكاثوليكية التي تتخذ القرارات المتعلقة بمصير المدرسة.

الغريب أن فريد لم يجد صعوبة في الاعتياد على عدم اكتراث والده نحوه حيث إنه لم يسأل عنه قط أو عمّا ينوي أن يفعله، ولم يعد يدور شيء بينهما أكثر من التحيات التي تتطلبها أصول اللباقة.

كانت كلير منزعجة لكن فريد هدأ من روعها وقال: «إني أرى فوائد في هذا الجفاء لأنه أصبح الآن يدعني وشأني وبدأت أشعر بشيء من الاحترام له ولما يفعله. إنه رجل عديم الفائدة كأب، لكنه رجل لطيف وبالغ الذكاء والخبرة في أمور عديدة أخرى».

ضحكت كلير بارتياح، وقالت: «أعرف ذلك منذ زمن ولهذا السبب فإني أحبّه».

في أحد الأيام، كان فريد مستلقياً على أريكة قديمة مهترئة في ما يطلق عليه السقيفة، يقرأ مجلات فرنسية قديمة تحتفظ بها أمّه. كان يفضل قضاء وقته في هذه الغرفة طالما تذكّر ذلك لأنها كانت جيدة الإضاءة والتهوية معاً، حيث توجد نوافذ زجاجية كبيرة وتشغل سطح البيت الجانبي الشرقي كله. كان المطبخ وحجرة المؤن تحتها مباشرة.

كان والداه يضعان الأشياء التي يقرران التخلي عنها في هذه الغرفة التي يمضي فيها ساعات طويلة وهو يقرأ، يفتش بين الأغراض، يعيد اكتشاف ألعاب خشبية ومعدنية، بعضها مفكك وصار يجمعها ثانية. كانت الألعاب تفتقد دائماً لقطعة ما، لكنه كان يجد فيها كلها سحراً يجذبه.

كان مستلقياً على الأريكة ذات الغطاء المهترئ، يقرأ قصة زفاف الأميرة إليزابيث، أميرة بريطانيا العظمى في مجلة فرنسية تعود إلى الأربعينات من القرن العشرين. أحسّ بالتعب. فقد كان يوسف يحدّثه عن خططه ليلة البارحة وسهرا حتى الثانية صباحاً.

غطّ فريد في النوم. كان آخر شيء تناهى إلى سمعه هو صوت أمّه التي كانت تعمل في المطبخ تحته مباشرة حيث كانت تعد كمية كبيرة من التبولة استعداداً لزيارة صديقاتها لها في عصر ذلك اليوم. كان فريد ينوي الذهاب إلى السينما عندما يصلن، لحضور عرض الساعة الثالثة بعد الظهر.

عندما استيقظ كانت درجة الحرارة قد انخفضت كثيراً، لكنه كان لا يزال يشعر بالتكاسل وعدم الرغبة في النهوض، ولم يعد بإمكانه الوصول إلى السينما في الوقت المناسب لأن الساعة تجاوزت الثالثة والربع. ظل مستلقياً يتذكر تلك الأيام الثلاثة مع رنا. فجأة سمع صوت مادلين أم صديقه يوسف تحيّي أمّه وهي تهمّ بالجلوس على أحد الكراسي المصطفة حول البحرة. كانت الباحة قد ظُللت الآن ورشّت كلير بالماء أصص الزهور والأرضية.

لبث فريد في مكانه وابتسم عندما سمعها تقول لمادلين بأنها أعدت كلّ شيء ثم أخذت قيلولة حوالي ساعة، وأضافت أن فريد ذهب إلى السينما دون أن يودّعها ربما لأنه لم يكن يرغب في أن يزعجها.

twitter @baghdad_library

بعد ذلك وصلت القابلة نديمة التي رحبت بها أمّه بحرارة، ثم تلتها عدة نساء أخريات. لم يستطع فريد أن يعرف مَنْ هنّ من أصواتهن، لكنّه كان متيقناً من أن أمّ سليمان، سلمى، كانت بينهن، بالإضافة إلى أمّ أنطوانيت حنان.

قدّمت كلير شراب الليمون المبرّد بالثلج، ثم قالت مادلين: «لنسمع ماذا يمكن أن تصنعه هذه الأنامل الرفيعة بهذه الأوتار». أيدتّها الأخريات جميعهن.

«حسناً سأعزف لكن يجب أن تغنّين معي»، أجابت المرأة، ثم ساد صمت. أدخلت الموسيقى التي بعثتها من عودها البهجة إلى نفس فريد. غنّت أغنية حبّ قديمة وشاركتها النساء الأخريات في ترديد لازمة الأغنية. كانت كلمات الأغنية تتحدث عن حديث يدور بين رجل وحبيبته تلتقي به بشجاعة في الليل خارج البيت لشدة اشتياقها له. إنها أغنية غير معتادة، قال فريد لنفسه، في الغالب تتحدث الأغنيات العربية عن رجال يتسكّعون بالقرب من بيوت عشيقاتهم في الليل. أما أن تقوم امرأة بالتسلل ليلاً إلى بيت عشيقها، فهذا أمر نادر في الشعر العربي.

واصلت النساء الغناء لفترة من الزمن، ثمّ أُحضرت التبولة، وقدّمت كلير كؤوساً من مشروب العرق المخفّف بالماء والثلج البارد، وقالت لهن مازحة: «لكن لا تشربن كثيراً حتى لا يلومني أزواجكن».

«ليس لدي مشكلة في ذلك»، قالت القابلة نديمة التي كانت أرملة.

«أنا لا أريد، شكراً»، صاحت امرأة أخرى وأضافت، «فاليوم يوم الأربعاء، وإذا أراد زوجي العزيز أن يرضع من ثديي فإنه سيسكر».

تناولت النساء التبولة وشربن العرق وضحكن كثيراً. لم يتمكن فريد من متابعة خيط الأحاديث التي دارت بينهن، ولم يتناهَ إلى سمعه سوى ضحكات وبقايا جمل مشوّشة.

لم يعرف إلى متى استمر ذلك لكنه سمع أخيراً أمّه وهي ترفع صحون التبولة وتكدّس الصحون الفارغة وتحملها إلى المطبخ. كانت تغيب قليلاً

لأنها أعدّت مسبقاً أطباقاً كبيرة من الفستق الحلبي المملّح والمحمّص والفتسق السوداني وبذور البطيخ والقرع. ثم خيّم الصمت، ولم يعد فريد يسمع سوى صوت باهت لتكسير الفستق الحلبي وبزر البطيخ.

«جاء دوري الآن»، سمع فريد امرأة تقول فوافقت الأخريات. لوهلة قصيرة، خيّل إليه أن رجلاً قد انضم إلى الحفلة لكن سرعان ما أدرك أن امرأة كانت تقلّد صوت زوجها. صفّقت لها الأخريات، ثم أخذت مادلين دورها وكذلك فعلت الأخريات ورحن يقلدن سلوك أزواجهن بطريقة ساخرة. لم تكن أمّه سيئة عندما قلدت نوبة من نوبات هياج إلياس الغاضبة.

بعد أن مثّلن ما يقوله أزواجهن، أحضرت كلير قهوة منكّهة بالهيل فاحت رائحتها العطرة حتى السماء. رشفت ضيفاتها القهوة بتلذذ وهن يتهامسن معاً. لفترة من الوقت كنّ جميعهن يتحدثن في وقت واحد. فجأة سمع فريد صوت مادلين تقول: «نعم فأنا أحبّ اليدين. فقد كانت يدا ريمون شديدتي النعومة، وأصابعه طويلة مثل أصابع عازف بيانو وناعمة كالرخام. كان فيها قوّة ورشاقة، رقة وسلطان، لكنها عانت كثيراً من العمل في الحجارة طوال هذه السنوات، وأصبحت مليئة بالبثور وسميكة حتى أنني بتّ أكره النظر إليها، بل حتى أن تلمس بشرتي. فلم تعد هاتان اليدان تبعثان على الدفء. والغريب أن الشخص الوحيد الذي أفكّر به عندما أحسّ بيديه هو أبي فتتلاشى كلّ شهوتي. لذلك أطلب منه ألاّ يلمسني عندما يضاجعني. إنه رجل جيد ويلتزم بهذه القاعدة، وإذا نسي فإنه يُحرم من الحصول على أي شيء مني لمدة أسبوعين».

«وهل يحتمل كلّ هذه المدة؟» سألتها كلير، فضاع جواب مادلين وسط ضحكات النساء، تبعتها أصوات مشوّشة. فقد كنّ يتحدّثن عن الحيل والخدع، لكن فريد لم يستطع أن يلمّ شذرات الأحاديث التي كانت تتناهى إليه. واصل قراءة مجلته، وبدت له النساء في مكان بعيد. وأخيراً سمع القابلة نديمة تصيح، متظاهرة بالفزع، بأن الساعة أصبحت السادسة وانفرط عقد الحفلة.

twitter @baghdad_library

«تعالي معي»، قالت مادلين لأمّه، «أريد أن أريك شيئاً».

بعد أن غادرت النساء البيت، ذهبت كلير مع صديقتها، وبالطبع لم تعد إلى البيت مباشرة لأنه كان عليها أن تحتسي هناك أيضا القهوة أولاً.

عندما عادت، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف. كان فريد جالساً بجانب البحرة، يكسر حبات الفستق المتبقية.

«آه، لقد عدت»، قالت كلير ببهجة. هز رأسه، «كيف كان الفيلم؟»

«حسناً. . .كلام كثير للأذن، وأحداث قليلة للعين كأنه مسرحية إذاعية»، أجاب، شاعراً بأن تلك كانت خلاصة صادقة ومنصفة.

١٥٣- هروب زاكي

عادت دمشق منذ هروب الديكتاتور شكلان تضج بالحياة مرة أخرى. فقد أصبحت فيها حكومة ديمقراطية جديدة وبرلمان منتخب، وعادت الصحف تتمتع بأقصى درجات الحرية. وفي الوقت نفسه، لاحظ السوريون التغييرات الجذرية التي أدخلها الرئيس المصري سطلان على بلده والذي أصبح يحظى بشعبية كبيرة الآن حتى في سوريا. كانت خطاباته تلقى مزيجاً من الحماسة والكراهية في دمشق وبغداد والجزائر العاصمة ومكة المكرمة. فقد كان يتمتع بصوت جهوري رائع، وكان الناس يستمعون إليه من المذياع ويقولون إن صوته آسر كما كان حال صوت المطربة المصرية المشهورة أمّ كلثوم. كان سطلان يتمتع بجاذبية و هيبة بالمقارنة مع الحكام العرب.

لم يكن بإمكان أي سياسي سوري منافسته، وحتى الذين لم تكن تعنيهم السياسة ولا يتناقشون فيها بدأوا يشتمون البريطانيين فجأة لمجرد أن سطلان أدانهم.

أما في البيت فلم يكن باستطاعة فريد أن يأتي على ذكر صوت سطلان الجميل القوي، لأن إلياس وكلير كانا يعتبران هذا المصري ديماغوجياً خطيراً يسرق بتأميمه الشركات أموال العرب ويهيّج مشاعر الغوغاء ضد المسيحيين، بل زعم إلياس أيضاً أن سطلان كان قبل إنقلابه عضواً في تنظيم

الإخوان المسلمين المصري ولم يهاجم البريطانيين والفرنسيين إلا لأنهم مسيحيون.

كان فريد يستيقظ صباح كلّ يوم يتملكه شعور بالرغبة في التعرف على الحياة في تلك الأيام. فقد بدت السنوات الثلاث التي أمضاها في الدير فترة سبات طويلة.

وأما متّى فقد اخذت أحواله تتحسن باستمرار، وبدأ يعود إلى الحياة شيئاً فشيئاً. وأصبح يأتي يومياً ليسأل كلير عما تحتاجه من أشياء لكي يجلبها لها، وعندما يعود ويسلمها الأغراض، كان يقف في باحة المنزل مرتبكاً، لا يأكل أو يشرب عادة شيئاً. لكن كلير كانت تتمكن من إقناعه أحياناً بتناول بعض المرطبات، فيجلس بجانب البحرة ويشرب ما تقدمه له صامتاً شارد الذهن. وكلما رأى فريد لا يكف عن الترديد «شكراً يا أخي»، وبعد قليل ينهض ويغادر مبتسماً.

بالإضافة إلى متّى الذي شغل فكر فريد، أصابه حزن عميق لمأساة زاكي، الشاب اليهودي. فقد روى له يوسف ما عانى منه هذا الصديق ولماذا تحول إلى شخص حزين صامت. حدث ذلك إبان فترة إقامة فريد في الدير. صمم زاكي على الهروب إلى إسرائيل ظناً منه أن افضل طريق هو ذلك عبر مرتفعات الجولان. فقد سمع أن مهربين هناك يؤمنون له لقاء مبلغ زهيد عبور الحدود إلى إسرائيل. فقبض عليه.

بعد ذلك، بدأ زاكي الذي كان مفعماً بالنشاط والحيوية، يعاني الأمرّين. فقد اتُّهم بالتجسس وعُذّب في غياهب السجون الجهنمية واسُتجوب ولم يطلق سراحه إلا بعد سنة. وأضحى شخصاً شكوكاً ولم يعد يأتي إلى حارة العبّارة ولم يعد يخالط إلا اليهود الآخرين. وإذا صادف ولاقى أحد أصدقائه القدامي مثل يوسف كان يقف صامتاً ولا يجيب على الأسئلة التي كانت تنهمر عليه من اصدقاء الأمس، وإذا أجاب كانت كلماته تورية وتمويه لما لا يريد النطق به. صار زاكي على غير عادته يصلّي كثيراً

twitter @baghdad_library

ويعمل مع أبيه الذي مرض من شدة قلقه على ابنه، وقال يوسف إن أكثر من ألف يهودي من الجالية اليهودية الصغيرة في دمشق هربوا إلى إسرائيل عن طريق قبرص أو اسطنبول.

وقال إن الأمر المضحك في الأمر هو أن الحكومة تقول إن اليهود يعيشون في رغد في سورية وأن الحياة في إسرائيل بائسة، إذن لماذا يترك عدد كبير من اليهود كلّ أمورهم الدنيوية ويهربون إلى إسرائيل؟ فإمّا أن يكونوا أغبياء وإما أن حكومتنا كاذبة.

هرب زاكي للمرّة الثانية قبل عودة فريد بقليل في ربيع ١٩٥٦، لكن هذه المرة مع أخته سارة، بوثائق مزوّرة، وذهبا إلى تل أبيب عن طريق بيروت وباريس. أُخضع والداه للاستجواب والمهانة لكنهما لم يكونا يعرفان شيئاً عن مخططاته.

١٥٤- اضطرابات

«سنذهب أنا وسليمان إلى المدينة الجديدة»، قال يوسف لفريد ذات يوم «حيث يسير الطلاب في مظاهرات ويجوبون الشوارع كلّ يوم». كانت كلمة مظاهرات مفردة جديدة بالنسبة لفريد.

«ماذا يعني يسيرون في مظاهرات؟»

«يردد البعض بعض الشعارات ويحملون رايات يكتبون عليها ما يريدون، وبعد فترة قليلة ينقل خبرها إلى جميع أنحاء العالم».

ثم أضاف سليمان وعيناه تشعّان، «ومن حين لآخر تقع اشتباكات ومشاجرات بين أطراف المعارضة، ثم تتحوّل إلى معركة في الشارع. وفي بعض الأحيان تنتشر في أرجاء المدينة الجديدة. ذهبتُ إلى هناك ثلاث مرات وشاركت فيها». قال ذلك وفرك يديه مبتهجاً.

«ماذا تقصد، شاركت فيها؟ مع أي طرف؟» سأل فريد.

«سليمان لا يهمه ذلك»، قال يوسف، ساخراً من صديقه، «ما دام يستطيع أن يكيل اللكمات لأي رجل».

كانت المظاهرة مثيرة للإعجاب. تبع فريد الموكب، وكان يوسف وسليمان في وسطها. كان يوسف يردد الشعارات مع الآخرين، ولم يتمالك فريد نفسه عن الضحك من صديقه. لم يكن يعرفه بهذا الشكل أبداً. فقد كان يوسف بين كلّ الناس البسطاء وكأنه واحد منهم، فقد صار ذلك الفتى النحيف، المدلل، يقفز في الهواء ويصفق بيديه ويصيح مطالباً بإقامة وحدة فورية مع مصر. يا إلهي، ما الذي حدث في غيابي قال فريد لنفسه مندهشاً. لم يهتف سليمان أبداً، بل كان يجري حول المتظاهرين مثل هندي أحمر في أحد أفلام الكاوبوي، يتوقع حدوث مشكلة محاذراً وقوع أي تهديد له. لكن لم تكن هناك مظاهرة مضادة، ورافق رجال الشرطة المتظاهرين وكانوا في غاية الودّ معهم.

حمل رجلان، أُعجبا كثيراً بحماسة يوسف، الفتى النحيف على أكتافهما ليسمعه الجميع. كان صوت يوسف أجش مثل صوت ديك صغير. راح فريد يصفّق، وأخذ الرجال يرددون الشعار الذي يهتف به يوسف.

بعد أسبوع ألقى سطلان خطاباً حماسياً عاطفياً شجب فيه البريطانيين والفرنسيين الذين، كما قال، كانوا يحاولون ابتزازه. وفجأة، ولدهشة ملايين المستمعين، تحوّل لمخاطبة المتظاهرين في دمشق مباشرة. «إخواني في دمشق»، قال وكرر بفخر شعاراتهم التي ادّعى أنها شجّعته في القاهرة على فكرة الوحدة بين مصر وسورية.

لم ينم يوسف في تلك الليلة. فقد كان يعتبر سطلان صلاح الدين الجديد الذي سيوحّد العرب في دولة غنية وقويّة تحارب الصليبيين الجدد.

في ذلك اليوم من صيف ١٩٥٦ تدفق الناس إلى جميع الشوارع المحيطة والبيوت والمدارس والدكاكين، وتوقفت حركة المرور حتى وصل موكب المتظاهرين إلى ساحة السبع بحرات.

انبهر فريد بهذه الأجواء التي لم يعرف شيئاً مثيلاً لها: آلاف الأشخاص يهتفون معاً باسم سطلان، يمتدحونه حتى أعالي السماء. عندما مرّ الموكب أمام بيت رنا تسارعت دقات قلبه. ماذا ستقول إذا رأته؟ لم يعرف.

twitter @baghdad_library

لم يظهر أحد من أفراد أسرتها في النوافذ.

بعد ذلك عندما استقل يوسف وسليمان وفريد الحافلة متجهين إلى البيت، كان صوت يوسف مبحوحاً ومنهكاً. كان سليمان منزعجاً لأن كل شيء مر بسلام.

في محاولة لرفع معنوياته سأله فريد عن لمياء. فقد كان يعرف أنهما متحابان منذ أن كانا في السابعة من عمرهما، لكنه لم يكن يعرف أنه بسؤاله هذا كان ينكأ جرحاً عميقاً. فمنذ أسبوعين فقط، زُوِّجت لمياء رغماً عنها وذهبت إلى حلب مع زوجها.

١٥٥- سليمان ولمياء

كانت لمياء تعيش في البيت المجاور لأسرة سليمان الذي لم يكن يفصله عن بيتهم إلا جدار. كانت أخته عايدة تسخر منهما باستمرار. ذات يوم قالت: «إن أخي مدمن على الشوكولاته، وإذا طلب منه المسيح أن يعطيه قطعة منها، فإنه سيصبح مسلماً على الفور، لكنه مستعد لإعطاء لمياء لوح شوكولاتة بكامله عن طيب خاطر ويراقبها بمحبة وهي تترك قطعة بعد قطعة تذوب في فمها».

عندما كان سليمان ولمياء صغيرين، بالطبع، كانا يلعبان معاً، لكن كلّ ذلك تغيّر عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها، وفجأة لم يعد يُسمح لها برؤيته ولم يعد يستطيع أن يلمسها أو يقدم لها هدايا.

اعتراه اليأس، لكن خطرت ببال عازر فكرة ذكية: فباستطاعتهما أن يحفرا فتحة في الجدار الفاصل بين البيتين وأن يتكلّما مع بعضهما أو أن يتبادلا الرسائل عبر تلك الفتحة الصغيرة. كان الجدار المصنوع من الآجر والطين رقيقاً فلم تكن هناك صعوبة في إحداث ثقب في الفتحة. أما الأمر الأكثر صعوبة فكان إيجاد بقعة مناسبة على كلا الجانبين. في النهاية، استقر رأيهما على البقعة الأكثر أماناً. من جانب لمياء، توجد غرفة حمام صغيرة،

بينما كان يتعين على سليمان الاختباء في خزانة صغيرة تحت الدرج توضع فيها المكانس. أطلع أخته على هذا السرّ كي تتستر عليه إذا استدعت الضرورة. فعلى الرغم من لسان عايدة اللاذع، فقد كان بوسعه الاعتماد عليها دائماً.

سار كلّ شيء على ما يرام لعدة أشهر. وفي أحد الأيام اكتشف شقيق لمياء الأكبر، إحسان، الفتحة فانتظر حتى دخلت أخته غرفة الحمام، فوقف خارج الباب ليتنصّت على حديثها الغرامي. ضربها وسدّ الفتحة.

بعد ذلك بدأت نادية، أعزّ صديقة للمياء، تنقل الرسائل بين الحبيبين لفترة من الزمن، ثم بدآ يرتّبان لقاءات سرية في المدينة الجديدة. لكن والد نادية رأى ابنته وهي تتحدث خلسة مع سليمان ثلاث مرات، وشكّ في أنها على علاقة مع ها الخبيث ابن سائق القنصل.

كانت نادية فتاة شجاعة ولم تفشِ سر الحبيبين، حتّى عندما كانت تُضرب بسبب ذلك. وكان سليمان يسمع من غرفته صراخها كلما أوسعوها ضرباً وهي تبكي بحرقة وتؤكد لوالدها أن سليمان بالنسبة لها بمرتبة أخ.

من شدّة يأسها اتّجهت لمياء إلى أخيها الأثير لديها أسامة ليصبح مرسالاً لها. لم يكن أسامة يتجاوز الخامسة من عمره، وكانت تعطيه قطعة شوكولاته لقاء كلّ رسالة يوصلها. كانت تظن أنه طفل ساذج لكنه بدأ يبتز أخته وسرعان ما استنفد كل ما لديها من نقود تقريباً. وعندما لم يعد بإمكانها أن تعطيه شيئاً أفشى بسرها. هذه المرة لم يضربها والداها أو يحبساها، بل راحا يبحثان سرّاً وبشكل مسعور عن رجل يزوّجونها له على الرغم من صغر سنها. وسرعان ما نجح سعيهما ووجدا معلّماً يبحث عن زوجة بسرعة. كان يكبر لمياء بعشرين سنة، وقد جاء من مدينة حلب.

عندما رأى الفتاة الجميلة الصغيرة شكّ بأنها قد تكون فقدت عذريتها لكن عندما أكّدت له الطبيبة النسائية بأن لمياء لا تزال عذراء، تزوّجها.

twitter @baghdad_library

١٥٦- فيلم هندي

احتفلت أمّ كلير بعيد ميلادها الثمانين وبعد ايام قليلة أصيبت بحمّى جعلتها مشوّشة عقلياً، وأصبحت بحاجة إلى رعاية ليل نهار، وعلى الرغم من أن كلير لم تقم بذلك بنفسها، كان عليها أن تكون قريبة دائماً من الراهبات اللاتي يعتنين بلوسيا. ولم تستطع أن تذهب إلى معلا لقضاء العطلة الصيفية كعادتها.

واسى فريد أمّه وقال لها إنه يفضّل البقاء في دمشق ولا يريد أن تطأ قدماه معلا طوال حياته. رفعت حاجبيها وقالت «لن يعجب ذلك والدك».

«إنه يتجاهلني في جميع الأحوال، لذلك لا أظن أنه يهتم أذهبتُ أم لم أذهبْ. إني أكره معلا». داعبت كلير رأسه.

لم يعرف إلياس كيف يتصرّف مع حماته المريضة، وراح يزورها مرة في الشهر بدافع اللياقة، وفي كل يوم كان يتذمر من ارتفاع درجة الحرارة في دمشق، ويندب أن بيتهم البارد الجميل في معلا ظل فارغاً، لكن كلير لم تعر كلامه أي اهتمام.

هكذا أمضى فريد ذلك الصيف في المدينة، وظل يوسف وسليمان والصبية الآخرون في دمشق أيضاً، أما رنا فذهبت مع والديها إلى اليونان لمدة شهرين. كانت قد اتصلت بفريد قبل أسبوع من مغادرتهم لتخبره.

«لماذا اليونان؟» سألها على الهاتف.

«يملك أحد أصدقاء أبي بيتاً هناك؟»

«هل يمكننا أن نلتقي قبل أن تسافري؟»

«غداً إذا أحببت. يمكننا أن نذهب إلى السينما. لديّ أنا ودنيا تذاكر، يمكنني أن أقنعها بأن تتخلى عن تذكرتها من أجلك، ولن يعرف أبي وأمي بذلك».

«رائع»، صاح فريد، «متى يبدأ الفيلم؟»

«الثالثة بعد الظهر. سأنتظرك قرب مدخل دار السينما».

«ألستِ خائفة من جاك؟ افترضي أنه...».

«لا تهتم بجاك، فليذهب إلى الجحيم»، قاطعته، «سنلتقي كما قلت لك قرب دار السينما».

وصل إلى السينما قبل نصف ساعة من الموعد المحدد، ووصلت رنا قبل ربع ساعة. «إن أمّي أفعى حقيقية»، قالت غاضبة عندما جلسا في المقهى الصغير داخل السينما، «فقبل أن أغادر البيت بعشر دقائق، قالت إن من الأفضل أن يرافقني جاك ليعتني بي وبصديقتي وليحمينا من «أولاد الحرام» حسب تعبيرها. تصور ذلك، بربك! ماذا كان عليّ أن أفعل؟ صممت أن أحافظ على هدوئي، فقلت له حسناً، تعال معنا إذاً. سنذهب لرؤية هذا الفيلم الهندي الرائع، لأني أعرف أن جاك يكره الأفلام الهندية التي يؤكد حتى دون أن يراها أنها سيئة، وأن الممثلين فيها يميلون للبدانة وقصصها تافهة وأغانيها مملّة. وهذا نتيجة طبيعية لأن أمي حرصت على أن تصطحبه في طفولته دائماً لحضور هذه الأفلام التي لم تكن تجعل النساء يذرفن دموعهن فحسب، بل تستحلبها عنوة، لكنّي كنت لا أزال أحمل ورقة رابحة أخرى».

نظر إليها فريد مستفسراً.

قالت موضحة، «الفيلم قصّة حبّ. وأنا أعرف أن جاك يكره قصص الحبّ أكثر مما يكره الرياضيات، لكن أمّي ظلت تشجعه على الذهاب وأغرته بمبلغ من النقود، وقالت إنه يستطيع أن يأخذني أنا ودنيا لتناول البوظة بعد انتهاء الفيلم. عندها لعبت ورقتي الرابحة الأخيرة وقلت له إنها قصّة حبّ هندية رائعة تبكي الحجر لأن البطلة تمرض في وسط الفيلم مرضا عضالاً. نجحت الحيلة. شتم جاك كل شركات الأفلام الهندية وزأر في وجه أمه انه لا يريد بعد اليوم أن يضيع وقته بأفلام هندية، فقط ليرافق الست رنا.

جلست رنا بجانب فريد في السينما المظلمة، يداهما متشابكتان. كان الفيلم أحد تلك الأفلام الهندية الضخمة التي تستمر ثلاث ساعات متواصلة والتي تحكي قصّة يبذل فيها الحبيبان أقصى ما بوسعهما ليكونا حزينين وليستبكيا الجمهور ويغني أحدهما للآخر بدون مبرر ولا إنذار، هكذا في وسط الحدث. ثلث الفيلم عبارة عن أغاني لا يفهمها أحد.

twitter @baghdad_library

ضحك فريد، «رغم إحتقاري لجاك علي أن أعطيه حق في نقده لهذا الإستغباء الذي يدعى فيلماً»، قال لها وقبل أصابع يدها بحنان.

استطاع فريد تقبيل رنا خلسة مرّتين، وفوجئ بالدموع تسيل على خديها عندما نظرت إليه.

عندما انتهى الفيلم أعطته رسالة، وطبعت قبلة وداع سريعة على خدّه وهمست له «فكّر بي»، ثمّ شقّت طريقها عبر الجمهور صوب المخرج الرئيسي. غادر فريد ببطء أكثر، واختار المخرج الجانبي.

قرأ رسالة رنا في الحافلة ولم يتمكن من حبس دموعه.

١٥٧- جبران البحّار

جلس على حافة السرير المعدني القديم وقنينة عرق بيد وسيجارة باليد الأخرى. كان يتربع على أرضية غرفته القليلة الأثاث حوالي عشرة شباب، يدخّنون جميعاً. وكانت سحابة كثيفة من الدخان تهبّ خارج النافذة المفتوحة، كأن غرفة جبران مطعم كباب.

كانت هذه المرّة الأولى التي ينضم فيها فريد إليهم. فقد ظل يوسف يصر عليه كلّ يوم تقريباً لمرافقته منذ عودته من الدير. قال له يوسف إنه يضيّع على نفسه الشيء الكثير لأن جبران عندما يسكر يحكي قصّة أفضل من أي قصة يحكيها أبرع حكواتي في المدينة كلها. وكان جبران في ذلك اليوم ثملاً إلى درجة أنه لم يلاحظهم عندما دخلوا. وجد فريد مكاناً بالقرب من النافذة لكي يتنشق هواء منعشاً.

«قصّتي اليوم هي قصة حبّ مأساوية. بالمقارنة معها فإن قصة مجنون ليلى لا يعدو كونها كأساً من شراب الليمون الحلو. والبطلة والبطل في قصتنا هذه هما جوليانا وعرنوس، ويجب أن تتذكّروا هذين الاسمين».

«لماذا؟» سأل بعض الشباب.

أخذ جبران جرعة كبيرة من قنينته وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته.

«عرنوس. عرنوس وجوليانا»، أخذوا يكرّرون.

«أليس هذا اسم أحد أحياء دمشق؟» سأل طوني. تناول جبران جرعة كبيرة أخرى ونخر.

«ألم يكن عرنوس الابن الذي ذهب ليحارب والده؟»

«أي حرب؟» سأل سليمان، «كنت أظنّ أن عرنوس تعني كوز ذرة».

«لا، يا بني. قد يبدو أن كلمة عرنوس تشبه الكلمة العربية التي تعني كوز ذرة لكنّه اسم روماني. كان السلطان عزيز، سلطان دمشق، حاكماً شاباً حاد الذكاء عندما احتلّ الصليبيون الشريط الساحلي بكامله، وفي فترة هدنة بين الصليبيين والعرب تعرف عزيز على جوليانا وعشقها وعشقته».

كانت تلك بداية قصّة الحبّ الطويلة التي حكاها جبران. راح يتكلّم ويتكلّم، ولم يتوقّف عن الشراب، آسراً الشبان القلقين المبهورين الذين كانوا ينصتون بصمت. حتى أن أحدهم ذرف الدمع عندما زج بابن السلطان عرنوس في السجن عندما وقع كمحارب صليبي أسيرا على ابواب دمشق، ورأى السلطان عزيز حول رقبته الميدالية التي كان قد قدمها لزوجته المحبوبة جوليانا قبل سنوات عديدة.

أنهى جبران قصّته ووضع قنينة الشراب الفارغة فوق صندوق عليه منفضة سجائر ممتلئة بأعقاب السجائر، وعدد من الكتب المهترئة، وارتمى على السرير، وراح يشخر على الفور، وانسلّ الشبان خارج غرفته.

١٥٨- النادي

كان قد مضى وقت طويل على إنشاء النادي الجديد في حارة العبّارة وقد أنشىء خلال فترة وجود فريد في الدير الكائن في باحة خلفية كبيرة تمتلكها الكنيسة الكاثوليكية.

كان مؤسسو النادي، وهم حفنة من الشباب، فخورين بأنهم أقاموا مكاناً جميلاً من باحة خربة مليئة بتلال القمامة والنفايات القديمة. وبعد أن صمّم الأعضاء على تحقيق فكرتهم، جمعوا تبرّعات من أبناء الطائفة

twitter @baghdad_library

المسيحية، مذكّرين الأغنياء منهم بأن الوقت قد حان لعمل شيء من أجل الشباب إذا كان عليهم مجاراة الأغلبية المسلمة في دمشق. أما عندما خاطبوا الملحدين والقوميين والشيوعيين، فقد أشاروا إلى الفوائد الناجمة عن وجود شباب أصحاء، ينتشلهم النادي من الشارع كي لا يتعاطوا المخدّرات ويلعبوا القمار ويتشاجروا بالسكاكين، بل يمارسون الرياضة ويلعبون كرة السلة وكرة الطائرة وكرة الطاولة والشطرنج في مبنى النادي الجديد.

مكّنت التبرّعات السخية من تشييد ملعب مجهّز جيداً، وأصبح للنادي مكتب وغرفة كبيرة للعب كرة الطاولة وعشر مقصورات للاغتسال وتغيير الثياب في المبنى المؤلف من طابق واحد بجانب الساحة التي أضحت ملعباً للكرة، كما أقيم فيه مقهى صغير.

منذ البداية، فتحت جميع مرافق النادي للفتيان والفتيات على حد سواء، ولما كانت الأسعار في المقهى رخيصة وفي متناول الجميع، فقد أصبح النادي المكان المفضّل الذي يلتقي فيه الشباب. وفي أقل من ثلاث سنوات أصبح النادي يضم مئتي عضو عامل ومئة عضو فخري بمن فيهم وزير الثقافة الذي كان آنذاك مسيحياً، وبالمقابل صار بدوره يطلب من أعضاء النادي التطوع لمساعدته في حملاته الانتخابية.

انضم جميع أصدقاء فريد إلى النادي، وكان والده عضواً فخرياً وتبرع بمبالغ سخية، وانضم فريد إلى النادي بعد أسبوعين من عودته من الدير. كان فريد يجيد لعبة الشطرنج وكرة السلة على نحو معقول، ويجيد اللعب بكرة الطاولة بشكل ممتاز.

أزال جميع سكّان البنايات المحيطة بالساحة الألواح التي كانوا قد ثبّتوها على نوافذهم بالمسامير. فقد كان الهوام والرائحة النتنة النفاذة والقمامة الملقاة في الباحة يجعل فتحها أمراً مستحيلاً، وأصبح بوسعهم الآن الجلوس أمام نوافذهم، يتناولون الفستق ويحتسون الشاي وهم يشاهدون لعبة أجنبية غريبة يكافح فيها الشباب للإمساك بكرة حمراء كبيرة يرمونها إلى الأعلى لتنسلّ في شيء يشبه الشبكة. وقبل أن تمضي سنتان، أصبح الجيران

جميعاً يعرفون أشياء كثيرة عن لعبة كرة السلة إلى درجة أنهم كانوا يصفّرون أحياناً ساخرين من الَحكَم.

بعد أن أصبحت قاعة الاجتماع الجديدة جاهزة لم يعد أصدقاء فريد يلتقون كثيراً في الغرفة العلوية أو في بيت رزوق، بل أصبحوا يفضّلون الذهاب إلى النادي. وبدأ شخص آخر يرتاد النادي كلّ يوم وهو البحّار العجوز جبران الذي أقام علاقة صداقة متينة مع توفيق الذي استأجر المقهى. ثم تبين أنهما يعرفان بعضهما منذ أن كانا شابين، لكنهما فقدا مسار بعضهما لعقود عديدة.

توكل جبران بمساعدة توفيق في تنظيف المقهى وسقاية الأزهار وشراء احتياجات المقهى، مقابل أن يأكل ويشرب بقدر ما يريد بدون مقابل. فلم يعد يجوب أرجاء المدينة بل ألقى رحاله في النادي. كان هناك شيء واحد فقط لم يستطع أن يفعله في المقهى وهو احتساء أي مشروب كحولي. فقد كان توفيق حازماً في هذا الأمر، ولم يكن هو نفسه يحتسي أي مشروب كحولي. وفي أحد الأيام سكر جبران فلم يسمح له توفيق بدخول المقهى على الرغم من توسل الشباب له، لأنهم كانوا يأملون في سماع إحدى قصص البحّار العجوز المفعمة بالتوابل.

١٥٩- أمين

التقى فريد أمين في أيلول عندما كانا يلعبان الشطرنج. وقال فريد عنه لاحقاً بأن أحداً، ما عدا كلير ورنا، لم يؤثر على حياته كما أثر هذا البلاّط الصغير. حتى بعد سنوات ظل فريد يتذكر لقاءهما الأول. بالطبع كان فريد قد رأى أمين في النادي قبل ذلك، لكن في ذلك اليوم بالذات، تكلّم معه لأول مرة عندما كانا يلعبان الشطرنج. في ذلك الوقت، لم يكن هناك لاعبون يجيدون لعب الشطرنج في النادي، لذلك كان فريد، بمعرفته السطحية للعبة التي كان قد تعلمها في الدير، مثل رجل أعور في مملكة

twitter @baghdad_library

العميان وكان يهزم الجميع. وفي عصر أحد الأيام في أيلول، دنا منه أمين وطلب منه أن يعلّمه الشطرنج.

كان البلاّط أمين يكبر فريد بخمس سنوات، كثير الضحك في تلك اللقاءات المسائية. ومن التعليقات الحادة والدقيقة استنبط فريد أن أمين واسع الإطلاع خاصة في المواضيع السياسية، ورغم بشاشته ظل يوسف يحافظ على مسافة تشي بالاحترام والحذر منه. كانا يتجادلان في بعض الأحيان بصخب لكنّهما ظلا يحافظان على علاقة ودية في ما بينهما.

طلب أمين من فريد أن يعلّمه كلّ ما يعرفه عن لعبة الشطرنج، وأبدى حماسة وامتناناً في تعلّمها، وأعرب عن إعجابه بالخطط الكامنة وراء حركات البيادق التي تتسم بالكثير من التفكير. كان سريع الغضب ويشتم ويلعن عندما يخسر في اللعب.

في ذلك اليوم الأول لم تتجاوز اللعبة أكثر من عشر دقائق. ثم دعا أمين فريد إلى احتساء كأس من الشاي. عندما قدم توفيق لهما كؤوس الشاي الرشيقة الشكل، رشف البلاّط كأسه ثم سأله باهتمام «سمعت أنك كنت في الدير، هل هذا صحيح؟»

«نعم، لكن هذا لا يعني أي شيء بالنسبة لي. فقد أمضيت وقتاً رهيباً فيه لأنه يتناقض مع القيم المسيحية الحقيقية».

«ماذا تقصد أنها تتناقض مع القيم المسيحية؟» سأل أمين مندهشاً.

«لأن المسيح يعظ المحبة أما في الدير فإنهم يمارسون الكراهية، الكراهية المحضة. فالمسيح لم يعذّب أحداً قط وتقاسم خبزه بتواضع مع الفقراء، أما الرهبان فهم يعذّبون التلاميذ حتى ينهاروا أو حتى يصبحوا قساة القلوب مثلهم».

أشعل أمين سيجارة، ثم قال: «ألا تظن أن ما فعلته الكنيسة بالسيد المسيح أمر غريب؟» وأضاف، «فقد كان يقف دائماً إلى جانب فقراء هذا العالم، أما الكنيسة فإنها تقف دائماً إلى جانب الأغنياء والأقوياء».

«إنك محقّ. فقد قال لي أحد الأصدقاء في الدير إن الكنيسة لا تجعل الطريق إلى الله أقصر بل أطول».

«بل تقيم حواجز تفتيش ومتاهات طوال الطريق»، أضاف أمين متجهماً، «وتفرض رسوماً وبطاقات للدخول عندما تريد».

دخل يوسف وتوجّه إليهما وقال مازحاً: «مرحباً، هل يحاول أمين أن يبيعك أيقونة ستالين؟»

هزّ أمين رأسه، وابتسم ابتسامة عريضة وقال: «لا، لقد بيعت جميعها وأنا لا أبيع أيّ أيقونة من أيقونات سطلان».

ابتسم يوسف ابتسامة مصطنعة، لكن كانت تفوح في الأجواء رائحة خلاف. وسرعان ما انضم رزوق وطوني وسليمان وآخرون إلى المتنافسين. لم يعرف فريد ماذا كان يدور بينهما لكنه أحسّ أن كلاً منهما يحاول أن يسخر من قناعات الآخر وأفكاره.

فجأة بدأوا يتحدثون جميعاً في وقت واحد، ولم يتمكن فريد من مجاراتهم. أحسّ في وسطهم بأنه طفل صغير، أقل مرتبة منهم وهم يطلقون أحكاماً فورية، ويدمدمون بأسماء وأحداث، ويفنّدون ادّعاءاتهم بتعصب وحميّة شديدة لهذا السياسي أو ذاك. لم يكن باستطاعته الدفاع عن أية فكرة أو فلسفة أو شخص إلا عن رنا وكلير اللتين كان بإمكانه الدفاع عنهما وهو واثق من أنه على حق.

انسحب خلسة من دائرتهم وجلس في المقهى.

«كلّ ذلك مجرد زبد»، قال جبران الجالس هناك أيضاً، وأومأ باتجاه الديكة التي تتعارك على الشرفة. «كلّ ذلك مجرد زبد»، كرّر بعد قليل بصوت متهدج، وبدا وحيداً مثل روح فريد.

بدأ فريد يقرأ في مجلة ملقاة على الطاولة. ظل توفيق يوزع الشاي والقهوة على زبائنه في الشرفة حيث أصبح أكثر من ثلاثين رجلاً وامرأة يشاركون الآن في نقاش عقيم، يتخلله الكثير من القهقهات.

twitter @baghdad_library

«هل تريد أن نتمشّى؟» سمع أمين فجأة يقول، «فلم يعد بإمكاننا أن نسمع أنفسنا هنا».

«فكرة جيدة»، قال فريد. سدد ما عليه، وانتظر أمين الذي كان عليه أن يذهب إلى حمام الرجال قبل أن ينطلقا.

«هل أنت ذاهب للتو؟» سأل يوسف الذي وقف خلفه فجأة.

«نعم»، أجاب فريد.

«هل ستأتي إلى بيتي بعد ذلك؟»

«حتى لو جئتُ في وقت متأخر؟»

«لا يهم. سأنتظرك في الطابق العلوي». أدرك فريد أنه يقصد الغرفة العلوية.

كان يبدو أن أمين يعرف أسرة فريد. فقد كان يقيم بالقرب من بيت الجدة لوسيا. عندما عاد فريد إلى البيت بعد ثلاث ساعات، كان في غاية البهجة لأنه صادق شخصاً كان يحدّثه مثل أخ كبير في ذلك المساء. كان أمين شاباً واسع الإطلاع حاد الذكاء، وكان لا يتذمر ليل نهار من الأوقات العصيبة التي تواجهها أسرته، رغم ثقل الحمل على كاهليه. فقد نزحوا كثيراً من مكان إلى مكان على مدى الأجيال، وكانوا كلّ مرّة يفقدون كلّ ما يملكون. وكان والده، وهو سليل رجل مسيحي من النبلاء، يحظى بتقدير كبير، صار الآن يعمل بوّاباً في دمشق، ولم يكن المبلغ الذي يكسبه يكاد يكفي ثمن السجائر التي يدخنها ومشروب العرق الذي يحتسيه، فاضطر أمين إلى ترك المدرسة في سن مبكرة وبدأ يعمل لإعالة الأسرة التي تضم ثلاث أخوات صغيرات لا يزلن في المدرسة. لكن كلّ ذلك لم يثنِ حبّه للحياة ولم يهزم ضحكته، وقال لفريد إن الفقر الذي يعاني منه ليس بلية خاصة به، إنما جزء من شقاء أضخم في العالم جعل ملايين البشر يتضورون جوعاً، وقال إنه سيعير فريد كتباً عن الفقر في العالم، واتفقا على أن يلتقيا مرة أخرى.

كان والدا فريد نائمين عندما عاد إلى البيت. صعد بهدوء إلى الطابق

الأول ومنه توجّه إلى الغرفة العلوية فوق مخزن اليانسون. كان يوسف جالساً إلى الطاولة يقرأ.

«ها قد أتيت أخيراً»، قال.

«هل كنت تنتظر منذ فترة طويلة؟»

«لا»، قال يوسف، ثم ساد صمت طويل أزعج فريد. «إن أمين شاب لطيف»، قال يوسف أخيراً دون أن ينظر إلى صديقه وأضاف، «لكنه شيوعي خطير. يجب أن تحذر منه».

«لماذا؟» سأل فريد الذي لم يخطر بباله قط أن البلاّط شاب خطير بل شاب حسّاس ومستقيم. «لأن الشيوعيين لا يحبّون بلدهم مطلقاً. إنهم يتلقون أوامرهم من موسكو وينفّذونها بحذافيرها، وإذا قال لهم الرفاق هناك اقتلوا أخواتكم فإنهم يقتلونهن».

«أحمد الله أنه لا توجد أخت لديّ، لكنّك أَحَبُّ إليّ من أخ. وسواء كنت انا رفيقاً أم لا، فلو طلب مني البابا نفسه أن أقتل يوسف فإني سأعتنق الإسلام على الفور. هل رضيت؟»

«لا تتصرّف بغباء. في البداية يدرّبونك ثمّ يحقنون فيك حبّ موسكو، وبعدها تصبح مسلوب الإرادة. إنهم ليسوا على تلك الدرجة من السذاجة لكي يأمروك بأن تفعل شيئاً يجعلك تشعر بالاشمئزاز بل إنهم يفعلون ذلك بذكاء أدهى، ويطلبون منك أن تنفذ الأشياء التي تظن أنها ليست سيئة على الإطلاق، وفجأة، وعلى الرغم من أنك قد تكون إنساناً مخلصاً ومحترماً، تكون قد أصبحت قاتلاً وخائناً».

«لكني لن أفعل شيئاً يضرّ بلدي أو أسرتي أو ديني».

«يا إلهي يا لسذاجتك؟ إن الشيوعيين لا يعترفون حتى بوجود الله ولا الدين ولا العائلة وهم ينامون مع أخواتهم».

«هراء»، هدر فريد غاضباً بعد أن تذكّر أنّ أمين يضحّي بحياته من أجل والديه وشقيقاته، بينما لا يتحمّل يوسف المدلّل ظِلَ أخواته.

twitter @baghdad_library

«أردت فقط أن أحذّرك لأنني صديقك وأحبك»، قال يوسف. بدا حزيناً ويائساً.

«إذاً هدئ من روعك يا بابا، فجولة واحدة مع أمين لن تجعل مني شيوعياً»، أجاب فريد بمرح.

«ليس بعد، ليس بعد»، همس يوسف بيأس. لأنه كان مقتنعاً تماماً بأن فريد قد اتخذ خطوة خطيرة، ولم يخطئ حدسه.

١٦٠- حكواتي الليل

في إحدى الليالي، قبل أن تفتح المدرسة أبوابها في أوائل تشرين الأول، مثّل جبران دور الحكواتي، راوي القصص السوري التقليدي المعروف.

لم يكن أعضاء النادي قد غادروه بعد منتصف الليل، لكنهم كانوا جميعاً جالسين في صالة المقهى وفي صالة كرة الطاولة. وبما أن الجلبة التي يحدثها الرواد على الشرفة تزعج هدأة الليل، كان بإمكانهم الجلوس في كلتا الصالتين إذا سمح لهم توفيق بذلك، وكان يبقى في المقهى حتى ساعات متأخرة. كان سعيداً دائماً بوجود الآخرين لأنه كان يحسّ بوحدة شديدة عندما يصبح وحيداً في غرفته الصغيرة في البناية الكائنة في نهاية الشارع.

كانت صالة المقهى تتسع لعشرة أشخاص فقط، بينما اتسعت صالة كرة الطاولة الكبيرة بسهولة لمئة كرسي. فقد صمم ميشيل، النجار الذكي، الطاولة الخضراء الكبيرة بحيث تُطوى بحركتين وتُدفع على عجلات وتوضع في خزانة فتصبح الصالة واسعة، وتُكدَّس الكراسي والمقاعد في غرفة مجاورة.

ذات مساء جاء فريد إلى النادي ووجد عدداً من الشباب متحلقين حول رزوق في صالة كرة الطاولة، يحتسون الشاي ويضحكون. دخل فريد بهدوء ووجد لنفسه كرسياً وانضم إليهم. كان رزوق في منتصف القصّة التي يحكيها، وسرعان ما عرف فريد عمّا تتحدث هذه القصة: عن جارتهم

سعيدة، ومَنْ غيرها؟ كان معظم الموجودين يعرفون سعيدة التي كان يشاع في الحارة أن لها جسداً كالمرمر، وفماً كالإذاعة. ويقول عنها الرجال إنها امرأة جريئة، أما زوجها صادق، بائع الخضراوات الذي يقع محله بالقرب من مدخل حارة العبّارة فكان رجلاً شحيحاً ساذجاً. وقد عوّض عن مواهبه العقلية الضئيلة بالخبث والمكر الشديدين. وكانت أبرز حيله تظاهره بالبراءة، وقد ساعده وجهه الطفولي على خداع جميع الزبائن. لم تكن كلير تحتمل رؤيته وكانت نادراً ما تشتري أغراضها منه. فعندما تشتري شيئاً من محله، كانت تكتشف بعد وصولها إلى البيت أنه دسّ أشياء غير جيدة لم تكن قد انتقتها هي، كما كان يتلاعب بالميزان. ولم يكن إلياس أيضاً يحبّ صادق حتى أنه كان يرفض مصافحته ويقول إنه يخشى، إن هو فعل ذلك، أن يفقد إصبعاً أو أكثر من يده في يد ذلك الغشّاش. وكان إلياس يقول: «حتى اسمه صادق مجرد ستار مخادع».

كانت سعيدة تمازح الرجال وتحبّ أن يقدموا لها هدايا، وكانت تُشعِر أي رجل يقدم لها شيئاً بأنه ملك قلبها.

«إنها تخرج لتنشر الغسيل على شرفة سطحها الكبير عصر كلّ يوم ثلاثاء وخميس»، تابع رزوق، ولاحظ فريد ابتسامة شيطانية ترتسم على وجه ذلك الحكواتي المحترف لأنه كان يعرف أن الذكور الذين يستمعون إليه كانوا متعطشين لسماع كلّ كلمة وجملة يقولها، لذلك كان يتمهل ويسأل «هل تريدون أن أواصل؟» ويتطلّع حوله ويرشف رشفة طويلة من كأس الشاي. بالطبع كان يعرف الجواب سلفاً.

«حسناً، ها هي تمدّ حبل الغسيل ويستطيع الجميع رؤيتها من البنايات المحيطة، كأنها تُقدّم لهم على طبق كبير، ثمّ تبدأ بالغناء، فيهرع جميع الشبان في البنايات الأربع إلى مراحيض بيوتهم التي تطلّ أبوابها أو نوافذها على سطح بيت سعيدة.

لكنها سرعان ما تبدأ بالتصرف كأن تنورتها تعيق حركتها، فتدسّ أطراف

twitter @baghdad_library

تنورتها في حزامها وتكشف عن ساقيها العاريتين، و تتمشى على الشرفة، وهي تعرف تماماً أن عيون الشباب جاحظة وتكاد تخرج من محاجرها وراء تلك الأبواب، لأن أولئك الشباب يلصقون بؤبؤ أعينهم في شقوق أبواب مراحيضهم. وعندما تكون رائقة المزاج، ترقص قليلاً أمام كلّ باب بغنج مثير حتى تبدأ تشعر بالأنفاس الحارة التي يطلقها الفتى القابع وراءه، ثم تنتقل إلى الباب الآخر، وعندما ينسلّ الشاب الأول، المحدودب الظهر من الإعياء والخجل، ويغادر المرحاض خائراً، ساحباً قدميه وراءه، تنقل سحرها إلى الشاب الثاني فالثالث».

«وهل أنت واحد من هؤلاء؟» سأله سليمان بجرأة. لكن رزوق لم يهتز له جفن.

«طبعاً. ومن قال إني خُلقتُ من حجر؟» أجاب، وسمع صوت الدمدمة بالموافقة، «لكن في بعض الأحيان لا تكون رائقة المزاج، أو أنها لا تشعر بالرغبة في ملاعبة الفتيان، فتغويهم وتدفعهم إلى الاندفاع إلى مراحيضهم لكنها تؤدي عملها بسرعة كبيرة من دون أن تتوقف في أي مكان، وثم. . .»، يقطع رزوق قصّته ويحتسي المزيد من الشاي. كاد الهواء يصفر من التوتر.

«نعم، ماذا بعد؟» سأل طوني ابن بائع العطور وقد نفد صبره، فضحك الآخرون.

«ثمّ تجعل باعة الحليب المساكين يترنحون»، قال رزوق.

«أيّ باعة حليب؟ ماذا يحلبون؟» سأل طوني الساذج. فهدر الجميع في ضحكة مجلجلة، «إنهم يحلبون تيوسهم»، صاح سليمان.

«ماذا تقصد؟ أيّ تيوس؟ كيف يحلب التيس؟»

«ليعلّم أحدكم طوني حقائق الحياة»، صاح مسعود، مساعد البنّاء القوي ذو الشعر الهائج.

«ثمّ ماذا يحدث؟» سأل سمير، ابن الميكانيكي.

«ثمّ تبتعد تاركة سلة الغسيل هناك»، أجاب رزوق، «وتمكث في شقّتها بضع ساعات، تنظف وتطبخ أو تحتسي القهوة مع إحدى جاراتها. وتجد متعة شرّيرة في التفكير بجميع أولئك الشبان الذين يغادرون مراحيضهم مكسوري الخاطر، الواحد تلو الآخر».

كما لو كانت حكاية رزوق شريط الأخبار الذي يعرض قبل عرض الفيلم الرئيسي في السينما، نهض جبران على قدميه ومشى ثم طلب أن يأخذ مكان رزوق الذي نهض وانتقل وجلس بجانب فريد في الصف الخلفي. في هذه الأثناء، دخل توفيق وهو يحمل عشرين كأساً من الشاي على صينية كبيرة وراح يقدّمها للحاضرين. تناول كلّ واحد منهم كأساً ووضع عشرة قروش على الصينية، ومال إلى الوراء، مستمتعاً برائحة الشاي المعطّر.

جلس جبران ووضع كأسه إلى جانبه، ولوهلة بدا متجهماً للرجال الحاضرين وقال متمهلاً: «إن قصّة رزوق تذكّرني بامرأة ذكية أخرى».

«حتى الرسول محمد كان يحذر من مكائد النساء» قال توفيق موافقاً، وأخذ كوباً من الشاي، وجلس في زاوية الغرفة بحيث يرى من مكانه قرب النافذة في صالة كرة الطاولة إذا دخل أحد إلى المقهى.

«في جميع الأحوال، كنّا نعيش في ضواحي دمشق آنذاك بالقرب من باب المدينة الجنوبي، الباب الصغير. كان والداي فلاحين فقيرين، وكانت تسكن بالقرب من بيتنا امرأة تدعى بلقيس مع زوجها الضخمَ القوي كالجمل، لكنّه كان شبه أعمى. امتلك مطحنة وراء بيتهما وبساتين مزروعة بالخضراوات وعرائش العنب تدرّ عليه مبلغاً جيداً من المال يجعله يعيش في بحبوحة. كانت بلقيس رائعة الجمال. في الحقيقة، وصدقاً، مع أنني رأيت نساء كثيرات في رحلاتي الكثيرة، فإنني لم أر أجمل من بلقيس إلا امرأة واحدة فقط وهي امرأة أمازيغية من جبال أطلس التقيت بها في أحد النوادي الليلية في ميناء مارسيليا، لكن تلك قصّة أخرى، وسأحكيها لكم في وقت آخر.

عاشت بلقيس حياة سعيدة لكن أحد جيرانها ظل يزعجها. ذلك الجار

twitter @baghdad_library

هو أبي الذي اعتقد خاطئاً أنه رجل وزير نساء لا يقاوم، وركّز كل اهتمامه وسماجته على بلقيس.

أزعجها ذلك كثيراً فحكت لأمّي قصتها فرسمتا خطة ماكرة. هل تريدون أن أتابع الحكاية؟»

«نعم، نعم، تابع»، صاح الحاضرون المتكدّسون أمامه.

«أحتاج إلى سيجارة جيدة حتى لا أنسى منها شيئاً»، قال جبران بخبث. ضحك توفيق الكهل وهزّ رأسه. قُدمت لجبران خمس أو ست سجائر، فأخذها كلّها، وأشعل واحدة ودسّ السجائر الأخرى في جيب قميصه الفضفاض.

«في مساء أحد الأيام قالت بلقيس لأبي إن زوجها سيكون مشغولاً في الحقول، وسألته هل يريد أن يأتي لرؤيتها. يا له من سؤال! كان هذا التيس المغرور عندها خلال دقائق. طلبت منه أن يذهب إلى غرفة نومها ويخلع ثيابه ويستلقي على السرير، وقالت إنها ستهيئ نفسها ثم تلحق به.

كان أبي عادة أبطأ من سلحفاة عرجاء لكنه في ذاك اليوم تعرّى تماماً في ثوان معدودة.

لكن بدلاً من أن تتهيأ بلقيس للعبة الحبّ، هرعت بعد دقائق إلى غرفة النوم وهي لا تزال مرتدية كامل ثيابها وقالت له مرعوبة بصوت منخفض لا يكاد يكون مسموعاً إن زوجها قد عاد إلى البيت وأصبح عند بوابة الدار، وأنها تعرف أنه سيقفل البوابة الخارجية قبل أن يدخل إلى البيت.

«لقد قضي علي»، قال أبي نائحاً. فقد كان متيقناً من أن زوجها إذا أمسك به فإنه سيسحقه ويجعل منه عجينة وهو في سورة غضبه.

«لا توجد إلا طريقة واحدة»، همست بلقيس، «يوجد باب في غرفة النوم يفضي إلى الشرفة ومنها يمكنك الدخول إلى الطاحونة. عندما تصبح في داخلها عليك أن تدير حجر الرّحى كما لو كنت حمارنا، وما إن ينام زوجي حتى آخذ المفتاح من جيب بنطاله وأفتح لك الباب».

«شكراً فقد أنقذتِ حياتي»، همس أبي وجرى عبر الباب الخلفي إلى

الشرفة ومنها إلى الطاحونة، وبدأ يدور وهو يدفع العارضة التي تدير حجر الرّحى الثقيلة أمامه. كانت العارضة كلما دارت دورة واحدة دقّ جرس صغير لكي يعرف المزارع في الساحة إن كان الحمار قد توقف عن الدوران أم لا.

كانت في السقف فتحة يتدفق القمح منها إلى الطاحونة. سمع أبي الرجل العائد إلى البيت وهو يسأل زوجته ماذا كانت تفعل طوال النهار.

«أطحن الحنطة»، أجابت. شنّف المزارع أذنيه وسمع الجرس.

«يا لك من امرأة مجدة طيبة. لكن أفي هذه الساعة المتأخرة؟» سألها بشيء من القلق.

«حسناً، لقد نام الحمار في منتصف النهار من شدة الحرارة. لكن بعد أن أصبح الجو أكثر برودة الآن، فقد استيقظ وقلت إن من الأفضل أن يطحن عدداً من أكياس الحبوب»، أجابت زوجته.

«يجب أن تضربيه أكثر، فقد لاحظت مؤخراً أنه صار عنيدا وكسولاً بقدر ما ازداد نهمه للشعير»، قال زوجها.

«لا، لا، إنه يعمل معي كالحمل»، أجابت بلقيس. فأسرع أبي في تدوير حجر الرّحى مرات ومرات حتى بدأ يشعر بالغثيان. أفرغ المزارع كيساً آخر من الحنطة عبر القادوس الذي ينقل الحبوب إلى حجر الرّحى.

جلست بلقيس وزوجها على الشرفة فترة أطول. في تلك الليلة كان البدر يتربع السماء وكانا يتحدثان بسعادة. وكلما أراد أبي أن يتوقّف لالتقاط أنفاسه، كان الزوج يقول بحدّة: «لقد توقف الحمار. يجب أن أذيقه طعم سوطي»، فتتوسل إليه بلقيس بأن يبقى معها، ويواصل أبي الدوران كأن نحلة طنّانة عالقة على ذيله.

عندما أحضرت له بلقيس ثيابه أخيراً بعد منتصف الليل بفترة طويلة وفتحت له البوابة، لم يكن أبي قادراً على المشي باعتدال واستقامة.

بعد أسبوع، سألته بلقيس عمّا إذا كان يريد أن يزورها ثانية. وابتسمت له ابتسامة ماكرة وهي تقول له ذلك.

twitter @baghdad_library

«لماذا؟» بصق أبي على الأرض وزأر فيها، «هل تحتاجين أنت وزوجك إلى طحن كمية من الحنطة؟»

عندما بدأ الجميع يشقون طريقهم إلى الخارج، رأى فريد متّى هناك أيضا، جالساً في مؤخرة الصالة. صاح «أخي»، ودنا من فريد. أخذ فريد يد متّى اليمنى الممدودة بكلتا يديه. أحسّ بدفء غريب.

١٦١- حروب كبيرة وصغيرة

هناك بعض العبارات التي تنسلّ خفية في أحاديث الدمشقيين لمعرفة ما إذا كان شخص لا تعرفه جيداً ينتمي إلى دينك أم لا. فإذا قال مسلم: «اللهم صلّ على سيدنا محمد»، يرد عليه المسلم الآخر بعبارة، «وعلى آله وسلم»، بينما يرد اليهودي أو المسيحي بالقول: «اللهم صلّ على جميع الأنبياء». وحتى العبارة الدمشقية: «يا أخي، صلّ على النبي!» التي تعني كن صبوراً، يجيبها المسلم: «اللهم صلّ على نبينا محمد» بينما يقول المسيحي او اليهودي: «اللهم صلي على كل الأنبياء».

كان على فريد أن يتعلم جيداً عدداً لا يحصى من هذه الرسائل والطقوس السرية.

منذ طفولته كانت كلير تنبهه إلى أن عليه أن يتذكّر الذين يصومون في شهر رمضان، الذين لا يأكلون ولا يشربون شيئاً في أحياء المسلمين في ذلك الشهر. وبما أن المسلمين يحسبون الزمن وفق الأشهر القمرية الأقصر، فقد كان شهر رمضان ينتقل على مدار فصول السنة كلها. إن بقاء المرء من دون أن يتناول قطرة ماء واحدة من شروق الشمس إلى غروبها في حرارة الصيف الجهنمية أمر في غاية الصعوبة، وقد ربت كلير فريد على احترام المسلمين، ولم يكن لديها أي تسامح إزاء أي استفزاز من جانب أي شخص من ديانة أخرى.

حتى الآن، كان جميع أصدقاء فريد تقريباً من المسيحيين. وكان زملاؤه المسلمون القلائل في المدرسة، مثل كمال الصابوني، يتحدرون من

عائلات غنية ويتفهمون العادات المسيحية، لذلك أثار كلام أجير الجزّار محمود روعه. كان الوقت صيف ١٩٥٦، وكان المذياع لا يكفّ عن إذاعة تقارير عن الحرب الوشيكة التي ستنشب بين بريطانيا وفرنسا من جهة ومصر من جهة أخرى. وسمع فريد من والده أن سبب النزاع الرئيسي هو قناة السويس. كان ذلك هو كلّ ما يعرفه. فجأة وقف صبي قبيح تفوح منه رائحة دهن الغنم النتنة معترضاً طريقه.

«إذا هاجم المسيحيون واليهود مصر فإننا سنحرق حيّكم»، قال مهدّداً. ولتأكيد الكلمات التي قالها أشعل عود ثقاب وألقاه على فريد الذي لم يعرف عن هذا الصبي، سوى أنه يعمل أجيراً عند الجزّار محمود. فقد كان جميع الجزّارين في الحيّ المسيحي من المسلمين، لكنه لم يفكّر بذلك من قبل قط. وكان يتردد على محل محمود منذ طفولته، لأن كلير وإلياس كانا يثقان بهذا الرجل الذي كان فريد يرى أنه رجل ذكي أيضاً. فقد كانت جدران دكانه الكائن في الشارع المستقيم مليئة بلوحات مكتوب عليها أشعار وأقوال تمتدح الصبر أو تذم الحسد، وكانت أجمل لوحة تحتوي على قصيدة حفظ فريد بعض أبياتها عن ظهر قلب معلّقة فوق خشبة تقطيع اللحم تقول: «كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظا واهجر الآدابا / وبها صارت الكلاب ترجّيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا».

«لا بد أنه مجنون»، قالت كلير وضحكت، «يتلو أشعاراً وقصائد وهو يقطّع اللحم ويكسر العظام! هل سمعت في حياتك شيئاً كهذا؟»

في بداية تشرين الأول، هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر. وتحولت أحلام فريد لكوابيس. فقد كان في كلّ حارة جزّار مسلم، وإذا ما قاله أجير الجزّار صحيحاً، فمن الممكن أن تلتهم النيران الحيّ المسيحي برمته في أيّ لحظة. أفضى فريد بمخاوفه تلك إلى يوسف الذي لم يضحك كما كان يتوقع فريد، بل قال: «صبي غبي وفكرة خطيرة أيضاً وإذا إجتمع الغباء مع النار فيا ويلاه. إن جميع المباني مشيّدة من الخشب والآجر ويمكنها أن تشتعل بشرارة مثل مشعل».

twitter @baghdad_library

في إحدى الليالي حلم فريد بأنه يقود مسيحيي الحيّ المحترق عبر نهْر إلى منطقة آمنة في الريف الأخضر. ابتسم يوسف ابتسامة عريضة وقال له «إنك تتدرب في المنام على دور موسى؟» وربّت على كتف فريد وأضاف «هيا فأنا أعرف نفقاً سرياً كان المسيحيون يستخدمونه قبل قرون عديدة للهرب يمكن بلوغه من تحت كنيسة حنانيا».

ذهبا إلى الكنيسة، واتّجها مباشرة نحو الباب الجانبي المفضي إلى دهليز معتم. ارتعش فريد. كانت تفوح في المكان رائحة عفونة ورطوبة، لكن يوسف مضى دون أن يهاب شيئاً، وهو يحمل مصباحاً كاشفاً. فجأة انتهى الدهليز وسدّت النفق جدران أساس البنايات الجديدة ومهاوي المجاري. «ليس هناك طريق للهرب» همس يوسف بكآبة فعادا أدراجهما.

بعد يومين كان الحيّ كله يحتفل مبتهجاً. فقد هاجم جول جمّال، الضابط السوري المسيحي الشاب الذي كان يتدرب في مصر، المدمّرة البحرية الفرنسية «جان بارت» التي كانت ترسو قبالة ميناء بور سعيد بزورق الطوربيد الذي كان يقوده واستشهد. علّقت صوره المرسومة بألوان زيتية بسرعة كبيرة في كل مكان، وفجأة شعر أهالي الحيّ بالارتياح وبالفرح. فقدْ حرر موت الضابط الشاب المسيحيين من الإحساس بالذنب، وراحوا يقولون «لقد حرر جول جمالنا مصر». في واقع الحال، لم يكن ذلك صحيحاً تماماً، لكنه كان في أعينهم بطلاً صدّ الأوربيين لوقف مخططاتهم، وأُطلق اسمه على الشوارع والميادين والمدارس في أنحاء سورية.

في واقع الأمر، فقد لقي هذا الضابط الشاب حتفه في عملية شجاعة مستميتة ضد القوات الفرنسية والبريطانية المتفوّقة التي نزلت في مدينة بورسعيد في الجانب الشمالي من قناة السويس. فقد انطلق بزورقه الطوربيد بدون هدف، وكانت نيران الجحيم تندلع من الأفق لتحرق الأخضر واليابس في المدينة التي رفض سكّانها الاستسلام.

أخيراً صدم بقاربه المليء بالمتفجرات المدمّرة الفرنسية «جان بارت». لم تغرق المدمّرة، لكن تأثير الضربة جعلها عاجزة على المناورة،

ولم تمض ثلاث ساعات حتى فجّرها قارب طوربيد سريع آخر.

لم يكن جول جمال ولا أي شخص آخر، ما عدا بحار بريطاني واحد، يعرف أنه كان على وشك أن يأخذ معه جميع خبراء الحرب الاستراتيجيين إلى حتفهم. فقد مرّ قارب الطوربيد الذي كان يقوده بسرعة كبيرة من جانب السفينة الحربية البريطانية «تاين» التي لم يكن يفصله عنها سوى ثلاثة أمتار، وكان جميع قادة الحرب البريطانيين والفرنسيين مجتمعين على متنها، وكان هناك بحّار واحد فقط يقف في مقدمة السفينة رأى القارب المنطلق بسرعة وراح يصيح، لكن صوته غرق في ضوضاء المحرّكات والانفجارات في قناة السويس. راح يراقب الزورق المنطلق بسرعة حتى ارتطم بالسفينة الحربية الفرنسية فاحترقت.

«وماذا عن هذا أيها النتن؟» صاح يوسف بعد ثلاثة أيام وهو ينظر إلى داخل دكان الجزّار. في تلك اللحظة، كان المحل خاوياً من الزبائن، وكان الجزار محمود منهمكاً في قراءة كتاب عن الشعر الجاهلي. رفع عينيه مندهشاً. كان يعرف يوسف وفريد، وكان أجيره يقف مطرق الرأس مثل كلب مضروب.

«هيه، هيه، يوسف! من تقصد بالنتن؟» سأله الجزّار، مستاء.

«كان أجيرك سيضرم النار في حيّنا. يدَّعي أننا نحن المسيحيين خونة».

«من؟ الأحمق قال ذلك؟» وضع محمود كتاب الشعر على خشبة تقطيع اللحم واتّجه نحو أجيره، وقال: «هذا الولد لا يميّز بين فيليه وبين اللحم المفروم - وها هو الآن يتدخّل في السياسة؟» هبطت على وجه الصبي صفعة رنانة، «يا ابن الزانية أنت تهين زبائني؟» وهبطت صفعة أخرى على خدّه الآخر.

«أنا آسف يا معلّمي. لن أتكلم بالسياسة مرة أخرى. أبوس يدك لا تضربني»، أخذ الصبي يتوسل، مستسلماً لذراعي معلّمه صاغراً. راح الجزّار يهزّه مثل ذبابة ثم التفت إلى يوسف وفريد وقال: «لا بد أنه أخطأ لكنه إذا فعلها ثانية، أخبراني فقط عندها سأقطع بيضتيه وأرميهما إلى الكلاب».

twitter @baghdad_library

١٦٢- طاولة النرد

شغل الشطرنج مكانة عالية بين الألعاب التي يلعبها رواد النادي. فقد كان الأعضاء المسنون والشباب يلعبون الداما والدومينو، أما جميع أنواع ألعاب الورق فقد مُنعت لأنها تعتبر ألعاباً بدائية للحظ والقمار وكثيراً ما أشعلت نزاعات ومشاجرات لأن الغُش سهل المنال. ولم يرغب أحد في لعب طاولة النرد رغم السماح بها، ولم يشجّع أحد على اللعب بها، ولم يكن توفيق الذي يدير المقهى سعيداً بذلك.

«لأن أعضاء اللجنة الإدارية لا يجيدون اللعب بها»، قال بازدراء. كان فريد يستطيع أن يلعب عدة ألعاب - الشطرنج والداما والدومينو- لكن لم يتقن أحد في أسرته لعبة طاولة النرد المحظورة في الدير أيضاً. كان يوسف يتقن اللعبة رغم احتقار أهله لها، لأن والده كان يقول بحدة إنها لعبة الكسالى والذين سماهم «أولاد قهاوي».

في أحد الأيام، جاء فريد إلى النادي ورأى يوسف وتوفيق جالسين أمام طاولة النرد. راح يراقبهما بافتنان. كان يوسف يشتم ويلعن بصوت واطئ لأنه خسر لعبة بعد أخرى. كانت اللعبة التي يلعبانها تدعى «فرنجية». عندما انتهت اللعبة بنتيجة خمسة - صفر، اقترح توفيق جولة أخرى، وقرر يوسف أن يلعب لعبة «المغربية»، وبعد نصف ساعة، كان توفيق هو الرابح مرة أخرى.

«ربما كان علينا أن نجرّب لعبة المحبوسة»، فقد هزمتني مرتين متتاليتين منذ قليل.

رفض يوسف الفكرة وقال: «النرد ليس معي، حظي تعيس اليوم».

«ما هذه اللعبة؟» سأل فريد.

«إنها لعبة مزعجة»، قال يوسف، «لكنها تجعلك تدمن عليها». تمطّى.

«إنها فلسفة كاملة»، قال توفيق، «انظر، فالشطرنج لعبة تعتمد على المنطق والاستراتيجية كثيراً. لعبة لا يوجد فيها مجال كبير للحظّ أو

للصدفة. والعالم كله يثني عليها لأنها حقاً لعبة للأذكياء. وأنا لا ألعب الشطرنج لأنها بالنسبة لي لعبة باردة وتتطلب حسابات كثيرة، وإذا لعبت مع لاعب محترف فلن تكون أمامك أدنى فرصة للفوز لأنه سيحطّم جيشك بحركات مدروسة ومحفوظة بدقة شديدة. أما في لعبة طاولة النرد، كما في الحياة، فلا يزال كلّ شيء ممكناً، وفيها شيء آخر أيضاً - انظر، هذا ما علمني إياه جبران.

«يمثّل اللاعبان مصيرين أو مستقبلين، قطعتا نرد تذهبان عند إلقائهما في طريقين مختلفين. ولكلّ نرد ستّة أرقام.

واحد هو الله.

اثنان الجنة وجهنم، الخير والشر، الرجل والمرأة.

ثلاثة الأب والأمّ والابن.

أربعة فصول السنة وجهات البوصلة.

خمسة عدد الأصابع والحواس والقارات وصلوات المسلمين وجروح المسيح.

ستّة رقم الانسجام، وقد خلق الله الكون في ستة ايام.

ويبلغ مجموع كلّ عددين مقابل بعضهما في النرد سبعة. وسبعة هو رقم مقدّس وعدد أيام الأسبوع وعجائب الدنيا.

«في كلّ جانب من جانبي لوحة طاولة النرد اثنا عشر مثلثاً يطلق عليها اسم مؤشر أو خانة وتعني بالتركية بيتاً تعبّر عن أشهر السنة الاثني عشرة. وبينها يوجد للاعبين أربعة وعشرون مؤشراً بعدد ساعات اليوم، وهما يلعبان بثلاثين قطعة، أي عدد أيام الشهر، نصفها أسود لليل والنصف الآخر أبيض للنهار، أو يمكنك أن تقول إنها تعبّر عن الحزن والفرح، السعادة والأسى.

يحاول اللاعبان استخدام المهارة، وبعكس لعبة الشطرنج يجب على اللاعب أن يعتمد أيضاً على حظّه، على الوحي قبل أن يقدم على أي حركة. عليه أن يرمي النرد، ومن الممكن أن يتحول الفائز إلى خاسر بسرعة والعكس بالعكس، وفي بعض الأحيان، لا يحدث ذلك إلا في الدقيقة

twitter @baghdad_library

الأخيرة. إن أكبر حظّ في رمي النرد لا يساعدك في هذه اللعبة ما لم تمتلك مهارة كافية»، أخذ نفساً قصيراً وأنهى تفسيره: «هكذا هي الحياة».

في ذلك المساء طلب فريد من توفيق أن يعلّمه قواعد جميع ألعاب طاولة النرد. وللمرة الأولى تمكن من التعرف على ما كان يقبع وراء قناع الشخص المتواضع الذي يدير المقهى.

١٦٣- غذاء

على نحو غير متوقع تماماً اتصلت رنا بفريد. انتهت عطلتها في اليونان. قالت له إنها تريد أن تراه وأن لديها أخباراً جيدة أيضاً: إذ إن عمتها مريم ستسافر إلى ميلانو لمدة أسبوع لشراء آخر صيحة من الأزياء، وطلبت من رنا أن تلقي نظرة على الشقّة وأن تسقي الأزهار، ووعدتها بأنها ستجلب لها لقاء ذلك حقيبة جلدية من إيطاليا.

«كنت سأفعل ذلك دون مقابل في جميع الأحوال»، صاحت رنا بحماسة. يمكنه أن يستمتع بصحبة رنا سبع مرات، قال فريد لنفسه في المساء الأول ذاك، عندما أنهى واجباته المدرسية واستقل الحافلة. لم يكد يصدّق حظّه الجيد، لأنه ستتاح لهما فرصة اللقاء دون أن يزعجهما أحد طوال ثلاث أو أربع ساعات يومياً. كما أن جاك لن يشكّ بشيء. كانت رنا محقّة: فهذه الساعات مسروقة من الجنة، وستحسم من وقتهما بعد الموت.

فيما بعد صار فريد يلجأ لذكرى تلك الأيام القليلة عندما يمر في أحلك اللحظات في حياته، فهو لم يشعر بالطمأنينة والسلام إلا عندما يكون بالقرب من رنا، طمأنينة غريبة أحاطت به آنذاك وأحسّ كأنه خفيف بخفة الهواء ويخيّل إليه في تلك اللحظات بأنه يستطيع الطيران. لم تكن رنا تكبره إلا ببضعة أشهر، لكنها كانت تسبقه في وعيها بعض الشيء دائماً. كان فريد يحب محادثتها وسماع صوتها، ولم يشعر بالملل معها للحظة واحدة. كان يحبّ شعرها وعينيها، ويحبّ أن يقبّلها على شفتيها الحلوتي المذاق، ويحبّ العبير الذي يتضوع منها.

كان يحبّ كثيراً عندما تقرأ له قصص بصوت عال، وكان يحبّ أن يحكي لها حكايات، لكنّها كانت تفضّل القراءة. فخلال الأيام السبعة تلك، قرآ معاً «الغريب» و «الطاعون» لألبرت كامو. وحتى بعد مضي سنوات عديدة، كان صوت رنا يذكّره دائماً بأعمال هذا الكاتب العظيم. في تلك الأيام قالت له رنا لأول مرة كيف أنها، عندما تكون معه، تنتظر أطول فترة ممكنه قبل أن تستحم حتى تتمكن من أن تأخذ معها رائحته إلى السرير.

واعترفت له أيضاً أنه هو من علّمها مباهج التقبيل، لأنه لا أحد في أسرتها يقبّل أحداً مطلقاً.

«ماذا، مطلقاً؟» صاح فريد مندهشاً، هو الذي لا يدع يوماً يمر من دون أن يقبّل أمّه.

«لا، كما قلت، فإن أمّي لا تقبّل أحداً حتى جاك، ابنها المفضّل، ومن المؤكد أنها لا تقبّلني».

«وماذا عن والدك؟»

«لقد ربّت على رأسي ذات يوم عندما كنت مريضة، لكنه يعجز عن معانقة أحد، وإذا عانقته فإنه لا يعرف كيف يتصرف. أنت من علّمني أن التقبيل هو غذاء كالخبز والماء والزيتون»، قالت.

عندما ضمها فريد بين ذراعيه وقبّلها طويلاً، ضحكت وقالت: «لطفاً يا سيدي إنك ستلتهمني»، ثم دغدغته وأضافت «قلت إن القبلات هي غذاء، هل فهمت؟ القبلات وليس رنا شاهين».

«حسناً يا سيدتي، حسناً، لكن بطريقة ما فإن قبلتك نوع غريب من الغذاء لأنني كلما قبلتك أكثر ازددت جوعاً و نهماً».

١٦٤- نهاية حلم

في ذلك الأسبوع عرف فريد الأسباب الألف التي جعلته يحبّ رنا. فقد كانت طريقتها في الضحك تفتنه أكثر من أي شيء آخر. وفي عصر اليوم الأخير من ذهابهما إلى شقّة الخالة مريم، حكت له استاء والدها من

twitter @baghdad_library

اليونانيين، ولم تتوقّف عن الضحك وهي تقول: «كان يتوقّع أن يكون جميع أصحاب الحانات أحفاداً لسقراط، وجميع الموظفين من سلالة أفلاطون، وجميع الحمّالين هم ديوجين بلحمه ودمه»، وحكت له كيف أن شقيقها كان قد تناول كميات كبيرة من المشروب فأصيب بتسمّم من نبيذ ساموس الحلو. فرقد في السرير ثلاثة أيام وبقيت أمّه قربه ترعاه. وقالت إن والدها لم يعد يرغب في سماع كلمة «ريتسينا» مرة أخرى.

ثمّ جلسا في المطبخ وراحا يحتسيان الشاي، بينما راحت رنا تقرأ بصوت مرتفع الصفحات القليلة المتبقة من كتاب «الطاعون». فجأة أجفل فريد واعترته برودة شديدة. وسيظل لسنوات يتذكر ذاك الشعور ولا يدري كيف يفسره.

«ماذا في الأمر؟» سألته.

«لا أدري، أشعر أنه علي أن أغادر هذا المكان فوراً، كم الساعة الآن؟» سألها لأنه كان قد نسي ساعة يده في البيت، وشحب لونه فصار أبيض كالثلج.

«بعد السادسة بقليل. هدئ من روعك، ستعود عمتي مريم غداً»، قالت تطمئنه.

«بالرغم من كل ذلك، يجب أن نذهب».

لكن رنا أرادت إنهاء الكتاب. بدت هادئة تماماً. كانت قد نظّفت الشقّة وأزالت جميع آثار وجودهما وإستمرت بالقراءة.

لكن في اللحظة التالية، بوغتا كلاهما. فقد شاهدا عبر مدخل المطبخ المفتوح العمة مريم وهي تدفع حقيبتها الكبيرة بعناء إلى داخل الشقّة. تسمّرت مريم في مكانها عندما رأت رنا مع الشاب. عرفته فوراً أنه فريد مشتاق ونسيت أمر حقيبتها.

«لا أصدق ما تراه عيناي»، قالت بغضب ومشت نحوهما ببطء. تركت

باب الشقة الأمامي مفتوحاً، «كيف تتجاسرين على الالتقاء بأحد أفراد عائلة مشتاق في شقّتي؟» صاحت غاضبة بصوت أجش.

بدأت الأسئلة تتردد في رأس فريد. هل وشى أحدهم برنا؟ هل هذا ما جعل عمتها تعود إلى البيت في وقت أبكر من الموعد المحدد لعودتها؟ ماذا يمكنه أن يفعل؟ لا يمكنه أن يترك رنا وحدها الآن. كيف يتمكنان من تهدئة سورة الغضب هذه؟

تسمّر الشابان في مكانيهما كأنهما تحوّلا إلى تمثالين حجريين.

«لكن عمة مريم» قالت رنا لكسر الصمت، «كنّا نحتسي الشاي فقط ونقرأ كتاباً».

«لقد أدخلتِ أحد أفراد عائلة مشتاق إلى أشدّ الأماكن خصوصية في بيتي! هل يتحلّى صاحبك هذا بالشجاعة حتى يدخلني أنا ابنة عائلة شاهين إلى غرفة نوم والديه؟ حسناً، هل يستطيع؟ لقد وثقت بك، وطلبت منك أن تسدي لي هذه الخدمة الصغيرة، فتجلبين بدل ذلك أحد أبناء مشتاق إلى شقّتي».

«لكن يا عمتي، ظننت أنك ستتفهمين أمرنا. فنحن شابان وقد ولدنا هنا في دمشق، وما علاقتنا بالعداء المستحكم بين آبائنا وأجدادنا؟ وقد أقسمنا أنا وفريد على ألاّ نعود إلى معلا في حياتنا»، تابعت بنبرة تشي بالتوسل.

«اطلبي منه أن يخرج من شقّتي فوراً، فلن أتبادل كلمة واحدة في حياتي مع شخص من عائلة مشتاق».

غادر فريد المطبخ، متجاوزاً عمة رنا التي كانت تعبق منها رائحة عطر قوية.

«والآن أنت يا مدام»، صرخت العمة مريم، بعد ان أغلق فريد باب الشقة لكي لا يسمع الجيرة صياح العمة الهستيري، «ألا يكفي أن تموت عمتك ياسمين؟ ألا يكفيك ذلك؟ هل تريدين جريمة قتل أخرى في عائلتنا؟ لا تقاطعيني»، صاحت عندما رفعت رنا يدها، وأضافت، «كان شقيقك محقاً. إنك تلعبين بالنار. قال لي إن أحداً أخبره بأنك على علاقة ودّية مع

twitter @baghdad_library

أحد أفراد عائلة مشتاق، وأنه سيراقبك عن كثب. وقال إنه إذا رآك مع مشتاق هذا، فإنه سيطلق النار عليه لا عليك، هل هذا ما تريدين؟ إن كنت تسعين إلى حمّام دم آخر فواصلي رؤية هذا الفتى، لكن لا تأتي إلى شقّتي مرة أخرى».

انتظر فريد عند صحن الدرج خارج الباب الأمامي المفتوح. كان الظلام قد خيّم على المكان.

«عمتي مريم»، صاحت رنا في محاولة أخيرة، مادّة ذراعيها كأنها ترغب في معانقة عمتها.

«هيا اخرجي، اخرجي»، صاحت المرأة وقد ابتعدت عنها. عندما غادرت رنا الشقّة، صفقت خالتها الغاضبة الباب وراءها.

لم يشأ فريد أن يشعل الضوء. هبطا الدرج ببطء.

عندما وصلا إلى أسفل الدرج، وقفت رنا أمامه وألقت بذراعيها حوله. قبّل شفتيها. وكان طعمهما مالحاً.

١٦٥- التدريب

كان فريد فخوراً لكونه جزءاً من الحياة السرية التي تنبض تحت سطح المدينة الهادئ. ففي خريف عام ١٩٥٦ انضم إلى اتحاد الشبيبة في الحزب الشيوعي. كانت اجتماعات الشبيبة الشيوعية تعقد في مكان مختلف في كلّ مرّة، وكان كل عضو يأتي بمفرده لعدم إثارة الشكوك. لقد أحبّ ذلك لأنه أصبح يشعر بأنه يتصرف مثل عميل سري في القصص والأفلام الشيقة مع أنه لم يكن يدين بالولاء لا لموسكو ولا لحزبه الشيوعي، بل كان يتطلع إلى مجتمع مستقبلي يستطيع أن يعيش فيه بحرية مع رنا مرفوعي الرأس.

كانت الفكرة برمتها تتمثل في الانجذاب المغناطيسي إلى الفاكهة المحرّمة. ومثل الآخرين، مُنح اسماً حركياً لأسباب أمنية، وصار يدأب على حضور الدورات التدريبية، وكان الشبان الذين التقى بهم هناك مثله ينتمون إلى عائلات غنية. كانت الكتابات الشيوعية تتحدث عن العمّال والبروليتاريا،

لكنه لم يلتق بأحد من هؤلاء في تلك السنوات، ولم يرق له ذلك كثيراً. فكيف يمكن للعمال في روسيا وإنكلترا وألمانيا أن يخرجوا إلى الشوارع بمثل هذه الثقة البطولية بالنفس يتظاهرون ويُضرِبون عن العمل، بل ويشكّلون شيئاً يطلقون عليه اسم الحركة العمالية، بينما هنا ينتقلون متعثرين وباستسلام من البيت إلى العمل ويعودون وقد امتلأوا خوفاً؟

عندما اقترح فريد في أحد اجتماعات خلية حزبه أن تُشرح ماهية الشيوعية للعمّال، حذّروه بأن لا يفكّر حتى بمحاولة ذلك لأن ذلك لن يؤدي إلاّ إلى بث الذعر في نفوس هؤلاء الناس البسطاء. وناقش الأمر مع أعضاء عصابته القديمة، رزوق وعازر وسليمان ويوسف، ولم يلق معارضة شديدة فحسب، بل سخر منه أصدقاء الأمس لسخافة ما يقوله. كان يوسف الوحيد الذي اشترى مجلّة الحزب الشيوعي «الشبيبة» المحظورة التي لم يلمسها الآخرون. لكن فريد كان يؤمن بأعماقه أن هذا الطريق إلى الإشتراكية هي الوسيلة الصحيحة لتحرير المجتمع. في السنوات الأولى التي أمضاها في الحزب كان يتحلى بالصبر وكان يعتقد أن الثورة وشيكة. وفي أحلام يقظته تخيّل نفسه ورنا يقتحمان قصوراً أُطيح منها بطغاة وأسياد إقطاعيين، وكذلك (بطريقة هزلية نوعاً ما) رجال دين كاثوليك يطلبون الرحمة. وكانت الدموع تطفر من عينيه عندما تخطر له الفكرة بأنه يقف بنفسه أمام هؤلاء الأعداء المهزومين، يعاملهم بشهامة ويرسلهم جميعاً إلى كومونة زراعية ليعيشوا فيها من عرق جبينهم ومما تجنيه سواعدهم. لكنه إذا ألمح بأيّ فكرة من هذا القبيل لصديقه يوسف، كان هذا يسخر منه، ويأتي تعليق يوسف بالمختصر المفيد: «فيلم روسي رديء».

قرأ فريد كتباً كثيرة، ولما كان يتقن اللغة الفرنسية، فقد استطاع أن يترجم نصوصاً قصيرة لرفاقه. ولم تمض سنة على انتسابه إلى الحزب حتى رُشح لعضوية لجنة تحرير مجلة «الشبيبة» ليكتب عن الأدب والثقافة، في حين كان أعضاء آخرون يكتبون عن الاقتصاد والتاريخ، وآخرون عن السياسة المعاصرة.

twitter @baghdad_library

كان العمل في مجلة «الشبيبة» مسؤولية كبيرة دفعته إلى تجميع أفضل القصص القصيرة والقصائد من الأدب العالمي وأكثرها جرأة وثورية لتقديمها لقرّاء المجلّة. وبعد بضعة أشهر أثنى عليه أعضاء اللجنة المركزية وقالوا إن عدداً كبيراً من القرّاء يذهبون إلى الصفحة الأدبية أولاً.

زاد سهده وظل في تلك الأسابيع صاحياً طوال الليل، يتساءل لماذا لا يقاتل الناس لنيل حريتهم. فقد كانت مبادئ الاشتراكية الأساسية، كما فهمها من قراءاته الكثيرة، مضيئة وليست بعيدة أبداً عن أفكار المسيح نفسه، لكنه عندما كان يحاول أن يتحدّث عنها، كان الناس يتصرّفون كأنه يعرض عليهم مخدّرات أو صوراً إباحية. كان البعض مهذبين، وكان آخرون يغضبون ويطلبون منه ألاّ يلقي عليهم هذه الترهات الخطيرة.

أحبّ فريد العمل في المجلّة. لكن بعد مضي أكثر من سنة، لم يكن في وسعه إيجاد صديق واحد في هيئة التحرير. أحسّ ببرودة غريبة، بجدار يفصله عنهم. وبخلاف يوسف الذي كان يثير حفيظته، والذي كان يحب سطلان إلى درجة العبادة ويكره الشيوعيين، فقد كان رغم ذلك لا يزال شديد القرب من فريد.

١٦٦- سترة الرئيس

كان الشيوعيون على قناعة بأن الوحدة التي أقيمت على عجل بين سورية ومصر في عام ١٩٥٨، سيئة ومتسرعة إلى درجة كبيرة، وكرروا أن سطلان مناهض عنيد للشيوعية وقد جاءت به الحكومة السورية إلى دمشق برعاية الولايات المتحدة بسرعة ليسحق الشيوعية كما فعل سابقاً في مصر. وكما كان متوقعاً، سرعان ما بدأ اضطهاد الحزب الشيوعي السوري فهرب معظم قياداته إلى المنفى في موسكو وتركوا أتباعهم فريسة للمخابرات وأقبيتها.

عندما زار سطلان دمشق، كان يوسف متحمّساً لاغتنام الفرصة والاقتراب من تلك الشخصية المهيبة، وطلب من فريد مرافقته لأنه كان يخشى الذهاب وحده. وكان الحزب الشيوعي قد حظر حضور أعضائه أي

مناسبة تقام تكريماً لسطلان. لكن بالرغم من هذا الحظر، ذهب فريد مع يوسف لمشاهدة مراسم الاستقبال. وعندما ادّعى أحد الرفاق في حزبه لاحقاً بأنه رآه من شرفة بيته بين الحشد المبتهج، أنكر فريد ذلك وقلل من حدة شكوك المناضلين السريين المرتابين بأن قال: «أغلب الدمشقيين يشبهونني».
كان يوماً ربيعياً جميلاً عندما جابت سيارة سطلان المكشوفة شوارع دمشق مقلداً بذلك الرؤوساء الأمريكيين. فقد عُطلت المدارس في ذلك اليوم وحشر التلاميذ في حافلات كثيرة للانضمام إلى الجمهور السعيد المحشود عنوة، وأُغلقت المصانع والمكاتب. ولم تكن مدارس أبناء النخبة المسيحية متحمسة للوحدة مع مصر، لأنه كما علم الجميع أن مصريين او أشخاصاً موالين لمصر كانوا قد استفردوا بالقيادة، وكان معظم أعضاء الحكومة من المقربين من الإخوان المسلمين، لكن مدراء ورؤساء مدرسة فريد منحوا الطلاب والمعلمين أيضاً يوم عطلة خوفاً من أية تهمة، لكنهم تركوا لهم حرية القرار بالمشاركة في هذه الاحتفالات أو بالبقاء في بيوتهم.

منذ الساعة التاسعة صباحاً، اصطفت أعداد كبيرة من الناس على جانبي شوارع المدينة الجديدة، ووقف الجنود على امتداد الطريق لمنع الناس من النزول عن الرصيف. وتمكّن يوسف وفريد من شقّ طريقهما إلى الصف الأمامي، حتى تمكنا أخيراً من الوقوف في بقعة جيدة، واتفقا على أن ينطلقا بسرعة ما إن تصل سيارة الرئيس الكبيرة لتحيته. وفي الآونة الأخيرة، كانت نشرات الأخبار قد بدأت تعرض صور سطلان مراراً وتكراراً وهو مبتسم ويصافح أنصاره من أبناء الشعب. كانت مصافحة الرئيس شخصياً الحلم الذي كان يراود يوسف.

تهادت سيارة الكاديلاك السوداء. أخذ يوسف يجري في ذلك الطريق وراح فريد يجري وراءه. كانت السيارة محاطة برجال مبتهجين يصافحون الرئيس. دفع فريد يوسف حتى يقترب أكثر من السيارة التي كانت تسير بسرعة سلحفاة. تمكنا من التملص من الجنود المنهمكين في إبعاد الحشد المبتهج عن الطريق. «هيا بنا» صاح يوسف، وهو يمدّ ذراعيه إلى سطلان.

twitter @baghdad_library

رأى فريد الرئيس عن قرب شديد. كان أطول بكثير وبشرته أكثر سمرة مما كانا يتوقّعان. كان يتكلّم مع نائبيه وفي الوقت نفسه يصافح الأيدي الممدودة إليه.

فجأة، استدار أحدهم من بين جموع الحشد المبتهج وضرب يوسف وفريد بشراسة. كان الوضع مربكاً. شتمه يوسف بغضب وظن أنه مجرد شخص أناني لا يريد أن يدع أحداً يقترب من الرئيس، لكنه كان مخطئاً. فقد نادى الرجل الذي كان يتحدث باللهجة المصرية رجلاً آخر يرتدي قميصاً أبيض وطلب منه أن «يتعامل» مع مثيري الشغب هذين. عندها أدرك يوسف أن الأشخاص الراقصين المبتهجين حول الرئيس كانوا جميعاً من رجال المخابرات، لكن إدراكه هذا جاء بعد فوات الأوان. فقد ظلت الضربات واللكمات تنهال عليهما حتى ابتعدت السيارة. عندها تركهما الرجال وراحوا يجرون خلف السيارة.

عاد يوسف وفريد إلى البيت وقد ألمّ بهما صداع وطنين شديد في أذنيهما. قبل أن يفترقا وينعطف يوسف إلى حيّ العبّارة، دمدم من خلال شفتيه المتورمتين قائلاً: «لكنني تمكّنت من لمس سترته».

١٦٧- حبّ جبران

كان المطر يهطل بغزارة في الخارج، لكن صالة كرة الطاولة كانت دافئة لأن توفيق أبقى الموقد الذي يعمل على المازوت متقداً منذ عصر ذلك اليوم. كان تأثير الرطوبة والبرد سيئاً للغاية على صديقه جبران الذي أصيب بنزلة برد.

عندما دخل للتأكد من أن الموقد لا يزال موقداً في الساعة السابعة تقريباً، كانت الصالة ممتلئة حتى الصفّ الأخير. شخص واحد فقط لم يطل بعد، وهو جبران. كان كرسيه المركون على المنصة المرتفعة بعلو ركبة التي أقامها النجار ميشيل للنادي، لا يزال فارغاً.

خرج توفيق مرة أخرى لإلقاء نظرة على الشارع. لم تكن مصابيح الحي

القليلة والضعيفة تبدد الظلام كثيراً، ولم تكن هناك أي إشارة تدل على وصول جبران. لعنه توفيق وعاد إلى الصالة مبللاً حتى العظم. كان متأكداً من أن البحّار يغط سكراناً في مكان ما.

لكن ظنه أخطأ هدفه، فقد وصل جبران في تمام الساعة الثامنة برفقة كريمة. كان عدد من الحاضرين يعرفونها. فقد كان زوجها المرحوم من أغنى تجار المجوهرات في المدينة والذي خلّف لها ثروة كبيرة. كانت في أواخر الخمسينيات من عمرها، لكن على الرغم من طبقة المكياج السميكة والمجوهرات والثياب الحديثة ذات الألوان البراقة لم تفلح في تحقيق أملها بأن تبدو أصغر بحوالي عشرين سنة من عمرها الحقيقي. فقد بهت جمالها كثيراً عما كان عليه عندما كانت مغنية شابة لا تملك شيئاً سوى ذاك الجمال الذي تمكنت من خلاله أن تسلب عقل صاحب محل المجوهرات الذي هجر عائلته من أجلها.

بدا جبران في تلك الأمسية رجلاً آخر جديداً، وأكثر هشاشة وأكثر أناقة. فقد ارتدى في هذا المساء، بدلة زرقاء فوق كنزة خمرية اللون عالية الرقبة من الصوف الناعم، وانتعل حذاء جديداً واعتمر قبعة بيريه تلائمه، بل كان حليقاً وتتضوع منه رائحة عطر.

«لقد سلب جبران خزنة صاحب محل المجوهرات»، همس توفيق ليوسف وفريد بنبرة تشي بالحسد.

رافق البحّار العجوز كريمة إلى وسط الصفّ الأمامي، وطلب من صبي جالس هناك أن يقدم لها كرسيه. ثمّ وقف أمام المنصة وراح يروي قصّة حبّ تعود إلى عهد الحروب الصليبية. كانت تلك أول مرّة يستمع فيها الآخرون إلى جبران وهو يحكي حكاية وهو واقف.

لم تكن القصّة بحد ذاتها مثيرة، لكن حركاته التمثيلية التي رافقت الحكاية وهو يصوّر العاشقين كانت رائعة. كان يبدو أن جبران يرغب في التركيز على تصوير جميع المشاهد التي يضم فيها البطل حبيبته بين ذراعيه، أو التي يداعبها فيها، وكان يجد متعة كبيرة في تمثيل القصة مع كريمة أمام

twitter @baghdad_library

الجمهور. كانت رؤية البحّار العجوز وهو يعود إلى الحياة أمراً مؤثّراً وهزلياً في الوقت نفسه، متلهّفاً لرواية حكاية مؤثرة بالَغَ كثيراً في مواقفه وحركاته وإيماءاته مثل ممثل في فيلم صامت. فقد كان يضغط بيديه كلتيهما على قلبه، ويقبّل يد كريمة بلهفة شديدة، فساد صمت مطبق بدلاً من أن يعمّ الهرج والفرح في الصالة. كانت كريمة تمثّل أيضاً، وقد أعادت لها هذه اللعبة شبابها. ولم يكن أحد يأمل بالحصول على ممثلة أفضل لأداء دور الفتاة الإفرنجية التي وقعت في غرام سجين عربي في معسكر للصليبيين.

كان هناك مشهد درامي في القصّة. فقد مرضت الفتاة، لكن السجين العربي الذي أغرم بها كان طبيباً وكانت تروعه طريقة معالجة الفرنج البرابرة مريضتهم بالفأس والنار. فقد حوت دمشق آنذاك أكبر وأحدث مستشفى في العالم، عولج فيه المرضى بالأدوية والموسيقى وبفنون اللغة والحديث التي سميت بعد قرون «علم نفس»، لذلك عرض عليهم أن يعالج الفتاة مع أنه كان يعرف أنه إذا أخفق فإنه سيلقى حتفه، ومن ثم سيشقّون رأسها نصفين بفأس لإخراج الشيطان منه حسب خرافاتهم.

عادت صحة الفتاة لها وعافيتها واختفيا كلاهما في عتمة الليل قبل أن يتمكن حاسد من إيذائهما أو إيذاء حبّهما.

توقّفت الأمطار عن الهطول في الخارج، وما إن أنهى جبران حكايته حتى غادر النادي مع كريمة. كان توفيق ينتظر حاملاً صينية عليها خمسون كأساً من الشاي يتصاعد منها البخار. وضع كلّ من الحاضرين المسرورين عشرة قروش في الصينية وتناول كأساً. تردّد متّى لكن توفيق ناوله كأساً وقال: «إنك ضيف فريد»، ووضع علامة في قائمته. بعد عشر علامات كهذه يدفع له فريد ليرة واحدة. «شكراً يا أخي»، قال متّى باستحياء ثم شرب شايه وغادر. بقي فريد ويوسف وراحا يتحدّثان عن التمثيلية. «لم يكن جبران في أفضل أيامه، فقد كان يفكّر بحبيبته أكثر مما كان يفكّر بالعشيقين في القصّة، لكنه أبلى بلاء حسناً في جميع الأحوال، وقد أحبّ

الناس عرضه المسرحي الغرامي وهذا هو المهم». كان هذا حكم يوسف المليء بالشفقة على البحار العجوز.

بعد قليل أشعل يوسف شرارة نقاش شارك فيه على الفور ميشيل النجار وأمين. «يجب ألا ننسى أنه قبل أن يهاجم الصليبيون الشرق كان العرب منقسمين إلى ألف طائفة وعشيرة تقاتل كل واحدة منها الأخرى، كما هو شأنهم في أيامنا هذه. وعندما يكون العرب في خلاف مع بعضهم بعضاً، فإنهم يقدمون بلادهم إلى الأجنبي مجاناً». قال وجلس ليتفرج على لهيب النقاش وعلى صراع الديكة.

دافع ميشيل عن الصليبيين. فقال بحماسة «لكن يجب ألاّ ننسى كيف عانى المسيحيون واليهود لقرون قبل تلك الحروب»، وأضاف، «لقد كان خليفة بعد خليفة يذلّهم، ودمر الخليفة الحاكم بأمر الله وحده ثلاثة آلاف كنيسة قبل الحروب الصليبية، وأرغم جميع اليهود على أن يضعوا جرساً كبيراً حول أعناقهم وأن يضع جميع المسيحيين صليباً ثقيل الوزن وأن يرتدوا ثياباً مميزة مخزية. يجب أن نقول ذلك بصوت مرتفع وواضح».

فاعترض أمين وقال إن الفرنجة والعرب كانوا أغبياء، وقد خسروا جميعاً، ولم يربح من كل ذلك إلا الفاتيكان. فلم تُشنّ الحروب الصليبية ضد الإسلام فقط، بل شُنَّت ضد مسيحيي الشرق لإثبات قوّة روما وتثبيت سلطتها على كل العالم. «كان كلّ هدفها تدمير السلطة المنافسة لها في القسطنطينة والإسكندرية وأنطاكية وخاصة في المدينة المقدسة القدس. فلم تعد أي من هذه المراكز تعني شيئاً بعد الحروب الصليبية سوى للسواح، وهكذا حكمت روما العالم».

«هذه دعاية روسية»، قال ميشيل بغضب.

«هذان الاثنان لا يحتمل أحدهما الآخر»، قال يوسف لفريد الذي نأى بنفسه عن المناقشة. فرك يوسف يديه فرحاً.

«يجب أن نطلب من جبران أن يحكي أنواعاً أخرى من القصص، لا قصصاً عن الصليبيين»، قال توفيق وهو يهز رأسه معرباً عن أسفه.

twitter @baghdad_library

١٦٨- عزلة

لم تتوقف الأمطار عن الهطول طوال ثلاثة أسابيع، ولم تعد أسطح البيوت الطينية صلبة، بل طرية هشة، وتسربت المياه إلى جميع البيوت. وكالمعتاد، لم تتمكن المجاري من تصريف المياه فامتلأت الشوارع بالماء وتحوّلت إلى برك وبحيرات كبيرة. كان حفنة من الأطفال يتقافزون في برك الماء، لكن البرد كان شديداً. وعندما اخترقت أشعة الشمس الغيوم أخيراً، بدأت دمشق تلتهب مثل رغيف خبز ينبعث منه البخار.

بسبب تغيّر الطقس بدأت تنتاب فريد نوبات متكررة من الصداع النصفي، لكنّه لم يتوقف عن الحركة. فمنذ أن أقيمت الوحدة بين سورية ومصر، بذل الشيوعيون جهوداً محمومة لتنظيم معارضة لكنّهم كانوا معزولين تماماً، ووجّه لهم جهاز المخابرات ضربات موجعة. فقد فُجِّرت مطبعتهم وألقي القبض على عدد كبير من أعضاء الحزب والمتعاطفين معهم، ولم تكن لدى السكان أدنى ذرة تعاطف مع الشيوعيين. وتعين على فريد أن يتوخى الحذر بسبب انتشار أعداد كبيرة من المخبرين وعيون المخابرات في كل مكان.

أعرب يوسف عن أسفه لاضطهاد الشيوعيين، لكنه أنحى باللائمة على الروس لأنهم هم الذين أثاروا مشاعر العداء ضد سطلان، وحثّ فريد على ترك الحزب الشيوعي بأسرع ما يمكن. ونشب في هذا الوقت بالذات شجار عنيف آخر بين فريد ووالده، إلياس مشتاق، الذي كان يكره الشيوعيين. فبمحض الصدفة، اكتشف في قبو بيته كدسة كبيرة من نسخ مجلة «الشبيبة» التي حرص ابنه على إخفائها هناك، ولم يكن فريد يتوقّع أن يُكشَف أمرها عبر انفجار أنبوب ماء.

«ها أنا أعمل يومياً كالحمار»، قال إلياس غاضباً، «وأرسله إلى مدرسة راقية، وماذا يفعل إبني من دمي ولحمي؟ يصبح شيوعياً! ابني هذا الذي ربيته تربية مسيحية»، جأر، «يبتعد عن تعاليم المسيح ويصبح عبداً لستالين الكافر، ولماذا؟»

«ليس من أجل ستالين وغير ستالين بل للنضال من أجل عدالة وحرية البشرية»، أجاب فريد بتحدٍ.

أطلق إلياس ضحكة تشي بالمرارة وأضاف، «يمكنني أن أبكي شفقة على الحمقى من أمثالك! هكذا إذن، فإن ابني يريد أن ينقذ العالم؟ من تظن نفسك يا ولد؟ المسيح؟ مع ذلك صلبوه، ومن تريد أن تنقذ؟ مجموعة من الرعاع الذين لا يقوم أحدهم بفتح صنبور الماء لغسل المرحاض بعد أن يملؤه بالخراء؟ تريد تحرير من ينظر في وجهك مبتسماً ويسرقك ويكذب عليك في اللحظة نفسها؟ أتريد أن تنقذهم يا غبي؟ إن بلدنا بحاجة إلى أخلاق وإلى تعليم، لا إلى النظام الشيوعي، أتفهم؟» بدأ صوته يتهدج، وراح يرغي ويزبد طوال ساعة لم يدع خلالها فريد يتفوه بكلمة واحدة. ثمّ تناول رشفة ماء وأعطى ابنه إنذاراً نهائياً. فإما أن يترك الحزب وإما أن يغادر بيته خلال أربع وعشرين ساعة. على الرغم من أن كلير كانت تشاطر زوجها كراهية الشيوعية فقد تدخلت.

«أعذرني، أنت تعلم كم أحبك، لكنه مهما فعل فإنه يبقى ابني»، قالت، «امنحه وقتاً وسيتخلّى عن هؤلاء الشيوعيين الأغبياء». كظم إلياس غيظه، ولم يجب.

١٦٩- النساء يقدمن المساعدة

في عصر ذلك اليوم كانت كلير تنتظر ثماني نساء. كان عليها أن تطهو كمية كبيرة من الباذنجان الصغير الحجم الذي يزرع في بساتين دمشق. إذ تقوم النساء بشقّ الباذنجانة من الوسط وبعد طبخها بالماء المالح وتُحشى بالثوم والجوز والفلفل والملح ثم تغمر في زيت الزيتون.

كانت النساء يحكين قصصاً وهن يقمن بهذا العمل فيمرّ الوقت بسرعة، ثم يلتقين ثانية في اليوم التالي في بيت جارة أخرى. وخلال تلك الساعات يغيب الرجال عن البيت، فاقترحت كلير على إلياس وفريد أن يتأخرا في العودة إلى البيت.

twitter @baghdad_library

طريقة الطرد هذه لم ترق لفريد الذي كان جالساً بالقرب من المذياع منذ أيام عديدة. فقد اندلعت ثورة في بغداد وأطاح العقيد دميان، المتعاطف مع الشيوعيين، بالملك فيصل وأعلن الجمهورية. ونزل أكثر من ستّة آلاف جندي من جنود البحرية الأمريكية في بيروت، وأرسل البريطانيون كتيبة من المظليين إلى الأردن لحماية الملك فيها.

كان الهواء مشحوناً بالتوتّر، لكن كلير لم تتهاون في هذا الأمر ولم تسمح لفريد بالبقاء في البيت. وقالت له إن النساء لا يشعرن بالارتياح لوجود رجال يتنصّتون على أحاديثهن.

«لكني سأستمع إلى الراديو وسأغلق الباب»، قال متوسلاً.

هزّت كلير رأسها وأعطته خمس ليرات وقالت: «اذهب وامض وقتاً مسلياً مع يوسف». لكن فريد كان على خلاف مع يوسف منذ عدة أيام بسبب الثورة في العراق، فقد ادّعى يوسف أن النظام الجديد في بغداد مخترق من قبل عملاء الروس.

اتصل فريد بليلى التي أعربت عن سعادتها لسماع صوته ودعته إلى المجيء إلى بيتها على الفور لأنها ستسافر مع زوجها في جولة عبر عدة مدن في سوريا ولبنان لإحياء حفلات موسيقية خلال الأيام القليلة القادمة.

لم تبذل ابنة عمته أي جهد لإخفاء كراهيتها للشيوعيين أيضاً، وشتمت دميان العراقي وقالت إنه حمار لكن الروس يعتبرونه نسراً. عندما أخبرها فريد صراحة بأنه انضم إلى الحزب، ضحكت بمرارة وقالت إن ذلك يزيد من كراهيتها للشيوعيين لأنهم يستغلون الشبان المرهفين الأذكياء ويعرضونهم للخطر ليزيدوا بفقدانهم تأخر بلداننا، وقالت إنهم في الحقيقة أسوأ من الطغاة الشرقيين الأغبياء. «إنك لا تحارب الكوليرا بالطاعون».

لم يفاجأ فريد بمعارضة ليلى الصريحة للشيوعيين بل فوجئ بإدانتها القاسية لهم، وقالت: «لا توجد لدي مشكلة مع العدالة، لكن كل هذه الأفكار - سواء أكانت شيوعية أم اشتراكية أم قومية - تجلب في النهاية بعض الطغاة الجدد، الملهمين، المعصومين عن الخطأ والمنقذين لشعوبهم

إلى السلطة، فينهبون البلد ويحرقون الزرع والضرع بإمرة غرباء، ونحن لدينا وبدون معونة روس أو امريكان ديكتاتوريين محليين كفاية، فهم على الأقل يتكلّمون اللغة العربية لا الروسية».

غضب فريد. وسرعان ما غيّرت ليلى الموضوع وقالت: «هل تريد أن نذهب إلى السينما؟» فقد كانت متلهفة لمشاهدة فيلم «جسر على نهر كواي» من بطولة الممثل إليك غينيس الذي يعرض في سينما الفردوس التي كانت بكاملها محجوزة لعدة أشهر وتمكنت ليلى عبر زوجها من الحصول على بطاقتي دخول. وكان الناس يصفرون لحن موسيقى الفيلم التصويرية في شوارع المدينة.

شعرا بالسعادة للهواء المكيّف في السينما. لأن حرارة شهر تموز القائظ في الخارج كانت خانقة منذ أيام عديدة. واستمتعتا بالفيلم، وعندما خرجا ذهبا لتناول البوظة.

«هل تريد أن تأخذ مفتاح شقّتي؟» سألته ليلى بغتة وهما عائدان إلى البيت سيراً على الأقدام، «عندها يمكنك رؤية رنا في البيت في أي وقت تشاءان، ويمكنكما أن تفعلا ما يحلو لكما بشرط واحد وهو أن تبتعدا عن غرفة موسيقى زوجي، أفهمت؟»

«حقاً؟ ستتركين لي المفتاح؟» سألها فريد بريبة.

«طبعاً، لكن لك ولرنا فقط. يبقى حزبك الشيوعي في الخارج، فلا أنا ولا زوجي نرغب في مشاكل» قالت وقرصته من شحمة أذنه.

«بكل تأكيد يا سيدتي رئيسة الدير»، وعدها.

عندما عاد إلى البيت كانت جميع النساء قد غادرن، وكانت تنتصب أربع مرطبانات زجاجية كبيرة مليئة بالباذنجان المحشو (المكدوس) يكفي لسنة كاملة، على طاولة المطبخ.

«اتصلت رنا»، قالت كلير، «كانت تبدو حزينة. قالت إنها ستحاول الاتصال مرة أخرى غداً في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر».

twitter @baghdad_library

كان فريد يأمل في أن يستطيع أن يسابق الزمن. في صباح اليوم التالي زار صديقه في المدرسة كمال الصابوني الذي التقى في بيته رنا لأول مرة، بأمل أن تتمكن دنيا، أخت كمال، من إخباره بما يجري.

لكنّها لم تزر صديقتها في ذلك اليوم ولم يهتم كمال برنا أو بأحد لأن كرباً شديداً أصابه في ذلك اليوم. فقد خسرت عائلته كلّ شيء بسبب تأميم مصنع النسيج الذي تملكه منذ فترة قصيرة قبل الوحدة وأنفقت أموالاً كثيرة لتحديث الأنوال، ولم تكفّ أمّه عن البكاء طوال الليل كما قال.

بعد قليل غادر فريد واستقل الحافلة عائداً إلى البيت، لكن شاحنة معطلة كانت تسدّ الطريق عند سوق البزورية، فأطفأ سائق الحافلة المحرّك ونزل منها غير مبال بالركاب لاحتساء كأس من الشاي في مكان قريب.

ظل فريد يتطلع بتوتر شديد إلى ساعته. كانت الساعة الثانية. ترجّل أخيراً من الحافلة وجرى إلى البيت عبر الشارع المستقيم. عندما وصل كان يلهث. كانت كلير قد استيقظت من قيلولتها منذ قليل وأخذت تعدّ لنفسها فنجاناً من القهوة في المطبخ. قالت بنبرة تشي بالمرح، «لم تتصل رنا بعد». في سريرتها كانت سعيدة لأن ابنها مغرم بهذه الفتاة. كانت تعرف أن الله يحبّ العشاق لكن يداً باردة امتدت إلى قلبها وعصرته عندما تذكرت ما تفعله العشيرتان ببعضهما.

خابرت رنا في الساعة الثالثة تماماً. في البداية تلعثمت قليلاً ثم سألته عن أحواله. عرف فريد في الحال أن في جعبتها أخباراً سيئة له. توقّفت فجأة. أخذ قلبه يخفق بقوة.

«هل لا تزالين هناك؟» سألها وفي الوقت نفسه قال لنفسه إنه سؤال سخيف وغير ضروري، وأضاف بسرعة، «أحبّك».

«أنا أحبّك أيضاً»، قالت رنا وأجهشت في البكاء. فقد أفشت العمة مريم قصتهما. ولم يعد يسمح لها الآن مغادرة البيت وحدها. وهي الآن برفقة صديقة لها، وأنها تتصل به من بيت صديقتها، وشقيقها جاك جالس

في مقهى بالقرب من مدخل البيت ينتظرها، وأضافت أنه ظل مرعب ولا يكفّ عن تذكيرها بمصير عمتها ياسمين. إنه يثير الرعب في نفسها.

١٧٠- رزوق وإليزابيث

لأول مرة منذ أن عرفه فريد، بدا والد يوسف قانطاً. «بدأت أفقد أمهر عمّالي وأفضل النحاتين عندي. فهم يذهبون إلى الكويت أو إلى السعودية حيث يكسبون عشرة أضعاف ما يكسبونه هنا، ولم يبق هنا سوى الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يمسكون إزميلاً».

«أقفاص دواجن»، كانت العبارة التي دأب على استخدامها لوصف البنايات الخرسانية الحديثة التي بدأت تشوّه وجه المدينة في نهاية خمسينات القرن العشرين، ويضيف، «وأنا أمقت تلك العلب الرمادية التي تنهار حتى قبل أن يفتح سكانها باب شققهم»، قال وهو يهزّ رأسه.

«يجب أن تجاري الزمن. فالناس يرون أن البناء بالحجر موضة قديمة وان أسلوب البناء هذا أنيق للغاية وأرخص ثمناً»، قالت مادلين. لكن زوجها كان يرفض هذا الرأي وتتملكه الكآبة.

قرر يوسف وفريد الذهاب إلى النادي بعد ظهر ذلك اليوم. عندما ابتعدا عن البيت قليلاً، قال يوسف لصديقه إن والده لم يعد يحصل على عقود بناء كثيرة وأنه يفكّر بالسفر إلى السعودية. «فالأغنياء هناك يشيّدون قصورهم ويستخدمون أفضل أنواع الحجارة. لكن مادلين لا توافق على ذلك، وتقول إن لدينا مبلغاً كافياً ولا تريد أن تفقد أبي في الصحراء».

«وماذا قال؟»

«يمكنه أن يواجه جيشاً كاملاً لكنه لا يستطيع أن يقف في وجه زوجته، لذلك فإنه سيبقى هنا»، قال يوسف آسفاً وابتسامة مريرة ترقص خجلة على وجهه.

عندما وصلا إلى النادي وجدا بانتظارهما مفاجأة. فقد كان رزوق

twitter @baghdad_library

جالساً في المقهى مع امرأة شابّة، وكانت السعادة بادية عليهما. كان شعر المرأة أحمر وبشرة وجهها الجميل بيضاء يكسوها النمش.

«هذه إليزابيث من إنكلترا. أنا اسمي رزوق وأنا من دمشق»، قال رزوق بالإنكليزية، مقلّداً نبرة شخص بدأ للتو تعلّم اللغة، ثم التفت إلى المرأة ذات الشعر الأحمر. وتابع بالإنكليزية، «وهذان هما صديقاي فريد ويوسف. إنهما يجيدان التحدث بالإنكليزية والسويدية ولا يجيدان اللغة العربية».

«هاي»، قالت المرأة. كان ذلك كلّ شيء. كانت عيناها مثبّتتين على رزوق مثل مصّاصتين. ولم تكد تنظر إلى فريد ويوسف. محبطين، جلسا عند البار وتركا رزوق والفتاة وحدهما.

«أليس جبران هنا؟» سأل يوسف صاحب المقهى. لم يكن توفيق، الذي يعرف صديقه جيداً، يعرف إن كان صديقه سيأتي أم لا.

«يجب أن نعلّق تقويماً في النادي ونضع إشارة على كل يوم يأتي فيه جبران»، اقترح يوسف.

«ليست فكرة سيئة»، قال توفيق موافقاً، ونظر إلى المرأة الإنكليزية التي نهضت واقفة. كانت ترتدي ثوباً صيفياً بألوان زاهية، وسارت بخطوات أنيقة. عندما اختفت وراء الباب المفضي إلى حمّام السيدات، التفت يوسف وفريد إلى رزوق الذي كان يشعّ وجهه بهجة.

«إذاً من أين التقطتها؟» سأله يوسف.

«سألتني عن مكان كنيسة مار بولس على الرغم من أنها كانت واقفة أمامها فضحكنا كلانا، ثم أخذتها في جولة حول المدينة القديمة. إن إليزابيث فتاة ذكية ومرحة»، أجاب رزوق بزهو.

«هل هي سائحة؟» سأله توفيق.

«لا، إنها طالبة. وهي تريد أن تدرس اللغة العربية هنا لمدة سنة ثم تعود إلى كامبردج».

«أها»، قال يوسف، «إذن لا أظن أننا سنراك كثيراً خلال الأشهر الاثني عشرة القادمة». كانت في صوته نبرة حسد.

«لا، سآتي إلى هنا كثيراً»، قال رزوق يطمئنهم. عندما عادت إليزابيث سدد ما عليه على الفور وغادر المقهى برفقتها. عندما وصلا إلى الباب توقّفت والتفتت إلى الرجال وقالت: «السلام عليكم».

«إلى اللقاء، آنسة إليزابيث، نرجو أن نراك ثانية»، أجاب توفيق العجوز بلغة إنكليزية ممتازة دون أن يشوبها أيّ لهجة. حدّق به يوسف وفريد بدهشة. «ثلاث عشرة سنة في الجيش البريطاني» أوضح توفيق، «كان ذلك عندما التقيت جبران».

«أتقصد أنك كنت في البحرية؟» سأله فريد.

«لا، لا، كنت في الجيش البري. فقد كنت متمركزاً في العقبة على البحر الأحمر كنت هناك حارسا على مخزن تموين الجيش».

«وماذا عن جبران؟»

«كان جبران يعمل ميكانيكياً على مدمّرة، لكنه أمضى وقته في الزنازين أكثر مما أمضاه على متن السفينة. كان ميكانيكياً بارعاً، لكنه لم يتمكن من التواصل بسلام مع الآخرين، فعندما كان يفقد أعصابه كان يلقي عليهم أيّ شيء تقع يده عليه مهما كانت رتبتهم العسكرية، وكان يهرب من السجن باستمرار، ويلقون القبض عليه ثانية، حتى اختفى نهائياً في عام ١٩٤٠. قيل إنه غرق. لم أره ثانية إلا بعد أن استأجرت هذا المقهى بعد ست عشرة سنة. تبين أنه لم يغرق أبداً إلا إذا كان قد غرق في المشروب».

١٧١- ديون فينيسيا

بدأ عام ١٩٥٩ بداية سيئة. فقد اجتاحت البلد موجة عارمة من الاعتقالات، وتوقف تدريب فريد في الحزب لأن الرجل الذي يشرف على التدريب زُجَّ به في السجن. كان يطلق على نفسه اسم الرفيق بسام، لكن اسمه الحقيقي كان يوسف قسيس، وكان ابن أحد أغنى التجار في دمشق والذي جنى الملايين من الاستيراد والتصدير. كان الرفيق بسام رجلاً فارع الطول، ذا بشرة ناعمة، وله صوت خمول رتيب. كان يتكلّم بسرعة كبيرة،

twitter @baghdad_library

كما لو كان مصاباً بإسهال في فمه. فعندما كان يبدأ بالحديث عن أحد المفاهيم الماركسية، كانت يعتري فريد دائماً شعور طاغ بالنعاس، ولم يكن يستطيع مقاومة ذلك أحياناً.

«رفيق» قال بسام، الخبير الماركسي، موبخاً: «إن المقاتل الذي لا يفقه الاقتصاد ما هو إلا مجرد رومانسي مغامر، وسيخون الطبقة العاملة عندما تسنح له الفرصة».

لم يكن فريد ينوي خيانة أحد، لكنه كان مرغماً على الموافقة بأن بسام الذي يدير الدورات التدريبية محق، لأنه لو خالفه في الموعظة التي يلقيها، فإنها ستتمدد على الفور لتصبح ثلاثة أضعاف طولها الأصلي، فيحقد عليه الرفاق الآخرون الذين يحلمون بالخلاص من الرفيق الممل هذا، لذلك لم يتذمر فريد لأحد عن بسام المثير للضجر إلا إلى أمين الذي لم يتحمّله هو أيضاً ويعتبره من الأغنياء المحدثي النعمة. «يقوم والده باستيراد غسالات، و قد أدخل غسالة إلى رأس ابنه بسام، فيها إسطوانه لا تكف عن الدوران»، قال بابتسامة ساخرة عريضة.

بسبب الضغوط التي مارستها حكومة الرئيس سطلان، وسّع الحزب نشاطاته بشكل محموم، وجازف فريد بحياته عندما وزع منشورات تندد بالظلم الممارس على الشيوعيين، بل إنه وجد نفسه أخيراً يقود منظمة الشبيبة.

في نهاية آذار، تدهورت صحة الجدة لوسيا، وأصبحت تعيش في عالمها المضطرب، كما لو كانت تعيش في حمّى مستمرة، الأمر الذي أثار قلق كلير. ففي أحد الأيام، عندما دخلت إلى بيت أمها، كانت رائحة بخور وزهر الياسمين والزعتر تملأ جنبات البيت. نادت كلير الراهبة الممرضة وأمّها لكن لم يجبها أحد. عندما وجدتها أخيراً، كانت لوسيا ترقص عارية حول نار صغيرة موقدة وسط الغرفة، وتلقي عليها بعض البهارات ثم تطلق صيحات بهيجة. ولم تر الراهبة في أي مكان.

بعد ذلك، نامت لوسيا ثلاثة أيام بلياليها، وعندما استيقظت نادت كلير

التي بدأت ترعاها ليل نهار، وطلبت منها أوراقاً ومغلفات. منذ تلك اللحظة وحتى وفاتها لم تتوقف عن كتابة رسائل تطلب فيها من سلطات فينيسيا أن تعيد لها مجموعة العيون الزجاجية التي تخص جدّها. فعندما فَقَدَ ذلك الرجل الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء عينه اليمنى في إحدى المعارك، حاول تمويه عوره بعين زجاجية ويبدو أنه جمّعَ ثلاثة آلاف منها صنعها له خبير عيون زجاجية مشهور في جزيرة مورانو التابعة لفينيسيا حتى وجد عيناً منها تلائمه، وحسب زعمها تحتفظ فينيسيا بهذه العيون الزجاجية الفائقة الجمال في مخزن للتحف الفريدة.

كان فريد يخشى أوهام جدته وجنونها، لذلك لم يزرها إلا مع كلير. وأثناء زيارته، كان يراها محاطة بمجلات وصحف قديمة. ظلت لوسيا تكتب إلى رئيس بلدية فينيسيا رسالة بعد أخرى، ولمفاجأة الجميع تلقت ردوداً مثيرة للاهتمام. في الواقع كانت كلير تكتبها، وعندما أصيبت لوسيا بالحمّى قبل وفاتها بفترة وجيزة، جلب لها ساعي البريد رسالة مكتوب عليها اسم المرسل «رئيس بلدية فينيسيا». قرأتها كلير بصوت مرتفع. كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، وجّه فيها رئيس البلدية دعوة إلى لوسيا لقضاء أسبوع في المدينة، وقال لها إنها ستمكث في أجمل بيت هناك ضيفة شرف، وبوسعها زيارة متحف مورانو لترى بأمّ عينها مجموعة العيون الزجاجية الرائعة التي خلّفها جدّها لفينيسيا في وصيته.

كانت لوسيا ضعيفة جداً، لكنها مع ذلك رفعت رأسها ببطء واستندت بمرفقيها وقالت بانتصار: «هكذا إذن، لا يزال يوجد أناس محترمون في العالم يجيبون على الرسائل»، وأبرقت عيناها بوهم محموم واشتياق لانهائي لفينيسيا. «لكن أيّ عيون زجاجية يقصد؟» سألت، وارتبكت فجأة، ثمّ لاحت على وجهها ابتسامة عابثة.

لم تقل كلير شيئاً وساعدت أمّها على الاستلقاء ثانية. في تلك الليلة رقدت لوسيا بسلام، وهي تضم وسادتها كما لو كانت حبيباً، ولم تستيقظ ثانية.

twitter @baghdad_library

١٧٢- اجتياز الدروب

اجتاز فريد امتحان الشهادة الثانوية في نهاية حزيران ١٩٥٩، ونال درجات جيدة مكّنته من التسجيل في الجامعة. كان يرغب في دراسة الرياضيات والفيزياء والكيمياء ليصبح معلّماً، وتسجّل يوسف الذي حصل على درجات متوسطة في قسم الجغرافيا والتاريخ. كان يريد أن يدخل معترك السياسة، وكان في غاية السعادة لدراسة هذه المواضيع. وقد قال باختصار: «السياسي الذي لا يعرف شيئاً عن التاريخ والجغرافيا، لا فائدة ترجى منه، ويقود بلاده إلى الخراب». كان هو وفريد الطالبين الوحيدين في الحيّ اللذين حصلا على درجات جيدة تؤهلهما للدراسة الجامعية.

في نهاية الصيف توجه المستجدان للتسجيل في الجامعة. أقامت السلطات مبنى واطئ السقف خارج مدخل الجامعة لمعالجة هذا الازدحام، فيه أكثر من عشر نوافذ بجانب بعضها، تشبه مكتب بيع التذاكر في محطة القطارات. كان الموظفون يأخذون الاستمارات عبر شقّ في النافذة، وبدا أنهم يتحلون بهدوء بوذا ويتصرّفون كأنهم يمتلكون الوقت كله إلى الأبد، بينما كانت الشمس اللاهبة تشوي رؤوس الشبان الواقفين في الخارج.

تحدث فريد ويوسف مع الطلاب الآخرين الذين أتى الكثير منهم من الريف والذين كانوا يزورون دمشق لأول مرة، وكان يتعين عليهم العودة إلى قراهم البعيدة في مساء ذلك اليوم أو قضاء الليلة على مقعد في إحدى الحدائق العامة لأنهم لا يملكون نقوداً كافية للإقامة في فندق. حتى إن بعضهم جلبوا من بيوتهم قليلاً من الخبز والزيتون والجبن المصنوع من حليب الغنم والبيض لكي لا ينفقوا نقوداً في شراء طعام. وكان بوسع المرء أن يسمع مختلف اللهجات السائدة في جميع أنحاء البلد. كانت نافذتان منفصلتان في أحد الجانبين مخصصتين للإناث المتقدمات بطلبات للتسجيل في الجامعة، حيث كان كلّ شيء هادئاً ومنظّماً.

وقف أمام يوسف وفريد مباشرة في الرتل شابّ يدعى عمران لا تبدو على وجهه أي تعابير. قال لهما إنه شبه متأكد من أنهم لن يقبلوه في الجامعة

لأنه يظن أن درجاته ليست مرتفعة بشكل كاف، لكن أحداً لم يعرف إن كان لهذا التشاؤم أي أساس مُبرَّر. تذمر الشاب الذي رافقه من تباطؤ الموظفين الخاملين، وعدّد الحافلات التي غادرت للتو إلى قريته في الشمال والحافلات المتبقية التي ستنطلق منذ الآن حتى المساء.

عندما جاء دور عمران للتوجّه إلى النافذة، سمع الجميع الملاحظات المهينة التي أبداها الموظف الدمشقي البدين لابن الفلاح بعد أن انتظر هذا الشاب المسكين أربع ساعات.

«ماذا تتوقّع أن تفعل بهذه النتائج؟» سأل الموظف البدين المتعرّق من وراء اللوح الزجاجي باحتقار.

«دراسة شيء، أيّ شيء»، أجاب عمران، ليس بصوت منخفض، إنما بصوت يستطيع الجميع سماعه، وقال إنه سيكون سعيداً بأيّ موضوع يقبلونه فيه، وأن ما يهم هو أن يحصل على الشهادة الجامعية التي ستفتح له الأبواب.

«لن تتمكن من الحصول على وظيفة بواب في الجامعة بهذه الدرجات»، قال الموظف هازئاً.

«لم لا؟ فقد نجحت في امتحان الشهادة الثانوية ولا يوجد قانون يقول إنني يجب أن أحصل على درجات معينة حتى أتمكن من متابعة الدراسة»، قال عمران بنبرة تشي بلا مبالاته وكأن الأمر لا يتعلق في مقعد دراسته ومستقبله في الجامعة بل بشيء لا أهمية له على الإطلاق.

«ممم. لا، معك حق، لا يوجد في الحقيقة قانون كهذا. الجامعة نفسها هي التي تقرّر قبول طلابها الجدد حسب أعدادهم ومعدلات درجاتهم، أما إذا كنا نتحدّث عن القوانين»، قال الموظف بصوت مرتفع، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، «فلا تستطيع أن تذكر لي قانوناً يرغمني على قبولك أيضاً».

«ماذا سأفعل الآن؟» سأل عمران، بمزيد من الهدوء وببرود غريب.

twitter @baghdad_library

«آه، اذهب وتطوّع في الجيش حيث يقبلون أي شخص»، أجاب الموظف. كانت سخريته واضحة، تتدفق ببلادة من النافذة. ضحك عدد من الشبان الواقفين. كان فريد يستشيط غضباً لكنّه خشي أن يقول شيئاً.

«أنا لا أحبّ الجيش»، قال عمران، وتعثّر صوته فجأة، بدا وكأنه أصيب بجفاف في حلقه.

«ولا أنا، لكن يجب على أحدهم أن يدافع عن أرض الوطن»، جأر الموظف ودفع الملف الرقيق الذي يحوي استمارة طلب عمران وأعاده إليه عبر النافذة. «التالي»، قال دون أن يبدي أيّ عاطفة. لكن الشخص التالي كان رفيق عمران. توجّه إلى النافذة. «درجاتي أسوأ من درجات صديقي، لذلك أظن أنني سأتوجّه مباشرة للالتحاق بالجيش، وهل تعرف لماذا؟» سأل بالكياسة المفترضة وبشيء من المرح.

لكن الموظف تظاهر بحب الفضول وبالجدية وقال: «لا، لماذا؟»

«لا للدفاع عن أرض الوطن القذرة هذه بل لأنيك أمّك دون أن يحاكمني أحد على ذلك. انتظر وسترى، يا بندوق تيمورلنك»، قال، ثم استدار ومضى بخطوات وئيدة.

تسمّر الموظف في مكانه، لأن مغادرة نافذته لمعاقبة الفتى الذي أهانه تنطوي على مجازفة كبيرة، لأن أبناء الفلاحين الآخرين الغاضبين الذين لم يُقبلوا في الجامعة كانوا سيسحلونه.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها فريد هذه العبارة المسيئة التي يستخدمها الفلاحون من الأرياف كثيراً لإهانة الدمشقيين. فقد جاء تيمورلنك من منغوليا واحتل المدينة بجيشه الجرار المتوحش في عام ١٤٠٠ بعد حصار استمر فترة طويلة. كان انتقامه بسبب المقاومة التي واجهها فظيعاً، فقد ساق ثلث سكان المدينة إلى المسجد الأموي الكبير وأضرم النار فيه. ولم ينج أحد من الثلاثين ألف شخص الذين كانوا داخل المسجد، ومنح جنوده أسبوعاً كاملاً لاستباحة المدينة واغتصاب النساء اللواتي لم يُقدن إلى المسجد، وأرسل

الذين نجوا من انتقامه من علماء الدين والحرفيين والفنانين إلى عاصمته سمرقند، ولم يترك إلا حفنة من التعساء فوق كومة من الأنقاض ينبعث منها الدخان. وأصبح يقال إن الدمشقيين شديدو المكر والدهاء لأنهم كانوا لقطاء (بناديق) تيمورلنك.

في خريف ١٩٦٨، بعد تسع سنوات من الحادثة التي وقعت خارج الجامعة في ذلك الصيف من العام ١٩٥٩، قاد نقيب شاب في الجيش يدعى عمران انقلاباً، وبعد يومين منح نفسه رتبة فريق، وبعد فترة وجيزة نصّب نفسه رئيساً لجمهورية سورية، ثم أصدر مرسوماً يعطي بموجبه درجات إضافية لأبناء الفلاحين لكي يتمكنوا من الالتحاق بالجامعة. وبعد سنتين، حصل الرئيس عمران على خمس شهادات دكتوراه فخرية من جامعة دمشق، من كليّات الفلسفة والآداب والرياضيات والعلوم السياسة والطبّ، وحذت موسكو حذو جامعة دمشق فمنحته جامعة موسكو درجة الدكتوراه الفخرية في الفلسفة تقديراً للطلبات الكبيرة التي قدمها عمران لشراء الأسلحة السوفيتية.

١٧٣- دولة الله

فتحت مادلين الباب لفريد. «الحمد لله أنك أتيت. إنه في حالة شديدة من الغضب»، قالت بقلق وقادته إلى غرفة يوسفَ. نظر إليه هذا بغضب.

«لقد حاول هؤلاء اللقطاء اغتيال الرئيس سطلان مرة أخرى، أتصدق ذلك؟ لو أن القنبلة اليدوية انفجرت لفقدت الجمهورية لا بل الأمة العربية بطلها؟ هؤلاء المجرمون، بودي أن أقتلهم جميعاً!» لم يعرف فريد عمَّن يتكلم صديقه. بدا يوسف كأنه تحت تأثير مخدّر، فقد كان ينخر بدلاً من أن يتنفّس. كانت كلماته تتطاير من فمه دون نظام تبدو كأنه يتجشأ ولا يتكلّم. استغرق فريد وقتاً ليدرك أن أحد أعضاء الإخوان المسلمين المصريين ألقى قنبلة يدوية على الرئيس سطلان لكنه نجا ولم يصب بأذى بينما خرّ الشاب المتعصّب صريعاً بعد أن مزقت جسده الرصاصات التي أطلقها عليه حراس الرئيس.

twitter @baghdad_library

لبث فريد صامتاً وترك يوسف يستشيط غضباً. كان يستطيع أن يتفهم حزن صديقه وغضبه، لكن محاولة الاغتيال هذه لم تكن تعني له شخصياً أي شيء. فقد كان مبتهجاً طوال اليوم للخبر الذي تلقاه من رنا التي قالت إنها ستكون وحدها لمدة ساعة في كنيسة صغيرة يوم الأحد القادم، عندما سيذهب شقيقها جاك إلى نادي التنس مع والده، وأن على فريد أن ينتظرها هناك تحت صورة القديسة بربارة.

ولو فتح فمه في حضرة صديقه يوسف فإن الكلمة الوحيدة التي ستنبعث منه ستكون بالتأكيد «رنا»، لذلك لاذ بالصمت وأنصت إلى يوسف. بعد قليل انضم إليهما رزوق الذي سمع كذلك عن محاولة اغتيال الرئيس من إذاعة لندن بالإنكليزية، أما الإذاعات العربية فلم تذكر الخبر على الإطلاق.

قال: «سألتني إليزابيث هل هؤلاء هم الحشاشون الجدد، لكني لا أعرف الكثير عنهم - إنهم يبدون حسبما حدثتني اليزابيث غريبي الأطوار»، وأضاف، «خطر لي أن أسألك»، والتفت إلى يوسف.

«تنتشر خرافات وأساطير عن الحشاشين الذين غدا اسمهم في كل لغات العالم كرمز. فهم يوصفون بأنهم قتلة، متعصّبون دينيون، مأجورون، وفي معظم الأحيان «أكلة حشيش»، لأنهم آنذاك لم يعرفوا التبغ بعد فلم يتمكنوا من تدخين الحشيش، بل كانوا يمضغونه»، أوضح يوسف الذي كان يبدو أشبه بموسوعة متنقّلة. ثمّ تابع كلامه، «نعم، والمتعصبون والمتطرفون المسلمون سواء كانوا من الإخوان المسلمين أم من أية جماعة ثانية يشبهون الحشاشين في الماضي. فهم يقتلون عندما يطلب منهم زعيمهم ذلك لأنهم لا يهابون الموت. فهم عندما يفعلون ذلك تكون أقدامهم حسب اعتقادهم على أبواب الجنة. لهذا السبب لا يمكنك أن تخيفهم».

«وهل يحشون أنفسهم بالحشيش أولاً قبل قيامهم بعملياتهم؟» سأل رزوق.

«لا، هذا هراء أوروبي»، قال يوسف، «فالحشيش يدفع إلى الهدوء لا إلى الثورة والعنف، إنه يسهّل القدرة على الوصول إلى الحقائق الأخرى. إنه

يجعل التأمل أكثر عمقاً، ويوجّه العين إلى الأمور الأساسية ويساعد على بلوغ الحكمة».

كانت هذه أول مرة يسمع فيها فريد أحداً يمتدح الحشيش. فقد كان والداه ومدرسته وكنيسته والحزب يدينون جميعاً الحشيش وكل المخدرات ويعتبرونها شديدة الضرر بالمجتمع.

«لكن»، قال رزوق معترضاً «لقد قال ماركو بولو إن مساعدي زعيم الحشاشين كانوا يحشون المتطوع الجديد بالحشيش والأفيون حتى يفقد رشده، ثمّ يقود الخدم الجندي الجديد إلى حديقة غناء مليئة بالطعام والشراب وبالحسناوات الشابات العاريات ويرقصن له ويشبعن كلّ رغباته الجنسية والجسدية حتى يخيّل إليه أنه في الجنة، ثم يحشونه من جديد بالحشيش فيفقد رشده ويعيدونه إلى مكانه وهو في حالة ذهول. وعندما يستعيد أحاسيسه، يقولون له إنه سيعود مباشرة إلى تلك الجنة إذا نفّذ أوامر الزعيم ومات شهيداً. لا تضحك»، قال رزوق لفريد «إن كل ذلك وارد في كتاب عن الحشاشين».

«نعم، يمكنك أن تجد قدراً كبيراً من الهراء في الكتب»، قال يوسف رافضاً ما يقوله، «إن الحشيش مهدئ يجعلك تشعر بالنعاس ويثير فيك الرغبة الجنسية، ولا توجد فيه تلك الخصائص التي تجعل قاتلاً متعصّباً ينفّذ مهمّته من دون تفكير بأي خسارة. فرجل مثل حسن الصبّاح الأسطوري، زعيم ما يسمى بالحشاشين، كان على عكس ما يدعيه الأوروربيون زاهداً إسماعيليا وفيلسوفاً وعالم رياضيات عاش في القرن الحادي عشر، ولما كان يثير الخوف لو كان جيشه يتعاطى الحشيش، ولما تمكّن رجاله من احتلال قرية واحدة. لكنّهم يقولون إن الصبّاح كان يمتلك ثلاثة وخمسين قلعة تتوزع بين شمال بلاد فارس ودمشق في عام ١٠٩٢ وكان يديرها من قلعة ألموت التي لم يغادرها حتى آخر يوم في حياته. من المؤكد أن ماركو بولو كان رجلاً شريفاً، لكن كيف يمكن لرحالة لا يكاد يعرف كلمة واحدة باللغة العربية أن يعرف مبادئ هذه المنظمة السرّية؟»

twitter @baghdad_library

«إذن ما الذي جعل ماركو بولو يكتب كلّ هذا الهراء؟» سأل فريد.

«حسناً، لو كتب بأمانة وصدق بعد هذه الرحلة الطويلة عن الشعوب قائلاً إنه لا يفهم الكثير من ثقافاتهم وعاداتهم، لما أعاره الناس أي اهتمام. لكن إن لم تلزم نفسك بقول الحقيقة، وسبكت بدلاً منها خيال قرائك في كلمات، فإنهم سيصدقونك وتصبح شعبياً. لذلك لم تكن طقوس العربدة تلك التي كانت تقام في قلاع الحشاشين تحدث حقاً إلا في مخيلة ماركو بولو وغيره من الرحالة عن الشرق، حيث وصف بعضهم دقائق عن حياة الحريم لم يكن أهل البلد ذاتهم يعرفونها. لكن ما كتبه هؤلاء الرحالة جميعا كان يصور بصدق رغبتهم المكبوته بالعيش مع حريم».

«إذن ما الذي دفع أتباع حسن الصبّاح إلى عمل ذلك إن لم يكونوا ينتظرون إرضاء جميع رغباتهم في الجنة؟» سأل رزوق، باهتمام.

«هذا هو تماماً ما يدفع المتعصّبين اليوم بدون حشيش للقيام بعملياتهم الإنتحارية: إحساس بأداء مهمّة مقدسة تجعلهم يشعرون بأنهم مختارون. إنه المخدّر الوحيد الذي يمكّن الشبان الذين يتمتعون بالحياة من التغلّب على الخوف من الموت واحتقار الحياة نفسها. إن فكرة الذهاب إلى الجنة هي أخطر الاختراعات في حضارتنا. وهنا تلتقي الشيوعية والدين، والفرق الوحيد بينهما يكمن في تعريف موقع الجنة. إذ يقول الشيوعيون إنها موجودة في هذا العالم بينما يقول الدين لا، إنها في العالم الآخر. وقد حاول الإخوان المسلمون الجمع بين الاثنين. إنهم يريدون إقامة دولة الله هنا على الأرض، لأنهم يعتقدون إن ذلك سيحلّ كلّ المشاكل، على الرغم من أن هكذا دولة هي أكبر مشكلة في حد ذاتها».

«هل يريدون ذلك حقاً أم أنك تسخر منهم فقط؟» سأل رزوق.

«أنا لا أسخر من أحد، كلّ ذلك موجود في كتاباتهم. يجب عليكما أن تقرآ أكثر قليلاً»، قال يوسف الذي ازداد توتراً الآن، وتهدج صوته.

«وماذا يزمع الإخوان المسلمون أن يفعلوا بنا نحن المسيحيين؟»

«آه، إنهم واضحون في ذلك أيضاً - إمّا أن تهاجر وإما أن تصبح مواطناً من الدرجة الثانية»، قال يوسف.

«أنا أفضّل أن أهاجر»، قرّر رزوق.

١٧٤- الفخّ

«لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دون متّى»، قالت كلير، قبل يوم من جنازة أمّها. كان فريد يرى بأمّ عينه كيف كان صديقه يعمل بدون كلل، يحضر الزهور وأكاليل الورد للتابوت من محلات بائعي الزهور، ويجلب الطعام والشراب للضيوف وكل مايطلبه المعزون بعد الجنازة، والشموع للكنيسة. لم يكن يصعب عليه القيام بأي عمل مهما كان شاقاً وبعيداً. وكان يرغب أيضاً في أن يكون واحداً من الرجال الستّة الذي سيحملون التابوت من بيت المرحومة إلى المقبرة الكاثوليكية خارج أسوار المدينة.

دسّ إلياس خلسة مائة ليرة في حقيبة عمّة متّى عندما جلست مع النادبات الأخريات. بكت السيدة المسنّة بامتنان وأحرجت إلياس عندما حاولت تقبيل يده. طبع قبلة على جبينها وهمس: «جميعنا نحبّ متّى»، وربّت على كتفها.

«بارك اللّه فيك وفي زوجتك كلير، وليحم الرحيم الواحد فريد»، أجابت عمّة متّى، وهي في غاية التأثر، وشقّت طَريقها ببطء نحو البيت. فوجئ فريد بحجم موكب الجنازة. لم يكن يعرف أن لعائلته هذا العدد الكبير من الأصدقاء والمحبين في دمشق. سار يوسف وعازر إلى جانبه وراء والديه وشقيق كلير.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها فريد خاله مارسيل، شقيق أمّه الوحيد، عن قرب. كان طويلاً وضخماً، وعندما وقف إلى جانب كلير شعر الجميع بأن لا شيء يجمع بينهما ولم يتبادل الإثنان أي كلمة غير ضرورية وبكل برود من كلا الطرفين. كان في مارسيل شيء بشع، لا شكل له. كانت تكسو وجهه ندبات وأخاديد حبّ الشباب. عندما قدم فريد

twitter @baghdad_library

تعازيه، لم يعرف العملاق القبيح ابن أخته، ومدّ يده المرخية المبللة بالعرق، شارد الذهن.

ثم رأى فريد أيضاً ابنة عمة أمه سناء التي التقى بها في أحيان كثيرة في بيت جدته خلال السنتين الأخيرتين. كانت تقارب الثلاثين من العمر ولها أربعة أو خمسة أطفال، لكنها بدت وكأنها في العشرين من العمر. كان زوجها حبيب يعمل كهربائياً في شركة الترام. كانت سناء تضحك كثيراً، وفيها شيء جامح فتن فريد وجذبه.

قبل فترة وجيزة من وفاة الجدة، دعت سناء فريد لزيارتها، لكن كلير طلبت منه آنذاك ألاّ يذهب لزيارتها، وفسّرت سبب ذلك باختصار «إنها امرأة غير شريفة».

لكن فريد لم يلاحظ في كل لقاءاته قط أيّ حركة تصدر منها تدل على ذلك. كانت سناء أنيقة في ملبسها، تتضوع منها رائحة عطر باهظ الثمن. بطبيعة الحال، كانت سناء أنثى بكل معنى الكلمة، وثيابها تبرز بعض مفاتن جسدها وانحناءاته، لكن لومها على ذلك، بدا له أمراً متشدداً للغاية، لذلك قرّر أن يزورها بعد انتهاء الجنازة بفترة قليلة. كان بيتها في حيّ القصبة بالقرب من حيه..

عندما دلف فريد إلى باحة البيت ذي الطابقين، رأته من نافذة المطبخ المطلة على الباحة، فصاحت بصوت مرتفع «آه، يا للروعة! فريد الحبيب يأتي لزيارتي»، كأنها كانت تريد أن تعلم الحي برمته بزيارته. تناثرت في باحة الدار وعلى الدرج ألعاب وأحذية وعلب كرتون.

هرعت لاستقباله وهي تحاول تزرير الجزء العلوي من ثوبها البيتي، لكن العروات كانت كبيرة ولم تتمكن من تزريرها جيداً.

«أحد أقاربي الجميلين يأتي لزيارتي أخيراً»، قالت لفريد وقبّلته. كانت تفوح منها رائحة سجائر ودهن الطهي.

كانت الشقّة مثل مكبّ للنفايات. رأى امرأة طاعنة في السن جالسة على

كرسي أخضر باهت بمسندين في غرفة الجلوس التي قادته إليها سناء. بدت جافة مثل دمية من القشّ مرمية في الزاوية.

وكان الأطفال يزحفون في الغرفة، يصرخون أو يركضون هنا وهناك في فوضى عارمة، لكن سناء لم تعرهم أي انتباه. أفسحت مكاناً لفريد بين الأوساخ ليجلس على كرسي في الزاوية حول منضدة منخفضة. كانت تنتشر في الغرفة رائحة ماء راكد، سرعان ما اكتشف فريد مصدره: أصيص نبات ضخم فيه أوراق بردي ذاوية، وكان في الصحن تحته ماء أسود راكد.

اختفت سناء لتعدّ القهوة، وظلت هناك لفترة طويلة.

«إنه يأتي كلّ يوم»، قالت الدمية الجافة فجأة، «ويضرب ابني أمام الأطفال كلّ يوم، و يأخذ زوجته منه». أجفل فريد مصدوماً، وتمنّى أن يخرج من هناك بسرعة. واصلت المرأة العجوز كلامها بحزن. عندما أمعن النظر إليها، رأى أن وجهها جميل حقاً، لكن المرض والوسخ والحزن شوهته.

«إنه إبني وفلذة كبدي، يعود إلى البيت متعباً من العمل»، تابعت كلامها، «ويجب أن يطعمني ويغسل أطفاله، ولا تعمل هذه القحبة شيئاً، ثم يأتي النجار وتسكر معه ثم تخبره كم مرة يجب أن يضرب زوجها أمام الأطفال، فيوسعه النجار ضرباً. فيبكي ابني ولا أستطيع أن أفعل شيئاً لمساعدته. كان حبيب فتى جميلاً مثلك، لكن بعد أن تزوّج هذه العاهرة احدودب ظهره وشاب شعره. ابني المسكين! هل يمكنك أن تجلب لي مسدّساً؟ ابني يتحمل كل شيء لأجلي ولأجل أطفاله ويخشى أن نموت خنقاً في هذه المزبلة إن هو قتل صاحبها وذهب إلى السجن، أما أنا فيطيب لي قتله حتى لو سجنوني، لأن ذلك سيخفف من عبء ابني»،لم يجب فريد. نظرت اليه بحزن يكفي لملء الأرض «لا؟ لا، لا أظن أنك تفعل ذلك»، دمدمت على نحو يائس، وعادت إلى حزنها الصامت، ولم تنبس بكلمة أخرى.

«سمعت من ميشيل»، قالت سناء وهي تضع صينية فناجين القهوة على المنضدة، «أنك محبوب كثيراً لدى النساء»، وابتسمت له ابتسامة واسعة

twitter @baghdad_library

وأضافت، «مثل والدك. وأنك ترتاد النادي كثيراً»، وقرّبت منه الصينية المليئة بالخدوش التي كان عليها فنجانان من القهوة يختلف شكل أحدهما عن الآخر على طبقين غير متشابهين أيضاً.

«من هو ميشيل؟» سألها فريد ورشف رشفة من القهوة.

«أي ميشيل تظن؟ ميشيل الذي صنع معظم المفروشات في النادي»، قالت معاتبة وجلست مباعدة بين ساقيها بحيث تمكن من رؤية سروالها الداخلي الأحمر.

أيقن فريد أن ميشيل هو حبيبها وهو الذي يضرب زوجها كلما طلبت منه ذلك.

«لا أعرفه»، قال منكراً بإصرار كأنه يصطف إلى جانب المرأة العجوز التي لا بد أنها كانت حماة سناء.

صمتت سناء. تطلعت حواليها وقالت بارتياب: «ألا تعرفه؟ عجيب، فهو يعرفك!»

احتسى فريد قهوته بصمت. فوجئ بأن مذاقها أطيب من مذاق القهوة التي تصنعها كلير. ظل يرمق السيدة العجوز الجالسة على الكرسي المهترئ. كانت تنظر إليه بعينين مفتوحتين على وسعيهما، لكنها لم تكن تحرّك عضلة في وجهها.

«أفعى خبيثة عجوز»، همست سناء عندما رأت اتجاه نظرة فريد.

«ستعيش حتى تبلغ المئتين. إنها تخرأ دائماً لكنني لا أنظّفها. يستطيع ابنها أن يفعل ذلك» أضافت و كان صوتها يشي باحتقار بارد.

أنهى فريد قهوته ثم نهض ومشى بثبات مصمماً إلى الخارج. شعر بأنه لو بقي لحظة أخرى فإنه سيتقيأ.

«إلى أين أنت ذاهب بهذه السرعة؟ لم يمض على قدومك سويعة» قالت سناء وراءه. كان الهواء أكثر نقاء في الباحة والممر. توقّف، متكئاً على عتبة النافذة، واعتراه الخجل لهروبه.

«يجب أن أعود إلى البيت. سيعقد اجتماع في النادي هذا المساء

ويجب أن أمرّ على البيت أولاً»، قال كاذباً وهو ينظر إلى الباحة. كان جار سناء،أب شاب، يلعب مع ابنه، صبي في حوالي الخامسة من العمر. كان يضحك ويدغدغه، ثم يصرخ فجأة، «اثبت في مكانك». بدا الأمر كما لو كان يدرّب كلباً. لم يستطع الطفل أن يبقى ساكناً هكذا، بل أخذ يتململ ولم يتوقف عن الضحك، وفي الوقت نفسه، كان ينظر إلى يد أبيه اليمنى مذعوراً. وهبطت تلك اليد فعلاً على وجه الصبي مباشرة فطرحته أرضاً. صرخ الصبي متألماً. رفعه والده. حمله وراح يدور به في نفس النقطة من باحة الدار، هدأ من روعه، أعطاه خمسة قروش وراح يدغدغه ثانية. بدأ الصبي، المضطرب تماماً، يضحك مرة أخرى، ثمّ أنزله والده وراح يضحك معه، أعطاه قطعة حلوى، وراح يدغدغه وصاح، «اثبت في مكانك»، ومرة أخرى انهالت اليد على وجه الصبي.

كان فريد على وشك أن يصرخ في وجه الرجل عندما أحسّ بيد سناء على ظهره. قالت له بشيء من الإغراء «لماذا أنت مستعجل يا عزيزي؟» لوهلة نسي رنا وأمّه والمرأة العجوز الجالسة على الكرسي، ونسي الأطفال الصاخبين والأوساخ والرجل السادي في الباحة، وأراد أن يقبّلها على شفتيها. ابتسمت كما لو أنها عرفت ماذا يدور في رأسه.

جرى فريد نحو الدرج. لم تجب سناء على همهمته السريعة وقالت: «مع السلامة». كانت تعرف كما كان يعرف أن هذه هي زيارته الأولى والأخيرة لها.

كان فريد يحتسي الشاي على شرفة النادي في وقت متأخر من ذلك المساء عندما دنا منه ميشيل النجار. كان يبدو أنه يبحث عن شخص بين الحاضرين، ودنا من طاولتهم أخيراً.

«أراهنك على كأس الشاي أن ميشيل لا علاقه له بسناء»، همس يوسف الذي ظنّ أن قصة فريد عن سناء وحبيبها من قصص العجائز.

«أحد أصدقائي»، بدأ النجار يقول «أخبرني أنك قلت له اليوم إنك لا

twitter @baghdad_library

تعرفني مع أننا نعرف بعضنا منذ سنوات». عندما أنهى هذه الملاحظة تساءل بتعبير غبي على وجهه لماذا ضحك الاثنان بصوت مرتفع. «هيا ادفع»، قال فريد ليوسف.

«وأنت أحمق»، قال يوسف للنجار بنبرة تشي بالاتّهام، «فقد نصب صديقي الذكي فخّاً لك وقد وقعت فيه في الحال. إذاً هذا صحيح. إنك تضاجع سناء وأنا أسدد الآن ثمن الشاي الذي يحتسيه». ترك يوسف وفريد ميشيل واقفاً هناك كتمثال لرجل بائس وانطلقا إلى البيت.

كان ذلك قبل منتصف الليل. كان رجلان يركضان في الشارع. توقّفا للحظة ونظرا إلى الأسطحة. كان الرجل الأصغر سناً يحمل مسدّساً.

«صعد إلى السطح وهرب من حارة اليهود»، قال الرجل الأصغر لاهثاً وأعاد المسدّس إلى جيب سترته.

١٧٥- الصلاة

كان قد مضى على وقوفه ربع ساعة منتظراً الحافلة التي لم تصل، عندما توقفت سيارة أجرة. ترجّل السائق من السيارة ونادى بصوت جهوري: «لقد أصيب سائق الحافلة بنوبة قلبية وهم يعالجونه الآن، ولم يعد بمقدرته السواقة اليوم، وستصل الحافلة التالية بعد ساعة».

لم يفكّر فريد في الأمر طويلاً، فاستقل سيارة الأجرة المشتركة مع ركاب آخرين. كان السائق يحاول التقاط أي شخص يراه على قارعة الطريق، حتى إنه توقّف عندما لوّح له رجل يريد كما تبين فقط إشعال سيجارته. ببطء قدم السائق للرجل علبة ثقاب وسأله ما لا يقل عن عشر مرات إن كان متأكّداً من أنه لا يريد الذهاب إلى أي مكان. «الزمن صعب»، قال باعتذار للركاب في سيارته، «يجب أن تتحلوا بالصبر». عند موقف الحافلات التالي حكى قصّة مختلفة عن سائق الحافلة فزعم هذه المرة أنه قتل جابي الحافلة ولم يعد بإمكانه قيادتها اليوم. كان لا يزال هناك مكان

كاف في سيارة الأجرة، لكن أحداً لم يصعد إلى السيارة، وانطلق السائق إلى موقف الحافلات التالي ولم يبدِ أي اكتراث عندما أصبحت الحافلة تسير وراءه مباشرة عند الموقف الخامس أو السادس وأطلق سائق الحافلة زموراً عالياً ليطرده من موقف الباص.

تأخر فريد قليلاً على الكنيسة. كانت رنا واقفة تحت لوحة القديسة بربارة سارحة بأفكارها. توجّه إليها بهدوء، وتطلع حوله قبل أن يلمسها، وطبع قبلة سريعة على عنقها. أجفلت رنا ثم ابتسمت.

جلسا في زاوية بالقرب من مقصورة كرسي الاعتراف في الجزء الخلفي من الكنيسة وشبكا أيديهما. كانت الصلاة قد بدأت وكانت هناك حفنة من المصلّين الجالسين في الصفوف الأمامية الثلاثة.

«لأول مرة كان أبي رائعاً. إذ تريد أمّي أن أتزوّج ابن خالي رامي عندما أنال الشهادة الثانوية وأترك المدرسة. إنه ملازم أول في الجيش، لكن أبي قال إنني ذكية ولا أزال صغيرة السن ويجب أن أكمل دراستي الجامعية أولاً ثم نرى».

«حسناً، هذا خبر جيد. إذا أكملت دراستك سيكون أمامنا أربع سنوات أخرى، وإني واثق من أننا نستطيع أن نجد طريقاً لخلاصنا حتى ذلك الوقت».

«نعم، لكن أمّي لن تدع الأمور تمر بسلام حتى ذلك الحين. فهي تنتهز أيّ فرصة لتقول لأبي أشياء سيئة عني، صار همها الأول تسويد صفحتي عند أبي، وأنت تعرف أن جاك فاشل في المدرسة. وحتى بمساعدة معلمين خاصّين فقد حصل على الشهادة الإعدادية مؤخراً، وقد سئم الدراسة الآن ويريد أن يعمل ويكسب نقوداً. إنها هزيمة ساحقة لأمّي ولا يمكنها أن تقبل فكرة أن أنجح في الجامعة أيضاً. سمعتها تقول البارحة لأخي إن ذلك سيزيدني تمرداً، واحزر ماذا، فقد قرّرا أن أتزوج رامي بسرعة، تصور بربك، هما يقرران أن علي الزواج بسرعة. أين نعيش؟ في القرون الوسطى؟».

هزّ فريد رأسه، وقال «ألا تستطيعين أن تخبري والدك؟»

«أخبرته. يظن أنني أبالغ وأتخيّل بهوسي هذه الأمور».

twitter @baghdad_library

«اسمعي، إذا أصبح الأمر تهديداً حقيقياً فإننا سنهرب مرة أخرى. لا تقلقي، سأكون دائما مستعداً لمساعدتك وستدعمنا كلير أيضاً، فأنا نفسي ثمرة هرب أبي وأمي».

«صدّق أو لا تصدّق، فقد حزمت حقيبتي عندما سمعت ما يقولانه. إنك تتذكّرها، نفس الحقيبة التي كانت معي في بيروت، لكني أفرغتها ثانية لأنني لم أشأ أن يعرفا خططي فهما يفتشان غرفتي دوما في غيابي. وإذا حدث الأسوأ، فبإمكاني الهرب بدون حقيبة».

قبّل فريد أذنها وهمس فيها: «حتى أنني سأحبّك بدون ثياب وفرشاة أسنان». دغدغت أنفاسه رنا. ضحكت بتوتر، وابتعدت عنه قليلاً.

«لقد خبأتُ مبلغاً يزيد على حاجتي»، قالت بحزم. أحسّ فريد بأن الصلاة قد انتهت بسرعة. غادرت رنا الكنيسة وحدها. في البداية جلس هناك يتفرج على الصور. عندما أصبح وحده توجّه إلى تمثال يسوع وراح يخاطبه، «هل تسمعني؟» همس، «أنا صديقك فريد. أعرف أنني لم أكلمك منذ سنوات، لأن الدير أفسد كل ذلك. نعم، أنا شيوعي الآن لكنني لا أزال أؤمن بك. لم أعد أؤمن بالكنيسة. وثق أن ستين لينين لا يبعدوني عنك. أرجوك ساعد رنا وأحطها بحمايتك. فهي فتاة تتحلى بشجاعة كبيرة في عالم جبان، وأمها أفعى سامة. هل تسمعني؟ ساعدها. أما بالنسبة إليّ، فلا داع لمساعدتي، فباستطاعتي أن أتدبر نفسي».

تكلّم فريد مع التمثال طويلاً. وأخيراً، عندما لاحظ وجود كاهن شاب يقف وراءه، محافظاً على مسافة معقولة بينهما، ينتظر، ابتسم مرتبكاً، ورسم إشارة الصليب. غادر الكنيسة وراح يغذ الخطى.

١٧٦- الصياد والطريدة

«من الأفضل لك أن تحذر من سليمان»، قال يوسف الذي بدا قلقاً، «فقد اكتشفتُ البارحة أنه مخبر. لا أعرف منذ متى، لكن من المؤكد أنه واحد منهم». كان يتكلّم بسرعة كأنه يريد أن يفرغ الكلمات من صدره.

نظر إليه فريد ولم يقل شيئاً.

«نعم، بالطبع إنه يعمل لحساب الدولة، ونعم أعتقد بأن رئيسنا هو منقذ العرب لكنّي أحتقر المخبرين. وربما كنتَ على قدر محزن من الغباء حتى تجري مع الشيوعيين لكنّك لا تزال أعزّ أصدقائي. البارحة كان يتقرب منك بشكل مفضوح في النادي. ماذا كان يريد منك؟»

«دعاني لمرافقته إلى الصيد»، قال فريد، «فقد أعطاه والده بندقية جلبها القنصل الإسباني من فرنسا، لكنها لم تعجبه فأهداها إلى سائقه. برأيك هل أذهب معه؟»

«نعم، طبعاً، وتصرّف كأنك لا تعرف شيئاً أو قل له إنك تشكّ فيه بلا تردد، لكن يجب أن لا تبدي له أيّ قدر من الخوف وإلا فإنه سيشي بك ويقضي عليك».

«أنا أخشاه؟ هل هذه نكتة؟»

«لا، أيها الانتحاري الغبي. أنا أعرف كم يتذلل سليمان لك، وأعرف أيضا أن المخبرين جبناء، لكنهم ككلاب الصيد، عندما يتذوقون طعم الدم يصبحون جشعين للمزيد».

«حسناً، معك حق لكني رغم ذلك لا أستطيع أن أفهم، ما الذي يريد معرفته مني. ولماذا يحاول ذلك معي بالذات، وهو الذي يؤكد دوما أنه أخ لي؟»

«يا عزيزي فريد، من أين لي أن أعرف ما الذي تفعله في الليل وتحت الأرض؟ أظن أن المخابرات تريد أن تعرف المزيد عنك».

جلس فريد ساكناً لا يأتي بحركة. غمره الحزن. كان يحبّ سليمان النشيط والمشاكس. فبعد أن حصل سليمان على الشهادة الإعدادية ترك المدرسة وعمل لفترة من الزمن سائق سيارة أجرة، وأصبح الآن يملك، وهو لا يزال في التاسعة عشرة من عمره، نصف سيارة أجرة. قال فريد لنفسه إنه من المبكر أن يحصل المرء على ذلك من عرق جبينه بشرف. ويقول البعض

twitter @baghdad_library

إن سليمان يعمل في التهريب وقد استثمر المال بذكاء، ويشيع آخرون بأن الشابّ الماكر غشّ جميع أصحاب سيارات الأجرة الذين عمل لديهم.

لكن لماذا يعمل مخبراً؟ لماذا يشي بالناس الذين لم يسيئوا له؟ هل يمكن أن يكون هو وراء إلقاء القبض على مروان، معلّم الرياضيات الجديد، الذي اختفى فجأة؟ لا يعرف أحد إن كان لا يزال حياً، ومن الذي أبلغ عن نديم الحلاق إلى الشرطة؟

«إن المخبرين وحوش»، قال فريد «ولا يمكنني استيعاب أن يكون صديقنا سليمان حقيراً إلى هذه الدرجة».

«هناك أمور كثيرة لا تستطيع كإنسان شريف استيعابها. لكن مرحلة طفولتنا انتهت الآن، وبعض الأشخاص الذين يجتازون بوابة الطفولة إلى سن الرشد يصبحون رجالاً ونساء مسالمين غير مؤذيين، بينما يتحوّل آخرون إلى وحوش. هل تريدني أن أبدأ بأسرتي أم بأسرتك؟» سأل يوسف بنبرة ودّية سالت من اطرافها سخرية مريرة.

كان على فريد أن ينتظر عند الباب في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي حاملاً جعبة فيها طعام ومطرة ماء استعداداً للرحلة. وعده سليمان أن يمرّ عليه لكي يصلا إلى واحة الصيد في الساعة الرابعة صباحاً، قبل بزوغ الشمس.

تقلّب في السرير طوال الليل. كان قد حذّر أمين، لكن حتى أمين لم يخبره كيف يجب أن يتعامل مع سليمان.

ماذا بوسعه أن يفعل؟ أجوبة جامحة دارت في رأس فريد. عبارات معهودة تعلمها من الأفلام والروايات: أمسك بندقية سليمان ووجهها إلى رأسه أو إلى قلبه أو إلى بيضتيه، واجعلهُ يتكلم؟ ولنفترض أنه رفض أن يقر بعمالته؟ هل يمكنه أن يضغط على الزناد؟، تساءل بخجل. كان الجواب لا. لعن جبنه.

ماذا سيقول سليمان إذا ذكّره فريد بالساعات التي أمضياها معاً في الغرفة

العلوية مع العصابة؟ أمر مؤثر جداً. إنه بالتأكيد مخبر مدرب تدريباً جيداً، ولا بد أن طفولتهما قد انتهت.

لم ينم سوى ثلاث ساعات، ثم انتصب جالساً في السرير مجفلاً.

في أحلامه، أُطلقت النار على سليمان وقُتل ووضعت جثته تحت سرير فريد. ولم يهدأ إلا بعد أن أشعل الضوء وفتش غرفته.

تجاوزت الساعة الثانية والنصف بقليل. ارتدى ثيابه وتوجّه إلى باب البيت حيث رأى كلير وهي لا تزال في مبذلها. أعطته قبلة وجعبة مؤنة النزهة.

وصل سليمان في الوقت المحدد بدقة، وكان يبدو عليه أنه نال قسطاً وافراً من النوم. كانت بندقية الصيد تقبع في المقعد الخلفي. ألقى فريد جعبته بجانبها وركب السيارة. قطعا حوالي أربعين كيلومتراً في الظلام حتى وصلا إلى واحة فيها كما أخبره سليمان طيور وأرانب برية وغزلان. كانت تنمو فيها أشجار نخيل وأشجار رمان وتين وعنب بري وصبّار وأشجار جوز. كان نبع الماء صغيراً على نحو مخيّب للآمال، لم ير فريد أرنبا أو غزالا واحداً، لكن بعد فترة جاءت أعداد كبيرة من الطيور، وعندما بدأت أشعة الشمس تبزغ، وبدأت جوقة الفجر، أطلق سليمان النار. لم يصب الهدف، لكن الطلقة أحدثت جلبة كبيرة. فوجئ فريد بارتداد البندقية بقوة. لعن سليمان البندقية والطيور والريح والأشجار وسوء حظّه، ولم يتوقف عن إطلاق النار في الهواء.

أصاب الهدف مرة واحدة فقط، لكن الطير المصاب تمكّن من الطيران ثانية. ركض فريد وراءه بينما انتظر سليمان. وجد فريد أخيراً الطير الذي أصيب بجرح طفيف في جناحه، تحت شجيرة رمان برّية. لم يعرف ما نوع الطير الذي كان بحجم حمامة تقريباً، لكن كانت له ألوان زاهية ومنقار قوي مستقيم. في ذلك المساء أخبره أمين بأن الطائر يدعى آكل النحل الوروار، وأن أصله من أفريقيا.

رمق الطير فريد بعينين مذعورتين. كان منقاره مفتوحاً وكان يصدر

twitter @baghdad_library

فحيحاً يكاد يشبه فحيح أفعى. توقّف فريد. «هل وجدته؟» سمع صوت سليمان.

«لا»، قال فريد، وأعاد أغصان شجيرة الرمان إلى مكانها.

بعد أن أطلق سليمان ثلاثة أرباع خراطيشه، توقّفا لتناول طعام الفطور.

«هذه الواحة مليئة برائحة البارود النتنة، ولا يستطيع أي طير أن يعيش هنا من دون قناع للغازات»، قال سليمان ضاحكاً. جلسا بجانب بركة الماء وراحا يتناولان سندويتشاتهما.

«هل سمعت عن اعتقال سيمون؟» سأل سليمان فجأة.

حتى عندما روى ليوسف عن ذلك في المساء بعد عودته من الصيد، لم يستطع فريد أن يشرح له كيف جاءت الكلمات لإنقاذه إلى شفتيه، «أيّ سيمون؟ زوج ابن خالتي ليلى؟ ماذا فعل؟» تساءل ببراءة طفل صغير مذعور.

تلعثم سليمان. «هل زوج ليلى عازف الكمان يدعى سيمون أيضاً؟» سأل متفاجئاً، لكنه لم يتمكن من إخفاء انزعاجه.

«طبعاً. لقد رأيته وتعرفت عليه بنفسك. هل نسيت؟ في الحفل الخيري الذي أقيم في الكنيسة الكاثوليكية في عيد الميلاد الماضي. ماذا عنه؟ هل سرق شيئاً» تظاهر فريد بالغباء. بالطبع كان يعرف جيداً أي سيمون يقصده المخبر. إنه جندي ينتمي إلى خلية شيوعية أسست حديثا في الجيش، رجل شجاع عصبي المزاج.

«لا، لم أقصد زوج ابنة عمتك، بل أقصد سيمون الذي يسكن بالقرب من درج باب توما. جندي مسكين خطط لإشعال ثورة في معسكر للجيش قريب من دمشق. ألا تعرفه؟ كان يأتي أحياناً إلى النادي ويحتسي الشاي مع صديقك أمين»، قال سليمان.

«لا، لا أعرفه. أمين لديه الكثير من الأصدقاء، وأنت وأنا أيضاً واحداً منهم، لكني لم أر هذا العسكري قط، لكن إذا جاء إلى النادي مرة أخرى يمكنك أن تشير لي إليه»، أجاب فريد بسذاجة.

«للأسف لن يأتي بعد. لقد تورمت عينا عمتي من البكاء. إنه خطيب

ابنتها. إنه شابّ شجاع»، قال سليمان المنافق. لم يكن فريد يعرف هل لسليمان عمّة حقاً وعندها بنات، لكن في تلك اللحظة أيقن أن هذا الخبيث عميل للمخابرات وماتت كلّ مشاعره تجاه صديقه السابق، وفوجئ بمدى البشاعة التي بدأ يرى فيها سليمان.

بعد ثلاثة أشهر تلقى فريد وجميع أعضاء الحزب الشيوعي الآخرين أوامر من القيادة بقطع جميع اتصالاتهم مع الجنود، حتى مع رفاقهم الذين تطوعوا في الجيش او كانوا سيقوا للخدمة الإلزامية. واكتشف بعد سنوات أن العمل داخل الجيش قد توقف بناء على تعليمات صارمة أتت من موسكو.

١٧٧- قبو النبيذ

كانت أسرة يوسف تحتفل بخطوبة شقيقتيه بلقيس وياسمين على سمير وأمير، ابنا الصيدلي العجوز الذين كانوا يمتلكون صيدلية كبيرة تقع بالقرب من المستشفى الإيطالي. وقد علم بالحفلة جميع أهالي الأحياء المجاورة. وكان انهماك متّى قبل حوالي أسبوع في جلب جميع أنواع المواد لأسرة يوسف، إعلاناً عن الخطوبة أفضل من مائة ملصق. فكلما سأله عابر سبيل إلى أين؟ صاح متّى أنه يساعد عائلة يوسف بتحضير حفل الخطبة العظيم، وكان صوته يصل لكل البيوت المحيطة. في يوم الحفلة كان متّى بين الضيوف، وكان يرتدي ثياباً أنيقة مكوية برفقة عمّته التي ارتدت أيضاً أفضل ما عندها من ثياب. لأن مادلين أعربت عن رغبتها الصريحة بألاّ يقوم متّى بأي عمل آخر في الحفلة بل أن يكون ضيفها.

لم تتح لفريد فرصة كبيرة للاستمتاع بالحفلة. فقد ساعد هو وعازر ورزوق وطوني صديقهم يوسف في تأمين أماكن لجلوس جميع المدعوين الثلاثمائة، وتقديم المشروبات لهم، وإرشادهم إلى المغاسل، والأهم من كل ذلك إيجاد أماكنهم التي كانوا جالسين فيها بعد عودتهم من المرحاض أو من حديث مع قريب لهم في مكان آخر. فسرعان ما كان آخرون يحتلون

twitter @baghdad_library

الكراسي الشاغرة. كان يجب أن يتم كلّ ذلك من دون إطلاق كلمة جارحة، ودأبوا على تهدئة خواطر الضيوف وجلب المزيد من الكراسي ومسح الأوساخ من الأرضية والحرص على إزالة تعابير الامتعاض من الوجوه.

أما رب الأسرة فكان مسؤولاً عن تقديم النبيذ والعرق. وكان يجلب القناني من القبو ويملأ الكؤوس لضيوفه. قال يوسف إنّ لدى والده في القبو كميات من النبيذ والعرق تسكر الجمهورية برمتها - وكلها من أنواع المشروبات الممتازة التي اشتراها وخزّنها أيام كان ربحه من عمله كمقاول كبيراً.

ظلت نوال، ابنة عم يوسف، تلامس فريد كلما دخل المطبخ. كانت تضع نظارات لطيفة ذات إطار من النيكل وعدستين مدورتين، وكان في عينيها شيء من الحول لكنها كانت مثيرة.

«كن حذراً، فهذه الفتاة مدفع خطير يطلق قذائف قويّة ويصيب رغم الحول»، قال يوسف، وأضاف، «كان لها كل سنة علاقات غرامية مع أحد معلميها منذ أن كانت في الثامنة من عمرها».

سمعته نوال يتحدث عنها بالسوء فرمته بفجلة وأصابت رأسه. شتمها يوسف وصاح منادياً أمّه أن عليها الآن أن تعرف لماذا لا يقترب من المطبخ. لم تتوقف الفتيات عن الضحك.

«إنك فتى جذاب»، همست نوال في أذن فريد من ورائه، وأضافت بصوت منخفض وهو يضع صينية عليها فناجين قهوة فارغة «اتصل بي متى شئت». عندما استدار لينظر إليها، دسّت قصاصة في جيب بنطاله بسرعة. أحرج ذلك فريد الذي لم يعرها اهتماما كبيراً.

لكن أكثر ما أعجبه في حفلة الخطوبة هذه هو الطعام اللذيذ الذي كان شهياً يسر العين أيضاً. فقد كان هناك أكثر من عشرين نوعاً من المقبلات الباردة، وخمسة أطباق ساخنة تكفي لإسالة لعاب المرء. وكانت تتكوم كذلك ثلاثة أهرامات من الفواكه الطازجة حول البحرة. كانت مادلين وريمون على الدوام مضيفين كريمين.

همس يوسف لفريد بأن المدعوين يأكلون غرفة إثر غرفة من الشقّة التي باعها والده خصيصاً لإقامة هذه الحفلة السخيفة، وأضاف «لا أستطيع أن أنتظر حتى أرى متى يلتهمون المرحاض». لم يفهم فريد ما الذي كان يقصده بكلامه، لكنه شارك يوسف في ضحكته. استمرّت الأحاديث على هذا النحو: فمعظم التعليقات الذكية والسخيفة ضاعت وسط ضوضاء الحفلة، ولم يكن ثمة وقت للتفسيرات.

لم تكن المطربة التي كلفت بالغناء في الحفلة تملك مهارات تسرّ الأذن والفؤاد، لكنها أسرت العيون كصورة، وقد أحبّها الرجال لجمالها خاصة وأنها صبغت شعرها ليصبح أشقراً. وكانوا كلما شربوا أكثر ازداد إعجابهم بصوتها، حتى إنهم بدأوا يقارنون صوتها بصوت فيروز، أروع مطربة في البلدان العربية. أما زوجات الكثير منهم فقد قلن بحدّة إن هذه المغنية لا تصلح إلا للسرير.

عند حوالي منتصف الليل، كانت مجموعتان من الضيوف لا تزالان في الحفلة. كان فريد ووالده ووالدته قد غادروا. ثم حدث شيء أدخل البهجة إلى نفس يوسف كما لو أنه فاز في مباراة شطرنج على بطل العالم في الشطرنج ميخائيل بوتفينيك.

كانت إحدى المجموعتين التي تضم حوالي عشرين من أصدقاء والده وأقاربه يجلسون تحت العريشة القديمة على الشرفة الجنوبية، أما المجموعة الأخرى المؤلفة من أقارب أمّه وعائلة الصيدلي، فكانوا يجلسون حول البحرة الكبيرة في باحة البيت.

بدأ النبيذ ينفد. أشارت مادلين بيدها إلى زوجها، فانطلق بسرعة ليجلب المزيد منه. كان يتم الحفاظ على درجة حرارة وتهوية ملائمة في القبو المقنطر المشيّد من حجارة بيضاء، باستخدام نظام ذكي مكون من نوافذ صغيرة على مستوى الأرض، وكانت مصابيح برونزية معلّقة على الجدران ورفوف جميلة ومناضد من خشب البلوط وكراسي وخزائن تمنحه شكل مبنى مقدّس تقريباً.

twitter @baghdad_library

كان والد يوسف يحتفظ بأفضل أنواع النبيذ المعتق من أجل هذه الساعة المتأخرة. كان المخزن الواقع تحت الشرفة الجنوبية مجهّزاً بالنبيذ الوارد من لبنان، وكلّ قنينة تساوي ثروة. تردّد قليلاً أمام الرفوف ثم اختار عشر قناني من النبيذ الأحمر. وبينما كان واقفاً تحت النوافذ الصغيرة الثلاث، سمع فجأة صوت شقيقه فرحان يقول: «إن ريمون يحبّ دائماً المباهاة والتشاوف. حتى عندما كان طفلاً أراد أن يكون الأقوى باستمرار. وكما تعرفون جميعاً فلم يكن سوى ملاكم من الدرجة الثالثة».

تسمّر ريمون في مكانه. فقد أحسّ بالخيبة من شقيقه الذي كان قد ساعده مالياً مرات عديدة، ها هو الآن يسخر منه في حفلة خطوبة ابنتيه. غضب ريمون وصعد الدم إلى رأسه. اعترته رغبة في الصراخ «أيها الحسود، يا ناكر الجميل»، عندما سمع صوت ابنة عمه الأثيرة لديه ماريا.

«وزوجته أيضاً! فقد دمرت هذا الأحمق تماماً، وها هي الآن تركب على ظهره. فقد كان ابن عمي دائماً حماراً. وكانت فكرة تزويج ابنتيها لهذين الصيدليين الأحمقين فكرتها هي، وريمون يسايرها في كل ما تقول. كما أن مادلين ليست جميلة وليست أمّاً جيدة، ناهيك عن أنها ليست ربّة بيت صالحة. يا إلهي، ألم تلاحظوا؟ فقد أحضروا معظم تلك الأطباق من المطعم حتى لا تتلف سيدتنا الجميلة أظافرها»، قالت بحقد.

ماريا! ماريا المعسولة الكلام التي كانت تقول دائماً له، عندما يكونان وحدهما، كم أنه محظوظ بالزواج من مادلين، بخلاف شقيقه فرحان الذي كانت زوجته دجاجة نقاقة سخيفة.

«ليس غالي الثمن فقط»، سمع ريمون عمّته البخيلة المسنّة تضيف «بل إن طعمه فظيع أيضاً. لم أكد، يا حسرتي، أتناول لقمة واحدة». كانت تكذب. لم يعدّ الصحون عليها، لكنه في كلّ مرّة كان يُترع كأسها بالعرق كانت تملأ صحناً جديداً بأطايب الطعام أمامها.

«ولا أنا»، قال الواحد بعد الآخر في المجموعة.

«لا عجب، قبالة هذه الأطباق المقرفة، وسأقول له ذلك في وجهه»، قال شقيقه الذي ازدادت حدّة استيائه قليلاً.

«أوه، لا تفعل ذلك. إنك تضحّي بنفسك دائماً، لأن زوجته ستقول عندها إنك تحسده. دعه وشأنه. ماذا يقول المثل ؟ إذاً تعذب عدوك لا تشتهي له الموت بل إدعِ له بطول العمر».

هدروا جميعاً ضاحكين وموافقين، بدلاً من صفع تلك الفاسقة التي عملت من شقيقه ديوثاً.

«والآن، الآن»، صاح ابن عم ريمون جرجي، المحامي، «إننا نجلس منذ عصور بدون شراب. قلت لمادلين إن ضيوفها بحاجة إلى شراب، لكنها لم تفعل شيئاً سوى أن ابتسمت لي ابتسامة بليدة سخيفة».

«أتعرفون ماذا؟» سمع ريمون رد أخيه بصوت منخفض، «لقد سمعت أنّه مفلس، ولن أفاجئ إذا أشهر إفلاسه قريباً».

هكذا إذن قال ريمون لنفسه. تاركاً النبيذ في مكانه، وراح يصعد الدرجات بسرعة كبيرة واتجه إلى الشرفة الجنوبية. لكنه عندما رأى كلّ هؤلاء الأشخاص فجأة يبتسمون له بأسلوب أكثر وديّة، لم يتمالك نفسه عن الضحك. راح يضحك ويضحك، حتى ظن أقاربه أنه جنّ. جلس ريمون على كرسي شاغر وظل يضحك ويضحك بطريقة لم يضحك مثلها من قبل على حماقة جميع هؤلاء الأشخاص الذين لم يعرفوا أنه سمع كل ما كانوا يقولونه من افتراءات.

عندما مال إليه شقيقه فرحان وسأله، متظاهراً بالقلق والشفقة، عمّا إذا كان سكراناً، وجّه إليه ريمون، وهو لا يزال يضحك، إحدى لكماته الشهيرة، فطار فرحان إلى الخلف، وسقط في حضن عمّته، فوقعا معاً على الأرض.

نهض فرحان واقفاً ثم أخذ زوجته وغادر مترنحاً وساخطاً. «ويمكنك أيضاً أن تأخذ معك عمّتنا العزيزة البخيلة وكل هؤلاء الأوباش إلى البيت قبل أن أرسلهم بلكماتي إلى طبيب الأسنان»، قال ريمون الذي كاد يختنق من

twitter @baghdad_library

الضحك. أدار ظهره، ضرط ضرطة قوية في وجه ماريا التي اصبحت الآن خلفه، ومن دون أن ينبس بكلمة أخرى ذهب ليحضر النبيذ ولينضم إلى زوجته والضيوف الجالسين بالقرب من البحرة.

١٧٨- الشرف الرجولي

عندما حلّ الخريف، أصبحت إليزابيث، صديقة رزوق الإنكليزية، تتكلّم العربية بطلاقة. وعلى الرغم من أن الكلمات التي كانت تنطقها كانت تشوبها لكنة إنكليزية، فقد كانت ذا وقع جميل على الأذن وأصبح بوسعها أن تشتم وتسبّ كأي صبي ابن شوارع.

أحبّ رزوق إليزابيث كما لم يحبّ أحداً. وبشيء من الغطرسة والكبرياء كان يحدّث أصدقاءه عن الرجال الذين يحدقون فيها بأعينهم الشهوانية لكنها كانت تصدّهم جميعاً. وقال إنها لا تحبّ أحداً غيره، وأن أحدهما يليق بالآخر كأنما خلقا لبعضهما بعضاً.

أراد أن يؤدي خدمته الإلزامية بأسرع ما يمكن كي يتقدّم بطلب للحصول على جواز سفر لمغادرة البلد، وكان يردد: «لا يمكن الحصول على جواز سفر من دون تأدية الخدمة العسكرية أولاً، ولا أريد أن أغادر البلد بطريقة غير قانونية. فقط لأن إليزابيث تحبّ دمشق فإنني أريد أن أعود كلما تملكنا الحنين إلى بلدي». وبمساعدتها كان يزمع أن يفتح بازاراً شرقياً عندما يذهب إلى إنكلترا، وقال إن في دمشق عشرة موردين يتسابقون لبيع مصنوعاتهم اليدوية إلى الخارج: تحف يدوية مصنوعة من الخشب والنحاس والفولاذ والمنسوجات.

عندما كان رزوق يتحدّث عن إليزابيث، كان يمتدح صراحتها وشجاعتها، وقبل كل شيء، كان يمتدح احترامها لحريته. «لا نملك مثل ذلك في سورية. فإذا أحبّك الناس هنا، فإنهم يلتصقون بك. ويعتبرون حريتك الشخصية عامل مهدم، ويعتقدون أنها تعرّض الحبّ للخطر. وهذا ما يجعلنا لا نمنح شركاءنا إلا قدراً ضئيلاً من الحرية. أما إليزابيث فهي

بخلاف ذلك تماماً. فهي ترى حريتي شيئاً مصوناً ومقدساً»، قال، محدثاً أمين وأشخاصاً آخرين في عصر أحد الأيام في النادي.

«لكن الأوربيين لا يتوافقون معنا بطريقة ما، أقصد أنهم لا يناسبوننا»، قال أمين. فوجئ فريد لأن أمين، من بين كلّ الناس، يقول ذلك. لأنه كان يخيّل إليه دائماً بأن رفيقه الشيوعي لا يؤمن بأفكار مثل القومية والوطن، وهو أول من قال له بالعالم كوطن واحد للإنسان وإن أعداء الإنسانية هم أولئك الذين بنوا الحدود. لكنه ابتلع خيبة أمله ولم يعلّق.

«نعم، ربما كانوا يحبّون الحرية أكثر، لكنّهم لا يستوعبون مفهوم الشرف»، ادّعى بديع، معلّم مدرسة ابتدائية من حوران.

«لدى كلّ إنسان شرف، ومن الغباء التفكير بأنه حكر علينا»، أجاب رزوق بحدّة.

«لم أقصد ذلك»، ردّ المعلّم، «فكلّ أمة تعيش حسب مقاييس القيم الخاصة بها. فبالنسبة لبعض الشعوب، يأتي غزو أراض جديدة وضمها إلى بلادهم في المرتبة الأولى، وبالنسبة لشعوب أخرى فهي سعادة الأسرة، وتكمن قيم شعوب أخرى في شرف نسائها، أتفهموني؟» هز أغلب الحاضرين رأسه موافقاً.

«هنا نصل إلى جوهر الموضوع»، قال توفيق، «هل يريد أحد كأساً من الشاي قبل أن يبدأ النقاش؟ فلا أريد أن يفوتني شيء منه».

طلب أربعة أشخاص كؤوس شاي، وطلب الآخرون ماء أو قهوة.

«إذن اصمت وانتظرني. سأعود بعد لحظة». عندما أحضر توفيق الشاي والقهوة وسددوا له ثمنها، جلس في الصف الخلفي حيث يمكنه أن يراقب المقهى ثم قال: «هيا ابدأ».

«إن ما يتحدث عنه بديع هو ذلك النوع من الشرف الذي أستطيع الاستغناء عنه، أقصد أني أعيش بدونه بكامل السعادة مع إليزابيث»، قال رزوق، عندما التقط خيط الحديث ثانية وأضاف «إذ إننا نُضرب ونهان ونُسرق منذ خمسمائة سنة، وتفكيرنا كله محصور بالشرف الذي يتمثل في

twitter @baghdad_library

قطعة الجلد التي تقبع في أكثر الأماكن الحميمية لدى المرأة. هل هذا شيء طبيعي؟»

فانطلقت الاحتجاجات.

«إنه يخرج مع امرأة انكليزية منذ بضعة أشهر»، صاح ميشيل النجار، «فصار جنتلمان إنكليزي ولم يعد يسمع الآن عن الشرف الرجولي».

«اسمعني أيها الشابّ»، أضاف صادق، بائع الخضراوات، «يمكنك أن تأخذ أي شيء من العربي إلا شرفه. وربما كان الأوربيون يتقدمون علينا في مجالات شتى، لكن الأمر لا يتوقف على ذلك. أما من ناحية الشرف فإننا نسبقهم بمراحل كثيرة».

رمق رزوق فريد بنظرة تعني أشياء كثيرة. صادق، من بين كلّ الناس الذي لا يتوقف عن غشّ زبائنه! هذا الشحيح يتكلّم عن شرف العرب.

«لو كنت مكانك»، قال له فريد بحدّة «لما تحدّثت عن القيم العربية كثيراً. هل تعرف ما هي الصفة التي يكرهها أسلافنا كثيراً؟»

«حسناً، ما هي؟» سأل صادق بعباراته الساذجة.

«الجشع والبخل»، أجاب فريد، فانطلق سيل من الضحكات والقهقهات وتعليقات الاستهجان والصفير ضد بائع الخضراوات.

«لكن صادق محقّ في ما يقول»، صاح المعلّم بديع، وباصيل عامل البناء وسط هذا الضجيج. وأضاف باصيل، «لقد سُلب منا كلّ شيء، لكننا لا نزال نحتفظ بشرفنا. فأنا أفضّل أن أموت على أن أتزوّج امرأة نام معها آخرون قبلي». هز العديد من الحاضرين رؤوسهم، بمن فيهم أمين الذي كان ودوداً مع باصيل وبديع.

«ألا تظن هذا شيئاً شاذاً؟» سأل عازر بصوت منخفض.

«ارفع صوتك»، طلب توفيق، «لا أستطيع أن أسمع كلمة».

«ألا تظن أن من الغريب أن تكون البكارة مقدّسة عندنا؟»

«وما الغريب في ذلك؟» هدر رجل ضئيل الجسم لا يعرفه فريد، يدعى إدوار.

«الغريب هو أن يضع الرجال الذين قلما يعيرون أي اهتمام للمرأة في الأحوال العادية، كلّ شرفهم في المكان الذي تبول النساء منه! يا لهم من رجال بؤساء، عديمي الشرف، أقصد هؤلاء الأوربيين الذين يغزون السماء والبحار، ويجازفون في الدخول إلى عالم الذرة ويمسحون الأرض بنا، في حين يفتل رجالنا المزهوين شواربهم ويعيشون داخل أفكار عفى عليها الزمن - لكنّهم يشعرون رغم تأخرهم بالتفوّق على رجال الغرب لأنهم تزوجوا نساء لا يزلن عذراوات».

سُمعت همهمات غاضبة من الاحتجاجات ضد عازر من عدّة أشخاص.

«وأنا واثق من أنكم تعرفون جميعاً»، قال رزوق، وهبّ لمساعدته، «إن حفنة من الأطباء النسائيين هنا لا يفعلون شيئاً سوى رتق غشاء البكارة ثانية. إنهم يدرسون في أمريكا ويضحّون بسنوات من حياتهم فقط ليعودوا إلى بلدهم لقضاء كلّ وقتهم في ترقيع البكارات من أجل الشرف الرجولي».

في نهاية تشرين الأول دعي رزوق لأداء الخدمة العسكرية متوقّعاً أن ينهيها في كانون الثاني ١٩٦١. كان يزمع الزواج من إليزابيث بعد شهر من انتهاء خدمته ثم يسافران إلى إنكلترا. كان من المزمع أن تنهي دراستها في دمشق في ذلك الوقت.

لكنّ الأمور جرت على نحو مختلف تماماً.

١٧٩ - أفلام الأذن

كانت كلير تحبّ الأفلام. وكانت لا تشبع من مشاهدة المزيد منها مهما بلغ عدد الأفلام التي شاهدتها.

قالت: «إن الأفلام سحر خاص قصير العمر. فقد جلس رجل بجانبي في السينما، يبكي وتنهمر من عينيه دموع غزيرة على قصّة الفيلم الحزينة التي كانت تدور عن امرأة منعها والداها من الزواج من الرجل الذي تحبّه. واستمرّ يبكي حتى نهاية الفيلم عندما أصبحت طريحة فراش الموت، وهي

twitter @baghdad_library

توجه كلماتها الأخيرة إلى حبيبها الذي كان بعيداً عنها. أما في البيت فإن هذا الرجل الذي ذرف سيولاً من الدموع في السينما سيمنع ابنته من رؤية حبيبها. بل إنه سيؤكد لها بأنه هو الوحيد الذي يعرف من هو الرجل المناسب لها أكثر مما تعرفه هي. أراهنك على أنه يمكن أن يفعل أي شيء ليجبر ابنته على ذلك لكن فيلما واحدا يحوله لمدة قصيرة إلى طفل حساس».

إذا صدف وحالت الأيام دون ارتياد كلير السينما لفترة من الوقت، كانت تطلب من فريد أن يحكي لها قصص الأفلام التي يشاهدها مع الشبان الآخرين. واخترعت لذاك النوع من الرواية إسم: «أفلام الأذن». فكانت كلير تنصت كطفلة مدهوشة عندما يروي لها فريد قصة أحد الأفلام فيلم وتنصت بشوق ما عدا أفلام الكاوبوي وأفلام الخيال العلمي والأفلام التي تدور أحداثها عن عصور الفروسية.

في إحدى المرات، عرضت دور السينما أفلاماً رائعة على مدى ثلاثة أسابيع متتالية، لكن لم يكن أي فيلم منها مناسباً لكلير، مع أنّ كلير طلبت متلهفة سماع قصة فيلم جديد آخر. عندما استيقظ فريد من قيلولته في عصر يوم شديد الحرارة، رآها جالسة في باحة المنزل بعد أن رشتها بالماء لتبرد وتخفف من شدة الحرارة. إتخذت ركناً في الظلّ حيث جهزت كلير طاولة وكرسيان مريحان من الخيزران. ووضعت على الطاولة طبقاً كبيراً من الفستق الحلبي. عرف فريد الآن لماذا سألته أمّه ثلاث مرات عند الغداء إن كان سيفعل شيئاً او أن لديه موعد في عصر ذلك اليوم. فلم تعد تقوى على الانتظار للاستماع إلى قصّة فيلم.

ونظراً لعدم وجود أفلام مناسبة، فقد حكى لها فريد قصة جريمة قتل مأساوية كان قد سمعها منذ فترة من يوسف. إنها قصّة امرأة - مثل عمّتي يوسف - لم يسمح لها بأن تحبّ لأنها ورثت ثروة وتعيش في كنف أخيها الذي طرد وبكل صفاقة كل رجل تقدم لطلب يد أخته. وعلى الرغم من شعورها بأنها خُدعت صمتت المرأة لفترة طويلة إلى أن أحبّت تاجر توابل

ورجت شقيقها أن يوافق على زواجها منه. كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها، لكن كالعادة وجد شقيقها حوالي ثلاثمائة عيب في هذا الرجل فشتمه وأهانه وطرده. فانتقمت المرأة بأن دسّت السم لشقيقها وأفراد أسرته ثم شنقت نفسها. وقد احتاج قسم الأدلة الجنائية وقتاً طويلاً حتى تمكن من لملمة قطع اللغز والكشف عن القضية.

بعد ساعتين غادر فريد البيت ليزور يوسف ونسي كل القصة المأسوية، لكن كلير راحت تتساءل مَنْ مِنْ صديقاتها يمكن أن ترتكب جريمة قتل ثم تنتحر. سمعت جرس الباب يقرع. كان متّى يقف أمام الباب مع امرأة ابتسمت لكلير.

«هذه... فريدة... خطيبتي»، قال متّى بصوت منخفض، «هل أخي فريد... في البيت؟»

١٨٠- فاطمة ويوسف

أخيراً اصاب سهم كيوبيد قلب يوسف فأرداه عاشقاً. فقد خلبت فاطمة عقله منذ أول لحظة رآها فيها. كان قد رآها في إحدى المظاهرات الكبيرة في تشرين الأول، عندما نزل حوالي نصف مليون شخص إلى الشوارع تأييداً للرئيس سطلان.

مع مرور الوقت، أحبّ يوسف فاطمة كما لم يحبّ أحداً من قبل. فقد وجد أنها تمتلك الصفات التي كان يفتقر إليها: الشجاعة والمرح والعفويّة وكانت تفصح له عن كل ما يجول في خاطرها وبما يجيش في صدرها. كما أن فاطمة قرأت عدداً لا يحصى من الكتب، وكان على يوسف أن يبذل جهداً كبيراً لمجاراتها. ففي رأيه أنه عندما تُغرم النساء بفكرة، فقد يكنّ أشد تعصّباً لها من أيّ رجل.

التقيا زهاء عشر مرات خلال الشهور الستّة التي تلت لقاءهما الأول ذاك في مقهى فيينا، وكانا يحرصان على الجلوس إلى الطاولة نفسها، يتحدثان، يحلمان بأمة عربية واحدة بقيادة سطلان، ويرشفان القهوة ويقبّلان بعضهما.

twitter @baghdad_library

كانت فاطمة تحبّ الأصوات، ولم تكن تهتم بشكل الشخص مادام يمتلك صوتاً جميلاً. وقد أسرّت ليوسف إنها حتى عندما كانت في رحم أمّها كانت ترتب علاقاتها مع الآخرين حسب أصواتهم، ولم تغيّر رأيها حتى الآن. وقالت إنها لا تستطيع أن تقاوم صوت سطلان ولا صوت يوسف أيضاً.

من مسافة بعيدة، كان يوسف يبدو نحيفاً وقبيحاً مثل شبح، لكن عندما كان يتكلّم كان صوته يأسر مستمعيه، وعشقت فاطمة صوته وصارت تشعر بالبهجة والخفة في قلبها عند سماعه ببحته الرجولية ودفء وقعه على القلب. وكان ثمة سبب آخر جعلها تحبّ رفقة يوسف: فهو من الرجال القلائل الذي لم يترك عقله الذكي مجالاً لها لأن تشعر بالضجر. فقد كان إلى جانب معرفته العميقة والدقيقة مسلّياً ومتواضعا لا يعرف التكبر لا بل ينزع للسخرية من نفسه. وقد قالت فاطمة لفريد ذات يوم «إن نار قلبه أذابت كل الشحوم في جسده».

كانت فاطمة من أقوى مؤيدي سطلان. فقد وعد سطلان بنهوض أمة عظيمة تنتقل إلى آفاق جديدة، وكانت تراه قديساً أكثر من كونه سياسياً. ففي كلّ خطاب يلقيه، كانت تشعر انه يتكلّم إليها مباشرة وإلى ملايين النساء الأخريات، يحثّهن على الثورة والقتال، لذلك كانت واحدة من بين أوائل النساء السوريات اللاتي وقفن إلى جانب الرجال، متّحدات في بحر من التعاطف مع سطلان. وفجأة رفع عدد من الرجال في تلك المظاهرة التي جرت في تشرين الأول ١٩٥٩ الفتى النحيف الذي جعلها صوته تشعر بالضعف أمامه، على أكتافهم وحملوه معهم. لقد أحبّته منذ تلك اللحظة.

ذات يوم انتحت بها أمّها جانباً وقالت لها إن شقيقيها عصام وأحمد سمعا بأنها ترافق أحد أولئك المسيحيين الكفار، لكن فاطمة طمأنت أمّها وقالت لها إن ناقلي هذه الأخبار تعميهم الكراهية، لأن الرجل الذي تبادلت معه كلمة أو كلمتين عند موقف الحافلة خارج المدرسة هو شقيق صديقتها رشيدة، وأضافت بازدراء «لكن هذين الأحمقين اللذين لا يعرفان بحق أن

الرسول صلى الله عليه وسلم أوصى بالنظافة فتراهما يخشيان الماء حتى تفوح منهما رائحة الخنازير، ولا يعرفان أيضاً أن رشيدة مسلمة». فربتت أمّها، وهي امرأة لطيفة مؤمنة، على رأسها وقالت لها: «معك حق كم أنبّتهم من أجل رائحتهم. لقد قلت لشقيقيك إن فاطمة فتاة طيبة ومؤمنه حقيقية! أرجو أن تركزي على دراستك فقط لا على الشباب».

كانت فاطمة متأكدة من أن شقيقيها لا يعرفان شيئاً عن يوسف، بل كانا يحقدان على أختهما لأنها تؤيد سطلان، لأنهما كانا ينتميان إلى حزب الإخوان المسلمين الذي يمدّه السعوديون بالمال والسلاح لاستخدامه ضدّ سطلان.

لن يتمكن شقيقاها الملتحيان الغبيان من اكتشاف أمرها، قالت لنفسها وهي في طريقها إلى مقهى فيينا.

كان يوماً مشمساً من أيام آذار لكنه كان يوماً شديد البرودة، وكانت متلهفة لرؤية يوسف. انتقلت من حافلة إلى أخرى ثلاث مرات، وكانت تتطلع حواليها لتتأكد من أن أحداً لا يتبعها. ملأ شعور بأن أحداً لم يكن يراقبها قلبها بالطمأنينة، لكن المظاهر خادعة.

«إنه جنون»، قالت ليوسف لاحقاً في المقهى وهي لا تزال تفكّر بأمّها. «يقبل ويرضى المسلمون والمسيحيون أن يعملوا في التجارة ويحزنوا ويحتفلوا ويعيشوا ويموتوا في الدفاع عن الوطن معاً، لكن لا يسمح لهم بأن يحبوا بعضهم بعضاً. وإذا تجرأ شاب وشابة أن يحبا بعضهما يكون الجواب هو الموت. والعرب يتمسكون بذلك أكثر من تمسكهم بأي مبدأ آخر»، وضغطت على يد يوسف بقوة إلى حد أنها آلمت أصابعه.

«إني أكره فكرة أن أكون السبب في موت أحد لأني أحبّه»، قال يوسف، «إذ يعتريني إحساس بأنني أدعو شخصاً بريئاً لقيادة سيارة مع أنني أعرف أن مكابح السيارة عاطلة. إن مجرد التفكير بذلك يجعلني أفقد عقلي. فالشاب المسيحي يسيء إلى المرأة المسلمة إذا أحبّها. وفي بعض الأحيان، فإني أكره نفسي بسبب ذلك».

twitter @baghdad_library

«وماذا عن حياتك انت؟ من جهة ثانية لستَ أنتَ من يغويني إلى الخطر، بل الحبّ، ولا أريده بأيّ طريقة أخرى. ولا أشعر به إلا نحوك».

«ألستِ خائفة؟» سألها يوسف.

«لا»، قالت فاطمة، وتذكرت عمّتها شريفة التي كانت قد أحبت يهودياً من دمشق وتعيش معه حالياً بسعادة في نيويورك. وفي الحقيقة فهي أسعد من أي امرأة تعرفها فاطمة. وضحكت.

«ما الذي يضحكك؟» سألها يوسف.

«يقال إنّ لعنة أعدائك هي نعمة للحبّ المحرّم»، أجابت فاطمة، «ليس في عائلتي الكبيرة كلها امرأة أسعد من عمتي شريفة».

«هل تظنين حقاً أنّ أمام حبّنا أيّ فرصة للصمود في وجه هذه الحفنة من المتعصّبين؟» سألها يوسف. لم يكن يعرف أن فريد سيسأل رنا السؤال نفسه بعد ساعتين في حديقة الصوفانية.

«طبعاً»، قالت فاطمة، «يجب أن تكون لدينا الرغبة والإرادة الكافية، كما قال سطلان العظيم، فمن دون إرادة قوية فإن الحبّ كالحرية لا يعدو كونه اشتياقاً يعتري الضعفاء».

بدا رد فاطمة ليوسف أشبه بعبارة تتردد في جميع أفلام الحبّ السخيفة التي تشاهدها أمّه أسبوعاً بعد أسبوع في السينما. فقد كانت تحكي له قصة الفيلم دائماً بإثارة. وكقاعدة عامة فإن الرجل هو من كان يقول أشياء كهذه في هذه الأفلام. ابتسم يوسف ابتسامة عريضة لفكرة أنه وجد نفسه في الفيلم الخطأ.

سدّد الحساب وغادر المقهى أولاً. لم تخرج فاطمة إلى الشارع وتستقل الحافلة إلى البيت إلا بعد عشر دقائق.

سار يوسف في الشارع وهو يصفّر لحناً ثم توقف عند موقف الحافلة رقم ٥ المتجهة إلى البيت، ولم يخطر بباله أن هذه هي المرة الأخيرة التي سيرى فيها فاطمة. فقد كانت تتعقبه هيئتان ملتحيتان صامتتان كظلين.

بالقرب من موقف الفردوس، أخذ يوسف يتلهى بقراءة عناوين

الصحف المعروضة في الكشك. فجأة دهمت منخريه رائحة عفن وتفسخ تنبعث من رجل ملتح شق طريقه بينه وبين كشك الصحف. بتقزز، انتحى يوسف جانباً.

بعد سنوات، كان لا يزال يشكر الله على حساسية أنفه المرهفة من الروائح، تلك الحساسية التي أنقذت حياته، لأنه عندما أجفل مبتعداً عن الرائحة الكريهة استدار الرجل الملتحي فجأة وطعنه. انغرزت السكين في كتف يوسف اليمنى بدلاً من قلبه. ركل يوسف مهاجمه بين خصيتيه وصاح، «النجدة، واحد من الإخوان المسلمين يحاول قتلي» فاندفع ثلاثة رجال كانوا واقفين بالقرب من كشك الصحف وهاجموا المعتدي الملتحي، لكن مساعده الذي كان يرصد خفية ما يجري من مكان قريب، لوّح بجنزير وهوى به على ظهرهم فتراجعوا خوفا فتمكن هو والمعتدي الآخر من الهرب. ولم يعرف أحد من هما.

كان جرح يوسف أسوأ مما ظنّ الأطباء في البداية. فمكث في المستشفى عدة أسابيع، ولاح خطر إصابة ذراعه اليمنى بالشلل، لكنّه كان محظوظاً، فالتئم الجرح، مع أن الندبة كانت تؤلمه دائماً في فصل الشتاء البارد.

عندما خرج يوسف من البيت لأول مرة بعد تلك الحادثة دون أن يضع حمالة لذراعه، حاول الاتصال بفاطمة، لكنه لم يعثر لها على أثر، ولا حتى صديقتها الحميمة رشيدة التي كانت تبكي صامتة عندما تصادف يوسف، «لا تجيبني أمها ولا حتى بكلمة»، رددت دوماً كأن الأرض قد انشقت وابتلعتها.

بعد فترة طويلة اكتشف أن شقيقيها حبساها في قبو مظلم في بيت الأسرة لشهور طويلة حتى وافقت على الزواج من أحد أقاربهم الأغنياء في الكويت. فذهبت وعاشت هناك مع زوجات الرجل الثلاث الأخريات ولم تر مدينتها دمشق في حياتها مرة أخرى.

twitter @baghdad_library

كتاب الضحك الثاني

الإيمان قلما يحرّك الجبال،
لكن الاعتقاد بالخرافات يحرّكَ شعوباً بأكملها

*

دمشق، ١٩٥٦-١٩٦٠

١٨١- أعصاب من فولاذ

اتصلت رنا بفريد وقالت له إنها تريد أن تراه، وأن عليه ألاّ يرتبط بشيء يوم الأحد بعد القادم لأن كمال الصابوني سيدعوه إلى حفلة صغيرة. «وقد وعدتني دنيا بأن تفعل كلّ شيء للتأكد من أن شقيقها لن ينساك».

بعد يومين، كما كان متوقعاً، دعاه كمال واتخذت دنيا الترتيبات لكي تتمكن رنا وفريد من الاختلاء معاً خلال الحفلة لمدة ساعة.

كانت رنا مبتهجة للغاية في عصر ذلك اليوم. ضحكت كثيراً على أخيها وعلى أحد الجيران الذي كان يلاحق، كما قالت، جميع النساء المتزوجات في الحيّ، ويتحرش بهن، حتى أمّها. «ثم تبين أنه يغار على زوجته»، وواصلت كلامها، «والويل للرجل الذي يبتسم في وجه زوجته. لكن معظم النساء لم يكنّ يحببن تودده المزعج لهن، بمن فيهن وردة، وهي امرأة ذكية، لها لسان مثل قرن الفليفلة الحارة. في البداية، حاولت أن تصدّه بطريقة مهذبة احتراماً لزوجته المسكينة لكن ذلك زاده حماسة وإلحاحاً. في أحد الأيام، أمسكها من ذراعيها وقال إنه يريد أن ينال منها قضمة ليتمكن من مقارنتها بزوجته ويرى أيهما أطيب مذاقاً. ابتسمت وردة وأفلتت من قبضته

وقالت بأعلى صوتها: «ليست فكرة سيئة، لكنك تستطيع أن تسأل زوجي لأنه ضاجع كلتينا. فتركها ولم يعد يزعجها».

كانت رنا تأسر فريد بالقصص التي تحكيها، كان صوتها ناعماً فيه بحّة، كما لو كانت مصابة بزكام طفيف.

استقرّا باسترخاء على الأريكة في غرفة دنيا. كان فريد مستلقياً فوق رنا، وحاول أن يعضّ شفتها السفلى لكنّها لم تدعه يفعل ذلك. «يجب أن أخبرك عن شيء فعلته في الأسبوعين الماضيين». قبّلته.

«ليس الآن»، قال لها وبادلها قبلات.

«لا، الآن. لا أستطيع أن أحدثك عنه خارج هذه الغرفة أو على الهاتف»، دغدغته رنا كي يتوقّف.

بتردّد تركها. ظلت مستلقية. نهض وجلس على حافة الأريكة ورتب لها ثوبها حتى غطى ركبتيها متصنعا الحفاظ على حشمتها. ابتسمت رنا وعقدت يديها وراء رأسها. تمطّت بتلذذ وظلت مستلقية هناك باسترخاء تام.

«أصبحت أمّي كثيرة الأرق في الشهور القليلة الماضية»، قالت.

«إن قلبي ينزف دماً من أجلها»، ردّ فريد ساخراً.

«اسكت! فعقلها مشغول تماماً بتزويجي، لقد أقنعت أبي أيضاً كما كنث أخشى. لكن من تظنُّ العريس الذي اختاره لي؟ حتى في أسوأ كوابيسي لا يمكنني أن أتوقّعه. إنه كافي ابن خالي سامي. هل تذكر سامي قدسي التاجر المعروف بأنه يعقد صفقات تجارية مشبوهة؟ أفلس منذ دهر ولكنه لا يزال يتاجر، إنه والده. هل تعرفه؟».

هزّ فريد رأسه نافياً.

«عنده خمسة أبناء وجميعهم في الجيش، أصغرهم كافي، وهو في عمري. إنه متعصّب دينياً، بغيض. يخيّل إليّ دائماً أنه لا بد سيؤسس طائفة دينية خاصة به ذات يوم. وفي رأيه أن الكنيسة الكاثوليكية معقل للملحدين وأن الكاثوليك في طريقهم إلى الخطيئة المميتة. وقد قال ذات مرة، وهذا ما أسعد أمّي، أن طائفة الروم الأرثوذكس هي الوحيدة المؤمنة وأن الكاثوليك

twitter @baghdad_library

والبروتستانت يعبدون الشيطان. إنه يحاول دائماً هداية الناس. إنه أمر محرج جداً - لمجرد التفكير بأنه ابن خالي.

لذلك فإن أمّي لا تريد أن تتخلّص مني فقط، بل تريد أن تعاقبني كذلك بأن تفرض عليّ هذا المتعصّب. أعرف أن إثارة المشاكل لن ينفع، لذلك يجب أن أكون هادئة فالندب لا ينفع.

في أول زيارة له تجمّلتُ وتزينت وبدوتُ مثل مومس. أما هو، فقد جاء مرتدياً بدلة رسمية، وبدا عجوزاً ومتشنّجاً كأنه بلع عمود كهرباء. بالطبع لاحظت أمّي خدعتي، وشكرت الله بأن كافي سيعالجني من كلّ تلك البهرجة العقيمة. ابتسم. كان شديد الثقة بنفسه، وانطلق مباشرة في إلقاء موعظة عن انحطاط الأخلاق.

فجأة خرجت أمّي من الغرفة واختفى جاك أيضاً الذي لم يرفع عينيه عني في أي لقاء مع رجل آخر أبداً. بقيت وحدي في غرفة الجلوس مع هذا الشخص الممل. كانت لديّ خطط كثيرة حتى أجعله يبغضني، فقلت له إنني لا أؤمن بأي شيء، وإني أفكّر باعتناق الإسلام، لأني أظن أن المسيحية تعظ كثيراً عن المعاناة والعفة في هذه الحياة القصيرة بينما ينعم المسلمون بحياتهم على الأرض وان التوضؤ فكرة عملية تمجد الجسد بينما عذاب الضمير بالخطيئة ينكد عيش المسيحيين.

لكن بدلاً من أن يُصدم، ازدادت حماسة ابن خالي كافي الذي يمكنه بغباء كلماته أن ينوّم أي شخص، لا تنويماً مغنطيسياً بل من الملل. كان عازماً على إبعادي عن ارتكاب هذه المعصية. فلم يعد يكتفي بالحضور مرة واحدة في الأسبوع، وإنما أصبح يأتي كلّ يوم، محمّلاً بمجموعات من الكتيبات الدينية لإقناعي بأن المسيحية الأرثوذكسية هي الطريق القويم. ابتسمت أمّي لي لأنّ ابن أخيها أثنى على صراحتي وعقلي الذكي.

عندما انفردت بكافي مرة ثانية، قلت له ببرود إنني لا أستطيع أن أتحمّله وأن زواجنا لن يجلب لنا إلا الحزن والأسى. لكن ذلك زاده حماسة وقال إن

هذا لا شيء بالمقارنة بما عاناه السيد المسيح على الصليب، وفي سبيل حبّ يسوع فإنه سيحمل على ظهره صليب كراهيتي.

بدأ الذعر والاضطراب ينتابني الآن. لأيام عديدة لم أكن أفكّر بأيّ شيء سوى بالطريقة التي تمكنني من الخلاص من هذه الورطة. وصار كافي يجلب لي أعداداً كثيرة من النسخة العربية من مجلة «المختار» التي تتحدث جميعها عن معجزة الحبّ والزواج حسب العقلية الأمريكية. إن مجلة «المختار» كانت كلّ ما يعرفه. شعرت أني وقعتُ في الفخّ. أحاط بي الظلام من كل جانب.

ثمّ وجدتُ بصيصاً في نفقه المظلم. فلم يكن شيء يخشاه أكثر من النساء ذوات الإرادة القوية. أما النساء اللاتي يحبّهن فهن ذوات الأرواح الضعيفة المسكينة واللاتي يحتجن إليه لإنقاذهن، وفي مخيلته المريضة فإن المرأة القوية، أو التي تريد أن تكون قوية، كارثة كبيرة. لقد استمعت إليه طويلاً حتى اكتشفت نقطة الضعف هذه.

في زيارته الثالثة أو الرابعة، قلت له إني أصبحت أثق به كثيراً وأنني أريد أن أفضي إليه بسرّ. شنّف أذنيه، فقلت له إنني انضممت منذ سنة إلى جماعة دينية سرية تؤمن إيماناً راسخاً بأن المسيح امرأة تنكّرت في هيئة رجل، وأن الأناجيل قد حُرِّفت لاحقاً على يد رجال، وإننا نسعى ونطالب بأن تكون هناك كاهنات في الكنيسة الأرثوذوكسية، بل إننا لا نكافح ليصبح لدينا أساقفة ومطارنة من النساء فحسب، إنما نسعى جاهدين لأن يصبح البابا امرأة، ندعوها الماما الكبيرة، على رأس الكنيسة ذات يوم، لترهب البابا الكاثوليكي، وسألته عمّا إذا كان يريد الانضمام إلى مجموعتنا، لأننا قبلنا عدداً ضئيلاً من الرجال المختارين بدقة في المجموعة.

خرج كافي من غرفة الجلوس راكضاً كمن لدغته أفعى،حتى من دون أن يودعني أو يودع أمي وجاك ولم يعد يأتي لزيارتنا. ولم يتكلم مع أمّي منذ ذلك اليوم أيضاً». أنهت رنا قصّتها، نهضت وعانقت فريد، وضحكت بصوت مجلجل.

twitter @baghdad_library

١٨٢- ماكينات عازر

كيف أتى عازر بكلّ هذه الأفكار كان لغزاً. فلم يكن في بيته كتاب واحد عن التكنولوجيا. فعندما كان فريد في الدير، صنع هذا الفتى ساعة مائية تضبط الوقت بدقة شديدة، كما اكتشف طريقة تمكّن أفراد العصابة من معرفة الوقت أثناء لقاءاتهم الليلية في الغرفة العلوية حتى من دون وجود ساعة. فقد كان يجلب شمعة غرز فيها دبابيس صغيرة من الأسفل إلى الأعلى يبعد كل دبوس عن الآخر حوالي سنتيمترين اثنين.

«وعندما يسقط دبّوس تكون قد مرت ساعة»، قال موضحاً. بالفعل نجح في تحقيق ذلك. كان المبدأ بسيطاً، لكن روعة اختراعات عازر تكمن في بساطتها الشديدة.

كانت الساعة المائية الكبيرة تنتصب في باحة قصر المطران الكاثوليكي إلى أن سرقت في عام ١٩٦٥. وكان بإمكان المرء معرفة الوقت بواسطتها بدقة متناهية. إذ إن صماماً وطوافة تجعلان ضغط الماء في الجزء العلوي متواصلاً.

«وماذا أعطاه البطريرك لقاء صنعها؟» سأل فريد.

«منحه بركاته»، أجاب يوسف بابتسامة ساخرة.

ثم صنع عازر أجهزة طاقة شمسية من براميل قديمة طليت بالأسود، ثبّتها على السطح وهي تزود أسرته بالماء الساخن إلى المطبخ والحمّام. وعندما كان في السابعة عشرة من عمره، اخترع مضخة شفط صغيرة في حصة الفيزياء تفرغ الأوعية من الهواء فأدهش معلّمه.

في الوقت نفسه، استنبط فكرة رائعة أخرى حتى تستخدمها أسرته التي تقيم في بناية فيها عشرة مستأجرين آخرين. كان بيتهم المؤلف من غرفتين يقع في الطابق الأول. وكلما كان أحد يقرع باب البناية الأمامي، حتى ولو كان شحاذاً، كان أغلب سكان البناية يخرجون لرؤية من القادم ظانين أنه يقصدهم.

لكن أسرة عازر لم تعد تفعل ذلك. ولم يعد أحد منهم يهبط إلى

الطابق الأرضي لفتح الباب إلا إذا كان الزائر يقصدهم شخصياً. كيف كانوا يعرفون من هو القادم ظل لغزاً حيّر العائلات الأخرى في البناية لمدة. فقد فعل عازر ذلك بواسطة أنبوب طويل ومرآتين وصلهما ببعضهما حتى أصبح بإمكانك وأنت في المطبخ أن ترى الشخص الواقف عند الباب في الطابق الأرضي، دون ان يراك الطارق.

«إن هذا يحميك من الغرباء المزعجين»، قال عازر.

«ومن الأقارب المزعجين أيضاً»، هللت أمّه ضاحكة وموافقة.

ثم صنع مكبساً آلياً من أسطوانة غسّالة قديمة وأضاف إليها محرّكاً صغيراً جداً الأمر الذي وفّر على أمّه الكثير من العمل الشاق في رق العجين.

رأى أحد الجيران هذه الآلة فاشتراها منه بمبلغ مائة ليرة، وهو مبلغ كبير لأن والد عازر كان لا يكسب مثل هذا المبلغ في شهر كامل، وتمكن عازر بسهولة من صنع آلة أخرى كلفته عشر ليرات فقط.

لكنّه لم يحسب حساب شيء واحد: فبعد أن اشتراها الجار بفترة وجيزة، عرض رقاقة العجين كآلة من اختراعه تنتج كميات كبيرة وباعها بثمن مرتفع واشترت أغلب المخابز هذه الآلة البسيطة التي تسهل صناعة الخبز المرقوق. جمع الرجل ثروة طائلة وانتقل إلى فيلا في الحي الجديد شمال المدينة القديمة. ولم يقبل رجاء عازر بإعطائه جزءاً من الأرباح. لم يستطع عازر أن يفعل شيئاً حيال ذلك، وانتهى به الحال إلى بائع خضراوات فقير.

١٨٣- لقاء نسائي

«كنت أحتسي قهوتي هذا الصباح عندما رأيت نساء الحيّ يتدفقن إلى فناء بيت سميرة لزيارتها» قال جبران وهو يرشف شايه، وأضاف «إنكم تعرفون من هي سميرة، زوجة شرطي المرور معروف. في البداية خشيت أن يكون معروف قد مات. أظن أنّكم سمعتم أنه لا يزال في المستشفى منذ أسبوع بعد أن أوقف سائقاً صعد بسيارته إلى الرصيف وحطم مساكب

twitter @baghdad_library

الأزهار وجزيرة المرور في الشارع. فطلب معروف من السائق إبراز أوراقه، لكن الرجل كان ثملاً ولم يكن يحمل كذلك رخصة سواقة أو وثيقة تسجيل السيارة، وراح يكيل الشتائم لمعروف وطلب منه أن يتركه وشأنه. رمق معروف هذا الشابّ الذي يرتدي بدلة أنيقة، وقال لنفسه إنه لا بد أن فيها نقوداً كثيرة - حسناً إنكم تعرفون معروف جيداً، فهو مستعد لأن يغض الطرف إذا كان لون النقود التي تحملها ملائماً، وأن لون ورقة المائة ليرة الأزرق هو لونه المفضّل». ابتسم جبران ابتسامة عريضة وأضاف، «لكن الرجل صاح به بأنه لن يدفع له قرشاً واحداً ونعت معروف بأنه ابن زانية وأنه يستطيع إعطائه المخالفة التي يريد فسيمسح بها مؤخرته. كان على معروف أن يستفيق أخيراً، أعني من يستطيع أن يدعو شرطياً ابن زانية؟ لكن معروف لم يفهم الأمر بسرعة في ذلك الصباح. قالت سميرة بعد ذلك إنه كان شارد الذهن منذ أيام وظنت أنّه على علاقة مع امرأة أخرى.

سواء أفعل ذلك أم لم يفعل، فقد تفحص معروف مقدمة السيارة فلم يجد لوحة أو نمرة عليها وتفحص السيارة من الخلف فلم يجد أيضاً أي نمرة. كان عليه أن يفهم عند ذاك. حسناً، فمن يستطيع أن يصعد فوق الرصيف وجزيرة المرور بسيارة لا تحمل لوحة؟ حتى الحمار كان سيدرك أن هذا السائق خطير، لكن لا، فقد كان معروف معمي البصيرة جشعاً ومصمماً على الحصول على ورقة المائة ليرة الزرقاء. حسناً، قال لنفسه إذا ظل هذا السائق على عناده فإنه سيتعرف على معروف جيداً. سكران يقود سيارة، بدون رخصة قيادة، وبدون أوراق سيارة، وبدون نمرة ويهين ابن دولة! «هذا سيزيد عليك المبلغ أيها الفتى»، قال له وهو ينحني على الرجل القابع وراء المقود. كان سيجرّه خارج السيارة ويأخذه إلى أقرب مخفر للشرطة، لكن السائق لكمه بقوة على وجهه. ثم راح يركله كالمجنون. ومن كان هذا السكير؟ العقيد عدنان، أحد أسوأ ضباط المخابرات.

زرتُ معروف قبل ثلاثة أيام. إنه يتماثل للشفاء ببطء ويشعر بالامتنان لأنه لم يُطرد من سلك الشرطة.

حسناً، كما قلت، ظننت أنه مات لكني كنت مخطئاً. فقد أرادت زوجته سميرة أن تحتفل مع صديقاتها، فتناولن التبولة واحتسين العرق وغنّين ورقصن ولعبن ألعاباً مثل الفتيات الصغيرات. لم يلاحظن وجودي أبداً رغم جلوسي على الشرفة المطلة على باحة الدار، فلعلي كنت لابساً طاقية الإخفاء أو مصنوعاً من أثير.

وأخيراً بدأت سميرة تغني. غنّت تلك الأغنية التي تردد سؤالاً واحداً مرات ومرات، فتجيبها النساء الأخريات ردوداً ذكية مضحكة. إني متأكد من أنكم تعرفون تلك الأغنية. كان صوت سميرة رائعاً وراحت تغنّي الأسئلة.

«أوه، من هو هذا الشاب الحلو؟» فردت عليها النساء «الحبيب الذي يأتي كلّ ليلة».

«أوه، من هو هذا الشاب الحلو؟ فضحكت النساء وأجبن، «إنه زوجك العجوز المتهالك، للأسف».

واستمرت الأغنية على هذا المنوال فترة من الزمن. وعندما كرّرت السؤال عن الرجل الوسيم للمرة العاشرة أو ربما المرة العشرين - كيف لي أن أعرف؟ - وصل في تلك اللحظة ساعي البريد إلى باحة الدار. تعرفون هذا الرجل المتغطرس كالطاووس، والذي يعرف في مغازلة النساء أكثر مما يعرف في توزيع البريد. سمع السؤال وظنّ على الفور أنهنّ يقصدنه هو. «محمد علي يا مدام، في خدمتكن!» أجاب ورفع حاجبيه وخفضهما كم يفعل الممثلون.

«إذاً هيا لنقم بالواجب الذي يستحقه يا بنات! هيا اضرطن على ذقن هذا الرجل المحترم!» غنّت مضيفتهن بنفس الصوت البهيج.

فنهضت النساء اللاتي كنّ يجلسن باسترخاء، وأدرن ظهورهن نحو ساعي البريد، وضرطن بدرجات وأصوات مختلفة، لكنهن فعلن ذلك كجوقة واحدة كأن ضراطهن آلة موسيقية يتحكمن بها كما يردن.

مشدوهاً حتى الموت، أطلق ساعي البريد ساقيه للريح، وراحت

twitter @baghdad_library

الرسائل تتطاير حوله من حقيبته. ضحكتُ كثيراً حتى أنني دلقت القهوة على بنطالي».

١٨٤- دودة صغيرة

«كان عمّي سلام في العشرين من عمره عندما قرّر أن يتزوج، لكنّه لم يكن يثق بالنساء»، بدأ كمال الصابوني سرد قصّته، وهو يرشف الشاي من كأسه الصغيرة. فقد دعا فريد عدداً من أصدقائه القدامى في المدرسة في ذلك اليوم، كنوع من الدعاية للنادي. لكن كل محاولاته باءت بالفشل لأن الشباب لم يرغبوا إلا في التحدث عن الجنس.

«كان عمّي محافظاً للغاية»، تابع كمال، «وكان يعتقد أن خروج امرأة إلى الشارع دون أن ترتدي سبعة أحجبة هو خطيئة. ولما كان ثرياً، فقد كانت فتيات كثيرات يحلمن بالزواج منه، لكن ذلك لم يُسْعِده بل زاده شكاً وريبة. في النهاية، طلب من أمّه أن تبحث له عن فتاة مناسبة ليتزوجها، وقال إنه يريد أن يجلس وحده مع الفتاة لمدة خمس دقائق لمحادثتها، ثم يقرّر إن كانت تناسبه أم لا.

«بعد فترة وجدت له أمّه فتاة جميلة، عذراء، ابنة معلّم مدرسة. قال والداها إن هذا الشرط غريب، لكن بما أن الرجل مناسب وابن عائلة محافظة فقد وافقا على طلبه.

«عندما جلس عمّي مع المرأة المحجّبة، فتح فتحة بنطاله وأخرج قضيبه وسألها ما هذا؟ فارتاعت الشابّة، لكنّها استجمعت شجاعتها وقالت وقد جفّ ريقها، «إنه قضيب».

«انتهى الأمر»، قال وأعاد قضيبه إلى داخل بنطاله وخرج.

«إنها ليست الزوجة المناسبة لي»، قال لأمّه، «فقد كانت مع رجال من قبل».

أكدت الفتاة التي كانت حقاً عذراء، لوالديها بأنها لم ترفع حجابها

لحظة واحدة، لكنها لم تجرؤ على أن تخبرهما شيئاً سوى أن الرجل طرح عليها أسئلة، وأكدت لهما أنه لم يلمسها.

«اختارت المرشحة الثانية كلمة مرادفة أخرى للقضيب وهي الكلمة التي نستخدمها كثيراً في دمشق، وقالت حمامة.

«انتهى الأمر»، قال عمّي، ورفض ثلاث عشرة امرأة أخرى أجبن جميعهن بإحدى المرادفات السبعة والثلاثين المشهورة لكلمة قضيب.

ثمّ جاءت الفتاة الخامسة عشرة وسألها عمّي «ما هذا؟»

«دودة صغيرة، دودة صغيرة! أوه، ما أجملها!" قالت بسعادة. فسُرَّ عمّي لسذاجتها وتزوّجها. في ليلة الزفاف، فوجئ بالإثارة التي أبدتها في لعبة الحبّ، لكنه قال لنفسه لا بد أنها تتمتع بموهبة طبيعية في ذلك.

«عندما توقّف أخيراً ليستريح، أخذ تفاحة من زبدية الفاكهة وقدمها لعروسه. شعر بأنه مثل آدم وهو يعطي حواءه فاكهة المعرفة.

«عزيزتي، يجب أن أنوّرك. فلم تعودي فتاة بعد الآن بل أصبحت امرأة بالغة. وهذا»، قال عمّي بلطف، وقد بدا مثل معلّم طيب القلب مشيراً إلى عضوه المسترخي، «ليس دودة صغيرة، بل قضيب».

فقهقهت عروسه حتى كادت تختنق من التفاحة التي تقضمها، وقالت «أتدعو هذا قضيباً؟ أوه يا عزيزي، يبدو أنك عديم الخبرة! مقارنة بالأشياء الكبيرة الضخمة التي عرفتها فإن شيئك ليس إلا دودة صغيرة».

١٨٥- ساعات مجنونة

كان عليه أن يتّصل برنا في الساعة الرابعة عندما تكون وحدها. كانت فكرة الاتصال بها في البيت فكرة غريبة. فقد كان يراها أمامه وهي تتكلّم على الهاتف، تلقي بشعرها الطويل المسدل على كتفيها، تتفحص أطرافه إن كانت متشققة.

انتظر بنفاد صبر، ثم اتصل بها في الرابعة إلا خمس دقائق. غيّرت رنا

twitter @baghdad_library

صوتها وقالت: «ألو، هذه وداد قدسي تتكلّم، زوجة الدكتور باصيل شاهين. من يكلمني؟»

حاول فريد ألاّ يبتسم وقال: «جورج مشتاق شخصياً الذي انتقم لشرفه الضائع. أتتزوجينني يا مدام؟»

«نعم، طبعاً، في الحال، يا مسيو. احزم منامتك وسنلتقي عند موقف سيارات الأجرة. لنذهب إلى فينيسيا أو إلى هونولولو هذه المرة»، قالت رنا بسعادة. دغدغت ضحكتها أذنه، ثم أضافت «لقد ذهب أبي وأمي لحضور حفل زفاف، وأخي جاك غير موجود. أظن أنه لن تتاح لنا فرصة ثانية كهذه قريباً. هل ستأتي لرؤيتي؟»

«في الحال»، أجاب.

«إن الأجواء رومانسية للغاية في القبو حيث يخزّن فيه أبي زيت الزيتون والنبيذ الأحمر وهناك لا يستطيع أحد أن يفاجئنا. وإذا حصل طارئ، فإن للقبو منفذاً خاصاً يفضي إلى خارج البيت، لكني لا أظن أنهم سيعودون قبل منتصف الليل».

وضع فريد سماعة الهاتف وهرع إلى موقف الحافلة. كان قلبه يخفق بشدة عندما دلف إلى البيت. أغلقت رنا الباب وراءه وطوقته بذراعيها. «لم تكن تتوقّع فرصة كهذه، أليس كذلك؟ هيا اعترف»، قالت وراحت تقبّله على شفتيه وهكذا خنقت جوابه.

هبطا الدرج. لم يكن القبو قبواً عادياً لأن البيت كان مشيداً فوق منحدر، حيث كان بابٌ يفضي مباشرة إلى الحديقة، وكان شارع يمرُّ وراء الحديقة. كانت رنا قد وضعت جميع الاحتمالات، فلم تقفل الباب.

«ألا يدخل أبوك من الحديقة؟» سألها فريد.

«لا، فهو يركن سيارته أمام البيت. وفي جميع الأحوال، فإن الدخول من المدخل الخلفي يحطّ من قدر الدكتور شاهين».

كان في القبو ورشة ومخزن للنبيذ ومخزن آخر لزيت الزيتون والمواد الأخرى وغرفتا ضيوف وحمّام كبير وغرفة مكتب والد رنا.

كانت غرفة المكتب أفضل غرفة. فيها أريكة كبيرة تمتد على طول أحد الجدران ومنضدة صغيرة تنتصب أمامها. غطت جدرانَ الغرفة رفوفُ كتب مصنوعة من خشب الجوز، وقد علقت على الجدار وراء المنضدة صورة كبيرة للوحة للرسام ميرو، وتدلّت من السقف مروحة تصدر همهمة.

«هل هذه اللوحة أصلية؟» سأل فريد، مشيراً إلى صورة الرسّام الإسباني الزرقاء.

«آه لا، إنها مزيفة مثل جميع الأشياء الأخرى في هذا البيت»، قالت رنا ووضعت يدها بسرعة على فمها كما لو أن هذه الملاحظة قد انسلّت من فمها بالخطأ، لكنها كانت تضحك من خلال أصابعها الرهيفة. كان فريد يحبّ صوت ضحكتها الذي يذكّره بالأجراس البعيدة. مدّ ذراعيه نحوها.

اقترحت رنا أن يفتحا زجاجة من أفضل أنواع النبيذ الأحمر اللبناني. أخذا يتحدثان عن الحياة التي سيعيشانها معاً ذات يوم في المستقبل وهما يحتسيان النبيذ. واصلت رنا ضحكاتها الرائقة المتقطعة، وصار فريد يسمع الآن في نبرات ضحكتها المتكرّرة، زقزقة عصافير مبتهجة. شعر بمتعة كبيرة في سماعها. لكن بعد ساعة تقريباً، لاحظ أنها قد سكرت. بعد قليل لم تكد تستطيع أن تقول شيئاً، وغدت ضحكتها طويلة كأنها نحيب. وبعد كأس نبيذ آخر غطّت في النوم وهي تبتسم بمنتهى السعادة. لقد أطار الرعب الكحول من عروق فريد. كانت رنا مستلقية على الأريكة مثل جثّة هامدة. عندما لمسها، أطلقت صوت صفير مثل بطّة من المطاط.

ما الذي يمكنه فعله؟ كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء. حاول إجلاسها لكنّها كانت تسقط. وأخيراً، انحنى وحملها على ظهره. لم يكن وزنها مشكلة لكن الكحول صعد ثانية إلى رأسه فجأة فأخذ يترنح. غبشت عيناه ولم يعد يرى الدرج بوضوح. لكن على الرغم من ذلك تمكّن من الصعود إلى الطابق الأرضي ومن ثم إلى الطابق الأول. عندما وصل إلى غرفتها وضعها على السرير برفق.

twitter @baghdad_library

بدأ يضحك وسقط على ركبتيه بجانب السرير. كان الجزء الأعلى من جسده فوق بطن رنا.

بعد قليل تناهى إليه صوت أيقظه من النعاس الذي تملكه. خيّل إليه أنه سمع صوت أحد يغلق باب البيت. لوهلة فكّر بالاختباء في الخزانة لكنه سرعان ما أدرك أن أحداً لم يأت. ربما كان صوت الريح الذي أغلق باب القبو. نزع ثياب رنا وأدخلها بعناء في ثوب نومها ثم وضعها على سريرها مرة أخرى وقبّل جبينها. تأوهت في أحلامها.

القنينة، تذكر فجأة، فجرى إلى القبو. أخذ قنينة النبيذ وتطلع في أرجاء الغرفة للتأكد من عدم وجود أيّ آثار أخرى، وأطفأ جميع الأضواء وغادر البيت.

سار مطرق الرأس حتى بلغ الشارع الفرعي التالي. توقّف أخيراً وتخلّص من القنينة تحت أغصان شجيرة كثيفة وتوجّه إلى موقف الحافلة. في طريق عودته تخيّل التعابير التي سترتسم على وجه أمّ رنا لو أنها دخلت البيت وهو يصعد الدرج من القبو حاملاً ابنتها على ظهره. لم يتمالك نفسه من الضحك فنهضت امرأتان كانتا تجلسان أمامه وانتقلتا إلى مقعد آخر.

«عنده لوثة، إذا سألتيني»، قالت إحداهما.

١٨٦- القَسَم

كانوا جالسين في شقة في إحدى ضواحي المدينة. من الجوّ الخانق ومنافض السجائر الطافحة، كان واضحاً أن الغرفة لا بد أن تكون غرفة شاب أعزب. وكان هذا أول اجتماع يحضره فريد كرفيق كامل العضوية في الحزب الشيوعي.

أطلق الرفيق الذي يقود الخلية الحزبية التي تضم أربعة أعضاء، على نفسه اسم سعيد. كان يبدو أنه يعمل في أحد المصارف. بالإضافة إليه، لم يكن سوى فريد يتبوأ منصباً هاماً في منظمة الشبيبة، أما الآخرون فكانوا أعضاء عاديين. فقد ترك الرفيق كامل، وهو كردي، الدراسة، حيث يعمل

حالياً بائع زيت زيتون، وكانت تفوح منه رائحة زنخة قليلاً. أما الرفيق الشيعي صمد، فكان حليق الذقن على الدوام، وكان يعمل مصفّف شعر للسيدات. كان صوته مشوباً بنبرة أنثوية بالطريقة التي يتكلّم فيها. وكان الرفيق إدوارد، وهو آشوري من منطقة نهر الفرات، مدرّس رياضيات، دائم الارتياب، يشكّ في كلّ شيء، خاصة في نفسه.

«يسعدني أن أفتتح أول اجتماع لخلية حزبنا. وفي ما بينكم، فإنكم تمثّلون الصورة الحية لبلادنا»، قال الرفيق سعيد مبتهجاً، متجاهلاً الحقيقة بأنّ أغلبية سكان البلد هم من السنّة العرب، ولم يكن أحدٌ هنا يمثّلهم على الإطلاق، ثم تابع قائلاً: «قبل أن نبدأ اجتماعنا سنقُسم على أن نكون موالين للحزب وأن يموت أحدنا في سبيل الآخر وأن نعيش من أجل الطبقة العاملة. إننا نزدري أي شخص يخوننا. إن كلمتكم تكفي لهذا القسم الآن. عندما كنت لا أزال شاباً، كان أعضاء الإخوان المسلمين يضعون أيديهم على القرآن وعلى مسدّس. أما نحن الشيوعيين فكان لدينا المطرقة والمنجل الموضوعان بجانب كتاب رأس المال لماركس وصورة لينين. لكن تلك الأيام قد ولّت. فلم تكن لدينا سيارات ولا هواتف، لكننا كنّا أذكياء وكان لدينا أعصاب من فولاذ. ولا أزال أتذكّر تلك المداهمة على شقّتي. لا أقصد التفاخر بذلك لكنّي كنت معروفاً بأعصابي القوية وببديهتي الحاضرة. فعندما داهمت الشرطة بيتي، وجدوا صوراً كبيرة لماركس ولينين وستالين وسألني أحد رجال الشرطة الثلاثة من هؤلاء، فقلت له بنبرة ودّية «الرجل ذو اللحية هو القديس أنطونيوس، والرجل الأصلع بجانبه هو الحواري بطرس أما الرجل ذو الشارب الكبير فهو الحواري بولس. فهزّ الشرطي رأسه وقال لزملائه إنني لا يمكن أن أكون شيوعياً. وقال حقاً إن المسيحيين يصلّون لصور قديسيهم. لكن الزمن يغيّر كلّ شيء، حتى نحن يغيّرنا. لذلك فإني أتقبل كلمتكم وحدها. من يتطوّع للبدء أولاً؟» سأل.

بالطبع لم يرغب أحد في أن يكون البادئ. أخذ أربعتهم يتطلعون حولهم وكأنهم يفتشون على باب يهربون عبره.

twitter @baghdad_library

«يجب أن يتحلى أصغرنا سناً بالشجاعة لأن يكون هو الأول»، قال كامل.

«لا»، أجاب فريد، «أدعوكم لأن تكونوا الأول بدافع الاحترام لعمركم».

«أوه، حسناً، حسناً، أنا سأبدأ»، قال إدوارد، «أقسم بلينين وبعيني بأنني سأكون صادقاً ومخلصاً للشيوعية على الدوام حتى لو عرضت للتعذيب فلن أخون حزبي».

«أقسم بـ. . .»، قال صمد بعده، بصوته الناعم، «أقسم بـ. . .» كرّر، غير متأكّد تماماً بمن أو بماذا سيقسم، «أقسم بحبّي للحزب بأنني لن أخون رفاقي، الذكور منهم والإناث»، كان الحلّ الذي توصل إليه أخيراً.

كان صمد الوحيد الذي ذكر الرفاق الإناث على الإطلاق. رأى فريد، من ابتسامة سعيد الطفيفة، بأنّ هذه الملاحظة لم تفلت من الثعلب الحزبي القديم.

«وأقسم بأمّي وبعيني بأنني لن أخون الحزب أو أشي برفيق»، قال فريد بسرعة وشعر بالارتياح.

«أقسم بشعبي»، قال الكردي، وكان سيواصل قسمه، لكن الرفيق سعيد، زعيم الخلية، رفع يده وقال: «انتظر لحظة، ماذا تقصد بشعبك؟ هل ستدّعي أنّ جميع القوادين الأكراد والاحتكاريين والقوميين هم قديسون؟»

«أوه، بحق السماء! أقسم بمحبة الرفيق خالد مليس! سكرتيرنا العام، الكردي مثلي بأنني سأظل أؤمن بالحزب في حياتي وموتي»، اختتم كامل كلامه بزهو.

١٨٧- عن القطط والنساء الذكيّات

كان زكريا، جار عازر، يعمل طاهياً في محطة ضخّ نفط في الصحراء ترسل النفط من العراق عبر خط أنابيب إلى البحر الأبيض المتوسط. ولم

تكن زوجته بهية التي كانت تبقى في البيت في باب توما تعاني من غياب زوجها أكثر مما تعاني من شحه وبخله. فقد كان يتقاضى راتباً جيداً، لكنه لم يكن يعطيها ولا يعطي أطفالها شيئاً منه. وكان أربعتهم شاحبي الوجوه ويعانون من نقص التغذية ويرتدون ثياباً رثة كالمتسولين.

أقسمت بهية لجيرانها بأنه إذا مات زوجها فإنها ستقيم حفلة كبيرة، ولكي تجعله يتقلّب في قبره غيظاً فإنها ستغني بصوت عال بأن رغبته الصريحة هي أن تنفق مالاً كثيراً على ضيوفها. ضحكت الجارات معها، بدافع الشفقة أكثر من أي شيء آخر.

عندما كان زكريا يأتي إلى البيت لمدة يومين كلّ شهر، كان يصرّ على تناول السمك لعدم توفره في محطة الضخّ التي يعمل فيها. أصبح ذلك أشبه بطقس. فبعد أن يقطع الرحلة الطويلة عبر الصحراء، كانت الحافلة تصل إلى باب توما في تمام التاسعة صباحاً. لم يكن المكان الذي تتوقف فيه الحافلة يبعد عن كشك بائع السمك أكثر من عشرة أمتار. وقبل أن يتوجّه إلى البيت كان يذهب ويشتري كيلو من أرخص أنواع السمك، ويدفع مقدماً ثمن كيلو آخر لكي يحفظه له بائع السمك في ثلاجته حتى صباح اليوم التالي.

في البيت، كان زكريا يتناول السمك في هذين النهارين وحده على الشرفة، وعندما يشبع كان يسمح لزوجته وأطفاله بكشط وتنظيف ما تبقّى من اللحم على حسك السمك.

كان أولاده يكرهون هذا الرجل الضخم القبيح ذا الوجه المليء بالندوب والأنف الضخم الذي كان يأتي إليهم مرة كلّ شهر، ويزعج الجميع ويعكّر مزاجهم طوال يومين. في تمام الساعة الثانية عشرة في هذين اليومين، كان يجلس على مقعده، يبدو مكوراً كالبرميل ويلتهم السمك كله ثم يتلمظ.

في أحد الأيام، عندما عاد والدهم إلى البيت، انطلق الإخوة الثلاثة، سامي وهاني وكامل، مع أطفال آخرين في شارعهم، وراحوا يبحثون في الحيّ كلّه عن قطط وأمسكوا بأكثر من عشرين قطة. عندما جلس زكريا أخيراً في الشرفة ينتظر وصول سمكاته، تسلل الأولاد بالقرب من درجات الشرفة

twitter @baghdad_library

ومعهم القطط التي شمّت رائحة عشاء السمك اللذيذ فاهتاجت، لكن الأطفال عملوا على تهدئتها.

ثمّ جاءت بهية تحمل طبق السمك الكبير الذي ينبعث منه البخار والرائحة الزكية، وما كاد زكريا يضع أول لقمة في فمه حتى انطلقت عشرين قطّة جائعة على حين غرة. كان يجلس مولياً ظهره للدرج، ولوهلة لم يعرف مصدر كلّ هذا المواء. عندما استدار، تسمّر في مكانه وفمه المليء بالسمك فاغر. رمقت القطط لحم السمك الأبيض المتدلّي من فم هذا المخلوق الضخم وراحت تموء بقلوبها الجائعة.

اتسعت عينا زكريا من شدة الغضب، وأطلق صيحة عالية إلى حد جعل الجيران في البنايات الثلاث البعيدة يتوقفون عما كانوا يعملونه مذعورين. ولم تكن القطط المسكينة قد سمعت أيضاً مثل هذا الهدير فتجمّدت في مكانها و وكأنها تماثيل بارعة لقطط على وشك أن تقفز.

ثمّ امتدّت يد زكريا إلى نعله الذي كان صغيراً جداً على قدمه وكانت أصابع قدميه تتدلى منه. عندما مدّ يده إلى نعله، وهي حركة تهديدية تعرفها جميع القطط في دمشق، حررها هذا من الشلل الذي أصابها وراحت تتسابق وانطلقت في جميع الاتجاهات بسرعة البرق. لكن قطاً واحداً، أسود مجروحاً، مبتور الذيل، قفز إلى الطاولة قفزة تحدى فيها الموت، وخطف سمكة من الطبق الكبير وهرب. والغريب أن زكريا لم يلحظ ذلك أو انه لم يفهمه فعاد إلى تناول طعامه وكأن شيئاً لم يكن.

بعد سنة مرض زكريا مرضاً شديداً بعد أن أصيب بتسمّم من تناول السمك. دارت همسات كثيرة في الشارع. فقد قال البعض إن بهية هي التي سمّمته، وتحدث آخرون عن «ذلك المرض» دون أن يذكروا اسمه، لأنهم يعتقدون أنه إذا ذكر أحدهم كلمة «سرطان» بصوت مسموع فإنه سيصاب به.

عندما تماثل زكريا للشفاء، ازداد بخلاً وأصبح متعصباً دينياً. فترك عمله كطاهٍ، وبدأ يحضر صلاة القداس كلّ يوم. وذات يوم قال لزوجته إنه سيترك

نصف ما يملكه للكنيسة الكاثوليكية. وبما أنه كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة فقد طلب من الكاهن أن يكتب له وصيته.

استشارت بهية جاراتها كثيراً، وفي النهاية فكّرت بخطة عبقرية. فقد كتبت مادلين، أمّ يوسف، بخطّ يدها الأنيق وثيقة أخرى يبطل فيها زكريا كلّ الوصايا السابقة، وشهدت عليها ثلاث نساء هنّ: مادلين وعزيزة أمّ عازر وسلمى أمّ سليمان.

مات زكريا في صباح أحد الأيام في صيف ١٩٥٨، وأرسلت أرملته بهية الأطفال إلى المدرسة، وأخذت يد زوجها اليمنى التي كانت لا تزال دافئة، وضغطت إبهامه بقوة على وسادة المحبرة ثم طبعتها على الوصية. فقد كانت بصمة الإبهام هي التوقيع المعترف به قانوناً بالنسبة لجميع الأميّين في ذلك الحين.

بعد أسبوع سأل الأب باسيليوس الأرملة بتهذيب إن كانت تريد أن تناقش وصية زوجها معه، وقال لها إن لديه نسخة منها، وأضاف بتزلف «إن الكثير من الأطفال في أفريقيا وآسيا ينتظرون برجاء تبرّع زوجك المرحوم السخي».

«أوه، أيها المحترم»، ابتسمت بهية، «إنك لا تعرف زوجي ومزاجه المتقلب. فقد كتب وصية جديدة وترك أملاكه لأطفاله الثلاثة، وأخرجني أنا والكنيسة الكاثوليكية منها»، وبذلت جهداً وهي تبحث عن الوثيقة لتريها للكاهن الذي شحب لونه. وبعد أن رأى الوثيقة، وجد صعوبة في إيجاد طريقه إلى بيته قرب الكنيسة الكاثوليكية في حي الزيتون.

١٨٨- خطيبة متّى

لعب كمال ويوسف طاولة النرد مع فريد في زيارة له، وعندما غادرا بيته وأراد أن يستلقي لمدة نصف ساعة رنّ جرس الباب. كان متّى وخطيبته يقفان عند الباب.

twitter @baghdad_library

«أخي»، قال متّى بسعادة، ثم سكت. حيّت المرأة الواقفة بجانبه فريد وصافحته بحرارة، ودخلت وهي تكاد ترقص طرباً.

قالت: «إذاً أنت فريد. إن متّى يوقّرك مثل قدّيس». كانت فريدة أكثر أنوثة من مصافحتها ومما كان يتوقّعه من وصف أمّه. كانت حيوية ومشرقة وفيها كلّ الصفات التي يفتقر إليها متّى.

«أخي»، قال متّى بعد قليل، وتوقفت خطيبته فريدة عن الكلام في منتصف الجملة لكي تنصت إليه. «إننا... سنتزوّج في عيد... الميلاد. إننا....». أحسّ فريد بالجهد الذي يبذله صديقه لنطق الكلمات. «في... عيد الميلاد»، كرّر متّى، ومضى يقول: «أخي، نريدك أن تكون... الشاهد على زواجنا، إشبيننا كما نقول في معلا».

«أرأيت، ماذا قلت لك؟ يحبك! معك فقط يقول أكثر من ثلاث كلمات معاً. كم أنا سعيدة». كانت فريدة مبتهجة للغاية، ووقفت لتقبّل متّى على جبهته وعينيه.

١٨٩- ليلة النكات

خيّمت على النادي أجواء كئيبة. فقد اعتقل أمين وهو خارج من بيته. وخضع رزوق للتحقيق بسبب إليزابيث، وتعرض جاران آخران في حارتهم للتعذيب أسبوعاً كاملاً. ويقال أنه ربما اختلط الأمر على المخابرات وظنوا أنهما مجرمان خطيران. لكن الشائعات كانت تقول إنهم يعتقلون الأشخاص عشوائياً في كلّ حيّ تقريباً لكي يبثّوا الخوف في نفوس المواطنين في كل حي.

جاء الربيع متأخراً في عام ١٩٦٠، لكن الطقس كان قائظاً كالصيف، وكانت الأمسيات دافئة. لذلك قرر أعضاء النادي الجلوس في الشرفة ثانية.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما جاء جبران وحده إلى النادي في ذلك المساء. «ستزور كريمة بيت خالتها العجوز»، قال باقتضاب عندما سأله توفيق عنها. كان يوسف سعيداً. فلم يكن يحبّ كريمة، وكان يقول إنّها

تأكل جبران وهو على قيد الحياة. كان هذا صحيحاً لأنه البحّار القديم، منذ أن أغرم بها، لم يعد يتردد كثيراً على النادي وإن تردد جلس صامتاً.

لكن عندما قال جبران إنها ستزور بيت خالتها العجوز، ضحك عدد من الأعضاء، لأنه في ربيع ١٩٦٠، أصبحت عبارة «فلان في بيت خالته»، تعني أنه «قبض عليه وأودع السجن لأسباب سياسية».

«كريمة والسياسة؟» أجاب وهو يهزّ رأسه «إنهما مثل النار والماء. حتى إنها لا تحتمل أن تسمع نشرة أخبار واحدة في الأسبوع. يجب أن آتي إلى المقهى لأعرف ماذا يجري في العالم».

في ذلك اليوم، كان بطرس البلّاط هو من فتح باب إلقاء النكات عن دمشق في هذه الأمسيات اللطيفة ولم يغلقه حتى الفجر. «ذهب أمريكي وفرنسي ودمشقي (شامي) إلى جهنم»، قال بطرس، «وبعد سنة سألوا الشيطان هل بإمكانهم الاتصال بأهلهم وإخبارهم أن الأمر انتهى بهم في جهنم ولم يعد الأمر يستحق عناء إضاءة الشموع أو إعطاء الفقراء والمساكين صدقات من أجلهم. فوافق الشيطان على طلبهم. تكلّم الأمريكي أولاً لمدة خمس دقائق وعندما عاد قال له الشيطان إن ذلك يكلّفه ألف دولار، وعندما عاد الفرنسي أيضاً بعد خمس دقائق طلب منه الشيطان المبلغ نفسه، أمّا الشامي، فقد أمضى ساعتين وهو يتكلم على الهاتف لأن جميع أفراد عائلته أرادوا التحدث إليه، وكانوا جميعاً متلهفين لمعرفة إن كان يدفع إيجاراً في جهنم، وما نوع الوقود الذي يبقي النار مشتعلة. عندما عاد قال له الشيطان: يكلفك ذلك عشرين سنتاً».

«لماذا يدفع السوري مبلغاً ضئيلاً؟» سأل الأمريكي والفرنسي الشيطان محتجين.

«إنها مخابرة محليّة»، قال لهما الشيطان.

«أعرف نكتة أفضل»، قال جبران وفرح الآخرين به مستبشرين، ومضى يقول: «في صباح أحد الأيام كان وزير الداخلية، وهو نسيب الرئيس، يمرّ من أمام نصب تذكاري لأحد الأبطال الوطنيين، فسمع التمثال البرونزي

twitter @baghdad_library

يشتكي ويقول: إن حكومتنا جاحدة! فقد ضحيت بشبابي في محاربة المستعمرين، وها أنا أقف الآن منذ خمسين سنة. إن ساقيّ تؤلماني، وقد أصبت بالدوالي، أما الجنرال فهو هناك يمتطي صهوة الحصان طوال الوقت»، وأشار التمثال إلى تمثال آخر للرئيس الذي مات في حادث سيارة بعد أن نفذ انقلاباً ناجحاً. «فماذا فعل في سبيل الوطن؟» واصل البطل الوطني، «فقد قاد انقلاباً غبياً ولم يكن يجيد قيادة سيارة، وها هو يمتطي الآن جواداً عربياً أصيلاً. وأنا أيضاً أريد حصاناً». فتوجّه وزير الداخلية إلى القصر الجمهوري وقال لابن عمه الرئيس وأصهاره وأنسبائه «إن بطلنا الوطني إسماعيل يريد حصاناً».

«ماذا؟ بطلنا من؟ إسماعيل الذي مات منذ خمسين سنة؟» صاحوا جمعياً وضحكوا من كل قلبهم، لأنهم يعرفون أن وزير الداخلية كان مولعاً بشرب العرق. وثب الرئيس، الذي أراد منذ فترة التخلص من هذا السكير، وقال: «سيكون الأمر وبالاً عليك إذا كنت تكذب. أريد أن أسمع ذلك بنفسي».

وهكذا خرجا من القصر، وعندما اقتربا من التمثال سمعا الرجل البرونزي يشتكي بأعلى صوته، «قلت حصان! أيها الأغبياء ألا تفهمون بالعربي الفصيح؟ أريد حصاناً أصيلاً لا حماراً».

فقهقه الجميع إلا يوسف.

«ليست سيئة، لكن نكتتي أفضل»، قال ميشيل النجار، «في أحد الأيام، أرسل سطلان وزراءه الأثيرين لديه إلى الصيد. فقد كان مولعاً بالقرود، وقال لهم إن من يستطيع أن يجلب له قرداً سيُعيّن نائباً للرئيس.

«وبعد بضعة أيام، عاد وزير الخارجية ووزير المالية خاويي الوفاض وقالا: «لا توجد قرود في سورية».

ثمّ عاد وزير الداخلية وهو يقود حماراً بكل فخر واعتزاز. «لكن هذا ليس قرداً»، قال الرئيس محتجاً، «إنه حمار».

«انتظر فقط حتى يستجوبه رجالي وسترى كيف أنه سيعترف بأنه قرد إبن قرد، أجاب وزير الداخلية. ولهذا السبب اختير نائباً للرئيس».

لم يحتمل جبران الهزيمة فقال: «لن تكون نكتتك أفضل من نكتتي التالية. فقد حكاها لي متسول لقاء سيجارة. خرج أحد مؤيدي الرئيس في نزهة مع زوجته، ورأى بائعاً متجولاً على الرصيف يبيع جميع أنواع صور المغنين والقديسين والسياسيين.

«كم سعر صورة المسيح الكبيرة؟» سأله.

«عشر ليرات».

«وماذا عن صورة الرئيس سطلان؟»

«ليرة واحدة».

«ليرة واحدة؟» ألا تظن أنه من المشين أن تطلب عشر ليرات لصورة المسيح وليرة واحدة فقط لصورة رئيسنا المحبوب؟

«اصلبه وسأبيع صورته بخمسين ليرة»، قال البائع المتجول.

قال يوسف إن هذه النكتة عديمة الذوق، لكن الآخرين جميعاً ماعدا سليمان قالوا إنها نكتة جيدة، واتّهموا يوسف بأنه لا يتمتع بروح النكتة. كان يوسف فى عزلة لأن المزاج في دمشق كان قد تغيّر منذ بدء موجة الاعتقالات، وبدأ الإعراب عن كراهية سطلان والمصريين يزداد في تلك الأيام.

عندما افترقوا، عانق توفيق جبران العجوز وهمس له وللأخرين، «وقانا الله من شرّ هذا الضحك».

لم يكن جبران ولا الآخرون يعرفون كم كان كلام توفيق تنبؤاً.

twitter @baghdad_library

كتاب الحبّ الخامس

السعادة تكمن غالباً في تأخر وقوع المحن

*

دمشق، ربيع ١٩٦٠

١٩٠- الرجل الذي رأى بأذنيه

«كان علي أن أعرف أنني لا أستطيع أن أسرق هذا العدد من اللحظات السعيدة وأتمكن من الإفلات بها من دون عقاب»، قالت رنا لصديقتها دنيا، «لكن نشوة الحبّ خدرتني ولم أعد أفكر أبعد من أرنبة أنفي. فلم يكن بوسعي رؤية سحب المصائب السوداء تتلبد في الأفق. فقد استمتعت بالوقت الذي أمضيته مع فريد كما لو أنه سيدوم إلى الأبد».

في ذلك الوقت من ربيع عام ١٩٦٠، عندما أصبحت رنا طالبة جامعية أصيب أخوها جاك على ما يبدو بالملل من مراقبتها الدائمة فقلل من ملاحقته لها. صار بمقدورها الالتقاء بفريد في أحيان أكثر مما سبق، واكتشفت معه كيف أن الإنسان يحتاج فقط إلى أشياء صغيرة حتى يصبح سعيداً. كان فريد يشعر بالسعادة عندما يعدّ الشاي وكأنه يعيش في جنة غير مرئية لأنه كان يبتسم لها ببهجة ويفرك يديه ويرقص حول إبريق الشاي الصغير وكأنه كنز كبير. وعندما يصبّ الشاي في كؤوس دافئة، كان وجهه كله يتألق. وكان يفكّر دائماً كيف يمكنه أن يضحكها. فقد كان مدمناً على ضحكتها، كما يدمن رجال آخرون على الحشيش أو على المشروبات الكحولية. لم يكن

يعرف صوتاً آخر في العالم ينزل على قلبه بمثل هذه المتعة، مثل شلال ماء عذب تشتاق له أرض عطشى.

ثمّ وقعت تلك الحادثة مع العمّ محمود، ذلك المتسول الأعمى الضامر الجسم البشوش الوجه. ومع أنه لم يكن يكن يتجاوز الخمسين من العمر، فقد اشتعل رأسه شيباً في وقت مبكر، وكان يُعرف باسم «العمّ» من باب المودّة والاحترام، وكان يشاع أنه شيخ صوفي. لم تكن رنا تعرف إن كان ذلك صحيحاً أم لا، لكنها كانت متيقنة من أنه يمتلك أكثر أذنين رهافة في العالم. فقد كان يستطيع أن يعرف محدّثه من صوته، حتى لو كان يقف في أشد شوارع المدينة ازدحاماً.

في مساء أحد الأيام، كانت رنا خارجة من السينما مع فريد. وكان أخوها جاك في حلب عندما مرّا من أمام العمّ محمود حيّته ووضعت عشرين قرشاً في يده، فصاح «رنا، يا لها من صدفة! كان والدك هنا قبل دقيقتين». رفعت رنا عينيها فرأت والدها على بعد بضعة أمتار، ينظر إلى واجهة أحد المحلات. استدارت بسرعة وغذت خطاها في الاتّجاه الآخر. بدأ قلبها يخفق بقوة، وصدغاها ينبضان. ثم عثرا أخيراً على زاوية آمنة وراحا يراقبان والدها حتى استقل سيارته ومضى.

«شكراً لأنك أنقذتنا»، همس فريد متنفساً الصعداء وأعطى المتسول خمسين قرشاً.

«أنقذتكما؟ ماذا تقصد؟ ومن أنت؟» سأل المتسول، ودسّ القطعة المعدنية في جيبه، وأضاف، «إني لا أعرف صوتك».

«هذا صديقي فريد»، قالت رنا.

«آه، فهمت»، قال المتسول وضحك، «حسناً، لا يمكن أن يصيبكما أي ضرر مادام الملاك الحارس الأعمى يحرس خطاكما حيثما تذهبان».

منذ ذلك الحين بدأ يحيّي فريد باسمه. وفي عصر أحد الأيام، كان فريد ورنا يهمّان بالخروج من المقهى الذي يفضّلان ارتياده عندما رأيا العمّ محمود مستلقياً عند مدخل البناية.

twitter @baghdad_library

«هل أنت على ما يرام؟» سأله فريد، قلقاً.

«لقد سُرقت وضُربت، لكن على كل الأحوال أنا بخير. هل يمكنكما مساعدتي في الذهاب إلى البيت؟»

كان العمّ محمود يمشي بصعوبة، وظل فريد يسأله هل يريد أن يذهب إلى الطبيب أو إلى المستشفى، لكن المتسول الضرير ظل يقول لا.

«دنا مني هؤلاء الرجال الثلاثة وقالوا إنّهم رجال شرطة. حاولتُ أن أبدو لطيفاً معهم فحكيت لهم نكتة صغيرة وضحكت قليلاً. يا لغبائي، فقد كان عليَّ أن ألاحظ أنهم كانوا ثلاثة. صحيح أن شرطة المدينة تقوم بدوريات في هذه المناطق لكن يأتي دائماً شرطي واحد، وهم عادة لطفاء معي ويغضون الطرف عني، أو ينصحونني بالابتعاد لفترة وجيزة لأن وزيراً أو ضيفاً على الحكومة سيمرّ من هنا. لكن عدة رجال شرطة في وقت واحد؟ كان يجب أن أصرخ طالباً النجدة في ذلك الشارع المزدحم، لكنّهم غلبوني وجروني إلى شاحنة صغيرة. كانوا لصوص ارذال يريدون نقودي. لقد قال لهم أحد الحمقى إني أملك مالاً كثيراً. ضربوني وهدّدوا بأن يخنقوني، لكن بما أنه لم يكن بحوزتي شيء، يمكنني أن أعطيه لهم. فأخذوا النقود التي في جيبي وألقوا بي من الشاحنة وولّوا الأدبار مسرعين».

كان العمّ محمود يعيش في غرفة تقع على سطح بيت قديم. كانت الغرفة نظيفة ومرتّبة إلى درجة كبيرة. فوجئت رنا. لكزت فريد بمرفقها، ودون أن تقول شيئاً أشارت إلى ما كانت تفكر به. أومأ فريد.

«جارتي سليمة تساعدني في ذلك»، قال الشحاذ كما لو كان قد رأى رنا وفريد يتحدثان عن غرفته بلغة الإشارة.

«محمود، محمود»، سمعا صوت امرأة تنادي فجأة من باحة البيت. توجّه الشحاذ الضرير إلى النافذة، وردّ: «مرحباً»

«أين كنت كلّ هذا الوقت؟»

«لا تقلقي، فقد أوصلني صديقان إلى البيت. هيا اصعدي وقابليهما، ويمكنك أن تخبريني كيف يبدوان لاحقاً».

ترك النافذة وجلس على حافة السرير، خلع حذاءه، ومدّ يده إلى داخله بابتسامة ماكرة، ثم اعتدل في جلسته قابضاً بيده ثلاث ورقات من فئة الليرة

«مدخولي هذا اليوم في خزنتي السرية. الأغبياء لم يخطر ذلك على بالهم».

بعد لحظات دخلت سليمة، زوجة صاحب البيت. عندما سمعت أن محمود قد تعرّض لاعتداء عانقته وقبّلت جبهته وخديه ثم شفتيه طويلاً.

«ما المشكلة التي ورطت نفسك فيها»، تابعت.

غاصت يدا محمود في ذراعي المرأة الناعمتين وردفيها الطريين أيضاً. بالنسبة لرنا، بدا عدم إظهارهما أي حشمة أمراً غريباً ومحرجاً. نظرت إلى فريد، فعصر يدها.

«أوه، كانوا مجرد بلهاء تافهين، يا حمامتي الصغيرة» قال الرجل الضرير مطمئناً سليمة ودفن رأسه في صدرها الواسع.

«لقد تعلّمت اليوم درساً - وهو أن لا أذهب مع أحد إلا إذا كان معي شخص أعرفه»، وقبّل سليمة قبلة طويلة. صفعت يده برقة عندما حاول أن يزلقها خلسة بين ساقيها.

«الآن هذا يكفي»، همست بمودة، «ماذا سيقول عنا هذان الشابان؟»

كانت سليمة تحبّ محمود الذي يقيم في بيتها دون أن يدفع أجراً، وكانت تعتني به بالإضافة إلى رعاية زوجها وابنيها.

«هل سبق أن عزف لكما على الناي؟» سألت رنا وفريد، «إني متأكدة من أنكما ستستمتعان بعزفه».

«سليمة، إنهما لن يحبّا ذلك».

لكن عندما طلبت منه رنا وفريد ذلك، عزف لهما. كان عزفه من ذلك النوع من الموسيقى التي تجعل المرء يفكّر بامتداد الصحراء المترامية الأطراف وصمتها. لم يعزف على نايه كما لو كان يداعبه، بل كان يتكلّم معه، يضع نفسه كلها فيه، ويبث الحياة في قطعة الخشب الصامتة، فتخرج أنغامه وتعيدها إليه.

twitter @baghdad_library

انتشت سليمة طرباً، لكن بعد قليل ناداها زوجها فغادرتهم.

«لقد أخذ الله عينيّ لكنّه عوضني عنهما بأذنين وساعة داخلية أفضل. إنه رحيم، وهو لا يدع شيئاً يختفي بدون سبب. إني أرى بأذنيّ ويمكنني أن أشعر بالوقت في قلبي»، أوضح لهما محمود لاحقاً عندما جلسوا معاً فترة أطول.

أخيراً غادرت رنا وفريد البيت ويداهما متشابكتان. كان على رنا أن تمشي وحدها في الجزء الأخير من الشارع، ثم تستقل سيارة أجرة إلى البيت، وكان على فريد أن يذهب في الاتّجاه المعاكس ويتجه إلى شارع آخر ليستقل الحافلة.

كان الظلام خارج البناية حالكاً. شدّ فريد رنا إليه مرة أخرى وقبّلها قبلة طويلة على فمها. «إنك الزمن بالنسبة لي»، همس وقبّلها ثانية.

١٩١- كريمة

«إن كريمة تحشو جبران بكل ما لذ وطاب وتجعله متخماً وكسولاً طوال الوقت وتأكل دماغه»، قال يوسف، «فمنذ أن أُغرم بها أصبح لا يحكي إلا مثل هذه القصص السخيفة».

كان أعضاء آخرون في النادي يتحدثون عن كريمة بالسوء أيضاً، ويقولون إنها لا تستطيع أن تشبع نهمها للحبّ إلا مع هذا البحّار الهرم الذي اشترته ليدفئ سريرها البارد. لكن ألسنة السوء هذه لم تفهم هذه العلاقة الغرامية بين جبران وكريمة. لم يدركوا تشابك الخيوط التي نسجت هذا الحب، صبّوا جام غضبهم وكل حسدهم على خيط واحد سموه أنانية كريمة. لكن الحقيقة كانت أعقد من ذلك بكثير: عاش جبران معها حياة خالية من الهموم، وبالمقابل فقد أبعد الملل عن بيت الأرملة الجميل، وشرع نوافذ قلبها المهلهلة ونفخ فيه هواء نقياً. وأصبحت تتوق إلى سماع القصص التي يحكيها، فتغويه حتى تنثال الكلمات من فيه انثيالاً، وامتدت

أمامها عبر كلماته مشاهد طبيعية جديدة يذهب إليها كلاهما ويتجولان في رحابها. كان يحبّ الرعاية التي تحيطه بها وهو الذي لم يظهر له أحد من قبل مثل هذا الاهتمام والاعتبار. أما هي فكانت تحبّ أحياناً صدقه الموجع الذي كان ينعشها بعد سنوات من أكاذيب زوجها. وكانت تحبّ شجاعة جبران التي كانت تبدو في نظرته الإيجابية للشباب ومعاملته إياهم وكأنه واحد منهم. وقد أثبت لها بأنه يمكن إبعاد شبح الشيخوخة بالعقل الذي يظل كالطيف الذي يعجب بهذه الحياة ويظل يبحث ويستفسر بسهولة أكثر من أنواع المساحيق ومستحضرات التجميل.

كانت تلك الأمسية التي أمضتها معه لأول مرة في النادي شيئاً لا يمكن أن تنساه. ألحّ عليها أن ترافقه إلى النادي. أحسّت أن من المستحيل أن تفعل ذلك. فما الذي ستفعله بين جميع هؤلاء الشبان وهي تقارب الستين من العمر؟ قال لها «اضحكي». كانت واثقة من أنها ستخيّب أمله، واعتراها إحساس بالتوتر.

كان جبران شجرة بلوط ضخمة متغضّنة. فربما يجاريها عندما تطلب منه أن يرتدي بدلة جيدة، قميصاً جديداً، حذاء جديداً، وقد يدعها تقنعه بأن يحلق ذقنه الخشنة كمبرد حديد، لكنه كان من الداخل لا يزال تلك الشجرة البرية غير المدجّنة ذاتها. أما الآن فقد بدأ يطلب منها أن تتخلى عن حماية قوقعة الحلزون المألوفة لديها. قال لها عليها أن تخرج للحياة لا أن تنتظر في قوقعتها أن تأتي الحياة إليها. أحسّت بوهن في ركبتيها في تلك الليلة. ماذا لو أن الشباب في النادي سخروا منها وسلقوها بألسنتهم؟ فليس من الطبيعي أن يُحبَّ العجائز. كانت جارتها عليمة التي كان سمّ الكوبرا مقارنة بما تنفثه هذه المرأة الحسودة، يبدو مثل قهوة لطيفة بالحليب، قد رأت جبران على شرفتها مرتدياً منامته الحريرية، وبدأت على الفور تتحدث بالسوء عن الأرملة المتيّمة إلى امرأة أخرى على بعد ثلاث بنايات. كان صوتها عالياً لا تسمعه كريمة وجبران فقط، بل يستطيع أن يسمعه أيضاً رئيس الجمهورية الذي كان في زيارة رسمية إلى موسكو. أخذ جبران الأمر بهدوء.

twitter @baghdad_library

«سنصبح مشهورين، وسيقترن اسم كريمة باسم جبران مثل المجنون وليلى أو روميو وجوليت»، قال مشجّعاً.

في النهاية وبعد جدل طويل رافقته إلى النادي وجسدها يرتجف، إلا أن كلّ شيء بدا لها بسيطاً للغاية. ولم تمض خمس دقائق حتى شعرت بالدفء بين الشباب. وعندما عادا إلى البيت ضاجعت جبران ساعات عديدة حتى بزوغ الفجر. أخيراً تملكها النعاس وهي بين ذراعيه وأحست كما لو كانت في زورق شراعي.

أحبّت كريمة جبران أيضاً لأنها كانت تحب أن تحيطه برعايتها، وقالت لنفسها إن من المؤسف أن يعيش هذا الرجل الجميل حياة بائسة. وعندما زارته لأول مرة بكت، عندما رأت غرفة عارية فيها رفّ ينوء ببضعة كتب مهترئة، وسرير حديدي تكسوه حشية تفوح منها رائحة نتنة ووسادات متيبسة من العرق والأوساخ ومنضدة صغيرة بجانب السرير ومقعدان أو ثلاثة مقاعد مصنوعة من ألياف النخيل. كان ذلك كلّ شيء، حتى إنه لم يكن لديه خزانة. كان بنطاله وقمصانه القليلة المهترئة معلّقة على مسامير. لا يمكن لرجل جاب أرجاء العالم مثل جبران أن يعيش في مكبّ النفايات هذا.

بالإضافة إلى ذلك فقد أحبّته لأنه لم يشعر بالإحباط أو بالمرارة، بل كان يحبّ الإنسانية «بالرغم من كلّ شيء؟» سألته، فأجاب «بسبب كلّ شيء».

والأهمّ من كل ذلك هو أنها كانت تقدّر جبران لأنه كان يعرف كيف يعامل النساء. فقد كان بإمكانه أن يداعب كريمة بعينيه إلى درجة أن نظراته كانت تحرق تحت جلدها شوقاً لملامسة يديه. كان بإمكانه أن يضحكها على الدوام. لقد أحبّته لأنه كان يدللها كما لم يفعل زوجها الذي كان ينام معها لإرضاء نفسه فقط. أما المداعبات مع جبران فقد كانت بمثابة جسر بالنسبة لكريمة، وسيلة لتنسى مقدار ما كان يفصلها عن زوجها. فقد التقيا عندما كانت شابة، وأغدق عليها الكثير من الهدايا التي جعلتها ليّنة وطيّعة، لكنه لم يستطع أن يعزف على أحاسيسها موسيقى كما يفعل جبران.

وبخلاف زوجها، كان جبران يحبّ الإنصات إليها. فقد حدثته خلال سنة واحدة أكثر مما حدثت زوجها خلال عشرين سنة. فلم يكن بوسعها أن تحدّث زوجها عن ماضيها، فدفنت شبابها المفعم بالمغامرات في مقبرة الزواج، وأرغمت منذ ذلك الحين على تمثيل دور زوجة الرجل الغني السعيدة.

أما جبران فكان يشجّعها باستمرار على أن تحدّثه عن تجاربها عندما كانت مطربة شابة. آنذاك كانت تطلق على نفسها اسم «بنت الصحراء»، لا لإثارة فضول الجمهور فقط، بل لحماية أسرتها كذلك من الإحساس بالعار لأن المغنيات كنّ يعتبرن عاهرات. حدّثت كريمة جبران كيف أنها كانت السبب في نشوب مشاجرات عندما كانت تغني في المقاهي وفي النوادي الليلية، عندما كان يصعد أحد السكارى إلى المنصة ليقبّلها فيثير الحسد والغيرة في نفوس الآخرين، فتتطاير الكراسي في الهواء. وكانت كريمة ومرافقوها يشاركون في الشجار الناشب إلى أن يتحول المكان إلى حطام. لم يكن جبران يملّ أبداً من الاستماع إلى هذه القصص، ويضحك حتى تسيل دموعه مما شجعها أن تشحذ ذاكرتها لتروي له أكثر.

لكن سعادتهما لم تدم أكثر من سنتين، بدا جبران وكريمة خلالها أكثر شباباً وقرباً من أحدهما الآخر. وكانا يغنّيان معاً طوال المساء، وكانت كريمة لا تزال تتمتع بصوت رائع. لكن في بداية صيف ١٩٦٠، حدث أمر فظيع هدم كلّ شيء.

١٩٢- منقطعة الأنفاس

كانت رنا تتوقّع أيّ شيء إلا ذلك الشخص الذي راح يطاردها في عصر ذلك اليوم. كانت في السينما مع فريد. فقد واتتهما الفرصة على نحو غير متوقع ولبى فريد طلبها في الحال. بعد نصف ساعة من مكالمتها الهاتفية، كان يمسك بيدها في صالة السينما المعتمة. فقد كانت بعض صديقاتها قد أوصينها بمشاهدة فيلم «شرق عدن» للمخرج كازان وبطولة جيمس دين.

twitter @baghdad_library

رأت رنا قصّة الفيلم قاسية، وبخلاف صديقاتها في المدرسة لم تجد جيمس دين فحلاً، بل رأت فيه مسحة من الأنوثة، لكنّها أعجبت كثيراً بشخصية الثائر كال، الذي أدى جيمس دين دوره، رجل يحترم والده ويتشاجر معه في الوقت نفسه، تماماً كما يفعل فريد.

عندما غادرا السينما، مفترقين، راحت رنا تراقب حبيبها وهو يشقّ طريقه إلى موقف الحافلة. في تلك اللحظة رأت الشاب الذي كان في عمرهما وفي عمر فريد تقريباً، يتكئ إلى عمود مصباح الشارع ويصفّر لها. كان يرتدي ثياباً غالية على الطريقة الأمريكية ويمشّط شعره المزيّت على طريقة إلفيس بريسلي. لم تكن رنا تحبّ إلفيس بريسلي أو بيل هايلي ولا خصلات شعرهما المزيّتة المثيرة للضحك. كان المطرب المصري عبد الحليم حافظ هو المطرب الأثير لديها، شأن معظم فتيات دمشق. فقد كان صوته دافئاً حزيناً، وكان يشبه أيّ فتى عربي فقير عاشق، لا إلفيس الزلق والناعم.

كانت رنا قد رأت هذا الشاب لأول مرة في بداية السنة الدراسية خارج مبنى البرلمان حيث كانت تلتقي بصديقتها سيلفيا صباح كلّ يوم. راح يطاردهما، وأخطأت سيلفيا عندما التفتت إليه، بل وابتسمت له، فلم يعد يفارقهما حتى وصولهما إلى باب المدرسة.

كان لا يزال واقفاً هناك في منتصف النهار. قالت سيلفيا إن الفتيان مثل الصيّادين والمتسولين. «لكلّ واحد منهم صيده الخاص به، ويبدو أن هذا الفتى قد وضع عينه علينا».

عندما افترقت الصديقتان عند مبنى البرلمان، قرّر أن يلاحق سيلفيا، وواصلت رنا التي تنفست الصعداء طريقها إلى البيت. لكن في عصر ذلك اليوم، قالت لها سيلفيا إنه عندما بدأ يتحرش بها ويضايقها توقّفت وصفعته على وجهه. ومنذ ذلك الحين بدأ يطارد رنا مثل ظلّ مزعج. في الصباح الباكر وعند الثانية عشرة ظهراً وبعد فترة استراحة بعد الظهر عند الساعة الثانية وعند انتهاء دوام المدرسة في الساعة الخامسة. كان ينتظرها باستمرار بجانب عمود مصباح الشارع نفسه فظنت فتيات المدرسة أنه صديق رنا. لم

يتحرش بها مباشرة، بل ظل يحتفظ بمسافة بينه وبينها لكن أحد أصدقائه كان يناديه باسمه من الجانب الآخر من الشارع بصوت عال متعمداً كما يفعل الفتيان في معظم الأحيان للتأكد من أنها أصبحت تعرف اسمه: دريد، اسم غير شائع لكنه اشتهر بعد سنوات بواسطة ممثل كوميدي.

بدأت تكرهه. كانت رنا تحبّ المدرسة وكانت تشعر بأنها تتحرر من أسرتها عندما تغادر قدماها عتبة باب بيتهم. فقد كان الخروج من البيت يعني لها الغوص في جدول المارة الذين يملأون الشوارع، وتحيط بها وجوه جذّابة مبتهجة من طلاب المدارس والموظفين وضبّاط الجيش. وكانت تحبّ أكثر من أي شيء آخر المسنين الذين كانوا يبدون لها بأنهم يملكون العالم بأسره.

كانت محلات الأزياء وبيع الأزهار والمقاهي ودور السينما تصطف على امتداد طريقها إلى المدرسة بالإضافة إلى الأشجار المشذبة ومصابيح الشارع الجميلة. كانت تسير الهوينى ولم تكن تشعر بأنها في عجلة من أمرها، تلتقي بصديقات يقمن بالقرب من بيتها، في البدء سلمى ثمّ سيلفيا ثمّ فاطمة ومنى وأخريات. وفي بعض الأحيان كان عدد من تلتقي بهن يبلغ العشرة مع وصولها إلى باب المدرسة.

لقد انتهى كلّ ذلك الآن. إذ بدأت تشعر بأنها مطاردة، وأصبحت تسير إلى المدرسة بسرعة ثم تعود إلى البيت وهي لا تكفّ عن التطلع حولها بحذر. فبعد أن صفعت سيلفيا وجه الشاب، علق برنا، ربما لأنه كان يظن أنّها لن تصفع رجلاً قط.

«لا تدعيه يعرف أين يقع بيتك وإلا فإنك سترينه واقفاً بجانب سريرك، وسيظن والداك بأنّك على علاقة معه»، حذّرتها سيلفيا. إنه كابوس! في أحد الأيام، رأته في مكان لا يبعد كثيراً عن الحي الذي تقيم فيه، يقترب أكثر وأكثر فهربت إلى بناية كبيرة بابها مفتوح. لم يقترب منها ولم يزعجها هكذا من قبل. وقفت عند صحن الدرج، منقطعة الأنفاس، وراحت تراقبه عبر لوح زجاج نافذة يكسوها الغبار. اتخذ موقعه أمام الباب الأمامي.

twitter @baghdad_library

«ما المشكلة يا عزيزتي؟» سمعت صوتاً عطوفاً وراءها، فأجفلت. كانت امرأة متوسطة العمر تنظر إليها من باب شقّتها في الطابق الأول.

«هناك شاب يضايقني ويتبعني في كل مكان»، أوضحت رنا.

«ليست مشكلة»، طمأنتها المرأة وأضافت، «إنك في البناية المناسبة. فإذا فتحت ذلك الباب»، وأشارت إلى يسارها، «تستطيعين أن تهبطي درجاً آخر وتخرجي إلى زقاق خلف هذه البناية يقودك إلى محطة الترام. هل تقيمين بعيداً من هنا؟»

«ليس بعيداً عن المحطة»، أجابت رنا وشكرت المرأة وصعدت تجري إلى الطابق العلوي. فتحت الباب إلى الدرج الآخر المفضي إلى الجنة وتنفّست الصعداء عندما وصلت إلى البيت واستقرت في غرفتها.

حدث ذلك قبل ستّة أشهر. ومنذ ذلك الحين ظن أنها تعيش في تلك البناية الكبيرة، فراحت تختفي فيها كلّ يوم لتهرب من الباب الآخر. كانت تنوي أن تفعل الشيء نفسه عندما خرجت من السينما عصر ذلك اليوم، لكن دريد الذي كان يلاحقها أوقفها خارج البناية. قال لها: «لا تكذبي إنك لا تعيشين هنا، فقد اكتشفت ذلك البارحة».

اعتراها خوف غريب بأنها لن تتمكن أبداً من توضيح ذلك لأحد، حتى لفريد. كما لو كانت دمشق قد فرغت فجأة من أهلها. كما لو أن هذا الشخص هو أقوى رجل على وجه الأرض وهي ليست سوى خنفساء صغيرة يمكنه أن يدوس عليها تحت قدميه متى شاء. توقّفت وأحست بأنه لم تعد لها قدمان، بل مجرد كتلتين رصاصيتين في حذائها. أرادت رنا أن تصرخ لكنها لم تستطع أن تطلق أي صوت.

«لن أؤذيك. أريد فقط أن تتناولي معي قهوة وأن أكون صديقاً ودوداً. هل هذا الطلب كثير؟» قال، وهو واقف قبالتها مباشرة، ثابت مثل جبل.

«دعني أمرُّ من فضلك»، قالت متوسلة محاولة الحفاظ على هدوئها.

«لن ألمسك لكنك إذا لم توافقي على احتساء القهوة معي فإني سأتبعك إلى باب بيتك وأقول لوالديك إنك تخرجين صباح كلّ يوم مع قحبة، ابنة

راقصة مشهورة، وأنك كنت اليوم في السينما مع رجل، ولن أكون كاذباً لأنني أستطيع أن أصفه لهما بالتفصيل».

«إن سيلفيا ليست قحبة». كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي تمكنت رنا من نطقها وقد تملكتها حالة شديدة من الاستياء.

«لا بل هي كذلك. فمن تصفع رجلاً على وجهه؟ ذاك النوع من النساء، وقد تعلّمت ذلك من أمّها»، قال بصوت هادئ مليء بالسمّ. لكن الغضب الذي تملك رنا حررها فجأة من قبضة الخوف الذي تملكها. «وتنقل حكايات يا واشي، يا حقير»، صاحت وصفعته بقوة على وجهه حتى كاد أن يسقط، لكنه استعاد توازنه في اللحظة الأخيرة. أربكته المفاجأة وقبل أن يعرف ما عليه ان يفعل، ركلته رنا على خصيتيه. كانت سيلفيا قد علمتها كيف تفعل ذلك.

«أحسنتِ»، قال رجل عجوز كان ماراً، «فهذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الأوغاد بدمهم الثقيل».

ابتعد دريد وهو يعرج على ساقه، يئن. في أعماق أحلامها كانت لا تزال تسمعه وهو يصيح، «قحبة مسيحية».

١٩٣- نساء القمر

حدث شيء. أحسّ بذلك بوضوح شديد.

كان فريد يتناول طعام الغداء عندما رنّ الجرس. كان وحده في البيت. كان جارهم جريوس يقف عند الباب يلهث.

«ماذا يجري في المدينة؟» سأل دون أي مقدمات، «لقد عادت ابنتي الآن إلى البيت مرعوبة. فقد أوقف رجال الشرطة الحافلة التي كانت تستقلها وأنزلوا جميع الركاب منها وفتشوهم بحثاً عن وجود أسلحة. يقولون إن هناك محاولة انقلاب. هل هذا ممكن؟»

«محاولة انقلاب؟» كرّر فريد مرتاباً. كانت دمشق في حالة غليان منذ كانون الثاني. وقد أشيع أن داميان، الدكتاتور العراقي، سيشن هجوماً على

twitter @baghdad_library

البلد، وأن مشاعر العداء تزداد اشتعالاً بينه وبين الرئيس سطلان، ولم يكن يمر يوم من دون أن يتبادلا فيه اتّهامات عنيفة. كان الرئيس سطلان الذي يبدو أنه كان حريصاً على الحفاظ على سمعته قد أمضى شهراً كاملاً وهو يتنقل في أرجاء المدن السورية، يلقي خطاباته اللاهبة ضدّ العراق والشيوعيين السوريين الذين كانوا يتقربون من بغداد. وانتشرت شائعات تقول إن داميان ينوي مساعدة فدائيين شيوعيين وضباط موالين لهم للإنقلاب والسيطرة على دمشق.

لم يدخل جريوس لتناول القهوة وعاد أدراجه، عاد فريد لتناول طعام غدائه لكنّه كان قد فقد شهيته. ثمة شيء جعله يشعر بحزن لانهائي. اتصل برنا. «آسفة، الرقم خطأ»، قالت بهدوء، فعرف أنها ليست وحدها.

سرعان ما تلاشى شعور السعادة الذي اعتراه لسماع صوتها. بعد أن تناول القهوة اتصل بابنة عمته ليلى. كانت متحفظة في حديثها. عندما سألها عما يجري أجهشت في البكاء ولم تنبس بكلمة. ترك فريد كلّ شيء وانطلق لزيارتها.

لم يكن أحد يقف عند موقف الحافلة لا قرب بيته ولا في الشارع الذي يقع فيه بيت ليلى، ولم تكن الحافلة التي استقلها مكتظة بالركاب كما جرت العادة، وقد رفع السائق صوت المذياع. كان المذيع يقرأ تقريراً للأمم المتحدة عن الكارثة التي أصابت المغرب. فقد دمر زلزال غير معهود مدينة أغادير في مطلع آذار وأودى بحياة خمسة عشر آلاف شخص.

رأى فريد من نافذة الحافلة عدّة شاحنات عسكرية مصطفة في ساحة العباسيين، وكان جنود المغاوير المدججين بالسلاح ببدلاتهم الميدانية المموهة ينتشرون في كل مكان. حتى في المدينة الجديدة، كان الجنود يتمركزون عند تقاطع كل شارع.

لم تكن صحة ليلى على ما يرام، وقد أعطت في ذلك اليوم العاملات لديها إجازة لكي ترتاح. كانت حرارتها مرتفعة وبدت شاحبة للغاية. كان زوجها مسافراً في رحلة إلى المنطقة الشمالية مع فرقة الإذاعة الموسيقية.

كانت الشقّة تبدو أشبه بمكبّ نفايات. قبّل فريد ليلى وطلب منها أن تعود إلى السرير، ثمّ انهمك لمدة ساعتين في ترتيب البيت وتنظيفه، وفتح جميع النوافذ لتهويته.

«يا إلهي، لو رأت كلير ما تفعله»، قالت ليلى بصوت واهن وهي في طريقها إلى الحمّام ورأت ما تمخض عنه عمل فريد. ابتسمت.

«يجب أن لا تعرف ذلك. فأنا غير مستعد لفعل ذلك إلا من أجلك فقط، فأنا أتصرّف عادة كالباشا»، قال فريد من المطبخ حيث كان يعدّ الشاي بعد أن أنهى تلك الأعمال المنزلية.

يا له من شيء مضحك، قال لنفسه، هكذا يغيّر الحبّ الناس. بعد أن نالت ليلى شهادة الثانوية العامة بدأت تدرس التاريخ في الجامعة لأنها كانت تريد أن تكتب عن تطور البلاد العربية من الناحية التاريخية من وجهة نظر نسائية. وعلى الرغم من أنها كانت مسيحية، فقد كانت تعرف الكثير عن الفلسفة الصوفية، وهذا ما أجبر أساتذتها على إحترامها، وكان الشبان الجامعيين يحومون حولها في الجامعة لأسباب كثيرة منها الهالة الإيروسية التي كانت تحيط بها. وكانت قد صدّت جميل، أستاذ الفلسفة، وصموئيل المهندس المعماري.

لكن عشيرة مشتاق صارت تسخر منها لأنها اضاعت كل سنين الدراسة فقد غادرت الجامعة قبل الامتحانات النهائية بدون أية شهادة لأنها أحبت ذلك الموسيقار ولأنها كانت تظن أنها أصبحت خيّاطة جيدة بعد أن أجرت دورة تدريبية قصيرة. كانت ليلى تسعى لأن تصنع لنفسها اسماً، وأصبحت لديها زبونات كثيرات، لكن لسوء الحظ كانت قدراتها في الخياطة محدودة. وكان فريد يعرف أن أمّه تطلب منها تعاضدا معها أن تخيط لها فستاناً كلّ سنة لترفع معنوياتها، لكن كلير لم تكن ترتدي أياً من تلك الفساتين، وكان إلياس يسخر من ليلى أيضاً.

فكّرت العمّة ملكة ملياً إن كانت ستوافق على زواج ابنتها أم لا. لأن المجتمع لا يكنّ أي اعتبار لأي عازف موسيقي، اللهم إلا لحفنة من

twitter @baghdad_library

الموسيقيين المشهورين في دمشق. وكان العديد من المسيحيين من رواد المسرح والسينما والموسيقى، فقد كانت مطربات شهيرات مثل ماري جبران وكروان (جميلة نصور) ونادرة شامي، أول امرأة سورية تمثّل في فيلم سينمائي، مسيحيات أيضاً، وكن يُعتبرن في نظر غالبية السوريين نساء ساقطات. وعلى الرغم من ذلك، قالت ملكة أخيراً إنّها سعيدة بهذا الزواج لأنها كانت تشعر بمقدار الحبّ الذي تكنّه ليلى لسيمون.

لم يحبّ فريد سيمون ولم يعرف سبب ذلك. أحياناً كان يخيّل له أن ذلك ربما كان ناجماً عن عذاب ضميره، لأن جسده كان ينسى باستمرار أنه يجب ألا يعدو حبه لليلى سوى حباً أخوياً أو في أبعد الحدود أفلاطونياً، فمنذ أن بدأ وعيه، كان يشعر بانجذاب جسدي شديد نحوها. أحياناً أخرى ظن أنه يغار من سيمون لأن هذا يتمتع بقرب ليلى بإستمرار وكما يحلو له... وانه لا يستحقها.

عندما جلب لها الشاي من المطبخ رأى ليلى منتصبة في جلستها على السرير، تلفُّ لنفسها سيجارة وتفتت قطعة حشيش فوق التبغ. أصيب بصدمة لكنه استعاد هدوءه بسرعة. «هل تدخنين في السرير؟» سألها معاتباً وهو يضحك.

«إني أدخّن في كلّ مكان»، قالت من دون أن تنظر إليه.

«وماذا تدخّنين الآن؟» سألها، مرتبكاً.

«حشيش، من أجود أنواع الحشيش اللبناني، أفضّله من بعلبك. إنه غذاء لروحي ولن أخفي ذلك عنك. إني لا أدع زوجي يعرف أو أسرتي أو باقي العالم، أما أنتَ فإنك شقّ روحي الآخر».

«لكن الحشيش من المخدرات الخطيرة»، قال قلقاً، وقدم لها الشاي.

«هراء. كان العرب والفرس والهنود يستخدمونه منذ آلاف السنين، ومع ذلك فقد تفلسفوا واخترعوا الرياضيات وراقبوا النجوم وقرضوا أجمل قصائد الشعر»، وبللت بريقها حافة ورقة سيجارتها.

«منذ متى تدخنينه؟» سألها فريد متردداً. لم يكن بوسعه أن يتظاهر ويلفق أمام ليلى.

«إهدأ يا رفيق»، أجابت، «ها قد بدأت تستجوبني كالمفتش. لقد بدأت أدخنه منذ أن كنت في التاسعة عشرة من عمري، وأنا الآن في السادسة والعشرين، أي منذ سبع سنوات. إنه رقم الحظ، ألا تظن ذلك؟ نعم، أعرف أن تعاطيه يؤدي إلى الحكم بالسجن المؤبد حسب القانون السوري، لذلك لا تتعب نفسك وتلقي علي موعظة أخلاقية»، ثم أشعلت السيجارة.

«جيد»، قال فريد، «لكن لماذا تريدين أن تجعلي عقلك الرائع متبلداً بالمخدرات؟»

«عقلي متبلداً؟» كرّرت بتحدٍ، «عندما أدخّن سيجارة يصبح عقلي صافياً كالبلور. عقول الشيوعيين فقط هي التي تصبح مُشَوشة ومُخَدرة عندما يتلقون أوامرهم من اللجنة المركزية. جميع الصوفيين تناولوا أو دخّنوا الحشيش، وهل تعرف لماذا؟ لأنك لا تستطيع أن تدخل أرواح الآخرين إلا إذا غادرت شرنقتك. الحشيش يفتح ثقباً في الجدار، يفتح لك طريقاً، ومن سوء حظّك أن لينين لم يدخّنه».

«اتركي لينين جانباً. بجد هل تظنين أنها فكرة جيدة؟»

«نعم، إنها فكرة رائعة»، قالت بإصرار. كان صوتها ناعماً لكنه ثابت. أخذت نفساً من السيجارة ثم قالت: «عندما أشعر بالحزن يخنقني، وتواجهني مشكلة عويصة يلزمني حلّها، فإني أدخّن سيجارة حشيش، وفجأة أجد أملاً جديداً، بل أجد حلاً أحياناً. هيا خذ وجرّبها»، ومدّت له يدها بالسيجارة، فلوّح فريد بيده مبعداً إياها.

«لا، أبداً»، قال باقتضاب، وراح يحتسي الشاي بصمت، ثم قال: «إذاً ما هي المشكلة التي يجب عليك حلّها اليوم؟»

«مشكلة عويصة أفكّر بها منذ عدة أيام، وأظن أن الحمى قد انتابتني بسببها. فمنذ طفولتي تنتابني الحمى في مثل هذه الحالات ليس عبر فيروس أو جراثيم بل عبر ثقل همي من الداخل».

twitter @baghdad_library

لم تقل شيئاً للحظات، وصبّ لها فريد المزيد من الشاي. فاحت رائحة الحشيش في الغرفة، وللمرة الأولى خطر له أن رائحة الحشيش تشبه رائحة البخور، فتذكر ما قرأه يوماً أن الشعوب القديمة كانت تحرق البخور في معابدها ليتصاعد للسماء ويخدر الآلهة ويجعلها أكثر عطفاً على المؤمنين بها. . . وأدرك أنّ ابنة عمته جادة في ما تقوله فتركها تأخذ وقتها.

«لم أكن قد بلغت الثامنة من عمري بعد»، قالت ليلى، «وكما تعرف فقد كنّا آنذاك نعيش في بيروت. وفي أحد الأيام أخذتني أمّي من يدي وهمست لي أن اليوم هو يوم عظيم لي. كدت أطير من شدة الفضول الذي انتابني.

عبرنا عدّة شوارع ووصلنا إلى الحيّ القديم في مدينة بيروت وتوجهت مع أمي إلى الحمّام العمومي. كانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أذهب فيها إلى الحمّام - مع أنه يوجد حمّامان أوروبيان لدينا في فيلا والديّ. لكن الحمّام العمومي عالم آخر - والغريب أنني شعرت بارتياح شديد فيه منذ اللحظة الأولى. وقبل أن ندخل الحمّام اشترت أمّي كمية كبيرة من بذر القرع المملّح والفستق الحلبي والبقلاوة وحلويات أخرى.

كانت واجهة الحمّام العمومي تبدو مثل مسجد بواجهته الرخامية الجميلة. عندما دخلنا خفتت الضوضاء ولفّنا صمت جعل قلبي يخفق بسرعة. دخلنا تحت القبة العظيمة ورأيت نساء يستحممن، يفركن أنفسهن، ويفركن بعضهن بعضاً بالصابون ويضحكن وتصب إحداهن الماء على الأخرى أو يحتسين الشاي. في مكان ما داخل الحمّام كانت تجلس حوالي عشرين امرأة، صغيرات وكبيرات في السن، في شكل دائرة، ابتسمن لنا بمودة عندما انضممنا إليهن بعد أن لففنا جسدينا بمناشفنا البيض. في ذلك اليوم التقيت لأول مرة بنساء القمر».

رشفت ليلى الشاي الذي صبّه فريد في كأسها مجدداً وأخذت نَفَساً عميقاً من سيجارتها مرّة أخيرة ثم سحقت عقبها في منفضة السجائر.

«كانوا يحتفلون بقبولي في عضويتهن. كنت أصغر عضوة في جمعيتهن

السرية. وأخبرتني امرأة أكبر سنّاً، بالتفصيل وبحماسة أنني أصبحت فتاة خاصّة، وأن الإشارة التي سأحملها منذ ذلك اليوم ليست امتيازاً بل واجب يلزمني طوال حياتي بالدفاع عن النساء وبالحبّ. كنت في حالة شديدة من الإثارة فلم أفهم الكثير مما قالته لكن ما أعجبني هو الإحساس بذراعها المبللة الدافئة ورؤية نساء القمر يتحلقن حولي. وعلى مسافة قريبة، كانت هناك نافذة لها زجاج مائل إلى اللون الأزرق يلمع في أشعة الشمس التي سقطت عليها. حبستُ أنفاسي وخيّل إليّ أنّ القمر سيخترقها.

وأحسست بالزهو لأن أمّي اختارتني من بين بناتها الثلاث. في النهاية قبّلتني جميع النساء. بكت أمّي من الفرحة، وأخيراً وشمت امرأة منهن فوق قلبي مباشرة وشماً عن رمز الجمعية السرية، ثمّ احتفلنا جميعاً في الحمّام.

في طريق عودتنا أحسستُ أنّ أمّي أضحت الآن امرأة حكيمة وأنها صارت رفيقة لي. غنّينا معاً ببهجة حتى أن المارة راحوا ينظرون إلينا وكأننا سكارى، مما شجّعنا على الغناء بصوت أعلى. منذ ذلك الحين، بدأت أرافق أمّي إلى الحمّام الذي كانت نساء القمر يلتقين فيه كلّ يوم أربعاء. لم يعد عدد كبير منهن يأتين، لكنّهن واظبن على الاتصال ببعضهن بعضاً وتقديم النصيحة والمال».

صمتت ليلى لوهلة. أحسّ فريد أنّها تبذل جهداً في الكلام فصمت.

«كنت في الرابعة عشرة من عمري، وقد ازداد عدد أخوات القمر على الثلاثمائة، عندما حلت الكارثة، فقد اختارت بعض العضوات الذهاب في الطريق الخاطئ. فبدافع من نفاد الصبر والكراهية التي ترسبت في نفوسهن منذ آلاف السنين، أردن أن يعدن الأمور إلى مسارها الصحيح فجأة وبتهور، فبدأت زعيمات المجموعة يتخذن إجراءات عقابية وانتقامية ضد كارهي النساء، وكان سلاحهن السمّ. لم يكن يرغبن في الانتظار إلى أن تتحقق العدالة بنضالنا السلمي بل بدأن بتطبيق عدالتهن الخاصة بهنّ، وهي عدالة قاتلة. فقد مات أكثر من عشرة رجال في فترة وجيزة من حوادث تسمّم في بيروت - قضاة وقوادان ومدير شرطة ومغتصبان حكمت عليهما المحكمة

twitter @baghdad_library

أحكاماً مخفّفة - ماتوا جميعاً من جرعة الزرنيخ الذي كانت النساء يستخدمنه لإزالة شعر سيقانهن في الحمّامات العامّة حينذاك.

كان اكتشاف مرتكبات تلك الجرائم بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لمحققي إدارة الشرطة الجنائية بعد الكشف عن الموت نتيجة التسمّم بالزرنيخ. وحكم على عدد من النساء بالسجن المؤبد، وأصبحت بعض النساء الأخريات، بمن فيهن أمّي، يلاحقن سراً، وهكذا تفرقت مجموعة نساء القمر كلها».

«تبدو قصة مثيرة»، علّق فريد الذي لم يكن متأكداً من صحة هذه القصّة. كانت ليلى ترمقه وفي عينيها رقة، عندما أحست بأنه يشك بما سمع. أخيراً، لفّت لنفسها سيجارة ثانية.

«لا نريد أن نرتكب هذا الخطأ مرة أخرى»، واصلت قصّتها كأنّها لم تلحظ الملاحظة المليئة بالشك التي أبداها فريد، ومضت تقول: «اكتشفت الآن أحد الأسباب التي جعلتنا نخفق في تحقيق حريتنا كنساء في ذلك الحين. فإننا لا نعرف شيئاً عن أنفسنا وعن أرواحنا وعن تاريخنا أو على الأقل فإننا لا نعرف ما يكفي. لأن الرجال وصفوا كلّ شيء من وجهة نظرهم، وعندما استعبدونا منذ ألف سنة وسنة، قالوا إن علينا أن نكون سعيدات وممتنات وشاكرات لأنهم يحافظون علينا ويوفرون لنا الطعام وأنه يكفينا فخراً أننا نحفظ جنس الإنسانية بالحمل والولادة.

انظر إلى جامعة دمشق. فعلى المرأة التي تريد أن تحصل على شهادتها ألاّ تكسر المحرمات وألاّ تطرح أسئلة صعبة. فلأننا نساء يجب أن نقبل المعرفة التي يملكها ويصيغها الرجال والتي يحشرونها في رؤوسنا حشراً. إنه شيء مقرف.

عندما أدركتُ ذلك، تركتُ الجامعة. لم يكن ذلك بسبب سيمون كما يدّعي أفراد عائلتنا الأغبياء، بل لأنني رأيت أن الجامعة لن توصلني إلى هدفي الذي أبتغيه. سيمون عاتبني لسنين على فعلتي، أردت أن أكون برفقة نساء أخريات نبحث عن أرواحنا وعن تاريخنا. وكيف يمكنك أن تلتقي بعدد كبير من النساء في هذا البلد؟ إمّا أن أكون مصفّفة شعر وإما خيّاطة. فاخترت

مهنة الخياطة. الآن أصبحتَ تعرف سري»، وأطلقت ليلى تنهيدة ارتياح عندما شعرت أن فريد قد فهمها.

«هكذا إذاً فأنا إحدى نساء القمر. ونساء القمر لا يخترن أزواجهن وفق معايير المجتمع الذي يفضل الرجل الذي يبقي المرأة تحت سيطرته بقوة، أما نحن فإننا نختار الرجل الذي يدع المرأة تعيش بحرية. وهذا ما يهمني لا الجامعة ولا المال. إن سيمون يعرف كلّ شيء عني وهو يتقبّلني كما أنا، لذلك فهو زوجي».

«وهل يعرف كلّ شيء عنيّ أيضاً؟» سألها فريد.

«نعم، إنه يعرف أنني أحبّك. في البداية، لم يُبْدِ اهتماماً، لكن عندما التقى بك أعجبته كثيراً. إنه يفهمني ولم يعد يغار. لكنه أصبح ضدك عندما عرف أنك شيوعي متعصّب - إنه يكره الشيوعيين».

«هل وجدت نساء أخريات يؤيدنك؟» سألها فريد بسرعة محاولاً تحاشي هذا الموضوع الشائك.

«توجد أكثر من مائة امرأة منّا في دمشق، نلتقي في مجموعات صغيرة، وقد عزمنا على المضي حتى النهاية. لا بديل عن ذلك إذا أردنا أن نحافظ على كرامتنا».

«ولماذا كنتِ تبكين على الهاتف؟» سألها أخيراً.

جلست ليلى دون أن تأتي بحركة. شبكت يديها حول ركبتيها وحدّقت في نقطة على الأرض. اقترب منها وجلس على طرف السرير وأحاط رأسها بين يديه. كانت رائحتها رائعة.

رمقته ليلى ونشجت، «لقد أخذوا ندى وأوسعوها ضرباً حتى كادت أن تموت أمام كلّ الجيران، ولم يهبّ أحد لمساعدتها».

«ندى؟ من هي ندى؟»

«ندى فارس التي تعمل في مصنع النسيج. لقد قبض عليها رجال المخابرات البارحة لأنهم لم يعرفوا من الذي نظّم أول إضراب كبير في

twitter @baghdad_library

المصنع بعد تأميمه، المصنع الذي يوظف النساء فقط ويدفع لهن أجوراً تقيهن الموت جوعاً ويعاملن معاملة العبيد. إنهن يُغتصبن ويُضربن دون أن يخشى البرابرة حساباً، وهناك دائماً جيش من النساء الفقيرات الأخريات الواقفات في الخارج يستجدين عملاً مما يزيد الإدارة الرسمية قسوة.

«وهل نجح الإضراب؟» سألها فريد، مشوّشاً بعض الشيء لأنه لم يسمع عنه شيئاً في الصحافة الشيوعية ولا الرسمية ولا في الاجتماعات التي يعقدها حزبه.

«توقف الإنتاج طوال أسبوع،لكن النساء بقين محاصرات بالصمت فالأحزاب السياسية والنقابات لم تدعم النساء وتركوهن فريسة للنظام. جنّ جنون جهاز المخابرات. نساء ينظّمن إضراباً من دون أيّ دعم سياسي؟ كانوا يبحثون عن كبش فداء، وكانت ندى المسكينة مثالية بالنسبة لهم. لم تقُد الإضراب كما اتهمتها المخابرات، فقد شاركت في الإضراب مثل أي عاملة أخرى، لا أكثر ولا أقل، لكنها خريجة جامعية، محبوبة، مدقعة الفقر، تكسب قوتها من العمل في المصنع».

هدأت ليلى قليلاً وأخذت منديل فريد من يده ومخّطت فيه بصوت عال.

«حاصرت ثلاث سيارات جيب البيت الصغير الذي تعيش فيه في قرية القابون. رفع الجنود رشاشاتهم الكبيرة، وراحت طائرة هليوكوبتر تحوم فوق المكان. من يراهم يظن أنّهم على وشك أن يهاجموا إسرائيل. لم يكن أمام ندى أي فرصة. ولكي تنقذ أسرتها خرجت رافعة يديها. أوسعوها ضرباً حتى غابت عن الوعي، ثم جرّها الجنود على الأرض وألقوا بها في إحدى سيارات الجيب مثل خرقة ملطّخة بالدماء. لم يسمع عنها أحد شيئاً منذ ذلك الحين».

كانت ليلى لا تزال تنشج. ضغط فريد رأسها على صدره، فتعلّقت به.

«ابقَ معي. إني خائفة»، قالت.

قبل منتصف الليل، وجد الصمت المطبق المخيّم على الشارع طريقه

إلى الشقّة. كانت ليلى أول من لاحظ ذلك. وقفت وراء الستائر عند النافذة ونظرت إلى الشارع «ثمة شيء ليس على ما يرام. يبدو كما لو أن أحداً قد كنس الناس من الشارع فأصبح خاوياً»، همست بذعر، «افتح المذياع».

جلب المذياع الحقيقة: فقد كان هناك حظر للتجول بسبب ثورة يزعم أنه خطط لها عملاء بتمويل في بلد ما في الخارج. كان على السكان أن يتحلّوا بالهدوء وأن لا يغادروا بيوتهم من دون تصريح من الشرطة اعتباراً من الساعة العاشرة ليلاً حتى السادسة صباحاً.

هبت نسائم باردة محمّلة بشذى زهر الليمون على دمشق من جبل قاسيون. رفع فريد سماعة الهاتف واتّصل بالبيت. أجابت أمّه في الحال؟

«هل سمعتِ؟ يوجد حظر للتجول»، قال.

«أين أنت؟» سألته كلير، وأحست بالارتياح لسماع صوته.

«عند ليلى. لن أتمكن من العودة إلى البيت الآن. فقط أردت أن أخبرك».

«نعم، ابق هذه الليلة معها وبلّغها محبّتي وقل لها أن لا تدعك تعود في الصباح إلا بعد أن تتناول الفطور»، قالت كلير وضحكت.

«نعم، يا أمّي، أي شئ آخر؟»

«أريد قبلة وإلا أتيت إليك إلى بيت ليلى، سواء أكان هناك حظر تجول أم لا».

نفخ فريد لها قبلة عبر الهاتف وقال: «تصبحين على خير يا أمّي، وقولي لزوجك ليلة سعيدة عنّي أيضاً».

«إنه يشخر منذ فترة طويلة. يجب أن يذهب إلى عمله في وقت مبكر. إنه يضع التصريح تحت وسادته»، قالت وأغلقت الهاتف.

نام فريد على الأريكة قبالة السرير الكبير الذي تستلقي فيه ابنة عمته. عندما استيقظ، أعدّ لليلى الشاي وفطوراً بسيطاً.

twitter @baghdad_library

«صباح الخير يا عزيزي النازح»، قالت وقبّلته على جبهته. كان لا يزال نعساً. شدّته وراءها إلى الحمّام مثل حمار حرون.

عندما غادر البيت أحسّ أنه أخفّ من ريشة. خيّل إليه أنه سيشعر هكذا في الجنة، إن وجِدتْ.

«والآن لنرجع إلى الحياة الحقيقية»، قال لنفسه عندما رأى سيارة جيب عسكرية تمرق بسرعة من جانبه. لم يخطر بباله أن أبواب جهنم ستفتح لاستقباله.

كتاب الجحيم الأول

لكي نحترم حرية الآخرين
علينا أولاً أن نحترم أنفسنا

*

دمشق، جهنّا، ربيع ١٩٦٠ - خريف ١٩٦١

١٩٤- ليلو

شقّت الحافلة طريقها عبر الشارع المستقيم الذي كان يعجّ بالعربات وبالرجال الذين تنوء ظهورهم بالأحمال وبالمشاة والباعة المتجولين. لم يكن الأشخاص المنهمكون في الحديث الواقفون في وسط هذا الازدحام، يأبهون للأبواق العالية التي تطلقها الحافلة لإفساح طريق لا يكاد يكفي لمرورها كانت توشك أن تحفّ بثيابهم. كان السائق يلعن ويضغط بقوة على الفرامل لأن المشاة غير المبالين كانوا يصرّون على العودة وسدّ الفراغ الذي كانت تخلّفه الحافلة وراءها للتو، أو يجتازون الشارع أمام غطاء محركها تماماً وكأنهم يريدون الموت دهساً.

في خضم هذه الفوضى العارمة، كان سائق الحافلة لا يزال يجد وقتاً لإشباع غروره بنفسه فينظر في المرآة الخلفية ويبتسم لأي امرأة تقع في مجال رؤيته. كان رجلاً بديناً ذا كرش كبيرة، في منتصف الأربعينيات من عمره، يرتدي قميص سافاري، وشعره محلوق بأسلوب يشبه قليلاً أسلوب حلاقة روبرت ميتشوم، فقد كان فيلم «ليلة الصياد» الذي يقوم ببطولته لا يزال يُعرض في دور السينما في دمشق منذ ثلاثة أشهر. وكما كان جيمس دين

twitter @baghdad_library

معبود الشباب والمراهقين منذ أن عرض فيلمه «ثائر بدون قضية»، أصبح روبرت ميتشوم نموذجاً يحتذى به لجميع العزاب الذين ولى شبابهم. لكن مهما بلغت كمية المراهم التي يطلون بها شعرهم، ومهما حلّوا أزرار قمصانهم للكشف عن صدورهم المشعرة، كانت العزلة لا تزال تنضح من كلّ مسام أجسادهم.

يمدّ السائق رأسه من النافذة الجانبية الصغيرة ويشتم الأشخاص المحتشدين أمام الحافلة أو يحيّي أحدهم بصوت مرتفع. كان من الواضح أنه يقود الحافلة رقم ٥ التي تجتاز البلدة القديمة منذ فترة طويلة.

نزل فريد من الحافلة عند أقرب موقف لحارته، وتوجّه ماراً بموازاة صالون الحلاق ليلو. كان ليلو حلاقاً سيئاً لكنه كان محبوباً كريماً يصفه الآخرون بقولهم لو كان مقص ليلو بجودة لسانه المعسول وشايه الفاخر لأصبح أشهر حلاق في الدنيا.

ابتسم له ليلو وسأله بإيماءة من يده هل لديه وقت لاحتساء الشاي. كان السماور ذي الشاي العطر في دكانه جاهزاً على الدوام. فعندما يخلو صالونه من الزبائن، كان ليلو يقف أمام باب دكانه ويدعو أصدقاءه وجيرانه لاحتساء الشاي، وشعاره: يجب أن يكون صالون الحلاق ممتلئاً دائماً، لأن ذلك يجلب الفضوليين، وقبل أن يعرفوا ما يجري، يغادرون الصالون مخلفين شعرهم وراءهم، أو على الأقل يخلفون قصّة جميلة شائقة.

شكره فريد واعتذر. كان يهمّ بالانعطاف إلى حارته عندما لاحظ هيئتين كأنهما مخلوقان قادمان من الفضاء: عملاق طوله متران، ورجل مكعّب الشكل بحواف ناتئة يبلغ طوله متراً وخمسين سنتمتراً. وقفا أمامه على مسافة بضعة أمتار. تقدم العملاق باتجاه فريد بسرعة كبيرة وأمسكه من ياقة قميصه وسأله «قاتشم ديرف تنأ؟» لم يفهم فريد كلمة مما قاله. يبدو أن ذلك أثار سخط العملاق فلكمه بقوة على وجهه بقبضته اليسرى. من قسمات وجه المهاجم بدا أنه مصري. «تموكحلا بلقت نا ديرت تبحقلا نبا اي؟» سمعه فريد يزأر، أطاحت به الضربة إلى الخلف.

خوف شديد هبط كلوح ثقيل من الرصاص على صدره وراح يضغط على رئتيه. عندما سقط على الأرض لم يكد يستطيع أن يتنفّس. تقدم منه الآن الرجل المكعّب الشكل. اقترب ببطء كأنه يصارع قوة الجاذبية الأرضية، ثمّ رفع فريد إلى الأعلى كأنه عديم الوزن أو كأنه استحال إلى جندب، ووجّه إليه ضربة أخرى على وجهه. أطارت هذه الضربة ضحيته وألقت به بين ذراعي الشخص المرعب الآخر. في تلك اللحظة، رأى فريد الخيّاط العجوز مروان يرتجف من جراء الضربة من داخل دكانه وقد ابيضّ وجهه من شدة الخوف وكأنه هو الضحية.

أخيراً سمع فريد الرجل القوي المكعب يخاطب العملاق، «هذا يكفي كبداية. هيا بنا».

تكلّما الآن باللغة العربية لكن بلهجة مصرية.

منذ إقامة الوحدة مع مصر، شغل المصريون جميع المناصب الهامة في الدولة. ولم يكن هناك شيء مهين بالنسبة للسوري أكثر من أن يعتقله في بلده رجل مخابرات مصري.

أمسك العملاق ضحيّته من ياقته ثانية وجرّه إلى سيارة جيب مركونة في مكان قريب. حاول فريد الهرب. قد تعلم في الحياة السرية ألا ييأس وأن يحتفظ ببرود عقله ويفتش دوما على فرصة للنجاة. وبينما كانا يجرانه لم يتوقف فريد عن ركل العملاق في خصيتيه. أخيراً أصابت الركلة هدفها فأفلته الرجل متأوهاً، لكن المصري الثاني استجاب كالبرق ووجّه بقبضته لكمة قوية إلى بطن فريد قبل أن يبتعد الأخير خطوة ثانية عن العملاق. عندما وقع فريد رأى ليلو متسمّراً في مكانه مرعوباً فاغراً فمه رافعاً يديه وكأنه هو الذي تلقى الضربة.

بغضب شديد ركل العملاق فريد على كليتيه بقدمه الكبيرة وأمسك بيد سجينه اليمنى ولواها بسرعة وراء ظهره ثمّ فعل الشيء نفسه بيده اليسرى. أحسّ فريد بالأصفاد تحفر في لحمه. رفعه الرجلان وجرّاه إلى سيارة

twitter @baghdad_library

الجيب. أطلّ عدد من الجيران من عدة أبواب ونوافذ. كانت وجوههم شاحبة وكأنها من الجص وهم يحدقون في هذا المشهد.

انطلقت السيارة عبر الباب الشرقي وانعطفت يساراً. عندها فقط انطلقت صيحات من أفواه الجيران الفاغرة.

١٩٥- الاستجواب

كان المبنى الذي اقتادوه إليه واقعاً في وسط الشطر الحديث من مدينة دمشق وكان يبدو من الخارج مثل أيّ مبنى عادي مخصص للمكاتب. أما الشيء الوحيد غير العادي فيه فكان الحارس المتجهم المنتصب عند المدخل. يكتشف المرء فقط عندما يقترب من الباب لوحة صغيرة معلقة عند مدخل المبنى كتبت عليها عبارة «وزارة الداخلية».

دلفت سيارة الجيب مرآباً تحت الأرض، وقاد الرجلان فريد إلى طابق في الأسفل عبر صحن درج مضاء بالنيون، وسلّماه إلى سجّانين فتحا باباً حديدياً كبيراً ودفعاه إلى داخله.

وجد فريد نفسه في ظلام دامس وشمّ رائحة نتنة لاذعة خدشت منخريه. ذكّره ذلك بضبع كان قد جلبه فلاح قبل سنين أثناء الإحتفالات الشعبية بعيد الأضحى وراح يعرضه في قفص صغير. كان يضرب الحيوان وينكزه بعصا حادّة حتى يبدأ يعوي، وكان القفص ملطّخاً بغائطه.

ببطء شديد كيّف عينيه مع الإضاءة، وأتاح شقّ صغير بين الباب والحائط تسرب ضوء خفيف من الممر إلى الغرفة. شيئاً فشيئاً تمكّن فريد من تبيّن الوجوه. كان في الغرفة أكثر من عشرين طفلاً وبالغاً ومسناً. كانوا جميعاً مستلقين على الأرضية الخرسانية العارية المكسوة بالغائط والبول.

زحف أحد الأطفال على يديه ورجليه نحوه واستجدى منه سيجارة. لكن لم يكن لدى فريد سجائر. ملأت الرائحة النتنة رئتيه وأصبح يتنفّس بصعوبة شديدة. متى ستسمع رنا خبر إلقاء القبض عليه؟ فكّر بيوسف وبأمّه. كان متأكداً من أنهم يفكّرون به في هذه اللحظة. بغتة أحسّ بدفء يحميه.

نادى أحد اسمه. أفاق. كان السجّانان يقفان عند المدخل يحملان مصابيح كاشفة ويمسحان المكان بأضوائهما في شكل دوائر. كان رجلان بثياب مدنية ينتظران في الممر الذي تغمره إضاءة شديدة. قاداه نحو صحن الدرج مرة أخرى وصعدا به إلى الطابق الأول، ثم سارا في دهليز طويل مجتازين رجالاً ينتظرون، ثم إلى مكتب لا نوافذ له. عند الباب سلّماه إلى رجل داكن البشرة ذي وجه قبيح موشوم.

في المكتب نفسه، كان ملازم أول شاب، حليق الوجه، يجلس وراء طاولة مكتب. قاد الرجل ذو الوجه الموشوم فريد إلى كرسي ودفعه إليه من دون أن ينبس بكلمة، ثمّ أزال الأصفاد من يديه.

«جرّب أيّ شيء غبي، حاول أن تهرب بخطوة، وستجد نفسك ميتاً»، قال بلهجة مصرية قبل أن يغادر الغرفة.

تحدّث الضابط بلهجة دمشقية. كان دمثاً لكن متحذلقاً وراح يدوّن المعلومات الشخصية. دخل جندي وطلب من فريد أن يضع الأشياء الثمينة التي بحوزته بالإضافة إلى حزامه ورباط حذائه في علبة الكرتون التي مدّها نحوه. كان الضابط يراقب كل ذلك بلا مبالاة.

أحسّ فريد بأنه أصبح في قبضة خوف غريب. مدّ الضابط يده إلى قرص الهاتف وأدار رقماً واحداً. «أنا جاهز. يمكنك أن تأخذه الآن»، قال من دون أن تظهر على وجهه أي تعابير.

بعد قليل دخل جنديان طويلا القامة، وبعد أن قيّدا فريد مرة أخرى، قاداه إلى القبو. هذه المرة عدّ أربعة طوابق قبل أن يفتح الجنديان باباً معدنياً ثم دفعاه إلى ممر.

كان المكان مظلماً، ومرة أخرى شمّ رائحة بول نتنة. كانت لمبات عارية متباعدة تتدلى من السقف الخرساني بكابلات صلبة. اجتازوا أبواب زنازين حديدية سمع فريد من خلفها أصوات لكمات وأصوات صراخ نساء ورجال. بدأت دقات قلبه تتسارع واصطكت ركبتاه، لكن الجنديين أخذا يجرّانه. لم تكن هناك نافذة في أي مكان. دهليز يليه دهليز في نظام المتاهة

twitter @baghdad_library

ذاك. اعتراه شعور بالدوار. أخيراً ظهر المدخل إلى صحن الدرج ثانية وقاده الجنديان إلى الدهليز ثمّ توقّفا، كأن أمراً قد صدر لهما.

حاول فريد أن يتنفس بانتظام، وأصاخ السمع. سمع ضحكة صاخبة وصيحة مخنوقة في مكان قريب. عاد أحد الجنديين خطوة إلى الوراء، توقّف عند الباب ودفع لوحة معدنية جانباً تغطي نافذة صغيرة في الباب ونظر عبر النافذة. أضاء وجهه قليلاً. أشار إلى الجندي الآخر الذي قاد فريد نحو الباب.

نظر فريد عبر النافذة، كانت الغرفة تكاد تكون فارغة، وكانت تنيرها ثلاثة أضواء نيون كبيرة جعلت الجدران تبدو بيضاء كالثلج. كان فيها رجل عار ممدد على ظهره فوق طاولة في منتصف الغرفة، قدماه مقيدتان بحبال نازلة من السقف، وكان يقف أمام الطاولة جندي أنزل بنطاله إلى الأسفل، ويدفع قضيبه الضخم بقوة في الرجل. كان الرجل ينزف دماً. كان يصرخ، عيناه واسعتان من الألم والرعب. لكن لم يكن يتسلل من الكمامة في فمه إلا صوت أنين مكتوم. كان هناك جندي آخر يجلس قبالته يدخن ويضحك مع كلّ صيحة.

أشاح فريد بوجهه. فجاءته ضربة قوية على وجهه على الفور.

«انظر جيداً يا ابن الزانية»، قال الحارس. لم يشعر فريد بأي ألم بل خيّل إليه بأنه سيتقيأ. بعد لحظات قاده الجنديان مرة أخرى وفتحا باباً آخر. كانت الغرفة فارغة إلا من كرسي معدني صدئ وطاولة قديمة قذرة عليها منفضة مليئة بأعقاب السجائر. كان على فريد أن يقف أمام الطاولة. اختفى أحد الجنديين وبقي الآخر معه.

بعد قليل عاد الجندي الأول ووقف باستعداد مسنداً الباب لكي يظل مفتوحاً. دخل ضابط مكتنز الجسم إلى الغرفة، يتأبط ملفاً سميكاً. كان داكن البشرة، يرتدي بدلة مبللة بالعرق ويضع نظارة سميكة جعلت عينيه تنكمشان وتصبحان بحجم خرزتين صغيرتين.

«إذاً من لدينا هنا؟» سأل بلهجة عرفها فريد من الأفلام المصرية.

«فريد مشتاق، شيوعي، يرأس منظمة الشبيبة في الحزب»، أجاب الجندي.

«لنختصر الأمر ونجعله حلواً»، قال الضابط بنبرة تكاد أن تكون أبوية وهو يتفحص فريد من الأعلى إلى الأسفل، «فأنت فتى حسن التربية من عائلة معروفة. لقد ضُلّلتَ وخُدعت وجُذبت إلى صفوف هذه الشيوعية الأجنبية المستوردة». جلس على الكرسي ثم فتح الملف واستل منه ورقة وقال: «هيا وقّع على هذه الورقة واذهب. لا بد أن أمّك قلقة عليك».

دفع الضابط الورقة إليه. كان فريد يعرف هذه الورقة من تقارير الحزب العديدة: تصريح موحد يعبّر فيه الشيوعي عن الندم والخضوع التام لرئيس الدولة. وبالتوقيع عليه فإن السجين يدين الشيوعيين كعملاء وأنه مستعد لعمل أيّ شيء في سبيل خدمة الوطن حتى ولو كان ذلك ضد عائلته ورفاق الأمس. وهذا يعني بوضوح أنه سيصبح أداة في يد المخابرات. كانت أوامر الحزب الصريحة تقول بألاّ يوقع أي شيوعي على أي تصريح تحت أيّ ظرف كان، وأن كل من يفعل ذلك سيطرد من الحزب ويوسم بالخيانة علناً، ولا يعتبر المرض أو الضعف عذراً. لذلك أصبح أعضاء الحزب الشيوعي في معضلة: فإما أن تموت وإما أن تصبح خائناً. فقرّر فريد الموت. هزّ رأسه رافضاً.

«هل رأى أي منكما شيئاً كهذا من قبل»؟ سأل الضابط الجنديين وكأن لهما خبرة سائح رأى قارات الأرض الخمسة، وأردف يقول «إني أكلّمه كصديق، وهو يهزّ رأسه. إنه عنيد كالحمار. ما رأيكما؟» لم ينتظر رداً منهما، بل التفت إلى فريد وأشار إلى الورقة.

«وقّعها واخرج من هنا. يمكنك أن تذهب إلى السينما وتقبّل صديقتك وتنام نوماً هنيئاً في البيت. أما البديل فهو أن تموت ولن ينزعج أحد لمصيرك. حتى الزعماء الروس يركعون أمام قائدنا البطل سطلان. فكّر في الأمر. سيأتي يوم وتقول لنفسك: يا ليتني استمعت إلى النقيب محسن، ما

twitter @baghdad_library

كان أشدّ غبائي. لأنك إذا رفضت ستدخل في متاهة لن تخرج منها حياً. حسناً هل تريد أن نعيد النظر في الأمر معاً؟»

«لن أوقّع على شيء»، قال فريد بحزم. ضربة قوية هبطت من وراء رأسه وأوقعته أرضاً.

«يا ابن الكلب، يجب أن تبدأ كلامك وتنهيه بكلمة يا سيدي»، سمع الجندي الواقف وراءه يقول له.

«لا، لا يا إسماعيل. أعرف أن نواياك حسنة، لكن فريد ليس واحداً من الأشخاص البدائيين. إنه مشعل منير في الحركة وطالب جامعي ذكي، فاكبح جماح نفسك قليلاً وساعده على النهوض، أرجوك»، قال الضابط بلطف مصطنع قزز نفس فريد. استدار إلى ضحيّته وتحدث بنبرة لطيفة، تفسيرية، «لماذا تكرهون انتم الشيوعيون وطنكم الجميل هذا إلى هذه الدرجة؟ بالتأكيد ليس هناك سبب». لأول مرة استشاط فريد غضباً. هنا، في غرفة التعذيب هذه، يتحدث هذا الثعبان القابع أمامه عن الوطن الجميل الغالي.

كان فريد يودّ أن يجيبه، «أتعرف شيئاً من حقيقتك ايها الضابط؟ هل قالها أحد لك؟ إنك أكبر طيز على سطح هذه الأرض»، لكن الذعر تملكه، فلم يزد على أن هزّ رأسه.

ثمّ اقترب منه الجنديان. تهاوى فريد على الأرض. جرّه أحدهما وركله في كليته. كان الشيء الأخير الذي أحسّ به هو ألم حادّ.

١٩٦- على أبواب جهنم

أيقظته الضوضاء العالية من نومه المضطرب. «انهض! انهض!» صاح حارس وهو يفتح باب الزنزانة المجاورة بنفس القدر من الجلبة. لم يكن فريد يعرف كم الساعة الآن، ونسي أيضاً منذ متى تم استجوابه. فقد توقّفت ساعته الداخلية عن العمل، ولم يكن هناك شيء يمكن أن يساعده على قياس إيقاع الزمن. كان الحرّاس يتركونه أحياناً بدون طعام لفترة طويلة، ثم يحضرون له قليلاً من الحساء الشنيع وقطعة خبز.

وكان على السجناء في ذلك اليوم الوقوف في الممر بجانب أبواب زنازينهم. في نهاية الأمر تسمّر في الممرات حوالي خمسين رجلاً اقتيدوا بعدها إلى المرآب حيث كانت شاحنة يشبه هيكلها العلوي الصندوق في إنتظارهم لنقلهم إلى أحد معسكرات الاعتقال. كان جميع السجناء مقيّدين ببعضهم بعضاً.

في الخارج كان النور ساطعاً. تسلقوا بجهد إلى صندوق الشاحنة المرتفع، همس البعض بأنهم سيقتادوهم إلى سجن جهنّا في البادية شمال شرق دمشق وهو لا يبعد اكثر من ٢٠ كم عن العاصمة، وهمس البعض الآخر بأنهم سيأخذوهم إلى تدمر، أسوأ السجون قاطبة، وهو معسكر اعتقال في الصحراء شمال شرق العاصمة ويبعد عنها أكثر من ٢٤٠ كم ويقع في شرق مدينة تدمر السياحية الشهيرة. قاد السائق الشاحنة عبر المدينة الجديدة، وبدأ السجناء ينظرون من خلال الشقوق بين ألواح الهيكل العلوي. تعرّف بعضهم على الشوارع التي يقيمون فيها وبكوا. عندما علقت الشاحنة في زحمة المرور بعد حوالي مائة متر، رأى فريد فتى في السادسة من عمره تقريباً جالساً في حديقة تحت شجرة قيقب، يتناول البوظة بجانب أمّه التي كانت تحيك شيئاً. تذكر فريد كلير وعضّ شفته بتشنج، ورأى على بعد بضعة أمتار رجلاً يقف خارج باب بيته وهو يجفّف يديه بمنشفة. عندما رأى الشاحنة نادى أحداً من داخل البيت فظهرت امرأة حافية، وراحا ينظران إلى الشاحنة. أراد فريد أن يناديهما لكنّه كان يعرف أن لا فائدة ترجى من ذلك. بعد قليل واصلت الشاحنة طريقها وخرجت من المدينة واتجهت شمالاً. كان فريد يعرف هذا الطريق، فهو الطريق الذي يمر بمدينة حرستا ودوما المؤدي إلى معلا. لكن بعد قليل، انعطف السائق إلى اليمين. تعرّف أحد الرجال على هذا الطريق وهمس «إنه الطريق إلى جهنّا». أحسّ معظم السجناء بالارتياح لأنهم لم يكونوا متوجهين إلى تدمر، وهمس رجل بقرب فريد ساخراً: «ما بيعرفوا شي بالجغرافيا» وشرح هذا الأستاذ المعتقل بلهجة شامية لفريد أن هذا الطريق هو نفسه الذي يوصل إلى تدمر لكن أحداً لم يجرؤ على

twitter @baghdad_library

تحطيم نفحة الأمل والارتياح في نفوس هؤلاء المعذبين، لكن إحساسهم بالارتياح لم يدم طويلاً.

توقّفت الشاحنة بعد ساعة تقريباً امام سجن جهنّا الكبير، وفتح ضابط صف البوابة وأمر السجناء بأن يترجلوا من الشاحنة ويجلسوا القرفصاء على الأرض.

قبعوا أمام سور كبير وبوابة في أرض يملؤها الغبار وكانت المدينة تعلن بضجيجها الحيوي قربها من هذا الجحيم. وكاد فريد يشعر بالطمأنينة لكن رؤية الحرّاس جعلته يشعر بالحاجة إلى التقيّؤ. فقد وقفوا في صفّين، مشكّلين ممراً نحو بوابة السجن. لم يحملوا أسلحة، بل أغصان أشجار غليظة جردوها من أوراقها التي كانت وكأنها خجلة تحاول مع كل هبة ريح أن تبتعد عن المكان.

ضحك الحرّاس. بدأ فريد يبحث بيأس عن وجه تلوح فيه على الأقل ومضة من الإنسانية، لكن تلك الابتسامة السادية العريضة كانت ترتسم على وجوههم جميعاً. وطُلب من السجناء أن يسيروا عبر الممر مثنى مثنى صوب البوابة حيث كان ضابط برتبة عالية يجلس إلى طاولة كبيرة إلى جانبيه ضابطان آخران. بدأ السجينان الأولان يسيران بين الصفين اللذين شكلهما الجنود، وبدأت الأغصان تنهال عليهما، وكانت تنهال ضربات أقسى على الشخص الذي يسقط على الأرض، ثم يصيح ضابط الصف: «الاثنان التاليان».

تهاوى العديد من السجناء على الأرض، مغلقين الطريق أمام الرجلين القادمين بعدها انهال عليهما الحرّاس بضربات أقسى وأشدّ. أصابت فريد الضربة الأولى عندما قطع ثلث الطريق. تعثّر بسجين آخر لكنه استوى واقفاً بسرعة وجرى صوب الطاولة. ظلت الضربات تنهال عليه فتهاوى أخيرا على الأرض. كان السجناء يقفزون إلى الأمام والخلف ويدوسون على الأجساد المطروحة أرضاً كأنهم يؤدون رقصة وحشية، يأتون معاً كسرب سمك مذعور ثم يتبعثرون. ألهبت الضربات الشديدة ظهر فريد، وسحُجت يداه وذراعاه وركبتاه من الحصى على الأرض.

عندما وصلوا جميعاً إلى البوابة أمرهم عريف في الجيش أن يخلعوا ثيابهم. كان بعض الحرّاس يضحكون، ويمسكون خصياتهم ويشيرون بها إلى مؤخرة السجناء.

إن البشر بغيضون، قال فريد لنفسه عندما رآهم. أخذ الحرّاس الوسخون الملطخون بالوحل الذين كانت الندوب تكسو وجوههم يضحكون على السجناء. ابتسم أحد الضبّاط الجالسين إلى الطاولة ابتسامة عريضة ساخرة وقال: «هؤلاء ليسوا سوريين أشراف، بل هنود حمر»، وأشار إلى البقع التي تلوّن أجسادهم. ثم حلق عاملان في السجن رؤوس السجناء الجدد، الواحد تلو الآخر. كانوا يفعلون ذلك بفظاظة وقسوة شديدتين إلى حدّ أن الكثيرين منهم بدأوا ينزفون دماً. بدأ سجين يبكي كطفل ويصيح «أمي، أمي. إني بحاجة إليك، أمي».

كان أمراً مفجعاً. حتى إن الجنود أخذوا يحدّقون بحيرة وبدهشة إلى الرجل الذي لا بد أنه كان يقارب الستّين من العمر، وأجهش سجناء آخرون في البكاء أيضاً. أخذ الضبّاط يضحكون على الرجل العجوز المجنون ثم شاركهم الحرّاس في ذلك بانصياع شديد.

همس صيدلي وهو مسؤول ثقافي في حركة الإخوان المسلمين بارتياب، «لا يمكن أن يكون هذا حقيقياً. إننا لسنا في سورية. لا بد أننا أُختطفنا ونقلنا إلى إسرائيل. فليس من الممكن أن نُعامل بهذه الطريقة في بلدنا. أقسم بالله أن هؤلاء كفار! كيف يمكن للمسلمين أن يعذّبوا إخوتهم في الإيمان هكذا».

أصابته ضربة شديدة على وجهه فصمت. مرة أخرى سأل الضباط كلّ سجين إن كان مستعداً للإعراب عن ندمه وتوقيع تصريح يبدي ذلك. وافق ثلاثة رجال على التوقيع. صاح أحدهم بصوت مرتفع «سامحوني يا رفاق، فلا يمكنني تحمّل المزيد». وقف السجناء الآخرون صامتين مطرقي الرؤوس. ثم اقتيدوا عبر البوابة إلى داخل السجن، عراة حليقي الرؤوس.

فجأة سمعوا الرجل العجوز الذي كان يبكي ويستنجد بأمّه يضحك

twitter @baghdad_library

وراح يردد «هل لا تزال الحفلة مستمرة؟ متى سيبدأ العرس؟» بعد فترة قليلة، أعيد هو والمعتقلان التائبان الآخران إلى دمشق في حافلة صغيرة، وأشيع بين السجناء بأنهم سينقلونه إلى مستشفى المجانين التي تعرف بين الناس باسم «العصفورية».

كان فريد والقادمون الجدد الآخرون وحدهم في الساحة الآن امام المباني. رأى سجيناً يبدو أنه كان هنا منذ فترة يدفع عربة يد كبيرة مليئة ببدلات السجن الرمادية المخططة وكأن إدارة السجن نسختها عن فيلم أمريكي. عندما وصل إلى وسط الساحة أسقط حمولته في الأرض وسار ببطء صوب مبنى طويل وراء المهاجع. خمّن فريد أنّه المطبخ ومستودع للألبسة لأنه رأى دخاناً يتصاعد من المبنى. عاد الرجل عدّة مرات وهو يجر عربة اليد مضيفاً المزيد من الألبسة فوق الكومة.

في تلك الليلة، عندما جافاه النوم، حاول فريد التفكير برنا، لكنها ظهرت في مخيلته بسرعة ثم غابت في ظلام عميق. كما هرب منه خيال ليلى.

ثمّ رأى أمّه تكفكف دمعة وتبتسم بارتباك ثم هربت أخيراً. جرى خلفها. كانت تجري بسرعة أكبر، حتى لحق بها أخيراً وأمسكها من كتفيها. التفتت، ودهش عندما رأى امرأة غريبة. أفاق وكان الهدوء يخيم على المكان لا يعكره إلا نباح كلب.

فقدت الأيام في السجن، تماماً كالسجناء، أسماءها. وبالصدفة سمع حارساً يقول إنّه يتطلّع إلى الغد لأنه يحبّ يوم الخميس أكثر من أي يوم آخر.

في حياة أخرى بعيدة، كان فريد يدرس الكيمياء الفيزيائية لساعة في يوم الخميس ثمّ علم الميكانيك لساعة أخرى، ثمّ ساعتين من الجبر بمعادلات طويلة، وحساب التفاضل، وجداول اللوغاريتم. كانت مواضيع صعبة. كان فريد يحبّ الكيمياء العضوية، ولو خُيِّر لأمضى كلّ وقته في المختبر حيث يقوم بتركيب مركّبات جديدة. فقط هناك كان يشعر بأنه عالم كيمياء حقيقي.

سيؤدون امتحاناتهم النهائية في هذه الفترة، ولن يفكّر به أصدقاؤه وزملاؤه بل سيفكّرون بالأسئلة التي ستطرح عليهم. يا للغرابة، فلم يسبق له أن تساءل عن الطلاب الذين توقّفوا فجأة عن المجيء إلى المحاضرات.

استدار واستلقى على جانبه ونام.

١٩٧- سعيد

في اليوم التالي، اقتيد فريد إلى قائد السجن. كان النقيب حمدي قد تجاوز الخمسين من العمر وكان يبدو أكبر سناً من رتبته المتدنية التي يتقلدها طالب بكالوريا بعد ثماني سنوات في الجيش وهو في نهاية العشرين من عمره. سأله الأسئلة المعتادة مرة أخرى. احتقره فريد ولم يجب على أسئلته. لكن عندما قال له الضابط ابن قحبة، تلاشى كل خوفه.

«أنا لست ابن قحبة، وأظن أن أمّك أيضاً ليست قحبة».

شلّ هذا الجواب الضابط للحظة، لكن بدا أن شيئاً قرصه فوثب على فريد وأوسعه ضرباً وركلاً. كما لو أن آلاف السنين من الحضارة قد تلاشت، استحال فجأة إلى قرد يجثم فوق صدر السجين وهو يجأر.

عندما استرد فريد وعيه، ألفى نفسه في المهجع محاطاً بالسجناء الذين كانوا يرمقونه بقلق. لم يكد يستطيع أن يتحرّك.

«ماذا فعلوا بك يا بني؟» سأله رجل مسنّ يدعى سعيد، اعُتقل رهينة بدلاً من ابنه لإرغام الابن الذي كان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين على تسليم نفسه. كان سعيد يتجاوز السبعين من العمر، والغريب أنه لم يكن مؤمناً مطلقاً، لكنه أصبح الآن سجيناً بسبب معتقدات ابنه المتطرّفة.

لم يستطع فريد أن يحرّك فمه. كان فكّه يؤلمه.

«في بعض الأحيان»، قال سعيد وهو يهزّ رأسه، «يتكلّم صوت كافر في داخلي، يخاطب الله ويقول له: إن كنت موجوداً حقاً يا الله فامسخ قائد السجن إلى جرذ أمام أعين الجميع. لكن ذلك لن يحدث».

«أنت محقّ، هذا كفر»، صاح به شابّ ملتح.

twitter @baghdad_library

«حتى أكون صادقاً معكم، فأنا لا أؤمن كثيراً بوجود إله قدير يخذل عباده الصادقين مثلكم ويتركهم يواجهون مثل هذا العدو البائس»، أجاب سعيد، بضحكة تشي بالمرارة، ومسّد جبهة فريد.

«قال»، تمكّن فريد من القول بمشقة كبيرة، «قال إن أمّي قحبة. كذبته. هذا كلّ ما في الأمر».

هز الرجل العجوز رأسه.

١٩٨- الصيني

لم يمر يوم واحد من دون أن يؤخذ أحد من زنزانته ثم يعاد إليها بعد ساعات عديدة، وهو لا يعدو كونه أكثر من كومة لحم دامية وبائسة. كان نصف نزلاء السجن سجناء سياسيين والنصف الآخر من المجرمين المخضرمين ذوي العيار الثقيل، لكن العذاب كان على الأغلب من نصيب السجناء السياسيين، لم يكن حرّاس السجن يحتاجون إلى سبب للقيام بذلك فقد كانت لديهم حريّة مطلقة في تعذيبهم عندما وكيف يشاؤون.

كان أحد النزلاء في مهجع فريد ملحناً مشهوراً ومن أتباع البعث العراقي، لا يتوقف عن عزف ألحان وأنغام مختلفة بملعقة أو بعصى. وفي أحد الأيام، عزف ببراعة شديدة بملعقتين لحناً على قضبان الحديد، فجاءه الحارس أبو ساطور وسأله «لمن توجه هذه الرسالة؟»

«لأمّي»، أجاب السجين، مجفلاً. ضحك الجميع. ابتعد أبو ساطور المتجهم خطوتين ثم توقّف، وعاد إلى الملحن وسحبه إلى الساحة وراح يضربه بالسوط الذي أحدث في جلده جروحاً كالشفرة.

«هذا الصيني اللعين»، شتم سجين آخر كان يقف بجانب فريد عند قضبان بوابة الزنزانة الحديدية. كان فريد قد سمع قبل أيام أنّ هناك حارسين أو ثلاثة حرّاس يحبّون لعق الدم الطازج العالق على سياطهم. وأبو ساطور الملقّب بالصيني أسوأهم. كان طويل القامة، ذا قسمات آسيوية، قوياً جداً كالثور. عندما ينهال ضرباً على سجين كانت رؤية الدم تجعله يشعر

بالانتشاء، وسرعان ما يتلاشى غضبه وتصقل وجهه ابتسامة وتحوله إلى قناع صيني. كانت تغمر أبو ساطور بهجة كبيرة وهو يعذّب السجناء حتى يتدفّق منهم الدم. كان يعرف أنه من أحطّ البشر وأسفلهم قدراً، مثل كل قواد أو جلاد لم يكن يجرؤ على البوح بوظيفته أو بما يقوم به هنا في السجن لكل معارفه وأقربائه خارج أسوار السجن. لكنه مع ذلك، لم يحلم أن يكون شيئاً آخر ذات يوم غير ما هو الآن عليه، لأن الآخرين يخافون منه في السجن. ففي هذا المكان يستطيع أن ينتقم من جميع الرجال المرموقين الذين استحالوا الآن إلى مجرد أشخاص محطمين بائسين تفوح منهم روائح نتنة. ويا لسعادته الغامرة، وكم يفرح ذلك الصبي الجائع في قرارة نفسه وذاكرته، الذي أمضى معظم أيام طفولته وشبابه في السجن، عندما يسمعهم يستجدونه ويتوسلون إليه بأن يرحمهم. فكم مرّة ضُرب بالسوط في الماضي؟ وها هو الآن يجد متعة كبيرة في الانتقام، خاصة عندما يكون ضحاياه رجالاً مثقفين يفوقونه مقاماً في السلم الاجتماعي إلى درجة كبيرة: أساتذة جامعات، صحفيون، أطباء، وزراء، نوّاب في البرلمان، بل حتى رؤساء شرطة، وها هو الآن يشبعهم ضرباً بالسياط.

شعر أبو ساطور بسعادةً في هذا السجن، فقد كان يوفّر كلّ رواتبه ويقدم لزوجته هدايا بين أسبوع وآخر، وقد ازدادت في الآونة الأخيرة. كان السجناء على استعداد لتقديم أيّ شيء له مقابل قدر ضئيل من الحشيش أو قنينة عرق أو قليل من الخبز. كان النقيب حمدي رجلاً محنكاً، فكان يترك الحرّاس ينعمون بهذه الرشوات الصغيرة كي يجعلهم يشعرون بالسعادة في هذه البيئة الكئيبة التي يعيشون فيها ويطيعونه كالعبيد.

في عصر ذلك اليوم، عندما ضرب أبو ساطور الملحن في الساحة، غاب ضحيّته عن الوعي، فتركه الصيني ملقى في وسط الساحة تحت أشعة الشمس اللاهبة وذهب كأن الملحن قطعة خشب لا حياة فيها ولا كرامة لها، بعد فترة جاء جنديان وسحبا الرجل إلى المهجع وسألا «ماذا فعل هذا الشيطان المسكين؟»

twitter @baghdad_library

«كان يلحن أغنية حبّ»، قال سعيد العجوز.

«لا أستطيع أن أفهم هؤلاء الناس»، قال الجندي الأصغر قامة، «فعلى الرغم من أنهم يعيشون وسط الجحيم، لا تزال في عقولهم تلك اللوثة».

١٩٩- أطفال أيوب

تعرّض خمسمائة سجين للترويع ليل نهار على يد أكثر من مائة ضابط وجندي وحارس مدججين بالسلاح جميعهم سوريون على عكس المخابرات في دمشق التي يقودها مصريون. أدرك فريد أن إدارة السجن تهدف إلى تحويل ومسخ هؤلاء الرجال الأذكياء لمجرد حيوانات من خلال ضربهم وتجويعهم، والأكثر من ذلك، الإمعان في إذلالهم. فمن الممكن إجبار السجين على تقليد الحمار أو الكلب أو الخروف متى اراد ذلك أي ضابط. والشيء الذي أصاب فريد بالذهول حتى البكاء رؤية أستاذ رياضيات جامعي وقد أرغم على السير وراء أبي ساطور حول الساحة وهو جاث على يديه وركبتيه يعوي مثل كلب.

كان من الواضح أن تقليد أصوات الحيوانات يشكل جزءاً أساسياً في نظام السجن بعد أن لاحظ أن الحرّاس يطلبون منهم القيام بذلك باستمرار. فكانوا يجلسون في الفيء تحت مظلّة ويشرعون في إذلال سجنائهم، والويل لمن يرفض أوامرهم أو يتوقّف عن تنفيذ ما يفعله قبل أن يأمره الحرّاس بذلك.

في أحد الأيام اختير سعيد ليكون الضحيّة، بكى فريد عندما رأى الرجل المسن الذي لم يكن يستطيع اللحاق بالحارس الذي جرى بسرعة بينما كان سعيد يحبو على أربع جرّوه في الساحة كلها بطوق جلدي معقود حول رقبته. تهاوى سعيد على الأرض، وهو يتنفس بصعوبة شديدة، ولم يتوقف الحارس عن ركله في خاصرته والسخرية منه.

في ذلك المساء، تحلّق جميع نزلاء مهجع فريد حول الرجل العجوز لتدارس وضعهم. قال أحدهم ويدعى فرحان: «إنهم لا يهدفون إلى قتلنا

وإلا لكانوا قد أطفأوا النار علينا وقتلونا منذ زمن. إنهم يريدون أن يحوّلونا إلى حيوانات كي ننسى أننا كائنات حية جميلة لنا قيمتنا ولدينا حضارة وثقافة تعود إلى ثمانية آلاف سنة».

بغتة أنهت هذه الإهانة الشديدة التي لحقت بسعيد العجوز كلّ مشاعر العداء بين الإخوان المسلمين والشيوعيين والجماعات الأخرى. فقد عزم الجميع على مقاومة مخططات سلطات السجن، وانتقلت كلمة إلى جميع المهاجع الأخرى. وفي ١٥ آب أنشأوا برنامج «الإنسانية» أطلقوا عليه بناء على اقتراح سعيد اسم «جامعة أيوب» بقيادة سرّية مؤلفة من حوالي عشرة سجناء. كان كل ذلك يتم بواسطة كلمة تنتقل من فم إلى فم لعدم وجود أقلام رصاص أو أوراق في السجن.

فقد كان أي شخص يجيد موضوعا معيناً يلقي محاضرات عنه، ويتحول الآخرون، مهما بلغت درجة تعليمهم، إلى تلاميذ ويصبح بوسعهم تعلّم أيّ شيء. كانت تلقى في المهجع الذي ينزل فيه فريد محاضرات عن التاريخ والدين والكيمياء وتصليح السيارات والتغذية والإسعافات الأولية والفلسفة والشطرنج وطاولة النرد ولعب الورق والجغرافيا. وفي مهجع آخر، كان اختصاصي مشهور يلقي محاضرة عن الشعر العربي في العصر الإسلامي، كان آخرها محاضرة عن المنمنمات الفارسية. وألقى أساتذة وأدباء في المهجع الكائن بجانب المطبخ محاضرات عن أعمال شكسبير واللورد بيرون و ت. س. إليوت ووليام فوكنر وبابلو نيرودا. وتأثر السجناء برواية الأمّ لغوركي وذرفوا دموعاً وضحكوا بملء قلوبهم من كتب الهجّاء الإنكليزي الأيرلندي جوناثان سويفت.

وحكى بعضهم قصصاً عن روايات تولستوي وأنشد أحدهم بصوت حنون قصائد ناظم حكمت عن الحرية وكان يتقنها عن ظهر قلب بالتركية والعربية. وكان هناك طالب شاب في المهجع رقم ٩ يعرف قصص عدّة روايات لبلزاك، وحكى رجل أكبر سناً قصصاً عن شهرزاد من ألف ليلة وليلة بأسلوب حيوي تصويري أسر مستمعيه.

twitter @baghdad_library

والغريب أن أحد أبرع الحكواتية بين هؤلاء السجناء كان مجرماً، وهو قواد سابق وقاتل قتل عدة أشخاص، وحلّ به المطاف في هذا السجن لأن أحد ضحاياه كان ضابطاً كبيراً في المخابرات وكان ينافسه في دمشق.

دهش فريد من هذا الرجل الذي كان سلوكه تجاه السجناء الآخرين في غاية اللطف، وكان يدأب على مشاهدة الأفلام لأنه أمضى جلّ وقته عندما كان يعمل قواداً في السينما. فقد كان ينتقل من سينما إلى أخرى في دمشق، منذ الصباح حتى المساء ثم يرافق العاهرات الثلاث اللاتي كن يعملن لحسابه إلى أحد المطاعم وهناك يقبض حسابه منهن في تلك الليلة. وفي بعض الأحيان كان يحجز جميع مقاعد السينما ويطلب من صاحب السينما أن يعرض فيلم «كازابلانكا» أو «ذهب مع الريح» له وحده فقط، ويجلس في وسط الصالة ويبدأ ينشج مثل طفل بائس عندما يرى المشاهد المثيرة.

وبما أنه كان قد شاهد جميع تلك الأفلام عدة مرات، فقد كان في استطاعته أن يمثّلها في السجن، كاملة مع الحوار، يحاكي حركاتها والتعابير والتأثيرات الصوتية فيها. كان له صوت رائع يستخدمه لتقليد حوالي عشرة أشخاص ومجموعة لانهائية من الأصوات الطبيعية، وكان بإمكان مستمعيه أن يشعروا بحرارة وغبار أفلام الكاوبوي، وكان يرقص ويغنّي مع شارلي شابلن في فيلم «حمى الذهب».

وفي بعض الأماسي تليت قصائد هجاء وأغاني وأناشيد لكن الجميع كانوا يفضلون سماع القصص المتسلسلة. وكان عدد من السجناء يطيلون قصّة واحدة لعشرين أمسية، بل تمكن بعضهم من إطالتها حتى خمسين حلقة دون أن يفقد خيط القصة.

كان النقل العشوائي للسجناء من مهجع إلى مهجع، وهو أسلوب منظّم للعقاب في السجن لمنعهم من إقامة صداقات فيما بينهم، لصالح جامعة أيوب لأنه كان يجلب تنويعاً للبرنامج الثقافي.

٢٠٠- قوّة الكلمات

أسس صحفيان أول مجلة في السجن لعلها كانت المجلة غير الورقية الوحيدة في العالم وأطلقوا عليها اسم «وردة أريحا»، لأن هذه النبتة الصحراوية تكوّر جذوعها اليابسة لتشكل كرة تتدحرج مع الريح كيفما شاء في البادية. وتظل جافّة بلا حياة فيها حتى تهطل الأمطار فتنتعش وتخضرّ مرة أخرى.

كانت هناك مقالات افتتاحية ومقابلات وأخبار ورسائل قرّاء وردود من هيئة التحرير ومقالات وقصائد هجاء ورسوم كاريكاتورية. لكن كان كل ذلك ينقل شفوياً. كان نزلاء المهجع رقم ٩ الذي تصدر منه «وردة أريحا» يستمتعون بها صفحة صفحة.

وكانت مهمة بعض الرجال ممن يتمتعون بذاكرة قوية حفظ محتويات الصحيفة عن ظهر قلب، ثمّ نقل محتويات آخر عدد إلى سجناء المهاجع الأخرى عندما يلتقون بهم في الساحة أثناء ساعة «التنفس» أو عندما ينقلون كعقاب إلى مهاجع ثانية وهؤلاء كانوا يملون بدورهم محتوياتها للآخرين. ولم يكن يمر أسبوع من دون أن توزع فيه أكثر من عشر نسخ من العدد نفسه.

ثم وضع مقدما برامج إذاعية سابقان برنامجاً إذاعياً ساخراً وأطلقا على محطتهما اسم «إذاعة المرحاض الترابي». كان البرنامج الذي يذاع في الليل يحتوي على أخبار ونصائح ومسابقات وأغانٍ. كان أحد المقدّمين فلسطينياً والآخر شيوعياً من دمشق كان قد فقد عينه اليمنى أثناء التعذيب. سرعان ما أصبح صديقاً لفريد. كان المقدّمان يجمعان أخباراً طوال اليوم. فقد كان بعض الجنود ينقلون لهما ما قرأوه في الصحف اليومية. وفي هدأة الليل، يبدأ الرجلان ببثّ الأخبار إلى الأثير. بهذه الطريقة علم فريد عن الحرب الأهلية في الكونغو وعن انتحار الكاتب الأمريكي إرنست همنغواي وعن التفجيرات التي وقعت في باريس المرتبطة بالحرب الجزائرية.

بالطبع كان من يُضبَط ينال المزيد من العقوبات في اليوم التالي، أشغال شاقة عديمة الجدوى، لكن كل ذلك لم يكن ذا أهمية.

twitter @baghdad_library

في حوالي نهاية كانون الأول ١٩٦٠، لاحظ النقيب حمدي أن نظام التعذيب والإذلال الذي يتبعه لم يكن مجدياً، ولم يبق أمامه سوى خيارين: إما القتل وإما التسامح. وبما أنه لم يسمح له بقتل سجنائه فهذا كان من صلاحية المخابرات المركزية في دمشق والقاهرة، فقد قرّر أن يتساهل مع هؤلاء النزلاء الغريبي الأطوار الذين لم يشكلوا أي خطر عليه في مملكته الصغيرة هذه، ولم يدرك بأنه في تلك اللحظة تعرّض إلى هزيمة شنيعة.

٢٠١- الصدع

في نهاية كانون الثاني وصلت إلى السجن أولى الشائعات التي تتحدث عن الانهيار الوشيك للوحدة مع مصر بعد أن تفاقمت مشاعر السخط في صفوف الضبّاط السوريين من رؤسائهم المصريين. ضحك السجناء بصوت عال عندما سمعوا التقرير عن النقيب حمدي من إذاعة المرحاض الترابي، فقد قال الخبر إن حمدي لاحظ أخيراً لبلادته أن رؤساءه في دمشق كانوا جميعاً من المصريين.

إلا أن مشاعر القلق حول أمور أكثر مما كان يظن السجناء كانت تساور حمدي الآن. وللمرة الأولى بدأ يتساءل ماذا سيحدث لاحقاً. فقد كان بين سجنائه عدد كبير من الأساتذة والعلماء وأصحاب النفوذ المدنيين وليس هذا فحسب، بل كان بينهم أكثر من خمسين ضابطاً من ضباط الجيش من كلّ أرجاء البلد، من بينهم ضابطان برتبة عميد. وكان هؤلاء الضباط قد سرحوا من الجيش لتعاطفهم مع الشيوعيين أو مع الإخوان المسلمين، أو هكذا بدون سبب لمجرد أنهم أقارب لمعارض من معارضي سطلان، وانتهى بهم الأمر في سجن جهنّا.

لذلك قرّر التوقف عن اتباع أسلوب التعذيب إلا في الحالات القصوى، وقدم لرجاله تفسيراً مبهماً عن هذا التغيير المفاجئ في سياسته. وفي منتصف شباط توقف التعذيب في سجن جهنّا نهائياً، وليس ذلك فحسب، بل لم يعد يسمح لأبي ساطور بضرب السجناء، فراح هذا يتجوّل في أرجاء السجن

ساهماً وكأنه أضاع رشده. ثم طلب نقله إلى مكان آخر، لكن النقيب حمدي تظاهر بأنه لم يسمعه وراح يواسيه بأن عليهم الانتظار لرؤية ما الذي ستؤول إليه الأمور.

بعد فترة اصفرّ وجه أبو ساطور، وقيل إنه أصيب بالتهاب الكبد ثم إختفى ولم يعد أحد يراه.

وانتشرت شائعات عن نشوء أزمة حادّة في دمشق بسبب طرد أعداد متزايدة من كبار السياسيين السوريين من مناصبهم، واحتفل السجناء لأنهم اعتبروا هذه الشائعات انتصاراً جديداً على حمدي وانهمكوا في مزيد من النشاطات الثقافية، وبدأ عدد من السجناء المدانين بجرائم وكانوا يشكلون نصف عدد النزلاء في هذا الجحيم يتعلمون الكتابة.

لكن في خضم كلّ هذه الأخبار الجيدة، وصل خبر أصاب فريد في الصميم. ففي أوائل كانون الأول، ذكرت صحيفة حكومية سُرقت من مكتب قائد السجن، في صفحتها الأولى بأن الرئيس سطلان أشاد بالاتحاد السوفيتي لعدم إدانته موجة الاعتقالات المستمرة والمنتظمة التي تقوض أركان الأحزاب الشيوعية في مصر وسورية. وللمرة الأولى على مدى أسابيع، وقع خلاف بين السجناء مرة أخرى. فقد حاول ثلاثة من كبار القياديين في الحزب الشيوعي تفسير الصمت السوفيتي باعتباره خطوة حكيمة وقرار ذكي بعدم التدخل في شؤون بلد نامي، بينما استنكرها الآخرون الذين أكدوا أن المخابرات الروسية تدرب المخابرات المصرية والسورية وتجهزها بأحدث الوسائل. وتحدث الثلاثة بإسهاب عن التكتيكات الضرورية إذا كان يراد للاشتراكية أن تواصل مسيرتها الظافرة في أرجاء العالم، لكنهم فشلوا في إقناع أقرب المقربين إليهم.

لم يقتنع فريد بهذه الحجج ولم يغمض له جفن طوال الليل وهو يتساءل ما طبيعة هذه الاشتراكية التي تذعن فيها قوّة عظمى لدكتاتور عديم الشأن وتترك مؤيديها ومناصريها يلقون مصيرهم بأنفسهم في غياهب سجون بربرية

twitter @baghdad_library

بينما يعانق القادة الروس سطلان أمام العالم. هل تريد حقاً أن تغيّر العالم إلى الأفضل؟

٢٠٢- الشهيد الزائف

أدت مقالة نُشرت في صحيفة لبنانية مناهضة لسطلان هُرّبت إلى السجن من بيروت في منتصف شباط إلى حدوث شجار كبير آخر في السجن. فقد ذكرت الصحيفة أن هناك حملة دولية تهدف إلى إطلاق سراح باسل عثماني الذي أشيع بأنه مصاب بمرض عضال نتيجة التعذيب الرهيب.

كان باسل عثماني أكبر مسؤول في الحزب الشيوعي يقع في قبضة جهاز المخابرات السورية. فقد تمكن أول أمين عام للحزب وهو خالد مليس من الهرب من قبضة رجال الشرطة وهو يقيم حالياً في موسكو، وقد أرغم هناك على الصمت لأن الروس ارتبطوا مع سطلان بتجارة الأسلحة وبناء السد العالي في أسوان، وبمشاريع استراتيجية أخرى لكنها سرّية لا يرغبون في إفسادها بسبب طالب لجوء سياسي.

كان باسل عثماني، المسؤول الثاني في الحزب، أحد نزلاء المهجع رقم ٧ في سجن جهنّا. كان يعامل معاملة خاصة وفق تعليمات قائد السجن، النقيب حمدي، بدافع الخوف لا بدافع الاحترام، وذلك لأن سجينه كان ينتمي إلى عشيرة عثماني التي تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي وقرى كاملة على ضفاف نهر الفرات. كان حمدي نفسه ينتمي إلى إحدى تلك القرى وكان أسلافه يعملون خدماً عند آل عثماني. لكن بعد أربعين سنة تمكّن والده من استئجار مزرعة صغيرة من العشيرة. كان حمدي على يقين بأن العشائر العربية باقية كالأهرامات وأن جميع الأحزاب السياسية والدول زائلة، لذلك كان يعدّ نفسه شيخ السجن وكان يعامل باسل عثماني كشيخ ضيف لديه يتمتع بنفس القدر من علو النسب صادف أنه ينزل في ضيافته الآن. لم يتلقَّ عثماني طوال تلك الفترة أية ضربة ولا تجرأ أي جندي أو حارس على إهانته.

منذ البداية أحسّ فريد بالنفور من عثماني. فقد كان هذا المسؤول يبتسم في وجهه عندما يلتقيان مثل شيخ عشيرة تجاه خدمه، وفي الوقت نفسه يبدو مستبدّاً متغطرساً وإلى حد ما جاهلاً، توقف منذ سنين عن القراءة ويعيش في ماضيه الذي زخرفه خياله- شيخ عشيرة من الريف في مواجهة شابّ يرفض العشائرية من جذروها، إبن مدينة واثق بنفسه.

كانت عشيرة عثماني ترسل لإبنها أموالاً طائلة إلى السجن جهاراً، كان يستخدمها لرشوة الحرّاس والجنود وإغداق الهدايا على قائد السجن حمدي. وقيل إنه خصص له معاش إضافي. ولم يكن رفاقه في المهجع الذين أطلقوا عليه اسم «فرات» يعانون من نقص في الطعام والسجائر والأدوية.

ولكن ظهرت الآن هذه الصحيفة اللبنانية التي تقول إن العالم بأسره يطالب بأن يطلق سراح باسل عثماني في الحال، المسجون في سجن تدمر وأنه يتعرض لمعاملة سيئة للغاية. وقالت الصحيفة إن قلبه ضعيف وأن الأطباء يقولون إن عثماني مشرف على الموت.

لكن لم تذكر الصحيفة كلمة واحدة عن جرائم القتل التي تُرتكب في السجن، ولا عن قيام الحرّاس بضرب السجناء عند وصولهم، وبالتأكيد لم تذكر كلمة واحدة عن التعذيب والإهانة والمعاملة الوحشية. وأطلقت حملة ضخمة موالية لعثماني في أوربا الغربية أيضاً. وراحت الكنائس واتحادات العمال والأحزاب السياسية والمثقّفون من باريس إلى لندن تؤيد بشدة قضية هذا المسؤول الحزبي السوري الذي أشيع أنه مصاب بمرض عضال، لكنّ الحقيقة كانت غير ذلك تماماً فلم يكن عثماني في سجن الموت تدمر إنما في جهنّا الذي كان على الرغم من بربرية القائمين عليه منتجع نقاهة مقارنة بتدمر، وكان عثماني ينعم بصحة ممتازة، وقد ازداد وزنه كثيراً لالتهامه أفخر أنواع الطعام والشراب ولعدم ممارسته الحركة، فجيش من الخدم كان ينفذ له كل مايريده حتى تهديد وصفع خصومه.

تألَّم فريد من هذا التقرير وما ورد فيه من ادّعاءات زائفة، وعندما سأل عثماني في الباحة بحذر وأدب لكن بشكل مباشر وصوتٍ عالٍ عن الأكاذيب

twitter @baghdad_library

التي وردت في الصحيفة ضحك هذا بعجرفة وقال وكأنه يلقي خطاباً أمام حشد من البروليتاريا التعيسة: «أيها الرفيق الشاب، أيها الرفاق، إن أعداءنا يفبركون الأكاذيب باستمرار لذلك يجب علينا أن نأخذ سلاحهم ونستخدمه ضدهم، وهذا ما علمنا إياه الرفيق لينين».

أحسّ فريد بالرغبة في التقيؤ. وعندما صحّحت إذاعة المرحاض الترابي التقرير الوارد في الصحيفة في ذلك المساء وهنأت المسؤول الحزبي على وضعه الصحي الجيد وتمنت له وجبة هنية ورجته ألا يقحم لينين في هكذا مواضيع، غضب عثماني. وعلى الفور صار المراسل الإذاعي الذكي منبوذاً من الشيوعيين المخلصين لعثماني في السجن. همس أحدهم لفريد في اليوم التالي: «أنصحك أن تبتعد عن هذه الأفعى. إنه من أتباع تروتسكي» علماً أن مثل هذا الاتّهام كان يرقى إلى مرتبة الحكم بالإعدام في روسيا وإلى الطرد المباشر من الحزب الشيوعي السوري.

«وأنصحك»، أجاب فريد ببرود، «بأن تستخدم عقلك لا مؤخرتك عندما يكون لديك شيء تقوله».

في اليوم التالي، اقتيد فريد وأُلقي به في زنزانة انفرادية لمدة أسبوعين. قد يكون ذلك مجرد صدفة، قال لنفسه، لكن لو كان الأمر كذلك، فإن كراهيته لباسل عثماني هي مجرد صدفة أيضاً.

٢٠٣- كيمياء العزلة

أنهك الحبس الانفرادي فريد. فقد كلّف قائد السجن أسوأ جنوده وحرّاسه وأشدّهم شراسة بحراسته. ولكي يتغلّب على مشكلة غياب الصوت التي ملأت عقله بفراغ غريب، بدأ فريد يجري تفاعلات كيمياوية في عقله، وعمليات يركّب فيها عناصر بسيطة ويحوّلها إلى مركّبات معقّدة. وعندما كان يتمكن من تركيب مادة أساسية كان يطلق عليها اسماً، وبعد ثلاثة أيام يحاول تفكيكها مرة أخرى، خطوة خطوة تراجعاً، حتى يعود ثانية إلى العناصر الأولية البسيطة.

في بعض الأحيان كان الحرّاس يتعمدون عدم أخذ الدلو المخصص للغائط والبول لأيام عديدة لكي تمتلئ الزنزانة الانفرادية برائحة نتنة إلى حد مروّع. في وسط كل هذا البؤس، تمكّن جسد فريد من التكيف وإثبات نفسه. وعندما كان يغمض عينيه وتتراءئ له أحلام جنسية، كان يتساءل من أين يأتي عقله بهذه التخيلات وسط جهنم.

في السجن تبدو الأيام كلها متشابهة، أما في الحبس الانفرادي فإن السجين يضيع في ظلام أبدي حتى أثناء النهار، لكن لا بدّ أن ذلك كان في منتصف نيسان عندما قال أحد الجنود - دمشقي من لهجته - إن أصدقاء فريد (يقصد الروس) أرسلوا رجلاً يدعى غاغارين للطيران حول الأرض. لم يفهم فريد ما قاله الجندي، لكن الجندي كان ثرثاراً في ذلك اليوم، وأخبره عن حفلة أقامها عثماني في مهجعه دعا إليها جميع الضبّاط والحرّاس والجنود وقدمت فيها أطايب الطعام الذي جُلب من دمشق: لحم مشوي وفستق حلبي وفاكهة. لكن الجندي قال إنه سكر كثيراً وأن رأسه لا يزال يدور حتى الآن وأضاف «لقد دار غاغارين حول الأرض في صاروخ، وأنا أدور من الكحول»، قال وضحك لوحده على هذه النكتة.

عندما أُخرج فريد من الحبس الانفرادي، كان المذيع قد اختفى.

«لقد نقل إلى تدمر بعد أن تشاجر مع أحد الحراس»، قال له سعيد العجوز.

عندئذ، وأمام جميع زملائه السجناء اتّهم فريد عثماني بأنه كان وراء حبسه الانفرادي ووراء إبعاد المذيع. «إن الرجل الذي يفعل هذه الأشياء لا يمكن أن يكون شيوعياً على الإطلاق. إنك لا تزال سليل قبيلة إقطاعية. إنك لا تفهم شيئاً بل لا تزال تلعب نفس اللعبة الأنانية القديمة التي كان يلعبها والدك». أدى موقف فريد هذا إلى تعاضد لم يعهده من أغلب النزلاء، ليس فقط من الإخوان المسلمين، بل أيضاً من البعثيين وحتى من المجرمين العاديين الذي اعتبروا تصرف عثماني يخلو من أي رجولة. همس شيوعيون

twitter @baghdad_library

لفريد سراً انهم يقفون معه لكنهم يخشون عثماني فلم يحصلوا من فريد إلا على سخرية مريرة. «أنتم لم تفهموا لا ماركس ولا لينين ولا حتى سجنكم»

ردّ عثماني بسخط، لكن لم يكن يجرؤ على عمل شيء. حذّره رفاقه بأن مشاعر معادية للشيوعية تنتشر بقوة في السجن. فقبل يومين نشب شجار بين البعثيين والشيوعيين. وعرف عثماني أن تدخل الجنود وضربهم البعثيين فقط بناء على أوامر النقيب حمدي كان خطأ، فانقسم السجن بحدة بسبب هذا التحيّز الحزبي أكثر مما كان يحدثه التعذيب أو عمل المخبرين من انقسام.

وفجأة اعتبر كثير من السجناء البعثيين والذين كانوا حتى الأمس حلفاء سطلان شهداء وقالوا إن الشيوعيين يضطهدونهم. فأمسك عثماني لسانه رغم أن فريد كان صريحاً لحدود وقحة.

٢٠٤- شقلبة الحياة

في هذه الفترة توترت العلاقات بين السوريين والمصريين إلى درجة كبيرة، وتمثل ردّ الرئيس سطلان على الأزمة بطرد أعداد متزايدة من السوريين من جميع المناصب السياسية والهامة في حكومة الوحدة، واعتقال المزيد من معارضي النظام، وتعزيز سلطات الأمن، فعيّن رئيس جهاز المخابرات، عبد الحميد سراج، في منصب نائب الرئيس ورئيس المكتب التنفيذي في الإقليم الشمالي (سورية).

كانت تلك أكثر الخطوات التي اتخذها سطلان ومساعدوه المصريون غباءً. فقد قام الجيش السوري في ٢٨ أيلول ١٩٦١ بانقلاب وأُعلن عن انتهاء الوحدة مع مصر. رقص الناس في الشوارع ابتهاجاً، وغنّوا أغاني معادية لسطلان ونائبه السوري سراج. وصارت الأغاني تنهال على سطلان وتتهمه مع قيادته المصرية بتعاطي الحشيش وصار إسم سراج مرادفاً للكرباج في إهزوجة شعبية مطلعها:

أما قلنا لك يا سراج   مابينفع حكم الكرباج

استمرت مظاهر البهجة الشعبية لعدة أيام، وغمرت السوريين السعادة كأنهم حصلوا على استقلالهم، ورقصوا كما يرقصون في الأعراس. ولم يخيّل إليهم أنّهم يشهدون دفن حلم وطن عربي موحد.

وأعيد جميع المصريين الذين أحسّوا بالمهانة من سورية إلى بلدهم، وهرب الكثير من رجال المخابرات السوريين إلى القاهرة للاختباء فيها. وقد تم فيما بعد وبإشراف مباشر من سطلان تهريب المجرم عبد الحميد السراج من سجن المزة عن طريق لبنان إلى مصر حيث عاش هناك في كنف سطلان وبعده في كنف خلفائه أنور غبيان وحسني برطلان.

أما إلياس مشتاق، فقد أوفى بوعده وأوقد ثلاثين شمعة كبيرة للسيدة العذراء. فقد كان يؤمن دائماً بأنّ دعواته إلى أم يسوع المسيح تستجاب.

في ٤ تشرين الأول، أُطلق سراح فريد مع ألف سجين سياسي آخر. ونقلتهم حافلات إلى محطة الحجاز للسكك الحديدية، وأُعطي كلّ سجين مئة ليرة لتغطية تكاليف الرحلة وربطة خبز مع قليل من الفواكه وثلاث علب من اللحوم المعلبة وعلبتين من سمك السردين الروسي كهدية. أعطى فريد حصته إلى متسول هرم كان يجلس في على الرصيف خارج المحطة منذ سنوات.

ثمّ استقل فريد الحافلة رقم ٥ متوجهاً إلى البيت. بغتة، عندما ترجّل عند الموقف القريب من الشارع الذي يقع فيه بيته تذكّر لحظة إلقاء القبض عليه بوضوح شديد. بعد أن غمرته هذه الذكرى توقّف وراح يتطلع حوله. فجأة، رأى ليلو واقفاً عند باب صالون الحلاقه كما كان عندما ألقي القبض عليه. في نفس اللحظة رآه ليلو. حدّق الحلاق مرة أخرى ليتأكد مما يراه ثم جرى ماداً ذراعيه إلى جاره الذي اختفى منذ مدّة طويلة.

عانقه فريد. عندما تركه أدرك فريد أن الحلاق كان يصدر أصواتاً غريبة متقطعة من البهجة تشبه الزئير، لكنه لم ينبس ببنت شفة. وقرأ من شفتيه بصعوبة أن ليلو قد فقد صوته بعد أن ألقي القبض على فريد بفترة قليلة، وأنه يُعالج منذ ذلك الحين.

twitter @baghdad_library

كادت كلير تنهار من شدة الفرح عندما وصل فريد إلى البيت. لم تكفّ عن تقبيله ومعانقته. كان إلياس آنذاك لا يزال في محل الحلويات وكان سيعود إلى البيت بعد قليل.

أرادت أن تخبر العالم برمته أن فريد قد أصبح حرّاً في النهاية، لكن لم تكن لفريد الآن سوى أمنية واحدة وحيدة وهي أن يستحمّ. فتح صنبور الماء الحار في الحوض الكبير واستلقى فيه. ورويداً رويداً أحسّ أن أوساخ السجن بدأت تزول عنه. استحال لون الماء رمادياً وفاحت منه رائحة نتنة من العفن والصدأ والزيت والعرق. أفرغ حوض الحمام ثم عاد وملأه. لكن هذه المرة أضاف إلى الماء قليلاً من عطر زهر البرتقال فبدأ يشعر بأنه وصل إلى دمشق التي أحب وأصبح على ما يرام مرة أخرى.

كان يوسف أول الزائرين. اندفع مباشرة إلى الحمّام عندما كان فريد قد بدأ يرتدي ثيابه فألقى ذراعيه حول صديقه وقبّل عينيه. عندما تحرر فريد من عناق يوسف، رأى متّى واقفاً عند المدخل، فاندفع متّى نحوه وصاح «أخي. الحمد لله على سلامتك. كنت أنا وفريدة نصلّي من أجلك». عانق فريد متّى ثم دفعه بلطف هو ويوسف خارج الحمّام وقال: «إذا لم تتركاني الآن للحظة، فإني سأظل واقفاً هنا في ملابسي الداخلية حتى منتصف الليل»، ورأى خطيبة متّى وأمّه تضحكان في الباحة الداخلية.

بعد قليل جاءت ليلى أيضاً. فبعد أن خابرتها كلير استقلّت سيارة تكسي على الفور، وحثّت السائق على الإسراع الذي صار يتمنى لو أن لديه صفارة إنذار وضوءاً أزرق وامضاً في سيارته ليشقّ طريقه في وسط هذا الزحام. ما إن وصلت حتى عانقت فريد طويلاً وقبّلته دون تحفظ. لكن كان عليها أن تعود بسرعة لأنها يجب أن تسلم ثوب زفاف في ذلك اليوم. عندما كانت تودعهم، همست في أذن فريد «عندما تستعيد أنفاسك تعال لزيارتي»، فأومأ دون أن ينبس بكلمة.

مع أن الهاتف لم يكد يتوقف عن الرنين، فقد كان فريد طوال المساء ينتظر دون جدوى مخابرة محددة، لكن كان هناك دائماً شخص آخر على

الخطّ. ألم تسمع رنا بإطلاق سراحه؟ ذات مرة، عندما كانت المجموعة تتحدّث عن الظواهر الطبيعية المدهشة، قالت كلير إن أسنان جدة رنا اللبنية برزت قبل وفاتها، وأنها ماتت قبل عيد الميلاد مباشرة، وأنها على الرغم من العداوة القائمة بين العائلتين، فقد ذهبت لحضور الجنازة. دهش فريد لفكرة ذهاب أمّه لحضور الجنازة وحدها، وكان يعرف أنّها فعلت ذلك من أجل رنا فقط، لكن أين رنا الآن؟

جاء جميع الجيران والأقارب، لكن كان شيء يضغط على قلب فريد: فقد كانوا يتصرّفون جميعاً كما لو أنه كان في رحلة. في البداية لم يستطع فهم ذلك، لكنه أدرك شيئاً فشيئاً أنّهم لم يقدروا على مواجهة الحقيقة والاعتراف بعلمهم أين كان فريد منذ نيسان الماضي، ولم يكونوا يرغبون في معرفة أنه رفع صوته ضدّ سطلان رغماً عنهم وعلى الرغم من صمتهم، وأنه سجن لهذا السبب. والأسوأ من كلّ ذلك، قال لنفسه، إن والده شعر بشيء من الحرج عندما عانقه بعد عودته إلى البيت في وقت متأخّر من تلك الليلة، ولم يخطر بباله شيء يقوله له أفضل من قوله «أرجو أن تكون قد تعلّمت أن السياسة ليست مناسبة لنا نحن المسيحيين، لذلك من الأفضل أن تتركها».

كان فريد عازماً على أن يفعل عكس ذلك تماماً.

لكنّه سمع أسوأ خبر قبل منتصف الليل بقليل عندما غادر متّى البيت، كآخر زائر. كان والده قد أوى منذ زمن لفراشه، أخذته كلير من يديه وقبّلته في عينيه واغرورقت عيناها بالدموع، فعرف أن أمراً سيئاً قد حدث لرنا.

twitter @baghdad_library

كتاب الحبّ السادس

لا يعيش الحبّ إلا في ذاكرة قوية لكنّه بحاجة أيضاً
إلى القدرة على النسيان

*

دمشق، نيسان ١٩٦٠- تشرين الأول ١٩٦١

٢٠٥- جولة في الحافلة

اختارت رنا مقعداً بجانب النافذة. كانت الحافلة خاوية من الركاب عندما استقلّتها. لكنها سرعان ما امتلأت تماماً حين اقتربت من المدينة القديمة. فجأة لاحظت رجلاً يتحرش بامرأة من الخلف في وسط هذا الازدحام. التفتت إليه المرأة وطلبت منه أن يبتعد عنها وأن يبقي على مسافة بينه وبينها. تصرّف الرجل كأنه لم يفهم ما قالته له المرأة، لكن رنا لاحظت الانتفاخ في بنطاله، وتذكرت ما كانت الفتيات يدعونه «الرجل نصب خيمته». أشاحت بنظرها باشمئزاز ونظرت خارج النافذة.

وصلت الحافلة إلى سوق البزورية، السوق الذي تباع فيه أنواع البهارات والتوابل. دهمتها ذكريات. ذكريات عن تلك الفترة التي كانت لا تزال تدرس فيها الأدب في الجامعة عام ١٩٦٠، وكانت في الوقت نفسه تأخذ دروساً في الرسم بالألوان الزيتية على يد فنانة مشهورة. كانت تصبو إلى أن تكون فنانة، لكنها كانت تعرف أنّها لن تستطيع العيش مما يدرّه هذا العمل. كان الأدب شغفها الثاني وبإمكانها أن تعمل به بعد تخرجها في كلية الآداب، على الأقل، في التعليم.

ذات مرة كانت تستقل حافلة مزدحمة وأحسّت فجأة برجل يقترب من ظهرها كثيراً. أحسّت بأنفاسه الحارة تحرق عنقها. وغلّفتها سحابة من العرق ورائحة تشبه رائحة منفضة مليئة بأعقاب السجائر. شعرت بأنها ستتقيأ عندما استمرّ الرجل يضغط من خلفها، ثمّ أحسّت بعضوه المتصلب بين ردفيها. استدارت يملؤها الغضب وفوجئت بأن الرجل بدا وديعاً، ذا لحية قصيرة وكان يضع نظّارات وينظر حوله ببراءة طفل. طلبت منه رنا أن يبتعد عنها لكنه ابتسم وظل يدفع نفسه ويتحرك ويلكزها بـ«خيمته» كأنه يريد أن يصل إليها مخترقاً بنطاله ثم فستانها ثم ثيابها الداخلية. طلبت منه مرة أخرى لكن ذلك شجّعه على التمادي. «لا تكوني هكذا ناكرة للجميل، هيا اعترفي دون هذه العفة المزيفة، إنك تستمتعين بذلك»، قال هامساً وأمسك بردفها بقوة بإحدى يديه.

عندها دارت وصفعته على وجهه بقوة فاختل توازنه وسقط في حضن رجل آخر. توقّعت رنا أن يوبخه جميع الركاب وأن يقفوا إلى صفها خاصة وأن تورم خيمة بنطاله كانت فاضحة بكفاية، لكن ما حدث كان العكس تماماً. وباستثناء امرأة شابّة، وقفوا جميعهم ضدّها ودافعوا عن هذا الرجل الوقح. وقال أحد الرجال ساخطاً «لم تعد هناك حشمة ولا أخلاق في هذه الأيام» وأضاف، «لم أكن أتصور أن أعيش إلى اليوم الذي أرى فيها امرأة تضرب رجلاً».

«إنها ليست امرأة»، قال الرجل الذي صفعته، «أقسم أنها رجل». نزلت رنا في المحطّة التالية واستقلت سيارة أجرة إلى البيت.

هذه المرة، سمعت المرأة تتوسل إلى المتحرش بصوت منخفض بأن يتوقّف. وبعد ثلاثة أو أربعة مواقف رأتها تنتقل إلى مقعد أصبح خالياً للتو وتتنفس الصعداء. أما الرجل المتحرش الذي أصبح يقف الآن وراء فلاح، فراح يلعن سوء حظّه بصوت مسموع واضح.

عندما وصلت الحافلة إلى حيّ الزيتون، ألقت رنا نظرة على بيت فريد. شعرت بألم حارق يشتعل في صدرها فأجهشت في البكاء. سألتها امرأة واقفة

twitter @baghdad_library

بالقرب منها إن كانت تستطيع مساعدتها في شيء فهزّت رنا رأسها وهمست «شكراً لا، فقد تذكرت أمراً محزناً».

بعد بضعة أيام من آخر لقاء لها بفريد شعرت آنذاك بتوق لسماع كلمة منه. لم يخطر ببالها ما حدث، فاتصلت به في البيت. ردّت كلير على الهاتف وبعد بضع كلمات خذلها صوتها. أخذ قلب رنا يخفق بقلق. ثم عرفت أن فريد قد اعُتقل. كان ذلك أقصى ما يمكن أن تقوله لها كلير التي أنهت مكالمتها بالقول إن لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً من أجله.

شعرت رنا بالكآبة كما لم تشعر من قبل. وضعت سماعة الهاتف واندفعت مسرعة واستقلت سيارة أجرة وذهبت إلى بيت أمّ فريد. كان ذلك حوالي منتصف النهار. كانت كلير وحدها في البيت. عانقت الفتاة وبكتا معاً. لقد كبرت أمّ فريد عدة سنوات في بضعة أيام، ونمت شعرات شائبة في رأسها لأول مرة. بقيت رنا عندها عدّة ساعات.

«يمكنك زيارتي هنا عندما تحبين»، قالت لها كلير وعانقتها وهي تودعها ثم أضافت «فريد يحبّك كثيراً».

«وأنا أحبّه أيضاً»، قالت رنا وخرجت بسرعة. في ذلك الوقت، لم تكن أمّه تعرف إن كان فريد لا يزال على قيد الحياة، فلم يكن بإمكان أسرة السجين السياسي زيارته أو تكليف محامين للدفاع عنه، أو السؤال عنه بشكل رسمي. وبأساليب ملتوية وبدفع رشاوى كثيرة اكتشفت كلير وإلياس أنه في سجن جهنّا لكنهما لم يتمكنا من زيارته أو كتابة رسائل له. حتى البطريرك الكاثوليكي صاحب النفوذ لم يقل إلا عبارة واحدة أصبحت مألوفة طالما تعود ان يكررها «لو كانت جريمة قتل أو سرقة أو تعاطي حشيش لتوسّطت من أجله، لكنّه سجين سياسي».

عندما عادت رنا إلى البيت ألصقت صورة فريد على صفحة الأنجيل الأخيرة، لأن أخوها جاك يتطفّل ويتجسس عليها دائماً، بل إنه يفتّش أدراج خزانتها وثيابها لكنّه لا يقترب من الكتب الدينية.

بعد أسبوع سمعت أمّها خبر اعتقال فريد فأطلقت العنان لحقدها،

ونفثت كلّ كراهيتها لعائلة مشتاق. حتى والد رنا كان سعيداً بسقوط ابن عدوهم اللدود في قبضة الشرطة، وقال: «إن آل مشتاق تكتيكيون عظماء، لكنهم ككل التكتيكيين عديمي الشرف والأخلاق. فهم على استعداد للانضمام إلى أيّ حزب، فمنهم الهبلانيون والضرطانيون والشكلانيون، أما اليوم فهم سطلانيون وبعثيون وقوميون سوريون وشيوعيون. إذ يوجد دائماً واحد منهم يدعم الحزب الحاكم وآخر في السجن. بهذه الطريقة يمكنهم أن يكونوا حكّاماً وشهداء في الوقت نفسه. أنا واثق من أنه إذا وصل الإخوان المسلمون إلى السلطة فإن واحداً من عائلة مشتاق سيعتنق الإسلام بسرعة طلقة. إنهم ماكرون، هكذا هم دائماً، ماكرون»، قالها بنبرة تنضح بالحقد ونوعاً ما بحسد.

مرت جميع هذه الذكريات في عقل رنا الآن أثناء ركوبها الحافلة. في المحطّة التالية التي ترجّلت فيها آنذاك، كانت قد رأت فريد لآخر مرة في بيت جدته التي توفيت. مشت يومها من هناك، بعد بضع خطوات وصلت إلى حي القصبة ثم انعطفت إلى حارة مسك. حيث كان ينتظرها في بيت جدته. كان حزنه الصامت وهواجسه حول حكم سطلان، عقب اعتقال صديقه امين، لا تزال طازجة في عقلها الآن كما كانت آنذاك عندما كانت مستلقية معه في السرير. كانت حرارة الغرفة مرتفعة لكنه كان بارداً إلى درجة التجمّد.

كانت الحافلة قد اجتازت حي القصبة وحي حنانيا ووصلت الباب الشرقي ثمّ انعطفت يساراً وتبعت سور المدينة القديمة قبل أن تنعطف وتتّجه نحو ملعب وساحة العباسيين.

لم تكد رنا تفهم كيف أصبحت الأحداث في حياتها كثيفة وسريعة بعد ذلك اليوم الذي رأت فيه فريد، وكرهت نفسها لشدة سذاجتها في ذلك الحين. هزّت الآن رأسها بألم.

كانت تعتبر دائماً رامي ابن خالها الأثير لديها والذي لم يكن، بخلاف إخوته، متديناً أو محافظاً متشدداً، ولم يكن يتوق لاقتناء سيارات ونقود، وكان أبوه، خالها سامي القدسي، أفقر فرد في عائلته، لأنه عندما كان في

twitter @baghdad_library

الثلاثين من العمر فقد ميراثه في عمليات مضاربة خاسرة، لكنّه ادّعى أنه فنان يعيش من فنه، وتمكن من إعالة زوجته وأولاده الخمسة من الصفقات الصغيرة التي كان يجريها. ولمّا كان قد أشهر إفلاسه فلم يكن يُسمح له رسمياً بامتلاك أي شيء. قالت زوجته إنه يعمل سمساراً لكن أحداً لم يصدق ذلك. وقيل إنه على الأرجح سمسار من نوع خاص، يأخذ نسبة مئوية من بيع أشياء ثمينة مسروقة. لكنه بطريقة ما، تمكن من تعليم أبنائه مجّاناً في مدرسة أرثوذوكسية جيدة، ودرس الأخوة الخمسة ونجحوا في امتحاناتهم النهائية، الواحد تلو الآخر.

في وقت لاحق، لامت رنا نفسها كثيراً لأنها شعرت بأنها في أمان مع رامي. فقد كان يتفهمها باستمرار ولم يكن لديه أيّ نوع من التعصّب، لذلك أخبرته عن محاولات أخيه الأصغر، كافي، للتقرب منها، وضحك كلاهما حتى طفرت الدموع من عينيهما بسبب الصدمة التي أحدثتها رنا لهذا المتعصّب الديني.

بالطبع لم تجرؤ على إخباره عن فريد، لكنها وجدت على الأقل هنا شخصاً تستطيع أن تحادثه. ولم تفتها الحقيقة بأنه كان معجباً بها. كان رامي شاباً لطيفاً متواضعاً، وكان قد رُقّي منذ فترة وجيزة إلى رتبة ملازم أول وكان سيجري تدريبات أخرى في الكلية الحربية في مجالي الاقتصاد والإمداد والتموين. «هذا يعني أنني لن أصعد بسرعة في الجيش لكنّي لن أسقط أيضاً. جيشنا يتحول لحظيرة سياسيين وعلي مع قلة من الضباط أن نعتني بالجانب العملي لنوفر وصول الطعام والشراب والأدوية والألبسة والذخيرة والمعدات إلى القطعات» قال بامتعاض. لم يكن طموحاً على الإطلاق، وقد ركز جلّ اهتمامه على المشتريات التي يقوم بها الجيش، بدءاً من أربطة الأحذية إلى كامل المعدات الشتوية، ولم يكن يحب ارتداء البدلة العسكرية بل حتى إنه لم يكن يحمل مسدساً.

وكان رامي أيضاً الرجل الوحيد الذي دعاها إلى السينما أو إلى تناول البوظة دون أن تكون لديه أيّ دوافع ثانية وحتى دون أن يمس يدها، أو

هكذا خيّل إليها لأنها كانت تعرفه هكذا منذ طفولتهما. إنسان بسيط وبريء. لماذا كانت ساذجة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لم تلاحظ قط أنّها أصبحت امرأة الآن وأن الطريقة التي ينظر فيها ابن خالها إليها قد تغيّرت؟

بعد أن اعُتقل فريد، أحست باختناق في الأجواء الخبيثة في بيت أبويها فاتصلت برامي وسألته عما إذا كان يرغب في مرافقتها إلى السينما، لأن أمّها وشقيقها لم يعارضا خروجها معه - لقد كان الرجل الوحيد الذي لم يعترضا عليه - حتى لو عادت إلى البيت في وقت متأخر من المساء.

بعد ذلك بأيام، وقعت الكارثة.

جاء رامي لتناول الغداء في بيت رنا في يوم الأحد ذاك. كان يحبّ الكبة التي تصنعها عمته. كان جاك موجوداً أيضاً، لكن والدها لم يكن في البيت لأنه سافر إلى نيويورك لمدّة أسبوع لحضور مؤتمر للمحامين.

بدت أمّ رنا بالغة الرقة واللطافة مع ابن اخيها على نحو لم تعهده منها ابنتها، وكانت قد أعدت أفضل وجبة في ذلك اليوم. كانت الكبة وجبة الغداء المعهودة يوم الأحد لدى المسيحيين الميسورين، بما فيها الكثير من التوابل والصنوبر المحمص. قدمت أم رنا النبيذ الأحمر اللبناني مع الطعام وقالت: «إن النبيذ يحسّن حاسة الذوق ويزيد الشهية، والكبة لا تؤكل إلا مع النبيذ الأحمر». في البدء، قالت رنا إنها لا تريد احتساء النبيذ، لكنها احتست كأساً للمجاملة بعد أن خفّفته بالماء البارد والثلج.

ضحكوا كثيراً. نادراً ما رأت رنا أمّها بهذه الدرجة من الانبساط والانشراح. أخيراً ذهب جاك إلى غرفته، وكان بإمكانهم سماع صوت إسطوانته المفضّلة التي يسمعها في غرفة الجلوس، أغنية للمطرب المصري عبد الحليم الذي كانت رنا تحبّ الاستماع إليه أيضاً.

ثمّ غادرت أمّها غرفة الجلوس أيضاً وقالت إنها ستعدّ القهوة. ضحكت رنا ورامي على صوت الموسيقى الصاخب، وظل رامي يملأ كأسيهما بالنبيذ. بدأ رأس رنا يثقل، لكنّها كانت مستمتعة كثيراً بوجود رامي والنكات التي كان يحكيها لها.

twitter @baghdad_library

على حين غرة وضع ذراعه حول رقبتها وقال: «أوه، كم أشعر بالسعادة عندما أسمع ضحكتك». في البداية، لم تظن به سوءاً لكنه عندما قبّل رقبتها تسمّرت في مكانها. نهضت على قدميها فجأة وقالت إنّها ستذهب وتطلب من شقيقها أن يخفض صوت الموسيقى. لكنّها ما إن خطت خطوة واحدة نحو الباب حتى سدّ رامي طريقها. لم يفعل كل ذلك بسرعة، بل بهدوء. كانت خطواته ثابتة، ولم تكن ذراعاه الممدوتان ترتعشان.

أمسكها كأن شخصاً يستعيد شيئاً ملكاً له. في تلك اللحظة فهمت رنا كلّ شيء. فلم تدرك فحسب الفخّ وغباءها بالجلوس وحدها في غرفة مع هذا الرجل، بل فهمت كذلك المؤامرة التي حاكتها لها أسرتها، والبؤس الذي عانت منه النساء منذ آلاف السنين، فصدّته بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكن رامي كان مصارع كاراتيه بارعاً، وهي رياضته المفضلة، مدرب جيداً، ألقى بها على الأرض. حدث ذلك بسرعة كبيرة. استلقت فوق السجادة الفارسية السميكة واستلقى فوقها، وهو لا يزال يبتسم وقال «أنا أحبّ ضحكتك، ألا تعرفين ذلك؟». ثقله فوقها أصابها بالشلل. كانت رنا في حالة ذهول تحولت الغرفة إلى جزيرة نائية. «أرجوك»، قالت متوسلة، «رامي، أرجوك دعني أنهض، دعني اشرح لك». لكنّه أصبح أصمّ، عنيفاً، وراح يقبّلها بنهم وحشي ويحاول أن يدفع لسانه في فمها.

«لا»، صرخت رنا وهي تركله وتدير رأسها جانباً حتى لا تدعه يلتقم شفتيها. ابتسم ابتسامة عريضة، لم يكن يشعر بالخوف أو التوتر، بل كان يتصرّف كما لو أنه يملك كلّ الوقت في العالم. رويداً رويداً راح يضغط بقوة على الجزء الأسفل من جسدها ثم أحسّت بيده اليمنى تمتدّ إلى سروالها الداخلي وتمزقه. راحت تصرخ وتتوسل في الوقت نفسه، لكن صوتها غرق في ضجيج صوت عبد الحليم حافظ وهو يغني: جانا الهوا.

كان الألم الذي اعتراها مثل كماشة ملتهبة تطعنها في أعماقها. راحت تبكي وتضربه، لكنّه شقّ طريقه بقوة فيها حتى أحسّت بالدوار.

عندما عادت أمّها بعد فترة بدت دهراً، تظاهرت بأنها فوجئت بما

حدث، فتهاوت بطريقة مسرحية على الأريكة وراحت تبكي وتلطم وجهها برفق. لكن رنا رأت النفاق في عينيها. جاء جاك راكضاً أيضاً، متظاهراً بالفزع، لكنه بدلاً من أن يغضب من رامي راح يواسي أمه بأن لدى أخته نصيب ممتاز في رامي وأنه أكثر مما تستحق.

بعد بضعة أيام عاد أبوها من رحلته. تكلّم مع زوجته أولاً ثم مع رامي ولم يكلّمها. بعد ثلاثة أيام جاء أخيراً إلى غرفتها، لا ليهدئ من روعها، بل ليخبرها أنها هي المخطئة، وأنها إما أن تُقتل حفاظاً على شرف العائلة، وأبدى أخوها جاك استعداده لغسل شرف العائلة بالدم، وإما أن تتزوّج رامي الذي قال إنه مستعدّ للتكفير عن الخطأ الذي ارتكبه بالزواج منها.

فجأة تحول ابوها المثقف والأكاديمي والمحامي البارع إلى شيخ عشيرة لا يعرف سوى الدم كقانون.

بكت رنا وصرخت، لكن لم يكن أمامها فرصة. وقعت فريسة المرض وارتفعت درجة حرارتها. وبعد ثلاثة أيام، جُرَّت إلى غرفة الجلوس حيث عقد كاهن كان يعرف القصّة بأكملها زواجهما بسرعة ووقّع على السجل بأن الزواج تم برضاء الطرفين. وعندما سأل رنا هل تقبل رامي زوجاً لها أجابت بصوت عال وواضح «لا»، لكن رفضها هذا أخفته جوقة الحاضرين التي راحت تردد «نعم، نعم، نعم!» وكانها جوقة موسيقية. كان المنظر غريباً وخيّل إلى رنا أنّها جنّت.

رفضت التوقيع على السجل بنفسها، فأمسك أبوها بيدها ووقّع بها بينما أمسك شقيقها يدها الأخرى بقبضة فولاذية. كانت رنا تبكي بحرقة لكن أحداً لم يعرها أيّ اهتمام. والكاهن؟ أصابه عمى مؤقت.

في تلك اللحظة بدت لها رؤيا. وطوال عمرها لن تنسى رنا تلك اللحظة والرؤيا، لثانية واحدة أحست بأنها ميتة، وعندما فتحت عينيها ثانية بدأت حياة ثانية، وشعرت أن قلبها بدأ يتحوّل إلى نبتة صبّار.

لم تكن هناك فائدة في أن تغرق في دموعها، فقد كان أعداؤها يفوقونها عدداً. إنهم يبتهجون لحزنك، قال لها صوت في داخلها. يجب أن تتبعي

twitter @baghdad_library

قلبك وأن تكوني مثل نبتة صبّار، نبتة تتفوق على هذا الرجل الذي جلب لك كل هذه التعاسة. إن انتقامك يكمن في ذاكرتك التي لن تدعك تغفرين له، وعندما تأتي تلك اللحظة، يجب أن تغمضي عينيك مرة أخرى، أن تموتي لثانية ثم تعودين إلى الحياة، رنا أخرى. عندما يحدث ذلك، ستزهر نبتة الصبّار ثم تموت. عندما بلغت هذه النقطة في ذكرياتها، كانت الحافلة تقترب من ساحة السبع بحرات. نهضت رنا واتجهت ببطء نحو الباب، لأنها كانت ستترجل في المحطّة التالية.

٢٠٦- وعد يوسف

خيّل إلى كلير بأنّها لن تعيش بعد اعتقال فريد. فقد أضحت دمشق صحراء قاحلة في غيابه. عندما بلغهم الخبر، غادر إلياس محله فوراً وذهب لرؤية أصدقائه ومعارفه الذين يتبوأ العديد منهم مناصب حكومية رفيعة، لكن لم يكن في مقدورهم أن يفعلوا له شيئاً سوى إبداء التعاطف والأسف. وحاولت كلير أن تعرف على الأقل، بواسطة صديقاتها السابقات في المدرسة، إن كان لا يزال حيّاً أم لا، وفي أي سجن زُجَّ. لكن حتى بداية عصر اليوم الذي اختفى فيه فريد، أخبرتها إحدى بنات عم مادلين بأن ابنها معتقل في مبنى المخابرات. فقد كانت ابنة العم تلك زوجة أحد حرّاس وزير الداخلية لكن لم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً من أجل فريد لأنه معتقل «سياسي».

في البداية، اعترى كلير شعور بالارتياح لأنها عرفت الآن أن ابنها لم يمت، فاتصلت بإلياس في الحال وعندما سمع الخبر راح يبحث عن أحد يساعده، لكنه عاد في المساء إلى البيت شاحباً مثل رجل يحتضر.

«وما فائدة الأصدقاء؟» سأل بمرارة، لكنه لم ينتظر إجابتها «فقط ليقولوا لك إنهم آسفون. هل هذا كلّ شيء؟ يا لزمن الجبناء! فقد أخذ الفتى منحى خاطئاً وهم يضخمون الأمر ويقولون إنها قضية أمن دولة، كأن ابني فريد يشكل خطراً على الرئيس سطلان».

في تلك اللحظة، شعرت كلير بحبٍّ كبير تجاه زوجها إلياس الذي جعله القلق على ابنه الوحيد ينسى فجأة كلّ الأمور الأخرى. عانقته وقبّلته على شفتيه.

«هكذا هو الأمر»، قال إلياس، «يتصرفون كما لو أنه كان يهرّب حصاد موسم كامل إلى خارج البلاد أو أنه كان يسرق سيارات ومجوهرات في وضح النهار، أو أنه يخزن أطناناً من الحشيش في مديرية الشرطة سرّاً كما يفعل أبناء الوزراء وكل هؤلاء العرصات الذين لم يمسّهم احد. وإذا كان هناك شيء واحد أتمناه على الذين يحكموننا، فهو أن ينفرط عقد هذه الوحدة القذرة، وفي اليوم الذي سيتم فيه ذلك سأوقد ثلاثين شمعة من أجل سيدتنا العذراء مريم».

كانت كلير تضحك وتبكي في الوقت نفسه. ظلت تعانقه. وفجأة عاد إلياس الشاب ثانية، الرجل الذي أحبّته كثيراً قبل أكثر من عشرين سنة. «اصمت وإلا أخذوك أنت أيضاً وسأبقى وحيدة، ومن سيبقى لي حتى أعانقه؟»

قبّلها إلياس. «لن أغفر لسطلان وأتباعه السياسيين لأنهم سبّبوا لك الحزن»، أجاب وهو يعانق كلير لأنه أحسّ ببؤسها.

زارهما الجيران. جلسوا مع والدي فريد، وقد اعترتهم الكآبة، وأخذوا يثنون على الفتى الذي كان على الدوام ذلك الفتى الجميل الذي لا يني يساعد الآخرين. كان البيت يعجّ بالضيوف، حتى إن معلمين اثنين من معلمي فريد جاءا بشجاعة، في حين خاف الآخرون أن يكون إلياس وكلير تحت المراقبة، فيفقدون عملهم.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وصل يوسف. همس لكلير بأنّها يجب أن تأتي معه فوراً. استأذنت كلير ضيوفها الآخرين وتبعته. «كنت قد وعدت فريد بشيء»، قال عندما خرجا إلى الشارع، وسار أمامها. لم تفهم قصده. صعد يوسف إلى سطح بيته المحاط بسياج. كانت الشمس آفلة للغروب وقد أصبحت كتلة حمراء ضخمة.

twitter @baghdad_library

كان هناك كرسيان في الزاوية. سحب يوسف كرسياً لها وقال لها: «اجلسي هنا»، وجلس على الكرسي قبالتها، ثم قال أخيراً بصوت واطئ مبحوح «لقد وعدت فريد بأنه إذا حدث له شيء أن آتي إليك وأحضرك إلى هنا حيث كان يحبّ أن يجلس معي دائماً، ونفكّر به معاً، لأن ذلك سيمده بالقوة».

جلست كلير ووجهها نحو الشمس. أغمضت عينيها وتمنت الموت، لكن صوتاً في داخلها قال «فكّري بالأوقات السعيدة معه. فهو بحاجة إليك». ثمّ ابتسمت من وراء غشاوة دموعها، وللمرة الأولى في ذلك اليوم، اعتراها شعور أحيا شيئاً من الأمل فيها. عندما لمس يوسف يدها فتحت عينيها لترى ذاك الوجه اللطيف يبكي كطفل فقد أهله، فضمته إليها ومسّدت رأسه كأنه فريد.

٢٠٧- دنيا وامرأة ليلة الدخلة

جاءت رنا لزيارة كلير وحكت ما جرى لها مع رامي. لكن الحزن كان يغمر كلير فلم يكن لديها متسع لمزيد من الحزن. هدّأت من روع رنا وقالت لها إن حبّ فريد لها لن يقل عما كان لأنها أُرغمت على هذا الزواج، لكن يجب أن يخرج من السجن أولاً لأن الرئيس سطلان قال إنه ما دام في سدة الحكم فإن أعداءه سيظلون في السجن.

بخلاف كلير، تغيّرت ليلى تجاه رنا فراحت تتحدث عنها بسخرية وبلا تحفّظ وتنتقدها بحدّة. قالت ليلى لها عندما صادفتها في احد الأيام عند كلير إنها لو كانت مكانها لـمّا تزوجت رامي، حتى بعد اغتصابه لها. كان ذلك بمثابة صفعة في وجه رنا. لم تجب رنا.

لكن بعد بضعة أيام، اتصلت ليلى برنا واعتذرت لها عن اتّهاماتها العنيفة لها ودعتها إلى احتساء القهوة معها. كانت رنا تأمل في أن تلتقيا مرة أخرى، فقد كان لديها الكثير من الوقت لأن رامي منهمك في عمله، لذلك ذهبت لزيارة ليلى، وفوجئت بأن بيتها يعجّ بالنساء اللاتي أتين لزيارتها. كان

لا يقل عن عشرة منهن يضحكن ويتكلمن في وقت واحد معاً. كانت ابنة عمة فريد تطوف مثل ملكة، وكانت جميع النساء يبدين لها محبة كبيرة. تحدثت إحداهن قليلاً عن المرأة العربية في عصور ما قبل الإسلام. لم يكن صوت المرأة واضحاً، وكان معظم ما قالته غير مترابط لكن رنا تمكّنت من فهم فحوى حديثها: فقد كانت المرأة في الصحراء قبل ظهور الإسلام تختار شريك حياتها، وكانت تجالس الرجال، ومن الطبيعي أنها كانت تشاركهم في أحاديثهم، ولم تكن ترتدي حجاباً. قالت إن الأسماء كانت تنسب إلى الأمّ لا إلى الأب، ومحمد نفسه يُخاطب عادة بالإشارة إلى اسم أمّه لا اسم والده، وكان يعرف باسم محمد ابن أمينة، وكان الرجل ينتقل دائماً إلى بيت شريكته المرأة، لا العكس. وكان بوسع المرأة أن تنفصل عنه في أي لحظة. كان الأمر في غاية البساطة، لأن ذلك كان يتم بتغيير اتجاه مدخل الخيمة فقط. وهناك شيء آخر: كان بإمكان المرأة الزواج من عشرة أزواج وكان هذا الزواج يعرف بنكاح الرهط.

وتبع هذا الكلام مناقشة بدت كما لو كانت ستستمر إلى الأبد. أحست رنا بالملل. بعد قليل نهضت وغادرت. بعد ثلاثة أسابيع، عندما طلبت منها ليلى أن تأتي لزيارتها اعتذرت وقالت إنها لا تستطيع أن تركّز أفكارها كثيراً في الوقت الحاضر. لم تشأ أن تقول الحقيقة وهي أنها لا تعير اهتماماً كبيراً لأحلام اليقظة التي تهم تلك النسوة المرفهات.

أما دنيا فكانت حيوية. كانت صديقتها تحبّ أن تضحك وكان يبدو أنها خالية البال. وكانت قد فعلت كما كانت تتمنى أمّها وتزوّجت تاجر سجاد ثري. لا لأنها أحبّت الرجل، فلم تكن دنيا تحبّ أحداً إلا كلبها الصغير، لكنّها كانت تجيد التكيّف مع زوجها فساد نوع من الهدوء والألفة في زواجهما.

أما بالنسبة لحفل زفاف دنيا، فقد كادت الأمور أن تسير على غير ما يرام. وعندما حدّثت الحاضرات عن تلك الكارثة ضحكن جميعهن. فقد تعرضت دنيا قبل أسبوعين من ليلة زفافها لحادثة وهي تمارس الرياضة. فقد

twitter @baghdad_library

نزفت كثيراً وقال الطبيب إن غشاء بكارتها قد تمزّق، فأصيب أبوها، الذي كان آنذاك مستشارا لملك السعودية، والذي كان قد أتى لتوه على طائرة خاصة، بالهلع عندما أخبره الطبيب ذلك وقال: «يا ليتها كسرت ذراعها أو ساقها! لكن لماذا كان عليها أن تمارس هذه الرياضة اللعينة وتمزّق غشاء بكارتها! لقد دمرت مستقبلها»، قال مستشار الملك نائحاً وأحس أنه هو الذي يحتاج الآن إلى مشورة. لم يعرف ماذا يفعل. «ما الذي يمكننا فعله الآن؟» سأل الطبيب الذي كان صديقاً قديماً للعائلة.

«من الأفضل أن تطلب من خطيبها أن يأتي ليراني لكي أوضح له حقيقة ما حدث»، قال الطبيب.

«إنك لا تعرفه. إنه رجل محافظ وشكوك، وسيتّهمك بالتواطؤ معنا»، أجاب والد دنيا وغادر العيادة مع ابنته. لأول مرة، لاحظت دنيا أن والدها أصبح يسير محني الظهر قليلاً.

في ذلك الحين كان يُعرف أن إجراء عملية رتق غشاء بكارة فتاة في باريس يكلف مبالغ طائلة. فقد كانت عدة فتيات من العائلات المحدثة النعمة في الخليج يسافرن إلى فرنسا، ويدّعين السفر لقضاء عطلة وإمضاء أسبوعين ثم يعدن وهن عذارى كالحوريات، العذارى الأبديات في الجنة اللاتي يعدن عذراوات بعد كلّ مضاجعة، لكن لم يكن هناك لدى دنيا وقت للقيام بذلك لأن خطيبها كان سيعرف عندئذ سبب زيارتها المفاجئة إلى باريس. جلس والدها الذي بدا كما لو أنه كبر عدة عقود في غرفة الجلوس في بيته ينتظر عودة زوجته التي ذهبت لزيارة أقاربها لمدّة يومين في الريف لدعوتهم إلى حفل الزفاف.

على الرغم من أن الوقت كان صيفاً، فقد كان يشعر ببرد حتى التجمد. فقد كان طوال سنوات مجبراً على الخنوع أثناء عمله في القصر الملكي السعودي، يكافح بضراوة دفاعاً عن منصبه من جميع حسّاده في وسط الصحراء التي يكرهها وبعيداً عن محبوبته دمشق، لماذا كل هذا الشقاء؟ لأنه حلم ان يعود يوماً مرفوع الرأس ويعيش خريف عمره بترف وسعادة - والآن

تحدث هذه المصيبة التي ستذله طوال عمره - فإذا فقد اعتباره الآن، فمن الأفضل له أن يفجر رأسه بطلقة من مسدسه على الفور.

«إلهي لقد قضي عليّ. ساعدني وسأضحّي بأربعين خروفاً من أجلك في مكة المكرمة»، سمعت دنيا والدها يهمس لنفسه، ولم يهدأ قليلاً إلا بعد أن عادت أمّها وأخذت الأمور على عاتقها.

أخذت ابنتها إلى المدينة القديمة لزيارة سيدة مسنّة قوية البنية مربوعة القامة تسمي نفسها «المشاطة» في ليلة الدخلة. فوجئت دنيا واستغربت الإسم، لأن هذه العبارة تبدو بالعربية مثل عبارة مصفّفة شعر. لا ريب أن امرأة ليلة الدخلة تزيل الشعر الزائد من جسد العروس، خاصة من تلك الأماكن التي لا يرغب العريس أن يرى فيها شعراً. لكنها سرعان ما تبينت أن عملها الرئيسي مختلف تماماً. ففي الطريق إليها شرحت أمّ دنيا الأمر لابنتها مهمة المرأة، وعندما حكت دنيا لصديقتها الحميمة ما حدث تبين لرنا للمرة الأولى في حياتها، أن مهنة المشاطة في ليلة الدخلة تُمارَس في دمشق منذ قرون.

حضرت المرأة حفل الزفاف بناء على دعوة والدي العروس وبمعرفة العريس، وبينما كان المدعوون يحتفلون كانت هي تقف على استعداد رهن الإشارة. فإذا كانت العروس خائفة ومتردّدة عندما يختلي العروسان ببعضهما، كانت مهمتها ان تنسل إلى غرفة نومهما دون أن يرى ذلك أحد وتساعد العريس على«افتضاض» بكارة زوجته. فقد كانت تدخل الطمأنينة في نفس العروس الحديثة العهد بالزواج وتداعبها، وإذا دعت الضرورة فإنها تباعد بين ساقيها وتشتمها وتصفعها حتى تصبح طيّعة كي يتمكن العريس من ولوجها من دون أي ممانعة. وكانت أيضاً تعرف كلّ أنواع الخدع لإثارة الرجال الذين لا يوفقون ليلتها بانتصاب لألف سبب وسبب. كانت مساعيها الحميدة تجعلها موضع ترحيب وثقة لدى والدي العريس أيضاً.

«لكن ما علاقة ذلك بي؟» سألت دنيا أمّها وهما تقتربان من بيت «المشاطة» التي سمعت بمشكلة دنيا القلقة، فابتسمت لها وقالت: «اجعلي

twitter @baghdad_library

زوجك يحتسي كمية كبيرة من المشروبات الكحولية، وعندما يريد أن يأخذك إلى السرير قولي له إنك خائفة واصرخي. اطلبي منه أن يناديني، بعد ذلك يجب أن تهدأي وأن تظهري رغبتك. هذا كلّ ما يجب أن تفعليه»، قالت لدنيا بحزم.

دُهشت دنيا لشعور أمّها بالثقة والهدوء مع اقتراب ليلة الزفاف. أما أبوها فقد ظل شاحب الوجه مثل جثّة. كان يبدو حزيناً جداً إلى حد أن شقيقها كمال قال ساخراً إن أحداً يجب أن يقول للرجل العجوز بأنه ليس في مأتم بل في عرس. بالطبع لم يُسمح لكمال ولا لأي شخص آخر أن يعرف قصة غشاء بكارة دنيا.

عندما دخل العريس غرفة النوم كان يترنح من الجرعات الكبيرة التي احتساها والتي صعدت إلى رأسه. فوجىء بحياء عروسه الشديد عندما طلبت منه أن لا يقترب منها وإلا صرخت. نفّذ ما طلبته منه وأرسل في طلب امرأة ليلة الدخلة. فقد قالت له أمّه إنه يجب أن يطلب خدمات هذه المرأة لكي تستمرّ الحفلة ولا يعكر صفوها الصراخ الشديد لبنت عذراء.

وصلت المرأة وهمست شيئاً في أذن العريس الذي بدأ يخلع ثيابه، ثمّ طمأنت دنيا بأنها لن تشعر بأي ألم وأن كل شيء سينتهي بسرعة كبيرة.

«كان الأمر مضحكاً للغاية»، قالت دنيا، «فقد كان زوجي هناك في حالة شديدة من السكر، يرقص في دوائر وهو يخلع ثيابه. فقد بدا وهو عار أجمل بكثير مما كان عندما كان مرتدياً بدلته، فاشتهيته كثيراً - كانت تتضوع منه رائحة طيبة أيضاً - لكن المرأة حالت بيننا، وأبعدتْ ساقيّ كأنّها تريد أن تتفحص داخلي وأمسكت «بعدة» زوجي. كان مستمتعاً بذلك ولم يتوقف عن الضحك ولم يرَ ما الذي كانت المرأة تفعله. أحسست به يقذف في داخلي لكنّي لم أشعر بألم، لكن قبل أن أبلغ الرعشة، صرخت امرأة المشاطة، «أهنئك أيها الأسد بين الرجال على لؤلؤة البكارة هذه»، وزغردت بأعلى صوتها وأطلقت صيحات تشي بالبهجة والتمنيات الطيبة. وبينما كنّا نغتسل أخذت الشرشف الذي برزت بقعة دم كبيرة في وسطه إلى خارج

الغرفة لتريه لجميع المدعوين الذين ابتهجوا وراحوا يرقصون ويغنون ببهجة عارمة بعد رؤيتهم الإثبات القاطع بعذريتي.

من أين أتت المشاطة بكلّ هذا الدم، كان هذا الأمر ولا يزال سرّاً تحتفظ به لنفسها. وكان زوجي ووالدي ووالداه وجميع أصدقائنا وأقاربنا في غاية الحبور والبهجة. في تلك الليلة، ضم أبي أمّي بين ذراعية والدموع تترقرق في عينيه وقال لها: «لن أنسى ما فعلتِه طوال حياتي. لقد أنقذتِني». وفي صباح اليوم التالي، عاد بالطائرة إلى ملكه في السعودية، رجلاً ومستشاراً حكيماً، سعيداً وقد تطمأن على حياته».

٢٠٨- التنوير المتأخّر

لم تكن دراسة يوسف تحتاج إلى أن يداوم كثيراً في الجامعة. بل كان يتعين عليه أن يحضر دروس الجغرافيا فقط لوجود دروس عملية يجب أداؤها. كان يوسف يعرف عن التاريخ أكثر مما يعرفه أساتذته، لذلك بدلاً من حضور تلك المحاضرات كان أصدقاؤه يروه في أحيان كثيرة جالساً في مقهى الهافانا الكائن في شارع بورسعيد حيث يلتقي الصحفيون والسياسيون. فمن كان يرغب في العمل في هاتين المهنتين عليه أن يتخرّج أولاً في «أكاديمية مقهى الهافانا». ولمّا كان يوسف شغوفاً بالسياسة فقد أتاح له المقهى إقامة علاقات ومعارف سياسيين ومساجين سابقين او لاحقين، أهم بكثير من الاستماع إلى أيّة محاضرة.

كان يحبّ هذا الشارع الذي توجد فيه مطاعم عديدة أخرى بالإضافة إلى مزاره المفضّل ودور السينما وكذلك المقاهي والمحلات التي تبيع سلعاً هندية. كان هناك أيضاً «مقهى البرازيل» حيث يلتقي الأدباء والمثقفون، كما كان يمكنه أن يختار ما يحلو له من محلات الحلويات المشهورة عندما كان يتجول متسكعاً في هذا الشارع، وكانت معظم مكاتب الصحف التي تصدر في دمشق تقع في هذه الناحية من المدينة. لكن أكثر ما كان يحبّ يوسف

twitter @baghdad_library

زيارته هو مكتبة «ليبرير يونيفيرسال» التي تستورد أهم الأعمال الأدبية العالمية منذ عهد الاحتلال الفرنسي. كان صاحب المكتبة يعرفه جيداً، وكان يحضر له عناوين غير مسموح بها. كانت المكتبة آنذاك تقع قبالة مقهى هافانا.

ذات يوم خريفي جميل، غادر يوسف المقهى وبينما كان يهمّ بعبور الشارع العريض الذي توجد فيه مسارب مرور رأى والده يترجّل من حافلة الترام ويتّجه نحو بناية قريبة. كان والده قد ضعف بصره كثيراً وأصبح شبه أعمى. رنّ الجرس وسرعان ما اختفى داخل البيت. وقف يوسف مندهشاً في وسط الشارع، فاضطر سائق حافلة تمرّ في الشارع إلى الضغط على كوابحه بقوة ثم كال له السباب الكافي لتغطية ثلاثة أجيال. أجفل يوسف ولوّح بيده معتذراً. صعد إلى الرصيف وتوجه نحو الباب غير البارز بين نافذتين كبيرتين، وقرأ على لوحة نحاسية قديمة عند الباب، مكتوبة بأحرف غير واضحة «عائلة خوري». لم يعن له هذا الاسم شيئاً.

عندما عاد إلى المنزل، سأل أمّه هل تعرف عائلة تدعى خوري. رفعت مادلين عينيها بدهشة وسألته: «لماذا تسأل؟»

«لأني رأيت أبي يدخل بيتاً على بابه لوحة عليها هذا الاسم، ولم أسمع بعائلة بهذا الاسم من قبل».

ضحكت مادلين وقالت: «لا تفكّر في الأمر بهذه الجدية. إنه يزور حبيبته».

استشاط يوسف غضباً وأجاب «هل سبق لي أن رفضت الإجابة بجدية عن أي سؤال تطرحينه عليّ يا أمّي؟» وهمّ بمغادرة الغرفة حانقاً، لكن مادلين أمسكت بذراع ابنها وقالت: «لا تتشنج هكذا. إني أقول لك الحقيقة. إن ريمون يحبّ مارتا منذ أن كان شاباً. كانت فتاة جميلة وكانت تعتبر والدك ملاكماً رائعاً. كان زوجها يدعى سركيس خوري سليل عائلة راقية كانت وقتها تهيمن على تجارة استيراد الكاكاو كما كان أكبر منتج للشوكولاته في دمشق. وكان يقدم مبلغاً من ماله لرعاية ريمون لأنه كان يؤمن بقوّة أبيك، وكان على والدك أن يقول في الحلبة بصوت عالٍ إنه يشرب كأساً من

الكاكاو كلّ صباح كان عليه كذلك ان يمدح مشروب الكاكاو بالحليب في جميع المقابلات التي كان يجريها. وأصدقك القول إن والدك لم يشرب جرعة كاكاو واحدة في حياته.

ثم أغرمت مارتا بأبيك، لكن ريمون لم يرغب في النوم مع امرأة يرعاه زوجها. كان ثلاثتهم يلتقون كلّ أسبوع، وهام ريمون بمارتا وهامت هي به، ولم يتجاوز الأمر ذلك حتى بعد مرور ثلاثين سنة. ثمّ مرض زوجها وخسر كلّ ما يملك في الوقت الذي بدأ فيه والدك يبني قصوراً ضخمة ويكسب مبالغ كبيرة. وفجأة أصبح السيد خوري يعتمد على مساعدة ريمون وكان والدك يقدمها له بسخاء، وكان يحرص أيضاً على أن يتلقى هذان الزوجان اللذان لم يكن لديهما أطفال راتباً تقاعدياً صغيراً من الطائفة الكاثوليكية. لا شيء أسوأ على النفس من أن يصبح رجل نبيل فقيراً. لكن خوري لم يشعر بالامتنان لوالدك بلَ أبدى عدائية لصغر نفسه تجاه ريمون البريء. وكان دائماً يتحدث بالسوء عنه ويقول إنه متأكد من أن مارتا وريمون يخونانه كلما ادار ظهره. لكن الأمر لم يكن يتجاوز جلوس أحدهما إلى جانب الآخر، حتى بعد أربعين سنة لم يلمس أحدهما الآخر.

لكن والدك ورث ضعف النظر من أمّه التي فقدت بصرها وهي في الأربعين من عمرها. لقد أصيب بقصر نظر شديد عندما بلغ الثلاثين من عمره، ومنذ ذلك الحين أخذت عيناه تسوءان كثيراً. لعلك تتذكّر ذلك قبل حوالي عشر سنوات عندما بدأ يخف نظره وبدأ يتعثّر بالأشياء فرجوته أن يذهب لزيارة طبيب عيون. بعد عدة أيام عاد إلى البيت وهو يضع نظارات. كان مسروراً جداً، لأنه أصبح بإمكانه أن يرى طريقه بشكل أفضل. كان مزهواً كطفل يحصل على أول حذاء.

لكنه عاد بعد ثلاثة أيام إلى البيت من دون نظارته. لم يخبركم أنتم الأطفال عن السبب، لكنّه لم يكن يخفي عني شيئاً. فعندما أصبح يرى جيداً ورأى محبوبته مارتا بوضوح أصيب بالذعر. كما قلت لك، كانت في غاية الجمال في صباها لكن ذلك الجمال تلاشى وتحول إلى بشاعة عندما

twitter @baghdad_library

كبرت، فظهرت نتوءات على أنفها وإندلق جفناها للأسفل وخفّ شعرها ونمت ثآليل على يديها. لم يلحظ ريمون ذلك خلال تلك السنوات، الأمر الذي جعله يلقي نظارته في ذلك اليوم تحت الترام».

٢٠٩ - ربيع في الخريف

في صباح اليوم التالي لعودة فريد سمعت رنا خبر إطلاق سراحه من ليلى. اتصلت بمنزله في الساعة التاسعة. ضحكت كلير وقالت مازحة: «إنكِ أسرع من غزالة» وأحسّت بأن الحياة قد عادت تتدفق في عروقها.

استيقظ فريد للتو. فقد كانت تلك أول ليلة بعد نيله حريته. كان متّى وخطيبته فريدة آخر من غادر في حوالي الساعة الواحدة صباحاً. تمنّيا أن يكون فريد شاهداً على زفافهما وكانا ينتظرانه طوال تلك الشهور. تأثر فريد كثيراً لطلبهما فوضع يده على رأس متّى وقال: «طبعاً سأكون شاهداً. فقط حدّدا اليوم».

«لقد حددناه. كان متّى يحدد يوماً جديداً مع الكاهن كلّ ثلاثة أشهر بأمل أن يطلق سراحك. وفي آخر مرّة نصحنا الكاهن بأن نطلب شاهداً آخر»، قالت فريدة، وأضافت «أشكر الله أنني كنت معه لأن متّى كان سيقتله وجأر الكاهن ألاّ يقترح اقتراحاً كهذا مرة أخرى، بل يجب أن يصلي من أجل إطلاق سراح أخيه فريد. اخترنا الآن أول يوم أحد من كانون الأول وإذا كان هذا الموعد مناسباً لك فإننا سنعقد قراننا أخيراً». كانت فريدة تتحدث طوال الوقت، وكان متّى يرمقها بمودّة، ويومئ بسعادة.

«إذاً اتفقنا»، قال فريد ونهض على قدميه ثم وضع علامة صليب كبيرة على يوم الأحد ٣ كانون الأول في التقويم.

عندما أوى إلى الفراش كان متعباً، لكنه كان في حالة اضطراب شديدة فلم يكد يغمض له جفن. ابتسم للمشهد الذي وصفته فريدة للكاهن وتخيّل متّى الغاضب ووجه الكاهن الشاحب. ما أشدّ إخلاص متّى في صداقته. في آخر المساء، جاءه خبر زواج رنا الذي أُرغمت عليه. إن دمشق في الليل

تنبض بأصوات كثيرة بالنسبة لشخص أمضى أكثر من سنة في الصحراء. فقد كان كلّ ما يسمعه فريد في السجن لا يعدو صياح السجناء وزمجرة الضباع. كانت الصحراء تبتلع أي شيء آخر، أما هنا فيبدو أن المدينة لا تنام، وعندما تخلو الشوارع من المارة فلا يعود أحد يصيح أو ينادي على بضاعة أو سيارات تطلق العنان لأبواقها، كان صوت الأذان ينطلق من مآذن الجوامع.

استيقظ فريد وخرج إلى الباحة حافي القدمين. كانت كلير تجلس بجانب البحرة. سألها بصوت منخفض مع من تتحدث على الهاتف فقالت على السماعة «لا بد أنه التقط رائحتَكِ. إنه يسأل عنكِ. هل أُخبِرهُ؟»

ضحكت رنا.

«ألو، يا حياة قلبي؟» قال لها فريد محيياً، كلمات ما فتئ يرددها منذ شهور.

«ألو. ألا تزال تريد أن تراني بالرغم من كلّ ما حدث؟» سألته باستحياء.

«كلّ يوم»، قال لها، «فزواجك لا يعني لي شيئاً، وإذا كان لا يعني لك شيئاً أيضاً فلنلتق وليرَ أحدنا الآخر». كانت هذه هي الكلمات التي كانت رنا تتوق لسماعها منذ شهور.

دلّته على المكان الذي تقيم فيه.

كانت المدينة في مزاج مفعم بالبهجة والنشاط، وكان الطقس في تشرين الأول ذاك جميلاً، فاتناً، وأحسّ الدمشقيون للمرة الأولى بشيء يشبه الحريّة مرة أخرى منذ سنوات عديدة. لم يكن فريد يظن أنّ الجنرال عميلان الذي طرد سطلان أفضل من سلفه، لكن آمال الناس بالديمقراطية كانت حقيقية وكان إطلاق سراح جميع السجناء السياسين بداية مشجّعة. وعادت الأحزاب السياسية السورية والصحف القديمة التي كان قد حظرها سطلان إلى الظهور.

إن دمشق تكتسي أجمل حلتها في الخريف، قال فريد لنفسه. كانت نداءات الباعة المتجولين وزقزقة السنونو في السماء تشبه أغاني وداع حزينة وكلاهما يزين دمشق لتصبح لوحة رائعة الجمال.

كانت الجامعة ستفتح بعد أسبوعين لبدء السنة الدراسية الجديدة.

twitter @baghdad_library

أسف فريد لأن كلّ أحلامه في الدراسة الجامعية حيث تكون رنا قريبة جداً منه قد صارت هباء منثوراً بسبب إجبارها على الزواج.

لقد تغيّرت بعض الأشياء منذ اختفائه. قال له يوسف بعبارات متقطعة سريعة تشبه رسالة برقية، فقد أغلق وزير الداخلية النادي بعد أن أقدم جبران على فعل أمر سخيف وهو رواية نكتة مهينة لسلطان، وهم يحاولون حالياً الحصول على ترخيص لإعادة فتحه. وقد اعتقل جبران بعد فترة قصيرة ونقل إلى مستشفى المجانين الذي يطلق عليه العصفورية وهو لا يزال قابعاً فيها.

«وماذا عن كريمة؟»

«إنها لا تريد أن تسمع بعد الآن عن جبران، فقد تحملت إهانات كثيرة بسببه، وهي تريد الآن أن يتركوها وشأنها».

في وقت متأخر من تلك الليلة، اتصل أمين بالهاتف وقال إنه في حلب حالياً وأنه يريد أن يهنئ فريد بإطلاق سراحه ويذكّره بأن كل شيء أصبح علنياً الآن وقد آن الآوان ليبدأ معركته مرة أخرى، وأخبره أمين بأنه هو وأربعة شيوعيين آخرين تمكّنوا من الهرب من سجن تدمر الفظيع، وأنه وجد ملاذاً لدى إحدى العائلات الحلبية التي لا تهتم بالسياسة، لكنها تمتلك الشجاعة، ثمّ قال إنه أُغرم بسليمة، أكبر بنات العائلة التي يقيم معها وقد تزوّجا منذ ثلاثة أشهر. وقال إنه يرغب في أن يرى فريد وأضاف أن من الأفضل له أن يبقى في حلب حيث توجد لديه أعمال كثيرة في التبليط.

«سأشتاق إليك كثيراً»، قال فريد.

«سأشتاق إليك أنا أيضاً»، أجاب أمين وأضاف «لقد سمعت أشياء جيدة عن مواجهتك لعثماني. لا يمكنني أن أتحمّل هذا الرجل. أنا. . .» وهنا تردّد أمين للحظة ثم قال: «إني فخور بك كثيراً»، ولم ينبس فريد بكلمة وتساءل كيف وجدت هذه الأخبار طريقها إلى حلب من سجن بعيد في الصحراء.

أقامت رنا منذ الصيف الماضي في بيتها الجديد. كان هدية قدمها والدها للعروسين، والبيت يقع في شارع الفردوس، قبالة دار السينما التي

تحمل اسم الشارع أيضاً وسط حيّ الأعمال التجارية الذي يضجّ بالحركة والنشاط في المدينة الجديدة.

شيّدت البناية التي أهداها والدها للعروسين في ثلاثينات القرن العشرين على الطراز الأوروبي بأحجار بيضاء.

كان الطابق الأرضي مؤجراً لمكتب فرع الخطوط الجوية الفرنسية ومحل للأزياء ومجهزا بواجهات زجاجية براقة، ورنا وزوجها يقيمان في الطابقين الكائنين فوق المكتب والمحل. كان سطح المبنى المستوي المحاط بستار طويل هو ميدان رنا، وقد زرعت في جنباته أشجار البرتقال ونباتات الدفلى والورد والياسمين في أحواض كبيرة. وقد حوّلت الغرفة الواقعة على السطح التي كانت غرفة نوم الخادمة إلى استوديو صغير تمضي فيه أوقاتها وتزاول الرسم في معظم الأحيان.

لم يكن زوجها رامي يصعد إلى السطح مطلقاً لأن السطح في رأيه مكان لنشر الغسيل، والغسيل عمل من اختصاص المرأة، كما كان يعتبر الرسم مهنة للنساء، وربما للرجال المصابين بلوثة في عقولهم.

دُهشت رنا لعدم وجود ندبات على وجه فريد، لأن كوابيس كانت تراودها بأنهم شوهوا وجهه من شدة التعذيب والمعاملة السيئة، لكن ها هو يقف الآن أمامها أكثر وسامة، بل أكثر رجولة وأشدّ مرحاً من ذي قبل.

ما إن رآها حتى جرى نحوها وضمها رافعاً إياها بين ذراعيه القويتين وصاح «إلى أين سآخذك يا أميرتي؟» وقبّلها على فمها.

«أوه، أنزلني، فأنا ثقيلة الوزن! يجب أن نصعد طابقين»، همست في أذنه.

كان درج حادّ شاق يؤدي إلى هذين الطابقين ثم إلى السطح. عندما وصل أبدى إعجابه بمشهد النباتات والأستوديو المؤنّث على نحو جذاب.

كان عبق أجمل يتضوع منها. قبّلها ثم أسندها إلى الأريكة القديمة الكبيرة في الأستوديو كما لو أنهما لم ينفصلا لحظة واحدة. عندما أصبح بالقرب منها اعترى فريد، مرة أخرى، ذات الشعور الذي كان يعتريه عندما

twitter @baghdad_library

كانا معاً في بيروت. ما إن قبّلها حتى أحاطت به كأن العالم نفسه قد أحاطه. غاصت في كلّ مسام في جسده، واتّحدا وأصبحا جسداً واحداً.

حدّثها فريد عن أيامه في السجن، ثم سمع قصّة أسوأ يوم في حياتها وهزيمتها بعد أن خدعها رامي وأسرتها. وقالت له إنها قررت أن تعيش مثل نبتة الصبّار حتى يتمكنا من مغادرة هذا البلد معاً، لأنه لا حياة كريمة لهما فيه.

أخذت رأسه بكلتا يديها وقبّلته في عينيه وقالت: «سأصلّي من أجلك من كلّ قلبي»، وقبّلته مرة أخرى، «سأصلّي من أجل ألاّ يحدث لك مكروه وأنت تناضل لتحرير البشرية والكواكب الأخرى في نشاطك السري»، ثم لم تتمالك نفسها من الضحك، وتدحرجا على الأرض وهما يلهوان ويتصارعان.

بعد ذلك لم يعرف أي منهما كم مرة مارسا الحبّ في ذلك اليوم. بعد الظهر طار عصفور الدوري من غصن شجرة البرتقال وحط على حافة النافذة ونظر إلى الأستوديو. زقزق وطار بعيداً ثم عاد مع عصفور آخر وراحا يرمقان رنا وفريد.

«هذه صديقته»، قال فريد «إنه يريها كيف يمكن الاستمتاع بالحبّ المحرّم».

ابتسمت رنا وقالت: «لا، إني أطعم العصفور الأول منذ أسابيع. لعله أحسّ بالغيرة، والعصفور الآخر ليس أنثى، بل ذكر آخر وهو صديق له. أظن أنهما يتحدّيانك لمنازلتهما».

عندما انتصب فريد في جلسته طار العصفوران بعيداً. نظرت رنا إلى حبيبها العاري ورأت وراءه الياسمين في مجد أزهاره البيضاء، وللحظة خيّل إليها أن الفصل ربيع.

كتاب النمو الثّالث

الشجاعة تقتل وكذلك الجبن

*

دمشق، ١٩٦١-١٩٦٥

٢١٠- إصابة يوسف

كانت الجامعة بمثابة مفاجأة بالنسبة لفريد من جميع الجوانب. فقد كان المبنى الذي يضم قسم العلوم الطبيعة مبنى حديثاً يضم أحدث المختبرات لكنّ المناهج الدراسية التي تدرس فيها كانت قديمة عفا عليها الزمن، وكانت تعتمد كثيراً على أسلوب التعلّم بالتلقين والحفظ عن ظهر قلب، غالبا دون فهم. وكان مستوى التدريس في السنة الأولى أدنى بكثير من مستوى التدريس في مدرسة النخبة التي درس فريد فيها. ومنذ بضع سنين بدأ عدد من العلماء والأساتذة يغادرون البلد لأن أساتذة الجامعة كانوا يكسبون عشرة أضعاف ما يتقاضونه في دمشق إذا عملوا في الكويت أو السعودية، فاستعاضت الجامعة عنهم بمحاضرين شباب عديمي الخبرة. بل إن الأساتذة الجدد لم يكونوا من حملة درجة الدكتوراه.

حتى في بداية الفصل الدراسي في الجامعة، أدرك فريد أنه بعد أن ينهي دراسة العلوم الطبيعية لمدة أربع سنوات فإنه لن يخرج بشيء سوى بشهادة أنيقة مكتوبة بخط أنيق مزدانة بزخارف عربية، بل كان من السخافة حتى مجرد التفكير بإجراء أبحاث ودراسات علمية.

لكنه لو كان صادقاً مع نفسه لما اهتم كثيراً بذلك. فبإمكانه أن يتخيّل

twitter @baghdad_library

حياة مليئة بأمور مثيرة أكثر من المعادلات الكيميائية: فهناك رنا التي سيراها كثيراً الآن وهناك عمله السري وكلّ تلك الروايات التي يقرأها والنادي بأعضائه من مختلف الأطياف والألوان.

استعاد النادي رخصته بعد شهرين من وقوع الانقلاب، وبعد أسبوع من ذلك افتتح ثانية بإقامة حفلة كبيرة. وقد أتى أمين من حلب خصيصاً لحضور هذه المناسبة مع زوجته سليمة الشاحبة الصامتة. قال فريد لنفسه إن صديقه أصبح مرتاحاً وسعيداً أكثر من قبل. وأبدى عدوه اللدود ميشيل شيئاً من الاحترام اتجاه أمين أيضاً.

احتفل الحيّ كله، وكان هناك حوالي ثلاثين صنفاً من الطعام يمكن للمرء الاختيار منها، بالإضافة إلى كميات كبيرة من المشروبات. وجاء المطران أيضاً ونبّه بلطف إلى أن لا يحكي أحد نكات عن الحكومة وقال: «يمكنني أن أحكي نكات أيضاً يا أولادي، وقداسة البابا يوحنا الثالث والعشرون رجل عطوف يحب المرح والبهجة لكنّي أمتنع عن قولها في جميع الأحوال».

«يا للأسف سيدي نكتة واحدة من أجل العذراء!» صاح أحدهم. حاول المدعوون المتحلّقون حول المطران بشتى الأساليب الممكنه تحفيزه ليقصّ تلك النكات. راح جسمه يهتزّ من الضحك وأخذ الأشخاص الجالسون بجانبه ينعقون مغتبطين عندما رأوا النبيذ الأحمر ينسكب على الأرض فأسرع توفيق حاملاً قطعة قماش ليجفف يد المطران.

قال: «لا، لا، لن أخبركم. فللرجل أذنان لكنّ له فماً واحداً، وهذا يبين الحكمة الإلهية في أن على المرء أن يقول نصف ما يسمعه فقط».

شعر بعضهم بالحرج لأن جبران كان لا يزال في مستشفى المجانين يخضع لمعالجة نفسية، لكن أشيع أنه سيخرج من المستشفى قريباً.

وكان شخص آخر غائباً أيضاً، على الرغم من أن ذلك لم يلاحظه إلا عدد قليل منهم. «لقد اعُتقل سليمان»، همس يوسف لفريد «فلدى النظام الجديد حساب يريد أن يصفيه مع جميع رجال المخابرات».

«لكن سليمان لم يكن سوى سمكة صغيرة»، قال فريد مندهشاً.

«أعرف، لكنهم يلاحقون الأسماك الصغيرة والكبيرة. كما أُعتقل عبد الحميد السراج، رئيس الشرطة السرية المجرم، وهو يقبع الآن في السجن أيضاً».

«هل قلت مجرم؟ لقد شجعه سطلان الذي تحترمه وتجله على عمل ذلك».

«كنت أؤمن بسطلان، نعم، لكنّي لم أدّع يوماً أنه رجل معصوم»، قال يوسف بجفاء، «وكان ذلك المجرم سراج أحد أفدح أخطائه».

«وماذا عن والد سليمان ووالدته؟» سأله فريد في محاولة لتغيير الموضوع.

«يُسمح لهما بزيارته. إنهما يقولان إن ذلك كلّه مجرد سوء تفاهم».

«وماذا سيقولان غير ذلك؟» أجاب فريد، «بأنّه سلّمني أنا وجبران إلى المخابرات؟»

«لا بد أن يعترفا أخيراً»، قال يوسف، «بعد أن أشاعا بأنني وشيت بجبران، فقط لأنني قلت إن نكاته عن سطلان لا ذوق فيها ولقد قلت ذلك علناً. توفيق كاد يقتلني ولم يستعد رشده إلا في آخر دقيقة. والجيران كانوا يبصقون عندما كنت أمرّ وقد أهانوا أمّي وأخواتي نتيجة هذه الاتّهامات».

«أوه، هيا، لقد انتهى كل شيء الآن. لا تحمل ضغينة»، قال فريد. لكنه عندما التفت، فزع عندما رأى الدموع تطفر من عيني يوسف.

٢١١- عودة جبران

استيقظ فريد على قرع الجرس العاصف. بما أن الجامعة مغلقة يوم الجمعة، وبما أنه كان قد حضر اجتماعاً لخلية حزبه حتى ساعة متأخرة في الليلة الفائتة، فقد أراد أن ينام حتى وقت متأخر. فتحت أمّه الباب. انتصب جالساً في السرير، وسمع صوت يوسف في الباحة الداخلية يقول لكلير: «لا، يجب أن ينهض. فقد أُطلق سراح جبران».

twitter @baghdad_library

«لقد استيقظتُ»، صاح فريد عندما نزل إلى باحة المنزل. كان يوسف وأمّه قد فرغا من احتساء القهوة. «وماذا بشأني؟» قال محتجّاً.

«إنهم ينتظرونك في النادي. لقد أعددنا فطوراً كبيراً بمناسبة إطلاق سراح جبران. لقد أرسلوني لأحضرك فوراً. فالشاي والقهوة هناك يتدفقان كالنهر، لا تقلق»، قال يوسف وهو يسحب فريد نحو الباب. لم يكن لديه متسع من الوقت حتى ليطبع قبلة على خدّ كلير، ثم تبع صديقه عن طيب خاطر. ابتسمت كلير. بطريقة ما كانا لا يزالان صبيين صغيرين.

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، غادر فريد الاحتفال ليذهب إلى السينما. كان يريد أن يصل في وقت مبكّر ليحجز مقعداً لرنا التي ستتأخر قليلاً. فعندما تصل ستنضمّ إليه في الصفّ الثالث إلى جهة اليمين لكي يبدو ذلك محض صدفة لكنها كانت تعرف تماماً إلى أين ستذهب.

عندما كان في الحافلة كان لا يزال يفكّر بجبران. فقد شوهت صدغاه بقعتان لامعتان كاللتين على صدغي متّى. «كان الممرض والطبيب في مزاج سيء. كانت تحرقني مثل جهنم لكن الدواء الذي أعطياني إياه جعلني أهذي، ولم أدرك ما فعلاه بي إلا بعد عدة أيام. لكن لا تهتم فهذا ما كنت أريده».

جازف جبران كثيراً، وعندما قبض عليه وضع كل بيضاته في سلة واحدة: فقد تظاهر بالجنون. فقد أنقذت هذه الحيلة حياته من قبل عندما كان في إندونيسيا. «في ذلك الوقت أدركتُ قوّة الجنون. كنت أنتظر إعدامي - وهذه قصّة أخرى - فقد كان الأمر يتعلق بتهريب أسلحة ومبالغ كبيرة من الأموال وقد أراد شريكي التخلّص منّي. سأحدثكم عن ذلك في وقت آخر، لكني وجدت في إندونيسيا أن الجنون هو ملاكي الحارس، وعرفت أنني يجب أن أتظاهر به وإلا فقد كان الموت أمامي. لذلك خرجت من نفسي وحرصت على ألاّ أتصرّف بشكل طبيعي لثانية واحدة. حاول الإندونيسيون كلّ ما بوسعهم لأن أعود إلى رشدي وأصبح عاقلاً مرة أخرى، لكنّي ازددت جنوناً ورحت أركض حول باحة السجن وأنا عار تماماً وأتغوط في كل

مكان. كدت أفقأ عيون الناس وأضحك مثل ضبع. كانوا يضربونني حتى أغيب عن الوعي، وما إن أصحو حتى أعود إلى الجنون ثانية. من السهل أن تتظاهر بالجنون لفترة قصيرة. يمكن لأيّ طفل أن يفعل ذلك بصورة رائعة أمام المرآة - لكن إذا أردت أن تستمر في التظاهر بالجنون تحت التعذيب فيجب أن تبذل أقصى ما عندك من جهد وليس هناك أية ضمانة أن تنجح في مسعاك.

في أحيان كثيرة كنت أصبح مجنوناً حقاً للحظات قصيرة. لقد التصق القناع على وجهي، وكنت أقول أشياء مضطربة حتّى عندما أكون وحدي. في هذه الأوقات كانت يد باردة تقبض على قلبي، وأقول لنفسي جبران إنك لا تتصرّف كمجنون فقط، بل لقد أصبت حقاً بالجنون. لقد عذّبني الإندونسيون طوال ستة أشهر. عندها فقط صدّقوا أنني مختل عقلياً فأخرجوني. كان عليّ أن أغادر البلد على متن السفينة التالية. كان القبطان صديقاً قديماً لي، فأصيب بالهلع عندما رآني، لكن ما إن ركبنا البحر حتى تحممت وحلقت ذقني وانتهى بنا الأمر ونحن نضحك ونشرب معاً».

لم يكن اختيار الجنون مرة أخرى في دمشق قراراً صعباً بالنسبة له، وإلا لكانوا أوسعوه ضرباً حتى الموت. فقد عذّبه رجال المخابرات في السجن طوال أسبوعين حتى اقتنعوا حقاً بأنه لا يدعي الجنون، لكنه اكتشف عندما نُقل إلى مصحّة نفسية بأن عيون وآذان رجال الأمن كانت مسلطة عليه هناك أيضاً لذلك كان عليه مواصلة التظاهر بالجنون، وعندما أطاح الانقلاب بنظام سطلان تماثل جبران ومعه عشرون سجيناً آخر إلى الشفاء بين ليلة وضحاها.

لكن كريمة لم تعد ترغب في مواصلة علاقتها معه، ذهب جبران لرؤيتها. أراد أن يخبرها كم هو مشتاق لها ويسألها لماذا لم تزره قط، لكنّها رفضت حتى أن تفتح له الباب. كان ذلك بعد أسبوعين من خروجه من المستشفى، وجاء جبران إلى النادي كئيباً محني الظهر كأنه كبر عشر سنوات. لكنه ظلّ يتذكّر كريمة حتى آخر يوم في حياته، وكان دائماً يعود إلى بيت الذاكرة الذي لم يطرده أحد قط منه.

twitter @baghdad_library

٢١٢ - عرس متّى

لم يكن فريد يتوقّع أن يقام مثل هذا العرس الكبير لمتّى. فقد عجّ بيت عمّته حتى السطح بالمدعوين، وقدمت كلير وإلياس المشروبات بسخاء، وجاء يوسف مع جميع أفراد أسرته، حتى إن والد ووالدة متّى دعيا لكن لم يستشارا في ترتيبات العرس، وأخذت عمّته على عاتقها القيام بكل ذلك. كانت هذه أول مرة يرى فيها فريد أفراد أسرة متّى: إخوته التسعة في ثيابهم القروية المزركشة والفاقعة الألوان ووالده الهرم الذي يدعى تامر، وأمّه نسيبة التي لاحظ فريد جمالها وسوء طبعها. كانت منكفئة على نفسها طوال السهرة.

«كما لو أنّها جاءت لحضور مأتم»، قال لأمّه بصوت منخفض.

«إن نسيبة امرأة سيئة المزاج، لكن هذه قصّة طويلة. احتفل بعرس صديقك ولا تعرها أي اهتمام»، همست له كلير.

أما أفراد أسرة العروس فكانوا عشيرة ملوّنة صاخبة قادمة من المناطق الجبلية، فراحوا يغنّون ويرقصون لكن ذلك لم يلق استحسان والدي متّى المتديّنين، إلا أنه كان عليهما أن يتحمّلا ذلك وإلا لطردهما ابنهما.

كان متّى وفريدة محظوظين. فقد كان الأسبوع الأول من شهر كانون الأول شبيهاً بالصيف حيث بلغت درجة الحرارة ٢٥ درجة مئوية في النهار، وكان الطقس في الليل معتدلاً وصيفياً. وأحيى جبران السهرة بطريقته الخاصة، إذ كان يقف بجانب الدرابزين في الطابق الأول ثم يتّجه إلى الباحة الداخلية ليحكي قصصاً مسلّية مضحكة بين الحين والآخر. كان المدعوون مبتهجين، وقام توفيق ومساعدوه بتقديم المشروبات.

كانت عمّة متّى مبتهجة للغاية، فلم يسبق أن جاء إلى بيتها هذا العدد الكبير من الناس، فامتلأت بهم الغرف في الطابقين الأرضي والأول، وامتلأت بهم الممرات أيضاً، حتى إنهم صعدوا إلى السطح.

قدّم أقارب فريدة تسلية كبيرة للمدعوين أكثر من أيّ فرقة مسرحيّة. إذ أمضوا السهرة كلها وهم يقفزون ويرقصون بحيوية كبيرة. وما إن كانت تحلّ

لحظة صمت حتى كانت بعض النساء يطلقن الزغاريد أو يرقصن، فتشاركهن النساء الأخريات الغناء. وعندما كان الرجال يثبون ويخبطون بأقدامهم كانت الأرض تميد من تحتهم. استمتع إلياس وكلير بوقتهما أيضاً وراحا يغنيان ويرقصان معاً لأول مرة منذ الأيام التي كانا فيها عاشقين.

«لقد وجد متّى الأسرة المناسبة»، قال يوسف ونظر فريد إلى العروسين بارتياح. دهمته الذكريات وعادت به إلى الماضي البعيد. فقد أحبّ متّى منذ أول يوم التقى به في ساحة القرية في معلا. لم يكن فريد قد بلغ العاشرة من العمر بعد وكان متّى يكبره بسنتين.

كان قد وفّر على نفسه كل ما جرى له لو كان قد زُوِّج من ابنة عمه عايدة. فلو ظل متّى راعياً لعاش سعيداً وهو يجوب أرجاء البادية والجبال والحراج. لقد خلق لحياة كهذه.

لكن حتى قبل مجيئة إلى الدير كان يتصرّف أحياناً على نحو غريب. فعندما كان الفتيان يجلسون معاً، كان يتسمّر كما لو كان تمثالاً ثم ينفجر فجأة مثل عرض للألعاب النارية. كان يتحدث دائماً إلى نفسه أيضاً، وعندما كان فريد يسأله عن ذلك كان يجيب بطريقة غير متماسكة أو يضحك حتى تطفر الدموع من عينيه دون سبب.

كان بعض الآباء في الدير يعتقدون أن أرواحاً شرّيرة تتلبّسه. وقد حاول الأب إسطفان الذي كان يراقب رسائل الطلاب، بجدية كبيرة أن يطرد منه الأرواح الشريرة فكان يضع يديه على متّى ويستحلف الأرواح بأن تغادر جسم الفتى. كان متّى يضحك على الكاهن وكان يؤكد لإسطفان نظريته بأن الشيطان شخصياً هو الذي يضحك عليه من داخل جسم التلميذ الكاهن. لكن الفتى قال له بشجاعة مدهشة في وجهه بأن الشيطان يقبع في قلبه هو، أي في قلب الأب إسطفان، لأن متّى، شأنه شأن الآخرين، كان يستطيع أن يشمّ رائحة أجساد نتنة ورائحة الكبريت كرائحة بيض عفن والتي تنبعث من فمه، وقد أصاب ذلك الأب إسطفان في مقتل، فلطم متّى المسكين على وجهه وألقاه بعيداً.

twitter @baghdad_library

عندها هرب متّى، وعندما أُخذ إلى الطبيب لاحقاً لم يعد يعرف من هو، فراح يحكي حكايات مشوشة وقال إنهم وضعوا له شيئاً في الشاي الذي كان يشربه في الدير، لذلك لم يعد يتذكّر شيئاً.

أما اليوم، فها هو متّى نفسه يحتفل بزفافه إلى المرأة التي، كما قالت كلير، منحته كلّ ما كان يفتقر إليه.

٢١٣- هيغل في دمشق

اتخذت البلدية إجراءين غيّرا وجه المدينة في عام ١٩٦٢، إذ أزيلت آخر سكة للترام وغُطّي نهر بردى.

عاد الجنرال عميلان إلى ثكناته كما وعد وسلّم السلطة إلى حكومة مدنية شكلت تحالفاً من الأحزاب المحافظة، وصدر عفو عام عن جميع السجناء باستثناء سراج، رئيس الشرطة السرية السابق، لكنه تمكن بمساعدة مخابرات سطلان من الهرب وانضم إلى رئيسه القديم في مصر حيث اسُتقبل استقبال الأبطال، لكن لم يحدث ذلك حتى أوائل أيار.

في مطلع آذار، سألت اللجنة المركزية للحزب فريد عمّا إذا كان يريد أن يصبح رئيس الفريق الجديد لتحرير مجلة «الشبيبة» السرية وأن يوسّع آفاقه في الحزب. وقد نقل له هذا العرض الرفيق المسؤول عن التنسيق لمدينة دمشق. كان فريد يدير الأقسام الثقافية في الحزب في دمشق، وكان رفيق آخر يدعى صالح يضطلع بالشؤون المالية والأرشيف، رفيق ثالث، متجهّم الوجه قليل الكلام يدعى طاهر مسؤولاً عن إدارة شبكة الخلايا. كانت الفكرة تكمن في العمل سراً بفعالية أكبر من خلال هذه الصلات. هنّأ رئيس مكتب التنسيق، صهر السكرتير العام للحزب، فريد على هذا العرض الذي يعتبر شرفاً، لكنّه طلب وقتاً للتفكير إن كان سيقبل أم لا. فقد كان خجولاً ولم يكن بوسعه الإعراب عن رأيه بصراحة أمام رفاق الحزب الآخرين الذين لم يعرفهم من قبل، لذلك لم يقل لهذا الرجل إن تجربته السابقة عن اجتماعات هيئة التحرير لم تكن تجربة سعيدة جداً، فعاد إلى البيت وفكّر

جيداً لكنه لم يتوصل إلى قرار حاسم. غير أن الدورة التدريبية السياسية التي أقامها الحزب في بداية نيسان رجّحت كفّة الميزان وقَبِلَ منصب رئيس التحرير.

في ذلك الاجتماع، بذل فريد وعشرون رفيقاً آخر كل ما بوسعهم للتركيز على الحديث المملّ لرجل عجوز ينبعث صوته من منخريه. كان يدعو نفسه الرفيق جابر وكان يتحدّث عن هيغل. كان الفصل ربيعاً، وكان فريد يشعر بإرهاق شديد عندما كان الرجل يدندن بصوته الرتيب عن «الأطروحة» و«نقيضها» و«تركيبها» في الديالكتيك الهيغلي ومنطق هيغل ومنظومة علومه. وكان فريد يبذل جهداً كبيراً لإبقاء عينيه مفتوحتين خاصة أن أحد الرفاق الجالس بجانبه كان يشخر. انتصب في جلسته ونظر من خلال شقّ في الستارة التي تغطي النافذة. كانت الشقّة الكبيرة التي عقد فيها الاجتماع تقع في بناية حديثة في المدينة الجديدة. كان الشارع في الأسفل يضجّ بالحركة والحياة تحت السماء الزرقاء الجميلة، وكان الناس يرتدون قمصاناً ذات أكمام قصيرة، ويستمتعون بالنسيم العليل المنعش الذي يهبّ على دمشق في هذا الوقت من السنة، ويعبق بشذى أزهار اللوز والمشمش، بينما كانت سحب المفاهيم الهيغلية تنمو ببلادة وتزداد غموضاً حوله على الدوام.

فجأة أيقن فريد أن ليلى محقّة. إذ لا يمكنه أن يغيّر شيئاً هنا لأن الحزب يتكون من أخشاب عتيقة متعفّنة. فقد كانت تقول إن ما يصبو الحزب الشيوعي اليه، في أقصى حالاته راديكالية، هو أن يشارك في إدارة الحكم لكنه لا ينوي وإن نوى لن يتمكن من الإطاحة بأي نظام عربي، لأنه سيسقط معه في أيّ ثورة سياسية. إبتسم، بينما الرفيق يواصل عبر أنفه تعقيد هيغل أكثر مما هو بالأساس معقد، قال فريد في نفسه إن هيغل، بطريقة ما، لا يلائم دمشق.

عندما وصل الرفيق أخيراً إلى النهاية المنتظرة في كلمته، استمتع جميع الحاضرين باستراحة لتناول القهوة.

ثم تحدث رفيق آخر أكثر حيوية من اللجنة المركزية عن الخطط لكي

twitter @baghdad_library

تستمع القيادة إلى القواعد الشعبية في المستقبل بشكل افضل بهدف تحسين عمل الحزب.

مدفوعاً بهذه الملاحظات، نهض أحد الرفاق وسأل بلهجة أهل حوران في جنوب سوريا هل تفكّر القيادة بعقد مؤتمر للحزب في نهاية الأمر، بعد أكثر من عشرين سنة، وقبل أن يموت السكرتير العام خالد مليس من الشيخوخة وتنتقل السلطة إلى زوجته أو إلى ابنه. وقال إن الرفيق السكرتير العام ربما قد نسي أسلوب عمل الحزب الشيوعي الذي توصي كتبه بعقد مؤتمرات كل سنة أو سنتين.

بدا كلامه هذا أشبه بمقالة منشورة في مجلة «المضحك المبكي» لحبيب كحالة صديق والد فريد الساخرة التي عاودت الصدور. فقد كانت هذه المجلة تحظى بشعبية كبيرة وكانت تثير خشية السلطة، لذلك دأب الطغاة على حظر صدورها. لم يجرؤ أحد من الرفاق على الضحك. انقبض وجه مبعوث اللجنة المركزية وارتعش على نحو غريب، ولاحظ أن هناك شيئاً غير عادي.

«أيّ أسئلة أخرى؟» سأل أخيراً ببرود شديد متجاوزاً السؤال الجريء دون الإجابة عليه. كان فريد يحبّ أن يعرف بضعة أشياء عن الرفيق الكريه المنافق عثماني الذي عاد إلى القيادة، لكنّه لم يجرؤ على الكلام. أحسّ بأنه على غير ما يرام وكأنه أصيب بدوار. فمنذ أن طُرح أول سؤال تعكّرت الأجواء وأصبحت تنذر بالسوء كما لو أنها كانت الريح التي تهبّ قبل عاصفة رعدية. في تلك اللحظات اعتراه شعور بالخوف أكثر مما كان يعتريه أثناء استجوابات المخابرات.

نهض رفيق آخر فأثنى على قيادة الحزب وسأل بنبرة متذلّلة إن كانت توجد لدى الحزب أيّ قواعد أو تعليمات لحماية الرفاق الذين يعملون في السر. «فالكلّ يرتجل» وتابع الرجل بمرارة، «ولا أحد منّا يعرف كيف نحمي أنفسنا من المخبرين، فقد وقعت في نفس الفخّ الذي نصبه لي جهاز المخابرات ثلاث مرات».

أومأ مبعوث اللجنة المركزي معجباً. دوّن كلّ ذلك وقال: «سأطرح فكرتك الهامة على المكتب السياسي للحزب. جيد جداً، جيد جداً»، قال مثنياً على الرجل. فعاد الرفيق وجلس مزهواً بنفسه.

ثمّ نهض طالب نحيف كان فريد يبادله النكات أثناء استراحة القهوة، يدعى نجيب، يدرس الأدب العربي في جامعة دمشق، وقال: «وأودّ أن أسأل لماذا لا يكتب الرفاق في المجلات التي نصدرها عن الحبّ، بدلاً من طبع أناشيد طويلة في مديح الزراعة في الاتحاد السوفيتي؟ إن أحداً لا يقرأها ناهيك عن الروس أنفسهم. إن مجلاتنا ومناشيرنا ممنوعة و سرية لذلك كيف يمكنني أن أفترض أن بإمكاني إقناع طالب أن يقرأها ويعرّض نفسه للطرد من الجامعة وربما للإعتقال إن كان كلّ ما يطبع هي قصائد مديح عن الإنجازات السوفيتية ولا توجد كلمة واحدة عما يهم الطلبة: عن الحبّ؟ يمكنك أن تناقش الحبّ مع أي شخص، وعندها سيقرأ الجميع المجلة وتصبح بمتناول الجميع».

انطلقت قهقهات في الغرفة.

«أيريدني أن اكتب عن ذلك؟ اكتب عن ماذا؟» سُمع المبعوث يسأل.

«الحبّ»، أوضح أحد الرفاق الأكبر سناً وهو يضحك.

«أقصد»، واصل نجيب غير هيّاب، «إني أعمل مع أكثر من عشر طلاب يتعاطفون مع حزبنا ورؤوسهم تعجّ بأسئلة كثيرة عن الحبّ. يبدو لي أنّ من الأفضل لنا أن يكمن دافعنا في التخلص من قيود المجتمع لو تمكنّا من معالجة هذا الموضوع».

«موضوع النيك»، صاح أحدهم باستياء. قهقه الرفاق فتضرج وجه نجيب.

«إذا عالج الحزب هذا الموضوع فستتكون لديه قاعدة أقوى في صفوف الشباب»، قال وهو يكافح لإثبات فكرته لآخر مرّة، لكن كلماته ابتلعتها الأصوات العالية المشوّشة. سمعت نداءات بالتزام الجميع الصمت وعدم إضاعة وقت الاجتماع في ثرثرات عديمة الفائدة.

twitter @baghdad_library

لم يدوّن الرفيق عضو اللجنة المركزية الذي أراد الاستماع إلى القاعدة الشعبية أيّ شيء في دفتر ملاحظاته هذه المرة وقال ساخراً: «لا يزال الرفيق شاباً، يجب أن نتحلى بالصبر معه».

نهض نجيب وغادر الغرفة. انطلقت ضحكات خبيثة عندما صاح أحد الرفاق «إنه سيذهب إلى المبغى ليأخذ دروساً في الحبّ».

يا لهم من فلاحين أميين قال فريد لنفسه، لكنّه لم يجرؤ على إبداء أي احتجاج. وشيئاً فشيئاً بدأ يدرك وبمزيد من الوضوح أن المناقشات التي تدور في الحزب لم تكن تدور حول أفضل السبل في إدارة البلد، بل كانوا يتكلّمون ويطرحون أسئلة ويدلون بتعليقاتهم فقط لإرضاء الحاضرين، لكن إذا أعرب أي عضو عن رأيه بصراحة فإنه يعرض نفسه لخطر أن تظهر كلماته حقيقة ما يفكّر به، أما الذين لم يقولوا شيئاً فكانوا الأشخاص الذين يتسمون بالمرونة ويستطيعون التكيّف مع الأغلبية. لذلك صمت معظم الأعضاء، أو على الأقل لم يعبّروا بصدق عمّا يؤمنون به حقاً وكل ما قالوه كان تمويهاً لما لا يريدون قوله.

استدار ممثل القيادة نحو المنبر وقال: «أودّ أن أطلب من الرفاق أن يكونوا أكثر نضجاً من أجل التدريب في الاجتماع القادم».

ضحك عدد من الرفاق وصفّقوا. كره فريد شعوره بالجبن. في طريق عودته إلى البيت في تلك الليلة، صمم على أن يتغلب على مخاوفه، وكخطوة أولى، أن يقبل مهمّة تحرير مجلّة «الشبيبة». لم يحسب المخاطرة التي كان يتحدث عنها. وزعم لاحقاً بأنه وقع في فخّ نصبه له عثماني في تلك الليلة، لكن ذلك كان مبالغة.

عندما وصل إلى باب منزله رأى كلير جالسة بجانب البحرة. كانت تبدو مهمومة وعرف للتو أن شيئاً قد حدث. «يقول يوسف إنك يجب أن تذهب إليه مباشرة مهما كان الوقت متأخراً. لقد تعرض رزوق إلى حادث»، قالت وهزّت رأسها، «المسكين - لم يمض على التحاقه بالخدمة العسكرية أكثر من أسبوع».

مات رزوق عندما اصطدمت عربة نقل عسكرية بجرافة، فقتل عشرة جنود وأصيب عشرة آخرون بجروح بليغة.

قال يوسف إنّ تابوت رزوق قد أُحضر إلى البيت بعد الظهر، وأنه ذهب لزيارة أسرته مباشرة، وأن عازر الذي يدير حالياً محلاً صغيراً لبيع الخضراوات بالقرب من باب توما قد ذهب معه. وعرض سليمان المساعدة على الأسرة لكن والد ووالدة رزوق طرداه لأنهما، على ما يبدو، اكتشفا أن سليمان لم يخبر فحسب عن جبران وفريد، بل أخبر كذلك عن إليزابيث صديقة رزوق في عهد سطلان، فطردت المخابرات المرأة الإنكليزية من الأراضي السورية. «إن والده يبكي مثل طفل هجره والداه ويحاول إيقاظ ابنه كما لو أنه كان لا يزال نائماً»، قال يوسف.

٢١٤- صدفة

كانت حقّاً صدفة، مع أن يوسف لن يصدقها لا الآن ولا بعد عشر سنوات. فقد قرر فريد أن يذهب سيراً على القدمين من الجامعة إلى الجامع الأموي عبر سوق الحميدية. كان يوسف يريد أن يستمتع بالأجواء هناك، وقال: «بخلاف الكنيسة المسيحية، فإن المسجد مفعم بالحياة ولا يحيط به ذلك القدر الكبير من القداسة وتشعر فيه كزائر بالراحة». وقال مازحاً إن من الجيد على شاب شيوعي مثل فريد أن يذهب ويختبر بنفسه الحسيّة الكامنة وراء المظاهر الزائفة، ويرى أشياء أخرى في الحياة تتجاوز المادية الديالكتية والاقتصاد. فانطلقا عند حوالي منتصف النهار بعد انتهاء المحاضرات. توقّفا في الطريق عند مطعم لبيع السندويش وشربا كأساً من العصير وتناولا سندويشة فلافل ثم جلسا قليلاً مع صبي يبيع تين الصبّار المبرّد فوق لوح من الثلج، وتناولا أفضلها في الخريف.

في الواقع كان المسجد مريحاً أكثر من الكنيسة. إذ كانت الأرضية مكسوة بسجاجيد جميلة، وهو شيء يبدو أفضل بكثير من المقاعد الطويلة الخشبية الصلبة في الكنيسة. فالكنيسة مكان مخصص للصلاة على الدوام

twitter @baghdad_library

بينما المساجد أماكن يمكن للناس الالتقاء فيها. والسجاد يدعوك لأن تتهادى في مشيتك. كان عدد من الرجال النائمين متكئين إلى الجدران، ورجال آخرون يقرأون أو يسيرون بهدوء وصمت مستغرقين في التفكير، وقد تحلق عدد من المؤمنين حول قبر يحي بن زكريا (يوحنا المعمدان)، يدمدمون بعض الصلوات والأدعية بأصوات منخفضة، يتبركون بالجدران والأعمدة وشبك الضريح وينقلون مباركة لمساتهم تلك إلى وجوههم. في إحدى الزاويا، كان شيخ يلقي دروساً لمجموعة صغيرة وهو جالس على الأرضية مسنداً ظهره إلى عمود. كان يعمّ المكان إحساس بالسلام العميق. لم يسأل أحد يوسف وفريد ما الذي يفعلانه هنا، أو هل هما مسلمان أم لا. فيمكن لأي شخص أن يجلس في المسجد.

«لو كان جميع المسلمين مثل هذا المسجد»، همس يوسف «لاعتنقت الإسلام اليوم، لكنني عندها سأجد نفسي أتعاون مع شيوخ النفط وأعضاء الإخوان المسلمين، لذلك فإني أفضل أن أبقى مسيحياً».

«وهذا يعني أن تجد نفسك متعاوناً مع جميع الدكتاتوريات اللطيفة في أمريكا اللاتينية وجميع الاستعماريين والفاشيين المهذبين والكتائبيين المسيحيين الرائعين. لا، لا أريد أن أكون أخاً لهم. من الأفضل لك أن تنضم إلينا وإلا سيفوتك الفجر الجديد»، قال فريد فضحك يوسف في سرّه.

«قول جميل أيها الستاليني الصغير لكنّي لا أرى أيّ فجر قادم من عصبتك. بل غسق أكثر منه فجراً». ضحك الإثنان، فجأة لكزه أحدهم في صدره. كان رجلاً عجوزاً يوبّخهما بنظرة استياء.

عندما غادرا المسجد قال فريد إنه يريد أن يتناول البوظة في محل بكداش المشهور القريب من الجامع. في البداية لم يرغب يوسف في مشاركته لكن فريد أقنعه. عندما دلفا إلى محل البوظة رأيا رنا جالسة إلى طاولة مع دنيا، وبالصدفة البحتة، كان إلى جوارهما كرسيان فارغان طول الطاولة.

«لا بد أن هذا الأمر مدبّر بذكاء شديد»، همس يوسف الذي لم يتمكن

من كتم ابتسامة متعبة. فحيّا الفتاتين بجفاف وجلس قبالة دنيا التي كان قد تعرّف عليها أثناء زيارته لأخيها كمال ومن حكايات فريد العديدة عنها.

«إذاً أي إسم يطلقون عليكِ ويطلقون عليّ؟» سأل بجرأة. لم تفهم دنيا سؤاله، فأضاف «أقصد هل نحن شهود عرس أم كومبارس في فيلم؟ بالتأكيد يتعلق ذلك بما يدور أمامنا الآن هل هذا حفل زواج أم فيلم يُمَثَل الآن؟»

ضحكت دنيا من سخرية الشابّ البشع..

عندما أمسك فريد بيد رنا، صاح يوسف: «أضواء! كاميرا، اللقطة ٣٧٦، روميو وجوليت يتناولان البوظة في الشام».

غضب فريد من ثقل دم صديقه المفضل، لكن عندما ابتسمت له رنا وهمست «غيوم آل مشتاق الراعدة»، كتم بسرعة البركان المتأجج في داخله، مع أن الغليان استمرّ في أعماقه وأحس بريقه الذي ابتلعه يتبخر لملامسته الجمر المتأجج في داخله. قالت له رنا مرات عديدة إنه بدأ يصبح شبيهاً بوالده الذي كان يفقد أعصابه في بعض الأحيان للحظات طويلة. كانت كلير تطلق على تلك اللحظات «غيوم آل مشتاق الراعدة». كانت تعتري فريد نوبات المزاج المتقلب نفسها، لكن رنا، بخلاف أمّه، لم تكن تعرف كيف تتعامل معها وكانت تخافها وتكرهها. ومثل كلير، كانت تتمتع بشخصية رصينة.

لم يكن يوسف يطاق في ذلك اليوم فقد راح يبدي ملاحظات دنيئة وسامّة، لكن فريد تساءل لماذا لم تنهض الشابتان وتغادرا.

قالت لهم دنيا إنه بعد أن أعيد مصنع النسيج إلى العائلة بعد تأميمه، حاول شقيقها كمال زيادة حصته فيه. لم تكن دنيا ترى أن هذه الفكرة صائبة لأنها لا تستطيع أن تثق بالحكومات لكن كمال كان واثقاً تماماً من نفسه. كان يريد أن يصبح صناعياً مرموقاً، فالبلد يزرع قطنه بنفسه، لكن بدلاً من أن يبيعه كمادة خام فإنه سيصنّعه ويحوله إلى منسوجات جيدة لتصديرها بأسعار ممتازة. ابتسمت دنيا لأحلام شقيقها.

twitter @baghdad_library

في طريق عودتهما إلى البيت اجتازا سوق البزورية صوب الشارع المستقيم، ظل فريد ويوسف صامتين ثمّ قال يوسف فجأة: «لم يخطر ببالي قط أنّ يفكّر ذلك الغبي المدلل كمال بهذه الطريقة. حسن منه أن يفكر هكذا».

عندما وصلا إلى تقاطع القشلة، رأيا سيارة إسعاف تقف عند منعطف حارة العبارة. كان الزقاق ضيقاً ولم تتمكن السيارة من دخوله. كان الضوء الأزرق يومض باستمرار، وكان حشد كبير من الناس الشاحبي الوجوه يحيطون بالسيارة.

«لقد جنّ والد رزوق»، قال صادق، بائع الخضراوات، عندما سأله يوسف ماذا حدث. في تلك اللحظة خرج المسعفان وراحا يدفعان النقّالة إلى سيارة الإسعاف. كان والد رزوق مستلقياً على النقالة مثبّتاً بأحزمة تحت بطانية، فاقد الوعي. كانت زوجته المتشحة بالسواد تجري وراء الرجال، منتعلة فردة شحاطة - لأن الفردة الأخرى انسلّت من قدمها في الطريق - وهي تبكي وتلطم وجهها.

«كنت أظن أنها هي التي ستجنّ»، قال صادق «لكن اللوثة أصابت والده».

«كان مولعاً بابنه منذ أن ولد»، همس يوسف. كان فريد قد سمع في النادي أنه كان يذهب إلى المقبرة في الليل حافياً ويأخذ لابنه الطعام الذي يحبه: جبن مع زيت زيتون في سندويشة من الخبز المرقد الرقيق.

كان والد رزوق قد بدأ يصعد إلى سطح بيته غالباً ينتظر ابنه ومعه لحاف وبلوزة لأنه كان متيقناً من أن رزوق سيهبط عليه بالمظلة.

عندما ابتعدت سيارة الإسعاف، لم يعد بإمكان زوجته أن تقف باستقامة فسقطت على ركبتيها. ركض يوسف وفريد نحوها ورفعاها وساعداها في الذهاب إلى بيتها. تبعتهم فتاة شاحبة وكانت تحمل الشحاطة التي فقدتها أم رزوق.

حكى يوسف قصّة مدهشة. فقال إن عبد الله، والد سليمان، ذلك الرجل الهادئ، طعن شخصاً مسلماً بمقص وكاد يقتله فنُقل الرجل إلى المستشفى وأُنقذ في آخر لحظة. «لم تفاجئني عملية الطعن بحد ذاتها، بل كيف عرف الخيّاط أن عبد الله من أنصار فرانكو».

لم يكن جميع أهل الحي يعرفون أن والد سليمان يقع تحت سيطرة زوجته فحسب، بل يعرفون كذلك أنّه من كبار مؤيدي الجنرال فرانكو الأسباني المعلّقة صورته في غرفة جلوس الأسرة بجانب صورة مريم العذراء. لم يدرك الجيران مقدار تبجيل عبد الله لفرانكو إلا بعد عدة سنوات. كانوا يعتقدون أن ذلك مجرّد انتهازية وأن سائق القنصل الإسباني يتظاهر فقط بأنه إسباني أكثر من القنصل نفسه. لكن فريد كان يعرف أيضاً أنّ الرجل يكره المسلمين ويحلم بعودة سوريا إلى ما قبل الإسلام. طبعا كان هذا الفكر غباء مطلقاً، لكنّه هو وعدّة آلاف من السوريين خاصة من أتباع الحزب القومي السوري يعتقدون جازمين إن ذلك سينقذ سوريا من التخلف وسيبني مجداً دثره العرب المسلمون وستصبح سوريا دولة عظمى وسيعم الرخاء وستسود الحرية. ويضع القوميون السوريون، كالقوميين العرب أمام كل ما يعدون به حرف سين.

في ذلك اليوم، كما تناهى إلى علم يوسف بعد أسبوع، بينما كان والد سليمان عائداً إلى البيت رأى مسلماً خارج دكان الخيّاط يقول لرجل آخر «يا مسيحي، يا خنزير» و«أنت من عبّاد الخشب». وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف أياً منهما، فقد توجّه مباشرة إلى ورشة الخيّاط بالقرب منهما والتقط مقصاً وطعن به المسلم في ظهره مرّتين. سقط الرجل الجريح على الأرض وهرب خصمه المسيحي لكي لا يتّهم بأنه المعتدي. وضع والد سليمان المقصّ في كيس وترك الرجل ممدداً على الأرض وتوجّه بهدوء إلى منزله.

بعد يوم أعاد المقصّ إلى الخيّاط الذي أخبر الشرطة بأنه نعم، وقع الهجوم بالقرب من دكانه، لكنّه لم ير بأمّ عينه ذلك لأنه كان آنذاك واقفاً

twitter @baghdad_library

مولياً ظهره للباب ينصت إلى أغاني أم كلثوم في المذياع بينما كان يكوي بدلة، وكان صوت المذياع عالياً جداً اليوم أيضاً، لذلك تعذر على محقق البوليس حتى سماع ما كان يقوله الخيّاط.

انتاب يوسف شعور بالحيرة. فقد كان الخياط مثله من كبار الموالين لسطلان وكان اشتراكياً راديكالياً. ولمّا كانا صديقين فقد ألح على الخياط بالأسئلة حتى اعترف بأنه، في الحقيقة رأى كلّ شيء، ولم يكن السلاح الذي طعن به سكيناً كما ظنت الشرطة الجنائية بل مقصّاً، أراه ليوسف.

«لماذا كذبتَ إذن؟»

«لا يمكنني توريط واحد منا والإيقاع به ليسجن»، قال الخياط. همّ يوسف بأن يصحّح له قائلاً إن والد سليمان فاشي إنتهازي وليس من مناصري سطلان، عندما فهم ما يقصده. فلم يكن الخياط الاشتراكي يقصد بعبارة «واحد منا» بأن الجاني من أنصار سطلان، بل من الطائفة المسيحية.

بعد يومين نفذ الجيش انقلابه، وأعلن الجنرال متآمران أنّ سوريا أصبحت حرّة وأن لا شيء سيقف في طريقها لتحرير فلسطين في القريب العاجل. كان ذلك في ٨ آذار ١٩٦٣.

٢١٦– «الشبيبة»

كان احتساء القهوة مع كلير بجانب البحرة في الصباح متعةً حقيقية بالنسبة لفريد. وكان يخصص لنفسه دائماً ساعة لذلك، ثم يمضي بقيّة يومه في أداء أعماله. فقد كانت أمّه تنقل له أخباراً عن حياة الحي الصاخبة والإشاعات التي تدور في المدينة القديمة، الشائعات التي لا يتمكن الطلاب من سماعها.

كانت كلير مستمعة جيدة أيضاً. كان يبدو أنها تعرف جدول دوامه، وتطرح عليه أسئلة ذكية مثيرة للاهتمام عن امتحاناته ودروسه العملية ومحاضراته والدرجات التي ينالها. لكنها لم تكن تسأله عن نشاطاته السياسية، بل كانت تنتظر أن يخبرها هو من تلقاء نفسه. أما والده فلم يكن

يُبدي أي اهتمام به. وعندما سمع إلياس من كلير في ١٩٦٥ بأنها ستقيم حفلة صغيرة احتفالاً بنيل فريد الإجازة في العلوم الطبيعة، دهش للسرعة التي أكمل وأنهى فيها ابنه دراسته الجامعية رغم أنه أضاع سنتين قضاهما في السجن.

كان فريد يستغرق في قراءة كتاب كل يوم وهو في طريقه إلى الجامعة. إذ كان الوقت الذي يمضيه في الحافلة مناسباً للقراءة. اصطحب دائماً رواية أو ديوان شعر، وكلما كانت الحافلة تقترب من الشارع الذي تقيم فيه رنا، كان يرفع رأسه عن الكتاب ويلقي نظرة سريعة على البيت الأخير الواقع إلى جهة اليمين، ويهمهم تحية رقيقة.

لكن قبل تخرجه بسنتين، في أحد أيام شهر أيار ١٩٦٣، ترجّل من الحافلة عند موقف الجامعة، وهو يتنشق عبق الأزهار المنتشرة في حديقة المتحف القريبة. كان طعم حب الهيل الذي تضيفه أمّه إلى القهوة لا يزال في فمه. عندها رأى الرفيق الشاب النحيف نجيب الذي عومل بازدراء أثناء الدورة التدريبية التي أقامها الحزب الشيوعي. كان واقفاً في وسط الطريق المنحدر الفاصل بين موقف الحافلة وباب الجامعة. أسرع للحاق به. وكما لو أن نجيب قد أحسّ بنظرات عينين مسلطة على ظهره، استدار وتوقّف وفجأة رأى رفيقه.

«مرحباً، كيف حالك؟» سأله فريد، لاهثاً.

«أنا في صحة جيدة. هل تدرس أنت هنا أيضاً؟» سأله نجيب.

«نعم، كنت سأتّصل بك عن طريق الحزب لأنني قرّرت أن أعمل في تحرير «مجلة الشبيبة». لقد بهرني ما قلتَه في الاجتماع في ذلك اليوم، لكنّي أشعر حتى اليوم بالخجل أني جبنت عن الدفاع عنك، ربط الخوف لساني».

«ومن لا يشعر بمثل هذا الخوف؟» قال نجيب بهدوء، «لكن هل أنت متأكّد من أنهم سيسمحون لك أن تقوم بتحرير مجلة الشبيبة كما تريد؟»

«لا، لست متأكّداً، لكنّي سأحاول على أي حال. إن قيادة الحزب

twitter @baghdad_library

تدّعي بأن المجلة حرة، وأنها تصدر من شباب وموجهة إلى الشباب، لذلك يمكنني أن أستعمل هذا الحبل لشنق الرقيب الحزبي».

«يا إلهي، تريد عمل هذا وتدعو نفسك جباناً؟ ليحفظنا الله، بل ليحمِنا لينين من شجاعتك»، وأضاف «بالمناسبة، في الحياة الحقيقية اسمي عيسى»، ومدّ يده النحيلة التي بدت مكونة من جلد وعظم، «وأعرف أن اسمك فريد. لقد سمعت عنك الكثير»، قال مفاجئاً رفيقه.

منذ ذلك الحين، أخذا يلتقيان في الكافتيريا مرّتين في الأسبوع ثم يتمشيان لمسافة طويلة. كان عيسى قارئاً نهماً ومنتقداً حساساً وشكوكاً حتى بذاته.

كان موعد لقاء فريد الرسمي مع اللجنة المركزية يقترب. خلال هذه الفترة صمّم هو وعيسى عدداً كاملاً من مجلة الشبيبة المؤلفة من ستّ عشرة صفحة تحتوي على أخبار ونكات وألغاز وأحداث تاريخية ومقالات عن الأمور الجنسية والحبّ ومواضيع أخرى. وكاد العدد الثاني أن يصبح جاهزاً أيضاً عندما وافق الحزب على اضطلاعه بهذه المهمة، ووافق أيضاً على طلبه بضم عيسى إلى هيئة التحرير، لكن اللجنة رفضت تكليف إحدى الرفيقات بالكتابة عن مواضيع نسائية. لذلك ابتدع عيسى وفريد وسيلة للالتفاف على رفض اللجنة. فقررا أن يطلبا من صديقات لهما الكتابة عن هذا الموضوع لكي ينشراه باسم مستعار هو «فريزة» وهو إسم علم عربي مؤنث بمعنى السيدة الكثيرة الإنتقاء.

صدر العدد الأول في تشرين الأول ١٩٦٣، ووزعت منه أكثر من خمسة آلاف نسخة، ووردت طلبات من جميع أنحاء البلد لإرسال مزيد من النسخ. ولأول مرة في تاريخ الحزب الشيوعي السوري، قامت مطبعة الحزب السرية بطباعة طبعة ثانية. ولأول مرة ذكرت الصحف السورية الرسمية المجلّة الشيوعية الجديدة وركزت بلؤم أنها غير مرخصة. وطبعت المجلة الثقافية الحكومية اقتباساً طويلاً من مقالة عنيفة عن وضع صناعة السينما العربية المزري، كان فريد قد كتبها بعد مناقشة مكثفة أجراها مع

يوسف، وقال: «كيف يمكن لأي فيلم عربي أن يبدي إثارة معقولة، إذا كان على جميع الأفلام إرضاء جميع الرقباء من السنّة والشيعة والدروز والمسيحيين واليهود من المغرب إلى السعودية؟ وأن لا تجد كلمة انتقاد واحدة عن الإسلام، ولا مشهداً واحداً يظهر مسيحياً يتشاجر مع مسلم، ولا مشهداً يبدو فيه يهودي على حقّ في أي شيء، ولا مشهد امرأة تدعو رجلاً إلى السرير للنوم معها. ما من فيلم يجرؤ على تصوير كاريكاتير واحد عن طاغية، وما من فيلم يظهر أبطاله يشربون النبيذ من دون أن يكونوا مجرمين. وما من فيلم واحد يظهر فيه طفل قد يكون على حقّ ويكون والداه على خطأ. ماذا بقي للأفلام سوى كومة قمامة التهريج؟ ولا حاجة بنا حقاً للتحدث عن الصهيونية لإدانة ذلك الفشل الذريع على المستوى العالمي- وهو التفسير المفضّل الذي يقدمه طغاتنا للتغطية على فشلهم - وإذا لم تكف الصهيونية أضافوا لها الإمبريالية، وهو التفسير المفضّل الذي يقدمه وزير الثقافة في بلدنا. إن هذه الأفلام تفشل تماماً بسبب العيوب التي تعتريها، لا في الخارج فقط، بل هنا في بلادنا أيضاً».

كانت رسائل القرّاء مشجّعة، واستلمت هيئة التحرير أعداداً كبيرة منها. ابتهج عيسى وفريد ونشرا في العدد الثاني مقالتين رائعتين وردتا من امرأتين تعيشان في شمال البلاد، كانت أولاهما تتحدث عن الزواج القسري، والثانية عن دور الجنس في تحرر المرأة.

فوجئ فريد كثيراً برفض رنا للكتابة لمجلة الشبيبة، في حين أبدت ليلى حماسة للكتابة فيها. وسُرّ يوسف كثيراً عندما قدّم مقالاً للمجلة وقال: «أكاد أفكّر بالانضمام إلى الحزب الشيوعي، لكني أظن أن عليَّ الانتظار لأنك بعد أن تصدر مجلّة جيدة كهذه فلن يتقدم بك العمر في الحزب بعدها»، وضحك كدأبه دون أن يدرك أن كلماته كانت تنبُّئية. فقد سمحت اللجنة المركزية بصدور عديدين آخرين، ثم بدأت تهاجم مجلة «الشبيبة» بعنف وأتت النهاية على جناح السرعة.

كانت المشكلة الأولى ناجمة عن نكتة أساءت اللجنة المركزية فهمها.

twitter @baghdad_library

كانت رداً على أحجية ساخرة كانت قد نشرت في العدد الأول. الأحجية تقول: كيف تحوّل أربعة مبشرين مسيحيين إلى ثلاثة فرسان؟ الجواب، هو أن تقص صورة ستالين من الصورة الجماعية له مع ماركس وإنجلز ولينين، وأحس فريد باستهجان المسؤولين في المناصب العليا في اجتماع قصير ضم عضواً من اللجنة المركزية وعضواً من منطقة دمشق مع فريد، لكنّه رأى أيضاً إلى أي مدى كان الرجل جباناً، فلم يجرؤ على القول إنه غاضب لأن الجواب على الأحجية أهانه باعتباره ستالينياً متحجراً. أخبر فريد عيسى بنشوة المنتصر عن هذا اللقاء، لكن بدلاً من أن يُسرّ شريكه في تحرير المجلة، شحب وجهه فجأة.

بعد سنوات، عندما عادت به الذاكرة إلى تلك الفترة، كان فريد لا يزال يتساءل هل كانت اللجنة المركزية نائمة، أم أنها سمحت بصدور الأعداد الثلاثة الأولى من دون رقابة عمداً للتخلّص منه إلى الأبد.

في العدد الثاني، نشر عيسى أول ترجمة له لأحد أعمال فيلهيلم رايخ، وطرح فريد مسألة مبادئ العصيان المدني التي جمعها من قراءاته الواسعة. ووجدت مناقشة ليلى القصيرة والراديكالية في آن معاً عن الزواج والقهر مكاناً لها فيه، بالإضافة إلى حثّ الفيلسوف الماركسي إسماعيل هادي على إيجاد جذور عربية للعدالة والديمقراطية بدلاً من تقديم تقليد سيء للنظريات الأوروبية المترجمة ترجمة سيئة. لكن فريد لم يقبل المقالة التي كتبها يوسف عن أساطير القضيب في عقول الرجال العرب. فقال لصديقه «إن العنوان في حد ذاته قد يجلب لي حكماً بالسجن مدى الحياة: يمكنك *أن تجد وطناً في أي مكان لكنك لا تستطيع أن تجد قضيباً*»، ضحك فريد وابتلع يوسف خيبة أمله. ثم تمتم بصوت منخفض «معك حق، لا يزال الوقت غير مناسب، لم تنضج مجلتكم بكفاية، يا صديقي».

حظي العدد الجديد باهتمام كبير مرة أخرى. لزمت اللجنة المركزية الصمت. أزعج ذلك عيسى على الرغم من أن فريد لم ير ما يبعث على

القلق. بعد ستّة أشهر اكتشف أنه كان على خطأ وأن تشاؤم عيسى لم يكن مخطئاً في تنبُّئه.

٢١٧- حبّ الخصيان

ذات يوم ربيعي جميل ألقى الجنرال متآمران كلمة وعد فيها بتحرير فلسطين وبناء مجتمع عربي اشتراكي موحّد. وكخطوة أولى لتحقيق هذا الهدف، حُظر إصدار الصحف الوطنية السبع عشرة والإحدى عشرة مجلة كلها. عند العشاء كان إلياس غاضباً لأنه لم يعد بوسعه قراءة صحيفته الأثيرة «الأيام»، ولم تعد في الأسواق سوى صحف حزب البعث. ألقى عليها إلياس نظرة مرّتين، لكنه سرعان ما توقّف عن شراء أي صحيفة. كان ذلك في صيف ١٩٦٣، ومنذ ذلك الحين بدأ يستمع إلى إذاعة لندن، ولم يعد بإمكان كلير أن تحصل على مجلتها «دنيا» التي كانت تعرف من خلالها ما يجري في العالم، وافتقد فريد ويوسف المجلة الساخرة «المضحك المبكي».

حدث انقلابان عسكريان فاشلان في ذلك الصيف، ولم يعد الجنرال متآمران يسمح بأي رحمة بالمتورطين فأعدمهم جميعاً.

أمضى فريد وعيسى ثلاث ليالي يناقشان الحبّ باعتباره الموضوع الرئيسي التالي في مجلة الشباب.

«سيصعب تمرير المقالة»، قال عيسى يائساً، عندما أدرك مدى تصميم فريد، «إن لدى حزبنا محرّمات متجذّرة عن الجنس. فهم لا يستمدون توترهم وعقدتهم تجاه الجنس من ستالين ولينين فقط، بل يُرجِعون ذلك مباشرة إلى ماركس نفسه».

كان فريد يعرف أنّ عيسى على حقّ. وكان يحضر جميع الاجتماعات مع رجال يَبدون له وكأنهم في نادي الخصيان. حتى في الحفلات كانوا يتصرّفون بورع كأنهم عديمو الجنس. ولم يكن أحد منهم يأتي برفقة زوجته أو حتى يأتي على ذكرها في الحديث. «ومع ذلك فإنهم يفكّرون بالنساء طوال الوقت»، قال عيسى بحزن.

twitter @baghdad_library

حتى أمين قال عندما سأله فريد لماذا لا يثير الحزب موضوع المرأة إن لديهم أموراً أكثر أهمية. فأولاً، يجب تثبيت أقدام الشيوعية، وتحرير العمّال وتحرير فلسطين، وتوحيد البلاد العربية بقيادة الشيوعيين، وعندها يمكنهم التحدّث عن تحرير المرأة، هذا إذا لم تُحلّ مشاكلهن تلقائياً بعد انطلاق الثورة.

على نحو ما فتح العمل في المجلة عيني فريد على تناقضات جذرية عديدة في الحزب. ولم تبرح مخيلته صورة محددة: أعضاء الحزب الشيوعي جالسون في غرف مليئة بسحب الدخان والستائر مسدلة يتحدّثون عن هيغل، بينما الحياة في الخارج تنبض بحيوية و في تغير مستمر. ولم يتوقف عن التفكير بكرادلة القسطنطينية الحزينين وهم يبحثون مسألة عدد الملائكة التي يمكنها أن ترقص على رأس دبّوس عندما استولى العثمانيون على المدينة.

أقيمت حفلة في النادي قبل عيد الميلاد بقليل. لم يكتف فريد بدعوة عيسى، بل دعا جميع الرفاق في خلية حزبه وفي مركز التنسيق. جاء الرجال الستّة كلهم، وجلس ثلاثة منهم على كراسيهم متشنجين طوال السهرة مثل تماثيل من الجص. فقد ارتاعوا من سلوك أعضاء النادي وأهالي الحيّ الذين ظل أحدهم يعانق الآخر، وكانوا يتحدثون بأريحية وانبساط دون أي موانع أو حواجز بين الجنسين. سخر عيسى منهم ثلاثتهم، وقال بصوت خفيض: «يبدو كأنهم يجلسون في سيبيريا. أتريدون أن تحرروا هؤلاء الناس، أيها السادة المحترمون أم أنكم لا تتجرأون مواكبة ما توصلوا له من تحرر ببديهيتهم؟»

أحبّ عيسى يوسف منذ البداية. وجلسا معاً طوال السهرة. في ساعة متأخرة، بينما كان جبران العجوز الجالس في غرفة كرة الطاولة يحكي قصّة جنسية عن إحدى تجاربه في هافانا مع ثلاث نساء عشقنه، نهض الرفاق وقالوا لفريد، وهم يهمّون بالمغادرة، أن يحذر من هذا الرجل الذي ينشر هذه الدعاية المناهضة للشيوعية والمعادية لكوبا. ارتاع من ضيق عقولهم.

«هؤلاء أعضاء في الحزب الشيوعي، وسيظن أي شخص ينظر إليهم أنهم لا يملكون أعضاء»، قال يوسف ضاحكاً. قال عيسى إنها نكتة رائعة،

وضحك أيضاً. قبل أن يودّع فريد يوسف في ذلك المساء، قال له صديقه إن عيسى أقنعه بكتابة مقال عن مشاكل الشوارع في دمشق للعدد الرابع من المجلة.

لم ينبس فريد بكلمة من شدة البهجة. لكن العدد رقم ٤ لم ير النور قط.

٢١٨- ربيع جليدي

بدأ المجتمع يتخذ طابعاً عسكرياً. فخلال تسعة أشهر، أجبر الجنرال متآمران طلاب المدارس على ارتداء الزي العسكري، ولم يعد بإمكان أحد النجاح في الامتحانات النهائية ونيل الشهادة الثانوية ما لم يكن قد أجرى دورة تدريبية في معسكر تدريب عسكري لمدة شهر. قال عيسى لفريد إن هذا هراء وخداع فولكلوري وأمر مقزّز لا علاقة له بحماية الوطن. ولم تكتف مجلة الشبيبة بتناول موضوع الحبّ والجنس فقط، بل طرحت أيضاً أسئلة عن هدف فرض التدريب العسكري على المدارس.

صدر العدد الثالث في نهاية آذار ١٩٦٤. ظهرت على الصفحة الأولى صورة طفل يحمل حمامة بيضاء. كانت الحمامة تبدو نائمة وهي تمسك في منقارها غصن زيتون كما لو أنها بلغت نهاية رحلتها وبدأت تشعر بالأمان بين هاتين اليدين الصغيرتين. لم يكن موضوع المقالة سلمياً بقدر ما كانت تبديه الصورة: فقد كانت دراسة عن الأطفال والحرب، ودعوة إلى عدم تسليح الشبان الصغار. لكن لم يكن ذلك كلّ شيء، واحتوى العدد أيضاً على ترجمة طويلة من كتاب فيلهيلم رايخ عن علاقة السلطة بالكبت الجنسي، وكانت تضم رسوماً كاريكاتيرية من جميع بلدان العالم المعارضة للدكتاتورية العسكرية والاستغلال.

بعد يومين من صدور المجلّة، استُدعي فريد وعيسى إلى اجتماع خاصّ، سرعان ما تبيّن أنه ليس اجتماعاً على الإطلاق، وإنما محكمة حزبية تضم أحد عشر مدّعياً عاماً بقيادة قاض غاضب. إنه الرفيق يعقوب جروه من

twitter @baghdad_library

منطقة الفرات، وكان مسؤولاً عن الثقافة في الحزب. كان أيضاً اليد اليمنى لعثماني كما كان أبوه وجده وكلّ عشيرة جروه اليد اليمنى لأسلاف الرفيق عثماني.

غضب فريد، فلم يكن يتخيل حتى في أسوأ كوابيسه أن جهوده الرامية إلى تغيير المجتمع ستجلب له هذه اللجنة عديمة الضمير والمتجهمة في حزبه، وأن يرغم على سماع اتّهامات موجّهة ضده. فقد صرح يعقوب بصفاقة أن فريد كان هو وعيسى ساذجين يخدمان الامبريالية وإن دون قصد في إضعاف الحزب الشيوعي الثوري. وبسبب مجلّتهما هذه، استدعى الرئيس متآمران الرفيق الأمين العام خالد مليس الذي اضطر إلى تقديم اعتذار من أجل مجلة شيوعية تساهم في نشر دعايات جنسية تخرب المجتمع الثوري ليهودي يدعى فيلهيلم رايخ، وتثير شكوكاً في الجيش وتدعو إلى العصيان - كلّ ذلك في الوقت الذي كان الجنرال متآمران يحاول بإخلاص وطني التقرب من الحزب الشيوعي والاتحاد السوفيتي، ولهذا الغرض عرض حقيبتين وزاريتين للشيوعيين في تحالف جبهته الشعبية.

تحدّث يعقوب لمدة نصف ساعة متواصلة لم يتوقّف خلالها لحظة واحدة لالتقاط أنفاسه. كان عيسى يغوص في كرسيه مطرقاً بتعاسة وذل. واحتاج فريد إلى بعض الوقت حتى يتحول شعوره من الخوف إلى الغضب ثم إلى الاحتقار، بدأ يمعن النظر في وجوه الرجال. أما الرفاق الثلاثة الذين حضروا حفلة النادي البهيجة والذين كانت تكسو وجوههم قسمات متجهمة وكئيبة كأنهم في مأتم، فقد بدوا هنا مبتهجين مسترخين تماماً ولم تفارق البسمة وجوههم، ولم يتوقفوا عن هزّ رؤوسهم إعراباً عن موافقتهم لما كان يقال، وأن يطلقوا التعليقات تأكيداً للاتّهامات الموجهة إلى المجلة.

كان فريد الذي مضت على عضويته في الحزب ثماني سنوات ونيف، يعرف جميع الموجودين تقريباً. فقد كانوا من أتفه الأشخاص الذين يمكن أن يضمهم حزب سياسي. فمن هو الذي يوافق على القيام بدور محاكم التفتيش لرفيق شاب دون أن ينتابه أيّ إحساس بالعار؟ فقد قال أحدهم خلال

استراحة الشاي، «أن تبقى في الحزب حتى لو أخطأ، خير من أن تكون خارجه وتكون على حق».

لم يعتذر فريد بأي كلمة أثناء الجلسة، بل اتّهم يعقوب بالتذلّل والانبطاح. فقد نشر هذا المنافق في شبابه قصائد تتغنى بستالين، وامتدح الاحتلال الفرنسي لسوريا باعتباره عملاً حضارياً. دافع فريد عن المجلة، سطراً سطراً، ورفض مناقشة ما أورده الطاغية متآمران، أو ما عرضه أو ما همس به للأمين العام. فالسؤال الهام هو هل إن المجلة تساهم في تنوير الشباب في هذا البلد أم لا. «واسمع هذا يا رفيق يعقوب» صاح، رافعاً صوته الآن، «سأظل أفضّل التنوير وأدافع عنه حتى بعد عشر سنوات، لا مثلك - أم أنك ستعيد إصدار قصائدك التي تمتدح فيها الجنرال الكولونيالي ويغان والبطل ستالين الذي أعدم الملايين؟»

كست نظرة رمادية وجه يعقوب الجامد كالجص. بدأ فريد يتعرق من شدة الانفعال.

«لماذا تتطرق بصفاقة الزعران إلى مواضيع حسّاسة تعود إلى الزمن الذي كنت أنت لا تزال فيه في الحفّاضات؟» هبّ رفيق أكبر سنّاً لنجدة يعقوب. لم يكن هذا الرد من النوع الذي يمكنك أن تجده في أيّ من الروايات الروسية أو الصينية أو الكوبية عن «الحوار البنّاء» والحوار الديمقراطي بين الرفاق.

كان المتحدث عامل نسيج قضى عدة سنوات في السجن في سبيل الحزب، لكن حتى السجن، قال فريد لنفسه عندما التقى به، ليس علاجاً ناجعاً للغباء.

«نحن هنا لمناقشة إساءة استخدامك للثقة التي منحتها لك اللجنة المركزية وليس للتطرق لماضي الرفاق، ويجب أن نعالج مسألة العقوبات المتوجبة».

في تلك اللحظة أدرك فريد أنهم قد حفظوا الحكم عليه عن ظهر قلب، لأن الكلمات الأخيرة التي قالها لا يمكن أن تكون هي كلمات تصدر عن عامل نسيج، بل كلمات تصدر عن بيروقراطي على شاكلة عثماني.

twitter @baghdad_library

فهم عيسى أيضاً ماذا يكمن وراء هذه الملاحظة. استوى واقفاً وهو يرتجف، واعتذر صاغراً مبتعداً عن فريد حتى جسدياً وما تفوه به هذا الرفيق الذكي والمعتد بنفسه كانت سلسلة مهينة من طلب المغفرة واتهام الذات وما سمي آنذاك «الانتقاد الذاتي». عندما انتهى من «مرافعته»، كان قد مات في عيني فريد.

مرّت ثلاث سنوات قبل أن يرى فريد عيسى مرة أخرى، بالصدفة، في إحدى دور السينما. ابتسم له عيسى، لكن الابتسامة لم تثر إلا شعوراً بالتقزز في فريد الذي أشاح بوجهه عنه.

كانت القيادة في عجلة من أمرها في ربيع عام ١٩٦٤ ذاك. فبعد أسبوع، لم ينزعوا عن فريد مناصبه في الحزب فحسب، بل جمّدوا عضويته في الحزب لمدة ستّة شهور، وهذا أمر يسبق العقوبة الأشد وهي الطرد من الحزب. وأظهرت هذه العقوبة أنّ من كان يقبع وراء كل ذلك هو عثماني الذي لم يكن يريد أن يجعل من فريد شهيداً، وهذا ما كان سيحدث لو أنه طُرِد من الحزب فوراً. كان أصدقاء فريد سيتهمون قيادة الحزب بخيانتهم لرئيس تحرير مجلتهم لأن الجنرال متآمران تمنى ذلك. كان عثماني يمارس أساليبه المجرّبة والمثبتة وهي الإذلال أولاً، بتعليق ضحيته على كلابات وإهانته أمام رفاقه حتى ينسحب من الحزب من تلقاء نفسه بدافع من كرامته الجريحة. وهذا ما كان الهدف الذي يرمي إليه عثماني.

إن كان هناك شخص في هذا العالم يعرف كلّ الخدع والألعاب القذرة، فهو باسل عثماني. بعد أقل من سنة، ترك فريد الحزب عندما بدأت نزاعات جديدة تزعزع الحزب. كان ذلك في بداية كانون الثاني ١٩٦٥، عندما انطلقت حركة الكفاح الفلسطيني المسلّح بقيادة عرفات. فقد صدرت أوامر من موسكو للحزب الشيوعي بعدم تأييد هذا الكفاح وبإبداء شكوك من هذا النزاع المسلّح وتعامى الحزب الشيوعي عن الأسباب التي أنتجت حركة التحرير المسلحة هذه. فقد كان الشيوعيون يتهامسون بأن عرفات عضو في جماعة الإخوان المسلمين وعميل للسعودية، ويثرثرون مثل الأرامل

العجائز. ولكنهم رسمياً لم يقولوا شيئاً. وفي نهاية كانون الثاني ترك مئات الأعضاء الشباب الحزب. وقد برّر فريد إنهاء عضويته في رسالة عنيفة غاضبة لم يقرأها أحد.

لكنها كانت خطوة نحو الفراغ. فقد أصبح الحزب الشيوعي رغم انحداره إلى الدرك الأسفل، عبارة عن ناد يضم أشخاصاً يفكرون بنفس الطريقة مثل مجموعة دينية متعصبة ويتبادلون الحماية في ما بينهم مثلهم مثل العشيرة. وأصبح عليه الآن أن يتحمّل الشعور بأنه ينتمي إلى اللا مكان، فراح يجوب أرجاء المدينة وحيداً، اسطوانة تدور في رأسه وقد علقت الإبرة في ثلم فيها: تسع سنوات من أجل لا شيء، وكلّ ما تجنيه هو الفشل الذريع والعزلة.

تملكه شعور بالخزي التام. لم يجرؤ على الاتصال بأمين، لكنه أخبر رنا بما حدث. سعدت لأنه أصبح لديه الآن المزيد من الوقت لها ولحبّها، وأصبح بإمكانه أن ينهي دراسته بأسرع ما يمكن.

لكن الشعور بأنه أُلقي به خارج المسار رافقه كظله. والغريب في الأمر أنه خجل من إخبار يوسف عن ذلك. وطوال ستّة أشهر، لم يذكر لأحد أنه ترك الحزب. وعندما استجمع أخيراً شجاعته ليفعل ذلك، كان ممتناً لتفهم صديقه وحنانه، حتى إن يوسف لم يلمح قط إلى أنه كان قد تنبأ بذلك قبل سنين.

٢١٩- المعرض

اتصلت رنا بالهاتف في وقت مبكر، ومازحتها كلير طويلاً. جاء فريد إلى الباحة الداخلية حافياً، بعد أن خمّن مع من تتكلم أمّه. «وها هنا يأتي متسول»، قالت كلير، «حافي القدمين، ذقنه غير حليقة، لم يستحمّ بعد. يمكنك التأكد من مقدار حبه لك. ما كان ليقفز من السرير بهذه السرعة لو كنت أتكلم مع شخص آخر، حتى لو كنتُ أنا على الطرف الآخر من الهاتف»، ثمّ ناولته سماعة الهاتف. كانت كلير سعيدة لأن صديقته أخبرتها

twitter @baghdad_library

للتو بأن فريد قد ترك الحزب الشيوعي فأصبح بوسعها الآن أن تنام بهناء مرة أخرى.

كانت رنا رائقة المزاج. كان معرض دمشق الدولي الخريفي سيفتح أبوابه بعد بضعة أيام. لم يفهم فريد سبب سعادتها لاقتراب موعد افتتاح المعرض الذي كانت تُضْجِره أجنحته المليئة بالمعروضات الصناعية. عندما قال لها ذلك، ضحكت وقالت: «معروضات صناعية؟ أجنحة؟ حبيبي، من تظنني، وزيرة التجارة؟ لا، إنّ أجمل الحفلات الموسيقية في العالم تُقدَّم خلال فترة المعرض. ففي السنة الماضية رأيت فيروز. أريد أن أحضر حفلة لها معك هذه السنة. وتستطيع أن تستمع إلى موسيقيين عالميين مثل ديوك إلينغتون موسيقي الجاز الشهير وميريام ماكيبا المغنية الإفريقية الرائعة وتشاهد فرقاً كوبية وهنغارية مشهورة».

«ومن هو ديوك إلينغتون؟» سألها بحذر.

«لا تقل لي إنك لم تسمع به قط! إنه أحد أعظم ملحني وموسيقيي الجاز في العالم. لكن لعله كان محرّماً عليك سماعه - فهو إمبريالي أمريكي. ففي أيلول الماضي راح الناس يرقصون في الصالة، ولم يسمحوا له بمغادرة المسرح إلا بعد أن أعاد المعزوفة للمرة العاشرة. لذلك فإنه يحبّ المجيء إلى دمشق كثيراً؟»

بغتة أحس فريد كم في هذا العالم من أشياء لا يعرفها وعليه أن يكتشفها. مرة أخرى، كانت رنا هي التي فتحت له باب الحياة ثانية، وهي التي اشترت تذاكر لحفلة فيروز. كان زوجها رامي يسافر بحكم مركزه كثيراً إلى خارج البلد مع بعض الوفود، ولم يُسمح لها بمعرفة أسباب سفره، ولكنه خُيّل إليها بأنه يسافر في مهام لشراء أسلحة للجيش.

كان يوسف يعرف موسيقى ديوك إلينغتون. فقد حضر تلك الحفلة الأسطورية الأولى التي أحياها ذلك العازف في دمشق في عام ١٩٦٣. كانت ليلى ترغب في حضور الحفلة أيضاً. ومن خلال زوجها حجزت مقاعد في الصفوف الأمامية بثمن تذاكر مخفضة أيضاً. ذهبوا ثلاثتهم هي وزوجها ويوسف. انسجمت ليلى مع يوسف في الحال، وسرعان ما أخذا يتبادلان

النكات بألفة كما لو كانا صديقين منذ الأزل، حتى إنها شبكت ذراعها بذراعه وذراع زوجها عند عودتهم إلى البيت. وفجأة دعته هو وفريد في يوم أحد لتناول الشاي، وسهرا معها ومع زوجها في تلك الزيارة حتى منتصف الليل، ثم استقلا سيارة أجرة إلى البيت.

«ما رأيك أن نعقد صفقة؟» قال يوسف وهما على وشك الافتراق، وقبل أن يسأل فريد ماذا يقصد، تابع كلامه وقال: «تهديني ابنة عمتك لقاء عشيرتي كلها. إنها امرأة رائعة!» قالها وضحك من صديقه المندهش.

استمع فريد بعد ذلك بزمن طويل لأول مرة عند يوسف منوعات من موسيقى جاز لموسيقيين شهيرين مثل لويس أرمسترونغ وغيره. وأما عزف ديوك إلينغتون على البيانو فكان رائعاً، من أجمل ما سمع حتى ذلك الوقت.

فيروز، أفضل المطربات اللبنانيات التي هامت بدمشق حباً ودأبت على إقامة حفلة في المدينة في فصل الخريف من كل سنة، مدهشة هذه المرأة بفرادة صوتها. وكلما غنت ارتمى الدمشقيون عند قدميها. تغنّي بصوت رقيق شجي، وهي تقف ثابتة لا تكاد تأتي بأي حركة ولاتظهر على وجهها أيّ تعابير على عكس أغلب المطربات اللواتي يعرضن أجسادهن ويهزن أردافهن للتعويض عن حنجرتهن الضعيفة. كانت كلمات أغانيها رائعة وألحانها جذّابة. وبخلاف أم كلثوم، المطربة المصرية التي دأبت على البكاء والغناء عن الأسى والهجران العزلة وعن الحبّ من جانب واحد ودأبت على ترديد كل مقطع وبيت شعري عشر مرات حتى صار بعض أصدقاء فريد يضحكون قائلين ان اغانيها تطرب الحشاشين فقط الذين يحتاجون لإعادة وتكرار حتى يفهموا ما يقال. بخلاف ذلك امتلأت أغاني فيروز بالثقة، بالبهجة، سريعة الوقع، يتمنى الإنسان لو أنها طالت أكثر، وكانت فيروز تغني عادة بإيقاع راقص يجعل الجمهور الذي يستمع إليها ينقرون بأقدامهم بشكل تلقائي، ويهتفون بحماسة، بالطبع كان الأخوان رحباني وفيلمون وهبة قمة في الإبداع الموسيقي، لكن ربما عشقت النساء فيروز لأنها كانت امرأة بشخصية قوية في بلاد العرب! أخذت رنا في ذلك الحفل الموسيقي يد فريد فرحة كطفلة وصارت تقبّلها بسرعة من حين لآخر، وفريد يستمتع بتنشق عطرها الأخاذ.

twitter @baghdad_library

بعد الحفلة طلبت منه أن يرافقها إلى بيتها. صعدا إلى الاستوديو الصغير الخاص بها على السطح ومارسا الحب حتى شعرا بالإرهاق. ملأهما الليل بالسكينة والثقة، لكن عندما ارتدى فريد ثيابه، بدأت الدموع تطفر من عيني رنا فجأة. نظر إليها بقلق.

«لاتقلق، إني أبكي على هذا اللحظة الجميلة. إني أبكي لأنني لا أستطيع الإمساك بهذه اللحظات والاحتفاظ بها».

بدأت خيوط الضوء تنسج النهار. ضمها إليه بقوة وقال: «أريد أن أعيش معك ولا أحد سواك».

٢٢٠- البحث عن الكنوز

انتشر هوس جديد في دمشق في أوائل ستينات القرن العشرين وهو البحث عن المعادن الثمينة المخفيّة أو المدفونة. علماً أنه كان يحظر حظراً تاماً البحث عن الكنوز لأن الحكومة كانت تعتبر أن أي اكتشافات أو لقى آثار يعثر عليها ملكاً للدولة، وكان الاستيلاء عليها يعد سرقة.

صار الناس المهووسون يخرجون في الليل ليفتّشوا عن الآثار، بعضهم يستخدم أجهزة تطلق رنيناً أو صفيراً، ويستخدم عدد كبير منهم تعاويذ سحرية وخرائط غامضة. وكانوا ينقرون حتى في بيوتهم على الجدران والأرضيات في كل مكان سعياً للعثور على أيّ فراغات، وعندما كانوا يعثرون عليها، كان الحظ نادراً ما يحالفهم في العثور على أي لقى، ويجدون أنفسهم مرغمين على إصلاح ما خربوه بسرعة.

سخر يوسف من عمّتيه اللتين رحن ينقرن على كل ما تقع عليه أيديهن في أرجاء البيت، وهدّدهن والده يائساً بأنهن إذا كسرن بلاطة واحدة من بلاطاته الغالية الثمن فإنه سيجعلهن يبعن أساورهن الذهبية للتعويض عن الأضرار التي ألحقنها. فلجأت عمّاته إلى استخدام مطرقة مطاطية للنقر بها.

«يريد الناس الحصول على المال بسرعة، وهل تعرف لماذا؟» سأله يوسف. وكدأبه لم ينتظر رده فمضى يقول: «لقد سلب المغتربون عقلهم. إن

ابن عمي نقولا يأتي في منتصف الصيف ويتصرّف مثل رجل غني، يرتدي ثياباً أنيقة غالية الثمن، ويقود سيارته المرسيدس إلى محل بيع الخضراوات من بيته الذي لا يبعد أكثر من خمسين متراً، ويركنها في وسط الشارع فلا يجرؤ شرطي المرور على مخالفته. ثمّ ينزل ويطلب أنواع الخضراوات التي يريد الحصول عليها بصوت مسموع من فوق رؤوس الأشخاص المنتظرين بالدور، وحتى بائع الخضراوات لا يعترض على قلة الأدب تلك ويشتم جد جده، بل يترك زبائنه الآخرين ويتفرغ لخدمة نقولا. وهل تعرف لماذا؟ لأن نقولا سينفحه بقشيشاً ليرة كاملة، وهو أمر لم يفعله زبون آخر. أقصد، هل تعتقد بربك أن سوري واحد يعطي لبائع خضراوات بقشيشاً، وهل تريد أن تعرف ماذا كان نقولا يفعل قبل أن يسافر؟» سأل يوسف بمرارة.

هزّ فريد رأسه نافياً.

«كان يكسر الأحجار لأبي من شروق الشمس وحتى غروبها لقاء ثلاث ليرات. ومنذ يومين دعا أبي وأمي إلى بيته وأراهم فرشه وسجاده وحتى حنفيات الحمّام المطلية بالذهب في بيته. شعرت مادلين بالكراهية والقرف، لكن كان يجب عليها بالإضافة لقرفها أن تتحمل تعابير الإعجاب والدهشة في أعين أبي وعمّاتي - كانوا مندهشين حقاً».

*

في نهاية تشرين الثاني، جاء كمال ليزور فريد. كان محطماً. فقد خسر ثروته كلها بين عشية وضحاها. فقد أمّمت الحكومة الجديدة مصنعه مرة أخرى، ولم تترك له شيئاً سوى ديونه. كان كل ذلك أشبه بكوميديا إنكليزية سوداء، لكن كمال لم يكن قادراً على الضحك.

بعد عدة أسابيع، سافر كمال للالتحاق بوالده في السعودية، وعاد بعد عشر سنوات مليونيراً. لكنّه لم يعد يرغب في العمل في صناعة النسيج، بل فتح كازينوهات جديدة بالشراكة مع ابن خال رئيس جمهورية سوريا الجديد.

twitter @baghdad_library

كتاب الضحك الثالث

المصانع الكيميائية والطغاة يلوّثون البيئة المحيطة بهم

*

دمشق، ١٩٦١-١٩٦٥

٢٢١- الصوم في الفضاء

قال يوسف إنّ صديقاً له أعطاه تذكرتين لحضور ندوة هامة يقيمها الإخوان المسلمون، وسأل فريد إن كان يريد مرافقته، وكانت الندوة بعنوان «ريادة الفضاء من وجهة نظر الإخوان المسلمين».

«وهنا يمكنك أن ترى مرة أخرى مدى تخلّف كنيستنا»، قال وفي صوته نبرة تشي بالحسد.

«ألستَ خائفاً؟» سأل فريد الذي لم يكن يحتمل الإخوان المسلمين المحافظين الذين تموّلهم السعودية والذين كانوا يعادون الشيوعيين بضراوة ويكرهون النساء.

«خائف؟ ممَّ أخاف؟ من أنِ يتمكنوا من إقناعي باعتناق الإسلام؟ فأنا لا أؤمن حتى بديني، فما الذي يجعلني أعتنق ديانتهم؟ أم هل تظن أنني أخاف من أن يضربوني لأني مسيحي؟ فأنا أولاً لست شيوعياً، وثانياً لست امرأة، وثالثاً فإن الحكومة تتودد إليهم في هذه الأيام. لقد تكيفوا بمهارة وأصبحوا معتدلين ومقبولين اجتماعياً. لعلهم يريدون في هذه المحاضرة إثبات أننا صعدنا إلى الفضاء قبل أن يصعد الروس والأمريكان بفترة طويلة». ضحك يوسف وقال: «كما تعرف فقد صعد الشرقيون إلى الفضاء منذ آلاف السنين.

فمنذ زمن بعيد، لدينا ذلك الكذاب السوري لوقيان السميساطي الذي كتب أول القصص عن غزو الفضاء وادّعى أن بطل قصته حلّق في الفضاء وكافح رواد الفضاء المعادين بمدافع تطلق الثوم عليهم. وتذكّر بساط ريح السندباد، وصعود النبي إيليا إلى السماء في عربته النارية، وتذكّر صعود المسيح ومريم العذراء إلى السماء، وقصة الإسراء والمعراج، حيث صعد النبي محمد إلى السماء. لقد قال لي شخص من الإخوان المسلمين قبل عدة أيام، وبجدية تامة، إن الفرنسيين أطلقوا على طائراتهم المقاتلة القوية اسم «ميراج» تيمناً بذلك لأنهم لا يستطيعون لفظ العين.

إلا أن شيئاً من ذلك لم يُذكر في محاضرة تلك الأمسية التي عقدها الإخوان في قاعة كبيرة للمحاضرات. انزعج فريد لأن الإخوان المسلمين يُمنحون دائماً أفضل قاعة في الجامعة لإقامة احتفالاتهم للدعاية لأنفسهم، وكان يقال حينها إن نصف الإدارة في الجامعة تتعاطف معهم.

عندما دخل المتحدث الملتحي القاعة، نهض الحاضرون وتلوا دعاء قصيراً ثمّ جلسوا. بعد مقدمة قصيرة عن العصر الحديث، عاد المحاضر الذي قال مقدم الحفل عنه إنه يحمل درجتي دكتوراه إلى موضوعه الرئيسي بسرعة. وعرض النقاط المحورية التي ترتكز عليها محاضرته في شكل أسئلة وأجوبة. «إلى أين يتوجّه المسلم في صلاته إذا صعد إلى الفضاء؟ كيف يمكنه أن يحدد موقع مكة المكرمة إذا كان موجوداً في الفضاء؟ كيف يصوم في الفضاء؟ كم مرة يجب أن يصلّي عندما تدور مركبته الفضائية حول الأرض عشر مرات، وكم مرّة إذا كانت سرعتها ضعف السرعة العادية؟ وهل يمكن لرائد فضاء مسلم أن يتزوّج كائناً من كوكب آخر؟»

نظر يوسف مندهشاً إلى فريد الذي وضع يده على فمه ليمسك نفسه من الضحك.

قدم المحاضر كلّ هذه الأسئلة بأجوبة توحي بكل جدية بأنه يضفي على الدين وجهاً معاصراً ويحافظ في الوقت نفسه على إسلاميته، لكنهما شعرا

twitter @baghdad_library

بأن لا جدوى من بقائهما أكثر. بعد ربع ساعة، غادر الصديقان القاعة بهدوء.

٢٢٢- والد منير

إن كان المرء لا يعرف منير حق المعرفة، فقد يظنّه سويدياً أو دانمركياً. فعلى الرغم من شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين، فقد وُلِدَ في قرية تقع على ضفاف نهر الفرات، بعيدة كل البعد عن أوروبا.

ويسكن منير مع أهله في دمشق منذ أكثر من عشرين سنة، في شارع لا يبعد كثيراً عن المستشفى الفرنسي، ويملك والده أكبر مخبز في الحي المسيحي. وقد درس منير الرياضيات، وكان شخصاً عملياً واقعياً، عقلانياً أكثر منه متديناً، ولكن الدين في الشرق الأوسط لا يتجاوز إيمان وعقيدة الفرد فحسب، بل يشكّل جزءاً من هويته الثقافية. كان معظم الطلاب في كلية العلوم الطبيعية من المسلمين. لذلك عندما عرف منير أن فريد من قرية معلا، شعر بالسعادة لأنه تعرّف على مسيحي آخر، وراح يناديه منذ ذلك الحين «ابن العم».

ذات يوم جاء منير إلى الكافتيريا. وفي لحظة دخوله سمع زملاءه الطلبة يتبادلون النكات عن جيل آبائهم الذين لم يتسيّسوا بعد على الرغم من كلّ تلك الثورات والاضطرابات التي حدثت في الشرق الأوسط. لكن منير لم يعجبه هذا الكلام.

فقال: «ليس من قبيل المبالغة القول إن أبي هو أكثر الخبازين نهماً للقراءة في دمشق»، وأضاف، «فكما تعرفون يعيش الخبازون حياة صعبة. فهم يستيقظون عندما يكون الآخرون لا يزالون يغطون في النوم، وينامون عندما يبدأ المساء يضجّ بالحركة والحيوية. ويوماً بعد آخر، سبعة أيام في الأسبوع، لم يكن أبي يتوقف عن القراءة مساء كلّ يوم وكان يكتب حكماً ويرتّبها، ويتباهى بأنه يستطيع ترديدها من دون أيّ خطأ.

لاحظ ثلاثة من زبائنه ذلك وكانوا: محام شيوعي، ومعلّم قومي،

وثالث يدعى صافي يعمل في مصرف. ماذا كان انتماء صافي السياسي؟ حسناً، تبسيطاً للأمر لنقل إنه كان ليبرالياً.

أُعجِب الرجال الثلاثة بأبي وكانوا ينصتون إليه عندما كان يتحدث عن المزاج السائد لدى الناس. ففي كل يوم يأتي آلاف الزبائن لمخبزه الكبير.. إن الرجل الذي يخدم هذا العدد الكبير من الزبائن كلّ يوم يصبح عالماً نفسانياً، ويستطيع أن يعرف جيداً ما هي طبيعة مشاعر الناس ومما يعانون منه مادياً ونفسياً.

من بين هؤلاء الرجال الثلاثة، كان الشيوعي أكثرهم ذكاء، والقومي أشدهم صلابة. لكن ماذا عن الليبرالي صافي؟ تبسيطاً للأمر لنقل إنه كان أكثرهم مرونة ودهاء.

كان أبي يحبّ المحامي أكثر الثلاثة، هذا الشيوعي الذي ينتمي إلى عائلة معروفة، وبدوره أحبّ أبي، ذلك الخباز الذي ينتمي إلى عائلة غنية من الخبازين، وكانا يتناقشان باستمرار عن دور الملكية. شعرت أمّي بتعاطف مع المحامي، لكنّها لم تصدّق أي كلمة يقولها.

أما جدتي لأبي فلم تطق وجود المحامي وظلت تحذر أبي من أخطار الشيوعية، لكنّه كان يهدّئ من روعها ويؤكد لها إن المحامي الذي يتبوأ مركزاً هاماً في حزبه طمأنه بأن الشيوعيين، لو وصلوا إلى الحكم، فلن تُمس أملاك الخبازين.

عندما تعرض الشيوعيون للملاحقة، طلب المحامي من أبي أن يخبئ له بعض الوثائق الهامة، بعض الأوراق التي تخص الحزب وكمية من المنشورات التي تحمل رمز الشيوعية، وتوارى المحامي عن الأنظار، ولم يختبىء عندنا، أظن خوفاً من جدتي.

لكن روحي معكم دائماً في محاربة الدكتاتورية. قرأ أبي من الرسالة التي أرسلها صديقه لنا جميعاً. فالشيوعي هو أول من يعمل وأول من يضحّي بنفسه وآخر من يأكل.

twitter @baghdad_library

طفرت الدموع من عيني أبي عندما قرأ هذه الكلمات، وعضت جدتي لسانها لكي لا تبدي ملاحظات حادّة عن الشيوعيين. فقد كانت تعرف ابنها الذي لا يؤذي ذبابة إلا عندما ينفعل ويصبح عاطفياً، عندها لا يمكن لأحد أن يتكهن كيف سيتصرف، يتحول إلى بركان، لذلك كان الجميع يحرصون على عدم إزعاجه.

بعد أسبوع، فوجئ أبي عندما سمع صوت صديقه المحامي يلعلع في المذياع، اكتشفه صدفة خلال بحثه عن إذاعة لندن العربية - لأنه كان دائماً يحبّ الاستماع إلى نشرة أخبارها ليعرف ماذا يجري في دمشق - وصادف أن إبرة المذياع وقفت على إذاعة صوت موسكو. كنّا نتناول طعام العشاء، فأصيب أبي بالذهول، وسقطت قطعة الخبز التي كان يتناولها من يده في صحنه. فلم تكن الكلمات التي كان يرددها صديقه مجرد كلمات، بل تدفقت من فمه مثل حمم بركانية ثورية، داعياً سكان دمشق - من موسكو - للنهوض والثورة والتضحية بالنفس.

هنا حانت ساعة جدتي، فراحت تلعن الخائن وجذوره الضاربة في عائلة أرثوذكسية لم تكتف بمحاربة كنيستنا الكاثوليكية بضراوة، بل أنجبت كذلك مثل هذا الرجل الحقير، رجل لا يستطيع أن يفكّر بشيء إلاّ بحضّ شعبه على الانتحار وهو جالس بأمان في روسيا. وشددت جدتي على كلمة «روسيا» بكلّ كراهية شخص كاثوليكي متعصب تجاه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية التي تجسّد لها شرور العالم كلها. لأن جدتي لم تكن تعترف أصلاً بوجود الاتحاد السوفيتي.

وسرعان ما بدأت موسكو تمارس ضغطاً على دمشق، ومن هنا تراجع اضطهاد الشيوعيين وتوقفت الحكومة عن ملاحقتهم. ثم عاد خالد مليس، أمين عام الحزب، وقيادته من موسكو وأثنى - لا ريب لأسباب تكتيكية - على الحكومة نفسها التي كانوا يدعون الشعب للإطاحة بها قبل يومين.

وعاد المحامي إلى مخبزنا، وحاول أن يفسر الأمر لأبي ببضع كلمات

ذكية عن التكتيك والاستراتيجية، وعن سبب هروبه وحديثه في المذياع وعودته.

أصبح وجه أبي كالرماد. وقال لكنني على عكسك وعكس زعيمك خالد الإبليس المليس للأسف لا أستطيع أن أخرج من البلد بمخبزي وزوجتي وأطفالي الستّة وأمّي. ومنذ ذلك اليوم، لم يقرأ أبي كلمة أخرى كتبها شيوعي».

لو حكى هذه الحكاية شخص آخر لما صدّقها فريد، لكنّه صدّقها لأنه سمعها من منير.

«أما صداقة أبي مع المعلّم القومي»، واصل منير قصّته، «فلم تدم طويلاً. فقد كان أبي معجباً بشجاعة هذا الرجل وحيويته، لكننا لم نعد نحن الآشوريين نحتمل شوفينية وعنصرية القومية العربية التي بدأت تزداد قوة والتي كان المعلّم أيضاً واقعاً تحت تأثيرها بقوة. كان ينبعث من المذياع كلام كثير عن القومية، وكانت الجدران تصرخ مرددة الشعارات القومية، والرايات الضخمة ترفرف في السماء تمتدح الموت من أجل القومية بأحرف عملاقة، محتقرة كل أطياف الشعوب الأخرى التي تعيش في الوطن العربي منذ زمن سحيق حتى قبل دخول العرب إليها.

عندما حاول المعلّم إقناع أبي بأن جميع المواطنين السوريين هم عرب وإن كانوا لا يعرفون ذلك، أو أنهم لا يريدون ذلك لضعف وعيهم القومي والوطني، انفجر أبي وقال: «كان لدى الخلفاء قبل ألف سنة فكر إنساني ودراية أفضل مما لديك الآن. فلم يرغموا الأرمن ولا اليهود ولا الفرس أو الإسبان أو الكرد على أن يصبحوا عرباً».

نهض الرجل الذي أحسّ بالمهانة وغادر. بعد ذلك بدأ يشتري خبزه من مخبز منافسنا، وتجاهل أبي كلّ الأحزاب القومية الخمسة.

«أما صديقه الثالث، صافي الموظف النشيط في المصرف، فقد عرّف عن نفسه بأنه ليبرالي. كان يزورنا كثيراً وقد أحبته جدتي حتى درجة العشق لظرفه وحسن تربيته، لكن أمّي لم تطيقه وكانت تقول بصوت خفيض كلما

twitter @baghdad_library

أتى لزيارتنا بأنه حرباء. لكن أبي لم يدع كراهيتها له تؤثّر عليه. فقد قال وهو يغمزني: لقد عقدت أمّك وأمّي حلفاً سرياً بأن لا تتفقا على شيء أبداً».

عندما بدأت السلطات تلاحق صافي لمعتقداته السياسية اختبأ في بيتنا، وقدمنا له الطعام، وكنت أذهب صباح كلّ يوم لأشتري له الصحيفة، لكن بما أن أسرتي لم تشتر قبل ذلك صحيفة يومية قط، فقد لاحظ المخبر في شارعنا ذلك، فاضطررت للذهاب إلى كشك بعيد عن بيتنا لأشتريها وأهرّبها إلى البيت في كيس.

«عندما أصبح وزيراً، وأتمنّى أن يحدث ذلك قريباً، فلن أنسى تضحياتك لي»، قال صافي لأبي ذات مساء، ومرة أخرى، أجهشت جدتي بالبكاء من شدة تأثرها.

كان تصرّف أبي نبيلاً للغاية، فقد دأب على القول «لست بحاجة لمكافئتي. إن مخبزي يمنحني ما يكفيني، لكني سأكون ممتناً لك لو ظللت تسمع رأيي عن الوضع في بلدنا وعن أحوال الناس».

أجاب صافي: «كن متيقناً من أنني سأفعل ذلك كلّ يوم لأنني أريد أن أسمع صوتك باستمرار فهو صوت الشعب الذكي».

«وكيف سيتّصل بك عندما يصبح وزيراً؟» سألته أمّي بارتياب. لأن الليبرالي يعرف كما تعرف أمّي أنّ وزراءنا محاطون بالرجال وبحرّاس الأمن، ولا يمكن لأحد الوصول إليهم لأي غرض، سواء أكان خيراً أم شراً.

«أنت محقة»، قال مؤكّداً شكوكها، «فمن الأفضل أن تقف خارج مخبزك يا صديقي، وعندما أمرّ بسيارتي سأتوقّف وأترجّل من السيارة وأعانقك أمام كلّ الناس، وأحتسي معك الشاي، وأستمع إلى ما تريد أن تقوله لي سواء أكان ذلك في مديح النظام أم ذمّه».

كان على أمّي أن تعترف بالهزيمة وتعترف بانتصار حماتها. لكنها ابتلعت هزيمتها من دون أن تقر بها.

بعد الانقلاب التالي، ترقّى صافي وانتقل مباشرة من المكان الذي كان

يختبئ فيه في بيتنا إلى مقعد في الوزارة. بعد ذلك، خصص أبي عاملاً من عماله للوقوف عند باب المخبز ليراقب قدوم الوزير. عندما رأى الفتى الشرطة على دراجاتهم النارية في اليوم الثالث صاح: «ها هو قادم، ها هو قادم».

كانت تلك هي الإشارة. ترك أبي وعماله كلّ ما كانوا يفعلونه وراحوا يلوّحون للوزير، لكن سيارة الليموزين السوداء لم تتوقف. لم يكن لانتصار أمّي أي حدود في تلك الليلة وكادت تطلق زغاريدها كأنها في عرس.

كانت الأوقات مليئة بالاضطرابات آنذاك وانقلاب يتلو الانقلاب. فتهاوى الوزير وسقط من علياء تلك النعمة بعد ثلاثة أشهر فقط، وأُعلن أنه عدو الشعب. «لماذا لم تلوّح بيدك؟» سأل الليبرالي المندهش عندما اتهمه أبي بأنه لم يف بوعده، وطلب صافي من أبي أن يلوّح له بيده بقوة إذا تبوأ منصب وزير مرة أخرى. في هذه المرة أيضاً اختبأ عندنا، وقدمنا له الطعام والشراب طوال ثلاثة أشهر. وعلّق والدي حول واجهة مخبزه قوساً من الأضواء الملوّنة الصغيرة ووضع سهماً أحمر من النيون وسط الشارع يشير بوضوح إلى المخبز. وعندما تبوأ الليبرالي مكانه مجدداً وراء طاولة مكتبه الكبيرة في الوزارة، وقف أبي وجميع العاملين لديه خارج الباب بمعاطفهم وراحوا يلوّحون للوزير الذي كان يقود سيارته الليموزين. حتى الأضواء الصغيرة كانت تومض، لكن يبدو أن صافي قد أصيب بالعمى.

عندما حكى أبي هذه القصّة في البيت غضبت أمّي وأقسمت بأنها ستترك البيت ولن تعود إليه أبداً إذا دعا تلك البزّاقة المخاطيّة الناكرة للجميل مرة أخرى، حتى للحظة واحدة لزيارتنا. لم يتوقف أبي عن التلويح بيده لسيارة الليموزين السوداء طوال اثنين وعشرين يوماً، لكن بلا جدوى، فأحسّ بالمرارة وأزال الأضواء الملوّنة وسهم النيون، وهرم وشاخ عدة سنوات في ذلك اليوم.

بعد فترة قليلة، طُرد الليبرالي من الوزارة، لنقل بسبب سرقة أو صفقات أسلحة مشبوهة. وبعد يومين، ظهر عند المخبز محبطاً، وقال إن مؤامرة

twitter @baghdad_library

كبيرة حيكت ضده، وأنه سيعود إلى منصبه قريباً وأنه بحاجة إلى . . . فرمقه أبي باحتقار والتفت إلى زبائنه وقال: «دور من الآن».

«ومنذ ذلك اليوم لم يعد أبي يعترف بأيّ حزب سياسي».

٢٢٣- الجنّة

كان الجنرال قبضان الذي أطاح بالرئيس متآمران في نهاية ١٩٦٤ يكره الأصوليين فراح يعذّبهم وينكّل بهم. وفي أحد الأيام ألقى مرتضى، وهو إسلامي لا يتجاوز عمره تسعة عشرة عاماً، قنبلة يدوية على الجنرال قبضان، لكنّها لم تنفجر مباشرة. كان الرئيس عَلى مسافة آمنة عندما انفجرت فقد ألقى به حارسه على الأرض. لم يصب قبضان بأيّ أذى ولم يتحمل من الإنفجار إلا ثقل حارسه المفتول العضلات الذي ألقى بنفسه فوقه كغطاء ليحميه. أما القاتل فقد أصيب بشظية في جبهته وأغمي عليه. عندما أفاق من غيبوبته بعد ساعات وجد نفسه مستلقياً فوق سرير أبيض، ترمقه أربع نساء متشحات بالبياض. فخيّل إليه أنه أصبح في الجنة وأن تلك النساء حوريات، الحوريات الموعودات بسحرهن الخالد الذي حدّثه عنهن شيخه واللاتي يمكنه افتضاضهن كلّ يوم، واللاتي ما إن يضاجع إحداهن حتى تعود بكراً.

«لقد فعلتها ووصلت إلى الجنة يا مرتضى»، قال لنفسه بصوت مسموع لأن قدرته على السمع كانت لا تزال متأثّرة بالانفجار. «إذاً كلّ ما قاله الشيخ صحيح»، ولزيادة سعادته سأل هل بإمكانه أن يرافق النساء إلى الخارج ليرى الأنهار التي تجري ويتدفق فيها الحليب والعسل، لأنه طوال تلك السنوات، لم يفهم كيف يمكن أن يجري العسل كالماء، أو لماذا لا يفسد الحليب في الشمس. تبادلت الحوريات النظرات وتضاحكن. بدت ضحكتهن مثل قرعة أجراس صغيرة في الجنة أيضاً.

«أي حليب؟» سألته الحورية الأكبر سناً، «أيّ عسل؟» لم تكن قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها بعد، وكان لها شفتان شهوانيتان ونهدان بضان. تلهف مرتضى لأن يدفن رأسه بينهما.

«يوجد جدول قريب من هنا»، قالت، «لكنه جفّ الآن في الصيف، وتفوح منه رائحة قمامة نتنة حتى أعالي السماء». بدا له ذلك أمراً دنيوياً للغاية.

«إنك في مستشفى المزّة العسكري»، قالت الحورية الثانية. وفجأة لاحظ القضبان الحديدية على النافذة. وللمرة الأولى، فهم مرتضى أنّ الحياة تغدو أحياناً أسوأ من الموت.

twitter @baghdad_library

كتاب النمو الرابع

الطاغية لا يعيش على الأرض بل يعيش في رأسه

*

دمشق، ١٩٦٥-١٩٦٨

٢٢٤- مشكلة الأخوة

في منتصف تموز ١٩٦٥، بعد شهر من الانقلاب الذي قام به الجنرال بيضان الغادر على رفيقه في الحزب الرئيس قبضان وأطاح به، نال يوسف وفريد شهاديتهما اللتين تؤهّلانهما للعمل في مجال التعليم. طالت دراستهما الجامعية سنتين زيادة على زملائهما الطلاب السابقين، فريد لأنه سُجن، ويوسف لأنه لم يكن في عجلة من أمره ليتخرج. انشغل في حياته الجامعية بألف نشاط آخر، وصار معروفاً مثل نار على علم في الجامعة أكثر من العديد من المحاضرين والأساتذة، و وأمضى في الكافتيريا وقتاً أكثر مما يمضيه في قاعة المحاضرات. وقد سهل عليه احتمال هذا التأخير في تخرجه لأنه، مثل فريد، لم يتوجب عليه أن يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية لمدة سنتين، لأنه وفق القوانين السورية، فإن الشاب الوحيد في الأسرة لا يُستدعى إلى الجندية. بالطبع دفعت أسرته لقاء ذلك مبلغاً يعادل راتب جندي لخدمة السنتين ما سُمي آنذاك «بدل الجندية»، وهو ليس مبلغاً كبيراً. عندما فرض هذا النظام، أقرّت الدولة برغبة العشائر في حماية أبنائها وورثتها. أما أخوات يوسف، فلم يكن لديهن أي اعتبار لأنهن أناث، ولأنهن سينتمين إلى نسب أزواجهن بعد أن يتزوّجن.

قبل حصوله على الشهادة الجامعية بفترة قصيرة، التقى يوسف بامرأة نالت إعجابه. ولأول مرة في حياته، أحسّ بمثل هذه الجاذبية بعد مضي خمس سنوات على قصّة فاطمة الحزينة. فقد افُتتنت نادية مرقص به لأنه كان لديه ما يقوله باستمرار في أيّ موضوع يُطرح للمناقشة، وكان كل ما يقوله ذكيا ومقنعاً في معظم الأحيان.

كان والداها يتحدران من عائلة دمشقية حرفية عريقة تملك مخزناً ضخماً، وكان يقدسان التقاليد والعادات، وهو ما لم يرق كثيراً ليوسف. لكن نادية كانت تكنّ احتراماً شديداً لوالديها. بعد شهر من لقائهما قالت له إن والديها يريدان أن يتقدم لخطبتها، وإلا فلن يتمكن من رؤيتها ثانية. سخر يوسف من ذلك لأنه كان يستطيع أن يتنقّل في رحاب الجامعة كما يحلو له مع نادية كلّ يوم، وقد أطلق على هذا التهديد عبارة «نمر من ورق».

لكن بعد أسبوعين نقلت له نادية الخبر السيء: فقد تقدم ثلاثة من أبناء أعمامها الأغنياء للزواج بها. لكنها لم تعبأ بسيارات الليموزين ولا بالفيلات التي يملكونها، وقالت إن على يوسف أن يتصرّف بسرعة ويتقدم لخطبتها، وإلا فلن يكون بوسعها أن تقدم أعذاراً لوالديها برفضها الزواج من أبناء عمومتها.

وقالت إن والديها لن يسمحا لها بالذهاب إلى الجامعة وحدها وسيرافقها شقيقها الأصغر.

وافق يوسف بفتور وبعد فترة وجيزة خطبها. لكنّه أصرّ على عدم إقامة حفل زفاف، بل أن يقتصر الاحتفال على الأسرتين بالإضافة إلى فريد الذي قال إنه «شقيقي من غير أمي وأبي».

قال فريد لنفسه إن أسرة مرقص مملة، لكنّ الحفلة جيدة. الشخص الوحيد الذي ل بدا عليه أنه في المكان الخاطئ هو يوسف. فلم يبدُ ببدلته الجديدة إلاّ أكثر تعاسة، ولم يتذوق الحفل وكأنه لشخص وعريس آخر، لكن والديه كانا في غاية السعادة وقد أحبّا خطيبته.

twitter @baghdad_library

كان لدى نادية أربعة أشقاء يكبرونها سناً وشقيق واحد أصغر منها اسمه جرجي. وجرجي هذا حلم وهو في الخامسة عشرة من العمر أن يقود سيارة مرسيدس وعندما بلغ العشرين من عمره. ظلت تلك هي الفكرة الوحيدة التي تشغل كل تفكيره. «إن فمه عادم سيارة»، قال يوسف عن شقيق زوجته المقبلة، ولم يبالغ في ذلك. فقد كان عالم جرجي بسيطاً ومرتّباً بدقه مثل اهتماماته، وكان يعدّ الذين يحبّون السيارات أصدقاء له، أما الذين لا يحبونها فصنّفهم كأعداء له وإذا أشفق عليهم سماهم «أغبياء».

ولما كان يوسف يكره السيارات، فقد عزم جرجي على انتهاز أي فرصة ليثبت لوالديه أن خطيب نادية هذا سيء في أمور أكثر بكثير من مظهره الخارجي غير اللائق. وفي حين أنه لم يكن يُسمح للخطيبين الخروج معاً من دون مرافقة أحد يشرف عليهما، فقد منحه هذا التقليد قوّة أكثر مما كان يحتمله رأسه. ولمّا كان أشقاء نادية الأكبر سناً متزوّجين ومشغولين بشؤون حياتهم، فلم يكن من يقوم بمهمة مراقبة أخته وخطيبها إلا الشقيق الأصغر الذي كان كذلك الابن المدلل والأثير لأمّه، وقد استغلّ هذه المهمة على أكمل وجه. نصح فريد يوسف بأن يستخدم الهدايا والدعوات للتحايل على حارس الفضيلة هذا، أو لإقناعه بغضّ الطرف، وقال إن هذه الطريقة ناجعة بنسبة تسع وتسعين في المائة، لكن جرجي كان الحالة المائة.

دأب يوسف بيأس على إبعاد هذا الظلّ الملتصق به باستمرار. لكن في نهاية الأمر، كانت نادية هي من أرشدته إلى الطريقة الوحيدة لعمل ذلك. «أظن أن لا مشكلة في ذلك»، قالت بشيء من الأنين، عندما منعهما جرجي من تبادل قبلة أخرى. «وهي أن نتزوّج».

في اليوم التالي اتصل يوسف بفريد وكان كلّ ما قاله له بصوت متصدّع: «إني بحاجة إليك». عندما قرع صديقه جرس الباب بعد قليل، دعته مادلين للدخول وقد بدا عليها شيء من عدم الارتياح. «إنك شخص مخلص مثل أمّك. لقد أصبح يوسف نزقاً ويستحيل التعامل معه، فهو يصرخ في وجه الجميع، حتى في وجهي. لا أعرف ما خطبه. أرجوك قل

له إنه لن يجد زوجة أخرى بهذه التربية الجيدة ودرجة الذكاء»، وربتت على خدّه ودلفت إلى المطبخ. بعد قليل جلبت لهما القهوة.

كان يوسف يرغي ويزبد، وكان فريد ينصت إليه باهتمام. فقد قال بغضب إن المجتمع العربي لم يتقدم منذ عهد جحافل المغول. فهو لم يحنّط عاداته القديمة منذ أجيال فحسب، بل إنه يعلّمك كذلك أن تكذب حتى تصبح مخادعاً أيضاً، كأنه لم تقم مدن وكأننا لا نزال نعيش في الصحراء، والعشيرة هي كلّ شيء أما الفرد فهو لا شيء البتة.

«لكن لا شيء مع إطار»، قال فريد، محاولاً إضحاك صديقه الذي كان يدعو كل فارغ الرأس «لاشيء مع إطار». لكنه لم يفلح. كان يوسف غارقاً في حبّ نادية حتى أذنيه، لكنّه لم يعرفها جيداً، وقد باعدت خطبتهما بينهما بدلاً من أن تقرّبهما. وشيئاً فشيئاً بدأ يدرك أنها مصابة بانفصام في الشخصية. فأثناء وجود عائلتها كانت تبدو ملتزمة ومنصاعة، وفي الجامعة كانت تبدو امرأة مثقفة ثورية مفعمة بالحيوية.

وها هو الآن مجبر على أن يتزوّجها بسرعة لكي يتخلّص من تلك الآفة، شقيقها جرجي. «ففي أوروبا يستطيع الرجل والمرأة أن يعيشا معاً بسعادة أو بتعاسة، أن يعيشا معاً أو يفترقا، كما يملي عليهما الحبّ. أما هنا فإنك تتزوّج أو تطلّق لمئات الأسباب المختلفة، ولا علاقة لأحد منهما بالحبّ».

كانت المشكلة تكمن في أنه لم يكن قادراً على اتخاذ قرار إزاء ما الذي يمكنه أن يفعله، وقد جعله ذلك عصبياً معكر المزاج.

«هيا، لنذهب إلى السينما. إنهم يعرضون فيلم "West Side Story" للمرة الثانية بعد سنة. لقد سألتني قبل شهور متى سيعرضون الفيلم مرة أخرى».

«هذا ما أحتاج إليه الآن»، قاطع يوسف صديقه، «فيلم يجعلني أنسى هذا المجتمع الشنيع لمدّة ساعتين».

كان الفيلم مؤثراً. فلم يكن مجرد نسخة أخرى عن قصة روميو

twitter @baghdad_library

وجوليت، بل كانت أحداثه تدور في أحياء نيويورك الفقيرة. وفتنهما رقص الممثلين الشباب وموسيقى ليونارد بيرنشتاين. عندما خرجا من السينما، تحسن مزاج يوسف كثيراً، ودعا صديقه لتناول فنجان قهوة في مقهى الهافانا، أملاً في أن يسمع بعض الأخبار غير الرسمية.

لكن قبل أن ينهيا قهوتهما، اعتلى رجل يكاد يكون قزماً طاولة وسط المقهى وراح ينقر كأسه الفارغة بسكين. خيّم سكون مطبق على المقهى. «يجب أن أنبهكم أيها السادة»، صاح بنبرات حماسية، «سيغلق الماخور في دمشق أبوابه إلى الأبد ولن يفتح أبوابه بعد الساعة الثامنة من صباح الغد».

سُمعت همهمات تنمّ عن السخط لإغلاق بيت الدعارة الرسمي.

«يا نذير الشؤم»، قال صاحب المقهى بحنق لأنه لم تمض بضع دقائق حتى اندفع الرجال إلى الخارج.

«كم ليرة معك؟» سأله يوسف.

«عشرون ليرة».

«أظن أنها تكفي». سدد ثمن قهوتهما وغادر المقهى مع فريد. كانا آخر شخصين يغادران المبنى. لم يكن بوسع صاحب المقهى فعل شيء إلاّ أن يهزّ رأسه بأسف.

٢٢٥- الوداع

سادت الفوضى في الماخور في المساء الذي سبق إغلاقه تماماً. لم يكن فريد قد أتى إليه من قبل. أما يوسف فكان قد ارتاده ثلاث أو أربع مرات، لم يتذكّر بدقة كم مرة. في ذلك المساء انتهت نهاية قاسية تصورات فريد عن الماخور. فقد كان يتخيّل أن هذا المكان يشبه قصراً من قصور ألف ليلة وليلة يمكن للمرء أن يدخل إليه حيث يُحمَّم بماء معطّر ويُدلَّك بمختلف الزيوت العطرية، ثم يلبسونه ثوباً فضفاضاً ملوّناً رائعاً، و يقاد بعدها إلى غرفة تنتظره فيها نساء شبه محجّبات، فيتفحصهن ويختار منهن واحدة، ثمّ يغرق في طقوس عربدة جنسية، لا يعود تطفو إلى السطح ثانية إلا لكي

يستحمّ ويستعيد طاقته بمأكولات شهية. وكان فريد يتخيل أن هناك فتيات راقصات عاريات لا يتوقفن عن الدوران بين الزبائن.

لكن ما كان يتخيّله لم يكن يشبه من قريب أو بعيد ما رآه في الماخور في دمشق، وقد صدقت تسميته العامية «كرخانة» وهي كلمة تركية تعني «البيت الأسود». كان المبنى أصفر اللون يبدو عادياً تماماً، لا يبعد كثيراً عن حرم جامعة دمشق، يحيط به جدار مرتفع يستحيل تسلقه، يبول عليه كلّ من هبّ ودبّ. وعند المدخل كان هناك بيت صغير يجلس فيه بوّاب، ويقف شرطيان عادة عند البوابة للتدقيق والتأكد من أن أعمار الذكور الداخلين لا تقل عن عشرين سنة وأنهم لا يحملون زجاجات خمر أو سلاح.

لكن ليلة البارحة تلك، كان الشرطيان ثملين يترنحان في باحة المبنى الصغيرة، فلم يقف أحد عند البوابة. رأى فريد شباناً وأطفالاً في ثياب رثة يجرون في الممرات فاغرين أفواههم يحاولون إلقاء نظرة أخيرة على أجساد النساء العاريات. كان المكان يضجّ بالحركة وبالعمل في تلك الليلة الأخيرة. كان الرجال يصطفون خارج أبواب العاهرات اللاتي كنّ يعرضن أنفسهن لقاء خمس أو عشر ليرات. في الطابق العلوي فقط كان يعمّ الهدوء، حيث جلس بضعة زبائن في كراس مريحة، وكانت النساء هنا يتقايضن بين عشرين وخمسين ليرة.

استدان يوسف عشر ليرات من صديقه وراح ينتظر في رتل أمام باب العاهرة التي كان يفضّلها، وهي فتاة مصرية سمراء. رآها فريد عندما ألقت نظرة سريعة خارج الباب ونادت القوادة التي تدعى بدرية.

بعد لحظات سمع بدرية ترد عليها بصوتها الذكوري العميق. كانت بدرية خارج نطاق جميع المفاهيم المتعلقة بالبدانة عندما جاءت وهي تتدحرج وقد تدلت منها مجوهرات مزيفة في أطر ذهبية مزيفة ضخمة بطريقة تخلو من أي ذوق.

لم ينجذب فريد لأيّ من تلك العاهرات. فعلى الرغم من أن بعضهن كنّ جميلات حقاً، لكن فكرة أن رجلاً إثر رجل يفرغ نفسه في تلك المرأة

twitter @baghdad_library

كل عشر دقائق جعلته يشعر بالاشمئزاز لا بالإثارة الجنسية، لكنه كان راضياً لأنه تمكن من إشباع فضوله، فلم يتصور قط أنه سيتمشى يوماً ما في الماخور بحرية هكذا. شعر وللحظات وكانه في فيلم سينمائي.

ظنّ يوسف أنه سينتظر ما لا يقل عن ساعتين، فاتفقا على أن يلتقيا في المقهى في الطابق العلوي.

جلس فريد إلى منضدة صغيرة. إلى الطاولة بجانبه، رأى رجلاً في الخمسينيات من عمره يمضي وقتاً ممتعاً مع عاهرة شابة، يحتسي معها قنينة من النبيذ الأحمر. كان يبدو عليه أنه يعرفها منذ فترة طويلة، لأنه كان يكلمها بلطف، ولم يلمسها كما كان يفعل الرجال الآخرون الذين لم يفوّتوا فرصة واحدة دون أن يلمسوا عاهرة تمرّ بجانبهم.

فجأة اقتحمت المقهى امرأة أخرى، وألقت بباقة الورد الحمراء على رأس شابّ نهض هذا مذعوراً وركض فلحقت به إلى البار حيث رمت الباقة المحطمة مرة ثانية في وجهه وصاحت، «لا أريد أن أراك مرة أخرى، أبداً، أتفهم يا حقير؟»

احتجّ الرجل على شتائم المرأة وحاول تهدئتها بطريقة تدعو إلى الرثاء، لكن العاهرة، وكانت امرأة نحيلة قصيرة، استدارت وخرجت.

«الجبان»، قالت العاهرة الشابة الجالسة إلى المنضدة بقرب طاولة فريد، «إنه يريد أن تبقى فاطمة هنا في الماخور. في البداية قال لها إنه يحبّها ويريد ان يتزوجها، وعندما صدّقته أخيراً وصارت تصرف عليه لم يعد يريد أن يرافقها حتى إلى السينما لأنه كان يخشى أن يراه أحد من أقاربه معها. لقد رأيت ما يكفي من هذا الصنف من الرجال».

بعد قليل، أطلقت العاهرة الشابة فجأة ضحكة عالية وأشارت إلى رجل نحيف يهمّ بدخول المقهى، وتوجّه مباشرة إلى البار وطلب قهوة. كان يبدو أن هذا الرجل الشديد الأناقة، والذي كان فيه مظهره شيء عتيق وكأنه مكسو بغبار الزمن، قال إنه يشعر بإهانة شديدة من القرار الذي أصدره رئيس الجمهورية بإغلاق الماخور.

«هل أتدخّل في سياسته؟ هل أقول له لا تأخذ أموالاً من السعودية؟ طبعاً لا. إذاً لماذا يريد أن يحرمني من متعتي الوحيدة؟»

«هذا هو حسن سباط، كاتب عدل، محامي ومليونير وعشيق قوادتنا بدرية»، قالت العاهرة الشابة مقهقهة.

«لا بد أنك تمزحين! فرس النهر بدرية؟ حتى أنه لا يصلح لأن يكون فتيلة في مؤخرتها لإشعال نارها»، قال الرجل الجالس معها. ضحكت العاهرة وقالت: «صحيح، لكن الحبّ أعمى».

في المقهى عرف فريد كم هي مخطئة جميع الأساطير التي ترد في الروايات والأفلام العربية عن الفتيات الشريفات اللاتي يصبحن عاهرات بدافع اليأس، واللاتي يقلن إن أبي اغتصبني فاضطررت إلى سلوك طريق الدعارة، أو أن زوجي الرائع أو أمّي أو أختي أصيبوا بالمرض فاضطررت إلى أن أبيع نفسي لأحصل على نقود لشراء دواء ومراجعة الأطباء. لقد انتهت هذه الحكايات الأخلاقية السخيفة بقول أحد الممثلين القدامي لامرأة ساقطة آسفاً: «يا طفلتي، إن شرف المرأة مثل عود ثقاب يحترق مرة واحدة فقط». وفي جميع الأفلام التي تعرض مثل هذه القصص، كنت تسمع شاباً يصيح في الصالة المظلمة، «لكن القداحة ستشعل آلاف المرات».

حزمت العاهرة الشابة الجالسة إلى المنضدة التالية حقيبتها وقالت إنها ستذهب إلى بيروت لتعمل في أحد بيوت الدعارة في شارع المتنبي. وكانت، رغم حزنها من قدرها، تبدو أكثر ثقة بنفسها من معظم النساء المتزوجات في دمشق.

عندما جاء يوسف إلى المقهى كان الليل قد انتصف. كان عليهما اللحاق بآخر حافلة متجهة إلى منطقة الباب الشرقي.

قال: «سأتزوّج نادية لكنّي لن أحتفل بالعرس مع أيّ من هؤلاء اللقطاء في أسرتها. أريدك أن تكون شاهداً على زواجي». لا بدّ أن فريد كان ينظر إليه وقد ارتسمت على وجهه تعابير بلهاء، فسأله يوسف بقلق شديد، «هل أزعجك شيء هنا بين العاهرات؟ هل شربت شيئاً؟»

twitter @baghdad_library

بعد يوم من إغلاق الماخور، جاء متّى لزيارة فريد، نافخاً صدره بافتخار وقال: «أخي، يجب أن تأتي في جولة معي».

«جولة؟ على عربتك؟» سأل فريد الذي لم يتسع خياله أكثر من ذلك.

«أوه لا»، ضحك متّى، «لقد اشتريت عربة سوزوكي. إنها جديدة. عربة سوبر».

كانت تقف خارج الباب إحدى تلك العربات الصغيرة ذات العجلات الثلاث التي تسير بمحرك والتي يسمع طنينها في أنحاء المدينة القديمة كالزنابير، محدثة ضوضاء فظيعة، لكنها كانت مفيدة جداً لأنها تستطيع الولوج في الأزقة الضيّقة لإيصال المواد إلى البيوت التي يصعب الوصول إليها بالسيارات. كان الإيطاليون واليابانيون يتنافسون على هذه السوق المربحة، وكان يطلق على هذا النوع من المركبات الصغيرة اسم «سوزوكي»، وهو أمر لا علاقة له بالمصنّعين.

ثم ركّب التقنيون السوريون مقعداً صغيراً في السوزوكي بجانب مقعد السائق ليركب الزبون صاحب الأغراض المنقولة. جلس فريد على هذا المقعد المريح، وراح متّى يجوب حارة الزيتون راسماً دوائر كبيرة وصغيرة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة بزهو.

«لقد باعت زوجتي مجوهراتها كي أتوقف عن جرّ العربة اليدوية المنهك»، قال وكان يلمع في عينيه بريق السعادة.

٢٢٦- البدايات

بواسطة شقيق نادية الأكبر، عثر يوسف على وظيفة معلّم مدرسة في شارع الروضة، الحيّ الذي تعيش فيه الطبقة الغنية في دمشق. فقد كان شقيقها الأكبر عضواً في حزب البعث منذ شبابه، وكان وقتها يتبوأ منصباً مرموقاً في وزارة التجارة الخارجية، وكان لديه صديق في وزارة الثقافة. لقد أحبّ يوسف ونادية وأراد لهما أن يعيشا حياة رغيدة.

أما فريد فقد حصل على وظيفة كانت تُمنح عشوائياً لمئات المرشّحين

الباحثين عن وظائف في أواخر صيف ١٩٦٥، وهم الأشخاص الذين ليس لديهم صلات حكومية أو أي نوع من الواسطة أو الذين لا يرغبون في دفع رشوة لأحد. مُنح فريد عقداً لمدة سنتين لوظيفة معلّم كيمياء وفيزياء تحت الاختبار في مدرسة تقع جنوب غربي مدينة دمشق، تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً. كان بإمكانه العودة إلى بيته مساء كل يوم بسيارة أجرة مشتركة أو بالحافلة.

لم تكن قطنا بلدة جميلة ورغم إطلال جبل الشيخ عليها،كان فيها مواقع وثكنات عسكرية عديدة. ولو أزيلت الثكنات العسكرية منها فإن المرء لن يرى سوى قرية كبيرة متربة فيها شوارع ترابية ومطاعم صغيرة مهترئة. كان مبنى المدرسة جديداً. بدأ فريد يدرّس بحماسة في المدرسة في بداية تشرين الأول، فقد كُلِّف بتدريس الصف السابع والثامن والتاسع. كان التلاميذ يعاملون بقسوة، فاعتبروا أن السماء أرسلت لهم هذه المعجزة الإنسانية لأن المعلّم الجديد لم يضربهم أو يعاملهم بحزم شديد واحتقار.

حان الوقت لمغادرة بيت والديه، وبمساعدة يوسف وجد شقّة صغيرة لا يدخلها الضوء مؤلفة من غرفة واحدة ومطبخ صغير وحمام، غير بعيد عن بيت رنا. حزنت كلير، لكنّها كانت تدرك أن الوقت قد حان لكي يعيش ابنها حياته الخاصة. خلال أسبوع واحد أثّث الشقّة الجديدة، وبدأ يستمتع بإقامته فيها في فترات بعد الظهر الطويلة مع رنا. كانا يطهيان معاً، ويمارسان الحبّ، وكانا سعيدين مثل طفلين يحتفظان بسرّ.

«لنهرب»، قالت بهدوء قبل أن تودعه.

في منتصف آذار، بعد ثلاثة أسابيع من الانقلاب الذي قام به الجنرال اليساري تَيسان والذي أطاح برفيقه اليميني المحافظ بيضان، أحسّ فريد فجأة بنكسة قوية بعد أن تشاجر في شباط مع مدير المدرسة الساديّ، لاعق الأحذية، الذي دخل إلى قاعة الصف أثناء إعطاء فريد لدرس الفيزياء وراح يُرغي ويُزبد ويشتم تلميذاً، يدعى إسماعيل، قيل إنه أهان العلم السوري خلال فترة الاستراحة.

twitter @baghdad_library

تقبّل فريد الأمر بصعوبة. وبعد الدوام صقل معلوماته عن القانون الجديد المتعلق بالمدارس الذي يخوّل المعلّم، دون سواه، السلطة التامة في معاقبة تلاميذه وفرض النظام عليهم في غرفة الصف. وقد أخبره زميل أقدم أن مدير المدرسة يدأب على ترهيب المعلمين الجدد، مدّعياً بأن له الأحقيّة في الصفوف التي يدرّسونها، وقال له: «بالطبع يحق للمدير استدعاء أيّ تلميذ إلى مكتبه، لكن ظهوره فجأة أثناء الدروس لإهانة تلميذ ممنوع وينمّ عن خبث وهو بذلك يرمي إلى إهانة الأستاذ».

بعد أقل من أسبوع، دخل المدير مرة أخرى. هذه المرة كان يريد معاقبة فتى يدعى يوسف. وقال المدير إنه أهان الأمة العربية، فأثناء ترديد الشعار الوطني الذي أمر حزب البعث بأن يردده جميع تلاميذ المدارس في صباح كل يوم قبل بدء الدروس، . فبدلاً من أن يقول يوسف: «أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة»، يبدو أنه قال: «أمة عربية ساجدة، ذات رسالة خاوية». استلّ المدير قضيب الخيزران. شحب وجه يوسف. كان فريد يعرف أن الفتى يعاني من مشكلة في القلب، وكان يعرف أن المدير يعرف ذلك أيضاً.

«أنا آسف، لكنّك لا تستطيع أن تفعل ذلك في الصف الذي أدرّس فيه. فأولاً، إن ضرب التلاميذ ممنوع قانوناً منذ سنتين، وثانياً، إنك تقطع الدروس بسبب تهمة غير مثبتة وتدخل بخزيرانتك الرهبة إلى قلوب الأطفال فلا يستطيعون بعدها استيعاب أي كلمة مما يضر بمصلحة الوطن ورسالته الخالدة»، ثم التفت إلى التلميذ وقال: «يوسف، هل صحيح أنك قلت ما يتهمك المدير بقوله؟»

وثب يوسف واقفاً على قدميه وقال: «لا يا أستاذ. لم أهن وطني، لكن يونس من الصف الثامن قال إنني إذا لم أعطه عشر دحل فإنه سيخبر المدير بأنني فعلت ذلك».

«حسناً يا يوسف، يمكنك أن تجلس»، قال فريد والتفت إلى مديره الذي تسمّر في مكانه وقال: «كما ترى فإن تلميذي يتحلى بتربية جيدة ويحب الوطن وليس مذنباً في أيّ شيء. يجب أن نسأل التلميذ الذي وشى

به ما الذي أدخل في رأسه مثل هذه الأفكار عن الوطن. واعذرني، فلم يبق لدي إلا وقت قليل لإنهاء درسي، لذلك أرجو أن تدعني أتابع درسي».

غادر المدير قاعة الصف دون أن ينبس بكلمة، ولم يعد ثانية. وتبيّن أن ما قاله يوسف كان صحيحاً، لكن المدير سكت على ذلك أيضاً. في منتصف آذار، نُقل فريد لأسباب تأديبية إلى قرية تقع على الحدود الجنوبية مع إسرائيل، كان المعلمون يطلقون عليها في ما بينهم اسم «سيبيريا سورية».

غضب فريد. كانت التوبيخات مكتوبة، لذلك فقد كانت رسمية، لكن أحداً لم ينصت له، ولم يكن رئيس قسم التعليم الشاب في وزارة الثقافة يهتم إن عارضها الأساتذة أو التلاميذ أم لا. أُدين فريد بأنه كان يحرّض تلاميذ المدرسة ويشجّعهم على السخرية من حزب البعث ومن مدير المدرسة، ولم يكن للمعلمين تحت الاختبار أي حقوق.

قوبل طلبه بالسماح له، على الأقل، بالبقاء في المدرسة حتى نهاية السنة الدراسية بالرفض القاطع، وتعيّن عليه التوجه إلى المدرسة الإعدادية في قرية «شقبا» خلال أسبوع، وإلا فإنه سيطرد طرداً تعسفياً.

بكى تلاميذ الصف السابع عندما ودعهم، ودنا منه يوسف، الفتى الذي كان يعاني من مشكلة في القلب، ومدّ يده التي فيها بيضتان مسلوقتان وقال: «زاد للسفر من جدتي لكي لا تشعر بالجوع أثناء الرحلة». لم يعد بإمكان فريد أن يحبس دموعه.

كانت «شقبا» تبعد ٢٠٠ كيلومتر عن مدينة دمشق. كان نصف الطريق المؤدي إلى القرية يمرّ عبر دروب وعرة في الريف. وغدا الذهاب إلى القرية والعودة منها كل يوم أمراً مستحيلاً. وصار لزاماً على فريد أن يغيّر الحافلة مرّتين ثم يستقل سيارة أجرة مع أشخاص آخرين للعودة إلى دمشق. كانت الرحلة تستغرق أربع ساعات.

حزنت رنا كثيراً، وقالت له: «أريد أن تعرف أنني حتى لو انتظرتك طوال حياتي لأعيش معك حرّة ليوم واحد فقط، فلن آسف على ذلك».

بقلب مثقل تخلّى فريد عن شقّته التي كان قد استأجرها وحزم أمتعته.

twitter @baghdad_library

جاء يوسف ونادية لتوديعه عند موقف الحافلة. أصرّ متّى على مرافقته ونقل حقيبته وأوصله إلى موقف الحافلة، وبكى عندما ودعه ثم عاد مسرعاً بعربته السوزوكي.

«لن تمضي فترة طويلة حتى ينقلوك إلى دمشق لأسباب تأديبية أخرى»، قال يوسف وهو يراقب متّى مبتعداً وطقطقة عربته تملأ السماء، «فالجحيم هنا وليس في المنطقة الجنوبية حيث يعتبرون المعلمين أنصاف آلهة، أما هنا فإنهم يعتبرونهم مجرد فضلات. إنهم يعرفون أن المعلّم لا يتقاضى حتى ما يتقاضاه سائق أسرتهم، فكيف سيحترمونه؟ إن المعرفة لا تساوي شيء هنا. نوع وماركة السيارة التي تقودها هو قيمتك، وأنا لا أركب درّاجة عادية. في بعض الأحيان، يراني تلاميذي وأنا أترجّل من حافلة مزدحمة فيهزون رؤوسهم وهم قابعون في سياراتهم المرسيدس والكاديلاك والستروين. ولديك دائماً في الصف بعض أبناء كبار الضباط تعلّمهم هنا، لذلك فإنك ترى العجب العجاب إذا أغضبت واحداً من تلك القرود الجاهلة. فإذا عاقبته كأنك هاجمت وزير الخارجية، بل حتى قد تكون أهنت رئيس المخابرات دون أن تدري، والأولاد يظهرون لك دائماً أنهم يعرفون مذلتك تلك وينعمون بها بسادية».

«إنك تعرف صديقك يوسف»، قاطعته نادية، «فهو لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب كما نقول. أقول له دائماً إن عليه أن يعطي دروساً خصوصية لهؤلاء الفتيان بدلاً من أن يعلّمهم رسمياً في المدرسة، ويكسب بذلك ضعف ما يكسبه ويدللوه في بيوتهم، لكنّه لا ينصت إليّ».

ضحك يوسف وقال: «إن نادية لا تريدني أن أموت بنوبة قلبية، بل تفضّل أن أموت بجلطة دماغية. هؤلاء الأولاد والدروس الخصوصية! إنهم لا يريدون أن يتعلّموا شيئاً، فقد قدموا للتو من فينيسيا أونيويورك ولندن وباريس، بعد أن أمضوا عطلتهم هناك، لقد احترقوا ولم يعد لديهم أي إهتمام وهم في الرابعة عشرة من عمرهم. وتظنين أنهم يريدون أن يتعلّموا الجغرافيا؟»

«طوّل بالك»، قال فريد، «لا أعرف إن كانوا بحاجة إلى معلمين أو إلى جرّارات أكثر في المنطقة الجنوبية، لكني أفضّل البقاء هنا لأني أحب دمشق». صعد إلى الحافلة بعد أن شغّل السائق المحرّك.

نظر بكآبة من النافذة، حاسداً كلّ من يستطيع البقاء في مدينته المفضلة. لم يكن يعرف أن إحدى أكثر الفترات إثارة في حياته قد بدأت.

٢٢٧- البوادر الأولى

كانت دنيا أول من لاحظ أن رنا لم تكن على ما يرام. فبعد أربعة أسابيع من غياب فريد، زارت صديقتها دون أن تتصل بها أولاً، وأصابها الذعر عندما رأت رنا في هذه الحالة المزرية بعد أن أهملت نفسها ومظهرها كثيراً. قالت إن الألم يسري في أنحاء جسمها، لكن الأطباء لم يجدوا أي علة، وقالت إن زوجها دائم الغضب منها، ويقول إنها امرأة كسولة مدمنة على قراءة الكتب فجمع تلك الكتب ووضعها في غرفة وأقفل عليها كما أقفل الأستوديو الذي كانت تتخذه ملاذاً لها على السطح. حتى إنه لم يعد يسمح لها بقراءة الصحف والمجلات، وأمرها بأن تتعلّم الكروشيه والحياكة من ابنة عمه ماجدة، وصنع الكعك وإتقان كي الثياب من أخته.

وقالت رنا لدنيا بمرارة من نفسها بعد ان عرضت ما أنتجته، إن الجهود التي بذلتها لم تفلح. «يستطيع الفيل أن يحيك أفضل مني». كانت تضحك قليلاً وتبكي قليلاً.

ارتبكت دنيا، لكنّها كانت تعرف أن رنا لا تستطيع احتمال ربّة البيت البليدة تلك، ماجدة.

أخيراً شجّعت صديقتها على أن تنهض من السرير وأن تستحمّ وتضع مكياجاً وترتدي ثياباً أنيقة. بينما كانت رنا تهيء نفسها، رتّبت دنيا الشقّة ونظفتها. كان يبدو أن رنا قد فقدت أي متعة في الحياة واستسلمت تماماً.

ذهبتا إلى حديقة السبكي. «يجب أن تسافري في إجازة مع رامي»، قالت دنيا، «إنك بحاجة إلى استنشاق هواء نقي و«تغيير جو» كما تنصح أمي

twitter @baghdad_library

في مثل هذه الحالات. إن كلّ ما تحتاجين إليه هو أن تخرجي من جدرانك الأربعة».

«رامي لا يستطيع أن يأخذ إجازة. يجب أن يبقى هنا من أجل عمله. لقد أخبرني بصدق أن هناك عدة ضباط يحسدونه على مكانته ويحاولون الإيقاع به».

«لكنك صرت معرضة للإنهيار وهذا بالطبع أيضاً ليس من صالحه»، قالت لها دنيا بحدة، «هل تريدين أن أفاتحه بالموضوع؟»

كانت دنيا تعرف أن مناقشة رامي عن حالة زوجته النفسية أشبه بمحاولة تربيع الدائرة. إذ يعتبر الرجل المرض النفسي عاراً على الأسرة برمتها ولاسيما على الزوج. إذ سرعان ما يشكك الرجال الآخرين بفحولته، لذلك فإنهم ينكرون جميع المشاكل النفسية، ولا يعترفون إلا بالاضطرابات العقلية، ولهذا السبب أقيم مستشفى العصفورية للأمراض العقلية. رغم ذلك ولشعورها بالخطر المحدق بصديقتها المفضلة رنا كانت مستعدة لأن تكلم رامي في هذا الأمر. هزّت رنا رأسها رافضةً. كانت تشعر بالذنب ليس لأنها لم تستطع أن تحبّه فحسب، بل كانت تشعر بأنها صارت عبئاً عليه.

«هل أنت متأكّدة؟» ضغطت عليها دنيا.

«نعم، شكراً لك لمحبتك، لكن علي أن أحلّ هذه المسألة وحدي. أولاً يجب أن أزيح ابنة عمه عن ظهري. يجب أن أفعل ذلك وإلا قتلتها بإحدى سنارات الحياكة».

بدأت دنيا تتصل بصديقتها كل يوم. بعد فترة، خُيّل إليها أن حالة رنا قد تحسنت، فدعتها لزيارتها إلى بيتها مع عدد من صديقاتها.

عندما وصلت رنا، كانت خمس أو ستّ من جارات دنيا وصديقاتها يتحلقن حول جهاز آلي للاستماع إلى الإسطوانات أطلقوا عليها حينها «بيك آب» وهي أحرف إسمه الإنكليزي (pickup)، يحتسين القهوة ويثرثرن. لم تكن رنا تعرف أيّاً منهن. وضعت دنيا اسطوانة جديدة لفرقة البيتلز ودعت صديقاتها إلى الرقص. أخبرتهن أنها سافرت إلى لندن مع زوجها وتعلّمت

الرقصة الجديدة هناك. كانت النساء مبتهجات. بعد أن أزاحت مضيفتهن جميع المزهريات والمناضد الصغيرة، بدأت تريهن خطوات هذه الرقصة الحديثة. ابتسمت رنا بوهن، لكنها لم تشعر بالرغبة في مشاركتهن الرقص. حتّى عندما بدأت النساء يتمايلن، ودنيا تقودهن، بعد أن ربطن أوشحة حول أوراكهن، في رقصة شرقية، ظلت رنا جالسة لا تتحرك. «لا بد لي أن أقول إن الموسيقى والهم لا يجتمعان. فالموسيقى تريد أن تتغلغل في جسمك وتجعل أعصابك تهتز وقلبك يخفق ويقرع مثل طبل والهم يكبلها»، قالت دنيا التي راحت ترقص بشبق وإيروسية مدهشة، لكن رنا لم تقتنع.

بعد ذلك، شاركت جميع النسوة في إعداد طبق تبولة، الطبق الذي تشتهر به دمشق، لكن لم تكن لديها شهية لتناول أي شيء. جلست هناك تحاول أن تبدو مهذبة، لكن وقع بهجة النساء ومرحهن كان ثقيلا على نفسها. بعد فترة طلبت من صديقتها أن توصلها إلى البيت بالسيارة. كانت دنيا إحدى أوائل النساء اللاتي حصلن على رخصة قيادة سيارة في دمشق.

«لقد اشتقت لفريد كثيراً»، قالت رنا عندما توقّفتا خارج منزلها، «فلم أره منذ أن ذهب إلى المنطقة الجنوبية. بطريقة ما أصبح يزداد بعداً عني. إني أشعر بالضياع. وهناك زوجي الذي يطالب بحقوقه كما لو كنت جارية له».

حاولت دنيا أن تهدئ من روع صديقتها. ساعدتها في خلع ثيابها، وكانت تهمّ بالمغادرة عندما وصل رامي. فوجئ بزيارتها، لكنه كان مهذباً ورافقها إلى الباب ومدّ يده لمصافحتها.

«إن رنا بحاجة إلى طبيب، بسرعة. إنها مريضة»، قالت دنيا بهدوء.

سحب رامي يده من يدها بتوتر وكأنها لسعته وأجابها «إني أوفر لها كلّ ما تتمناه. إنها ضجرة فقط». زمّ شفتيه، وتلاشى من وجهه أي أثر للمودة التي كان يبديها منذ لحظات. خافت دنيا أن تقول كلمة أخرى يمكن أن يسيء رامي فهمها وينتقم من رنا لأنها حدثتها عنه. ابتلعت كلماتها. نظر إليها رامي غاضباً، وأغلق الباب وراءها دون أن ينبس بكلمة أخرى.

twitter @baghdad_library

٢٢٨- الراديكاليون

شعر فريد بالسعادة بوصوله بالسلامة إلى درعا بالحافلة. كان السائق المسكين منهكاً لأنه قام برحلة إضافية في الليلة الماضية بدل زميله الذي أصيب بمرض مفاجئ. لاحظ فريد الجالس إلى يمين السائق بأن السائق يكاد يغفو وراء المقود، فراح يشغله بالحديث وبرواية قصص مثيرة طوال الطريق الذي استغرق ساعتين.

وصل إلى مدينة درعا آخر محطة للحافلة في سهل حوران الجاف. من هنا بدأ الطريق يتلوى صعوداً نحو مرتفعات الجولان. أصبح المشهد الطبيعي أشدّ وعورة وخضرة، واكتست الطبيعةُ ألواناً عديدةً زاهية وانسابت أنهار صغيرة ملتوية بين هضابها هنا وهناك. ما إن انعطفت الحافلة عند أول منحنى في الطريق حتى اختفت البادية بلونها البني. لم تكن الأرض الواقعة في المثلث بين الأردن وإسرائيل وسوريا خصبة فقط، بل زاوية جغرافية هامة لتجارة التهريب المزدهرة فيها أيضاً أكثر من أي تجارة أخرى. لكن القرى المتهالكة الممتدة على طول الطريق المؤدي إلى درعا، لم تقدم دليلاً على الفقر المدقع فحسب، بل قدمت كذلك دليلاً على عدم شعور أهاليها بأيّ متعة بالحياة. فعلى الرغم من خصوبة المنطقة، كانت البيوت مهلهلة والطرق مهملة مليئة بالقاذورات. وكان الأطفال يركضون حفاة وراء الحافلة، ويرمونها بالحجارة. لم يكن أحد أولاد الفلاحين هؤلاء يرتدون ثياباً داخلية، أما أولاد اللاجئين الفلسطينيين فقد كسوا أجسادهم بما حاكته لهم أمهاتهم من أكياس القطن البيضاء التي كانت ترسل لهم فيها التبرعات من الطحين والرزّ. وكان المرء يرى الشعارات الملوّنة التي ترمز إلى الجهات المانحة المختومة على الأكياس والتي لا تمحى أبداً: اليد الأمريكية المشهورة، والكنغر الأسترالي وهو يقفز، وورقة شجرة القيقب الكندية.

كانت الحافلة الصغيرة قد جُمِّعت بعجالة، بكثير من العبقرية السورية، من قطع من ما لا يقل عن خمس عشرة ماركة من الحافلات المشهورة. وظلت هذه الأعجوبة التقنية المجمّعة، على نحو مدهش، في قطعة واحدة

تصرّ على أن تشقّ طريقها صعوداً في الطرق والدروب الجبلية الخطيرة، تئن وتترنح وترتج زافرة لتهوي في المنحدر التالي مثل صخرة سقطت من عل إلى الوادي. عندما وصلت الحافلة إلى قرية شقبا بعد ساعتين تماماً، راح المسافرون يصفقون للسائق بحماسة شديدة.

وصل فريد يوم الجمعة الذي تغلق فيه المدرسة أبوابها. كان عليه أن يبدأ التدريس يوم السبت. لم يعرف سكان القرية فندق أو نزل من ذي قبل، ولم تدخل الكهرباء إلا إلى عدد قليل من البيوت. كان الغرباء يمضون الليل عند مختار القرية، لذلك سأل فريد عن بيت المختار. طلب منه سائق الحافلة الصعود ثانية وأوصله إلى أمام باب بيت المختار المضياف الكريم، وعرض على المعلّم الجديد أن يقيم في منزله بشكل دائم دون مقابل، لكن فريد شكره واعتذر.

في ربيع عام ١٩٦٥، كانت القرية تبعد عشرين كيلومتراً عن الحدود مع إسرائيل. كانت المنطقة تخضع لسيطرة عسكرية ورقابة شديدة. فقد أوقفت الحافلة أثناء الطريق ثلاث مرات، ودقّق الجنود في أوراق الركاب بدقة شديدة، وسألوا كل راكب عن المكان الذي يقصده. كان الفلاحون يعرفون ماذا ينتظرهم، لذلك لم يسافر أحد منهم دون أن يحمل هويته الشخصية. كانت في قرية شقبا مدرسة ابتدائية وأخرى إعدادية كبيرة جديدة البنيان. وهي المدرسة الإعدادية الوحيدة في المنطقة بأسرها. وكان على الكثير من التلاميذ اجتياز الوديان وتسلّق الجبال للذهاب إلى المدرسة في الصباح الباكر، ليصلوا إلى المدرسة مرهقين.

لم يكن على فريد أن يشرح لأحد بأنه نُقل إلى هذه المدرسة لأسباب تأديبية لأن أي معلّم من معلمي المدرسة لم يأت إلى شقبا بملء إرادته. فقد كان جميع أعضاء الهيئة التدريسية الاثني عشر منفيين، وكانوا يقولون إنهم جميعهم منفيون إلى هذه المدرسة ظلماً وعدواناً.

قدم له حسني، مدير المدرسة، وهو رجل لطيف، كئيب المظهر، لمحة عامة عن الأوضاع هنا. وقال إنه يستحيل تعليم التلاميذ جيداً في

twitter @baghdad_library

شقبا. هزّ المعلمون الآخرون رؤوسهم وارتسمت على وجوههم ابتسامات ساخرة. فالتلاميذ لا يملكون نقوداً لشراء الكتب، والكتب التي ترسلها وزارة التربية إلى هذه المنطقة الفقيرة تختفي في مكان ما على الطريق. وتتوقف الدراسة عندما يشن المقاتلون الفلسطينيون عمليات عسكرية عبر الحدود السورية، وتليها عمليات انتقامية إسرائيلية ومناورات تنفذّها القوّات المسلّحة السورية، فتتحوّل المنطقة إلى ساحة حرب بين أسبوع وآخر. كما أن معظم التلاميذ كانوا يساعدون آباءهم في الليل في تهريب الأسلحة والحشيش والسجائر. وأضاف حسني أنه يطلب من زميلهم الجديد ألاّ يتوقع الكثير لئلا يصاب بإحباط، بل، على الأقل، أن يعلّم الشياطين المساكين الضروريات الأساسية للعلوم والحساب.

لم يتوقّف المدير عن التكلّم، لكن بخفة دم، وبما أنه ذكر الله ونبيه كثيراً أثناء كلامه فقد خمّن فريد بأنه من الإخوان المسلمين، وأنه نُفيَ إلى هذا المكان لهذا السبب.

كان المعلمون الآخرون ينصتون وقد بدا عليهم شعور بالارتياح، وهم يحتسون الشاي الحلو الغامق الذي كان قد أحضره لهم آذن المدرسة. ثم تابع حسني كلامه وقال: «حتى آينشتاين نفسه لو كان يعيش هنا فلن يمكنه أن يصبح إلا مهرّباً أو عضواً في منظمة فدائية فلسطينية».

قبل الساعة التاسعة بدقائق قليلة، توجّه المعلمون إلى صفوفهم حيث كان التلاميذ ينتظرون منذ ساعة. أثناء توجههم إلى فصولهم الدراسية، عرّفوا فريد على أنفسهم وعلى أسمائهم والمواضيع التي يدرسونها والأسباب التي أتت بهم إلى هذه المدرسة. كان على فريد أن يدرّس مواد الكيمياء والفيزياء والرياضيات لطلاب الصف السابع والثامن والتاسع، يدرّس اثنتين وثلاثين ساعة خلال ستّة أيام. وأدرك بسرعة مستوى التلاميذ الذين كانوا متأخرين كثيراً عن المنهاج، لكن رغبتهم في التعلم كانت قوية، لكن من الناحية العملية، لم يكن مستوى وعي أحد هؤلاء التلاميذ يقلّ عن مستوى أيّ تلميذ في دمشق في الثامنة عشرة من عمره.

«يكبر الأطفال هنا بسرعة. فهم لا يعيشون كلّ يوم فقط، بل يجب أن يبقوا أحياء أيضاً في هذا الصراع المرير على البقاء. إن ذلك يدعو للحزن لكنه يجعلهم ينضجون بسرعة. فإذا كان المرء يرى الموت أمام عينيه طوال الوقت فإنه يريد أن يتذوق طعم الحياة بأسرع ما بوسعه»، قال أديب، وهو رجل لطيف يدرّس اللغة العربية، نُقل إلى هذه المدرسة من مدينة درعا عندما دعا إلى الثورة على محافظ المنطقة الجنوبية الفاسد. في البداية سجن مدة سنة، ثمّ نفي من درعا لمدة خمس سنوات.

حاول فريد أن يعلّم تلاميذه المبادئ الأساسية للعلوم الطبيعية، لكنه دُهش عندما رأى أنهم يفهمون الدروس بسرعة مدهشة. وكان يخصص في نهاية كلّ درس عشر دقائق لكي يطرحوا أسئلة ويبحثوا معه عن أجوبة. حاول إشباع فضولهم بالمسائل المتعلقة بالظواهر الطبيعية، مما جعله يدرك عبر أسئلة هؤلاء الصغار مقدار ضآلة معرفته.

سألوه كيف يتشكّل قوس قزح، ولماذا تبدو المياه في البحر زرقاء اللون مع أن لا لون لها. كانوا يريدون معرفة لماذا يفضل الأسكيمو العيش في هذا البرد القارس ولا ينتقلون إلى منطقة يكون مناخها أكثر دفئاً، أو لماذا يكاد البدو يموتون من العطش في الصحراء، ومع ذلك فإنهم يظلون يعيشون فيها. وسألوا من أين تهب الريح، ولماذا لا نقع جميعنا عندما تدور الأرض، وأرادوا معرفة كيف ترسم حدود البلدان ولماذا، ومن علّم النحل في أرجاء الدنيا كيف تبني خلايا العسل السداسية. وبعد فترة أبدى تلاميذ فريد استعدادهم للتخلّي عن فترة استراحتهم لمواصلة النقاش في الصف، وأحسّ بأنه يعلّم حقاً لأول مرة في حياته.

لكنه شعر أيضاً أن أسئلتهم كانت توصله إلى حدوده القصوى، وأدرك كلّ ما فشلت جامعة دمشق في تعليمه إياه. فقد درس معادلات آينشتاين وبلانك و رذرفورد و شرودينغر، ونجح في الامتحانات وكتب مواضيع عنها، لكن ما فائدة كل ذلك لتلاميذ الصف السابع هؤلاء القابعين في هذه المدرسة المهجورة، المدرسة التي لا يوجد فيها طباشير جيدة، المدرسة

twitter @baghdad_library

التي يضطر فيها التلاميذ إلى تدبّر أمورهم في الدراسة دون كتب مدرسية ودفاتر، لكنهم كانوا، على الرغم من ذلك، يريدون معرفة لماذا تلتهب الشمس باستمرار ومع ذلك لا ينكمش حجمها قط؟

كان يعود متعباً إلى غرفته ذات الأثاث البسيط التي ينيرها مصباح زيتي يبعث سخاماً مليئاً برائحة الكيروسين. لكنّه كان سعيداً لأن صاحبة البيت الذي يقيم فيه كانت ودودة، تلك الأرملة المسنّة التي كانت غالباً تذهب إلى درعا لزيارة ابنها وبناتها المتزوجين، فيصبح البيت كله بباحته الداخلية الصغيرة له. كان يحبّ أن يجلس في الركن الظليل تحت كرمة العنب، يحدق في شجرة التفاح القديمة وأصص الأزهار الفخارية العتيقة.

بدأت كلير ورنا تشتكيان من عدم مجيئه إلا نادراً إلى دمشق. لكن يوم العطلة الوحيد، يوم الجمعة، وقضاء عشر ساعات في السفر المنهك إلى دمشق والعودة منها كانت ترهقه كثيراً وتجعل من الصعب عليه أن يمضي أيام الأسبوع بعدها في تدريس ثلاثة صفوف، وفي كلّ صفّ كان أربعون تلميذاً ينتظرون أن يكون مليئا بالطاقة والصبر ليشبع عطشهم للمعرفة. لذلك كان يؤثر البقاء في شقبا، ليستكشف المناطق المحيطة بها بالقدر الذي كان يسمح له فيه الجيش. كان معظم زملائه يفعلون ذلك أيضاً. أما المدير والمعلّمان الآخران الذين كانوا من درعا نفسها، فقد كانوا يعودون إلى عائلاتهم في نهاية الأسبوع.

وبما أن شقبا كانت قرية صغيرة تبعث على الضجر، لا يوجد فيها مقهى ولا مطعم ولا دار سينما، فقد كان المعلمون يلتقون مساء كلّ يوم تقريباً في غرفة أحدهم. كانت كراهيتهم للحكومة هي الصلة التي تربطهم معاً على الرغم من تباين وجهات نظرهم. وكانوا يلعبون الورق أو طاولة النرد، وعندما كانوا يلعبون لفترات طويلة، كانوا يحتسون الشاي ويتبادلون النكات، أو كان أحدهم يفضي بأحزانه إلى الآخرين.

وسرعان ما تقرّب فريد من ثلاثة معلمين شباب هم: أديب مدرّس اللغة العربية، وسلمان مدرّس التاريخ والجغرافيا، وفادي معلّم الرياضة والفنون.

أما خارج المدرسة، فكان يشاركهم في النقاش حول الأمور السياسة والمبادىء الأخلاقية والعنف. وفي أحد الأيام، سأله أديب بحذر إن كان يريد أن يقرأ الصحيفة التي تصدرها حركة الراديكاليين. لم يصدّق فريد عينيه. كانت صحيفة «الآن» الاستمرار المنطقي والحقيقي الراديكالي لأفكاره كما عبّر عنها في مجلة «الشبيبة». صدرت الصحيفة بطباعة سيئة، لكن المقالات المنشورة فيها كانت مليئة بانتقادات صريحة وذكية للأوضاع السائدة في الشرق الأوسط. وفي كل عدد، كانت مقالات عديدة تشير إلى حركة القرامطة التي اعتبرها كتاب الصحيفة قدوة لحركتهم. وقد أسس راديكاليو «القرامطة» في القرن العاشر جمهورية على النمط المشاعي في بلاد العرب.

بعد أن قرأها بعناية، وجد فريد أن أفكار الراديكاليين تقع في الوسط بين الفوضوية الروسية والكفاح الكوبي المسلّح. وكانوا يهدفون إلى جعل سوريا بلداً مسالماً لا يعرف شعبه الاستغلال ولا حاجة له لجيش، ولا امتيازات لأحد، وإلى منح الرجال والنساء المساواة التامة في جميع الحقوق والواجبات، ولاسيما الحقّ في الطلاق، وإلى فصل الدين عن الدولة، وإعلان أن الدين شأن فردي خاص، وأن تتولى الدولة مسؤولية إبرام عقود الزواج من دون ارتباطات دينية. وأن يعيش الناس ويحبّوا بحرية مطلقة من دون خوف وحروب، وأن يكونوا قادرين على التعبير علناً عما يفكرون به، وأن يقرّروا كلّ شيء بأنفسهم من خلال الديمقراطية المباشرة، بدلاً من أن تحكمهم أحزاب أو عشائر. كان فريد يحلم بهذه الأفكار منذ أمد بعيد. وها هو الآن يرى فجأة الشباب يحملون فكراً رائعا في رؤوسهم وأسلحة بأيديهم ساعين لوضع أفكارهم وحلمه موضع التطبيق.

٢٢٩- لقاء

«إن كنت تحبّ رنا حقاً، فإمّا أن تهرب معها وإما أن تنفصل عنها»، قالت له دنيا بنبرة حادة. فقد اكتشفت بالصدفة أنه موجود في دمشق، فاتصلت به وها هما جالسان الآن في مقهى بالقرب من البرلمان. أصبحت

twitter @baghdad_library

دنيا تميل إلى البدانة، ولم يذكّره بجمالها السابق إلا وجهها. «إن حبّها لك أمرضها، بل بلغ بها الأمر أن تفكّر بأن العيش مع زوجها هو خيانة لك، وذلك جعلها تعاني الأمرين. وفي كلّ مرّة تراك، تشعر بالتفاؤل، لكنك سرعان ما تعاود الاختفاء وتأخذ تفاؤلها معك. وأنا لست بحاجة إلى عينين ثاقبتين لأعرف متى كنتَ معها. هل تظن أن التصرّف معها بهذه الطريقة أمر لائق؟»

«لائق؟ ما الذي تحاولين قوله؟ يجب أن نصبر حتى نجد وسيلة للعيش معاً. إن رنا لا تريد أن تتخلى عني، وأنا نفسي لم ولن أتزوج من أجلها».

«صحيح، لكنّك تخرج إلى الدنيا، لديك عمل، وتنشط سياسياً، أما هي فسجينة هنا داخل جدرانها الأربعة. إن هذا ظلم. وهذا ليس كلّ شيء. في حقيقة الأمر فإنها لا تستطيع تقبّل وتساير هذا الوضع. أن تقول أعيش مع زوجي بكامل الهناء من ناحية، وأحتفظ بحبيبي في قلبي من الناحية الأخرى. إنها تعيش فوق منصة للوثب، كلما اهتزت المنصة تحت قدميها يعتريها الدوار. حاولتُ معها كثيراً لكني أخفقتُ في أن أجعلها تأخذ الأمور بسهولة وتتقبل الحياة كما هي. إنها تنتظر جالسة فوق حقائبها المحزومة، لكنك لا تجلب لها تذاكر الطائرة لتحررها».

«والآن تلومينني بدلاً من أن تلومي زوجها الذي لا يسمح لها بأن تدرس أو ترسم! كما لو أنّ الحبّ وليست حماقة الرجال الذين يضربون زوجاتهم ويسجنونهن كأنهن عبدات لهم هو الخطيئة»، قال فريد ساخطاً.

«لا، إني لا ألوم أحداً، بل أحاول جاهدة أن أجد منفذاً حتى تخرج صديقتي الغالية من هذه المحنة، لأنني أرى أنها تزداد يوما عن يوم يأساً وبؤساً، وأظن أنك الشخص الوحيد الذي يمكنه إنقاذها، لكن عليك أن تتصرف بسرعة. نعم، ربما أنني ألومك على شيء، على تقاعسك البارد القاسي. ماذا تنتظر؟ لو كنت مكانكما لهربت منذ مدة بعيدة».

«لكنكِ لست في مكاننا. فقد هربنا ذات مرة وفشلنا، لذلك فإني أحاول

أن أغيّر الظروف الحقيرة التي تدمرنا وتدمر كل حب»، قال فريد. لكنه أيقن انه لم يكن مقنعاً كثيراً.

«لا أظنك جاداً في قولك؟ هل ابتلعت كتاب ماو الصغير الأحمر أم ماذا؟ إننا في قلب بلاد العرب هنا، ولسنا في الصين أو في كوبا. لا شيء يتغيّر هنا أبداً. وأنا احلف لك بكل غالي أن سوريا ستظل كما هي في الخمسين سنة القادمة. إن كنت تريد حقاً أن تحتفظ بحبّك الرائع هذا لرنا، فمن الأفضل أن تستعجل قبل فوات الأوان».

«وما الشيء الذي يجعل الصينيين أفضل منا؟ ما الذي يوجد عندهم ولا يوجد عندنا؟ ساق ثالثة؟» كان صوت فريد حادّاً، لكنّه كان يتكلّم بهدوء لأن المقهى كان يعجّ بالناس.

«ربما، ربما»، قالت دنيا بحزن، لأنها بدأت ترى أنها لن تتوصل معه إلى نتيجة. سكتت للحظة، ثم تابعت كلامها، مخفضة صوتها، «الديّ حوالي عشرة آلاف دولار في حسابي الخاص. إن كنتما تريدان الهرب فإن هذا المبلغ سيكون هديتي لكما بمناسبة زفافكما».

«هذا جميل منك، ومن المؤكد فإننا سنطلب منك مساعدتنا عندما تحين اللحظة. لكن أخبريني كيف حالك؟» سألها ليغيّر الموضوع، وقد أحسّ بالذنب لأنه كان يكلم صديقة رنا المخلصة بشيء من الغضب.

«أوه، أنا بخير. لقد تكيّفت مع الحياة، وزوجي يبذل الكثير لإسعادي، وقد نجح في ذلك كما ترى».

غادر فريد المقهى بعد أن أدرك أنّ صديقة رنا تتمتع بحسّ إنساني عال وهي ودودة أكثر مما كان يتوقع. راحت دنيا تراقبه وهو يبتعد حتى ابتلعه الحشد. تعجّبت كيف يمكن لصديقتها الذكية رنا أن تحبّ شاباً لامبالياً كهذا.

٢٣٠- شدو الجدجد

كان فريد لا يزال في مبنى المدرسة في ذلك المساء. كان ينوي تصحيح أوراق امتحان مادة الكيمياء للصف الثامن، ثم يذهب ليلعب الورق

twitter @baghdad_library

مع أديب. فقد كانت في المدرسة طاولة متينة يستطيع العمل عليها ونور كهربائي، وهما أمران لم يتوفرا في البيت الذي يسكنه. ظهر حسني عند المدخل وقال له إنه سيعدّ قليلاً من الشاي بعد نصف ساعة.

عندما عاد، جلس يشرب الشاي بصمت ريثما ينتهي فريد من عمله، وراح يحدّق في كوب شايه، بعد فترة أخذ يحدّث نفسه أكثر مما يحدّث فريد وقال: «لقد أرسلونا إلى هذا المكان ليتخلّصوا منّا. فإمّا أن تقدم استقالتك بعد سنة من هذا الجحيم، أو يطلق الإسرائيليون عليك رصاصة الرحمة».

بالتأكيد لم يكن حسني رجلاً يروق لفريد، فقد كان شخصاً محافظاً متشدداً، لكنّه كان يعامل التلاميذ بلطف ويرثي لحالهم. ففي كلّ أسبوع، كانت الدروس تتوقف لساعات وأحياناً لأيام عديدة بسبب الاشتباكات بين الإسرائيليين والفلسطينيين. كان الطريق المؤدي إلى المدرسة محفوفاً بالخطر بل قد يكون مهلكاً. فقد كانت تدور حرب خفية على شريط من الأرض لا يزيد عرضه على عشرين كيلومتراً على جانبي الحدود، كما لو كان ذلك يجري باتفاق متبادل تسكت عنه دمشق وتل أبيب. قبل وصول فريد، كان التلاميذ وأساتذتهم قد حفروا خندقاً على أطراف المدرسة للاختباء فيه أثناء المعارك، وتعلّموا كيف يجرون للاحتماء فيه بسرعة ثم يقبعون فيه وقد التصق أحدهم بالآخر. جعل هذا المشهد الدموع تطفر من عيني فريد. كانوا يسدّون آذانهم لكي لا يصيبهم دوي القنابل بالصمم. وكلما كان فريد والمعلّمان الآخران يلجأون إلى الخندق، كان الآخرون يجلسون مع مدير المدرسة يحتسون الشاي وكأن ما يجري فيلم لا يعنيهم ولا يخشون نتائجه.

في أحد الأيام حلّقت طائرة مروحية إسرائيلية فوق الخندق، ولوّح جندي ساخراً عندما رفع فريد نظره إلى الأعلى. كانت المروحية على ارتفاع لا يزيد على خمسة أمتار، فشعر فريد كأن زوبعة تمتصّه إلى الأعلى. تملك فريد الغضب لأن الأطفال أخذوا يصرخون وقد تملّكهم رعب شديد. هزّ قبضته باتجاه الطيّار وصاح «بحق الله، إذهب إلى الجحيم» لكن صوته

تلاشى في خضم هذا الضجيج الجهنمي. وجّه الإسرائيلي إصبعه الوسطى نحوه بطريقة يفهمها كل عربي، واستدار أخيراً بطائرته وابتعد.

في القرية روى الفلاحون حكايات خيالية عن قنابل خاصة تلد قنابل أخرى، وعن مرهم يجعلك غير مرئي. قالوا إن الجنود الإسرائيليين يطلون به أجسادهم لتعقّب المقاتلين الفلسطينيين في القرى وقتلهم ليلاً.

تمركزت عدّة معسكرات للمقاتلين الفلسطينيين حول القرية، وكان المزارعون يكرهونهم لأنهم يطأون حقولهم المزروعة ويتدربون بين أشجارهم المثمرة. ولزيادة الأمور سوءاً، كان الإسرائيليون يتحرّكون إلى المنطقة المحيطة بشقبا بعد كلّ عملية ينفذها الفلسطينيون، يلاحقون أعداءهم حتى الوادي القابع وراء القرية، ولم يكن الجيش السوري يطلق طلقة واحدة على الإسرائيليين. ولضرب الفدائيين الفلسطينيين، كان الإسرائيليون يلقون قنابل حارقة على الحقول التي يختبئون فيها فتحترق المحاصيل. كانت تُزرع في هذه الحقول محاصيل البندورة لتزويد مصانع الكونسروة في دمشق بالإضافة إلى القمح والتبغ والفواكه العالية الجودة.

لم يعوّض أحد المزارعين عن محاصيلهم التي يخسرونها، فتحوّل الكثير منهم إلى مهرّبين تاركين بساتينهم وحقولهم للفلسطينيين والإسرائيليين.

صبّ المدير الشاي. كانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء.

«ألن تذهب إلى البيت اليوم؟» سأله فريد.

«عندي مرتبة ليّنة هنا. هذا كلّ ما أحتاج إليه في الصيف. يجب أن أكتب تقاريري وأرسلها إلى الوزارة. وبما أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك في البيت فإني أعمل هنا في الليل»، قال وهو يرشف الشاي الحلو الثقيل.

«أي تقارير؟» سأله فريد، مندهشاً.

«إنه عمل سخيف. مع أنني نُقلت إلى هذه المدرسة لأسباب تأديبية، فإن عليّ أن أكتب تقريراً عن كلّ واحد منكم. ويجب أن لا أكون إيجابياً جداً، وإلا فلن يثقوا بي، وسيظنون إني أقدم تقارير إيجابية عن كل شخص

twitter @baghdad_library

مقرّب من الإخوان المسلمين. إنهم يعتقدون أنني واحد منهم فقط لأنني رجل مؤمن. إني أكره كتابة هذه التقارير، لذلك فإني أظل أؤجلها لكنّي تلقيت للتو رسالة تذكير ثانية. هذا إنذار أخير، والرسالة الثالثة تعني أن راتبي سيتوقف».

الآن عرف فريد لماذا دعاه المدير لاحتساء الشاي معه، وسأله، «تريد أن تعرف ماذا ستكتب عنّي».

لم ينظر المدير إليه وقال: «لقد كتب الآخرون كلّ شيء لي، وبما أني لا أكاد أعرفك فلم أشأ أن أكون غير منصف معك».

ضحك فريد. كان ثمة شيء مأساوي - كوميدي في هذا الأمر. فالحكومة اللا مبالية نفسها هي التي تترك أطفال القرية من دون كتب مدرسية وتوجّه إلى المدير بإصرار مذهل ثلاث رسائل لتذكيره بموعد تقديم التقارير التجسسية كأن مستقبل الثقافة السورية يتوقف عليها.

«أوه، هيا امض واكتب عني أشياء سلبية»، قال: «أكتب لهم إني لا أحبّ هذا المكان ولا أكفّ عن الشكوى والتذمر من الظلم الذي يتعرض له جميع المزارعين هنا. قل لهم إني أتذمر من الطرق السيئة، وإنني. . . .»

«هذا لا يهم أحداً يا زميلي العزيز»، قاطعه حسني، «ففي دمشق يريدون أن يعرفوا ماذا تفعل هنا، عمَّ تتحدّث، وكيف أقيّم انتماءاتك السياسية».

إذاً كان ذلك استجواباً، وللحظة فكّر فريد أن المدير مخبر أصيل. فقد دأبت المخابرات على ابتزاز أعضاء في المعارضة وتحويلهم إلى مخبرين طيّعين، لكن على الأقل فإن هذا الرجل يتحدّث عن هذا الأمر بصراحة.

«حسناً، اكتب أنني شيوعي مرتد. أقصد شخصاً يريد نظاماً اشتراكياً، لكن ليس من نوع الاشتراكية الروسية أو الصينية».

«أي نوع من الاشتراكية إذاً؟ الاشتراكية العربية؟»

«اشتراكية فريد مشتاق»، قال، مرغماً نفسه على الضحك، «لكن، أنت تعرف أنني لا أحاول أن أنقل آرائي إلى التلاميذ، لأنني أعتبر ذلك خطأً

تربوياً. تستطيع أن تقول إنك الشخص الوحيد الذي يعرف آرائي السياسية من أحاديث خاصة فقط».

ظلا يتحدثان طوال نصف ساعة. انتاب فريد شعور بالغثيان عندما غادر المدير الذي دوّن كلّ شيء على ورقة بطريقة الاختزال. عندما حدّث معلمين آخرين عما حدث، طمأنوه وقالوا له إن حسني رجل طيب وهو نفسه ضحيّة المخبرين.

بعد حوالي سنتين اكتشف فريد مرغماً أن زملاءه كانوا مخطئين. فقد غلبت كراهية حسني للشيوعيين على مصائبه الشخصية. فقد اتّهمه في تقاريره بالفتنة والتلاعب بعقول الأطفال بذكاء، وتشجيعهم على أن يصبحوا ماديين فلم يعودوا يرون أي شيء إلهي في الظواهر الطبيعية. وادّعى حسني بأن فريد شيوعي على الطريقة الكوبية.

في صباح اليوم التالي استيقظ فريد مجفلاً. فقد تبعت صليات من الرصاص صوت انفجار القنابل، ومرة تلو المرة كان صوت مقاتلة نفّاثة يشقّ عنان السماء. كانت الأرملة صاحبة البيت جالسة في باحة المنزل. شحب وجهها وزمّت شفتيها. سألته، «إنهم يتقاتلون منذ ساعة. هل تظنّ أنهم سيأتون إلى قريتنا؟»

«لا أعرف»، أجاب، ثم ارتدى ثيابه وخرج بسرعة. كانت أصوات الصرخات والقنابل المتساقطة تأتي من الشطر الجنوبي للقرية. توجّه باتجاه المنطقة التي كان الدخان الأسود يتصاعد منها. مرقت سيارة إسعاف بسرعة من جانبه.

كان يوماً حاراً من أيام حزيران. جاء العمّال الموسميّون، خاصة من البدو أو الفلاحين الفقراء من القرى المجاورة راكضين بالاتجاه المعاكس. «أهرب، أهرب، إنها جهنم هناك، جهنم»، صاح أحد الحصادين، «إنهم يلقون القنابل الحارقة ويحاصرون المعسكر القريب من النبع، لكن الفلسطينيين يقاتلون بكل ضراوة»، وواصل ركضه.

توجّه فريد نحو المكان الذي سمع منه الصراخ. أصيبت إحدى

twitter @baghdad_library

المزراع. رأى مزارعاً في الخمسينات من عمره جالساً على الأرض يبكي بحرقة. كانت ألسنة النيران تلتهم البيت. انضمّ فريد إلى الأشخاص الآخرين الذين كانوا يتناقلون الدلاء المليئة بالماء. استغرق إطفاء الحريق ساعتين.

«ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ من أين أبدأ؟» سأل المزارع، ونظر هو وزوجته وأربعة أبناء برعب إلى بقايا الدخان المتصاعد من بيتهم. حاول الجيران مواساته بالقول إن الأسرة والحظيرة التي يوجد فيها المحصول بخير. كان البيت مشيداً من الآجر.

رويداً رويداً، هدأ القصف في طرف القرية الجنوبي. لم يعرف أحد بعد مدى الخسائر الإسرائيلية والفلسطينية، ومرة أخرى، سرت إشاعات مروعة في كل مكان.

عندما أُطفئت النيران، شعر فريد بأنه غريب بين هؤلاء الناس الذين كان أحدهم يعرف الآخر فخرج إلى الحقول. خيّم صمت ثقيل وبدا العالم خاوياً. فجأة بدأ يسمع شدو الجدجد. في البداية، راح يئز وحيداً، ثمّ جاء رد من مكان مظلّل تحت شجرة الرمان، وبعد قليل أصبح الأزيز مشتركاً في حفلة موسيقية لأوركسترا منظمة، كما لو أنّ الجدجد الأول قد أعطى إشارة بزوال الخطر وأن الحياة عادت إلى طبيعتها.

متأثراً بشدو الجدجد، توجّه فريد إلى البيت. ليس بعيداً عن المنزل المحترق، دنا منه عدّة فلاحين، وبلغة عربية منمّقة، دعوه لتشريفهم باحتساء الشاي معهم. قبل الدعوة، خاصة لأنه لم يكن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك في ذلك اليوم. أخذه الفلاحون إلى مزرعة كبيرة كان فيها عشرة فلاحين، صغاراً وكباراً، يتحلقون حول نار صغيرة. نهضوا جميعاً ورحّبوا به بحرارة. «إنك لست من أهل المدينة»، قال له مزارع طاعن في السن، أدرد، وربّت على كتفه.

«لا بل أنا من المدينة، دمشقي أصيل»، أجاب وعلى وجهه ابتسامة خرقاء.

«لا، أنت لست منهم» اكد المزارع الذي أكل الزمن اسنانه،

«الدمشقيون أبناء زنى (بناديق). إن دماً مختلفاً يجري في عروقك. إنك من المناطق الجبلية، لقد سمعنا الكفاية عنك وعن محبتك لأطفالنا، وها إنك الوحيد بيننا. الآخرون هربوا اسرع من الريح، اولاد القحبة»، قال المزارع. فضّل فريد أن يظل مخلصاً لمدينته دمشق، ولم يكن يرغب في الادّعاء بأن مسقط رأسه هي القرية الجبلية معلا.

«والدي من قرية معلا ولكني أنا حقاً من دمشق، ولسنا كلنا أبناء زنى، ولم يكن بوسعي الهرب من هنا لأنني لست رياضياً جيداً ولا أحب الركض»، قال مازحاً.

طلب مزارع شاب من الرجل الأدرد أن ينتبه لكلماته المهينة بحق أستاذ ممتاز. فقد كان ابنه أحد تلاميذ فريد وكان يتحدث عنه في البيت بودّ شديد. عندما ذكر المزارع اسم الفتى، دُهش فريد. فقد كان هذا التلميذ من أكثر التلاميذ المشاغبين، وكان فريد يعنّفه بقوة في أحيان كثيرة.

حكى له الرجال بعض النكات عن المعلّم الذي سبقه والذي جاء من دمشق، لكنه اختفى بعد ثلاثة أسابيع. وشعر فريد بالسعادة وضحك كثيراً عندما حدّثه المزارع الشاب عن فرقة مسرحيّة جاءت من دمشق لتجوب خطّ الجبهة الأمامي لرفع معنويات السكان فيها، أطلقت على نفسها اسم «فرقة الصمود». لكن قبل أن يفتح أيّ من أولئك الممثلين فمه وينبس بكلمة واحدة على المسرح، لاذوا بالفرار فقدموا بذلك للجمهور مشهداً كوميدياً رائعاً، وتركوا نصف المعدات التي جلبوها معهم وراءهم. ففي ذلك المساء نشبت معركة بين الإسرائيليين والفلسطينيين في جنوب شقبا.

عندما انطلق فريد في طريق العودة كان قد حلّ الظهر. كان جائعاً. رأى في القرية مئات العمّال الموسميّين مصطفّين على طول الطرق، يعانون من شدة الحرارة، يستندون إلى جدران البيوت يحاولون اللجوء إلى أي ظلّ لم تطرده الشمس بعد ليحميهم من أشعتها الحارقة.

كان البيت الذي يقيم فيه يوفّر ظلاًّ لثلاثة أشخاص في الشارع، رجلان وامرأة. حيّاهم فريد وسألهم إن كانوا يريدون أن يشربوا ماء. أجاب ثلاثتهم

twitter @baghdad_library

بامتنان بنعم. كان باب البيت مقفلاً لأن الأرملة لم تكن في البيت، خمن فريد انها هربت مع من هرب إلى درعا أو إلى دمشق، لكن من حسن الحظ أن مفتاح البيت كان معه. فتح الباب ثم دخل وملأ إبريقاً كبيراً بالماء البارد. عندما همّ بالخروج ثانية، وجد المرأة تنتظر عند المدخل لتوفّر عليه عناء الخروج. توقّف فريد فجأة عندما رآها. لم ير جمالاً كهذا في حياته.

«شكراً جزيلاً»، قالت وهي تبتسم. مذهولاً، ناولها الإبريق. راحت تدلق الماء من فتحة الإبريق على فمها في شكل قوس. كانت تقف أمامه مباشرة تضع يدها اليسرى على وركها، وراحت تشرب وتشرب.

«هيه، يا ابنة الشيطان، اتركي لنا نقطة ماء»، قال أحد الرجلين مازحاً. ضحكت المرأة، وانسكبت قطرات من الماء على قميصها. كانت هذه القطرات ترطيباً لذيذاً لها. أعطت الإبريق للرجلين ونظرت بشبق إلى فريد الذي كان لا يزال مسمّراً عند المدخل.

«لعل سلوكنا لم يعجب السيد الأستاذ»، قالت بشيء من الغنج. كانت في حوالي العشرين من عمرها، لكن بابتسامتها الماكرة، بدت لعوبة ومبتهجة مثل فتاة في العاشرة من العمر.

ابتسم فريد أيضاً. لأن الفلاحين يطلقون هنا على أيّ شخص أحمق يرتدي ثياباً أوروبية «السيد الأستاذ».

بعد قليل فرغ الإبريق. ملأه لهم ثانية، وكان يهمّ بالخروج حاملاً الماء، عندما التفت من الحنفية ليرى الشابّة واقفة في وسط الباحة، مسندة يديها على وركيها، تبتسم له ابتسامة تشعّ وهجاً. كانت تلبس ثياباً رثّة، قميص رجل أصفر وشال أحمر فوق تنورة مرقّعة، وتنتعل صندلاً رجالياً. كان بإمكانها أن ترتدي أيّ شيء ومع ذلك ستبقى جميلة.

«قلت لنفسي أن أوفّر العناء على السيد الأستاذ»، قالت.

«ما اسمك؟» سألها بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

«شريفة بنت عبد الرحمن بن صالح بن غواش بن صقر من عشيرة الغزالة»، أجابت.

«وهل يمكن لأحد أن يطلق عليك اسم شريفة اختصاراً؟»

بدا أنها مستمتعة بذلك، وقالت: «ما اسم السيد الأستاذ؟»

«فريد بدون ابن أو بنت».

«فريد حاف مثل الخبز الجاف».

«إذا كنتِ جائعة فعندي خبز وزيتون وجبن وعلبة سمك تونا وحبات بندورة»، قال، راجياً أن تبقى.

«سأعود بعد أن أتخلص من هذين الغرابين النهمين»، قالت مبتهجة مثل طفلة تعد طفلة أخرى بأنها ستأتي وتلعب معها.

بعد ساعتين عادت.

٢٣١- شريفة

التهمت الطعام مثل لبوة، وضحكت مثل فتاة صغيرة. كانت جميلة مثل تمثال إغريقي. لم يتمكن فريد من أن يبعد عينيه عنها، ولم تكن لديه شهية لتناول الطعام لكنه شاركها الأكل ببطء لكي لا تخجل. جلسا في باحة البيت تحت العريشة حيث كانت صاحبة البيت قد وضعت منضدة خشبية قديمة. جلست شريفة على مقعد خشبي، وجلس فريد قبالتها على كرسي مجدول من الأغصان. بينما كانا يأكلان، استمع إلى قصّتها.

كانت قبيلتها البدوية من أفقر القبائل في المنطقة وكانت تتنقل في البادية بين الأردن وسوريا. وكانت محظوظة لأنها تزوجت الرجل الذي تحبّه، لكنّه سرعان ما ذهب إلى دمشق بحثاً عن عمل، وبعد فترة، بدأ يرسل لها رسائل من الكويت حيث كان يزمع أن يعمل لمدة سنتين ثم يعود في أقرب وقت ممكن، وها قد مضى على غيابه الآن ستّ سنوات وصار بالكاد يكتب رسالة كل نصف سنة وتوقف منذ سنتين عن إرسال نقود. تركها تقيم في بيت والديها، لأن العقد الذي أبرمه هناك لا يسمح له باصطحاب زوجته. لكن لم يكن هناك شيء في البيت تتقاسمه مع والديها سوى الجوع، فاضطرت إلى العمل في قطاف البندورة، وكانت تتقاضى عشرة قروش لقاء كلّ صندوق

twitter @baghdad_library

تجمعه وزنه عشرة كيلوغرامات. وقالت له إنك حتى تكسب ليرة كاملة تكون قد قصمت ظهرك وفقدت يديك، فالشمس اللاهبة تحرق من دون شفقة، والمشرفون لا يتوقفون عن الصراخ في القاطفين لكي لا تنتظر الشاحنات فترة طويلة.

كانت تنام في العراء، وكان الرجال يتحرشون بها كلّ ليلة، لكن القاطفات العشرين شكّلن تحالفاً وبدأن ينمن ملتصقات بعضهن البعض لحماية أنفسهن. لكن العمل لم يكن متوفراً باستمرار. وهكذا كانت تمضي أحيانا أسبوعاً كاملاً من دون أن تكسب خمس ليرات لا تكفي للعيش لمدة يومين. لذلك قررت السفر إلى دمشق غداً يحدوها الأمل في أن تتمكن من إيجاد عمل دون أن يتحرش بها أحد وتكسب منه باستمرار قليلاً من النقود. كانت قد جمعت كلّ أغراضها الدنيوية في صرة صغيرة هزيلة وضعتها وراء شجرة الدفلى في الباحة، وهي تشعر بالخجل منها.

«هل يمكنني أن أمضي الليلة في مكان ما هنا؟» سألت فريد، عندما حلّ الظّلام.

«طبعاً. سأجلب لك حشية وغطاء، ويمكنك أن تنامي هنا، لكن لهذه اللّيلة فقط، لأن صاحبة البيت قد تعود غداً».

فرش لها فريد حشية في الهواء الطلق، أعطاها منشفة كبيرة وأراها أين يمكنها أن تغتسل، ثمّ أوى إلى الفراش. رآها تغتسل وتغنّي بصوت رقيق ثم انسلّت تحت غطائها. أحسّ برغبة جامحة في أن يضمها بين ذراعيه ويقطع شفتيها تقبيلاً، لكنه سرعان ما أحسّ بالخجل من نفسه. بعد لحظات غطّ في النوم.

كانت العتمة حالكة عندما أحسّ بيدها تجوس فوق خدّه. لم يعرف كم مضى عليه نائماً.

«هل تريدني؟»

كانت عارية. لم تنتظر منه رداً وانسلّت في السرير بجانبه. أشعل

مصباح الكاز. ابتسمت باستحياء وأخفت وجهها تحت الغطاء معرّية ظهرها الجميل بالكامل. عاد فريد واستلقى على وساداته، شاعراً بالتعاسة.

«إنك تعشق امرأة. لقد لاحظت ذلك على الفور. لأن الرجال الآخرين يحاولون أن يضموني إليهم حتى قبل أن ينطقوا ثلاث كلمات مجتمعة، أما أنت فإن شخصاً آخر يسلب عقلك»، قالت وهي تضحك. قبّلت أنفه وقرّبت رأسها من صدره. بعد قليل نامت. كانت تستلقي أمامه مثل طفلة جميلة، ولم يغمض له جفن لفترة طويلة. لم ينم إلا بعد بزوغ الفجر.

عندما استيقظ لم يجدها. ولم يجد ساعة يده ولا السكّر ولا الطحين ولا الزيت ولا ملابسه الداخلية كلها باستثناء ما كان يرتديه منذ البارحة. كما اختفت الحشية والغطاء معها أيضاً. أبقت في محفظته من مئتي ليرة عشرين فقط.

«يا لهذا الكرم»، قال وابتسم.

٢٣٢- الوهم

كان يوم الاثنين الموافق ٥ حزيران ١٩٦٧ يوماً عادياً جداً. كان فريد سيناقش مع تلاميذه النقاط الرئيسية لامتحان الفيزياء الذي أجراه للصفوف الثلاثة التي يدرّسها يوم الخميس الماضي، والتي أنهى تصحيح أوراقه الآن. وبالرغم من الظروف السائدة أبلى طلابه بلاء حسناً بعد أن توقّفوا عن حفظ دروسهم عن ظهر قلب وبدأوا يحاولون فهم ما كان يشرحه لهم. كان متوسط الدرجات التي حصلوا عليها مرضياً بصورة عامة.

أيقظته الحرارة الرطبة مبكراً. لقد اعتراه قلق غريب دفعه للخروج من البيت. بينما كان يمشي في الحقول بدأ يفكّر برنا وبكلير. فقد بكت أمّه عندما ودعته قبل أسبوعين في يوم الجمعة. «إنك تزداد بعداً. لم أعد أراك إلا نادراً، وأحس بأنني مقيّدة في هذه البقعة هنا. ليتني أستطيع أن أذهب معك، أطهو لك، آخذ معي عشر روايات وأقول لإلياس إنني لن أعود إلا بعد أن أنتهي من قراءتها كلّها، عندها سأقرأ ببطء أكثر من سلحفاة قصيرة النظر».

twitter @baghdad_library

لكن فريد لم يرغب في وجودها هنا. إنه مكان خطير. فقبل أسبوعين أصابت قذيفة مدفع حافلة أثناء مناورة كان ينفذها الجيش السوري، ومن حسن الحظ كانت الحافلة فارغة وأصيب سائقها بالهلع وبالخراب المادي.

في حوالي الساعة السابعة، دخل فريد إلى مبنى المدرسة. كان حسني يلفّ حشيته الرقيقة ويضعها في خزانة. كان يبدو مثل شبح في منامته التي باخ لونها.

دخل فريد قاعة الصف الثامن. كان من المفترض أن يعطي الدرسين الأولين هنا. أراد دوماً أن يكون أول من يصل ليتمكن من الترحيب بالأطفال بنفسه.

بدأت الدروس في جميع الصفوف في الوقت المحدد بشكل استثنائي في صباح ذلك اليوم. لم يكن أحد من التلاميذ غائباً تقريباً. لكن بعد الساعة الثامنة والنصف، هدرت مقاتلة نفّاثة سورية من طراز ميغ فوق مبنى المدرسة. بعد قليل، أطلّ آذن المدرسة من الباب وصاح، «لقد اندلعت الحرب». تسمّر فريد في مكانه. كان كلا الجانبين، العرب والإسرائيليون، يتشدقون بشن حرب منذ بضعة أسابيع، وأحمد سعيد يلقي بالإسرائيليين يومياً في البحر من صوت العرب في القاهرة وها هي تندلع الآن. للحظة أحسّ بأنه فوجئ كأن أحداً لم يكن يعتقد بأن هذه الحرب ستندلع حقاً.

كان حسني ومعلّمان آخران يقفون بالقرب منه في باحة المدرسة يتضرعون إلى الله رافعين رؤوسهم إلى السماء. ثم قالوا إنّهم يقرأون آية الكرسي لكي يحمي الله تلك الطائرات.

بعد أقل من ساعة غادر التلاميذ المدرسة. كان المذياع الموجود في مكتب المدير يبث أغان وبيانات وخطابات تحث على الحرب، وكان من الواضح أنه سيتم الإعلان قريباً بأن المنطقة برمتها منطقة عسكرية محظورة، فأوصى حسني جميع المعلمين بالعودة إلى بيوتهم على الفور.

جمع سلمان فادي وأديب وفريد حوله، وهمس لهم قائلاً: «لنذهب

معاً». شعر فريد بأن هذا الأمر لا يبشّر بالخير كثيراً. بدأ قلبه يخفق بقوة. كان فريد قد انضمّ منذ سنتين إلى مجموعة الراديكاليين، وتدرّب في المعسكرات التي يديرها الفلسطينيون في العطلة الصيفية، بل وشارك في عملية قتالية ليلية ضدّ المواقع الإسرائيلية في صيف ١٩٦٦. كان سلمان شخصية قاسية وقد أدار بحزم مجموعة المعلمين الراديكاليين في قرية شقبا.

«يجب أن نتوجّه إلى قواعدنا على الحدود. لأن أراضينا المحرّرة ومزارعينا سيتعرضون لهجوم الإسرائيليين هناك»، قال بهدوء لكن كلماته حملت رائحة الموت.

«بالطبع. إذن لنذهب»، أجاب فادي، «الآن». بدا أنه شعر بالسعادة لإدراكه أنّه اقتبس لا شعورياً اسم مجلّة منظمتهم.

«رفاقنا يعتقدون أن الأوضاع حرجة للغاية، وإذا أبدت الحكومة السورية جبنها المعهود مرة أخرى، فإن كلّ ما يمكننا أن نفعله هو القيام بانتفاضة شعبية، ويجب أن نقف كتفاً بكتف مع الفلاحين، عندها لن يتمكن أحد في دمشق من أن يحكم بدوننا. لكن الفلاحين غير مهيئين لذلك، ينقصنا العتاد ورجالنا ونساؤنا لا يغمض لهم جفن لأكثر من أربع ساعات في اليوم. إننا قليلون».

لم يسمع فريد قط تحليلاً أكثر شمولاً وثقة عن الوضع يُقدم خلال خمس دقائق.

«إذن يجب أن نفعل ذلك مهما كلف الأمر. إن الفلاحين يستحقون أن ندعمهم لمواجهة الإسرائيليين»، قال أديب، لكن صوته وأسلوبه المتردد عكسا اضطرابه الداخلي.

«لا أظن أنها فكرة صائبة. فأنا لا أوافق عليها»، قال فريد، وقد أحسّ باليأس كأنه يسقط في حفرة عميقة، وأضاف، «لا أشك في شجاعتكم وبسالتكم لكني خائف. إني بكل بساطة خائف، ولا أخجل من قول ذلك، لأن شكوكي تستند إلى قوى العدو المتفوّقة. ألم نمض ساعات ونحن نناقش

twitter @baghdad_library

ماذا يجب على المقاتل أن يفعل في لحظة الضعف؟ من قال إننا يجب أن نموت انتحاراً في سبيل دولة نبغضها؟»

«سنموت في سبيل مبادئنا والكلمة التي قطعناها على أنفسنا للفلاحين»، قال سلمان بحدة.

أراد فريد أن يجيب بأنه ربما كانت لدى الفلاحين فرصة أفضل للبقاء أحياء لو أنهم امتنعوا عن الانضمام إلى جماعة المقاومة المسلّحة الميؤوس منها تلك، لكنّه لم يجرؤ على قول ذلك.

«إنك تعرف أنّ الجبناء يجازفون بالطرد يا رفيق، مهما بلغت محبتنا لك»، قال سلمان، محاولاً ثنيه عن التراجع. أحسّ فريد بجرح عميق، لأن أحداً لم يتّهمه بالجبن من قبل.

«إذن اطردوني. وعليّ تقبّل الأمر»، ثم تركهم دون أن يودّع أحداً منهم.

كان المدير والمعلمون الآخرون قد انصرفوا منذ قليل. انتظر خارج المدرسة وصول الحافلة التالية، ورأى أصدقاءه الثلاثة يتّجهون جنوباً. التفت أديب بسرعة ولوّح بيده، فلوّح له فريد وعضّ شفته لأنه كان عليه أن يعترف الآن بأنه جبان.

بعد ساعة كان قد ركب الحافلة المتجهة إلى درعا. كانت الدبابات والشاحنات تنطلق من الجانب الآخر من الطريق في الاتجاه المعاكس نحو الجبهة. وغطت القاذفات المقاتلة والحوامات السورية السماء. رفع سائق الحافلة صوت المذياع إلى أقصى حد حتى كادت أذنا فريد أن تصابا بالصمم. ملأ ضجيج الإذاعات وتهليلها للحرب الحافلة طنيناً. بعد أن انتظر قليلاً، استقلّ مع ركاب آخرين سيارة أجرة مشتركة متوجّهة إلى دمشق. كانت البيانات العسكرية والأغاني الحماسية تصدح عالياً من جميع المحلات والمقاهي والبيوت التي تتغنى جميعها بالدم والوطن، والأهم من كل ذلك، كانت تتغنى بالانتصار الوشيك والمؤكد على «دويلة العصابات الصغيرة»، أي إسرائيل. وفي إذاعة «صوت العرب» المصرية، لعلع المذيع المصري

أحمد سعيد بصوته القوي مهنئاً نفسه والأمة بحرارة على الفرصة التي أتيحت لهم حتى يروا هذه اللحظات التاريخية، «عندما يلقي العرب بالإسرائيليين في البحر». وكان يقرأ تقارير واردة من الجبهة المصرية تبين إلى أي منطقة توغل الجيش المصري في فلسطين المحتلة. وصار الركاب يرددون أغاني كررتها إذاعة دمشق:

ميراج طيارك هرب　　مهزوم من نسر العرب

وبعد فترة جعر المسافرون وهم يرددون:

عبّي لي الجعبة خرطوش　　وناولني هالبارودة
بيكلفني خمس قروش　　اللي بيقرب صوب حدودي

لكن فجأة ساد وجوم على وجوه ثلاثة ركاب عندما غنى مطرب لم يُذكر إسمه أغنية سخيفة يردد فيها:

الميج طارت واعتلت　　بالجو تتحدى القدر

«هذا كُفرٌ» قال أحدهم. فأخفض سائق السيارة صوت المذياع.

في حوالي الساعة الخامسة عصراً، ترجّل فريد من سيارة الأجرة عند تقاطع حارة الزيتون ورأسه يدوي. عندما فتح باب البيت، وثبت كلير من كرسيها بجانب البحرة. «لقد استجابت سيدتنا العذراء لابتهالاتي»، صاحت وهرعت لمعانقة ابنها الوحيد. ابتسم إلياس مشتاق، حتى أنه لم يعد يستطيع أن يخفي فرحته وراء قناع اللامبالاة. «لقد مرضت أمّك شوقاً وقلقاً عليك»، قال بصوت يرتعش.

«مائة وخمسون مليون عربي ضد ثلاثة ملايين إسرائيلي، هذا ليس عدلاً»، قالت كلير بينما كانا يحتسيان القهوة.

ابتسم إلياس ابتسامة عريضة، وقال: «اطرحي منهم مائة وتسعة وأربعين مليون يلصقون آذانهم بالمذياع، ونصف المليون المتبقين لا يصلحون للخدمة».

«وهناك شيء آخر»، قال فريد، «وهو أن الإسرائيليين يعرفون الهدف الذي يقاتلون من أجله وعن أي شيء يدافعون. لكن هل يعرف العرب ذلك؟»

twitter @baghdad_library

بعد أن أنهيا احتساء القهوة، توجّه إلياس إلى غرفة النوم، وسرعان ما سمعت كلير وفريد صوت المذيع الهادئ وعرفا أنه يستمع إلى إذاعته المفضّلة القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية في لندن.

رنّ الهاتف. «لا بد أنها رنا»، قالت كلير.

كان النادي أشبه بمقر منظمة حلف شمال الأطلسي في ذلك المساء. فقد عُلِّقت على جدار غرفة كرة الطاولة خريطة كبيرة سلطت عليها أضواء قوية. وقف يوسف أمام الخريطة حاملاً عصا خيزران طويلة رفيعة، وقد اصطف أمامه عدد كبير من الرجال يستمعون إلى أخبار المعارك التي يبثها المذياع، متابعين الأماكن التي يذكرها المذياع بعصا الخيزران في يد الخبير في الجغرافيا. عندما ظهر فريد عند المدخل، قطع يوسف محاضرته عن خطّ الجبهة الأمامي وأسند العصا إلى الحائط، وجرى نحو صديقه.

«خفت أن تعلق هناك في الجبهة»، قال له وعانقه بحرارة. وقف متّى وراء يوسف وقال «أخي» وقبّله على وجنتيه.

«ها قد جاء أخيراً شخص عاقل إلى حفنة المجانين هؤلاء»، قال جبران، الجالس بعيداً، كما لو أنه كان يريد أن يؤكد ابتعاده عن هذه المجموعة ليس فكرياً فقط بل ايضاً جسدياً.

«يومه معكر المزاج منذ الصبح. لا ترد عليه، دعه وشتائمه»، همس يوسف.

«أين نادية؟» سأل فريد وتطلع حوله. كانت هناك أربع نساء فقط من حيّهم وسط حوالي أربعين رجلاً.

«مع والديها»، أجاب يوسف. صافح فريد الجميع ثم أخذ ذراع جبران وأجلسه معه بالقرب من الآخرين.

«اضرب يا أخي، اضرب! أخي العربي من المحيط إلى الخليج، لا ترحم يا أخي، اضرب الآن»، هدر صوت أحمد سعيد بصوت أجش من المذياع المركون تحت الخريطة.

أخذ جبران يضحك وقال: «هذا اللقيط، ابن ستين قحبة! كيف يمكنه أن يتوقّع أن يضرب شيخ نفط أو مغربي فقير؟ وأين ومن يضرب بالضبط؟»

«اسكت»، صاح به يوسف، «ليس هذا وقت المزاح».

«لو عرفت كم أنا جاد لغرقت في الأرض خجلاً» أجاب جبران لكن احداً غير فريد لم يسمعه.

«. . . لقد دقت الساعة يا أخي! اسمع فإن الطائرات المقاتلة الإسرائيلية تتساقط من السماء كالذباب بواسطة دفاعاتنا المصرية الحديثة المضادة للطائرات. . . وطيارو مصر العربية تدك مطارات تل أبيب. . . لقد وصلني الآن خبر عاجل يتحدث عن أول قطار مليء بالأسرى الإسرائيليين يتجه الآن إلى القاهرة. الأسرى سعداء لأن الأمر انتهى إلى غير رجعة ونجوا بأرواحهم»، واصل أحمد سعيد.

نظر جبران إلى نوافذ البيوت القريبة. كان جميع الناس يجلسون بجانب أجهزة المذياع في هذا المساء الصيفي، مبتهجين لسماع خبر وصول أول دفعة من الأسرى الإسرائيليين في ذلك القطار.

«لا أستطيع تحمّل ذلك»، قال جبران ثم نهض وخرج. لكن ما إن اجتاز مسافة قصيرة في الشارع حتى استدار وعاد وجلس في زاوية بعيدة. كان يبدو عليه القلق ووضع يديه على أذنيه بطريقة استعراضية. قاده توفيق إلى المقهى وقدم له الشاي. «لقد أصبحت محاطاً بعدد من الأغبياء»، همس جبران، «لا فائدة ترجى منهم ولا خلاص لنا».

كان يوسف يتوقّع أن تلحق الهزيمة بالقوات الجوية الإسرائيلية عند حوالي الساعة العاشرة ليلاً. فلدى الإسرائيليين حوالي أربعمائة طائرة مقاتلة، لا يمكن أن تصمد أكثر من ذلك. فجأة أصبح النجارون خبراء في مضادات الطائرات، وأصبح البلاطون مختصين في الصواريخ. كانت تتطاير في القاعة أسماء مثل رومل ومونتغومري وصلاح الدين مثل كرة الطاولة كلما وردت تقارير عن مزيد من الانتصارات من المذياع.

«أنتظر الخبر الهام، سيذاع في أيّ لحظة الآن»، قال يوسف.

twitter @baghdad_library

«أيّ خبر؟» سأل فريد.

«خبر تحرير تل أبيب. سيرفرف علم فلسطين في سماء المدينة».

خرج جبران من المقهى، وراح يضحك. كانوا جميعاً يعرفون أنه مجنون، لكنّهم لم يعرفوا ما الذي يضحكه هكذا. أشار البحّار العجوز بالتناوب إلى امرأتين تعلّقان شراشف بيضاء بمشابك الغسيل على أسطح بيتهما. لم يفهم أحد ما الذي يضحكه هكذا. لكن عندما ظهرت نساء أخريات على أسطح أربعة بيوت أخرى ورحن كذلك يعلقن شراشف على حبال الغسيل، بدأ وجه يوسف يكفهر وبدا لفريد أن الشك بدأ ينهش تفاؤل صديقه.

«لماذا يغسلن جميعهن في منتصف الليل؟ دعونا نسمع إذاعة لندن»، قال يوسف بصوت ضعيف، وفي صوته نبرة تشي بالحيرة.

خيّم صمت ثقيل على المكان.

٢٣٣- وجهات نظر نسائية

لم يعد بإمكان رنا الاستماع إلى المذياع. كان يبدو أن الجميع أصابهم مسّ، وكانوا ينشدون من أجل الحرب. لم تكن تعرف إن كانت الطائرات التي تشق السماء على علو منخفض فوق دمشق هي مقاتلات إسرائيلية أم سورية، لكنّها كانت خائفة حتى الموت. سألتها جارتها صالحة إن كانت تريد أن تأتي لزيارتها لأنه يوجد في بيتها، بخلاف بيت رنا، قبو يمكن استخدامه ملجأً أثناء الغارات الجوية، وكان زوجها يرى أن الإسرائيليين لن يتركوا في دمشق حجراً فوق حجر وأنهم سيجعلونها أثراً بعد عين. أسرعت رنا إلى بيت جارتها دون أن تأخذ شيئاً معها. كان القبو يعجّ بالناس. كان زوج صالحة يجلس في كرسي المعوّقين، يحكي للنساء الشاحبات الوجوه المتحلّقات حوله عن خبراته أثناء الحرب. فقد كان ضابطاً في الجيش، وقد أصيب بشظية قنبلة يدوية في ظهره خلال إحدى المناورات العسكرية، وهو يرقد مشلولاً منذ ذلك الحين، وأصبح شوكة في جسد صالحة التي كانت

تصلّي مساء كل يوم قبل أن تخلد إلى النوم بأن يأخذ النبي محمد زوجها إلى جواره حتى تعيش السنوات القليلة المتبقية من حياتها بهدوء وسلام. «لكن النبي يتمتع بذائقة رفيعة، ولا يريد رفقة مضجرة؟» قالت لرنا ذات مرة.

كانت امرأة أخرى، زوجها ضابط أيضاً، تبتهل إلى الله لأن ينقذه ويعيده إليها بالسلامة. وقالت إنها تفضل مئة مرة أن يعود إلى بيته حتى بدون ذراعين ورجلين على أن تصبح أرملة. نظرت صالحة إلى رنا بشكل فهمت معه رنا أن صالحة تحتقر أمنية المرأة.

«إنها الحقيقة، لقد قلتِها أيتها الجارة العزيزة، لقد قلتيها»، قال زوج صالحة، النقيب المحال على التقاعد محمود السماوي، مشجعاً المرأة اليائسة. شربت رنا كوباً من الشاي المعطّر، وأحسّت بالأمان تحت قناطر سقف القبو الصلبة حيث لا يكاد المرء يسمع صوت هدير الطائرات. كان النقيب المتقاعد محمود متيقناً من أن العرب سينتصرون، وأنها مسألة يومين فقط، بعدها سيغسل المارد العربي قدميه في البحر قبالة تل أبيب.

غطى صوته على صوت المذياع المركون في الزاوية. ومع إذاعة كلّ نبأ، كان يزداد ثقة بمعتقداته ويلقي محاضرة على النساء. كان أحياناً يصوّب ما يقوله المذيع.

كان عويل صفارات الإنذار يشقّ طريقه إلى القبو. «هل تسمعن ذلك؟ تردّ الآن الدفاعات المضادة للطائرات» صاح، وتناثر رذاذ من لعابه على وجه المرأة الجالسة بجانبه. باشمئزاز، نشّفت خدّها ثم قالت أخيراً: «إننا فعلاً على خط النار» وابتعدت عنه.

«لا، لا. هذه صواريخ أرض جو ومدافع ذات أربع فوهات قذائفها فائقة السرعة تشقّ طريقها نحو الطائرة، راتتاتام، راتتاتام...»، أوضح النقيب، وقد ملأ وجه المرأة التي اخذت مكانها بجانبه برذاذ من بصاقه مع كلّ راتتاتام فانتقلت بدورها إلى مكان آخر.

«هل أنتِ قلقة؟» سألتها صالحة بصوت خفيض وقصدت زوج رنا.

twitter @baghdad_library

«نعم»، قالت رنا. لم تبح لها أنها تفكّر بفريد فقط. لقد اتصلت بأمّه ثلاث مرات. كانت كلير لطيفة للغاية معها، لكنها لم تخف قلقها الشديد لأن فريد لم يتصل بها بعد، قالت لها بيأس في آخر مرة كلمتها.

«أعرف، لو سافر زوجي فإني واثقة من أنني سأكون قلقة أيضاً، لكنه لم يعد يسافر»، حدثتها صالحة التي كانت تشعر بأن رنا ورامي لم يكونا سعيدين معاً.

من نافذة القبو رأوا الناس يجرون في الخارج. سُمعت صيحات تنم عن البهجة. إن كانوا قد فهموا جيداً ما حدث، فلا بد أن طائرة إسرائيلية قد أسقطت. فقد حصل انفجار في مكان قريب حطّم البناية. شعرت رنا بالامتنان لأن صالحة دعتها إلى المجيء والجلوس هنا مع النساء الأخريات بدلاً من البقاء وحدها في البيت. اتصلت بها أمّها في عصر ذلك اليوم وسألتها هل تريد الذهاب إلى بيت أخيها جاك أم لا. فقد ذهب والداها إلى بيته بعد أن نشرا شراشف بيضاء على سطح بيتهم، كما كانت محطة الإذاعة الإسرائيلية تنصح الدمشقيين لكي - كما قال المذيع - لا تقصف الطائرات الإسرائيلية منازلهم. بالطبع لم يكن هناك أحد في العاصمة يعترف بذلك، لكن الحقيقة هي أن آلاف الناس لم يفكّروا بشيء في ذلك النهار سوى بغسيل كل ما لونه ابيض في أيام الحرب هذه. سيمكث والدها عند جاك «حتى تنجلي الأمور»، قالت لها أمّها على الهاتف مرتبكة. فقد تمكن شقيق رنا من جمع أموال كثيرة من صفقات استيراد مشبوهة. وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، قبل ثلاثة أشهر من نشوب الحرب، اشترى فيلا في قرية بالقرب من دمشق. لكن رنا لم تزره قط.

بعد ساعة تبادلت صالحة النظرات مع رنا وغمزتها ثم قالت: «سنأتي بقليل من الخبز والجبن والزيتون والشاي. سنعود بعد قليل». نهضت رنا لترافقها وفي تلك اللحظة كانت مقاتلة نفّاثة تخترق حاجز الصوت مفرقعة فوق مباني المدينة.

كيف ستكون الحياة بدون فريد؟ سألت رنا نفسها بيأس وهما تصعدان

الدرج. كان الساعة تقارب الثانية بعد الظهر. «هل لي أن أجري مكالمة سريعة؟»

«طبعاً، الهاتف في غرفة الجلوس. سأدخن سيجارة في المطبخ».

لم يعد فريد إلى البيت بعد. ازدادت حدة خوفها. أحسّت بالتفاهة عندما وضعت السماعة. من السخافة أن تحاول أن تطمئن كلير بالقول إن مكروهاً لا يمكن أن يصيب فريد لأنهما تحبانه.

حملت صالحة الصينية الكبيرة التي وضعت عليها الجبن المصنوع من حليب الغنم والزيتون والباذنجان المحشي بالجوز والثوم والمغمور بزيت الزيتون والذي يحبه أهل دمشق ويدعونه «المكدوس» والبندورة واللبنة. وحملت رنا الصينية الأصغر التي وضعت عليها إبريق الشاي والكؤوس التي جلتها بالماء الساخن. ابتهجت النساء. لم يتناول زوج صالحة شيئاً، بل اكتفى بشرب الشاي.

زحف الزمن زحفاً، ولم يعد النقيب المتقاعد يحتمل. فلم يتوقف عن الحديث عن أعماله البطولية. لاحظت رنا أن صالحة كانت تنتهز كلّ فرصة للصعود إلى الطابق الأرضي كي تدخّن سيجارة. في حوالي الساعة السادسة مساء، صعدت المرأتان ثانية لإعداد طعام العشاء. تنفّست رنا الصعداء، لأنها لم تكن تشعر بالراحة في القبو. سألت صالحة هل يمكنها أن تخابر ثانية. تدفقت الدموع من عينيها عندما سمعت صوت فريد أخيراً.

ركضت سعيدة إلى المطبخ.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟»

«كلّ شيء على ما يرام»، قالت. بينما كانت «المجدرة» تطهى على النار، صعدت صالحة معها إلى الطابق الأول لتريها صورها في طفولتها. تظاهرت رنا بالاهتمام، لكنها كانت شاردة. شيئاً فشيئاً هبط الظلام ليغمر دمشق. هدأت السماء الآن. من المكان الذي كانتا تقفان فيه كان باستطاعتهما رؤية داخل نادي ليلي شُرِّعت نوافذه من شدة الحرارة. كانت

twitter @baghdad_library

راقصة شرقية تتنقل بين الطاولات التي امتلأت بروّاد النادي. على الرغم من أن المساء كان في بدايته، كان الرجال قد سكروا.

«هذه ريحانة. إن زوجي يجلس هنا طوال الليل. هذه النافذة هي تلفزيونه»، قالت صالحة.

«كيف يمكنه أن يصعد إلى هذا الطابق؟»

«لديه مصعد خاصّ جلبه من فرنسا. بهذه الطريقة يستطيع ملاحقتي أيضاً حتى الطابق الثاني».

كانت ريحانة لا تزال تنظر إلى نافذة بيت صالحة كما لو أنها افتقدت جمهورها هناك. لم يكن يبدو أنها تحرّك قدميها، بل ترفرف بين الطاولات، وكانت تتحاشى الأيدي العديدة التي لم تتوقف عن محاولة لمس أجزاء من جسمها.

«إنه أمر مقرف، أليس كذلك؟» قالت رنا وهي متجهة إلى المطبخ.

٢٣٤- الصحوة

واصلت أجهزة الإعلام العربية ترديد هذه الإكذوبة يوماً كاملاً آخر قبل أن تنهار مثل بيت من الكرتون. كانت الهزيمة مدمّرة. فخلال ستّ ساعات، دمرت إسرائيل جميع المطارات والقوات الجوية في مصر وسوريا والأردن من دون أن تواجه أيّ مقاومة تذكر.

سكت أحمد سعيد. في الإذاعات بدأوا يهيئون الشعب لمواجهة أسوأ عار لحق به في تاريخه. شهد يوسف أشدّ أزمة في حياته، فقد تبين له أن سطلان الذي طالما أحبه رجل أحمق، وهو المسؤول عن هذه الهزيمة. لم يعد يوسف يريد أن يرى أحداً. حتى فريد لم يتمكن من الاتصال به. قالت له نادية على الهاتف إنه بحاجة إلى هدوء وسلام.

في اليوم الثالث اتصلت رنا بفريد. فجأة عاد رامي إلى البيت، واختلى بنفسه في غرفة النوم، وراح يبكي مثل طفل صغير فقد إحدى لعبه.

كان جميع أعضاء الحكومة قد هربوا من مدينة دمشق للاختباء في حلب أو في بغداد كما أفادت تقارير كثيرة. في اليوم الثالث من نشوب الحرب، عندما وصلت طلائع الجنود الإسرائيليين إلى قناة السويس، طلبت الحكومة المصرية وقف إطلاق النار. عقب ذلك، هاجم الجيش الإسرائيلي سوريا والأردن. خلال يومين استولى الإسرائيليون على الضفة الغربية ومرتفعات الجولان وأصبحوا على مسافة أقل من كيلومتر واحد من ساحة القرية ومن المدرسة في شقبا. لم يُشاهد ضابط كبير واحد من الجيش السوري على طول الجبهة كلها.

كانت الشراشف البيض ترفرف فوق أسطح البنايات في دمشق، لكن الإسرائيليين لم يصلوا إليها. لقد احتلوا ثلاثة أضعاف مساحة بلدهم، وكان احتلال مدن كبرى مثل القاهرة ودمشق سينطوي على عواقب مدمّرة، لذلك لم يفعلوا ذلك. جاب فريد شوارع المدينة وراح يراقب الناس الذين كانت تعتريهم مشاعر الاكتئاب والخزي. لم يعرف إلى أين سيمضي، فراح يحتسي قهوة هنا، وشاياً هناك، وينصت إلى بعض الأحاديث. ثمّ اتصل بابنة عمته ليلى التي سُرَّت عندما سمعت أنه يريد أن يأتي لرؤيتها.

خرج مع ليلى وراحا يتمشيان أمام بيوت الحي الذي يقطنه الأغنياء. كان معها مفاتيح بيوت زبائنها الذين هربوا من دمشق وطلبوا منها أن تسقي أصص الأزهار في بيوتهم. لم ينس أحد منهم أن يترك الشراشف البيض تصفق من شرفته أو على سطوح بيته، كما نصحت الإذاعة الإسرائيلية.

«أصبحت الآن أعمل حارستهم الليلية ومدبرة منازلهم، لكنهم زبائني في جميع الأحوال».

أمضى ساعات رائعة مع ليلى. كان زوجها سيمون في أثينا يسجّل بعض المعزوفات وكان سيبقى هناك طوال شهر حزيران. بعد أن أنهت ليلى جولتها، اقترحت أن يمضيا الليلة في إحدى الفيلات الرائعة التي يملكها أحد المهندسين الأغنياء. استحمّا معاً وارتديا أردية حمّام بيضاء اللون، وأعدّا عشاء رائعاً وشربا زجاجة شمبانيا، وجلسا في غرفة الجلوس مثل لصين.

twitter @baghdad_library

هدأت من روعه عندما حدّثها عن سلوكه الجبان لأنه لم يحمل السلاح مع الراديكاليين. قالت له ليلى إن القرار الذي اتخذه كان عاقلاً جداً، وأضافت «إن العقلانية شقيقة الجبن». وأن الجبهة ليست المكان المناسب للعقلاء أثناء الحروب. «إني أحتقر الأبطال الذين يشلّون الآخرين بالتحدث باسمهم ويقولون إنهم يقبلون الموت، بدلاً من أن يتعاونوا معهم لجعل الموت أمراً مستحيلاً».

تنفّس فريد بحرية لأول مرة منذ أيام عديدة.

«لماذا عليك أن تموت عندما يهرب جيش كامل نقدم له كل ما يلزمه منذ الاستقلال عندما تدعو الحاجة إليه؟ كيف يمكنك أن تنتصر إذا كان في جيشك ضباط لا يسمح لهم حتى باختيار المرأة التي يحبّونها ليتزوّجوها؟ بل تقوم عشيرتهم باختيار زوجاتهم لهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن ضبّاطنا لم يُدربوا قط على احتلال أو تحرير قرية، بل كل ما تعلموه هو كيف يقومون بقمع شعوبهم والقضاء عليها، والجميع يعرفون مدى سهولة ذلك. وها نحن نكتشف الآن أن الحكومة في مصر كانت تعرف مسبقاً عن طريق الجواسيس الروس بالهجوم المزمع، بل حتى أنها كانت تعرف متى ستقع الضربة. لكن هل تصرف سطلان وفق ما تملي هذه المعلومات على كل رجل بعقل وهو أن يهاجم إسرائيل ويسرق منها زمام المباغتة؟ لا ابداً، لم يفعل ذلك، بل اعتمد على ما ذكره مشيره الحشاش الكبير عبد الحكيم قحبان وترك كل سلاحه الجوي على الأرض لكي لا يتعب الإسرائيليون بالتفتيش عنه لتدميره أو بمعاركته في الجو».

«مسكين يوسف»، انسلّت الكلمات من فم فريد عندما كانت ليلى تشعل سيجارة حشيش.

«هل تريد واحدة أيها الرفيق السابق؟» سألت بابتسامة تشي بالإغواء.

لم يجب فريد، لكنه أخذ السيجارة، وأخذ منها نفساً عميقاً مرّتين.

٢٣٥- ليلة ليلى

جلبت ليلى قنينة ثانية. أطفأت الأضواء العديدة المثبتة في السقف وعلى الجدران. لم يكن الظلام شديداً. كان ضوء خفيف يتسلل عبر المدخل المفتوح إلى غرفة الجلوس حيث كانت هي وفريد يجلسان على أريكة ضخمة، يتناولان الفستق الحلبي المملّح ويحتسيان الشمبانيا المبردة.

«هذا هو أجري كناطورة مفاتيح»، قالت بمرح ومالت إليه. مسّدت رأسه وقرعا كأسيهما. كالعادة كان مفتوناً بها وأراد أن يقبّل جبهتها، لكن شفتيه التصقتا فجأة بفمها.

كان ريقها حلواً. ضمت فريد إليها بقوة. انتشى بعطرها. قبّلها ثانية. عانقته ليلى وانسلّت تحته. سقط رداءاهما على الأرض من تلقائهما. بحثت يداه عن شيء يمسكه فوجد بشرة فخذيها الناعمة.

عندما استلقى أخيراً بجانبها على السجادة، منهكاً، لم يعرف لماذا اعترته قبل قليل تلك الرغبة الجامحة فجأة لممارسة الحبّ مع ليلى. انتابه شعور غريب جديد وهو بجانبها لم يشعر به حتى عندما يكون مع رنا.

«لقد غنّيتِ بروعة كالدولفين عندما بلغتِ الرعشة»، قال، وهو ينظر إلى السقف.

«إني أحبّ الدلافين وهم أهدوني هذا الأنين»، أجابت، وقبّلته برقة.

«هل تأسفين على ذلك؟»

«لا، يا رفيق. هناك أشياء كثيرة تأسف عليها نساء القمر، لكنهن لا يأسفن إطلاقاً في الحب. خاصة الحب مع نصفهن الضائع؟»

انبعثت من فم ليلى جلجلة من الضحك الصافي، دغدغته، وعندما كان يهمّ بالنهوض والجلوس على الأريكة، ألقت بنفسها فوقه وثبّتت كتفيه على السجادة بكلّ قوّتها. تعاركا مثل طفلين. أحسّ بإثارتها من القشعريرة التي اعترتها. طافت شفتاه مثل فراشة عطشى تبحث عن الندى، ثم أطبقتا حول حلمة ثديها. ارتعشت ليلى وانطلقت منها صيحة مفعمة بالنشوة.

بعد ذلك استلقيا هامدين. أسند رأسه إلى بطن ليلى وراح يتنشق

twitter @baghdad_library

عرقها. غمره إحساس بالسعادة، وفي الوقت نفسه، غمره حزن شديد. بغتة رأى الهلال متربعاً أمامه أزرق اللون، كأنه بزغ للتو، قابعاً في البشرة الناعمة تحت نهد ليلى الأيسر. انتصب فريد في جلسته وقبّل تلك البقعة.

«مرحباً، أيها القمر»، همس.

«هل تعرف متى رضعت من صدري أول مرة؟» سألته، عاقدة ذراعيها وراء رأسها.

خيّل إليه أن السؤال مزحة. «قبل خمس وستين دقيقة وثلاثين ثانية»، قال ضاحكاً.

«خطأ. كانت أول مرة قبل ست وعشرين سنة». نظر فريد إليها بعينين غير مصدّقتين. «كان عمرك سنة واحدة عندما أحضرتك أمّك إلى بيروت. كانت أمّي قد دعتها للمكوث معنا لقضاء فترة نقاهة على شاطئ البحر. أظن أن كلير كانت تمرّ بأزمة آنذاك وكانت بحاجة إلى قليل من الراحة».

«نعم، أخبرتني بذلك. كانت لدى إلياس عشيقة. زوجة عضو برلمان غبية».

«حسناً، مهما كان، جئتما للمكوث عندنا. لقد أحببتكَ مذ كنتَ صغيراً، وكنتَ تهدأ وتسكت عندما أحملك، لذلك كانوا يتركونك معي عندما يخرجون. كنتُ في السابعة من عمري، وكنت طفلة قوية ومستقلة. في أحد الأيام كنتُ جالسة في شرفة غرفتي معك. كنتَ في حضني، أنظرُ إلى عينيك الكبيرتين. كنتُ أحبك كثيراً. بدا ذلك جنوناً، لكن هكذا كان الأمر. كنتُ أحكي لك قصصاً طوال ساعات، وكنتُ مقتنعة بأنك كنتَ تفهم كلّ شيء. فجأة رحتَ تمصّ سبّابتي، وكما لو كنتُ ألعب بدمية، قلتُ: هيه، هيه، يا طفلي، يمكنكَ أن تتناول قليلاً من الحليب. كنتُ أرتدي رداء صيفياً فُكَّت أزراره من المقدمة. فجأة التقمتَ نهدي بفمك ورحت تمصّه مثل جرو جائع. شعرتُ أنني في السماء السابعة. أصبح نهداي حسّاسين للغاية منذ ذلك اليوم».

٢٣٦- شرب قوس قزح

لم يأخذ رامي إجازة قط. لم يكن متزوّجاً من رنا بقدر ما كان متزوّجاً من إدارة الإمداد والتموين في الجيش. كان مسؤولاً عن النقل والمشتريات والوسائل الجديدة لجعل حركة الجيش أسرع وأكثر فعّالية. كان يقول إن الهزيمة التي ألحقتها إسرائيل بنا كانت لأن العدو نظّم كلّ شيء بطريقة عقلانية وتحرّك بسرعة كبيرة.

منذ انتهاء الحرب بدأ يمضي معظم أوقاته خارج البيت. وفي بعض الأحيان، كان يغيب عن البيتَ أسابيع عديدة. كان يسمح لرنا أن تعرف كم سيغيب عن البيت، لكنه لم يسمح لها إطلاقاً بأن تعرف وجهة ذهابه وسبب سفره. كان يقول أحياناً بزلّة لسان إنّه كان على الحدود أو في برلين الشرقية أو في براغ أو في موسكو. لكنها لم تعد تبدي اهتماماً بما كان يخطّط أو يشتري أو على أي شيء يتفاوض.

أتى صيف عام ١٩٦٧ حاراً على نحو لا يطاق. لم تنم رنا جيداً وكانت تستيقظ غالباً من كوابيس ترى فيها فريد، وجهه ينزف دماً، يصيح طالباً النجدة. صارت تصلي من أجله كل ليلة قبل أن تخلد إلى النوم، أما زوجها فكان يغط في النوم إلى جانبها لا يكدره شيء.

في نهاية آب أجهضت رنا للمرة الرابعة. أصبحت القابلة تعرف الآن أن رنا لا تريد أن تنجب طفلاً من رامي. فضلت الموت على ذلك. لم يكن الإجهاض سيئاً وخطيراً كما خشيت، وفي كلّ مرّة كانت تغادر سريرها بعد أسبوع من عملية الإجهاض.

كان الاكتئاب يلازمها والحزن سجنها. لم تحدث أشياء كثيرة في حياتها، لم يحدث شيء هام على الإطلاق، سوى أنها أضاعت سبع أو ثماني سنوات من حياتها. نظرت إلى سمكتها الذهبية في حوض السمك الزجاجي المستدير وهمست لها «مرحبا يا أختي».

ذات يوم، عندما أرادت أن تجد سلواها في قراءة الروايات التي أحبّتها في الماضي، بدت لها السطور مملة وغائمة. سألت نفسها هل الحياة التي

twitter @baghdad_library

تعيشها الآن جديرة بأن تعاش. قالت لها دنيا إنها يجب أن تتناول كمية من اللبن وحشيشة الناردين لكي تسترخي أعصابها. كأن خلاصها يكمن في أن تشعر بتعب أكثر من التعب الذي ينتابها. هزت رأسها رافضة.

ظلت تتساءل ما المنفذ الذي بقي لها من أجل خلاصها. في بعض الأحيان، كانت أفكارها مثل دوامة لا تستطيع الخروج منها.

«يجب أن تستعملي مزيلاً للشعر»، قال لها رامي عندما داعب ساقيها. ضحكت في نفسها. هذه ليست شعرات، بل أشواكي التي يشعر بها هذا الغبي. امتدت الصحراء حولها، وكان الصمت المخيم خانقاً. كانت صديقتها دنيا بالنسبة لها ذات يوم مثل واحة، أما الآن فقد بدأت تلك الصداقة تذوي، وكلما اقتربت من دنيا ذابت إلى اللاشيء مثل سراب.

على مرّ السنين، حوّلت رنا سطح البيت حول الأستوديو الصغير إلى واحة وارفة. في صباح أحد الأيام في أوائل أيلول سمعت في نومها صوتاً يطلب منها أن تسقيه ماء. استيقظت وعرفت في الحال أن نباتاتها كانت عطشى.

جرت صاعدة إلى الطابق العلوي حافية بثوب نومها الرقيق. تألقت سماء أيلول بأجمل زرقة دمشقية. كانت أوراق وسوق النباتات الرقيقة منحنية، ذاوية.

«يا إلهي»، همست رنا. التقطت الخرطوم. فتحت الحنفية وراحت ترشّ أصص الأزهار الكبيرة. سمعت صوت الجذور تستيقظ وترتفع تحت التربة الجافة وتهمس لها شاكرة. بدا لها أن النباتات بدأت ترفع أوراقها شيئاً فشيئاً نحو السماء.

«هذا أفضل»، قالت لها مشجعة. كانت جميعها تقريباً هدايا قدمها لها بعض الأصدقاء والأقارب. خيّل إليها أنّها تسمع غرغرة ضحكة.

فجأة سرحت بأفكارها. «في ذلك الحين، قررتُ أن أعيش مثل نبتة صبّار. القرار وجد طريقه بسرعة إلى رأسي، لكن ليس من السهل أن تكوني نبتة صبّار»، قالت بصوت خفيض، تذكّرت قدر سذاجتها عندما خيّل إليها أن

من حقّها أن تحبّ وأن تعيش بسعادة. الحقّ في أن تحب، ربما، لكن ماذا عن السعادة؟ ابتسمت. «حتى أنني شرعت في تأثيث بيت لي ولفريد في مخيلتي. إني أعرف كلّ شيء عنه، حتى لون الستائر»، تابعت بصوت مسموع وهي تسقي نباتات الدفلى. هزّت رأسها، ومضت تقول: «يا لغبائي. كنت أخطط لحياة لن نحياها قط، ولا حتى للحظة واحدة. أي فيروس، أي حادث سيارة، حرب، يمكن أن تنهي كلّ شيء. وبينما نحن نحلم بمستقبلنا يمضي الزمن كما تنسلّ حبات الرمل بهدوء من بين أصابعنا، والكومة الصغيرة التي تبقى في راحة يدنا ليست إلا ذاكرة الحياة».

سمعت الآن أوراق شجرة البرتقال الصغيرة التي أهدتها دنيا إياها تناديها طلباً للماء. تركت رشّاش الماء المقوّس يسقط على الشجرة وعلى ثمراتها القليلة الصغيرة.

«قبل سنوات، قبل أن تُستَنفَد تماماً من داخلها، كانت تصف مأساتها ومأساة كثير من النساء. قالت دنيا إن عليها أن تكون مهيأة لزوجها في أي لحظة، مثل لبيسة حذائه، بفارق أنه لا يأخذ لبيسة الحذاء معه إلى السرير. لكن هذا تماماً ما كان يفعله معها كلّ مساء. ارادها أن تكون متاحة له باستمرار، وبعد سنة ذوت. أما اليوم فأصبحت دنيا فارغة عوضت عن حساسيتها الضائعة بشحم يأسها وإحباطها، تتصرّف كأنها شخص آخر، لم تعد هي نفسها».

أخذت تنصت للزهور.

«أوه، هل تريدين قليلاً أيضاً؟ ظننت أنك أخت الصحراء»، قالت وأدارت رشّاش الماء على أوراق النخلة التي كانت قد جلبتها لها ابنة عمها ماري من العراق. كانت ماري زوجة رجل أعمال غني يتنقل بين بغداد ودمشق. كانت تحبّ أن تبقى في دمشق، لكن زوجها لم يسمح لها أن تفعل ذلك، ومنذ ذلك الحين، لم تعد تشعر بأنها في بيتها في أي مكان. وقد عانى أطفالها الثلاثة من ذلك وأصيبوا ثلاثتهم بأمراض نفسية فوضعتهم في مصح نفساني في بيروت ونسيتهم، لكي تمثّل دور الزوجة السعيدة.

twitter @baghdad_library

انبعث من النخلة صوت حفيف يشي بالسعادة.

«إني قريبتك، ولست قريبة ماري. فأنا أيضاً صبار، لكنني مثلك لا أثمر»، تابعت رنا كلامها، «ولا أريد أن أرغم نفسي على التظاهر بأنني سعيدة في زواجي. إن ماري تنكر كلّ أحلامها وخططها وأفكارها ومشاعرها خوفاً من زوجها. إنها تملأ فراغها الداخلي بالطاعة العمياء. فلم تعد الآن تخاف منه، بل على العكس تماماً، أصبحت تستمتع بخنوعها في الليالي التي يريد أن يأخذها فيها إلى السرير لأنه المكان الوحيد الذي يكون فيه لطيفاً معها. لقد قالت لي ذلك بنفسها. ثم انتقمت ماري من ذلك الطاغية. فجعلته يقبّل قدميها ويلحس مؤخرتها، وصارت تجد متعة كبيرة عندما يجثو على ركبتيه ويتوسل إليها أن تنفذ له رغبة جنسية ما. في تلك اللحظات تتخيّل بأنّها هي الآمر الناهي».

سقت رنا جميع الأزهار والشجيرات، وجلست أخيراً على كرسي وقرّرت أن تشكّل قوس قزح برشّاش الماء وأشعة الشمس.

«هل تريدون أن تشربوا قوس القزح؟» سألت رنا نباتاتها وضحكت من فكرتها. رأت النباتات ترقص بسعادة في نسيم أيلول العليل. بعد عدّة محاولات استطاعت أن تكسر الضوء عبر قطرات الماء وهي تسقي شجرة الزيتون الصغيرة التي كانت قد جلبتها لها عمّتها ثريا من القدس.

«عندما تصبحين فارغة مثل العمّة ثريا»، قالت، «عندما لا يعود في داخلك شيء تقدمينه، يجب أن تعتني بالقشرة الخارجية. فما الذي بقي لك عمله؟»

«لا شيء»، سمعتها تردّ، «فقط المظهر، انظري إلى العمّة ثريا»، وتابعت وهي تتفحص الوردة الحمراء، «تنتف بعض شعراتها، وتصبغ الجزء الباقي، وترتدي ملابس داخلية مثيرة كالعاهرات تحت ثيابها العادية التي يصرّ زوجها الغيور أن ترتديها». تزوّجت العمّة ثريا طياراً جاب أنحاء العالم، وازداد غباء مع مرور الوقت. تقمص في شبابه شخصية الليبرالي المتحرر،

أما الآن - وعلى الرغم من أنه مسيحي - فإنه يتصرّف بتزمت وكأنه واحد من الإخوان المسلمين.

«إن الورود تحبّ قوس قزح»، قالت رنا عندما امتدت يدها باتجاه الأص الكبير من الفخار الجميل المزروعة فيه وردة دمشقية كثيفة الأوراق والذي أهدته إياه صديقتها في المدرسة نجلاء قبل سنتين. ولما كانت الابنة الوحيَدة بين سبعة أخوة، فقد ضاعت نجلاء في أسرتها، فلم يعرها أحد أي اهتمام، وعندما بلغت السابعة عشرة من عمرها تزوّجت ابن عمها، ثم أصبح عليها أن تخدم والديه المسنين وإخوته الأربعة العزاب. كانت امرأة طيّعة تتبع زوجها كما يتبع كلب صيد سيده. صارت نجلاء تقرأ رغباته في عينيه وتتصرّف كأنها هي التي قدّمت الاقتراح. وصار زوجها يعاملها بشفقة. «كلبة جيدة، هذا صحيح، كلبة جيدة»، همست رنا وهي تضحك.

رشّت عصفوراً كان يراقب بفضول من فوق السياج المحيط بالسطح. لكنه طار مبتعداً بسرعة.

«وهذه أمّي. ما الذي حل بها؟ الآن فقط»، نادت وراء العصفور، «اكتشفتُ أن أبي لا يحبّها. وهو محقّ. فمن يحبّ قِدراً براقاً لا يصدر قرقعة إلا لأنه فارغ؟ أما أنا فأحياناً لا أشعر بأنني مثل قدر فارغ، بل سلة مهملات زوجي».

قهقهت وحاولت أن تصنع قوس قزح ثانية. بعد عدّة محاولات، تقوّس الماء فوق الياسمين على حافة حديقة السطح.لم تلاحظ أن الماء ينهمر على الشارع في الأسفل.

«لكني على الأقل أعرف أنّني لا أحبّ زوجي. إني أشعر بالغيظ من دنيا لأنها تتظاهر بأنها تحبّ زوجها. فهي تقول إنها تضحّي بنفسها في سبيله، وعندما أسألها بماذا تضحّي كانت تجيب بغموض وإبهام، والشيء الجلي الوحيد هو أنها أصبحت مزيجاً من ربّة بيت جيدة وعاهرة رخيصة».

هزّت رأسها، تذكّرت الشجار الذي نشب بينهما. كان ذلك يوم الأحد منذ أربعة أو خمسة أسابيع. «دعينا لا ندعوه حبّاً أو مودّة، بل إنه أشبه

twitter @baghdad_library

بالاستغلال»، قالت رنا. فغضبت دنيا وصاحت بها، «لقد بدأت أفكار حبيبك اليسارية تفقدك عقلك وتقودك إلى الجنون. هذه الآراء وكلّ الكتب التي تقرأينها عن النساء اللاتي يكرهن أزواجهن».

قالت دنيا لرنا إنها ناكرة للجميل وحقودة كالجمل. صحيح أن رامي قد أخذها بالقوة، لكنه مع ذلك فهو رجل لطيف، رجل جذّاب يغدق عليها الهدايا، بل إنه يتحمّل رفضها له بصبر. إن أيّ امرأة أخرى كانت لتسعد بالعيش معه. أما رنا فتعيش من أجل وهم - حبّها لشاب فوضوي يتمنى الموت.

تبادلتا كلمات غاضبة في عصر يوم الأحد ذاك. ردّت رنا أنّ دنيا لم تعد تنظر في المرآة كي لا ترى ماذا فعلت بها السنوات الستّ أو السبع: ربة بيت محبطة بدينة ومرائية محترفة. فردّت عليها دنيا بصوت عال إنّها تفضّل أن تكون ربة منزل مرائية على أن تكون امرأة مضطربة عقلياً، وأن رنا سينتهي بها الحال قريباً في مستشفى المجانين في العصفورية. نعم قالتها: العصفورية.

لم تعد دنيا تلك المرأة الحساسة. ادّعت إنها أصبحت الآن امرأة مفكّرة ومتروية، وأنها حرّة. «يجب أن تروضي الرجال كالحيوانات البريّة»، قالت، «ومع مرور الوقت تستطيعين تدجينهم، يتعلّمون أن يعودوا إلى البيت ويصبحوا مخلصين».

عندما تذكّرت رنا ذلك ضحكت. «لقد رسمت لي دنيا صورة جميلة عن التعاسة. إن هذا ليس حبّاً، بل ترويض حيوانات. فعندما يكون الحبّ هو الشعور الحقيقي فإنه لا يطلب أي تضحية ولا يستغلّك». إنها متيقنة من أنها لن تضحّي بنفسها للحظة واحدة من أجل فريد لأنها تحبّه. لقد أصبح قلبها كالصبّار. صبورة وهادئة. لكنّها لم تكن تخلط ذلك بالحبّ، ستترك رامي في أقرب فرصة وستعيش مع فريد.

لكن حياة الصبّار قاسية. قبل أسبوع من شجارها مع دنيا كانت تشعر كما لو أنها ستنفجر. فقد عاد رامي فجأة إلى البيت بصحبة ضابطين كبيرين.

أيقظها في ساعة متأخرة وطلب منها أن تحضّر لهم بضع لقيمات وموالح وزجاجتي نبيذ. كانوا ثلاثتهم سكارى وكانوا يحدثون جلبة كبيرة. قدّمت لرامي كلّ ما تمكنت من إيجاده في المطبخ، ووضعته في صينيتين وعادت لتنام. لكن لم يغمض لها جفن.

كان الوقت متأخراً عندما جاء رامي إليها تفوح منه رائحة السيجار والكحول النتنة. عندما رفضت مضاجعته ضربها. اغتصبها وبكت. بينما كان يلجها بالقوة، قال لها إنّه يشعر بالعار منها. فزوجات زملائه يتجمّلن ويقمن بخدمة الضيوف مهما كان وقت زيارة الضيوف، حتى لو كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل. يجب أن تكون سعيدة لأنه مسيحي ملتزم، لأنه لو كان مسلماً لألقى بها منذ زمن بعيد في الشارع وتزوّج امرأة أخرى. بعد قليل توقّف عن الصياح وعن ضربها وغطّ في نوم عميق.

في اليوم التالي زارها أفراد أسرتها، وأعاد رامي على مسامعها كلّ اتّهاماته لها، وأخبر أسرتها عن زيارة الضابطين الأعلى منه رتبة ليلة البارحة زيارة وصفها بأنها «مضجرة لكنها واجب»، وأدان سلوك رنا. لم يذكر أنّه ضربها مرات كثيرة. قالت أمّها وشقيقها إنه محقّ، أما والدها الذي كان حزيناً، فلم يقل شيئاً، لكن نظراته الحزينة كانت تروي مجلدات عن تعاسته.

تساءلت رنا ما هي الفرصة المتاحة لها مع زوج كهذا. قالت إنه لا يوجد إلا حلّ واحد فقط وهو أن تتظاهر بالموت. إنه أمر صعب في البداية فقط، ثمّ تتعلّمين كيف تمضين أبعد من ذلك في عقلك، إلى مكان مرتفع وبعيد، ومن هناك تراقبين ماذا يفعل زوجك في السرير مع جثّة هامدة بينما لا تشعرين بشيء. لا قرف، لا غضب، لا شيء.

مع مرور الزمن، تعلّمت رنا أن لا تحسّ بشيء في أجزاء معينة في جسدها. لم تعد تشعر بألم أو بمتعة في شفتيها، أو في ثدييها، أو في شحمة أذنها. كانت مثل الفقير الهندي الذي شاهدته في أحد الأفلام. كان يمشي مبتسماً فوق زجاج مهشم وفحم متوهّج. أما عندما كان فريد يلمسها فكانت تشتعل مثل كرة من لهب.

twitter @baghdad_library

لم تلاحظ رنا كيف مرّ الزمن. تلاشى قوس قزح بغتة. ورأت زوجها ببدلته العسكرية على السطح أمامها. مذهولاً، ألقى نظرة عليها، استدار، وعاد إلى الشقّة.

بعد ربع ساعة تجمّع كل أفراد أسرتها هناك على السطح. كان شقيقها جاك يرمقها بغضب، وكانت أمّها تبكي، أما والدها فأمضى وقتاً طويلاً على الهاتف.

احاط بها جليد قاسي وبدأت رنا ترتعش من البرد في رداء نومها الرطب.

٢٣٧- مستشفى الأمراض العقلية

عندما استيقظت رنا، وجدت نفسها مستلقية على سرير أبيض. كانت الجدران بيضاء والسقف أبيض أيضاً. تناهت إليها أصوات صيحات أشبه ما تكون بصرخات حيوان خائف، وفاحت من المكان رائحة كافور قوية. كان ظهرها يؤلمها وكان لسانها جافاً. كادت تتجمد من شدة البرد. أحست برأسها ثقيلاً كالرصاص، لكنها استطاعت، شيئاً فشيئاً، أن تديره إلى أحد الجانبين. كانت معها في هذه الغرفة العارية امرأة أخرى مقيّدة إلى سريرها بثلاثة أحزمة جلدية. كانت نحيفة جداً ذات بشرة سمراء تميل إلى اللون الرمادي مجعّدة كما لو كانت مومياء عارية كالتي رأتها رنا ذات يوم في المتحف المصري. كانت المرأة مستلقية لا تأتي بحركة. حسبتها رنا ميتة. اعتراها قلق غريب. أين هي؟ ولماذا تستلقي في هذا المخزن مع امرأة ميتة؟ هل يظنون أنّها هي ميتة أيضاً؟ عندما أدارت المرأة رأسها جانباً، تنفّست رنا الصعداء. كان وجه المرأة الهزيل الذي عارك الزمن يشي بألم ومعاناة مثل شخص في لوحة الأرواح المعذّبة في لوحات الكنيسة التي تصور العذاب في جهنم.

«إنهم يحاولون تسميمي»، قالت المرأة بصوت فيه بحّة وأضافت، «لقد حقنوني بالسمّ لكي أموت ببطء حتى يرثوا بيتي»، شهقت المرأة بصوت فيه صفير ونظرت إلى السقف، ثم سألتها «من أحضرك إلى هنا؟ هل يحاولون

تسميمك أيضاً؟» هزّت رنا رأسها. أرادت أن تقول إنها لا تعرف، لكنّها كانت متيقنة من أن أحداً لم يحاول تسميمها.

نظرت رنا إلى جسمها وتأكدت من أنها غير مقيدة بأشرطة. انتصبت في جلستها، لكن شدة البرودة في الغرفة جعلتها تلقي بنفسها على الشرشف الأبيض ثانية.

فكّرت بقوس قزح، وفوجئت عندما وجدت أنها لم تعد مبلّلة بالماء، وأنها لا ترتدي ثيابها، بل هذا الثوب الأبيض فقط.

«يجب أن تخدعيهم، إذا أردتِ أن تظلي على قيد الحياة هنا في هذا الجحيم فيجب ألاّ تكوني صادقة مع أحد. كوني غائبة، تظاهري بالموت»، همست المرأة بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

كيف جاءت إلى هنا؟ تساءلت رنا. كان والداها يسندانها. وماذا حدث بعد ذلك؟ أين زوجها؟ ماذا فعل؟

«حلّقي في الهواء مثلي، أبحري في العواصف، شاهدي شواطئ وقصوراً، العبي مع الأطفال ونامي مع رجال وسيمين. إني أجوب شوارع دمشق، أتناول البوظة في سوق الحميدية، عندما يسأل ذلك الطبيب الأحمق جثّتي أسئلة هنا في مستشفى المجانين، ويحشوها بحبة مرّة الطعم، ينصت إليها، يقيسها، يلتقط صوراً. لكن بما أنني لا أجيب على أسئلته، لا، بل أتكلّم إلى المرأة الجالسة إلى الطاولة بجانبي في محل البوظة، إنه لا يفهمني، يظن أنني مجنونة. تركته يعتقد ذلك. هنا في العصفورية، بيت العصافير، أنا آمنة من التسمّم حتى يعود ابني من أمريكا ليأخذني».

كانت المرأة تتكلم بكلام غير متماسك. عادت رنا بحذر إلى نقطة الزمن التي بدأت تزداد وضوحاً في ذاكرتها الآن. فقد توجّه زوجها نحو الباب. في تلك اللحظة أدركت أنّه اتصل بطبيب. لماذا؟ إن صحتها جيدة وكل شيء على ما يرام.. حزينة بعض الشيء، نعم، لكن لماذا تحتاج إلى طبيب؟ لأنها صنعت قوس قزح؟

حاولت أن تنهض عن الأريكة وتتبع زوجها إلى الباب وتطلب منه أن

twitter @baghdad_library

يصرف الطبيب، فهي ليست بحاجة إليه. أخذتها أمّها من ذراعها اليمنى، ووبخت والدها الذي كان متردّداً، وقالت له ألا يظل نائماً ومتسمراً على قدميه، بل أن يساعدها. حاولت رنا أن تتملص منهما وتحرر نفسها.

«دعوني وشأني وعودا إلى بيتكم»، توسلت إلى أمها وأبيها، لكن بدا أنهما لم يفهما ما كانت تقوله. فقد دفعاها إلى الأريكة بقوة حديدية. صرخت خوفاً لأنهما فقدا عقليهما، ثمّ أحسّت بالإبرة تغرز في جلدها.

أمضت رنا أسبوعين في مستشفى الأمراض العقلية. ثمّ، ونزولاً عند رغبة أسرتها، أخرجها الدكتور حُصّ، نائب المدير الطبي. عادت رنا إلى البيت. كانت تبدو في حالة أفضل. في أول يوم من عودتها، ألقت بالحبوب في سلة المهملات.

٢٣٨- صبري وراحيل

«في أحد الأيام، أحبّت امرأة رجلاً تعلو أنفه ثؤلولة كبيرة»، قال جبران، «كان يخيّل إليها أنه أكثر الرجال وسامة في العالم. لكن بعد سنوات، وفي صباح أحد الأيام، لاحظت الثؤلولة. سألته منذ متى تحمل هذه الثؤلولة على أنفك؟ فأجابها الرجل بحزن، «منذ أن توقّفت عن حبّي»».

رشف جبران شايه بصوت مسموع وهز رأسه كما لو كان يفكّر بكريمة.

«هيا يا صديقي القديم»، قال ميشيل النجار، مستيقظاً من أفكاره، «ألا تستطيع أن تحكي لنا قصّة حبّ نهايتها سعيدة من باب التغيير؟»

ضحك جبران وقال: «نعم بالفعل». رشف مزيداً من الشاي قبل أن يبدأ في سرد قصّته، ثم أضاف، «كان صبري شاباً وسيماً، جريئاً وطائشاً بعض الشيء. كان أصغر مني، لكنه كان فارع الطول قوي البنية، لذلك كان الناس يعتقدون أنه أخي الأكبر. وعندما كنت أجوب المدينة معه، لم يجرؤ أحد على إهانتي رغم ضآلة جسمي خوفاً منه.

حسناً، في أحد الأيام أُغرم صبري براحيل، وهي فتاة يهودية من حارة اليهود القريبة. كان في الأمر شيء من الجنون. أصبح صبري وراحيل

حديث الأحياء المسيحية واليهودية. وعلى الرغم من أن إخوة راحيل ظلوا يوسعون العاشقين ضرباً، فقد كان أحدهما يعود إلى الآخر.

لم يكن أحد سعيداً بفكرة الزواج إلا والد ووالدة صبري، لأن راحيل ستصبح بهذا الزواج مسيحية. فقد كان والده عضواً في جمعية كاثوليكية متعصبة، تعتبر اليهود قوماً من المساكين العميان الذين لا يستطيعون رؤية أن المسيح ابن الرب قد جاء منذ عهد سحيق. لذلك كان يشجّع صبري على أن يفتح عيني راحيل.

لكن ذلك كلّه توقف بغتة عندما أُعلن عن إنشاء دولة إسرائيل بعد شهرين. فرح يهود دمشق بذلك، لكنهم لم يجرأوا على الجهر بحبورهم. راح الناس ينظرون إليهم بارتياب حيثما توجهوا. ودبّ الخوف في نفس والد صبري. فقد كان موظفاً حكومياً بسيطاً يعمل في وزارة الداخلية منذ عهد الفرنسيين وظل في وظيفته بعد الاستقلال بعد أن غيّر ببساطة العلم المعلق على الحائط من فرنسي لسوري، وغيَّر بكل بساطة صور الإنقلابيين الذين تناوبوا على السلطة في دمشق وأصبح كباقي الموظفين محترفاً في تبديل صور الزعماء على الجدار فوق رأسه.

«أأنت مجنون؟»، قال له والده بغضب، «ماذا سيقول الناس إذا تزوّج ابني فتاة إسرائيلية؟» لكنه قوبل بعناد صبري الذي كان صلباً كحجر الصوان.

«سيقولون إن صبري تزوّج فتاة يهودية سورية»، أجابه الشابّ. كان والد صبري يعرف ابنه العنيد القليل الكلامَ.

منذ ذلك الحين، بدأت العائلة كلها، كما لو كان ذلك باتفاق متبادل، يتحدثون عن صفات راحيل السيئة. فأخذوا يقولون إن أسنانها منخورة، وأن ساقيها قصيرتان، وأنفها طويل جداً. كما كانت تضحك بقهقهات غير مهذّبة، فضلاً عن أنها لن ترث شيئاً.

كان صبري يترك أفراد أسرته وهم يكيلون الشتائم ويذهب لزيارة حبيبته راحيل، بعد أن يتشاجر كل يوم مع أحد من إخوتها الكثيرين الذين كانوا يمنعونه من المرور من أمام بيتهم.

twitter @baghdad_library

ذات يوم اختفى صبري طوال أسبوعين. عاد بعدها وهو يشبك يده بيد راحيل. لم يكن يعرف أنه عندما كان يعقد قرانه بها في بلدة صغيرة في المنطقة الشمالية، كانت ألسنة أسرته الخبيثة قد جعلت زوجته جاسوسة إسرائيلية وأنها اختطفت صبري الساذج.

تبرأت عائلة صبري منه واعتبرته خائناً. وأعلن والده ذلك رسمياً لكي يقتنع رئيسه في الدائرة الحكومية من وطنية مستخدمه. ارتدت أسرة راحيل ثياب الحداد، وتبرأ أبوها منها وحرم ابنته من الميراث.

لكن صبري لم يكترث بما كان يقوله أهالي الحيّ اليهودي أو الحيّ المسيحي. فقد زرته مرات كثيرة في الصالحية. كان هو وراحيل متحابين وسعيدين لأنهما كانا يعيشان بسلام في المدينة الجديدة، بعيداً عن دمشق القديمة. هناك في الصالحية عاشا مغمورين لا يعرفهما أحد آخر.

لكنّهما لم يبقيا هناك لفترة طويلة. فعندما وقعت أول مواجهة عسكرية بين إسرائيل وسوريا، اتهمهما أحدهم بأنهما يستخدمان أداة لتوجيه مكان سقوط قنابل القاذفات الإسرائيلية.

كان ذلك هراء، لكن صبري وراحيل أُخضعا للاستجواب وتعرضا للتعذيب، ولم يقدم لهما أحد الحماية، لا المطران ولا الحاخام، ناهيك عن أسرتيهما.

أسبوعاً كاملاً أمضياه في الجحيم، وعندما خرجا من السجن، تغيّرا. فقد ماتت ضحكتهما.

قبل أن يمضي شهر على إطلاق سراحهما اختفيا. كان ذلك قبل عشرين سنة. وسرت عنهما إشاعات خبيثة لا أساس لها من الصحة. وبعد ستّة أشهر تلقيت منهما رسالة يقولان فيها إنهما يعيشان بسعادة في نيويورك. واستمرّ صبري يكتب لي لعدة سنوات، وقال إن أطفاله يهود حسب القانون اليهودي، ومسيحيون عرب حسب القانون العربي، ومواطنون أمريكيون حسب القانون الأمريكي. كانت تلك هي مساهمته في السلام العالمي.

كان في صبري دائماً شيء من الجنون» أنهى جبران قصّته. ضحك متّى وصاح «مثلي، مثلي».

أما توفيق الذي كان واقفاً عند مدخل القاعة طوال ذلك الوقت، يراقب وجوه جمهور جبران الحاضرين في غرفة كرة الطاولة، فقد همس شيئاً في أذن جبران في نهاية الأمسية. في وقت متأخر من تلك الليلة، بقي البحّار ليساعد توفيق في تنظيف المقهى. في تلك الليلة نفسها، داهم خمسة رجال من قوات الوحدات الخاصّة غرفة جبران. «كانوا مسلحين يرتدون بدلات عسكرية مموهة»، قال أحد جيرانه، «كأنهم ذاهبون لتحرير فلسطين». عادوا إلى سياراتهم بخفي حنين. اختفى جبران إلى الأبد. كان هناك رجل واحد يبتسم وقد بدت على وجهه أمارات السعادة. توفيق. وبعد شهر واحد أُغلق النادي مجدداً بأمر من وزير الداخلية.

٢٣٩- الياس

عندما فتحت المدرسة أبوابها في أوائل تشرين الأول كانت قرية شقبا قد تغيّرت تماماً. فقد أضحت الآن في الخطّ الأمامي للجبهة، وأصبح عدد الجنود فيها أكثر من عدد المزارعين.

من بين الراديكاليين الثلاثة، كان أديب هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة. فقد أمضى شهرين يجوب البراري كي لا يقع في أيدي الإسرائيليين أو الأردنيين أو السوريين، وأصبحت حركاته ونظراته تشي بالارتياب من كل شيء. أصبح قليل الكلام ولم يعد يختلط بزملائه في المساء.

في المدرسة وفي القرية، دارت كلّ الأحاديث عن أعمال الراديكاليين البطولية. فالجيش الإسرائيلي لم يتمكن من الاستيلاء على جميع القرى التي رفعت علمهم فيها إلا بعد معارك طويلة طاحنة. قاتلوا في كلّ شارع وفي كلّ بيت. وكان عدد النساء اللاتي قتلن وهن يقاتلن كبيراً على نحو مدهش.

كان جميع القرويين يناقشون الأمر بافتخار شديد كما لو كانوا هم أنفسهم ينتمون إلى الراديكاليين المحظورين. من الناحية الأخرى، كان

twitter @baghdad_library

يُهمس أن المقاتلين الذين ظلوا على قيد الحياة من تلك الجماعة قد قُتلوا على أيدي قوات الأمن الأردنية أو السورية لأنهم كانوا يشكلون خطراً على الحكام في كلا البلدين أكثر مما يشكله الإسرائيليون.

اعترى فريد شعور باليأس وانزعاج شديد إلى درجة أنه لم يكد يغمض له جفن. فلم تكن هناك أي فرصة لحدوث أيّ تغيير وشيك. لكنّه كان يظلّ صاحياً في الليل أيضاً لأنه لم تعد لديه طاقة على التعليم. أراد أن يهرب مع رنا أخيراً ويبدأ حياة جديدة، لكنّه لم يعرف كيف.

في خريف عام ١٩٦٧، كانت الحكومة السورية بقيادة الجنرال تيسان قد انتهت أخلاقياً. ورأى النقيب عمران أنّ هذه هي اللحظة المناسبة للقيام بانقلاب أبيض، فنفذ الانقلاب مع شقيقيه شفطان وبدران. لم تُطلق رصاصة واحدة. ولم يعد السوريون منذ زمن بعيد يبدون حزناً على أيّ حاكم يطاح به أو يرحبون بحاكم جديد ببهجة كما اعتادوا بعد الإنقلابات الأولى.

راقب فريد آذن المدرسة وهو يزيل صور الرئيس تيسان من جميع صفوف المدرسة، ثم مزّقها وأسند إطارات الصور الفارغة إلى الجدار في غرفته الضيقة.

«سيكون التلاميذ سعداء لأنهم لن يضطروا بعد الآن لرؤية تكشيرة الرئيس تيسان على وجهه القبيح. ولنأمل بأن يكون وجه الرجل الجديد أفضل»، قال وابتسم ابتسامة عريضة مثل جميع السوريين الذين بدأوا يظهرون نوعاً خاصاً من الازدراء وعدم الاحترام خلال الفترة الفاصلة بين سقوط حاكم ومجيء حاكم آخر إلى سدة الحكم. وأطلقوا عليها عبارة «حريتهم المؤقتة».

«حسناً، لن يكون مثل عمر الشريف، هذا أمر مؤكد»، أجاب فريد.

بعد أسبوع، وصلت صور الرئيس الجديد. كان يبدو متجهّماً وبشعاً.

«مساكين هؤلاء الأولاد»، قال الآذن، وبدأ يعلّق الصور.

٢٤٠- الهروب

منذ عيد الميلاد، لم يعد فريد يفكّر بشيء إلا بخطته التي وضعها ليهرب مع رنا ويختفيا، ولن يطّلع أحد على مكان اختفائهما إلا كلير. كانت أفضل خطة هي الهروب إلى فرنسا حيث يدرس ثم يهاجر إلى كندا، البلد الذي يقبل هجرة الكثير من المسيحيين من الشرق. لم يكن الحصول على الجنسية الكندية يعتبر مشكلة للأكاديميين. وقد أدى العنف اليومي وصعود الأصوليين إلى تدني عدد المسيحيين كثيراً في الشرق الأوسط.

كانت كلير تحبّذ هذه الخطة، ووعدت أن تعطي فريد خمسين ألف دولار كانت قد وضعتها له جانباً. «أريدك أن تخرج من هذا الجحيم السياسي وتتعرف على شيء آخر غير الكراهية والقتال»، قالت بحزم.

وانهمرت دموع الفرح من عيني رنا التي كانت هي أيضاً قد وفّرت حوالي عشرة آلاف دولار منذ زواجها لكي تهرب.

منذ ذلك الحين، بدأ فريد يستغل كلّ لحظة فراغ لدراسة الوثائق التي تمكّنه من الدراسة في فرنسا. واتصلت رنا بصديقة لها في باريس متزّوجة من جرّاح معروف لكي تسعى للحصول لها على مقعد في الجامعة. بعدها ستُمنح تلقائياً تأشيرة لدخول البلاد.

بعد فترة وجيزة، قدم فريد أوراقه، ولم يبق له إلاّ أن يجري مقابلة في السفارة الفرنسية يقرر خلالها الملحق الثقافي إن كان بإمكان فريد أن يقدّم أوراقه للدراسة في باريس أم لا. لكن على أي حال، يجب ألاّ يعرف أحد في مدرسة شقبا ما كان يزمع القيام به. لأن تقريراً واحداً عنه إلى السلطات كان سيكفي لمنعه من السفر.

في يوم السبت ٩ آذار طلب من المدير إذناً للسفر إلى دمشق بحجة أن صداعاً حادّاً قد ألمّ به. ففي حديث خاص، كان قد أخبر حسني أنه يعاني من الصرع منذ مدة طويلة مع أنه أخفى ذلك عندما تقدّم بطلب للحصول على وظيفة معلّم لكي يتمّ قبوله لأنه كان شغوفاً بالتعليم. لكنه قال إن ذلك ينتابه دائماً في الربيع والخريف عندما يتغير الطقس، عندها يتعين عليه أن

twitter @baghdad_library

يتناول أدوية قوية بإشراف طبي. لم يشعر فريد بتأنيب الضمير لادعائه الإصابة بهذا المرض. فقد كان يعرف أنّ لدى المدير معلماً بديلاً يمكن أن يحلّ محله. فقد كان صديق حسني أستاذ رياضيات متقاعداً وسيكون سعيداً ليكسب بضع ليرات إضافية.

في يوم الاثنين التالي، حصل فريد على شهادة طبية في دمشق تقول إنه ينبغي أن يتغيب عن العمل لمدّة أسبوع لأسباب صحية. في الساعة العاشرة تماماً من صباح يوم الأربعاء، كان يجلس في غرفة الانتظار في السفارة الفرنسية، متأنقاً في ملبسه بناء على نصيحة كلير. أُعجب الملحق الثقافي بلغته الفرنسية، وعندما شرح له فريد أنه أمضى ثلاث سنوات مع اليسوعيين، ضحك الرجل وقال: «إذاً يمكنني أن أدعوك *"mon frère"* فقد أمضيتُ أربع سنوات معهم أيضاً، لكن ليس في مدرسة داخلية. كان أبي يكره الكنيسة بحد ذاتها لكنّه كان شديد الإعجاب بالتدريب والانضباط في المدارس اليسوعية».

«وهو الجزء الذي يضغط على أعصاب تلاميذهم»، أجاب فريد بصراحة، فأومأ الملحق. في نهاية المقابلة صافح الشاب السوري مصافحة وديّة. «سأفعل كلّ ما بوسعي حتى تحصل على مقعد للدراسة في باريس»، قال وبدا من نبرته بأنه جاد في كلامه، وأضاف، «ينبغي أن تتلقّى إشعار قبول خلال أسبوعين».

منتشياً بنجاحه، أراد فريد أن يشارك سعادته مع شخص آخر. كان يوسف قد سافر مع تلاميذه في رحلة مدرسية إلى تدمر لمدة أربعة أيام، فاتصل بليلى ودعاها إلى الغداء.

«لنلتق في مطعم علي بابا بعد ساعة»، قالت.

«جيد، ما دمت ستتركينني أدفع ثمن الطعام. فقد أصبح معي مال كثير وشيء سعيد لنحتفل به».

«رائع. يمكننا إذاً أن نحتفل أخيراً بشيء سعيد»، أجابت ليلى، وأطلقت تنهيدة.

وصلت إلى المطعم في الموعد المحدد وابتسمت لفريد. كانت تبدو أجمل من أي وقت مضى لكنها كانت حزينة. فمنذ عدة أشهر، أصبحت على خلاف مع زوجها الذي عاد من أثينا في الصيف الماضي وقد تغيّر كثيراً، لكنه كان يرفض التحدّث عن الأمر.

لم يخبرها فريد شيئاً إلا أنه سيترك العمل في خدمة الدولة في نهاية السنة. قالت ليلى: «إن أفراد عائلة مشتاق ليسوا موظفين حكوميين جيدين»، وأضافت، «لقد سئمت أختي بربارة من الوظيفة أيضاً. وهي تريد أن تترك وظيفتها لكن زوجها لا يسمح لها بأن تفعل ذلك».

تركت ليلى ابن خالها ينقل إليها مزاجه الجيد بالعدوى، ونسيت مشاكلها الخاصة أثناء وجبة الطعام اللذيذة التي دامت لأكثر من ثلاث ساعات.

بينما كانت الحافلة تقترب من الموقف القريب من شارع بيتهم، ألقى فريد نظرة سريعة على حارة الزيتون، وظل جالساً في مكانه. كانت تقف على الدوام ثلاث سيارات مركونة بجانب بيت والديه، أما الآن فقد رأى سيارتين أخريين. كانت إحداهما مركونة وسط الشارع قبالة مدخل البناية تماماً. ولا يوقف أحد سيارته في منتصف الشارع هكذا إلا رجال المخابرات. وكانت سيارة لاندروفر مركونةً عند منعطف الشارع مع أن إيقاف السيارات هناك ممنوع تماماً. رأى فريد فيها رجلين. كانا متنكّرين بطريقة سيئة للغاية.

نزل من الحافلة في الموقف التالي الذي يلي الباب الشرقي، وتمشّى عائداً بشكل مخفي ونظر إلى السيارة ثانية. نعم، لا ريب في ذلك: إنهم عناصر من المخابرات.

انعطف إلى شارع المسبك. كان عقله مضطرباً. ماذا حدث؟ في الآونة الأخيرة، كانت قد قُمعت ثورة صغيرة في مهدها، وهكذا أحكم عمران سيطرته الكاملة. فلماذا المزيد من الاعتقالات، بعد إطلاق النار التافه ذاك في الثكنات؟ لقد ألقي القبض على ضابطين زُعم أن العراق تمولهما للقيام

twitter @baghdad_library

بانقلاب على عمران، فاعتقلا في منتصف شهر شباط على يد شقيق الرئيس ووحداته الخاصة، وتم القضاء عليهما مع مناصريهما.

منذ أن طرد فريد من خلية الراديكاليين في الصيف الماضي، لم يشارك في أي نشاط سياسي لأنه لم يعد يجد لديه الرغبة في العمل السياسي. فقد ألقي القبض على عدد كبير من القوميين والشيوعيين والأصوليين والراديكاليين ومناصري النظام العراقي. حتى أن الأمر انتهى بالفلسطينيين في السجن، لأنهم تجاهلوا أوامر عمران القاضية بعدم شن أيّ عملية عسكرية ضد إسرائيل على التراب السوري. اتهم بعضهم الطاغية بالجبن، لكنّه لم يكن يرغب في أن يعرّض أحداً أو أيّ شيء في سلطته للخطر. لذلك تفادى في السنوات الأولى من حكمه أيّ مواجهة مع إسرائيل، وكان على الفلسطينيين أن يطأطئوا رؤوسهم ويحافظوا على الهدوء.

لكن لماذا تلاحق المخابرات فريد؟ هل وقعت وثائق شيوعية أو راديكالية قديمة في أيدي الشرطة أثناء إحدى مداهماتهم العديدة، وهل ورد اسمه في إحداها؟ أم هل وشى به أحدهم؟ كان واثقاً من أنه لم يرتكب أيّ جريمة، لكن كيف يمكنه أن يوضح ذلك للرجال الذين يلاحقونه؟

كان ألف سؤال وسؤال يعصف في رأس فريد عندما وجد نفسه فجأة واقفاً عند باب بيت متّى. كان صديقه يتناول الشاي في تلك اللحظة.

«أخي، إنك شاحب الوجه! تفضل. يسعدنا أنا وفريدة أن نشرب الشاي معك - تفضل»، قال متّى بنبرة ودّية.

«إنهم يريدون اعتقالي مرة أخرى»، قال فريد، ولم يعرف لماذا بدأت تنهمر دموعه.

«يمكنك أن تمكث هنا يا أخي، ولن يتجرأ مخلوق أن يلمسك»، أجاب متّى.

«لا، هذا ليس في صالحي ولا في صالحك أو في صالح فريدة أيضاً. إنهم يعرفون أنّنا أصدقاء ومن القرية نفسها. لكن يمكنك أن تسدي لي معروفاً. هل تستطيع أن تذهب إلى بيتنا خلسة وتتأكد إن كانت شكوكي في

محلها؟ هذه مائة ليرة اشترِ بها كيسين من البطاطا وكيس بصل من تاجر الخضراوات، واتصل بكلير وقل لها إنك اشتريت ما تريده. ولكي تكون في مأمن ولا تظهر أيّ شعور بالإثارة إذا كان هناك رجال مخابرات في البيت. إن سيارتنا الفيات مركونة خارج البيت، وسيارة الفورد التي يملكها الدكتور رحباني وسيارة الرينو الجديدة التي يملكها الصيدلي صادق. هل تعرفه؟»

«نعم، طبعاً. إن زوجته الجميلة حنان إحدى زبوناتي الجيدات»، قال متّى بافتخار.

«جيد. وتوجد أيضاً سيارتان غريبتان، ليس بالصدفة، إني متأكّد من ذلك. أريدك أن تمعن النظر فيهما، لكن احرص على ألاّ تقول أيّ شيء. إنهم ليسوا أغبياء».

«لا تقلق يا أخي»، قال متّى، والتفت إلى فريدة وقال، «وأنت اعتني بأخي العزيز، يا حمامتي الصغيرة، وهدئي من روعه».

قبّلته على جبينه وقالت له: «احرص على نفسك، يا قلبي الغالي. الله وحده يعلم كم أنا فخورة بك».

عاد متّى بعد ساعتين. لم يكن رجال المخابرات في البيت بل كانوا جالسين في سياراتهم. فتّشوه وحاولوا إخافته بأسئلة مخادعة، لكن متّى تصرّف وكأنه معتوه. وأخيراً سمحوا له بأن يأخذ أكياس البطاطا والبصل إلى البيت ومنعوه أن يكلّم كلير. وعندما أصرّ على أن تدفع له إجرة نقل المؤونة، بدأ يصيح ويبكي، فسمح لها رجال المخابرات أن تدفع له بإشرافهم ودون التفوه بكلمة.

قبّله فريد وقبّل فريدة لدى مغادرته، وتوجّه إلى الشارع المستقيم حيث استقل سيارة أجرة وأعطى السائق عنواناً في حي الميدان.

أصبح حيواناً مطارداً وكان الصيّادون الذين يتعقبونه غير مرئيين. يمكن أن يكون أيّ شخص مدني، بمن فيهم سائق سيارة الأجرة، واحداً منهم.

لماذا سارت الأمور بشكل سيء؟ من يلاحقه؟

«فندق النسيم»، قال السائق، فأيقظه من أفكاره.

twitter @baghdad_library

كان صاحب «فندق النسيم» ابن عم بعيد ليوسف. كان رجلاً كتوماً. عندما رأى فريد فهم دونما حاجة إلى قول أي كلمة، ولم يصعب عليه الأمر.

كان فريد يخزّن في ذاكرته عشرة من هذه العناوين. أشخاص يمكن الاعتماد عليهم يكرهون الطغات أحرار النفس كرماء ولم يكونوا على علاقة مباشرة به بأي حال. لكنّه لا يستطيع المكوث في أي مكان لفترة طويلة، فأفضل تمويه له كان التنقل باستمرار من مكان إلى مكان. الفترة بين الساعة الواحدة والخامسة صباحاً فقط تكون هادئة، فيستلقي وينام، منهكاً، يائساً، جائعاً في معظم الأحيان.

صار لزاماً عليه الهرب في دمشق. أصبح رجلاً مطارداً. ولدى المخابرات رجال يرصدون جميع الطرق والشوارع في المدينة. وسرعان ما نسي فريد بأن يفكّر بحظّه العاثر. حتى إنه لم يعد يفكّر برنا أو بكلير. لم يعد يفكّر بأي شيء على الإطلاق، كما لو كان قد فقد جميع الأفكار ولم تبق لديه سوى فكرة واحدة وهي أن يظل على قيد الحياة.

خلال هروبه، تعرّف فريد على جميع الشوارع. فقد أصبحت دمشق، هذه المدينة الجميلة، المضيئة، الرحبة، قرية مكتظة. غادر مئات آلاف الفلاحين قراهم وجاؤوا إلى العاصمة. وكان الرجال الذين استولوا على السلطة فلاحين مثلهم، وهذا الأمر جذب الناس أكثر. وبدأت تنتشر المباني السكنية غير المرخّصة في كل مكان، ولم تغمض الحكومة عيناً واحدة فقط بل عينين اثنتين عن الأبنية العشوائية التي كانت تشيد في النواحي الفقيرة على تخوم المدينة.

مرات عديدة وجد فريد أصدقاء يُؤوونه عندهم بصمت، ومع مرور الوقت صار بإمكانه اكتشاف رجال المخابرات وهم يجلسون في المقاهي، متظاهرين بقراءة الصحف. إن قراءة الصحيفة في مقهى فنّ، وفريد يستطيع أن يعرف إن كان الرجل يقرأ من أجل المتعة والمعرفة أم أنه يتظاهر بذلك لأنه يؤدي مهمة معينة.

بدأت النقود التي بحوزته تنفذ، وبعد ثلاثة أيام من عدم تناول الطعام اتصل بليلى من أحد المقاهي. بالطبع كانت تلك مجازفة، على الرغم من جميع التدابير الوقائية التي اتخذها. من يمكنه الجزم بأن المخبرين لا يعرفون الإشارات السرّية لكلّ شخص الآن؟

كانت قد علّمته طريقة يمكنه أن يطلب بها المساعدة منها عند الضرورة دون الحاجة إلى أن يقول كلمة واحدة وهي أن يدع هاتفها يرنّ ثلاث مرات، ثم يضع السماعة، ثمّ يدقّ خمس مرات، وأخيراً ثلاث مرات أخرى. وهذا يعني أنهما سيلتقيان في «مقهى فريدي» القريب من المصرف المركزي بعد ساعة.

وصلت ليلى في الوقت المحدد ودنت من طاولته. كانت شاحبة كما كانت يوم وفاة والدها، وقبّلت فريد على خدّه.

«اشتقت إليك»، قالت، «كيف حالك؟» ثمّ خجلت من نفسها لأنها سألته هذا السؤال.

«تعيس. يجب أن أجد وسيلة للخروج من هذا المأزق» قال، «لدي ثلاث أو أربع مشاكل عليّ حلّها في وقت واحد. يجب أن أغادر البلد. يجب أن أهرب إلى فرنسا مع رنا بأسرع ما يمكن. لقد حضرت كلير نقوداً تكفيني للقيام بذلك». تردّد فريد، ثم قال: «يمكنك مساعدتي بطمأنتها وإحضار أوراقي من السفارة الفرنسية وإيجاد مزور جيد ليعدّ لي جواز سفر. إن يوسف يعرف رجلاً ماهراً. عندما أحصل على هذه الأشياء سأجتاز الجبال إلى بيروت بطريقة ما. عندما أصبح خارج الحدود وأحصل على الأوراق المطلوبة للجامعة، أستطيع أن أحصل على تأشيرة من السفارة الفرنسية هناك».

«لن يكون البدء بعمل ذلك صعباً، بما أن أحداً لا يلاحقني. لكن ما إن أطأ عتبة بيتكم حتى يضعوني تحت المراقبة، لكنها لن تدوم طويلاً. فعندما يرون أنها مجرد زيارة عائلية وأنني سأعود إلى بيتي مثل إمرأة صالحة، وأنني لا أنقل رسائل فإنهم سيتركونني وشأني. لكنّ يجب أن تصبر. لن أراك ثانية إلا بعد أن أجمع كلّ الأشياء التي تحتاجها. في هذه الأثناء، يمكنك إلى

twitter @baghdad_library

ذلك الوقت أن تختبئ في شقّة تملكها إحدى صديقاتي. إنها تقوم الآن بجولة في الولايات المتحدة حيث تلقي محاضرات ولن تعود إلا بعد ثلاثة أشهر. غيّر من مظهرك، أطلق شاربك، دع شعرك يزداد طولاً، واختلط بالناس. لن يعرفك أحد هنا. اذهب إلى السوق، اشتر ملابس جيدة، اطبخ لنفسك طعاماً جيداً واسترخ. سيكون كل شيء على ما يرام.

وبالمناسبة، فإن الجيران الذين يقيمون في الطابق الذي فوقك هم طلاب أغنياء من السعودية وهم ليسوا مهتمين بأي شخص آخر يسكن في البناية، وهم لا يعرفون أحداً. أما الجيران في الطابق تحت شقتك، فهما عجوزان لا يسمعان جيداً، لكنّي سأزورهما اليوم وأخبرهما بأن ابن عم صديقتي سيمكث في شقّتها لبضعة أسابيع، ويجب عدم إزعاجه لأنه يؤلف كتاباً».

نظرت ليلى في عيني فريد. كالمعتاد، لكنها لم تشعر هذه المرة بجاذبيته الجنسية، فقد أصبح الآن طفلاً لا حول له ولا قوة، طفلها الذي ستحميه كما حمته في الماضي عندما ضمته بين ذراعيها أول مرة.

انطلقت فيه بارقة أمل عندما دخل إلى مخبأه الجديد، وبعد أن أخذ دشاً حاراً نام بعمق لأول مرة منذ بضعة أسابيع. إستيقظ والأمل يغمره، لكن بعد يومين تحطم ذلك الأمل. فبمحض الصدفة، رأت امرأة في البناية المقابلة شخصاً ينسلّ إلى الشقّة في الليل ويتحرك فيها. ظنّت أن فريد لص فاتصلت بالشرطة. دهش الضابط الشاب في قسم إدارة التحقيق الجنائي الذي اعتقله، الملازم أول صدقي، عندما اتصل به الرائد مهدي سعيد من المخابرات السياسية مهنئاً. «لقد كسرت يد إرهابي خطير وأرحتنا منه».

٢٤١- ليلة موحشة

لم تسمع رنا إلا النزر اليسير من ليلى، وقد أصبحت فجأة وحيدة تكابد رعبها. لم يكن هناك أحد تستطيع أن تتحدث إليه. فقد كانت دنيا مسافرة، وكلير في حالة بائسة لا تستطيع أن تتلقى من رنا أي عزاء، ولم تردّ ليلى على الهاتف أو تفتح باب بيتها. فقد أوضحت لها كلير بأنها تشعر بالذنب

لإلقاء القبض على فريد، فقد كان عليها أن تحذّره من تلك الجارة النسناسة المتحمسة.

ألقى الليل بثقله على رنا التي لم يغمض لها جفن. ماذا يفعلون به الآن، تساءلت؟ لقد كان الراديكاليون في وضع أسوأ من وضع أي شخص آخر، لأنهم، شأنهم شأن الإخوان المسلمين، حملوا السلاح ضدّ النظام. لا بد أنهم سيعذّبونه، وأنا أستلقي هنا في سرير ناعم بجوار ضابط في الجيش ضعيف الشخصية مستعد لأن يفعل أيّ شيء لكي لا يثير حفيظة السلطات.

أحست أن رأسها سينفجر. غادرت السرير. كان عليّ أن أخبئ فريد هنا، قالت لنفسها. فلن يخطر ببال أحد أنه سيكون هنا، ولو اكتشفوا ذلك فإنهم سيلقون القبض عليّ أيضاً، عندها ستنتهي تعاستي نهاية جيدة. سحبت الستائر جانباً في نافذة غرفة النوم. كانت أضواء النيون فوق لافتة السينما مطفأة، لكنها تبينت بوضوح وجه أنطوني كوين في دور زوربا اليوناني.

غادرت غرفة النوم حافية القدمين، وبهدوء فتحت الباب المفضي إلى الطابق الأعلى وتوقّفت للحظة. أنعشتها هبة نسيم عليل. على السطح، أصبحت تتنفّس بسهولة. بضع سيارات كانت تمر في الشارع أسفل المبنى أغلبها سيارات أجرة تلتقط السكارى من النوادي الليلية وتنقلهم إلى بيوتهم في هذا الوقت من الليل. لا بد أن فريد موجود الآن في سجن «العناصر الخطيرة»، كما كان زوجها والحكومة يصفون معارضيهم السياسيين - في مكان بعيد في الصحراء. لعله نائم في هذه الساعة، لكن هل يفكّر بها عندما يكون مستيقظاً؟ راحت تنصت لصوته يناديها في داخلها، لكنّها لم تسمع شيئاً.

في البناية المجاورة كان أحدهم يبحث عن إذاعة ما. انطلقت من مذياعه سمفونية اختلطت فيها أصوات مختلفة. عندما توقّف فجأة، ملأ صمت رهيب السماء. أغمضت رنا عينيها وتخيّلت فريد مستلقياً على الأريكة في غرفة الأستوديو الذي خصصته لنفسها.

كانت قطّتان تهسهسان لبعضهما فوق سطح قريب. ثمّ ابتلعهما الظلام.

twitter @baghdad_library

«أين أنت يا حبيبي؟» همست. خرقت طائرة الصمت. ارتجّت نوافذ غرفة الأستديو. لم ترغب في شيء سوى السفر مع فريد بالطائرة خارج هذا البلد ولا يعودان إليه أبداً. لم يكن يهم إلى أين تذهب ما دامت معه. لكنه يجرّ قدميه بتثاقل. إنه متعلق بدمشق. كانت المدينة جزءاً من روحه على الرغم من أنها كانت مجرد قفص بالنسبة لها. رأت العالم في الخارج لكنها لم تتمكن من التخلص من شبكة الأسلاك القوية التي حالت بينها وبين حريتها.

اقتربت من حافة السطح ونظرت عبر شق في السياج الخشبي. كانت جميع النوافذ مغلقة الآن. الناس نائمون خلفها، بعد ان وضعوا أقنعتهم وطقم أسنانهم الصناعية على مناضد بجانب أسرّتهم. هي أيضاً لديها قناع. إنها لا ترتديه الآن، لكنه جاهز باستمرار، تضعه كلما دنا منها زوجها أو أي إنسان آخر.

«فريد»، همست، «هل تسمعني؟ يجب أن تكفّ عن الرغبة في تغيير الأشياء! دع الناس يعيشون حياة زمنهم، ودعنا ننقذ حبّنا».

بدأ المطر يهطل. جلست على كرسي.لم تشعر بالبرد. في السنوات القليلة الماضية لم يستطع أن يترك باقي العالم وراءه كما فعل ذات مرة عندما هرب معها. بدل أن يستمتع بصحبتها لأن العالم الخارجي كان يعاني. كان يضع قناعاً أيضاً، لكنّه كان يظن أنه وجهه الحقيقي، وهذا ما كان يحزنها. عندما بزغ الفجر، اعترتها برودة شديدة. الآن فقط لاحظت أنها مبلّلة حتى الجلد.

«تعالي يا طفلتي»، قال لها أبوها وأخذها من يدها. كانت سعيدة. ابتسمت له، وهبطت إلى الطابق السفلي تكاد تحلّق. بدت خفيفة جداً. لو لم تكن أمّها ورامي واقفين هناك لظنت أنها في حلم.

«سيأتي الطبيب قريباً»، قال زوجها، وللحظة ظنت أن أحداً قد تعرض لحادث.

كتاب الضحك الرابع

من يزرع الشك يحصد خونة

*

دمشق، ١٩٦٥ - ١٩٦٨

٢٤٢- الشعر

عندما أُلقي القبض على نوري الحكيم، الشاعر المفضل لدى يوسف، قال المثقّفون في مقهى «الهافانا» إن الحكيم رجل محظوظ، فقد تبين أن الرئيس بيضان أكثر إنسانية من سلفه لأنه لم يأمر باعتقال زوجة الشاعر أيضاً أو أطفاله الثلاثة أو والده.

لم يكن العديد من رواد مقهى «بلدي» يعرفون من هو الحكيم، لكنّهم كانوا يعرفون أنه متّهم بتهمة الكفر. وأنه يستطيع أن يعتبر نفسه محظوظاً، لأن الحلاج صُلب لإبداء ملاحظات مشابهة، أما الحكيم فإنه لا يزال حياً يرزق.

واعتبر المثقّفون من روّاد مقهى «كان يا ما كان» الذين كانوا يتعاطفون مع الإخوان المسلمين، أن الرئيس بيضان ضعيف الشخصية، وأبدوا شكوكهم بأنه لم يزج الشاعر في السجن مطلقاً، بل أخفاه في فيلا وخصص له حارساً لحمايته من غضب المؤمنين.

وارتاب المثقّفون في «مقهى المجلّة» بأن الأمر إنما هو استفزاز حرّض عليه الإسرائيليون وعملاؤهم. ففي حين كانت دمشق في عهد الرئيس الشجاع بيضان تتحدّى الإمبريالية، خرج أحدهم ونشر في صحيفة تصدرها الدولة قصيدة مليئة بالأخطاء اللغوية والأغلاط الأسلوبية الفاحشة، يجرح

twitter @baghdad_library

فيها مشاعر البشر الدينية، وانسلّت من أمام عين الرقيب وبالتالي فالشاعر والرقيب متآمران صهيونيان.

حزن يوسف كثيراً على الشاعر الضامر الضعيف، وعلّق القصيدة على الحائط فوق سريره. إن الأديان أعمال فنية، يجب عدم عبادتها أو مكافحتها، بل وضعها في المتاحف لتأملها والإعجاب بها، كتب نوري الحكيم، وحُكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة من حكومة تسمي نفسها إشتراكية.

٢٤٣- جمع الحقيقة

كان منير عالم رياضيات بالفطرة. وقد لمع بين الطلاب في الكلية التي يدرس بها في الجامعة، حتى هؤلاء الأساتذة المتعجرفون أرغموا على احترامه.

كان منير يرتاد الكافتيريا على الدوام ليحدّث الآخرين عن الأشياء التي اكتشفها. عندها أدرك فريد، لأول مرة، أن الرياضيات ليست موضوعاً جافاً. فعندما أثبت منير مرةً سبب فشل السياسة أو الاقتصاد بالمعادلات الرياضية، انتابت مستمعيه نوبة من الضحك.

ذات يوم، جاء حاملاً دفتراً سميكاً. كان واضحاً من وجهه المنهك أنه لم ينل قسطاً وافياً من النوم.

«انظروا إلى هذا الحساب البسيط»، قال، «كنت أعمل على حلّ هذه المشكلة: إن بلدنا يخسر أيام عمل كثيرة، في شهر رمضان وحده من كل سنة تساوي ما خسرته بريطانيا نتيجة الإضرابات منذ بدء الحرب العالمية الثانية».

لم يصدق أحد ذلك، لكن منير عرض كلّ الإحصائيات والحسابات التي أجراها. فمن الواضح أن البلد كله يعمل بوتيرة بطيئة خلال شهر رمضان وبساعات ضئيلة يومياً. ثار أحد أعضاء الإخوان المسلمين وهاجم منير بسخط شديد، لكنّ ذلك لم يتعدّ حدود الشجار الكلامي، وكان مصدر تسلية للطلاب الموجودين في الكافتيريا.

في أحد الأيام دارت فكرة أسوأ في رأس منير. فقد كان يستمع إلى

نشرة الأخبار صباح كلّ يوم قبل أن يأتي إلى الجامعة. وذات يوم بدأ يدوّن بدقة الخسائر التي كان يُزعم أن إسرائيل تكبدتها خلال مواجهتها العسكرية مع البلدان العربية أو مع فصائل المقاتلين الفلسطينيين الثلاثة عشر. فمنذ كانون الثاني ١٩٦٥ بدأت الفصائل الفلسطينية تلصق على جدران دمشق منشورات عن الانتصارات العظيمة التي تحرزها، ولم يخطر ببالها قط أنّ منير يدوّن كل شيء بمنتهى الدقة.

في صباح أحد أيام شهر نيسان ١٩٦٧ جاء إلى الكافتيريا. وقف على كرسي وطلب من الجميع الالتزام بالصمت والهدوء. ولأنه منير، فقد صمت الطلاب على الفور، مع أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك عادة حتى في قاعة المحاضرات.

«أصدقائي ورفاقي الأعزاء»، قال بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

«أعلى»، صاح زملاؤه الطلاب في الجزء الخلفي من القاعة الكبيرة.

تنحنح منير وكرر قائلاً: «أصدقائي ورفاقي الأعزاء. يسعدني أن أعلن أن إسرائيل قد هُزمت أخيراً. فحسب أعداد الإصابات والقتلى التي منيت بها على جميع الجبهات، لم يبق هناك إسرائيلي واحد قادر على حمل السلاح، وجميع الذين بقوا أحياء قد أصيبوا إصابات بليغة وهم ملقون عند الجسور والمباني المدمرة وعند حطام العربات العسكرية والمروحيات والدبابات التي دمرها رجالنا الأشاوس، لذلك يجب أن نسمح الآن بوصول المساعدات الإنسانية إلى هؤلاء الإسرائيليين المصابين المساكين، كما يحتم علينا الواجب الأخلاقي الذي اعتدنا عليه منذ عهد صلاح الدين».

في اليوم التالي اختفى منير. وبذل والده جهوداً جبارة لإخلاء سبيله، وكان على استعداد لتوقيع تصريح يعترف فيه أن ابنه يعاني من اضطراب عقلي منذ طفولته. خيّل إليه أن هذه مجرد أمور شكلية لإنقاذ وجه الدولة لكي تطلق سراح منير بعد إدانته بترويج دعاية لصالح إسرائيل.

لكن والده كان مخطئاً. فقد جنَّ منير تحت التعذيب بالفعل.

twitter @baghdad_library

كتاب الجحيم الثاني

الداخل إلى سجن تدمر مفقود
والخارج منه مولود

*

تدمر، ٢٤٠ كيلومتر شمال شرق دمشق، نيسان ١٩٦٨ - نيسان ١٩٦٩

٢٤٤- الطريق إلى الجلجلة

من دمشق اتّجهوا على طول الطريق الرئيسي الذي يتلوى شمالاً عبر مشهد طبيعي كئيب مثل أفعى سوداء لائذة بالفرار. بعد حوالي عشرين كيلومتراً انعطفت قافلة الشاحنات على الطريق واتجهت شرقاً. عندما أصبح سجن جهنّا وراءهم، عرفوا جميعاً أنهم متجهون إلى سجن تدمر.

هبط الليل مثل عباءة ثقيلة على الأرض، وأخذت الشاحنات تعلو وتهبط فوق الحفر و الأحجار. وراحت أضواء الشاحنات الأمامية تتراقص بجنون عبر السهل.

كانوا مائة وخمسين سجيناً في أربع شاحنات، ترافقها عدّة ناقلات صغيرة في كلّ منها عشرة جنود مسلّحين.

أقعى فريد على أرضية الشاحنة وأغمض عينيه. مرّت تلك الأيام الرهيبة في ذاكرته مرة أخرى: الصدمة عندما كان جالساً في المطبخ يقرأ الصحيفة، وكيف سمع بغتة الجلبة التي أحدثها رجال الشرطة وهم يقتلعون باب الشقّة من مفصلاته. ثمّ كيف سُلِّم إلى المخابرات مساء اليوم التالي. تمثيلية شديدة الاتقان. تصرّفوا معه كأنهم قبضوا على جنرال إسرائيلي. جلس في الجزء

الخلفي من سيارة الشرطة ويداه وقدماه مقيدة، وجلس رجل أمن إلى كل جانب منه.

عبر الزجاج الأمامي رأى الناس في طريقهم إلى بيوتهم محمّلين بأكياس التسوّق، وهم يضحكون. كان الطقس لا يزال شديد البرودة في الخارج، لكن الربيع أضحى على الأبواب. كان الناس يمشون بخطى مليئة بالنشاط، يسيرون الهوينى كأنهم في نزهة.

«هل ترى أيها الوغد؟» سأله رجل المخابرات إلى يمينه بلهجة حورانية قوية. «مَنْ مِنْ هؤلاء يهتمّ بك؟ أتريد أن تحرّر هؤلاء الحمير؟ إنهم مستعدون لبيع بلدهم وشرفهم لقاء كيس من الحلوى».

«ويقدمون أمهاتهم هدية مجانية في الصفقة»، قال الرجل الجالس إلى الجانب الآخر من فريد. كان وجهه لحيماً مليئاً بالندوب مثل محتال في لوحة كاريكاتير سيئة وتفوح منه رائحة نتنة. نظر السائق شذراً إلى الرجلين في المرآة الخلفية وهز رأسه مستنكراً. وهذه الهزة بدت لفريد وكانها تعاضد منقذ لحياته.

«نعم، صحيح»، قال الرجل الأول، عائداً إلى الموضوع، «وعندما يعودون إلى البيت سيستحمون ويحشون بطونهم ويبحلقون في فيلم بوليسي على التلفزيون وينيكون طوال الليل. أما أنت فستُعدم قبل أن تستمتع بحياتك».

كان فريد بائساً. خجل من نفسه لأنه لم ينصت لرنا في الوقت المناسب، وشعر ببؤس شديد لشدة شوقه إليها.

بعد التعذيب والاستجواب، مثُل فريد أخيراً أمام محكمة عسكرية في قبو مبنى المخابرات، وحُكم عليه بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقة بتهمة التآمر على الوطن، ولم يسمح لأي محام بالدفاع عنه.

عندما استيقظ ثانية فوق أرضية الشاحنة، بدأ النهار يخرج من مخبأه في إبط الجبال. كان الجو الصحراوي قارس البرد في ساعات الفجر تلك. تألق

twitter @baghdad_library

ضوء الشاحنات التي تسير بالإتجاه المعاكس فأنارت الطريق بأضوائها. كانت الشاحنة التي تقله مع المعتقلين الآخرين تقترب من منطقة مرتفعة، ثم توقّفت قليلاً عند أحد الحواجز. انطلق من المكابح صوت أنين. وراء الحاجز الصدئ، امتد الطريق على طول الرمال اللانهائية مثل خيط مظلم ومكسور.

استيقظ معظم المساجين من زعيق المكابح وخيّل إليهم أنهم وصلوا. بعد قليل، اجتازوا حاجزاً مزدوجاً. بدأ السجن يتراءى بين حين وآخر من خلال الكثبان الرملية. رأى فريد عدة مبان وأسوار ودبابات تحيط بالسجن الذي كان ذات يوم ثكنة عسكرية فرنسية، ثم تحوّل إلى سجن رهيب. أخيراً اتخذ الطريق انعطافة حادّة إلى اليمين ثم توقّفت الشاحنات. سحابة من الرمل الناعم غلّفت السجناء. فيما بعد سيعرف فريد ان هذا المعسكر يقع في أقصى الناحية الشمالية الشرقية من مدينة تدمر، وعلى مفرق قصير يصلها بالطريق القادم من حمص ودمشق إلى دير الزور عبر تدمر نفسها.

«لقد وصلنا»، قال أحدهم بهدوء.

كان السجن يقع بالقرب من المدينة. لكن لم يتوقع أحد من السواح والغرباء أن معسكراً رهيباً يجثم في هذا المكان ككابوس رهيب عن بربرية الإنسان يضم في جنباته أكثر من ألفي سجين وحارس وقوات خاصة متأهبة باستمرار ومخفية هنا.

٢٤٥- الاستقبال

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما قفز فريد من الشاحنة. امتدت أمام عينيه بانوراما مروعة. فكيف يمكن لمثل هذا السجن الضخم أن يقبع في هذا القفر من الرمال والأحجار؟

من الساحة التي توقفت فيها الشاحنات والسيارات، تمكّن من رؤية كلتا البوابتين. كانت البوابة الرئيسية تتجه ناحية الشمال، والبوابة الأخرى تتجه ناحية الشرق نحو مقلع حجارة واطئ، فاغراً فمه يتثاءب مثل فوهة سوداء. كان الصخر هنا من البازلت. تسللت عينا فريد بذعر إلى السياج المزدوج من

الأسلاك الشائكة الكثيفة، وفي الوسط لوحة كتب عليها «خطر الموت» عرضها عدة أمتار.

وقف جنود مسلّحون وراء نوافذ مهترئة بفعل الطقس في أبراج المراقبة المرتفعة عند زوايا السجن الأربع، وكان لكلّ برج منصة نصبت عليها أضواء كشّافة متحرّكة.

خلف البوابة الرئيسية الكبيرة، انتصب إلى اليمين مبنى اسمنتي واطئ رمادي مؤلف من طابقين. وعدة مبانٍ أخرى تبين له فيما بعد أنها مهاجع للسجناء لها فتحات في السقف للتهوية ولمراقبة السجناء وزنازين إنفرادية وساحة إعدام ومطابخ ومهاجع للحراس. كان مشهد النخلتين في إحدى الساحات المخصصة للتدريب غريباً. فقد كانت أوراقهما هي الشيء الأخضر الوحيد الذي يمكن للعين أن تراه. لكن فريد اكتشف في الأيام اللاحقة عدة شجيرات هزيلة هنا وهناك خاصة في في جوار المطبخ.

استقبلهم قائد المعسكر، النقيب سَرّاجي، عند بوابة السجن. وقف مزهواً بين عدد من الضباط والجنود والمدنيين، وكان وجهه يشبه وجه كلب البولدوغ. لاحقاً، تبين لفريد أن انطباعه الأول كان صحيحاً. فقد كان معروفاً لدى السجناء القابعين هنا منذ فترة من الزمن بهذا الاسم.

كان النقيب يمشي مشية متشنجة كأنه تحت تأثير مخدّر. وكان شعره الأشيب وتدني رتبته العسكرية يظهران أنه التحق بالجيش برتبة جندي وشقّ طريقه بجهد عشرات السنين إلى الأعلى. فالذين يلتحقون بالجيش من حاملي شهادة البكالوريا، كانوا يصلون إلى رتبة نقيب وهم سن في الثامنة والعشرين كحد أقصى. لا بد أن البولدوغ كان في أواخر الخمسينات من عمره.

لسبب ما أبقى الضبّاط السجناء الجدد ينتظرون في الساحة الكبيرة أمام السجن لفترة طويلة. تجمّد فريد من شدّة برودة هذا الفجر، وأحسّ بفراغ معدته.

«من واجبي»، بدأ قائد المعسكر يتكلم بعد فترة صمت بدت دهراً، «باسم سيادة الرئيس عمران، أن أسحب منكم السمّ الذي تسممون به. . .

twitter @baghdad_library

أرض الوطن و. . . شعب هذا الوطن. أنتم. . . أيها الكلاب. . . الملعونة. . . الجرباء».

عندما سمعوه عرفوا مبلغ الصعوبة التي يلاقيها في التحدث أمام الآخرين باللغة الفصحى، وكم كان لفظه سيئاً ولغته الركيكة التي يتصنّع إعرابها ضماً وفتحاً وكسراً، وكم كانت الجمل التي حفظها عن ظهر قلب تبدو عديمة الحياة ومتصلبة. وحدها الشتائم التي كان ينطقها بلهجة أهل حوران كانت مصقولة بقناعته التامة.

«وإذا أصدر لكم أحد الضبّاط أو الجنود أو الحرّاس لديّ أمراً، يا أولاد القحبة فلا مفرّ لكم من تنفيذه بطاعة عمياء، وإلا فستندمون على اليوم الذي ولدتكم فيه أمهاتكم ألف مرة. لقد منحني سيادته الحريّة المطلقة في أن أفعل بكم ما أشاء. . . حتى ولو . . . حتى الموت. . ».

وكما لو أن الموت أصدر لهم أمراً بالهجوم، انطلق الحرّاس الذين كانوا واقفين ضجرين واندفعوا نحو السجناء. وسرعان ما امتلأ الهواء بالغبار والصيحات.

لاحظ فريد أحد الحرّاس بشكل خاص، رجل عجوز في حوالي السبعين من عمره. كان واقفاً إلى جانب النقيب طوال الوقت، متكئاً على عصا ضخمة. خيّل إلى فريد في البدء أنه ممرض أو خادم للنقيب، لكن هذا الرجل العجوز كان أول من اندفع للهجوم على السجناء، وراح يضرب يميناً وشمالاً بلا رحمة وبمتعة سادية. كان فريد يراه كلما رفع رأسه. ثم صادف أن أصبح فريد في متناول الرجل العجوز الفظيع، ورآه يسيل ريقه ويصهل بمتعة شديدة كلما أصابت ضرباته هدفها.

عندما وصل فريد إلى المهجع المخصص له، كان ينزف دماً وقد استُنزفت كامل طاقته. كان المهجع رقم ٥ في الصف الأمامي من المهاجع بمحاذاة شجرتي النخيل. اتخذ له مكاناً بالقرب من المدخل المتّجه شرقاً. كان يحيط بالمهاجع شبك معدني من كلا الجانبين لمراقبة المساجين في أي وقت.

كان بإمكان فريد من مكانه، رؤية البوابة الشرقية المؤدية إلى مقلع الأحجار البازلتية وثكنة الجنود، والمطبخ الموجود قبالة مبنى الإدارة مباشرة، وجزء من آثار تبين له فيما بعد أنها آثار لدير. لا بد أن زنزانات الحبس الانفرادي موجودة في السراديب تحتهم. وإلى جانب الآثار، كان هناك بناء صغير آخر رمادي اللون. وسرعان ما اكتشف فريد أن المحكوم عليهم بالإعدام يمضون ليلتهم الأخيرة في هذا المبنى، لكن بعد أن وقعت الاضطرابات في سجن تدمر عام ١٩٦٠، مُنع تنفيذ أحكام الإعدام في السجن. كان المبنى يضم ست زنزانات ضخمة، وهي الزنزانات الوحيدة التي يوجد في كل منها سريران خشبيان مريحان. وقال علي أبوزيد، أحد مؤيدي سطلان الذي مضى عليه أربع سنوات في السجن، إن سَرّاجي يضع فيه الأشخاص الأثيرين لديه، لذلك يطلق عليه النزلاء اسم «فندق سَرّاجي».

طافت عينا فريد نحو المستشفى. «كم طبيباً يعمل هناك؟» سأل وهو يستند إلى الشبك المعدني.

ضحك علي أبو زيد وقال: «واحد. الدكتور يوسف المقدسي».

«طبيب واحد لألفي شخص؟» قال فريد ساخطاً.

«هذا إن كان موجوداً بالفعل»، أجاب أبوزيد، «إنه خنزير وليس طبيباً. لكن المستشفى قصة أخرى سأحكيها لك في ما بعد».

أحسّ فريد بالسعادة لأنه حصل على مكان قريب من الباب يمكنه أن ينام فيه ويتنفس الهواء الطلق، لأن عدداً من السجناء الجدد وجدوا مكاناً في الجانب الآخر من المهجع قرب المرحاضين الترابيين، وحوض مغسلة كبيرة ثُبتت عليها ثلاث حنفيات. لكنه لم يسعد طويلاً لأنه مع كل هبة ريح كانت الرمال تهبّ على وجهه ولأن البرد كان قارساً في الليل.

كان المهجع ٥ مزدحما بأكثر من مئة سجين، وهو الذي صمم كالمهاجع الأخرى لأربعين أو خمسين سجيناً، ولم يكن حال المهاجع الأخرى أفضل بسبب موجة الإعتقالات الوحشية التي أصابت آلاف الرجال. وقد حصل أغلب السجناء على غطائين مهترئين يفترش أحدهما ويتغطى

twitter @baghdad_library

بالآخر. وكان على كل سجين أن يلف الأغطية طوال النهار ويضعها بمحاذاة الجدار ويقبع على الأرض العارية. وفقط عندما يقرع جرس المساء كان يسمح له أن ينشرها ليستلقي عليها.

«ومن هو ذلك العجوز المجنون الذي كان يضرب السجناء بقسوة شديدة؟» سأل فريد.

هذا الرجل مستحاثة. لم يعرف أحد اسمه الحقيقي، لكنهم كانوا يطلقون عليه اسم «إستانبولي» لأنه يطعّم حديثه بكلمات تركية كثيرة. عندما كان في الثانية عشرة من عمره، عمل آنذاك صبياً في المطبخ في ثكنة عسكرية في عهد الاحتلال العثماني، ثم انتقل في عهد الفرنسيين إلى ثكنتهم في تدمر وعندما تحولت الثكنة إلى معتقل ظل يخدم كل سيد جديد يأتي إلى السجن. ولم تتم ترقيته قط إلى أكثر من رتبة جندي. إنه يتبع قائد السجن أينما يذهب، مثل ظله. وعندما يصدر سَرّاجي أوامره بضرب السجناء، يكون إستانبولي أول من يبدأ الضرب.

أُحيل إلى التقاعد في عام ١٩٦٢، لكنه عاد بعد أسبوع وطلب إعادته إلى الخدمة. فلم يتمكن من التأقلم مع فوضى الحياة العصرية خارج السجن. أحبّ النقيب سَرّاجي العجوز، ووافق على طلبه وسمح بإعادته إلى عمله، على الرغم من أن إستانبولى لم يتقاضَ راتباً إضافياً، بل كان يتقاضى معاشه التقاعدي، لكنه لم يهتم بذلك، لأنه كان يعيش جيداً على الرشاوى التي يحصل عليها والتي زادت شهرياً على راتب ضابط برتبة عميد.

عند الساعة السادسة رن جرس.

وقف ضابطان وعدة ضباط صف بجانب شجرة النخيل. مشى الحرّاس أمام المهاجع وهم ينادون أرقاماً. فالسجين القابع داخل المهاجع الذي يسمع رقمه يصيح مثلاً «مائة وعشرة، سيدي»، أو مهما كان رقمه، دون أن يرفع عينيه إلى الأعلى. فيدوّن ضابط الصف الرقم.

في الساعة السابعة، حمل السجناء دلاء ضخمة إلى المهاجع فيها حساء مقزز يحتوي على فاصولياء وفول وقطع بطاطا مخلوطة بالعدس. كان يطفو

على سطحها عدد لا يحصى من الحشرات الميتة. لكن الجوع كان يمزّق معدة فريد، فانكبّ على الحساء الحار بعد ان نظفه من الحشرات وراح يغرفه إلى فمه ويبتلعه بسرعة ولهفة.

كان يرشح عرقاً بعد أن يبتلعها بهذه السرعة، لكنّه استمتع كثيراً بقطعة الخبز التي قدموها له. من مذاقها عرف أنها طازجة وكانت تفوح منها رائحة عجين مخمّر.

في وقت لاحق أخرج عدد من السجناء في المهجع كمية من الشاي والسكّر من أحد المخابئ. وظهرت أيضاً غلاية بدائية تعمل على زيت الكاز التي كان السجناء يسرقونه من المطبخ عندما يؤدون خدمة هناك، كانوا يصنعون الشاي في صفيحة قديمة.

رشف فريد رشفة واحدة من الكأس التي تمرر في ما بينهم. وغمر فمه طعم الشاي حلواً ومراً في الوقت نفسه، وكانت تفوح منه رائحة زيت الكاز، لكنّه كان أول مشروب ممنوع يتناوله، فشعر بنوع غريب من المتعة.

أُطفئت الأضواء في الساعة الثامنة. استلقى فريد متعباً على حصيرته، لكن لم يغمض له جفن. كانت العتمة حفرة يهوي في أعماقها. هوة هذا العالم الغريب. وطفت أفكاره على سطح وعيه كأنها قطع خشب متناثرة من حطام بيت. من هو؟ ماذا يفعل هنا؟ إنه في سجن تدمر؟ لم يجلبه إلى هنا لا الاستعمار ولا أشخاص يمتّون إلى الاستعمار بصلة، بل جلبه أبناء جلدته، رجال يسمون أنفسهم اشتراكيين أيضاً من بينهم شيوعيون موالون لموسكو، ومع ذلك ظل حزبهم الشيوعي غير شرعي فقد أصر عمران على موسكو بأن يشارك شيوعيون في حكمه كأشخاص لا كأعضاء حزب. سمى فريد هذه الحالة باسم «انفصام الشخصية السورية»، وقد حافظ عمران على علاقات ممتازة مع جميع البلدان الاشتراكية، لذلك لم يسأل أحد في المعسكر الاشتراكي ولا في الأحزاب الإشتراكية أو الشيوعية في العالم الغربي عن أي سجين أو يعترض على حملة الإعتقالات. وهكذا تُرك فريد وكل السجناء السياسيين في عزلة تامة في خضم تعاسته. طبعا شتم كباقي السجناء موسكو لخيانتها التاريخية، ولكن ما الفائدة من ذلك؟

twitter @baghdad_library

في تلك الليلة، تلاشت رنا لتصبح مجرد ذاكرة، وظهرت أمّه في مخيلته بسرعة، لكنها سرعان ما اختفت في الظلام ثانية. وأخيراً غطّ في النوم.

في الأيام القليلة الأولى، سادت فوضى عارمة في السجن بسبب اجتياح البلد موجة غير مسبوقة من الاعتقالات، فاكتظت المهاجع بالسجناء حتى الاختناق، وامتلأت برائحة الخراء والعفن والعرق والنشادر. وبعد فترة، فقدت الأيام أسماءها والعلامات التي تميّزها، واختلط الزمن في سلسلة لا شكل لها من الضجر والتعاسة والألم.

٢٤٦- ناجي

لم يكن سجن تدمر يضم السجناء السياسيين الخطرين من جميع الأحزاب فحسب، بل كان يضم أيضاً أعتى المجرمين: مجرمون عديمو الرحمة وقوادون ومغتصبون وشبّان خطرون يمارسون سفك الدماء في الرابعة عشرة من أعمارهم وهم مستعدون لقتل أي شخص لأن حياة إنسان لا تعني لهم شيئاً.

كان الأشخاص الذين يرفضون حمل السلاح أو أداء الخدمة العسكرية لاعتبارات دينية أو أخلاقية، أو الذين يفرون من الخدمة العسكرية يتعرضون في هذا المعتقل لأشدّ أنواع المعاناة وأسوأها. فقد كانوا يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب في البداية، منذ لحظة اعتقالهم، ثمّ أثناء استجوابهم، وأخيراً عندما يصلون إلى السجن. كل هذا ليصبحوا عبرة لمن اعتبر. فإنهم لم يُعتبروا خطرين لأنهم يكنون العداء للحكومة فقط، بل لأنهم يعادون الجيش أيضاً.

في تدمر رأى فريد أحد هؤلاء لأول مرة في حياته. لم يكن الشابّ قد تجاوز العشرين من عمره، لكن كان بإمكان المرء أن يعرف ما تعرّض له هذا الشاب من مجرد إلقاء نظرة عليه. فقد كان سَرّاجي يكرهه أشد الكراهية ويدعوه لوطياً وخائناً وجباناً. اسمه ناجي سلام، وقد حكم عليه بالأشغال

الشاقة لمدة خمس سنين، تليها ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية في خط الجبهة الأمامي. وإذا رفض أن يؤدي الخدمة في الجبهة، فسُيحكم عليه بالسجن المؤبّد. لم تكن الدولة ترغب في قتله، بل في تعذيبه طوال حياته.

تحاشى السجناء السياسيون هذا الفتى، لأنهم، على الرغم من كلّ خلافاتهم الإيديولوجية، اتفقوا في نقطة واحدة وهي تأييدهم للعنف والكفاح المسلّح بالنسبة للكثيرين منهم، سواء أكانوا راديكاليين أم شيوعيين أم من الإخوان المسلمين، هي الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق أهدافهم.

وضع سَرّاجي ناجي في المهجع رقم ١٢ مع أردأ وأشنع المجرمين الذين كانوا يعذّبونه وينكّلون به بلا شفقة. وتحمّل ناجي كلّ ذلك بصمت وصبر جمل، ولم يدافع عن نفسه حتّى عندما يصفعه مجرم ضئيل البنية. وجاء وقت لم يعد المجرمون يجدون متعة في تعذيبه والتنكيل به، لأن المعذِّب السادي بحاجة إلى نوع من ردّة فعل من جانب ضحيّته. وقد صاح أحدهم أنه لا يلتذ من تعذيب حجر لاردة فعل له رغم كل التعذيب.

٢٤٧- النقيب سَرّاجي

كان النقيب سَرّاجي الإله والسيد المستبد في هذه الجزيرة التي تضم رجالاً حرموا من حقوقهم في وسط الصحراء التي يغمرها الرمل والنسيان. وبالمقارنة معه فإن أي وزير في الحكومة لا يعدو كونه أكثر من خادم. تجسّد إله الشر في سراجي، فهو الذي يقرر حياة أي سجين أو موته أو سعادته أو تعاسته أو جوعه أو ألمه. إنه مزيج مرعب من الجهل والثقة بالنفس المتعالية المتغطرسة. ولم يكن سَرّاجي يكره الإخوان المسلمين أو الشيوعيين أو الراديكاليين لأنه لم يكن قادراً على ذلك. إذ لم يكن يكره أو يحبّ أحداً على الإطلاق. فالكره والحب يحتاجان إلى عقل لا يملك سراجي منه شيئاً.

عندما كان في العشرين من عمره، تزوّج امرأة وأنجب منها ثلاثة أطفال. لكنه لم يكن يكترث بزوجته. وعندما أصيبت بحمّى غريبة، لم

twitter @baghdad_library

يزرها في المستشفى خشية أن تنقل له العدوى، وراح ينتظرها على مسافة آمنة في السجن، حتى ماتت.

أُشيع بأنه يدخّن كميات كبيرة من الحشيش سرّاً، وأنه يبكي أحياناً طوال اللّيل في شقّته الإسبارطية شبه العارية من أي رفاهية والتي تقع فوق زنزانات ومكاتب الاستجواب. لم يحب سَرّاجي الجنود، وكان يعاملهم بتشنج ويقسوة شديدة. وعلى عكس حرّاس السجن، لم يأت الجنود في هذا السجن المليء بالأرواح المعذبة بمحض إرادتهم بل كانوا يمضون هناك فترة الخدمة العسكرية الإجبارية. وكان الكثيرون منهم يتعرضون إلى عقوبات وحشية من النقيب أقسى مما يتعرض إليه السجناء أنفسهم. واعتبر سَرّاجي أي زلة تتعلق بالانضباط على أنها أمر يهدّد رجولته ورتبته العسكرية وأنها إخفاق شخصي.

وكان سَرّاجي ينظر بدونية إلى رتبته العسكرية، ولم يعنِه شيء سوى مهمّته الاجتماعية حسب تصوره للمجتمع. كانت فكرته البدائية عن العالم منذ طفولته تتمثّل في أن كل مجتمع يتكوّن من رعاة وقطيع أغنام، وظل يردد: «أنا راعٍ، مثلي مثل رئيس الجمهورية»، ثم يضيف «مع فارق أن قطيعه أكبر من قطيعي».

وقد علق ابو زيد ساخراً: «هذا الأمي سَرّاجي لا يبالغ بل يصيب كبد الحقيقة لأن الحكام العرب يطلقون على مواطنيهم «رعية» والرعية ليست إلا قطيع ماشية».

وكان سَرّاجي يتباهى بأنّ في قطيعه عدداً كبيراً من المثقّفين والمتعلّمين. فهو، الذي لم يتعلم القراءة والكتابة إلا بصعوبة بالغة في الجيش، يتحكم الآن بمصير عشرين أستاذاً جامعياً، وخمسة وعشرين طبيباً وعشرة مهندسين معماريين، وخمسة وثلاثين محامياً، ومائة وثلاثين صحفياً منهم خمسة رؤساء تحرير، وأكثر من ثلاثين كاتباً، وأربعين صيدلياً وأستاذ مدرسة. لا يمكن لأي حيّ من أحياء دمشق أو القاهرة أو بيروت أن يتفاخر بوجود هذا العدد من حاملي الدرجات الجامعية لديه.

دأب على مخاطبة الذين يدينون له بالطاعة «يا ولدي أو يا بني». أما الذين لم يرضوا بهذا الذل، فكانوا يعاقبون جسدياً، وكان سَرّاجي يشارك بنفسه في عمليات التعذيب، لا بدافع المتعة، بل بدافع إحساسه بأنه، باعتباره راعياً، عليه أن يرعى أغنامه ويؤدب الماعز الناكر للجميل. وباستثناء حفنة من السجناء السياسيين الأغنياء وأصحاب الامتيازات وزعماء العصابات الإجرامية الذين كان يستثنيهم، لم ينجُ سجين واحد في السجن من مشاركة سَرّاجي شخصياً في ضربه وتعذيبه. والأسوأ من كل ذلك، أنّ الغضب كان يعمي بصره، فيصبح عندها مثل وحش أعمى. وفي بعض الأحيان، كان يجرح نفسه خلال مشاركته في ضرب أحد السجناء، وأحيانا يصاب بما يشبه السكر ويضرب كلّ ما تقع عليه يده من حوله. وفي إحدى المرات، رأى فريد سَرّاجي وهو يضرب بالسوط أربعة سجناء، وقد بلغ به الغضب حداً جعله يدير السوط ويجلد به الجنود وضباط الصف المتحلقين حوله أيضاً دون وعي صارخا بأصوات غريبة. فأرسل الضبّاط الواقفون على مسافة بعيدة منه في إثر إستانبولي الذي كان في المطبخ، فجاء راكضاً وأمسك القائد من الخلف ثم رفعه واستدار به بسرعة في شكل دائرة حتى أسقط النقيب سوطه من يده ثم ارتخى جسده وصار معلقاً بين ذراعي الجندي العجوز القويتين مثل كيس مترهل.

٢٤٨- الولاء والتكفير

بما أن فريد لم يكتشف السبب الحقيقي لاعتقاله، فقد قال لنفسه إن من حظّه العاثر أنهم لم يعتبروه شيوعياً سابقاً بل راديكالياً. كان الإخوان المسلمون والقوميون والشيوعيون يكرهون بعضهم بعضاً كالسمّ الزعاف، لكنّهم كانوا متّحدين في أمر واحد وهو أنهم إذا وقعوا في أيدي الحكومة فلن يوقّعوا أبداً على تصريح يعترفون فيه بأنهم أخطأوا وأنهم يرغبون في التكفير عن الخطأ. قُيم ذلك في تلك الأحزاب كجبن وخيانة خسيسة. كان فريد على استعداد للتوقيع على أيّ تصريح يخرجه من هذا المكان، إلا أن

twitter @baghdad_library

أحداً لم يطلب منه ذلك. فقد كان رجال المخابرات يعرفون أن الراديكاليين المخادعين يسمحون لأعضائهم بالتوقيع على أيّ تصريح يمكن أن يؤدي إلى الإفراج عنهم حتى يواصلوا كفاحهم المسلّح سراً. فقد كان الراديكاليون يعتبرون الطغاة وأتباعهم مجرمين، ويعدّون أيّ تصريح يقدم لمجرمين باطلاً وغير ملزم.

تذكّر فريد الشيوعيين الذين انتحروا بعد إطلاق سراحهم لأنهم لم يتحملوا ازدراء رفاقهم لهم. ولم يعد الحزب الشيوعي يقدم مساعدة لسجين استسلم تحت التعذيب، فأصبحت تلك سلطة تأديبية ثانية. وحده الفشل ظل الرفيق المخلص لهؤلاء المساكين.

أما فريد فكان على استعداد لتقبّل أيّ مهانة من هذا القبيل. وكان يعرف أن السجناء السياسيين الذين يرتدّون يظهرون على أجهزة الإعلام. فكان على كبار المسؤولين في الحزب وكوادره الإعلان عن خزيهم وندمهم على شاشة التلفزيون، والأشخاص الأقل أهمية في المذياع، أما السياسيون من الدرجة الثالثة فكانت تصاريحهم تنشر على صفحات إحدى الصحف الرسمية، يقسمون فيها بالولاء لأرض الوطن ورئيسه المفدّى إلى الأبد.

والأسوأ من كلّ ذلك الاستعراض الإعلامي هو المهانة التي تعرض لها هؤلاء أمام أصدقائهم وعائلتهم لأن التوقيع كان يعني أن كل ما أنجزوه في حياتهم حتى هذه اللحظة كان فشلاً ذريعاً.

كانت حكومة عمران بحاجة إلى مذنبين تائبين، وكان بمقدور كل سجين أن يشعر بذلك في سجن تدمر. فلم يعد السجناء يُسألون عما فعلوه، بل كانوا يتعرضون للتعذيب على الفور بصورة جماعية ليحصلوا منهم على تصريح بأنهم ارتكبوا خطأ وأنهم نادمون على ما فعلوه.

كان وزير الداخلية يمارس ضغطاً على سَرّاجي. لذلك صعّد النقيب وتيرة التعذيب وجعل الطعام الذي لايكاد يؤكل أسوأ بكثير من ذي قبل، إلا أنه لم يستسلم سوى قلة قليلة: وشيئاً فشيئاً بدأ سَرّاجي يدرك بأنه يتعامل مع جيل أقسى وأشدّ صلابة. فلم يسبق أن كان عنده هذا العدد الكبير من

السجناء الذين ظلوا يتحدّونه، بعضهم حتى بعد سنوات، رافضين الرضوخ لأن يكونوا قطيعاً له. وفي أحيان كثيرة، كانت الدموع تكاد تطفر من عينيه من شدة غضبه ويأسه عندما يجد أن شيئاً نازفاً، مرتجفاً، ممدداً على الأرض، لا يزال يتفوق عليه وعلى دولته أخلاقياً.

٢٤٩- في الليل

كان الليل معلّقاً فوقه مثل عباءة سوداء، وكان القمر هو الشقّ المقطوع بسكين حادّة في تلك العباءة. وقف فريد خلف قضبان الشبك الحديدة طويلاً، ينصت إلى الصمت. وأخيراً، استلقى فوق حصيرته ونام.

في منتصف الليل أيقظته ركلة. «انهض أيها الوغد». صاح حارسان. كان الضوء ساطعاً. رأى فريد السجناء الآخرين واقفين مولّين وجوههم إلى الحائط، فاستدار إلى الحائط أيضاً. ضربة سوط كانت موجهة إلى جاره أصابت ظهره أيضاً، فلسعته كالنار. صاح الحارس «إخرس وأمسك لسانك وإلا قطعته!» لا بد أن الرجل الواقف بجانبه كان قد قال شيئاً قبل أن يستيقظ فريد. خلال دقائق قليلة كان جميع سجناء المهجع رقم ٥ واقفين على أقدامهم.

ظهر سَرّاجي الآن مرتدياً بدلته بالكامل. من طرف عينه رآه فريد يتقدم. «لا حياة للأبطال هنا، بل للرجال العاقلين فقط»، زمجر النقيب وأضاف، «لقد حذّرتكم، والآن ماذا أسمع؟ لقد هرّب أحدكم صحيفة».

قضى أربعة حرّاس وثلاثة جنود فترة طويلة بحثاً عن الصحيفة المزعومة. أخيراً، عثروا عليها تحت حصيرة قشّ ينام عليها رجل يدعى مروان عضو معروف في حزب الإخوان المسلمين. كان سَرّاجي يدخّن سيجارة وقد استشاط غضباً، وراح يضرب ويركل السجين الذي ظلّ يكرّر «سيكون عقاب الله على الظالمين عظيماً».

اشتد غضب النقيب. وعندما رفع قدمه ليركل السجين مرة أخرى، انزلق وسقط على الأرض بجانب ضحيّته. رأى مروان أن ما حدث هو عون

twitter @baghdad_library

من السماء، فاستجمع كلّ قوّته وصاح «الله أكبر»، وبصق دماً في وجه سَرّاجي. رأى فريد بضع سجناء يضحكون بأصوات مكتومة ووجوههم إلى الحائط.

نهض النقيب على قدميه بسرعة وغادر المهجع بوجهه الملطّخ، ولحق به جنوده وهم يجرّون ضحيّته، ولم يُسمح للمساجين الآخرين بالاسترخاء في وقفتهم كما كانوا يفعلون عادة بعد هذه المداهمات الليلية. لكن في اللحظة التي غادر فيها آخر حارس، بدأوا يقهقهون، وصار كلّ منهم يزعم أنه رأى تفصيلاً آخر من تفاصيل إذلال سَرّاجي.

لم يعد مروان إلى المهجع إلا بعد أسبوعين. وقد تحوّل إلى طيف شاحب، كست الأوساخ جسده. لم يكد يستطيع الوقوف على قدميه، وكانت تنبعث منه رائحة فظيعة. بعد أسبوع نقل إلى المستشفى العسكري بدمشق ولم يعد ثانية. انتشرت شائعات متناقضة تتراوح بين موت بطولي له وبين حرية باهظة الثمن.

٢٥٠ - مقلع الحجارة

وصل الحرّاس في السادسة صباحاً. كان الوقت المحدد لتعذيب المهاجع رقم ٤ و ٥ و ٦. طُلب من ثلاثمائة سجين أن يركضوا في دوائر صائحين: «يسار، يمين، يعيش الوطن! يسار، يمين، وحدة، حريّة، اشتراكية! يسار، يمين، أمة عربية واحدة! يسار، يمين، ذات رسالة خالدة».

اصطف على كلا الجانبين حوالي عشرين حارساً، وكان على السجناء أن يمروا في وسطهم ليتأكدوا من أن جميع السجناء يرددون الشعار بأعلى صوتهم. كان فريد يركض صامتاً عندما أحس بلسعة سوط على أذنه فجأة. ثم خرج أحد الحراس من الصفّ ولحق به وظل يضربه بالسوط حتى سمع صيحة هذا السجين العنيد أخيراً. وكعقاب جماعي تعيّن على جميع السجناء أن يركضوا خمس دورات أخرى في ذلك الصباح. أدرك فريد أنه لو نفّذ الأوامر منذ البداية، لكان قد وفر على نفسه وعلى الآخرين المعاناة والألم.

ثم مُنح الثلاثمائة سجين نصف ساعة للذهاب لاستخدام المراحيض الترابية. الآن فقط جاء دور عقابهم الحقيقي: فقد فرض عليهم العمل في مقلع حجارة البازلت. ظل سبب فرض هذه العقوبة عليهم سرّاً يحتفظ به سَرّاجي. بخطوات سريعة مزدوجة خرجوا من البوابة الشرقية حيث أعطيت لهم مطارق ومجارف وقضبان حديدية. درب واسع تحفّ به أسلاك شائكة من الجانبين يفضي إلى مقلع الحجارة. وكان الكل يعلم أن كتيبة من القوات الخاصة التابعة لشفطان، شقيق الرئيس عمران تقبع مختبأة خلف الأسلاك ومستعدة للهجوم على أي تمرد وملاحقة أي فار. عند الوصول إلى المقلع يضيق الدرب وينعطف نزولاً إلى العمق. كان المشهد يشبه مشهداً في أحد أفلام الخيال العلمي القديمة. صخور ذات شقوق حادّة غريبة كانها في كوكب آخر. كان على السجناء أن ينزلوا إلى حفرة شديدة الانحدار بعمق عشرين متراً. شيئاً فشيئاً، بدأ لون الصحراء الأصفر يتلاشى ليحل محله لون أسود رمادي يزداد قتامة كلما هبطوا أكثر، حتى يحيط بهم في قعر مقلع الحجارة لون أسود شبحي ليلي. عرف فريد الآن مصدر الأحجار السوداء التي كانت تكسو الدروب المحيطة بالسجن بعمق متر: إنه البازلت البركاني المأخوذ من مقلع الحجارة.

لم يكد السجناء يصلون إلى الأسفل حتى لحق بهم الجنود المسلّحون واتّخذوا مواقعهم فوق قمة الوادي. جلس ضباط الصف تحت مظلّات شمسية ضخمة وراحوا يراقبون السجناء من ذلك الموقع الجيد. وفي أسفل الوادي البازلتي، كانت تنتصب ثلاث مظلّات للحراس أيضاً.

ما إن تشرق الشمس حتى كانت الصخور السوداء تحمى بسرعة، وكلما ازدادت ارتفاعاً كانت الحرارة تشتد إلى درجة لا تطاق. «لم يتمكن أحد من الهرب من هنا قط»، همس أحد السجناء عندما رأى نظرة فريد المتسائلة.

كان المطلوب تكسير الصخور الكبيرة بالمطارق والقضبان الحديدية وتحويلها إلى حصى، ونقلها مرة أخرى إلى الأعلى في عربات يدوية صدئة. كان عملاً محفوفاً بالمخاطر لأن الشقوق في الأحجار البازلتية كانت

twitter @baghdad_library

حادّة كأنصال الشفرات. وشظاياها تتناثر في كل مكان، تثقب أحذية السجناء المهترئة. في منتصف النهار، أضحى المكان كله فرناً ضخماً، وأصبح الهواء حاراً يلسع الآناف. لم يتوقف الحرّاس عن ضرب السجناء بالسياط بسبب ومن دون سبب. كان ذلك بمثابة الجحيم على الأرض. أصبح كلّ شيء مغبشاً أمام عيني فريد، وأضحت حركاته ميكانيكية تماماً.

في فترة محددة كان يمكنهم الحصول على استراحة لمدة نصف ساعة، لكن لم يقدم لهم خلالها شيء يتناولونه، بل كان الحرّاس يوزعون على كلّ سجين نصف لتر من الماء فقط. كان طعم الماء بطعم المطاط، لكنّه كان على الرغم من ذلك يطفئ سعير النار الملتهبة في حنجرة فريد.

آلمته يداه. مع تقدم النهار ببطء لم يعد يشعر بقدميه. أصيب بالحمّى في تلك الليلة. قدّم له أحد السجناء حبّة طعمها مرّ أخرجها من مخبأ. كان المفروض أن تخفض درجة حرارته، لكن حالته ازدادت سوءاً بعد ساعة فنادى رفاقه الحرّاس. لم يفعل الحرّاس شيئاً بل إنهم راحوا يبتسمون ابتسامات عريضة ساخرة وقالوا: «إذا فطس فسنوفّر الطعام الذي يتناوله، لكن الجرذان لا تموت بهذه السهولة».

تقيّأ فريد مرات عديدة. كان يسمع صوت خبطات في صدغيه وهديراً في أذنيه. عند الفجر فقط، بعد أن أنهكه التعب، غطّ في النوم. عندما استيقظ كان وحيداً في المهجع. سمع شخصاً يبكي وآخر يواسيه.

كان العرق ينضح من جسم فريد بغزارة. اعترته قشعريرة من البرد، وانتابته تشنجات في معدته. تقيأ ثانية. كان رفاقه السجناء قد تركوا دلواً بجانبه. كان كلّ ما تقيّأه سائل أصفر مرّ.

توقّف سَرّاجي لحظات عند مدخل المهجع. «سيموت هذا الكلب قريباً. فقد أصيب بضربة شمس. إنه يبصق دماً»، قال الرجل المرافق لقائد السجن.

«أوه، إنهم لا يموتون. لقد حبّل الشيطان بنفسه أمهاتهم. أراهنك بأنه

يتمارض. إن لم يذهب إلى مقلع الحجارة غداً، احضره لي وسأجعله يقف على قدميه ثانية».

«أمرك سيدي»، أجابه الرجل الآخر. اضطجع فريد بدون حراك تحت بطانيته. هل إنه يبصق دماً حقاً؟ انتابه إحساس بأن حياته ستنتهي هنا في هذا السجن، واعتراه شوق شديد لرنا. طفرت الدموع من عينيه تحت البطانية.

قرابة منتصف النهار، سمع في نومه قرعاً هادئاً. استيقظ. رأى رجلاً وراء قضبان الباب يرتدي بدلة جندي لكن من دون قبعة. أشار إليه الرجل ودفع نحوه علبة من خلال المشبك. «هيه، هذه لك. تناولها ثم ضع العلبة داخل المشبك»، قال ذلك بسرعة وانطلق مبتعداً.

كانت وجه الجندي مكسواً بندوب كثيرة، لكن حتى الندوب لم تتمكن من إخفاء لطفه. التقط فريد العلبة. كان الحساء الساخن المصنوع من الجزر والبطاطا طيب المذاق.

تناولها بسرعة. لفّ جسده ببطانيته ثم وضع العلبة بجانب المشبك. عندما استيقظ بعد بضع ساعات، اختفت.

عندما حلّ المساء، عاد السجناء مرهقين. لكن ما إن جلسوا حتى بدأوا يضحكون ويروون نكاتاً عن سَرّاجي، البولدوغ. عندما حدّث فريد زكريا الشيوعي العجوز عن الجندي والحساء، ابتسم وقال: «إنه ليس جندياً، بل ملاكنا الحارس، سميح. إنه هنا إلى الأبد. لقد قتل سبعة رجال في ليلة واحدة»، أضاف وهو يمرر طرف يده عبر حنجرته ليريه كيف.

٢٥١- الفجر

في صباح اليوم التالي استيقظ فريد عند اقتراب الفجر. أحس بوهن في جسمه. في الماضي، كان الصباح الباكر وقته المفضّل. أحبّ دوماً أن يكون وحيداً مع السكون، ومنذ شبابه الباكر لم يكن ينام أكثر من ستّ ساعات في الليل. وكان يستيقظ أحياناً في الساعة الرابعة لينصت إلى العالم وهو يستيقظ. اكتشف آنذاك أن الفجر، من بين جميع أوقات النهار، هو الذي

twitter @baghdad_library

يحتفظ ببراءته أكثر من أي شيء آخر. فهو لا يزال كما كان منذ عشرة آلاف سنة: لحظة الهدوء التي تسبق العاصفة البشرية.

منذ أن أحبّ رنا، صارت هي أول من يطرأ في باله في صباح كل يوم. ففي هذا الوقت يستطيع أن يحدّثها، مع أنها، كما اعترفت له بشيء من الخجل، تكون في ساعات الفجر تلك لا تزال نائمة.

صباح السجن رمادي اللون صامت، تفوح منه رائحة المجارير، طعمه مر كالأسنان المتعفّنة. إنه نهاية الراحة وبداية العذاب. كان الماء يقدم في المهاجع لساعة واحدة فقط في مطلع الصباح، ومن دون سابق إنذار. وحتى لا يفقد السجناء نقطة واحدة منه، دأبوا على وضع ثلاثة دلاء بلاستيكية كبيرة تحت الحنفيات في الحوض مساء اليوم السابق، وكانوا يرصفون جميع الدلاء والطاسات والأكواب الموجودة لديهم ملاصقة لبعضها بعضاً لأن الماء كان يتدفّق بضغط مختلف من يوم لآخر، وفي بعض الأحيان كان الحراس ينسون إغلاق الصنابير. في تلك الأيام، كان السجناء يشربون كما يحلو لهم وقد غمرتهم البهجة، ويرشّون بعضهم بالماء مثل أطفال يلعبون.

انتصب فريد في جلسته وسحب بطانيته وغطى كتفيه. كان لا يزال يشعر بأن ساقيه تترنحان، لكنّه لم يعد يشعر بالدوار الشديد. أحسّ بالجوع، وهو دلالة على أن صحته قد بدأت تتحسن.

حاول النهوض على قدميه، لكن الدوار اعتراه ثانية فوقع على حصيرته. لم يستيقظ حتى منتصف النهار. كان السجن فارغاً. يبدو أن سَرّاجي قد نسيه. فقد تُرك فريد وشأنه طوال ثلاثة أو أربعة أسابيع. في تلك الفترة، حاول سراجي بصعوبة اصطياد سمكة كبيرة من الشيوعيين والإخوان المسلمين في شبكته. لقد حققت وحشية الحياة ويأسها في المهاجع شيئاً من النجاح. ففي نهاية أيلول، تهاوى حوالي عشرة من الإخوان المسلمين والعديد من الشيوعيين، ووقّعوا على تصاريح يقرّون فيها أنهم أخطأوا، وراحوا يكيلون المديح على الحكومة وعلى عمران قائد الأمة فأطلق

سراحهم. كان سَرّاجي في مزاج رائع لبضعة أيام لأن وزير الداخلية أثنى عليه.

٢٥٢- ملحم

شكّلت العصبة الإجرامية دولة خاصة بها في السجن، فيها حكّام وخدم وطبقة راقية وطبقة دنيا ورابحون وخاسرون. كان يوجد قرابة ثلاثمائة فرد منهم، بينهم أكثر من ستين من المجرمين العتاة الشباب.

أداروا سوقاً تعمل بنفس قوانين العرض والطلب شأن الأسواق الموجودة في العالم الخارجي. كان بإمكان كل من يملك المال أن يطلب أيّ شيء، من مأكل وملبس حتى الأدوية والحشيش والمشروبات الكحولية كما عرضت جميع أنواع الخدمات بدءاً من إحلال سجين محل سجين آخر للعمل في مقلع حجارة البازلت وانتهاء بالعقوبة الجسدية. وكشركة متقدمة تقنياً، جرت العادة أن تُنَفَذ الطلبات بدقة متناهية مثل درجة الإذلال والكدمات ونوع العظام التي تُكسَر. ولكل شيء سعر محدد.

كانت دولة المجرمين هذه تعمل بكفاءة كبيرة وبدون أيّ بيروقراطية. فالأوامر تصدر وتُنفّذ ببضع كلمات، والحسابات تُدفع من دون مساومة أو همهمة والصفقات تُعقد بكلمة شرف وبدون أي عقود، ومن يحنث الوعد يُعاقب بقسوة شديدة، وكان السيد الأعلى لهذه الدولة يُدعى ملحم بدري ويقيم منذ فترة طويلة في المستشفى الذي يُعرف بين السجناء بأنه مكان إقامة ومركز المافيا. وهو رجل طويل القامة، قليل الكلام، تخرج الكلمات من فمه بصعوبة. وكأن كلّ كلمة تخرج منه بمبضع. كانت عيناه ساهمتين على الدوام، ينظر إلى الفضاء وراء الشخص الذي يحدّثه، وتذكّران فريد بعيني سمكة ميتة.

لم يشمل عالم ملحم القارات الخمس المتعارف عليها دولياً، بل هذا السجن المقسّم بطريقته الخاصة، وهو في هذا العالم منذ وقت طويل. فكل مجموعة من السجناء شكلت دولاً مجاورة لمجال نفوذه. وكان يطلق اسم

twitter @baghdad_library

«الروس» على الشيوعيين، و«السعوديين» على الإخوان المسلمين و«الكوبيين» على الراديكاليين و«المصريين» على أتباع سطلان، أما المجرمون الحقيقيون، فقد أطلق عليهم إسم ولقب «رجالي».

خصص ملحم أجوراً و هدايا لأتباعه في الأعياد الدينية، قد تكون أحياناً مجرد باكيت من نوع رديء من السجائر، لكنها على أي حال كانت تعني شيئاً عظيماً لأتباعه، لأن السجناء الآخرين لم يحصلوا على أي شيء.

كان سَرّاجي يلاحق ويعذب جميع السجناء الآخرين، لكنّه لم يلاحق المجرمين. فهو يرى أنهم أفراد منضبطون من قطيعه، ويعتبر ملحم كلباً وفياً يراقب الأغنام. لكنه كان بدوره أيضاً يطيع غالباً أوامر ملحم. كانت هذه العلاقة أشبه بعلاقة الكلب وسيده، وهي بالتأكيد علاقة معقدة.

٢٥٣- درويش

كان فريد في طريقه إلى المطبخ، لأنه توجب عليه في ذاك النهار أن يعمل هناك من مطلع الشمس حتى منتصف الليل، عندما اعترض طريقه بلطجيان معروفان بسوء سمعتهما. محتالان مخادعان مستعدّان لضرب أي شخص لقاء سيجارة. إيثاراً لسلامته، ركض فريد إلى المطبخ بقدر طاقته، لكنّه أيقن أنهما سينتظرانه ويتربصان له في الخارج. لا بد أن أحداً قد أمرهما بذلك ودفع لهما.

تطلّع فريد بشوق إلى ذلك اليوم. فقد أحبّ أن يأتي دوره للعمل في المطبخ الذي يشرف عليه سميح اللطيف. أحسّ سميح بالتوتر الذي يعتري فريد عندما حان وقت نقل الطعام إلى المهاجع خارج المطبخ. في البداية تردّد فريد، ثمّ حدّثه عن البلطجيين اللذين ينتظرانه خارج الباب.

«سنتدبّر الأمر»، قال سميح بصوت خفيض. ثم صاح عبر الباب الفاصل بين المطبخ والمخبز منادياً شخصاً يدعى درويش. دخل رجل ضخم عاري الصدر مكسو بالشعر. كان صدره مليئاً بالأوشام والندوب، وتدلّت من عنقه سلسلة ثقيلة فيها قطع من الفضة تتأرجح وتصدر قرقعة عندما تحتك

ببعضها. كان عملاقاً قوياً. أخبره سميح عن الكمين الذي نصبه الشخصان لفريد.

«ومن هو هذا الفتى؟» سأل درويش، حتى من دون أن يتنازل وينظر إلى فريد. كان صوته يشي باستياء كئيب، كما لو أنّ أحداً أوقفه بلا سبب معقول عن عمل هام يقوم به.

«إنه شاب نبيل شجاع»، أجابه سميح بسرعة.

«إذن لنلق نظرة»، نخر العملاق، وراقب فريد وهو يحمل دلوين من الدلاء الثلاثين المليئة بالحساء التي كان عليه أن يحملها إلى المهاجع. لم يكد يخطو ثلاث خطوات حتى ظهر البلطجيان من الظل. من المؤكد أنه لم يكن بإمكانهما أن يقفا بالقرب من المطبخ للحظة واحدة من دون أن يراهما الحرّاس، لأن السجين يُعاقب عقاباً شديداً إذا توقف خارج المهجع بلا إذن. ابتسم البلطجيان له ابتسامة عريضة، ولاحظ فريد في يد أحد الرجلين شيئاً يلمع قد يكون سكيناً أو مفكّاً.

«توقّف». كان ذلك درويش، أو بعبارة أدقّ رعد ناطق بالعربية. توقّف فريد على الفور. وكذلك البلطجيان.

«واصل سيرك، ما خطبك؟ ستبرد الشوربة»، قال درويش لفريد، وتجاوزه وأمسك بالبلطجيين اللذين أصبحا ضعيفين مثيرين للشفقة. عندما وضع فريد الدلوين على الأرض بجانب الحارس عند المهجع رقم ١ واستدار، رأى البلطجيين ممددين على الأرض.

التقط الدلوين التاليين في المطبخ، وعندما انطلق ثانية شاهد درويش يضرب رأسي الرجلين بعضهما ببعض. كان ينبعث صوت ارتطام مخيف عندما كان يقرعهما ببعضهما. سلّم فريد الدلوين وعاد. كانا الآن جاثيين على ركبتيهما يستجديان الرحمة.

«ألقيا نظرة جيدة على صديقي هذا»، قال درويش، «وعندما تقع عيناكما عليه، تذكرا نصيحتي جيداً وإلا فإني سأعيد الدرس عليكم. هل تفهمان ما أقوله؟»

twitter @baghdad_library

بينما كان فريد في طريقه حاملاً دلوين للمرّة الثالثة، أوقفه الرجل الضخم ومدّ يده. كان يحمل سكين إسكافي، وقال له: «هيه، أحد هذين الرجلين يريد أن يهديك هذه. قد تكون مفيدة، لكن خبئها جيداً»، ثمّ انطلق عائداً إلى المخبز. سلّم فريد كلّ دلاء الحساء الأخرى. بعد ذلك، كان عليه أن يدفع عربة يد مليئة بالخبز من المخبز لتوزيعها على المهاجع. في تلك الأثناء، كان درويش يحتسي شايه بصمت. عندما أنهى فريد نقل الدلاء، جلس على مقعد في المخبز. كانت نوبته ستنتهي في منتصف الليل.

قدم درويش له كأساً وسأله بهدوء «إذن ماذا فعلت لهما يا بني؟ إنهما لقيطان خطيران».

«لا شيء. أظن أن أحداً دفع لهما ليقوما بذلك»، أجاب فريد، واستطرد قائلاً إنه لا يعرف من.

في تلك الليلة، عرف فريد أن درويش كان يعمل قواداً وفي رقبته أكثر من ثلاث وثلاثين جريمة. فقد قتل عشيرة كاملة من المجرمين في يوم واحد، عندما تمكن من القضاء على أعدائه في حفل زفاف. وكان السجناء يدعونه «درويش صاحب العلامة». فقد كانت على جبهته علامة مثلث، بخطين يوحيان بعلامة X تقريباً في وسطها. فعندما كان في الثانية عشرة من عمره، اعتقل في الأردن بتهمة السطو، وطُرد من البلد ووسمته الشرطة على جبهته بقطعة حديد متوهّجة كي لا يتمكن من الاختباء في أي مكان.

«إن هؤلاء الأردنيين أنبياء. فقد كانوا يعرفون آنذاك أي محتال ستصبح»، قال فريد ممازحاً العملاق اللطيف.

«إنهم حقيرون. إنهم لا يعرفون شيئاً على الإطلاق! أية وظيفة يمكن لرجل أن يمارسها وهو يحمل هذه العلامة على وجهه؟ إمام جامع أو معلّم مدرسة أو مدير مدرسة فتيات، إيه؟ لا، لا يمكن أن يكون إلا قواداً، وعندها لن ينظر إليه أحد لجبهته ووشمه، لأن كلّ ما يهمّهم رؤيته هو مؤخرات الفتيات وصدورهن. هذا ما فعله بي هؤلاء الحقيرون بختمهم ذاك، يا ولدي».

٢٥٤- الحبس الانفرادي

أيقظته خشخشة المفاتيح في وقت مبكر من الصباح. انتصب في جلسته، لكن ركلة في صدره جعلته يطير ساقطاً على ظهره.

كان حارسان يقفان فوقه. عرف الحارس الذي ركله. رجل ضامر نحيف يمتلئ جلده بالبثور والتجاعيد. كان معروفاً بالقسوة التي يستخدمها للتعويض عن عقدته النفسية لضآلة بنيته. لُقِّب «بالتمساح» وأحبّ هذا اللقب، أما الرجل الثاني، فكان طويلاً معتدل المزاج.

«انهض يا ابن القحبة. أنت مطلوب للاستجواب»، صاح به التمساح. همّ الحارس الطويل بتقييد يديه، لكن القزم القبيح أبعد الأصفاد جانباً وقال ضاحكاً: «إلى أين سيهرب؟ إلى الأسلاك الشائكة؟» ترنّح فريد وهو خارج من باب المهجع. كانت الشمس رائعة. رأى السجناء الذين كانوا يكرهون هذا الإذلال يحدّقون به فكره ذله الذي آلمهم. عندما حيّاه نزلاء المهجع رقم ٣ في محاولة منهم لتشجيعه، لوّح لهم رداً على تحيتهم.

«يا خائن الوطن»، صاح التمساح من خلفه، وصفع رقبة فريد براحة يده بقوة فتعثر ووقع إلى الأمام. بذل جهداً لينهض بسرعة وعمل ما كان قد تدرّب عليه مراراً في معسكر الراديكاليين: بسرعة البرق ركل القزم على خصيتيه. حدث ذلك بسرعة كبيرة. وقبل أن يدرك الحارس الطويل ماذا يجري، وجه فريد لكمة إلى وجه التمساح أيضاً. انثنى الرجل الضامر من شدة الألم ووضع يديه فوق قضيبه.

«أنا لست خائناً، بل أنت يا ابن القواد»، صاح فريد قبل أن تظلم الدنيا في عينيه.

بينما كان يستعيد وعيه ببطء، سمع همساً في الظلام. كان ممدّداً على الأرض مكوّماً مثل دجاجة. كانت عقوبته خمسين جلدة وحبساً انفرادياً لمدة شهرين لمقاومة الحرّاس.

تلاشى السلوك البطولي الذي كان فريد ينوي أن يبديه مع أول ضربة بالسوط. وفي اللحظة القصيرة التي سبقت الضربة الثانية، كان كلّ ما استطاع

twitter @baghdad_library

أن يفعله هو أن يرتعش من الخوف، لكن الضربة الثانية بالسوط أكّدت مخاوفه: فقد آلمته أكثر من الأولى. أراد فريد أن يظل متماسكاً لكن الألم استنفد كلّ مقاومته وقراراته البطولية، وسمع نفسه يصرخ متوسلاً. ثم جاء وقت لم يعد يشعر فيه بأي شيء. عندما استعاد وعيه، كان مستلقياً في ظلام دامس، وكان جسمه الذي أيقظه الألم، قد بدأ يعود إلى الحياة.

أدرك أنّه يقبع في زنزانة من زنزانات الحبس الانفرادي. كانت الأرضية اسمنتية والجدران مشيدة من حجارة ضخمة. لم يعرف هل كان الوقت ليلاً أم نهاراً لأن الظلام في الزنزانة كان دامساً. لم يكن أي ضوء يتسرب من فتحة المراقبة في الباب. عندما سمع صوت الجنادب من بعيد، افترض أن الوقت ليل ونام.

للمرة الأولى في حياته أحسّ فريد بأن للضوء سحر. فقد اقتحم زنزانته شعاع صغير من الشمس من خلال فتحة الزنزانة الشديدة الظلام وتراقص على الحائط. ببطء، تحرّك الضوء عبر الزنزانة وملأها بسطوع صامت أفعم قلبه بالشوق. أحسّ بوحدة شديدة لا يمكن وصفها، وأجهش في البكاء.

«هنا ستأكل مرة كل يومين، وسيكون ذلك عند الظهر دائماً»، قال الحارس الذي دفع طاسة كبيرة مهترئة من الصفيح إلى الزنزانة. كانت كتلة من البطاطا المهروسة تملأ نصف الطاسة وعليها قطعة خبز مرقوق. كان طعم البطاطا مدهناً زنخاً، لكن طعم الخبز كان جيداً.

في الأيام القليلة الأولى من حبسه الانفرادي، أحسّ فريد بأن الوضع مريح بعض الشيء. كانت الزنزانة صغيرة، لكنها كانت نظيفة وجافة. أما في المهجع فكان عليه أن يتقاسمه مع مائة وعشرين سجيناً آخر، وكانت تفوح منه دائماً رائحة النتن والعفن ويملؤه ضجيج صاخب.

لكن بعد بضعة أيام لاحظ فريد نوعاً من الخمول والسبات أثّر على تفكيره. فبدأ يطرح على نفسه أسئلة حتى يظل عقله نشيطاً. في البداية أخذ يعدّد كلّ ما يفتقد إليه. خلال ذلك، أدرك أنه قد فقد في السجن تلك اللحظات الصغيرة الممتعة التي كانت تبدو طبيعية جداً في الحياة اليومية:

الضوء، الحركة، الدفء، الأبواب المفتوحة، التنزه، حلاقة الذقن، احتساء كوب من الشاي، الغناء، كلما رغب في ذلك.

كان الظلام شديداً ذلك اليوم، وبدا له أن الهواء يغلي. لم تتسرب نسمة هواء واحدة من الشقّ الموجود تحت باب زنزانته الحديدي. لا بد أن الجو غائم في الخارج، أو أن عاصفة رملية قد حجبت الشمس، فلم يتسرب أي شعاع من الضوء إلى الزنزانات. مرة أخرى دخلت أفكار فريد حيز اللامبالاة. حاول أن يغني لكن بعد المحاولة الثالثة تلاشت من رأسه الأغاني بعد بضعة أبيات شعرية تافهة. انتقل من أغاني أم كلثوم الشعبية الحزينة السوداوية إلى إيقاعات مطربته الأثيرة فيروز الراقصة البهيجة، لكن غناءه ظل يستعصي عليه في هذه العزلة المظلمة.

هل الوقت ليلاً في الخارج؟ أصاخ السمع، لكنه لم يسمع صوت الجنادب. عندما أحضر له الحارس الطعام أضاف قطعتين شهيتين كبيرتين من الخبز إلى صحن الفاصولياء، وقال له بجفاف: «هذه من درويش».

إذاً الوقت منتصف النهار. كان يظنّ فريد أن الوقت ليل. بعد بضع ساعات أحس بهواء منعش يتسرب من تحت الباب. شيئاً فشيئاً، بدأت الزنزانة تصبح باردة. لم يغمض له جفن.

ابتلع الظلام أفكاره، محاها. لم يتمكن من أن يصل بأيّ فكرة إلى خاتمتها المنطقيّة. في نقطة ما، كان دائماً يفقد الخيط. تساءل ما الذي يمكن عمله إزاء ذلك. قال إن أفضل شيء هو أن يوقظ دماغه بأن يمشي وهو يفكّر. راح يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً، يفرك راحة يده على الحجارة، يمارس تمرين الضغط إلى الأعلى والأسفل عشر مرات أو عشرين مرة، ويكرّر هذا التمرين عدّة مرات في اليوم.

وشيئاً فشيئاً بدأ فريد يفهم وحشيّة الحبس الإنفرادي وقسوته. كان الزمن أسوأها. فقد بدا له أن الزمن لا يتحرك. وشعر أنه إذا لم يهزمه أولاً فإنه سينال منه ويحطمه، أي إذا توقّف عن التفكير، إذا توقّف عن الإعراب عمّا يفكر به بكلمات دقيقة.

twitter @baghdad_library

«لقد كدسونا في هذا المكان المغلق فوق بعضنا»، قال لنفسه بصوت خفيض، حريصاً على نطق الكلمات بوضوح، «لكي لا نعود نشعر فقط بأننا مثل الخراف في حظيرة، بل لنصبح خرافاً حقاً. فقد أخبرني علي أبو زيد أن أحد ضباط سَرّاجي كان يشبعه ضرباً ولا يتوقف عن القول: «هيا، اقبل الأمر، إنك خروف»، وظل يضرب علي بالعصا حتى بدأ يثغو. عند ذلك تركه الضابط».

أخذ فريد نَفَساً عميقاً وكرر: «تركه»، ثم راح يكرّر هذه الكلمة بصوت مسموع، لأنه للحظة لم يعرف كيف يستمرّ، لكن بعد ذلك بدأت أفكاره تتدفّق، «في هذا الأمر»، قال ساخراً من الفكرة، «سَرّاجي وقيادة الحزب الشيوعي يشبه أحدهما الآخر. لأن زعماء الحزب يعاملون أعضاء حزبهم أيضاً كخراف مخصية. ويجب أن يطيعوا وأن يُجز صوفهم وأن يُحلبوا ويُذبحوا، لكن لا يُسمح لهم بأن يرغبوا في الحصول على أيّ شيء لأنفسهم وهم بذلك أسوأ من سراجي. لكن هذا الأمر لا يهم سَرّاجي الذي لا يبالي على الإطلاق سواء أكانت خرافه المعذّبة حصلت على شيء من الترفيه أم لا، ما دام سلوكها المطيع يطمئنه على أنها جزء من قطيعه».

ركّز فريد على متابعة سلسلة الأفكار هذه حتى نهايتها، وقبل أن ينطق الكلمات التالية بصوت مسموع، رأى بقعة نور من الشمس تسقط فجأة على الحائط، وهبّت معها نسمة باردة إلى داخل زنزانته. جلس فريد على الأرض مبتهجاً بنصره على الظلام.

٢٥٥- الزمن يمضي بطيئاً

«رنا» نطقت شفتاه، مع أنه لم يفكّر برنا. إن القلب مرتبط باللسان. كان قد قرأ هذه العبارة منذ سنوات، في مكان ما. إن لهما ذات التركيب العضلي. «رنا» همس ثانية. كانت كلماته مثل ابتهال. شعر بأنه أصبح قريباً منها الآن. عندما وصل إلى سجن تدمر، أخبره أحد السجناء القدامى أنه إذا أراد أن يبقى قوياً وبعقل واعٍ ليتجاوز الموت في هذا المعتقل فعليه أن يترك

كلّ الذين يحبّهم خارج أسوار السجن وأن ينساهم تماماً، لأنهم سيصبحون عبئاً ثقيلاً عليه هنا. لكن عندما شعر فريد بأن ذلك يعرضه لخطر آخر يحدق بكل سجين، خطر أن يصبح حيواناً، إذ لم تعد أفكاره تدور إلا حول الحفاظ بأي ثمن على البقاء حياً، تعلّق منذ تلك اللحظة برنا وبنى في مخيّلته مستقبلاً مفعماً بالدفء والحبّ والكتب والموسيقى معها.

«رنا»، همس ثانية، «لو كنت تعرفين ماذا يفعلون بنا هنا». كان يحبس دموعه عندما سمع قرعة خفيفة على الباب، لا تكاد تكون مسموعة.

«بعض الخبز لك».

كان من الواضح أنه صوت سميح. دفع حزمة مسطحة تحت باب الزنزانة وترك أصابعه هناك للحظة. لامس فريد رؤوس أصابعه.

«شكراً»، همس.

كان في ربطة الخبز قصاصة ورق أيضاً. رفعها فريد إلى شعاع الشمس. لم يكن مكتوباً فيها شيء سوى، «إننا نفكّر بك. تحلّى بالصبر يا شجاع. نحبّك». في أسفل الورقة كانت هناك عدّة تواقيع. طوى الورقة إلى مربع صغير جداً وأخفاها في بطانة بنطاله. كان طعم الخبز رائعاً. كان درويش قد دهنه بزيت الزيتون ورشّه بالزعتر قبل أن يخبزه.

شعر فريد بالتحسّن عندما تناوله. عادت أفكاره إلى عقد مقارنة بين قيادة الحزب الشيوعي والنقيب سَرّاجي. «نعم، وعندما يتعلق الأمر بالجنس»، واصل بصوت مسموع، «فإن طبيعة سَرّاجي الحيوانية تجعله أفضل من زعماء الحزب الشيوعي الذين دجّنوا الوحش الحيوي العنيف القابع في داخلهم فحوله لخصي».

ما إن نطق فريد كلمة «جنس»، حتى أدرك أن باستطاعته أن يبدّل ترتيب الحروف إلى كلمة «سجن» و «نجس». حاول تشكيل كلمات أخرى من هاتين الكلمتين، لكنّه لم يستطع متابعة ذلك طويلاً.

يوماً بعد يوم، بدأ يتملكه مزيد من البؤس واليأس، لا لأن محاولته للتغلب على العزلة بترديد أفكاره بصوت مسموع قد فشلت. فكل ما حاول

twitter @baghdad_library

أن يفكّر به، كان الظلام يهزمه يطرحه أرضا ويدوس عليه ليصبح مسطحا لا فائدة منه. جرّب ألعاباً عقلية، جرّب استنباط حديث غرامي خيالي مع رنا، أحاديث مع ليلى، تجارب معقّدة في العلوم الطبيعة - اندلعت كلّها بسرعة مثل ألعاب نارية، لكن سرعان ما ابتلعها الظلام.

كان يفتقد إلى الصحبة البشرية، ويشتاق إليها. بدأ الآن يفضّل رائحة السجناء في المهجع على البقاء وحيداً في هذه الزنزانة التي تشبه التابوت حتى قصصه ماتت على شفتيه بعد عشر جمل. لأول مرة في حياته أدرك كم أن الأصوات الإنسانية ثمينة. وأدرك هناك في جحيم العزلة بفطرته ما وجده العلماء بعد بحث طويل: لا قصة بدون مستمع ولا حياة دون الآخر.

«رنا»، همس، ومدّ ذراعيه في الظلام مثل رجل يغرق. ركّز تفكيره على حبيبته، تذكّر عطرها، بشرتها الناعمة. سرعان ما أحسّ بأنها قريبة منه وبدأ الدفء يتدفّق في أنحاء جسمه. فكّر بوجهها الجميل وبعنقها، ذلك العنق الذي كان يحبّ دائماً أن يقبّله وهو مستلق ملتصقاً بظهرها. كانت مرهفة الحساسية هناك... ابتسم فريد، وخلد إلى النوم.

٢٥٦- أبجدية الإنسان

عندما خرج من الحبس الإنفرادي بعد شهرين، كان قد كبر عدة سنوات. اغتسل عدّة مرات، ووجد له السجناء الآخرون ثياباً نظيفة، وعادت حياة السجن المعتادة ثانية.

بعد أسبوع، وقعت حادثة عابرة قسّمت السجن وأظهرت الخلافات بين السجناء. فقد تطورت مشاجرة بسيطة نشبت بين الإخوان المسلمين والشيوعيين إلى معركة شديدة، فأصيب فيها عدد من الرجال من كلا الجانبين. غمرت سَرّاجي البهجة.

تطورت فكرة أبو زيد التلقائية بإنشاء فريق مصالحة إلى اقتراح لانتخاب «لجنة» سرية من السجناء لحلّ الخلافات بينهم، أو إذا أمكن فللحيلولة دون وقوعها أصلاً، والأهم من كل ذلك توطيد اللحمة بين جميع السجناء

السياسيين. لكن انتخاب أعضاء اللجنة العشرة شكّل نكسة للشيوعيين، بسبب اختيار عضو واحد فقط من مرشحيهم. ومثّل فريد اليسار المستقل.

بذلت اللجنة جهوداً كبيرة لوضع مشاريع ترمي إلى استرجاع ما سلبه سَرّاجي وإدارة السجن من السجناء وهي كرامتهم الإنسانية. بعد عدة أسابيع، عرضت اللجنة خطة مع أنها لم تحقق نجاحاً كبيراً. إذ لم يكن من الممكن إجراء أيّ اتصال مع العالم الخارجي، أو بذل أيّ محاولة للحصول على معلومات ومواد، إلا عن طريق المجندين الذين يؤدون خدمة العلم في السجن. فقد قام عدد منهم بمحاولات للتقرب من السجناء في البداية، لكنهم سرعان ما خافوا أو نُقلوا إلى أماكن أخرى بسبب انتشار عيون وآذان سَرّاجي في كل مكان. إن هذه الشبكة الكثيفة من المخبرين بين السجناء حوّلت التخطيط لأيّ عملية إلى ما يشبه السير فوق حقل ألغام. كما أن العداء بين مختلف الأحزاب السياسية وقف حائلاً أمام تقدم أيّ مشروع يهدف إلى إبداء مقاومة معقولة، أكثر مما يعيقه المخبرون. ظل فريد صاحياً ليالي طوالاً. كان يجادل الآخرين ويبحث عن حلول ويحاول رشوة جنود لجلب أدوية ومواد للقراءة من دمشق. لكن معظم الجنود كانوا يخشون القيام بذلك.

كانت عملية المصالحة نفسها عملية صعبة وتطلبت جهوداً يومية. فالسجناء يستلقون جنباً إلى جنب في المهاجع، محشورين مثل خراف في حظيرة. وقد حوّلتهم الإهانات المستمرة والحشرات والجوع الدائم وانعدام النوم إلى وحوش مفترسة سيّئة الطبع، يهاجم أحدهم الآخر لأتفه الأسباب، ويوقع أحدهم بالآخر ألماً عقلياً وجسدياً كما لو أن تعذيب سَرّاجي لم يكف. وبيأس، أدركت اللجنة حدود سلطتها الأخلاقية، لكنها، على الرغم من ذلك، تمكنت من تحقيق شيء بدا صغيراً لكنه كان مهماً. فقد التزم جميع السجناء بأحكام اللجنة التي ظل أعضاؤها مجهولين واعترفوا بها. ولم يحتج أي سجين إلى شرحٍ مستفيضٍ ليعرف أن مجرد العضوية في هكذا لجنة تشكل خطراً على الحياة. وأصبح هذا الاحترام للجنة الأرضية المشتركة

twitter @baghdad_library

الأولى التي جمعت السجناء. كانت بذرة صغيرة لكنّها بُذِرت في أرض خصبة سمادها الألم.

٢٥٧- الخريف

بدأت بشائر الخريف الأولى تظهر من الشمال. فلم تعد الشمس لاهبة بلا رحمة كما كانت.

أبدى سَرّاجي وحرّاسه شيئاً من ضبط النفس لعدّة أيام، وفجأة تحسّنت نوعية الطعام. ولأول مرة أصبح السجناء يحصلون على قطع جيدة من اللحم في حسائهم وعلى قليل من العنب. ثم أشيع بأن العنب مسمّم، لكن لم يتمكن أحد من مقاومة الرغبة في تناوله.

«سيأتي زائر مهم قريباً»، قال السجناء الذين أمضوا في تدمر أكثر من عشر سنوات.

في عصر أحد الأيام، علموا من الجنود بأن رئيس المخابرات الجديد، العقيد بدران، سيأتي لزيارة السجن. وأُرسلت مجموعة من السجناء بإشراف جنود مسلّحين إلى باحة السجن الخارجية حيث موقف الحافلات. كان عليهم طلاء كلّ شيء باللون الأبيض، ثم وضُعت أصص أزهار خارج مدخل السجن، وكان على مجموعة ثانية من السجناء أن تطهر الساحة الداخلية من الأوساخ وأن ترتب أصص أزهار في زواياها. أما الحرّاس الذين كانوا يجدون متعة كبيرة بإلهاب ظهور السجناء بالسياط، فقد أضحوا بغتة يتصرّفون بطريقة سلمية ومؤدبة تماماً.

«هيه، إن جلدي يحكّني ويريد لمسة من سوطك»، صاح مجرم بأحد الحراس «هل مرضتم جميعكم أم أنكم أصبحتم هيبيين؟ شعاركم مارسوا الحبّ، لا التعذيب»، هتف، واضعاً يديه على خصيتيه. استشاط الحارس غضباً، لكنّه أدار ظهره للسجين.

نُظفت المهاجع والمراحيض الترابية أيضاً. وطُلب من مجموعة خاصة من السجناء تنظيف مبنى الإدارة، وكان على الجنود الاعتناء بثكناتهم.

امتلأت ثلاث شاحنات بأطنان من القمامة وألقت بحمولتها في مكان ما في الصحراء. بعد يوم، بدا السجن نظيفاً وجديداً: وهذا ما جعله يبدو مشهداً منفراً حقاً.

تأخر الزائر. طلب سَرّاجي من السجناء أن يحلقوا لحاهم ويغتسلوا ويحسنوا التصرف، لأن رئيس المخابرات الجديد رجل مثقف يحبّ النظام والانضباط، وأضاف أن بدران، الشقيق الأصغر للرئيس عمران، قد قام بدور كبير في الانقلاب الأخير. وللمرة الأولى في تاريخ سوريا أيقن السجناء السياسيون أن عشيرة استلمت الحكم، وليس كما جرت عليه العادة في الانقلابات الأخيرة، ديكتاتور فردي.

في صباح اليوم التالي، أُستدعي السجناء من مهاجعهم واصطفوا في الساحة. وضعت طاولة فُرشت بقماشة بيضاء عليها إبريق ماء وباقة زهور تحت شجرة نخيل، ووضع خلفها كرسيان.

سرت شائعة بأن بدران مكث في مكتب مدير السجن ساعتين كاملتين وهو يدقق في الملفات وأنه لم يكن راضياً عن أسلوب سَرّاجي الفوضوي. وقيل إن قائد السجن انزعج كثيراً لأنه كان يعتقد أنه يؤدي عمله بطريقة نموذجية. وكما لو أنه كان يريد التأكيد على ذلك، سمع السجناء صوت سَرّاجي فجأة من النافذة المفتوحة وهو يقول: «ولماذا نريد الاحتفاظ بسجلات التحقيق؟ أليست مهمتي أن أساعد في إعادة هؤلاء الشياطين المساكين إلى حضن الوطن؟»

عندها سُمع بدران يقهقه ويسأل سَرّاجي هل لا يزال يعيش في عهد نوح.

عندما ظهرا في الساحة أخيراً، بدا النقيب عجوزاً مكتئباً وهو يسير إلى جانب الضابط الرياضي الشاب الذي بدا من هيئته أنه رجل مفعم بالطاقة. كان يرتدي بدلة رسمية صيفية عادية تبرز بنيته العضلية لكنه كان حاسر الرأس، بخلاف سَرّاجي.

جلس العقيد على أحد الكرسيين بينما بقي سَرّاجي واقفاً يتفحص

twitter @baghdad_library

السجناء. كان الصف الأمامي يبعد حوالي خمسة أمتار عن الطاولة. كان جنود يحملون رشاشات تخلو وجوههم من أية تعابير يقفون إلى جانبي الطاولة، لديهم أوامر بإطلاق النار على كل من يقترب منها أكثر من مترين، فلم يكن سَرّاجي يرغب في المجازفة على الإطلاق، وخاصة أن العديد من أعضاء الإخوان المسلمين مستعدون لاغتيال رئيس جهاز المخابرات بعملية انتحارية.

خاطب سَرّاجي السجناء بتشنج. كان صوته مبحوحاً من شدة الإثارة. ربما نجم ذلكَ عن التوتر الذي انتابه، أو ربما لأن دماغه بدأ يتآكل لتعاطيه المخدّرات. لكنه على الرغم من ذلك، ألقى خطاباً كان ينحو لأن يكون مهرجاً من دون أن يقصد. نسي السجناء الجائزة التي وعدوا بها وضحكوا في البداية ضحكة مكتومة، ثمّ أخذوا يضحكون بصوت يزداد ارتفاعاً حتى أطلقوا العنان لبهجتهم. خرج سَرّاجي الذي انتابه اضطراب شديد عن طوره وراح يوجّه أقذع أنواع الشتائم للسجناء الذين ظلوا يهدرون بالضحكات ويقهقهون. لم يعد يعرف سَرّاجي كيف يتصرف إزاء ذلك، فأخذ يلهث طلباً للهواء، بينما هدرت الضحكات وصداها بين السجناء عبر الساحة مثل بحر عاصف.

استوى العقيد بدران واقفاً وغادر المعسكر من دون أن ينبس بكلمة.

٢٥٨- المساعدة الإنمائية

قبيل نهاية أيلول، وصل ثلاثة ضبّاط من جهاز أمن الدولة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية: رجال شقر يضعون دائماً على عيونهم نظارات شمسية. تساءل السجناء المضطربون عن سبب إحضار ألمان إلى السجن. كمراقبين؟ كخبراء في التعذيب؟ كان ثلاثتهم يُعرفون بصورة عامة باسم «الألمان الشرقيين».

كان معلوماً أن عدداً من المستشارين القادمين من عدّة بلدان أوربية شرقية يدرّبون رجال المخابرات السوريين في دمشق منذ السنة الماضية. وقد

سرت شائعات أنه منذ عام ١٩٦٠ كان نازيون سابقون يعملون أيضاً في مصر خبراء في الأسلحة. وأخبر فلسطيني كان مسجوناً في أحد السجون الأردنية فريد أن رجال المخابرات هناك كانوا يعذّبونه بتعليمات مباشرة من خبراء إنكليز، لكن البريطانيين كانوا غاضبين لأن الأردنيين لم يستطيعوا كبح جماح عنفهم البدوي في حدود معقولة. وكانوا يطلبون منهم دائماً الإبقاء على مسافة بينهم وبين السجناء والحفاظ على هدوئهم أثناء التحقيق والتعذيب. لكن هيهات أن يتحول الأردني إلى إنكليزي.

وقد أبدى أحد الألمان الشرقيين دهشته عندما رأى آلات التعذيب الحديثة هذه في وسط الصحراء. حتى إنه كان في سجن تدمر مولّد كهربائي. ابتسم سَرّاجي ابتسامة عريضة وقال: «إننا نتمتع باستقلالية هنا. حتى لو أطفئت كل الأضواء في جميع أرجاء البلد، فبإمكاننا توليد الكهرباء الخاصة بنا لتكملة التحقيق»، قال موضحاً. لشدة غبائه، لم يعرف بعد أن هؤلاء الزوار الأجانب سيصبحون قريباً مدربيه، ولم ينظر إليهم باحترام كبير لأنهم كانوا يتكلمون لغة عربية ركيكة.

«أظن أننا كبلد فقير لا نستطيع أن نجلب ألماناً أفضل من هؤلاء»، قال لمساعده ضابط الصف آسفاً، وفي صوته مسحة من الازدراء العميق.

في اليوم الرابع، ولمفاجأة مضيفهم، جلب الأجانب ست كلاب من نوع شيبرد الألمانية الضخمة والتي يطلق عليها السوريون لقب «كلاب بوليسية»، لأنها كانت تظهر دوماً في الأفلام البوليسية. قدموها هدية للحرّاس. وبمساعدة هذه الحيوانات المدرّبة جيداً، أصبح بالإمكان قطع السجن تماماً عن العالم الخارجي. حتى إنهم أقاموا بيتاً خاصاً جميلاً للكلاب.

وسرعان ما أطلق السجناء ألقاباً على الألمان، كما كانوا يفعلون مع جميع ضبّاط السجن: سجق وبطاطا وشنكليش. فقد أطلقوا اسم «سجق» على الضابط النحيف الطويل، و «بطاطا» على الضابط القصير البدين، أما «شنكليش» فكانت تفوح منه رائحة نتنة حتى أعالي السماء. وقد استُمد هذا

twitter @baghdad_library

الاسم من نوع من الجبن السوري الذي تنبعث منه رائحة كريهة. وكان شنكليش كذلك يدرّب الكلاب ويطعمها أجود أنواع اللحم في الساحة أمام أعين السجناء الجائعين ويقدم لها ماء نظيفاً. منذ ذلك الحين، بدأت الكلاب تجوب السجن طليقة طوال الليل، ولم يعد أحد يجرؤ على مخالفة الأمر بعدم مغادرة المهاجع.

كان الجنود يترددون كثيراً في مخالطة الألمان الشرقيين. فلم يرق لهم هؤلاء الرجال الشقر الثلاثة، واعتبروهم دنيئين، بخلاء، يعملون دون كلل ومتعصبين، وهي أربع صفات يعتبرها السوريون من الخطايا المميتة.

في تمام السابعة صباحاً، كان الرجال الثلاثة يصلون إلى مكتب سَرّاجي، حليقين، في بذاتهم العسكرية المكوية. في البداية، لكن قبل أن يأتي الألمان لم يغادر سَرّاجي شقته حتى الساعة التاسعة تقريباً، لكن عندما اتصل به العقيد بدران الذي بدا أن الألمان يقدمون له تقاريرهم، وحدّثه بنبرة غاضبة، طلب النقيب من جنديين أن يكونا بمثابة ساعة المنبّه له. فأصبح يصل إلى مكتبه في السادسة صباحاً. وعند وصول الألمان، كان يستقبلهم وينظر بطريقة مسرحية إلى ساعته وكأنه يلمح لهم أنه أشطر منهم.

صار سَرّاجي يكرههم. ففجأة لم يعد هو السيّد الآمر الناهي الأوحد لهذا السجن. ولم يخف ذلك على السجناء أيضاً. وأصبح على سَرّاجي أن يستجوب السجين في حضور الألمان. وعلى الرغم من عدم قدرتهم على تكلم العربية بطلاقة - فقد كانوا يخلطون دائماً بين المؤنث والمذكر - كانوا يفهمون كلّ شيء ويدوّنون كلّ ما يقال بصمت. وبعد أن يعيد سَرّاجي السجين إلى زنزانته، صاروا يعلّمونه كيف يستجوب السجناء بطريقة مفيدة أكثر، لكن النقيب كان عنيداً كالحمار وبرأس تيس، ولم يتعلّم بسرعة.

كان الألمان الثلاثة مهذبين ومباشرين بأسلوبهم الدقيق البارد، وسرعان ما نزعوا السلطة من سَرّاجي تقريباً. ان رغباتهم دُعمت دائماً بمكالمات هاتفية من مقر قيادة المخابرات. ولأول مرة، أحسّ النقيب بأنه عُلِّق مبللاً بتقصيره ونقد الألمان على حبل الغسيل أمام أعين السجناء حتى يجفّ. لأنه

كان على يقين أن التأنيب الذي كان يقرع بدران به رأسه على الهاتف يصل بكل حذافيره لا بل مع توابل للسجناء. صار يغلي كبركان على وشك الانفجار في كل يوم، لكن في اللحظة الأخيرة، ظل يتمالك نفسه خوفاً من رئيسه العقيد بدران. لم يبق له سوى الاعتماد على جنوده وضبّاطه الذين شاركوه كراهية الألمان. ولكي يضمن دعم الضباط الأدنى منه رتبة، فقد أرخى لهم القياد، او الرسن كما يقول أهل الشام، بعض الشيء.

لاحظ السجناء ولجنتهم كلّ ما يجري، وبدأ بعض الجنود الراغبين المنفتحين على الرشوة يجلبون لهم أخباراً من الخارج، بالإضافة إلى مزيد من الأدوية والورق والحبر والأقلام. وقبيل نهاية تشرين الأول، هُرّبت أول كاميرا إلى السجن.

في نهاية تشرين الثاني أوردت صحف لبنانية نبأ مفاده أن عدداً من الخبراء الألمان الشرقيين يعملون في سوريا ويشرفون على تعذيب السجناء، لكن عامة الناس لم يصدقوا ذلك. فمن المؤكد أن رجالاً غرباء سواء من الكتلة الشرقية أو من الجحيم لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك مع سوريين فخورين ببلدهم الحر. وفي السجن، ازداد وضع الاشتراكيين والشيوعيين سوءاً. وأصيب يعقوب دارو، زعيم المجموعة الشيوعية، بالخرس تجاه هذا الإحتقار وهذه الكراهية المتزايدة من جانب الأحزاب الأخرى.

«هؤلاء هم رفاقك»، قال له السجناء، بل إن بعضهم بصق عليه. كان دارو مجادلاً وخطيباً محنكاً، لكن الكلمات لم تعد تنفعه الآن.

٢٥٩- العجز

بعد أسبوع واحد فقط، بدأت أساليب الألمان الشرقيين تعطي ثمارها. فعلى الرغم من جهود المقاومة التي أبدتها لجنتهم، بدأ السجناء بالعشرات يغيّرون آراءهم وأخذوا يوقّعون تصاريح يقرّون فيها بأنهم كانوا مخطئين ليخرجوا من هذا الجحيم. فقد استسلم بعضهم فقط لأنهم شعروا بالمهانة لأن أجانب يعذبونهم في بلدهم وبرضاء وتوكيل رئيس الجمهورية عمران.

twitter @baghdad_library

لكن فريد لم يتوقّع أن يضعف شخص ذو شخصية قوية مثل فالح الذي كان واحداً من أكثر الإخوان المسلمين شجاعة وجرأة. في البداية، استجوب سَرّاجي فالح لفترة طويلة، وكرر عليه طرح أسئلة كان قد أجاب عنها عدة مرات من قبل. لذلك راح يكرّر تلك الأجوبة، وكان الألمان يدوّنون ما يقوله.

ثمّ نهض النقيب وغادر الغرفة. بقي الألمان وحدهم مع السجين. فجأة أُدخلت زوجة فالح وأطفاله الثلاثة الصغار. كانوا يبكون وراحوا يتوسلون إليه بأن يستسلم لأنهم اشتاقوا إليه كثيراً وبحاجة إليه. لم يتمكن فالح من مقاومة هذا الضغط، فوقّع تصريحاً بأنه أخطأ. أعطته الإدارة ثياباً نظيفة ومبلغاً من المال ونقلته مع أسرته إلى دمشق في سيارة لاندروفر.

لم يكن السجناء في تدمر مهيئين لهذا الأمر. فقد تمثّل ابتكار الخبراء الألمان والذي نقلوه عن النازيين كما تبين لفريد فيما بعد في استخدام أفراد أسرة السجين لتعذيبه بشكل حديث قاسٍ جداً. فبالنسبة للعديد من السجناء، كانت دموع أطفالهم وزوجاتهم أو أمهاتهم أشد قسوة من ضربهم بالسوط.

لم يعرف غضب سَرّاجي على الألمان الشرقيين وعلى أساليبهم حدوداً. فراح يشتم، ويشرب كثيراً.

«القذرون! إني أعامل السجناء مثل أولادي، لكنهم يلعبون أمامي دور البطل. ثم يأتي هؤلاء الأوروبيون الضعفاء، أشباه الرجال هؤلاء المخنثون، الذين لا شوارب لهم، بل حتى لا توجد شعرة في صدورهم، ويتمكنون من كسر هؤلاء الخونة». سمعه أحد الجنود يقول نادباً.

لم يكتشف السجناء الطريقة التي تمكنهم من الاستمرار في الثبات حتى أوائل تشرين الثاني. حيث صرخ أحد أعضاء الإخوان المسلمين في وجه زوجته وأطفاله وقال لهم إن عليهم أن يخجلوا من أنفسهم، وأن من الأفضل أن يعودوا إلى البيت، وهدّد زوجته بأنها إذا كتبت له رسالة أخرى أو جاءت لزيارته فإنها تستطيع أن تعتبر نفسها طالقةً.

بعد أسبوع، عرف البلد كله أنّ الألمان الشرقيين يستغلون وكأنهم برابرة نازيين علاقة الرجال بعائلاتهم وحبهم لها ويبتزون الرجال في سجونهم.

عندها أطلق سَرّاجي تنهيدة الفرج.

٢٦٠- الصمت

كان يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٨ يوماً دافئاً، يوماً يشبه أيام الصيف. استيقظ فريد مبكراً. كان قد حلم للتو برنا وبأنها تقبّل حلمتيه. وتدغدغه، فاستيقظ.

لم يحتفل بعيد ميلاده قط، أما هي فكانت ترغب دائماً في أن تمضي عيد ميلادها معه، واليوم هو ١٥ تشرين الثاني. أخرج شمعة صغيرة من حيث كان يخبئها.

«عيد ميلاد سعيد، يا قلبي الغالي»، همس مبتسماً. كان يعرف أنه أينما كانت رنا، فإنها ستفكّر به اليوم.

كانت كلاب الشيبرد الألمانية تقوم بجولتها في الساحة الخاوية في تلك الساعة. ألقت نظرات غاضبة سريعة على فريد عندما اجتازت مهجعه.

«رنا»، همس.

في تلك اللحظة، اعتراه شعور بالثقة من أنه سيعيش مع حبيبته ذات يوم. لفترة وجيزة أحسّ بتصالح مع العالم.

في ذلك اليوم، كانت اللجنة تنوي مناقشة ما الذي يمكن للسجناء عمله في مواجهة التهديد الذي يمثّله هؤلاء الرجال الشقر الثلاثة. اعتقدوا أنّ سَرّاجي لن يعترض على تمرّد ضد الألمان، لكن كيف يمكنهم عمل ذلك دون أن يشكل استفزازاً للنقيب نفسه؟ اقترح فريد إضراباً عن الطعام يكون لهم فيه مطلب وحيد، ولن يوقفوا الإضراب حتى يتحقق هذا المطلب وهو مغادرة الألمان السجن. بهذه الطريقة سيدرك سَرّاجي أنه على الرغم من أساليب التعذيب التي كان يمارسها على السجناء فإنهم يقبلونه، لكنهم لن يقبلوا أجانب أبداً.

twitter @baghdad_library

لكن قبل المناقشة المزمعة بقليل، جاء حارسان إلى المهجع رقم ٥ وأخذا فريد لاستجوابه. كانا مهذبين للغاية معه، ولعن فريد سوء حظّه. عند اجتيازه المهجع رقم ٤، تبادل نظرات مع عضو آخر في اللجنة. رمقه هذا بشيء من القلق.

«استجواب روتيني»، همس فريد.

«اخرس»، صاح أحد الحارسين. واصل فريد سيره.

«آه، تسرّنا رؤيتك. هذا هو خبيرنا الاستراتيجي، الرجل الذي يظن نفسه تشي غيفارا وهو يقود كفاحاً مسلّحاً»، قال له سَرّاجي محيياً. ألقى فريد نظرة على زاوية الغرفة. رأى الرجال الشقر الثلاثة جالسين.

«ماذا يفعل هؤلاء القوادون هنا؟» سأل فريد النقيب الذي رفع حاجبيه فوق حافة نظارته الشمسية.

«هكذا إذن. إن صديقنا الشاب لا يبدي أي احترام! هؤلاء خبراء يقدمون لي المساعدة».

«لن أنبس بكلمة واحدة ما دام هؤلاء اللقطاء يجلسون هناك. أيها النقيب، إننا جميعاً مواطنون في بلد حر، ولا أسمح بأن يستجوبني أجنبي على تراب وطني».

«هدّئ من روعك أيها الشابّ. فأنا مَنْ يطرح الأسئلة هنا، وأنت مَنْ يجيب عليها إذا لم ترغب في أن أفقد أعصابي. لذلك دعنا نبدأ. نستطيع أن نعذّبك دائماً، لكننا لا نريد أن نفعل ذلك»، قال سَرّاجي بهدوء كما لو كان تحت تأثير مخدّر أو تدريب عنيف أفقده شخصيته. مع أن فريد كان يثبّت عينيه على النقيب، فقد لاحظ «سجق»، الألماني الطويل، يهزّ رأسه راضياً. وكما لو أنه مَنَحَ جائزة مكافأة لسَرّاجي، صعّد النقيب وتيرة لطفه. «فريد مشتاق، لقد درستَ الكيمياء، وبلدك بحاجة إليك أكثر من أي وقت مضى، لننس خلافاتنا. إنك شاب محترم، كافحت في سبيل الشعب وارتكبت أخطاء. هيا أعطني يدك واترك هذا المكان لتواصل الكفاح وتبني البلد ثانية».

لم يحر فريد جواباً. «هكذا إذاً أصبحوا يتصرفون الآن»، قال لنفسه.

واصل سَرّاجي الكلام بقوة وقال: «فريد، إنك عضو في لجنة السجناء السرية. هيا أخبرني أسماء الآخرين. لا أريد أكاذيب، أرجوك. أخبرني وتصبح حراً».

«أوه، أيها النقيب! لن تحصل على أيّ اسم منّي. فلديك عدد كاف من المخبرين. وكما تعرف فإني لا أنتمي إلى أيّ حزب سياسي، وإني دائماً على استعداد لتقديم إقرار بالندم والولاء».

«إنك فتى ذكي، لكنّك لن تخدع سَرّاجي بهذه الطريقة. فالراديكاليون الذين أنت منهم لا يعبأون بإبداء الندم».

«لقد طُردت من مجموعتهم لأنني لم أحمل السلاح معهم»، قاطعه فريد.

«اخرس»، صاح النقيب، ورأى فريد «سجق» من بعيد يشير له بيده بأن يخفف من حدّة كلامه. فبدأ سَرّاجي على الفور يتحدث بمزيد من الهدوء، «إننا لسنا مهتمّين بتوقيعك. أعطنا فقط ثلاثة أسماء من أعضاء لجنتكم السرية ونتركك تذهب. ما رأيك بهذا العرض؟» رأى فريد «سجق» و«بطاطا» يرفعان أصابع إبهاميهما باستحسان. ظل «شنكليش» مستغرقاً في التفكير.

هكذا إذن. إنهم يريدون تحطيمه شيئاً فشيئاً. بدأ يعتريه شعور بالغثيان. «حسناً، هذا هو جوابي ببساطة»، قال بهدوء، «لن أعطيك أي اسم حتى لو كلّفني ذلك حياتي».

أشار القائد إلى حارسين كان فريد متأكّداً من أنهما واقفان وراءه بالقرب منه. كان عليه ألاّ يلتفت. فقد تعلّم ذلك بسرعة، لأنه لو فعل لتلقى لطمة على وجهه.

وضع الحارسان أشرطة جلدية حول ذراعي فريد ورجليه وقيّدوه في الكرسي، ثمّ وضعوا كلابات معدنية على أصابعه.

«لا أزال أستمع بصبر جميل. أليس لديك شيء تريد أن تقوله لي؟» سأله سَرّاجي. نظر إليه فريد بثبات. يا لك من حقير. شتم سَرّاجي في سره. لو كان الغباء يسبب المرض، لكنت الآن في عداد الأموات. أعطى

twitter @baghdad_library

النقيب إشارة لمباشرة التعذيب بالصدمة الكهربائية. ضغط ضابط شاب على زرّ في لوحة مفاتيح. من الصدمة الأولى، أحسّ فريد بأن روحه غادرت جسمه. حاول أن يصرخ وفتح فمه، لكن صوته خذله. أحسّ كأنه انفجر وتناثر إلى قطع متشظية، لكنّه كان لا يزال مقيداً بإحكام إلى الكرسي، يتلوّى ألماً.

جفّ لسان فريد وشفتيه ولثته من الصدمة الكهربائية. صارت كلها جافة وقاسية كالخشب. ارتجت الكهرباء عبر جسمه مرة أخرى.

«فريد، إذا تكلّمت فإننا سنتوقّف».

عطش حارق عذّبه. نهض «شنكليش»، الألماني الذي تفوح من جسمه رائحة فظيعة وصبّ ماء من دورق فخاري في كأس فيه قطع من الثلج. صوت قرقعة قطع الثلج جعل عيني فريد تنبقان من رأسه. «تكلم، عندها يمكنك أن تشرب كما تشاء»، قال سَرّاجي.

رفضُ فريد زاد النقيب غضباً. بدت عليه صعوبة كبيرة في السيطرة على نفسه. أشار إلى الحارس مرة أخرى.

«افتح فمك»، قال الرجل. عندما لم يستجب فريد، أمسك فكّه بيده القويّة. ألم فظيع ألمَّ بوجه فريد، كما لو كان بين فكيّ كماشة. خاف أن يُكسر فكّه. لم تكن ثمة جدوى من إبداء أي مقاومة. دسّ الحارس سلكاً عارياً في فمه، وشغّل الضابط لوحة مفاتيح الجهاز. أحسّ فريد بازدياد قوّة التيار وانتفضت حنجرته وفكاه وعضلات وجه وجفناه في تشنجات مؤلمة.

«اترك السلك»، قال سَرّاجي، «سيلتصق من تلقاء نفسه الآن». في الواقع أصبح فكا فريد، العلوي والسفلي، خدرين من شدة التيار الكهربائي وهو يعضّ على قطعة السلك النحاسي. كان يريد أن يلفظ من فمه ذلك الشيء الشيطاني، لكن فكاه لم يطعياه.

بدأت شجرة الدردار المحترقة تتراقص في ضوء ألسنة اللهب، تطقطق وتطلق شرارات رسمت أشكالاً هندسية رائعة في الهواء. برق أخضر متعرج ظل ينبثق من الظلام ويبهر عينيه.

لوضع حد لعذابه، وبإرادة قوية ألقى فريد بنفسه إلى الخلف بكلّ ما أوتي من قوّة. ارتطم رأسه بالأرض، وأحسّ بارتياح لحظة غادره وعيه.

٢٦١- الملاك الحارس

عندما استعاد فريد وعيه، كان لا يزال مقيداً بالكرسي أمام طاولة سَرّاجي. كانت الغرفة فارغة. كان فمه ومؤخرة رأسه يؤلمانه. كان طعم الدم لا يزال في فمه لأن السلك العاري جرح لثته عندما سقط.

خيّم على المكان صمت مطبق، كما لو أن السجن كله أصبح مهجوراً. فوجئ عندما رأى أن الساعة المعلقة على الحائط تشير إلى الواحدة بعد الظهر. هل استمر التعذيب كل ذلك الوقت، أم أنه كان مستلقياً فاقد الوعي طوال تلك الساعات؟

سمع صوت الباب يُفتح، لكنّه لم يلتفت. كان قلبه يخفق بقوة. ثمّ أحسّ بيد على رأسه.

«ماذا فعل أبناء الزنى هؤلاء بك؟» همس سميح، ودنا من فريد ليرى أحدهما الآخر. كان يحمل دورق ماء فخارياً. شرب فريد من فوهة الدورق. أصدر الماء صوت أزيز في جسمه الجاف الحار. راح يشرب بنهم، شاعراً بيد سميح الباردة على جبهته. كما لو كان الماء يفيض من أطراف فمه، طفرت الدموع إلى عينيه.

«درويش يبعث إليك بتحياته. علي أن اخبرك ما طلب مني قوله لك: «يا فتى إن درويش معجب بك»».

ابتسم فريد وأبعد رأسه عن الدورق. بدون كلمة وداع، اختفى سميح بسرعة دون أن يحدث صوتاً، مثل قطّة.

تساءل فريد لماذا لم يفكّر قط في الموت عندما كان تحت التعذيب: لم يفكّر بالموت والذهاب إلى الجنة كالإخوان المسلمين، ولم يفكّر بموت بطولي في سبيل القضية الشيوعية. كان كثير من السجناء يرددون نشيد الأممية الشيوعية أو يتلون القرآن وهم يُعذّبون. كاد يشعر بالخجل من نفسه،

twitter @baghdad_library

لأنه عندما كان يتعرض للتعذيب كان يفكّر بيدي رنا الجميلتين، وكيف كانتا تلامسان جبهته عندما يكون حزيناً. كم كان مشتاقاً إلى هاتين اليدين الآن.

سمع وقع خطوات عند صحن الدرج. دخل سَرّاجي إلى الغرفة يتبعه الألمان. «خذه واحضر لي محسن أبو خال من المهجع رقم ٩»، قال، وجلس إلى طاولته.

«أما أنت»، قال لفريد بينما كان الحارسان يفكّان الأشرطة، «فإني سأسحقك كالصرصور، ولن يتمكن غيفارا ولا كاسترو من إنقاذك».

٢٦٢- التمرّد

كان شهر كانون الثاني ١٩٦٩ شهراً شديد البرودة، ونزل الثلج في أرجاء البلد لأول مرة منذ أربعين سنة. تجمّد السجناء في مهاجعهم المكشوفة غير المدفّأة.

في نهاية كانون الثاني، توفي حامد ثابت، وهو معلّم مصاب بمرض القلب، عضو في الإخوان المسلمين، تحت التعذيب. فخلال مداهمة المهجع مساء اليوم السابق، وجد الحرّاس مفكرة الرجل البائس السرية التي كان يدوّن فيها تفاصيل الحياة في السجن. كان النقيب سَرّاجي يعتبر مجرّد حيازة ورقة وقلم رصاص هجوماً شخصياً عليه لا يغتفر. وخلال تلك المداهمة، اكتشف الحرّاس أيضاً مدية، بل كذلك مسدّساً وكيلو حشيش، لكن أصحاب تلك المواد لم يعاملوا بهذه القسوة، بل نالوا بضع لكمات في مكتب قائد السجن فقط. لكن المفكرة أثارت حفيظة النقيب، وعندما دعا المعلّم الخجول، بشجاعة غير متوقّعة، سَرّاجي بأنه عدو الإسلام وخادم الكفار، وأنه سينال، إن عاجلاً ام آجلاً، عقابه، لم يعرف غضب القائد أي حدود.

بهذه الحدّة من الغضب، توجّه إلى الضابط الشاب الذي يشغلّ زرّ جهاز الصدمة الكهربائية، ودفعه جانباً ولعن السجين، ورفع التيار الكهربائي إلى أقصى درجة. لم يوقفه أحد. قفز أحد الألمان، وحاول إنعاش المعلّم،

لكن حامد ثابت لم يستجب. ذهب الألمان مباشرة إلى دمشق ولم يعودوا إلا في اليوم التالي، بعد أن هُرِّب الجثمان إلى المستشفى في دمشق. وحصل قائد السجن على شهادة طبية تفيد بأن حامد ثابت مات في المستشفى العسكري بعد فترة طويلة من معاناته من مرض القلب.

لم تكن مثل هذه الشهادة الطبية الزائفة بالأمر الجديد، سواء بالنسبة للنقيب سَرّاجي أو للأطباء، بل كانت مسألة روتينية. لكن بما أن حياة أي فرد لا تشبه حياة أي فرد آخر، فإن موت امرئ لا يشبه موت اي امرئ آخر. ربما لم يكن حامد ثابت زعيماً مؤثّراً ولا خطيباً مفوهاً، لكن أصدقاءه كانوا يحبّونه لكونه هكذا.

مات في الوقت الذي كان فيه السجناء يحتاجون إلى شيء من التشجيع ليتغلبوا على مخاوفهم أخيراً. وقد فعل حامد بموته أكثر مما فعله في حياته. فقد منح الآخرين الحافز النهائي ليحرروا أنفسهم من تلك الحفرة. لم يكن ثمة عودة إلى الوراء الآن. سرعان ما شمّ ذلك النقيب سَرّاجي بأنفه الذي يشبه كلب البولدوغ.

اعتراه الفزع. كان على المحك. فقد كانت ترقيته إلى رتبة رائد هي أعلى رتبة يمكن أن يبلغها وستكون آخر محطة في مهنته العسكرية، وستكون في الوقت نفسه أساس راتبه التقاعدي. لم يكن يريد أن يحدث شيء في السجن الذي يديره إلا بعد حصوله على هذه الترقية. لذلك أطلق المخبرين لديه في كل مكان، وتحدّث إلى بعض السجناء بنفسه، متأسفاً على الزّلة المؤسفة التي بدرت منه. وحاول تهدئة الشيوعيين و السطلانيين بالقول إن الرجل المتوفى ليس سوى عضو تافه في الإخوان المسلمين. كما أوقف سَرّاجي التعذيب، وتحسنت نوعية الطعام بعض الشيء. لكن لجنة السجناء رأت في ذلك فرصتها الوحيدة، فدعت، من دون خوف، إلى إضراب عن الطعام. كان ذلك في ١٤ شباط ١٩٦٩.

لم يفهم قائد السجن تقارير مخبريه في المهجعين ٢ و ٣ الذين ذهبوا لرؤيته في الصباح الباكر وأخبروه عن الإضراب عن الطعام. «اتركوهم

twitter @baghdad_library

يموتون جوعاً» صاح وكأنه يبتهج لهذا الخبر، لكن ابتسامته سرعان ما تلاشت عندما قال له الحرّاس إن الإضراب لم يشمل مهجعاً أو مهجعين، بل المهاجع الستة عشر كلها.

في حوالي الساعة العاشرة، جاء ضابط ووضع أمام سَرّاجي ورقة. لم تكن رسالة السجناء تخاطبه أو تخاطب الحكومة السورية، بل كانت تخاطب الرأي العام العالمي، بلغة مقتضبة، لكن واضحة. فقد طلبوا:

١- إبعاد خبراء التعذيب الألمان الشرقيين في الحال.

٢- توقيف جميع صنوف تعذيب السجناء في سجن تدمر والحطّ من كرامتهم.

٣- وقف أعمال السخرة في مقلع حجارة البازلت.

٤- إجراء تحقيق عام في الجرائم التي ارتكبت بحق السجناء.

٥- اختيار ممثل قانوني لهم بحرية.

٦- تقديم طعام وأدوية أفضل.

٧- إطلاق سراح جميع الجناة الشباب دون العشرين من العمر.

٨- مضاعفة فترة الفرصة في الساحة لاستنشاق الهواء.

٩- السماح بالزيارات الأسبوعية لأفراد الأسرة.

١٠- العلاج الطبي للمرضى على يد أطباء يثق بهم السجناء.

ابتسم سَرّاجي ابتسامة عريضة وقال: «أين يظنون أننا نعيش، في سويسرا؟» لكن صوته كان يشوبه نبرة قلق.

في منتصف النهار، عُقد اجتماع ضم جميع الضبّاط في مكتبه. كان الألمان الثلاثة يبدون أكثر شحوباً. لم يُخيّم مثل هذا الصمت الثقيل على السجن من قبل. فقد اتحد أكثر من ألف سجين لتقديم طلبات بلغة حازمة كأنهم لم يذوقوا ما يكفي من طعم الجحيم. للمرة الأولى في حياتهم، شعر الضبّاط بالخوف على نحو غريب. وتملكهم شعور بأن خطوة خاطئة واحدة تبدر منهم، ستؤدي إلى وقوع كارثة لا تحمد عقباها.

سعى سَرّاجي إلى التوصل إلى حلّ يشبه الحلّ الذي شرحه له وزير الداخلية ذات يوم. «إن سياستنا تكمن في التخلص من الإخوان المسلمين والسطلانيين والشيوعيين، وأن نحافظ في الوقت نفسه على صداقتنا مع السعودية ومع سطلان في مصر ومع الاتحاد السوفييتي».

بعد شيء من التفكير، أعلن عن خطة تتألف من ثلاث نقاط، هي: «أولاً، نلوذ بالصمت ونمنع تسريب أي معلومات إلى خارج السجن. ثانياً، نعتقل زعماء الإضراب ونزج بهم في الحبس الانفرادي حتى يهلكوا. ثالثاً، نغري السجناء بطعام أفضل، ونظهر لهم في الوقت نفسه، وبهدوء تام، أننا لسنا متأثرين بإضرابهم، فهم لا يجازفون سوى بحياتهم، ولا يستطيعون قهر الدولة بمثل هذه الأساليب السخيفة».

هز الضبّاط رؤوسهم. وبدا على الألمان أنهم بدأوا فجأة يحترمون القائد العجوز.

٢٦٣- نهاية النفق

رفض سَرّاجي الدخول في أيّ نوع من المفاوضات مع السجناء، لكن عندما استمرّ الإضراب عن الطعام لمدة أسبوعين، لم يعد يعرف ما الذي يمكن فعله. نصحه الضبّاط بتقديم تنازلات، فاستسلم.

وضعت هذه الخطوة لجنة السجناء في وضع خطر للغاية. فحتى هذه اللحظة، لم يكن المخبرون يعرفون أحداً من أعضاء اللجنة سوى فريد. ولو كشف أعضاء وفد كامل عن أنفسهم الآن، فإن ذلك يعني القضاء عليهم جميعاً. لذلك قرّروا إرسال ثلاثة رجال فقط، وظل السبعة الآخرون سرّيين ليتمكنوا من مواصلة الكفاح إذا قُتل المندوبون الثلاثة. تطوّع سلمان من الإخوان المسلمين والصحفي علي أبو زيد لمرافقة فريد.

عرض قائد السجن الذي تظاهر بالترفع واللامبالاة والكرم وكأنه باشا، عليهم احتساء الشاي، لكنهم اعتذروا بتهذيب. لم يكن فريد متأكداً من أن

twitter @baghdad_library

الجوع قد شحذ أحاسيسه، لكنّه شمّ فجأة رائحة خوف النقيب. كان تفكير سَرّاجي مركزاً على شيء واحد فقط، وهو أن يحصل على راتب تقاعدي برتبة رائد. وهذه كانت نقطة ضعفه المميتة.

«اسمع، أيها النقيب»، بدأ فريد الحديث، موجهاً كلامه إلى قائد السجن، عيناه مثل عيني نمر جائع متيقن من فريسته، «لقد قتلتَ أنت والألمان حامد ثابت، وأنت تتحمل المسؤولية. من الممكن أن يُرحَل الألمان إلى بلدهم ولا يبقى لهم أي أثر، وتكون أنت قد وقعت في المصيدة».

في الثواني الخمس التالية، أصبح من الواضح له أنه ربح المعركة، لكنه لم يكن يعرف إن كان سينجو مع نصره هذا أم أنه سيأخذه معه إلى القبر، لكنّه رأى أن الخوف قد شلّ قاتل حامد ثابت. كان سَرّاجي يعرف أنه إذا لم يستأصل ذلك الاتّهام من مهده هنا في السجن، بمجاراة السجناء وتنفيذ طلباتهم، فقد يتعرض للاغتيال على يد أحد أعضاء الإخوان المسلمين في أي وقت بعد أول يوم من إحالته على التقاعد. ارتخى وجه النقيب. استولى عليه الرعب. لم يجب إجابة متماسكة، بل تلعثم وقال: «ماذا؟ ثابت؟ أيّ ثابت؟» في الدقيقة التالية استولى عليه رعب أشدّ. لم ينكر، بل صاح، مثل رجل مخبول، بأن الدولة تفضّل أن ترى موتى على أن ترى خونة الوطن. صمت فجأة. كان واضحاً أنه كان يحاول الابتسام. ثمّ تحدث بهدوء، متخذاً أسلوباً أبوياً. سيوافق على طلباتهم ويكافؤهم على سكوتهم. فهو ليس وحشاً، ويمكنهم التحدّث معه.

العمل في مقلع الحجارة، التحقيق، حرية التريّض في الهواء الطلق، كانت كلّها أمور له فيها بعض النفوذ. ستتحسن نوعية الطعام في المستقبل أيضاً، وسيعالج طبيب يثقون به السجناء المرضى كلّ يوم. لكنه يجب أن يناقش كلّ الطلبات الأخرى مع وزارة الداخلية. أما وجود الألمان فهي مسألة استراتيجية حسّاسة، والوزارة فقط هي التي يمكنها السماح بالزيارات العائلية. أما هو، القائد سَرّاجي، فقد أقسم بشرفه العسكري على أن يعمل

ما بوسعه لتنفيذ طلبات السجناء. لكن يجب عليهم أولاً استعادة النظام وإنهاء الإضراب عن الطعام.

«يجب أن يذهب الألمان في الحال، ألم تفهم بعد؟» صاح سلمان عضو الإخوان المسلمين، واستوى واقفاً. حذا الآخرون حذوه.

«الآن أو لا»، قال علي أبو زيد، الصحفي، لأنه كان من الواضح لهم جميعاً أن حتى أعضاء العصبة الإجرامية سيقفون معهم - فحتى الآن كان من الصعب إقناع هؤلاء الرجال أن يفعلوا أيّ شيء تعاضدي - لكنهم الآن سيستجيبون فيما لو اكتشفوا بأنّهم ليسوا سوى عبيد في هذا المعسكر الخاصّ المصمم للأبحاث العلمية لزيادة فعالية التعذيب في التحقيق. لذلك أخبرتهم اللجنة بأن بدران رئيس المخابرات يتمسّك بالألمان لأنهم يجرون تجارب طويلة الأجل ستفيد عمران لتثبيت حكمه، وأن جميع المعتقلين في تدمر سيموتون لأن السلطات مهتمة بإجراء التجارب على حياتهم بكلّ طريقة يمكن تخيّلها سواء نفسية أم جسدية. بمعنى آخر: أن السجناء، خاصة السجناء غير السياسيين، يشكلون مادة خام لاختبار طرق تعذيب جديدة، وأن الرئيس عمران هو أول حاكم في بلاد العرب يستخدم بمساعدة الألمان هذه الأساليب ويسجّل تأثيراتها.

بالغت لجنة السجناء في وصفها، لكن لم يكن لديها وسيلة أخرى لإقناع المجرمين أن انضمامهم إلى السجناء السياسيين في الإصرار على مغادرة الألمان من دون قيد أو شرط، وعلى الفور هو لصالحهم. لم يوافقوا على الطلبات الأخرى، لكن الاتفاق على هذه النقطة كان يعتبر تقدماً كبيراً، ويعني نهاية العزلة تماماً. كان المجرمون هم الذين أرسلوا أول رسالة سرية إلى دمشق تنقل أخباراً من تدمر، ورفضوا الكشف عن الوسيلة التي اتبعوها لعمل ذلك. لأول مرة تسرب هكذا خبر خطير من سجن تدمر.

«لدينا بريدنا بالحمام الزاجل»، قال زعيم إحدى العصابات عندما حاول فريد أن يعرف طريق تسريب الأخبار.

twitter @baghdad_library

٢٦٤- المحاولة الأخيرة

لم يعد سَرّاجي يسيطر على السجن، وقد عرف الضبّاط ذلك في ذلك المساء. إذ حنث ضابط برتبة ملازم أول بكلمته واتصل هاتفياً بالعقيد بدران، وأخبره بصوت خفيض عن المزاج السائد بين الجنود. استمع إليه العقيد بهدوء، بهدوء شديد، إلى حد أن الضابط الشاب كان يسأله بين الحين والآخر، «سيدي، هل لا زلت هناك؟»

بخلاف الصحف الأوروبية والأمريكية، احتاجت الصحف العربية وقتاً طويلاً للاستجابة للإضراب عن الطعام في سجن تدمر. كانت الصحف اللبنانية أول من نقل الخبر، ثمّ أعقبتها الصحف الأردنية والعراقية لأن بغداد لم تكن منذ زمن معاوية على علاقة جيدة مع دمشق.

وفي ١ آذار نشرت الصحيفة الحكومية السورية أيضاً تقريراً مقتضباً عن بعض الخلافات في الرأي في علاج تجاوزات حصلت في تدمر. ودعت بفتور إلى تقديم تفسيرات عن ذلك ومعاقبة المسؤولين. لكن المكان كان لا يزال يوصف بأنه سجن يضم المجرمين والإرهابيين الخطرين.

بدأ سَرّاجي ينهار. فبثّ حرّاسه بين السجناء وأمر بالقيام بمداهمات متتالية للمهاجع، لكنهم لم يجدوا «آلة طباعة تدمر» بشعارها الذي يتمثل في قلم رصاص وثلاث قطع من الأسلاك الشائكة، أو الكاميرا التي التقطت صوراً لجميع أجزاء السجن.

استشاط العقيد بدران غضباً. كان أكثر ما يزعجه هو التدفق المستمر للأخبار والصور إلى خارج البلاد. فاستدعى سَرّاجي إلى مكتبه.

لدى عودته، قال قائد السجن لضبّاطه إن لقاءه بالعقيد شعر به وكأنه أشبه بتحقيق مع متهم. وقال إن العقيد الشاب بدران تصرف معه ببرود، بل حتى أنه لم يرد له تحيته العسكرية، وهذا أمر مفزع. دون أن ينبس بكلمة، ألقى العقيد بصحيفة فرنسية على طاولة مكتبه أمام سَرّاجي، وقال: «كيف عرفت اللوموند أن هؤلاء المجرمين في سجنك؟ لقد دقّقتُ القائمة. إنها صحيحة في كلّ تفصيل من تفاصيلها، لا بدّ أنها هُرّبت إلى الخارج قبل أيام

قليلة فقط. ألا ترى ماذا يجري؟ إن اليهود سيقضون علينا. في البداية يحتلّون مرتفعات الجولان، وها هم الآن ينشرون أكاذيب عن حقوق الإنسان في سوريا. ماذا تفعل الكاميرات في السجن؟ نقيب سَرّاجي، إنك تعامل هؤلاء السجناء كما لو كانوا في إجازة في تدمر. متى ستفيق؟»

ركّز العقيد كثيراً على كلمة «نقيب». فقد كان بدران نفسه برتبة نقيب قبل الإنقلاب. كان يستشيط غضباً، لأن فرنسا طلبت تفسيراً رسمياً من الحكومة السورية: هل صحيح أنه توجد معسكرات تعذيب، وهل يعمل فيها ألمان وروس؟ لقد جُمِّدت المساعدات الإنمائية والمفاوضات المتعلقة باتفاقات الأسلحة.

طلب العقيد بدران استخدام المزيد من الحزم مع السجناء وعدم منح إجازات لأي من العاملين في السجن حتى يتم الكشف عن عملية التسريب.

«تريد يداً أشدّ حزماً مع السجناء، لكن ماذا لو فطس أحدهم؟» سأل سَرّاجي.

«عندها تعال إليّ. أنا سأتحمّل المسؤولية».

كان هذا أمراً جديداً بالنسبة لسَرّاجي الذي لم يسمع شيئاً مثله منذ ثلاثين سنة. «هل يمكنني أن أفضي إليك بشيء سري؟» قال متوسلاً.

أحسّ بدران أن هذا الضابط المحنكّ لديه سرّ آخر.

«هيا قل».

«إن الألمان الذين فُرضوا علينا»، قال سَرّاجي بصوت فيه بُحّة، «جرحوا مشاعر السجناء الوطنية. هذا هو الشيء الوحيد الذي أدى إلى إقامة جسر بين السياسيين والمجرمين. فمن دون سابق إنذار، اتّحد الإخوان المسلمون والشيوعيون والسطلانيون والقوادون ضدنا. وهذا لم يحدث من قبل على الإطلاق».

أمعن العقيد بدران التفكير والتزم الصمت. ابتسم سَرّاجي سرّاً من وراء قناعه الناعم من القلق.

«يجب أن أكلّم رئيس الجمهورية في هذا الأمر. إنه أمر صعب. سيبقى

twitter @baghdad_library

الألمان حالياً. لا نستطيع أن نقبل أن يفرض علينا المجرمون والإرهابيون ما يصلح وما لا يصلح للوطن. يجب أن تعزل السجن عن العالم الخارجي. لم يكن الألمان هم من أرسل تلك الأكاذيب إلى الخارج بل السوريون»، قال العقيد ذلك، ونهض واقفاً.

٢٦٥- النصر

قرّر سَرّاجي التعامل مع السجناء بأقصى شدّة. لم يكن قد تبقى لإحالته على التقاعد سوى سنة واحدة. لذلك كان عليه أن يبذل بعض الجهد ليصل إلى بر الأمان.

«اليد القويّة فقط هي التي ستكبح بذرة الشيطان تلك»، صاح بهستيرية عندما أخبره ضبّاطه بأن الإضراب عن الطعام شمل الكل ولم يلمس ولا واحد من السجناء طعامه طوال اليوم.

بعد يومين مات من الجوع أول رجلين، أحد المجرمين وسطلاني.

طلبت لجنة السجناء إحياء ساعة حداداً عليهما في تلك الليلة. شعروا بما للموت من تأثير مثبط في النفوس.

في صباح اليوم التالي، أمر سَرّاجي إحضار خمسة أطباء من دمشق، راحوا يتنقلون من مهجع إلى آخر، يفحصون السجناء. كان ثلاثة سجناء في حالة وهن شديد فكان لا بد من نقلهم إلى المستشفى فوراً.

لكن السجناء خافوا أن تساء معاملة المرضى في دمشق، لكنهم قبلوا عندما أقسم لهم الأطباء بأنهم سيحرصون على ألاّ يحدث لهم أي مكروه.

عند حوالي منتصف النهار، أرسل سَرّاجي الطاهي إلى الساحة فشوى الكباب المتبّل اللذيذ، وأعدّ أنواعاً عديدة من السلطة. زاد ذلك من عذاب السجناء إلى درجة لا توصف. فقد التهم أكثر من عشرة رجال لم يتمكنوا من تمالك أنفسهم كميات كبيرة من الطعام بشراهة كبيرة حتى بدأوا يعانون من آلام شديدة في المعدة. لكنهم في اليوم التالي، عاودوا الإضراب عن الطعام.

تدخّل أخيراً الرئيس عمران. فطرد وزير داخليته. وفي اليوم التالي أرسل سَرّاجي في طلب فريد وسلمان وعلي أبو زيد. بدا نحيفاً وضعيفاً وهو جالس وراء طاولة مكتبه. «يمكننا التوصل إلى اتفاق. لقد عاد الألمان إلى بلدهم ليلة البارحة، وتوقف العمل في مقلع الحجارة، ولن يمُسَّ أحد لا يرتكب مخالفة تعرضه للعقاب كما في السابق. وسيتحسّن الطعام، وسيكون بوسعكم قضاء فترة أطول في ممارسة الرياضة في الساحة. ومن الآن فصاعداً، سيعمل طبيبان لمدة ستّ ساعات يومياً في السجن، وسيسمح بالزيارات العائلية مرة في الشهر، وسيُنقل الجناة الشباب الذين تقل أعمارهم عن عشرين سنة إلى مركز تأهيل جديد. وبالمقابل، فإننا نتوقّع منكم التصرّف جيداً والتقيد بالانضباط والالتزام بالنظافة وبالوطنية». كان صوت سَرّاجي مرتعشاً، مع أنه كان يحاول أن يلفظ الكلمات الأخيرة بنبرة حاسمة. لم يبق شيء من جبروته السابق. وكان بوسع أي شخص أن يرى أنه كان خائفاً.

هبط فريد وسلمان وعلي أبو زيد الدرجات كل ثلاث درجات معاً، وعندما بلغوا الساحة بدأوا يصيحون ابتهاجاً ويرقصون. «لقد انتصرنا! لقد فزنا! هيا ابتهجوا، لقد إنتصرنا».

راح الحرّاس يراقبونهم. أخذ فريد يتشقلب ويتدحرج على الأرض ليعود ويثب ثانية ويصيح مثل مجنون، صار يركض ويصدر ضوضاء أضحكت الآخرين. وأما علي أبو زيد فصار يرقص الدبكة وقفز واقفاً على يديه بمهارة تقارب فناني السيرك. عانق المجرمون والإخوان المسلمون والقوميون والراديكاليون والشيوعيون والسطلانيون بعضهم بعضاً احتفاء بإنهاء الإضراب عن الطعام. أُبلغ المطبخ والمخبز بذلك. ولم تمض فترة طويلة حتى أُعدت شوربة الخضراوات والخبز الطازج. وجاء درويش إلى المهجع رقم ٥. ظلت أبواب العنابر مفتوحة. حيّا الجميع ووزّع السجائر وهنّأهم على نصرهم. ثمّ توجّه إلى فريد الذي كان جالساً على الأرض يلتذ بشوربته، انحنى وحمله عالياً مثل طفل وقبّله على خده.

twitter @baghdad_library

«إنك تستحقّ ذلك يا بُنَي»، صاحَ. كان العديد من السجناء يضحكون ويبكون في آن واحد. «سنعود قريباً إلى بيوتنا». ابتهجوا، وعندما جاء الحرّاس واستمرّوا في طمأنتهم بأنّهم سيبدأون جميعاً بداية جديدة وينسون الماضي، صفّق لهم السجناء. غمز فريد علي أبو زيد الذي كان يجلس قبالته مستمتعاً بتدخين سيجارة، «إنهم يعيشون على النسيان كالدجاج»، قال الصحفي مستسلماً.

«ونحن نعيش على الذاكرة كالجمال»، أجاب فريد.

٢٦٦- نهاية سَرّاجي

وقف سَرّاجي بجانب الشاحنة التي ستنقل أغراضه المنزلية من شقّته في السجن ليعود إلى قريته داريا بالقرب من العاصمة دمشق. قال لضبّاطه: «انظروا إليّ. هذه هي مكافأتي: فقد ضحّيت بنفسي في سبيل هذا الوطن لمدة ثلاث وثلاثين سنة، وها أنا الآن أُطرد من الجيش لأن مجرماً مات. هذا هو السبب، حتى لو لم يقل أحد ذلك. سيزعمون أنني شاركت في مؤامرة». بغتة، اكتسى صوته نبرة تحدٍّ، وأضاف، «لماذا لا يطرحون كل أوراقهم على الطاولة ليكشفوا الحقيقة؟ عندها سيكون بمقدوري أن أقول شيئاً عن أولئك الخبراء الألمان اللقطاء المدسوسين عليّ - أوه نعم، لقد تركوا السفينة الغارقة كالجرذان وهربوا. تسببوا في كل هذه الفوضى وعندما بدأت الأمور تسوء تركوني وحدي في الأزمة التي اختلقوها، هؤلاء ليسوا خبراء هؤلاء اولاد قحبة عديمي الشرف. لقد انقشعوا. لكن السلطات لا تريد أن تسمعني ولا تجرؤ على مجابهة الألمان ولذلك فتشت عن كبش فداء. لا بد من إلباسي جرم ما حصل».

بعدها، كما لو أنه أسف لهذا الانفجار ضدّ رؤسائه، غيّر نبرة حديثه وأصبح قانطاً وكأنه يتوسل رأفة وشفقة مستمعيه، وقال: «قلت لوزير الداخلية، أرجوك، حتى لو لم تكن لديك أي مشاعر بالتعاطف معي، يمكنك أن تفكّر بأطفالي على الأقل... كيف سيتمكنون ... في المدرسة»

كان سَرّاجي الذي كانت عيناه صلبتين كالصوان يبكي وينشج. أغرقت دموعه كلماته. لم يعد أحد يستطيع أن يفهم ما يقوله.

ثمّ فُتحت البوابة فجأة، فتوقّف مندهشاً. دخلت سيارة لاندروفر وتوجّهت نحوه مباشرة وتوقّفت على مسافة متر واحد منه تقريباً. أشار رجل في ثياب مدنية يجلس إلى جانب السائق إلى النقيب المذهول بأن يدنو منه. اتجه سَرّاجي نحوه وهو لا يزال يجفف دموعه بمنديله الذي مخط فيه بصوت عالٍ. لم يكن بالإمكان سماع أشياء كثيرة، لكن وضعية وقوف القائد المحنية كانت تظهر أن الشخص المدني أقوى نفوذاً وأعلى رتبةً منه. بدا أن ما كان يقوله جعل سَرّاجي يشعر بالاضطراب. كان النقيب يشير بشكل يائس إلى الشاحنة، لكن لم تتحرك أي عضلة في وجه الرجل المدني القابع في السيارة. حدّق بعينيه في الأفق متجاوزا سَرّاجي ولم ينبس بكلمة واحدة. عبر البوابة المفتوحة، رأى الآن الضبّاط وضباط الصف والجنود المتجمّعون سيارتي جيب وشاحنة صغيرة من النوع الذي يستخدم لنقل السجناء. كان سَرّاجي يتحدث بتوسل مع الشخص المدني، لكن صمت هذا الأخير خنق كلماته. انهار النقيب الذي كان حتى وقت قريب إلهاً يتحكّم بحياة آلاف السجناء. تدلّت ذراعاه اللتان كان يستخدمهما دائماً لتأكيد ما كان يقوله، وهو يسير صوب الشاحنة الصغيرة. كان رجل قوي البنية يقف بجانب باب العربة الخلفي المفتوح. عندما وقف سَرّاجي متردّداً بالقرب من العربة، دفعه عنصر المخابرات بقوة دون أي احترام دفعة جعلته يطير إلى داخلها. ثمّ صفق الرجل الباب الخلفي بقوة وصعد إلى السيارة وجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق.

من دون أن يلقي على الضبّاط وضباط الصف والجنود المتحلقين حوله نظرة واحدة، أومأ الرجل الذي يرتدي ثياباً مدنية بحركة طفيفة، مشيراً إلى سائق اللاندروفر فانطلقت العربة بسرعة خارج البوابة، مثيرة كمية كبيرة من الرمل والغبار. وسرعان ما غابت العربة عن البصر في الصحراء المترامية الأطراف.

في تلك الليلة، نُهبت محتويات الشاحنة التي تضم أغراض سَرّاجي

twitter @baghdad_library

المنزلية. عندما وردت مكالمة هاتفية بعد بضعة أيام من مقر المخابرات تقول إنه يجب إرسال أغراض مدير السجن السابق إلى أطفاله في داريا، اضطرب الضابط المناوب قليلاً، لا لأن الشاحنة قد خوت من أية أدوات منزلية، بل لأن المتّصل تحدّث عن الضابط السجين والمتآمر المدان سَرّاجي أيضاً.

٢٦٧- نبيل

كان أسوأ ما حدث هو قيام قيادة المخابرات بمنع جميع الضبّاط وضبّاط الصف والجنود العاملين في السجن من الاتصال بالعالم الخارجي. خضعت مكالماتهم الهاتفية للتنصت، وكانت هذه المكالمات تُقطع إذا وجد أي أثر لغموض في الحديث. وضربت وحدة مؤللة طوقاً منيعاً حول السجن، وعُلِّقت لافتات كبيرة باللغات الإنكليزية والفرنسية والعربية حول السجن على مسافة نصف قطرها عشرة كيلومترات، تعلن أن المنطقة عسكرية يمنع الدخول إليها تحت طائلة الموت. لم يجرؤ أي صحفي على الاقتراب من السجن.

أما داخل السجن فقد عمّت فوضى بهيجة بعد أن غادر سَرّاجي. ولم تكن قيادة المخابرات التي أصبح هذا المعسكر «بسبب العناصر الخطيرة» تحت سيطرتها مباشرة في عجلة من أمرها. وكما لو أن ذاكرة السجناء قد تلاشت في نشوة النصر، بدأوا يختلطون مع الجنود والضبّاط والحرّاس، وأقاموا علاقات جيدة معهم. فراحوا يأكلون ويدخّنون ويلعبون الورق ويتبادلون النكات معاً، ويبحثون في ما سيجلبه المستقبل. فعلى حين غرة، وجد الضحك الطفولي المنبعث من القلب طريقه إلى السجن.

خلال هذه الفترة، تعرّف فريد على جندي شاب يدعى نبيل، لم يتجاوز العشرين من عمره، كان عاثر الحظّ. فبعد يومين من التحاقه بثكنته في شمال دمشق، تشاجر مع ضابط صف بذل كل ما بوسعه لكي ينقل الشابّ لإكمال خدمته الإلزامية في سجن تدمر. لكن نبيل أكّد لفريد سراً أنّ السبب الحقيقي لنقله التأديبي هو أن ضابط الصف ذاك كان يكره أهل المدينة

والمسيحيين، وكان نبيل ينتمي إلى الفئتين معاً. فقد كان والداه يقيمان في حي باب توما في دمشق، ووالده يمتلك بقالية صغيرة في هذا الحي. ومثل العديد من الشبان، كان نبيل يعرف محل الحلواني المشهور الذي يملكه والد فريد، وقال له إنه ينفق أحياناً كلّ مصروفه أثناء عطلة نهاية الأسبوع على شراء حلوياته المفضّلة التي تعرف باسم «عش البلبل».

أحبّ شابّة غنية، لكنها سرعان ما قرّرت الزواج من أحد جيرانها الأغنياء فدفن حبّه في أعماق قلبه. لكن قبل ستّة أشهر، اتصلت به ثانية، لأنها أصيبت، على ما يبدو، بخيبة أمل في زواجها هذا، وأبدت رغبتها في الهرب معه.

أنصت فريد باهتمام لقصة الجندي الشاب الحزينة ليالي طويلة. وأدرك بسرعة أن استماعه لقصة نبيل ساهمت في تخفيف هموم هذا العاشق وصار لها شيئاً فشيئاً تأثير المغناطيس. فصار نبيل يبحث عن فريد كلما استطاع ليبثّه حزنه وحيرته.

كان فريد يعتقد منذ مدة طويلة أن الاستماع فنّ تتقنه النساء أكثر مما يتقنه الرجال. قالت له كلير لو كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أن لك أذنين أنثويتين، فأنت تنصت للحديث بتركيز كبير. كان فريد قد قرأ في طفولته أن الاستماع يجعل المرء حكيماً، لكنه لم يعرف في حالته أن قدرته على الإنصات ستنقذ حياته حقاً.

٢٦٨- صوت بارد كالصقيع

كانت شجرة الدردار تحترق. واللهب يضطرم حول جذعها الثخين المشروخ، ثم بدأ يتصاعد إلى تاج الشجرة الواطئ، وراحت تنطلق منه شرارات لامعة في شكل هرم باتجاه السماء المظلمة بكلّ ما أوتيت من قوة، كأنها حشرات سراج الليل التي تستطيع الاختباء لعقود، وها هي تظهر أخيراً باحثة عن الحبّ.

أنشدت الريح العاتية أنشودتها الصادحة عبر ألسنة اللهب مصدرة أصواتاً

twitter @baghdad_library

أشبه بصيحات تشي بالألم في جوقة. كانت الشرارات تتطاير، وبعضها سقطت على الأرض وهي لا تزال متوهّجة. اشتعل العشب والشجيرات الجافة. ملأت الهواء رائحة احتراق الخشب والزعتر. فجأة انغرست شرارة في خدّه الأيمن. رفع فريد يده، قلبه يخفق بشدة، وأزاح شظية الخشب المحترقة. ذاب كلّ شيء على الفور في الظلام.

ولفترة بعد استيقاظه، لم يستطع أن يرى بعينيه اللتين بهرتهما النار، الرجال النائمين حوله في المهجع المظلم الكبير. غبشت رؤيته ثانية، لكنّه لم يعد يشعر بالرغبة في الاستلقاء. جلس على الأرض وأمسك رأسه بكلتا يديه. كان صدغاه يخفقان ألماً، والشرارات تومض في سماء مظلمة وراء جفنيه المغمضين. يائساً، فرك في المنطقة بين عينيه، وهو أمر قد يكون مفيداً عندما يكون المرء في حالة ذهول.

كان الظلام يخيّم على الساحة التي جعلها نور الفانوس الباهت تبدو أكثر ظلمة. تناهى إلى سمعه صوت شحرور يغرّد. جال فريد ببصره من المكان الذي كان يجلس فيه، وراح ينظر عبر قضبان الحاجز المشبّك الحديدية ثم إلى الساحة وشجرتي النخيل اللتين تتوسطانها. رويداً رويداً، بدأت السماء تزداد سطوعاً، واستطاع فريد الآن أن يرى الشحرور جاثماً فوق قمة شجرة النخيل إلى اليمين. وكما لو أنه أحسّ بالاطمئنان الآن بأنه يستطيع رؤية الشمس من البقعة العالية التي يجثم فيها، غرّد آخر مرّة ثم طار بعيداً.

كان فريد يرتجف متجمّداً حتى العظم من البرد القارس. أحسّ بخدر يسري في أطرافه، لكن رأسه كان صافياً وتلاشى إحساسه بالذهول. ببطء شديد، نهض على قدميه ليتوجّه نحو الحاجز المشبك ويتنشق هواء نقياً. بعد لحظات سمع صوت تأوهات في الزاوية البعيدة من المهجع. كان باسل يلج مؤخرة حبيبه فهمي. كالعادة، كان فهمي يتوسل إلى حبيبه الشهواني بأن يصمت وأن لا يلكزه بقوة.

أغمض فريد عينيه. رغم البرد كان رأسه يلتهب بآلاف الأفكار، هبّت

نسمات باردة لطيفة على وجهه الحار. أخذ نفَسَاً عميقاً كما نصحه الطبيب ذات مرة، لأن الدماغ في مثل هذه اللحظات يحتاج إلى قدر أكبر من الأوكسجين. في منتصف نَفَسِه الثالث أو الرابع، سمع ذاك الصوت ثانية. منذ طفولته، كان يعتريه ذلك بعد كلّ نوبة يفقد فيها وعيه: صوت بارد واضح يكلّمه. عندما كان طفلاً كان يخيّل إليه أنه يسمع صوت شخص حقيقي، لكن مع مرور السنوات، أدرك أنّ الصوت ينبعث من داخله وأنه يحمل نبؤة.

سيأتي اليوم الذي سيحلّ فيه قائد السجن الجديد محل القائد المطرود وسوف يحطّم كل معتقلي السجن، قال له الصوت. اعترت فريد رجفة وقرّر أن أن يخفي ذلك عن السجناء الآخرين. لم يرغب في أن يحطم آمالهم المنتعشة.

للمرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات، عاد بذاكرته إلى السنوات التي أمضاها في دير القديس سيباستيان. تذكّر أولاً الأخ غابرييل الذي كان يعاني، مثل فريد، من داء الصرع، والذي كان بعد كل نوبة صرع، تأتيه معرفة تنبؤية بالأحداث التي لم تكن تتحقق أحياناً إلا بعد عدّة سنوات.

آنذاك، قال له الأخ غابرييل: «إن الصرع يجلو العقل من جميع طبقات الحضارة التي تراكمت فوقه منذ عشرة آلاف سنة. ولثوان قليلة، يعود الدماغ عارياً وبريئاً مثل طفل حديث الولادة. في تلك الثواني، تكونَ مع الله، ومن هنا تأتي المعرفة. إنها نوع من المعرفة التي تملكها الحيوانات والأطفال الرضّع أيضاً، ولا يستطيع أحد تفسير ذلك. لكن لا الحيوانات ولا الأطفال يستطيعون إخبارنا عن التجارب التي مرّوا بها. ولو تمكن شخص بالغ من الحصول على هذه المعرفة فسيكون نبياً».

٢٦٩– وصول مهدي

بعد فترة وجيزة من انتهاء وجبة طعام الظهر في نفس ذلك اليوم، وصل قائد السجن الجديد. فقد وصلت إلى باب السجن حافلة تسير خلف سيارة

twitter @baghdad_library

لاندروفر يستقلّها قائد السجن. كان في الحافلة عشرة ضبّاط وقرابة عشرين ضابط صف، تتبعها حافلة أخرى فيها موظفون مدنيون. لم تعبر البوابة إلا سيارة اللاندروفر، بينما توقفت المركبات الأخرى خارج البوابة.

لم يكن القائد الجديد رجلاً طويلاً، لكن طريقة مشيته وشت بأنه رياضي، ولم يتجاوز الأربعين سنة من عمره، رأسه جميل على الرغم من الصلعة الصغيرة، وعيناه تبعثان على الخوف من وراء النظارة الشمسية العاكسة التي كان يرتديها.

وقف أمام شجرة النخيل المنتصبة إلى اليسار، في المكان الذي كان يقف فيه القائد السابق دائماً. لكن بخلاف سَرّاجي، كان الرجل الجديد يرتدي زياً مدنياً. راح يتحدث بشيء من المرح مع ثلاثة مدنيين يبدو أنهم كانوا مرؤوسيه. كان صوته هادئاً، هادئاً جداً، إلى درجة أنه على الرغم من صمت السجناء المطبق لم يكادوا يسمعون شيئاً مما قاله.

اصطفّ الجنود بسرعة بناء على أوامر الضبّاط الجدد. بعد قليل، اقتحم بعضهم مبنى الإدارة والثكنات، وأحاط باقي الجنود بالسجن.

بدا أن لدى الرجال أوامر دقيقة. لأنه لم تمض بضع دقائق حتى سُمعت عدة صيحات، ورأى السجناء، بعيون مشدوهة واسعة، الضبّاط وضبّاط الصف السابقين وهم يقتادون خارج المباني المختلفة تحت ضربات رجال القائد الجديد.

ثم أُخرجت قيادة المافيا كلها، بمن فيهم الدكتور مقدسي من المستشفى، تحت الضربات بعصي الخيزران على يد رجال المخابرات، وأرسلوا للانضمام إلى الضبّاط وضباط الصف الذين أهينوا. وقف في الساحة الآن أكثر من ثمانين رجلاً مشلولين رعباً، تحت حراسة عشرة مدنيين فقط.

صاروا ينوحون مثل أرامل ثكالى. يا لها من إهانة، أمام جميع الجنود والمساجين. أخيراً، رفع أحد المدنيين يده، فتوقّف النواح. ساد صمت مميت.

«إن السجين المدان عبد الحميد سَرّاجي»، قال قائد السجن الجديد بصوت هادئ، «اعترف أمام محكمة عسكرية بأنكم جمعياً، من ضبّاط وضبّاط صف ومجرمين كنتم تقدمون خدمات للعناصر الخطيرة سياسياً في هذا السجن، وكنتم تهرّبون لهم معلومات ومخدّرات وأسلحة وكتباً، حتى أجهزة مذياع وآلات تصوير. لقد ألحقتم بالوطن ضرراً أكثر مما ألحقه الإسرائيليون به طوال عشرين سنة. لذلك، يُطرد جميع العسكريين المتّهمين من الخدمة على الفور. وأمامهم ربع ساعة فقط حتى يحزموا أغراضهم ويتوجهوا إلى البوابة، ومن هناك سيقتادون إلى السجن حتى تصدر المحكمة قراراً بحقهم، وسيذهب المجرمون إلى سجن خاص يصمتون فيه إلى الأبد».

لم يسمع فريد أي نبرة غضب أو انتقام في ذلك الصوت وهو يعلن دمار حياة الكثير من الأشخاص. شعر بوهن في ساقيه، لأن القائد كان يفعل تماماً ما كان قد تنبّأ به الصوت البارد في داخله. مادت الأرض تحت قدميه، لكنه أمسك قضبان المشبك الحديدية بكلتا يديه مقاوماً سقوطه.

«يا أمّي، يا أمّي الحنونة»، سمع نفسه يهمس. نظر إلى الهيئات التي كانت منذ فترة قصيرة تتصرّف بجبروت وقد وقفت الآن ضئيلة محنية هناك. جثا البعض على ركبهم. «سيدي، ارحم أطفالي! أنا مذنب، أما هم - فلا دخل لهم»، صاح باكياً أحد ضباط الصف الذي كان أحد الأشخاص اللطيفين بين جمهرة الوحوش. أصابت دموعه الآخرين بالعدوى فبدأ عدد كبير بالنواح، بمن فيهم ملحم، كبير رؤساء العصابة.

قال الحارس القديم إستانبولي متوسلاً بصوت مبحوح بأن لا علاقة له بكل ذلك. فهو موجود هنا كمتطوّع ولا يتقاضى ليرة واحدة لقاء أيّ شيء على الإطلاق. توسل لكي يسمح له بالذهاب إلى بيته. فهو رجل عجوز، كما قال.

«رجل عجوز، نعم»، أجاب القائد، «لكن سَرّاجي أدانك بصورة خاصة. فقد كنت الساعي بين ملحم والصحفيين. كان أعداء الوطن

twitter @baghdad_library

السياسيين ينقلون أكاذيبهم إلى ملحم، حثالة الإنسانية، وكنت أنت تنقل التقارير والصور. مبروك! عصابة منظمة جيداً. إستانبولي، العجوز الأحمق الذي أطعمه الجيش طوال أربعين سنة، كان يجمع تلك التقارير الكاذبة من ملحم ومن الصحفيين ويوزعها. النيويورك تايمز، اللوموند، ديرشبيغل - جميعها نشرت مقالات تهدف إلى تحطيم سمعة سوريا. وتصادف أن جميع تلك الصحف والمجلات يملكها يهود. قد لا تصدق ذلك يا إستانبولي، لكنّ رجل الاتصال، الصحفي هادي المصري الذي أصبح وراء القضبان الآن، أخبرنا بالمبالغ التي قبضتها منه بالدولارات. فكّر في الأمر! وأين هي النقود إذن؟» سأله القائد بنبرة عذبة لكن سامّة، «لقد أعطتنا زوجتك الصندوق. خمسة آلاف وثلاثمائة وسبعون دولاراً. كسبتَ كلّ دولار منها بالخيانة. يا لها من تجارة ظريفة! هل تعرف ما هي عقوبة الخيانة؟ عقوبة أن يكون المرء عميلاً للأعداء؟ هل تعرف أيها العمّ الصغير؟ لا؟ الإعدام»، قال القائد الجديد، ليس بحزم، بل كأن كل ذلك مجرد نكتة، مع أنه كان بوسع المرء أن يتذوق طعم الموت في كلماته.

ركل ثلاثة مدنيين واحداً من أعتى ضباط الصف قسوة وكراهية عندما زحف إلى القائد الجديد على ركبتيه وقال متوسلاً: «سيدي، دعني أبوس يدك. أتوسل إليك أن ترحمني. إن زوجتي مريضة جداً، وكنت بحاجة إلى نقود. لقد أعماني سَرّاجي! من هو ذلك الغبي الذي يستطيع أن يرفض أوامر قائد يريدك أن تقاسمه غنيمته؟» لكن القائد الجديد لم يتأثر بكلامه، بل أخذت زوايا فمه تنتفض باشمئزاز. لم يبد وجهه الناعم الأسمر أي تعابير.

أحسّ فريد بالشفقة تتحرك فيه، وكره نفسه على ذلك. الشفقة على الضبّاط والحرّاس الذين عذّبوه. خجل من نفسه. لكنه عندما رأى ملاكيه الحارسين، درويش وسميح يقفان براحة بادية عند مدخل المطبخ، يراقبان ما يجري، استعاد راحة باله.

وكان غريباً أن القائد الجديد لم يعاقب أي جندي إطلاقاً ممن كانوا

يخدمون العلم هنا. بل إن الضبّاط وضباط الصف الجدّد كلّموهم بطريقة ودية جداً. فجأة رأى فريد الجندي نبيل الذي كان يحبّه. كان في مهمة حراسة عند مدخل البوابة، وعندما لوّح له فريد ابتسم وأومأ له إيماءة صغيرة دو أن يلجظ ذلك احد.

بدأ الفريق الجديد العمل. كان من الواضح أنهم كانوا يخدمون قائدهم بمحبة واحترام شديدين. جلس الضباط الأعلى رتبة في نصف دائرة حول القائد، على كراسي جلبت بسرعة ووضعت تحت ظلّ النخلتين.

بعد نصف ساعة عرف المعتقلون اسم قائد السجن المعتقل وهو الرائد مهدي سعيد.

٢٧٠- الاكتظاظ

في صباح اليوم التالي، طلب الحرّاس والجنود من المعتقلين في المهاجع الأمامية الثمانية أن يحمل كل واحد منهم بطانيتيه الرقيقتين وحصيرته القشّ وينتقل إلى المهاجع الثمانية الأخرى. كان ذلك جحيماً لا يطاق. فقد كانت المهاجع مكتظة أصلاً. نشبت شجارات. كانت رائحة عرق الرجال الآخرين عذاباً. لاحظ فريد شيئاً فيه يتغير. أصبح عصبياً، سريع الغضب، وعدوانياً دفاعاً عن حصيرته القشّ وحصّته من الطعام. وقد سلب الجوع والاكتظاظ والإنهاك المساجين الاحترام والصداقة والمودّة الشخصية. ولفزعه، اكتشف فريد فجأة أن سامي بيرومي، الصحفي الذي طالما أحبّه، أصبح مشاكساً وماكراً جشعاً بعد أن حُشِرا الآن في نفس المهجع، ولم يرمش له جفن عندما سرق خبز زميله السجين بالقرب منه والذي كان مستلقياً مصاباً بالحمّى، ثم التهمه بجشع قبل أن يستيقظ الرجل المريض.

لم يعرف أحد لماذا حُشِروا جميعاً معاً في هذا المكان الضيق، لكن سرعان ما بدأوا يسمعون أصوات مطارق ومناشير ومثاقب من المهاجع التي تم إخلاؤها. بعد ستّة أيام، انتقل جميع السجناء إلى المهاجع الأمامية ثانية،

twitter @baghdad_library

وأصبحت المهاجع الخلفية ورشة بناء. لم يمض على وجودهم في مهاجعهم الجديدة إلا بضع ساعات حتى اكتشف أحد السجناء وجود ميكروفونات في السقف.

«هذا ما يمكن رؤيته، لكنّهم ليسوا بحاجة إلى كل هذا الوقت لتركيبها. ما هي الأشياء المخفية الأخرى يا ترى؟» سأل فريد بصوت مسموع في المهجع رقم ٤، عندما وجد رجال آخرون أماكن على الأرضية وفي الجدران بدا أنها طليت بالجص حديثاً. ووجدوا في عوارض عديدة في السقف فتحات صغيرة غريبة الشكل، واضحة بسبب ترتيبها المتناسق.

كان فريد متيقناً الآن من أن قائد السجن الجديد ينوي بدء مرحلة أخرى من التجارب، لأنه إذا صحّت فرضيات أحد السجناء، الذي كان مدرس فيزياء، فقد أضحت المهاجع الآن تحت المراقبة على مدار الساعة. ودار حديث عن ميكروفونات حسّاسة جديدة مستوردة من روسيا، صغيرة جداً إلى درجة لا يمكن معها رؤيتها بالعين المجرّدة. لم يعد للمساجين حول ولا قوة، فقد أصبح كلّ واحد منهم مكشوفاً أمام الحرّاس مثل كتاب مفتوح.

في اليوم التالي، عندما حاول أحد السجناء خدش الجص المطلي الجديد، اقتيد بعد بضع دقائق، وأعيد بعد ساعة وقد كسرت أصابعه. سرت همسات أن كاميرات مخفية تصور كل شيء، وسواء صح ذلك أم لا فلقد تأكدت مخاوف الجميع: فلم يعد بوسعهم الآن كتمان أي سرّ. شلّهم الخوف. حتى في أشد الأوقات وحشية وظلمة، كانت المهاجع دائماً الملاذ الآمن، وكانت تمنحهم ألفة تحميهم. بالطبع أُخضعوا أيضاً لمداهمات ليلية، لكنها كانت تعتبر تدخّلاً مؤقتاً في مناطق المعتقلين الشخصية. أما القائد الجديد فقد أزال عن المهاجع كلّ شعور بالألفة.

وحدها زنزانات الحبس الانفرادي فوق الأرض وفي أقبية خرائب الدير عند بوابة السجن الشرقية لم تحظ باهتمام التقنيين.

كان مهدي سعيد رجلاً مهماً ينتقل دائماً بطائرة هيلوكوبتر إلى وزارة الداخلية، ويعود بعد بضعة أيام. نادراً ما امضى الليلة في الشقّة المخصصة

لقائد السجن. حتّى لو كان الوقت متأخراً، كان سائقه يوصله إلى دمشق ثم يعيده في صباح اليوم التالي.

على الرغم من ذلك، صار واضحاً للجميع أن لدى مهدي سعيد - بخلاف سَرّاجي- فريقاً مثالياً. لم تكن الأجواء السائدة بين الضبّاط هادئة وودّية فحسب، بل كان كلّ شيء ينفذ وفق ما خُطط له حتّى في حال غياب القائد. ولم يسمع أحد المساجين الرائد يشتم أي جندي أو سجين، لكن فريد أيقن أنه ملاك الموت.

٢٧١- يد الخوف الباردة

كان ذلك قبل أسبوعين من استدعاء أول دفعة من السجناء للاستجواب. اختار القائد الجديد رجلين من المهجع رقم ٥. بعد ثلاث ساعات أُعيد أحدهما فقط، وهو من الإخوان المسلمين، يدعى صباح قاسم. لا أحد يعرف ما الذي حدث للرجل الآخر. لم يظهر مرة أخرى. وروى السجين أن القائد الجديد، بخلاف سابقه، مسلم مؤمن لا يدخن ولا يلمس أي كحول، لكنه يرفض أفكار الإخوان المسلمين من الناحية الثقافية والسياسية، يختلف تماماً عن سَرّاجي السكير المتوحش. «إنه يعرف حياتي من السجلات كما لو كان قد ترعرع معي»، قال السجين المستجوب. لكنّه قال أيضاً إن مهدي سعيد قد خيّره بين موت بطيء أو إعادة تثقيفه لجعله مواطناً صالحاً. لم يطلب منه أن ينكر عقيدته وإيمانه أو أن يوقّع قطعة ورق مسرحيّة، بل أن يقتنع ويقدم الدليل على أنّه يريد أن يكون وطنياً. إن الخطوة الأولى في إعادة التثقيف، قال القائد، تكمن في الطاعة التامة. ويعود الأمر للمعتقلين لإبداء تعاونهم، وعندما رفض صباح التعاون بأي شكل من الأشكال مع سلطات السجن، لم تظهر على القائد الجديد أي علامات غضب، بل طلب منه أن يعود إلى مهجعه ويفكّر في الأمر. «لكن»، أضاف صباح، «كلماته حوت تهديداً مرعباً أكثر بكثير من كلّ نوبات غضب سَرّاجي الهستيري. لهذا السبب فإني أفكّر بالاستسلام والعودة إلى

twitter @baghdad_library

الحياة الحقيقية، شهيد أم لا. حمّام ساخن، نارجيلة أدخنها في باحة بيتي، وأجلس مع أطفالي بين أصص الريحان وأشجار الورد - هذه هي فكرتي عن الجنة». لكن صوته وشى بخوف شديد بالإضافة إلى أمل بسيط. حاول السجناء تهدئته، لكن يد الخوف الباردة كانت قد قبضت على قلبه.

في اليوم التالي، نادى صباح أحد الحرّاس وطلب منه أن يخبر القائد بأنه يريد أن يكون مواطناً صالحاً. بعد قليل، اقتيد واختفى إلى الأبد. لعنه الإخوان المسلمون في السجن.

حقق القائد الجديد مع حوالي عشرة سجناء كلّ يوم. كان يُعامل بعضهم بلطف، ويعذب آخرين بقسوة. وتحدّث ضحايا التعذيب عن وحشية مهدي سعيد وبرودة أعصابه، الذي، وبخلاف سَرّاجي، لم يلوث يديه ولا بصفعة واحدة لسجين. كان يتنقل ذهاباً وإياباً بين الغرف حيث يجري استجواب السجناء ويعذّبون، يعطي أوامره لضباطه همساً، ثم يذهب. ولم يكن يستجوب بنفسه إلاّ المعتقلين الأكثر أهمية.

وجد فريد صعوبة في تقبّل كلّ ذلك. كانت هزيمة السجناء ساحقة. إذن لم يتراجع الرئيس عمران كما بدا لفريد ورفاقه عن خطته بل غير تنظيمها وامتص الغضب الشعبي الذي نتج عن إدخال الألمان الشرقيين في التحقيق مباشرة. قد تكون هذه الخطوة أيضاً جزء من التجربة. وقد يكون الخبراء الألمان لا يزالون في دمشق يقبعون في مركز المخابرات ويدربون سراً سوريين على القيام بمهماتهم الوحشية بصورة أفضل. وهذا ما قد يفسر سفر مهدي يومياً إلى دمشق. يدرسون بدقة إلى أي حد يتحمل السوريون وجود خبراء أجانب أخصائيين بالتعذيب؟ هذا ما أراد عمران وشقيقه بدران معرفته. كيف يسيطر النظام على سجون قرر المعتقلون فيها الموت في سبيل الكرامة؟ هكذا إذن! كانت خطوته بإبعاد الخبراء واعتقال كل طاقم سَرّاجي المنخور حتى العظم بالبرطيل هو جزء من التجربة. وأيضا تسليم الأمور لهذا الضابط الذكي مهدي هو الجزء المتمم. وماذا عن المعتقلين؟ من يهتم اليوم بالسجناء السوريين؟ لقد نسيهم العالم مرة أخرى، ولم يعبأ النظام بسمعته

السيئة، بل كانت الحكومة في دمشق تفتخر بذلك. تريد بذلك إظهار مدى ثوريتها، وكما كان متوقعاً، راحت وسائل إعلام البلدان الاشتراكية تكرر هذا الهراء كما لو أن عمران يدفع لها رشوة لتفعل ذلك.

رُكِّبَتْ ميكروفونات وآلات تصوير صغيرة جداً في كل مكان، وسُلبت من المعتقلين شجاعتهم. في أحد الأيام، سرت إشاعة جديدة تقول إن مهدي سعيد يتدخل أثناء التحقيق شخصياً في شيء واحد فقط، وهو حقن السجناء بإبر. لم يعرف أحد التفاصيل. قال البعض إنه يحقن المساجين بمصل الصدق، وتحدث آخرون عن مادة البينتوثال وحامض الباربتيوريت وبعض المخدّرات الأخرى التي تؤثر على العقل. وقيل إن العقيد بدران كان قد تعرف على مفعول هذه الأدوية وطلب شراء ذلك خلال زيارته إلى برلين الشرقية.

في ١٧ نيسان، عيد استقلال سوريا، بثت مكبرات الصوت النشيد الوطني والأناشيد العسكرية. وكانت تتلى بين الحين والآخر برقيات التهنئة التي تلقاها الرئيس عمران من جميع دول العالم. لكن مهدي سعيد بخلاف سلفه، لم يرغم السجناء على ترديد الأناشيد التي تمجّد الرئيس. فلم يعتبر ذلك النهار حتى عطلة، بل راح يحقق مع السجناء العشرة، حصته اليومية، فور عودته بطائرة الهليكوبتر إلى السجن في صباح عيد الاستقلال من دمشق. همس الصحفي علي أبو زيد الذي كان قد شارك فريد في المفاوضات مع سَرّاجي لتحقيق طلبات المضربين، لشريكه بأن المساجين الذين يعلنون «توبتهم» خلال التحقيق لا يرسلون كلهم إلى معسكرات مريحة لإعدادهم بغسيل دماغهم قبل منحهم حريتهم بل ان قسماً منهم يُعادون إلى مهاجعهم وهؤلاء لا يبوحون بأنهم أعلنوا توبتهم. وبما أنهم أصبحوا مواطنين صالحين بمقياس الرائد مهدي فعليهم أن يظهروا ولائهم بنشر معلومات زائفة يتلقوها سراً، وأن يجنّدوا رجالاً آخرين ليتعاونوا مع المخابرات ويبلغوا سراً عن مثيري الشغب. وهكذا يحكم النظام قبضته ويشق صفوف المساجين عبر الشك والريبة.

twitter @baghdad_library

كانت لدى أبو زيد حكاية أخرى يريد أن يحكيها. فقد كان أحد الحرّاس الجدد ابن عم أصغر له، وهو رجل معروف في العائلة بقلة أخلاقه. فقد أخبره ابن عمه عندما اختلى به في بقعة تقع خلف المهجع رقم ١، وهي المتر المربّع الوحيد التي يمكن للمرء أن يلجأ إليها دون أن يراه أحد أو تصوره كاميرا، أن عدّة سجناء أخبروا مهدي سعيد أسماء جميع زعماء الإضراب الذين انتصروا على سلفه. وبشيء من التلذذ، أضاف ابن عمه أخيراً، «إنه لا يريد منك ومن أصدقائك إبداء الندم والولاء. بل يريد أن يسحقكم».

وقال الصحفي المذعور إن الحقن التي طالما ذكرها السجناء هي إحدى أكثر الوسائل التي يستخدمها القائد الجديد شيطانية. فهي تحتوي على مزيج من عدّة عقارات مخدّرة، وحسب قوّة الجرعة فهي تجعل الأشخاص ثرثارين أو لطيفين أو أحياناً بلهاء حتى نهاية حياتهم. وإذا أعطيت بتركيز مرتفع، أو إذا أُعطيت لشخص مصاب بمرض عصبي أو ضعف قلب، فقد تكون قاتلة.

في اليوم التالي، عاد بشارة بعد انتهاء التمارين الرياضية في الساحة، وقال هامساً وهو يبتسم: «إن مهدي واحد منا». تسمّر فريد في مكانه.

«ماذا تقصد؟» سأل بشارة بهدوء، وهو ينظر إلى الفتحات في العارضة في الأعلى. عرف أن الآخرين سمعوه.

«إنه مسيحي». وكما لو كان ذلك سرّاً من أسرار الدولة، أضاف بشارة بصوت منخفض، «لكنه رجل ماكر. فقد اعتنق الإسلام للحصول على ترقية، وخُتن ونطق الشهادتين، وظن الحمقى أنه أصبح مسلماً الآن. لكن الدم لا يتحول إلى ماء. إنه واحد منا. إنه يبدي تهذيباً ولطفاً شديدين مع المسيحيين. إنه رجل مثقف للغاية. وهو يتحدث أربع لغات بطلاقة».

«ومن الذي أدخل هذا الهراء في رأسك؟» سأله فريد، مغتاظاً من هذه السذاجة التي أبداها شخص شيوعي قديم يحرص فجأة على استعادة إيمانه المسيحي ويلعلع بطائفيته دون خجل. «من كلّ ما سمعته علمت أن مهدي مسلم متعصّب قريب من الإخوان المسلمين، وكلّ ما لديه ضدّهم هو أنّهم يريدون الإطاحة بحكومته». لكن غضب فريد من بشارة الذي كان يتمسّك

بقشة ليمنح نفسه شيئاً من الأمل في محيط مخاوفه، تحوّل شيئاً فشيئاً إلى شفقة.

لم يمض وقت طويل حتى أدرك بشارة الحقيقة. فقد عُذّب سجين مسيحي حتى جنّ. عندما سمع بشارة ذلك راح ينشج بيأس.

بعد فترة قليلة، سمع السجناء عن تخصيص معسكر جميل للأشخاص الذين «أعلنوا توبتهم» في وسط واحة خضراء فيها ملاعب رياضية وبحيرة اصطناعية وشقق صغيرة نظيفة يقع بين دمشق وتدمر. «إنهم يهيؤن الأشخاص فيها حتى يعودوا إلى المجتمع ويصبحوا إيجابيين»، قال صالح، السجين الفلسطيني، بشيء من الحماسة.

كان فريد يستمع بنصف أذن فقط، فقد أذهله خبر آخر وهو الموت المفجع للشاب الشجاع ناجي سلام الذي رفض الخدمة العسكرية والذي كان يحبّه كثيراً. فهو لم يعد بعد اقتياده إلى التحقيق. قيل إنه نُقل إلى مكان آخر، يسنده جندیان ثم وجد مغمياً عليه على درج البناية التي يقيم فيها والداه في دمشق. وعجز الطبيب الذي أسرع لنجدته عن فعل شيء لإنقاذه.

في الواقع كانت دائرة الصمت التي تحيط بالسجن مطبقة. فلم يكن السجناء يعرفون شيئاً عن العالم الخارجي إلا بالقدر الذي كان يسمح به قائد السجن. لكن من الواضح أن مهدي سعيد أراد لهم أن يعرفوا بموت ناجي. لم يدر أحد سبب ذلك.

٢٧٢- الحقنة

كان مهدي سعيد يستجوب بنفسه أهمّ السجناء في الليل، عندما لا يذهب إلى دمشق، وهو أمر غير معتاد منه. والليل أسوأ وقت للاستجواب، فهو يجعل المرء يشعر أنه ضئيل ووحيد وضعيف. إذ يستنفذ النهار كلّ طاقة السجناء، بينما يكون مهدي سعيد قد استمتع بقيلولة لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. وإذا استمرّ التحقيق حتى الفجر، فإن الأمر يصبح جحيماً لا يطاق بالنسبة للسجناء المنهكين. بعد ليلتين لانهاية لهما، غادر علي أبو زيد

twitter @baghdad_library

السجن الذي دفن فيه خمس سنوات من حياته في الرمل. ذهب دون أن يودع أحداً، أحسّ فريد باليأس لأنه شعر أنه فقد دعماً هاماً بعد ذهاب علي.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما جاء جنديان إلى المهجع رقم ٥ وطلبا من فريد مرافقتهما للاستجواب. تملّك فريد نفس الإحساس بالخوف الشديد الذي تملّكه عندما كان فتى عند باب الدير. الخوف مما سيحدث، والعزلة المطلقة. «أمّي، يا أمّي، أين أنتِ؟» سمع نفسه يهمس بصوت فتى في الثالثة عشرة من عمره.

«هيا تحرّك يا ابن القحبة»، نبح الحارس الأصغر جسماً. كان مضطرباً جداً. «يا ليت أمّك أنجبت كلباً بدلاً منك». شعر فريد بأن ساقيه لم تعودا تحملانه. كان صدغاه يخفقان، وكاد قلبه يحطّم قفص صدره كأنه يريد أن يثب ويهرب منه ناجياً بنفسه.

خارج المهجع، كانت السماء صافية و وجنادب الليل تشدو. لوهلة خطرت رنا في بال فريد. لم تحبّ شيئاً كما كانت تحبّ الموسيقى التي تعزفها الجنادب في الليل.

«سمعت أنّك شخص خطير. بالنسبة لي فأنت مجرد صرصور! صبي يؤجّر مؤخرته. لوطي. يمكنني أن أعرف ذلك من وجهك!» قال الحارس، بصوت مبحوح من شدة هياجه.

«دعه وشأنه، اهدأ»، قاطعه الحارس الآخر. عندما وصلوا إلى الدرج، طلب من الحارس الأصغر حجماً الذي كان ينخر غضباً البقاء في مكانه، واقتاد فريد إلى أعلى الدرج وحده.

«هنا»، قال بهدوء خارج مكتب قائد السجن. عندما فُتح الباب، دُفع فريد إلى داخل الغرفة. تلقى لكمة في وسط وجهه. ترنح بشكل دائري ورأى الحارسين اللذين لا بدّ أنهما كانا ينتظرانه. كان صوت ينبعث من المذياع في المكتب. كانت المطربة الشعبية سماجة توفيق تغنّي أغنية تمجّد الشرف والكرم العربيين. عندما استلقى فريد على الأرض تلاشى خوفه للحظة. تذكّر المطربة اللبنانية من الدرجة الثالثة التي وجدت سوقاً رائجة

لأغانيها باللهجة الأردنية. كانت تميل إلى البدانة وتغني بصورة سوقية ومملّة وشعر أن هذين البلطجيين هما فلاحان ينتقمان لنفسيهما من أهل المدينة للمهانة التي ألحقتها بهما المدينة على مدى قرون. يفعلان ذلك حتى دون أن يطلب رؤساؤهم الضبّاط منهم ذلك ومن دون أن يحصلوا على أي جائزة لقاء قسوتهم، بل كان ذلك مجرد نوع من الثأر بالسحل والإذلال تحت إشراف الدولة التي يرتدون زيّها الرسمي.

دخل مهدي من باب جانبي وجلس وراء طاولة مكتبه. أطفأ أحد الحرّاس المذياع. «حسناً يا أولاد، سأمنحكما فيما بعد فرصة كبيرة لتلعبا معه»، قال الرائد، ملقياً نظرة نهائية على الملف القابع أمامه ثم أغلقه. كان فريد لا يزال ممدّداً على الأرض، مضغوطاً بين أدراج طاولة مكتب آخر. «إذاً أنت هو فريد مشتاق، الخبير العسكري السري الخطير وقائد الإضراب الحقيقي. مبروك». أومأ مهدي إلى الرجلين ليرفعاه ويجلساه على كرسي. كانت مجرد إيماءة صغيرة من يده، لكنها كانت دقيقة وفعّالة مثل طقس من الطقوس في معبد تقليدي قديم. سحب الرجلان فريد من الأرض، وأجلساه على الكرسي أمام طاولة مكتب قائد السجن الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز، ثم قيّدا يديه وراء ظهر الكرسي، ورجعا إلى الخلف.

«هل تريد سيجارة؟» سأله مهدي سعيد، وقدّم له علبة سجائر فرنسية. فوجئ فريد بنبرة صوت مهدي. بدا مألوفاً له، لكنه لم يعرف بمن يذكّره.

«لا»، أجاب.

«وهل حقاً تدعى فريد مشتاق أم أنه أحد الأسماء الحركية العديدة التي تطلقها على نفسك؟»

«إنه اسمي الحقيقي».

«لكنك تُدعى صالح أيضاً وعلي وجورج وسامر وشمس، حتى أن الفلسطينيين كانوا يطلقون عليك اسم عمر في معسكر التدريب التابع لهم، هل هذا صحيح؟»

«نعم، هذا صحيح»، قال فريد، محاولاً أن يحافظ على رباطة جأشه.

twitter @baghdad_library

راح يحدّق في صندوق معدني غريب الشكل قابع على طاولة المكتب أمامه.

«أنا أكره الذين يكذبون عليّ، لذلك سأسألك مرة أخرى: هل فريد مشتاق اسمك الحقيقي؟»

«نعم»، قال فريد، متفاجئاً بعض الشيء.

«وهل كنت في دير القديس سيباستيان، كما يرد في ملفك؟»

«نعم. لقد قلت ذلك عندما اسُتجوبت في أول مرة وهذا صحيح»، قال فريد، محاولاً تخفيف الأجواء قليلاً ليتخلص من شيء من خوفه الذي زادته شكوك القائد.

«متى كنت هناك؟»

«من صيف عام ١٩٥٣ حتى صيف عام ١٩٥٦»، أجاب فريد، «كنت فتى آنذاك، وقد أدخلني أبي إلى الدير».

«آه نعم، أبوك»، كرر مهدي سعيد، ونهض واقفاً. «دعني أقول لك شيئاً»، تابع بصوت مختلف مضطرب ارتفع كثيراً فجأة، «أنا لا أصدّق أي كلمة تقولها. فأنت لم تدخل الدير بل كنت في معسكر تدريب حزبي كان يديره هذان اللقيطان طانيوس وسلمان اللذان حكما الجبل منذ عام ١٩٥٣ حتى ١٩٥٦. هل يعني لك هذان الاسمان شيئاً؟ لا تنظر إليّ تلك النظرة البلهاء. أريد فقط أن أعرف لماذا يصادف أن يكون السيد فريد مشتاق دائماً في وسط أعمال التمرّد والعصيان. فمثلاً، تصادف أنه التقطت له صور مع جورج حبش في الأردن عام ١٩٦٥، وبعد سنتين مع نايف حواتمة وجورج حاوي وشخصيات مسيحية وشيوعية بارزة أخرى، في لبنان في صيف ١٩٦٧، أليس كذلك؟»

أخرج الرائد صورة قديمة عرفها فريد على الفور. كانت قد التقطت في عشاء وداع في بيروت.

«بالإضافة إلى ذلك»، قال مهدي، معيداً الصورة إلى الملف، «هل صحيح أنك شاركت في أول عملية قامت بها الجبهة الشعبية في إسرائيل كمراقب؟»

«نعم، هذا صحيح، لكنّه كان. . .»، تلعثم فريد، دهشاً من مقدار المعلومات التي تملكها المخابرات السورية.

«يا له من شرف»، واصل مهدي، «والواقع أنك، بمحض الصدفة صرت أستاذا في قرية شقبا الحدودية، وهناك حرضت كما قرأت في أحد التقارير الطلاب على الثورة وحمل السلاح». هنا أدرك فريد أن مدير مدرسته كتب تقارير سيئة وكاذبة عنه. . . «وبمحض الصدفة أيضا وجدت نفسك على الجبهة وجهاً لوجه مع إسرائيل، وبمحض الصدفة أيضاً، انضممت إلى الراديكاليين هناك؟» تابع مهدي سعيد.

«نعم، لقد قلت كلّ ذلك من قبل. وقد طردني الراديكاليون لأني رفضت حمل السلاح معهم».

«بالله عليك؟ أفعلوا ذلك حقاً؟»، قال مهدي وضحك، «عندما وصل الأمر لمحاربة إسرائيل، اتخذت دور ملاك السلام، أما الرئيس عمران فلم تكن لديك أي مشكلة في النضال ضده والمطالبة بإسقاطه. إنك من ذلك النوع من الثوريين الذين أحبّهم حقاً، لكن لندخل في صلب الموضوع: أريد أن أعرف ما هي الخيوط التي نُسجت على مدى عشرين سنة لإثارة الاضطرابات في الوطن العربي ومنع أمتنا من أن تحتل مكانتها الطبيعية تحت الشمس. يجب أن تخبرني بكلّ ذلك، بهدوء وبموضوعية. إني أعتقد أنك رجل خطير جداً، حتى إنك لست شيوعياً، بل كنت مكلّفاً بارتكاب جرائم أعظم. يجب أن تساعدني وإلا خاب ظني بك وعندها سينزعج فتياني، وهذا لن يكون مريحاً لك أبداً. لذلك لنبدأ بذلك الدير. ماذا كانت مهمّتك هناك؟»

«لا شيء على الإطلاق. لم أعرف آنذاك شيئاً عن المتمردين، كنت مجرد طفل ساذج. لم أرغب إطلاقا بالذهاب إلى الدير. لقد اتخذ أبي هذا القرار وأجبرني. . .»، أجاب فريد بهدوء.

«إذا سمحتم لي يا سيدي»، قاطعه أحد البلطجية بلهجة أهل الساحل، «إذا سمحتم لي، فإني سأجعله يبصق كلّ ما تريدون سماعه، بالإضافة إلى أسنانه». ضحك الحارسان، لكن مهدي لوّح بيده رافضاً هذا الاقتراح. «لا،

twitter @baghdad_library

لا، فهذا ليس ما تدعونه أنتم أهل الساحل سمكة صغيرة، بل إنه سمكة قرش ستنمو أسنانه مرة أخرى. أني أعرف هذا النوع جيداً. لا تخشيا شيئاً، فعندما سأحتاج إليكما سأطلبكما؟» قال، وفتح الصندوق المعدني. رأى فريد الحقنة والأنبوبتين بالإضافة إلى قنينة صغيرة فيها مسحوق. سمع صوت البلطجيين يغادران الغرفة. أما الكاتب الجالس بصمت عند الزاوية، والذي كان يدوّن كلّ كلمة ترد في التحقيق بلغة الاختزال، فقد أغلق الدفتر الذي كان يدوّن فيه وغادر الغرفة من دون أن يحدث صوتاً أيضاً. لكي لا يكون شهود على ما سيحصل، كما قال سجناء آخرون سبق أن حُقنوا أيضاً. شعر فريد بالشلل من شدة الخوف. تملكه الخوف إلى درجة لم يصدر معها منه أي صوت للحظة، وجفّ لسانه والتصق بحنكه.

مذعوراً، رأى الموت يبتسم له ابتسامة عريضة من الحقنة.

«يا سيادة الرائد، إني لا أتحمّل الحُقن، وقد تقتلني جرعة عالية من مصل الصدق. سيادة الرائد، إنك تعرف أني لم أكن عضواً في أيّ حزب سياسي منذ أن تركت الراديكاليين في صيف ١٩٦٧. وإني سأوقّع على أي شيء تريد. أنا شخص تافه ولن أعمل في السياسة مرة أخرى».

«أوه»، قال مهدي، «ومن الذي قاد الإضراب المشهور هنا في السجن والذي خرّب سمعتنا في الخارج لسنوات، إيه؟ هل تعرف أنّ بلدنا الحبيب أصبح مضغة في الأفواه ويذكر في عداد دول مثل جنوب أفريقيا وفيتنام الجنوبية و إيران والسعودية؟ كانت إسرائيل على استعداد لدفع الملايين حتى تصرف انتباه العالم عن مرتفعات الجولان. لقد حصل الصهاينة الآن على كل ما يريدونه مجاناً، وبسببك أنت».

عدّل مهدي نظارته الشمسية العاكسة التي كان يضعها أثناء التحقيق باستمرار. كان كثيرون يعتقدون أنه كان يتبع هذه الطريقة لزعزعة ثقة الرجال الذين يحقق معهم. والأسوأ من كلّ ذلك هو أن فريد كان يرى انعكاس خياله في كلتا العدستين صغيراً حقيراً ثم يختفي الخيال في البعد كما لو كان انعكاسه ينأى بنفسه عنه.

«كان بالفعل أول إضراب غير سياسي في حياتي»، كرّر. قال ذلك بدافع اليأس، «لأن عبد الحميد سَرّاجي كان يعاملنا أسوأ مما يعامل الحيوانات، وبإشراف الألمان الشرقيين أيضاً. كان ذلك مهيناً. كان ذلك حقّاً أول إضراب غير سياسي في حياتي. لقد وحّدنا جميعاً، حتى الجناة الشباب والمجرمون. لم يتحول الإضراب إلى إضراب سياسي إلاّ لأن قيادة السجن كانت فاسدة ولم تأخذنا على محمل الجد. إنك تعرف كلّ ذلك»، أجاب فريد خائفاً، لأنه شمّ رائحة الموت في كلمات الرائد. لكنّه ظل يلاحظ أن نبرة صوته، هو فريد، ظلت تشوبها نبرة خنوع وتوسل.

وقف مهدي أمامه. إتكأ على حافة الطاولة وابتسم له، ثمّ نهض وسار أمامه ببطء. لم يلتفت فريد.

«أرجوك يا سيدي»، همس عندما أحسّ أن مهدي يحلّ أزرار كمّ قميصه اليمنى ويشمّر كمّه إلى الأعلى، «إني مصاب بالصرع لأنني أصبت بالتهاب السحايا عندما كنت صغيراً في الدير وتركوني بدون علاج لفترة طويلة، لذلك فإن مرضي حسّاس، مثل... مثل مرض ناجي. وقد تقتلني هذه الحقنة. أتوسل إليك... أرجوك لا تحقّني. سأخبرك بكلّ شيء». كان صوته لا يكاد يكون مسموعاً الآن.

«لا تخف أبداً يا فتاي»، قال الرائد مهدي بصوت عال فيه نبرة انتصار، كما لو كان يريد أن يخبر العالم بأسره بأنه كسر فريد مشتاق، أصعب وأخبث سجين، كما ذكرت التقارير، خلال بضعة أسابيع. «لا تخف أبداً. لن أوذيك إذا تصرفت كفتى جيد»، قال مطمئناً ضحيّته.

أحسّ فريد بيد مهدي الباردة تمسّد ذراعه العارية. كانت حركة أصابعه بطيئة، كما لو كانت تتلمّس بعناية طريقها إلى نفق مظلم تحت جلده، ثمّ غاصت الإبرة في أعماق ذراعه.

خيّم ظلام دامس.

twitter @baghdad_library

كتاب الضحك الخامس

الضحك لص يتسلل خلسة ويفتح الأفواه والقلوب
وينكأ أحياناً الجروح

*

تدمر، آذار ١٩٦٩ - نيسان ١٩٦٩

٢٧٣- أمّي تقول

عندما كان فريد يعود بذاكرته إلى تلك الفترة، الفترة الفاصلة بين الانتصار على النقيب سَرّاجي في منتصف آذار ومجيء مهدي سعيد في الأسبوع الأول من نيسان، كان يقول عنها إنها كانت أكثر الفترات جنوناً في حياته. كان السجناء نهمين للضحك، فنمت مواهبهم في اختراع مسبباته وازدهرت أيامهم بشكل لم يسبقه مثيل. لم يناموا إلا لماماً. ففي كلّ مساء كانت تروى قصص، وتقدم عروض تمثيلية، وتُحكى قصص أفلام سبق لبعضهم مشاهدتها. وأبرز ما تذكّره فريد من كلّ ذلك، مناجاة لاذعة سماها «مونولوج تدمري» حظيت بمتعة كبيرة، قدمها الممثل الشاب والمعارض للخدمة العسكرية حسن بقالي في المهجع رقم ٥.

«لقد جئت لتأدية الواجب يا سيادة النقيب بولدوغ»، صاح الممثل، المنتصب في وسط المهجع، محدّقاً بعينيه بطريقة مبالغ فيها، كما لو كان تحت تأثير مخدّر متحدثاً بلغة ركيكة.

سيدي النقيب، لماذا نحن في حالة حرب مع إسرائيل؟ لا يوجد عندي شيء ضدها، أمّي تقول، وأنا لا أسأل ذلك لأنني خائف، بل لأنني أريد أن

أعرف لماذا يجب أن نموت. فإذا كان الإسرائيليون أقوى منّا فهم سيقتلوننا. هل من الممتع أن تشن حرباً على عدو لديه قوات متفوّقة وأنت نفسك ضعيف وغبي؟ لا، أمّي تقول ذلك.

إن شعبنا يعيش في جنّة الحرية والديمقراطية. حسناً، هكذا تقول جميع الكتب المدرسية، هكذا نسمع يوماً بعد يوم في المذياع أيضاً، حتى الجهلة والأمّيون يعرفون ذلك. إن البريطانيين والأمريكيين والألمان والسويديين، لا بل السويسريون، يحسدوننا على الديمقراطية التي ننعم بها. إنهم يأتون إلى بلدنا مدّعين بأنهم جاؤوا بهدف السياحة لكنهم في حقيقة الأمر جاؤوا ليتعلّموا ما هي الديمقراطية الحقيقية ومدى تأثيرها على الناس وليشاهدوا بأمّ أعينهم ماذا يفعل السوريون بكلّ هذا القدر الفائض من الحرية التي ينعمون بها. وأنتم يا حضرة الزعيم تعلمون أننا صرنا نهرب الحرية والحشيش للبلدان الثانية، لكن أمّي لا تصدّق ذلك وتقول دائماً إذا كانت المشاكل كلاباً، فستصبح الحجارة التي نقذفها بها نادرة وعلينا شراؤها من بائع المجوهرات. لقد تعلّمت هذا الحديث عن الحجارة من جارنا مصطفى. كما تعرف يا سيدي النقيب أن مصطفى شرطي مرور طيب. كانت زوجته زهرة أجمل امرأة في حيّنا. وفي أحد الأيام، عندما أوقف مصطفى ابن وزير الداخلية لأنه كان يقود سيارته في المدينة بسرعة مائة وعشرين كيلومتراً في الساعة في زحمة المرور، وطلب منه رخصة القيادة، أوسع الفتى الذي لا يتجاوز عمره سبع عشرة سنة، الشرطي ضرباً ثم طرده والد الفتى من سلك الشرطة في اليوم التالي. فصار الآن الزوج والزوجة، مصطفى وزهرة، بدون دخل، وأصبحا نزقين ولم يكفّا عن الشجار. لكن ذات يوم، عندما وعت عينا مصطفى لجمال زوجته، خطرت بباله فكرة: فتوقّف عن ضربها، وجعلها تتجمّل وتطلي وجهها بالمساحيق، وعرّفها على عدد من الرجال الأغنياء. كانت سعيدة بذلك لكي تتخلّص من زوجها لبضع ساعات وتحشو فمها بأنواع الحلويات التي لم تكن تراها إلا في الأفلام أو واجهات محلات الحلويات.

twitter @baghdad_library

منذ تلك اللحظة، عاشا حياة هادئة لأن زهرة بدأت تجلب إلى البيت نقوداً أكثر مما كان يكسبه ثلاثة عشر شرطياً شريفاً معاً، وبدأ مصطفى يعتني بالبيت ويلعب طاولة النرد مع المتقاعدين. قال الناس إنه نبتت له قرون، لكن صدقاً لم يكترث بما كانوا يقولونه. كان هو وزوجته يسخران من جيرانهما. عندما قال أحدهم إن أهالي الحيّ يشعرون أن الزوجين أصبحا مشكلة للجميع عندها قال مصطفى قوله الشهير الذي أحبته أمي عن الكلاب والأحجار.

لكني خرجت عن الموضوع بسبب العرق الذي ابتلعه. كنت أتحدّث عن إسرائيل. حسناً، المفروض أن الإسرائيليين أضعف منا - أوه نعم، أراهن على أنهم كذلك، لأننا مائة وعشرون مليون عربي شجاع لنا تاريخ مديد من البطولات. لكن ما هو عدد الإسرائيليين هناك؟ ثلاثة أو أربعة ملايين. لذلك دعونا نفترض أن خمسين عربياً هاجموا إسرائيلياً واحداً. يا إلهي، سيقف المناضلون ضد إسرائيل في رتل ينتظرون دورهم لتلقيمه لكمة كما لو كانوا يشترون زبدة! هل هذا أمر مشرّف بالنسبة للعربي؟ هل هو أمر رجولي، خمسون مقاتل على واحد؟ بالتأكيد لا، أمّي تقول. نصر كهذا لا يفرح حتى قلب الأموات.

إغاثة الملهوف والضعيف من شيمنا. فإذا كان الإسرائيليون بهذا الضعفَ فلنمنحهم لجوء سياسي لدينا وهناك في بلادنا الشاسعة متسع كبير لمخيمات لاجئيهم. إن عددهم قليل وهم شعب قديم، وسنحصل على الشكر والثناء من المجتمع الدولي لقاء هذه المعاملة.

إن أمّي لا تفكّر بدين الشخص عندما تحكم عليه. فعلى سبيل المثال، كانت تصف بائع زيت الزيتون سمعان بالحمار دون أن تسأل قط عن دينه. كان يقدّم أفضل أنواع الزيوت المتوفرة في محله لإضاءة مصابيح الكنيسة لشدة إيمانه، ويبيعنا نحن خليطاً من الزيوت الرخيصة.

كان أبوه يفعل الشيء ذاته. كان لصاً تقياً. يسرق من الأغنياء أموالهم، وينفق نصفها على الشراب وعلى العاهرات، ويعطي نصفها الآخر إلى الفقراء لكي يصلّوا لخلاص روحه، لأنه يؤمن أن الله يزن في الميزان ذنوبه

مقابل دعاء وصلوات خمسمائة فقير وكأن اللّه عزّ وجلّ تاجر ولهذا سمّت أمي الرجل حماراً. .

لكن سامحوني، فقد استطردت عن الموضوع مرة أخرى. إن سيجارة الحشيش تلك التي دخنتها كانت قوية جداً. إن أمّي تحبّ رئيسنا عمران. ألم يقل إنه سيهاجم أمريكا إذا استدعى الأمر؟ أمّي تقول إن فكرة شن حرب على أمريكا فكرة جيدة. فإن هزمونا، فإن الأمريكان سيعيدون بناء أرضنا بصورة أفضل مما كانت، كما فعلت أمريكا في ألمانيا واليابان. إنها عادة أمريكية قديمة: يسوّون البلاد بالأرض ثم يعيدون بناءها. أما إذا هزمناهم، فنستطيع عندها أن نهاجر إلى أمريكا ونتخلص من هذه العيشة الكئيبة دون الحاجة إلى الحصول على تأشيرة.

twitter @baghdad_library

كتاب النمو الخامس

الرؤساء يأتون ويذهبون، أما السجلات فتبقى في الملفات

*

تدمر، دمشق، ربيع ١٩٦٩ - صيف ١٩٦٩

٢٧٤- بولس

عندما أفاق فريد وجد نفسه مستلقياً على سرير خشبي، وضوء نيون براق يضيء من السقف. لم تمتلك الغرفة نافذة ولا مفتاح ضوء. بل كان هناك كرسي وطاولة صغيرة بجانب الحائط. كانت الزنزانة نظيفة، أرضيتها إسمنتية، وجدرانها مطلية بالكلس، لكن الباب الحديدي كان صدئاً وذكّره بأبواب زنزانات الحبس الانفرادي الأخرى. ها هو إذاً يقبع في الجناح الرئاسي، كما كان السجناء يطلقون على زنزانة كبيرة كهذه كان سَرّاجي يؤجرها لأبناء الأغنياء.

أحسّ بمذاق مرّ في فمه على نحو غريب. تذكّر الحقنة ونظر إلى ذراعه. رأى احمراراً حول البقعة مكان الحقنة.

هل فقد الوعي، أم أنه أخبر مهدي كلّ ما كان يريد أن يسمعه في هذيانه؟ حاول أن يقترب من الباب، لكنه اضطر إلى أن يستند إلى الحائط لأن ساقيه كانتا واهنتين. أغمض فريد عينيه وأخذ نَفَساً عميقاً، ثمّ وضع أذنيه على الباب البارد. كان الجنود المناوبون يتبادلون نكاتاً عن البدو وعن نسائهم. طرق الباب. انتظر ثم سمع وقع خطوات.

«ماذا تريد؟»

«ما هو اليوم؟» سأل فريد.

«بين الاثنين والأحد»، أجاب صوت عميق. أطلق رجل آخر ضحكة عالية.

«هل يمكنني أن أحصل على قليل من الماء، أرجوك؟» سأل فريد.

«مع ثلج وصودا أم ماء فقط؟» سأل رجل آخر بنبرة عالية مصطنعة، مثل نادلة في حانة، ونخر ضاحكاً.

في اليوم التالي، قُدِّم له ماء وسمح له باستعمال المرحاض. عندما عاد، كان مهدي جالساً على الكرسي وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. قيّد الجنود يدي فريد وقدميه، وربطوا نهايات السلاسل بحلقات حديدية لُحمت برأس وقدم السرير. تذكّر فريد الجمل الذي رآه عندما كان طفلاً.

خلع مهدي نظارته الشمسية ببطء. في تلك اللحظة تمكّن فريد من التعرف عليه وتمييز صوته الذي بدا مألوفاً له طوال هذا الوقت.

«بولس»، همس، كادت الدموع تطفر من عينيه.

«ها نحن ذا نلتقي ثانية، لكن في المكان الصحيح والظروف المناسبة»، ردّ بولس، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة عريضة. تملّك فريد خوف أصابه بالشلل.

«بولس»، همس ثانية، «هذا أنت؟».

«نعم، بالفعل يا سيد مشتاق، إنه أنا. لقد قَتَلَتْ عشيرتُكَ أبي، وقد خنتني وكدت تحطّمني. لقد حان الوقت لأن أنتقم منك ومن عشيرتك».

«ماذا تقصد، قَتَلَت؟ مَنْ قتل مَنْ؟» سأل فريد بآخر قوّة لديه. كان مشوشاً تماماً.

«عمّك حسيب قتل أبي لأنه مزح للحظة مع زوجة حسيب، تلك القحبة الأمريكية. ألا تعرف ذلك؟ لم يكن أبي مسلحاً. ألم تسمع عن ذلك؟»

هزّ فريد رأسه بالنفي.

«في الحقيقة أصدّقك. نعم، فمن أين لك أن تعرف؟ كان أبي موسى

twitter @baghdad_library

شاهين من معلا، الابن الخامس لشاهين. هل يعني ذلك لك أيّ شيء؟»

وقع فريد إلى الخلف من شدة الصدمة. هزّ رأسه كما لو كان مذهولاً. بالطبع. كان موسى، عمّ رنا، قد قُتل بطلق ناري في يوم أحد عيد الفصح في عام ١٩٤١ عندما كان المطارنة يحاولون مصالحة زعيمي العشيرتين.

«بعدها غرقتُ أنا وأمّي وأختي منى في التعاسة. كنتُ في الخامسة من عمري. بعد أن ترملت أمي، اضطُرَّت للعودة لتقيم مع والدها البخيل الذي راح يذلّها ويذلّنا ليل نهار حتى تزوّجت ذلك الوحش الذي أجبرنا على اعتناق الكاثوليكية. كانت تعاسة وهزيمة «من النوع الأصيل» كما دبرتها عائلة مشتاق، ظلت أمّي تردد ذلك على الدوام إن إجبارها على اعتناق الكاثوليكية يذلّها أكثر من فقدان زوجها. طوال تلك الليالي التي تعذّبت فيها، كلّ الدموع التي ذرفتها أمّي، كلّ التعاسة التي كان عليّ أن أتحملها -أقسمتُ على أن انتقم من عائلة مشتاق ذات يوم، وماذا تظن؟ عندما كنت على وشك أن أنسى، عندما بدأت أسير على طريق المسيح وأحبّ أعدائي، ظهر بغتة شخص من عائلة مشتاق وخانني. لقد بذلتَ كلّ ما بوسعك لتحطيمي، لكن الحظ لم يحالفك. لقد تحملتُ عبء التعذيب والتحقيق. لقد كرهتك في كل ثانية أثناء ذلك، بقدر ما كنت أحبك في كل ثانية قبل ذلك. ليس على الأرض ما هو أسوأ من اكتشاف أنك كنت تحبّ خائناً». كان وجه مهدي داكناً وشاحباً في الوقت نفسه.

«أنا لم أخنك في حياتي. فقد رفَضتَ أن تتوقّف لتسمع بأنني لم أخبر غابرييل ولا أي شخص آخر عنك. لا بد أن الصدفة السخيفة هي التي ثبّتت هذه الأفكار في رأسك طوال ذلك الوقت، وغذّت شكوكك عنّي، لكنني عانيت الأمرّين. في النهاية غادرتُ الدير وأنا في حالة أسوأ بكثير من حالتك»، قال فريد.

لكن آماله في إجلاء الأمر، أو على الأقل في إثارة قدر قليل من الشفقة تلاشت عندما ابتسم بولس ابتسامة عريضة على نحو كريه وهزّ رأسه. «ها

أنت هنا الآن. كانت أمّي محقّة عندما قالت إن أفراد عائلة مشتاق كذابون ماكرون زلقون كالأفاعي، لكني سعيد الآن بالاستماع إليك، ورؤيتك مقيّداً مثل الكلب. لقد بذلتُ جهداً كبيراً لكي أحضرك إلى تدمر. لن تهرب مني بعد الآن. لا أحد يستطيع أن يسمعك. هذا هو المكان الوحيد الذي ليس فيه ميكروفونات ولا كاميرات تراقبنا. ستعيش هنا لفترة طويلة، وتعاني الأمرّين حتى أنك ستتمنّى الموت عشر مرات كل يوم».

نهض واقفاً. قرع الباب مرّتين ثم جلس ثانية بهدوء. دخل حارسان ضخمان وأوسعا فريد ضرباً حتى أغمي عليه.

عانى فريد كثيراً طوال أربعة أيام. وفي كلّ يوم، كان يتمنّى أن يتمكن من الوصول إلى قلب بولس وإثارة قدر من الشفقة فيه، لكن عدوه اللدود كان يعود مرة أخرى وأخرى ليحدّثه عن العذاب الذي ألحقته به، هو بولس، عائلة مشتاق. وفي بعض الأحيان، كان يتحدّث عن زوج أمّه، وعن الانتقام القاسي الذي أنزله هو نفسه بالرجل لاحقاً، بعد أن أصبح رجلاً عجوزاً فاشلاً محطماً. وبعد أن ألحق به مهدي كل تلك المهانة، شنق الرجل نفسه في قبو مصنعه بعد أن أُغلق مفلساً.

في صباح أحد الأيام، سمع فريد صوت قرع خفيف. أصاخ السمع. «فريد»، جاءه صوت مألوف، لكنّه لم يميّزه تماماً.

«فريد، هذا أنا، نبيل. هل تسمعني، فريد؟»

«نبيل، صديقي، ماذا تفعل هنا؟»

«أنا المكلّف بالحراسة هنا بدل أحد الحراس لمدة نصف يوم. إن رفيقي رجل مؤتمن وهو يراقب الوضع كرمى لي».

«نبيل، أرجوك ساعدني. إني أموت».

«كيف يمكنني أن أساعدك؟ حتى إنه ليس لدينا مفتاح لزنزانتك، ولهذه الزنزانة أكثر الأبواب سماكة، إنك لا تستطيع حتى أن تدسّ قصاصة من تحته».

twitter @baghdad_library

«اسمع جيداً يا نبيل. إنك تستطيع أن تنقذ حياتي. هل ستذهب إلى دمشق في وقت قريب؟»

«نعم، عندي إجازة لمدة ثلاثة أيام ستبدأ غداً، لأنني أمضيت أسبوعاً في العمل عند تحصينات السجن».

«اسمع: اذهب إلى بيت أهلي. إن بيتنا يقع قبالة مقر البطريركية الكاثوليكية في حارة الزيتون، قرب الباب الشرقي. اسم أمّي كلير. قل لها إنهم يجب أن يفعلوا كلّ ما بوسعهم لإخراجي من هنا لأن أحد أفراد عائلة شاهين يحاول قتلي».

«عائلة من؟»

«عائلة شاهين. إنهم الأعداء الألدّاء لعائلتي، وابنهم هو الرائد مهدي سعيد الذي يمتلك السلطة هنا. إنه يريد أن يقتلني. هل فهمت كلّ ذلك؟»

«طبعاً. آمل أن لا أجد أمّك في البيت لكي أذهب لرؤية أبيك في محل الحلويات. لأنه بينما ينصت إلى ما سأقوله أكون قد تناولت نصف الحلويات المعروضة في واجهة محله. هل قلت لك أنني عندما كنت صغيراً كنت أنفق أحياناً كلّ مصروف جيبي في شراء حلويات عش البلبل؟»

«نعم، لقد حدثتني بذلك»، أجاب فريد بابتسامة واهية، ثم انزلق على الأرضية بالقرب من الباب وراح ينصت إلى الجندي الشاب كاتم أسراره وهو يتحدث عن أمنيته بانتهاء خدمته العسكرية بسرعة.

أخيراً، طلب فريد من الجندي أن يكرر كلّ ما سيقوله لكلير، ولم يُخيِّب نبيل أمله.

٢٧٥- التحولات

بعد يومين ارتفعت حرارة فريد كثيراً. سمع قرعاً على الباب، لكنه لم يتمكن من النهوض. دخل أحد الجنود الذين يحرسونه وقدم له ماء. كان فريد في غاية الضعف إلى حد أنه لم يعد يقوى على الكلام. «يا لهذا التعيس المسكين»، قال الجندي وراح يقطر شيئاً سائلاً في فمه. «يا إلهي،

ماذا فعلوا بك؟ وهل تظن أنك تستطيع أن تدمّر الدولة بهاتين اليدين الراجفتين، أيها الأحمق؟ أنت لست سوى طفل مسكين ضائع». أسند فريد إلى الحائط ثم خرج ونادى زميله. «هل لديك حبة مسكّنة للألم؟ إن لم يكن لديك، فاذهب وابحث عن واحدة».

همس الرجل الآخر شيئاً. «نعم، ستحصل على سيجارتك اللعينة! هيا عجّل، فالرجل يموت»، صاح الجندي كأنه يجيب.

لم يظهر مهدي لمدة ثلاثة أيام. عندما عاد، كان فريد قد استرد قليلاً من طاقته.

فوجئ فريد بمعرفة مهدي هذا القدر من المعلومات بالتفصيل. يبدو أن قائد السجن قد اكتشف كلّ ما فعله في حياته كلها. فقد كان بإمكانه أن يكرّر حرفياً الكثير من رسائل فريد والعديد من الأحاديث التي دارت بينه وبين بعض الرفاق في حزبه، وبينه وبين مدير مدرسة شقبا على الجبهة. لكن كان واضحاً أنه لم يكن يعرف شيئاً عن رنا.

كان يبدو أن مهدي يجد متعة في إخبار فريد كل شيء يتعلق بوظيفته، وكيف أنه تمكن بدهاء من اجتياز جميع العوائق الخطيرة وإزاحة جميع أعدائه عن طريقه. فبعد أن أنهى الامتحان النهائي لشهادة الثانوية العامة عاد إلى البيت. آنذاك كانت أمّه وأخته قد انتقلتا إلى صافيتا، البلدة الصغيرة الجميلة التي حاول زوج أمّه أن يقيم فيها مصنعاً لتقطير العرق، لكنه أخفق. وكان يريد لمهدي أن يدرس الكيمياء لمساعدته في صناعة تقطير العرق، لكن مهدي كان يرغب في دراسة الحقوق. لأنه كان يحلم بأن يصبح قاضياً عادلاً وصالحاً، وذهب إلى دمشق لدخول الجامعة. قبل الامتحانات بفترة قصيرة، أُغرم بفتاة لكن زوج أمّه كان له بالمرصاد وأقنع والدي حبيبته برفضه. بعد ذلك بفترة وجيزة، قطعت الفتاة علاقتها بمهدي.

صرف النظر عن المرأة والتحق بكلية الشرطة. عندما تخرج منها انتُدب للعمل في المخابرات، ولمّا كان يفكّر بطريقة منطقيّة ولا يعرف الشفقة، أرسله رئيسه النقيب وردان إلى موسكو للتدرّب في وكالة الاستخبارات

twitter @baghdad_library

الروسية (كي جي بي). في الواقع، كان الضابط الماكر وردان المسؤول مباشرة عن مهدي يكره الشيوعية، ويريد أن يعرف ماذا تنوي الكي جي بي أن تفعله مع الضبّاط السوريين الشباب، وتقرب المسؤولون الروس بالفعل من مهدي فأبلغ هذا رئيسه وردان في دمشق وهذا بدوره أبلغ إبن عمه ورئيسه الضابط بدران.

«لكن لماذا اعتنقت الإسلام؟ إن بدران وباقي أعضاء الحكومة ليسوا من الإسلاميين»، سأله فريد وهو لا يزال يتمنّى أن تنهي هذه المحادثات تعذيبه.

«لأن الدين لم يكن يهمني على الإطلاق، أو على الأقل منذ غادرت الدير. فقد صادف أنني ولدت من أسرة تنتمي إلى الطائفة الأرثوذكسية ثم أُجبرت على التحول إلى الكاثوليكية. كانت لديّ جميع الإمكانات التي تؤهلني للمساعدة في إدارة البلد، وكانت عبارة إسلامية قصيرة تحتوي على الشهادتين وقلفتي هما العقبتان الوحيدتان، لكن ليس بالنسبة لي. طق، طق، فقد خُتنت خلال خمس دقائق، وردّدت تلك العبارة، وهكذا تحول بولس إلى مهدي، ويمكنني أن أؤكد لك أن جميع الأشخاص العقلانيين بدءاً من بدران إلى شفطان وحتى الرئيس عمران يبدون أتقياء عندما يصلون بورع أمام الكاميرات تصور علويين يصلّون في جامع يحمل اسم الجامع الأموي، وهو اسم ألد أعدائهم: بني أمية، لكنهم لا يبدون أدنى اهتمام بأيّ دين، وهم يشربون حتى الثمالة، وينيكون أيّ ثقب يجدونه في طريقهم. إن الدين وسيلة جيدة للسيطرة على الحمقى»، قال بقوة ثم ابتسم ابتسامة عريضة ونهض. سُمعت طرقات على الباب، ثم انفتحت أبواب جهنم على فريد. توسل إلى مهدي بألاّ يعذّبه في ذلك اليوم لأنه يمرّ في حالة تعيسة جداً. قبّل يديه وحذاءه العسكري كما أمره أحد الحرّاس، لكن مهدي راح يضحك. وجّه حارس آخر ضربة إلى وجه فريد وأمره بأن يعوي كالكلب. عوى فريد وبكى حتى شدّه الحارس من أذنه وقال: «ليس مثل الكلب، بل مثل الحمار». كانت تفوح رائحة كحول نتنة من الرجل.

قلّد فريد الحمار، وظلّ يفعل ذلك لمدة نصف ساعة حتى تمدّد على

الأرض منهكاً. ثمّ خيّم ظلام تام، رأى فيه مرة أخرى الجمل والخوف في عينيه وهو واقف مقيداً في فناء الخان ينتظر موته. عندما أفاق، كان وحيداً. كان شعوراً مخيفاً. لأول مرة شكّ في قدرته على الفهم، لأنه لم ير أو يسمع مهدي ولا الحارسين يغادران الزنزانة. نظر فريد إلى ذراعه. رأى على رسغه الأيمن علامة حقنة ثانية، حمراء تحكّه، لكن متى حقنوه؟

٢٧٦- الفدية

عندما سمعت كلير ما قاله لها الجندي شكرته وقدمت له هدية نقدية بمبلغ خمسين ليرة، ضعف راتبه، وحثّته على أن يقول لفريد إنها لن ترتاح حتى يُطلق سراحه. توجّه الجندي مباشرة إلى باب توما واشترى بعشر ليرات «عش البلبل» من محل حلويات إلياس.

هرعت كلير إلى محل زوجها وأخبرته بكلّ شيء. تسمّر إلياس في مكانه، ثم قال: «أولاد الزنى هؤلاء من عائلة شاهين». كانت الرسالة واضحة له. أحد أفراد تلك العائلة ضابط أو مجرم منحرف لئيم لا بدّ أنه تمكن من الوصول إلى تدمر ليحاول قتل فريد إبنه الوحيد وينهي بذلك ذريته.

لم تر كلير زوجها بهذه الحدة من الغضب من قبل. «سأذهب إلى البطريرك. حتى لو كلفني كلّ ما أملك فلن يقتل آل شاهين ابني»، صاح يائساً. في تلك اللحظة احترمت كلير زوجها الذي كان، على الرغم من نحوله، يتحول إلى أسد في بضع ثوان. عشقته كما عشقته في اللحظة الأولى.

اتصل إلياس على الفور بالبطريرك الكاثوليكي. كانت تشوب صوته نبرة يأس وغضب. كان البطريرك العجوز المحنّك يعرف أن عليه مساعدة صديقه، وطلب منه أن يأتي لرؤيته على الفور. استمع إلى ما قاله له إلياس وطمأنه، ثمّ اتصل بجورج سلموني، أحد أغنى المسيحيين في دمشق وأكثرهم جرأة. بعد نصف ساعة، وصل مستورد الويسكي ذو الكلام

twitter @baghdad_library

المعسول شخصياً. شرح له البطريرك الأمر وطلب مساعدته لأن إلياس يقدم مساعدات هامة إلى الكنيسة الكاثوليكية.

فكر سلموني برهة، ثم قال بهدوء: «هناك شخص واحد فقط يمكنه أن يساعدنا في هذا الأمر، لكن ذلك سيكلف مبالغ كبيرة»، قال بهدوء.

«لا يوجد ثمن لا يمكنني دفعه لإنقاذ ابني»، أجاب إلياس وطفرت الدموع متجاوزة إرادته القوية من عينيه.

«إذاً تعال معي»، قال تاجر الويسكي، واستأذن البطريرك. كانت سيارته المرسيدس السوداء مركونة في الساحة.

«إن شفطان شقيق الرئيس هو أكثر الرجال فساداً في العالم، لكنّه ينفّذ ما يَعِدْ به»، قال سلموني وهو يقود السيارة ثم أضاف، «سنذهب إليه مباشرة. فهو الحاكم السري الفعلي لهذا البلد».

كان إلياس يعرف أنّ شفطان هو قائد «سرايا الدفاع» التي تشكل طوقاً من الدفاعات حول مدينة دمشق، لكنه لم يكن يتوقّع قط أن يقابل شقيق الرئيس الذي سيأخذه إليه سلموني في هذا الجزء المرفه من المدينة.

أراد سلموني أن يعرف كلّ شيء عن فريد، لأنه إذا لم يكن ما قاله إلياس صحيحاً فإنه لا يستطيع أن يضمن شيئاً. أخبره إلياس بسرعة ما قالته له كلير. أومأ سلموني مستغرقاً في التفكير.

«ظننت أن شفطان خارج دمشق مع وحداته»، قال إلياس عندما وصل سلموني إلى حي أبو رمانة. لا ثكنات هنا، بل فيلات يقطنها أثرياء دمشق وفيه السفارات والقنصليات الأجنبية. ضحك سلموني وقال: «إنه يقيم هنا منذ شهر في قصر اشتراه بعشر ليرات من بردانا، تاجر النسيج الثري».

«عشر ليرات؟ لا بد أنك تمزح»، قال إلياس.

«أنا نادراً ما أمزح»، أجاب سلموني، «لكنك ستكون مستعداً لأن تبيع بيتك بليرة واحدة إذا وضع أحدهم بوحشية مسدّسه على صدغك، وأنت تعرف أنه كان من الوحشية بحيث أجلسَ ابنه الذي لم يكن يتجاوز العشر

سنوات في حضنه ليشاهد تنفيذ حكم الإعدام بأعدائه، كي يجعل ابنه قاسياً مثله».

«وهل يقيم هنا؟» سأله إلياس.

«لا أحد يعرف أين يعيش، لكن سكرتيره هنا، وإذا قلت إن طلبك والمسألة التي أتيت من أجلها هامة، عندها يمكنك أن تراه شخصياً، وإذا لم تكن ذات أهمية قصوى، فإن مستخدميه يعالجون الأمر».

كان البيت رائعاً، وكانت طائرتان مروحيتان تربضان فوق مرج الحديقة الضخمة. عند المدخل أعطى سلموني الجنود الذين يرتدون بدلات مموّهة اسمه، وبعد بضع دقائق جاء ضابط شاب برتبة ملازم يهبط الدرج بسرعة.

«السيد سلموني»، قال لاهثاً، «اغفر لي لأنني جعلتك تنتظر، لكن الجحيم كله انطلق اليوم»، حيّا سلموني بإحترام وصافح إلياس من دون اهتمام.

أفضت الدرجات صعوداً من المدخل إلى قاعة كبيرة فيها مكتب استقبال. كانت امرأتان منهمكتان في رفع سماعات الهاتف، تقولان شيئاً، تضحكان ثم تغلقان الهاتف وتدوّنان ملاحظات. كانت زاوية للجلوس مرتّبة بأناقة بين أعمدة الرخام العالية، كما لو كان المكان فندقاً من الدرجة الممتازة. وانتظر عدد من الرجال، واقفين بثبات في أماكنهم لا يتحركون كأنهم تماثيل في متحف شمع. قاد الملازم سلموني وإلياس متجاوزين عدداً من الكراسي صوب درج واسع مهيب من الرخام، وصعد الدرجات أمامهما. في الطابق الأول، فتح باباً ودعا ضيفيه للدخول إلى غرفة واسعة. كان الأثاث والجدران والسقف تعود إلى القرن التاسع عشر. كان الشيء المزعج الوحيد هو وجود طاولة مكتب معدنية خضراء اللون وخلفها كرسي دوّار لونه بني فاتح وكلاهما جلبا كجسم غريب من ثكنة عسكرية ما.

بناء على طلب الملازم المهذب، حكى له سلموني عن مصير فريد، مشدّداً على الحقيقة بأن ابن إلياس الوحيد لا ينتمي حالياً إلى أي حزب

twitter @baghdad_library

سياسي على الإطلاق، وأن المسألة مسألة ثأر شخصي بين عائلة قائد السجن وعائلة صديقه الحميم إلياس شاهين. وركز سلموني على أن إلياس صديقه مرة ثانية وأنه شخصياً يحب فريد كإبنه خاصة وأن الشاب أصيب بالتهاب السحايا عندما كان طفلاً وهو لا يزال يعاني من نتائجه. دوّن الملازم كلّ ذلك، وطلب على الهاتف شاياً له ولضيفيه، ثم توجّه بالكلام إلى إلياس وقال: «سيّد مشتاق، إذا طلب مني المسيو سلموني أن أفعل شيئاً فإني أفعله، لكنّي أريد أن أتأكد من الأمر الذي سأضع يدي فيه قبل أن أذهب إلى سيادة القائد شفطان. هل صحيح أن ابنك مصاب بالتهاب السحايا، أم أنه مصاب بالشقيقة فقط؟»

أحسّ إلياس بكتلة جافة في حنجرته ثم قال: «سيدي، لقد دخل غرفة العناية المركّزة عندما كان في الثانية عشرة من عمره. لم يتمكنوا من معالجة التهاب سحايا جيداً آنذاك، لذلك لا تزال تنتابه حتى يومنا هذا نوبات صرع ويغمى عليه. يمكنني أن أريك تقارير ثلاثة اختصاصيين»، أجاب.

«لا، لا داع لذلك»، قال الضابط ثم صمت. كان الصوت الوحيد في الغرفة ينبعث من الساعة المعلقة على الحائط.

«هل كان ابنك مسلّحاً عندما اعتقل؟» تابع الملازم أخيراً. ظن إلياس أنه سؤال غريب. «لا يا سيدي، لم يكن لدى ابني سلاح. كان خائفاً وكان مختبئاً عند ابنة عمته».

مرة أخرى صمت الملازم طويلاً. كان سلموني معتاداً على ذلك. كان يجلس باسترخاء، لكن قلب إلياس كان يخفق بقوة. ماذا سيسأل الضابط الشابّ ثانية؟ تنفّس الصعداء عندما أخرج الضابط ورقة من الدرج ونظر إليه بطريقة ودّية. «لا يمكنني أن أعد بأيّ شيء الآن، لكنّي سأبذل كل ما بوسعي. في جميع الأحوال فإن القرار يعود إلى الرفيق شفطان».

واصل الملازم طرح أسئلته على إلياس عن تفاصيل تتعلق بشخصية فريد ودوّنها بعناية. دخلت امرأة تحمل صينية. قدمت لسلموني كأساً من الشاي ثم توجّهت إلى إلياس. تناول كأساً ووضعه بجانب الضابط، كإشارة

على تواضعه، ثم تناول الكأس الثالث لنفسه. لم يلاحظ الضابط هذه المجاملة.

عندما غادرت المرأة، همس سلموني للضابط وقال: «إن المسألة عاجلة جداً. فالشابّ مريض جداً، وأنا مدين لمسيو مشتاق بالكثير».

«سأذهب في الحال»، قال الضابط ثم أضاف، «لكنك لا تدين لأحد بأيّ شيء يا سيدي، لأنك تغمرنا بهداياك العظيمة بلا مقابل. هذا التواضع هو ما يعجبني فيك كثيراً». نهض وأخذ الأوراق التي دوّن عليها الإجابات، وخرج من الباب بسرعة.

«نسيَ شايه»، قال إلياس.

أشار سلموني بحركة تشير إلى أنهم يُسمَعوا، وأجاب، «نعم، هكذا هو دائماً. الملازم بطرس رجل إنساني حقيقي. فهو يقدم المساعدة عندما يستطيع ذلك».

بعد ساعة عاد الملازم بطرس، مبتسماً. «لقد استمع إليّ الرفيق شفطان. إنه سيطلق سراح فريد بأسرع ما يمكن، واعتباراً من اليوم سيكون تحت حماية الرفيق شفطان مباشرة. إن ذلك سيكلّف مائة»، قال الضابط لسلموني، كما لو كان هو والد فريد. نظر سلموني إلى إلياس. أومأ إلياس. فهم: مائة ألف دولار. فشفطان لا يتعامل إلا بالدولار. لأنه يحتقر لوطنيته الليرة السورية.

«سندفع»، قال سلموني.

«إذاً لنذهب إلى المعلّم. إنه يرغب في مقابلتك شخصياً»، قال الملازم بطرس، ومضى أمامهما صاعداً الدرج المؤدي للطابق الثاني.

كان الطابق الثاني أكثر بهاء وروعة من الطابق الأول. كان المكتب الخارجي مؤثّثاً باللون الأحمر الداكن. رفعت سكرتيرة جميلة عينيها إلى الأعلى بسرعة عن آلتها الكاتبة، ابتسمت للملازم وانحنت ثانية مواصلة عملها.

وقف شابّان يرتديان بدلتين سوداوين في حالة استعداد. كانت

twitter @baghdad_library

الرشاشات تلمع أمام صدريهما. أخذ الرجل الواقف إلى اليمين وضعية الاستراحة مرة أخرى، وفتح باباً خشبياً جميلاً، ثم فتح بقوة باباً ثانياً مصنوعاً من الفولاذ السميك، ثم ضغط إلى الأسفل مقبض باب خشبي آخر في أعماق الجدار السميك. تناهى إليهم صوت موسيقى عربية. رأى إلياس قاعة كبيرة أمامه. كانت تتوسط الغرفة طاولة مكتب ضخمة عليها خمسة أو ستّة هواتف. كانت الجدران مزدانة بالخناجر والسيوف الذهبية المتلألئة. عرضت نافذة كبيرة مشهداً بانورامياً جميلاً لمدينة دمشق. في الخارج، كان قد رُكِّب سلم نجاة فولاذي جديد يصل الغرفة هذه بالحديقة مباشرة.

أجفل إلياس عندما رأى فجأة شفطان العظيم، الذي تقدم بضع خطوات للقائهما بعد أن أطفأ المذياع. كان يرتدي بدلة عسكرية خضراء واسعة عليه لإبراز قوّته ورجولته، لكنّه كان يبدو أشبه برسم كاريكاتيري ثلاثي الأبعاد لقرد. أخذ شفطان يد سلموني بكلتا يديه، كتعبير على حرارة لقائه به. «أردت أن أشكرك شخصياً على الويسكي الإسكتلندي الممتاز. لقد أحضر لي الملازم بطرس الصندوق قبل شهرين. يمكنني أن أقول إنني لم أذق ويسكي مثله منذ زمن بعيد. أخشى أن تكون قد أفسدتني»، قال مبتسماً، ثم التفت إلى إلياس، ووجّه كلامه إليه بصوت هادئ وقال: «يمكنك أن تطمئنن أنه من الآن وصاعداً لن يمس أحد وحيدك. في جميع الأحوال، يجب أن يصدّق أخي عمران على إطلاق سراحه الفعلي، لكن حتى ذلك الحين هو ضيفي وتحت حمايتي».

«سيدي العزيز، نعرف أنك ورئيسنا الحبيب عمران بقلب واحد»، قال سلموني الخبير بإصرار، ليسمع تصريحاً وبياناً ملزماً من شفطان.

«آه، الكلّ يعتبرون نفسي المتواضعة في غاية الأهمية»، ردّ شفطان بأسلوب منافق، «لكن من أجل المواطنين الطيبين بالطبع، فأنا مستعدّ لعمل أي شيء. فريد سلامته على رقبتي. هل هناك شيء آخر يمكنني أن أساعدك فيه؟»

«لقد غمرتني بلطفك»، قال سلموني بأدب جم.

«وأنت»، قال شفطان، متّجهاً إلى بطرس المخلص، «اذهب إلى بدران فوراً وقل له إن فريد مشتاق تحت حمايتي المباشرة حتى يعود قائدنا المفدى من موسكو. يجب ألاّ يلمسه أحد. يجب أن ينقل فوراً إلى المستشفى ويحاط بحماية جيدة لكي لا يفعل له أي ابن قحبة شيئاً حتى يتخذ سيادته قراره. ولا تنسَ أن تأخذ لبدران الكاميرا السينمائية التي جلبتها له من باريس. إني واثق من أنه سيكون سعيداً بها. وقل له إن أمّ الشابّ يسمح لها أن تزوره مرة في الأسبوع». حيّاه الملازم بطرس وغادر الغرفة.

«أخي بدران مهووس بالأفلام. كان من الممكن أن يكون مخرج أفلام رائع لو لم يتطوع في الجيش. لقد أحضرت له آخر طراز من باريس: كاميرا «سوبر لأفلام ثماني ميليمتر». يمكنك أن تصور بها أفلاماً طويلة حقيقية»، قال لسلموني ثم التفت إلى إلياس. «يمكنك أنت وزوجتك أن تطمئنا بأنه لن يحدث أي مكروه لابنكما، لكنّي أتمنّى أنّ يتذكّر هذه الرحمة دائماً»، أنهى كلامه ومدّ يده.

لم يعد بمقدرة إلياس إخفاء شعوره بالارتياح وقال: «حماك الله أنت وأولادك»، بصوت لا يكاد يكون مسموعاً. أخذ شفطان فترة طويلة لتوديع سلموني بحرارة ثم رافقه إلى الباب.

عندما عاد إلياس إلى المكتب في الخارج، أعطته السكرتيرة، مغلفاً وقالت له «العنوان». لم يفهم لكنه أخذ المغلف منها. كان لا يزال مستثاراً بشدة.

«كيف يمكنني أن أشكركم؟» سأل سلموني عندما صعدا إلى السيارة. ضحك سلموني وقال: «لا تهتم. إني أحبّ مساعدة الرجال المحترمين أمثالك. هل تعرف أن والدك كان قد ساعد أبي للخروج من مأزق؟ لكن ذلك كان منذ زمن بعيد. بالنسبة لعائلتنا، فإن جورج مشتاق يعني دائما الأفكار الراقية عن المسيحي الذي يتحلّى بنكران الذات والمحبة، والآن يمكنني أن أفتخر بالقول بأنني ساعدت مشتاق. إني أعتبر السجون أماكن فظيعة. لا يمكن لإنسان مثقف أن يذوي فيها؟»

twitter @baghdad_library

«لكن ستترتب عليك تكاليف. إن شفطان سيطلب المزيد من ذلك الويسكي الإسكتلندي الغالي»، قال إلياس، مستثاراً كثيراً.

«آه، من يهتم بذلك؟» قال سلموني ضاحكاً، «هذا لا شيء. ذات يوم كنّا ندفع ضرائب إلى إدارة الضرائب، أما الآن وبعد أن أصبح الفلاحون يحكموننا فقد أصبحت أدفع أشياء عينية. إن الفلاحين يحبّون ذلك، يبادلون البندورة بالبيض أو الجبنة، وأنا أحصل على ما أريد بأسعار أرخص بكثير». كان صوته يرشح احتقاراً.

«وماذا عن هذا العنوان؟» سأله إلياس دون أن يفتح المغلف.

«أوه، إنه عنوان مكتب ابنه البكر لهفان. لقد أصبح اسمك عنده الآن، ولن يُحذف حتى تسدد المبلغ. إنهم يفعلون كلّ شيء بطريقة دقيقة للغاية وكأنهم ألمان»، قال سلموني وهو يضحك من تفاهة الأمر.

نظر إلياس إلى العنوان. إنها وكالة استيراد وتصدير. قال: «لا بد أنها تقع بالقرب من المصرف المركزي». هز سلموني رأسه وقال: «وتدخل إليه أموال أكثر مما تدخل إلى المصرف نفسه. قد تحتاج إلى الوقوف في رتل حتى يأتي دورك».

عندما ترجّل إلياس من السيارة في حارة الزيتون، شدّ على يد منقذه بقوة وقال: «لكني أحتاج إلى عنوانك أيضاً، لأنك يجب أن تتذوق ابتكاراتي الجديدة من الشوكولاته. هذه الحلويات اللذيذة لا تتناولها إلا من عند إلياس مشتاق».

ضحك سلموني. أعطى إلياس بطاقة تعريف أخرجها من علبة فضّية صغيرة معلقة على لوحة عدادات السيارة. «ستكون زوجتي مسرورة. إنها معجبة بحلوياتك كثيراً»، قال، وانطلقت السيارة مبتعدة.

٢٧٧- برودة جليدية أحدُّ من نصل السكين

أرغى مهدي وأزبد على الهاتف، شاعراً بمهانة شديدة. لكن بدران لم يتزحزح عن موقفه، فلم يعد السجين فريد مشتاق من اختصاص مهدي.

وسواء أكان الأمر خطيراً أم لا، فقد أصبح تحت حماية شفطان، شقيق بدران، الذي لا يعرف ربه. «وستأتي أمّه لزيارته كلّ أسبوع حتى يبتّ الرئيس في الأمر. إذا سمع شفطان منها بأن ابنها يعامل معاملة سيئة، فلن يعود بمقدوري حمايتك، أتفهم؟»

«نعم». قال مهدي بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، كما لو كان قابعاً في قعر حفرة عميقة. لم يَبْدُ ضئيلاً هكذا منذ الأيام التي قضاها في الدير. فقد أصبح هذا السجين اللقيط من عشيرة مشتاق اللعينة أهم مني بالنسبة لبدران! كأنهما لم يكونا صديقين طوال عشر سنوات، ولم يتعرضا معاً للحظات خطيرة كانت ستودي بحياتيهما. شفطان، شفطان! ليذهب بدران وشقيقه المنخور حتى العظم بالرشوة إلى الجحيم. كان مهدي على يقين من أن شفطان قد حصل على مبلغ كبير لقاء ذلك. وكان يحتقره ويخشاه سراً.

فكّر كثيراً في ذلك اليوم، وفهم الآن السبب الذي جعل عدداً من كبار المسؤولين يدمدمون ساخطين. كان أحد كبار الضباط قد ألمح له بأن الجيش ليس مرتاحاً من عشيرة الرئيس عمران، وقال إن عمران سلّم البلد إلى الروس، وأضحى أيّ راعي بقر من قبيلته أهمّ بكثير من أي جنرال وطني دمشقي أو حلبي محنّك. ناقض مهدي ذلك بحذر، لكن عندما قال الجنرال إن هناك عدداً من الوطنيين ممن يودون التعرف عليه لأنهم يحترمون ولاءه وكبرياءه السوري، وتصميمه بإرادة حديدية، وافق على التفكير في الأمر. بعد حديثه المهين مع بدران، مدّ يده إلى الهاتف ثلاث مرات، لكنه كان في كل مرة يعيد السماعة، لأن جميع مكالمات الأشخاص الذين يعملون تحت إمرة بدران يتم التنصت عليها. كان مهدي يعرف عنوان ذلك الضابط، وقرر أن يزوره خلال الأسابيع القليلة القادمة، زيارة غير رسمية.

ركب سيارته الجيب واتجه إلى آثار تدمر. دهش مساعده، الملازم أول سعدي، عندما طلب منه مهدي، وهو يغادر، أن ينقل فريد مشتاق إلى

twitter @baghdad_library

المستشفى. فمنذ اليوم يجب أن يحاط بالرعاية. «إنها أوامر صادرة من الجهات العليا»، أضاف مهدي بكآبة دالاً بسباته إلى السماء، ففهم المساعد أن الرئيس عمران أو أخيه شفطان قد تدخلا بالأمر. انطلق مهدي مسرعاً بسيارته الجيب. عندما عاد في وقت متأخر قال له مساعده إن بدران اتصل به ثلاث مرات وطلب منه بإلحاح أن يتصل به.

«أين كنت؟» بدا صوت بدران بهيجاً على الخطّ كأن شيئاً لم يكن.

«ذهبت إلى آثار تدمر. كنت أتطلع دائماً إلى زيارتها أثناء وقت فراغي»، أجاب مهدي.

«هل أزعجتك بما قلته لك؟»

«لا، لكنّي لا أفهم لماذا علينا الاعتناء بصحة إرهابي له ماض وسجل إجرامي طوله كيلومتر في....» وهنا ضحك مهدي ساخراً، «في فندق من الدرجة الراقية، لإدخال البهجة إلى قلب أمّه فقط».

«نعم، كنت أعرف أن صديقي الطيب مهدي لم يفهم القصّة برمتها. فأنا لا أهتم البتة بهذه القحبة، لكن شفطان ذكي - فهو يعرف لماذا فعل ذلك. ربما كان يريد شيئاً من البطريرك الكاثوليكي. إنهم يقولون إن البطريرك تدخّل من أجل ذلك اللقيط فريد مشتاق. يجب ألا يعرف أحد بذلك، لكني أبوح لك به لأنك صديقي العزيز ولا أريد أن أكذب عليك كما لا أريدك أن تغضب. ساقول لك كل شيء فأنا أثق بمهدي سعيد صديقي وصديقي بئر عميقة - لكنه لا يزال غير راض عني».

ضحك مهدي. قال لنفسه إن بدران شخص ماكر، وهذا ما يجعله قادراً على قيادة جهاز شرير مثل جهاز المخابرات بأذرعته الأخطبوطية.

«هل تعرف ما هي الأخبار التي أقرأها الآن؟» سأل بدران، لكن قبل أن يجيب مهدي، تابع بدران، «يبدو أن البابا قد توصل إلى اتفاق سري مع الشيوعيين الإيطاليين. فلن يعارضهم في إيطاليا بعد الآن ولن يحرم أي شيوعي من الكنيسة كما فعل حتى الآن، وبالمقابل فإن الشيوعيين الإيطاليين

سيمضون معه في سعيه لإنقاذ كنوز الكنيسة الموجودة في الدول الشيوعية، من الصين حتى روسيا. ذهب، وثائق كنسية هامة ونادرة لوحات من القرون الوسطى لا تقدر بثمن... ألم يقل المسيح: «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟»»

«هذا صحيح».

«إذاً إسدِ إليّ معروفاً وعامل ابن القحبة ذاك معاملة جيدة إلى أن يُطلق سراحه، فهذا سيرضي الله عمران، ويجعله يفي بوعده للبطريرك. وبالتالي سيؤدي البطريرك تلك الخدمة السرية التي وعد أخي بها. وهي تأييد كل الطائفة الكاثوليكية لنا... لكنّ أحداً لن يمنعنا من اعتقال رجلنا المحترم اللطيف فريد مرة أخرى، لنقل بعد ثلاثة أشهر بدعوى أنه عاد لنشاطه الهدام وتعتقله ومعه سلاح وقنابل ودولارات أو ما تشتهي إيجاده، أليس كذلك؟»

ذُهل مهدي. كانت البرودة في صوت بدران أحدَّ من نصل السكين. متى سيتعلم هو نفسه كيف يتقن مثل هذه البرودة؟

«ألا تزال معي يا قيصر؟»

«نعم، بالتأكيد. إنك على حقّ. هذا ما سنفعله. لا أريد أن يسيء هذا المجرم مشتاق فهم رقة قلب أخيك والعفو عنه ثم يختفي مرة أخرى ليحاول تخريب البلد».

«لا، فأنت هناك لتمنع حدوث هذا الأمر بالذات ولتتمتع بإعتقاله مرة ثانية»، قال بدران، ضاحكاً.

عندما أغلق مهدي الهاتف، فرح لأن بدران كان مهتماً ليتأكد إن كان راضياً وسعيداً أم لا. هكذا إذن، فهو ليس رجلاً عديم الأهمية. وعلى الرغم من ذلك، فقد قرّر أن يذهب لزيارة ذلك الضابط الذي يكره عشيرة عمران. عندما توصل أخيراً إلى هذا القرار، ابتسم. أحسّ هو أيضاً أن بإمكانه أن يكون بارداً وقاطعاً كالجليد.

twitter @baghdad_library

٢٧٨- الزيارة

انهمرت دموع الفرح من عيني كلير. ضمّها فريد إليه وقبّلها بين عينيها، وهمس في أذنها «يمكنني أن أعتمد عليك على الدوام يا لبوة العائلة». كان جندي يجلس عند الزاوية يراقبهما بدقة.

«كيف أتيتِ إلى هنا؟» سألها بشيء من الدهشة.

«بذل سائقي كلّ ما بوسعه لإحضاري إلى هنا. إنه ينتظر الآن خارج الباب منذ ساعتين»، قالت، وجففت دموعها بمنديلها.

«ماذا - أبي في الخارج؟» سأل فريد مندهشاً.

«نعم، لكن قائد السجن لم يسمح له بزيارتك. لقد سمحوا لي أنا فقط»، قالت.

عندما غادرت كلير السجن في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، كان إلياس واقفاً في الظلّ الذي أتاحه الحيّز الضيّق من الجدار. كانت الشمس لاهبة، ولم تكن تُرى شجرة على مرمى البصر. قبّلته كلير وسارا بسرعة نحو السيارة. لم تقل شيئاً حتى بلغا الطريق الرئيسي.

«إن قائد السجن هو ابن موسى شاهين. موسى الذي أطلق شقيقك حسيب النار عليه عام ١٩٤١. هل تتذكّر الفتى الصغير؟»

متجهّماً، هزّ إلياس رأسه.

«كانت أمّه من منطقة الساحل، وعندما ترمّلت عادت إلى بيت والديها. أصبح يدعى مهدي سعيد بعد أن أسلم».

«أحد أفراد عائلة شاهين الخسيسين»، ردّ إلياس، وبصق باحتقار من نافذة السيارة.

«نعم»، قالت كلير، وأخرجت من جيبها ورقتين مطويتين. كان فريد قد دسّهما بسرعة في جيبها وهو يودعها. كان الجندي عند الباب منهمكاً للحظة، وكان يتذمر لأنه يريد الذهاب لاستراحة الغداء.

كانت الرسالتان لها. في الأولى طلب منها أن تخبر رنا بأنه سيغادر

تدمر قريباً، وأنه يريد أن يكون معها إلى الأبد. وفي الرسالة الثانية، أرادها أن تُعلم متّى بأنّ مهدي سعيد لم يكن سوى ذلك التلميذ في الدير، بولس، وأنه يقيم حالياً في الحيّ المسيحي في دمشق، على الرغم من أنه لم يمكن العثور على معلومات أخرى عنه في السجن.

تساءلت كلير ما الذي تعنيه هذه الرسالة الثانية، لكن متّى ابتسم وقال: «نعم، لم نكن نفترق، وفريد يعرف أن بولس لن يرفض لي أيّ طلب».

«ربما كان فريد يخشى أن يفعل له هذا اللقيط شيئاً آخر يؤذيه قبل الإفراج عنه»، خمّن إلياس. «لكن كيف يمكننا أن نعرف بدقة أين يقيم هذا الرجل؟»

«لا تخش شيئاً، متّى سيفعل ذلك بأنفه الطويل سيشم رائحة بولس على بعد كيلومتر»، قال الصديق المخلص وقهقه ضاحكاً. وخلال ثلاثة أيام، عرف متّى فعلاً أين يقيم مهدي سعيد.

twitter @baghdad_library

كتاب العزلة الثاني

الحبّ هو المرض الوحيد الذي لا يريد ضحاياه علاجاً له

*

مستشفى العصفورية للأمراض العقلية،

ربيع ١٩٦٨ -صيف ١٩٦٩

٢٧٩- في بيت العصافير (العصفورية)

كان الدكتور إدوارد سلام شخصاً ضامراً، نحيلاً، مسناً، ينتظر عند مدخل مستشفى الأمراض العقلية. كان الشيء الوحيد الذي يلمع فيه تلك البقعة الصلعاء في رأسه. وقف في ذلك النهار عند المدخل لاستقبال رنا. أومأ لها إيماءة تدل على مودة خاصّة، و كأنه أراد أن يلاحظ العاملون لديه ذلك.

بدا له أن أمّ رنا وشقيقها في عجلة من أمرهما. فما أن حيّا مدير المستشفى مريضته حتى هرعا مبتعدين. قال الدكتور سلام لنفسه إن رنا جميلة جداً كلوحة، وقد أضفى على شحوب وجهها نظرة ملائكية ذكرته بلوحات الرسام الإيطالي رفائيل.

جمعت صداقة طويلة بين والد رنا، المحامي المشهور باصيل شاهين، والدكتور سلام، فكلاهما كانا أعضاء في نادي الروتاري إلى أن حظرته الحكومة في عام ١٩٦٥. وكثيراً ما حدث المحامي باصيل شاهين صديقه الدكتور سلام وبحماسة شديدة عن رجاحة عقل ابنته، لذلك توقّع أن تكون حالة مريضته حادّة وأن تكون مسترجلة بعض الشيء. فقد كانت جميع النساء

الذكيّات اللاتي صادفهن أثناء دراسته وخلال ممارسته للطبّ النفسي يفتقرن إلى ذلك الجمال الأنثوي. ومن هنا أتت مفاجئته برؤية رنا الجميلة.

«غرفة في جناحي الخاص»، قال بهدوء للممرض الذي صادفه خارج مكتبه، وأضاف «سنحتسي القهوة في مكتبي حتى تجهزوا الغرفة الجميلة، لكي تستريح رنا قليلاً فهي متعبة جداً»، وفتح الباب.

دخلت رنا مكتباً واسعاً تتناثر حوله أصص نباتات عديدة. كان طعم القهوة المنكّهة بالهيل التي أحضرتها رئيسة الممرضين ذات الشعر الأحمر، رائعاً قلما تجده في أيّ مستشفى.

يا للفرق الكبير بين مجيئها إلى هنا قبل عشرة أشهر وهذه المرة، فقد كانت تُعامل آنذاك معاملة الحيوانات! حتى من هذه المرأة ذات الشعر الأحمر. هذه المنافقة!

«هل تريدين أن تقرأي شيئاً؟» سألها الدكتور سلام.

«لا شكراً. أشعر أني منهكة»، أجابت رنا بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

أغمضت عينيها للحظة. أين فريد؟ تساءلت. ترى ماذا يفعلون به؟ أحسّت بيد صغيرة على كتفها. ابتسم الدكتور سلام لها. هل غطّت في النوم؟

«يمكنكِ أن ترتاحي الآن. سنتكلّم قليلاً غداً»، قال لها بلطف.

كانت غرفتها صغيرة، نظيفة، براقة فيها سرير نظيف وطاولة صغيرة وحمام ومرحاض منفصل، ونافذة عليها قضبان حديدية تطلّ على الجنوب. شذب بستاني في حديقة المستشفى أجمة من زهر الدفلى البري.

استلقت على السرير. كان أحدهم قد خدش لوحة تمثل زورق شراعي على الحائط. لا يمكن تبيّن الخدش إلا بزاوية معينة للضوء. كان هناك حرفان يزيّنان الشراع بشكل غير واضح: أ. ل.

انتصبت في جلستها ونظرت إلى يديها المرتعشتين. قرع ممرض الباب. دخل وقدم لها كوب شاي ينبعث منه البخار، وصحناً صغيراً فيه حبتا

twitter @baghdad_library

دواء. كان طعم الشاي كريهاً وطعم الحبّتين مرّاً. نظرت من النافذة. أين هو فريد الآن يا ترى؟ سألت نفسها ثانية، واستلقت. نظرت إلى ساعتها، الساعة التي تضعها في رسغها منذ أن هربت إلى بيروت مع فريد قبل خمس عشرة سنة. كان قد اشتراها لها من أول أجر تقاضاه. عندما كانت تنظر إلى الساعة، كانت تشعر بدغدغة صغيرة لطيفة في أذنها اليمنى. ففي تلك اللحظة، قبّل فريد أذنها بينما كانت تضع الساعة في رسغها.

حطّ عليها ثقل كالرصاص. لعل ذلك ناجم عن الدواء. لم تكن تريد أن تنام، وحاولت أن تنهض قليلاً عن الوسادة، لكنها سمعت طرقة أخرى على الباب فاستيقظت. كانت الممرضة ذات الشعر الأحمر تقف عند المدخل. أشاحت رنا بوجهها نحو النافذة. كان ضوء النهار ساطعاً. منذ متى هي نائمة؟

«الدكتور سلام يريد أن يتحدث إليك»، قالت المرأة بشفتين مزمومتين.

عندما دخَلَتْ إلى مكتبه، توجّه إليها ومدّ لها يده. رائحة ماء الورد سبقته.

«لا أحبّ هذه المرأة. إنها ليست لطيفة»، قالت رنا، لكن يبدو أنه لم يسمعها.

«تفضلي»، قال وأضاف، «قديرة، هل يمكنك أن تحضري لنا ركوة قهوة؟» ما إن غادرت الممرضة الغرفة، حتى قال لرنا: «أريد أن أستمع إلى أيّ شيء تحبين قوله في الوقت الذي تشائين لكي أفهمك جيداً وأتمكن من مساعدتك». قادها إلى الكرسي المريح قبالته. لم يكن عليها أن تستلقي على أريكة كما كانت تفعل مع الطبيب النفساني في العام الماضي.

نظر إليها بعينين صغيرتين ذكيتين، ابتسم. خطان عند زاويتا فمه أبرزا مشاعره الودية.

«تذكرتُ إحدى جاراتنا منذ زمن»، بدأتِ رنا كلامها بتردد وبهدوء، «إنك تذكّرني بها. كان لها وجه لطيف يشبه وجهك، وقوام رهيف أيضاً».

ابتسم الدكتور سلام. «كانت تغني لي الأغنية الوحيدة التي حفظتها وأنا طفلة صغيرة. لم تغنِّ أمّي لي قط. لكن في أحد الأيام، أراد أبي وأمي الخروج مع بعض الأصدقاء للاحتفال بمناسبة ما في أحد المطاعم، وطلبا من جارتنا تلك أن تأتي إلى بيتنا وتعتني بي أنا وجاك. كان جاك في الثالثة من عمره وكنت أنا في الخامسة من عمري آنذاك. غط جاك في النوم على الفور، أما أنا فكنت سعيدة. نظرتُ إلى المرأة العجوز ذات الوجه الحنون، وشعرت بالشوق إليها. ثمّ بدأت تغني. غنّت أغنية أضحكتني، ثم...»، توقّفت رنا وراحت تبكي. أخذ الدكتور سلام ركوة القهوة التي أحضرتها الممرضة وصبّ فنجانين ينبعث منهما البخار. تناولت رنا أحد الفنجانين. شكرته بهدوء، ومسحت دموعها.

«إنك تعرف الأغنية. إنها تقول: *يا لله نام يا لله نام، لادبح لك طير الحمام، يا حمامة لا تخافي، عم أضحك على رنا لتنام*. أليست أغنية جميلة؟»

هزّ الدكتور سلام رأسه، مبتسماً.

«أمسكتُ يد المرأة وحكت لي عن حياتها، ثم قبّلتني وقالت إنها تتمنى لو كنت ابنتها، ثمّ بكت. لم تقل لماذا، بكت فقط. بعد سنوات اكتشفتُ أنها كانت قد فقدت ابنتها التي كانت في مثل عمري. ومنذ اليوم الذي غنّت لي فيه تلك الأغنية، بدأت أزورها وكانت تدللني مثل أميرة. عرفت أمّي مدى تعلقي بجارتنا، وبعد فترة، لم تعد تسمح لي بزيارتها. لم أفهم وقتها سبب منعي أبداً».

لم تعرف كم أمضت من الوقت وهي تتحدث إلى الدكتور سلام. في المساء، قالوا لها إنها تستطيع أن تعود إلى غرفة الاستراحة المشتركة. رافقتها ممرضة شابة. كان يُعرض في التلفزيون مشهد كوميدي، لكن جميع المريضات كن جالسات مستغرقات هناك في عوالمهن الخاصة. كن يصحن، يغنين، يصرخن، يبكين، وكان التلفزيون يصدح بأعلى صوت. لم تكن المريضات يُعِرن المشهد الكوميدي أيّ اهتمام. جلست امرأة مولية

twitter @baghdad_library

ظهرها إلى الشاشة، تلوي وجهها. تلاشت أصوات النساء. لم تترك أي أثر في عقل رنا. كان الهواء ثقيلاً. بدأت تتنفّس بصعوبة. بعد قليل، نهضت وغادرت الغرفة. رافقتها الممرضة.

كان كلبان ينبحان في الظلام في الخارج. رأت وجهها معكوساً في زجاج النافذة، شاحباً وساهماً كما بدا لها. وقفت بجانب النافذة صامتة. في الحديقة المظلمة في الأسفل، لفتت سيجارة متوهّجة نظرها، وللحظة رأت وجه رجل. خلعت ملابسها ووقفت عارية عند النافذة. ربما كان فريد يراها الآن في أحلامه. لم تسمع الباب يُفتح. دخلت الممرضة ذات الشعر الأحمر وهزّت رأسها متظاهرة بالشفقة، ثمّ أعطت رنا حفنة من الأقراص، ووضعت عليها رداء نومها الطويل، وساعدتها في الصعود إلى السرير.

العصفورية، بيت العصافير - هذا هو الاسم الذي يطلق على مستشفى الأمراض العقلية. فجأة تذكّرت أستاذ اللغة الذي قال لها ذات مرة إن كلمات «الجنون» و«الجن» و«الجنة»، لها معان متقاربة. جميعها يشير إلى «الاختفاء».

٢٨٠- التقرير الأول

الدكتور سلام، مدير المستشفى. تقرير استقبال المريضة، يوم الاثنين ١٥ نيسان ١٩٦٨، الساعة الرابعة بعد الظهر.

قبول مريضة للعلاج في المستشفى: أحضرت الأمّ والأخ المريضة منذ ثلاثة أيام، يبدو أنها ترغب في المجيء إلى هنا، بل ربما كانت تشعر بالارتياح. مكثت هنا لمدة ثلاثة أسابيع في الصيف الماضي (كنتُ في باريس آنذاك لحضور مؤتمر الطب النفسي الثامن. زودني نائبي، الدكتور حصّ، بمعلومات مفيدة قليلة).

حسب ما قالته الأمّ، فإنها تثير قلق الأسرة باستمرار منذ طفولتها. «صعبة المراس». لم تكن على ما يرام خلال الشهرين أو الثلاثة الأشهر الماضية، منطوية، لا تكاد تأكل، لا تبدو في حالة طبيعية. تصعد باستمرار

إلى السطح لترشّ الماء على الجيران والمارة. لا معلومات أخرى يمكن استخلاصها من أسرتها لأن العائلة تخشى «خسارة ماء الوجه». وهذا وباء إجتماعي، ناجم عن العقلية القبلية، تعاني منه كل الشعوب العربية كما بينت في دراستي التي قدمتها لأطروحة الدكتوراة.

الحالة النفسية: امرأة شابة، جميلة، ذكية، والدها محام مشهور. لدى دخول المستشفى كانت مدركة لذلك جيداً، تركيزها جيد، تبدو ساهمة، حركتها الجسدية مقيّدة. لغة الجسد محدودة تنم عن يأس، قلق، الكلام رتيب، أحادية المقطع، التفكير بطيء، ومكبوت، مع عدم وجود اضطرابات شكلية في التفكير. تكدر في المزاج، احتمالية الافتقار إلى التحكم العاطفي. الكلام متحفظ، ينحصر في بضعة مواضيع: تشعر بعدم القدرة على الاستمرار، تشعر بأنها عبء على الآخرين، لم تعد تستطيع القيام بواجباتها المنزلية (واجباتها الزوجية أيضاً؟)، يائسة. ينتابها شعور قوي بالذنب.

لديها أيضاً إحساس بالفشل إزاء والديها، لاسيما والدها. علاقتها سيئة بأمّها. تزعم الأم بوجود ميول انتحارية لدى ابنتها، لكن لا شيء يؤكد ذلك. لا توجد أوهام أو معاناة من هلوسات سابقة. فقدان عام بالاهتمام، عدم وجود دوافع قوية، فقدان الإرادة. اضطرابات في النوم، صعوبة في الاستغراق في النوم، أرق. عدم التمكن من النوم العميق في الصباح.

الحالة الجسدية (بانتظار قيام الدكتور بلقاني بفحصها): الحالة العامة جيدة، المريضة مصابة بنقص التغذية. تقول إنها فقدت ٤ كيلوغرامات في الأسابيع الأخيرة.

حالات سابقة للمريضة: لا توجد اضطرابات جدّية.

الوراثة: خال الفتاة يعاني من الاكتئاب. الأمّ تتناول أيضاً مضادات اكتئاب. نشأت المريضة في ظروف مريحة في دمشق، لها أخ أصغر. لا يمكن تعقب مشاكل في النمو. طالبة ممتازة في المدرسة وحاصلة على شهادة الثانوية بدرجات ممتازة (الأب يتباهى بذلك علناً). كانت تزمع الدراسة في الجامعة، لكنها تزوّجت في عام ١٩٦١ من ابن خالها (رامي

twitter @baghdad_library

قدسي، الآن ضابط برتبة عقيد). يبدو أنها كانت تتمتع بتوازن نفسي حتى زواجها. لا توجد إشارة تدل على وجود مراحل اكتئاب أو هلوسات سابقة.

تربية أخلاقية تقليدية، يمكن الافتراض أن الوالد خاصة كان صارماً ولا يجيد أساليب التواصل. خاب أمل الأمّ لأن رنا لم تكن صبياً (مهووسة بالحفاظ على نسب الأسرة). العلاقة بين الأمّ والابنة علاقة سيئة منذ البداية.

كلّ ذلك يتناقض بعض الشيء مع الاستقلالية الفكرية التي أثبتتها إنجازاتها وتطلّعاتها الدراسية. تُنكر وجود خلافات مع والدها، مع أنني لن أفاجأ بوجود خلافات بينهما، يبدو أنها تمتثل للأعراف الاجتماعية، وزوجها يتطابق مع الرغبات المتوقعة من الآباء. ليس لديها أطفال. تخوض بحذر في موضوع زواجها، تردّ بقلق وعدم ارتياح. تصبح مرتابة، متحفظة. ولم تسبق هذا الزواج أية علاقة حب، تشعر بالذنب تجاه زوجها لكنها ترفض الكشف عن السبب. ليس من الواضح إن كان تحفظها يعزى إلى الاكتئاب فقط، أم لأنه يصعب عليها أن تحدثني بذلك لأنني صديق والدها. سيكون للدكتورة بشارة دور هام في علاج المريضة.

التشخيص: تشخيص مبدئي باحتمال وجود اكتئاب خارجي المنشأ، مع وجود عنصر من القلق. لا توجد إشارات تدل على وجود مزاج متقلب.

الإجراءات: قبول المريضة في المستشفى وتخصيص غرفة هادئة لها في جناح الأمراض الخطيرة للنساء. تبدأ بالاستراحة في السرير، وتمارس الرياضة برفقة العاملين في المستشفى فقط. مراقبة أي علامات تشير إلى ميول انتحارية. لا أحد يأتي لزيارتها في البداية. يبدو أن المريضة تريد الابتعاد عن أسرتها وخاصة عن زوجها، وهي تشعر هنا بالأمان.

الدواء: البدء بدواء إيمبيرامين وتناول جرعة منخفضة من الليفوميبرومازين والكلورال لمساعدتها على النوم. وإذا لم يكن تأثيرها كافياً، فربما تعطى كلوربيرومازين.

نظراً للعوامل العُصابية المفترضة، ستجري الدكتورة بشارة معها أحاديث منتظمة في الجناح. ستزورني المريضة في مكتبي مرة في الأسبوع.

٢٨١- في جزيرة نائية

كان فريد يضحك لها كما لو كان وجهه الجميل طبقاً شهياً للأكل، وجدت لعابها يسيل. عندما استيقظت، كانت السماء تتسلل عبر نافذتها، والصباح ولد لتوه، وكانت الحديقة لا تزال غارقة في الظلّ، والديك يصيح من مكان قصي. شعرت بأنها قوية وفتحت النافذة. كان الهواء يعبق برائحة الياسمين وزهر البرتقال. أمسكت القضبان وتنفّست بعمق بارتياح. كانت حرّة. بدأت تستعيد عافيتها يوماً بعد يوم لوجودها هنا.

في الأيام القليلة الماضية، اعتراها شعور غريب بالطمأنينة العميقة. طافت الأسئلة على السطح، الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عنها والتي جعلتها في مزاج كئيب. لماذا كانوا يفضّلون جاك عليها على الدوام؟ فقد كان يُسمح له بالخروج إلى الشارع في أي وقت يشاء، يزور أصدقاءه ويرتاد السينما. أما هي، فكلما كانت تريد الخروج من البيت كانوا يدققون عليها كثيراً. وعندما كانت ترتكب نفس الأخطاء التي يرتكبها جاك، كان عقابها على الدوام أشدّ بكثير من عقوبة شقيقها، بذريعة أن الأخطاء التي ترتكبها الفتيات تضرّ بهن وبسمعتهن أكثر مما تلحق ضرراً بالصبية. وكانوا جميعاً يبدون في غاية الجدية. أما هي فكانت تحبّ أن تضحك على الدوام، وفي طفولتها كانت تحبّ كلّ من يبتسم لها.

أحبّت السكون والسلام في هذه المصحة، لذلك رفضت أن ترى أيّ فرد من أفراد أسرتها ورجت الدكتور سلام ألا يسمح لهم بزيارتها. فهم الرجل الخبير ذلك، وسايرها في رغباتها من دون أن يبدي أيّ أعذار أو اعتراضات. حتى أنه تكلّم بحدة مع أمّها عندما أزعجته بإصرارها، وطلب منها أن تعود إلى البيت وإلا أخبر زوجها، صديقه، أنها تعيق معالجة ابنتها. لم يقل الدكتور سلام شيئاً عن تلك المشاجرة الصغيرة التي جرت في مكتبه. سمعت عنها رنا من عدنان، الممرض اللطيف ذو العين الزجاجية. عندما غادرت أمّها، أخبر الدكتور سلام عدنان بأن الأمّ هي التي يجب وضعها في الجناح المغلق لمدّة سنتين.

twitter @baghdad_library

كان عدنان شخصاً كثير المزاح، وكان يخرج عينه الزجاجية ويخبئها في فمه وراء شفتيه المغلقتين، ثم يضع نظارات شمسية. وعندما يلتقي بأحد يضحك، وتنبق عينه الزجاجية من فمه.

لم ترغب رنا في أن يعرف أحد أنها بدأت تشعر بالتحسن هنا بعد مضي بضعة أيام فقط. حتى الدكتور سلام، مدير المصحة. لم يصعب عليها أن تبدو أمامه أنها على غير ما يرام. فما كان عليها إلاّ أن تتذكر اليوم الذي اغتصبها فيه ابن خالها في غرفة الجلوس في بيت أهلها.

شعرت براحة كبيرة في هذا المستشفى. فهنا فقط لم تشعر بحاجة إلى الإنفصام إلى شخصين كما أجبرتها الظروف مع أهلها ومع زوجها. فلسنوات عديدة كان باستطاعتها أن تتحمّل الحياة مع رامي بمجرد أن ترخي لنفسها العنان عندما يلمسها. ظل جسدها أسيراً عنده، تحرر عقلها من سجن جسدها ووقف جانباً يراقب ما يحدث، وصارت تجوب معه أرجاء البيت، وغالباً خارجه أيضاً، حتى لا تعود تسمعه ينخر عندما تأتيه رعشة الجماع. كان رامي يجأر ويشخر في الوقت نفسه مثل ثور. بينما كان فريد يصدر أصواتاً مثل جرو صغير ينبح عندما يبلغ ذروته.

تذكّرت أحد فصول الشتاء الشديد البرودة. كانت مستلقية في السرير بعد أن ارتفعت درجة حرارتها كثيراً. بردٌ تلاه زكام أعقبته إنفلونزا جعلتها في حالة ضعف شديد، لكن زوجها لم يأخذ إجازة من عمله ليعتني بها ولا ليوم واحد. فقد دأب على القول إن الرئيس عمران يثق به، وهو لا يريد أن يخيّب أمل الرئيس لمجرد أنها أصيبت بوعكة خفيفة. انفجرت في وجهه وشتمته هو والرئيس، وقالت إن الرئيس جعله عبداً له. شحب وجهه ودخل إلى المطبخ. بعد ساعة عاد إليها بعد أن ثمل كثيراً، وصاح فيها وأمرها بأن لا تتفوه بأشياء كهذه عن الرئيس مرة أخرى، ثمّ ضربها عندما استلقت على السرير. خافت أن يقتلها. أخيراً تركها واختفى لمدّة أسبوع. في نهاية تلك الفترة، عاد مبتسماً كأنّ شيئاً لم يحدث وناداها «حمامتي الصغيرة» مرة أخرى، لأنه كان يرغب في مجامعتها.

٢٨٢- حنة بشارة

عندما دخلت الدكتورة بشارة غرفة الاستشارة في صباح يوم الاثنين بعد أن أمضت إجازة لمدة أسبوعين، كان الممرضون والممرضات يتناقشون في شأن المرضى الجدد: كانت إحدى الحالات مريضة مصابة باكتئاب عاطفي نتيجة انقطاع الطمث، طُلِّقت مؤخراً، وهي في الثانية والخمسين من عمرها، وتسرف في استخدام العقاقير ولديها ميول انتحارية. أما المريضة الثانية، فكانت حالة انتكاس حادّ لفصام مزمن وتنتابها أوهام، ولم تستجب المريضة للعلاج.

لم يُطلب من حنة بشارة معالجة أيّ من هاتين المريضتين الجديدتين في ذلك الصباح. ولم تعرض هي أن تفعل ذلك. بل كانت تفكّر بمريضتها السابقة القابعة في جناح النساء المغلق التي قفزت من النافذة قبل يومين وكسرت إحدى ساقيها وثلاث أضلاع.

بعد مناقشة قصيرة، غادر زملاؤها الغرفة. أشار الدكتور سلام إلى حنة بشارة بأن تتبعه إلى مكتبه.

«شابّة، في أواخر العشرينات من عمرها، متزوّجة، ليس لديها أطفال، تعاني من اكتئاب مزمن وفقدان حاد للشهية، على حافة القهم العصبي العصابي، وزنها ثلاثة وأربعون كيلو غراماً وطولها متر وستّون سنتمتراً، تعاني من القلق بشدة»، أوضح الدكتور سلام، وهو يلقي نظرات على الأوراق أمامه. كان يبدو سعيداً لقدوم هذه المريضة بالذات. طفت ابتسامة صغيرة على وجهه. «رنا شاهين مريضتي. يجب أن تحيطيها بعناية خاصة. أبوها - محام ممتاز - صديق لي، وزوجها ضابط كبير في الجيش. هل يمكنك أن تدرسي حالة الشابّة جيداً؟ وتعلميني عن أسلوب معالجتك لها بين الحين والآخر»، قال بنبرة لطيفة جداً، وهو يستعد للقيام بجولاته اليومية.

كانت الدكتورة بشارة تعرف أن نقطة ضعف إدوارد سلام هي المريضات الشابّات اللاتي يعالجهن بطريقة أبوية. فقد تمنّى دوماً أن تكون لديه ابنة، لكن زوجته أنجبت له أربعة أبناء، ولم يكن على وفاق مع أيّ

twitter @baghdad_library

منهم. لكن لم يكن ذلك السبب هو الوحيد لمعاملة رنا التفضيلية. فقد كان مدير المصحة بحاجة إليها وإلى مريضات أخريات مصابات باضطرابات نفسية طفيفة نسبياً من أجل تحسين سمعة مصحّته النفسية وإنقاذها من سمعة «مستشفيات الأمراض العقلية»، لا بل على أفواه عامة الناس كان يطلق على المصحّ عبارة أقسى «مستشفى المجانين» التي تحطّ من قدر المرضى - وهو ليس بالأمر السهل بسبب حالة معظم المرضى الذين لم يعد أحد يسأل عنهم، وكثيراً ما ردد الدكتور ادوارد سلام أن المستشفى يقع في ذاكرة الناس في جزيرة نائية من جزر المحيط الهادئ.

كما رأت حنة بشارة، الاختصاصية في الجهاز العصبي، في ذلك أيضاً فرصة جيدة لنفسها في مساعيها لتصبح في المستقبل مديرة المصحة. فقد أمضت سنوات من التدريب في مجال التحليل النفسي والعلاج بالتحليل النفسي، وقد جعلها الدكتور سلام مستشارة مقربة له، وأصبح يفضّلها على خمسة أطباء أقدم منها. لم تكن لتتاح لها فرصة مماثلة خارج هذه المصحة، لعدم وجود عيادة نفسية خاصّة واحدة في دمشق كلّها.

٢٨٣- الأمّ

عندما دخلت حنة بشارة الغرفة رأت شابّة شديدة الاضطراب: كانت ستائر النافذة مسدلة، تاركة فجوة صغيرة بينها. جلست رنا في زاوية الغرفة نصف المعتمة. عندما دخلت الطبيبة، اعترى رنا شيء من الخوف، لكنها حاولت أن تتمالك نفسها وانتصبت في جلستها على الكرسي بجانب الطاولة الصغيرة. وفي الوقت نفسه أشاحت بوجهها عنها ولم تنبس بكلمة، لذلك لم يحصل بينهما اتصال مباشر بالعينين، ولم يَدُرْ بينهما أي حديث. بدا أن الدكتورة بشارة فوجئت عندما رأت تلك البنية الرهيفة الهشّة، وأحسّت بخوف هذه المرأة الشديد من جميع الدخلاء، فجلست على مسافة معقولة منها. بعد قليل خرجت عن صمتها وقالت بلطف إنها تريد أن تتعرّف على رنا حتى تتمكن من تشكيل صورة عن حياتها والفترة التي سبقت دخولها إلى المصحة،

لتتمكن من فهم الأسباب الداخلية لمعاناتها. نهضت رنا كأنها تشعر بأن أحداً يضغط عليها، فاتخذت سريرها ملاذاً لها، وجلست وتدثرت ببطانية لتحمي نفسها من أن تطرح عليها أسئلة أخرى. قالت الطبيبة بهدوء إنها تحترم تحفظ رنا، ثم نهضت وأضافت وهي تغادر الغرفة بأنها ستعود لرؤيتها بعد الظهر.

لكن الحظ لم يحالفها في عصر ذلك اليوم أيضاً. أحاطت رنا نفسها بجدران صمتها، قالت حنة بشارة لنفسها في المساء إني لم أحرز أي نجاح يذكر، وأحست بالإحباط والحيرة. شابّة جميلة من الطبقة الاجتماعية الراقية، بدون أية مشاكل وهموم - والآن يحدث معها ذلك. ما السبب يا ترى؟ في الممر التقت بزميلها هشام.

«كيف حالِك؟» حيّاها، كالمعتاد.

«من الأسهل أن تفتح محارة بيديك العاريتين»، قالت، مقتبسة قوله المأثور عن المرضى الصامتين. ابتسم، ثم أضاف، «كما أقول دائماً. لقد عُدتُ بدوري من حالة مماثلة. ساعتان من الزمن، وقد نما الشعر على لساني».

توجهت حنة بشارة إلى مكتب الجناح لتلقي نظرة على إضبارة رنا وعلى الملاحظات المتعلقة بحالتها، وتقرأ التقرير الطبي الذي كتبه المدير لدى دخولها المصحة. لكنّها لم تجد فائدة كبيرة فيها كذلك في الأيام القليلة التالية. أحسّت الدكتورة بشارة بأن عدم ثقة رنا بها دليل على فشلها شخصياً، خاصة لأن الشابّة كانت تستجيب بإيجابية كبيرة لمدير المستشفى، بطريقة تكاد تكون سرّية. بدأ الشك يساور حنة بشارة بأنه على المستوى الأعمق، فإن لعدم ثقة رنا بها علاقة بأمّها.

تأكّدت لها هذه الفكرة تماماً في جلستهما التالية. فقد تطرّقت الطبيبة بحذر شديد إلى موضوع طفولة رنا وعلاقتها بأمّها. في البداية، راحت الشابّة تهزّ رأسها فقط وتلوي فمها بسخرية، لكن بعد ذلك، وبعد فترة صمت، راحت تتكلم. وبعد ساعة من الحديث، وجدت رنا شيئاً من الراحة عندما انفجرت في نوبة من البكاء.

twitter @baghdad_library

«أظن أن أمّك تألمت كثيراً لأن طفلها الأول كان «مجرد» فتاة فلم تغفر لك قط، لذلك أخذت تفرغ مشاعر الإحباط لديها فيك»، قالت حنة بشارة.

رفعت رنا عينيها إلى الأعلى. أحست أن الطبيبة لم تكن تنقل كلامها من الكتب الطبية، بل من تجربتها الخاصة، فابتسمت لها.

عندما جاءت حنة بشارة في عصر اليوم التالي، بدا كلّ شيء كما كان في لقائهما الأول - باستثناء نظرة مريضتها الخجولة، المتسائلة، كما لو كانت الشابّة تنتظرها.

تذكّرت حنة بشارة أن رنا كانت قد أخبرتها عرضاً كيف أنها تذكّرت أن أمّها لم تكن تسمح لها بالحصول على أيّ شيء ترغب فيه. سألتها هل هناك شيء تريد أن تحصل عليه رنا الآن. بعد فترة صمت قصيرة، جاء الجواب بصوت ناعم لكنه شديد الوضوح، «هل يستطيع أحد أن يخبر دنيا أنني أريد أن أراها؟» عرفت الدكتورة بشارة أنّ دنيا صديقة مخلصة تعرفها رنا منذ طفولتها.

وعدتها الطبيبة بأن تحاول ذلك. «لكن ربما علينا أن نناقش موضوع الأدوية التي يجب أن تتناوليها أولاً، وأن نضع معاً خطة لكي تتحسن شهيتك على الأكل»، قالت، ودُهشت عندما وافقتها رنا بصوت منخفض، لكنه مسموع.

لسوء الحظ كان الدكتور سلام المحنك محقّاً عندما قال إنه يشكّ في أن تلبي صديقة رنا أمنيتها. لكن الدكتورة بشارة كانت أكثر تفاؤلاً، بيد أن مكالمتها مع دنيا أحبطتها. فقد رفضت دنيا زيارتها في مصحّة نفسية. وبدا أنها، شأن الكثير من العرب، تخاف أن تفعل ذلك لأنها تخاف على نفسها من مستشفى الأمراض النفسية، مع أنها لم تقل ذلك صراحة. لكنها كانت لا تزال مستعدّة للتحدث مع صديقتها على الهاتف.

ابتسمت رنا بهدوء عندما قالت الطبيبة إنها تأسف لإخبارها بأن دنيا لا تستطيع زيارتها، فدمدمت قائلة «كان يجب أن أعرف ذلك، لكنني كنت غبية».

٢٨٤- الأشياء المحبوبة

«هل تحبين الخروج إلى الحديقة؟» سألتها. رفعت رنا بصرها، وفوجئت عندما اكتشفت أن الطبيبة تقرأ أفكارها. بعد فترة قليلة، كانت تتمشى في الحديقة مع الدكتورة بشارة، وتتبادل باستحياء التحيات مع المريضات الأخريات.

لا، من المؤكد أنها ليست فتاة موهوبة جداً، قالت رنا لنفسها، قبل أن تجيب بعناية وبصوت مسموع على السؤال الذي سألته الطبيبة. فقد كانت طالبة مجدة في المدرسة وكانت تغلق كل ثغرات معرفتها بالعمل وليس بالموهبة. ونجحت في جميع امتحاناتها من دون صعوبة تذكر.

هل كانت محبوبة، سألتها الدكتورة بشارة؟ لا، أجابت. لم تضغط الطبيبة عليها أكثر. كان ذلك لطفاً منها لكن ردها الفوري، كما لو كانت كلمة «لا» هي الجواب المتوقّع فقط، أفزعت المرأتين كلتيهما.

لاذت رنا بالصمت. أحست الطبيبة كأنها تقف في غابة مظلمة، وأن عليها أن تبذل جهداً كبيراً لكي تتلمّس طريقها للخروج منها. كانت أسئلتها أشبه بأصابع تتلمّس طريقها. أجابت رنا بسرعة تخللتها فترات صمت طويلة كانت تبدو خلالها كما لو كانت نسيت تماماً الطبيبة ونسيت نفسها.

جاءت لحظة تحوّل فيها حديثهما إلى الأمّهات. تذكّرت رنا لحظات في طفولتها عندما أحست بشيء من المودّة تجاه أمها.

«هل كانت أمّك تقبّلك كثيراً؟»

«تقبّلني؟» ضحكت رنا ضحكة حقيقية لأول مرة، وأضافت، «إن فم أمّي لم يُخلق للتقبيل. فهي لم تفعل ذلك قط؟» صمتت مرة أخرى وتجاهلت كلّ الأسئلة الأخرى. أحسّت الطبيبة بحزن عميق يقبع وراء انكفائها.

قال لها الممرض عدنان إن حنة بشارة هي اليد اليمنى للدكتور سلام. وهي من أسرة مسيحية غنية، وهي أول طبيبة تعمل في هذه المصحة النفسية. وقال إنه يحبّها كثيراً. أمّا قديرة، رئيسة الممرضات، فلم تكن

twitter @baghdad_library

تحبّها وكانت بحكم خبرتها تضع أكبر قدر ممكن من العراقيل في وجه الطبيبة، وهذا سبب آخر جعل رنا تحبّ حنة بشارة، لأنها لم تكن تحب قديرة وأسلوبها البارد في المعاملة.

لم تكن قديرة طويلة القامة، لكنها كانت قوية، ذات قسمات ذكورية وشعر أحمر ناري. وكانت تنتعل حذاء ثبتت عند طرفيه قطعة حديدية في شكل هلال، وعندما كانت تمشي في الممر بخطوات منتظمة كان ينبعث صوت كأنها جندي يسير في عرض عسكري. كانت قليلة الكلام، وكانت عيناها مثل نافذتين لا تغطيهما ستائر، ينظر المرء خلالهما إلى داخلها، مباشرة إلى هاوية.

تردد صدى كلام كثير عن رئيسة الممرضات بين جدران المستشفى. فقد أشيع أنها تزوجت المستشفى، وأنها مجنونة أيضاً. وأخبرت إحدى المريضات رنا ذات مرة أنها رأت قديرة تبول واقفة، وقالت إنها رجل من أسفل الخصر، وأنثى من الخصر حتى الأعلى.

٢٨٥- نزهة

أرادت الطبيبة أن تعرف إن كانت رنا تخاف من مرافقة الفتيان بشكل خاص. بتردد، قالت لا، ثم لاذت بالصمت لفترة طويلة. بعد التفكير في الأمر أدركت أن جوابها لم يكن صحيحاً تماماً. في تلك اللحظة تذكّرت ما جرى لها في صيف ١٩٥٤، عندما كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كان والداها قد قررا الذهاب في نزهة (سيران) إلى النهر في أحد أيام الأحد في شهر تموز. في البداية بدت لها فكرة بهيجة، لكنها سرعان ما اكتشفت أن والداها سمحا لجاك أن يدعو صديقين له، وهما الولدان التوأمان لوزير الداخلية. عرفت رنا أن أمّها كانت تحاول التزلّف لأسرة الوزير بدعوة هذين الصبيين، أو ربما كانت تريد أن تحدّث صديقاتها أثناء لقائهن على قهوة الصباح بأن ابنها صديق لابني الوزير وأنهما رافقا الأسرة في النزهة. كانت رنا تفضّل البقاء في المنزل لتتمكن من التحدث مع فريد بالهاتف، أو

الذهاب إلى السينما مع دنيا، لكن والديها لم يوافقا على بقائها. فقد كان والدها متحمساً لهذه النزهة إلى ضفة النهر الجميل الذي يصبّ ماؤه في البحيرة. «ماء رقراق كالبلور، وهو يروق لسمكة صغيرة مثلك». كان يعرف أن رنا تحبّ السباحة.

لكن شيئاً حدث في تلك النزهة انطبع في ذاكرتها. كان الأخوان لطيفين لكنّهما ظلا يرمقان رنا بنظرات غريبة. كان اليوم حاراً. دعاها والدها للسباحة مع آخرين، وسرعان ما تركتهم وراءها في الماء. كانت البحيرة عميقة. كان والدها محقاً عندما قال إن الماء منعش ورقراق كالبلور. كانت أمّها لا تزال ترتب أغراض النزهة في الظلّ تحت شجرة بلوط سامقة.

عندما تعب والدها من السباحة خرج من الماء وطلب من الأولاد الانتباه إلى رنا. ضحك الفتيان الثلاثة. بعد قليل راحوا يلعبون لعبة الغوص تحت الماء. انقسموا إلى مجموعتين، رنا وجاك ضد الأخوين، لكن بعد خمس دقائق بدأ الفتيان الثلاثة يطاردونها. فوجئت، وغضبت من شقيقها الذي انتقل للفريق الآخر ساخراً منها، وحاولت الإفلات منهم. لكن جاك أمسكها بإحكام بيد، وأحد الأخوين بيد. فجأة أحسّت بأصابع الصبي الثالث تجوس تحت ثوب سباحتها، وهو يبتسم لها ابتسامة عريضة. رأت رنا في وجهه أنه كان يعرف ما يفعله. راح يعصر حلمتيها بجرأة. لم تتمكن رنا من الدفاع عن نفسها. التفتت إلى شقيقها متوسلة، وصاحت «اتركوني». لكن جاك تظاهر بعدم سماعها. بدأت يد الصبي تنزلق إلى بطنها ثم إلى حوضها. «لا» صاحت رنا، وأخذت تركل شقيقها والصبي الآخر حتى تمكنت من الإفلات منهما. غاصت إلى الأسفل وسبحت بين الأعشاب المائية في عمق البحيرة. ابتلعت قليلاً من الماء ثم تمكنت من الصعود إلى سطح الماء مرة أخرى وابتعدت عن الفتيان الثلاثة وهي تسعل وتبكي.

واصل الصبية لعبهم. كانوا يضحكون. أما رنا فقد سبحت بعيداً عنهم. عندما خرجت من الماء أخيراً، كانوا جالسين حول النار التي أوقدوها للنزهة، وهم يضحكون. لم يعر أيّ منهم أي انتباه لرنا.

twitter @baghdad_library

حدث ذلك منذ أكثر من أربع عشرة سنة، لكن بغتة، بدا لها كأنه حدث البارحة. أحست بحنجرتها تضيق. ودّعت الطبيبة التي تحمّلت صمتها بصبر.

٢٨٦- الطيور الزاهية الألوان

من بين جميع المرضى في المستشفى، كان سامي أكثرهم غرابة. لا ينفك يرفع يديه مستسلماً ويدلي باسمه وعمله لمفتش خفي، ثمّ يُطمئن محدثه غير المرئي بأنه بريء، وبأنه ليس طيراً. لكنه كان يغدو شخصاً آخر تماماً عندما يظهر أمامه شخص يرتدي معطفاً أبيض، حتى لو كان البواب، فيبدأ التكلّم بعقلانية حتى يخيّل لمحدثه أنه إنسان عاقل تماماً. كان أسلوبه «العقلاني» أحياناً يفتن الغرباء ويخدعهم فيظنونه أحد العاملين في المصحة إلى أن يبدأ يحدّثهم عن التجارب التي تجرى هنا سراً لتحويل البشر إلى طيور وأسماك. قال لرنا سرّاً إن الدكتور سلام يعطيه حبوباً ليصبح قادراً على الطيران مثل الطيور، وأنه يفعل ذلك لحساب القوات الجوية. لكنّ سامي كان يتظاهر بأنه يتناول الحبوب. لكن عندما يدير الطبيب ظهره، يرمي الحبة. ثم تابع قائلاً: «وفي أحد الأيام، أصابت الحبة دودة، وماذا تعتقدين أنه حدث؟ نبتت لها أجنحة وطارت بعيداً».

وجدت رنا أن من العبث رسم خطّ بين أن يكون المرء مجنوناً فعلاً وبين أن يتصرّف بجنون كما هو حال المرضى الآخرين بالإضافة إلى سامي، وأحياناً هي نفسها. إنه تصرّف متوازن. فعلى الأقل، قالت مؤكدة لنفسها، إن ذلك الجزء في دماغها الذي يقبع فيه فريد لا يزال سليماً، وهو يشكل الجزء الأكبر منه. عندما كانت تستيقظ كلّ صباح كانت تتفحص نفسها لتتأكد من أنها لا تزال تتذكّر كلّ تفصيل من تفاصيل أحد لقاءاتها مع فريد، فتشعر بالتحسّن والهدوء عندما تجد أنها نجحت في ذلك.

على نحو ما شعرت بأنّ عالم هذا المستشفى أصدق من عالم العقلاء في الخارج. تذكرت رنا نساء حارتها اللاتي تخلّين عن كل رغباتهن

وشخصياتهن الخاصة بدافع الخوف، وكنّ لا يفعلن إلا ما يتوقعه الآخرون منهن.

«أفضّل أن أكون مع هذه الطيور الزاهية الألوان هنا»، همست، وابتسمت للبستاني الذي كان يؤدي رقصة صغيرة مع رفشه.

٢٨٧- التقرير الثاني

الدكتور سلام، مدير المستشفى، ٣ تموز ١٩٦٨، *الساعة الخامسة*.

المريضة تستجيب للمعالجة إلى حدّ ما وتبدي مزيداً من القوة وأصبحت تفكّر وتتكلّم بقدر أقل من الكبت. لكن مزاجها لا يزال في حالة قنوط شديد. لا يزال يعتريها شعور بالذنب والفشل، لا فكرة لديها عن آفاق المستقبل. من الواضح أنه لا توجد فرصة كبيرة لكي تغيّر هذه المشاعر، لكن الميول الانتحارية لا تزال قائمة. يبدو أن حالتها أصبحت مستقرة، وهي تساعد العاملين في المستشفى عندما تستطيع، وتراعي شعور المريضات الأخريات الضعيفات. حسب أقوال العاملين، نشأت صداقة بين المريضة وبين الممرض، عدنان. وحسب ما قالته الممرضة زهيدة، صارت المريضة تنام الآن طوال الليل دون تناول الكلورال.

يمكن زيادة جرعة الأميبرامين. في الوقت الراهن، تبقى على الليفوميبرومازين بنفس الجرعة. يسمح لها بالتنزه وحدها الآن، لساعة واحدة فقط كبداية.

الدكتورة بشارة راضية عن النتائج التي تحققت. بعد شهرين من أول لقاء بينهما ضحكت المريضة لأول مرة، ومنذ بضعة أيام بدأت ترسم (بالألوان المائية). في الأيام الصيفية الدافئة، تمضي وقتاً أطول خارج غرفتها. المريضة لا تبدو متحمسة كثيراً لزيارة أسرتها لها. تحافظ على مسافة بينها وبين زوجها بشكل خاص. ممرضة الجناح تقول إنّه زارها مرّتين فقط. يبدو أن أحاديثها مع الدكتورة بشارة تعني لها الكثير. تقول لي إنهما

twitter @baghdad_library

تتحدثان في معظم الأحيان عن طفولتها. علمت الدكتورة بشارة أن أمّ المريضة تعاني من مراحل اكتئاب حادّ أيضاً.

٢٨٨- الانفتاح

كان الطبّ النفسي اختصاصه. وتمتع الدكتور سلام كما لم يتمتع أي مدير مصحة للطب النفسي في الجمهورية بمثل هذه السمعة العالية، لكن داخل جدران مصحته الخاصة فقط. كانت لدى حنة بشارة حريّة مطلقة في المصحة. بدأت تبث موسيقى كلاسيكية هادئة لباخ أو موزارت في جميع الأجنحة.

كانت حنة بشارة ترد بشكل مباشر وصريح عندما تسألها رنا أي سؤال، بينما يحاول الدكتور سلام صياغة أجوبته بعناية شديدة، الأمر الذي يجعل رنا غير واثقة إن كان يقصد نعم أم لا.

«لماذا يحمل صدغ العديد من المرضى هنا علامات حروق؟» سألتها رنا. حكت لها حنة بشارة عن الصدمات الكهربائية التي يحتاج إليها هؤلاء المرضى لعلاجهم.

كانت الدكتورة بشارة امرأة سعيدة، لكنها لم تأتِ على ذكر حياتها الخاصة كثيراً. لكن عندما طلبت منها رنا أن ترى صوراً لزوجها وأطفالها، جلبت لها عدداً منها في اليوم التالي. تحدّثتا عن ليلة الزفاف، وسألتها الطبيبة إن كانت رنا قد أعدّت نفسها لتلك المرّة الأولى مع زوجها. لم تشأ أن تخبر الطبيبة بأنه اغتصبها، لكنها اكتفت بالقول «لا»، وأضافت، «إن أمّي لا تقدر على التحدّث عن الحبّ أو الجنس». هزّت الطبيبة رأسها، ودوّنت ذلك في دفتر ملاحظاتها الصغير.

عندما غادرت حنة بشارة عصر ذلك اليوم، نظرت رنا إليها وهي تغادر وأحست أنه ليس من العدل أن تترك هذه المرأة في الظلام. المرأة التي تساعدها والتي لم تلحّ عليها في أسئلتها، وتتركها، هي رنا، تتخبط في التفكير عن سبب حزنها. بعد قليل نهضت وجرت وراءها، لكن الطبيبة

كانت قد غادرت الجناح. حاولت الممرضة المناوبة الاتصال بها بالهاتف. لقد حالفها الحظ فوجدتها.

«هناك شيء مهم أريد أن أخبرك إياه. متى يسمح لك وقتك بذلك؟»

«في أي وقت تشائين»، أجابت الطبيبة. أحسّت بأن البوابة الموصدة في وجهها منذ فترة طويلة قد فُتحت، على الأقل شقّ منها، وهرعت عائدة إلى الجناح.

عندها حكت لها رنا قصتها مع فريد، وأنصتت حنة بشارة لمدة أربع ساعات كاملة. لم تُبْدِ ولم تكتب أي ملاحظة، لكن كلّ كلمة قالتها رنا انطبعت في رأسها، ولولا حرفتها وممارستها كطبيبة نفسانية لهبت من مكانها وحملت رنا، هذه البطلة الشجاعة على كتفيها.

٢٨٩- طبيبان ومريضة واحدة

في كانون الأول ١٩٦٨، هطلت أمطار أكثر مما هطلت في أرجاء البلد طوال السنة. وأخذت الرياح العاتية تدفع قطرات المطر الثقيلة قارعة بها زجاج النافذة. كان الدكتور سلام يراقب مريضاً يرقص في الحديقة، لكن ممرضين اثنين أعاداه إلى الداخل.

«تابعي. إني مصغٍ إليك»، شجع الدكتورة بشارة التي توقّفت قليلاً عن قراءة تقريرها على مواصلة قراءتها.

«بعد بداية صعبة، بدأت منذ فترة مرحلة إيجابية في نفس المريضة وقد نشأت الآن قاعدة للثقة بيننا، فقد بدأت رنا تعترف لي بصراحة بحزنها على حبّها المحرّم لفريد ومخاوفها وحيرتها منذ أن ألقي القبض عليه، وشكها في قدرتها على مواصلة حياتها دون أن تقع فريسة لليأس. وأصبحت تشعر كذلك بأنها قادرة على مواجهة خلافاتها مع أسرتها، لاسيما أمّها التي لم توفر لها الحماية أو الدفء العاطفي. وتمكّنت أيضاً من التغلب على ميولها بعدم تناول الطعام، فبدأ وزنها يزداد ببطء لكن باستمرار، وبدأ جسدها يزداد

twitter @baghdad_library

قوة. لذلك بدأنا نقترب من مرحلة الاستقرار التي تجعلها ملائمة لتهيئتها للخروج من المصحة قريباً».

«ولكن القرار بالعودة إلى زوجها يجب أن يعود إليها شخصياً»، قاطعها الدكتور سلام، واستدار ببطء نحو طاولة مكتبه. قدمت له الدكتورة بشارة إضبارة وملف ملاحظاتها عن رنا، وسؤال يلوح في عينيها. هزّ مدير المصحة رأسه وقال: «يجب أن تبقى هنا فترة أطول. لا يزال الوقت مبكراً جداً».

لماذا، تساءلت حنة بشارة في ذلك المساء وهي في طريقها إلى البيت، لماذا يريد أن يؤجل عودة رنا إلى بيتها؟ هل يشكّ في أنها لا تريد أن تعود إلى زوجها؟ لكن ماهي الفرص المتاحة لها فيما لو تركته الآن - امرأة وحيدة، من دون مهنة هنا في دمشق؟ أم أن سبب ذلك هو إبقاؤها هنا لدراسة قدرتها العقلية؟

لم تجد حنة بشارة أي جواب. أدركت الآن أنه في بعض الأحيان لا يوجد جواب واضح على الأسئلة التي تطرحها مهنتها كطبيبة نفسانية.

٢٩٠- التقرير الثالث

الدكتور سلام، مدير المصحة، ٢٢ آذار ١٩٦٩، الساعة الثالثة بعد الظهر.

فوجئت المريضة عندما عرفت أنني أعرف بعض المعلومات عن علاقتها مع فريد م. ومع ذلك لم أدنها على ذلك. يبدو أنها لم تكن تتوقّع أن أتفّهم وضعها وعواطفها. من الواضح وجود عداء شديد للأمّ والشقيق بسبب ذلك. كان شعورها تجاه والدها ينحو إلى الاستياء لا إلى العداء بسبب وقوفه إلى جانب الأمّ. من الواضح أنها تشعر بالعزلة كثيراً. سمحت لها بالاتصال مع أمّ فريد بالهاتف مرة في الشهر من مكتبي. من الواضح أن فريد م. كان معتقلاً، لكن المريضة بكت من الفرح عندما علمت أنه لا يزال

على قيد الحياة. يجب أن تتكلّم عن ذلك مع الدكتورة بشارة، لكن السرّية أمر أساسي. حالياً، يبدو أنها تشعر بالأمان والحماية في المصحة.

الاستمرار في تناول الإميبرامين والليفوميبرومازين. تستطيع الخروج والتنزه وحدها كما تشاء، لكن ليس في المساء.

لا تزال الرغبة معدومة في الزيارات العائلية. ووفقاً لما أفادت به رئيسة الممرضات، قديرة، فإن الزوج شديد البرودة تجاهها. يأتي مرة في الشهر ويتكلّم مع المريضة التي لا ترد عليه على الإطلاق.

٢٩١- قبلات

عندما كان فريد يقبّلها، كانت قبلته مثل حصاة وكانت هي مثل بحيرة تترقرق مويجاتها من فمها إلى أصابع قدميها.

لم يقبّلها والدها أو أمّها قط، وعندما كان أقارب آخرون يقبلونها، كانت تنكمش من تلك القبلات. كانت تتقزز من عمّها بولس الذي كانت تفوح منه دائماً رائحة حليب حامض. كان يضمها إليه بقوة حتى لا تكاد تستطيع أن تتنفّس، وكان شعر ذقنه الكثيف خشناً كالشوك. أما قبلات خالتها بسمة التي كانت تفوح من فمها رائحة كريهة فكانت أسوأ بكثير. عندما كانت رنا صغيرة، همست، بعد قبلة نتنة، لوالدها وقالت له: «لقد ماتت الخالة بسمة منذ أمد بعيد وفقط غلافها لا يزال حياً».

ضحك والدها. كانت الخالة بسمة تذكّر رنا بالفأر الميت الذي وجده والدها وراء الأريكة منذ عدة سنوات، بعد بحث طويل. فقد فاحت رائحة نتنة في غرفة الجلوس لأيام عديدة.

ماتت الخالة بسمة يوم الأحد في شهر أيار ١٩٤٥. تتذكّر رنا ذلك تماماً. كان يوماً ربيعياً جميلاً. كانت تلعب داخل البيت عندما قصفت فرنسا المدينة لأول مرة. كان والداها يحضران الجنازة، وكانت رنا وشقيقها يمكثان عند بيت الجيران. وصل والدها فجأة. أمسكها بيدها وأخذا يركضان بينما راحت أمّها تجري وراءهما وقد ضمت جاك بين ذراعيها. كانت قاذفات

twitter @baghdad_library

القنابل والمدفعية الثقيلة الفرنسية تصبّ حممها على أهداف في دمشق. كان أحد تلك الأهداف مبنى البرلمان القريب جداً من بيت أهلها. بدا أن وصولهم هم الأربعة إلى باب توما استمر دهراً، ومكثوا أسبوعاً حتى انتهاء القصف في بيت المحامي جورج أبيض، صديق والدها. كان البيت كبيراً زرعت فيه أشجار ليمون، وفيه صبيان شقيان.

انسحب الفرنسيون من دمشق مخلّفين وراءهم مئات القتلى وآلاف الجرحى من السوريين، بعد أن هُدِّمت بيوت كثيرة في دمشق.

شعر والداها بالسعادة عندما وصلا إلى بيتهما ووجداه سليماً. «السيدة العذراء أحاطته بحمايتها»، قالت أمّها. لكن رنا كانت واثقة من أن الروح الشرّيرة القابعة تحت الدرج هي التي حمت البيت، لأنها - بالرغم من أنها شريرة - كانت بحاجة إلى مكان تعيش فيه أيضاً. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت رنا سعيدة هي أيضاً. كان رياض وفؤاد، ابنا جورج أبيض، حقودين، وأطلقا على رنا وشقيقها اسم «لاجئين» وكانا يضربانهما عندما لم يكن الكبار يلاحظون ذلك. كان الصبيّان ضخمين وقويين، ولاسيما رياض الذي كان عملاقاً، وكان يحبّ أن يجلس فوق بطن رنا ويقول إنه لن ينزل عنها حتى تقبّله في فمه، وأن من الأفضل لها أن لا تشي به، لأنها إذا فعلت ذلك فإنه سيضع جرذاً في سريرها في الليل، وقال لها إن الجرذان تحبّ أن تقضم آذان الفتيات الصغيرات. بعد ذلك، بدأت رنا تستيقظ كثيراً في الليل لتتلمس أذنيها، فاضطرت إلى أن تقبّل رياض ثلاث مرات لأنه كان يضغط على أنفاسها.

هنا في المصحّة النفسية، بعد ثلاث وعشرين سنة، رأته في حلم وهو يمسك جرذاً في يده، وجرت هابطة بضع درجات إلى الباحة حيث يجلس والداها. صرخت لكنّ أحداً لم يسمعها، وعندما بلغت آخر درجة، بدأ الدرج يطول أكثر وأكثر. لم يقترب رياض منها، لكن بدا لها أن الدرج لن ينتهي.

٢٩٢- التقرير الرابع

الدكتور سلام، مدير المصحة النفسية، ١٥ أيار ١٩٦٩، الساعة الحادية عشرة.

من الناحية النفسية، حصل تحسن واستقرار كبيرين في حالة المريضة. أنماط الحركة والنوم لديها طبيعية، وأصبحت الوظائف الحركية لديها طبيعية أيضاً، وأصبحت الانفعالات العاطفية إزاء الوضع كافية واستجابتها نحوها جيدة، ولم تعد هناك دلائل تشير إلى وجود مزاج انتحاري. في الأسابيع القليلة الماضية، كانت أحاديثها صريحة للغاية، ومشاعرها العاطفية منتظمة، وأصبحت قادرة على التعاطف. لا تزال ترى مستقبلها مظلماً جداً، ولا تتصور، على نحو خاص، العودة إلى زوجها، لكن يبدو أنها لا تعرف أحداً آخر. لا يمكنها الاعتماد على دعم أبويها. المعالجة: ١٥٠ ملغ إميبرامين. أصبح بإمكانها التوقف عن تناول ليفومبيورومازين خلال الأسبوعين الأخيرين.

المريضة محبوبة في الجناح، وتشعر بالأمان والحماية. لا تريد أن تخرج بعد، لكن يجب عليها أن تبدأ بمواجهة الحقيقة. ترفض اقتراحي بالإقامة مع أقرباء أو في الخارج، وهو أمر يمكن، بقليل من الضغط، الحصول على موافقة زوجها. لم تحسم أمرها بما ستفعله. بسبب الحالة العائلية الصعبة، لا تزال لا تشعر بالمتعة بأي شيء، وغير قادرة على اتخاذ قرارات وتميل إلى إطالة التفكير. أصف لها ممارسة حياة نشيطة فيها الكثير من الرياضة. احتمال أن تزيد المناقشات العلاجية من ميلها للاكتئاب؟ الدكتورة بشارة ترفض ذلك، وتأمل بقوة أن تواصل العلاج. مرة في الأسبوع سيكون كافياً.

في أوائل حزيران، سمعت رنا من كلير بأن فريد سيُمنح عفواً قريباً، وأنها تستطيع، لكونها أمّه، أن تراه مرة في الأسبوع. قالت لها كلير إنه على ما يرام، وأنه مشتاق لها جداً.

twitter @baghdad_library

بعد ثلاثة أيام طلبتْ رنا من مدير المصحة أن تغادر. قالت إنها أصبحت تعرف الآن كيف ستعيش.

عندما وصل زوجها وهو يحمل باقة زهور ودّعت حنة بشارة بحرارة، وعانقت إدوارد سلام. «لقد ساعدتني كثيراً. شكراً لك»، همست له، وطبعت قبلة على خدّه الأيمن. طفرت الدموع من عيني الطبيب. كانت ابنة له تغادره، وكان يعرف أنها تغادره إلى الأبد.

كتاب الفراشات

عندما ترى فراشة الضوء فإنها تنسى كلّ شيء
لكنها لا تنسى أنها تستطيع الطيران

*

دمشق، بيروت، صيف ١٩٦٩ - أيلول ١٩٦٩

٢٩٣- الشكّ

كان متّى واقفاً عند الباب، شاحباً. دعته كلير إلى الجلوس بجانب البحرة، وأعدّت له فنجان قهوة قوية. كان يفرقع مفاصل أصابعه بعصبية. عندما عادت أحضرت له أيضاً طبقاً مليئاً بالكعك الذي يحبّه.

«لقد كذب عليّ بولس»، قال بعد فترة من الصمت. جلست كلير ولم تأت بحركة. «لقد أقسم بقسم أُخوَّتنا المقدّس بأنه لم ير فريد منذ أن غادر الدير، ثم أراد أن يعرف من الذي قدم لي هذه المعلومات. إنه أمر فظيع، فكّري في الأمر! لقد خاطرت بحياتي من أجل بولس، ثم أطلب منه أن يسدي إليّ معروفاً من أجل أخي فريد، و. . .»، صمت متّى.

قرع الجرس. أحضرت إحدى الجارات لكلير شيئاً. عندما عادت رأت متّى يبكي.

«ماذا في الأمر؟»

«لقد جازفت بحياتي من أجله، وها هو الآن يكذب عليّ. من يعرف، ربما كان يكذب عليّ طوال الوقت»، قال واستوى واقفاً. «أردت منه أن يتلطف في معاملة فريد أو على الأقل أن يتركه وشأنه. هذا كلّ ما في الأمر.

twitter @baghdad_library

لكني سأذهب إليه مرة أخرى. ربما سآخذ زوجتي لأنها تستطيع أن تليّن قلباً قُدَّ من حجر عندما تبكي». ابتسم باستحياء.

يجب أن يفتخر فريد لأن لديه أناساً يحبّونه كثيراً، قالت كلير لنفسها، وهي تودع متّى عند الباب وعانقته برقة أكثر من أي وقت مضى. كان ينشج مثل طفل. «فريد أخي. ثقي بي يا خالة، متّى سيحلّ المشكلة»، همس بتحد، وخرج. بغتة تملك كلير إحساس غريب. عندما كان جالساً هناك مستغرقاً في التفكير، لاحظت أن قسمات وجهه تشبه قسمات وجه إلياس كثيراً. لقد سمعت هي أيضاً شائعات بأن نسيبة، الأرملة الشابة التي كانت مغرمة بإلياس منذ عهد بعيد، قد حبلت منه وتزوّجت الراعي الفقير بسرعة لتحاشي الفضيحة. لكن إلياس أنكر كلّ ذلك، وكان يقول دائماً إن نسيبة كان لها ألف علاقة وعلاقة مع رجال. لكن عمّة متّى قالت إنه عندما عاد ابن أخيها المضطرب عقلياً من مستشفى الأمراض العقلية، كان متيقّناً من شيء واحد فقط وهو أن فريد أخوه.

٢٩٤- خارج الشرنقة

عاد الرئيس عمران من موسكو رائق المزاج، وفي اليوم التالي، أصدر عفواً عن سبعمائة سجين سياسي، منهم مئة وأحد عشر معتقلاً في تدمر. نقلت حافلتان كبيرتان الرجال المفرج عنهم إلى مدينة دمشق. في البداية، جلسوا مستغرقين في التفكير، وعلائم حزن شديد تكسو وجوههم. فلم يكن من السهل توديع رفاقهم الذين ظلوا في محنتهم. بكى الكثير منهم، لكن عندما فهموا أنهم أصبحوا أحراراً بالفعل، جنّ جنونهم. فراحوا يقفزون من فوق مقاعدهم، ويغنّون بلغات غريبة لم يفهمها أحد، وأخذوا يرقصون في الممر، ويعانق أحدهم الآخر، ويربّت أحدهم على ظهر وكتف الآخر، ويتبادلون قبلات سعيدة.

«إذا واصلتم ذلك فإن رجال الشرطة سيرسلوننا إلى مستشفى المجانين مباشرة. اهدأوا، لقد أصبحنا في ضواحي دمشق»، قال سائق الحافلة

متوسلاً. جلس السجناء المفرج عنهم وراحوا ينظرون من النافذة إلى النساء الجميلات، وأخذوا يصفّرون لهن، ويختبئون ويضحكون مثل تلاميذ صغار.

وصل فريد إلى البيت في منتصف النهار تقريباً، وأراد أن يدخل المنزل ويرقص حول البحرة مع كلير، ويصيح مبتهجاً، لكن الباب كان مقفلاً. دقّ الجرس. جاءت كلير بمئزرها الذي كانت ترتديه في المطبخ لتفتح الباب. «أيتها العذراء مريم»، صاحت. عانقها فريد وحملها إلى البحرة. أخذت تضحك.

«منذ متى تقفلون الباب؟»

«منذ أن أصبحت المدينة تعجّ بالغرباء المجهولين. فهم يأتون ويأخذون أيّ شيء تقع أيديهم عليه. ويأتي آخرون ويورطونك في أعمال مشبوهة ويضعونك خلف القضبان لمدة عشر سنوات. فقد ترك أحدهم كيلوغراماً من الحشيش في أصيص زهر في بيت فارس ابن عم سليمان. إنه لا يدخّن ويكره المخدّرات، لكن ذلك لم يجد نفعاً مع الشرطة. وقد ركّب عدد من الأشخاص أقفالاً على أبواب بيوتهم منذ أن قبض عليه».

أراد فريد أن يستحمّ، لكن كلير طلبت منه أن يذهب أولاً، كما فعل عندما عاد إلى البيت من جهنّا، لرؤية والده الذي كان ينتظر قدومه على أحرّ من الجمر. وبالفعل، فقد غمرت إلياس بهجة عارمة عندما رآه. فراح يضحك ويبكي ويمسّد وجه ابنه. وعلى نحو مرتبك أخرق تقريباً، قدم له بعض أنواع الحلويات.

«لقد عذّبه هؤلاء اللقطاء مع أنه لا ينتمي إلى أيّ حزب سياسي»، قال لجاره العجوز نوري، بائع الزهور الذي كان يستطيع أن يُعِدَّ أجمل باقات الزهور مع أنه كان ثملاً طوال النهار.

«هذا ما يحدث عندما يستلم الفلاحون السلطة»، قال نوري بازدراء ثم أضاف، «كان أبي يقول لي باستمرار: إذا كان معك قرشان، اشتر بقرش قطعة خبز واشتر بالقرش الآخر وردة لها رائحة عطرة. لكن لم يعد يفعل

twitter @baghdad_library

ذلك إلا القليل من الناس الآن. لقد لاحظت ذلك منذ سنوات. إذ لم يعد الناس يشترون الزهور إلا للجنازات فقط. إن الفلاحين لا يرون ضرورة للزهور. وهم لا يدفعون أي مبلغ لشرائها. في الأسبوع الماضي، سألني أحدهم كم كيلو من القمح يستطيع أن يشتري بثمن الزهور، فقلت له ساخراً الأفضل له ألاّ يقدم لزوجته باقة من الأزهار بل كيساً مليئاً بالحنطة. هل تعرف ماذا قال؟ إنها نصيحة جيدة».

بعد قرابة ثلاثة أيام، اتصل فريد برنا. كانت وحدها في البيت، وحدّثها عن الخطة التي يفكّر بها منذ أشهر.

«رائع»، قالت رنا، وقد شعرت بأنّها أصبحت تدنو من باب الجنة. «هناك شيء وحيد أريد أن أطلبه منك: دعنا لا نغادر قبل السادس من أيلول».

«لماذا؟»

«لأن زوجي سيسافر إلى موسكو في الخامس من الشهر لمدة أسبوعين. سأكون بحاجة إلى يوم استراحة قبل أن نغادر أخيراً»

«حسن، لكن حتى ذلك الحين يجب أن تكوني قد جهزت جواز سفرك وترجمت كلّ وثائقك إلى اللغة الألمانية عند ترجمان محلف».

«لديّ جواز سفري، لكن لماذا إلى اللغة الألمانية؟ ظننت أنّنا سنسافر إلى باريس».

«رسمياً لا نزال كذلك. سأخبرك بالأمور الأخرى عندما نصبح بأمان»، قال فريد.

كان الحصول على جوازي سفر مزوّرين بإتقان أسهل مما كان يتوقّعه فريد. لم يسأل يوسف لماذا يحتاج إليهما. «سيحضرهما لك محسن. سيبدوان حقيقيين أكثر مما لو كانا أصليين»، قال مازحاً، «لكنهما يكلّفان غالياً». لم يعبأ فريد بالسعر.

لم يكن المزوّر يملك ورشة متطوّرة، بل كان يملك عقلاً ذكياً ولم يكنّ

أي احترام للدولة، ربّ عمله. كان موظفاً حكومياً في دائرة الهجرة والجوازات والتسجيل، وكان معروفاً بين زملائه بجده وعمله حتى بعد الدوام وكانوا يشفقون عليه، لكن احدا منهم لم يدر شيئاً عن ذائقة المزور محسن الرائعة للقيام بهذه الأعمال في وقت فراغه بعد أن يغادر كل زملائه المبنى.

كان محسن شرارة مسلماً، وبما أنه كان قارئاً نهماً، فقد قرأ الإنجيل وقرأ قصّة قيام عازر من قبره. كان ذلك في أوائل الستينات عندما بدأ الرئيس سطلان موجة الاعتقالات الواسعة. وصار الناس يدفعون ألف دولار - كان هذا المبلغ يعتبر ثروة في ذلك الحين - من أجل الحصول على جواز سفر «يبدو حقيقياً». كان قد دوّن جميع تسجيلات وفيات الأطفال، وبدأ يبيع جوازات السفر. كانت الجوزات أصلية من الدائرة الرسمية، لكن شيئين اثنين فقط لم يكونا على ما يرام في تلك الجوازات وهي صورة الشخص التي لا تمثل الشخص الذي يحمل الجواز إسمه والأمر الثاني أن هذا الشخص كان قد مات منذ عقود. كان محسن يزيل تاريخ وفاة صاحب الاسم من السجل المدني بمادة كيميائية تدعى «مزيل حبر» لم يكن معروفاً كثيراً آنذاك. أما الأمور الأخرى في جوازات السفر التي كان يعدّها، بما في ذلك الختم وتوقيع مدير إدارة الهجرة والجوازات، فقد كانت حقيقية.

هكذا أصبح لدى فريد في نهاية آب أربعة جوازات سفر: جوازان حقيقيان وجوازان مزوّران باسم سركيس وجورجينا شماس، زوج وزوجة. كانت في جوازي السفر الحقيقيين تأشيرة سفر إلى ألمانيا لغرض الدراسة فيها وعلى جوازي السفر المزورين فيزا سياحية لفرنسا.

٢٩٥- الجرح والفخّ

سرعان ما استقر فريد ثانية. كان سماع صوت فيروز المنبعث من المذياع يشكل جزءاً أساسياً في صباح كلّ يوم في حياته، مثل ارتشاف أول فنجان قهوة مع كلير وأذان المؤذّن المنبعث من المسجد القريب. لكنّه لاحظ

twitter @baghdad_library

أنّ الدمشقيين انكفأوا إلى داخل شرنقة الصمت بسبب الخوف. كانوا يتكلّمون كثيراً ويتبادلون النكات باستمرار للتغطية على صمتهم.

في أحد أيام آب القائظة شعر فريد بالرغبة في عدم القيام بأعمال عديدة. كان واقفاً عند مدخل البيت، يراقب كلبين يتناحران على عظمة في الظلّ. فجأة جاء متّى يجري في الشارع، توقّف أمامه، وأخبره لاهثاً، بأنّه أصبح متيقناً الآن من أن بولس خانه في الدير.

«دعنا لا نتحدّث عنه. لقد انتهى الأمر»، قال فريد، لأن متّى كان قد أمضى الأيام القليلة الماضية وهو يبحث بهوس لإثبات خيانة بولس. كان بولس هو الذي وشى به للشرطة عندما هرب من الدير المرة الثانية. لم تكن نبرة متّى حادة، بل كان صوته بارداً، وقدّم دليله بدقة متناهية.

«لا بد أن الشرطة كانت تعرف. فقد كانوا في انتظاري عند آخر حاجز قبل الوصول إلى الطريق الرئيسي. ويمكنني أن أقول بكل ثقة إن شخصين اثنين فقط كانا يعرفان بهروبي وهما أنتَ وبولس». أنهى متّى عرض إثباته، وهزّ رأسه مفكّراً. «لماذا يريد أن يدمرنا؟ لماذا؟ ماذا فعلنا له؟»

«ربما لأنه أحبّنا بطريقته الخاصة ولم يتمكن من تملّكنا والاحتفاظ بنا. لم يشأ آنذاك فعلاً أن تغادر الدير. فقد كنت أكبر داعم له، وأحبّك كأخ له. في البداية، أحبّني أنا أيضاً، لكنه بدأ يكرهني عندما اكتشف أنني أتحدر من عائلة مشتاق التي بتّ أكرهها، بينما هو كان ولا يزال من عائلة شاهين، وفي قرارة نفسه عبد ذليل للعشيرة».

«أخي العزيز، ماذا تعلّمك كلّ هذه الكتب بحق السماء؟ إن بولس لم يحبّ أحداً، حتى نفسه. لقد خان ثقتي به، وكنت مغفلاً»، قال متّى بمرارة.

لاحظ فريد الآن مسحة من مكر الثعلب كست وجه متّى لأول مرة.

لم يكتشف مهدي شيئاً مما خطط له هذا الصديق، وبعد عدة زيارات استطاع متى أن يضم زوجة بولس إلى قائمة زبائنه، يؤدي لها خدمات ويوصل لها مشترياتها ولم يتقاضَ منها مبلغاً كبيراً لقاء خدماته. وأحبت زوجة مهدي هذا الرجل البسيط والمتفاني في خدمته ومنذ ذلك الحين،

بدأت تخبره عن تصرفات زوجها التي تخلو من الحبّ وعن العزلة التي تشعر بها.

«هل تريد أن تساعدني؟» سأله فريد في نهاية شهر آب.

«طبعاً. ماذا تريدني أن أفعل؟» أجاب متّى.

«انظر جيداً إلى هذه التذكرة»، قال فريد، وأراه تذكرة سفر بالطائرة على الخطوط الجوية الفرنسية.

«وماذا بعد ذلك؟»

«هذه بطاقة سفري في ١٤ أيلول. سأسافر على متن الخطوط الفرنسية في الساعة العشرين تماماً من ذلك اليوم. هل يمكنك أن تتذكّر ذلك؟ يوم الأحد، ١٤ أيلول».

«طبعاً يمكنني أن أتذكّره. إنه يوم عيد الصليب المقدّس في معلا، لكنّي لم أذهب إليها منذ سنوات»، قال متّى.

«ولن تتمكن أنت وفريدة من الذهاب هذه السنة أيضاً، لأنك يجب أن تأتي أنت وفريدة إلى المطار لتوديعنا».

«طبعاً سنأتي، لكن ما علاقة ذلك بتذكرة الطائرة؟ لماذا أريتني إياها؟»

«أريدك أن تخبر بولس بأنني مسافر على الخطوط الجوية الفرنسية في ذلك اليوم»، قال فريد.

ظهر غضب على وجه متّى، وقال: «أخي، ماذا تظنني؟»

«أعرف أنك أكثر أصدقائي إخلاصاً. لكن عندما تخبر بولس بذلك فإنك تسدي لي ولك معروفاً. لا تخش شيئاً. فلن يستطيع أن يلمس شعرة مني بعد الآن. صدّقني، إن ذلك سيزيل عن وجهه القناع ويكشف وجهه القبيح، لكنّه لن يستطيع أن يضع يديه عليّ مرة أخرى. إنك ستساعدني كثيراً بالتظاهر بأنك من السذاجة بحيث تخبره بذلك دون أن تفكّر في الأمر جيداً. إن ذلك سيجعله يركّز على المطار ولن يتيح له الفرصة للتفكير بالطريق الآخر الذي سأسلكه، وثق تماماً أنه في الساعة التي يحاول بها

twitter @baghdad_library

اعتقالي في المطار أكون قد اجتزت الحدود البرية إلى لبنان باتجاه بيروت ومن هناك سأستقل الطيارة. موافق؟»

«وهل أنت متأكّد من أنني سأساعدك إذا أبلغت هذا الخائن عن موعد سفرك بدقة؟»

«نعم، بالتأكيد. إنك ستنقذني بخداعه».

«هل أنت متأكّد أيضاً من أنك بكامل قواك العقلية في هذه اللحظة؟»

«كما أنني واثق من أن اسمك متّى وأنك مخلص لي كأخ. لكن يجب ألاّ تقدم لبولس المعلومات بوضوح. فهو يرتاب أكثر من جرذ. يجب أن تكون ماكراً كثعلب أيضاً، بعدها اذهب إلى المطار مع كلير في ١٤ أيلول».

«أقسم لي بأنّك ستكون سالماً آنذاك. أقسم بصحة أمّك».

«لماذا أمّي؟»

«لأنك كشيوعي يمكنك أن تضع يدك على الكتاب المقدس وتقسم بأيّ أكذوبة».

«أقسم بصحة أمّي، بنور عيني وبحياة رنا بأنك ستساعدني كثيراً عندما تعلم بولس، بأسرع وقت ممكن، بأنني سأغادر البلد في ١٤ أيلول».

«سأفعل ذلك»، قال متّى، وقد لاح وميض غريب في عينيه.

حانت الفرصة قبل موعد سفر فريد بعشرة أيام. فقد سلّم متّى طلباً إلى زوجة بولس التي كانت قد اشترت مواد كثيرة من سوق العطارين: أعشاب وحبوب وزيوت وصابون مصنوع من زيت الزيتون. سألته متى يمكنه أن يجلب العشرين كيلوغراماً من الباذنجان الصغير الذي كانت قد طلبته أن يجلبها لها من قرية القابون لتكبسها كمخلل، فأجابها بأنه سيفعل ذلك هذا الأسبوع إن أحبّت لأنه سيكون مشغولاً من يوم الاثنين حتى يوم السبت من الأسبوع القادم من أجل أسرة مشتاق. «لأنهم سيقيمون حفل وداع لابنهما فريد يوم السبت، وسأنقل لهم كلّ ما يحتاجون إليه بالسوزوكي».

كان بولس الذي يتنصت من مكانه في أقصى غرفة الصالون ويتابع هذا

الحديث بدقة. «أوه، هل سيسافر فريد؟» سأل فجأة من دون أن يعرف أنه كان يضع في تلك اللحظة قدمه الأولى في فخّ الثعلب.

«نعم، سيسافر بالطائرة إلى باريس يوم الأحد للدراسة هناك»، قال متّى، وانتظر أن يسأله بولس عن اسم شركة الطيران والساعة التي سيسافر فيها. ابتسم بولس وعاد إلى صحيفته.

خيّل إلى متّى أنه أخفق في مهمته، لكنّه كان على خطأ. ففي يوم الخميس ١١ أيلول، اتصل مهدي من مكتبه بزميل له في المطار، وحصل على تأكيد بأن فريد مشتاق قد حجز فعلاً على الخطوط الجوية الفرنسية في ذلك اليوم. أغلق مهدي الهاتف واتصل على الفور بصديقه بدران.

«نعم، جيد، هيا إقبض عليه الآن»، قال بدران، ولم يلاحظ إلا عندما أغلق السماعة أنه كان يكلّم مهدي كما يكلم عادة كلبه الشبرد الألماني.

٢٩٦- انتقام رنا

بحثت رنا طويلاً قبل أن تعثر على تاجر أغراض مستعملة مستعد لشراء محتويات بيتها بالجملة، بينما كان الآخرون يريدون شراء أدوات وقطع منزلية محددة فقط. فبعد أن ألقى عبد الله الأسمر نظرة سريعة على الأغراض وبالسعر المنخفض الذي طلبته رنا، وجد أنه عرضٌ لا يمكن رفضه. فقد كانت الأرملة الشابة تريد أن تتخلّص من كلّ شيء، حتى الصور العائلية ورسائل زوجها المرحوم وملابسه الداخلية وبدلاته وبزّاته العسكرية وثلاثة مسدسات جميلة وجميع الكتب. وقالت للتاجر إن مجرد رؤية هذه الأشياء يدخل الحزن إلى نفسها. فأبدى التاجر، وهو رجل معتاد على شراء الأغراض المنزلية، شيئاً من التفهم والتعاطف. «إنكِ تنكئين جرحي يا سيدتي. فقد فقدتُ زوجتي الأولى عندما كنت في عمرك، وشعرت أنني كنت أريد أن أموت أنا أيضاً» قال بصوت يتصنع الحشرجة، متردّداً بين الحزن وإثارة الشفقة.

twitter @baghdad_library

«لكني كما ترى لا اريد أن أبكي لجرحي، أريد أن أعيش. أريد أن أبدأ حياتي من جديد، وكلّ هذه الخردة تثقل كاهلي وتشدني إلى الأسفل كالرصاص»، أجابت، وكاد التاجر أن يضحك. إنها تدعوها خردة! ثلاث ساعات ماركة رولكس وساعتان ذهبيتان ماركة أوميغا ومجموعة من العملات المعدنية الذهبية ومجموعة طوابع وخزانات من خشب الجوز وستائر من الحرير الباهظ الثمن ولوحات زيتية وأسطوانات وأربعة أجهزة مذياع وثلاثة أجهزة تلفزيون، اثنان منها لا يزالان مغلفين في صناديقهما الأصلية. اتفقا على مبلغ عشرين ألف دولار، وكان التاجر على يقين من أنه أحرز صفقة العمر. فخزانة العرض وحدها التي تحتوي على بنادق صيد من جميع أنحاء العالم ستجلب له أكثر من عشرة آلاف دولار.

في اليوم التالي، يوم السبت ١٣ أيلول، أفرغ رجاله البيت بدءاً من الغرفة العلوية على السطح حتى القبو حيث كانت توجد مطربانات مليئة بالفاكهة المحفوظة يصعب حصرها. أهدت رنا هذه الأشياء إلى العمال. عندما انتهوا، قدم التاجر المبلغ المتفق عليه للأرملة الشابة، وخرج مسرعاً.

جابت رنا أرجاء المنزل الفارغ. كان صدى خطواتها يتردّد من الجدران العارية. عندما وصلت إلى وسط غرفة الجلوس التي كانت تنيرها أشعة الشمس مثل خشبة مسرح، توقّفت. أخرجت صورة عرسها من محفظتها ومزّقتها ببطء إلى نصفين، ووضعت نصف الصورة التي فيها زوجها وهو يبتسم في وسط الغرفة، ودسّت النصف الآخر في محفظتها.

ثمّ أغمضت عينيها. أزهر الصبّار في قلبها، وللحظة، أحسّت بأشواكها. اقشعرّ جسدها، ولوهلة اعتراها دوار. عندما صحت وعادت إلى الواقع تنفست الصعداء.

توجهت إلى فندق سميراميس في وسط المدينة وحجزت غرفة، ثم اتصلت بقسم الاستقبال وطلبت من قسم خدمة الغرف عشاء خفيفاً. وقفت عند النافذة قليلاً، وجالت بعينيها في عدّة مواقع بناء، ثمّ نظرت إلى

الشارع. لقد أصبحت دمشق قرية كبيرة، قالت لنفسها. لم تكن قد رأت من قبل هذا العدد الكبير من المارة الذين يرتدون ملابس فلاحين.

بعد ذلك، كما اتفقا، اتصلت بفريد.

٢٩٧- طيران الفراشات

جلس بهدوء في غرفة نوم والديه. في الخارج، كان يوم الأحد هذا من أيام أيلول مشرقاً كالصيف، لكن الستائر جعلت الضوء خافتاً. كان فريد يراقب والده النائم. بدا منكمشاً، صغير الحجم وهو مستلق هناك، يتنفّس بسلام.

فجأة، كما لو كان قد استيقظ فجأة من كابوس، انتصب جالساً.

«فريد»، قال عندما رأى ابنه.

«نعم، هذا أنا يا أبي».

«هل نمتُ لفترة طويلة؟»

«تقول ماما إنك بحاجة إلى فترة أطول من النوم لأن الأدوية تجعلك متعباً»، قال. طوى إلياس يديه في حضنه وخفض عينيه.

«إذاً ستسافر اليوم؟» سأل.

«رسمياً، نعم، لكن بالنسبة لك ولماما فإني سأسافر غداً في الساعة الواحدة بعد الظهر من بيروت».

«وهل هناك أحد يوصلك إلى الحدود؟»

«لا تقلق»، أجاب فريد، ونظر إلى ساعته. كانت الساعة قبل الثالثة بعد الظهر بقليل. «يجب أن أذهب الآن»، قال، ونهض على قدميه.

«بارك الله فيك أينما ذهبت وحمت العذراء مريم خطاك. قد لا أراك مرة أخرى»، قال إلياس، وهو يحبس الدموع في عينيه.

«طول بالك يا أبي. لن أبتعد كثيراً. ثلاث ساعات طيران وتصبح عندي. لقد أصبح عالمنا صغيراً جداً الآن، لكن هذا الرجل شاهين لن يتركني بسلام هنا»، أجاب، وعانق والده.

twitter @baghdad_library

ظل لسنوات يسأل نفسه لماذا لم يقبّل والده آنذاك. لم يجد لذلك جواباً.

خارج الباحة كانت ليلى ويوسف ومتّى وزوجته فريدة يجلسون مع كلير التي كانت تحاول أن تبتسم من خلال دموعها.

عانق فريد أمّه. «يجب أن تأتي أنتِ وإلياس لزيارتي قريباً. ستكون رحلة جيدة لعاشقين».

«سآتي في وقت قريب جداً»، سمع الجميع إلياس يقول. ضحكت كلير. قبّلها فريد واغرورقت عيناه بالدموع.

«سنعانقك في المطار»، قال يوسف، «سآتي بسيارتي للمطار مباشرة من البيت مع زوجتي».

«دعني أعانقك الآن. من يعرف، قد لا يتاح لنا وقت هناك»، أجاب فريد، وضمّه إليه. ضحك يوسف لإخفاء حرجه.

نشجت ليلى. «سأفكّر بك حتى آخر لحظة في حياتي»، همست في أذنه، وقبّلته على شفتيه،

«اتركي قليلاً منه لرنا» قالت كلير مازحة.

طفرت الدموع من عيني فريدة أيضاً وقالت: «ليعاقب الله الذين عذّبوك وأجبروك على مغادرتنا. أعرف أن ذلك خطأ، لكني سأشعل شمعة لسيدتنا كلّ يوم وأطلب منها أن تشلّ أيدي أعدائك». كانت الكراهية والحزن باديين في صوتها.

دق جرس الباب. كانت سيارة الأجرة تنتظر.

«إلى اللقاء» قال فريد عند الباب. عانقه متّى بحرارة.

«انتبه إلى نفسك. فقد أصبح هذا الخائن يعرف الآن أنك ستسافر لفرنسا».

«لا تقلق. لكن مهما حدث في المطار، ابق بالقرب من كلير وساندها»، قال فريد، وعانق أمّه مرة أخرى ثم ركب سيارة الأجرة. لوّحت

له كلير ويوسف وفريد ومتّى عند ناصية الشارع المستقيم، ولوّح لهم فريد للمرّة الأخيرة.

«فندق سميراميس»، قال للسائق.

٢٩٨- يوم الحساب

وصلت كلير وليلى ومتّى وزوجته إلى المطار في حوالي الساعة السابعة مساء. كان يوسف ينتظر هناك. كان القلق بادياً عليه. «لا أثر لفريد في أي مكان، لكن رجال المخابرات ينتشرون في كل مكان، الأعمى يستطيع أن يرى ذلك»، قال. ابتسمت كلير.

في الساعة السابعة والنصف، دخل مهدي سعيد إلى قاعة المغادرة، يرافقه رجلان ضخمان. لم يكد متّى يتمالك غضبه، وقال بضراوة «هذا الخائن».

في الساعة الثامنة إلا ربع، دُعي فريد مشتاق مرّتين للصعود إلى الطائرة بواسطة مكبر الصوت. كان بولس، المعروف باسم مهدي، واقفاً عند مكتب الخطوط الجوية الفرنسية. أشار إلى رجلي أمن يرتديان ثياباً مدنية. في اللحظة التالية، أخذا يجريان في الممر المؤدي إلى الطائرة. بعد عشر دقائق عادا، وشوهدا وهما يهزان رأسيهما من مسافة بعيدة.

فجأة وقعت عينا مهدي سعيد على كلير ومتّى. على الفور أرسل أحد رجليه إليهما.

«الرائد مهدي يريد أن يحدثكما»، قال الرجل. للحظة أحسّ متّى أن قلبه قد توقف.

«قل للرائد إنّني لا أريد أن أتحدث إليه»، قالت كلير، «والطير الذي تأمل في أن تقبض عليه هنا جالس الآن في طائرة أخرى وهي في طريقها إلى باريس. لا بد أنها أصبحت فوق اليونان الآن، فليقبض عليه إن كان يقدر على ذلك»، وضحكت بصوت عال.

«هكذا إذن»، صاح يوسف، ضارباً جبينه براحة يده. باستياء عاد رجل

twitter @baghdad_library

المخابرات إلى رئيسه الذي جمع مساعديه في اللحظة التالية وخرجوا جميعاً. نودي على اسم فريد ثلاث مرات أخرى قبل أن تنطلق طائرة الخطوط الجوية الفرنسية على المدرج.

«هذا الخائن كان ينوي حقاً أن يقتل فريد، وأنا متأكّد تماماً الآن من أنه هو الذي وشى بي. لعنه الله»، قال متّى وهو عائد ليركب سيارة الأجرة. كانت مركبته السوزوكي الصغيرة ذات العجلات الثلاث مركونة خارج بيت فريد. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما ترجلت كلير ومتّى وفريدة من التكسي. دفعت كلير الأجر للسائق، وشكرت متّى وزوجته لمجيئهما معها، ولوّحت لهما عندما انطلقا في عربة السوزوكي. لم يكن بيتهما بعيداً.

«لكن إلى أين ستذهب في هذا الوقت من الليل؟» سألت فريدة، عندما لاحظت أنّ متّى لم ينزل من المركبة الصغيرة. كانت متعبة جداً.

«أحتاج إلى قليل من الهواء النقي لكي أنسى فراق فريد. لا تنتظريني. سأكون في غاية الهدوء وسأحرص على أن لا أوقظك عندما أعود إلى البيت».

ببطء، راح يجوب الأزقة، ثم عاد إلى حي باب توما العريض. وبعد أقل من عشر دقائق وصل إلى شارع مارسيل كرامة.

توقّف خارج البيت رقم ٣١، أطفأ المحرّك، وجلس لفترة من الوقت.

كانت ليلة أيلول الخانقة تلقي بثقلها على المدينة. كان الناس نائمين ونوافذهم وأبواب شرفاتهم مشرعة. عرف متّى أنّ بولس يمضي الليلة في الغرفة العلوية، بعيداً عن زوجته. كان الضوء لا يزال مُناراً في غرفته.

قبل منتصف الليل بقليل أُطفئ الضوء. انتظر متّى خمس عشرة دقيقة أخرى، ثم نظر إلى ساعته مرة أخرى. كان متأكّداً من أن فريد اجتاز الآن الحدود مع لبنان. ترجّل من مركبته الصغيرة ذات العجلات الثلاث بهدوء، وربط كيساً كبيراً من الخيش حول خصره، ودون أن يصدر صوتاً، راح يتسلّق شجرة اللبلاب القديمة، مثل فهد.

كتاب الحبّ السابع

من يُحَبْ لا يموت

*

بيروت، أيلول ١٩٦٩

٢٩٩- الوصول

دخل سركيس وجورجينا شماس، الزوج والزوجة، ردهة «أوتيل دي باري» في بيروت الشرقية. تفحصهما الرجل الواقف وراء مكتب الاستقبال بارتياب.

«هل لديك غرفة بسريرين لهذه الليلة؟» سأل الزوج.

«نعم يا سيدي، جميع الغرف مطلة على البحر. خمسون ليرة في اليوم تشمل وجبة الفطور»، أجاب موظف الاستقبال تلقائياً.

“D’accord”، قال سركيس شماس لزوجته، وهزّ رأسه.

«هل لي أن أرى جوازي سفركما، من فضلك؟ لعلك تعرف أنه منذ اندلاع الحرب الأهلية في الأردن ونزوح الفلسطينيين الجماعي أصبح علينا أن نسجّل جوازات سفر نزلائنا. أعرف أنه أمر مزعج، لكن. . .»

«تفضل»، أجاب الضيف، ووضع جوازي سفر سوريين على المنضدة. عندما قرأ موظف الفندق الاسمين، ابتسم لهما ابتسامة ودّية. «حسناً، لم أعد بحاجة إليهما»، قال، وأعاد لهما الجوازين، وأضاف، «إنك واحد منا. كما تعرف - حسناً، يمكنني أن أتحدث بصراحة الآن. ليس الفلسطينيون فقط، بل جميع المسلمين الذين يأتون إلى هنا: الباكستانيون والأفغان

twitter @baghdad_library

والإندونيسيون الجياع، والله أعلم من غيرهم يأتون ويتزوّجون امرأة مسلمة لبنانية أو من طائفة أخرى، فيصيرون لبنانيين، ثمّ يفقّسون كالأرانب، أما نحن، المسيحيين، اللبنانيين الحقيقيين، فنصبح أقلية في بلدنا. أهلاً بك هنا سيدي، إننا نرحب بكما أشد الترحيب»، كرّر الرجل الواقف خلف المنضدة بنبرة ودّية، ثم أضاف، «إن ابن عمي يقيم في باب توما. هل تعرفه؟ فرانسوا افرنجي، هذا اسمه، هل تعرفه؟»

«لا»، بدا صوت الغريب هشّا تعباً يقتل كل فضول.

هرع صبي الفندق، وهو سوداني نحيف يرتدي زياً أحمر ناصعاً. كانت الحقيبتان ثقيلتين، فأخذ يجرّهما إلى الغرفة في الطابق الأول وهو يلهث. عندما عاد إلى الطابق الأرضي، كانت الابتسامة تكسو وجهه.

«إنهما حقاً من الأكابر»، قال، وأشعل سيجارة.

«تقصد أعطاك بقشيشاً أكثر من ليرة؟» سأله موظف الاستقبال، «دعني أحزر - ليرتان؟»

ابتسم صبي الفندق ابتسامة عريضة، وقال: «أكثر من ذلك».

إذاً لم يخذلني أنفي، قال موظف الاستقبال لنفسه. لا بد أنهما مسيحيان غنيان يمضيان شهر العسل. لا، يجب أن يصحّح تقييمه هذا، فلا بد أنهما مسيحيان ثريان جداً. حتى أنهما لم يساوما على أجر الغرفة. كان سيعطيهما الغرفة بنصف هذا المبلغ في موسم الكساد هذا، وها هما الآن ينفحان صبي الفندق إكرامية أكثر من ليرة. السعوديون الأثرياء فقط هم الذين يعطون أكثر.

«ثلاثة؟»

«هذا صحيح»، أجاب السوداني، وارتفع حاجباه وابتسم ابتسامة عريضة مبتهجاً.

٣٠٠- الجواب

ما إن أغلقت جورجينا وسركيس شماس باب الغرفة وراءهما، حتى ارتميا على السرير الكبير، وقد كاد يغمى عليهما من لهيب الشهوة.

قبّل أحدهما الآخر. راحا يضحكان ثم يبكيان من البهجة، وخلع أحدهما ثياب الآخر. التصقت المرأة بالرجل وراحت تمصّ شفته السفلى، بينما داعبها وقبّل ساقها اليمنى الملقاة على كتفه.

عندما لم يعد بإمكانه تأخير رعشة الذروة همس لها إنه يحبّها. أحسّت المرأة كأنّ ناراً سائلة تجري في عروقها، وقالت: «أحبّك أيضاً يا فريد».

بعد أن ارتويا، استلقيا بجانب بعضهما، ولعق وجهها المتعرّق.

«أجد صعوبة كبيرة في مناداتك سركيس»، قالت، «لماذا يسهل عليك أن تناديني جورجينا؟ هل كنت على علاقة بفتاة تدعى جورجينا؟» وشدّت شحمة أذنه بمودة.

«لا، لا شيء من هذا القبيل، لكن عندما تعملين في حركات سرية، فإنك تتعوّدين بسرعة على الأسماء الجديدة المستعارة».

«فريد ورنا اسمان ملائمان لقصّة حبّ، أما سركيس وجورجينا فيبدوان لي اسمَي قدّيسَين. *يا رب ارحمنا*».

ضحك فريد، وقال: «أخشى أنني لا أستطيع الاختيار. كما فهمت، فقد استخدم المزوّر أسماء طفلين ماتا في السنوات التي ولدنا فيها. الشيء المهم الوحيد هو أن جوازات السفرهذه مكّنتنا من عبور الحدود السورية بخير وسلامة. إني واثق من أن مهدي قد سارع إلى وضع اسمي على جميع مراكز الحدود. سنسافر في الواحدة بعد ظهر يوم غد. عندما نغادر الفندق بعد الفطور سأتلف جوازي السفر المزوّرين ونحن في طريقنا إلى المطار، بعدها نعود لنصبح رنا وفريد - إلى الأبد».

«هل أصبحنا في أمان أخيراً؟ والآن هل يمكنك أن تقول لي لماذا سنسافر إلى ألمانيا، لا إلى فرنسا؟»

«نعم، يا قلبي الغالي، لدينا مقعدان للدراسة في هيدلبرغ. سأواصل أبحاثي في الكيمياء، ويمكنك أن تدرسي الفلسفة إذا أردت. لقد حصل ابن عم كلير لنا على قبول في الجامعة. إنه مستشرق معروف في الجامعة، ولن

twitter @baghdad_library

يعثر علينا أحد هناك. إن مهدي وجهاز أمنه يعرفون أننا كنّا نزمع الذهاب إلى فرنسا. لذلك أكّدت لهم هذا الاعتقاد، بل حتى حجزت على الطائرة المسافرة إلى باريس وعلى الخطوط الجوية الفرنسية. لقد أعطتني كلير النقود لشراء تذكرة على الخطوط الجوية الفرنسية، وأعلمت مهدي، من خلال صديق جيد لي، بموعد الرحلة. لا بد أن هذا اللقيط تحقق من شركة الطيران أني بالفعل حجزت للسفر إلى فرنسا، ولأنني أعرفه جيداً فإني متأكد من أنه سيأتي إلى المطار شخصيا ليراني ذليلاً. من المقرر أن تقلع الطائرة قبل وصولنا إلى بيروت».

«هل أنت متأكّد؟»

«بأننا هزمناه وتركناه يلحس التراب خلفنا؟ متأكّد تمام التأكد. سأتّصل بكلير من ألمانيا عندما لا نعود نخشى شيئاً، عندها سنعرف كل ما حدث».

«يا إلهي! يا له من شيء رائع أن يعرف حبيبي طريقه في العمل سراً»، قالت رنا وهي تعانقه. كانت تتضوع منه رائحة لذيذة اليوم. سرعان ما غطت في النوم.

عندما استيقظت كان النهار قد طلع. تسلل الضوء من خلال فتحات درفتي النافذة. كان فريد يتنفّس بهدوء. كان يبدو أكثر وسامة من أي وقت مضى في الضوء الخافت، وراحت تعضعض رقبته برقة. استيقظ وقبّلها.

«هل إني أحلم، أم أن كلّ هذا حقيقي؟» سألها، ودغدغها. لم يتوقف إلا عندما ضحكت بصوت مرتفع وكادت أن تسقط من فوق السرير.

«من الغريب أنني أشتاق إليك مع أنك تنامين معي هنا»، همس، وانحنى فوقها.

«إنك بجانبي، لكنك في هذه اللحظة لا تضاجعني»، قالت بخبث. تحرقها الشهوة، وجلست مباعدة بين ساقيها فوق فخذيه وراحت تضغط عليه بلطف على السرير. ثمّ ضاجعته بحرارة لاهبة، وتذكرت أول لقاء لهما في بيت الصابوني. كانت لمسته الأولى قد اتجهت إلى قلبها مباشرة. هنا على هذا السرير المريح، أحسّت بها رنا مرة أخرى. كانت كلّ لمسة من يديه

تطلق تيارات كهربائية تحت جلدها. كانت تشعر بأنّها تدغدغها حتى تكاد توشك على أن تضحك.

في الخارج، كانت النوارس تنقضّ وتصيح، ثم اندلعت فيها نار لاهبة سرت في عروقها. ارتعش فريد، وضمّها إليه.

انسلّت رنا من السرير، ارتدت قميص نومها واقتربت من النافذة. دقت الساعة المنتصبة على برج الكنيسة الساعة العاشرة. فتحت رنا النافذة المزدوجة ورأت الريح تجعّد سطح البحر. كانت الموجات ترغي عندما ترتطم بمصد الأمواج. أمّ شابة وابنها كانا يطعمان النوارس بقطع من الخبز الجاف، وكانت الطيور تصرخ وهي تتصارع عليها. عندما ارتطم جانبا النافذة بالحائط، طارت حمامتان بالقرب من النافذة مذعورتين.

طائرة ركاب كانت تعبر السماء على ارتفاع عال، مخلّفة وراءها أثراً أبيض. كان يبدو مثل أول سطر من الطباشير رسمته رنا على الإسفلت عندما كانت طفلة لتحديد فراغات لعبة القفز الأثيرة لديها: «الفردوس».

أغمضت عينيها وتنشقت النسيم المنعش الذي داعب وجهها. ثمّ صرخت بأعلى صوتها «نعم».

كان فريد لا يزال مستلقياً في السرير منهكاً، مغمضاً عينيه، مستمتعاً بإغفاءة سريعة، استيقظ مجفلاً. التفتت رنا ونظرت إليه. حدّق فيها، متفاجئاً.

كيف كان عليه أن يعرف أنّ «نعم!» التي انبعثت منها، كانت رداً على السؤال الذي سألته قبل تسع سنوات ونصف؟

twitter @baghdad_library

كتاب الموت الثاني

الحقيقة جوهرة مالكها غني وحياته مليئة بالمخاطر

*

دمشق، ساحل البحر الأبيض المتوسط، ربيع - خريف ١٩٧٠

٣٠١- إشاعات

كان العقيد بدران شغوفاً بالسينما، وكان يعشق مشاهدة الأفلام البوليسية. وقد سبق له أن كتب ثلاثة سيناريوهات أفلام، لكنّ الغبار علاها في درج مكتبه. في هذا اليوم كان يرتدي ثياباً مدنية ويضع نظارات شمسية وهو يسير إلى جانب أرملة سعيد، خلف تابوت زوجها القتيل، وقد وكل صديق له أن يصوّر المناسبة كلها بآلة التصوير الجديدة التي اقتناها.

عندما غادر المعزّون القلائل منزل أرملة سعيد، بقي العقيد في الشقة وأفضى إليها بأن طموح زوجها قاده إلى التورط في مؤامرة، وقال إن حفنة من الضباط من ذوي الرتب العالية كانوا يخطّطون للقيام بانقلاب، ووعدوا مهدي بأن يصبح وزيراً للداخلية. في البداية، مضى زوجها معهم، لكنه سرعان ما أفاق وبدأ يشعر بوخز الضمير، فحاول الانسحاب.

لم تتمالك الأرملة نفسها من الضحك. «شعر بوخز الضمير» قالت، وكادت تختنق من الضحك. «مهدي يشعر بوخز الضمير؟ لا بد أنك تمزح». تردّد العقيد، لكن عندما ارتمت الأرملة على ظهرها على الأريكة من شدّة الضحك، لم يعد يحتمل. فجلس إلى جانبها ووضع يده على ركبتها التي حسرت ثوبها عنها. كانت في غاية النعومة كما لو كانت تخلو

من العظام. لم تُبْدِ أي امتعاض، فضغط عليها أكثر. ظلت الأرملة مستلقية على ظهرها، وأغمضت عينيها، وباعدت بين ساقيها.

داعبها بدران برقة شديدة، وفوجئ عندما اكتشف كم كانت الثياب الداخلية التي كانت ترتديها تحت ثوب الحداد مثيرة. كانت تتقد شهوة. استمتع بدران بمداعباتهما الغرامية على الأريكة، وعندما دنت الأرملة من بلوغها الرعشة، حملها إلى غرفة النوم، ووضعها بعناية فوق السرير وضاجعها بحرارة.

عندما بلغا رعشة الجماع غمرت الأرملة سعادة كبيرة لأول مرة منذ ما بدا دهراً.

استلقى بدران بين ذراعيها، وراح يضحك ويهزّ رأسه.

«ماذا في الأمر؟»

«حتى إني لا أعرف اسمكِ الأول يا مدام سعيد، وقد ضاجعتك للتو».

ابتسمت وقالت: «اسمي بلقيس، ولا أريد أن يُطلق علي اسم آخر». ثم حدّثته كم كان مهدي سعيد رجلاً بارداً. «بعكسك تماماً، كان فظاً ومتوحشاً بيديه، لكنّه عديم الفائدة في الجزء الأسفل».

لم تبق علاقتهما سرّية لفترة طويلة، وسرعان ما انتشرت إشاعة مغرضة تقول إنه مهدي كان مقدراً له أن يموت، لأن العقيد كان على علاقة غرامية مع زوجته، وأنهما خنقاه خوفاً من الفضيحة.

٣٠٢- المثابرة

لم يكن المفتش البارودي مقتنعاً بأن لبدران أي علاقة بجريمة القتل. فالرجل لديه الكثير من العشيقات في دمشق، وقد تمكن البارودي بسهولة من اكتشاف أربعة منهن.

كان يظنّ منذ أمد بعيد أنه ربما كانت هناك داوفع سياسية وراء مقتل مهدي، لكن دليل بصمات الأصابع لم يؤيد شكوكه تلك. ولما كان الورق أحد المواد القليلة التي لا تختفي منها بصمات الأصابع، فقد رفع البصمات

twitter @baghdad_library

من قصاصة الورق التي عثر عليها في جيب الرائد المقتول، كما حصل سرّاً أيضاً على بصمات الضبّاط المدانين من ملفات الجيش. لكنه لم يجد أي شبه بين بصمات أي من هؤلاء الضباط وبين البصمات الموجودة على قصاصة الورق تلك على الإطلاق.

هل يتستر بدران على شيء؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟

بعد بضعة أيام، أصبح بالإمكان استبعاد الأرملة كمصدر للمعلومات لأنها عشيقة العقيد. وضع المفتش البارودي كلّ المعلومات التي كان قد جمعها في ملف واحتفظ به في مخبأ تحت طاولة مكتبه.

لاحظ المساعد العجوز منصور الذي كان يشاركه غرفة المكتب، أن المفتش يحتفظ بسرّ، لكنّه لم يعرف ما هو. ومنذ قضية «مهدي»، لم يعد الملازم الأول الشاب يعمل بالجد الذي دأب عليه في الماضي، فبدأ يصل إلى العمل في وقت متأخّر، وكان على الأغلب شارد الذهن.

«انتظر أيها الفلاح الغبي، سيغلبك منصور»، همس المساعد، وابتسامة ترتسم على شفتيه.

عندما حلّ الصيف، بدأ البارودي مساراً جديداً في بحثه. فقد قرّر أن يعرف من أين جاءت الورقة التي عُثر عليها في جيب المغدور. كان الجواب سهلاً. فقد كانت خمسة محلات لبيع التحف والواقعة في الحي المسيحي تستخدم هذا النوع من الورق الرمادي الفاتح، كانت عشرة محلات أخرى تستخدم ورق الصرّ المصفّر. دوّن أسماء أصحاب المحلات والعاملين فيها، لكن هذا المسار لم يقده إلى شيء.

في نهاية آب، أخذ البارودي عطلة لمدة أسبوعين، عندما لاحظ أن جريمة القتل هذه أصبحت هاجسه الرئيسي وحالت دون انكبابه على القضايا الأخرى. كان يريد أن يعرف ما الذي حدث تماماً، فقرر إمّا أن يحقق نجاحاً باهراً، وإما أن ينسى الأمر برمته.

من هو هذا الرجل الذي يدعى مهدي سعيد؟

كان كل ما يعرفه البارودي عنه هو أنه من مدينة صافيتا الصغيرة القريبة من الساحل، وأن أصله مسيحي ويدعى سعيد بستاني.

تساءل وهو يركب الحافلة المتّجهة إلى صافيتا، عمّا إذا كان قتله ناجماً عن انتقام مجموعة مسيحية دينية متطرفة.

وصل إلى صافيتا بعد أربع ساعات منهكة لأن الحافلة كانت قديمة وكان السائق يقف بعد كل نصف ساعة سفر ليبرد المحرك. كانت المدينة جميلة، جعلته يبدو متفائلاً، وفجأة أحسّ بأنه اقترب كثيراً من هدفه. بعد ساعتين تأكدت هواجسه. فقد كانت عائلة بستاني معروفة في المدينة. كانت أمّ المغدور، ريحانة بستاني، أرملة طاعنة في السن، حادّة المزاج، ترتسم على وجهها علائم تدل على صعوبة الحياة التي عاشتها. كانت منكفئة على نفسها، ورفضت أن تنبس بكلمة واحدة للمفتش، لكن فجأة ظهرت ابنتها منى عند المدخل وأبدت استعداداً للحديث معه. أخذت جهوده على محمل حسن، لأنه لم ترق لها فكرة أنّ شقيقها متورط في مؤامرة سياسية.

«لقد أتيت إلى هنا بصفتي الشخصية، وأريد أن أعرف الحقيقة فقط»، قال المفتش وهو لا يزال واقفاً على باب بيت أم المغدور مهدي، وفجأة استدرك قائلاً: «لست مرغمة على الإجابة عن أيّ سؤال أطرحه عليك»، بعد أن أدرك أنه لم يكن يملك أي وسيلة تجبرها على الإجابة.

«انتظر لحظة، سأعود في الحال»، قالت المرأة، وعادت إلى داخل منزل أمّها. قدّر البارودي أن منى في الخامسة والعشرين من عمرها، لكنه سرعان ما اكتشف أنها في السادسة والثلاثين، أي أنها تكبر شقيقها المغدور.

كانت قوية البنية بعض الشيء، ذات وجه ناعم، عريض، فيه فسحة واسعة لابتسامتها. «تفضل لزيارتنا، فأمي تعبة ويائسة، لا تؤاخذها أرجوك فقد تحملت في الأسابيع الماضية الكثير من الشماتة والهزء لمصير أخي»، قالت له، عندما خرجت ثانية، «إني متأكّدة من أنك جائع. ألم تقل إنك قطعت كل هذه المسافة من دمشق؟»

كانت منى وزوجها فاروق الذي انضم إليهما لاحقاً يجسدان اللطف

twitter @baghdad_library

والكرم. ودعيا البارودي إلى وجبة طعام لذيذة، وقدّما له كلّ المعلومات التي كان يحتاجها عن الرائد القتيل. عندما حلّ المساء، أصرّا على أن يمضي الليلة في بيتهما.

كان البارودي ينوي حقاً الذهاب إلى دير القديس سيباستيان، لكن لم تكن هناك حافلة تذهب إلى المناطق الجبلية في الليل. تقلّب كثيراً في نومه، ولم يتوقف عن إضاءة المصباح الصغير المنتصب بجانب السرير وتدوين كلّ ما جرى معه من أحداث. في صباح اليوم التالي، بعد أن تناول فطوراً شهياً استأذنهما في الذهاب. لوّح زوج منى مودعاً للمرّة الأخيرة من محطة انطلاق الحافلات، ثم اختفى في غيمة سوداء كثيفة. أخرج البارودي دفتر الملاحظات الصغير الذي دوّن فيه اكتشافاته الجديدة.

وضع خطاً تحت السطور التالية: كان الرجل المقتول يُعرف في الدير باسم بولس. واسمه عندما كان طفلاً سعيد بستاني.

ثم اعتنق الإسلام للترقي في عمله، الأمر الذي أحزن أخته، وقالت إنه أصبح يدعى منذ ذلك الحين مهدي سعيد.

نقل آخر الحقائق التي جمعها، والتي دوّنها في عدّة قصاصات من الورق إلى دفتر الملاحظات، وكان يحرص على كتابتها بخط واضح.

كانت مدينة اللاذقية مسقط رأس أمّ منى. أغرمت الأمّ بابن رجل إقطاعي غني وجريء من الجنوب، رجل يدعى موسى شاهين، تزوّجته وانتقلت إلى قريته معلا، لكن لم يخطر ببالها قط أنّ عائلة زوجها وعشيرة أخرى تدعى مشتاق في حالة عداء دموي مستحكم. في القرية، أطلق شخص يدعى حسيب مشتاق النار على والد منى عندما كانت في السابعة من عمرها، فأرداه قتيلاً. تتذكّر والدها الذي كان يحبّ الضحك والغناء وكان رجلاً وسيماً. عادت الأرملة مع منى وشقيقها سعيد إلى بيت الجدّ في اللاذقية حيث التقت بكريم بستاني الذي كان آنذاك مدير معمل تقطير العرق في اللاذقية. تزوّجها وأرغمها على أن تتحول من الأرثوذكسية إلى

الكاثوليكية، واتخذت لها ولطفليها اسم عائلة بستاني. لكن زوج الأمّ كان يكره سعيد منذ البداية فأرسله إلى الدير. وفي السنة نفسها، انتقل كريم بستاني مع أسرته إلى صافيتا حيث حاول أن يفتتح معملاً صغيراً لتقطير العرق، لكنه فشل فشلاً ذريعاً، لأنه كان قاسياً وفظاً بطبيعته.

استُقبل البارودي ببرود في الدير، لكن أحد الآباء تذكّر أن مشكلة كبيرة وقعت قبل خمس عشرة سنة تقريباً، كان بولس أو سعيد بستاني متورطاً فيها. أمضى البارودي خمسة أيام في بيت الضيافة التابع للدير قبل أن يخبره أحد العاملين هناك عن الأصدقاء الثلاثة بولس وبرنابا ومتّى. وكان هو، آنذاك، تلميذاً في الدير نفسه، وانتمى إلى الجمعية السرية التي كانت تطلق على نفسها اسم «الإخوة السوريون» التي أسّسها بولس، وعرف أيضاً عن العداء الذي برز فجأة بين بولس وبرنابا المذكور، وكيف أن متّى قد جُنّ.

حزم البارودي حقيبته وعاد إلى دمشق. أصبح في قائمته الآن ثلاثة أسماء: بولس (سعيد) بستاني وبرنابا (فريد) مشتاق ومتّى (متّى) بلوطا.

شعر بالسعادة. فقد تمكن أخيراً من ربط الأطراف الفالتة. إذن فالأمر كله يتعلق بثأر عائلي. لا بد أن القاتل واحد من هذين الاثنين، متّى أو فريد، قال لنفسه وهو عائد إلى دمشق. لكن أيّهما؟ في اليوم التالي توجّه إلى معلا حيث سمع من حلاق ثرثار أنّ متّى في الحقيقة هو الأخ غير الشقيق لفريد مشتاق. «فقد حبّل إلياس مشتاق نسيبة، أمّ متّى، وتزوّجها راع فقير، لكنّه لم يعترف قط بابنها البكر، وكان يطلق عليه دائماً «زبالة مشتاق».

بذلك اكتملت دائرة التحقيق. أمضى البارودي ليلة كاملة في تدوين محضر القضية في غرفته، واضعاً كلّ شيء بالترتيب، معيداً صياغة الجمل. كان يعرف أن رئيسه سيرفض إعادة فتح القضية على الفور إذا لم يبرهن بالدلائل على أي شيء مهما كان صغيراً في هذه القضية.

كان نومه مضطرباً. عندما استيقظ اغتسل وحلق ذقنه بعناية. كان يتوقّع أن يواجه صعوبات، لكنه أبداً لم يتوقّع المشاكل التي انتظرته حقاً.

twitter @baghdad_library

٣٠٣- وداع غير مشرف

كان البارودي يتوقّع أيّ شيء عندما دخل مبنى إدارة التحقيق الجنائي بعد انقضاء إجازته، لكنه لم يتوقّع إطلاقاً تلك اللوحة الصغيرة الجديدة المعلّقة على باب مكتبه المكتوب عليها المفوّض محمود سلطاني. توقّف البا:ودي لوهلة ثم واصل طريقه. كان يعرف أن رئيسه يعلق أهمية كبيرة على الإجراءات الشكلية الرسمية، وسيغضب ويحرد كثيراً مثل طفل إذا لم يتوجه إلى مكتبه مباشرة بعد عودته من الإجازة ويحيّيه بطريقة تبجيلية. قرع باب السكرتيرة. ابتسمت له السيدة سُّكري ابتسامة باهتة، وردت «صباح الخير» وتظاهرت أنها مشغولة كثيراً ثم قالت: «يمكنك الدخول لرؤية الرئيس. إنه ينتظرك».

«آه، ها هو شرلوك هولمز، أخيراً»، حيّاه العقيد خوجا بنبرة تشي بلؤم شديد، وأخذ يهزّ رأسه، عندما دخل البارودي. مدّ العقيد يداً مرتخية وأشار إلى كرسي قديم أمام طاولة مكتبه. جلس البارودي ووضع تقريره على الطاولة.

«يجب أن تعتبر نفسك محظوظاً لأن للمساعد منصور قلباً رقيقاً ولا يشي وفاءً لي بأحد ممن يعمل تحت إمرتي. إشكر ربك يا رجل»، بدأ خوجا كلامه، ثم تابع، «من تظن نفسك يا ملازم أول البارودي؟ كنت أنا نفسي متحمّساً لمعرفة الحقيقة عندما كنتُ ضابطاً شاباً، لكنّي لم أفعل ذلك قط من وراء ظهر رئيسي. هل تعرف ماذا سيحدث لك لو سُلِّمت الأوراق التي جمعتها سرّاً إلى العقيد بدران؟ حسناً، أظن أنك تعرف مصيرك آنذاك جيداً، ام لا؟ هل تعرف أنه كان بإمكان منصور الحصول على جائزة لو كان قد أعطى كلّ ما جمعته من مواد من خلال تجسّسك غير المشروع إلى بدران بدلاً من إعطائي إياها؟ لقد وجدها منصور في ملف أسفل طاولة مكتبك. إن كنت تريد أن تظهر نفسك بأنك رجل مخلص ونظيف فلا تسلك هذه الطريقة القذرة. كلّ ما يظهره الملف هو أنك محقّق جنائي فاشل وعديم الفائدة. ومن باب صداقتي فقط للعقيد قلعجي، رئيسك السابق في حلب، فإني

سأتلف الآن الملف أمام عينيك، وبعدها سأنسى أنك جمعت فيه وثائق من وراء ظهري وأتغاضى عن عقاب استحققته».

استوى العقيد واقفاً. توجّه إلى خزنة وأخرج منها ملف البارودي. ضغط زرّاً في جهاز جديد وألقى فيه الملف وألحقه بالتقرير النهائي الذي كان أمام البارودي على الطاوله دون أن يفتح الغلاف. سمع صوت جلبة طاحونة كهربائية تطحن شيئاً ثم خرجت منها قصاصات ورق رفيعة لا يزيد عرضها على نصف سنتيمتر. بصعوبة تمكّن البارودي من حبس دموعه. لقد دمّر هذا الحقير كلّ ما فعله.

«البارحة وصل أمر نقلك إلى الحدود الأردنية»، قال العقيد خوجا أخيراً، بصوت هادئ، وأضاف «ستكون مسؤولاً عن نقطة تفتيش الحدود الصغيرة هناك بعد ثلاثة أيام. إنها نقطة تفتيش هادئة». ثم مدّ يده مودعاً، كما لو كان يريد أن يقول له إنه لم يعد يرغب في التحدث في الأمر وأن زيارته إنتهت.

جرّ البارودي نفسه إلى الخارج. كانت قدماه ثقيلتين. عندما أغلق الباب وراء مكتب رئيسه بهدوء ودخل إلى مكتب السكرتيرة، رفعت السيدة سُكّري بصرها وقالت له بجفاف: «أغراضك الشخصية في صندوق كرتون في مكتبك القديم»، وواصلت الطباعة على الآلة الكاتبة بصخب.

لم يأخذ نفساً عميقاً إلا بعد أن خرج إلى الممر. كان هذا أسوأ يوم في حياته. لقد خانه منصور بدسائسه، وطُرد من عمله - وخُفّضت رتبته إلى شرطي على الحدود.

فتح البارودي باب مكتبه السابق. كان مفوّض شاب بدين يجلس وراء طاولة مكتبه يلعب الورق مع منصور الذي تظاهر بالتعاطف معه، لكن ابتسامة مساعده المنتصرة لم تفلت من عيني البارودي.

«إنك لم تعثر على ملفي بالصدفة، بل أخرجته من المكان الذي خبأته فيه ووشيت بي يا خائن»، قال هادراً، وشعر بأنه لا يريد الغوص أكثر من ذلك الآن.

twitter @baghdad_library

«دورك»، قال منصور للمفوّض الشاب الجالس إلى الطاولة وكأنه لم يسمع ما قاله البارودي. وضع المفوّض ورقة «صبي قلب».

أخذ البارودي صندوق الكرتون الذي كان يحتوي على مشطه وربطتي العنق اللتين كان يحتفظ بهما في المكتب للمناسبات الرسمية المستعجلة، ولوحة عليها اسمه مصنوعة من خشب الجوز، وبضع مجلات وكتب عن العلوم الجنائية وقانونية كان يحتفظ بها في أدراج طاولة مكتبه، وغادر دون أن يودعهما.

في تلك اللحظة مات أمل صغير في زاوية بعيدة من قلبه.

كتاب الألوان

أروع الألوان هو لون الكلمات السرّي

*

دمشق، بيروت، فرانكفورت، هيدلبرغ، مانهايم، ميونخ،
مارنهيم، بعد ٣٤ سنة، صيف عام ٢٠٠٤

٣٠٤- حجر الفسيفساء الأخير

في عام ١٩٦٢، قُتلت امرأة مسلمة شابة أمام عيني وأمام أعين جميع جيراننا لمجرد أنها تجاوزت خطوط الانقسام الديني وأحبّت رجلاً مسيحياً. المحزن في الأمر هو أن الرجل لم يكن جديراً بذلك الحبّ، لأنه كان زير نساء.

في تلك الفترة، عندما كنت شاباً في السادسة عشرة من عمري، كنت أرى العالم كسلسلة لا نهاية لها من الحكايات، قلت لنفسي إن أحداً ما عليه أن يكتب رواية عن جميع أشكال الحبّ المحرّم المنتشرة في بلاد العرب، وتلهفت لعمل ذلك بكلّ سذاجة العاشق وكنت أعتقد أن مثل هكذا رواية مقنعة ستغير المجتمع. لكن جعبتي من أدوات كتابة القصة التقنية، والمعرفية لم تكن قد تطورت ونضجت بعد إلى الحد الذي يجعلني أحوّل مثل هذه الفكرة إلى قصّة. وقد بذلت محاولاتي الأولى من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٦٧. لكني فشلت فشلاً ذريعاً.

في السنوات التي أعقبت ذلك، أكملت دراستي الجامعية في كلية العلوم وتخصصت في الكيمياء والفيزياء والرياضيات. لكن الرقابة

twitter @baghdad_library

والدكتاتورية السياسية أثبتتا لي أن خططي للعيش في سوريا كمدرّس وكاتب ستبوء بالفشل، لأن النظام الاستبدادي لا يترك مجالاً لأيّ ظلال في الوسط؛ فإن لم تكن معه، فإنك ضدّه. وحسب التفكير القبلي السائد فأنت لست معارضاً لك الحق في ذلك بل عدواً خائناً يتوجب القضاء عليك.

أحسست بأني أكاد أختنق عندما تركتُ عائلتي وهجرت مدينتي التي أحب دمشق في نهاية عام ١٩٧٠. كنت قد راسلت عدة جامعات أجنبية لإكمال دراستي فيها، لكن لم تكن أي منها قد ردت عليّ. لكن بعد تخرجي من جامعة دمشق، وانتهاء فترة تأجيلي من الخدمة العسكرية الإلزامية، أصبح بإمكان السلطات استدعائي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية في أيّ يوم. لذلك كان عليّ الخروج من سوريا بسرعة، وكنت آمل أن تقبلني إحدى الجامعات الأجنبية التي كنت قد راسلتها.

سافرت إلى بيروت التي كان لي فيها عدد من الأصدقاء والأقارب. كان ذلك من حسن حظي. بعد ثلاثة أيام من سفري إلى بيروت وصلت بطاقة استدعائي إلى الخدمة الإلزامية. لو تلكأت عن السفر وبقيت في دمشق آنذاك لتعيّن عليّ أن ألتحق بأحد مراكز تجمّع المجنّدين الأغرار خلال ثمان وأربعين ساعة، ويكون اسمي قد عُمِّم على جميع مراكز الحدود، عندها تصبح الهجرة القانونية ضرباً من المستحيل. عندما يتعلق الأمر بإخضاع البشر وإذلالهم، فإن أكثر البيروقراطيين بطئاً وكسلاً في العمل في العالم الثالث يتحوّلون إلى خدم في الدولة ويعملون بسرعة وفعّالية إلى درجة لا يمكن وصفها. لم أكن سأنجو بحياتي او بعقلي من السنوات التي كنت سأقضيها في الخدمة العسكرية.

حينذاك، كانت بيروت تعجّ بالسياسيين المعارضين الوافدين من جميع البلدان العربية، الأمر الذي جعل تلك المدينة الجميلة القابعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط قاعدة للإطاحة بأنظمتهم الشنيعة، وكان ذلك يتم غالباً بدعم مالي يقدمه نظام آخر أكثر سوءاً واستبدادية. لذلك كانت المدينة أيضاً أرض صيد ثمينة لجميع أجهزة المخابرات في العالم. إن هوس

المُلاحَقة والاضطهاد معدٍ أكثر من الزكام بكثير. فكل من يريد أن يعيش في تلك الغابة وأن لا يُقتل، يتعين عليه أن يكون حذراً وأن يتفادى جميع أنواع التواصل غير الضرورية. ففي كلّ يوم، كنت أقرأ في الصحف أخباراً عن عرب يعيشون في المنفى إما أنهم اختفوا أو اختُطفوا أو قُتلوا.

انتظرت ثلاثة أشهر حتى وصلتني رسالة قبول من جامعة هيدلبرغ. عشت طوال تلك الفترة حياة هادئة دون أن أظهر كثيراً في شوارع بيروت في شقة صديقي سمير الذي كان زميلي في المدرسة البطريركية الكاثوليكية في دمشق، من الصف الأول وحتى امتحاناتنا النهائية. كانت شقّته كبيرة ومؤثّثة جيداً. عاودت العمل على روايتي لكنني أخفقت مرة أخرى. كانت بيروت مليئة بالاضطرابات، وكانت إرهاصات الحرب الأهلية قد بدأت تقرع أبواب المدينة بأيد ملطّخة بالدم. فجأة تحوّلت قصّتي إلى قصة رومانسية تجري أحداثها خلال الحرب الأهلية، وتنتهي نهاية سعيدة يتحرر فيها المجتمع.

كان مضيفي سمير من عائلة مسيحية غنية تعمل في صياغة الذهب. بعد أن أنهى دراسته في المدرسة ذهب إلى بيروت وبدأ عملاً تجارياً. اشترى شقّة كبيرة له لأنه كان يزمع الزواج من خطيبته التي كان قد اختارها له والده، وهي ابنة بائع مجوهرات ثري. لكن قبل ليلة الزفاف بشهر هربت العروس مع طبيب شاب. لم ينزعج سمير لهذا الأمر، لأنه لم يكن يحبّ خطيبته أصلاً، بل كان ينوي الزواج منها فقط. في ذلك الحين، حين وصلت إلى بيروت، كان مغرماً بمومس شابة، يزورها كلّ ليلة تقريباً. بعد سنة، تزوّج سمير فتاة اختارتها له أمّه، وسارت الأمور على ما يرام هذه المرة. لكني كنتُ قد سافرت إلى ألمانيا حينذاك.

عندما وصلتُ إلى بيروت، كان سمير منهمكاً في نقل عمله التجاري سراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لأنه كان يتوقع أن حرباً أهلية ستندلع في الشرق الأوسط قريباً. كان عليه أن ينقل مبلغاً يزيد على مليون دولار، وكان يريد تجاوز هيئة الدخل والضرائب في كلا البلدين بأقل قدر ممكن من

twitter @baghdad_library

الخسارة. نجح في القيام بذلك خلال سنتين. وبعد سنتين أُخريين، اندلعت الحرب الأهلية في لبنان.

كما قلت كان سمير مشغولاً في تحويل أمواله ومزاولة أعماله اليومية وزيارة صديقته. كنت أراه يومياً، لكن لم يكن لديه وقت أكثر من أن نتناول القهوة معاً أو ندردش قليلاً. قلما عرفتُ مثل هذا السلام في حياتي. فقد كنتُ حرّاً طوال اليوم، وعشت مع شخصياتي الروائية، مستمتعاً بالحياة الهادئة على شاطئ البحر. لكن على الرغم من ذلك كنت متشوقاً للهجرة. كانت تراودني كوابيس بأنني اختُطفت ونُقلت إلى إحدى الثكنات في دمشق. إن العبودية تصبح أسوأ بكثير بعد أن تكون قد تعلّمت كيف تتنفّس هواء الحرية.

أخيراً، وصل قبولي في جامعة هيدلبرغ. بعد أسبوع واحد حصلت على تأشيرة سفر. وقبل سفري ببضعة أيام جاءت أمي وأبي لتوديعي. مكثنا عند عمّي إلياس، أصغر أشقاء أبي، وأمضينا بضعة أيام جميلة معاً.

كان أبي يحبّ التحدّث مع أخيه الذي كان نادراً ما يراه. كانا يلعبان طاولة النرد أو يزوران بعض الأصدقاء المشتركين. كنت أدعو أمّي يومياً لتناول القهوة على الشاطئ أو في المدينة، بعد أن نتمشى ساعات طويلة. في صباح أحد الأيام، جلسنا في مقهى بالقرب من الميناء. كان البحر هائجاً، وأمواجه تتلاطم على جدار الميناء، ترغي وتزبد، ويصل رذاذه إلى نوافذ المقهى حيث نعمنا معاً بأمان في الدفء، نستمتع باحتساء القهوة المتبّلة بالهيل والحكايات. خطر لي سريعاً أننا لو كنّا في فيلم الآن، فلا بد أن أنطوني كوين سيدخل علينا، كما دخل إلى المقهى الشبيه بمقهانا في فيلم زوربا اليوناني. لكن هذه كانت حياة حقيقية، ودخل الناس من شتى المشارب من الباب، ولم يكن بينهم أنطوني كوين.

«إنك تحبّ القصص»، قالت أمّي وهي تنظر إلى الخارج ترمق طيور النورس التي كانت تصارع الريح العاصفة. هززت رأسي.

وهكذا بدأت تحكي القصة. «لن يصدق أحد أن امرأة يمكن أن تتمتع بهذا القدر من القوة والشجاعة». لم تعرف أمي أشياء كثيرة عن أسرة فريد، مع أن بيتهم لم يبعد كثيراً عن بيتنا. لكن في باحات بيوتهم وحمّاماتهم، كانت نساء الحيّ جميعاً يتناقلن همساً قصة هروب العاشقَين، رنا وفريد، وانتقام رنا من زوجها عندما باعت جميع محتويات بيتها وبيت زوجها إلى تاجر الأغراض والأثاث المستعملة. كان جوهر قصّة أمّي واضحاً، لكن كان يعتري الحكاية ثغرات عديدة قبل حدوث الانتقام. فقد استمدّت حكايتها قوتها من الموضوع الآسر عن امرأة تجرأت على أداء دور نبتة صبّار، تعيش في الصحراء ثم تزهر. وباللغة العربية فإن كلمة «الصبر» توحي بالشجاعة والجَلد وليس القدرة على الاحتمال. فكلمة «صبر» تعني «الِحلْم» و«الشجاعة» وتعني بنفس الوقت «الصبّار».

وصفت أمّي كلّ لحظة من تلك اللحظات بدقة متناهية مثل محقق يعيد بناء الأدلة والقرائن التي جمعها في قضية يحقق فيها. لكن لا يوجد محقق في إدارة التحقيق الجنائي في العالم كله يستطيع أن يصف بدقة القسمات والتعابير التي كانت سترتسم على وجه زوج رنا عندما يعود إلى بيته ويكتشف أنه أصبح خاوياً تماماً. لكن أمّي وصفتها بمتعة وبتلذذ كما لو أنها كانت هي التي تنتقم من زوجها. وراحت تضحك حتى طفرت الدموع من عينيها لمجرد التفكير بأن ضابط الجيش سيعود نحو الباب ليتأكد من أنه دخل إلى الشقّة الصحيحة، وهو لا يزال غير قادر على استيعاب الأمر، حتى بعد رؤيته نصف صورته مع عروسه في ليلة الزفاف ممزّقة وملقاة على الأرض.

تحدَّثت لأكثر من ثلاث ساعات. وقبل أن أخلد إلى النوم في تلك الليلة، ملأتُ دفتراً صغيراً فيه حبكة القصّة. كنت أتساءل ما هو المسار الذي يجب أن تأخذه القصة لبلوغ نهايتها هذه، الهروب الذي كان حقيقة واقعة. عند حوالي الساعة الثالثة صباحاً،كتبتُ القصة كلها، وكنت واثقاً تماماً من أن هذه هي القصّة التي طالما كنت أبحث عنها، وأقسمتُ بأنني ما إن أصل

twitter @baghdad_library

إلى ألمانيا، وأفرغ حقائبي وأرتب أموري حتى أبدأ بكتابة روايتي على الفور. لكن تلك الخطة كانت خطة شابّ ساذج لم يعش في المنفى قط. كنتُ قد قرأت عدداً من الكتب التي تتناول هذا الموضوع، لكنّ المرء لا يستطيع أن يتعلّم الحياة في المنفى كما يتعلم أسس الرياضيات، لأن الحياة في المنفى هي على الدوام قصّة فرد وتكون فريدة ومميزة مثل بصمات أصابع المنفي نفسه.

لم أخرج دفتر الملاحظات الصغير ذاك مرة أخرى إلا في بداية ثمانينات القرن العشرين. كان ذلك في مساء أحد أيام نيسان الماطرة في هيدلبرغ، وقرأت مخطط روايتي. كانت فكرة كتابة قصّة عن الحبّ المحرّم تعشعش في رأسي منذ أن كنت في السادسة عشرة من عمري مثل الخادرة في شرنقتها، لا هي يرقة ولا فراشة.

كنت بحاجة ماسة إلى معلومات عن العشيرتين المتناحرتين. وبما أنه لم يكن بمقدوري الذهاب إلى دمشق، فقد أجرى سليم بلوطا، وهو ابن عم بعيد لي من معلا، بحثاً شاملاً عن خلفية القصّة من أجلي، وبعد سنة أرسل لي كتاباً سميكاً من الملاحظات، لم تكن معظم المعلومات الواردة فيه من النوع الذي يمكن استعماله في روايتي، لكنه كان يحتوي أيضاً على كنز ثمين: ثلاث شجرات نسب مفصّلة، عن عائلة مشتاق وعائلة شاهين، بالإضافة إلى عائلة سُرور، عائلة فريد من جانب أمّه.

خمّنت الآن أن الرواية ستستغرق وقتاً وتحتاج إلى السكينة والهدوء، وبدأت أفكّر بها كمشروع سرّي. أمضيت حوالي أربع سنوات في كتابة المسوّدة الأولى. أنهيت تلك النسخة في خريف عام ١٩٨٦ . لكن القصّة ضمت أشياء كثيرة عن الحروب الصليبية العنيفة، وأبرزت راوياً معتوهاً يزيد عمره على سبعمائة سنة لا يموت إلا بعد بلوغ نهاية قصّته. لكن القصّة لم تبلغ نهايتها قط، بل كانت تعود إلى بدايتها المرة تلو الأخرى. وظلت آثار طفيفة فقط من ذلك الراوي في النسخة الحالية، في شخص البحّار الغريب الأطوار والثرثار جبران.

بعد جولة قمت بها في خريف عام ١٩٨٧، رويت خلالها أشكالاً مختلفة من القصّة وقرأت مقتطفات منها في أكثر من سبعين بلدة ومدينة سويسرية وألمانية ونمساوية، كنت لا أزال غير مستعدّ لتقديم الرواية للنشر مع أنها حظيت باستحسان المستمعين. كان ثمة شيء غير ناضج بعد، لكن ما هو؟ باختصار يمكنني أن أقول: مع أنني كنت قد درست المجتمع العربي بدقة، كنت لا أزال لا أعرف تماماً ما الذي يعطي العشيرة العربية قوتها وقدرتها على السيطرة على أفرادها، وكيف، وكنت لا أزال أجهل مدى عمقها في تراثنا. اكتشفت أنني قرأت جبالاً من المراجع التاريخية المبسّطة ذات الدوافع السياسية، التي لم تكن تقدّم، سواء بحسن نيّة أم لا، سوى معلومات مضلّلة. وفي أحيان كثيرة ضلّلتني الأفكار الاستعمارية عنّا، لأنني اعتقدت أنها معلومات صحيحة. لذلك كان عليّ أن أعود وأطهّر دماغي من كل هذه القاذورات الثقافية بدراسة أصول المجتمع العربي دراسة شاملة. وكان من حسن حظّي أنه بدأت تظهر دراسات وتحليلات هامة وجريئة منذ منتصف ستينات القرن العشرين، وأخذ المزيد منها يجد طريقه إلى النشر خارج ميدان البحوث الجامعية. ودعوني هنا أذكر خمسة كتّاب كممثلين عن عدد كبير من الكتّاب وهم: نوال السعداوي التي كتبت عن المرأة العربية، وحسين مروة ومهدي عامل (كلاهما شهداء فكر من لبنان) وهادي العلوي (من العراق) الذين أجروا دراسات مستفيضة مستقلة عن مساهمة العرب في الحضارة، وصادق جلال العظم (من سوريا) الذي كتب نقداً موضوعياً معمقاً عن المجتمع العربي المعاصر.

على الرغم من أن معظم الشخصيات في روايتي هي شخصيات مسيحية مثلي، فإن ثقافتنا لا تزال عربية إسلامية. إن فهم هذه الحقيقة من جميع جوانبها أمر جوهري من أجل مصداقية قصّتي، خاصة في ما يتعلق بالطريقة التي تتصرّف فيها الشخصيات بصورة طبيعية. الوضوح ضروري فلا يمكن رسم صورة دقيقة في الظلام.

وأدركت أيضاً أنني لا أزال أفتش عن الصوت المناسب للراوي. فخلال

twitter @baghdad_library

جولاتي للقراءة في عام ١٩٨٧ تبين لي أنه بسبب الموضوع الشائك «الحبّ والموت» فإن الصوت الذي اخترته كان ساذجاً وخفيفاً إلى درجة كبيرة. لم يكن الصوت الساذج الذي يصقل ويلطّف كلّ شيء بحذف المقاطع المؤلمة هو الذي كنت أحتاج إليه.

كما أنني لست من محبذي ما يدعى بالرواية السياسية، لكن لا يستطيع المرء أن يعيش في ظل أحد أسوأ الأنظمة الاستبدادية في الشرق الأوسط من دون أن يتأثر به تأثراً كبيراً، وهو يعني في هذا السياق رواية قصّة كما لو أنه لم تحدث فيها عمليات اختطاف، أو لم تقع حروب على الإطلاق، أو لا توجد فيها معتقلات وسجون يتعرض فيها الناس للمذلة والمهانة. لقد أردت أن أحكي قصّة حبّ في ظروف قاسية. وفي الرواية، تشكل السياسة والتاريخ الحقيقي الخلفية الأساسية والدعامة التي تقوم عليها قصة حبّ محرّم في الظروف السائدة في دمشق. وهكذا فإن هذه الظروف وأسبابها السياسية هي متممات ضرورية لمصداقية الرواية دون أن تُسَيسِها برخص وابتذال. هي كالزورق والبحر في رواية ما عن صيادي السمك. أما بالنسبة للدعائم، فقد أخذت حريتي أحياناً في قلب المدن والقرى رأساً على عقب، فجعلت الشوارع أطول وأقصر وغيّرت أشكال البيوت والسجون وأنماطها كما احتاجت إليها الرواية رغم علمي الدقيق بهندسة سجون تدمر وعدرا وصيدنايا. إن الطغاة يثيرون اهتمامي كظاهرة عالمية، وإني أقدّم هنا النموذج العربي في ظروف روائية خيالية. كان من المستحيل تجنب أوجه التشابه مع بعض الطغاة الذي يعيشون في زمننا الراهن، لكنّهم يحظون بأهمية ثانوية. كان كل ما يهمّني هو أن أبيّن كيف يتدخل الطغاة في حياة الفرد ويتغلغلون في أبسط تصرفاته. وبما أنني لا أصف الواقع بل أروي قصّة خيالية، فقد سمحت لنفسي بأن أمدّد أو أقلّص من حياة الطغاة كما تقتضي الرواية.

فشلت عدّة تجارب بصوت رواة مختلفين. فقد وجدت نفسي أعظ وأقدم دروساً أخلاقية لأن حبكة الرواية أوقعتني في الانحياز إلى الضعفاء والمضطهدين. لقد استغرق بحثي عن الصوت الملائم عقداً كاملاً من

الزمن. كان الأمر غريباً جداً، فلم أجد صعوبة كهذه من قبل في مؤلفاتي السابقة.

كان الملف الأزرق الذي يضم الفصول التي كتبتها مع خطة الكتاب يقبع على رف الكتب أمامي. كنت أريد أن أراه صباح كلّ يوم كي لا أنسى مدى أهمية قصّة الحبّ بالنسبة لي. كنت أنظر فيه خلال سنوات عديدة كلما اشتقت لرنا وفريد اللذين أصبحا صديقي الحميمين.

قبل أن آتي إلى ألمانيا، لم أكن أعرف أنك عندما تُجبَر على العيش في المنفى فإنك تفكّر بمدينتك صباح كلّ يوم. فخلال أكثر من أربع وثلاثين سنة، كنت أفكّر بدمشق، أجمل مدينة في العالم، في اللحظة التي أفتح فيها عيني. ومنذ عام ١٩٨٧، صرت أفكّر أيضاً كلّ يوم بقصّة الحبّ التي حلمت بكتابتها.

بحثت عن سبل لحلّ مشاكلي، وأجريتُ أبحاثاً على التفاصيل الواردة في كلّ فصل. كانت عملية البحث هذه مثمرة للغاية بفضل المساعدة التي قدمها لي أشخاص عديدون، إلى حدّ أنه تكونت لديّ مكتبة صغيرة تكاد تكون مخصصة كليّة للرواية: حوالي مئتي كتاب وأرشيف كبير يضم نسخاً من نصوص قديمة وصور أشخاص وشوارع وبيوت وملابس وأماكن وخرائط ومخططات لمدينة دمشق ولسجون تدمر وعدرا والمزة وصيدنايا على مرّ السنين. وقد أطلقت على هذا الجزء من مكتبتي اسم «الحبّ المحرّم».

في عام ١٩٩١، عرضت موجزاً وعينتين من «*كتاب العزلة الأول*» المكتمل (*قسم الدير*: الفصل ١١٤، و «*الرحلة*»، *والفصل* ١٢١ «*جان دارك*») على الصندوق الأدبي الألماني فقدّم لي منحة للفترة من نيسان ١٩٩٢ حتى آذار ١٩٩٣. كنت ولا أزال أشعر بالامتنان لهذه المنحة. وقد أدخلتُ هذه العينات في الرواية ولم أجر عليها تعديلات كبيرة.

لكن نصوصاً كثيرة أخرى فشلت قبل أن أتمكن من التوصل إلى الشكل النهائي للرواية الذي حدّد أيضاً صوتها القصصي. وقد كلّفتني بعض هذه النصوص وقتاً فقط، بينما شكّلت نصوص أخرى تجارب مثيرة.

twitter @baghdad_library

في ١٤ آب ١٩٩٥ حلمتُ حلماً أثّر عليّ كثيراً. ومن أجل فهم هذا الحلم، يجب أن أوضح بأنني أمضيت ثلاثة فصول من فصول الصيف في دمشق وأنا أتعلّم فن الخط على يد أستاذ قدير في هذا الفن. كان صديقا لوالدي المرحوم، وكان لهذا الأستاذ أيضاً شغف بشيء آخر. فقد كان فناناً في الزخرفة بالفسيفساء وقد أبدع أعمالاً ضخمة للمساجد وللأثرياء العرب. فقد كان يجمع بقايا بلاطات زاهية الألوان من مصانع البلاط والرخام ويكسرها إلى أجزاء صغيرة جداً بأناة وصبر مدهشين، ثم يفرزها ويضعها في أوعية مختلفة حسب اللون والعروق والخطوط. كان لديه قرابة مئة وعاء تضم جميع ظلال الألوان.

عندما يبدأ بتصميم كلّ لوحة فسيفساء يرسم اللوحة بقلم رصاص على قطعة كبيرة أو صغيرة من الورق تساوي مساحة اللوحة النهائية، ثم يرسم الصورة التي صممها على صفحة الورق بقطع الفسيفساء. ومع كلّ قطعة، كان اللون والحياة يظهران في الشكل الذي يرسمه. لم يسمح لي بأن ألمس شيئاً، بل فقط بأن أنظر إليها. لم يكن يثبّت القطعة في مكانها باللاصق كما جرت العادة آنذاك، لأن ذلك سيثبّت شكل الفسيفساء قبل أن يتخذ قراره النهائي. عندما تكتمل الصورة، يحين وقت إدخال التصحيحات الصغيرة التي كان يعمل عليها طوال أسابيع وشهور. ولتفادي أيّ خطر بزحزحتها من مواضعها، كان يسجل رقماً تسلسلياً على ظهر كلّ قطعة. فالرقم واحد هو القطعة الأولى في أعلى التصميم إلى اليمين، ومنها ينطلق في ملء الصورة، قطعة تلو قطعة، وصفّاً إثر صفّ، حتى تُرصف القطعة الأخيرة في الزاوية اليسرى في الأسفل.

إن تركيب روايتي يشبه إلى حد كبير هذه العملية. في حلمي، كان أستاذي هو الذي ينظر وكنت أنا الفنان الذي يرصف قطع الفسيفساء.

«لكني لا أرى سوى كتابة على هذه القطع»، قال بشيء من الحيرة، «أين هي الألوان؟»

«كلّ قطعة من هذه القطع تروي قصّة، وعندما تقرأها تظهر لك ألوانها

السرية. وما إن تقرأ القصص كلها حتى ترى الصورة الكاملة لمجتمعنا»، أجبت بافتخار، واستيقظت بضحكة سعيدة.

إن الفسيفساء هي الشكل الملائم لقصّة كهذه، قلت لنفسي، قصّة فيها ألف قطعة فسيفساء وقطعة، تصف الحياة في بلاد العرب بكلّ جمالها وعيوبها. ومثل لوحة الفسيفساء، كلما ابتعد الشخص الذي ينظر إلى اللوحة عنها، بدت اللوحة أكثر سلاسة وانسجاماً. لكن حتى الخطوط الفاصلة بين أحجار الفسيفساء تقدم بصدق صورة عن مجتمعنا المليء بالإنكسارات والتشتت.

بدأت أرصف القصص، قطعة فقطعة، وعندما حكيت القصّة الأولى، اتضح فجأة الصوت السردي فيها. بعدها لم تعد هناك مشكلة في إكمال الرواية، بل أصبحت المسألة مسألة وقت فقط.

طوال هذه السنوات، تمكنت من نشر قصص منفصلة مأخوذة من محيط الكتاب، طالما أنها لم تكن تؤثر على عمل الرواية الرئيسي. «لون الكلمات» هو عنوان مجلد رسمت فيه الفنانة روت ليب رسوماً تصور مختارات من أعمالي بالألوان المائية. وكان من بين النصوص التي تضمنها الكتاب «الفصل ٩٦ - الكراجة»، و«الفصل ١٠٤ - نظارات الجدّ»، و«الفصل ١١٣، ملح الجدّ»، في «كتاب الضحك الأول».

في مرحلة المخاض الطويلة التي مرت بها هذه الرواية، حصلت على دعم من العديد من الأشخاص ممن ساعدوني بسبل شتى لإنجاز هذا العمل الضخم. فقد زوّدوني بمواد وتقارير وأشرطة تسجيل محظورة من داخل السجون، وهرّبوا كتباً ومقابلات إلى خارج سوريا، وتمكنوا من الحصول على سجلات من الأرشيف، وقدّموا لي معلومات مفصّلة عن الجيش والتاريخ والأديان واللغة، وكيف تعمل المخابرات، وطبّ الأمراض النفسية.

كنت وإياهم نتعرض إلى انتكاسات مؤسفة أحياناً. وتوضح حادثة واحدة هذه النكسات. ففي أوائل تسعينيات القرن العشرين، كلّفتُ صديقاً

twitter @baghdad_library

مخلصاً بالذهاب إلى أرشيفات إحدى المجلات العربية لينسخ لي صوراً من أعدادها الصادرة في خمسينات وستينيات القرن العشرين لأنني كنت بحاجة إلى صور دقيقة عن الحياة اليومية في تلك الفترة. في ذلك الوقت، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للقيام بمثل هذه الأبحاث لأن الإنترنت لم يكن، كما هو الحال الآن، مجدياً وفعالاً في مثل هذه الأمور.

دفعت مبالغ طائلة، وظللت أُمنِّي النفس بالوعود طوال أربع سنوات. لكن أخيراً، في أحد أيام شهر شباط الباردة من عام ١٩٩٦، ذهبت إلى مطار فرانكفورت لاستلام ثلاثة صناديق كرتون كبيرة - وعندما فتحتها اكتشفت أن المرسل حشر نفايات من آلة طباعة عديمة القيمة تماماً في الصناديق، حتى الورق المبقع بالزيت الذي كان يستعمل في تنظيف آلات الطباعة، لقد أُرسلت لي نفايات بدلاً من نسخ الأرشيف التي طلبتها. واليوم يمكنني أن أضحك على ذلك لأنني تمكنت من الحصول على سجلات الأرشيفات الكاملة الشاملة للمجلّة في نهاية الأمر بطرق ملتوية، لكني كنت، في تلك الليلة، على وشك الانفجار من شدة الغضب.

على الرغم من هذه النكسات، يمكنني القول الآن إنني كنت محظوظاً خلال حياتي لأنني التقيت بأشخاص كثيرين قدّموا لي دعماً لا يوصف. ولولا مساعدتهم لكان إنجاز هذه الرواية مستحيلاً. ولو شئت أن أذكرهم جميعاً، فإني أحتاج إلى ملحق طويل يضيع فيه الأفراد من كثرة الأسماء. لذلك سأحجم عن ذكر أسمائهم، لكنّي أحيّيهم بكلّ بامتنان للدعم الذي قدموه لي. وأتمنّى أنّ أكون قد استفدت إلى أقصى درجة من المعلومات التي زودوني بها.

ثمة شيء آخر: فالحدث الذي هزّني كثيراً في عام ١٩٦٢ وحفّزني على كتابة قصّتي لسنوات كثيرة تضاءل عندما بدأت الرواية تأخذ شكلها بوضوح. وفي هذا النص تحتلّ القصّة صفحة واحدة فقط، «الفصل ١٣ - هواجس» في «كتاب الحبّ الثاني».

وها أنا الآن أخطّ الجملة التي عملت من أجلها عقوداً طويلة.

هذا هو الحجر الأخير في فسيفساء روايتي. إنه يقبع في الزاوية اليسرى السفلية من التصميم، ورقمه ٣٠٤.

وهكذا، فإني سأذهب الآن لأحتسي فنجان قهوة احتفالاً بهذا اليوم. واعتباراً من الغد، فلن أفكّر إلا بدمشق عندما أستيقظ في الصباح.

رفيق شامي

twitter @baghdad_library

شجرة عائلة شاهين

سامية شوري
١٨٩٢-١٩٦٠

⚭

يوسف شاهين
١٨٧٢-١٩٣٨

ياسمين شاهين
١٩٢٠-١٩٥٠

مريم شاهين
• ١٩١٨
⚭
يعقوب خوري
١٩١٧-١٩٣٧

أميرة شاهين
• ١٩١٦
⚭
لويس صفران
• ١٩٠٥

صامويل
• ١٩٣٥

نيللي
١٩٣٥-١٩٦٨

بشرى
• ١٩٣٧

سارة
• ١٩٣٩

جانيت
١٩٤٠-١٩٦٩

تيريز
• ١٩٤٢

لوريس
• ١٩٤٤

موسى شاهين
١٩١٥-١٩٤١
⚭
ريحانة شكري
• ١٩١٨

منى شاهين
• ١٩٣٥

سعيد شاهين
• ١٩٣٦

باصيل شاهين
• ١٩١٤
⚭
وداد قلسي
• ١٩١٨

رنا شاهين
• ١٩٤٠

جاك شاهين
• ١٩٤٢

فارس شاهين
• ١٩١٣
⚭
سيدة بشارة
• ١٩١٨

سامي شاهين
• ١٩٣٣

برتا شاهين
• ١٩٣٥

كريم شاهين
• ١٩٣٨

وليد شاهين
١٩٤٠-١٩٦٠

سالم شاهين
• ١٩٤٢

بولص شاهين
• ١٩١٢
⚭
حنة كامل
• ١٩١٥

بطرس شاهين
١٩١١-١٩٥٢
⚭
سوزان مرقوسي
• ١٩١٦

يوسف شاهين
• ١٩٣٥

بولس شاهين
• ١٩٣٧

توفيق شاهين
• ١٩٣٨

بربارة شاهين
• ١٩٤٠

شجرة عائلة مشتاق

زرقا مشتاق
١٨٨٩-١٩٢٠

جورج مشتاق
١٨٧٩-١٩٤٧

شمس مشتاق
• ١٩١٧

إلياس مشتاق
• ١٩١٤
كلير سرور
• ١٩١٨

نسيبة بلوطا
• ١٩٠٧

فريد مشتاق
• ١٩٤٠

منى بلوطا
• ١٩٣٦

ملكة مشتاق
١٩١٠-١٩٦٧
عادل
١٩٠٥-١٩٥١

بربارة مشتاق
• ١٩٣٢

ليلى مشتاق
• ١٩٣٤

إيزابيل مشتاق
• ١٩٤٢

حسيب مشتاق
• ١٩٠٩
دوروثيا
• ١٩١٥

جورج مشتاق
• ١٩٣٦

فيليب مشتاق
• ١٩٤٢

جاك مشتاق
• ١٩٤٤

سلمان مشتاق
١٩٠٨-١٩٥٤
حنان
• ١٩١٠

ناصيف مشتاق
• ١٩٣٣

لطيف مشتاق
• ١٩٣٤

شادي مشتاق
• ١٩٣٥

فادي مشتاق
• ١٩٣٨

ابتهال مشتاق
• ١٩٤٠

سايا مشتاق
• ١٩٤٤

ناصر مشتاق
• ١٩٤٥

twitter @baghdad_library

هذا الكتاب

خلال فترة قصيرة جداً، تصدّرت الرواية قائمة المبيعات، وملأت صفحات النقد الأدبي وخُصِّصَت لها صفحات كاملة في كبريات الصحف والمجلات الألمانية. وظلّت الرواية تتصدّر قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في ألمانيا طوال ٣٥ أسبوعاً. وتُرجمت رغم ضخامتها، إلى أكثر من عشر لغات، منها الإنكليزية والإيطالية والهولندية والإسبانية والسلوفينية والتشيكية واليابانية والعبرية والنرويجية والفنلندية والسويدية واليونانية. وتصدّرت الرواية أيضاً قائمة المبيعات في إيطاليا وإسبانيا لمدة ستة أشهر. كما أشاد بها عدد كبير من النقّاد وأثنوا عليها في كبريات الصحف العالمية. لو تنبّأ أي صديق بهذه الحقيقة لأشفقت على شفقته عليَّ.

رفيق شامي

رسمة الغلاف: روت ليب

ISBN 978-9933351090

twitter @baghdad_library